

تفسير القرآن العظيم

للإمام الجليل الحافظ عماد الدين
أبي الفداء إسماعيل بن كثير البصري
المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

المجلد الثاني

[قوبلت هذه الطبعة على عدة نسخ خطية بدار الكتب المصرية]
وصححها نخبة من العلماء

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

﴿ تفسیر سورة المائدة ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا أبو معاوية شيبان عن ليث عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت إني لأخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نزلت عليه المائدة كلها وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة . وروى ابن مردويه من حديث صالح بن سهل عن عاصم الأحول قال حدثني أم عمرو عن عمها أنه كان في مسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت عليه سورة المائدة فاندق عنق الراحلة من ثقلها . وقال أحمد أيضاً حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثني حي بن عبيد الله عن أنى عبد الرحمن الحبلى عن عبيد الله بن عمرو قال أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها تفرد به أحمد . وقد روى الترمذى عن قتيبة عن عبد الله بن وهب عن حي عن أبي عبد الرحمن عن عمرو قال آخر سورة أنزلت سورة المائدة والفتح ثم قال الترمذى هذا حديث غريب حسن وقد روى عن ابن عباس أنه قال آخر سورة أنزلت (إذا جاء نصر الله والفتح) وقد روى الحاكم في مستدركه من طريق عبد الله بن وهب بإسناده بخرواية الترمذى ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقال الحاكم أيضاً حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا يحيى بن نصر قال قرأ على عبد الله بن وهب أخبرني معاوية بن صالح عن أبي الراهرية عن جبير بن نفير قال حججت فدخلت على عائشة فقالت لى يا جبير تقرأ المائدة ؟ فقلت نعم فقالت أما إنها آخر سورة نزلت فما وجدتم فيها من حلال فاستجاولوه وما وجدتم فيها من حرام فحرموه ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ورواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدي عن معاوية بن صالح وزاد وسألها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت القرآن . ورواه النسائي من حديث ابن مهدي

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ * أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرُ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعْبَرُ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَفُونَ فَضلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

قال ابن أبي حاتم حدثنا حدثنا نعيم بن حماد حدثنا عبد الله بن المبارك حدثنا مسعر حدثني معن وعوف أو أحدهما أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود فقال اعهد إلى فقال إذا سمعت الله يقول (يا أيها الذين آمنوا) فأرعاها سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه . وقال حدثنا علي بن الحسين حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم دحيم حدثنا الوليد حدثنا الأوزاعي عن الزهري قال إذا قال الله (يا أيها الذين آمنوا) افعلوا فالتبى ﷺ منهم وحدثنا أحمد بن سنان حدثنا محمد بن عبيد

حدثنا الأعمش عن خيشمة قال كل شيء في القرآن (يا أيها الذين آمنوا) فهو في التوراة يا أيها المساكين . فأما مارواه عن زيد بن إسحاق الصائغ البغدادي حدثنا معاوية يعني ابن هشام عن عيسى بن راشد عن علي بن بذيمة عن عكرمة عن ابن عباس قال ما في القرآن آية (يا أيها الذين آمنوا) إلا أن علياً سيدها وشريفها وأميرها وما من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحد إلا قد عوتب في القرآن إلا علي بن أبي طالب فإنه لم يعاتب في شيء منه . فهو أثر غريب ولفظه فيه نكارة وفي إسناده نظر . وقال البخاري عيسى بن راشد هذا مجهول وخبره منكر قلت وعلي بن بذيمة وإن كان ثقة إلا أنه شيعي غال وخبره في مثل هذا فيه تهمة فلا يقبل . وقوله فلم يبق أحد من الصحابة إلا عوتب في القرآن إلا علياً إنما يشير به إلى الآية الآمرة بالصدقة بين يدي النجوى فانه قد ذكر غير واحد أنه لم يعمل بها أحد إلا علي ونزل قوله (أأشفقكم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم) الآية وفي كون هذا عتاباً نظر فانه قد قيل إن الأمر كان ندباً لا إيجاباً ثم قد نسخ ذلك عنهم قبل الفعل فلم يصدر من أحد منهم خلافه . وقوله عن علي أنه لم يعاتب في شيء من القرآن فيه نظر أيضاً فإن الآية التي في الأنفال التي فيها المعاتبة على أخذ الفداء عمت جميع من أشار بأخذه ولم يسلم منها إلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فعلم بهذا وبما تقدم ضعف هذا الأثر والله أعلم . وقال ابن جرير حدثني المثنى حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا الليث حدثني يونس قال : قال محمد بن مسلم قرأت كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كتب لعمر بن حزم حين بعثه إلى نجران وكان الكتاب عند أبي بكر بن حزم فيه « هذا بيان من الله ورسوله (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) فكتب الآيات منها حتى بلغ (إن الله سريع الحساب) » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد حدثنا يونس بن بكير حدثنا محمد بن إسحق حدثنا عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه قال هذا كتاب رسول الله ﷺ عندنا الذي كتبه لعمر بن حزم حين بعثه إلى اليمن يفقه أهلها ويعلمهم السنة ، ويأخذ صدقاتهم فكتب له كتاباً وعهداً وأمره فيه بأمره فكتب « بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من الله ورسوله (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) عهد من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن حزم حين بعثه إلى اليمن أمره بنقوى الله في أمره كله فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » قوله تعالى (أوفوا بالعقود) قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد يعني بالعقود العهود وحكي ابن جرير الإجماع على ذلك قال والعهود ما كانوا يتعاقدون عليه من الحلف وغيره وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) يعني العهود يعني ما أحل الله وما حرم وما فرض وما حد في القرآن كله ولا تغدروا ولا تنكثوا ثم شدد في ذلك فقال تعالى (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) إلى قوله (سوء الدار) وقال الضحاك (أوفوا بالعقود) قال ما أحل الله وحرم وما أخذ الله من الميثاق على من أقر بالإيمان بالبي والكتاب أن يوفوا بما أخذ الله عليهم من الفرائض من الحلال والحرام . وقال زيد بن أسلم (أوفوا بالعقود) قال : هي ستة ، عهد الله ، وعقد الحلف ، وعقد الشراكة ، وعقد البيع ، وعقد النكاح ، وعقد اليمين ، وقال محمد بن كعب هي خمسة منها حلف الجاهلية وشركة المفاوضة . وقد استدلل بعض من ذهب إلى أنه لا خيار في مجلس البيع بهذه الآية (أوفوا بالعقود) قال فهذا يدل على لزوم العقد وثبوته ويتقضى نفي خيار المجلس وهذا مذهب أبي حنيفة ومالك وخالفهما في ذلك الشافعي وأحمد والجمهور : والحجة في ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا » وفي لفظ آخر للبخاري « إذا تباع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا » وهذا صريح في إثبات خيار المجلس المتعقب لعقد البيع وليس هذا منافياً للزوم العقد بل هو من مقتضياته شرعاً فالزامه من تمام الوفاء بالعقود

وقوله تعالى (أحلت لكم بهيمة الأنعام) هي الإبل والبقر والغنم قاله أبو الحسن وقتادة وغير واحد قال ابن جرير وكذلك هو عند العرب وقد استدلل ابن عمر وابن عباس وغير واحد بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وجد ميتاً في بطن أمه إذا ذبح وقد رد في ذلك حديث في السنن رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من طريق مجاهد عن أبي الوداك جبير بن نوفل عن أبي سعيد قال قلنا يا رسول الله ننحر الناقة ونذبح البقرة أو الشاة في بطنها الجنين ألقه أم نأكله فقال « كلوه إن شئتم

فان ذكاته ذكاة أمه » وقال الترمذى حديث حسن . قال أبو داود حدثنا محمد بن يحيى بن فارس حدثنا إسحق بن إبراهيم حدثنا عتاب بن بشير حدثنا عبيد الله بن أبي زياد القداح السكى عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ذكاة الجنين ذكاة أمه » تفرد به أبو داود وقوله (إلاما يتلى عليكم) قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس يعنى بذلك الميتة والدم ولحم الخنزير وقال قتادة يعنى بذلك الميتة ولم يذكر اسم الله عليه والظاهر والله أعلم أن المراد بذلك قوله (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع) فإن هذه وإن كانت من الأنعام إلا أنها تحرم بهذه العوارض ولهذا قال (إلاما ذكيتم وما ذبح على النصب) يعنى منها فانه حرام لا يمكن استدراكه وتلاحقه ولهذا قال تعالى (أحلت لكم بهيمة الأنعام إلاما يتلى عليكم) أى إلاما سيتلى عليكم من تحريم بعضها فى بعض الأحوال وقوله تعالى (غير محلى الصيد وأتم حرم) قال بعضهم هذا منصوب على الحال والمراد بالأنعام ما يعم الإنسى من الإبل والبقر والغنم وما يعم الوحشى كالظباء والبقر والحمر فاستثنى من الإنسى ما تقدم واستثنى من الوحشى الصيد فى حال الإحرام وقيل المراد أحلنا لكم الأنعام إلاما استثنى منها لمن النزم تحريم الصيد وهو حرام لقوله (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم) أى أبجنا تناول الميتة للمضطر بشرط أن يكون غير باغ ولا متعد وهكذا هنا أى كما أحلنا الأنعام فى جميع الأحوال فحرموا الصيد فى حال الإحرام فان الله قد حكم بهذا وهو الحكم فى جميع ما أمر به ونهى عنه ولهذا قال الله تعالى (إن الله يحكم ما يريد) ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا شعائر الله) قال ابن عباس يعنى بذلك مناسك الحج وقال مجاهد الصفا والمروة ، والهدى والبدن من شعائر الله وقيل شعائر الله محارمه أى لا تأكلوا محارم الله التى حرمها تعالى ولهذا قال تعالى (ولا الشهر الحرام) يعنى بذلك تحريمه والاعتراف بتعظيمه وترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه من الابتداء بالقتال وتأكيد اجتناب المحارم كما قال تعالى (يستلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل فيه كبير) وقال تعالى (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا) الآية وفى صحيح البخارى عن أبي بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى حجة الوداع « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم . ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » وهذا يدل على استمرار تحريمها إلى آخر وقت كما هو مذهب طائفة من السلف . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (ولا الشهر الحرام) يعنى لا تستحلوا القتال فيه ، وكذا قال مقاتل بن حيان وعبد الكريم بن مالك الجزرى واختاره ابن جرير أيضاً وذهب الجمهور إلى أن ذلك منسوخ وأنه يحوز ابتداء القتال فى الأشهر الحرم واحتجوا بقوله تعالى (فإذا انسלخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) والمراد أشهر التسيير الأربعة فالوا فلم يستثن شهر حراما من غيره ، وقد حكى الإمام أبو جعفر الإجماع على أن الله قد أحل قتال أهل الشرك فى الأشهر الحرم وغيرها من شهور السنة قال وكذلك أجمعوا على أن الشرك لو قلد عنقه أو ذراعيه بلحاء جميع أشجار الحرم لم يكن ذلك له أمانا من القتل إذالم يكن تقدم له عقد ذمة من المسلمين أو أمان ولهذا المسئلة بحث آخر له موضع أبسط من هذا وقوله تعالى (ولا الهدى ولا القلايد) يعنى لا تركوا الإهداء إلى البيت الحرام فإن فيه تعظيم شعائر الله ولا تركوا تقليدها فى أعناقها لتمييزه عما عداها من الأنعام ولعلم أنها هدى إلى الكعبة فيجتنبها من يريد بها بسوء وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها فإن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شىء ولهذا لما حج رسول الله صلى الله عليه وسلم بات بنى الحليفة وهو وادى العقيق فلما أصبح طاف على نسائه وكنن تسعا ثم اغتسل وتطيب وصلى ركعتين ثم أشعره هديه وقلده وأهل للحج والعمرة وكان هديه إبلا كثيرة تنيف على الستين من أحسن الأشكال والألوان كما قال تعالى (ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) وقال بعض السلف إعظامها استحسانها واستسماها ، قال على بن أبى طالب أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستشف العين والأذن رواء أهل السنن وقال مقاتل بن حيان قوله (ولا القلايد) فلا تستحلوها وكان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم فى غير الأشهر الحرم قلدوا أنفسهم بالشعر والوبر وتقلد مشركو الحرم من لحاء شجرة فيأمنون به رواء ابن أبى حاتم ثم قال حدثنا محمد بن عمار حدثنا سعيد بن سليمان قال حدثنا عباد بن العوام عن سفيان بن حسين عن

الحكم عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال نسخ من هذه السورة آيات الفلائد وقوله (فان جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) وحدثننا المنذر بن شاذان حدثنا زكريا بن عدى حدثنا محمد بن أبي عدى عن ابن عوف قال قلت للحسن : نسخ من المائدة شيء ؟ قال لا ، وقال عطاء كانوا يتقلدون من شجر الحرم فيأمنون فنهى الله عن قطع شجره وكذا قال مطرف بن عبد الله

وقوله تعالى (ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضواناً) أى ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام الذى من دخله كان آمناً وكذا من قصده طالبا فضل الله وراغباً فى رضوانه فلا تصدوه ولا تمنعوه ولا تهيجوه قال مجاهد وعطاء وأبو العالية ومطرف بن عبد الله وعبد الله بن عبيد بن عمير والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وقادة وغير واحد فى قوله (يبتغون فضلا من ربهم) يعنى بذلك التجارة وهذا كما تقدم فى قوله (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) وقوله (ورضواناً) قال ابن عباس يترضون الله بحجهم وقد ذكر عكرمة والسدى وابن جرير أن هذه الآية نزلت فى الحطيم بن هند البكرى كان قد أغار على سرح المدينة فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا فى طريقه إلى البيت فأنزل الله عز وجل (ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضواناً) وقد حكى ابن جرير الإجماع على أن المشرك يجوز قتله إذا لم يكن له أمان وإن أم البيت الحرام أو بيت المقدس وأن هذا الحكم منسوخ فى حقهم والله أعلم . فأما من قصده بالإلحاد فيه والشرك عنده والكفر به فهذا يمنع قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إياها المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) ولهذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عام تسع لما أمر الصديق على الحجيج عليا وأمره أن ينادى على سبيل النياحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم براءة وأن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس قوله (ولا آمين البيت الحرام) يعنى من توجه قبل البيت الحرام فكان المؤمنون والمشركون يحجون فنهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحدا من مؤمن أو كافر ثم أنزل الله بعدها (إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) الآية وقال تعالى (ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله) وقال (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) فنهى المشركين من المسجد الحرام وقال عبد الرزاق حدثنا معمر عن فائدة فى قوله (ولا الفلائد ولا آمين البيت الحرام) قال منسوخ كان الرجل فى الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج تقلد من الشجر فلم يعرض له أحد فإذا رجع تقلد قلادة من شعر فلم يعرض له أحد وكان المشرك يومئذ لا يصد عن البيت فأمرُوا أن لا يقاتلوا فى الشهر الحرام ولا عند البيت فنسخها قوله (فاقنوا المشركين حيث وجدتموهم) وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله (ولا الفلائد) يعنى إن تقلدوا قلادة من الحرم فأمنوهم فال ولم ترل العرب تعير من أخفر ذلك قال الشاعر

ألم تقتلا الحرجين إذ أعورا لكم * يمران بالأيدى اللحاء المضفرا (١)

وقوله تعالى (وإذا حللتم فاصطادوا) أى إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتم منه فقد أبجنا لكم ما كان محرماً عليكم فى حال الإحرام من الصيد وهذا أمر بعد الحظر والصحيح الذى يثبت على السبب أنه يرد الحكم إلى ما كان عليه قبل النهى فان كان واجباً رده واجباً وإن كان مستحباً فمستحب أو مباحاً فمباح ومن قال إنه على الوجوب ينتقض عليه بآيات كثيرة ومن قال إنه للإباحة يرد عليه آيات أخرى والذى ينتظم الأدلة كلها هذا الذى ذكرناه كما اختاره بعض علماء الأصول والله أعلم . وقوله (ولا يجزى منكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا) من القراء من قرأ أن صدوكم بفتح الألف من أن ومعناها ظاهر أى لا يحملنكم بعض قوم قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام وذلك عام الحديبية على أن تعتدوا حكم الله فيهم فقتلوا منهم ظمأ وعدواناً بل أجكوا بما أمركم الله به من العدل فى حق كل أحد وهذه الآية كما سأتى من قوله (ولا يجزى منكم شأن قوم على أن لا تعدلوا اعدوا هو أقرب للسقوى) أى لا يحملنكم بعض قوم على ترك العدل فان العدل الواجب على كل أحد فى كل حال وقال بعض السلف

(١) فى الأميرة أعوزا وهو غلط . فهو بالراء ومعناه مكنا كما من عوراتهما

ماعاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه . والعدل به قامت السموات والأرض . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا سهل بن عفان حدثنا عبد الله بن جعفر عن زيد بن أسلم قال كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صدهم المشركون عن البيت وقد اشتد ذلك عليهم فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة فقال أصحاب النبي ﷺ نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم فأنزل الله هذه الآية والشنآن هو البغض قاله ابن عباس وغيره وهو مصدر من شنأته أشنؤه شنأنا بالتحريك مثل قولهم حمزان ودرجان ورفلان من حمزودرج ورفل وقال ابن جرير : من العرب من يسقط التحريك في شنآن فيقول شنان ولم أعلم أحدا قرأ بها . ومنه قول الشاعر

وما العيش إلا ما تحب وتشهى * وإن لام فيه ذو الشان وفندا

وقوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات وهو البر ، وترك المنكرات وهو التقوى ، وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على الإثم والحرام قال ابن جرير الإثم ترك ما أمر الله بفعله والعدوان مجاوزة ما حذر الله في دينكم ومجاوزة ما فرض الله عليكم في أنفسكم وفي غيركم ، وقد قال الإمام أحمد : حدثنا هشيم حدثنا عبيد الله بن أبي بكر بن أنس عن جده أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » قيل يا رسول الله هذا نصرته مظلوما فكيف أنصره إذا كان ظالما قال « تحجزه وتمنعه من الظلم فذاك نصره » انفرد به البخاري من حديث هشيم به نحوه ، وأخرجاه من طريق ثابت عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » قيل يا رسول الله هذا نصرت مظلوما فكيف أنصره ظالما قال « تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه » وقال أحمد . حدثنا يزيد حدثنا سفيان بن سعيد عن الأعمش عن يحيى بن وثاب عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال « المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أحرا من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم » وقد رواه أحمد أيضا في مسند عبد الله بن عمر حدثنا حجاج حدثنا شعبة عن الأعمش عن يحيى بن وثاب عن شيخ من أصحاب النبي ﷺ أنه قال « المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم » وهكذا رواه الترمذي من حديث شعبة وابن ماجه من طريق إسحق بن يوسف كلاهما عن الأعمش به وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن محمد أبو شيبة الكوفي حدثنا بكر بن عبد الرحمن حدثنا عيسى بن المختار عن ابن أبي ليلى عن فضيل ابن عمرو عن أبي وائل عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدال على الخير كفاعله » ثم قال لانعله يروى إلا بهذا الإسناد قلت وله شاهد في الصحيح « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » وقال أبو القاسم الطبراني حدثنا عمرو بن إسحق بن إبراهيم بن زريق الحمصي حدثنا أبي حدثنا عمرو بن الحارث عن عبد الله بن سالم عن الزبيدي قال عباس بن يونس إن أبا الحسن ثمران (١) بن صخر حدثه أن رسول الله ﷺ قال « من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام »

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَنَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

يخبر تعالى عباده خيرا متضمنا للنهي عن تعاطي هذه المحرمات من الميتة وهي مامات من الحيوانان حنف أنفه من غير ذكاة ولا اصطياد وما ذاك إلا لما فيها من الضرر لما فيها من الدم المحقن فهي ضارة للدين وللبدن فلهذا حرمها الله

(١) كذا بالأصول ، والصواب ثمران بالنون . وفي نسخة الأزهر ثمران بن مخر .

عز وجل ، ويستثنى من الميتة السمك فإنه حلال سواء مات بتذكية أو غيرها لما رواه مالك في موطنه والشافعي وأحمد في مسنديهما وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه في سننهم وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ماء البحر فقال « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » وهكذا الجراد لما سيأتي من الحديث وقوله (والدم) يعنى به المسفوح كقوله (أو دمًا مسفوحاً) قاله ابن عباس وسعيد بن جبير قال ابن أبي حاتم حدثنا كثير بن شهاب المذحجي حدثنا محمد بن سعيد بن سابق حدثنا عمرو يعني ابن قيس عن سالم عن عكرمة عن ابن عباس أنه سئل عن الطحال فقال كلوه فقالوا إنه دم فقال إنما حرم عليكم الدم المسفوح . وكذا رواه حماد بن سلمة عن يحيى بن سعيد عن القاسم عن عائشة قالت إنما نهى عن الدم السافح وقد قال أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر مرفوعاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أحل لنا ميتتان ودمان فأما الميتتان فالسمك والجراد وأما الدمان فالكبد والطحال » وكذا رواه أحمد بن حنبل وابن ماجه والدارقطني والبيهقي من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف قال الحافظ البيهقي ورواه إسماعيل بن أبي إدريس عن أسامة وعبد الله وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن ابن عمر مرفوعاً قلت وثلاثهم كلهم ضعفاء ولكن بعضهم أصلح من بعض ، وقد رواه سليمان بن بلال أحد الأثبات عن زيد بن أسلم عن ابن عمر فوقفه بعضهم عليه قال الحافظ أبو زرعة الرازي وهو أصح وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسن حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب حدثنا بشير بن شريح عن أبي غالب عن أبي أمية وهو صدق بن عجلان قال بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومي أَدْعُوهم إلى الله ورسوله وأعرض عليهم شرائع الإسلام فأُتيتهم فبينما نحن كذلك إذ جاءوا بقصعة من دم فاجتمعوا عليها يأكلونها فقالوا هلم يا صدى فكل قال قلت ويحكم إنما أُتيتكم من عند من يحرم هذا عليكم فأقبلوا عليه قالوا وما ذاك فتلوت عليهم هذه الآية (حرمت عليكم الميتة والدم) الآية ورواه الحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث ابن أبي الشوارب بإسناده مثله وزاد بعده هذا السياق قال فجعلت أَدْعُوهم إلى الإسلام وبأبواب على فقلت ويحكم استقوتى شربة من ماء فإني شديد العطش قال وعلى عباة فقالوا لا ولكن ندعك حتى تموت عطشا قال فاغتممت وضربت برأسي في العباء ونمت على الرمضاء في حر شديد قال فأتاني آت في منامى بقدح من زجاج لم ير الناس أحسن منه وفيه شراب لم ير الناس أله منه فأمكنني منه فشربته فلما فرغت من شرابي استيقظت فلا والله ما عطشت ولا عريت بعد تلك الشربة ، وزواه الحاكم في مستدركه عن علي بن حماد عن عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثني عبد الله بن سلمة بن عياش العامري حدثنا صدقة بن هرم عن أبي غالب عن أبي أمية وذكر نحوه وزاد بعد قوله بعد تلك الشربة فسمعتهم يقولون أتاكم رجل من سراة قومكم فلم تجمعوه بمذقة ، فأتوني بمذقة فقلت لا حاجة لي فيها إن الله أطعمني وسقاني وأريتهم بطني فأسلموا عن آخرهم وما أحسن ما أنشد الأعشى في قصيدته التي ذكرها ابن إسحق .

وإياك والميتات لا تقربنها * ولا تأخذن عظماً حديداً فتفصدأ

أى لا تفعل فعل الجاهلية وذلك أن أحدهم كان إذا جاع يأخذ شيئاً محمداً من عظم ونحوه فيفصد به بغيره أو حيواناً من أى صنف كان فيجمع ما يخرج منه من الدم فيشربه ولهذا حرم الله الدم على هذه الأمة ثم قال الأعشى
وذا النصب المنسوب لا تأتينه * ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا

قوله (ولحم الخنزير) يعنى إنسيه ووحشيه واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم ولا يحتاج إلى تحذلق الظاهرية في جمودهم ههنا وتعسفهم في الاحتجاج بقوله (فإنه رجس أوفسقا) يعنون قوله تعالى (إلا أن يكون ميتة أودمًا مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس) أعادوا الضمير فيما فهموه على الخنزير حتى يعم جميع الأجزاء كما هو المفهوم من لغة العرب ومن الضمير إلا إلى المضاف دون المضاف اليه والأظهر أن اللحم يعم جميع الأجزاء كما هو المفهوم من لغة العرب ومن العرف المطرد وفي صحيح مسلم عن بريدة بن الحصيب الأسلمي رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لعب بالزردشير فكأنما صبغ يده في لحم الخنزير ودمه » فإذا كان هذا التنفير لجراد اللحم فكيف يكون التهديد والوعيد

الأكيد على أكله والتغذى به وفيه دلالة على شمول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم وغيره . وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله حرم بيع الحمر والميتة والخنزير والأصنام » فقيل يارسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنها تطلى بها السفن وتدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس فقال « لا، هو حرام » وفي صحيح البخاري من حديث أبي سفيان أنه قال لهرقل ملك الروم نهانا عن الميتة والدم . وقوله (وما أهل لغير الله به) أى ما دبح فذكر عليه اسم غير الله فهو حرام لأن الله تعالى أوجب أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم فمضى عدل بها عن ذلك وذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك من سائر المخلوقات فإنها حرام بالإجماع . وإنما اختلف العلماء في متروك التسمية إما عمداً أو نسياناً كما سيأتى تقريره في سورة الأنعام وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسن السنجاني حدثنا نعم بن حماد حدثنا ابن فضيل عن الوليد بن جميع عن أبي الطفيل قال نزل آدم بتحريم أربع الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به وإن هذه الأربعة الأشياء لم تحل قط ولم تنزل حراماً منذ خلق الله السموات والأرض فلما كانت بنو إسرائيل حرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بذنوبهم فلما بعث الله عيسى بن مريم عليه السلام نزل بالأمر الأول الذى جاء به آدم وأحل لهم ماسوى ذلك فكذبوه وعصوه وهذا أثر غريب وقال ابن أبي حاتم أيضاً حدثنا أبي حدثنا أحمد بن يونس حدثنا ربعة عن عبد الله قال سمعت الجارود بن أبي سبرة قال هو جدى قال كان رجل من بنى رباح يقال له ابن وائل وكان شاعراً نافر غالباً أبا الفرزدق بماء بظهر الكوفة على أن يعقر هذا مائة من إبله وهذا مائة من إبله إذا وردت الماء فلما وردت الماء قاما إليها بسيفيهما فجعلا يكشفاً عراقيها قال فخرج الناس على الحمرات والبغال يريدون اللحم ، قال وعلى بالكوفة قال فخرج على على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء وهو ينادى : يا أيها الناس لاتأكلوا من لحومها فإنها أهل بها لغير الله هذا أثر غريب ويشهد له بالصححة ما رواه أبو داود حدثنا هرون بن عبد الله حدثنا ابن حماد ابن مسعدة عن عوف عن أبي ربحانة عن ابن عباس قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معاقرة الأعراب ، ثم قال أبو داود محمد بن جعفر هو غندر أوقفه على ابن عباس تفرد به أبو داود وقال أبو داود أيضاً حدثنا هرون بن زيد ابن أبي الزرقاء حدثنا أبي حدثنا جرير بن حازم عن الزبير بن حريث قال سمعت عكرمة يقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن طعام التباريين أن يؤكل ، ثم قال أبو داود أكثر من رواه غير ابن جرير لا يذكر فيه ابن عباس تفرد به أيضاً . قوله (والمنخنقة) وهى التى تموت بالحقق إما قصداً وإما اتفاقاً بأن تتخبل فى وثاقها فتموت به فهى حرام وأما الموقودة فهى التى تضرب بشيء ثقيل غير محمد حتى تموت كما قال ابن عباس وغير واحد هى التى تضرب بالحشبة حتى يوقدها فتموت قال قتادة كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصى حتى إذا ماتت أكلوها . وفي الصحيح أن عدى بن حاتم قال قلت يارسول الله إني أرمى بالمعراض الصيد فأصيب قال « إذا رميت بالمعراض فخرق فكله وإن أصاب بعرضه فإنما هو وقيد فلا تأكله » ففرق بين ما أصابه بالسهم أو بالزراق ونحوه بجده فأحله وما أصاب بعرضه فجعله وقيداً لم يحله وهذا مجمع عليه عند الفقهاء واختلفوا فيما إذا صدم الجارحة الصيد فقتله بثقله ولم يجرحه على قولين هما قولان للشافعى رحمه الله (أحدهما) لا يحل كما فى السهم والجامع أن كلا منهما ميت بغير جرح فهو وقيد (والثانى) أنه يحل لأنه حكم بإباحة ما صاده الكلب ولم يستفصل فدل على إباحة ما ذكرناه لأنه قد دخل فى العموم وقد فررت لهذه المسئلة فصلاً فليكتب ههنا .

﴿ فصل ﴾ اختلف العلماء رحمهم الله تعالى فيما إذا أرسل كلباً على صيد فقتله بثقله ولم يجرحه أو صدمه هل يحل أم لا ؟ على قولين (أحدهما) أن ذلك حلال للعموم قوله تعالى (فكاوا بما أمسكن عليكم) وكذا عمومات حديث عدى بن حاتم وهذا قول حكاه الأصحاب عن الشافعى رحمه الله وصححه بعض المتأخرين منهم كالووى والرافعى (قلت) وليس ذلك بطاهر من كلام الشافعى فى الأم والمختصر فإنه قال فى كلا الموضعين يحتمل معنيين ثم وجه كلاهما فحمل ذلك الأصحاب منه فأطلقوا فى المسئلة قولين عنه اللهم إلا أنه فى بحثه للقول بالحل رشحه قليلاً ولم يصرح بواحد منهما ولا جزم به والقول بذلك أعنى الحل نقله ابن الصباغ عن أبي حنيفة من رواية الحسن بن زياد عنه ولم يذكر غير ذلك . وأما أبو جعفر بن جرير فحكاه فى تفسيره

عن سلمان الفارسي وأبي هريرة وسعد بن أبي وقاص وابن عمر وهذا غريب جداً وليس يوجد ذلك مصرحاً به عنهم إلا أنه من تصرفه رحمه الله ورضي عنه (والقول الثاني) أن ذلك لا يحل وهو أحد القولين عن الشافعي رحمه الله واختاره المزني ويظهر من كلام ابن الصباغ ترجيحه أيضاً والله أعلم ورواه أبو يوسف ومحمد عن أبي حنيفة وهو المشهور عن الإمام أحمد ابن حنبل رضي الله عنه وهذا القول أشبه بالصواب والله أعلم لأنه أجرى عن القواعد الأصولية ، وأمس بالأصول الشرعية واحتج ابن الصباغ بحديث رافع بن خديج قلت يا رسول الله إنا لا قوالعدو غداً وليس معنى مدى أفندج بالقبص ؟ قال « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه » الحديث بتمامه وهو في الصحيحين . وهذا وإن كان وارداً على سبب خاص فالعبرة بعموم اللفظ عند جمهور من العلماء في الأصول والفروع كما سئل عليه السلام عن البتع وهو نبيذ العسل فقال: « كل شراب أسكر فهو حرام » أفقول فقيه إن هذا اللفظ مخصوص بشراب العسل وهكذا هذا كما سألوه عن شيء من اللهكة فقال لهم كلاماً عاماً يشغل ذاك المسؤول عنه وغيره لأنه عليه السلام كان قد أوتي جوامع الكلم ، إذا تقرر هذا فما صدمه الكلب أو غمه بثقله ليس مما أنهر دمه فلا يحل لمفهوم هذا الحديث فإن قيل هذا الحديث ليس من هذا القبيل بشيء لأنهم إنما سألوه عن الآلة التي يذكي بها ولم يسألوه عن الشيء الذي يذكي ولهذا استثنى من ذلك السن والظفر حيث قال « ليس السن والظفر وسأحدثكم عن ذلك أما السن فعظم وأما الظفر فمهدى الحبشة » والمستثنى يدل على جنس المستثنى منه وإلا لم يكن متصلاً فدل على أن المسؤول عنه هو الآلة فلا يبقى فيه دلالة لما ذكرتم فالجواب عن هذا بأن في الكلام ما يشكل عليكم أيضاً حيث يقول « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه » ولم يقل فاذبحوا به فهذا يؤخذ منه الحسبان معاً يؤخذ حكم الآلة التي يذكي بها وحكم المذكي وأنه لا بد من إنهار دمه بآلة ليست سناً ولا ظفراً هذا مسلك

والمسلك الثاني طريقة المزني وهي أن السهم جاء التصريح فيه بأنه إن قتل بعرضه فلا تأكل وإن خزق فكل والكلب جاء مطلقاً فيحمل على ما قيد هناك من الخزق لأنهما اشتراكاً في الموجب وهو الصيد فيجب الحمل هنا وإن اختلف السبب كما وجب حمل مطلق الاعتاق في الظهار على تقييده بالإيمان في القتل بل هذا أولى وهذا يتوجه له على من يسلم له أصل هذه القاعدة من حيث هي وليس فيها خلاف بين الأصحاب قاطبة فلا بد لهم من جواب عن هذا وله أن يقول هذا قتله الكلب بثقله فلم يحل قياساً على ما قتله السهم بعرضه والجامع أن كلا منهما آلة للصيد وقد مات بثقله فيهما ولا يعارض ذلك بعموم الآية لأن القياس مقدم على العموم كما هو مذهب الأئمة الأربعة والجمهور وهذا مسلك حسن أيضاً (مسلك آخر) وهو أن قوله تعالى (فكلوا مما أمسكن عليكم) عام فيما قتلن بجرح أو غيره لكن هذا المقتول على هذه الصورة المتنازع فيها لا يخلو إما أن يكون نطيحاً أو في حكمه أو منخنقاً أو في حكمه وأياً ما كان فيجب تقديم هذه الآية على تلك لوجوه (أحدها) أن الشارع قد اعتبر حكم هذه الآية حالة الصيد حيث يقول لعدي بن حاتم : وإن أصابه بعرضه فإنما هو وقيد فلا تأكله ، ولم نعلم أحداً من العلماء فصل بين حكم وحكم من هذه الآية فقال إن الوقيد معتبر حالة الصيد والنطيح ليس معتبراً فيكون القول بحل المتنازع فيه خرقاً للإجماع لا قائل به وهو محذور عند كثير من العلماء (الثاني) أن تلك الآية (فكلوا مما أمسكن عليكم) ليست على عمومها بالإجماع بل مخصوصة بماصدن من الحيوان المأكول وخرج من عموم لفظها الحيوان غير المأكول بالاتفاق والعموم المحفوظ مقدم على غير المحفوظ (المسلك الآخر) أن هذا الصيد والحالة هذه في حكم الميتة سواء لأنه قد احتقن فيه الدماء وما يتبعها من الرطوبات فلا تحل قياساً على الميتة (المسلك الآخر) أن آية التحريم أعى قوله حرمت عليكم الميتة إلى آخرها محكمة لم يدخلها نسخ ولا تخصيص وكذا ينبغي أن تكون آية التحليل محكمة أعنى قوله تعالى (يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات) الآية فينبغي أن لا يكون بينهما تعارض أصلاً وتكون السنة جاءت لبيان ذلك وشاهد ذلك قصة السهم فإنه ذكر حكم ما دخل في هذه الآية وهو ما إذا خزقه المعراض فيكون حلالاً لأنه من الطيبات وما دخل في حكم تلك الآية آية التحريم وهو ما إذا أصابه بعرض فلا يؤكل لأنه وقيد فيكون أحد أفراد آية التحريم ، وهكذا يجب أن يكون حكم هذا سواء إن كان قد جرحه الكلب فهو داخل في حكم آية التحليل وإن لم يجرحه بل صدمه أو قتله بثقله فهو نطيح أوفى حكمه

فلا يكون حلالاً . (فان قيل) فلم لا فصل في حكم الكلب فقال ما ذكرتم إن جرحه فهو حلال وإن لم يجرحه فهو حرام (فالجواب) أن ذلك نادر لأن من شأن الكلب أن يقتل بظفره أو نابيه أو بهما معا وأما اصطدامه هو والصيد فنادر وكذا قتله إياه بقله فلم يحتج إلى الاحتراز من ذلك لندوره أو لظهور حكمه عند من علم تحريم الميتة والمنخنقة والموقوذة والمتردة والنطيحة . وأما السهم والعراض فتارة يخطيء لسوء رمي راميه أو للهو أو لنحو ذلك بل خطؤه أكثر من إصابته فلهاذا ذكر كلا من حكميه مفصلاً والله أعلم . ولهذا لما كان الكلب من شأنه أنه قديماً كل من الصيد ذكر حكم ما إذا أكل من الصيد فقال : « إن أكل فلا تأكل فاني أخاف أن يكون أمسك على نفسه » وهذا صحيح ثابت في الصحيحين وهو أيضاً مخصوص من عموم آية التحليل عند كثيرين فقالوا لا يحل ما أكل منه الكلب حكى ذلك عن أبي هريرة وابن عباس وبه قال الحسن والشعبي والنخعي وإليه ذهب أبو حنيفة وصاحباؤه وأحمد بن حنبل والشافعي في المشهور عنه وروى ابن جرير في تفسيره عن علي وسعيد وسلمان وأبي هريرة وابن عمر وابن عباس أن الصيد يؤكل وإن أكل منه الكلب حتى قال سعيد وسلمان وأبو هريرة وغيرهم يؤكل ولو لم يبق منه إلا بضعة وإلى ذلك ذهب مالك والشافعي في قوله القديم وأوماً في الجديد إلى قولين قال ذلك الإمام أبو نصر بن الصباغ وغيره من الأصحاب عنه وقد روى أبو داود بإسناد جيد قوى عن أبي ثعلبة الحشني عن رسول الله ﷺ أنه قال في صيد الكلب « إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل وإن أكل منه وكل ما ردت عليك يدك » ورواه أيضاً النسائي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن أعرابياً يقال له أبو ثعلبة قال يا رسول الله فذكره نحوه وقال محمد بن جرير في تفسيره حدثنا عمران بن بكار الكلاعي حدثنا عبد العزيز بن موسى هو اللاحوني حدثنا محمد بن دينار هو الطاحي عن أبي إياس وهو معاوية ابن قرة عن سعيد بن المسيب عن سلمان الفارسي عن رسول الله ﷺ قال « إذا أرسل الرجل كلبه على الصيد فأدركه وقد أكل منه قليلاً ما بقي » ثم إن ابن جرير علقه بأنه قد رواه قتادة وغيره عن سعيد بن المسيب عن سلمان موقوفاً . وأما الجمهور فقد مروا حديث عدى على ذلك وراموا تضعيف حديث أبي ثعلبة وغيره وقد حملة بعض العلماء على أنه إن أكل بعد ما انظر صاحبه فطال عليه الفصل ولم يجىء فأكل منه لجوعه ونحوه فانه لا بأس بذلك لأنه والحالة هذه لا يخشى أنه إنما أمسك على نفسه بخلاف ما إذا أكل منه أول وهلة فانه يظهر منه أنه أمسك على نفسه والله أعلم . فأما الجوارح من الطيور فنص الشافعي على أنها كالكلب فيحرم ما أكلت منه عند الجمهور ولا يحرم عند الآخرين واختار المزن من أصحابنا أنه لا يحرم أكل ما أكلت منه الطيور والجوارح وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد قالوا لأنه لا يمكن تعليمها كما يعلم الكلب بالضرب ونحوه وأيضاً فانه لا تعلم إلا بأكلها من الصيد فيعفى عن ذلك وأيضاً فالنص إنما ورد في الكلب لا في الطير وقال الشيخ أبو علي في الإفصاح إذا قلنا يحرم ما أكل منه الكلب ففي تحريم ما أكل منه الطير وجهان وأنكر القاضي أبو الطيب هذا التفريع والترتيب لنص الشافعي رحمه الله على التسوية بينهما والله سبحانه وتعالى أعلم . وأما المتردة فهي التي تقع من شاق أو موضع عال فتتموت بذلك فلا تحل قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : المتردة التي تسقط من جبل وقال قتادة هي التي تتردى في بئر وقال السدي هي التي تقع من جبل أو تتردى في بئر . وأما النطيحة فهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها فهي حرام وإن جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحتها والنطيحة فعيلة بمعنى مفعولة أي منطوحة وأكثر ما ترد هذه البنية في كلام العرب بدون تاء التأنيث فيقولون عين كحيل وكف خضيب ولا يقولون كف خضيبة ولا عين كحيلة وأما هذه فقال بعض النحاة إنما استعمل فيها تاء التأنيث لأنها أجريت مجرى الأسماء كما في قولهم طريقة طويلة وقال بعضهم إنما آتى بتاء التأنيث فيها لندل على التأنيث من أول وهلة بخلاف عين كحيل وكف خضيب لأن التأنيث مستفاد من أول الكلام . وقوله تعالى (وما أكل السبع) أي ما عدا عليها أسد أو فهد أو نمر أو ذئب أو كلب فأكل بعضها ماتت بذلك فهي حرام وإن كان قد سال منها الدم ولو من مذبحتها فلا تحل بالإجماع وقد كان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضل السبع من الشاة أو البعير أو البقرة أو نحو ذلك فحرم الله ذلك على المؤمنين وقوله (إلا ما ذكركم) عائد على ما يمكن عوده عليه مما انعقد سبب موته فأمكن تداركه بذكاة وفيه حياة مستقرة وذلك إنما يعود على قوله (والمنخنقة والموقوذة والمتردة

والنطيحة وما أكل السبع) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (إلا ما ذكيتم) يقول إلا ما ذبحتم من هؤلاء وفيه روح فكلوه فهو ذكي وكذا روى عن سعيد بن جبير والحسن البصري والسدي وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا حفص بن غياث حدثنا جعفر بن محمد عن أبيه عن علي في الآية قال إن مصعت بذنبها أو ركضت برجلها أو طرفت بعينها فكل . وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا هشيم وعباد قال حدثنا حجاج عن حصين عن الشعبي عن الحارث عن علي قال إذا أدركت ذكاة الموقوذة والمتردية والنطيحة وهي تحرك يداً أو رجلاً فكلها وهكذا روى عن طاوس والحسن وقناة وعبيد بن عمير والضحاك وغير واحد أن الذكاة متى تحركت بحركة تدل على بقاء الحياة فيها بعد الذبح فهي حلال وهذا مذهب جمهور الفقهاء وبه قال أبو حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل قال ابن وهب سئل مالك عن الشاة التي بخرق جوفها السبع حتى تخرج أمعاؤها فقال مالك لا أرى أن تذكي أي شيء يذكي منها ؟ وقال أشهب سئل مالك عن الضبع يعدو على الكباش فيدق ظهره أترى أن يذكي قبل أن يموت فيؤكل فقال إن كان قد بلغ السحر فلا أرى أن يؤكل وإن كان أصاب أطرافه فلا أرى بذلك بأساً قيل له وثب عليه فدق ظهره فقال لا يعجبني هذا لا يعيش منه قيل له فالدب يعدو على الشاة فيثقب بطنها ولا يثقب الأمعاء فقال إذا شق بطنها فلا أرى أن تؤكل هذا مذهب مالك رحمه الله وظاهر الآية عام فيما استثناءه مالك رحمه الله من الصور التي بلغ الحيوان فيها إلى حالة لا يعيش بعدها فيحتاج إلى دليل مخصوص للآية والله أعلم . وفي الصحيحين عن رافع بن خديج أنه قال قلت يا رسول الله إنا لاقو العدو غدأ وليس معنا مدى أفنذج بالقصب ؟ فقال « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه ليس السن والظفر وسأحدثكم عن ذلك أما السن فعظم وأما الظفر فمدى الحبشة » وفي الحديث الذي رواه الدارقطني مرفوعاً وفيه نظر ، وروى عن عمر موقوفاً وهو أصح « ألا إن الزكاة في الخلق واللينة ولا تعجلوا الأنفس أن تزهد » وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن من رواية حماد بن سلمة عن أبي العشاء الدارمي عن أبيه قال قلت يا رسول الله أما تكون الذكاة الآمن للينة والخلق فقال « لو طعنت في فخذها لأجزأ عنك » وهو حديث صحيح ولكنه محمول على ما لا يقدر على ذبحه في الخلق واللينة وقوله (وما ذبح على النصب) قال مجاهد وابن جريج كانت النصب حجارة حول الكعبة قال ابن جريج وهي ثلثمائة وستون نصبا كانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب وكذا ذكره غير واحد فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله في الذبح عند النصب من الشرك الذي حرمه الله ورسوله وينبغي أن يحمل هذا على هذا لأنه قد تقدم محريم ما أهل به لغير الله . وقوله تعالى (وأن تستقسموا بالأزلام) أي حرم عليكم أيها المؤمنون الاستقسام بالأزلام واحدها زلم وقد تفتح الراء فيقال زلم وقد كانت العرب في جاهليتها يتعاطون ذلك وهي عبارة عن قدام ثلاثة على أحدها مكتوب أفعل وعلى الآخر لا فاعل والثالث غفل ليس عليه شيء . ومن الناس من قال مكتوب على الواحد أمرني ربي وعلى الآخر نهاني ربي والثالث غفل ليس عليه شيء فإذا أجالها فطلع سهم الأمر ففعله أو النهي تركه وإن طلع الفارغ أعاد والاستقسام مأخوذ من طلب القسم من هذه الأزلام هكذا قرر ذلك أبو جعفر ابن جرير وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا الحجاج بن محمد أخبرنا ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس (وأن تستقسموا بالأزلام) قال والأزلام قدام كانوا يستقسمون بها في الأمور وكذا روى عن مجاهد وإبراهيم النخعي والحسن البصري ومقاتل بن حيان وقال ابن عباس هي قدام كانوا يستقسمون بها الأمور وذكر محمد بن إسحق وغيره أن أعظم أصنام قريش صنم كان يقال له هبل منصوب على بئر داخل الكعبة فيها توضع الهدايا وأموال الكعبة فيه وكان عنده سبعة أزلام مكتوب فيها ما يتحاكمون فيه مما أشكل عليهم فما خرج لهم منها رجعوا إليه ولم يعدلوا عنه وثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ لما دخل الكعبة وجد إبراهيم وإسماعيل مصورين فيها وفي أيديهما الأزلام فقال « قاتلهم الله لمدعوا انهما لم يستقسما بها أبداً » وفي الصحيحين أن سراقه بن مالك بن جعشم لما خرج في طلب النبي ﷺ وأبي بكر وهما ذاهبان إلى المدينة مهاجرين قال فاستقسمت بالأزلام هل أضرم أم لا ؟ فخرج الذي أكره لا تضرم قال فعصيت

الأزلام واتبعتهم ثم إنه استقسم بها ثانية وثالثة كل ذلك يخرج الذي يكره لاتضرهم ، وكان كذلك وكان سراقه لم يسلم إذ ذاك ثم أسلم بعد ذلك : وروى ابن مردويه من طريق إبراهيم بن يزيد عن رقية عن عبد الملك بن عمير عن رجاء بن حيوة عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « لن ياج الدرجات من تكهن أو استقسم أو رجع من سفر طائرا » وقال مجاهد في قوله (وأن تستقسموا بالأزلام) قال هي سهام العرب وكعاب فارس والروم كانوا يتقاملون . وهذا الذي ذكر عن مجاهد في الأزلام أنها موضوعة للقمار فيه نظر اللهم إلا أن يقال إنهم كانوا يستعملونها في الاستخارة تارة وفي القمار أخرى والله أعلم فإن الله سبحانه قد قرن بينها وبين القمار وهو ليسر فقال في آخر السورة : (يا أيها آمنوا إنما الحمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجنّبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء - إلى قوله - متهن) وهكذا قال ههنا (وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق) أي تعاطيه فسق وغى وضلالة وجهالة وشرك وقد أمر الله المؤمنين إذا ترددوا في أمورهم أن يستخيروه بأن يعبدوه ثم يسألوه الحيرة في الأمور التي يريدونه كما روى الإمام أحمد والبخاري وأهل السنن من طرق عبد الرحمن بن أبي الموالي عن محمد بن النكدر عن جابر بن عبد الله قال كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن ويقول « إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم ، فانك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسميه باسمه - خير لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال - عاجل أمري وآجله - فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه ، اللهم وإن كنت تعلم أنه شر لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفني عنه واصرفه عني واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به » لفظ أحمد وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي الموالي . وقوله (اليوم يئس الدين كرموا من دينكم) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني يئسوا أن يراجعوا دينهم وكذا روى عن عطاء بن أبي رباح والسدي ومقاتل بن حيان وعلى هذا المعنى يرد الحديث الثابت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الشيطان قد يئس أن يعبد له المصلون في جزيرة العرب ، ولكن بالتحريش بينهم » ويحتمل أن يكون المراد أنهم يئسوا من مشاهدة المسلمين لما تميز به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك وأهله ولهذا قال تعالى آمرا لعباده المؤمنين أن يصبوا ويثبتوا في مخالفة الكفار ولا يخافوا أحدا إلا الله فقال (فلا تخشوهم واخشون) أي لا تخافوهم في مخالفتكم إياهم واخشوني أنصركم عليهم وأبدمهم وأظفركم بهم وأشف صدوركم منهم وأجعلكم فوفهم في الدنيا والآخرة وقوله (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبشه إلى الإنس والجن فلا حلال إلا ما أحله ، ولا حرام إلا ما حرمه ، ولا دين إلا ما شرعه وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف كما قال تعالى (وعت كلمة ربك صدقا وعدلا) أي صدقا في الأخبار وعدلا في الأوامر والنواهي فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة ولهذا قال تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) أي فارضوه أتمم لأنفسكم فانه الدين الذي أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام ، وأنزل به أشرف كتبه . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله (اليوم أكملت لكم دينكم) وهو الإسلام أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبدا ، وقد آتمه الله فلا ينقصه أبدا وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدا . وقال أسباط عن السدي نزلت هذه الآية يوم عرفة ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام ورجع رسول الله ﷺ فمات قالت أسماء بنت عميس : حججت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الحجة فبينما نحن نسير إذ تجلى له جبريل فقال رسول الله ﷺ على الراحلة فلم تطق الراحلة من ثقل ما عليها من القرآن فبركت فأتيته فسجيت عليه بردا كان على . وقال ابن جرير وغير واحد مات رسول الله صلى

الله عليه وسلم بعد يوم عرفة بأحد وثمانين يوما رواها ابن جرير ثم قال حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا ابن فضيل عن هارون بن عنترة عن أبيه قال لما نزلت (اليوم أكملت لكم دينكم) وذلك يوم الحج الأكبر بكى عمر فقال له النبي ﷺ « ما يبكيك » قال أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا فأما إذا أكمل فانه لم يكمل شيء إلا نقص فقال « صدقت » ويشهد لهذا المعنى الحديث الثابت « إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء » وقال الإمام أحمد حدثنا جعفر بن عون حدثنا أبو العميس عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين إنكم تقرأون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال وأى آية ؟ قال قوله (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي) فقال عمر والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ : عشية عرفة في يوم جمعة ورواه البخاري عن الحسن بن الصباح عن جعفر بن عون به ورواه أيضا مسلم والترمذي والنسائي أيضا من طرق عن قيس بن مسلم به ولفظ البخاري عند تفسير هذه الآية من طريق سفيان الثوري عن قيس عن طارق قال : قالت اليهود لعمر إنكم تقرأون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيداً فقال عمر إني لأعلم حين أنزلت وأين أنزلت وأين رسول الله ﷺ حيث أنزلت : يوم عرفة وأنا والله بعرفة قال سفيان وأشك كان يوم الجمعة أم لا (اليوم أكملت لكم دينكم) الآية ، وشك سفيان رحمه الله إن كان في الرواية فهو تورع حيث شك هل أخبره شيخه بذلك أم لا وإن كان شكاً في كون الوقوف في حجة الوداع كان يوم جمعة فهذا ما أخاله يصدر عن الثوري رحمه الله فان هذا أمر معلوم مقطوع به لم يختلف فيه أحد من أصحاب المغازي والسير ولا من الفقهاء ، وقد وردت في ذلك أحاديث متواترة لا يشك في صحتها والله أعلم . وقد روى هذا من غير وجه عن عمر . وقال ابن جرير حدثني يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علي أخبرنا رجاء بن أبي سلمة أخبرنا عبادة بن نسي أخبرنا أميرنا إسحاق قال أبو جعفر بن جرير هو إسحاق بن حرشة عن قبيصة يعني ابن أبي ذئب قال : قال كعب لو أن غير هذه الأمة نزلت عليهم هذه الآية لنظروا اليوم الذي أنزلت فيه عليهم فالتخذوه عيداً يجتمعون فيه فقال عمر أى آية يا كعب ، فقال (اليوم أكملت لكم دينكم) فقال عمر قد علمت اليوم الذي أنزلت والمكان الذي أنزلت فيه نزلت في يوم الجمعة ويوم عرفة وكلاهما بحمد الله لنا عيد . وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب حدثنا قبيصة حدثنا حماد بن سلمة عن عمار هو مولى بني هاشم أن ابن عباس قرأ (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) فقال يهودى لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذنا يومها عيداً فقال ابن عباس فانها نزلت في يوم عشرين اثنين يوم عيد ويوم جمعة . وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن كامل حدثنا موسى ابن هارون حدثنا يحيى بن الحنفى حدثنا قيس بن الربيع عن إسماعيل بن سليمان عن أبي عمر البراز عن ابن الحنفية عن علي قال نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو قائم عشية عرفة (اليوم أكملت لكم دينكم) وقال ابن جرير حدثنا أبو عامر إسماعيل بن عمرو السكوني حدثنا هشام بن عمار حدثنا ابن عياش حدثنا عمرو بن قيس السكوني أنه سمع معاوية بن أبي سفيان على المنبر يتنزع بهذه الآية (اليوم أكملت لكم دينكم) حتى ختمها فقال نزلت في يوم عرفة في يوم جمعة . وروى ابن مردويه عن طريق محمد بن إسحاق عن عمرو بن موسى بن دحية عن قتادة عن الحسن عن سمرة قال نزلت هذه الآية (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) يوم عرفة ورسول الله ﷺ واقف على الموقف ، فأما ما رواه ابن جرير وابن مردويه والطبراني من طريق ابن لهيعة عن خالد بن أبي عمران عن حنش بن عبد الله الصنعاني عن ابن عباس قال ولد نبيكم ﷺ يوم الاثنين وخرج من مكة يوم الاثنين ودخل المدينة يوم الاثنين وفتح بدرأ يوم الاثنين وأنزلت سورة المائدة يوم الاثنين — اليوم أكملت لكم دينكم . ورفع الذكر يوم الاثنين فانه أثر غريب وإسناده ضعيف وقد رواه الإمام أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن لهيعة عن خالد بن أبي عمران عن حنش الصنعاني عن ابن عباس قال ولد النبي ﷺ يوم الاثنين واستنبي يوم الاثنين وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الاثنين وقدم المدينة يوم الاثنين وتوفي يوم الاثنين ووضع الحجر الأسود يوم الاثنين ، هذا لفظ أحمد ولم يذكر نزول المائدة يوم الاثنين فانه أعلم ولعل ابن عباس أراد أنها نزلت يوم عشرين

اثني كما تقدم فاشتبه على الراوى والله أعلم وقال ابن جرير : وقد قيل ليس ذلك يوم معلوم عند الناس ثم روى من طريق العوفى عن ابن عباس في قوله (اليوم أكلت لكم دينكم) يقول ليس ذلك يوم معلوم عند الناس قال : وقد قيل : إنها نزلت على رسول الله ﷺ في مسيره إلى حجة الوداع ثم رواه من طريق أنى جعفر الرازى عن الربيع بن أنس ، قلت وقد روى ابن مردويه من طريق أبي هارون العبدى عن أبي سعيد الخدرى أنها نزلت على رسول الله ﷺ يوم غدیر خم حين قال لعلى « من كنت مولاه فعلى مولاه » ثم رواه عن أبي هريرة وفيه أنه اليوم الثامن عشر من ذى الحجة يعنى مرجعه عليه السلام من حجة الوداع ولا يصح هذا ولا هذا ، بل الصواب الذى لا شك فيه ولا مرية أنها أنزلت يوم عرفة وكان يوم الجمعة كما روى ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وأول ملوك الإسلام معاوية بن أبى سفيان وترجمان القرآن عبد الله بن عباس وسمرة بن جندب رضى الله عنه وأرسله الشعبى وقتادة بن دعامة وشهر بن حوشب وغير واحد من الأئمة والعلماء : واختاره ابن جرير الطبرى رحمه الله وقوله (فمن اضطر في مخصة غير متحائف لإثم فان الله غفور رحيم) أى فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات التى ذكرها الله تعالى لضرورة ألجأته إلى ذلك فله تناوله والله غفور رحيم له لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطر وافترقاره إلى ذلك فيتجاوز عنه ويغفر له وفى المستند وصحيح ابن حبان عن ابن عمر مرفوعا قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله يحب أن تؤتى رخصته كما يكره أن تؤتى معصيته » لفظ ابن حبان ، وفى لفظ لأحمد « من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة » ولهذا قال الفقهاء : قد يكون تناول الميتة واجبا في بعض الأحيان وهو ما إذا خاف على نفسه ولم يجد غيرها ، وقد يكون مندوبا ، وقد يكون مباحا بحسب الأحوال ، واختلفوا هل يتناول منها قدر ما يسد به الرمق ، أوله أن يشبع أو يشبع ويتزود ؟ على أقوال كما هو مقرر في كتاب الأحكام ، وفيما إذا وجد ميتة وطعام الغير أو صيدا وهو محرم هل يتناول الميتة أو ذلك الصيد ويلزمه الحزاء أو ذلك الطعام ويضمن بدله ، على قولين ها قولان للشافعى رحمه الله . وليس من شرط جواز تناول الميتة أن يمضى عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاما كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم ، بل متى اضطر إلى ذلك جازله ، وقد قال الإمام أحمد : حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا الأوزاعى حدثنا حسان بن عطية عن أبي واقد الليثي أنهم قالوا لرسول الله . إنا بأرض تصيينها بالخمسة فمضى تحمل لنا بها الميتة ؟ فقال « إذا لم تصطبجوا ، ولم تعقبوا ، ولم تحتفثوا بقلافشأنكم بها » تفرد به أحمد من هذا الوجه وهو إسناد صحيح على شرط الصحيحين ، وكذا رواه ابن جرير عن عبد الأعلى بن واصل عن محمد بن القاسم الأسدى عن الأوزاعى به ، لكن رواه بعضهم عن الأوزاعى عن حسان بن عطية عن مسلم بن يزيد عن أبي واقد به ومنهم من رواه عن الأوزاعى عن حسان عن مرثد أو أبى مرثد عن أبي واقد به ورواه ابن جرير عن هناد بن السرى عن عيسى بن يونس عن حسان عن رجل قد سمى له فذكره ، ورواه أيضا عن هناد عن ابن المبارك عن الأوزاعى عن حسان مرسلا وقال ابن جرير : حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية عن ابن عون قال : وجدت عند الحسن كتاب سمره فقرأته عليه فكان فيه : ويجزى من الاضطراب غبوق أو صبح . حدثنا أبو كريب حدثنا هشيم عن الحصيب بن زيد النخعي حدثنا الحسن أن رجلا سأل النبي ﷺ فقال : متى يحل الحرام ؟ قال : فقال « إلى متى يروى أهلك من اللبن أو تجمى ميرتهم » حدثنا ابن حميد حدثنا سلمة عن ابن إسحق حدثني عمر بن عبد الله بن عروة عن جده عروة بن الزبير عن جدته أن رجلا من الأعراب أتى النبي ﷺ يستفتيه في الذى حرم الله عليه والذى أحل له ، فقال النبي ﷺ « يحل لك الطيبات ويحرم عليك الحبائث إلا أن تفتقر إلى طعام لك فتأكل منه حتى تستغنى عنه » فقال الرجل . وما فقرى الذى يحل لى وما غنائى الذى يغنينى عن ذلك ، فقال النبي ﷺ « إذا كنت ترجو غناء تطلبه فتبلغ من ذلك شيئا فأطعم أهلك ما بدالك حتى تستغنى عنه » فقال الأعرابى ما غنائى الذى أدعه إذا وجدته فقال النبي ﷺ « إذا أرويت أهلك غبوقا من الليل فاجتنب ما حرم الله عليك من طعام مالك فانه ميسور كله فليس فيه حرام » ومعنى قوله « ما لم تصطبجوا » يعنى به الغداء « وما لم تعقبوا » يعنى به العشاء « أو تحتفثوا بقلافشأنكم بها » فكلوا منها . وقال ابن جرير : يروى هذا الحرف يعنى قوله « أو تحتفثوا »

على أربعة أوجه : تحفوا بالهمزة ، وتحفوا : بتخفيف الياء والحاء وتحفوا بالحاء وبالتخفيف ويحتمل الهمز كذا رواه في التفسير (حديث آخر) قال أبو داود : حدثنا هرون بن عبد الله حدثنا الفضل بن دكين حدثنا وهب بن عقبة العامري سمعت أبي يحدث عن النجيع العامري أنه أتى رسول الله ﷺ فقال : ما يحل لنا من الميتة ، قال « ما طعامكم ؟ » قلنا نصطبح ونغتبق . قال أبو نعيم : فسر له عقبه ، قدح غدوة وقدح عشية قال : ذاك وأبى الجوع ، وأحل لهم الميتة على هذه الحال . تفرد به أبو داود وكانوا يصطبحون ويغتبقون شيئاً لا يكفيهم فأحل لهم الميتة لتأم كفايتهم وقد يخرج به من يرى جواز الأكل منها حتى يبلغ حد الشبع ، ولا ينقيد ذلك بسد الرمق والله أعلم (حديث آخر) قال أبو داود : حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد حدثنا سمك عن جابر عن سمرة أن رجلاً نزل الحرة ومعه أهله وولده فقال له رجل إن نأقني ضلت فإن وجدتها فأمسكها فوجدتها ولم يجد صاحبها فمرضت فقالت له امرأته ، انحرها فأبى فنفتت فقالت له امرأته : اسأخها حتى تقدد شحمها ولحمها فنأكله قال لا حتى أسأل رسول الله ﷺ فأثامه فسأله فقال « هل عندك غني يغنيك » قال : لا ، قال « فكاوها » قال فجاء صاحبها فأخبره الخبر فقال : هلا كنت نحرتها ؟ قال استحييت منك تفرد به وقد يحتاج به من يجوز الأكل والشبع والزود منها مائة يغاب على ظنه الاحتياج إليها والله أعلم . وقوله (غير متجانف لإثم) أي متعاط لمعصية الله فإن الله قد أباح ذلك له وسكت عن الآخر كما قال في سورة البقرة (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم) وقد استدلل بهذه الآية من يقول بأن العاصي بسفره لا يترخص بشيء من رخص السفر لأن الرخص لا تنال بالمعاصي والله أعلم

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

لما ذكر تعالى ما حرمه في الآية المتقدمة من الجبائض الضارة لتناولها إما في بدنه أو في دينه أو فمها واستثنى ما استثناه في حالة الضرورة كما قال تعالى (وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه) قال بعدها (يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات) كما في سورة الأعراف في صفة محمد ﷺ أنه يحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الجبائض قال ابن أبي حاتم . حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله بن أبي بكر حدثني عبد الله بن طيبة حدثني عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير عن عدي بن حاتم وزيد بن مهلهل الطائيين سألا رسول الله ﷺ فقالا يا رسول الله قد حرم الله الميتة فماذا يحل لنا منها ، فنزلت (يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات) قال سعيد . يعني الذبائح الحلال الطيبة لهم . وقال مقاتل : الطيبات ما أحل لهم من كل شيء أن يصيبوه وهو الحلال من الرزق ، وقد سئل الزهري عن شرب البول للتداوى فقال : ليس هو من الطيبات رواه ابن أبي حاتم ، وقال ابن وهب سئل مالك عن بيع الطير الذي يأكله فقال ليس هو من الطيبات ، وقوله تعالى (وما علمتم من الجوارح مكليين) أي أحل لكم الذبائح التي ذكر اسم الله عليها والطيبات من الرزق وأحل لكم ما صدتموه بالجوارح وهي الكلاب والفهود والصقور وأشباهاها كما هو مذهب الجمهور من الصحابة والتابعين والأئمة ومن قال ذلك على بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (وما علمتم من الجوارح مكليين) وهن الكلاب المعلمة والبازي وكل طير يعلم للصيد والجوارح يعني الكلاب الضواري والفهود والصقور وأشباهاها . رواه ابن أبي حاتم ثم قال وروى عن خيثمة وطاوس ومجاهد ومكحول ويحيى بن أبي كثير نحو ذلك وروى عن الحسن أنه قال : الباز والصقور من الجوارح وروى عن علي بن الحسين مثله ثم روى عن مجاهد أنه كره صيد الطير كله وقرأ قوله (وما علمتم من الجوارح مكليين) قال وروى عن سعيد بن جبير نحو ذلك ونقله ابن جرير عن الضحاك والسدي ثم قال حدثنا هاد حدثنا ابن أبي زائدة أخبرنا ابن جريج عن نافع عن ابن عمر قال أما ما صاد من الطير البازات وغيرها من الطير فما أدركت فهو لك وإلا فلا تطعمه ، قلت والحكي عن الجمهور أن الصيد بالطيور كالصيد بالكلاب لأنها تكلب الصيد بمخالها كما تكلبه

الكلاب فلا فرق وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم واختاره ابن جرير . واحتج في ذلك بما رواه عن هناد : حدثنا عيسى بن يونس عن مجالد عن الشعبي عن عدى بن حاتم قال : سألت رسول الله ﷺ عن صيد البازي فقال : « ما أمسك عليك فكل » واستثنى الإمام أحمد صيد الكلب الأسود لأنه عنده مما يجب قتله ولا يحل اقتناؤه لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال « يقطع الصلاة الحمار والمرأة والكلب الأسود » فقلت ما بال الكلب الأسود من الأحمر ، فقال الكلب الأسود شيطان ، وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب ، ثم قال « ما بالهم وبال الكلاب اقتلوا منها كل أسودهم » وسُميت هذه الحيوانات التي يصطادهم جوارح من الجرح وهو الكسب كما تقول العرب فلان جرح أهله خيرا أى كسبهم خيرا ويقولون فلان لاجرح له أى لا كسب له وقال الله تعالى (ويعلم ما جرحتم بالنهار) أى ما كسبتم من خير وشر وقد ذكر في سبب نزول هذه الآية الشريفة الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم حدثنا حجاج بن حمزة حدثنا يزيد بن جباب حدثني يونس بن عبيدة حدثني أبان بن صالح عن القعقاع بن حكيم عن سلمى أم رافع عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب فقلت فجاء الناس فقالوا يارسول الله ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها ؟ فسكت فأنزل الله (يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين) الآية فقال النبي ﷺ إذا أرسل الرجل كلبه وصمى فأمسك عليه فليأكل ما لم يأكل » وهكذا رواه ابن جرير عن أبي كريب عن زيد بن الحباب بإسناده عن أبي رافع قال جاء جبريل إلى النبي ﷺ ليستأذن عليه فأذن له فقال قد أذن لك يارسول الله قال أجل « ولكننا لا ندخل بيتا فيه كلب » قال أبو رافع فأمرني أن أقتل كل كلب بالمدينة حتى انتهيت إلى امرأة عندها كلب ينبع عليها فكرته رحمة لها ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فأمرني فرجعت إلى الكلب فقتلته فجاءوا فقالوا يارسول الله ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها قال فسكت رسول الله ﷺ قال فأنزل الله عز وجل (يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم من الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين) ورواه الحاكم في مستدركه من طريق محمد بن إسحق عن أبان بن صالح به وقال صحيح ولم يخرجاه وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا حجاج عن ابن جريج عن عكرمة أن رسول الله ﷺ بعث أبارافع في قتل الكلاب حتى بلغ العوالي فجاء عاصم بن عدى وسعد بن خيشمة وعويم بن ساعدة فقالوا ماذا أحل لنا يارسول الله فنزلت الآية ورواه الحاكم من طريق مالك عن عكرمة وكذا قال محمد بن كعب القرظي في سبب نزول هذه الآية انه في قتل الكلاب وقوله تعالى (مكلبين) يحتمل أن يكون حالا من الضمير في علمهم فيكون حالا من الفاعل ويحتمل أن يكون حالا من المفعول وهو الجوارح أى وما علمتم من الجوارح في حال كونهم مكلبات للصيد وذلك أن تفتنصه بمخالبها أو أظفارها فيستدل بذلك والحالة هذه على أن الجارح إذا قتل الصيد بصدمته وبمخالبه وظفره أنه لا يحل له كما هو أحد قولى الشافعى وطائفة من العلماء ولهذا قال (تعلمونهم مما علمكم الله) وهو أنه إذا أرسله استرسل وإذا أشلاه استشلى وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه ولا يمسكه لنفسه ولهذا قال تعالى (فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه) فحق كان الجارح معلما وأمسك على صاحبه وكان قد ذكر اسم الله عليه وقت إرساله حل الصيد وإن قتله بالإجماع . وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة كما ثبت في الصحيحين عن عدى بن حاتم قال قلت يارسول الله إني أرسل الكلاب العلمة وأذكر اسم الله فقال « إذا أرسلت كلبك العلم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك » قلت وإن قتلن ؟ قال « وإن قتلن ما لم يشرهما كلب ليس منها فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره » قلت له فإني أرمى بالمعراض الصيد فأصيب ؟ فقال : « إذا رميت بالمعراض فخرق فكله ، وإن أصابه بعرض فإنه وقيد فلا تأكله » وفي لفظ لهما « إذا أرسلت كلبك فاذا كراسم الله فإن أمسك عليك فأدر كته حيا فاذا به وإن أدر كته قد قتل ولم يأكل منه فكله فإن أخذ الكلب ذكاته » وفي رواية لهما « فإن أكل فلا تأكل فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه » فهذا دليل للجمهور وهو الصحيح من مذهب الشافعى وهو أنه إذا أكل الكلب من الصيد يحرم مطلقا ولم يستفصلوا كما ورد بذلك الحديث ، وحكى عن طائفة من السلف أنهم قالوا لا يحرم مطلقا

﴿ ذكر الآثار بذلك ﴾

قال ابن جرير حدثنا هناد حدثنا وكيع عن شعبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب قال : قال سلمان الفارسي : كل وإن أكل ثلثه يعني الصيد إذا أكل منه الكلب وكذا رواه سعيد بن أبي عروبة وعمر بن عامر عن قتادة وكذا رواه محمد بن زيد عن سعيد بن المسيب عن سلمان ورواه ابن جرير أيضاً عن مجاهد بن موسى عن زيد عن حميد عن بكر بن عبد الله المزني والقاسم أن سلمان قال : إذا أكل الكلب فكل وإن أكل ثلثه ، وقال ابن جرير حدثنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرني عزيمة بن بكير عن أبيه عن حميد بن مالك بن خيثم الدؤلي أنه سأل سعد بن أبي وقاص عن الصيد يأكل منه الكلب فقال : كل وإن لم يبق منه إلا حذية يعني بضعة ورواه شعبة عن عبد ربه بن سعيد عن بكير بن الأشج عن سعيد بن المسيب عن سعد بن أبي وقاص قال : كل وإن أكل ثلثه . وقال ابن جرير حدثنا ابن المثنى حدثنا عبد الأعلى حدثنا داود عن عامر عن أبي هريرة : قال إذا أرسلت كلبك فأكل منه فإن أكل ثلثه وبقي ثلثه فكله . وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا المعتمر قال سمعت عبادة : وحدثنا هناد حدثنا عبدة عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن عبد الله بن عمر قال إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك أكل أو لم يأكل وكذا رواه عبيد الله بن عمر وابن أبي ذئب وغير واحد عن نافع فهذه الآثار ثابتة عن سلمان وسعد بن أبي وقاص وأبي هريرة وابن عمر وهو محكي عن علي وابن عباس واختلف فيه عن عطاء والحسن البصري وهو قول الزهري وربيعة ومالك وإليه ذهب الشافعي في القديم وأوماً إليه في الجديد

وقد روى من طريق سلمان الفارسي مرفوعاً فقال ابن جرير حدثنا عمران بن بكر الكلاعي حدثنا عبد العزيز بن موسى اللاهوني حدثنا محمد بن دينار وهو الطاجي عن أبي إياس معاوية بن قرة عن سعيد بن المسيب عن سلمان الفارسي عن رسول الله ﷺ قال « إذا أرسل الرجل كلبه على الصيد فأدركه وقد أكل منه فليأكل ما بقي » ثم قال ابن جرير وفي إسناد هذا الحديث نظر ، وسعيد غير معلوم له سماع من سلمان والثقات يروونه من كلام سلمان غير مرفوع وهذا الذي قاله ابن جرير صحيح لكن قد روى هذا المعنى مرفوعاً من وجوه أخر فقال أبو داود حدثنا محمد بن منهل الضيرب حدثنا يزيد بن زريع حدثنا حبيب المعلم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن أعرابياً يقول له أبو ثعلبة قال يا رسول الله إن لي كلاباً مكلبة فأتني في صيدها فقال النبي ﷺ « إن كان لك كلاب مكلبة فكل مما أمسك عليك » فقال ذكيا وغير ذكي وإن أكل منه ؟ قال « نعم وإن أكل منه » فقال يا رسول الله أتفتي في قوسي قال « كل ما ردت عليك قوسك » قال ذكيا وغير ذكي ؟ قال « وإن تعيب عنك ما لم يصل أو تجد فيه أثر غير سهمك » قال أفنتي في آنية المجوس إذا اضطرونا إليها قال « اغسلها وكل فيها » هكذا رواه أبو داود وقد أخرجه النسائي وكذا رواه أبو داود من طريق يونس بن سيف عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ثعلبة قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل وإن أكل منه وكل ما ردت عليه يدك » وهذان إسنادان جيدان ، وقد روى الثوري عن ممالك بن حرب عن عدي قال : قال رسول الله ﷺ « ما كان من كلب ضار أمسك عليك فكل » قلت وإن أكل قال « نعم » وروى عبد الملك بن حبيب حدثنا أسد بن موسى عن ابن أبي زائدة عن الشعبي عن عدي بمثله فهذه آثار دالة على أنه يغتفر وإن أكل منه الكلب وقد احتج بها من لم يحرم الصيد بأكل الكلب وما أشبهه كما تقدم عن حكيمه عنهم وقد توسط آخرون فقالوا إن أكل عقب ما أمسكه فانه يحرم لحديث عدي بن حاتم ، ولعله التي أشار إليها النبي ﷺ « فان أكل فلا تأكل فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه » وأما إن أمسكه ثم انتظر صاحبه فطال عليه وجاع فأكل منه لجوعه فإنه لا يؤثر في التحريم وحملوا على ذلك حديث أبي ثعلبة الحشني . وهذا تفريق حسن ، وجمع بين الحديثين صحيح . وقد تولى الأستاذ أبو المعالي الجويني في كتابه النهاية أن لو فصل مفصل هذا التفصيل وقد حقق الله أمنيته وقال بهذا القول والتفريق طائفة من الأصحاب منهم . وقال آخرون قولاً رابعاً في المسئلة وهو التفرقة بين أكل الكلب في حرم لحديث عدي ، وبين أكل الصقور وتحوها فلا يحرم لأنه لا يقبل التعليم إلا بالأكل : وقال

ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا أسباط بن محمد حدثنا أبو إسحق الشيباني عن حماد عن إبراهيم عن ابن عباس أنه قال في الطير إذا أرسلته فقتل فكل فإن الكلب إذا ضربته لم يعد وإن تعلم الطير أن يرجع إلى صاحبه وليس يضرب فإذا أكل من الصيد وثف الريش فكل، وكذا قال إبراهيم النخعي والشعبي وحماد بن أبي سليمان . وقد يحتج لهؤلاء بما رواه ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد حدثنا المحاربي حدثنا مجالد عن الشعبي عن عدي بن حاتم قال : قلت يا رسول الله إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة فما يحل لنا منها؟ قال « يحل لكم ما علمتم من الجوارح مكللين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه » ثم قال : « ما أرسلت من كلب وذكرت اسم الله عليه فكل بما أمسك عليك » قلت : وإن قتل قال « وإن قتل ما لم يأكل » قلت يا رسول الله وإن خالطت كلابنا كلابا غيرها قال « فلا تأكل حتى تعلم أن كلبك هو الذي أمسك » قال قلت إنا قوم نرمي فما يحل لنا قال « ما ذكرت اسم الله عليه وخزقت فكل » فوجه الدلالة لهم أنه اشترط في الكلب أن لا يأكل ولم يشترط ذلك في البزاة فدل على التفرقة بينهما في الحكم والله أعلم . وقوله تعالى (فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه) أي عند إرساله كما قال النبي ﷺ لعدي بن حاتم « إذا أرسلت كلبك العلم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك » وفي حديث أبي ثعلبة الخرجي في الصحيحين أيضاً « إذا أرسلت كلبك فاذا كرا سم الله وإذا رميت بسهمك فاذا كرا سم الله » ولهذا اشترط من الأئمة كالإمام أحمد رحمه الله في المشهور عنه التسمية عند إرسال الكلب والرمي بالسهم لهذه الآية وهذا الحديث وهذا القول هو المشهور عن الجمهور أن المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الإرسال كما قال السدي وغيره وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (واذكروا اسم الله عليه) يقول إذا أرسلت جارحك فقل باسم الله وإن نسيت فلا حرج وقال بعض الناس المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الأكل كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ علم ربيبه عمر بن أبي سلمة فقال « سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك » وفي صحيح البخاري عن عائشة أنهم قالوا يا رسول الله إن قوما يأتوننا حديث عهد بهم بكفر ببلحان لا ندرى أذكر اسم الله عليها أم لا ؟ فقال « سموا الله أتم وكلوا » . (حديث آخر) وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد حدثنا هشام عن بديل عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يأكل الطعام في ستة نفر من أصحابه فجاء أعرابي فأكله بلقمتين فقال النبي ﷺ « أما إنه لو كان ذكر اسم الله لكفاكم فإذا أكل أحدكم طعاماً فليذكر اسم الله فان نسي أن يذكر اسم الله في أوله فليقل باسم الله أوله وآخره » هكذا رواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يزيد بن هارون به وهذا منقطع بين عبد الله بن عبيد بن عمير وعائشة فإنه لم يسمع منها هذا الحديث بدليل ما رواه الإمام أحمد : حدثنا عبد الوهاب أخبرنا هشام يعني ابن أبي عبد الله الدستوائي عن بديل عن عبد الله بن عبيد بن عمير أن امرأة منهم يقال لها أم كلثوم حدثته عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يأكل طعاماً في ستة نفر من أصحابه فجاء أعرابي جائع فأكله بلقمتين فقال « أما إنه لو ذكر اسم الله لكفاكم فإذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله فان نسي اسم الله في أوله فليقل باسم الله أوله وآخره » رواه أحمد أيضاً وأبو داود والترمذي والنسائي من غير وجه عن هشام الدستوائي به وقال الترمذي حسن صحيح . (حديث آخر) وقال أحمد : حدثنا علي بن عبد الله حدثنا يحيى ابن سعيد حدثنا جابر بن صبح حدثني الثني بن عبد الرحمن الخزاعي وصحبته إلى واسط فكان يسمى في أول طعامه وفي آخر لقمة يقول باسم الله أوله وآخره فقلت له إنك تسمى في أول ما تأكل رأيت قولك في آخر ما تأكل باسم الله أوله وآخره فقال أخبرك أن جدي أمية بن مخش وكان من أصحاب النبي ﷺ سمعته يقول إن رجلاً كان يأكل والنبي ينظر فلم يسم حتى كان في آخر طعامه لقمة قال باسم الله أوله وآخره فقال النبي صلى الله عليه وسلم « والله ما زال الشيطان يأكل معه حتى سمى فلم يبق شيء في بطنه حتى قاءه » وهكذا رواه أبو داود والنسائي من حديث جابر بن صبح الراسبي أبي بشر البصري ووثقه ابن معين والنسائي وقال أبو الفتح الأزدي لا تقوم به حجة . (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي خزيمة عن أبي حذيفة قال أبو عبد الرحمن عبد الله بن الإمام أحمد واسمه سلمة بن الهيثم بن صهيب - من أصحاب ابن مسعود عن حذيفة قال كنا إذا حضرنا مع النبي على طعام لم نضع أيدينا حتى

يبدأ رسول الله فيضع يده وإنا حضرنا معه طعاما فجاءت جارية كأنما تدفع فذهبت تضع يدها في الطعام فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدها وجاء اعرابي كأنما يدفع فذهب يضع يده في الطعام فأخذ رسول الله بيده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان يستحل الطعام إذا لم يذكر اسم الله عليه وإنه جاء بهذه الجارية ليستحل بها فأخذت بيدها وجاء بهذا الأعرابي ليستحل به فأخذت بيده والذي نفسي بيده إن يده في يدي مع يدهما » يعنى الشيطان وكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي من حديث الأعمش به . (حديث آخر) روى مسلم وأهل السنن إلا الترمذى من طريق ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء ، وإذا دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله قال الشيطان أدركتم المبيت ، فإذا لم يذكر اسم الله عند طعامه قال أدركتم المبيت والعشاء » لفظ أبي داود . (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا الوليد بن مسلم عن وحشى بن حرب عن أبيه عن جده أن رجلا قال للنبي ﷺ إنا نأكل كل ومانشبع قال « فاعلمكم تأكلون متفرقين اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه » ورواه أبو داود وابن ماجه من طريق الوليد بن مسلم

﴿ الْيَوْمَ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلْلٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلْلٌ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي آخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾

لما ذكر تعالى ما حرمه على عباده المؤمنين من الخبائث وما أحله لهم من الطيبات قال بعده (اليوم أحل لكم الطيبات) ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتابين من اليهود والنصارى فقال (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) قال ابن عباس وأبو أمامة ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وعطاء والحسن ومكحول وإبراهيم النخعي والسدى ومقاتل بن حيان يعنى ذبائحهم وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء إن ذبائحهم حلال للمسلمين لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزله عنه تعالى وتقدس . وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مغفل قال أدلى بجرباب من شحم يوم خير فحضنته وقلت لأعطى اليوم من هذا أحداً والتفت فإذا النبي صلى الله عليه وسلم يتبسم فاستدل به الفقهاء على أنه يجوز تناول ما يحتاج اليه من الأطعمة ونحوها من الغنيمة قبل القسمة وهذا ظاهر واستدل به الفقهاء الحنفية والشافعية والحنابلة على أصحاب مالك في منعهم أكل ما يعتقد اليهود تحريمه من ذبائحهم كالشحوم ونحوها مما حرم عليهم فالملكية لا يجوزون للمسلمين أكله لقوله تعالى (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) قالوا وهذا ليس من طعامهم واستدل عليهم الجمهور بهذا الحديث وفي ذلك نظر لأنه قضية عين ويحتمل أن يكون شحما يعتقدون حله كشحم الظهر والحوايا ونحوها والله أعلم ، وأجود منه في الدلالة ما ثبت في الصحيح أن أهل خير أهدوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة مصلية وقد سموا ذراعها وكان يعجبه الذراع فتناوله فنهش منه نهشة فأخبره الذراع أنه مسموم فلفظه وأثر ذلك في ثنايا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي أبهره وأكل معه منها بشر بن البراء بن معرور فمات فقتل اليهودية التي سمها وكان اسمها زينب ووجه الدلالة منه أنه عزم على أكلها ومن معه ولم يسألهم هل نزعوا منها ما يعتقدون تحريمه من شحمها أم لا ، وفي الحديث الآخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أضافه يهودى على خبز شعير واهالة سنخة يعنى ودكا زنخا وقال ابن أبي حاتم قرئ على العباس بن الوليد بن يزيد أخبرنا محمد بن شعيب أخبرني النعمان بن المنذر عن مكحول قال أنزل الله (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) ثم نسخ الله عز وجل ورحم المسلمين فقال (اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) فنسخها بذلك وأحل طعام أهل الكتاب وفي هذا الذي قاله مكحول رحمه الله نظر فإنه لا يلزم من إباحته طعام أهل الكتاب إباحة أكل ما لم يذكر اسم الله عليه لأنهم

يذكرون اسم الله على ذبائحهم وقرايينهم وهم متعبدون بذلك ولهذا لم يسبح ذبائح من عداهم من أهل الشرك ، ومن شابههم لأنهم لم يذكرون اسم الله على ذبائحهم بل ولا يتوقفون فيما يأكلونه من اللحم على ذكاة بل يأكلون الميتة بخلاف أهل الكتابين (١) ومن شاكلهم من السامرة والصائبة ومن يمسك بدين إبراهيم وشيث وغيرهما من الأنبياء على أحد قولي العلماء ونصارى العرب كبنى تغلب وتنوخ وبهرا وجدام ولحم وعاملة ومن أشبههم لا تؤكل ذبائحهم عند الجمهور

وقال أبو جعفر بن جرير حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية عن أيوب عن محمد بن عبيدة قال : قال على لا تأكلوا ذبائح بني تغلب لأنهم إنما يمسكون من النصرانية بشرب الخمر ، وكذا قال غير واحد من الخلف والسلف . وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب والحسن أنهما كانا لا يريان بأسا بذيبة نصارى بني تغلب . وأما الجوس فإنهم وإن أخذت منهم الجزية تبعا وإلحاقا لأهل الكتاب فإنه لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نسائهم خلافا لأبي ثور إبراهيم بن خالد الكلبي أحد الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد بن حنبل . ولما قال ذلك واشتهر عنه أنكر عليه الفقهاء ذلك حتى قال عنه الإمام أحمد أبو ثور كاسمه يعني في هذه المسألة وكأنه تمسك بعموم حديث روى مرسلا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » ولكن لم يثبت بهذا اللفظ وإنما الذي في صحيح البخاري عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ الجزية من مجوس هجر ولو سلم صحة هذا الحديث فعمومه مخصوص بمفهوم هذه الآية (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) فدل بمفهومه مفهوم المخالفة على أن طعام من عداهم من أهل الأديان لا يحل وقوله تعالى (وطعامكم حل لهم) أى ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم وليس هذا إخبارا عن الحكم عندهم اللهم إلا أن يكون خبرا عما أمروا به من الأكل من كل طعام ذكر اسم الله عليه سواء كان من أهل ملتهم أو غيرها والأول أظهر في المعنى أى ولكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة كما ألبس النبي ﷺ ثوبه لعبد الله بن أبي بن سلول حين مات ودفنه فيه قالوا لأنه كان قد كسا العباس حين قدم المدينة ثوبه فجازاه النبي ﷺ ذلك بذلك فأما الحديث الذي فيه « لا تصحب (٢) » إلامؤمنا ولا يأكل طعامك إلا اتقى » فمحمول على النذب والاستحباب والله أعلم

وقوله (والمحصات من المؤمنات) أى وأحل لكم نكاح الحرائر العفاف من النساء المؤمنات وذكر هذا توطئة لما بعده وهو قوله تعالى (والمحصات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) فقليل أراد بالمحصنات الحرائر دون الإماء حكاه ابن جرير عن مجاهد وإنما قال مجاهد المحصنات الحرائر فيحتمل أن يكون أراد ماحكاه عنه ويحتمل أن يكون أراد بالحرمة العفيفة كما قال في الرواية الأخرى عنه وهو قول الجمهور ههنا وهو الأشبه لئلا يجتمع فيها أن تكون ذمية وهى مع ذلك غير عفيفة فيفسد حالها بالكلية ويتحصل زوجها على ما قيل في المثل « حشفا وسوء كيلة » والظاهر من الآية أن المراد من المحصنات العفيفات عن الزنا كما قال تعالى في الآية الأخرى (محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان) ثم اختلف المفسرون والعلماء في قوله تعالى (والمحصات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) هل يعم كل كتابية عفيفة سواء كانت حرة أو أمة حكاه ابن جرير عن طائفة من السلف ممن فسر المحصنة بالعفيفة وقيل المراد بأهل الكتاب ههنا الإسرائيليات وهو مذهب الشافعي وقيل المراد بذلك النميات دون الحرييات لقوله (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) الآية وقد كان عبد الله بن عمر لا يرى التزويج بالنصرانية ويقول لا أعلم شركا أعظم من أن تقول إن ربها عيسى وقد قال الله تعالى (ولا تنكحوا المشركت حتى يؤمن) الآية وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن حاتم بن سليمان المؤدب حدثنا القاسم بن مالك يعني المزني حدثنا إسماعيل بن سميع عن أبي مالك الغفاري عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية (ولا تنكحوا المشركت حتى يؤمن) قال فحجز الناس عنهن حتى نزلت الآية التي بعدها (والمحصات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) فنكح الناس نساء أهل الكتاب وقد تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصارى ولم يروا بذلك بأسا أخذوا بهذه الآية الكريمة (والمحصات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) فجعلوا هذه مخصصة للتي في سورة البقرة (ولا تنكحوا المشركت حتى يؤمن) إن قيل بدخول الكتابيات في عمومها وإلا فلا

(١) بخلاف أهل الكتابين الح كذا بالنسخ التي بأيدينا ولعل الظاهر بخلاف غير أهل الخ فتأمل . (٢) في الجامع الصغير لا تصاحب .

معارضة بينها وبينها لأن أهل الكتاب قد انفصلوا في ذكرهم عن المشركين في غير موضع كقوله تعالى (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة) وكقوله (وقل للذين أوتوا الكتب والأُميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا) الآية وقوله (إذا آتيتهموهن أجورهن) أى مهورهن أى كما هن محصنات عفائف فابذلوا لهن المهور عن طيب نفس وقد أفتى جابر بن عبد الله وعامر الشعبي وإبراهيم النخعي والحسن البصري بأن الرجل إذا نكح امرأة فزنت قبل دخوله بها أنه يفرق بينهما ، وترد عليه ما بذل لها من المهر رواه ابن جرير عنهم وقوله (محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان) فكما شرط الاحصان في النساء وهى العفة عن الزنا كذلك شرطها في الرجال وهو أن يكون الرجل أيضا محصنا عفيفا ولهذا قال غير مسافحين وهم الزناة الذين لا يرتدعون عن معصية ولا يردون أنفسهم عمن جاءهم ولا متخذى أخدان أى ذوى العشيقات الذين لا يفعلون إلا معهم كما تقدم في سورة النساء ، ولهذا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أنه لا يصح نكاح المرأة البغى حتى تتوب وما دامت كذلك لا يصح تزويجها من رجل عفيف وكذلك لا يصح عنده عقد الرجل الفاجر على عفيفة حتى يتوب ويقلع عما هو فيه من الزنا لهذه الآية وللحديث « لا ينكح الزانى المجلود إلا مثله » وقال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا سليمان بن حرب حدثنا أبو هلال عن قتادة عن الحسن قال : قال عمر بن الخطاب : لقد هممت أن لأدع أحدا أصاب فاحشة في الإسلام أن يتزوج محصنة فقال له أي بن كعب يا أمير المؤمنين الشرك أعظم من ذلك وقد يقبل منه إذا تاب وسألت الكلام على هذه المسألة مستقصى عند قوله (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا إيمان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) ولهذا قال تعالى ههنا (ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُمِيتَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

قال كثيرون من السلف في قوله (إذا قمتم إلى الصلاة) يعنى وأتمم محدثون وقال آخرون إذا قمتم من النوم إلى الصلاة وكلاهما قريب . وقال آخرون بل المعنى أعم من ذلك فالآية أمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة ولكن هو في حق الحدث واجب وفي حق التطهر ندب وقد قيل إن الأمر بالوضوء لكل صلاة كان واجبا في ابتداء الإسلام ثم نسخ وقال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه وصلى الصلوات بوضوء واحد فقال له عمر يا رسول الله إنك فعلت شيئا لم تكن تفعله قال « إني عمدا فعلته يا عمر » وهكذا رواه مسلم وأهل السنن من حديث سفيان الثوري عن علقمة بن مرثد ووقع في سنن ابن ماجه عن سفيان عن محارب بن دثار بدل علقمة بن مرثد كلاهما عن سليمان بن بريدة به وقال الترمذي حسن صحيح .

وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عباد بن موسى أخبرنا زياد بن عبد الله بن العفيل البكائي حدثنا الفضل بن المبرق قال رأيت جابر بن عبد الله يصلى الصلوات بوضوء واحد فإذا بال أو أحدث توضأ ومسح بفضل طهوره الخفين فقلت أبا عبد الله أشيء تصنعه برأيك ؟ قال بل رأيت النبي ﷺ يصنعه فأنا أصنعه كما رأيت رسول الله يصنعه وكذا رواه ابن ماجه عن إسماعيل بن توبة عن زياد البكائي به وقال أحمد حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن ابن إسحق

حدثني محمد بن يحيى بن حبان الأنصارى عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر قال أ رأيت وضوء عبد الله بن عمر لكل صلاة طاهراً كان أو غير طاهر عمن هو ؟ قال حدثته أسماء بنت زيد بن الخطاب أن عبد الله بن حنظلة بن الغسيل حدثها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أمر بالوضوء لكل صلاة طاهر كان أو غير طاهر فلما شق ذلك عليه أمر بالسواك عند كل صلاة ووضع عنه الوضوء إلا من حدث فكان عبد الله يرى أن به قوة على ذلك كان يفعل حتى مات وهكذا رواه أبو داود عن محمد بن عوف الحمصى عن أحمد بن خالد الأهلبى عن محمد بن إسحق عن محمد بن يحيى بن حبان عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر ثم قال أبو داود ورواه إبراهيم بن سعد عن محمد بن إسحق فقال عبيد الله بن عمر يعنى كما تقدم فى رواية الإمام أحمد وأياما كان فهو إسناده صحيح وقد صرح ابن إسحق فيه بالتحديث والسماع من محمد بن يحيى ابن حبان فرال محذور التدليس لكن قال الحافظ ابن عساكر رواه سلمة بن الفضل وعلى بن مجاهد عن ابن إسحق عن محمد بن طلحة بن يزيد بن ركانة عن محمد بن يحيى بن حبان به والله أعلم وفى فعل ابن عمر هذا ومداومته على إسباغ الوضوء لكل صلاة دلالة على استحباب ذلك كما هو مذهب الجمهور

وقال ابن جرير حدثنا زكريا بن يحيى بن أبي زائدة حدثنا أزهر عن ابن عون عن ابن سيرين أن الخلفاء كانوا يتوضئون لكل صلاة ، وقال ابن جرير حدثنا محمد بن المثنى حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة سمعت مسعود بن على الشيبانى سمعت عكرمة يقول كان على رضى الله عنه يتوضأ عند كل صلاة ويقرأ هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة) الآية وحدثنا ابن المثنى حدثني وهب ابن جرير أخبرنا شعبة عن عبد الملك بن ميسرة عن النزال بن سبرة قال رأيت علياً صلى الظهر ثم قعد للناس فى الرحبة ثم أتى بماء فغسل وجهه ويديه ثم مسح برأسه ورجليه وقال هذا وضوء من لم يحدث وحدثني يعقوب بن إبراهيم حدثنا هشيم عن مغيرة عن إبراهيم أن علياً أكتال من حب فتوضأ وضوءاً فيه تجوز فقال هذا وضوء من لم يحدث ، وهذه طرق جيدة عن على يقوى بعضها بعضاً .

وقال ابن جرير أيضاً حدثنا ابن بشار حدثنا ابن أبي عدى عن حميد عن أنس قال توضأ عمر بن الخطاب وضوءاً فيه تجوز خفيفاً فقال هذا وضوء من لم يحدث وهذا إسناده صحيح . وقال محمد بن سيرين كان الخلفاء يتوضئون لكل صلاة وأما ما رواه أبو داود الطيالسى عن أبي هلال عن قتادة عن سعيد بن المسيب أنه قال : الوضوء من غير حدث اعتداء فهو غريب عن سعيد بن المسيب ثم هو محمول على أن من اعتقد وجوبه فهو معتد وأما مشروعيته استحباباً فقد دلت السنة على ذلك . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا سفيان عن عمرو بن عامر الأنصارى سمعت أنس ابن مالك يقول كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة قال : قلت فأنتم كيف كنتم تصنعون ؟ قال كنا نصلى الصلوات كلها بوضوء واحد ما لم نحدث ، وقد رواه البخارى وأهل السنن من غير وجه عن عمرو بن عامر به . وقال ابن جرير : حدثنا أبو سعيد البغدادى حدثنا إسحق بن منصور عن هريم عن عبد الرحمن بن زياد هو الإفريقى عن أبي عطيف عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « من توضأ على طهر كتب له عشر حسنات » ورواه أيضاً من حديث عيسى بن يونس عن الإفريقى عن أبي عطيف عن ابن عمر فذكره وفيه قصة وهكذا رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث الإفريقى به نحوه وقال الترمذى وهو إسناده ضعيف .

وقال ابن جرير وقد قال قوم إن هذه الآية نزلت إعلاما من الله أن الوضوء لا يجب إلا عند القيام إلى الصلاة دون غيرها من الأعمال وذلك لأنه عليه السلام كان إذا أحدث امتنع من الأعمال كلها حتى يتوضأ . حدثنا أبو كريب حدثنا معاوية بن هشام عن سفيان عن جابر عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم عن عبد الله بن علقمة بن وقاص عن أبيه قال كان رسول الله ﷺ إذا أراق البول نكلمه فلا يكلمنا ونسلم عليه فلا يرد علينا حتى نزلت آية الرخصة (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة) الآية ورواه ابن أبي حاتم عن محمد بن مسلم عن أبي كريب به نحوه وهو حديث غريب جداً وجابر هذا هو ابن زيد الجعفى ضعفوه . وقال أبو داود حدثنا مسدد حدثنا إسماعيل حدثنا أيوب عن عبد الله بن أبي مليكة عن عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ خرج من الخلاء فقدم إليه

طعام فقالوا ألا تأتيك بوضوء فقال « إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة » وكذا رواه الترمذى عن أحمد بن منيع والنسائى عن زياد بن أيوب عن إسماعيل وهو ابن عليه به . وقال الترمذى : هذا حديث حسن وروى مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن سعيد بن الحويرث عن ابن عباس قال كنا عند النبي ﷺ فأتى الحلاء ثم انه رجع فأنى بطعام فقبل يارسول الله ألا تتوضأ فقال « لم أصل فأتوضأ » . وقوله (فاغسلوا وجوهكم) قد استدل طائفة من العلماء بقوله تعالى (إذا قمت إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم) على وجوب النية في الوضوء لأن تقدير الكلام (إذا قمت إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم) لها كما تقول العرب إذا رأيت الأمير فقم أى له وقد ثبت في الصحيحين حديث « الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » ويستحب قبل غسل الوجه أن يذكر اسم الله تعالى على وضوئه لما ورد في الحديث من طرق جيدة عن جماعة من الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه » ويستحب أن يغسل كفيه قبل إدخالهما في الإناء ويتأكد ذلك عند القيام من النوم لما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يدخل يده في الإناء قبل أن يغسلها ثلاثاً فإن أحدكم لا يدري أى بانت يده » وحد الوجه عند الفقهاء ما بين منابت شعر الرأس ولا اعتبار بالصلع ولا بالنعم إلى منتهى اللحية والدقن طولاً ، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً وفي الرعيتين والتخفيف خلاف هل هما من الرأس أو الوجه ، وفي المسترسل من اللحية عن محل الفرض قولان (أحدهما) أنه يجب إفاضة الماء عليه لأنه تقع به المواجهة . وروى في حديث أن النبي ﷺ رأى رجلاً مغطياً لحيته فقال « اكشفها فإن اللحية من الوجه » وقال مجاهد هى من الوجه ألا تسمع إلى قول العرب في الغلام إذا نبتت لحيته طلع وجهه ، ويستحب للمتوضئ أن يخلل لحيته إذا كانت كثيفة . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا إسرائيل عن عامر بن حمزة عن شقيق قال رأيت عثمان توضأ فذكر الحديث قال وخلل اللحية ثلاثاً حين غسل وجهه ثم قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل الذي رأيتموني فعلت رواه الترمذى وابن ماجه من حديث عبد الرزاق وقال الترمذى : حسن صحيح وحسنه البخارى

وقال أبو داود حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع حدثنا أبو المليلح حدثنا الوليد بن زوران عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا توضأ أخذ كفاً من ماء فأدخله تحت حنكه يخلل به لحيته وقال « هكذا أمرنى به ربي عز وجل » تفرد به أبو داود وقد روى هذا الوجه من غير وجه عن أنس قال البيهقي وروينا في تخليل اللحية عن عمار وعائشة وأم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم عن علي وغيره وروينا في الرخصة في تركه عن ابن عمر والحسن بن علي ثم عن النخعي وجماعة من التابعين وقد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه في الصحاح وغيرها أنه كان إذا توضأ تمضمض واستنشق فاختلف الأئمة في ذلك هل هما واجبان في الوضوء والغسل كما هو مذهب أحمد بن حنبل رحمه الله أو مستحبان فيهما كما هو مذهب الشافعي ومالك لما ثبت في الحديث الذي رواه أهل السنن وصححه ابن خزيمة عن رفاع بن رافع الزرق أن النبي ﷺ قال للمسيء صلاته « توضأ كما أمرك الله » أو يجبان في الغسل دون الوضوء كما هو مذهب أبي حنيفة أو يجب الاستنشاق دون المضمضة كما هو رواية الإمام أحمد لما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « من توضأ فليستنشق » وفي رواية « إذا توضأ أحدكم فليجعل في منخرينه من الماء ثم لينثر » والانتثار هو المبالغة في الاستنشاق

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو سلمة الخزازي حدثنا سليمان بن بلال عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن ابن عباس أنه توضأ فغسل وجهه أخذ غرفة من ماء فتمضمض بها واستنثر ثم أخذ غرفة فجعل بها هكذا يعنى أضافها إلى يده الأخرى فغسل بها وجهه ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليمنى ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليسرى ثم مسح رأسه ثم أخذ غرفة من ماء ثم رش على رجله اليمنى حتى غسلها ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها رجله اليسرى ثم قال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى يتوضأ . ورواه البخارى عن محمد بن عبد الرحيم عن أبي سلمة منصور بن

سلة الخزاعي به وقوله (وأيديكم إلى المرافق) أى مع المرافق كما قال تعالى (ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً) وقدرى الحافظ الدارقطنى وأبو بكر البهقى من طريق القاسم بن محمد عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جده عن جابر بن عبد الله قال كان رسول الله ﷺ إذا توضأ أدار الماء على مرقبيه ولكن القاسم هذا متروك الحديث وجده ضعيف والله أعلم

ويستحب للمتوضئ أن يشرع في العضد فيغسله مع ذراعيه لما روى البخارى ومسلم من حديث نعيم الجمر عن أنى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن أمتى يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل » وفي صحيح مسلم عن قتادة عن خلف بن خليفة عن أبي مالك الأشجعى عن أبي حازم عن أنى هريرة قال سمعت خليلي ﷺ يقول « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » . وقوله تعالى (وامسحوا برؤوسكم) اختلفوا في هذه الباء هل هي للإصاق وهو الأظهر أو للتبعيض وفيه نظر على قولين ومن الأصوليين من قال هذا محمل فليرجع في بيانه إلى السنة وقد ثبت في الصحيحين من طريق مالك عن عمرو بن يحيى المازنى عن أبيه أن رجلاً قال لعبد الله بن زيد بن عاصم وهو جد عمرو بن يحيى وكان من أصحاب النبي ﷺ هل تستطيع أن ترينى كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ ؟ فقال عبد الله بن زيد نعم فدعا بوضوء فأفرغ على يديه فغسل يديه مرتين ثم مضمض واستنشق ثلاثاً وغسل وجهه ثلاثاً ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين ثم مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذى بدأ منه ثم غسل رجله . وفي حديث عبد خير عن على بن عيسى عن رسول الله ﷺ نحوه هذا وروى أبو داود عن معاوية والقناد بن معد يكرب في صفة وضوء رسول الله ﷺ مثله في هذه الأحاديث دلالة لمن ذهب إلى وجوب تسكيل مسح الرأس كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل لاسيما على قول من زعم أنها خرجت مخرج البيان لما أجمل في القرآن . وقد ذهب الحنفية إلى وجوب مسح ربع الرأس وهو مقدار الناصية وذهب أصحابنا إلى أنه إنما يجب ما يطلق عليه اسم مسح ولا يتقدر ذلك بخد بل لو مسح بعض شعره من رأسه أجزأه واحتج الفريقان بحديث الغيرة بن شعبة قال تخلف النبي صلى الله عليه وسلم فتخلفت معه فلما قضى حاجته قال هل معك ماء فأنتيت بمطهرة فغسل كفيه ووجهه ثم ذهب يحسر عن ذراعيه فضاكم الجبة فأخرج يديه من تحت الجبة وألقى الجبة على منكبيه فغسل ذراعيه ومسح بناصرته ، وعلى العامة وعلى خفيه . وذكر باقى الحديث وهو فى صحيح مسلم وغيره فقال لهم أصحاب الإمام أحمد إنما اقتصر على مسح الناصية لأنه كمل مسح بقية الرأس على العامة ونحن نقول بذلك وأنه يقع عن الموقع كما وردت بذلك أحاديث كثيرة وأنه كان يمسح على العامة وعلى الخفين فهذا أولى وليس لكم فيه دلالة على جواز الاقتصار على مسح الناصية أو بعض الرأس من غير تسكيل على العامة والله أعلم . ثم اختلفوا فى أنه هل يستحب تكرار مسح الرأس ثلاثاً كما هو المشهور من مذهب الشافعى وإنما يستحب مسح واحدة كما هو مذهب أحمد بن حنبل ومن تابعه على قولين فقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن عطاء بن يزيد الليثى عن حمران بن أبان قال رأيت عثمان بن عفان توضأ فأفرغ على يديه ثلاثاً فغسلهما ثم مضمض واستنشق ثم غسل وجهه ثلاثاً ثم غسل يديه اليمنى إلى المرفق ثلاثاً ثم غسل اليسرى مثل ذلك ثم مسح برأسه ثم غسل قدمه اليمنى ثلاثاً ثم اليسرى ثلاثاً مثل ذلك ثم قال رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئى هذا ثم قال « من توضأ نحو وضوئى هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفرله ما تقدم من ذنبه » أخرجه البخارى ومسلم فى الصحيحين من طريق الزهرى به نحوه هذا وفى سنن أبى داود من رواية عبد الله بن عبيد الله بن أبى مليكة عن عثمان فى صفة الوضوء ومسح برأسه مرة واحدة وكذا من رواية عبد حير عن على بن عيسى . واحتج من استحسب تكرار مسح الرأس بعموم الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن عثمان رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ ثلاثاً ثلاثاً وقال أبو داود حدثنا محمد بن الثنى حدثنا الضحاك بن مخلد حدثنا عبد الرحمن بن وردان حدثنى أبو سلمة بن عبد الرحمن حدثنى حمران قال رأيت عثمان بن عفان توضأ فذكر نحوه ولم يذكر المضمضة والاستنشاق قال فيه ثم مسح رأسه ثلاثاً ثم غسل رجله ثلاثاً ثم قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ هكذا وقال « من توضأ هكذا كفاه » تفرد به أبو داود

ثم قال وأحاديث عثمان في الصحاح تدل على أنه مسح الرأس مرة واحدة . قوله (وأرجلكم إلى الكعبين) قرئ
وأرجلكم بالنصب عطفا على فاعسلوا وجوهكم وأيديكم قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا أبو سلمة حدثنا وهيب
عن خالد عن عكرمة عن ابن عباس أنه قرأها وأرجلكم يقول رجعت إلى الغسل وروى عن عبد الله بن مسعود وعروة
وعطاء وعكرمة والحسن ومجاهد وإبراهيم والضحاك والسدي ومقاتل بن حيان والزهرى وإبراهيم التيمي نحوه
ذلك وهذه قراءة ظاهرة في وجوب الغسل كما قاله السلف ومن ههنا ذهب من ذهب إلى وجوب الترتيب في الوضوء كما
هو مذهب الجمهور خلافاً لأبي حنيفة حيث لم يشترط الترتيب بل لو غسل قدميه ثم مسح رأسه وغسل يديه ثم وجهه
أجزأ ذلك لأن الآية أمرت بغسل هذه الأعضاء والواو لا تدل على الترتيب وقد سلك الجمهور في الجواب عن هذا
البحث طرقاً فمنهم من قال الآية دلت على وجوب غسل الوجه ابتداء عند القيام إلى الصلاة لأنه مأثور به بقاء التعقيب
وهي مقتضية للترتيب ولم يقل أحد من الناس بوجوب غسل الوجه أولاً ثم لا يجب الترتيب بعده بل القائل اثنان أحدهما
يوجب الترتيب كما هو واقع في الآية ، والآخر يقول لا يجب الترتيب مطلقاً والآية دلت على وجوب غسل الوجه
ابتداء فوجب الترتيب فيما بعده بالإجماع حيث لا فارق ، ومنهم من قال لا نسلم أن الواو لا تدل على الترتيب بل هي دالة كما
هو مذهب طائفة من النحاة وأهل اللغة وبعض الفقهاء ، ثم نقول بتقدير تسليم كونها لا تدل على الترتيب اللغوي هي
دالة على الترتيب شرعاً فيما من شأنه أن يرتب ، والدليل على ذلك أنه ﷺ لما طاف بالبيت خرج من باب الصفا وهو
يتلو قوله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله) ثم قال « أبدأ بما بدأ الله به » لفظ مسلم ، ولفظ النسائي « ابدء بما
بدأ الله به » وهذا لفظ أمر وإسناده صحيح فدل على وجوب البداء بما بدأ الله به وهو معنى كونها تدل على الترتيب
شرعاً والله أعلم . ومنهم من قال لما ذكر الله تعالى هذه الصفة في هذه الآية على هذا الترتيب فقطع النظر عن النظر
وأدخل المسح بين الغسولين دل ذلك على إرادة الترتيب ومنهم من قال لا شك أنه قد روى أبو داود وغيره من
طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ توضأ مرة مرة ثم قال « هذا وضوء لا يقبل الله
الصلاة إلا به » قالوا فلا يخلوا إما أن يكون توضأ مرتباً فيجب الترتيب ، أو يكون توضأ غير مرتب فيجب عدم
الترتيب ولا قائل به فوجب ما ذكرناه : وأما القراءة الأخرى وهي قراءة من قرأ وأرجلكم بالخفض : فقد احتج بها
الشيعة في قولهم بوجوب مسح الرجلين لأنها عندهم معطوفة على مسح الرأس . وقد روى عن طائفة من السلف ما يؤم القول
بالمسح فقال ابن جرير حدثني يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية حدثنا حميد قال : قال موسى بن أنس لأنس ونحن عنده
يا أبا حمزة إن الحجاج خطبنا بالأهواز ونحن معه فذكر الطهور فقال اغسلوا وجوهكم وأيديكم وامسحوا برؤوسكم
وأرجلكم وإنه ليس شيء من ابن آدم أقرب من خبثه من قدميه فاعسلوا بطونهما وظهورهما وعراقيهما فقال أنس
صدق الله وكذب الحجاج قال الله تعالى (وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم) قال وكان أنس إذا مسح قدميه بلهما إسناده صحيح إليه
وقال ابن جرير حدثنا علي بن سهل حدثنا مؤمل حدثنا حماد حدثنا عاصم الأحول عن أنس قال نزل القرآن بالمسح والسنة
بالغسل . وهذا أيضاً إسناده صحيح . وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا محمد بن قيس الخراساني عن ابن جرير عن
عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال الوضوء غسلتان ومسحتان وكذا روى سعيد بن أبي عروبة عن قتادة وقال
ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو معمر المنقري حدثنا عبد الوهاب حدثنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس
(وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين) قال هو المسح ثم قال وروى عن ابن عمر وعلقمة وأبي جعفر محمد بن
علي والحسن في إحدى الروايات وجابر بن زيد ومجاهد في إحدى الروايات نحوه وقال ابن جرير حدثنا يعقوب
حدثنا ابن علية حدثنا أيوب قال رأيت عكرمة يمسح على رجله قال وكان يقول . وقال ابن جرير حدثني أبو السائب
حدثنا ابن إدريس عن داود بن أبي هند عن الشعبي قال نزل جبريل بالمسح ثم قال الشعبي ألا ترى أن التيمم أن يمسح ما كان
غسلاً ويلغى ما كان مسحاً وحدثنا ابن أبي زياد حدثنا يزيد أخبرنا إسماعيل قت لامر إن ناساً يقولون إن جبريل نزل
بغسل الرجلين فقال نزل جبريل بالمسح فهذه آثار غريبة جداً وهي محمولة على أن المراد بالمسح هو الغسل الخفيف لما سنده كره

من السنة الثابتة في وجوب غسل الرجلين ، وإنما جاءت هذه القراءة بالحفض إما على المجاورة وتناسب الكلام كما في قول العرب جحر ضب خرب وكقوله تعالى (عليهم ثياب سندس خضر واستبرق) وهذا ذائع شائع في لغة العرب سائغ ومنهم من قال هي محمولة على مسح القدمين إذا كان عليهما الخفان قاله أبو عبد الله الشافعي رحمه الله ، ومنهم من قال هي دالة على مسح الرجلين ولكن المراد بذلك الغسل الخفيف كما وردت به السنة وعلى كل تقدير فالواجب غسل الرجلين فرضاً لا بد منه للآية والآحاديث التي سنورها ، ومن أحسن ما يستدل على أن المسح يطلق على الغسل الخفيف ما رواه الحافظ البيهقي حيث قال أخبرنا أبو علي الروزبادي حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن حموية العسكري حدثنا جعفر بن محمد القلانسي حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا عبد الملك بن ميسرة سمعت النزال بن سبرة يحدث عن علي بن أبي طالب أنه صلى الظهر ثم قعد في حوائج الناس في رجة الكوفة حتى حضرت صلاة العصر ثم أتى بكوز من ماء فأخذ منه حفنة واحدة فمسح بها وجهه ويديه ورأسه ورجليه ثم قام فشرب فضله وهو قائم ثم قال إن ناساً يكرهون الشرب قائماً وإن رسول الله ﷺ صنع كما صنعت وقال « هذا وضوء من لم يحدث » رواه البخاري في الصحيح عن آدم ببعض معناه . ومن أوجب من الشيعة مسحهما كما مسح الخف فقد ضل وأضل وكذا من جوز مسحهما وجوز غسلهما فقد أخطأ أيضاً ومن نقل عن أبي جعفر بن جرير أنه أوجب غسلهما للأحاديث وأوجب مسحهما للآية فلم يحقق مذهبه في ذلك فإن كلامه في تفسيره إما يدل على أنه أراد أنه يجب ذلك الرجلين من دون سائر أعضاء الوضوء لأنهما يليان الأرض والطين وغير ذلك فأوجب ذلك ليهما ليهما ولكن عبر عن ذلك بالمسح فاعتقد من لم يتأمل كلامه أنه أراد وجوب الجمع بين غسل الرجلين ومسحهما فحكاه من حكاه كذلك ولهذا يستشكله كثير من الفقهاء وهو معذور فإنه لا معنى للجمع بين المسح والغسل سواء تقدمه أو تأخر عليه لاندراجه فيه وإنما أراد الرجل ما ذكرته والله أعلم : ثم تأملت كلامه أيضاً فإذا هو يحاول الجمع بين القراءتين في قوله (وأرجلكم) خفصاً على المسح وهو الدلك ونصباً على الغسل فأوجبهما أخذاً بالجمع بين هذه وهذه

﴿ ذكر الأحاديث الواردة في غسل الرجلين وأنه لا بد منه ﴾

قد تقدم في حديث أمير المؤمنين عثمان وعلي وابن عباس ومعاوية وعبد الله بن زيد بن عاصم والمقداد بن معديكرب أن رسول الله ﷺ غسل الرجلين في وضوئه إما مرة وإما مرتين أو ثلاثاً على اختلاف رواياتهم وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ توضأ فغسل قدميه ثم قال « هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به » وفي الصحيحين من رواية أبي عوانة عن أبي بشر عن يوسف بن ماهك عن عبد الله بن عمرو قال تخلف عنا رسول الله ﷺ في سفرنا سافرناها فأدركنا وقد أرهقنا الصلاة صلاة العصر ونحن نتوضأ فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادى بأعلى صوته « أسبغوا الوضوء ويل للأعقاب من النار » وكذلك هو في الصحيحين عن أبي هريرة وفي صحيح مسلم عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال : « أسبغوا الوضوء ويل للأعقاب من النار » وروى الليث بن سعد عن حيوة بن شريح عن عقبة بن مسلم عن عبد الله بن الحارث بن حرز أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار » رواه البيهقي والحاكم وهذا إسناد صحيح وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي إسحق أنه سمع سعيد بن أبي كرب أو شعيب بن أبي كرب قال سمعت جابر بن عبد الله وهو على جبل يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ويل للعراقيب من النار » وحدثنا أسود بن عامر أخبرنا إسرائيل عن أبي إسحق عن سعيد بن أبي كرب عن جابر بن عبد الله قال رأى النبي ﷺ في رجل رجل مثل الدرهم لم يغسله فقال « ويل للأعقاب من النار » ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن أبي الأحوص عن أبي إسحق عن سعيد بن نحوه وكذا رواه ابن جرير من حديث سفیان الثوري وشعبة بن الحجاج وغير واحد عن أبي إسحق السبيعي عن سعيد بن أبي كريب عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله ثم قال حدثنا علي بن مسلم حدثنا عبد الصمد

ابن عبد الوراث حدثنا حفص عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر أن رسول الله ﷺ رأى قوما يتوضئون لم يصب أعقابهم الماء فقال « ويل للعراقيب من النار » وقال الإمام أحمد حدثنا خلف بن الوليد حدثنا أيوب بن عقبة عن يحيى بن كثير عن أبي سلمة عن معقيب قال : قال رسول الله ﷺ « ويل للأعقاب من النار » تفرد به أحمد وقال ابن جرير حدثني علي بن عبد الأعلى حدثنا المحاربي عن مطروح بن يزيد عن عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ « ويل للأعقاب من النار » قال فما بقي في المسجد شريف ولا وضيع إلا نظرت إليه يقلب عرقويه ينظر إليهما . وحدثنا أبو كريب حدثنا حسين عن زائدة عن ليث حدثني عبد الرحمن بن سابط عن أبي أمامة أو عن أخي أبي أمامة أن رسول الله ﷺ أبصر قوما يصلون وفي عقب أحدهم أو كعب أحدهم مثل موضع الدرهم أو موضع الظفر لم يمسسه الماء فقال « ويل للأعقاب من النار » قال فجعل الرجل إذا رأى في عقبه شيئاً لم يصبه الماء أعاد وضوءه . ووجه الدلالة من هذه الأحاديث ظاهرة وذلك أنه لو كان فرض الرجلين مسحهما أو أنه يجوز ذلك فهما لما تواعد على تركه لأن المسح لا يستوعب جميع الرجل بل يجري فيه ما يجري في مسح الخف وهكذا وجه هذه الدلالة على الشيعة الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى وقد روى مسلم في صحيحه من طريق أبي الزبير عن جابر عن عمر بن الخطاب أن رجلاً توضأ فترك موضع ظفر على قدمه فأبصره النبي ﷺ وقال « ارجع فأحسن وضوءك » وقال الحافظ أبو بكر البيهقي أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا محمد بن إسحق الصنعاني حدثنا هرون بن معروف حدثنا ابن وهب حدثنا جرير بن حازم أنه سمع قتادة بن دعامة قال حدثنا أنس بن مالك أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ قد توضأ وترك على قدمه مثل موضع الظفر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « ارجع فأحسن وضوءك » وهكذا رواه أبو داود عن هرون بن معروف وابن ماجه عن حرملة ويحيى كلاهما عن ابن وهب به وهذا إسناد جيد رجاله كلهم ثقات لكن قال أبو داود ليس هذا الحديث بمعروف لم يروه إلا ابن وهب وحدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد أخبرنا يونس وحميد عن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعنى حديث قتادة

وقال الإمام أحمد حدثنا إبراهيم بن أبي العباس حدثنا بقية حدثني يحيى بن سعد عن خالد بن معدان عن بعض أزواج النبي ﷺ رأى رجلاً يصلي وفي ظهر قدمه لمعة قدر الدرهم لم يصبها الماء فأمره رسول الله ﷺ أن يعيد الوضوء . ورواه أبو داود من حديث بقية وزاد الصلاة وهذا إسناد جيد قوى صحيح والله أعلم .

وفي حديث حمران عن عثمان في صفة وضوء النبي ﷺ أنه خلل بين أصابعه . وروى أهل السنن من حديث إسماعيل بن كثير عن عاصم بن لقيط بن صبرة عن أبيه قال قلت يا رسول الله أخبرني عن الوضوء فقال « أسبغ الوضوء وخلل بين الأصابع وبالغ في الاستنشاق إلا أن تكون صائماً »

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن يزيد أبو عبد الرحمن المقرئ حدثنا عكرمة بن عمار حدثنا شداد بن عبد الله الدمشقي قال : قال أبو أمامة حدثنا عمرو بن عبسة قال قلت يا رسول الله أخبرني عن الوضوء قال « مامنكم من أحد يقرب وضوءه ثم يتمضمض ويستنشق وينثر إلا خرت خطاياه من فمه وخياشيمه مع الماء حين ينثر ، ثم يغسل وجهه كما أمره الله إلا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء ، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرت خطايا يديه من أطراف أنامله ، ثم يمسح رأسه إلا خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء ، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين كما أمره الله إلا خرت خطايا قدميه من أطراف أصابعه مع الماء ثم يقوم فيحمد الله ويثنى عليه بالذي هوله أهل ثم يركع ركعتين إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » قال أبو أمامة ياعمرؤ انظر ماتقول سمعت هذا من رسول الله ﷺ أعطى هذا الرجل كله في مقامه ؟ فقال عمرو بن عبسة يا أبا أمامة لقد كبرت سني وورق عظمي واقترب أجلي وما بي حاجة أن أكذب على الله وعلى رسول الله ﷺ لو لم أسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مرة

أو مرتين أو ثلاثاً . لقد سمعته سبع مرات أو أكثر من ذلك وهذا إسناد صحيح وهو في صحيح مسلم من وجه آخر وفيه ثم يغسل قدميه كما أمره الله فدل على أن القرآن يأمر بالغسل ، وهكذا روى أبو إسحق السبيعي عن الحارث عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : اغسلوا القدمين إلى الكعبين كما أمرتم ، ومن هنا يتضح لك المراد من حديث عبد خير عن علي أن رسول الله ﷺ رش على قدميه الماء وهما في النعلين فذلكهما إنما أراد غسلاً خفيفاً وهما في النعلين ولا مانع من إيجاد الغسل والرجل في نعلها ولكن في هذا رد على المتعمقين والتنظييين من الموسوسين . وهكذا الحديث الذي أورده ابن جرير على نفسه وهو من روايته عن الأعمش عن أبي وائل عن حذيفة قال : أتى رسول الله ﷺ سباطة قوم فبال قائماً ثم دعا بماء فتوضأ ومسح على نعليه ، وهو حديث صحيح . وقد أجاب ابن جرير عنه بأن الثقات الحفاظ روه عن الأعمش عن أبي وائل عن حذيفة قال فبال قائماً ثم توضأ ومسح على خفيه قلت ويحتمل الجمع بينهما بأن يكون في رجله خفان وعليهما نعلان وهكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل حدثنا يحيى عن شعبة حدثني يعلى عن أبيه عن أوس بن أبي أوس قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ ومسح على نعليه ثم قام إلى الصلاة . وقدرناه أبو داود عن مسدد وعباد بن موسى كلاهما عن هشيم عن يعلى بن عطاء عن أبيه عن أوس بن أبي أوس قال رأيت رسول الله ﷺ أتى سباطة قوم فبال وتوضأ ومسح على نعليه وقدميه وقد رواه ابن جرير من طريق شعبة ومن طريق هشيم ثم قال وهذا محمول على أنه توضأ كذلك وهو غير محدث إذ كان غير جائز أن تكون فرائض الله وسنن رسوله متنافية متعارضة وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم الأمر بعموم غسل القدمين في الوضوء بالماء بالنقل المستفيض القاطع عذر من انتهى إليه وبلغه ، ولما كان القرآن أمراً بغسل الرجلين كما في قراءة النصب وكما هو الواجب في حمل قراءة الخفض عليها توهم بعض السلف أن هذه الآية ناسخة لرخصة المسح على الخفين وقد روى ذلك عن علي بن أبي طالب ولكن لم يصح إسناده ثم الثابت عنه خلافه وليس كما زعموه فإنه قد ثبت أن النبي ﷺ مسح على الخفين بعد نزول هذه الآية الكريمة وقال الإمام أحمد . حدثنا هشيم بن القاسم حدثنا زياد بن عبد الله بن عاتكة عن عبد الكريم بن مالك الجزري عن مجاهد عن جرير بن عبد الله البجلي قال أنا أسلمت بعد نزول المائدة وأنا رأيت رسول الله ﷺ يمسح بعدما أسلمت تفرد به أحمد وفي الصحيحين من حديث الأعمش عن إبراهيم عن همام قال قال جرير ثم توضأ ومسح على خفيه فقلت تفعل هذا ؟ فقال نعم رأيت رسول الله ﷺ بال ثم توضأ ومسح على خفيه قال الأعمش قال إبراهيم فكان يعجبهم هذا الحديث لأن إسلام جرير كان بعد نزول المائدة : لفظ مسلم وقد ثبت بالتواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مشروعية المسح على الخفين قولاً منه وفعلًا كما هو مقرر في كتاب الأحكام الكبير مع ما يحتاج إلى ذكره هناك من تأييد المسح أو عدمه أو التفصيل فيه كما هو مبسوط في موضعه وقد خالفت الروافض في ذلك بلا مستند بل ببطلان وضلال مع أنه ثابت في صحيح مسلم من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما ثبت في الصحيحين عنه عن النبي ﷺ النهي عن نكاح المتعة وهم يستيحيونها ، وكذلك هذه الآية الكريمة دالة على وجوب غسل الرجلين مع ما ثبت بالتواتر من فعل رسول الله ﷺ على وفق ما دلت عليه الآية الكريمة ، وهم مخالفون لذلك كله وليس لهم دليل صحيح في نفس الأمر والله الحمد ، وهكذا خالفوا الأئمة والسلف في الكعبين اللذين في القدمين فعندهم أنهم في ظهر القدم فعندهم في كل رجل كعب وعند الجمهور أن الكعبين هما العظمان الناثان عند مفصل الساق والقدم . قال الربيع قال الشافعي لم أعلم مخالفاً في أن الكعبين اللذين ذكرهما الله في كتابه في الوضوء هما الناثان وهما مجمع مفصل الساق والقدم هذا لفظه فعند الأئمة رحمهم الله في كل قدم كعبان كما هو المعروف عند الناس وكادلت عليه السنة في الصحيحين من طريق حمران عن عثمان أنه توضأ فغسل رجله اليمنى إلى الكعبين واليسرى مثل ذلك

وروى البخاري تعليقاً مجزوماً به وأبو داود وابن خزيمة في صحيحه من رواية أبي القاسم الحسيني بن الحارث الجدلي عن النعمان بن بشير قال أقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال « أقيموا صفوفكم - ثلاثاً - والله لآتيكم صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم » قال فرأيت الرجل يلزق كعبه بكعب صاحبه وركبته ركبة صاحبه ومنكبه بمنكبه

لفظ ابن خزيمة فليس يمكن ان يلزق كعبه بكعب صاحبه إلا والمراد به العظم الناقص في الساق حتى يحاذي كعب الآخر
فدل ذلك على ما ذكرناه من أنهما العظامان اللتان عند مفصل الساق والقدم كما هو مذهب أهل السنة . وقد قال ابن
أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا إسماعيل بن موسى أخبرنا شريك عن يحيى بن الحارث التيمي يعني الحارث قال نظرت في قتلى
أصحاب زيد فوجدت الكعب فوق ظهر القدم وهذه عقوبة عوقب بها الشيعة بعد قتلهم تنكيلا بهم في مخالفتهم الحق
وإصرارهم عليه . وقوله تعالى (وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء
فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه) كل ذلك قد تقدم الكلام عليه في تفسير آية النساء فلا حاجة
بنا إلى إعادته لثلا يطول الكلام . وقد ذكرنا سبب نزول آية التيمم هناك لكن البخاري روى ههنا حديثا خاصا بهذه
الآية الكريمة فقال حدثنا يحيى بن سليمان حدثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث أن عبد الرحمن بن القاسم حدثه عن
أبيه عن عائشة قالت سقطت قلادة لي بالبيداء ونحن داخلون المدينة فأنشأ رسول الله ﷺ ونزل فتشى رأسه
في حجري راقد فأقبل أبو بكر فلكنزني لكزة شديدة وقال: حبست الناس في قلادة فتضمنت الموت لمكان رسول الله
الله ﷺ مني وقد أوجعني ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم استيقظ وحضرت الصبح فالتمس الماء فلم يوجد
فنزلت (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم) إلى آخر الآية فقال أسيد بن الحضير لقد بارك الله
للناس فيكم يا آل أبي بكر ما أنتم إلا بركة لهم . وقوله تعالى (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) أي فلقد أسهل عليكم
ويسر ولم يعسر بل أباح التيمم عند المرض وعند فقد الماء توسعة عليكم ورحمة بكم وجعله في حق من شرع له يقوم
مقام الماء إلا من بعض الوجوه كما تقدم بيانه وكما هو مقرر في كتاب الأحكام الكبير . وقوله تعالى (ولكن يريد
ليظهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) أي لعلكم تشكرون نعمه عليكم فيما شرعه لكم من التوسعة والرفقة
والرحمة والتسهيل والساحة وقد وردت السنة بالحث على الدعاء عقب الوضوء بأن يجعل فاعله من التطهرين الداخلين
في امتثال هذه الآية الكريمة كما رواه الامام أحمد ومسلم وأهل السنن عن عقبة بن عامر قال كانت علينا رعاية الإبل فجاءت
نوبتي فروحتها بعشي فأدركت رسول الله ﷺ قائما يحدث الناس فأدركت من قوله « ما من مسلم يتوضأ
فيحسن وضوءه ثم يقوم فيصلي ركعتين مقبلا عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة » قال : قلت ما أجود هذه فإذا
قائل بين يدي يقول التي قبلها أجود منها فنظرت فإذا عمر رضى الله عنه فقال إني قد رأيتك جثت آنفا قال « ما منكم
من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب
الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » لفظ مسلم . وقال مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول
الله ﷺ قال « إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع
الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يده مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا
غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقيا من الذنوب » رواه مسلم
عن أبي الطاهر عن ابن وهب عن مالك به : وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا معاوية بن هشام عن سفيان
عن منصور عن سالم بن أبي الجعد عن كعب بن مرة قال : قال رسول الله ﷺ « ما من رجل يتوضأ فيغسل يديه
أو ذراعيه إلا خرجت خطاياه ، منهما فإذا غسل وجهه خرجت خطاياه من وجهه فإذا مسح رأسه خرجت خطاياه من
رأسه فإذا غسل رجليه خرجت خطاياه من رجليه » هذا لفظه وقد رواه الإمام أحمد عن محمد بن جعفر عن شعبة عن
منصور عن سالم عن مرة بن كعب أو كعب بن مرة السلمي عن النبي ﷺ قال « وإذا توضأ العبد فغسل يديه خرجت خطاياه
من بين يديه وإذا غسل وجهه خرجت خطاياه من وجهه وإذا غسل ذراعيه خرجت خطاياه من ذراعيه وإذا غسل رجليه
خرجت خطاياه من رجليه » قال شعبة ولم يذكر مسح الرأس وهذا إسناد صحيح
وروى ابن جرير من طريق شمر بن عطية عن شهر بن حوشب عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ « من
توضأ فأحسن الوضوء ثم قام إلى الصلاة خرجت ذنوبه من سمعه وبصره وبديته ورجليه » وروى مسلم في صحيحه من حديث

يحيى بن أبي كثير عن زيد بن سلام عن جده مخطور عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال « الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض والصوم جنة والصبر ضياء والصدقة برهان والقرآن حجة لك أو عليك كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » وفي صحيح مسلم من رواية سماك بن حرب عن مصعب بن سعد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « لا يقبل الله صدقة من غلول ولا صلاة بغير طهور » وقال أبو داود الطيالسي حدثنا شعبة عن قتادة سمعت أبي المليح الهذلي يحدث عن أبيه قال كنت مع رسول الله ﷺ في بيت فسمعته يقول « إن الله لا يقبل صلاة من غير طهور ولا صدقة من غلول » وكذا رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث شعبة

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَاؤُكُمْ قَوْمٌ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ مُّشْكُوتُونَ أَن يُلَاسُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى مذكراً عباده المؤمنين نعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم ، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته على متابعتة ومناصرته ومؤازرته . والقيام بدينه وإبلاغه عنه وقبوله منه فقال تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا) وهذه هي البيعة التي كانوا يبائعون عليها رسول الله ﷺ عند إسلامهم كما قالوا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله ، وقال الله تعالى (وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا برسبكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين) وقيل هذا تذكار لليهود بما أخذ عليهم من المواثيق والعهود في متابعة محمد ﷺ والالتقاء لشرعه رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وقيل هو تذكار بما أخذ تعالى من العهد على ذرية آدم حين استخرجهم من صلبه وأشهدهم على أنفسهم (ألسنت بربكم قالوا بلى شهدنا) قاله مجاهد ومقاتل بن حيان والقول الأول أظهر وهو المحكي عن ابن عباس والسدي واختاره ابن جرير ثم قال تعالى (واتقوا الله) تأكيد وتحريض على مواظبة التقوى في كل حال ثم أعلمهم أنه يعلم ما يختلج في الضمائر من الأسرار والخواطر فقال (إن الله عليم بذات الصدور) وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله) أي كونوا قوامين بالحق لله عز وجل لا لأجل الناس والسمعة وكونوا (شهداء بالقسط) أي بالعدل لا بالجور وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير أنه قال نعلني أني نخلت أمة بنت ربيعة لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ فجاءه ليشهد على صدقي فقال « أكل ولدك نخلت مثله؟ » قال لا فقال « اتقوا الله واعملوا في أولادكم » وقال « إني لا أشهد على جور » قال فرجع أبي فرد تلك الصدقة . وقوله تعالى (ولا يجرمَنَّكم شتان قوم على أن لا تعدلوا) أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم بل استعملوا العدل في كل أحد صديقا كان أو عدوا ولهذا قال (اعدلوا هو أقرب للتقوى) أي عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه ودل الفعل على المصدر الذي عاد الضمير عليه كما في نظائره من القرآن وغيره كما في قوله (وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم) وقوله : هو أقرب للتقوى من باب استعمال أفعل التفضيل

في الحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء كما في قوله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا)
وكقول بعض الصحابيَات لعمر أنت أظ وأغظ من رسول الله ﷺ ثم قال تعالى (واتقوا الله إن الله خير بما
تعملون) أي وسيجزيكم على ما علم من أفعالكم التي عملتموها إن خيرا فخير وإن شرا فشر ولهذا قال بعده
(وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة) أي لنوبهم (وأجر عظيم) وهو الجنة التي هي من رحمته على
عباده لا ينالونها بأعمالهم بل برحمته منه وفضل وإن كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم وهو تعالى الذي جعلها أسبابا
إلى نيل رحمته وفضله وعفوه ورضوانه فالكل منه وله فله الحمد والمنة ثم قال (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك
أصحاب الجحيم) وهذا من عدله تعالى وحكمته الذي لا يجوز فيه بل هو الحكم العدل الحكيم القدير وقوله
تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن ييسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم) قال
عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري ذكره عن أبي سلمة عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل منزلا وتفرق
الناس في العشاء يستظلون تحتها وعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم
وسلم فأخذه فسله ثم أقبل على النبي ﷺ فقال من يمنعك مني قال « الله عز وجل » قال الأعرابي مرتين أو ثلاثا من
يمنعك مني ؟ والنبي ﷺ يقول « الله » قال فشام الأعرابي السيف فدعا النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه فأخبرهم خبر
الأعرابي وهو جالس إلى جنبه ولم يعاقبه . وقال معمر كان قتادة يذكر نحو هذا ويذكر أن قوما من العرب أرادوا
أن يفتكوا برسول الله ﷺ فأرسلوا هذه الأعرابي وتأول (اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن ييسطوا إليكم
أيديهم) الآية وقصة هذا الأعرابي وهو غورث بن الحارث ثابتة في الصحيح وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية
(يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن ييسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم) وذلك أن قوما
من اليهود صنعوا الرسول ﷺ ولأصحابه طعاما ليقتلوه فأوحى الله إليهم بشأنهم فلم يأت الطعام وأمر أصحابه فأتوه
رواه ابن أبي حاتم وقال أبو مالك نزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه حين أرادوا أن يهدروا بمحمد وأصحابه في
دار كعب بن الأشرف رواه ابن أبي حاتم وذكر محمد بن إسحق بن يسار ومجاهد وعكرمة وغير واحد أنها نزلت
في شأن بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحي لما جاءهم يستعينهم في دية العامرين ووكلوا
عمرو بن جحاش بن كعب بذلك وأمروه إن جلس النبي صلى الله عليه وسلم تحت الجدار واجتمعوا عنده أن يلقي تلك
الرحي من فوقه فأطلع الله النبي ﷺ على ما تاملوا عليه فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه فأنزل الله في ذلك هذه الآية
وقوله تعالى (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) يعني من توكل على الله كفاه الله ما أهمه وحفظه من شر الناس وعصمه
ثم أمر رسول الله ﷺ أن يهدوا إليهم خاصرهم حتى أنزلهم فأجلاهم

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ
الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ
وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * فَبِمَا
نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا
تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَمِنَ الَّذِينَ
قَالُوا إِنَّا تَصَرَّى أَعْدَانَا فَتَبَسَّوْا فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾

لما أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهدهم وميثاقه الذي أخذهم عليه على لسان عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وأمرهم بالقيام بالحق والشهادة بالعدل وذكرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة فيما هداهم له من الحق والهدى شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين اليهود والنصارى فلما تقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنا منه لهم ، وطردا عن بابه وجنابه ، وحجابا لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق وهو العلم النافع والعمل الصالح فقال تعالى (ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا) يعني عرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع والطاعة لله ورسوله ولكتابه وقد ذكر ابن عباس عن ابن إسحق وغير واحد أن هذا كان لما توجه موسى عليه السلام لقتال الجبابرة فأمر بأن يقيم ثقباء من كل سبط ثقيب قال محمد بن إسحق فكان من سبط روبيل شامون بن ركون ومن سبط شمعون شافاط بن حري ومن سبط يهوذا كالب بن يوفنا ومن سبط أتين ميخائيل بن يوسف ومن سبط يوسف وهو سبط إفرايم يوشع بن نون ومن سبط بنيامين فلطم بن دفون ومن سبط زبولون جدى بن شوري ومن سبط منشا بن يوسف جدى بن موسى ومن سبط دان خلائيل بن حمل ومن سبط أشار ساطور بن ملكيل ومن سبط نفتالي بحر بن وقسى ومن سبط يساخر لايل بن مكيد وقد رأيت في السفر الرابع من التوراة تعداد الثقباء على أسباط بني إسرائيل وأسماء مخالفة لما ذكره ابن إسحق والله أعلم قال فيها فعلى بن روبيل اليصور بن سادون وعلى بن شمعون شموال بن صورشكى وعلى بني يهوذا الحشون بن عمياذاب وعلى بني يساخر شال بن صاعون وعلى بني زبولون الياب بن حالوب وعلى بني إفرايم منشا بن عمهور وعلى بني منشا حليائيل بن يرصون وعلى بني بنيامين أيدين بن جدعون وعلى بني دان جعيز بن عميشدى وعلى بني أشار نحائيل بن مجران وعلى بني كان السيف بن دعوايل وعلى بني نفتالي أجزع بن عميتان . وهكذا لما بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار ليلة العقبة كان فيهم اثنا عشر نقيبا ثلاثة من الأوس وهم أسيد بن الحضير وسعد بن خيشمة ورفاعة بن عبد المنذر ويقال بدله أبوالهيثم ابن التيهان رضى الله عنه وتسعة من الخزرج وهم أبوأمامة أسعد بن زرارة وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة ورافع ابن مالك بن العجلان والبراء بن معرور وعبادة بن الصامت وسعد بن عباد وعبد الله بن عمرو بن حرام والمنذر بن عمر بن حنشل (١) رضى الله عنهم وقد ذكرهم كعب بن مالك في شعر له كما أورده ابن إسحق رحمه الله والمقصود أن هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلتشد عن أمر النبي ﷺ لهم بذلك وهم الذين ولوا المعاقدة والمبايعة عن قومهم للنبي صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة قال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن زيد عن مجالد عن الشعبي عن مسروق قال كنا جلوسا عند عبد الله بن مسعود وهو يقرئنا القرآن فقال له رجل يا أبا عبد الرحمن هل سألت رسول الله ﷺ كم يملك هذه الأمة من خليفة ؟ فقال عبد الله ماسألتني عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك ثم قال نعم ولقد سألتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « اثنا عشر كعدة ثقباء بني إسرائيل » هذا حديث غريب من هذا الوجه وأصل هذا الحديث ثابت في الصحيحين من حديث جابر بن سمرة قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول « لا يزال أمر الناس ما ضيا ما أولهم اثنا عشر رجلا » ثم تكلم النبي صلى الله عليه وسلم بكلمة خفيت على فسألت أى ما ذا قال النبي صلى الله عليه وسلم ، قال « كلهم من قريش » وهذا لفظ مسلم . ومعنى هذا الحديث البشارة بوجود اثني عشر خليفة صالحا يقيم الحق ويعدل فيهم ولا يلزم من هذا تواليهم وتتابع أيامهم بل قد وجد منهم أربعة على نسق وهم الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضى الله عنهم ومنهم عمر بن عبد العزيز بلا شك عند الأئمة وبعض بني العباس ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لاجتماع الظاهر أن منهم المهدي المبشر به في الأحاديث الواردة بذكره فذكر أنه يواطىء اسمه اسم النبي صلى الله عليه وسلم واسم أبيه اسم أبيه فيعلا الأرض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما وليس هذا بالمنتظر الذي تنوهمه الرافضة وجوده ثم ظهوره من سرداب سامرأ فإن ذلك ليس له حقيقة ولا وجود بالكلية بل هو من هوس العقول السخيفة ، وتوهم الخيالات الضعيفة وليس المراد بهؤلاء الخلفاء الاثني عشر الأئمة الاثني عشر الذين يعتقد فيهم الاثنا عشرة من الروافض لجهلهم وقلة عقولهم وفي التوراة البشارة بإسمايل عليه

السلام وأن الله يقيم من صلبه اثني عشر عظيماً وهم هؤلاء الخلفاء الاثنا عشر للذكورون في حديث ابن مسعود وجابر بن سمرة وبعض الجبهة ممن أسلم من اليهود إذا اقترن بهم بعض الشيعة يوهونهم أنهم الأئمة الاثنا عشر فيتشيع كثير منهم جهلاً وسفهاً لقلة علمهم وعلم من لقنهم ذلك بالسنن الثابتة عن النبي ﷺ وقوله تعالى (وقال الله إني معكم) أي بحفظي وكلاءتي ونصري (لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي) أي صدقتموه فيما يحيثونكم به من الوحي (وعزرتهم) أي نصرتموهم ووازرتموهم على الحق (وأقرضتم الله قرضاً حسناً) وهو الاتفاق في سبيله وابتغاء مرضاته (لأكفرن عنكم سيئاتكم) أي ذنوبكم أمحوها وأسترها ولا أؤاخذكم بها (ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار) أي أدفع عنكم المحذور وأحصل لكم المقصود وقوله (فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل) أي فمن خالف هذا الميثاق بعد عقده وتوكيده وشده وجحدته وعامله معاملة من لا يعرفه فقد أخطأ الطريق الواضح وعدل عن الهدى إلى الضلال ثم أخبر تعالى عما حل بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه ونقضهم عهده فقال (فبما نقضهم ميثاقهم لعنهم) أي فبسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم لعنهم أي أبعدناهم عن الحق وطردهناهم عن الهدى (وجعلنا قلوبهم قاسية) أي فلا يتعظون بموعظة لعلظها وقساوتها (يحرفون الكلم عن مواضعه) أي فسدت فهمهم وساء تصرفهم في آيات الله وتأولوا كتابه على غير ما أنزله وحملوه على غير مراده وقالوا عليه ما لم يقل عياداً بالله من ذلك (ونسوا حظاً مما ذكرناهم به) أي وتركوا العمل به رغبة عنه وقال الحسن تركوا عرى دينهم ووظائف الله تعالى التي لا يقبل العمل إلا بها وقال غيره تركوا العمل فصاروا إلى حالة رديئة فلا قلوب سليمة ولا فطر مستقيمة ولا أعمال قوية (ولا تزال تطلع على خائنة منهم) يعني مكرمهم وغدرهم لك ولأصحابك وقال مجاهد وغيره يعني بذلك تملأهم على الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم (فأعف عنهم واصفح) وهذا هو عين النصر والظفر كما قال بعض السلف ما عاملت من عصي الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق ولعل الله أن يهديهم ولهذا قال تعالى (إن الله يحب المحسنين) يعني به الصفح عمن أساء إليك وقال قتادة هذه الآية فأعف عنهم واصفح منسوخة بقوله (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) الآية . وقوله تعالى (ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم) أي ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى متابعون المسيح بن مريم عليه السلام وليسوا كذلك أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ومناصرتهم وموازرتهم واقفاء آثاره وعلى الإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض ففعلوا كما فعل اليهود خالفوا المواثيق ونقضوا العهود ولهذا قال تعالى (ونسوا حظاً مما ذكرناهم به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) أي فآلقينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم بعضاً ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين يكفر بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً فكل فرقة تحرم الأخرى ولا تدعها تلج معبداً فالملكية تكفر الإيعقوبية وكذلك الآخرون وكذلك النسطورية والآريوسية كل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ثم قال تعالى (وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون) وهذا تهديد ووعيد أكيد للنصارى على ما ارتكبوه من الكذب على الله وعلى رسوله وما نسبوه إلى الرب عز وجل وتعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً من جعلهم له صاحبة وولداً تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد

﴿يَا أَهْلَ الْأَرْضِ إِنِّي نَزَّلْتُ إِلَيْكُمْ الذِّكْرَ وَإِنِّي عَلَى الْغُلَامَاتِ بِإِذْنِي وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة أنه قد أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض عربهم وعجمهم أميهم وكتابهم وأنه بعثه بالبينات والفرق بين الحق والباطل فقال تعالى (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم كثيراً مما

كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير) أى يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه واقتروا على الله فيه ويسكت عن كثير مما غيروه ولا فائدة في بيانه وقد روى الحاكم في مستدركه من حديث الحسين بن واقد عن يزيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنه قال من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب قوله (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب) فكان الرجم مما أخفوه ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذى أنزله على نبيه الكريم فقال قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهتدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام) أى طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة (ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) أى ينجيهم من المهالك ، ويوضح لهم أئين المسالك فيصرف عنهم الهدور ، ويحصل لهم أحب الأمور ، وينفى عنهم الضلالة ويرشدكم إلى أقوم حالة

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُسَلِّكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَفِرُّ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

يقول تعالى مخبرا وحاكيا بكفر النصارى فى ادعائهم فى المسيح بن مريم وهو عبد من عباد الله وخلق من خلقه أنه هو الله تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا، ثم قال مخبرا عن قدرته على الأشياء وكونها تحت قهره وسلطانه (قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا) أى لو أراد ذلك فمن ذا الذى كان ينعمه منه أو من ذا الذى يقدر على صرفه عن ذلك ثم قال (ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء) أى جميع الموجودات ملكه وخلقها وهو القادر على ما يشاء لا يسئل عما يفعل بقدرته وسلطانه وعدله وعظمته وهذا رد على النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة: ثم قال تعالى رادا على اليهود والنصارى فى كذبهم واقترائهم (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه) أى نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية وهو يحبنا وتقلوا عن كتابهم أن الله تعالى قال لعبد إسرائيل أنت ابنى بكرى فحملوا هذا على غير تأويله وحرفوه وقد رد عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم وقالوا هذا يطلق عندهم على التشريف والاكرام كما قل النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم إني ذاهب إلى أبى وأبيكم يعنى ربى وربكم ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من البنوة ما ادعوها فى عيسى عليه السلام وإنما أرادوا من ذلك معزتهم لديه وحظوتهم عنده ولهذا قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه . قال الله تعالى رادا عليهم (قل فلم يعذبكم بذنوبكم) أى لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباؤه فلم أعد لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم واقترائكم ؟ وقد قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء أين تجد فى القرن أن الحبيب لا يعذب حبيبه فلم يرد عليه فتلا عليه الصوفى هذه الآية (قل فلم يعذبكم بذنوبكم) وهذا الذى قاله حسن وله شاهد فى المسند للإمام أحمد حيث قال حدثنا ابن أبى عدى عن حميد عن أنس قال مر النبى صلى الله عليه وسلم فى نفر من أصحابه وصبى فى الطريق فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ فأقبلت تسعى وتقول ابنى ابنى وسعت فأخذته فقال القوم يا رسول الله ما كانت هذه لتلقى ولدها فى النار قال فخفظهم النبى صلى الله عليه وسلم فقال «لا والله مالقى حبيبه فى النار» تفرد به أحمد (بل أتم بشر من خلق) أى لكم أسوة أمثالكم من بنى آدم وهو سبحانه الحاكم فى جميع عبادته (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) أى هو فعال لما يريد لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب (ولله ملك السموات والأرض وما بينهما) أى الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه (والإله المصير) أى الرجوع والمآب إليه فيحكم فى عبادته بما يشاء وهو العادل الذى لا يجوز وروى محمد بن إسحق عن محمد بن أبى محمد

عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال وآتى رسول الله ﷺ نعمان بن آصا وبحر بن عمرو وشاس بن عدى فكلّموه وكلّمهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله وحذرهم تقمته فقالوا ماتخوفنا يا محمد نحن والله أبناء الله وأحباؤه كقول النصارى فأنزل الله فيهم (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه) إلى آخر الآية رواه ابن أبي حاتم وابن جرير ورويا أيضا من طريق أسباط عن السدى في قول الله (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه) أما قولهم نحن أبناء الله فإنهم قالوا إن الله أوحى إلى إسرائيل أن ولدك بكرى من الولد فيدخلهم النار فيكونون فيها أربعين ليلة حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم ثم ينادى مناد أن أخرجوا كل مختون من ولد إسرائيل فأخرجوهم فذلك قولهم لن تمسنا النار إلا أياما معدودات

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ قُتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

يقول تعالى مخاطبا أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين الذي لا نبي بعده ولا رسول بل هو المعقب لجميعهم ولهذا قال على قُتْرَةٍ من الرسل أى بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى بن مريم وقد اختلفوا في مقدار هذه الفترة كم هي فقال أبو عثمان النهدي وقتادة في رواية عنه كانت ستائة سنة ورواه البخارى عن سلمان الفارسى وعن قتادة خمسمائة وستون سنة وقال معمر عن بعض أصحابه خمسمائة وأربعون سنة وقال الصاحك أربعمائة وبضع وثلاثون سنة وذكر ابن عساكر في ترجمة عيسى عليه السلام عن الشعبي أنه قال ومن رفع المسيح إلى هجرة النبي صلى الله عليه وسلم تسعمائة وثلاث وثلاثون سنة والمشهور هو القول الأول وهو أنها ستائة سنة ومنهم من يقول ستائة وعشرون سنة ولا منافاة بينهما فإن القائل الأول أراد ستائة سنة شمسية والآخر أراد قمرية وبين كل مائة سنة شمسية وبين القمرية نحو من ثلاث سنين ولهذا قال تعالى في قصة أهل الكهف (ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا) أى قمرية لتكميل ثلاثمائة الشمسية التي كانت معلومة لأهل الكتاب^(١) وكانت الفترة بين عيسى بن مريم آخر أنبياء بنى إسرائيل وبين محمد خاتم النبيين من بنى آدم على الإطلاق كما ثبت في صحيح البخارى عن أنى هريرة أن رسول الله ﷺ قال «أنا أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بينى وبينه نبي» وهذا فيه رد على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبي يقال له خالد بن سنان كما حكاه القاضي وغيره والمقصود أن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل وطموس من السبل وتغير الأديان وكثرة عبادة الأوثان واليران والصلبان فكانت النعمة به أتم النعم ، والحاجة إليه أمرهم ، فإن الفساد كان قد عم جميع البلاد ، والطغيان والجهل قد ظهر في سائر العباد إلا قليلا من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين ، من بعض أجباز اليهود وعباد النصارى والصابئين كما قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا هشام حدثنا قتادة عن مطرف عن عياض بن حماد المجاشعي رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم فقال في خطبته «وإن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم بما علمني في يومى هذا كل مال نحلته عبادى حلال وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإن الشياطين أنتم فأضلّتم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا ثم إن الله عز وجل نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من بنى إسرائيل وقال إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك ، وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرأ نائما ويظننا ، ثم إن الله أمرني أن أحرق قريشا فقلت يارب إذن يثقلوا رأسي فيسعدوه خبزة فقال استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نغزك وأشق عليهم فسنتفك عليك وابعث جيشا نبعث خمسة أمثاله وقاتل بمن أطاعك من عساك وأهل الجنة ثلاثة ذوسلطان مقسط موفق متصدق ورجل رقيق القلب بكل ذى قربى ومسلم ورجل عفيف فقير ذو عيال وأهل النار خمسة الضعيف الذى لا دين له والذين هم فيكم تبسع أو تبعا - شك يحيى - لا يبتغون أهلا ولا مالا ، والحائن الذى لا يخفى له طمع وإن دق إخاانه ، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك وذكر البخل أو الكذب والشنظير

(١) التحقيق الموافق للحساب الفلكي أن الهجرة النبوية كانت سنة ٦٢٢ ميلاد المسيح والبعثة كانت قبل الهجرة بعشر سنين باعتبار التبليغ فهذا قريب مما اعتمدته المؤلف .

الفاحش ثم رواه الإمام أحمد ومسلم والنسائي من غير وجه عن قتادة عن مطرف بن عبد الله بن الشخير وفي رواية شعبة عن قتادة النصريح بسباع قتادة هذا الحديث من مطرف وقد ذكر الإمام أحمد في مسنده أن قتادة لم يسمعه من مطرف وإنما سمعه من أربعة عنه ثم رواه هو عن روح عن عوف عن حكيم الأثرم عن الحسن قال حدثني مطرف عن عياض بن حماد فذكره ورواه النسائي من حديث غندر عن عوف الأعرابي به والقصود من إيراد هذا الحديث قوله «وإن الله نظر إلى أهل الأرض فقتلهم وعذبهم إلا بقايا من بني إسرائيل» وفي لفظ مسلم من أهل الكتاب وكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم حتى بعث الله محمدًا ﷺ فهدى الخلائق وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور وتركهم على المحجة البيضاء والشرعة الغراء ولهذا قال تعالى (أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير) أي لئلا تحتجوا وتقولوا يا أيها الدين بدلوا دينهم وغيروا ما جاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر فقد جاءكم بشير ونذير يعني محمدًا ﷺ (والله على كل شيء قدير) قال ابن جرير معناه إني قادر على عقاب من عصاني وثواب من أطاعني

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَائًا يَأْتِي أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ * يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَكَلَى اللَّهُ فِتْنًا كَلُوا إِن كُنتُمْ ثَاوِينَ * قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبِّكَ فَتَنِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَقَوْمِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مَحْرَمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وكليله موسى بن عمران عليه السلام فيما ذكر به قومه من نعم الله عليهم وآلائه لديهم في جمعه لهم خير الدنيا والآخرة لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة فقال تعالى (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ) أي كلها لك نبي قام فيكم نبي من لدن أبيكم إبراهيم إلى من بعده وكذلك كانوا لا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله ويحذرون نعمته حتى ختموا بعيسى بن مريم عليه السلام ثم أوحى الله إلى خاتم الأنبياء والرسول على الإطلاق محمد بن عبد الله المنسوب إلى إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام وهو أشرف من كل من تقدمه منهم صلى الله عليه وسلم وقوله (وجعلكم ملوكا) قال عبد الرزاق عن الثوري عن منصور عن الحكم أو غيره عن ابن عباس في قوله وجعلكم ملوكا قال الخادم والمرأة والبيت وروى الحاكم في مستدركه من حديث الثوري أيضا عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال المرأة والخادم (وآتاكم مائ يأت أحدا من العالمين) قال الدين هم بين ظهرانيهم يومئذ ثم قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وروى ميمون بن مهران عن ابن عباس قال كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له الزوجة والخادم والدار سمى ملكا وقال ابن جرير حدثنا يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب أنبأنا أبو هانئ أنه سمع أبا عبد الرحمن الحبلي يقول سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص وسأله رجل فقال ألسنا من قراء المهاجرين فقال عبد الله ألك امرأة تأوى إليها قال نعم قال ألك مسكن تسكنه قال نعم ، قال فأنت من الأغنياء . فقال إن لي خادما قال فأنت من الملوك وقال الحسن البصري : هل الملك إلا مركب وخادم ودار رواه ابن جرير ، ثم روى عن الحكم ومجاهد ومنصور وسفيان الثوري نحو ما من هذا وحكاه ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران وقال ابن شوذب

كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له منزل وخادم واستؤذن عليه فهو ملك . وقال قتادة كانوا أول من اتخذ الخدم وقال السدي في قوله (وجعلكم ملوكا) قال يملك الرجل منكم نفسه وماله وأهله رواه ابن أبي حاتم وقال ابن أبي حاتم ذكر عن ابن لهيعة عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملكا وهذا حديث غريب من هذا الوجه وقال ابن جرير حدثنا الزبير ابن بكار حدثنا أبو ضمرة أنس بن عياض سمعت زيد بن أسلم يقول وجعلكم ملوكا فلا أعلم إلا أنه قال : قال رسول الله ﷺ من كان له بيت وخادم فهو ملك وهذا مرسل غريب . وقال مالك : بيت وخادم وزوجة (١) وقد ورد في الحديث « من أصبح منكم معافى في جسده آمنا في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » وقوله (وآتاكم ما لم يؤت أحدكم من العالمين) يعني عالمي زمانكم فانهم كانوا أشرف الناس في زمانهم من اليونان والقبط وسائر أصناف بني آدم كما قال (ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين) وقال تعالى إخبارا عن موسى لما قالوا (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبرماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون * قال أغير الله أبغيتكم إلها وهو فضلكم على العالمين) والمقصود أنهم كانوا أفضل زمانهم وإلا فهذه الأمة أشرف منهم وأفضل عند الله وأكمل شريعة وأقوم منهاجا وأكرم نبيا وأعظم ملوكا وأعز أرزاقا وأكثر أموالا وأولادا وأوسع مملكة وأدوم عزا قال الله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) وقد ذكرنا الأحاديث التواترة في فضل هذه الأمة وشرفها وكرمها عند الله عند قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) من سورة آل عمران؛ وروى ابن جرير عن ابن عباس وأبي مالك وسعيد بن جبير أنهم قالوا في قوله (وآتاكم ما لم يؤت أحدكم من العالمين) يعني أمة محمد صلى الله عليه وسلم فكأنهم أرادوا أن هذا الخطاب في قوله (وآتاكم ما لم يؤت أحدكم) مع هذه الأمة والجمهور على أنه خطاب من موسى لقومه وهو محمول على عالمي زمانهم كما قدمنا . وقيل المراد وآتاكم ما لم يؤت أحدكم من العالمين يعني بذلك ما كان تعالى نزله عليهم من المن والسلوى ويظللهم به من الغمام وغير ذلك مما كان تعالى يخصهم به من خوارق العادات فآله أعلم . ثم قال تعالى مخبرا عن تحريض موسى عليه السلام لبني إسرائيل على الجهاد والدخول إلى بيت المقدس الذي كان بأيديهم في زمان أبيهم يعقوب لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلى بلاد مصر أيام يوسف عليه السلام ثم لم يزالوا بها حتى خرجوا مع موسى فوجدوها قوما من العمالة الجبارين قد استحوذوا عليها وتملكوها فأمرهم رسول الله موسى عليه السلام بالدخول إليها وبقتال أعدائهم وبشرهم بالنصرة والظفر عليهم فنكّلوا وعصوا وخالفوا أمره فعوقبوا باللهاب في التيه والتماذي في سيرهم حائرين لا يدرون كيف يتوجهون فيه إلى مقصد مدة أربعين سنة عقوبة لهم على تفریطهم في أمر الله تعالى . فقال تعالى مخبرا عن موسى أنه قال يا قومي ادخلوا الأرض المقدسة أي المطهرة وقال سفيان الثوري عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس في قوله ادخلوا الأرض المقدسة قال هي الطور وما حوله وكذا قال مجاهد وغير واحد وروى سفيان الثوري عن أبي سعيد البقال عن عكرمة عن ابن عباس قال هي أريحاء وكذا ذكر عن غير واحد من المفسرين وفي هذا نظر لأن أريحاء ليست هي المقصودة بالفتح ولا كانت في طريقهم إلى بيت المقدس وقد قدموا من بلاد مصر حين أهلك الله عدوهم فرعون إلا أن يكون المراد بأريحاء أرض بيت المقدس كما قاله السدي فيأرواه ابن جرير عنه لأن المراد بها هذه البلدة المعروفة في طرف الطور شرقي بيت المقدس وقوله تعالى (التي كتب الله لكم) أي التي وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل أنه وراثته من آمن منكم (ولا تردوا على أدياركم) أي ولا تنكّلوا عن الجهاد فتقبلوا خاسرين . قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإننا لندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فانا داخلون (أي اعتذروا بأن في هذه البلدة التي أمرتنا بدخولها وقتل أهلها قوما جبارين ذوي خلق هائلة وقوى شديدة ، وإننا لا نقدر على مقاومتهم ولا مصاوتهم ولا يمكننا الدخول إليها ماداموا فيها فإن يخرجوا منها دخلناها وإلا فلا طاقة لنا بهم . وقد قال ابن جرير حدثني عبد الكريم بن الهيثم حدثنا إبراهيم بن بشار حدثنا سفيان قال : قال أبو سعيد قال عكرمة عن ابن عباس قال أمر موسى أن يدخل مدينة الجبارين قال فسار موسى بمن

معه حتى نزل قريباً من المدينة وهي أريحاء فبعث إليهم اثني عشر عينا من كل سبط منهم عين ليأتوه بخبر القوم قال فدخلوا المدينة فرأوا أمراً عظيماً من هيئتهم وجسمهم وعظمتهم فدخلوا حائطاً لبعضهم فجاء صاحب الحائط ليحتجى الثمار من حائطه فجعل يحتجى الثمار وينظر إلى آثارهم فتبعهم فكلما أصاب واحداً منهم أخذه فجعله في كفه مع الفاكهة حتى التقط الاثني عشر كلهم فجعلهم في كفه مع الفاكهة وذهب بهم إلى ملكهم فنثرهم بين يديه ، فقال لهم الملك قد رأيتم شأننا وأمرنا فاذهبوا فأخبروا صاحبكم قال فرجعوا إلى موسى فأخبروه بما عاينوا من أمرهم : وفي هذا الإسناد نظر^(١) وقال على ابن أبي طلحة عن ابن عباس لما نزل موسى وقومه بعث منهم اثني عشر رجلاً وهم النقباء الذين ذكرهم الله فبعثهم ليأتوه بخبرهم فساروا فلقيهم رجل من الجبارين فجعلهم في كسائه فجعلهم حتى أتى بهم المدينة ونادى في قومه فاجتمعوا إليه فقالوا من أنتم ؟ قالوا نحن قوم موسى بعثنا أتية بخبركم فأعطوهم حبة من عنب تكفي الرجل فقالوا لهم اذهبوا إلى موسى وقومه فقولوا لهم هذا قدر فاكهتهم ، فرجعوا إلى موسى فأخبروه بما رأوا فلما أمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم وقتالهم قالوا يا موسى اذهب أنت وربك فقاتل إنا ههنا قاعدون رواء ابن أبي حاتم ثم قال حدثنا أبي حدثنا ابن أبي مريم حدثنا يحيى بن أيوب عن يزيد بن الهادي حدثني يحيى بن عبد الرحمن قال رأيت أنس بن مالك أخذ عصا فذرع فيها شئ لا أدرى كم ذرع ثم قالس بها في الأرض خمسين أو خمسا وخمسين ثم قال هكذا طول العالقي : وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا أخباراً من وضع بني إسرائيل في عظمة خلق هؤلاء الجبارين وأن منهم عوج بن عنق بنت آدم عليه السلام وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعاً وثلاث ذراع تحوير الحساب وهذا شئ يستحي من ذكره ، ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ، ثم لم يزل الحلق ينقص حتى الآن » ثم ذكروا أن هذا الرجل كان كافراً وأنه كان ولد زينة وأنه امتنع من ركوب سفينة نوح وأن الطوفان لم يصل إلى ركبته : وهذا كذب وافتراء . فان الله تعالى ذكر أن نوحاً دعا على أهل الأرض من الكافرين فقال (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً) وقال تعالى (فأنجيهم ومن معه في الفلك المشحون*) ثم أغرقنا بعد الباقي (وقال تعالى (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) وإذا كان ابن نوح الكافر غرق فكيف يبقى عوج بن عنق وهو كافر وولد زينة ؟ هذا لا يسوغ في عقل ولا شرع . ثم في وجود رجل يقال له عوج بن عنق نظر والله أعلم . وقوله تعالى (قال رحلن من الذين يخافون أنعم الله عليهم) أي فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله ومتابعة رسول الله موسى صلى الله عليه وسلم حرضهم رحلان الله عليهما نعمة عظيمة وهما ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه . وقرأ بعضهم (قال رحلان من الذين يخافون) أي ممن لهم مهابة وموضع من الناس ويقال إنهما يوشع بن نون وكالب بن يوفنا^(١) . قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطية والسدي والربيع بن أنس وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله فقالوا (ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون*) وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنون) أي إن توكلتم على الله واتبعتم أمره ووافقتم رسوله نصركم الله على أعدائكم وأيدكم وظهركم بهم ودخلتم البلد التي كتبها الله لكم فلم ينفذ دأبهم فيها شيئاً (قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتل إنا ههنا قاعدون) وهذا نكول منهم عن الجهاد ومخالفة لرسولهم : وتخلف عن مقاتلة الأعداء . ويقال إنهم لما نكلوا على الجهاد وعزموا على الانصراف والرجوع إلى مصر سجد موسى وهرون عليهما السلام قدام ملائكة بني إسرائيل إعظاماً لما هموا به وشق يوشع بن نون وكالب بن يوفنا ثيابهما ولا ماقومهما على ذلك فيقال إنهم رجوهما ، وحرى أمر عظيم وخطر جليل وما أحسن ما أجاب به الصحابة رضي الله عنهم يوم بدر رسول الله ﷺ حين استشارهم في قتال النفير الذين جاءوا لمنع العير الذي كان مع أبي سفيان ، فلما فات اقتناص العير واقترب منهم النفير وهم في جمع ما بين التسعائة إلى الألف في العدة والبيض واليلب فتكلم أبو بكر رضي الله عنه فأحسن ، ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين ورسول الله ﷺ يقول « أشيروا على أيها المسلمون » وما يقول ذلك إلا ليستعلم ما عند الأنصار لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ فقال سعد بن معاذ : كأنك تعرض بنا يا رسول الله فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته

(١) والمثل خزافة إسرائيلية . (١) في نسخة الأزهر . يوقنا بالقال وضبط في سفر العدد يفنه بفتح الياء وضم الفاء وتشديد النون .

لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر في الحرب صدق^(١) في اللقاء لعل الله أن يريك منا ماتقر به عينك فسر بنا على بركة الله . فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشطه ذلك . وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا علي بن الحسين حدثنا أبو حاتم الرازي حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري حدثنا حميد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سار إلى بدر استشار المسلمين فأشار عليه عمر ، ثم استشارهم فقالت الأنصار . يا معشر الأنصار إياكم يريد رسول الله ﷺ قالوا إذا لا نقول له كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك ورواه الإمام أحمد عن عبيدة بن حميد عن حميد الطويل عن أنس به ورواه النسائي عن محمد بن المثني عن خالد بن الحارث عن حميد بن عمار عن ابن حبان عن أبي يعلى عن عبد الأعلى بن حماد عن معمر بن سليمان عن حميد بن عمار عن ابن مردويه أنا عبد الله بن جعفر أنا إسماعيل بن عبد الله حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم حدثنا محمد بن شعيب عن الحكم بن أيوب عن عبد الله بن ناسخ عن عتبة بن عبيد السلمي قال : قال النبي ﷺ لأصحابه « ألا تقاتلون ؟ » قالوا نعم ولا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون . وكان ممن أجاب يومئذ المقداد بن عمرو الكندي رضي الله عنه كما قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن مخرق بن عبد الله الأحسى عن طارق هو ابن شهاب أن المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر يارسول الله إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون ، هكذا رواه أحمد من هذا الوجه ، وقد رواه من طريق أخرى فقال حدثنا أسود بن عامر حدثنا إسرائيل عن مخرق عن طارق بن شهاب قال : قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إلى مما عدل به أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال والله يارسول الله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ولكننا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك ، فرأيت وجه رسول الله ﷺ أشرق لذلك وسره ذلك . وهكذا رواه البخاري في المغازي وفي التفسير من طرق عن مخرق به ولفظه في كتاب التفسير عن عبد الله قال : قال المقداد يوم بدر يارسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ولكن امض ونحن معك . فكانه سرى عن رسول الله ﷺ ثم قال البخاري رواه وكيع عن سفيان عن مخرق عن طارق أن المقداد قال للنبي صلى الله عليه وسلم وقال ابن جرير حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال : ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوم الحديبية حين صد المشركون الهدى وحيل بينهم وبين مناسكهم « إني ذاهب بالهدى فناحره عند البيت » فقال له المقداد بن الأسود : أما والله لانكون كالملا من بني إسرائيل إذ قالوا للنبيهم (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون ، فلما سمعها أصحاب رسول الله ﷺ تابعوا على ذلك ، وهذا إن كان محفوظاً يوم الحديبية فيحتمل أنه كرر هذه المقالة يومئذ كما قاله يوم بدر . وقوله (قال رب إني لأملك لإنا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) يعني لما نكل بنو إسرائيل عن القتال غضب عليهم موسى عليه السلام . وقال داعيا عليهم (رب إني لأملك لإنا نفسي وأخي) أي ليس أحديطعني منهم فيمتمل أمراً لله ويحيب إلى مادعوت إليه إلا أنا وأخي هرون (فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) قال العوفي عن ابن عباس يعني اقض بيني وبينهم . وكذا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وكذا قال الضحاك اقض بيننا وبينهم وافتح بيننا وبينهم وقال غيره افرق افصل بيننا وبينهم كما قال الشاعر :

يارب فافرق بينه وبينى * أشد ما فرقت بين اثنين

وقوله تعالى (فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض) الآية لما دعا عليهم موسى عليه السلام حين نكلوا عن الجهاد حكم الله بتحريم دخولها عليهم قدر مدة أربعين سنة فوقعوا في التيه يسرون دائماً لايتهدون للخروج منه وفيه كانت أمور عجيبة وخوارق كثيرة من تظليلهم بالغماء وإنزال المن والسلاوى عليهم ، ومن إخراج الماء الجارى من صخرة

(١) صبر وصدق بضمين فيهما جمع صبور وصدق .

صماء تحمل معهم على دابة ، فإذا ضربها موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عينا تجري لكل شعب عين ، وغير ذلك من المعجزات التي أيد الله بها موسى بن عمران . وهناك نزلت التوراة وشرعت لهم الأحكام ، وعملت قبة العهد ويقال لها قبة الزمان قال يزيد بن هرون عن أصبغ بن زيد عن القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير سألت ابن عباس عن قوله (فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض) الآية . قال فتأهوا في الأرض أربعين سنة يصبحون كل يوم يسرون ليس لهم قرار ، ثم ظلل عليهم الغمام في التيه وأنزل عليهم المن والسلوى وهذا قطعة من حديث القتون ، ثم كانت وفاة هرون عليه السلام ، ثم بعده بمدة ثلاث سنين وفاة موسى الكليم عليه السلام ، وأقام الله فيهم يوشع بن نون عليه السلام نبيا خليفة عن موسى بن عمران ومات أكثر بني إسرائيل هناك في تلك المدة ، ويقال إنه لم يبق منه أحد سوى يوشع وكالب ومن ههنا قال بعض المفسرين في قوله (قال فإنها محرمة عليهم) هذا وقف تام وقوله (أربعين سنة) منصوب بقوله (يتيهون في الأرض) فلما انقضت المدة خرج بهم يوشع بن نون عليه السلام وأبمن بقي منهم وبسائر بني إسرائيل من الجبل الثاني فقصدهم بيت المقدس فحاصرها فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر ، فلما تضيفت الشمس للغروب وخشى دخول السبت عليهم قال : إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها على . فحبسها الله تعالى حتى فتحها وأمر الله يوشع بن نون أن يأمر بني إسرائيل حين يدخلون بيت المقدس أن يدخلوا بابها سجدا وهم يقولون حطة أي حط عناذنونا فبدلوا ما أمروا به ودخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون حبة في شجرة ، وقد تقدم هذا كله في سورة البقرة

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا محمد بن أبي عمر العبدى حدثنا سفيان عن أبي سعيد عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه قوله (فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض) قال فتأهوا أربعين سنة قال فهلك موسى وهرون في التيه وكل من حاوز الأربعين سنة ، فلما مضت الأربعون سنة ناهضهم يوشع بن نون وهو الذي قام بالأمر بعد موسى وهو الذي افتتحها وهو الذي قيل له اليوم يوم الجمعة فهموا بافتتاحها ودنت الشمس للغروب فخشى إن دخلت ليلة السبت أن يسبتوا فادى الشمس إلى مأمور وإنك مأمورة فوقفت حتى افتتحها فوجد فيها من الأموال ما لم ير مثله قط فقربوه إلى النار فلم تأته فقال فيكم الغلول فدعا رؤوس الأسباط وهم اثنا عشر رجلا فبايعهم والتصقت يد رجل منهم بيده فقال : الغلول عندك فأخرجه فأخرج رأس بقرة من ذهب لها عينان من باقوت وأسنان من لؤلؤ فوضعه مع القربان فأنت النار فأكلته وهذا السياق له شاهد في الصحيح ، وقد اختار ابن جرير أن قوله (فإنها محرمة عليهم) هو العامل في أربعين سنة وأنهم مكثوا لا يدخلونها أربعين سنة وهم تائهون في البرية لا يهتدون لمقصد قال : ثم خرجوا مع موسى عليه السلام ففتح بهم بيت المقدس ثم احتج على ذلك من قال بإجماع علماء أخبار الأولين أن عوج بن عنق قتله موسى عليه السلام قال : فلو كان قتله إياه قبل التيه لما رهب بنو إسرائيل من العماليق فدل على أنه كان بعد التيه قال : وأجمعوا على أن بلعام بن باعورا أعان الجبارين بالدعاء على موسى قال وماداك إلا بعد التيه لأنهم كانوا قبل التيه لا يخافون من موسى وقومه ، هذا استدلاله ، ثم قال : حدثنا أبو كريب حدثنا ابن عطية حدثنا قيس عن أبي إسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : قال كانت عصا موسى عشرة أذرع ووثنته عشرة أذرع ، وطوله عشرة أذرع فوثب فأصاب كعب عوج فقتله فكان جسرا لأهل النيل سنة وروى أيضا عن محمد بن بشار حدثنا مؤمل حدثنا سفيان عن أبي إسحق عن نوف هو البكالي قال كان سرير عوج ثمانمائة ذراع وكان طول موسى عشرة أذرع ، وعصاه عشرة أذرع ، ووثب في السماء عشرة أذرع ، فضرب عوجا فأصاب كعبه فسقط ميتا وكان جسرا للناس يمرون عليه .

وقوله تعالى (فلاتأس على القوم الفاسقين) تسلية لموسى عليه السلام عنهم أي لا تأسف ولا تحزن عليهم فيما حكمت عليهم به فانهم مستحقون ذلك . وهذه القصة تضمنت تعريض اليهود وبيان فضائحهم ومخالفتهم لله ولرسوله ونكولهم عن طاعته فيما أمروا به من الجهاد فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم ومقاتلتهم مع أن بين أظهرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكليمه وصفيه من خلقه في ذلك الزمان وهو يعدم بالنصر والظفر بأعدائهم هذا مع ما شاهدوا من فعل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال والعرق له ولجنوده في اليم

وهم ينظرون لتقربه أعينهم وما بالعهد من قدم ، ثم ينكفون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر لا توازي عشر المعشار في عدة أهلها وعددهم ، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام ، واقتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل ، ولا يسترها الليل ، هذا وهم في جهلهم يعمهون ، وفي غيهم يترددون ، وهم البغضاء إلى الله وأعداؤه ، ويقولون مع ذلك نحن أبناء الله وأحباؤه ، فقبح الله وجوههم التي مسخ منها الخنازير والقرود وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود ، ويقضى لهم فيها بتأييد الخلود ، وقد فعل وله الحمد من جميع الوجود

﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَكِن بَسَطَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُورِيكَتِي أَخْبَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾

يقول تعالى مبيناً وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه في قول الجمهور وهما قاييل وهايل كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله بغيا عليه وحسدا له فيما وهبه الله من النعمة وتقبل القربان الذي أخلص فيه لله عز وجل ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين فقال تعالى (وائل عليهم نبأ ابني آدم بالحق) أى اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة إخوان الخنازير والقرود من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبر ابني آدم وهما هايل وقاييل فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف وقوله (بالحق) أى على الجلية والأمر الذي لا لبس فيه ولا كذب ولا وهم ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان كقوله تعالى (إن هذا لهو القصص الحق) وقوله تعالى (نحن نقص عليك نبأهم بالحق) وقال (ذلك عيسى ابن مريم قول الحق) وكان من خبرها فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف ، أن الله تعالى شرع لآدم عليه السلام أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال ، ولكن قالوا كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر وكانت أخت هايل دميعة وأخت قاييل وضيفة ، فأراد أن يستأثر بها على أخيه فأبى آدم ذلك إلا أن يقربا قربانا فمن تقبل منه فهي له فتقبل من هايل ولم يتقبل من قاييل فكان من أمرهما ما قصه الله في كتابه

﴿ ذكر أقوال المفسرين ههنا ﴾

قال السدي فيما ذكر عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان لا يولد لآدم مولود إلا ولد معه جارية فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر حتى ولد له ابنان يقال لهما هايل وقاييل وكان قاييل صاحب زرع وكان هايل صاحب ضرع وكان قاييل أكبرهما وكان له أخت أحسن من أخت هايل وأن هايل طلب أن ينكح أخت قاييل فأبى عليه وقال هي أختي ولدت معي وهي أحسن من أختك وأنا أحق أن أتزوج بها فأمره أبوه أن يزوجه هايل فأبى وأنها قربا قربانا إلى الله عز وجل أيهما أحق بالجارية وكان آدم عليه السلام قد غاب عنهما ، أتى مكة ينظر إليها قال الله عز وجل هل تعلم أن لى بيتا فى الأرض قال اللهم لا قال إن لى بيتا فى مكة فأتاه فقال آدم للسماء احفظى

ولدى بالأمانة فأبت ، وقال للأرض فأبت وقال للجبال فأبت ، فقال لقاييل فقال نعم تذهب وترجع وتجد أهلك كما يسرك فلما انطلق آدم قريبا قربانا وكان قاييل يفخر عليه فقال أنا أحق بها منك هي أختي وأنا أكبر منك وأنا وصي والدي فلما قرب هايل جذعة مميعة وقرب قاييل حزمة سنبل فوجد فيها سنبلة عظيمة ففركها وأكلها فنزلت النار فأكلت قربان هايل وترك قربان قاييل فغضب وقال لأقتلنك حتى لا تنكح أختي فقال هايل إنما يتقبل الله من المتقين رواه ابن جرير وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج عن ابن جريج أخبرني ابن خثيم قال أقبلت مع سعيد بن جبيرة فحدثني عن ابن عباس قال نهى أن تنكح المرأة أخاها توأمها وأمر أن ينكحها غيره من إخوانها ، وكان يولد له في كل بطن رجل وامرأة فبينما هم كذلك إذ ولد له امرأة وضيئة وولده أخرى قبيحة دميعة فقال أخو الدميعة أنكحني أختك وأنكحك أختي فقال لا أنا أحق بأختي فقربا قربانا فتقبل من صاحب الكباش ولم يتقبل من صاحب الزرع فقتله إسناد جيد وحدثنا أبي حدثنا أبو سلمة حدثنا حماد بن سلمة عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس : قوله (إذ قربا قربانا) فقربا قربانها فجاء صاحب الغنم بكباش أعين أقرن أبيض ، وصاحب الحرث بصبرة من طعامه فقبل الله الكباش فخرنه في الجنة أربعين خريفا وهو الكباش الذي ذبحه إبراهيم عليه السلام إسناد جيد . وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا عوف عن أبي الغيرة عن عبد الله بن عمرو وقال إن ابني آدم اللذين قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر كان أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم وإنيهما أمر أن يقربا قربانا وإن صاحب الغنم قرب أكرم غنمه وأسمنها وأحسنها طيبة بها نفسه وإن صاحب الحرث قرب أشتر حرثه السكوزن والزوان غير طيبة بها نفسه ، وإن الله عز وجل تقبل قربان صاحب الغنم ولم يتقبل قربان صاحب الحرث وكان من قصتهما ما قص الله في كتابه قال وإيم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين ولكن منعه التخرج أن يبسط يده إلى أخيه ، وقال إسماعيل بن رافع المدني القاص بلغني أن ابني آدم لما أمرا بالقربان كان أحدهما صاحب غنم وكان أتعج له حمل في غنمه فأحببه حتى كان يؤثره بالليل وكان يحمله على ظهره من حبه حتى لم يكن له مال أحب إليه منه فلما أمر بالقربان قرب الله عز وجل فقبله الله منه فما زال يرتع في الجنة حتى فدى به ابن إبراهيم عليه السلام رواه ابن جرير .

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا الأنصاري حدثنا القاسم بن عبد الرحمن حدثنا محمد بن علي بن الحسين قال قال آدم عليه السلام لهايل وقاييل إن ربي عهد إلي أنه كائن من ذريتي من يقرب القربان فقربا قربانا حتى تقرعني إذا تقبل قربانك قربا وكان هايل صاحب غنم فقرب أكلة غنم خير ما له وكان قاييل صاحب زرع فقرب مشاقة من زرع فأنطلق آدم معهما ، ومعهما قربانها فصعدا الجبل فوضعا قربانها ثم جلسوا ثلاثتهم آدم وهما ينظران إلى القربان فبعث الله نارا حتى إذا كانت فوقهما دنا منها عنق فاحتمل قربان هايل وترك قربان قاييل فأنصرفوا وعلم آدم أن قاييل مسخوط عليه فقال ويلك يا قاييل رد عليك قربانك فقال قاييل أحببته فصليت على قربانه ودعوت له فتقبل قربانه ورد على قرباني فقال قاييل لهايل لأقتلنك وأستريح منك دعا لك أبوك فصلى على قربانك فتقبل منك وكان يتوعده بالقتل إلى أن احتبس هايل ذات عشية في غنمه فقال آدم يا قاييل أين أخوك قال وبعثني له راعيا لا أدرى فقال آدم ويلك يا قاييل انطلق فاطلب أخاك فقال قاييل في نفسه الليلة أقتله وأخذ معه حديدة فاستقبله وهو منقلب فقال يا هايل تقبل قربانك ورد على قرباني لأقتلنك فقال هايل قربت أطيب مالي ، وقربت أنت أحبب مالك وإن الله لا يقبل إلا الطيب إنما يتقبل الله من المتقين فلما قالها غضب قاييل فرفع الحديدة وضربه بها فقال ويلك يا قاييل أين أنت من الله كيف يحزبك بعملك فقتله فطرحه في حوبة من الأرض ، وحيث عليه شيئا من التراب

وروى محمد بن إسحق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول أن آدم أمر ابنه قاييل أن ينكح أخته توأمة هايل وأمر هايل أن ينكح أخته توأمة قاييل فسلم لذلك هايل ورضى وأبى ذلك قاييل وكره تكريما عن أخت هايل ورغب بأخته عن هايل وقال نحن من ولادة الجنة وهما من ولادة الأرض وأنا أحق بأختي ويقول بعض أهل العلم بالكتاب الأول كانت أخت قاييل من أحسن الناس ففضن بها على أخيه وأرادها لنفسه والله أعلم أي ذلك كان فقال له أبوه يا بني

إنها لا تحل لك فأبي قابيل أن يقبل ذلك من قول أبيه قال له أبوه يابى قرب قربانا ويقرب أخوك هايل قربانا فأيكما تقبل قربانه فهو أحق بها وكان قابيل على بذر الأرض وكان هايل على رعاية الماشية فقرب قابيل قمحا وقرب هايل أبكارا من أبكار غنمه وبعضهم يقول قرب بقره فأرسل الله نارا بيضاء فأكلت قربان هايل وتركت قربان قابيل وبذلك كان يقبل القربان إذا قبله رواء ابن جرير

وروى العوفي عن ابن عباس قال من شأنهما أنه لم يكن مسكين يتصدق عليه وإنما كان القربان يقربه الرجل فينا ابنا آدم قاعدان إذ قالا لوقربنا قربانا وكان الرجل إذا قرب قربانا فرضيه الله أرسل اليه نارا فتأكله وإن لم يكن رضيه الله خبت النار ، فقربا قربانا وكان أحدهما راعيا وكان الآخر حراثا وإن صاحب الغنم قرب خير غنمه وأسمها وقرب الآخر بعض زرعه فجاءت النار فنزلت بينهما فأكلت الشاة وتركت الزرع وإن ابن آدم قال لأخيه أتعشى في الناس وقد علموا أنك قربت قربانا فتقبل منك ورد على فلا والله لا ينظر الناس إلى وأنت خير مني فقال لأقتلك فقال له أخوه ماذنبى إنما يتقبل الله من المتقين . رواء ابن جرير فهذا الأثر يقتضى أن تقرب القربان كان لاعتن سبب ولا عن تدارؤ في امرأة كما تقدم عن جماعة ممن تقدم ذكرهم وهو ظاهر القرآن (إذقربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلك قال إنما يتقبل الله من المتقين) فالسياق يقتضى أنه إنما غضب عليه وحسده بقبول قربانه دونه ثم المشهور عند الجمهور أن الذى قرب الشاة هو هايل وأن الذى قرب الطعام هو قابيل وأنه تقبل من هايل شاته حتى قال ابن عباس وغيره إنها الكبش الذى فدى به الديس وهو مناسب والله أعلم ولم يتقبل من قابيل . كذلك نص عليه غير واحد من السلف والخلف وهو المشهور عن مجاهد أيضاً ولكن روى ابن جرير عنه أنه قال الذى قرب الزرع قابيل وهو المتقبل منه وهذا خلاف المشهور ولعله لم يحفظ عنه جيدا والله أعلم

ومعنى قوله (إنما يتقبل الله من المتقين) أى ممن اتقى الله في فعله ذلك وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا إبراهيم بن العلاء بن زيد حدثنا إسماعيل بن عياش حدثني صفوان بن عمرو عن عيم يعنى ابن مالك المقرئ قال سمعت أبا الدرداء يقول لأن أستيقن أن الله قد تقبل لى صلاة واحدة أحب إلى من الدنيا وما فيها إن الله يقول (إنما يتقبل الله من المتقين) وحدثنا أبي حدثنا عبد الله بن عمران حدثنا إسحق بن سليمان يعنى الرازى عن الغيرة بن مسلم عن ميمون بن أبي حمزة قال كنت جالسا عند أبي وائل فدخل علينا رجل يقال له أبو عفيف من أصحاب معاذ فقال له شقيق بن سلمة يا أبا عفيف ألا تحدثنا عن معاذ بن جبل قال بلى سمعته يقول يحبس الناس في بقيع واحد فينادى مناد أين المتقون ؟ فيقومون في كنف من الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر قلت من المتقون ؟ قال قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان وأخلصوا العبادة فيمرون إلى الجنة . وقوله (لئن بسطت إلى يديك لتقتلنى ما أنا بياسط يدي إليك لأقتلك) إني أخاف الله رب العالمين) يقول له أخوه الرجل الصالح الذى تقبل الله قربانه لتقواه حين توعده أخوه بالقتل عن غير ماذنب منه اليه (لئن بسطت إلى يديك لتقتلنى ما أنا بياسط يدي إليك لأقتلك) أى لا أقابلك على صنعك الفاسد بمثله فأكون أنا وأنت سواء في الخطيئة (إني أخاف الله رب العالمين) أى من أن أصنع كما تريد أن تصنع بل أصبر وأحتسب قال عبد الله بن عمرو : وإيم الله إن كان لأشد الرجلين ولكن منعه التخرج يعنى الورع ولهذا ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » قالوا يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال إنه كان حريصا على قتل صاحبه . وقال الإمام أحمد حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا ليث بن سعد عن عياش بن عباس عن بكير بن عبد الله عن بشر بن سعيد أن سعد بن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان أشهد أن رسول الله ﷺ قال « إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشى والماشى خير من الساعى » قال أفرأيت إن دخل على بيتي فبسط يده إلى ليقتلنى فقال « كن كابن آدم » وكذا رواه الترمذى عن قتيبة بن سعيد وقال هذا حديث حسن وفي الباب عن أبي هريرة وخباب ابن الأرت وأبي بكر وابن مسعود وأبي واقد وأبي موسى وخرشة ورواه بعضهم عن الليث بن سعد وزاد في الاسناد رجلا قال الحافظ ابن عساكر : الرجل هو حسين الأشجعي قلت وقد رواء أبو داود من طريقه فقال حدثنا يزيد بن خالد البرملى حدثنا

الفضل عن عباس بن بكر عن بشر بن سعيد عن حسين بن عبد الرحمن الأشجعي أنه سمع سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ في هذا الحديث قال فقلت يا رسول الله أرأيت إن دخل بيتي وبسط يده ليقبطني قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كن كابن آدم » وتلا (لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين) قال أبو السخيتاني إن أول من أخذ بهذه الآية من هذه الأمة (لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين) لعثمان بن عفان رضي الله عنه رواه ابن أبي حاتم . وقال الإمام أحمد حدثنا ابن حزم حدثني أبو عمران الجوني عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر قال ركب النبي ﷺ حمرا وأردفني خلفه وقال « يا أباذر أرأيت إن أصاب الناس جوع شديد لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك كيف تصنع ؟ » قال : قال الله ورسوله أعلم قال « تعفف » قال « يا أباذر أرأيت إن أصاب الناس موت شديد يكون البيت فيه بالعبد يعني القبر كيف تصنع ؟ » قالت الله ورسوله أعلم قال « اصبر » قال « يا أباذر أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضا يعني حتى تعرق حجارة الزيت من الدماء كيف تصنع ؟ » قال الله ورسوله أعلم قال « أقعد في بيتك وأغلق عليك بابك » قال فان لم أنزل (١) قال « فأت من أنت منهم فكن منهم » قال فأتخذ سلاحا قال « فإذا تشاركهم فيما هم فيه ولكن إذا خشيت أن يردعك شعاع السيف فألق طرف ردائك على وجهك كي يبيوء بأثمه وإثمك » وراه مسلم وأهل السنن سوى النسائي من طرق عن أبي عمران الجوني عن عبد الله بن الصامت به ورواه أبو داود وابن ماجه من طريق حماد بن زيد عن أبي عمران عن المشعث بن طريف عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر بنحوه قال أبو داود ولم يذكر المشعث في هذا الحديث غير حماد بن زيد وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن علي بن دحيم حدثنا أحمد بن حازم حدثنا قبيصة بن عقبة حدثنا سفيان عن منصور عن ربعي قال كنا في جنازة حذيفة فسمعت رجلا يقول سمعت هذا يقول في ناس مما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم « لئن اقتتلتم لأنظرن إلى أقصى بيت في دارى فلا لجنه فلكن دخل على فلان لأقولن هابؤ يا أئمة وإثمك فأكون كخير ابني آدم » وقوله (إني أريد أن تبوء يا أئمة وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين) قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي في قوله (إني أريد أن تبوء يا أئمة وإثمك) أي بأثم قتلتي وإثمك الذي عليك قبل ذلك قاله ابن جرير . وقال آخرون يعني بذلك إني أريد أن تبوء بخطيئتي فتتحمل وزرها وإثمك في قتلك إياي وهذا قول وجدته عن مجاهد وأخشى أن يكون غلطا لأن الصحيح من الرواية عنه خلافه يعني ما رواه سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد (إني أريد أن تبوء يا أئمة) قال بقتلك إياي . وإثمك) قال بما كان منك قبل ذلك وكذا رواه عيسى بن أبي نجيع عن مجاهد بمثله وروى شبل عن ابن أبي نجيع عن مجاهد (إني أريد أن تبوء يا أئمة وإثمك) يقول إني أريد أن يكون عليك خطيئتي ودمي فتبوء بهما جميعا (قلت) وقديتوهم كثير من الناس هذا القول ويدكرون في ذلك حديثا لأصله « ماترك القاتل على المقتول من ذنب » وقدرى الحافظ أبو بكر البزار حديثا يشبه هذا ولكن ليس به فقال حدثنا عمرو بن علي حدثنا عامر بن إبراهيم الأصهباني حدثنا يعقوب بن عبد الله حدثنا عتبة بن سعيد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ « قتل الصبر لا يمر بذنب إلا محاه » وهذا بهذا اليصح ولو صح لمعناه أن الله يكفر عن المقتول بألم القتل ذنوبه فأما أن تحمل على القاتل فلا ولكن قد يتفق هذا في بعض الأشخاص وهو الغالب فإن المقتول يطالب القاتل في العرصات فيؤخذ له من حسناته بقدر مظلمته فإن نفدت ولم يستوف حقه أخذ من سيئات المقتول فطرح على القاتل فرجما لا يبقى على المقتول خطيئة إلا وضعت على القاتل وقد صح الحديث بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في المظالم كلها والقتل من أعظمها وأشدها والله أعلم وأما ابن جرير فقال والصواب من القول في ذلك أن يقال إن تأويله إني أريد أن تنصرف بخطيئتك في قتلك إياي وذلك هو معنى قوله (إني أريد أن تبوء يا أئمة) وأما معنى (وإثمك) فهو إثمه يعني قتله وذلك كمعصية الله عز وجل في أعمال سواء وإنما قلنا ذلك هو الصواب لإجماع أهل التأويل عليه وأن الله عز وجل أخبرنا أن كل عامل فجزاء عمله له أو عليه وإذا كان هذا حكمه في خلقه فغير جائز أن تكون آثام المقتول مأخوذا بها القاتل وإنما يؤخذ القاتل بإثمه بالقتل المحرم وسائر آثام معاصيه التي ارتكبها بنفسه دون ما ركبته قتيله هذا لفظه ثم أورد على هذا سؤالا حاصله كيف أراد هائل أن يكون على أخيه قاييل إثم قتله

وإثم نفسه مع أن قتله له محرم وأجاب بما حاصله أن هابيل أخبر عن نفسه بأنه لا يقا تل أخاه إن قاتله بل يكف عنه يده طالبا إن وقع قتل أن يكون من أخيه لا منه قلت وهذا الكلام متضمن موعظة له لو اتعظ وزجر له لو انزجر ولهذا قال (إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك) أي تتحمل إثمي وإثمك (فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين) وقال ابن عباس خوفه بالنار فلم ينته ولم ينزجر وقوله تعالى (فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين) أي فحسنت وسولت له نفسه وشجعت على قتل أخيه فقتله أي بعد هذه الموعظة وهذا الزجر وقد تقدم في الرواية عن أبي جعفر الباقر وهو محمد بن علي بن الحسين أنه قتله بحديدة في يده وقال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة بن عبد الله وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فطوعت له نفسه قتل أخيه فطلبه ليقتله فراغ الغلام منه في رءوس الجبال فأثاه يوما من الأيام وهو يرعى غنما له وهو نائم فرفع صخرة فشدها بها رأسه فمات فتركه بالعراء رواه ابن جرير وعن بعض أهل الكتاب أنه قتله خنقا وعضا كما تقتل السباع وقال ابن جرير لما أراد أن يقتله جعل يابى عنقه فأخذ إبليس دابة ووضع رأسها على حجر ثم أخذ حجرا آخر فضرب به رأسها حتى قتلها وابن آدم ينظر ففعل بأخيه مثل ذلك رواه ابن أبي حاتم وقال عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه قال أخذ برأسه ليقتله فاضطجع له وجعل يغمز رأسه وعظامه ولا يدرى كيف يقتله فجاءه إبليس فقال أتريد أن تقتله قال نعم قال فخذ هذه الصخرة فاطرحها على رأسه قال فأخذها فألقاها عليه فشدها رأسه ثم جاء إبليس إلى حواء مسرعا فقال يا حواء إن قابيل قتل هابيل فقالت له ويحك وأى شيء يكون القتل قال لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك قالت ذلك الموت قال فهو الموت فجعلت تصيح حتى دخل عليها آدم وهى تصيح فقال مالك فلم تكلمه فرجع إليها مرتين فلم تكلمه فقال عليك الصيحة وعلى بناتك وأنا وبني منها برآء رواه ابن أبي حاتم وقوله (فأصبح من الخاسرين) أى فى الدنيا والآخرة وأى خسارة أعظم من هذه وقد قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية ووكيع قال حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل » وقد أخرجه الجماعة سوى أبي داود من طرق عن الأعمش به وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثني حجاج قال : قال ابن جريج قال مجاهد علقت إحدى رجلي القاتل بساقها إلى فخذه من يومئذ ووجهه في الشمس حيثما دارت دار ، عليه في الصيف حظيرة من نار وعليه في الشتاء حظيرة من ثلج . قال وقال عبد الله بن عمرو إنا لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار قسمة صحيحة . العذاب عليه شطر عذابهم . وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا سلمة عن ابن إسحق عن حكيم بن حكيم أنه حدث عن عبد الله بن عمرو أنه كان يقول إن أشقى الناس رجلا لابن آدم الذى قتل أخاه ما سفك دم فى الأرض منذ قتل أخاه إلى يوم القيامة إلا لحق به منه شر وذلك أنه أول من سن القتل وقال إبراهيم النخعي ما من مقتول يقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول والشيطان كفل منه رواه ابن جرير أيضا وقوله تعالى (فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين) قال السدي بإسناده المتقدم إلى الصحابة رضى الله عنهم لما مات الغلام تركه بالعراء ولا يعلم كيف يدفن فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه فحفر له ثم حثى عليه فلما رآه قال (يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى) وقال طلبة عن ابن عباس قال جاء غراب إلى غراب ميت فبحث عليه من التراب حتى وراه فقال الذى قتل أخاه (يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى) وقال الضحاك عن ابن عباس مكث يحمل أخاه فى جراب على عاتقه سنة حتى بعث الله الغرابين فرأهما يبحثان فقال (أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب) فدفن أخاه وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد كان يحمله على عاتقه مائة سنة ميتا لا يدرى ما يصنع به يحمله ويضعه إلى الأرض حتى رأى الغراب يدفن الغراب فقال (يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وقال عطية العوفي لما قتله ندم فضعه إليه حتى أروح وعكفت عليه الطيور والسباع تنتظر متى يرمى به فتأكله رواه ابن جرير وروى

محمد بن إسحق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول لما قتله سقط في يده أي ولم يدرك كيف يواريه وذلك أنه كان ، فيما يزعمون ، أول قتل في بني آدم وأول ميت (فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يوارى سواة أخيه قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين) قال وزعم أهل التوراة أن قابيل لما قتل أخاه هابيل قال له الله عز وجل يا قابيل أين أخوك هابيل قال ما أدري ما كنت عليه رقبيا فقال الله إن صوت دم أخيك لينادي من الأرض الآن أنت ملمعون من الأرض التي فتحت فاهها فتلقت دم أخيك من يدك فإن أنت عملت في الأرض فانها لا تعود تعطيك حرثها حتى تكون فزعانها في الأرض وقوله (فأصبح من النادمين) قال الحسن البصري علاه الله بندامة بعد خسران فهذه أقوال المفسرين في هذه القصة وكلهم متفقون على أن هذين ابنا آدم لصلبه كما هو ظاهر القرآن وكما نطق به الحديث في قوله « إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل » وهذا ظاهر جلي ولكن قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا سهل بن يوسف عن عمرو عن الحسن هو البصري قال كان الرجلان اللذان في القرآن اللذان قال الله (وادل عليهم نبأ ابن آدم بالحق) من بني إسرائيل ولم يكونا ابني آدم لصلبه وإنما كان القربان من بني إسرائيل وكان آدم أول من مات وهذا غريب جدا وفي إسناده نظر وقد قال عبد الرزاق عن معمر عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ « إن ابني آدم عليه السلام ضربا لهذه الأمة مثلا فخذوا بالخير منهما » ورواه ابن المبارك عن عاصم الأحول عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله ضرب لكم ابني آدم مثلا فخذوا من خيرهم ودعوا شرهم » وكذا أرسل هذا الحديث بكير بن عبد الله المزني روى ذلك كله ابن جرير وقال سالم بن أبي الجعد لما قتل ابن آدم أخاه مكث آدم مائة سنة حزينا لا يضحك ثم أتى قبيلا له حيالك الله وبياك أي أضحكك رواه ابن جرير ثم قال حدثنا ابن حميد حدثنا سلمة عن غياث بن إبراهيم عن أبي إسحق الهمداني قال : قال علي ابن طالب لما قتل ابن آدم أخاه بكاه آدم فقال .

تغيرت البلاد ومن عليها * فلون الأرض مغبر قبيح * تغير كل ذي لون وطعم * وقل بشاشة الوجه المليح فأجيب آدم عليه الصلاة والسلام

أبا هابيل قد قتل جميعا * وصار الحي بالميت الدييح * وجاء بشره قد كان منه * على خوف فجاء بها يصيح والظاهر أن قابيل عوجل بالعقوبة كما ذكره مجاهد وابن جبير أنه علقت ساقه بفخذه يوم قتله وجعل الله وجهه إلى الشمس حيث دارت عقوبة له وتنكيلا به وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم » وقد اجتمع في فعل قابيل هذا وهذا فإننا لله وإنا إليه راجعون .

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَكَّرَ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ * إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلما وعدوانا (كتبنا على بني إسرائيل) أي شرعنا لهم وأعلمناهم (أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا) أي من قتل

نفسا بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية فكأنما قتل الناس جميعاً لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس ومن أحيأها أى حرم قتلها واعتقد ذلك فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار ولهذا قال (فكأنما أحيأ الناس جميعاً) وقال الأعمش وغيره عن أبي صالح عن أبي هريرة قال دخلت على عثمان يوم الدار فقلت جئت لأنصرك وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين فقال يا أباهريرة أيسرك أن تقتل الناس جميعاً وإياي معهم قلت لا قال فإنك إن قتلت رجلاً واحداً فكأنما قتلت الناس جميعاً فانصرف مأذوناً لك مأجوراً غير مأزور قال فانصرفت ولم أقاتل وقال على ابن أنى طلحة عن ابن عباس هو كما قال الله تعالى (من قتل نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحيأها فكأنما أحيأ الناس جميعاً) وإحيأها ألا يقتل نفساً حرماً الله فذلك الذي أحيأ الناس جميعاً يعنى أنه من حرم قتلها إلا بحق حيي الناس منه وهكذا قال مجاهد ومن أحيأها أى كف عن قتلها وقال العوفي عن ابن عباس في قوله فكأنما قتل الناس جميعاً يقول من قتل نفساً واحدة حرماً الله فهو مثل من قتل الناس جميعاً وقال سعيد بن جبير من استحل دم مسلم فكأنما استحل دماء الناس جميعاً ومن حرم دم مسلم فكأنما حرم دماء الناس جميعاً هذا قول وهو الأظهر وقال عكرمة والعوفي عن ابن عباس من قتل نبياً أو إماماً عدلاً فكأنما قتل الناس جميعاً ومن شد على عضد نبى أو إمام عدل فكأنما أحيأ الناس جميعاً رواه ابن جرير وقال مجاهد في رواية أخرى عنه من قتل نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً وذلك لأن من قتل النفس فله النار فهو كما لو قتل الناس كلهم قال ابن جرير عن الأعرج عن مجاهد في قوله فكأنما قتل الناس جميعاً من قتل النفس المؤمنة متعمداً جعل الله جزاءه جهنم وغضب عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً يقول لو قتل الناس جميعاً لم يزد على مثل ذلك العذاب قال ابن جرير قال مجاهد ومن أحيأها فكأنما أحيأ الناس جميعاً قال من لم يقتل أحداً فقد حيي الناس منه وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من قتل نفساً فكأنما قتل الناس يعنى فقد وجب عليه القصاص فلا فرق بين الواحد والجماعة ومن أحيأها أى عفا عن قاتل وليه فكأنما أحيأ الناس جميعاً وحكى ذلك عن أبيه رواه ابن جرير وقال مجاهد في رواية ومن أحيأها أى أنجاها من غرق أو حرق أو هلكة وقال الحسن وقناة في قوله انه من قتل نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً هذا تعظيم لتعاطى القتل قال قتادة عظيم والله وزرها وعظيم والله أجرها وقال ابن المبارك عن سلام بن مسكين عن سليمان بن على الربعى قال قلت للحسن هذه الآية لنا يا أباسعيد كما كانت لبنى إسرائيل فقال اى والذي لا إله غيره كما كانت لبنى إسرائيل وما جعل دماء بنى إسرائيل أكرم على الله من دمائنا وقال الحسن البصرى فكأنما قتل الناس جميعاً قال وزراً ومن أحيأها فكأنما أحيأ الناس جميعاً قال أجراً وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا حيي بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحبلى عن عبد الله بن عمرو قال جاء حمزة بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله اجعلنى على شىء أعيش به فقال رسول الله ﷺ « يا حمزة نفس تحيها أحب إليك أم نفس تميتها » قال بل نفس أحييها قال « عليك بنفسك » .

قوله تعالى (ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات) أى بالحجج والبراهين والدلائل الواضحة (ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون) وهذا تقرير لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها كما كانت بنو قريظة والنضير وغيرهم من بنى قينقاع ممن حول المدينة من اليهود الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج إذا وقعت بينهم الحروب في الجاهلية ثم إذا وضعت الحروب أوزارها فدوا من أسروه وودوا من قتلوه وقد أنكر الله عليهم ذلك في سورة البقرة حيث يقول (وإذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأتمتم تشهدون ثم أتتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفتادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون) قوله (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض) الآية المحاربة هى المضادة والمخالفة وهى صادقة على الكفر وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل وكذا الافساد في الأرض

يطلق على أنواع من الشر حتى قال كثير من السلف منهم سعيد بن المسيب إن قبض الدراهم والدنانير من الفساد في الأرض وقد قال الله تعالى (وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد) ثم قال بعضهم نزلت هذه الآية الكريمة في المشركين كما قال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح حدثنا الحسين بن واقد عن يزيد عن عكرمة والحسن البصري قالا (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله - إلى - إن الله غفور رحيم) نزلت هذه الآية في المشركين فمن تاب منهم من قبل أن تقدروا عليه لم يكن عليه سبيل وليست تخرز هذه الآية الرجل المسلم من الحد إن قتل أو أفسد في الأرض أو حارب الله ورسوله ثم لحق بالكفار قبل أن يقدر عليه لم يمنعه ذلك أن يقاتلهم عليه الحد الذي أصاب ورواه أبو داود والنسائي من طريق عكرمة عن ابن عباس إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا نزلت في المشركين فمن تاب منهم قبل أن يقدر عليه لم يمنعه ذلك أن يقاتلهم عليه الحد الذي أصابه وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا) الآية قال كان قوم من أهل الكتاب بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد وميثاق فنقضوا العهد وأفسدوا في الأرض فخير الله رسوله إن شاء أن يقتل وإن شاء أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف رواه ابن جرير .

وروى شعبه عن منصور عن هلال بن يساف عن مصعب بن سعد عن أبيه قال نزلت في الحرورية (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا) رواه ابن مردويه ، والصحيح أن هذه الآية عامة في المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات كما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي قلابة واسمه عبد الله بن زيد الجرهمي البصري عن أنس بن مالك أن نقرأ من عكل ثمانية قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعوه على الإسلام فاستوخوا المدينة ، وسقمت أجسامهم فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فقال « ألا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيروا من أبوالها وألبانها » فقالوا بلى فخرجوا فشرّبوا من أبوالها وألبانها فصحوا فقتلوا الراعي وطرّدوا الإبل فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث في آثارهم فأدركوا فجاء بهم فأمرهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا لفظ مسلم ، وفي لفظ لها : من عكل أو عرينة وفي لفظ : وألقوا في الحرة فجعلوا يستسقون فلا يسقون وفي لفظ لمسلم : ولم يحسمهم وعند البخاري قال أبو قلابة فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله ورواه مسلم من طريق هشيم عن عبد العزيز بن صهيب وحيد عن أنس فذكر نحوه وعنده فارتدوا : وقد أخرجاه من رواية قتادة عن أنس بنحوه وقال سعيد عن قتادة من عكل وعرينة ورواه مسلم من طريق سليمان التيمي عن أنس قال إنما سمل النبي صلى الله عليه وسلم أعين أولئك لأنهم سملوا أعين الرعاة . ورواه مسلم من حديث معاوية بن قرّة عن أنس قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من عرينة فأسلموا وبايعوه وقد وقع بالمدينة الموم وهو البرسام ثم ذكر نحوه حديثهم وزاد . عنده شباب من الأنصار قريب من عشرين فأرسلهم وبعث معهم قائفا يقفوا أثرهم وهذه كلها ألفاظ مسلم رحمه الله .

وقال حماد بن سلمة حدثنا قتادة وثابت البناني وحيد الطويل عن أنس بن مالك أن ناسا من عرينة قدموا المدينة فاجتووها فبعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في إبل الصدقة وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها ففعلوا فصحوا فارتدوا عن الإسلام وقتلوا الراعي وساقوا الإبل فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم في آثارهم فجاء بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف وسمرت أعينهم وألقاهم في الحرة قال أنس فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه عطشا حتى ماتوا ونزلت (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) الآية وقد رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن مردويه وهذه لفظه وقال الترمذي حسن صحيح وقد رواه ابن مردويه من طرق كثيرة عن أنس بن مالك منها ما رواه من طريقين عن سلام بن أبي الصهباء عن ثابت عن أنس بن مالك قال ما ندمت على حديث ما ندمت على حديث سألتني عنه الحجاج قال أخبرني عن أشد عقوبة عاقب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قلت قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم من عرينة من

البحرين فشكوا إلى رسول الله ﷺ ما لقوا من بطونهم ، وقد اصفرت ألوانهم ، وضمرت بطونهم فأمرهم رسول الله ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها حتى إذا رجعت إليهم ألوانهم وانخضت بطونهم عمدوا إلى الراعى فقتلوه واستاقوا الإبل فأرسل رسول الله ﷺ في آثارهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمر أعينهم ثم ألقاهم في الرمضاء حتى ماتوا ، فكان الحجاج إذا صعد المنبر يقول إن رسول الله ﷺ قد قطع أيدي قوم وأرجلهم ثم ألقاهم في الرمضاء حتى ماتوا بحال ذود من الإبل فكان الحجاج يحتج بهذا الحديث على الناس وقال ابن جرير حدثنا علي بن سهل حدثنا الوليد يعني ابن مسلم حدثني سعيد عن قتادة عن أنس قال كانوا أربعة نفر من عرينة وثلاثة نفر من عكل فلما أتى بهم قطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ولم يحسمهم وتركهم يلتمعون الحجارة بالحرة فأُنزل الله في ذلك (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) الآية

وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن حرب الموصلي حدثنا أبو مسعود يعني عبد الرحمن بن الحسن الزجاج حدثنا أبو سعيد يعني البقال عن أنس بن مالك قال كان رهط من عرينة أتوا رسول الله ﷺ وبهم جهد مصفرة ألوانهم ، عظيمة (١) بطونهم فأمرهم أن يلحقوا بالإبل فيشربوا من أبوالها وألبانها ففعلوا فصفت ألوانهم وخمضت بطونهم وسمنوا فقتلوا الراعى واستاقوا الإبل فبعث النبي ﷺ في طلبهم فأتى بهم فقتل بعضهم وسمر أعين بعضهم وقطع أيدي بعضهم وأرجلهم ونزلت (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) إلى آخر الآية ، وقال أبو جعفر بن جرير حدثنا أبو طي بن سهل حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا ابن لميعة عن يزيد بن أبي حبيب أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس يسأله عن هذه الآية فكتب إليه أنس يخبره أن هذه الآية نزلت في أولئك النفر العرينيين وهم من بجيلة قال أنس فارتدوا عن الإسلام وقتلوا الراعى واستاقوا الإبل وأخافوا السبيل وأصابوا الفرج الحرام . وقال حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن أبي الزناد عن عبد الله بن عبيد الله عن عبد الله بن عمرو أو عمرو شك يونس عن رسول الله ﷺ بذلك يعني بقصة العرينيين ونزلت فيهم آية المحاربة ورواه أبو داود والنسائي من طريق أبي الزناد وفيه عن ابن عمر من غير شك

وقال ابن جرير . حدثنا محمد بن خلف حدثنا الحسن بن حماد عن عمرو بن هاشم عن موسى بن عبيدة عن محمد بن إبراهيم عن جرير قال قدم على رسول الله ﷺ قوم من عرينة حفاة مضرورين فأمرهم رسول الله ﷺ فلما صحوا واشتدوا قتلوا رعاء اللقاح ثم خرجوا باللقاح عامدين بها إلى أرض قومهم قال جرير فبعثنى رسول الله ﷺ في نفر من المسلمين حتى أدركناهم بعدما أشرفوا على بلاد قومهم فقدمنا بهم على رسول الله ﷺ فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وسمل أعينهم فجعلوا يقولون الماء ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول النار حتى هلكوا قال وكره الله عز وجل سمل الأعين فأُنزل الله هذه الآية (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) إلى آخر الآية هذا حديث غريب ، وفي إسناده الربذي وهو ضعيف وفي إسناده فائدة وهو ذكر أمير هذه السرية وهو جرير ابن عبد الله البجلي وتقدم في صحيح مسلم أن هذه السرية كانوا عشرين فارسا من الأنصار . وأما قوله : فذكره الله سمل الأعين فأُنزل الله هذه الآية فانه منكر وقد تقدم في صحيح مسلم أنهم سملوا أعين الرعاء فكان ما فعل بهم قصاصا والله أعلم وقال عبد الرزاق عن إبراهيم بن محمد الأسلمي عن صالح مولى التوأمة عن أبي هريرة قال قدم على رسول الله ﷺ رجال من بني فزارة قد ماتوا هزلا فأمرهم النبي ﷺ إلى لقاحه فشربوا منها حتى صحوا ثم عمدوا إلى لقاحه فسرقوها فطلبوا فأتى بهم النبي ﷺ فقطع أيديهم وأرجلهم وسمر أعينهم . قال أبو هريرة ففهم نزلت هذه الآية (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) فترك النبي ﷺ سمر الأعين بعد . وروى من وجه آخر عن أبي هريرة وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا أحمد بن إسحق حدثنا الحسين بن إسحق التستري حدثنا أبو القاسم محمد بن الوليد عن عمرو بن محمد المديني حدثنا محمد بن طلحة عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن سلمة بن الأكوع قال كان للنبي ﷺ غلام يقال له يسار فنظر إليه يحسن

(١) في نسخة : فطيلة بطونهم .

الصلاة فأعتقه ، وبعثه في لقاح له بالحرة فكان بها قال فأظهر قوم الإسلام من عريضة وجاءوا وهم مرضى موعوكون قد عظمت بطونهم قال فبعث بهم النبي ﷺ إلى يسار فكانوا يشربون من ألبان الابل حتى انطوت بطونهم ثم عدوا على يسار فذبحوه وجعلوا الشوك في عينيه ثم أطردها الابل فبعث النبي صلى الله عليه وسلم في آثارهم خيلا من المسلمين كبيرهم كرز بن جابر الفهري فلحقهم فجاء بهم إليه فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم . غريب جداً وقد روى قصة العريين من حديث جماعة من الصحابة منهم جابر وعائشة وغير واحد وقد اعتنى الحافظ الجليل أبو بكر ابن مردويه بتطريق هذا الحديث من وجوه كثيرة جداً فرحمه الله وأثابه . وقال ابن جرير حدثنا محمد بن علي بن الحسن ابن شقيق سمعت أبي يقول سمعت أبا حمزة عن عبد الكريم وسئل عن أبوال ابل فقال حدثني سعيد بن جبير عن المحاربين فقال كان أناس أتوا رسول الله ﷺ فقالوا نبايعك على الإسلام فبايعوه وهم كذبة وليس الإسلام يريدون . ثم قالوا إنا نجتوى المدينة فقال النبي ﷺ هذه اللقاح تغدوا عليكم وتروح فاشربوا من أبوالها وألبانها قال فبيناهم كذلك إذ جاءهم الصريخ فصرخ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قتلوا الراعى واستاقوا النعم فأمر النبي صلى الله عليه وسلم فنودى في الناس « أن يا خيل الله اركبي » قال فركبوا لا ينتظر فارس فارساً قال وركب رسول الله ﷺ على أثرهم فلم يزالوا يطلبونهم حتى أدخلوهم مأمنهم فرجع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أسروا منهم فأتوا بهم النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) الآية قال فكان نفهم أن نفوهم حتى أدخلوهم مأمنهم وأرضهم ونفوهم من أرض المسلمين وقتل نبي الله ﷺ منهم وصلب وقطع وسمر الأعين قال فما مثل رسول الله ﷺ قبل ولا بعد قال ونهى عن المثلة وقال « ولا تمثلوا بشيء » قال وكان أنس يقول ذلك غير أنه قال أحرقهم بالنار بعد ما قتلهم قال : وبعضهم يقول هم ناس من بنى سليم ومنهم من عريضة وناس من بحيلة . وقد اختلف الأئمة في حكم هؤلاء العريين هل هو منسوخ أو محكم فقال بعضهم هو منسوخ بهذه الآية وزعموا أن فيها عتاباً للنبي ﷺ كما في قوله (عفا الله عنك لم أذنت لهم) ومنهم من قال هو منسوخ بنى النبي ﷺ عن المثلة وهذا القول فيه نظر ثم قاله مطالب ببيان تأخر الناسخ الذي ادعاه عن المنسوخ وقال بعضهم : كان هذا قبل أن تنزل الحدود قاله محمد بن سيرين وفيه نظر فان قصته متأخرة . وفي رواية جرير بن عبد الله لقصتهم ما يدل على تأخرها فانه أسلم بعد نزول المائدة ، ومنهم من قال لم يسمل النبي ﷺ أعينهم وإنما عزم على ذلك حتى نزل القرآن فبين حكم المحاربين وهذا القول أيضاً فيه نظر فانه قد تقدم في الحديث المتفق عليه أنه سمل ، وفي رواية سمر أعينهم . وقال ابن جرير حدثنا علي بن سهل حدثنا الوليد بن مسلم قال ذاكرت الليث بن سعد ما كان من سمل النبي ﷺ أعينهم وتركه حسمهم حتى ماتوا فقال سمعت محمد بن عجلان يقول أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ معاتبة في ذلك وعلمه عقوبة مثلهم من القتل والقطع والنفي ولم يسمل بعدهم غيرهم قال وكان هذا القول ذكر لأبي عمرو يعني الأوزاعي فأنكر أن يكون نزلت معاتبة ، وقال بل كانت عقوبة أولئك نفر بأعيانهم ، ثم نزلت هذه الآية في عقوبة غيرهم ممن حارب بعدهم . ورفع عنهم السمل ثم قد احتج بعموم هذه الآية جمهور العلماء في ذهابهم إلى أن حكم المحاربة في الأمصار وفي السبلان على السواء لقوله (ويسعون في الأرض فساداً) وهذا مذهب مالك والأوزاعي والليث بن سعد والشافعي وأحمد بن حنبل حتى قال مالك في الذي يقتال الرجل فيخذه حتى يدخله بيتاً فيقتله ويأخذ ما معه ان هذه محاربة ودمه إلى السلطان لا إلى ولي القتل ولا اعتبار بعفوه عنه في إسقاط القتل . وقال أبو حنيفة وأصحابه لا تكون المحاربة إلا في الطرقات فأما في الأمصار فلا لأنه يلحقه القوت إذا استغاث ، بخلاف الطريق لبعده ممن يغيثه ويعينه ، وقوله تعالى (أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض) قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية من شهر السلاح في فئة الإسلام ، وأخاف السبيل ثم ظفر به وقدر عليه فامام المسلمين فيه بالخيار إن شاء قتله وإن شاء صلبه ، وإن شاء قطع يده ورجله وكذا قال سعيد بن المسيب ومجاهد وعطاء والحسن البصري وإبراهيم النخعي والضحاك وروى ذلك كله

أبو جعفر بن جرير وحكى مثله عن مالك بن أنس رحمه الله ومستند هذا القول ان ظاهر أو للتخيير كما في نظائر ذلك من القرآن كقوله في جزاء الصيد (فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما) وكقوله في كفارة الفدية (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) وكقوله في كفارة اليمين (إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة) وهذه كلها على التخيير فكذلك فلتكن هذه الآية وقال الجمهور هذه الآية منزلة على أحوال كما قال أبو عبد الله الشافعي أنبأنا إبراهيم بن أبي يحيى عن صالح مولى التوأمة عن ابن عباس في قطاع الطريق اذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا واذا قتلوا ولم يصلبوا واذا أخذوا المال ولم يقطعوا أيديهم وأرجلهم من خلاف وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نفوا من الأرض. وقد روى ابن أبي شيبة عن عبد الرحيم بن سليمان عن حجاج عن عطية عن ابن عباس بنحوه وعن أبي مجلز وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي والحسن وقتادة والسدي وعطاء الخراساني نحو ذلك وهكذا قال غير واحد من السلف والأئمة واختلفوا هل يصلب حيا ويترك حتى يموت بمنعه من الطعام والشراب ، أو يقتله برمح أو نحوه أو يقتل أولا ثم يصلب تنكيلا وتشديدا لغيره من المفسدين وهل يصلب ثلاثة أيام ثم ينزل أو يترك حتى يسيل مسديده في ذلك كله خلاف محرز في موضعه وبالله الثقة وعليه التمسك ويشهد لهذا التفصيل الحديث الذي رواه ابن جرير في تفسيره ان صح سنده فقال حدثنا علي بن سهل حدثنا الوليد بن مسلم عن يزيد بن أبي حبيب أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس بن مالك يسأله عن هذه الآية فكاتب اليه يخبره أنها نزلت في أولئك النفر العرنيين وهم من بجيلة قال أنس فارتدوا عن الإسلام وقتلوا الراعي واستاقوا الإبل ، وأخافوا السبيل وأصابوا الفرج الحرام قال أنس فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبرائيل عليه السلام عن القضاء فيمن حارب فقال من سرق مالا وأخاف السبيل فاقطع يده بسرقة ورجله بإخافته ، ومن قتل فاقطع يده ومن قتل وأخاف السبيل واستحل الفرج الحرام فاصلبه ، وأما قوله تعالى (وينفوا من الأرض) قال بعضهم هو أن يطلب حتى يقدر عليه فيقام عليه الحد أو يهرب من دار الإسلام رواه ابن جرير عن ابن عباس وأنس بن مالك وسعيد بن جبير والضحاك والربيع بن أنس والزهرى والليث بن سعد ومالك بن أنس : وقال آخرون هو أن ينفي من بلده إلى بلد آخر أو يخرج الساطان أو نائبه من معاملته بالكلية وقال الشعبي ينفيه - كما قال ابن هبيرة - من عمله كله وقال عطاء الخراساني ينفي من جند إلى جند سنين ولا يخرج من دار الإسلام . وكذا قال سعيد بن جبير وأبو الشماء والحسن والزهرى والضحاك ومقاتل بن حيان انه ينفي ولا يخرج من أرض الإسلام . وقال آخرون المراد بالنفي ههنا السجن وهو قول أبي حنيفة وأصحابه واختار ابن جرير أن المراد بالنفي ههنا أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه .

وقوله تعالى (ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم) أى هذا الذى ذكرته من قتلهم ومن صلبهم وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ونفيهم خزي لهم بين الناس في هذه الحياة الدنيا مع ما ادخر الله لهم من العذاب العظيم يوم القيامة وهذا يؤيد قول من قال إنها نزلت في المشركين فأما أهل الإسلام ففي صحيح مسلم عن عباد بن الصامت رضى الله عنه قال أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أخذ على النساء ألا تشرك بالله شيئا ولا تسرق ولا تزنى ولا تقتل أولادنا ولا يعصيه بعضنا بعضا فمن وفى منكم فأجره على الله تعالى ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فهو كفارة له ومن ستره الله فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه . وعن علي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أذنب ذنبا في الدنيا فعوقب به فله الله أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده ومن أذنب ذنبا في الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه فله الله أكرم من أن يعود عليه في شيء قد عفا عنه » رواه الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه وقال الترمذى حسن غريب وقد سئل الحافظ الدارقطنى عن هذا الحديث فقال روى مرفوعا وموقوفا قال ورفعاه صحيح ، وقال ابن جرير في قوله (ذلك لهم خزي في الدنيا) يعنى شر وعار ونكال وذلة وعقوبة في عاجل الدنيا قبل الآخرة (ولهم في الآخرة عذاب عظيم) أى إذا لم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا - في الآخرة مع الجزاء الذى

جازيتهم به في الدنيا والعقوبة التي عاقبتهم بها في الدنيا عذاب عظيم يعني عذاب جهنم وقوله تعالى (إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم) أما على قول من قال إنها في أهل الشرك فظاهر وأما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يسقط عنهم انحتم القتل والصلب وقطع الرجل وهل يسقط قطع اليد أم لا فيه قولان للعلماء وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع وعليه عمل الصحابة كما قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أسامة عن مجاهد عن الشعبي قال كان حارثة بن بدر التميمي من أهل البصرة وكان قد أفسد في الأرض وحارب فكلهم رجالا من قريش منهم الحسن بن علي وابن عباس وعبد الله بن جعفر فكلّموا عليا فيه فلم يؤمنه فأتى سعيد بن قيس الهمداني فخلفه في داره ثم أتى عليا فقال يا أمير المؤمنين أرايت من حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فسادا فقرأ حتى بلغ (إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم) قال فكتب له أمانا قال سعيد بن قيس فانه حارثة بن بدر وكذا رواه ابن جرير من غير وجه عن مجاهد عن الشعبي به وزاد فقال حارثة بن بدر

ألا بلغن همدان اما لقيتها * على النأى لا يسلم عدويعيها

لعمري أيها إن همدان تتقي الله * إله ويقضي بالكتاب خطيها

وروى ابن جرير من طريق سفيان الثوري عن السدي ومن طريق أشعث كلاهما عن عامر الشعبي قال جاء رجل من مراد إلى أبي موسى وهو على الكوفة في إمارة عثمان رضي الله عنه بعدما صلى المكتوبة فقال يا أبا موسى هذا مقام العائذ بك أنا فلان بن فلان الرادي وإني كنت حاربت الله ورسوله وسعيت في الأرض فسادا ، وإني تبت من قبل أن تقدروا على فقال أبو موسى فقال إن هذا فلان بن فلان وأنه كان حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فسادا ، وأنه تاب من قبل أن تقدروا عليه فمن لقيه فلا يعرض له إلا بخير فإن يك صادقا فسيبيل من صدق ، وإن يك كاذبا تدركه ذنوبه فأقام الرجل ماشاء الله ثم إنه خرج فأدركه الله تعالى بذنوبه فقتله . ثم قال ابن جرير حدثني علي حدثنا الوليد بن مسلم قال : قال الليث وكذلك حدثني موسى بن إسحق المدني وهو الأمير عندنا أن عليا الأسدي حارب وأخاف السبيل وأصاب الدم والمال فطلبه الأئمة والعامة فامتنع ولم يقدروا عليه حتى جاء تائبا وذلك أنه سمع رجلا يقرأ هذه الآية (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) إنه هو الغفور الرحيم) فوقف عليه فقال يا عبد الله أعد قراءتها فأعادها عليه فعمد سيفه ثم جاء تائبا حتى قدم المدينة من السحر فاغتسل ثم أتى مسجد رسول الله ﷺ فصلى الصبح ثم قعد إلى أبي هريرة في أغمار أصحابه فلما أسفروا عرفه الناس فقاموا إليه فقال لاسبيل لكم على جئت تائبا من قبل أن تقدروا على فقال أبو هريرة صدق وأخذ بيده حتى أتى مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة في زمن معاوية فقال هذا على جاء تائبا ولا سبيل لكم عليه ولا قتل فترك من ذلك كله قال وخرج علي تائبا مجاهدا في سبيل الله في البحر فلقوا الروم فقبروا سفينته إلى سفينة من سفنهم فاقترحم على الروم في سفينتهم فهربوا منه إلى شقها الآخر فالت به وبهم فغرقوا جميعا

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّثْلَ مَعَهُ لَيَفْقَدُوهُ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌ﴾

يقول تعالى أمرا عباده المؤمنين بتقواه وهي إذا قرنت بطاعته كان المراد بها الانكفاف عن المحارم وترك المنهيات وقد قال بعدها (وابتغوا إليه الوسيلة) قال سفيان الثوري عن طلحة عن عطاء عن ابن عباس أي القرية . وكذا قال مجاهد وأبو وائل والحسن وعبد الله بن كثير والسدي وابن زيد وغير واحد، وقال قتادة أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه ، وقرأ ابن زيد (أولئك الذين تدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لاختلاف بين المفسرين فيه . وأنشد عليه ابن جرير قول الشاعر :

إذا غفل الواشون عدنا لو صلنا * وعاد التصافى بيننا والوسائل
والوسيلة هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود ، والوسيلة أيضا علم على أعلى منزلة في الجنة وهي منزلة رسول الله
ﷺ وداره في الجنة وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش وقد ثبت في صحيح البخارى من طريق محمد بن المنكدر
عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة
القائمة ، آت محمداً الوسيلة الفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة »

(حديث آخر) في صحيح مسلم من حديث كعب بن علقمة عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص
أنه سمع النبي ﷺ يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على فانه من صلى على صلاة صلى الله عليه
عشرًا ثم سلوا لى الوسيلة فانها منزلة فى الجنة لا تنبى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لى
الوسيلة حلت عليه الشفاعة »

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن ليث عن كعب عن أبي هريرة أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال « إذا صليتم على فسلوا لى الوسيلة » قيل يا رسول الله وما الوسيلة ؟ قال « أعلى درجة فى الجنة
لا ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا هو » ورواه الترمذى عن بدار عن أبي عاصم عن سفيان الثورى عن
ليث بن أبي سليم عن كعب قال حدثنى أبو هريرة به ثم قال غريب وكعب ليس بمعروف لا نعرف أحدا روى عنه
غير ليث بن أبي سليم : (حديث آخر) عن أبي هريرة رضى الله عنه قال أبو بكر بن مردويه حدثنا عبد الباقي بن قانع حدثنا
محمد بن نصر الترمذى حدثنا عبد الحميد بن صالح حدثنا ابن شهاب عن ليث عن المولى عن محمد بن كعب عن أبي هريرة
رفعه قال « صلوا على صلاتكم . وسلوا الله لى الوسيلة » فسألوه وأخبرهم أن الوسيلة درجة فى الجنة ليس ينالها
إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا . (حديث آخر) قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى أخبرنا أحمد بن على الأبار حدثنا
الوليد بن عبد الملك الحارثى حدثنا موسى بن أعين عن ابن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن ابن عباس قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم « سلوا الله لى الوسيلة فانه لم يسألها لى عبد فى الدنيا إلا كنت له شهيدا أو شفيعا يوم
القيامة » ثم قال الطبرانى لم يروه عن ابن أبي ذئب إلا موسى بن أعين كذا قال : وقد رواه ابن مردويه حدثنا محمد بن
على بن دحيم حدثنا أحمد بن حازم حدثنا عبيد الله بن موسى حدثنا موسى بن عبيدة عن محمد بن عمرو بن عطاء فذكر
بإسناده نحوه . (حديث آخر) روى ابن مردويه بإسناده عن عمارة بن غزوة عن موسى بن وردان أنه سمع أبا سعيد
الخدري يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الوسيلة درجة عند الله ليس فوقها درجة فسلوا الله أن يؤتى
الوسيلة على خلقه » . (حديث آخر) روى ابن مردويه أيضا من طريقين عن عبد الحميد بن بحر حدثنا شريك عن أبي
إسحق عن الحارث عن على عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « فى الجنة درجة تدعى الوسيلة فإذا سألت الله فسلوا لى
الوسيلة » قالوا يا رسول الله من يسكن معك قال « على وفاطمة والحسن والحسين » هذا حديث غريب منكر من هذا
الوجه وقال ابن أبي حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا الحسن الدشتكى حدثنا أبو زهير حدثنا سعيد بن طريف عن
على بن الحسين الأزدي مولى سالم بن ثوبان قال سمعت على بن أبي طالب ينادى على منبر الكوفة : يا أيها الناس إن فى
الجنة لؤلؤتين أحدهما بيضاء والأخرى صفراء أما الصفراء فانها إلى بطنان العرش والمقام المحمود من اللؤلؤة
البيضاء سبعون ألف غرفة كل بيت منها ثلاثة أميال وغرفها وأبوابها وأسررتها وسكانها من عرق واحد واسمها الوسيلة
هى لمحمد صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ، والصفراء فيها مثل ذلك هى لإبراهيم عليه السلام وأهل بيته . وهذا أثر
غريب أيضا . وقوله (وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون) لما أمرهم بترك الحارم وفعل الطاعات أمرهم بقتال الأعداء من
الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق السقيم ، والتاركين للدين القويم ، ورغبتهم فى ذلك بالذى أعده للمجاهدين
فى سبيله يوم القيامة من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التى لا تبيد ولا تحول ولا تزول فى الغرف العالية
الرفيعة ، الآمنة الحسنة مناظرها الطيبة مساكنها التى من سكنها نعم لا يأس ويحى لا يموت لا تبلى ثيابه ولا يفنى

شبابه . ثم أخبر تعالى بما أعد لأعدائه الكفار من العذاب والنكال يوم القيامة فقال (إن الذين كفروا لو أن لهم مافي الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم) أى لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهباً وبمثله ليفتدى بذلك من عذاب الله الذى قد أحاط به ، وتيقن وصوله إليه ما تقبل ذلك منه بل لا مندوحة عنه ولا محيص له ولا مناص ولهذا قال (ولهم عذاب أليم) أى موجع (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم) كما قال تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) الآية فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته وأليم مسه ولا سبيل لهم إلى ذلك ، كلما رفعهم الله فصاروا في أعلى جهنم ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد فيردوهم إلى أسفلها (ولهم عذاب مقيم) أى دائم مستمر لا خروج لهم منها ، ولا محيد لهم عنها ، وقد قال حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « يؤتى بالرجل من أهل النار فيقال له يا ابن آدم كيف وجدت مضجعتك ؟ فيقول شر مضجع ، فيقال هل تفتدى بقراب الأرض ذهباً ؟ قال فيقول نعم يارب فيقول الله تعالى كذبت قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل فيؤمر به إلى النار » رواه مسلم والنسائي من طريق حماد بن سلمة بنحوه وكذا رواه البخارى ومسلم من طريق معاذ بن هشام الدستوائى عن أبيه عن قتادة عن أنس به وكذا أخرجه من طريق أبي عمران الجونى واسمه عبد الملك بن حبيب عن أنس بن مالك به . ورواه مطر الوراق عن أنس بن مالك ، ورواه ابن مردويه من طريقه عنه ، ثم روى ابن مردويه من طريق السعوى عن يزيد بن صهيب الفقير عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال « يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة » قال فقلت لجابر بن عبد الله يقول الله (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها) قال اتل أول الآية (إن الذين كفروا لو أن لهم مافي الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به) الآية ألا إنهم الذين كفروا وقد روى الإمام أحمد ومسلم هذا الحديث من وجه آخر عن يزيد الفقير عن جابر وهذا أبسط سياقا وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن أبى شيبه الواسطى حدثنا يزيد ابن هارون أخبرنا مبارك بن فضالة حدثني يزيد الفقير قال جلست إلى جابر بن عبد الله وهو يحدث فحدث أن ناسا يخرجون من النار قال وأنا يومئذ أنكر ذلك فغضبت وقلت ما أعجب من الناس ولكن أعجب منكم يا أصحاب محمد تزعمون أن الله يخرج ناسا من النار والله يقول (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها) الآية فاتهرنى أصحابه وكان أحلمهم فقال دعوا الرجل إنما ذلك للكفار فقرأ (إن الذين كفروا لو أن لهم مافي الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة) حتى بلغ (ولهم عذاب مقيم) أما تقرأ القرآن ؟ قلت بلى قد جمعته قال أليس الله يقول (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) فهو ذلك المقام فإن الله تعالى يحتبس أقواما بخطيئهم في النار ما شاء لا يكلمهم فإذا أراد أن يخرجهم أخرجهم ، قال فلم أعد بعد ذلك إلى أن أكذب به ثم قال ابن مردويه حدثنا دعلج بن أحمد حدثنا عمرو ابن حفص السدوسى حدثنا عاصم بن على أخبرنا العباس بن الفضل حدثنا سعيد بن المهلب حدثني طلق بن حبيب قال كنت من أشد الناس تكذيبا بالشفاعة حتى لقيت جابر بن عبد الله فقرأت عليه كل آية أقدر عليها يذكر الله فيها خلود أهل النار فقال : يا طلق أتراك أقرأ لكتاب الله وأعلم بسنة رسول الله منى ؟ إن الذين قرأت هم أهلها هم المشركون ولكن هؤلاء قوم أصابوا ذنوبا فعذبوا ثم أخرجوا منها ثم أهوى بيديه إلى أذنيه فقال صمتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول « يخرجون من النار بعد ما دخلوا » ونحن نقرأ كما قرأت

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يقول تعالى حاكما وأمرًا بقطع يد السارق والسارقة وروى الثورى عن جابر بن يزيد الجعفى عن عامر بن شراحيل الشعبى

أن ابن مسعود كان يقرؤها (والسارق والسارقة فاقطعوا أيماهما) وهذه قراءة شاذة وإن كان الحكم عند جميع العلماء موافقا لها لا بها بل هو مستفاد من دليل آخر وقد كان القطع معمولاً به في الجاهلية فقرر في الإسلام وزيدت شروط آخر كما سند كره إن شاء الله تعالى ، كما كانت القسامة والدية والقراض وغير ذلك من الأشياء التي ورد الشرع بتقريرها على ما كانت عليه وزيادات هي من تمام المصالح . ويقال إن أول من قطع الأيدي في الجاهلية قريش قطعوا رجلاً يقال له دويك مولى لبني مليح بن عمرو من خزاعة كان قد سرق كنز الكعبة ، ويقال سرقه قوم فوضعوه عنده وقد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئاً قطعت يده به سواء كان قليلاً أو كثيراً لعموم هذه الآية (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) فلم يعتبروا نصاباً ولا حرزاً بل أخذوا بمجرد السرقة وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عبد المؤمن عن نجيدة الحنفي قال سألت ابن عباس عن قوله (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) أخاص أم عام ؟ فقال بل عام وهذا يحتمل أن يكون موافقة من ابن عباس لما ذهب إليه هؤلاء ويحتمل غير ذلك قاله أعلم . وتمسكوا بما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده » وأما الجمهور فاعتبروا النصاب في السرقة وإن كان قد وقع بينهم الخلاف في قدره فذهب كل من الأئمة الأربعة إلى قول علي حدة فعند الإمام مالك بن أنس رحمه الله النصاب ثلاثة دراهم مضروبة خالصة فتمسكوا بها أو ما يبلغ ثمنها فما فوقه وجب القطع واحتج في ذلك بما رواه عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قطع في بطن ثمنه ثلاثة دراهم . أخرجه في الصحيحين قال مالك رحمه الله : وقطع عثمان رضي الله عنه في أترجة قومت بثلاثة دراهم وهو أحب ما سمعت في ذلك وهذا الأثر عن عثمان رضي الله عنه قد رواه مالك عن عبد الله ابن أبي بكر عن أبيه عن عمرة بنت عبد الرحمن أن سارقاً سرق في زمن عثمان أترجة فأمر بها عثمان أن تقوم فقومت بثلاثة دراهم من صرف اثني عشر درهماً فقطع عثمان يده قال أصحاب مالك ومثل هذا الصنيع يشتهر ولم ينكر فمن مثله يحكى الاجماع السكوتي وفيه دلالة على القطع في الثمار خلافاً للحنفية وعلى اعتبار ثلاثة دراهم خلافاً لهم في أنه لا بد من عشرة دراهم وللشافعية في اعتبار ربع دينار والله أعلم وذهب الشافعي رحمه الله إلى أن الاعتبار في قطع يد السارق ربع دينار أو ما يساويه من الأثمان أو العروض فصاعداً ، وأول الحجة في ذلك ما أخرجه الشيخان البخاري ومسلم من طريق الزهري عن عمرة عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال « تقطع يد السارق في ربع دينار فصاعداً » ولمسلم من طريق أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عمرة عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال « لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً » قال أصحابنا فهذا الحديث فاصل في المسئلة ونص في اعتبار ربع دينار لا ما سواه قالوا وحديث ثمن الجن ، وأنه كان ثلاثة دراهم لا ينافي هذا لأنه إذ ذاك كان الدينار بائني عشر درهماً فهي ثمن ربع دينار فأمكن الجمع بهذا الطريق ويروى هذا المذهب عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم وبه يقول عمر بن عبد العزيز والليث بن سعد والأوزاعي والشافعي وأصحابه ، وإسحق بن راهويه في رواية عنه وأبو ثور وداود بن علي الظاهري رحمهم الله

وذهب الإمام أحمد بن حنبل وإسحق بن راهويه في رواية عنه إلى أن كل واحد من ربع الدينار والثلاثة دراهم مرد شرعي فمن سرق واحداً منهما أو ما يساويه قطع عملاً بحديث ابن عمر وبحديث عائشة رضي الله عنها ووقع في لفظ عند الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اقطعوا في ربع دينار ولا تقطعوا فيما هو أدنى من ذلك » وكان ربع الدينار يومئذ ثلاثة دراهم والدينار اثني عشر درهماً وفي لفظ للنسائي « لا تقطع يد السارق فيما دون ثمن الجن » قيل لعائشة ما ثمن الجن قالت ربع دينار فهذه كلها نصوص دالة على عدم اشتراط عشرة دراهم والله أعلم وأما الإمام أبو حنيفة وأصحابه أبو يوسف ومحمد وزفر وكنداسفيان الثوري رحمهم الله فأنهم ذهبوا إلى أن النصاب عشرة دراهم مضروبة غير مغشوشة واحتجوا بأن ثمن الجن الذي قطع فيه السارق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ثمنه عشرة دراهم وقد روى أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا ابن نمير وعبد الأعلى حدثنا محمد بن إسحق عن

أيوب بن موسى عن عطاء عن ابن عباس قال كان ثمن المجن على عهد النبي ﷺ عشرة دراهم ثم قال حدثنا عبد الأعلى عن محمد بن إسحق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ « لا تقطع يد السارق في دون ثمن المجن » وكان ثمن المجن عشرة دراهم قالوا فهذا ابن عباس وعبد الله بن عمرو قد خالفا ابن عمر في ثمن المجن فالاحتياط الأخذ بالأكثر لأن الحدود تدرأ بالشبهات . وذهب بعض السلف إلى أنه تقطع يد السارق في عشرة دراهم أو دينار أو ما يبلغ قيمته واحدا منهما يحكى هذا عن علي وابن مسعود وإبراهيم النخعي وأبي جعفر الباقر رحمهم الله تعالى وقال بعض السلف لا تقطع الحنص إلا في خمس أي في خمسة دنانير أو خمسين درهما ، وينقل هذا عن سعيد بن جبير رحمه الله وقد أجاب الجمهور عما تمسك به الظاهرية من حديث أبي هريرة « يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده » بأجوبة (أحدها) أنه منسوخ بحديث عائشة وفي هذا نظر لأنه لا بد من بيان التاريخ (والثاني) أنه مؤول ببيضة الحديد وحبل السفن قاله الأعمش فيما حكاه البخاري وغيره عنه (والثالث) أن هذه وسيلة إلى التدرج في السرقة من القليل إلى الكثير الذي تقطع فيه يده ويحتمل أن يكون هذا خرج مخرج الاخبار عما كان الأمر عليه في الجاهلية حيث كانوا يقطعون في القليل والكثير فلعن السارق الذي يبدل يده الثمينة في الأشياء المهينة وقد ذكروا أن أبا العلاء المعري لما قدم بغداد اشتهر عنه أنه أورد إشكالا على الفقهاء في جعلهم نصاب السرقة ربع دينار ونظم في ذلك شعرا دل على جهله ، وقلة عقله فقال :

يد بخمس مئين عسجد وديت * ما بالها قطعت في ربع دينار
تناقض مالنا إلا السكوت له * وأت نعوذ بمولانا من النار

ولما قال ذلك واشتهر عنه تطلبه الفقهاء فهرب منهم وقد أجابه الناس في ذلك فكان جواب القاضي عبد الوهاب المالكي رحمه الله أن قال لما كانت أمينة كالت ثمانية ولما خانت هانت ، ومنهم من قال هذا من تمام الحكمة والصلحة وأسرار الشريعة العظيمة فإن في باب الجبايات ناسب أن تعظم قيمة اليد بخمسمائة دينار لثلاثي عليها ، وفي باب السرقة ناسب أن يكون القدر الذي تقطع فيه ربع دينار لثلاث يسارع الناس في سرقة الأموال فهذا هو عين الحكمة عند ذوى الأبواب . ولهذا قال (حزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم) أي مجازاة على صنيعها السيئ في أخذها أموال الناس بأيديهم فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك نكالا من الله أي تنكيلا من الله بهما على ارتكاب ذلك (والله عزيز) أي في انتقامه (حكيم) أي في أمره ونهيه وشرعه وقدره . ثم قال تعالى (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم) أي من تاب بعد سرقة وأنياب إلى الله فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه فأما أموال الناس فلا بد من ردها إليهم أو بدلها عند الجمهور وقال أبو حنيفة متى قطع وقد تلفت في يده فإنه لا يرد بدلها ، وقد روى الحافظ أبو الحسن الدارقطني من حديث (١) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أتى بسارق قد سرق ثملة فقال ما إخاله سرق فقال السارق بلى يا رسول الله قال « اذهبوا به فاقطعوه ثم احسموه ثم اتوني به » فقطع فأتى به فقال « تب إلى الله » فقال تب إلى الله فقال « تاب الله عليك » وقد روى من وجه آخر مرسل ورجح إرساله على بن المديني وابن خزيمة رحمهما الله . وروى ابن ماجه من حديث ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن عبد الرحمن بن ثعلبة الأنصاري عن أبيه أن عمر بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إني سرت رجلا بنى فلان فطهرني فأرسل إليهم النبي ﷺ فقالوا إنا افتقدنا رجلا لنا فأمر به فقطعت يده وهو يقول الحمد لله الذي طهرني منك أردت أن تدخل جسدي النار . وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن لهيعة عن حي بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو قال سرت امرأة حليا فجاء الدين سرقهم فقالوا يا رسول الله سرقتنا هذه المرأة فقال رسول الله ﷺ « اقطعوا أيديها اليمنى » فقالت المرأة هل من توبة فقال رسول الله ﷺ « أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك » قال فأنزله الله عز وجل (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم) وقد رواه الإمام أحمد بأبسط من هذا

فقال حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثني حي بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو أن امرأة سرت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء بها الذين سرقهم فقالوا يارسول الله إن هذه المرأة سرقنا قال قومها فنحن نفيدها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقطعوا يدها » فقالوا نحن نفيدها بخمسمائة دينار فقال « اقطعوا يدها » فقطعت يدها اليمنى فقالت المرأة هل لي من توبة يا رسول الله قال « نعم أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك » فأُنزل الله في سورة المائدة (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم) وهذه المرأة هي المخزومية التي سرقت ، وحديثها ثابت في الصحيحين من رواية الزهري عن عروة عن عائشة أن قريشاً أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح فقالوا من يكلم فيها رسول الله ﷺ فقالوا ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأثني بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه فيها أسامة بن زيد فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال « أنتفع في حد من حدود الله عز وجل » فقال له أسامة استغفر لي يا رسول الله ، فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاخطب فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال « أما بعد فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها قالت عائشة فحسنت توبتها بعد وتزوجت وكانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ وهذا لفظ مسلم وفي لفظ له عن عائشة قالت كانت امرأة مخزومية تستعير الثناع وتجده فأمر النبي ﷺ بقطع يدها وعن ابن عمر قال كانت امرأة مخزومية تستعير متاعاً على السنة جاراتها وتجده فأمر رسول الله ﷺ بقطع يدها رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وهذا لفظه وفي لفظ له أن امرأة كانت تستعير الحلى للناس ثم تمسكه فقال رسول الله ﷺ « لتب هذه المرأة إلى الله وإلى رسوله وترد ما تأخذ على القوم » ثم قال رسول الله ﷺ « قم يا بلال فخذ يدها فاقطعها » وقد ورد في أحكام السرقة أحاديث كثيرة مذكورة في كتاب الأحكام والله المحدث والمثبته قال تعالى (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض) أى هو المالك لجميع ذلك الحاكم فيه الذى لا معقب لحكمه وهو الفعال لما يريد (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير)

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ بِتُحْزُونِ الْكَلِمِ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلشَّيْءِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاخْضَعُوا بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاخْضَعْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّائِصِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُخْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا وَلَا تَشْفَعُوا بَيْنِي بَيْنَكُمْ قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

نزلت هذه الآيات الكريكات في المسارعين في الكفر الخارجين عن طاعة الله ورسوله المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله عز وجل (من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم) أي أظهرُوا الإيمان بألسنتهم وقلوبهم خراب خاوية منه وهؤلاء المنافقون (ومن الذين هادوا) أعداء الإسلام وأهله وهؤلاء كلهم (ساعون للكذب) أي مستجيبون له منفعلون عنه (ساعون لقوم آخرين لم يأتوك) أي يستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمد وقيل المراد أنهم يتسمعون الكلام وينهونه إلى قوم آخرين ممن لا يحضر عندك من أعدائك (يحرفون الكلم من بعد مواضعه) أي يتأولونه على غير تأويله ويبدلونه من بعد ما علقوه وهم يعلمون (يقولون إن أو أنتم هذا فخذوه وإن لم تأتوه فاحذروا) قيل نزلت في قوم من اليهود قتلوا قتيلًا وقالوا تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد فإن حكم بالدية فاقبلوه وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه والصحيح أنها نزلت في اليهوديين اللذين زنيا وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم من الأمر برجم من أحسن منهم فحرفوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة والتحميم والاركاب على سمار مقلوبين فلما وقعت تلك الكائنة بعد الحجرة قالوا فيما بينهم تعالوا حتى نتحاكم إليه فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه واجعلوه حجة بينكم وبين الله ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك وإن حكم لرجم فلا تتبعوه في ذلك وقد وردت الأحاديث بذلك فقال مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله ﷺ «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟» فقالوا فنضجهم ويجلدون قال عبد الله بن سلام كذبتم أن فيها الرجم فأتوا بالتوراة، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له عبد الله بن سلام ارفع يدك فرفع يده فإذا آية الرجم فقالوا صدق يا محمد فيها آية الرجم فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما فرأيت الرجل يحشى على المرأة يقبها الحجارة أخرجاه وهذا لفظ البخاري وفي لفظ له فقال لليهود «ما تصنعون بهما؟» قالوا نسخم وجوههما ونخزيهما قال (فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) فجاءوا فقالوا لرجل منهم ممن يرضون أعور: اقرأ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها فوضع يده عليه فقال ارفع يدك فرفع يده فإذا آية الرجم تلوح قال يا محمد إن فيها آية الرجم ولكننا شكنا بيننا فأمر بهما فرجما وعند مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى يهودي ويهودية قد زنيا فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود فقال «ما تجدون في التوراة على من زنى؟» قالوا نسود وجوههما ونحملمها ونحملها ونخالف بين وجوههما ويطاف بهما قال (فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) قال فجاءوا بها فقرءوها حتى إذا مر بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها وما وراءها فقال له عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله ﷺ مره فليرفع يده فرفع يده فإذا تحته آية الرجم فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما. قال عبد الله بن عمر كنت فيمن رجمهما فلقد رأيته يقبها من الحجارة بنفسه. وقال أبو داود حدثنا أحمد بن سعيد الحمدا في حديثنا ابن وهب حدثنا هشام بن سعد أن زيد بن أسلم حدثه عن ابن عمر قال أتى نفر من اليهود فدعوا رسول الله ﷺ إلى القف فأتاهم في بيت المدراس فقالوا يا أبا القاسم إن رجلا منا زنى بامرأة فاحكم قال ووضعوا لرسول الله ﷺ وسادة فجلس عليها ثم قال «أئتوني بالتوراة فأتي بها فنزع الوسادة من تحته ووضع التوراة عليها وقال آمنت بك وبمن أنزلك» ثم قال «أئتوني بأعلمكم» فأتى بفتى شاب ثم ذكر قصة الرجم نحو حديث مالك عن نافع وقال الزهري سمعت رجلا من مزينة ممن يتبع العلم ويعيه ونحن عند ابن المسيب عن أبي هريرة قال زنى رجل من اليهود بامرأة فقال بعضهم لبعض اذهبوا إلى هذا النبي فإنه بعث بالتخفيف فأناتنا بفتيادون الرجم قبلناها واحتججنا بها عند الله قلنا فتيا نبي من أنبيائك قال فأتوا النبي ﷺ وهو جالس في المسجد في أصحابه فقالوا يا أبا القاسم ما تقول في رجل وامرأة منهم زنيا؟ فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مدراسهم فقام على الباب فقال «أنشذك بالله الذي أنزل التوراة على موسى ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحسن» قالوا يحمم وجهه ويجلد والتجيه أن يحمل الزانيان على سمار وتقابل أفتيتهما ويطاف بهما قال وسكت شاب منهم فلما رآه رسول الله ﷺ سكت أظ به رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلم النشدة فقال اللهم إذ نشدتنا فانا نجحد في التوراة الرجم فقال النبي صلى الله عليه وسلم «فما أول ما ارتخصم أمر الله» قال زنى ذو قرابة من ملك من ملوكنا فأخر عنه الرجم ثم

زنى رجل في أثره من الناس فأراد رجمه فحال قومه دونه وقالوا لا يرحم صاحبنا حتى تبهى بصاحبك فترجمه فاصطاحوا على هذه العقوبة بينهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم « فاني أحكم بما في التوراة » فأمر بهما فرجما قال الزهري فباننا أن هذه الآية نزلت فيهم (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا) فكان النبي ﷺ منهم رواه أحمد وأبو داود وهذا لفظه وابن جرير وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة عن البراء بن عازب قال مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم يهودى محم مجلود فدعاهم فقال « أهكذا تجدون حد الزانى في كتابكم ؟ » فقالوا نعم فدعا رجلا من علمائهم فقال « أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزانى في كتابكم ؟ » فقال لا والله ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك ، نجد حد الزانى في كتابنا الرجم ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أثقنا عليه الحد فقلنا تعالوا حتى نجعل شيئا نقيم على الشريف والوضيع فاجتمعنا على التعميم والجلد فقال النبي ﷺ « اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أمأ توه » قال فأمر به فرجم قال فأنزل الله عز وجل (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر) إلى قوله (يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه) أى يقولون اتوا محمداً فإن أثباتكم بالتعميم والجلد فخذوه وإن أثباتكم بالرجم فاحذروا إلى قوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال في اليهود إلى قوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) قال في اليهود (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) قال في الكفار كلها ، انفرد بإخراجه مسلم دون البخارى وأبو داود والنسائى وابن ماجه من غير وجه عن الأعمش به وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدى في مسنده حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا محمد بن سعيد الهمداني عن الشعبي عن جابر بن عبد الله قال زنى رجل من أهل فدك فكتب أهل فدك إلى ناس من اليهود بالمدينة أن سلوا محمداً عن ذلك فإن أمركم بالجلد فخذوه عنه وإن أمركم بالرجم فلا تأخذوه عنه فسألوه عن ذلك فقال « أرسلوا إلى أعلم رجلين فيكم » فجاءوا برجل أعور يقال له ابن صوريا وآخر فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم « أتبا أعلم من قبلكما » فقالا قد دعانا قومنا لذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم لهما « أليس عندكما التوراة فيها حكم الله » قالا بلى فقال النبي صلى الله عليه وسلم « فأنشدكم بالذى فاق البحر لبيها إسرائيل وظلال عليكم الغمام وأنجاكم من آل فرعون وأنزل المن والسلوى على بنى إسرائيل ما تجدون في التوراة في شأن الرجم » فقال أحدهما للآخر ما نشدت بمثله قط ثم قالا نجد تردد النظر زنية والاعتناق زنية والقبيل زنية فإذا هم رأوه يبدى ويعيد كما يدخل الليل في المسكحلة فقد وجب الرجم فقال النبي ﷺ « هو ذلك » فأمر به فرجم فنزلت (فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين) ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث محمد بن عمار بن داود عن جابر قال جاءني اليهود برجل وامرأته فهما أربعة رأيتهم « اثنتونى بأعلم رجلين منكم » فأتوه بابني صوريا فنشدهما « كيف تجدان أمر هذين في التوراة ؟ » قالان نجد إذا شهد أربعة أنهم رأوا ذكره في فرجها مثل الليل في المسكحلة رجا ، قال « فما ينبغي أن ترجعوهما » قالا ذهب سادتنا فسكرهنا القتل فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشهود فجاء أربعة فشهدوا أنهم رأوا ذكره مثل الليل في المسكحلة فأمر رسول الله ﷺ برجمها ثم رواه أبو داود عن الشعبي وإبراهيم النخعي مرسلا ولم يذكر فيه فدعا بالشهود فشهدوا فهذه الأحاديث دالة على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حكم بموافقة حكم التوراة وليس هذا من باب الإكرام لهم بما يعتقدون صحته لأنهم مأورون باتباع الشرع الحميدى لا محالة ولكن هذا يوحى خاص من الله عز وجل إليه بذلك وسؤاله إياهم عن ذلك ليقررهم على ما بأيديهم مما تواطؤوا على كتمانته وجحدته وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة فلما اعترفوا به مع عملهم على خلافه بأن زيعهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذى بأيديهم وعدوهم إلى تحكيم الرسول صلى الله عليه وسلم إنما كان عن هوى منهم وشهوة لموافقة آرائهم لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به ولهذا قالوا (إن أوتيتم هذا) أى الجلد والتعميم فخذوه أى اقبلوه (وإن لم تؤتوه فاحذروا) أى من قبله واتباعه . قال الله تعالى (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يظفر قلوبهم في الدنيا

خزى ولهم في الآخرة عذاب عظيم سماعون للكذب (أى الباطل) (أ كالون للسحت) أى الحرام وهو الرشوة كما قاله ابن مسعود وغير واحد أى ومن كانت هذه صفته كيف يطهر الله قلبه وأتى يستجيب له ثم قال لنبيه (فإن جاءوك) أى يتجأكمون اليك (فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا) أى فلا عليك أن لا تحكم بينهم لأنهم لا يقصدون بتجأكم اليك اتباع الحق بل ما يوافق أهواءهم قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدى وزيد ابن أسلم وعطاء الخراساني والحسن وغير واحد منسوخة بقوله (وأن احكم بينهم بما أنزل الله) (وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط) أى بالحق والعدل وإن كانوا ظلمة خارجين من طريق العدل (إن الله يحب المقسطين) ثم قال تعالى منكر اعليهم في آرائهم الفاسدة ومقاصدهم الزائلة في تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذى بأيديهم الذى يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبدا ثم خرجوا عن حكمه وعدلوا إلى غيره مما يعتقدون في نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم فقال (وكيف يحكمونك) وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين) ثم مدح التوراة التى أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران فقال (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا) أى لا يخرجون عن حكمها ولا يبدلون ولا يجرّفونها (والرايون والأخبار) أى وكذلك الرابانيون منهم وهم العلماء العباد والأخبار وهم العلماء (بما استحفظوا من كتاب الله) أى بما استودعوا من كتاب الله الذى أمروا أن يظهروه ويعملوا به (وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشوني) أى لا تخافوا منهم وخافوا منى (ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) فيه قولان سيأتى بيانهما

﴿ سبب آخر في نزول هذه الآيات الكريمات ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا إبراهيم بن العباس حدثنا عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه عن عبد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال إن الله أنزل : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون وأولئك هم الظالمون وأولئك هم الفاسقون قال : قال ابن عباس أنزلها الله في الطائفتين من اليهود وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتل قتلته العزيزة من الدليلة فديته خمسون وسقا وكل قتل قتلته الدليلة من العزيزة فديته مائة وسق فكانوا على ذلك حتى قدم النبي صلى الله عليه وسلم فقتلت الدليلة من العزيزة قتيلا فأرسلت العزيزة إلى الدليلة أن ابشوا لنا بمائة وسق فقاتلت الدليلة وهل كان في حين دينهما واحد ونسبهما واحد وبلدهما واحد دية بعضهم نصف دية بعض إنما أعطيناكم هذا ضما منكم لنا وفرقا منكم فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم فسكادت الحرب تهيج بينهما ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله ﷺ بينهم ثم ذكرت العزيزة قتالت والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم ولقد صدقوا ما أعطونا هذا إلا ضما منا وقهرا لهم ففسدوا إلى محمد من يخبر لكم رأيهم إن أعطاكم ما تريدون حكتموه وإن لم يعطكم حذرتهم فلم تحكموه ففسدوا إلى رسول الله ﷺ ناسا من المناققين ليخبروا لهم رأى رسول الله ﷺ فلما جاءوا رسول الله ﷺ أخبر الله رسوله ﷺ بأمرهم كله وما أرادوا فأنزل الله تعالى (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر) إلى قوله (الفاسقون) ففهم والله أنزل وإياهم عفى الله عز وجل ورواه أبو داود من حديث ابن أبى الزناد عن أبيه بحواه . وقال أبو جعفر بن جرير حدثنا هناد بن السرى وأبو كريب قالوا حدثنا يونس بن بكير عن محمد بن إسحق حدثني داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس أن الآيات التى في المائدة قوله (فاحكم بينهم أو أعرض عنهم - إلى المقسطين) إنما أنزلت في الدية في بنى النضير وبنى قريظة وذلك أن قتلى بنى النضير كان لهم شرف تؤدى الدية كاملة وأن قريظة كانوا يؤدى لهم نصف الدية فتجأكموا في ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله ذلك فيهم فحملهم رسول الله ﷺ على الحق في ذلك فجعل الدية في ذلك سواء والله أعلم أى ذلك كان ، ورواه أحمد وأبو داود والنسائي من حديث ابن إسحق بنحوه ثم قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا عبيد الله بن موسى عن علي بن صالح عن سمالك عن عكرمة عن ابن عباس قال كانت قريظة والنضير وكانت النضير أشرف من قريظة فكان إذا قتل القريظى رجلا من النضير قتل به وإذا قتل النضيرى رجلا من قريظة ودى بمائة وسق من تمر فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل رجل من النضير رجلا من قريظة فقالوا ادفعوه اليه فقالوا بيننا وبينكم

رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت (وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط) ورواه أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم في المستدرک من حديث عبيد الله بن موسى بنحوه . وهكذا قال قتادة ومقاتل بن حبان وابن زيد وغير واحد وقد روى العوفي وهشام بن أبي طلحة الهمداني عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت في اليهوديين الذين زنيا كما تقدمت الأحاديث بذلك وقد يكون اجتماع هذان السببان في وقت واحد فنزلت هذه الآيات في ذلك كله والله أعلم ، ولهذا قال بعد ذلك (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين) إلى آخرها وهذا يقوى أن سبب النزول قضية القصص والله سبحانه وتعالى أعلم وقوله تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال البراء بن عازب وحذيفة بن اليمان وابن عباس وأبو مجلز وأبو رجاء العطاردي وعكرمة وعبيد الله بن عبد الله والحسن البصري وغيرهم نزلت في أهل الكتاب زاد الحسن البصري وهي علينا واجبة وقال عبد الرزاق عن سفيان الثوري عن منصور عن إبراهيم قال نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل ورضي الله لهذه الأمة بها رواء ابن جرير وقال ابن جرير أيضا حدثنا يعقوب حدثنا هشيم أخبر عبد الملك بن أبي سليمان عن سلمة بن كهيل عن علقمة ومسروق أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة فقال من السحت قال فقلا وفي الحكم قال ذاك الكفر ثم تلا (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) وقال السدي (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) يقول ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون أو جار وهو يعلم فهو من الكافرين وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال من جحد ما أنزل الله فقد كفر ومن أقرب لم يحكم به فهو ظالم فاسق رواء ابن جرير ثم اختار أن الآية المراد بها أهل الكتاب أو من جحدكم الله المنزل في الكتاب ، وقال عبد الرزاق عن الثوري عن زكريا عن الشعبي ومن لم يحكم بما أنزل الله قال الله قال للمسلمين

وقال ابن جرير حدثنا ابن المثنى حدثنا عبد الصمد حدثنا شعبة عن ابن أبي السفر عن الشعبي (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون قال هذا في المسلمين) ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون (قال هذا في اليهود) ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون (قال هذا في النصارى وكذا رواء هشيم والثوري عن زكريا بن أبي زائدة عن الشعبي وقال عبد الرزاق أيضا أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال سئل ابن عباس عن قوله (ومن لم يحكم) الآية قال هي به كفر قال ابن طاوس وليس كمن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله وقال الثوري عن ابن جريج عن عطاء أنه قال كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق ، رواء ابن جرير وقال وكيع عن سعيد المسكي عن طاوس (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال ليس بكفر ينقل عن الملة وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ حدثنا سفيان بن عيينة عن هشام بن حجير عن طاوس عن ابن عباس في قوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال ليس بالكفر الذي تذهبون إليه ورواه الحاكم في مستدرکه من حديث سفيان بن عيينة وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه

﴿ وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

وهذا أيضا مما وبخت به اليهود وقرعوا عليه فان عندهم في نص التوراة أن النفس بالنفس وهم يخالفون حكم ذلك عمدا وعنادا ويقيدون النضري من القرطبي ولا يقيدون القرطبي من النضري بل يعدلون إلى الدية كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني الحصن وعدلوا إلى ما اصطالحوا عليه من الجلد والتحميم والاشهار ولهذا قال هناك (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) لأنهم جحدوا حكم الله قصدا منهم وعنادا وقال ههنا (فأولئك هم الظالمون) لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه فخالفوا وظلموا وتعدوا على بعضهم بعضا^(١) وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن آدم حدثنا ابن المبارك عن يونس بن يزيد عن علي بن يزيد أخى يونس بن يزيد عن الزهري

(١) كذا في الأصول والوجه أن يقال وتعدى بعضهم على بعض

عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأها (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين) نصب النفس ورفع العين وكذا رواه أبو داود والترمذي والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن المبارك وقال الترمذي حسن غريب وقال البخاري تفرد ابن المبارك بهذا الحديث وقد استدلل كثير ممن ذهب من الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكى مقررنا ولم ينسخ كما هو المشهور عن الجمهور وكما حكاه الشيخ أبو إسحق الاسفرايني عن نص الشافعي وأكثر الأصحاب بهذه الآية حيث كان الحكم عندنا على وفقها في الجنائيات عند جميع الأئمة وقال الحسن البصري هي عليهم وعلى الناس عامة رواه ابن أبي حاتم وقد حكى الشيخ أبو زكريا النوى في هذه المسئلة ثلاثة أوجه ثالثها أن شرع إبراهيم حجة دون غيره وصحح منها عدم الحجية ونقلها الشيخ أبو إسحق الاسفرايني أقوالا عن الشافعي وأكثر الأصحاب ورجح أنه حجة عند الجمهور من أصحابنا فإله أعلم وقد حكى الإمام أبو نصر بن الصباغ رحمه الله في كتابه الشامل إجماع العلماء على الاحتجاج بهذه الآية على ما دلت عليه وقد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة بعموم هذه الآية الكريمة وكذا ورد في الحديث الذي رواه النسائي وغيره أن رسول الله ﷺ كتب في كتاب عمرو بن حزم « أن الرجل يقتل بالمرأة » وفي الحديث الآخر « السلبون تكافأ دماؤهم » وهذا قول جمهور العلماء وعن أمير المؤمنين على بن أبي طالب أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها إلا أن يدفع ولها إلى أوليائه نصف الدية لأن ديتها على النصف من دية الرجل وإليه ذهب أحمد في رواية وحكى عن الحسن وعطاء وعثمان البستي ورواية عن أحمد أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها بل تجب ديتها وهكذا احتج أبو حنيفة رحمه الله تعالى بعموم هذه الآية على أنه يقتل المسلم بالكافر الذي وعلى قتل الحر بالعبد وقد خالفه الجمهور فيهما ففي الصحيحين عن أمير المؤمنين على رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا يقتل مسلم بكافر » وأما العبد ففيه عن السلف آثار متعددة أنهم لم يكونوا يقيدون العبد من الحر ولا يقتلون حرا بعبد وجاء في ذلك أحاديث لا تصح وحكى الشافعي الإجماع على خلاف قول الحنفية في ذلك ولكن لا يلزم من ذلك بطلان قولهم إلا بدليل مخصص للآية الكريمة .

ويؤيد ما قاله ابن الصباغ من الاحتجاج بهذه الآية الكريمة الحديث الثابت في ذلك كما قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن أبي عدي حدثنا حميد عن أنس بن مالك أن الربيع عمه أنس كسرت ثنية جارية فطلبوا إلى القوم العفو فأبوا فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « القصاص » فقال أخوها أنس بن النضر يا رسول الله تكسر ثنية فلانة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أنس كتاب الله القصاص » قال فقال لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنية فلانة : قال فرضى القوم فعفوا وتركوا القصاص فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » أخرجه في الصحيحين وقد رواه محمد بن عبد الله بن المثنى الأنصاري في الجزء المشهور من حديثه عن حميد عن أنس بن مالك أن الربيع بنت النضر عمته لطمت جارية فكسرت ثنيتهما فعرضوا عليهم الأرش فأبوا فطلبوا الأرش والعفو فأبوا فأتوا رسول الله ﷺ فأمرهم بالقصاص فجاء أخوها أنس بن النضر فقال يا رسول الله أتكسر ثنية الربيع والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتهما فقال النبي ﷺ « يا أنس كتاب الله القصاص » فعفا القوم فقال رسول الله ﷺ « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » رواه البخاري عن الأنصاري بنحوه وروى أبو داود حدثنا أحمد بن حنبل حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبي عن قتادة عن أبي نضرة عن عمران بن حصين أن غلاما لآناس فقراء قطع أذن غلام لآناس أغنياء فأتى أهله النبي ﷺ فقالوا يا رسول الله إن آناس فقراء فلم يجعل عليه شيئا وكذا رواه النسائي عن إسحق بن راهويه عن معاذ بن هشام الدستوائي عن أبيه عن قتادة به وهذا إسناد قوى رجاله كلهم ثقات وهو حديث مشكل اللهم إلا أن يقال إن الجاني كان قبل البلوغ فلا قصاص عليه ولعله تحمل أرش ما نقص من غلام الأغنياء عن الفقراء أو استغفاهم عنه . وقوله تعالى (والجروح قصاص) قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس قال تقتل النفس بالنفس وتفقأ العين بالعين ويقطع الأنف بالأنف وتنزع السن بالسن وتقتص الجراح بالجراح فهذا يستوى فيه أحرار المسلمين فيما بينهم رجالهم ونسائهم إذا كان عمدا في النفس وما دون النفس ويستوى فيه العبيد رجالهم ونسائهم فيما بينهم إذا كان عمدا في النفس وما دون النفس رواه ابن جرير وابن أبي حاتم

﴿قاعدة مهمة﴾

الجراح تارة تكون في مفصل فيجب فيه القصاص بالإجماع كقطع اليد والرجل والكف والقدم ونحو ذلك وأما إذا لم تكن الجراح في مفصل بل في عظم فقال مالك رحمه الله فيه القصاص إلا في الفخذ وشبهها لأنه مخوف خطر وقال أبو حنيفة وصاحبه لا يجب القصاص في شيء من العظام إلا في السن وقال الشافعي لا يجب القصاص في شيء من العظام مطلقاً وهو مروي عن عمر بن الخطاب وابن عباس وبه يقول عطاء والشعبي والحسن البصري والزهرى وإبراهيم النخعي وعمر بن عبد العزيز واليه ذهب سفيان الثوري والليث بن سعد وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد وقد احتج أبو حنيفة رحمه الله بحديث الربيع بنت النضر على مذهبه أنه لا قصاص في عظم إلا في السن وحديث الربيع لاحجة فيه لأنه ورد بانفط كسرت ثنية جارية وجائز أن تكون سقطت من غير كسر فيجب القصاص والحالة هذه بالإجماع وتمموا الدلالة بما رواه ابن ماجه من طريق أبي بكر بن عياش عن دهشم بن قران عن نمران بن جارية عن أبيه جارية بن ظفر الحنفي أن رجلاً ضرب رجلاً على ساعده بالسيف من غير المفصل فقطعها فاستعدى النبي ﷺ فأمر له بالدية فقال يا رسول الله أريد القصاص فقال خذ الدية بارك الله لك فيها ولم يقض له بالقصاص ، وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر ليس لهذا الحديث غير هذا الاسناد ودهشم بن قران العكلى ضعيف أعرابي ليس حديثه مما يحتج به ونمران بن جارية ضعيف أعرابي أيضاً وأبوه جارية بن ظفر مذكور في الصحابة ثم قالوا لا يجوز أن يقتص من الجراحة حتى تندمل جراحة المجنى عليه فإن اقتص منه قبل الاندمال ثم زاد جرحه فلا شيء له والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً طعن رجلاً بقرن في ركبته فجاء إلى النبي ﷺ فقال أئذني فقال « حتى تبرأ » ثم جاء إليه فقال أئذني فأقاده فقال يا رسول الله عرجت فقال « قد نهيتك فقصيتي فأبعدك الله وبطل عرجك » ثم نهى رسول الله ﷺ أن يقتص من جرح حتى يبرأ صاحبه تفرد به أحمد ﴿مسألة﴾ فلو اقتص المجنى عليه من الجاني ثلث من القصاص فلا شيء عليه عند مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين وغيرهم وقال أبو حنيفة تجب الدية في مال المقتص وقال عامر الشعبي وعطاء وطاوس وعمرو بن دينار والحارث العكلى وابن أبي ليلى وحمام ابن أبي سليمان والزهرى والثوري تجب الدية على عاقلة المقتص له ، وقال ابن مسعود وإبراهيم النخعي والحكم بن عتيبة وعثمان السقي يسقط عن المقتص له قدر تلك الجراحة ويجب الباقي في ماله وقوله تعالى (فمن تصدق به فهو كفارة له) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (فمن تصدق به) يقول فمن عفا عنه وتصدق عليه فهو كفارة للمطلوب وأجر للطالب وقال سفيان الثوري عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فمن تصدق به فهو كفارة للجراح وأجر للجروح على الله عز وجل رواه ابن أبي حاتم ثم قال وروى عن خيشمة بن عبد الرحمن ومجاهد وإبراهيم في أحد قولي وعامر الشعبي وجابر بن زيد نحو ذلك (الوجه الثاني) ثم قال ابن أبي حاتم حدثنا حماد بن زاذان حدثنا حرمي يعني بن عمار حدثنا شعبة عن عمار يعني ابن أبي حفصة عن رجل عن جابر بن عبد الله في قول الله عز وجل (فمن تصدق به فهو كفارة له) قال للمجروح وروى عن الحسن البصري وإبراهيم النخعي في أحد قولي وأبي إسحق الهمداني نحو ذلك وروى ابن جرير عن عامر الشعبي وقتادة مثله وقال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود الطيالسي حدثنا شعبة عن قيس يعني ابن مسلم قال سمعت طارق بن شهاب يحدث عن الهيثم بن العريان النخعي قال رأيت عبد الله بن عمرو عند معاوية أحمر شبيهاً بالموالي فسألت عن قول الله (فمن تصدق به فهو كفارة له) قال يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به وهكذا رواه سفيان الثوري عن قيس بن مسلم وكذا رواه ابن جرير من طرق سفيان وشعبة ، وقال ابن مردويه حدثني محمد بن علي حدثنا عبد الرحيم بن محمد المجاشعي حدثنا محمد بن أحمد بن الحجاج المهرى حدثنا يحيى بن سليمان الجعفي حدثنا علي يعني ابن هلال أنه سمع أبا بن تغلب عن العريان بن الهيثم بن الأسود عن عبد الله بن عمرو عن أبان بن تغلب عن الشعبي عن رجل من الأنصار عن النبي ﷺ في قوله (فمن تصدق به فهو كفارة له) قال « هو الذي تكسر سنه أو تقطع يده أو يقطع الشئ منه أو يخرج في بدنه فيعفو عن ذلك » - قال - فيحط عنه قدر خطاياهم فإن كان ربيع الدية فربيع خطاياهم وإن كان

الثالث فثلث خطاياه وإن كانت الدية حطت عنه خطاياه كذلك » ثم قال ابن جرير حدثنا زكريا بن يحيى بن أبي زائدة حدثنا ابن فضيل عن يونس بن أبي إسحق عن أبي السفر قال دفع رجل من قریش رجلاً من الأنصار فاندقت ثنيته فرفعه الأنصارى إلى معاوية فلما ألح عليه الرجل قال شأنك وصاحبك قال وأبو الدرداء عند معاوية فقال أبو الدرداء سمعت رسول الله ﷺ يقول « مامن مسلم يصاب بشيء من جسده فيه به إلا رفعه الله به درجة وحط عنه به خطيئة » فقال الأنصارى أنت سمعته من رسول الله ﷺ فقال سمعته أذنائى ووعاه قلبي . فخلى سبيل القرشى . فقال معاوية مروا له بمال ، هكذا رواه ابن جرير ورواه الإمام أحمد فقال حدثنا وكيع حدثنا يونس بن أبي إسحق عن أبي السفر قال كسر رجل من قریش سن رجل من الأنصار فاستعدى عليه معاوية فقال معاوية إنا سنرضيه فألح الأنصارى فقال معاوية شأنك بصاحبك وأبو الدرداء جالس فقال أبو الدرداء سمعت رسول الله ﷺ يقول « مامن مسلم يصاب بشيء من جسده فيتصدق به إلا رفعه الله به درجة وحط به عنه خطيئة » فقال الأنصارى فأنى قد عفوت وهكذا رواه الترمذى من حديث ابن المبارك وابن ماجه من حديث وكيع كلاهما عن يونس بن أبي إسحق به ثم قال الترمذى غريب من هذا الوجه ولا أعرف لأبي السفر سماعاً من أبي الدرداء ، وقال ابن مردويه حدثنا دعلج بن أحمد حدثنا محمد بن علي بن زيد حدثنا سعيد بن منصور حدثنا سفيان عن عمران بن ظبيان عن عدى بن ثابت أن رجلاً أهتم فنه رجل على عهد معاوية رضى الله عنه فأعطى دية فأبى إلا أن يقتص فأعطى ديتين فأبى فأعطى ثلاثاً فأبى فحدث رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « من تصدق بدم فمادونه فهو كفارة له من يوم ولد إلى يوم يموت » وقال الإمام أحمد حدثنا شريح بن النعمان حدثنا هشيم عن المغيرة عن الشعبي أن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « مامن رجل يجرح من جسده جراحة فيتصدق بها إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق به » ورواه النسائى عن علي بن حجر عن جرير بن عبد الحميد ورواه ابن جرير عن محمود بن خدش عن هشيم كلاهما عن المغيرة به وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد القطان عن مجالد عن عامر عن الحرر بن أبي هريرة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال ، « من أصيب بشيء من جسده فتركه لله كان كفارة له » .

وقوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) قد تقدم عن طاوس وعطاء أنها قالوا كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق .

﴿ وَقَفَيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

يقول تعالى (وقفنا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين * وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون)

يقول تعالى (وقفنا) أى اتبعنا على آثارهم يعنى أنبياء بنى إسرائيل (بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة) أى مؤمناً بها كما فيها (وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور) أى هدى إلى الحق ونور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات (ومصدقاً لما بين يديه من التوراة) أى متبعاً لها غير مخالف لما فيها إلا في القليل مما بينه وبين إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه كما قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل (ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم) ولهذا كان المشهور من قولى العلماء أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة وقوله تعالى (وهدى وموعظة للمتقين) أى وجعلنا الإنجيل هدى يهتدى به وموعظة أى زاجراً عن ارتكاب المحارم والمآثم للمتقين أى لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه . وقوله تعالى (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه) قرئ (وليحكم أهل الإنجيل بالنصب على أن اللام لام كي أى وآتيناه الإنجيل ليحكم أهل ملته به في زمانهم وقرئ (وليحكم بالجزم على أن اللام لام الأمر أى ليؤمنوا بجميع ما فيه وليقيموا ما أمروا به فيه ومما فيه البشارة ببعثة محمد والأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد كما قال تعالى (قل يا أهل الكتاب

لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم (الآية وقال تعالى (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة) إلى قوله (الفلاحون) ولهذا قال ههنا (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) أي الخارجون عن طاعة ربهم المائلون إلى الباطل الناركون للحق وقد تقدم أن هذه الآية نزلت في النصارى وهو ظاهر من السياق

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فَيَآءِتْسُكُمُ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُ أَنْمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّلْقَوْمِ الْيَوْفُونَ ﴾

لما ذكر تعالى التوراة التي أنزلها على موسى كليمه ومدحها وأثنى عليها وأمر باتباعها حيث كانت سائغة الاتباع وذكر الإنجيل ومدحه وأمر أهله بأقامته واتباع ما فيه كما تقدم بيانه شرع في ذكر القرآن العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم فقال تعالى (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق) أي بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله (مصدقاً لما بين يديه من الكتاب) أي من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه وأنه سينزل من عنده على عبده ورسوله محمد ﷺ فكان نزوله كما أخبرت به مما زادها صدقاً عند حاملها من ذوى البصائر الذين انقادوا لأمر الله واتباعوا شرائع الله وصدقوا رسل الله كما قال تعالى (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً) أي إن كان ما وعدنا الله على السنة رسله المتقدمة من محمّد عليه السلام لمفعولاً أى لكائنات لا محالة ولا بد . وقوله تعالى (ومهيمننا عليه) قال سفيان الثوري وغيره عن أبي إسحق عن النخعي عن ابن عباس أي مؤتمناً عليه . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس المهيمن الأمين قال القرآن أمين على كل كتاب قبله وروى عن عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومحمد بن كعب وعطية والحسن وقتادة وعطاء الخراساني والسدي وابن زيد نحو ذلك وقال ابن جريج القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله فما وافقه منها فهو حق وما خالفه منها فهو باطل وعن الوالي عن ابن عباس (ومهيمننا) أي شهيدا وكذا قال مجاهد وقتادة والسدي وقال العوفي عن ابن عباس (ومهيمننا) أي حاكماً على ما قبله من الكتب وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها أشملها وأعظمها وأكملها حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها وتسكف تعالى بحفظه بنفسه الكريم فقال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) فأما ما حكاه ابن أبي حاتم عن عكرمة وسعيد بن جبير وعطاء الخراساني وابن أبي نجیح عن مجاهد أنهم قالوا في قوله (ومهيمننا عليه) يعني محمداً ﷺ أمين على القرآن فإنه صحيح في المعنى ولكن في تفسير هذا بهذا نظر وفي تنزيله عليه من حيث العربية أيضاً نظر وبالجملة فالصحيح الأول وقال أبو جعفر بن جرير بعد حكايته له عن مجاهد وهذا التأويل بعيد من المفهوم في كلام العرب بل هو خطأ وذلك أن المهيمن عطف على المصدق فلا يكون إلا صفة لما كان المصدق صفة له قال: ولو كان الأمر كما قال مجاهد لقال: وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب مهيمننا عليه ، يعني من غير عطف وقوله

تعالى (فاحكم بينهم بما أنزل الله) أى فاحكم يا محمد بين الناس عربهم وعجمهم أمهم وكتابهم بما أنزل الله إليك في هذا الكتاب العظيم وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه في شرعك هكذا وجهه ابن جرير بمعناه قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عمار حدثنا سعيد بن سلمان حدثنا عباد بن العوام عن سفيان بن حسين عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس قال كان النبي صلى الله عليه وسلم مخيراً إن شاء حكم بينهم وإن شاء أعرض عنهم فردهم إلى أحكامهم فنزلت (وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم) فأمر رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم بما في كتابنا ، وقوله (ولا تتبع أهواءهم) أى آراءهم التى اصطلمحوا عليها وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسوله ولهذا قال تعالى (ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق) أى لا تتصرف عن الحق الذى أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهالة الأشقياء وقوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن يوسف بن أبي إسحق عن أبيه عن التميمي عن ابن عباس (لكل جعلنا منكم شرعة) قال سبيلا وحدثنا أبو سعيد حدثنا وكيع عن سفيان عن أبي إسحق عن التميمي عن ابن عباس (ومنهاجا) قال وسنة وكذا روى العوفي عن ابن عباس (شرعة ومنهاجا) سبيلا وسنة وكذا روى عن مجاهد وعكرمة والحسن البصري وقتادة والضحاك والسدي وأبي إسحق السبيعي أنهم قالوا في قوله (شرعة ومنهاجا) أى سبيلا وسنة وعن ابن عباس أيضا ومجاهد أى وعطاء الخراساني عكسه (شرعة ومنهاجا) أى سنة وسبيلا والأول أنسب فإن الشرعة وهى الشريعة أيضا ما يبتدأ فيه إلى الشيء ومنه يقال شرع في كذا أى ابتدأ فيه وكذا الشريعة وهى ما يشرع فيها إلى السماء أما المنهاج فهو الطريق الواضح السهل ، والسنن الطرائق . فتفسير قوله (شرعة ومنهاجا) بالسبيل والسنة أظهر في المناسبة من العكس والله أعلم . ثم هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام المتفقة في التوحيد كما ثبت في صحيح البخارى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « نحن معشر الأنبياء إخوة لعلات ديننا واحد » يعنى بذلك التوحيد الذى بعث الله به كل رسول أرسله وضمه كل كتاب أنزله كما قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) الآية ، وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراما ثم يحل في الشريعة الأخرى وبالعكس وخفيفا فيزاد في الشدة في هذه دون هذه وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ، قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قوله (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) يقول سبيلا وسنة والسنن مختلفة وهى في التوراة شريعة ، وفي الإنجيل شريعة وفي الفرقان شريعة ، يحل الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء ليعلم من يطيعه ممن يعصيه ، والدين الذى لا يقبل الله غيره التوحيد والإخلاص لله الذى جاءت به جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام وقيل لمخاطب بهذه الآية هذه الأمة ومعناه لكل جعلنا القرآن منكم أيتها الأمة شرعة ومنهاجا أى هو لكم كلكم تقتدون به وحذف الضمير المنصوب في قوله (لكل جعلنا منكم) أى جعلناه يعنى القرآن شرعة ومنهاجا أى سبيلا إلى المقاصد الصحيحة وسنة أى طريقا ومسلكا واضحا بينا هذا مضمون ما حكاه ابن جرير عن مجاهد رحمه الله ، والصحيح القول الأول ويدل على ذلك قوله تعالى بعده (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) فلو كان هذا خطابا لهذه الأمة لما صح أن يقول (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) وهم أمة واحدة ولكن هذا خطاب للجميع الأمم وإخبار عن قدرته تعالى العظيمة التى لو شاء لجمع الناس كلهم على دين واحد وشرعة واحدة لا ينسخ شيء منها ولكنه تعالى شرع لكل رسول شرعة على حدة ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذى بعده حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمدا ﷺ الذى ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة وجعله خاتم الأنبياء كلهم ولهذا قال تعالى (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم) أى أنه تعالى شرع الشرائع المختلفة ليختبر عباده فيما شرع لهم ويثيبهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله وقال عبد الله بن كثير (فيما آتاكم) يعنى من الكتاب ثم إنه تعالى ندبهم إلى المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إليها فقال (فاستبقوا الخيرات)

وهي طاعة الله واتباع شرعه الذي جعله ناسخا لما قبله والتصديق بكتابه القرآن الذي هو آخر كتاب أنزله ثم قال تعالى (إلى الله مرجعكم) أي معادكم أيها الناس ومصيركم إليه يوم القيامة (فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) أي فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق فيجزي الصادقين بصدقهم ويعذب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان بل هم معاندون للبراهين القاطعة ، والحجج البالغة والأدلة الدامغة ، وقال الضحاك (فاستبقوا الخيرات) يعني أمة محمد ﷺ والأول أظهر وقوله (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم) تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك والنهي عن خلافه ثم قال (واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) أي واحذر أعداءك اليهود أن يدلّسوا عليك الحق فيما يهونه إليك من الأمور فلا تغتر بهم فإنهم كذبة كفرية خونة (فإن تولوا) أي عما تحكم به بينهم من الحق وخالفوا شرع الله (فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) أي فاعلم أن ذلك كائن عن قدرة الله وحكمته فيهم أن يصرفهم عن الهدى للملهم من الذنوب السالفة التي اقتضت إضلالهم ونكالهم (وإن كثيرا من الناس لفاسقون) أي إن أكثر الناس لخارجون عن طاعة ربهم مخالفون للحق ناكبون عنه كما قال تعالى (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وقال تعالى (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوا عن سبيل الله) الآية وقال محمد بن إسحق حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت حدثني سعيد بن جبيرة أو عكرمة عن ابن عباس قال : قال كعب بن أسد وابن صلوبا وعبد الله بن سوريا وشاس بن قيس بعضهم لبعض اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نقتنه عن دينه فأتوه فقالوا يا محمد إنك قد عرفت أننا أجبار يهود وأشرافهم وساداتهم وإنما إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فتقضى لنا عليهم ونؤمن لك ونصدقك فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل فيهم (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) إلى قوله (لقوم يوقنون) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وقوله تعالى (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بأرائهم وأهوائهم وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان الذي وضع لهم الياسق وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت في بنيه شرعا متبعا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير قال تعالى (أفحكم الجاهلية يبغون) أي يبتغون ويريدون وعن حكم الله يعدلون ، (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) أي ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به وأيقن وعلم أن الله أحكم الحاكمين وأرحم بخلقهم من الوالدة بولدها فإنه تعالى هو العالم بكل شيء القادر على كل شيء العادل في كل شيء وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هلال بن فياض حدثنا أبو عبيدة الناجي قال سمعت الحسن يقول من حكم بغير حكم الله فحكم الجاهلية وأخبرنا يونس بن عبد الأعلى قراءة حدثنا سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح قال كان طاوس إذا سأله رجل : أفضل بين ولدي في النحل ؟ قرأ (أفحكم الجاهلية يبغون) الآية وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا أحمد بن عبد الوهاب بن نجدة الحوطي حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع أخبرنا شعيب بن أبي حمزة عن عبد الله بن عبد الرحمن ابن أبي حسين عن نافع بن جبيرة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « أبغض الناس إلى الله عز وجل من يبتغي في الإسلام سنة الجاهلية وطالب دم امرئ بغير حق ليريق دمه » وروى البخاري عن أبي اليمان بإسناده نحوه بزيادة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسِرُّونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ

تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ *
وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿١﴾
ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن موالاته اليهود والنصارى الذين هم أعداء الإسلام وأهله قاتلهم الله ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك فقال (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) الآية. قال ابن أبي حاتم حدثنا كثير بن شهاب حدثنا محمد يعني ابن سعيد بن سابق حدثنا عمرو بن أبي قيس عن سبائك بن حرب عن عياض أن عمر أمر أبا موسى الأشعري أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطى في أديم واحد وكان له كاتب نصراني فرفع إليه ذلك فعجب عمر وقال إن هذا لحفيظ هل أنت قاريء لنا كتابا في المسجد جاء من الشام فقال إنه لا يستطيع فقال عمر أجنب هو قال لا بل نصراني قال فاتهرني وضرب فيخذي ثم قال أخرجه ثم قرأ (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) الآية ، ثم قال حدثنا محمد بن الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا عثمان بن عمر أنبأنا ابن عون عن محمد بن سيرين قال : قال عبدالله بن عتبة ليتق أحدكم أن يكون يهوديا أو نصرانيا وهو لا يشعر قال فظنناه يريد هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) الآية وحدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا ابن فضيل عن عاصم عن عكرمة عن ابن عباس أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب فقال: كل ، قال الله تعالى (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) وروى عن أبي الزناد نحوه ذلك وقوله تعالى (فترى الدين في قلوبهم مرض) أى شك وريب ونفاق يسارعون فهم أى يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم في الباطن والظاهر (يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة) أى ينأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكافرين بالمسلمين فتكون لهم أباد عند اليهود والنصارى فينفعهم ذلك . عند ذلك قال الله تعالى (فعسى الله أن يأتي بالفتح) قال السدي يعني فتح مكة وقال غيره يعني القضاء والفصل (أو أمر من عنده) قال السدي يعني ضرب الجزية على اليهود والنصارى (فيصبحوا) يعني الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين (على ما أسروا في أنفسهم) من الموالات نادمين أى على ما كان منهم مما لم يجد عنهم شيئا ولا دفع عنهم محذورا بل كان عين الفسدة فإنهم فضحوا وأظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين بعد أن كانوا مستورين لا يدرى كيف حالهم فلما انعدت الأسباب الفاضحة لهم تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين ويخلفون على ذلك ويتأولون فبان كذبهم واقتراؤهم ولهذا قال تعالى (ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين) وقد اختلف القراء في هذا الحرف فقراء الجمهور بأثبت. الواو في قوله (ويقول الذين) ثم منهم من رفع ويقول على الابتداء ومنهم من نصب عطفا على قوله (فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده) فتقديره أن يأتي وأن يقول وقرأ أهل المدينة (يقول الذين آمنوا) بغير واو وكذلك هو في مصاحفهم على ما ذكره ابن جرير قال ابن جرير عن مجاهد (فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده) تقديره (١) حيثئذ (يقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين) واختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمات فذكر السدي أنها نزلت في رجلين قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أحد أما أنا فاني ذاهب إلى ذلك اليهودى فأوى إليه وأنهود معه لعله ينفعني إذا وقع أمر أو حدث حادث وقال الآخر أما أنا فاني ذاهب إلى فلان النصراني بالشام فأوى إليه وأتصر معه ، فأُنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) والآيات وقال عكرمة نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة فسألوه ماذا هو صانع بنا فأشار بيده إلى حلقه أى انه الذبح رواه ابن جرير . وقيل نزلت في عبد الله بن أبي سؤل كما قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا ابن إدريس قال سمعت أبي عن عطية بن سعد قال جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله إن لى موالى من يهود كثير عودهم وإنى أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود وأتولى الله ورسوله فقال عبد الله بن أبي بنى رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) كذا في النسخ التي بأيدينا ولعل فيسقطا وعبرة روح المعاني وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر (يقول) بغير واو على أنه استئناف بياني كأنه قيل فاذا يقول المؤمنون حيثئذ اه .

لعبد الله بن أبي « يا أبا الحباب ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه » قال قد قبلت فأنزل الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) الآيتين ثم قال ابن جرير : حدثنا هناد حدثنا يونس ابن بكير حدثنا عثمان بن عبد الرحمن عن الزهري قال لما انهزم أهل بدر قال المسلمون لأولياءهم من اليهود أسماؤا قبل أن يصيبكم الله يوم مثل بدر فقال مالك بن الصيف أغركم أن أصبتم رهطا من قريش لا علم لهم بالقتال أما لو أسررنا العزيمة أن نستجمع عليكم لم يكن لكم يد أن تقاونا فقال عبادة بن الصامت يا رسول الله إن أوليائي من اليهود كانت شديدة أنفسهم كثيرا سلاحهم شديدة شوكتهم، وإنى أبرأ إلى الله وإلى رسوله من ولاية يهود ولا مولى لي إلا الله ورسوله فقال عبد الله بن أبي لكى لأبرأ من ولاية يهود إنى رجل لا بد لي منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا الحباب أرايت الذى نفست به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه » فقال إذا أقبل ، قال فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء — إلى قوله تعالى — والله يعصمك من الناس) وقال محمد بن إسحق فكانت أول قبيلة من اليهود تقضت ما يسهاوين رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو قينقاع فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه فقام إليه عبد الله بن أبي ابن سلول حين أمكنه الله منهم فقال يا محمد أحسن في موالى وكانوا حلفاء الحزرج قال فأبطأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد أحسن في موالى قال فأعرض عنه قال فأدخل يده في جيب درع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « أرسلنى » وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رأوا لوجهه ظللا ثم قال « ويحك أرسلنى » قال لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالى أربعائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدنى في غداة واحدة امرؤ أخشى الدوائر قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هم لك » قال محمد ابن إسحق فحدثني أبي إسحق بن يسار عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال لما حاربت بنو قينقاع رسول الله صلى الله عليه وسلم تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي وقام دونهم ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أحد بنى عوف بن الحزرج له من حلفهم مثل الذى لعبد الله بن أبي فجعلهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم وقال يا رسول الله أبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم وأتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم، ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات في المائدة (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض) إلى قوله (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) وقال الإمام أحمد حدثنا قتيبة ابن سعيد حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن محمد بن إسحق عن الزهري عن عروة عن أسامة بن زيد قال دخلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن أبي نعوذه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « قد كنت أنهارك عن حب يهود » فقال عبد الله فقد أبغضهم أسعد بن زرارة فأت وكذا رواه أبو داود من حديث محمد بن إسحق

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾

يقول تعالى مخبر عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته فإن الله سيستبدل به من هو خير له منه وأشد منعة وأقوم سبيلا كما قال تعالى (وإن تولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) وقال تعالى (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين) وقال تعالى (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز) أى بمتنع ولا صعب. وقال تعالى ههنا

(يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه) أى يرجع عن الحق إلى الباطل . قال محمد بن كعب نزلت في الولاة من قریش . وقال الحسن البصرى نزلت في أهل الردة أيام أبى بكر . (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) قال الحسن هو والله أبو بكر وأصحابه رواه ابن أبى حاتم وقال أبو بكر بن أبى شيبة سمعت أبا بكر بن عياش يقول في قوله (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) هم أهل القادسية . وقال ليث بن أبى سليم عن مجاهد هم قوم من سبأ وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا عبد الله ابن الأجلح عن محمد بن عمرو عن سالم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قوله (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) قال ناس من أهل اليمن ثم من كندة ثم من السكون . وحدثنا أبى حدثنا محمد بن المصنف حدثنا معاوية يعنى ابن حفص عن أبى زياد الحلفانى عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) قال « هؤلاء قوم من أهل اليمن ثم من كندة ثم من السكون ثم من تجيب » وهذا حديث غريب جداً وقال ابن أبى حاتم حدثنا عمر بن شبة حدثنا عبد الصمد يعنى ابن عبد الوارث حدثنا شعبة عن سماك سمعت عياضاً يحدث عن أبى موسى الأشعرى قال لما نزلت (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) قال رسول الله ﷺ « هم قوم هذا » ورواه ابن جرير من حديث شعبة بنحوه . وقوله تعالى (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) هذه صفات المؤمنين الكامل أن يكون أحدهم متواضعا لأخيه وولى متغزرا على خصمه وعدوه كما قال تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) وفي صفة رسول الله ﷺ أنه الضحوك القتال فهو ضحوك لأوليائه قتال لأعدائه . وقوله عز وجل (يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) أى لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله وإقامة الحدود وقتال أعدائه والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يردهم عن ذلك راد ولا يصددهم عنه صاد ، ولا يحيك فيهم لوم لائم ، ولا عذل عاذل : قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا سلام أبو المنذر عن محمد بن واسع عن عبد الله بن الصامت عن أبى ذر قال أمرنى خليلى صلى الله عليه وسلم بسبع ، أمرنى بحب المساكين والذين هم منهم وأمرنى أن أنظر إلى من هو دونى ، ولا أنظر إلى من هو فوقى ، وأمرنى أن أصل الرحم وإن أدبرت ، وأمرنى أن لا أسأل أحدا شيئا وأمرنى أن أقول الحق وإن كان مرا ، وأمرنى أن لا أخاف في الله لومة لائم ، وأمرنى أن أكثر من قول لاحول ولا قوة إلا بالله فانهن من كنز تحت العرش . وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان عن أبى المثنى أن أبا ذر رضى الله عنه قال بايعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا ووافقنى سبعا ، وأشهد الله على سبعا - أنى لا أخاف في الله لومة لائم . قال أبو ذر فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « هل لك إلى بيعة ولاء الجنة » قلت نعم وبسطت يدي فقال النبى صلى الله عليه وسلم وهو يشترط على « أن لا تسأل الناس شيئا » قلت نعم قال « ولا سوطك وإن سقط منك » يعنى تنزل إليه فتأخذه وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا محمد بن الحسن حدثنا جعفر عن المعلى الفردوسى عن الحسن عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده فانه لا يقرب من أجل ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو أن يذكر بعظيم » تفرد به أحمد . وقال أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن زبيد عن عمرو بن مرة عن أبى البختري عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمرا لله فيه مقال فلا يقول فيه . فيقال له يوم القيامة : ما منعك أن تكون قلت في كذا وكذا ؟ فيقول مخافة الناس ، فيقول إياى أحق أن تخاف » ورواه ابن ماجه من حديث الأعمش عن عمرو بن مرة به . وروى أحمد وابن ماجه من حديث عبد الله بن عبد الرحمن أبى طوالة عن نهار بن عبد الله العبدى المدنى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال « إن الله ليسأل العبد يوم القيامة حتى إنه ليسأله يقول له أى عبدى أرايت منكرا فلم تنكره ؟ فإذا لقن الله عبدا حجته قال أى رب وثقت بك وخفت الناس » وثبت في الصحيح « ما ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه » قالوا وكيف يذل نفسه يا رسول الله قال « يتحمل من البلاء ما لا يطيق » (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) أى من انصف بهذه الصفات فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له (والله واسع عليم) أى واسع الفضل عليم بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه وقوله تعالى (إنما وليكم الله ورسوله

والذين آمنوا) أى ليس اليهود بأوليائكم بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين وقوله (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) أى المؤمنون المتصفون بهذه الصفات من إقامة الصلاة التى هى أكبر أركان الإسلام وهى له وحده لأشريك له وإيتاء الزكاة التى هى حق المخلوقين ومساعدة للمحتاجين من الضعفاء والمساكين . وأما قوله (وهم راكعون) فقد توهم بعض الناس أن هذه الجملة فى موضع الحال من قوله (ويؤتون الزكاة) أى فى حال ركوعهم ولو كان هذا كذلك لكان دفع الزكاة فى حال الركوع أفضل من غيره لأنه ممدوح وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى ، وحتى ان بعضهم ذكر فى هذا أثرا عن على بن أبى طالب أن هذه الآية نزلت فيه وذلك أنه مر به سائل فى حال ركوعه فأعطاه خاتمه وقال ابن أبى حاتم حدثنا الربيع بن سلمان المرادى حدثنا أيوب بن سويد عن عتبة بن أبى حكيم فى قوله (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) قال هم المؤمنون وعلى بن أبى طالب وحدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا الفضل بن دكين أبو نعيم الأحول حدثنا موسى بن قيس الحضرمى عن سلمة بن كهيل قال تصدق على بخاتمه وهو راكع فنزلت (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) وقال ابن جرير حدثني الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا غالب بن عبد الله سمعت مجاهدا يقول فى قوله (إنما وليكم الله ورسوله) الآية نزلت فى على بن أبى طالب تصدق وهو راكع وقال عبد الرزاق حدثنا عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس فى قوله (إنما وليكم الله ورسوله) الآية نزلت فى على بن أبى طالب : عبد الوهاب بن مجاهد لا يحتج به . وروى ابن مردويه من طريق سفيان الثورى عن أبى سنان عن الضحاك عن ابن عباس قال كان على بن أبى طالب قائما يصلى فمر سائل وهو راكع فأعطاه خاتمه فنزلت (إنما وليكم الله ورسوله) الآية : الضحاك لم يلق ابن عباس وروى ابن مردويه أيضا من طريق محمد بن السائب الكلبي وهو متروك عن أبى صالح عن ابن عباس قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد والناس يصلون بين راكع وساجد وقائم وقاعد وإذا مسكين يسأل فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « أعطاك أحد شيئا ؟ » قال نعم قال « من ؟ » قال ذلك الرجل القائم قال « على أى حال أعطاك ؟ » قال وهو راكع ، قال « وذلك على بن أبى طالب » قال فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك وهو يقول (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) وهذا إسناد لا يفرج به ثم رواه ابن مردويه من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه نفسه وعمار بن ياسر وأبى رافع وليس يصح شئ منها بالكلية لضعف أسانيدھا وجهالة رجالھا ثم روى بإسناده عن ميمون بن مهران عن ابن عباس فى قوله (إنما وليكم الله ورسوله) نزلت فى المؤمنين وعلى بن أبى طالب أولهم ، قال ابن جرير حدثنا هناد حدثنا عبدة عن عبد الملك عن أبى جعفر قال سأله عن هذه الآية (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) قلنا من الذين آمنوا ؟ قال الذين آمنوا فلنا بلغنا أنها نزلت فى على بن أبى طالب قال على من الذين آمنوا ، وقال أسباط عن السدى نزلت هذه الآية فى جميع المؤمنين ولكن على بن أبى طالب مر به سائل وهو راكع فى المسجد فأعطاه خاتمه ، وقال على بن أبى طلحة الوالى عن ابن عباس من أسلم فقد تولى الله ورسوله والذين آمنوا رواه ابن جرير ، وقد تقدم فى الأحاديث التى أوردناها أن هذه الآيات كلها نزلت فى عبادة بن الصامت رضى الله عنه حين تبرأ من حلف اليهود ورضى بولاية الله ورسوله والمؤمنين ولهذا قال تعالى بعد هذا كله (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) كما قال تعالى (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز . لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) فكل من رضى بولاية الله ورسوله والمؤمنين فهو مفلح فى الدنيا والآخرة ومنصور فى الدنيا والآخرة ولهذا قال تعالى فى هذه الآية الكريمة (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ ءَاتَوْا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ

وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوعًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

هذا تنفير من موالة أعداء الإسلام وأهله من الكتابيين والمشركيين الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي يتخذونها هزوا يستهزئون بها ، ولعبا يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد ، وفكرهم البارد ، كما قال القائل :

وكم من عائب قولا صحيحا * وآفته من الفهم السقيم

وقوله تعالى (من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار) من ههنا لبيان الجنس كقوله (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) وقرأ بعضهم والكفار بالخفض عطفًا وقرأ آخرون بالنصب على أنه معمول (لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) تقديره (ولا الكفار أولياء) أى لاتتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء والمراد بالكفار ههنا المشركون وكذلك وقع في قراءة ابن مسعود فيارواه ابن جرير (لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا) وقوله (واتقوا الله إن كنتم مؤمنين) أى اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولد دينكم أولياء إن كنتم مؤمنين بشرع الله الذى اتخذه هؤلاء هزوا ولعبا كما قال تعالى (لاتتخذوا المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير) وقوله (وإذا نادىتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا) أى وكذلك إذا أذتم داعين إلى الصلاة التى هى أفضل الأعمال لمن يعقل ويعلم من ذوى الألباب (اتخذوها) أيضا (هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) معانى عبادة الله وشرائعه وهذه صفات أتباع الشيطان الذى إذا سنع الأذان أدبر وله حصاص أى ضراط حتى لا يسمع التأذنين فإذا قضى التأذين أقبل فاذا ثوب للصلاة أدبر فإذا قضى الثوب أقبل حتى يخطر بين المرء وقلبه فيقول اذكر كذا اذكر كذا ما لم يكن يذكر حتى يظل الرجل لا يدرى كم صلى فإذا وجد أحدكم ذلك فليسجد سجدة قبل السلام ، متفق عليه ، وقال الزهرى قد ذكر الله التأذين فى كتابه فقال (وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) رواه ابن أبى حاتم ، وقال أسباط عن السدى فى قوله (وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا) قال كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المنادى ينادى أشهد أن محمدا رسول الله قال حرق الكذاب ، فدخلت خادمه ليلة من الليالى بنار وهو نائم وأهله نيام فسقطت شرارة فأحرق البيت فأحرق هو وأهله ، رواه ابن جرير وابن أبى حاتم وذكر محمد بن إسحق بن يسار فى السيرة أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال فأمره أن يؤذن وأبوسفیان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة فقال عتاب بن أسيد لقد أكرم الله أسيدا أن لا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه ، وقال الحارث بن هشام أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته ، فقال أبوسفیان لا أقول شيئا لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصى فخرج عليه النبي ﷺ فقال « قد علمت الذى قلت » ثم ذكر ذلك لهم فقال الحارث وعتاب نشهد أنك رسول ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك ، وقال الإمام أحمد حدثنا روح بن عبادة حدثنا ابن جريج أخبرنا عبد العزيز بن عبد الملك بن أبي محذورة أن عبد الله بن محيرز أخبره وكان يتما فى حجر أبى محذورة قال قلت لأبى محذورة يا عم إني خارج إلى الشام وأخشى أن أسئل عن تأذنيك فأخبرني أن أبأ محذوره قال له نعم خرجت فى نفر وكنا فى بعض طريق حين مقفل رسول الله ﷺ من حين فلقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض الطريق فأذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا صوت المؤذن ونحن متكئون فصرخنا نحكيه ونستهزئ به فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل إلينا إلى أن وقفنا بين يديه فقال رسول الله ﷺ « أياكم الذى سمعت صوته قد ارتفع » ؟ فأشار القوم كلهم إلى وصدقوا فأرسل كلهم وحسنى وقال « قم فأذن » فقامت ولا شيء أكره إلى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا بما يأمرني به فقامت بين

يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فألقى على رسول الله صلى الله عليه وسلم التأذين هو بنفسه قال « قل الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله » ثم دعاني حين قضيت التأذين فأعطاني صرة فيها شيء من فضة ثم وضع يده على ناصية أبي مخذرة ثم أمرها على وجهه ثم بين يديه ثم على كعبه حتى بلغت يد رسول الله ﷺ سررة أبي مخذرة ثم قال رسول الله ﷺ « بارك الله فيك وبارك عليك » فقلت يا رسول الله مرني بالتأذين بمكة فقال « قد أمرتك به » وذهب كل شيء كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من كراهة وعاد ذلك كله محبة لرسول الله ﷺ فقدمت على عتاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ فأذنت معه بالصلاة عن أمر رسول الله ﷺ وأخبرني ذلك من أدركت من أهلي بمن أدرك أبا مخذرة على نحو ما أخبرني عبدالله بن محيرز ، هكذا رواه الإمام أحمد وقد أخرجه مسلم في صحيحه وأهل السنن الأربعة من طريق عن عبد الله بن محيرز عن أبي مخذرة واسمه سمرة بن معير^(١) بن لوذان أحد مؤذني رسول الله ﷺ الأربعة وهو مؤذن أهل مكة وامتدت أيامه رضى الله عنه وأرضاه

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ * قُلْ هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ * وَإِذَا جَاءَهُمْ قَوْلٌ ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِوَعْدِ اللَّهِ ءَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ * وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِيمَانِ وَالْعُدُوتِ وَأَكْلِهِمْ الشَّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِيمَانُ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾

يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعباً من أهل الكتاب : (هل تنقمون منا إلا أن ءامنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل) أى هل لكم علينا مطعن أو عيب إلا هذا ؟ وهذا ليس بعيب ولا مذمة . فيكون الاستثناء منقطعاً كما في قوله تعالى (وما تقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) وكقوله (وما تقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) وفي الحديث المتفق عليه « ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيراً فأغناه الله » وقوله (وأن أكثركم فاسقون) معطوف على (أن ءامنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل) أى وآمنا بأن أكثركم فاسقون أى خارجون عن الطريق المستقيم

ثم قال (قل أنبئكم بشئ من ذلك مثوبة عند الله) أى هل أخبركم بشئ جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنون به بنا ؟ وهم أئمة الدين هم متصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله (من لعنه الله) أى أبغده من رحمته (وغيض عليه) أى غضبا لا يرضى بعده أبداً (وجعل منهم القردة والخنازير) كما تقدم بيانه في سورة البقرة وكما سيأتي إيضاحه في سورة الأعراف وقد قال سفيان الثوري عن علقمة بن مرثد عن الغيرة بن عبد الله عن المعمر بن سويد عن ابن مسعود قال سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أى مما مسخ الله فقال « إن الله لم يهلك قوماً - أو قال لم يمسخ قوماً - فيجعل لهم نسلًا ولا عقبا وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك » وقد رواه مسلم من حديث سفيان الثوري ومسعر كلاهما عن مغيرة بن عبد الله البشكري به ، وقال أبو داود الطيالسي حدثنا داود بن أبي الفرات عن محمد بن زيد عن أبي الأعين المعبدي عن أبي الأحوص عن ابن مسعود قال سألتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القردة والخنازير أى

(١) هذا قول مرجوح والمعتمد أن اسمه أوس ، ومعير بالهملة بوزن منبر وقيل بتشديد الباء .

عليه وسلم يقول « مامن رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدر أن يغيروا عليه فلا يغيرون إلا أصحابهم الله يعقاب قبل أن يموتوا » وقد رواه ابن ماجه عن علي بن محمد عن وكيع عن إسرائيل عن أبي إسحق عن عبيد الله ابن جرير عن أبيه به ، قال الحافظ المزي وهكذا رواه شعبة عن أبي إسحق به

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غَاتُ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْفَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْمَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سِتْرًا ثُمَّ لَا تَدْنَاهُمْ حَتَّى يُنْفِقَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عن اليهود لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة بأنهم وصفوه تعالى عن قولهم علوا كبيرا بأنه بخيل كما وصفوه بأنه فقير وهم أعداء وعيبوا عن الجباب بأن قالوا (يد الله مغلولة) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو عبد الله الظهري حدثنا حفص بن عمر العدني - حدثنا الحسن بن أنان عن عكرمة قال : قال ابن عباس (مغلوله) أي غيلة وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله (وقالت اليهود يد الله مغلولة) قال لا يعنون بذلك أن يد الله موهنة وليسكن يقولون بخيل يعني أمسك ما عنده [فلا] تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ، وكذا روى عن مجاهد وعكرمة وقادة والسدي والشحاك وقرأ (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا) يعني أنه ينهي عن البخل وعن التبذير وهو زيادة الاتفاق في غير محله وغير عن البخل بقوله (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) وهذا هو الذي أراد هؤلاء اليهود عليهم لعائن الله وقد قال عكرمة إنها نزلت في فنيحاص اليهودي عليه لعنة الله وقد تقدم أنه الذي قال (إن الله فقير ونحن أغنياء) فضربه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وقال محمد بن إسحق حدثنا محمد بن أبي محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال : قال رجل من اليهود يقال له شاس بن قيس إن ربك بخيل لا ينفق فأُنزل الله (وقالت اليهود يد الله مغلولة غات أَيْدِيَهُمْ وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) وقد رد الله عز وجل عليهم ما قالوه وقابلهم فيما اختلقوه وافترروه والله أعلم (غلت أيديهم وله وما قالوا) وهذا وقع لهم فإن عندهم من البخل والحسد والجبين والالة أمر عظيم كما قال تعالى (أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) الآية ، وقال تعالى (ضربت عليهم الذلة) الآية . ثم قال تعالى (بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) أي بل هو الواسع الفاضل الجزيل العطاء الذي مامن شيء إلا عنده خزائنه وهو الذي ما يخلفه من نعمة فله وحده لا شريك له الذي خلق لنا كل شيء بما نحتاج إليه ، في إلينا ونهارنا ، وحضرنا وسفرنا وفي جميع أحوالنا ، كما قال (وآتانا من كل ما نلتقوه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار) والآيات في هذا كثيرة وقد قال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن عيسى الله ملاءي لا يغيثها نفقة سحاء الليل والنهار أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم ينقص ما في يمينه - قال - وعرشه على الماء وفي يده الأخرى الفيض - أو القبض - يرفع ويخفض . وقال : يقول الله تعالى أنفق أنفق عيايك » أخرجه في الصحيحين البخاري في التوحيد عن علي بن المديني ومسلم فيه عن محمد بن رافع كلاهما عن عبد الرزاق به ، وقوله تعالى (وليزیدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا) أي يكون ما آتاك الله يا محمد من النعمة

تقمة في حق أعدائك من اليهود وأشباههم فكما يزداد به المؤمنون تصديقاً وعملاً صالحاً وعلماً نافعا يزداد به الكافرون الحاسدون لك ولأمتك طغيانا وهو المبالغة والمجازة للحد في الأشياء وكفراً أى تكذيباً كما قال تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد) وقال تعالى (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً) وقوله تعالى (وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) يعنى أنه لا يجتمع قلوبهم بل العداوة واقعة بين فرقهم بعضهم في بعض دائماً لأنهم لا يجتمعون على حق وقد خالفوك وكذبوك وقال إبراهيم النخعي وألقينا بينهم العداوة والبغضاء قال الخصومات والجدال في الدين رواه ابن أبي حاتم وقوله (كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله) أى كلما عقدوا أسباباً يكيدونك بها وكلما أبرموا أموراً يحاربونك بها أبطلها الله ورد كيدهم عليهم وحاق مكرهم السيئ بهم (ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين) أى من سجيتهم أنهم دائماً يسعون في الافساد في الأرض والله لا يحب من هذه صفته ، ثم قال جل وعلا (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا) أى لو أنهم آمنوا بالله ورسوله واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم (لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم) أى لا زلنا عنهم المحذور وأنلناهم المقصود (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم) قال ابن عباس وغيره هو القرآن (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) أى لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء على ما هي عليه من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمداً ﷺ فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتماً لا محالة وقوله تعالى (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) يعنى بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والنابت لهم من الأرض وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (لأكلوا من فوقهم) يعنى لأرسل السماء عليهم مدراراً (ومن تحت أرجلهم) يعنى يخرج من الأرض بركاتها وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والسدي كما قال تعالى (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) الآية وقال تعالى (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس) الآية وقال بعضهم معناه (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) يعنى من غير كد ولا تعب ولا شقاء ولا عناء وقال ابن جرير قال بعضهم معناه لكانوا في الخير كما يقول القائل هو في الخير من فرقه إلى قدمه ثم رده هذا القول لمخالفته أقوال السلف

وقد ذكر ابن أبي حاتم عند قوله (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل) أثر فقال حدثنا علقمة عن صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير بن نفيير عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يوشك أن يرفع العلم » فقال زياد بن ليبيد يارسول الله وكيف يرفع العلم وقد قرأنا القرآن وعلمناه أبناءنا فقال « شككتك أمك يا ابن ليبيد إن كنت لأراك من أئمة أهل المدينة أوليست التوراة والإنجيل بأيدي اليهود والنصارى فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله » ثم قرأ - « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل » هكذا أورده ابن أبي حاتم معلقاً من أول إسناده مرسل في آخره وقد رواه الإمام أحمد بن حنبل متصلاً موصولاً فقال حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن زياد بن ليبيد أنه قال ذكر النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً فقال « وذلك عند ذهاب العلم » قال قلنا يارسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا وأبناءؤنا يقرئونه أبناءهم إلى يوم القيامة فقال « شككتك أمك يا ابن ليبيد إن كنت لأراك من أئمة أهل المدينة أوليست هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيها بشيء » هكذا رواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع به نحوه وهذا إسناد صحيح . وقوله تعالى (منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون) كقوله (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) وكقوله عن اتباع عيسى (فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم) الآية فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد وهو أوسط مقامات هذه الأمة وفوق ذلك رتبة السابقين كما في قوله عز وجل (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها) الآية والصحيح أن الأقسام الثلاثة من هذه الأمة كلهم يدخلون الجنة وقد قال أبو بكر بن مردويه حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا أحمد بن يونس الضبي حدثنا عاصم بن علي حدثنا

أبو معشر عن يعقوب بن يزيد بن طلحة عن زيد بن أسلم عن أنس بن مالك قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « تفرقت أمة موسى على إحدى وسبعين ملة وسبعون منها في النار وواحدة في الجنة وتفرقت أمة عيسى على ثنتين وسبعين ملة واحدة منها في الجنة وإحدى وسبعون منها في النار وتعلو أمتي على الفرقتين جميعا واحدة في الجنة وثنان وسبعون في النار » قالوا من هم يا رسول الله قال « الجماعات الجماعات » قال يعقوب بن زيد كان على بن أبي طالب إذا حدث بهذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا فيه قرآنا قال (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم) إلى قوله تعالى (منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون) وتلا أيضا قوله تعالى (ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) يعني أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهذا حديث غريب جدا من هذا الوجه وبهذا السياق وحديث افتراق الأمم إلى بضعة وسبعين مروى من طرق عديدة وقد ذكرناه في موضع آخر والله الحمد والمنة

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

يقول تعالى مخاطبا عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم باسم الرسالة وآمر له ببلاغ جميع ما أرسله الله به وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك وقام به أتم القيام قال البخاري عند تفسير هذه الآية حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن إسماعيل عن الشعبي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت : من حدثك أن محمدا كتم شيئا مما أنزل الله عليه فقد كذب ، وهو يقول (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) الآية هكذا رواه هاهنا مختصرا وقد أخرجه في مواضع من صحيحه مطولا وكذا رواه مسلم في كتاب الإيمان والترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننهما من طرق عن عامر الشعبي عن مسروق بن الأجدع عنها رضي الله عنها وفي الصحيحين عنها أيضا أنها قالت لو كان محمد ﷺ كاتما شيئا من القرآن لكتم هذه الآية (وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن منصور الرمادي حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا عباد عن هرون بن عنترة عن أبيه قال كنت عند ابن عباس فجاء رجل فقال له إن ناسا يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئا لم يبيده رسول الله ﷺ للناس فقال ابن عباس ألم تعلم أن الله تعالى قال (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) والله ما ورثنا رسول الله ﷺ سوداء في بيضاء وهذا إسناده جيد وهكذا في صحيح البخاري من رواية أبي جحيفة وهب بن عبد الله السوائي قال قلت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن فقال لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهما يعطينه الله رجالا في القرآن وما في هذه الصحيفة قلت وما في هذه الصحيفة قال العقل وفكاك الأسير وأن لا يقتل مسلم بكافر .

وقال البخاري : قال الزهري من الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم وقد شهدت له أمته ببلاغ الرسالة وأداء الأمانة واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل في خطبته يوم حجة الوداع وقد كان هناك من أصحابه نحو من أربعين ألفا كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ « يا أيها الناس إنكم مسئولون عنى فما أتم قائلون ؟ » قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكسها إليهم ويقول « اللهم هل بلغت » قال الإمام أحمد حدثنا ابن نمير حدثنا فضيل يعني ابن غزوان عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع « يا أيها الناس أي يوم هذا » قالوا يوم حرام قال « أي بلد هذا » قالوا بلد حرام قال « فأى شهر هذا » قالوا شهر حرام قال « فإن أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا » ثم أعادها مرارا ثم رفع أصبعه إلى السماء فقال « اللهم هل بلغت » مرارا قال يقول ابن عباس والله لو صية إلى ربه عز وجل ثم قال « ألا فيبلغ الشاهد الغائب لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم

رقاب بعض » وقد روى البخارى عن على بن المدينى عن يحيى بن سعيد عن فضيل بن غزوان به نحوه ، وقوله تعالى (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) يعنى وإن لم تؤد إلى الناس ما أرسلتك به فما بلغت رسالته أى وقد علم ما يترتب على ذلك لو وقع وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) يعنى إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا قبيصة بن عقبة حدثنا سفيان عن رجل عن مجاهد قال لما نزلت (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) قال يا رب كيف أصنع وأنا وحدى يجتمعون على فنزلت (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) ورواه ابن جرير من طريق سفيان وهو الثورى به ، وقوله تعالى (والله يعصمك من الناس) أى بلغ أنت رسالتى وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم فلا تخف ولا نحزن فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يوديك وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم قبل نزول هذه الآية يحرس كما قال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا يحيى قال سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة يحدث أن عائشة رضى الله عنها كانت تحدث أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة وهى إلى جنبه قالت : فقلت ما شأنك يا رسول الله قال « ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسنى الليلة » قالت فبينما أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح فقال « من هذا » فقال أنا سعد بن مالك فقال « ما جاء بك » قال جئت لأحرسك يا رسول الله قالت فسمعت غطيظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نومه أخرجه فى الصحيحين من طريق يحيى بن سعيد الأنصارى به ، وفى لفظ سهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة مقدمه المدينة يعنى على أثر هجرته بعد دخوله بعائشة رضى الله عنها وكان ذلك فى سنة ثنتين منها وقال ابن أبى حاتم حدثنا إبراهيم بن مرزوق البصرى نزى لمصر حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا الحارث بن عبيد يعنى أبا قدامة عن الجريرى عن عبد الله بن شقيق عن عائشة قالت كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت هذه الآية (والله يعصمك من الناس) قالت فأخرج النبي ﷺ رأسه من القبة وقال « يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمنا الله عز وجل » وهكذا رواه الترمذى عن عبد بن حميد وعن نصر بن على الجهضمى كلاهما عن مسلم بن إبراهيم به ثم قال وهذا حديث غريب ، وهكذا رواه ابن جرير والحاكم فى مستدركه من طريق مسلم بن إبراهيم به ثم قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وكذا رواه سعيد ابن منصور عن الحارث بن عبيد أبى قدامة الايدى عن الجريرى عن عبد الله بن شقيق عن عائشة به ثم قال الترمذى وقد روى بعضهم هذا عن الجريرى عن ابن شقيق قال كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية ولم يذكر عائشة قلت هكذا رواه ابن جرير من طريق إسماعيل بن علية ، وابن مردويه من طريق وهيب كلاهما عن الجريرى عن عبد الله بن شقيق مرسلان وقد روى هذا مرسلان عن سعيد بن جبيرة ومحمد بن كعب القرظى رواهما ابن جرير والريبع بن أنس رواه ابن مردويه ثم قال حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا أحمد بن رشدين المصرى حدثنا خالد بن عبد السلام الصدى حدثنا الفضل بن المختار عن عبد الله بن موهب عن عصمة بن مالك الخطمى قال كنا نحرس رسول الله ﷺ بالليل حتى نزلت (والله يعصمك من الناس) فترك الحرس : حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا أحمد بن محمد بن أحمد أبو نصر الكاتب البغدادى حدثنا كردوس بن محمد الواسطى حدثنا يعلى بن عبد الرحمن عن فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبى سعيد الخدرى قال كان العباس عم رسول الله ﷺ فيمن يحرسه فلما نزلت هذه الآية (والله يعصمك من الناس) ترك رسول الله ﷺ الحرس حدثنا على بن أبى حامد المدينى حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد حدثنا محمد بن مفضل بن إبراهيم الأشعرى حدثنا أبى حدثنا محمد بن معاوية بن عمار حدثنا أبى قال سمعت أبا الزبير المسكى يحدث عن جابر بن عبد الله قال كان رسول الله ﷺ إذا خرج بعث معه أبو طالب من يكؤه حتى نزلت (والله يعصمك من الناس) فذهب ليعث معه فقال « يا عم إن الله قد عصمنى لا حاجة لى إلى من تبعث » وهذا حديث غريب وفيه نكارة فإن هذه الآية مدنية وهذا الحديث يقتضى أنها مكية ثم قال حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا محمد بن يحيى حدثنا أبو كريب حدثنا عبد الحميد الحماني عن النضر عن عكرمة عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ يحرس فكان أبو طالب يرسل إليه كل يوم رجلا من بنى هاشم يحرسونه حتى نزلت عليه هذه الآية (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) وإن لم تفعل فما بلغت

رسالته والله يعصمك من الناس) قال فأراد عمه أن يرسل معه من يحرسه فقال « إن الله قد عصمني من الجن والإنس »
ورواه الطبراني عن يعقوب بن غيلان العماني عن أبي كريب به

وهذا أيضا حديث غريب والصحيح أن هذه الآية مدنية بل هي من أواخر منازل بها والله أعلم ، ومن عصمة الله
لرسوله حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومعانديها ومترفيها مع شدة العداوة والبغضة ونصب المحاربة له ليلا
ونهارا بما يخلق الله من الأسباب العظيمة بقدرته وحكمته العظيمة فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب إذ كان
رئيسا مطاعا كبيرا في قريش وخلق الله في قلبه محبة طيبة لرسول الله ﷺ لاشريعة ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها
وكبارها ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه فلما مات عمه أبوطالب نال منه المشركون
أذى يسيرا ثم قيض الله له الأنصار فبايعوه على الإسلام وعلى أن يتحول إلى دارهم وهي المدينة فلما صار إليها منعوه من
الأحمر والأسود وكما هم أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله ورد كيده عليه كما كاده اليهود بالسحر فحماه
الله منهم وأنزل عليه سورتي العوذتين دواء لتلك الداء ولما سمى اليهود في ذراع تلك الشاة بخير أعلمه الله به وحماه منه
ولهذا أشباه كثيرة جدا يطول ذكرها . فمن ذلك ما ذكره المفسرون عنده هذه الآية الكريمة

قال أبو جعفر بن جرير حدثنا الحارث حدثنا عبدالعزيز حدثنا أبو معشر عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا كان
رسول الله ﷺ إذا نزل منزلا اختار له أصحابه شجرة ظليلة فيقيم تحتها فأتاه أعرابي فاختلط سيفه ثم قال من
يمنعك مني فقال « الله عز وجل » فرعدت يد الأعرابي وسقط السيف منه وضرب برأسه الشجرة حتى انشتر دماغه
فأنزل الله عز وجل (والله يعصمك من الناس) وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان حدثنا
زيد بن الحباب حدثنا موسى بن عبيدة حدثني زيد بن أسلم عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال لما غزا رسول الله ﷺ
عليه وسلم بني أمية نزل ذات الرقاع بأعلى نخل فبينما هو جالس على رأس برقد دلى رجله فقال الحارث من بني النجار
لأقبن محمدا فقال له أصحابه كيف تقتله قال أقول له أعطني سيفك فإذا أعطانيه قتلته به قال فأتاه فقال يا محمد أعطني سيفك
أشيمه فأعطاه إياه فرعدت يده حتى سقط السيف من يده فقال رسول الله ﷺ « حال الله بينك وبين ماتريد »
فأنزل الله عز وجل (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس)
وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، وقصة غورث بن الحارث مشهورة في الصحيح وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا
أبو عمرو بن أحمد بن محمد بن إبراهيم حدثنا محمد بن عبد الوهاب حدثنا آدم حدثنا حماد بن سلمة عن عمرو بن أبي سلمة
عن أبي هريرة قال كنا إذا صحبتنا رسول الله ﷺ في سفر تركناه أعظم شجرة وأظلمها فينزل تحتها فنزل ذات يوم تحت
شجرة وعلق سيفه فيها فجاء رجل فأخذه فقال يا محمد من يمنعك مني فقال رسول الله ﷺ « الله يمنعني
منك ضع السيف » فوضعه فأنزل الله عز وجل (والله يعصمك من الناس) وكذا رواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه
عن عبد الله بن محمد بن إسحق بن إبراهيم عن المؤمل بن إسماعيل عن حماد بن سلمة به ، وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر
حدثنا شعبة سمعت أبا إسرائيل يعني الجشمي سمعت جمدة هو ابن خالد بن الصمة الجشمي رضى الله عنه قال سمعت النبي
ﷺ ورأى رجلا سمينا فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يوحى إلى بطنه بيده ويقول « لو كان هذا في غير هذا
لكان خيرا لك » قال وأتى النبي صلى الله عليه وسلم برجل قليل هذا أراد أن يقتلك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم
« لم ترع ولو أردت ذلك لم يسلك الله على » وقوله (إن الله لا يهدي القوم الكافرين) أي بلغ أنت والله هو الذي يهدي من
يشاء ويضل من يشاء كما قال تعالى (ليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء) وقال (فإمعانك البلاغ وعلينا الحساب)

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنزَلْ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَئِنْ يَدَنَّ
كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَّا أَنزَلْ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا

وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى قل يا محمد (يا أهل الكتاب لستم على شيء) أي من الدين حتى تقيموا التوراة والإنجيل أي حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء وتعملوا بما فيها ومما فيها الإيمان بمحمد والأمر باتباعه صلى الله عليه وسلم والإيمان ببعثه والاعتداء بشريعته ولهذا قال ليث بن أبي سليم عن مجاهد في قوله (وما أنزل إليكم من ربكم) يعنى القرآن العظيم وقوله (وليزیدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا) تقدم تفسيره (فلا تأس على القوم الكافرين) أي فلا تحزن عليهم ولا يهينك ذلك منهم ثم قال (إن الذين آمنوا) وهم مسلمون (والذين هادوا) وهم حملة التوراة (والصابئون) لما طال الفصل حسن العطف بالرفع والصابئون طائفة من النصارى والمجوس ليس لهم دين قاله مجاهد وعنه من اليهود والمجوس وقال سعيد بن جبير من اليهود والنصارى وعن الحسن والحكم إنهم كالمجوس وقال قتادة هم قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى غير القبلة ويقرءون الزبور وقال وهب بن منبه هم قوم يعرفون الله وحده وليست لهم شريعة يعملون بها ولم يحدثوا كفرا وقال ابن وهب أخبرني ابن الزناد عن أبيه قال الصابئون هم قوم مما بلى العراق وهم بكوثى وهم يؤمنون بالنبين كلهم ويصومون كل سنة ثلاثين يوما ويصلون إلى الين كل يوم خمس صلوات وقيل غير ذلك وأما النصارى فعروفون وهم حملة الإنجيل والمقصود أن كل فرقة آمنت بالله وباليوم الآخر وهو الميعاد والجزاء يوم الدين وعملت عملا صالحا ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقا للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين فمن اتصف بذلك فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه ولا على ما تركوا وراء ظهورهم ولا هم يحزنون وقد تقدم الكلام على نظيرتها في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ * وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمَّوْا وَصَمَّوْا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمَّوْا وَصَمَّوْا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

يذكر أنه تعالى أنه أخذ العهود والمواثيق على بنى إسرائيل على السمع والطاعة لله ولرسوله فنقضوا تلك العهود والمواثيق واتبعوا آراءهم وأهواءهم وقدموها على الشرائع فما وافقهم منها قبلوه وما خالفهم ردوه ولهذا قال تعالى (كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون وحسبوا أن لا تكون فتنة) أي وحسبوا أن لا يترتب لهم شر على ما صنعوا فترتب وهو أنهم عموا عن الحق وصموا فلا يسمعون حقاً ولا يهتدون إليه ثم تاب الله عليهم أي مما كانوا فيه (ثم عموا وصموا) أي بعد ذلك (كثير منهم والله بصير بما يعملون) أي مطلع عليهم وعليهم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية منهم

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَ اللَّظَّالِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمِمَّنْ إِلَهٌ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا الْمَسِيحُ أَنْ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ

الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ تُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤَفِّكُونَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى حاكما بتكفير فرق النصارى من الملكية واليعقوبية والنسطورية ممن قال منهم بأن المسيح هو الله تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علوا كبيرا هذا وقد تقدم لهم أن المسيح عبد الله ورسوله وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال إني عبد الله ولم يقل إني أنا الله ولا ابن الله بل قال (إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبيا) إلى أن قال (وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته آمرا لهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لا شريك له ولهذا قال تعالى (وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله) أى فيعبد معه غيره (فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار) أى فقد أوجب له النار وحرم عليه الجنة كما قال تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقال تعالى (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين) وفى الصحيح أن النبي ﷺ بث مناديا ينادى فى الناس إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة وفى لفظ مؤمنة وتقدم فى أول سورة النساء عند قوله إن الله لا يغفر أن يشرك به حديث يزيد بن بابنوس عن عائشة : الدواوين ثلاثة فذكر منهم ديوانا لا يغفره الله وهو الشرك بالله قال الله تعالى (ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار) ولهذا قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبنى إسرائيل (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) أى وماله عند الله ناصر ولا معين ولا منقذ مما هو فيه وقوله (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) قال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسن المسنجاني حدثنا سعيد بن الحكم بن أبى مريم حدثنا الفضل حدثني أبو صخر فى قول الله تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) قال هو قول اليهود عزيرا ابن الله وقول النصارى المسيح ابن الله فجعلوا الله ثالث ثلاثة وهذا قول غريب فى تفسير الآية أن المراد بذلك طائفتا اليهود والنصارى والصحيح أنها أنزلت فى النصارى خاصة قاله مجاهد وغير واحد ثم اختلفوا فى ذلك ف قيل المراد بذلك كفارهم فى قولهم بالأقانيم الثلاثة وهو أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ، قال ابن جرير وغيره والطوائف الثلاثة من الملكية واليعقوبية والنسطورية تقول بهذه الأقانيم وهم يختلفون فيها اختلافا متباينا ليس هذا موضع بسطه وكل فرقة منهم تكفر الأخرى والحق أن الثلاثة كافرة وقال السدى وغيره نزلت فى جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار قال السدى وهى كقوله تعالى فى آخر السورة (وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك) الآية وهذا القول هو الأظهر والله أعلم قال الله تعالى (وما من إله إلا إله واحد) أى ليس متعددا بل هو وحده لا شريك له إله جميع الكائنات وسائر الموجودات ثم قال تعالى متوعدا لهم ومتهددا (وإن لم ينتهوا عما يقولون) أى من هذا الافتراء والكذب (ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم) أى فى الآخرة من الأغلال والنكال ثم قال (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم) وهذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه مع هذا الذنب العظيم وهذا الافتراء والكذب والإفك يدعوهم إلى التوبة والمغفرة فكل من تاب إليه تاب عليه وقوله تعالى (ما المسيح ابن مريم إلا رسول الله قد خلت من قبله الرسل) أى له أسوة أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه وانه عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام كما قال (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثالا لبنى إسرائيل) وقوله (وأمه صديقة) أى مؤمنة به مصدقة له وهذا أعلى مقاماتها فدل على أنها ليست بنسبة كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة سارة أم إسحق ونبوة أم موسى ونبوة أم عيسى استدلالا منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم بقوله (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) وهذا معنى النبوة والذى عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبيا إلا من الرجال قال الله تعالى (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى) وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري رحمه الله الإجماع على ذلك وقوله تعالى (كانا يأكلان الطعام) أى يحتاجان إلى التغذية به وإلى خروجه منهما فهما عبدان كسائر الناس وليسا بإلهين كما

زعمت فرق النصارى الجهلة عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ثم قال تعالى (انظر كيف نبين لهم الآيات) أى نوضحها ونظهرها (ثم انظر أتى يؤفكون) أى ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجللاء أين يذهبون وبأى قول يمسكون وإلى أى مذهب من الضلال يذهبون

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾

يقول تعالى منكرا على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ومبيناً له أنها لا تستحق شيئاً من الإلهية فقال تعالى (قل) أى يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بنى آدم ودخل في ذلك النصارى وغيرهم (أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعا) أى لا يقدر على دفع ضرر عنكم ولا إيصال نفع إليكم (والله هو السميع العليم) أى السميع لأقوال عباده العليم بكل شيء فلم عدلتم عنه إلى عبادة جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئاً ولا يملك ضراً ولا نفعا لغيره ولا لنفسه ثم قال (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق) أى لا تتجاوزوا الحد في اتباع الحق ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فنبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية كما صنعتم في المسيح وهو نبى من الأنبياء فجعلتموه إلهاً من دون الله وما ذاك إلا لافندائكم بشيوخكم شيوخ الضلال الذين هم سلفكم بمن ضل قديماً (وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) أى وخرجوا عن طريق الاسقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبى حدثنا أحمد بن عبد الرحمن حدثنا عبد الله بن أبى جعفر عن أبيه عن الربيع بن أنس قال وقد كان قائم قام عليهم فأخذ بالكتاب والسنة زماناً فأتاه الشيطان فقال إنما تركت أثراً أو أمراً قد عمل قلبك فلا تحمد عليه ولكن ابتدع أمراً من قبل نفسك وادع إليه وأجبر الناس عليه ففعل ثم اذكر بعد فعله زماناً فأراد أن يتوب منه فخلع سلطانه وملسه وأراد أن يتعبد فلبث في عبادته أياماً فأتى قليل له لو أنك تبت من خطيئة عملتها فيما بينك وبين ربك عسى أن يتاب عليك ولكن ضل فلان وفلان وفلان في سبيلك حتى فارقوا الدنيا وهم على الضلالة فكيف لك بهداهم فلا توبة لك أبداً فيه سمعنا وفي أشباهه هذه الآية (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل)

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ لَهُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا لَهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بنى إسرائيل من دهر طويل فيما أنزله على داود نبيه عليه السلام وعلى لسان عيسى ابن مريم بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه قال العوفى عن ابن عباس لعنوا في التوراة والإنجيل وفي الزبور وفي الفرقان ثم بين حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم فقال تعالى (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) أى كان لا ينهى أحد منهم أحداً عن ارتكاب المأثم والمحارم ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يركب مثل الذى ارتكبه فقال لبئس ما كانوا يفعلون وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا يزيد حدثنا شريك بن عبد الله عن عيسى بن بزيمة عن أبى عبيدة عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماءهم فلم ينتهوا فجالسواهم في مجالسهم » قال يزيد وأحسبه قال « في أسواقهم وواكلهم وشاربوهم فغضب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم »

على لسان داود وعيسى بن مريم (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) « وكان رسول الله ﷺ متكئا فجلس فقال « لا والذي نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا » وقال أبو داود حدثنا عبد الله بن محمد النفيلي حدثنا يونس ابن راشد عن علي بن بزيم عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقي الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض - ثم قال - (لعن الذين كفروا من إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم) إلى قوله (فاستقون) - ثم قال - كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا أو تقصرنه على الحق قصرا » وكذا رواه الترمذي وابن ماجه من طريق علي بن بزيم به وقال الترمذي حسن غريب ثم رواه هو وابن ماجه عن بNDAR عن ابن مهيدي عن سفيان عن علي بن بزيم عن أبي عبيدة مرسلا وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج وهرون بن إسحق الهمداني قالا حدثنا عبد الرحمن بن محمد المخاربي عن العلاء بن المسيب عن عبد الله بن عمرو بن مرة عن سالم الأفطس عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إن الرجل من بني إسرائيل كان إذا رأى أخاه على الذنوب نهاه عنه تعذيرا فإذا كان من الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وخليطه وشريكه » وفي حديث هرون « وشريبه » ثم اتفقا في المتن « فلما رأى الله ذلك منهم ضرب قلوب بعضهم على بعض ولعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » ثم قال رسول الله ﷺ « والذي نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد المسيء ولتأطرنه على الحق أطرا أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض أو ليلعنكم كما لعنهم » والسياق لأبي سعيد كذا قال في رواية هذا الحديث وقد رواه أبو داود أيضا عن خلف بن هشام عن أبي شهاب الحياطي عن العلاء بن المسيب عن عمرو بن مرة عن سالم وهو ابن عجلان الأفطس عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه عن النبي ﷺ بنحوه ثم قال أبو داود كذا رواه خالد بن العلاء عن عمرو بن مرة به ورواه المخاربي عن العلاء بن المسيب عن عبد الله بن عمرو بن مرة عن سالم الأفطس عن أبي عبيدة عن عبد الله قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزني وقد رواه خالد بن عبد الله الواسطي عن العلاء بن المسيب عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن أبي موسى والأحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جدا. ولندكر منها ما يناسب هذا المقام قد تقدم حديث جابر عند قوله (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار) وسيأتى عند قوله (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) حديث أبي بكر الصديق وأبي ثعلبة الخشني فقال الإمام أحمد حدثنا سليمان الهاشمي أنبأنا إسماعيل بن جعفر أخبرني عمرو بن أبي عمرو عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشجلى عن حذيفة بن اليمان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « والذي نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أوليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم » ورواه الترمذي عن علي بن حجر عن إسماعيل بن جعفر به وقال هذا حديث حسن وقال أبو عبد الله محمد ابن يزيد بن ماجه حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا معاوية بن هشام عن هشام بن سعد عن عمرو بن عثمان عن عاصم بن عمر بن عثمان عن عروة عن عائشة قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول « مروا بالمعروف وانهاؤا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم » تفرد به وعاصم هذا مجهول وفي الصحيح من طريق الأعمش عن إسماعيل بن رجاء عن أبيه عن أبي سعيد وعن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » رواه مسلم وقال الإمام أحمد حدثنا ابن نمير حدثنا سيف هو ابن أبي سليمان سمعت عدى بن عدى الكندي يحدث عن مجاهد قال حدثني مولى لنا أنه سمع جدي يعنى عدى بن عميرة رضى الله عنه يقول سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة » ثم رواه أحمد عن أحمد بن الحجاج عن عبد الله بن المبارك عن سيف بن أبي سليمان

عن عيسى بن عدى السكندى حدثني مولى لنا أنه سمع جدي يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول فذكره هكذا رواه الإمام أحمد من هذين الوجهين قال أبو داود حدثنا أبو العلاء حدثنا أبو بكر حدثنا المغيرة بن زياد الموصلى عن عدى ابن عدى عن العرس يعني ابن عميرة عن النبي ﷺ قال « إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكريها - وقال مرة فأنكرها - كان كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها » تفرد به أبو داود ثم رواه عن أحمد بن يونس عن أبي شهاب عن مغيرة بن زياد عن عدى بن عدى مرسلا وقال أبو داود حدثنا سليمان بن حرب وحفص بن عمر قالا حدثنا شعبة وهذا لفظه عن عمرو بن مرة عن أبي البحتري قال أخبرني من سمع النبي ﷺ وقال سليمان حدثني رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لن يهلك الناس حتى يعذروا أو يعذروا من أنفسهم » وقال ابن ماجه حدثنا عمران بن موسى حدثنا حماد بن زيد حدثنا طي بن زيد بن جدعان عن أبي نصر عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام خطيبا فكان فيما قال « ألا لا يمنع رجلا هية الناس أن يقول الحق إذا علمه » قال فبكى أبو سعيد وقال قد والله رأينا أشياء فبهنا وفي حديث إسرائيل عن عطية عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وقال الترمذى حسن غريب من هذا الوجه . وقال ابن ماجه حدثنا راشد بن سعيد الرملى حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا حماد بن سلمة عن أبي غالب عن أبي أمامة قال عرض لرسول الله ﷺ رجل عند الجرة الأولى فقال يا رسول الله أى الجهاد أفضل فسكت عنه فلما رمى الجرة الثانية سأله فسكت عنه فلما رمى جرة العقبة ووضع رجله في الغرز ليركب قال « أين السائل » قال أنا يا رسول الله قال « كلمة حق تقال عند ذي سلطان جائر » تفرد به وقال ابن ماجه حدثنا أبو كريب حدثنا عبد الله بن نمير وأبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البحتري عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « لا يحقر أحدكم نفسه » قالوا يا رسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه قال « يرى أمر الله فيه مقال ثم لا يقول فيه فيقول الله له يوم القيامة مامنك أن تقول في كذا كذا وكذا فيقول خشية الناس فيقول فيأبى كنت أحق أن تخشى » تفرد به وقال أيضا حدثنا علي بن محمد حدثنا محمد بن فضيل حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن أبوطولة حدثنا نهار العبدى أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله يسأل العبد يوم القيامة حتى يقول مامنك إذ رأيت المنكر أن تنكره فإذا لقن الله عبداهته قال يارب رجوتك وقررت الناس » تفرد به أيضا ابن ماجه وإسناده لا بأس به وقال الإمام أحمد حدثنا عمرو بن عاصم عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن الحسن عن جندب عن حذيفة عن النبي ﷺ قال « لا ينبغي لمسلم أن يذل نفسه » قيل وكيف يذل نفسه قال « يتعرض من البلاء لما لا يطيق » وكذا رواه الترمذى وابن ماجه جميعا عن محمد بن بشار عن عمرو بن عاصم به وقال الترمذى هذا حديث حسن غريب وقال ابن ماجه حدثنا العباس بن الوليد الدمشقي حدثنا زيد بن يحيى بن عبيد الخزاعي حدثنا الهيثم بن حميد حدثنا أبو معبد حفص بن غيلان الرعيني عن مكحول عن أنس بن مالك قال : قيل يا رسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال « إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم » قلنا يا رسول الله وما ظهر في الأمم قبلنا قال « الملك في صغاركم والفاحشة في كباركم والعلم في رذالكم » قال زيد تفسير معنى قول النبي ﷺ والعلم في رذالكم إذا كان العلم في الفساق تفرد به ابن ماجه وسيأتى في حديث أبي ثعلبة عند قوله (لا يضركم من ضل إذا هتدتم) شاهد لهذا إن شاء الله تعالى وبه الثقة وقوله تعالى (ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا) قال مجاهد يعني بذلك المنافقين وقوله (لبئس ما قدمت لهم أنفسهم) يعني بذلك موالاتهم للكافرين وتركهم موالات المؤمنين التي أعقبتهم نقا في قلوبهم وأسخط الله عليهم سخطا مستمرا إلى يوم معادهم ولهذا قال (أن أسخط الله عليهم) وفسر بذلك ما ذمهم به ثم أخبر عنهم أنهم (في العذاب خالدون) يعني يوم القيامة قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام بن عمار حدثنا مسلم ابن علي عن الأعمش بأسناد ذكره قال « يا معشر المسلمين إياكم والزنا فإن فيه ست خصال ثلاثا في الدنيا وثلاثا في الآخرة فأما التي في الدنيا فانه يذهب البهاء ويورث الفقر وينقص العمر وأما التي في الآخرة فانه يوجب سخط الرب

وسوء الحساب والخلود في النار» ثم تلا رسول الله ﷺ (لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون) هكذا ذكره ابن أبي حاتم وقدرناه ابن مردويه من طريق هشام بن عمار عن مسلم عن الأعمش عن شقيق عن حذيفة عن النبي ﷺ فذكره وساقه أيضاً من طريق سعيد بن عفيرة عن مسلم عن أبي عبد الرحمن الكوفي عن الأعمش عن شقيق عن حذيفة عن النبي ﷺ فذكر مثله وهذا حديث ضعيف على كل حال والله أعلم وقوله تعالى (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء) أي لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسول والقرآن لما ارتكبوا ما ارتكبوه من موالة الكافرين في الباطن ومعاداة المؤمنين بالله والنبي وما أنزل إليه (ولكن كثيراً منهم فاسقون) أي خارجون عن طاعة الله ورسوله مخالفون لآيات وحيه وتنزيله

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَسِيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ أَلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنْ أَلْحَقٍّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأَنبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه الذين حين تلا عليهم جعفر بن أبي طالب الحبشة القرآن بكوا حتى أخضلوا لحامهم وهذا القول فيه نظر لأن هذه الآية مدنية وقصة جعفر مع النجاشي قبل الهجرة وقال سعيد بن جبير والسدي وغيرهما نزلت في وفد بعثهم النجاشي إلى النبي ﷺ ليسمعوا كلامه ويروا صفاته فلما رأوه قرأ عليهم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا ثم رجعوا إلى النجاشي فأخبروه قال السدي فهاجر النجاشي فمات بالطريق وهذا من أفراد السدي فإن النجاشي مات وهو ملك الحبشة وصلى عليه النبي ﷺ يوم مات وأخبر به أصحابه وأخبر أنه مات بأرض الحبشة . ثم اختلف في عدة هذا الوفد فقلنا اثنا عشر سبعة قساسة وخمسة رهابين وقيل بالعكس وقيل خمسون وقيل بضع وستون وقيل سبعون رجلاً فالله أعلم وقال عطاء بن أبي رباح هم قوم من أهل الحبشة أسلموا حين قدم عليهم مهاجرة الحبشة من المسلمين وقال قتادة هم قوم كانوا على دين عيسى بن مريم فلما رأوا المسلمين سمعوا القرآن أسلموا ولم يتعلموا واختار ابن جرير أن هذه الآيات نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة سواء كانوا من الحبشة أو غيرها

فقوله تعالى (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) ما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود ومباهة للحق وغمط للناس وتنقص بحملة العلم ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هموا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة وسموه وسجروه وألبوا عليه أشباههم من المشركين عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة قال الحافظ أبو بكر بن مردويه عند تفسير هذه الآية حدثنا أحمد بن محمد بن السري حدثنا محمد بن علي بن حبيب الرقي حدثنا علي بن سعيد العلاف حدثنا أبو النضر عن الأشجعي عن سفيان عن يحيى بن عبد الله عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ما خلا يهودى بمسلم قط إلا هم بقتله » ثم رواه عن محمد بن أحمد بن إسحق العسكري حدثنا أحمد بن سهل بن أيوب الأهوازي حدثنا فرج بن عبيد حدثنا عباد بن العوام عن يحيى بن عبد الله عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ما خلا يهودى بمسلم إلا حدثته نفسه بقتله » وهذا

حديث غريب جدا ، وفوله تعالى (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) أى الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة وما ذاك إلا لما في قلوبهم إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة كما قال تعالى (وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية) وفي كتابهم : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر . وليس القتال مشروعاً في ملتهم ولهذا قال تعالى (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون) أى يوجد فيهم القسيسون وهم خطبائهم وعلماؤهم واحدهم قسيس وقس أيضاً وقد يجمع على قسوس والرهبان جمع راهب وهو العابد مشتق من الرهبة وهى الخوف كراكب وركبان وفارس وفرسان قال ابن جرير وقد يكون الرهبان واحداً وجملة رهابين مثل قربان وقرايين وجردان وجراذين وقد يجمع على رهبانة ومن الدليل على أنه يكون عند العرب واحداً قول الشاعر :

لو عاينت رهبان دير في القلل لانحدر الرهبان يمشى ونزل

وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا بشر بن آدم حدثنا نصير بن أبي الأشعث حدثني الصلت الدهان عن جائمة بن رثاب قال سألت سلمان عن قول الله تعالى (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا) فقال دع القسيسين في البيع والحرب أقرأني رسول الله ﷺ « ذلك بأن منهم صديقين ورهبانا » وكذا رواه ابن مردويه من طريق يحيى بن عبد الحميد الحماني عن نصير بن زياد الطائي عن صلت الدهان عن جائمة بن رثاب عن سلمان به . وقال ابن أبي حاتم ذكره أبي حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحماني حدثنا نصير بن زياد الطائي حدثنا صلت الدهان عن جائمة بن رثاب قال سمعت سلمان وسئل عن قوله (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا) فقال هم الرهبان الذين هم في الصوامع والحرب فدعوهم فيها قال سلمان وقرأت على النبي ﷺ (ذلك بأن منهم قسيسين) فأقرأني « ذلك بأن منهم صديقين ورهبانا » فقوله : (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون) تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف فقال (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) أى مما عندهم من البشارة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم (يقولون ربنا آمنا فآكتبنا مع الشاهدين) أى مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به وقد روى النسائي عن عمرو بن علي الفلاس عن عمرو بن علي بن مقدم عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال نزلت هذه الآية في النجاشي وفي أصحابه (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فآكتبنا مع الشاهدين) وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم في مستدركه من طريق سمالك عن عكرمة عن ابن عباس في قوله (فآكتبنا مع الشاهدين) أى مع محمد ﷺ وأمه هم الشاهدون يشهدون لنبيهم ﷺ أنه قد بلغ وللرسول أنهم قد بلغوا ثم قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الطبراني حدثنا أبو شبيب عبد الله بن عبد الرحمن بن واقد حدثنا أبي حدثنا العباس بن الفضل عن عبد الجبار بن نافع الضبي عن قتادة وجعفر بن إياس عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس في قول الله تعالى (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع) قال إنهم كانوا كرايين يعى فلاحين قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة فلما قرأ رسول الله ﷺ عليهم القرآن آمنوا وفاضت أعينهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لعلكم إذا رجعتم إلى أرضكم اتقلمتم إلى دينكم » فقالوا لن ننقل عن ديننا فأُنزل الله ذلك من قلوبهم (وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله تعالى (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليك وما أنزل إلهم خاشعين لله) الآية وهم الذين قال الله فيهم (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) إلى قوله (لا نبتغي الجاهلين) ولهذا قال تعالى ههنا (فأتاهم الله بما قالوا اجنات تجري من تحتها الأنهار) أى فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق (جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) أى ما كثر فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون (وذلك جزاء المحسنين) أى في اتباعهم الحق واتباعهم له حيث كان وأين كان ومع من كان ، ثم

أخبر عن حال الأشقياء فقال : (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) أى جحدوا بها وخالفوها (أولئك أصحاب الجحيم) أى هم أهلها والداخلون فيها .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿

قال طى بن أبى طلحة عن ابن عباس نزلت هذه الآية فى رهط من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا تقطع هذا كبرنا وتترك شهوات الدنيا ونسيح فى الأرض كما يفعل الرهبان فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فأرسل اليهم فذكر لهم ذلك فقالوا نعم فقال النبى صلى الله عليه وسلم « لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأنام وأنكح النساء فمن أأخذ بسنتى فهو منى ومن لم يأخذ بسنتى فليس منى » رواه ابن أبى حاتم ، وروى ابن مردويه من طريق العوفى عن ابن عباس نحوه ذلك ، وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أن ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبى ﷺ عن عمله فى السر فقال بعضهم لا آكل اللحم ، وقال بعضهم لا أتزوج النساء ، وقال بعضهم لا أنام على فراش ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال « ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا لكنى أصوم وأفطر وأنام وأقوم وأأكل اللحم وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن عاصم الأنصارى حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد عن عثمان يعنى ابن سعيد أخبرنى عكرمة عن ابن عباس أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إني إذا أكلت من هذا اللحم انتشرت للنساء وإنى حرمت على اللحم فنزلت (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) وكذا رواه الترمذى وابن جرير جميعاً عن عمرو بن على الفلاس عن أبى عاصم النبيل به وقال حسن غريب وقد روى من وجه آخر مرسل وروى موقوفا على ابن عباس فأنه أعلم ، وقال سفيان الثورى ووكيع عن إسماعيل بن أبى خالد عن قيس بن أبى حازم عن عبد الله بن مسعود قال كنا نغزو مع النبى صلى الله عليه وسلم وليس معنا نساء فقلنا ألا نستخصى فنهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ورخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل ثم قرأ عبد الله (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) الآية أخرجاه من حديث إسماعيل وهذا كان قبل تحريم نكاح الممعة والله أعلم . وقال الأعمش عن إبراهيم عن همام بن الحارث عن عمرو بن شرحبيل قال جاء معقل بن مقرن إلى عبد الله بن مسعود فقال إني حرمت فراشى فتلا هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) الآية وقال الثورى عن منصور عن أبى الضحى عن مسروق قال كنا عند عبد الله بن مسعود فحىء بضرع فتنحى رجل فقال له عبد الله ادن فقال إني حرمت أن آكله فقال عبد الله ادن فأطعم وكفر عن يمينك وتلا هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) الآية رواه ابن أبى حاتم وروى الحاكم هذا الأثر الأخير فى مستدركه من طريق إسحق بن راهويه عن جرير عن منصور به ثم قال على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ثم قال ابن أبى حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرنى هشام بن سعد أن زيد بن أسلم حدثه أن عبد الله بن رواحة أضافه ضيف من أهله وهو عند النبى ﷺ ثم رجع إلى أهله فوجدهم لم يطعموا ضيفهم انظروا له فقال لامرأته حبست ضيفى من أجلى هو على حرام فقالت امرأته هو على حرام وقال الضيف هو على حرام فلما رأى ذلك وضع يده وقال كلوا باسم الله ثم ذهب إلى النبى ﷺ فذكر الذى كان منهم ثم أنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) وهذا أثر منقطع

وفى صحيح البخارى فى قصة الصديق مع أضيفه شبه بهذا وفيه فى هذه القصة دلالة لمن ذهب من العلماء كالشافعى وغيره إلى أن من حرم ما كلاً أو ملبساً أو شيئاً ما عدا النساء أنه لا يحرم عليه ولا كفارة عليه أيضاً ولقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) ولأن الذى حرم اللحم على نفسه كما فى الحديث المتقدم لم يأمره النبى ﷺ بكفارة وذهب آخرون منهم الإمام أحمد بن حنبل إلى أن من حرم ما كلاً أو مشرباً أو ملبساً

أوشيثا من الأشياء فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين كما إذا التزم تركه باليمين فكذلك يؤخذ بمجرد تحريمه على نفسه إلزاما له بما التزمه كما أفنى بذلك ابن عباس وكما في قوله تعالى (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم) ثم قال (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) الآية وكذلك هاهنا لما ذكر هذا الحكم عقبه بالآية المبينة لتكفير اليمين فدل على أن هذا منزل منزلة اليمين في اقتضاء التكفير والله أعلم ، وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا حجاج عن ابن جريج عن مجاهد قال أراد رجال منهم عثمان بن مظعون وعبد الله بن عمرو أن يثبتوا ويخصوا أنفسهم ويلبسوا السوح فنزلت هذه الآية إلى قوله (واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون) قال ابن جريج عن عكرمة أن عثمان بن مظعون وعلي بن أبي طالب وابن مسعود والقناد بن الأسود وسالم مولى أبي حذيفة في أصحابه تبتلوا فجلسوا في البيوت واعتزلوا النساء ولبسوا السوح وحرمواطيات الطعام واللباس إلا ما يؤكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل وهموا بالاختصاص وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار فنزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) يقول لا تسيروا بغير سنة المسلمين يريد ما حرموا من النساء والطعام واللباس وما أجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار وما هموا به من الاختصاص فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال « إن لأنفسكم حقا وإن لأعينكم حقا صوموا وأفطروا وصلوا وناموا فليس منا من ترك سنتنا » فقالوا اللهم ربنا واتبعنا ما أنزلت ، وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين مرسلة ولها شاهد في الصحيحين من رواية عائشة أم المؤمنين كما تقدم ذلك والله الحمد والله وقال أسباط عن السدي في قوله (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) وذلك أن رسول الله ﷺ جلس يوما فذكر الناس ثم قام ولم يزدحم على التخويف فقال ناس من أصحاب النبي ﷺ كانوا عشرة منهم علي بن أبي طالب وعثمان بن مظعون ما حقا إن لم نحدث عملا فإن النصارى قد حرموا على أنفسهم فنحن نحرم ، فحرم بعضهم أن يؤكل اللحم والودك وأن يأكل بالنهار وحرّم بعضهم النوم وحرّم بعضهم النساء فكان عثمان بن مظعون ممن حرم النساء فكان لا يدنو من أهله ولا يدنو منه فأتت امرأته عائشة رضي الله عنها وكان يقال لها الحولاء فقالت لها عائشة ومن عندها من أزواج النبي ﷺ ما بالك يا خولاء متغيرة اللون لا تمتشطين ولا تتطيبين فقالت وكيف أمتشط وأتطيب وما وقع على زوجي وما رفع عني ثوبا منذ كذا وكذا قال فجعلن يضحكن من كلامها فدخل رسول الله ﷺ وهن يضحكن فقال « ما يضحكن » قالت يا رسول الله إن الحولاء سألتها عن أمرها فقالت ما رفع عني زوجي ثوبا منذ كذا وكذا فأرسل إليه فدعاه فقال « مالك يا عثمان ؟ » قال إني تركته لله لكي أتغني للعبادة وقص عليه أمره وكان عثمان قد أراد أن يجب نفسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أقسمت عليك إلا رجعت فواقعت أهلك » فقال يا رسول الله إني صائم فقال « أفطر » فأفطر وآتى أهله فرجعت الحولاء إلى عائشة وقد امتشطت واكتحلّت وتطيبت فضحكت عائشة وقالت مالك يا خولاء فقالت إنه أتاها أمس وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والنوم ألا إني أنام وأقوم وأفطر وأصوم وأنكح النساء فمن رغب عني فليس مني » فنزلت (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا) يقول لعثمان لا تجب نفسك فإن هذا هو الاعتداء وأمرهم أن يكفروا عن أيمانهم فقال (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) رواه ابن جرير وقوله تعالى (ولا تعتدوا) يحتمل أن يكون المراد منه ولا نبالغوا في التضيق على أنفسكم بتحريم المباحات عليكم كما قاله من قاله من السلف ويحتمل أن يكون المراد كما لا تحرموا الحلال ولا تعتدوا في تناول الحلال بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم ولا تجاوزوا الحد فيه كما قال تعالى (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) الآية وقال (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) فشرع الله عدل بين الغالي فيه والجافي عنه لإفراط ولا تفريط ولهذا قال (لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) ثم قال (وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا) أي في حال كونه حلالا طيبا (واتقوا الله) أي في جميع أموركم واتبعوا طاعته ورضوانه واتركوا مخالفته وعصيانته (الذي أنتم به مؤمنون)

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَأَخْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

قد تقدم الكلام على اللغو في اليمين في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا والله الحمد والمنة وأنه قول الرجل في الكلام من غير قصد : لا والله وبلى والله. وهذا مذهب الشافعي وقيل هو في الهزل وقيل في العصية وقيل على غلبة الظن وهو قول أبي حنيفة وأحمد وقيل في اليمين في الغضب وقيل في النسيان وقيل هو الحلف على ترك المأكل والمشرب والملبس ونحو ذلك واستدلوا بقوله (لا تحرّموا طيبات ما أحل الله لكم) والصحيح أنه اليمين من غير قصد بدليل قوله (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) أي بما صمتم عليه منها وقصدتموها (فكفارتها إطعام عشرة مساكين) يعني محابيح من الفقراء ومن لا يجد ما يكفيه وقوله (من أوسط ما تطعمون أهليكم) قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة أي من أعدل ما تطعمون أهليكم وقال عطاء الخراساني من أمثل ما تطعمون أهليكم قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن حجاج عن أبي إسحق السبيعي عن الحارث عن علي قال خبز ولبن وخبز وسمين ، وقال ابن أبي حاتم أنبأنا يونس بن عبد الأعلى قراءة حدثنا سفيان بن عيينة عن سليمان يعني ابن أبي الغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كان الرجل يقوت بعض أهله قوت دون وبعضهم قوتا فيه سعة فقال الله تعالى (من أوسط ما تطعمون أهليكم) أي من الخبز والزيت وحدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا وكيع حدثنا إسرائيل عن جابر عن عامر عن ابن عباس (من أوسط ما تطعمون أهليكم) قال من عسرهم ويسرهم وحدثنا عبد الرحمن بن خلف الحمصي حدثنا محمد بن شعيب يعني ابن شاذان وحدثنا شيخان بن عبد الرحمن التميمي عن ليث بن أبي سليم عن عاصم الأحول عن رجل يقال له عبد الرحمن التميمي عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال (من أوسط ما تطعمون أهليكم) قال الخبز واللحم والخبز والسمن والخبز واللبن والخبز والزيت والخبز والحل وحدثنا علي بن حرب الموصلي حدثنا أبو معاوية عن عاصم عن ابن سيرين عن ابن عمر في قوله (من أوسط ما تطعمون أهليكم) قال الخبز والسمن والخبز واللبن والخبز والزيت والخبز والتمر ومن أفضل ما تطعمون أهليكم الخبز واللحم ورواه ابن جرير عن هناد وابن وكيع كلاهما عن أبي معاوية ثم روى ابن جرير عن عبيدة والأسود وشرح القاضي ومحمد بن سيرين والحسن والضحاك وأبي رزين أنهم قالوا نحو ذلك وحكاه ابن أبي حاتم عن مكحول أيضا واختار ابن جرير أن المراد بقوله (من أوسط ما تطعمون أهليكم) أي في القلة والكثرة ثم اختلف العلماء في مقدار ما يطعمهم فقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد حدثنا أبو خالد الأحمر عن حجاج عن حصين الحارثي عن الشعبي عن الحارث عن علي رضي الله عنه في قوله (من أوسط ما تطعمون أهليكم) قال يغذيهم ويعشيهم وقال الحسن ومحمد بن سيرين يكفيه أن يطعم عشرة مساكين أكلة واحدة خبزاً ولحماً زاد الحسن فإن لم يجد فخبزاً وسمناً ولبناً فإن لم يجد فخبزاً وزيتاً وخالقاً يشبعوا وقال آخرون يطعم كل واحد من العشرة نصف صاع من بر أو تمر ونحوهما فهذا قول عمر وعلي وعائشة ومجاهد والشعبي وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وميمون بن مهران وأبي مالك والضحاك والحكم ومكحول وأبي قلابة ومقاتل بن حيان وقال أبو حنيفة نصف صاع بروصاع مما عداه وقد قال أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن الثقفي حدثنا عبيد بن الحسن بن يوسف حدثنا محمد بن معاوية حدثنا زياد بن عبد الله بن الطفيل بن سبرة بن أخى عائشة لأمة حدثنا عمر ابن يعلى عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كفر رسول الله ﷺ بصاع من تمر وأمر الناس به ومن لم يجد فنصف صاع من بر ، ورواه ابن ماجه عن العباس بن يزيد عن زياد بن عبد الله بالبكاء عن عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفي عن المنهال بن عمرو به لا يصح هذا الحديث لحال عمر بن عبد الله فإنه جمع على ضعفه وذكروا أنه كان يشرب الخمر وقال الدارقطني متروك وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا ابن إدريس عن داود يعني ابن أبي هند عن

عكرمة عن ابن عباس أنه قال مد من بر يعنى لكل مسكين ومعه إدامه ثم قال وروى عن ابن عمر وزيد بن ثابت وسعيد ابن المسيب ومجاهد وعطاء وعكرمة وأبي الشعثاء والقاسم وسالم وأبي سلمة بن عبد الرحمن وسليمان بن يسار والحسن ومحمد بن سيرين والزهرى نحو ذلك

وقال الشافعى الواجب في كفارة اليمين مد بمد النبي ﷺ لكل مسكين ولم يتعرض للأدم واحتج بأمر النبي ﷺ للذى جامع في رمضان بأن يطعم ستين مسكيناً من مكثل يسع خمسة عشر صاعاً لكل واحد منهم مد وقد ورد حديث آخر صريح في ذلك فقال أبو بكر بن مردويه حدثنا أحمد بن علي بن الحسن المقرئ حدثنا محمد بن إسحق السراج حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا النضر بن زرارَةَ الكوفي عن عبد الله بن عمر العمرى عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان يقيم كفارة اليمين مداً من حنطة بالمد الأول إسناده ضعيف لحال النضر بن زرارَةَ ابن عبد الأكرم الذهلي الكوفي نزيل بلغ قال فيه أبو حاتم الرازي هو مجهول مع أنه قد روى عنه غير واحد وذكره ابن حبان في الثقات وقال روى عنه قتيبة بن سعيد أشياء مستقيمة فله أعلم ثم إن شيخه العمرى ضعيف أيضاً وقال أحمد بن حنبل الواجب مد من بر أو مدان من غيره والله أعلم

وقوله تعالى (أو كسوتهم) قال الشافعى رحمه الله لودفع إلى كل واحد من العشرة ما يصدق عليه اسم الكسوة من قميص أو سراويل أو إزار أو عمامة أو مقنعة أجزاء ذلك واختلف أصحابه في القلنسوة هل تجزئ أم لا على وجهين فمنهم من ذهب إلى الجواز احتجاجاً بما رواه ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج وعمار بن خالد الواسطي قالا : حدثنا القاسم ابن مالك عن محمد بن الزبير عن أبيه قال سألت عمران بن الحصين عن قوله (أو كسوتهم) قال لو أن وفداً قدموا على أميركم فكساهم قلنسوة قلنسوة قلتم قد كسوا ولكن هذا إسناده ضعيف لحال محمد بن الزبير هذا والله أعلم وهكذا حكى الشيخ أبو حامد الاسفرايينى في الخف وجهين أيضاً والصحيح عدم الأجزاء وقال مالك وأحمد بن حنبل لا بد أن يدفع إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصح أن يصلى فيه إن كان رجلاً أو امرأة كل بحسبه والله أعلم وقال العوفي عن ابن عباس عبادة لكل مسكين أو ثملة وقال مجاهد أدناه ثوب وأعلاه ما شئت وقال ليث عن مجاهد يجرى في كفارة اليمين كل شيء إلا الثبان وقال الحسن وأبو جعفر الباقر وعطاء وطاوس وإبراهيم النخعى وحماد بن أبي سليمان وأبو مالك ثوب ثوب وعن إبراهيم النخعى أيضاً ثوب جامع كالمحفة والرداء ولا يرى الدرع والقميص والخمار ونحوه جامعاً وقال الأنصارى عن أشعث عن ابن سيرين والحسن ثوبان ثوبان وقال الثوري عن داود بن أبي هند عن سعيد بن المسيب عمامة يلف بها رأسه وعبادة يلتحف بها . وقال ابن جرير حدثنا هناد حدثنا ابن المبارك عن عاصم الأحول عن ابن سيرين عن أبي موسى أنه حلف على يمين فكسا ثوبين من معقدة البحرين ، وقال ابن مردويه حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا أحمد ابن المولى حدثنا هشام بن عمار حدثنا إسماعيل بن عياش عن مقاتل بن سليمان عن أبي عثمان عن أبي عياض عن عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله (أو كسوتهم) قال «عبادة لكل مسكين» حديث غريب وقوله (أو تحرير رقبة) أخذ أبو حنيفة باطلاقها فقال تجزئ الكافرة كما تجزئ المؤمنة ، وقال الشافعى وآخرون لا بد أن تكون مؤمنة وأخذ تقييدها بالإيمان من كفارة القتل لاتحاد الموجب وإن اختلف السبب ومن حديث معاوية بن الحكم السلمي الذى هو في موطأ مالك ومسنَد الشافعى وصحيح مسلم أنه ذكر أن عليه عتق رقبة وجاء معه بجزيرة سوداء فقال لها رسول الله ﷺ «أين الله» قالت في السماء قال «من أنا» قالت رسول الله قال «أعتقها فإنها مؤمنة» الحديث بطوله فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين أيها فعل الحائث أجزاء عنه بالإجماع وقد بدأ بالأسهل فالأسهل فالأطعم أسهل وأيسر من الكسوة كما أن الكسوة أيسر من العتق فترقى فيها من الأدنى إلى الأعلى فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث كفر بصيام ثلاثة أيام ، كما قال تعالى (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام) وروى ابن جرير عن سعيد ابن جبير والحسن البصرى أنهما قالا : من وجد ثلاثة دراهم لزمه الاطعام وإلا صام ، وقال ابن جرير حاكياً عن بعض متأخري متفقهة زمانه انه جائز لمن لم يكن له فضل عن رأس مال يتصرف فيه لمعاشه ومن الفضل عن ذلك ما يكفر

به عن يمينه ، ثم اختار ابن جرير أنه الذي لا يفضل عن قوته وقوت عياله في يومه ذلك ما يخرج به كفارة اليمين واختلف العلماء هل يجب فيها التتابع أو يستحب ولا يجب ويجزئ التفريق ؟ قولان أحدهما لا يجب وهذا منصوص الشافعي في كتاب الأيمان وهو قول مالك لإطلاق قوله (فصيام ثلاثة أيام) وهو صادق على المجموعة والفرقة كما في قضاء رمضان لقوله (فعدة من أيام أخر) ونص الشافعي في موضع آخر في الأم على وجوب التتابع كما هو قول الحنفية والحنابلة لأنه قد روى عن أبي بن كعب وغيره أنهم كانوا يقرءونها (فصيام ثلاثة أيام متتابعات) قال أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالية عن أبي بن كعب أنه كان يقرؤها (فصيام ثلاثة أيام متتابعات) وحكاها مجاهد والشعبي وأبو إسحق عن عبد الله بن مسعود وقال إبراهيم في قراءة عبد الله بن مسعود (فصيام ثلاثة أيام متتابعات) وقال الأعمش كان أصحاب ابن مسعود يقرءونها كذلك وهذه إذا لم يثبت كونها قرأنا متواترا فلا أقل أن يكون خبر واحد أو تفسيراً من الصحابة وهو في حكم المرفوع وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن علي حدثنا محمد بن جعفر الأشعري حدثنا الهيثم ابن خالد القرشي حدثنا يزيد بن قيس عن إسماعيل بن يحيى عن ابن جريج عن ابن عباس قال لما نزلت آية الكفارات قال حذيفة يا رسول الله نحن بالخيار قال « أنت بالخيار إن شئت أعتقت وإن شئت كسوت وإن شئت أطعمت فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات » وهذا حديث غريب جدا ، وقوله (ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم) أي هذه كفارة اليمين الشرعية (واحفظوا أيمانكم) قال ابن جرير معناه لا تتركوها بغير تكفير (كذلك يبين الله لكم آياته) أي يوضحها ويفسرهما (لعلكم تشكرون)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُمْ مُنْتَهُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا كَلَىٰ رَسُولُنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ * لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميسر وهو القمار وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال الشطرنج من الميسر رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن عيسى بن مرحوم عن حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي به ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي حدثنا وكيع عن سفيان عن ليث عن عطاء ومجاهد وطاوس قال سفيان أو اثنين منهم قالوا : كل شيء من القمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز وروى عن راشد بن سعد وضمرة بن حبيب مثله وقالوا حتى الكعب والجوز والبيض التي تلعب بها الصبيان وقال موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر قال الميسر هو القمار وقال الضحاك عن ابن عباس قال الميسر هو القمار كانوا يتقامرون في الجاهلية إلى مجيء الإسلام فنهاهم الله عن هذه الأخلاق القبيحة وقال مالك عن داود بن الحصين أنه سمع سعيد بن المسيب يقول كان ميسر أهل الجاهلية يبيع اللحم بالشاة والشاتين

وقال الزهري عن الأعرج قال الميسر الضرب بالقداح على الأموال والثمار وقال القاسم بن محمد كل ما ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو من الميسر رواه ابن أبي حاتم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن منصور الزبادي حدثنا هشام بن عمار حدثنا صدقة حدثنا عثمان بن أبي العاتكة عن علي بن يربيد عن القاسم عن أبي أمامة عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « اجتنبوا هذه الكعب الموسومة التي يزرع بها زجرا فانها من الميسر »

حديث عريب وكان المراد بهذا هو النرد الذي ورد الحديث به في صحيح مسلم عن بريدة بن الحبيب الأسلمي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه » وفي موطأ مالك ومسنند أحمد وسنن أبي داود وابن ماجه عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ « من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله » وروى موقوفا عن أبي موسى من قوله فالله أعلم . وقال الإمام أحمد حدثنا علي بن إبراهيم حدثنا الجعيد عن موسى بن عبد الرحمن الخطمي أنه سمع محمد بن كعب وهو يسأل عبد الرحمن يقول أخبرني ما سمعت أباك يقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبد الرحمن سمعت أبي يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مثل الذي يلعب بالنرد ثم يقوم فيصلي مثل الذي يتوضأ بالقيح ودم الخنزير ثم يقوم فيصلي » . وأما الشطرنج فقد قال عبد الله بن عمر إنه شر من النرد وتقدم عن علي أنه قال هو من الميسر ونص على تحريمه مالك وأبو حنيفة وأحمد وكرهه الشافعي رحمهم الله تعالى ، وأما الأنصاب فقال ابن عباس ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبيرة والحسن وغير واحد هي حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها ، وأما الأزلام فقالوا أيضا هي قدام كانوا يستقسمون بها رواء ابن أبي حاتم وقوله تعالى (رجس من عمل الشيطان) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أي سخط من عمل الشيطان وقال سعيد بن جبيرة وإثم وقال زيد بن أسلم أي شر من عمل الشيطان (فاجتنبوه) الضمير عائذ على الرجس أي اتركوه (لعلكم تفلحون) وهذا ترغيب ثم قال تعالى (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) وهذا تهديد وترهيب

﴿ ذكر الأحاديث الواردة في بيان تحريم الخمر ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا شريح حدثنا أبو معشر عن أبي وهب مولى أبي هريرة عن أبي هريرة قال حرمت الخمر ثلاث مرات قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما فأمرهم الله (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس) إلى آخر الآية فقال الناس ما حرما علينا إنما قال (فلهما إثم كبير ومنافع للناس) وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوما من الأيام صلى رجل من المهاجرين أم أصحابه في المغرب فخلط في قراءته فأمر الله آية أغلظ منها (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) فكان الناس يشربون حتى يأني أحدهم الصلاة وهو مغبق ثم أنزلت آية أغلظ منها (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) قالوا اتبهنا ربنا وقال الناس يا رسول الله ناس قتلوا في سبيل الله وماتوا على سرفهم كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر وقد جعله الله رجسا من عمل الشيطان فأمر الله ناس قتلوا في سبيل الله وماتوا على سرفهم كانوا يشربون الخمر جناح فيما طعموا) إلى آخر الآية فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لو حرم عليهم لتركوه كما تركتم » انفرد به أحمد وقال الإمام أحمد حدثنا خلف بن الوليد حدثنا إسرائيل عن أبي إسحق عن أبي ميسرة عن عمر بن الخطاب أنه قال لما نزل تحريم الخمر قال اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت الآية التي في البقرة (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير) فدعى عمر فقرئت عليه فقال اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت الآية التي في سورة النساء (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) فكان منادى رسول الله ﷺ إذا قال حي على الصلاة نادى : لا يقربن الصلاة سكران . فدعى عمر فقرئت عليه : فقال اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا : فنزلت الآية التي في المائدة فدعى عمر فقرئت عليه فلما بلغ قول الله تعالى (فهل أنتم منتهون) قال عمر اتبهنا اتبهيا وهكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي من طرق عن إسرائيل عن أبي إسحق عن عمر بن عبد الله السبيعي وعن أبي ميسرة واسمه عمرو بن شرحبيل الهمداني عن عمرو بن وهب وليس له عنه سواء قال أبو زرعة ولم يسمع منه وصح هذا الحديث على بن المديني والترمذي ، وقد ثبت في الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قال في خطبته على منبر رسول الله ﷺ أيها الناس إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير ، والخمر ما حامر العقل . وقال البخاري حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا محمد

ابن بشر حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز حدثني نافع عن ابن عمر قال نزل تحريم الخمر وإن بالمدينة يومئذ خمسة أشهر ما فيها شراب العنب . (حديث آخر) قال أبو داود الطيالسي حدثنا محمد بن أبي حميد عن المعمر بن عمار عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال سمعت ابن عمر يقول نزلت في الخمر ثلاث آيات فأول شيء نزل (يسألونك عن الخمر والميسر) الآية فقبل حرم الخمر فقالوا يا رسول الله دعنا نتنفع بها كما قال الله تعالى قال فسكت عنهم ثم نزلت هذه الآية (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) فقبل حرم الخمر فقالوا يا رسول الله إنا لا نشرها قرب الصلاة ، فسكت عنهم ثم نزلت (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حرمت الخمر » . (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يعلى حدثنا محمد بن إسحاق عن القعقاع بن حكيم أن عبد الرحمن بن وعلة قال سألت ابن عباس عن بيع الخمر فقال كان لرسول الله ﷺ صديق من ثقيف أو من دوس فلقبه يوم الفتح بـ « خمر يهديها » فقال رسول الله ﷺ « يا فلان أما علمت أن الله حرمها » فأقبل الرجل على علامه فقال اذهب فبعها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا فلان بماذا أمرته » فقال أمرته أن يبيعها قال « إن الذي حرم شرها حرم بيعها » فأمر بها فأفرغت في البطحاء رواء مسلم من طريق ابن وهب عن مالك عن زيد ابن أسلم ومن طريق ابن وهب أيضا عن سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد كلاهما عن عبد الرحمن بن وعلة عن ابن عباس به . ورواه النسائي عن قتبية عن مالك به

(حديث آخر) قال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا محمد بن أبي بكر القديمي حدثنا أبو بكر الحنفي حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن شهر بن حوشب عن نعيم الداري أنه كان يهدي لرسول الله ﷺ كل عام راوية من خمر (١) فلما أنزل الله تحريم الخمر جاء بها فلما رآها رسول الله ﷺ ضحك وقال « إنها قد حرمت بعدك » قال يا رسول الله فأبيعها وأتنفع بشئها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لعن الله اليهود حرمت عليهم شحوم البقر والغنم فأذبوه وباعوه والله حرم الخمر وثمنها » وقد رواه أيضا الإمام أحمد فقال حدثنا روح حدثنا عبد الحميد بن بهرام قال سمعت شهر بن حوشب قال حدثني عبد الرحمن بن غنم أن الداري كان يهدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم كل عام راوية من خمر فلما كان عام حرمت جاء راوية فلما نظر إليه ضحك فقال « أشعرت أنها قد حرمت بعدك » فقال يا رسول الله ألا أبيعها وأتنفع بشئها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لعن الله اليهود انطلقوا إلى ما حرم عليهم من شحوم البقر والغنم فأذبوه وباعوه إنه ما يأكلون وإن الخمر حرام وثمنها حرام وإن الخمر حرام وإن الخمر حرام وثمنها حرام » (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا قتبية بن سعيد حدثنا ابن لهيعة عن سليمان بن عبد الرحمن عن نافع ابن كيسان أن أباه أخبره أنه كان يتجر في الخمر في زمن رسول الله ﷺ وأنه أقبل من الشام ومعه خمر في الزقاق يريد بها التجارة فأتى بها رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إني جئت بك شراب طيب فقال رسول الله ﷺ « يا كيسان إنها قد حرمت بعدك » قال فأبيعها يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ « إنها قد حرمت وحرم ثمنها » فانطلق كيسان إلى الزقاق فأخذ بأرجلها ثم هراقها

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد عن حميد عن أنس قال كنت أسقى أبا عبيدة بن الجراح وأبي ابن كعب وسهيل بن بيضاء ونفرا من أصحابه عند أبي طلحة حتى كاد الشراب يأخذ منهم فأتى آت من المسلمين فقال أما شعرت أن الخمر قد حرمت ؟ فقالوا حتى ننظر ونسأل فقالوا يا أنس اسكب ما بقي في إنائك فوالله ما عادوا فيها وما هي إلا الخمر والبسر وهي خمرهم يومئذ : أخرجاه في الصحيحين من غير وجه عن أنس وفي رواية حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال كنت ساقى القوم يوم حرمت الخمر في بيت أبي طلحة وماشراهم إلا الصبيخ البسر والتمر فإذا مناد ينادى قال اخرج فانظر فإذا مناد ينادى ألا إن الخمر قد حرمت فجرت في سكك المدينة قال: فقال لي أبو طلحة اخرج فأهرقها فهرقتها فقالوا أو قال بعضهم قتل فلان وفلان رهي في بطونهم قال فأمر الله (ليس على الذين آمنوا وعمالوا الصالحات جناح فيما طعموا) الآية . وقال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثني عبد الكبير بن عبد الحميد حدثنا عباد بن

(١) في هذا أن تمأس لم تسع من الهجرة وقد حرمت الخمر سنة ثمان كما استظهره الحافظ في الفتح

راشد عن قتادة عن أنس بن مالك قال بينا أنا أدير الكأس على أبي طلحة وأبي عبيدة بن الجراح وأبي دجاجة ومعاذ ابن جبل وسهيل بن بيضاء حتى مالت رؤوسهم من خليط بسر وتمر فسمعت مناديا ينادي ألا إن الخمر قد حرمت قال فما دخل علينا داخل ولا خرج منا خارج حتى أهرقنا الشراب وكسرنا الفلال وتوضأ بعضنا واغتسل بعضنا وأصبنا من طيب أم سليم ثم خرجنا إلى المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) إلى قوله (فهل أتم متهمون) فقال رجل يا رسول الله فما ترى فيمن مات وهو يشربها فأنزل الله تعالى (ليس على الذين آمنوا وعمالوا الصالحات جناح فيما طعموا) الآية فقال رجل لقتادة أنت سمعته من أنس بن مالك؟ قال نعم وقال رجل لأنس بن مالك أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال نعم. أو حدثني من لم يكذب، ما كنا نكذب ولا ندرى ما الكذب. (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن إسحق أخبرني يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زحر عن بكر بن سوادة عن قيس بن سعد بن عبادة أن رسول الله ﷺ قال «إن ربى تبارك وتعالى حرم الخمر والكوبة والقنين وإياكم والغبراء فإني أثبت خمر العالم». (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا فرج بن فضالة عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن رافع عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله حرم على أمتي الخمر والميسر والزرر والكوبة والقنين وزادني صلاة الوتر» قال يزيد القنين البرابط تفرد به أحمد، وقال أحمد أيضا حدثنا أبو عاصم وهو النخيل أخبرنا عبد الحميد بن جعفر حدثنا يزيد بن أبي حبيب عن عمرو بن الوليد عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال «من قال على ما لم أقبل فليتبوأ مقعده من جهنم» قال وسمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الله حرم الخمر والميسر والكوبة والغبراء وكل مسكر حرام» تفرد به أحمد أيضا. (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز عن أبي طلحة مولاهم وعن عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي أنهما سمعا ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ «لعنت الخمر على عشرة أوجه لعنت الخمر بعينها وشاربها وساقها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها» ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث وكيع به، وقال أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا أبو طعمة سمعت ابن عمر يقول خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المربد فخرجت معه فكنت عن يمينه وأقبل أبو بكر فتأخرت عنه فكان عن يمينه وكنت عن يساره ثم أقبل عمر فتنجحت له فكان عن يساره فأتى رسول الله ﷺ المربد فإذا بزقاق على المربد فيها خمر قال ابن عمر فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة قال ابن عمر وما عرفت المدينة إلا يومئذ فأمر بالزقاق فشقت ثم قال «لعنت الخمر وشاربها وساقها وبائعها ومبتاعها وحاملها والمحمولة إليه وعاصرها ومعتصرها وآكل ثمنها». وقال أحمد حدثنا الحكم بن نافع حدثنا أبو بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب قال: قال عبد الله بن عمر أمرني رسول الله ﷺ أن آتية بمدينة وهي الشفرة فأتيته بها فأرسل بها فأرهفت ثم أعطانيها وقال «اغسد على بها» ففعلت فخرج بأصحابه إلى أسواق المدينة وفيها زقاق الخمر قد جلبت من الشام فأخذ المدينة منى فشق ما كان من تلك الزقاق بحضرته ثم أعطانيها وأمر أصحابه الذين كانوا معه أن يمضوا معي وأن يعاونوني وأمرني أن آتي الأسواق كلها فلا أجد فيها زق خمر إلا شققته ففعلت فلم أترك في أسواقها زقا إلا شققته. (حديث آخر) قال عبد الله بن وهب أخبرني عبد الرحمن بن شريح وابن لهيعة والليث بن سعد عن خالد بن ريد عن ثابت أن يزيد الحولاني أخبره أنه كان له عم يبيع الخمر وكان يتصدق قال فنهيت عنها فلم يئته فقدمت المدينة فلقيت ابن عباس فسألته عن الخمر وثمنها فقال هي حرام وثمنها حرام ثم قال ابن عباس رضي الله عنه يامعشر أمة محمد إنه لو كان كتاب بعد كتابكم ونبي بعد نبيكم كما أنزل فيكم لم يكن قبلكم ولكن أخرجكم من أكرمكم إلى يوم القيامة ولعمري هو أشد عليكم. قال ثابت فلقيت عبد الله بن عمر فسألته عن ثمن الخمر فقال سأخبرك عن الخمر إن كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد فإني هو محتب على حبوته ثم قال «من كان عنده من هذه الخمر شيء فليأتها» فعملوا يأتونه فيقول أحدهم عدى راوية ويقول الآخر عدى زق أو ماشاء الله أن يكون

عنده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اجمعوه ببيع كذا وكذا ثم آذنوني » ففعلوا ثم آذنوه فقام وقت معه ومشيت عن يمينه وهو متكئ على فلقنا أبو بكر رضى الله عنه فأخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلني عن شماله وجعل أبا بكر في مكاني ثم لحقنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأخبرني وجعله عن يساره فمشى بينهما حتى إذا وقف على الحجر قال للناس « أنصرفون هذه » قالوا: نعم يا رسول الله هذه الحجر قال « صدقتم » ثم قال « فان الله لعن الحجر وعاصرها ومعتصرها وشاربها وساقها وحاملها والمحولة إليه وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها » ثم دعا بسكين فقال « اشحذوها » ففعلوا ثم أخذها رسول الله ﷺ يخرق بها الزقاق قال: فقال الناس في هذه الزقاق منفعة فقال « أجل ولكني إنما أفعل ذلك غضبا لله عز وجل لما فيها من سخطه » فقال عمر أنا أكفيك يا رسول الله ، قال « لا » قال ابن وهب وبعضهم يزيد على بعض في قصة الحديث رواه البيهقي

(حديث آخر) قال الحافظ أبو بكر البيهقي أنبأنا أبو الحسين بن بشر أنبأنا إسماعيل بن محمد الصفار حدثنا محمد ابن عبيد الله اللنادي حدثنا وهب بن جرير حدثنا شعبة عن سمالك عن مصعب بن سعد عن سعد قال أنزلت في الحجر أربع آيات فذكر الحديث قال وضع رجل من الأنصار طعاما فدعانا فشربنا الحجر قبل أن تحرم حتى انتشيننا فتفاخرنا فقالت الأنصار نحن أفضل وقالت قريش نحن أفضل فأخذ رجل من الأنصار لحى جزور فضرب به أنف سعد ففزره وكانت أنف سعد مفزورة فنزلت (إنما الحجر والميسر) إلى قوله تعالى (فهل أنتم متهون) أخرجه مسلم من حديث شعبة (حديث آخر) قال البيهقي وأخبرنا أبو نصر بن قتادة أنبأنا أبو طي الرضا حدثنا علي بن عبد العزيز حدثنا حجاج بن منهال حدثنا ربيعة بن كلثوم حدثني أبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال إنما نزل تحريم الحجر في قبائل الأنصار شربوا فلما أن ثمل القوم عبث بعضهم ببعض فلما أن صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ورأسه ولحيته فيقول صنع بي هذا أخى فلان وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن فيقول والله لو كان بي رءوفا رحما ما صنع بي هذا ، حتى وقعت الضغائن في قلوبهم فأنزل الله تعالى هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا إنما الحجر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان) إلى قوله تعالى (فهل أنتم متهون) فقال أناس من المكلفين هي رجس وهي في بطن فلان وقد قتل يوم أحد فأنزل الله تعالى (ليس على الذين آمنوا وعمالوا الصالحات جناح فيما طعموا) إلى آخر الآية ورواه النسائي في التفسير عن محمد بن عبد الرحيم صاعقة عن حجاج بن منهال .

(حديث آخر) قال ابن جرير حدثني محمد بن خلف حدثنا سعيد بن محمد الحرى عن أبي نميلة عن سلام مولى حفص أبي القاسم عن أبي بريدة عن أبيه قال بينا نحن قعود على شراب لنا ونحن على رملة ونحن ثلاثة أو أربعة وعندنا باطية لنا ونحن نشرب الحجر حلا إذ قمت حتى أتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه إذ نزل تحريم الحجر (يا أيها الذين آمنوا إنما الحجر والميسر) إلى آخر الآيتين (فهل أنتم متهون) فجئت إلى أصحابي فقرأتها عليهم إلى قوله (فهل أنتم متهون) قال وبعض القوم شربته في يده قد شرب بعضها وبقي بعض في الإناء فقال بالإناء نحت شفته العليا كما يفعل الحجام ثم صبوا ما في باطيتهم فقالوا اتبهنا ربنا

(حديث آخر) قال البخارى حدثنا صدقة بن الفضل أخبرنا ابن عيينة عن عمرو بن جابر قال صبح^(١) أناس عداة أحد الحجر فقتلوا من يومهم جميعا شهداء وذلك قبل تحريمها هكذا رواه البخارى في تفسيره من صحيحه وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده حدثنا أحمد بن عبدة حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار سمع جابر بن عبد الله يقول اصطبح ناس الحجر من أصحاب النبي ﷺ ثم قتلوا شهداء يوم أحد فقالت اليهود فقد مات بعض الذين قتلوا وهي في بطونهم فأنزل الله (ليس على الذين آمنوا وعمالوا الصالحات جناح فيما طعموا) ثم قال وهذا إسناد صحيح وهو كما قال ولكن في سياقه غرابة

(حديث آخر) قال أبو داود الطيالسي حدثنا شعبة عن أبي إسحق عن البراء بن عازب قال لما نزل تحريم الحجر قالوا كيف بمن كان يشربها قبل أن تحرم ؟ فنزلت (ليس على الذين آمنوا وعمالوا الصالحات جناح فيما طعموا) الآية ورواه الترمذى عن بندار عن غندر عن شعبة به نحوه وقال حسن صحيح (حديث آخر) قال الحافظ أبو على الموصلى حدثنا

(١) صبح بالتمديد ولعله في كتاب المغازى اصطبح الحجر يوم أحد ناس ثم قتلوا شهداء والتصحيح الشرب في الصباح

جعفر بن حميد الكوفي حدثنا يعقوب القمي عن عيسى بن جارية عن جابر بن عبد الله قال كان رجل يحمل الخمر من خير إلى المدينة فيبيعها من المسلمين فحمل منها بما لا يقدم بها المدينة فلقه رجل من المسلمين فقال يا فلان إن الخمر قد حُرمت فوضعها حيث انتهى على تل وسجى عليها بأكسية ثم أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله بلغني أن الخمر قد حُرمت قال « أجل » قال لي أن أردّها على من ابتعتها منه قال « لا يصلح ردّها » قال لي أن أهدبها إلى من يكافئني منها ؟ قال « لا » قال فان فيها مالا ليتامى في حجرى قال « إذا أتانا مال البحرين فأتنا نعوض أيتامك من مالهم » ثم نادى بالمدينة فقال رجل يا رسول الله الأوعية تنتفع بها قال « فعلوا أو كبتها » فانصبت حتى استقرت في بطن الوادي هذا حديث غريب . (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن السدي عن أبي هيرة وهو يحيى بن عباد الأنصاري عن أنس بن مالك أن أبا طلحة سأل رسول الله ﷺ عن أيتام في حجره ورثوا خمرًا فقال « أهرقها » قال أفلا نجعلها حلالاً ؟ قال « لا » ورواه مسلم وأبو داود والترمذي من حديث الثوري به نحوه

(حديث آخر) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا عبد العزيز بن سامة حدثنا هلال بن أبي هلال عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو قال إن هذه الآية التي في القرآن (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) قال : هي في التوراة إن الله أنزل الحق ليذهب به الباطل ويظهر به اللعب والمزامر والزفن والكبارات يعني البرابط والرمات يعني به الدف والطناير والشعر والخمر مرة لمن طعمها ، أقسم الله بيمينه وعزته من شربها بعدما حرمتها لأعطشه يوم القيامة ومن تركها بعد ما حرمتها لأسقينه إياها في حظيرة القدس وهذا إسناد صحيح

(حديث آخر) قال عبد الله بن وهب أخبرني عمرو بن الحارث أن عمرو بن شعيب حدثهم عن أبيه عن عبد الله بن عمرو ابن العاص عن رسول الله ﷺ قال « من ترك الصلاة سكرًا مرة واحدة فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فسلها ، ومن ترك الصلاة سكرًا أربع مرات كان حقا على الله أن يسقيه من طينة الخبال » قيل وما طينة الخبال ؟ قال « عصارة أهل جهنم » ورواه أحمد من طريق عمرو بن شعيب (حديث آخر) قال أبو داود حدثنا محمد بن رافع حدثنا إبراهيم بن عمر الصنعاني قال سمعت النعمان هو ابن أبي شيبة الجندی يقول عن طاوس عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال « كل مخمر خمر وكل مسكر حرام ومن شرب مسكرًا بنحست صلاته أربعين صباحًا فان تاب تاب الله عليه فان عاد الرابعة كان حقا على الله أن يسقيه من طينة الخبال يا رسول الله ؟ قال « صديد أهل النار . ومن سقاه صغيرًا لا يعرف حلاله من حرامه كان حقا على الله أن يسقيه من طينة الخبال » تفرد به أبو داود

(حديث آخر) قال الشافعي رحمه الله أنبأنا مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال « من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حرّمها في الآخرة » أخرجه البخاري ومسلم من حديث مالك به وروى مسلم عن أبي الربيع عن حماد بن زيد عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « كل مسكر خمر وكل مسكر حرام ومن شرب الخمر فمات وهو يدينها ولم يتب منها لم يشربها في الآخرة » (حديث آخر) قال ابن وهب أخبرني عمر ابن محمد عن عبد الله بن يسار أنه سمع سالم بن عبد الله يقول : قال عبد الله بن عمر : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة العاق لوالديه والمدمن الخمر والمثان بما أعطى » ورواه النسائي عن عمرو بن علي عن يزيد بن زريع عن عمر بن محمد العمري به وروى أحمد عن غندر عن شعبة عن يزيد بن أبي زياد عن مجاهد عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال « لا يدخل الجنة مثان ولا عاق ولا مدمن خمر »

ورواه أحمد أيضًا عن عبد الصمد عن عبد العزيز بن أسلم عن يزيد بن أبي زياد عن مجاهد به وعن مروان بن شجاع عن خفيف عن مجاهد به ورواه النسائي عن القاسم بن زكريا عن حسين الجعفي عن زائدة عن يزيد بن أبي زياد عن سالم بن أبي الجعد ومجاهد كلاهما عن أبي سعيد به (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا سفيان عن منصور عن سالم ابن أبي الجعد عن جابان عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال « لا يدخل الجنة عاق ولا مدمن خمر ولا

بالغيب) يعني أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم يتمكنون من أخذه بالأيدى والرماح سرّاً وجهرّاً لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره أو جهره كما قال تعالى (إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير) وقوله هاهنا (فمن اعتدى بعد ذلك) قال السدي وغيره يعني بعد هذا الاعلام والانذار والتقدم (فله عذاب أليم) أي لخالفته أمر الله وشرعه ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم) وهذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد في حال الاحرام ونهى عن تعاطيه فيه وهذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكول ولوماتوله منه ومن غيره فأما غير المأكول من حيوانات البر فعند الشافعي يجوز للمحرم قتلها والجمهور على تحريم قتلها أيضاً ولا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت في الصحيحين من طريق الزهري عن عروة عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال « خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم : الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور » وقال مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهن جناح : الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور » أخرجه ورواه أيوب عن نافع عن ابن عمر مثله قال أيوب فقلت لنافع فالحية قال الحية لاشك فيها ولا يختلف في قتلها ومن العلماء كمالك وأحمد من ألحق بالكلب العقور الذئب والسبع والخنزير والفهد لأنها أشد ضرراً منه فالحية أعلم وقال زيد بن أسلم وسفيان بن عيينة الكلب العقور يشمل هذه السباع العادية كلها واستأنس من قال بهذا بما روى أن رسول الله ﷺ لما دعا على عتبة بن أبي لهب قال « اللهم سلط عليه كلبك بالشام » فأكله السبع بالزرقاء ، قالوا فإن قتل ما عداهن فداء كالضبع والثعلب والوبر (١) ونحو ذلك قال مالك وكذا يستثنى من ذلك صغار هذه الخمس المنصوص عليها وصغار الملحق بها من السباع العوادي وقال الشافعي يجوز للمحرم قتل كل ما لا يؤكل لحمه ولا فرق بين صغاره وكباره وجعل العلة الجامعة كونها لا تؤكل وقال أبو حنيفة يقتل المحرم الكلب العقور والذئب لأنه كلب برى فإن قتل غيرها فداء إلا أن يصول عليه سبع غيرها فيقتله فلا فداء عليه وهذا قول الأوزاعي والحسن بن صالح بن حي وقال زفر ابن المنذيل يفدى ماسوي ذلك وإن صال عليه وقال بعض الناس المراد بالغراب هاهنا الأبقع وهو الذي في بطنه وظهره بياض دون الأدرع وهو الأسود والأعصم وهو الأبيض لما رواه النسائي عن عمرو بن علي الفلاس عن يحيى القطان عن شعبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « خمس يقتلن المحرم : الحية والفأرة والحدأة والغراب الأبقع والكلب العقور » والجمهور على أن المراد به أعم من ذلك لما ثبت في الصحيحين من إطلاق لفظه وقال مالك رحمه الله لا يقتل المحرم الغراب إلا إذا صال عليه وآذاه وقال مجاهد بن جبر وطائفة لا يقتله بل يرميه ويروى مثله عن علي وقد روى هشيم حدثنا يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي نعم عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه سئل عما يقتل المحرم فقال « الحية والعقرب والفويسقة ويرى الغراب ولا يقتله والكلب العقور والحدأة والسبع العادي » رواه أبو داود عن أحمد بن حنبل والترمذي عن أحمد بن منيع كلاهما عن هشيم وابن ماجه عن أبي كريب وعن محمد بن فضيل كلاهما عن يزيد بن أبي زياد وهو ضعيف به وقال الترمذي هذا حديث حسن

وقوله تعالى (ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا ابن عليه عن أيوب قال نبئت عن طاوس أنه قال لا يحكم على من أصاب صيداً خطأ إنما يحكم على من أصابه متعمداً وهذا مذهب غريب عن طاوس وهو متمسك بظاهر الآية وقال مجاهد بن جبر المراد بالمتعمد هنا القاصد إلى قتل الصيد الناسي لإحرامه فأما المتعمد لقتل الصيد مع ذكره لإحرامه فذاك أمره أعظم من أن يكفر وقد بطل إحرامه رواه ابن جبر عنه من طريق ابن أبي نجيح وليث بن أبي سليم وغيرها عنه وهو قول غريب أيضاً والذي عليه الجمهور أن العمد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه وقال الزهري دل الكتاب على العمد وجرت السنة على الناسي ومعنى هذا أن القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمد وعلى تأنيبه بقوله (ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه) وجاءت السنة من أحكام النبي ﷺ وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ كما دل الكتاب عليه في العمد وأيضاً فإن قتل الصيد إتلاف والاتلاف مضمون في العمد وفي النسيان لكن المتعمد مأثوم والمخطئ غير ملوم وقوله تعالى

(١) كذا في الكنية وفي نسخة الأزهر : وهو البر .

(فجزاء مثل ما قتل من النعم) قرأ بعضهم بالإضافة وقرأ آخرون بعطفها (فجزاء مثل ما قتل من النعم) وحكى ابن جرير أن ابن مسعود قرأ (فجزاء مثل ما قتل من النعم) وفي قوله (فجزاء مثل ما قتل من النعم) على كل من الفراءتين دليل لما ذهب إليه مالك والشافعي وأحمد والجمهور من وجوب الجزاء من مثل ما قتله المحرم إذا كان له مثل من الحيوان الانسي خلافا لأبي حنيفة رحمه الله حيث أوجب القيمة سواء كان الصيد المقتول مثليا أو غير مثلي قال وهو مخير إن شاء تصدق بثمانه وإن شاء اشترى به هديا والذي حكم به الصحابة في المثل أولى بالاتباع فانهم حكموا في النعامة بيدنة وفي بقرة الوحش ببقرة وفي الغزال بعنز وذكر قضايا الصحابة وأسانيدهم مقرر في كتاب الأحكام وأما إذا لم يكن الصيد مثليا فمدحكم ابن عباس فيه بثمانه يحمل إلى مكة رواه البهقي

وقوله تعالى (يحكم به ذوا عدل منكم) يعني أنه يحكم بالجزاء في المثل أو بالقيمة في غير المثل عدلان من المسلمين واختلف العلماء في القاتل هل يجوز أن يكون أحد الحكمين على قولين (أحدهما) لا ، لأنه قد يتهم في حكمه على نفسه وهذا مذهب مالك (والثاني) نعم لعموم الآية وهو مذهب الشافعي وأحمد واحتج الأولون بأن الحاكم لا يكون محكوما عليه في صورة واحدة قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين حدثنا جعفر هو ابن رقان عن ميمون ابن مهران أن أعرابيا أتى أبا بكر فقال قتلت صيدا وأنا محرم فما ترى على من الجزاء فقال أبو بكر رضى الله عنه لأبي بن كعب وهو جالس عنده ما ترى فيها قال: فقال الأعرابي أتيتك وأنت خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أسألك فإذا أنت تسأل غيرك فقال أبو بكر وما تنكر؟ يقول الله تعالى (فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم) فشاورت صاحبى حتى إذا اتفقنا على أمر أمرناك به ، وهذا إسناد جيد لكنه منقطع بين ميمون وبين الصديق ومثله محتمل ههنا فبين له الصديق الحكم برفق وتؤدة لما رآه أعرابيا جاهلا وإنما دواء الجهل التعليم فأما إذا كان المعارض منسوبا إلى العلم فقد قال ابن جرير حدثنا هناد وأبو هشام الرافعي قالا حدثنا وكيع بن الجراح عن المسعودى عن عبد الملك بن عمير عن قبيصة بن جابر قال خرجنا حجاجا فكننا إذا صلينا الغداة اقتدنا رواحلنا فنتماشى نتحدث قال فبينما نحن ذات غداة إذ سنح^(١) لنا ظي أو برح فرماه رجل كان معنا بحجر فما أخطأ حشاه فركب وودعه ميتا قال فعظمنا عليه فلما قدمنا مكة خرجت معه حتى أتينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقص عليه القصة فقال وإذا إلى جنبه رجل كأن وجهه قلب فضة يعنى عبد الرحمن بن عوف فالتفت عمر إلى صاحبه فكله قال ثم أقبل على الرجل فقال أعمدا قتلته أم خطأ؟ فقال الرجل لقد تعمدت رميه وما أردت قتله فقال عمر ما أراك إلا قد أشركت بين العمد والخطأ اعمد إلى شاة فاذبجها وتصدق بلحمها واستبق إهابها قال فقمننا من عنده فقلت لصاحبى أيها الرجل عظم شعائر الله فما درى أمير المؤمنين ما يفتيك حتى سأل صاحبه اعمد إلى ناقتك فأنحرها ففعل ذلك يعنى أن يجزىء عنك قال قبيصة ولا أذكر الآية من سورة المائدة (يحكم به ذوا عدل منكم) فبلغ عمر مقالتي فلم يفجأنا منه إلا ومعه الدرة قال فعلا صاحبى ضربا بالدرة أثقلت في الحرم وسفهت في الحكم قال ثم أقبل على قتلتي يا أمير المؤمنين لا أحل لك اليوم شيئا يحرم عليك منى ، فقال يا قبيصة بن جابر إنى أراك شاب السن فسيح الصدر بين اللسان وإن الشاب يكون فيه تسعة أخلاق حسنة وخلق سيئ فيفسد الخلق السيئ الأخلاق الحسنة ، فأياك وعثرات الشباب. وروى هشيم هذه القصة عن عبد الملك بن عمير عن قبيصة بنحوه ورواها أيضا عن حصين عن الشعبي عن قبيصة بنحوه وذكرها مرسله عن عمر بن بكر بن عبد الله المزنى ومحمد بن سيرين بنحوه وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا شعبة عن منصور عن أبي وائل أخبرني ابن جرير البجلي قال أصبت ظبيا وأنا محرم فدكرت ذلك لعمر فقال ائت رجلين من إخوانك فليحكما عليك فأنت عبد الرحمن وسعدا فحكما على بتيس أعفر وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا ابن عيينة عن مخارق عن طارق قال أوطأ أربد^(٢) طيبا فقتله وهو محرم فأنى عمر ليحكم عليه فقال له عمر احكم معى فحكما فيه جديا قد جمع الماء والشجر ثم قال عمر (يحكم به ذوا عدل منكم) وفي هذا دلالة على جواز كون القاتل أحد الحكمين كما قاله الشافعي وأحمد رحمهما الله واختلفوا هل تستأنف الحكومة في كل ما يصيبه المحرم فيجب أن يحكم فيه ذوا عدل وإن كان قد حكم في مثله الصحابة

(١) سنح : مرمن البين إلى اليسار ، وبرح عكسه ، (٢) أربد : اسم رجل .

أو يكتفى بأحكام الصحابة المتقدمة ؟ على قولين فقال الشافعي وأحمد يتبع في ذلك ما حكمت به الصحابة وجعلاه شرعا مقررًا لا يعدل عنه وما لم يحكم فيه الصحابة يرجع فيه إلى عدلين وقال مالك وأبو حنيفة بل يجب الحكم في كل فرد فرد سواء وجد للصحابة في مثله حكم أم لا لقوله تعالى (يحكم به ذوا عدل منكم) وقوله تعالى (هديا بالغ الكعبة) أى واصلا إلى الكعبة والمراد وصوله إلى الحرم بأن يذبح هناك ويفرق لحمه على مساكين الحرم وهذا أمر متفق عليه في هذه الصورة وقوله (أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما) أى إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال أو قلنا بالتخيير في هذا المقام بين الجزاء والاطعام والصيام كما هو قول مالك وأبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن وأحد قولي الشافعي والمشهور عن أحمد رحمهم الله لظاهر « أو » بأنها للتخيير والقول الآخر أنها على الترتيب فصورة ذلك أن يعدل إلى القيمة فيقوم الصيد المقتول عند مالك وأبي حنيفة وأصحابه وحامد وإبراهيم وقال الشافعي: يقوم مثله من النعم لو كان موجودا ثم يشتري به طعام فيصدق به فيصرف لكل مسكين مد منه عند الشافعي ومالك وفقهاء الحجاز واختاره ابن جرير وقال أبو حنيفة وأصحابه يطعم كل مسكين مدين وهو قول مجاهد وقال أحمد مد من حنطة أو مدان من غيره فإن لم يجد أو قلنا بالتخيير صام عن إطعام كل مسكين يوما وقال ابن جرير وقال آخرون يصوم مكان كل صاع يوما كما في جزاء المترفة بالخلق ونحوه، فإن الشارع أمر كعب بن عجرة أن يقسم فرقا بين ستة أو يصوم ثلاثة أيام والفرق ثلاثة أصع واختلفوا في مكان هذا الاطعام فقال الشافعي مكانه الحرم وهو قول عطاء وقال مالك يطعم في المكان الذي أصاب فيه الصيد أو أقرب الأماكن إليه وقال أبو حنيفة إن شاء أطعم في الحرم وإن شاء أطعم في غيره

﴿ ذكر أقوال السلف في هذا المقام ﴾

قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يحيى بن المغيرة حدثنا جرير عن منصور عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس في قول الله تعالى (فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما) قال إذا أصاب المحرم الصيد حكم عليه جزاؤه من النعم فإن لم يجد نظر كم ثمنه ثم قوم ثمنه طعاما فصام مكان كل نصف صاع يوما قال الله تعالى (أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما) قال إنما أريد بالطعام والصيام فإنه إذا وجد الطعام وجد جزاؤه ، ورواه ابن جرير عن طريق جرير وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما) إذا قتل المحرم شيئا من الصيد حكم عليه فيه فإن قتل ظيبا أو نحوه فعليه شاة تدبج بمكة فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فإن قتل أيلًا أو نحوه فعليه بقرة فإن لم يجد أطعم عشرين مسكينا فإن لم يجد صام عشرين يوما وإن قتل نعامة أو حمار وحش أو نحوه فعليه بدنة من الإبل فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكينا فإن لم يجد صام ثلاثين يوما رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وزاد : الطعام مدمد يشبعهم ، وقال جابر الجعفي عن عامر الشعبي وعطاء ومجاهد (أو عدل ذلك صياما) قالوا إنما الطعام مدمد لمن لا يبلغ الهدى رواه ابن جرير وكذا روى ابن جريج عن مجاهد وأسباط عن السدي أنها على الترتيب . وقال عطاء وعكرمة ومجاهد في رواية الضحاك وإبراهيم النخعي هي على الخيار وهي رواية الليث عن مجاهد عن ابن عباس واختار ذلك ابن جرير رحمه الله وقوله (ليدوق وبال أمره) أى أوجبنا عليه الكفارة ليدوق عقوبة فعله الذي ارتكب فيه المخالفة (عفا الله عما سلف) أى في زمان الجاهلية لمن أحسن في الإسلام واتبع شرع الله ولم يرتكب المعصية ثم قال (ومن عاد فينتقم الله منه) أى ومن فعل ذلك بعد تحريره في الإسلام وبلغ الحكم الشرعي إليه (فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام) قال ابن جريج قلت لعطاء ما (عفا الله عما سلف) قال عما كان في الجاهلية قال قلت وما (ومن عاد فينتقم الله منه) قال ومن عاد في الإسلام فينتقم الله منه وعليه مع ذلك الكفارة قال قلت فهل في العود من حد تعلمه ؟ قال لا ، قال قلت فترى حقا على الإمام أن يعاقبه ؟ قال لا هو ذنب أذنبه فيما بينه وبين الله عز وجل ولكن يفندي رواه ابن جرير وقيل معناه فينتقم الله منه بالكفارة قاله سعيد بن جبير وعطاء ، ثم الجمهور من السلف والخلف على أنه متى قتل المحرم

الصيد وجب الجزاء ولا فرق بين الأولى والثانية والثالثة وإن تكرر ما تكرر سواء الخطأ في ذلك والعمد وقال طلي
ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال من قتل شيئاً من الصيد خطأ وهو محرم يحكم عليه فيه كذا قتلته فإن قتلته عمداً يحكم عليه
فيه مرة واحدة فإن عاد يقال له ينتقم الله منك كما قال الله عز وجل وقال ابن جرير حدثنا عمرو بن علي حدثنا يحيى بن سعيد
وابن أبي عدي جميعاً عن هشام بن هوان بن حسان عن عكرمة عن ابن عباس فيمن أصاب صيداً يحكم عليه ثم عاد قال لا يحكم
عليه ينتقم الله منه وهكذا قال شريح ومجاهد وسعيد بن جبيرة والحسن البصري وإبراهيم النخعي ورواه ابن جرير ثم
اختار القول الأول وقال ابن أبي حاتم حدثنا العباس بن يزيد العبدى حدثنا المعتمر بن سليمان عن زيد أبي العلى عن
الحسن البصري أن رجلاً أصاب صيداً فتجوز عنه ثم عاد فأصاب صيداً آخر فنزلت نار من السماء فأحرقتة فهو قوله
(ومن عاد فينتقم الله منه) وقال ابن جرير في قوله (والله عزيز ذو انتقام) يقول عزذكره والله منيع في سلطانه لا يقهره
قاهر ولا يمنع من الانتقام من انتقم منه ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع لأن الخلق خلقه والأمر أمره العزة والمنعة
وقوله (ذوات انتقام) يعني أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه

﴿ أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا
اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ * جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْغُبَاةَ أُبُيَّتَ الْحُرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَ
ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿

قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في رواية عنه وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبيرة وغيرهم في قوله تعالى (أحل لكم
صيد البحر) يعني ما يصطاد منه طرياً (وطعامه) ما يزدود منه مليحاً يابساً ، وقال ابن عباس في الرواية المشهورة عنه صيده
ما أخذ منه حياً (وطعامه) ما لفظه ميتاً ، وهكذا روى عن أبي بكر الصديق وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو وأبي أيوب
الأنصاري رضي الله عنهم وعكرمة وأبي سلمة بن عبد الرحمن وإبراهيم النخعي والحسن البصري . قال سفيان بن عيينة
عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن أبي بكر الصديق أنه قال (طعامه) كل ما فيه ، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، وقال
ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن مغيرة عن ساءل قال : حدثت عن ابن عباس قال خطب أبو بكر الناس فقال (أحل
لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم) وطعامه ما قذف . قال وحدثنا يعقوب حدثنا ابن علية عن سليمان التيمي عن أبي مجلز
عن ابن عباس في قوله (أحل لكم صيد البحر وطعامه) قال (طعامه) ما قذف ، وقال عكرمة عن ابن عباس قال طعامه
ما لفظ من ميتة ورواه ابن جرير أيضاً وقال سعيد بن المسيب طعامه ما لفظه حياً أو حسر عنه فمات رواه ابن أبي حاتم ،
وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الوهاب حدثنا أيوب عن نافع أن عبد الرحمن بن أبي هريرة سأل ابن عمر فقال :
إن البحر قد قذف حيثاناً كثيرة ميتة أفناً كلها ؟ فقال لا تأكلوها فلما رجع عبد الله إلى أهله أخذ المصحف فقرأ سورة
المائدة فاتى هذه الآية (وطعامه متاعاً لكم وللسيارة) فقال اذهب فقل له فليأكله فانه طعامه وهكذا اختار ابن جرير
أن المراد بطعامه مامات فيه . قال وقد روى في ذلك خبر وإن بعضهم يرويه موقوفاً حدثنا هناد بن السرى قال حدثنا
عبدة بن سليمان عن محمد بن عمرو حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أحل لكم
لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم) قال «طعامه ما لفظه ميتاً» ثم قال وقد وقف بعضهم هذا الحديث على أبي هريرة .
حدثنا هناد حدثنا ابن أبي زائدة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة في قوله (أحل لكم صيد البحر وطعامه)
قال طعامه ما لفظه ميتاً . وقوله (متاعاً لكم وللسيارة) أي منفعة وقوتاً لكم أيها المخاطبون (وللسيارة) وهم جمع سيار
قال عكرمة لمن كان بحضرة البحر والسفر وقال غيره الطرى منه لمن يصطاده من حضرة البحر وطعامه مامات فيه

أو اصطيد منه وملح وقد يكون زاداً للمسافرين والنائين عن البحر وقد روى نحوه عن ابن عباس ومجاهد والسدي وغيرهم . وقد استدلل الجمهور على حل ميتته بهذه الآية الكريمة وبما رواه الإمام مالك بن أنس عن ابن وهب وابن كيسان عن جابر بن عبد الله قال بعث رسول الله ﷺ بعثاً قبل الساحل فأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وهم ثلثائة وأنا فيهم قال فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فنى الزاد فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش فجمع ذلك كله فكان مزودى تمر قال فكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً حتى فنى فلم يكن يصيبنا إلا تمر تمر فقال فقد وجدنا فقدها حين فنيته قال ثم اتينا إلى البحر فإذا حوت مثل الطرب فأكل كل منه ذلك الجيش ثمانى عشرة ليلة ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا ثم أمر براحلة فرحات وممرت تحتها فلم تصبهما وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وله طرق عن جابر وفي صحيح مسلم من رواية أبي الزبير عن جابر فإذا على ساحل البحر مثل الكتيب الضخم فأثيناها فإذا بدابة يقال لها العنبر قال : قال أبو عبيدة ميتة ثم قال لا نحن رسل رسول الله ﷺ وقد اضطررتم فكلوا قال فأقننا عليه شهراً ونحن ثلثائة حتى سمنا ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينية بالقلال الدهن ويقطع منه القدر كالثور قال ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في وقب عينية وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها ثم رحل أعظم بعير معنا فمر من تحته وتزودنا من لحمه وشائق فلما قدمنا المدينة أتيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا ذلك له فقال « هو رزق أخرجه الله لكم هل معكم من لحمه شيء فتطعمونا ؟ » قال فأرسلنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه فأكله وفي بعض روايات مسلم أنهم كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم حين وجدوا هذه السمكة فقال بعضهم هي واقعة أخرى وقال بعضهم بل هي قضية واحدة ولكن كانوا أولاً مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم بعثهم سرية مع أبي عبيدة فوجدوا هذه في سريتهم تلك مع أبي عبيدة والله أعلم ، وقال مالك عن صفوان بن سليم عن سعيد بن سلمة عن آل ابن الأزرق أن الغيرة بن أبي بردة وهو من بنى عبد الدار أخبره أنه سمع أبا هريرة يقول سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء فإن توشأنا به عطشنا أفترضاً بقاء البحر ؟ فقال رسول الله ﷺ « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » وقد روى هذا الحديث الإمامان الشافعي وأحمد بن حنبل وأهل السنن الأربع وصححه البخاري والترمذي وابن خزيمة وابن حبان وغيرهم وقد روى عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ بنحوه . وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه من طرق عن حماد بن سلمة حدثنا أبو المهزم هو يزيد بن سفيان سمعت أبا هريرة يقول : كنا مع رسول الله ﷺ في حج أو عمرة فاستقبلنا رجل جراد فجعلنا نضربهن بعصينا وسيطانا فقتلن فسقط في أيدينا قلنا ما نضع ونحن محرمون فسلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « لا بأس بصيد البحر » أبو المهزم ضعيف والله أعلم وقال ابن ماجه حدثنا هرون بن عبد الله الجمال حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا زياد بن عبد الله عن ثلاثة عن موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبيه عن جابر وأنس بن مالك أن النبي ﷺ كان إذا دعا على الجراد قال « اللهم أهلك كباراه واقتل صغاره وأفسد بيضه واقطع دابره ، وخذ بأفواهه عن معاشنا وأرزاقنا إنك صميع الدعاء » فقال خالد يارسول الله كيف تدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره : فقال « إن الجراد ثرة الحوت في البحر » قال هاشم قال زياد فحدثني من رأى الحوت ينثره تفرد به ابن ماجه وقد روى الشافعي عن سعيد بن جريج عن عطاء عن ابن عباس أنه أنكر على من يصيد الجراد في الحرم ، وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من الفقهاء إلى أنه تؤكل دواب البحر ولم يستثن من ذلك شيئاً قد تقدم عن الصديق أنه قال طعامه كل ما فيه . وقد استثنى بعضهم الضفادع وأباج ماسواها لما رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي من رواية ابن أبي ذئب عن سعيد بن خالد عن سعيد بن المسيب عن أبي عبد الرحمن بن عثمان التيمي أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الضفدع وللنسائي عن عبد الله بن عمرو قال نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع وقال تقيها تسبيح وقال آخرون يؤكل من صيد البحر السمك ولا يؤكل الضفدع واختلفوا فيما سواها فقيل يؤكل كل سائر ذلك وقيل لا يؤكل وقيل ما أكل شبهه من البرأكل مثله في البحر وما لا يؤكل شبهه لا يؤكل وهذه كلها وجوه في مذهب

الشافعي رحمه الله تعالى، وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى لا يؤكل ما مات في البحر كما لا يؤكل ما مات في البر لعموم قوله تعالى (حرمت عليكم الميتة) وقد ورد حديث بنحو ذلك فقال ابن مردويه حدثنا عبد الباقي هو ابن قانع حدثنا الحسين بن إسحق التستري وعبد الله بن موسى بن أبي عثمان قالا حدثنا الحسين بن يزيد الطحان حدثنا حفص بن غياث عن ابن أبي ذئب عن أبي الزبير عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما صدتموه وهو حي فأت فكلوه وما ألقى البحر ميتا طافيا فلا تأكلوه » ثم رواه من طريق إسماعيل بن أمية ويحيى بن أبي أنيسة عن أبي الزبير عن جابر به وهو منكرو ، وقد احتج الجمهور من أصحاب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل بحديث العنبر المتقدم ذكره وبحديث « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » وقد تقدم أيضا وروى الإمام أبو عبد الله الشافعي عن عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم عن أبيه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « أعطت لنا ميتتان ودمان فأما الميتتان فالحوت والجراد وأما الدمان فالكبد والطحال » ورواه أحمد وابن ماجه والدارقطني والبيهقي وله شواهد وروى موقوفا والله أعلم . وقوله (وحرمت عليكم صيد البر ما دمتم حرما) أى فى حال إحرامكم يحرم عليكم الاصطياد ففيه دلالة على تحريم ذلك فإذا اصطاد المحرم الصيد متعمدا أثم وغرم أو مخطئا غرم وحرمت عليه أكله لأنه فى حقه كالميتة وكذا فى حق غيره من الحرميين والمحلين عند مالك والشافعي فى أحد قوليه وبه يقول عطاء والقاسم وسالم وأبو سيف ومحمد بن الحسن وغيرهم فإن أكله أو شيثا منه فهل يلزمه جزاء ثان ؟ فيه قولان للعلماء (أحدهما) نعم قال عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطاء قال إن ذبحه ثم أكله فكفارته (والثانى) لا جزاء عليه فى أكله نص عليه مالك بن أنس قال أبو عمر بن عبد البر وعلى هذا مذاهب فقهاء الأمصار وجمهور العلماء ثم وجهه أبو عمر بما لو وطئ ثم وطئ ثم وطئ قبل أن يحد فإنما عليه حد واحد ، وقال أبو حنيفة عليه قيمة ما أكل ، وقال أبو ثور إذا قتل المحرم الصيد فعليه جزاؤه وحلال أكل ذلك الصيد إلا أننى أكرهه للذى قتله للخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « صيد البر لكم حلال وأتم حرم ما لم تصيدوه أو يصد لكم) وهذا الحديث سيأتى بيانه وقوله بإباحته للقاتل غريب وأما لغيره ففيه خلاف قد ذكرنا المنع عن تقدم وقال آخرون بإباحته لغير القاتل سواء المحرمون والمحلون لهذا الحديث والله أعلم .

وأما إذا صاد حلال صيدا فأهداه إلى محرم فقد ذهب ذاهبون إلى إباحته مطلقا ولم يستفصلوا بين أن يكون قد صاده من أجله أم لا حكى هذا القول أبو عمر بن عبد البر عن عمر بن الخطاب وأبي هريرة والزيبر بن العوام وكعب الأحمار ومجاهد وعطاء فى رواية وسعيد بن جبير وبه قال الكوفيون قال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيغ حدثنا بشر بن المفضل حدثنا سعيد عن قتادة أن سعيد بن المسيب حدثه عن أبي هريرة أنه سئل عن لحم صيد صاده حلال أيا أكله المحرم قال فأفناهم بأكله ثم لقي عمر بن الخطاب فأخبره بما كان من أمره فقال لو أفتيتهم بغير هذا لأوجعت لك رأسك ، وقال آخرون لا يجوز أكل الصيد للمحرم بالكلية ومنعوا من ذلك مطلقا لعموم هذه الآية الكريمة وقال عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس وعبد الكريم عن ابن أبي آسية عن طاوس عن ابن عباس أنه كره أكل الصيد للمحرم وقال هى مهمة يعنى قوله (وحرمت عليكم صيد البر ما دمتم حرما) قال وأخبرنى معمر عن الزهرى عن ابن عمر أنه كان يكره للمحرم أن يأكل من لحم الصيد على كل حال قال معمر وأخبرنى أيوب عن نافع عن ابن عمر مثله قال ابن عبد البر وبه قال طاوس وجابر بن زيد وإليه ذهب الثورى وإسحق بن راهويه فى رواية وقد روى نحوه عن على بن أبى طالب رواه ابن جرير من طريق سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب أن عليا كره أكل لحم الصيد للمحرم على كل حال ، وقال مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحق بن راهويه فى رواية والجمهور إن كان الحلال قد قصد المحرم بذلك الصيد لم يجز للمحرم أكله لحديث الصعب بن جثامة أنه أهدى للنبي ﷺ حمارا وحشيا وهو بالأبواء أو بودان فرده عليه فلما رأى ما فى وجهه قال « إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم » وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين وله ألفاظ كثيرة قالوا فوجهه أن النبي ﷺ ظن أن هذا إنما صاده من أجله

فرده لذلك فأما إذا لم يقصده بالاصطياد فانه يجوز له الأكل منه لحديث أبي قتادة حين صاد حمار وحش وكان حلالا لم يحرم وكان أصحابه محرمين فتوقفوا في أكله ثم سألوا رسول الله ﷺ فقال « هل كان منكم أحد أشار إليها أو أعان في قتلها ؟ » قالوا : لا ، قال « فاكلوا » وأكل منها رسول الله ﷺ وهذه القصة ثابتة أيضاً في الصحيحين باللفاظ كثيرة . وقال الإمام أحمد حدثنا سعيد بن منصور وقتيبة بن سعيد قال حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن عن عمرو بن أبي عمرو عن المطلب بن عبد الله بن حنطب عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ وقال قتيبة في حديثه سمعت رسول الله ﷺ يقول « صيد البر لكم حلال » قال سعيد - وأتم حرم - ما لم تصيده أو يصد لكم « وكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي جميعاً عن قتيبة وقال الترمذي لا نعرف للمطلب سماعاً من جابر ورواه الإمام محمد ابن إدريس الشافعي رضي الله عنه من طريق عمرو بن أبي عمرو عن مولا المطلب عن جابر ثم قال وهذا أحسن حديث روى في هذا الباب وأقيس وقال مالك رضي الله عنه عن عبد الله بن أبي بكر عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال رأيت عثمان بن عفان بالعرج وهو محرم في يوم صائف قد غطي وجهه بقطيفة أرجوان ثم أتى بلحم صيد فقال لأصحابه كلوا فقالوا أو لا تأكل أنت فقال إني لست كهيتكم إنما صيد من أجلى (١)

﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّلَ لَكُمْ تَسْأَلُهُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْآنُ تَبَدَّلَ لَكُمْ عَقَّا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ * قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ (قل) يا محمد (لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك) أى يا أيها الإنسان (كثرة الخبيث) يعنى أن القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار كما جاء في الحديث « ما قل وكفى خير مما كثر وألهى » وقال أبو القاسم البغوي في معجمه حدثنا أحمد بن زهير حدثنا الحوطي حدثنا محمد بن شعيب حدثنا معان بن رفاعة عن أبي عبد الملك علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري قال يا رسول الله ادع الله أن يرزقني ما لا فقال النبي ﷺ « قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه » (فاتقوا الله بأولى الأبواب) أى يا ذوى العقول الصحيحة المستقيمة وتجنبوا الحرام ودعوه واقنعوا بالحلال واكتفوا به لعلكم تفلحون أى في الدنيا والآخرة ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدل لكم تسؤكم) هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين ونهى لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءتهم وشق عليهم مماعها كما جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يبلغني أحد عن أحد شيئاً إني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » وقال البخاري حدثنا منذر بن الوليد بن عبد الرحمن الجارودي حدثنا أبي حدثنا شعبة عن موسى بن أنس عن أنس بن مالك قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلاً قط وقال فيها « لو تعلموا ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » قال فغطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوههم لهم حين قال فقال رجل من أبي قال « فلان » فنزلت هذه الآية (لا تسألوا عن أشياء) رواه النضر وروح بن عباد عن شعبة وقد رواه البخاري في غير هذا الموضع ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي من طرق عن شعبة بن الحجاج به وقال ابن جرير حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة في قوله (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدل لكم تسؤكم) الآية قال فحدثنا أن أنس بن مالك حدثه أن رسول الله ﷺ سأله حتى أخفوه بالمسألة فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر فقال « لا تسألوني اليوم عن شيء إلا بينته لكم » فأشفق أصحاب رسول الله ﷺ أن يكون بين يدي أمر قد حضر فجعلت لا ألتفت يمينا ولا شمالاً إلا وجدت كلا لافاً رأسه في ثوبه يبكي فأنشأ رجل كان يلاحى

(١) سقط من هذا الموضع تفسير الثلاث الآيات ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، وترك لها يباس في النسخة المكية .

فدعى إلى غير أبيه فقال يابى الله من أبى ؟ قال « أبوك حذافة » قال ثم قام عمر أو قال فأنشأ عمر فقال رضينا بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا عائداً بالله أو قال أعوذ بالله من شر الفتن قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لم أر في الخير والشر كالיום قط ، صورت لى الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط » أخرجه من طريق سعيد ورواه معمر عن الزهري عن أنس بن مالك قال أقرى ما منه قال الزهري فقالت أم عبد الله بن حذافة ما رأيت ولداً أعق منك قط أكنت تأمن أن تكون أمك قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية فتفضحها على رؤوس الناس فقال والله لو ألحقنى بعبد أسود للحقته وقال ابن جرير أيضاً حدثنا الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا قيس عن أبي حصين عن أبي صالح عن أبي هريرة قال خرج رسول الله ﷺ وهو غضبان سحار وجهه حتى جلس على المنبر فقام إليه رجل فقال أين أبى قال فى « النار » فقام آخر فقال من أبى فقال « أبوك حذافة » فقام عمر بن الخطاب فقال رضينا بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً وبالقرآن إماماً إنا يارسول الله حديثو عهد بجاهلية وشرك والله أعلم من آباؤنا قال فسكن غضبه ونزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) الآية اسناده جيد وقد ذكر هذه القصة مرسل غير واحد من السلف منهم أسباط عن السدى أنه قال فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) قال غضب رسول الله ﷺ يوماً من الأيام فقام خطيباً فقال « ساؤنى فإنكم لا تسألونى عن شيء إلا أنبأتكم به » فقام إليه رجل من قريش من بنى سهم يقال له عبد الله بن حذافة وكان يظعن فيه فقال يارسول الله من أبى فقال أبوك فلان فدعاه لأبيه فقام إليه عمر بن الخطاب فقبل رجله وقال يارسول الله رضينا بالله ربا وبك نبياً وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً فاعف عنا عفا الله عنك فلم يزل به حتى رضى فيومئذ قال « الولد للفراش وللعاهر الحجر » ثم قال البخارى حدثنا الفضل بن سهل حدثنا أبو النضر حدثنا أبو خيثمة حدثنا أبو الجويرية عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء فيقول الرجل من أبى ويقول الرجل تضل ناقه أين ناقتى فأنزل الله فيهم هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) حتى فرغ من الآية كلها تنفرد به البخارى وقال الإمام أحمد حدثنا منصور بن وردان الأسدى حدثنا على بن عبد الأعلى عن أبيه عن أبي البختري وهو سعيد بن فيروز عن على قال لما نزلت هذه الآية (والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً) قالوا يارسول الله فى كل عام فسكت فقالوا فى كل عام فسكت قال ثم قالوا فى كل عام فقال « لا ولو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعت » فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) الآية وكذا رواه الترمذى وابن ماجه من طريق منصور ابن وردان به وقال الترمذى غريب من هذا الوجه وسمعت البخارى يقول أبو البختري لم يدرك علياً وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا عبد الرحيم بن سليمان عن إبراهيم بن مسلم الهجرى عن ابن عياض عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله كتب عليكم الحج » فقال رجل أفى كل عام يارسول الله ؟ فأعرض عنه حتى عاد مرتين أو ثلاثاً فقال « من السائل ؟ » فقال فلان فقال « والذى نفسى بيده لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت عليكم ما أطقتموه ولو تركتموه لكفرتم » فأنزل الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) حتى ختم الآية ثم رواه ابن جرير من طريق الحسين بن واقد عن محمد بن زياد عن أبي هريرة وقال فقام محسن الأسدى وفى رواية من هذه الطريق عكاشة بن محسن وهو أشبه إبراهيم بن مسلم الهجرى ضعيف وقال ابن جرير أيضاً حدثني زكريا بن يحيى بن أبان المصرى حدثنا أبو يزيد عبد العزيز أبى العمر حدثنا ابن مطيع معاوية بن يحيى عن صفوان بن عمرو حدثني سليم بن عامر قال سمعت أبا أمانة الباهلى يقول قام رسول الله ﷺ فى الناس فقال « كتب عليكم الحج » فقام رجل من الأعراب فقال أفى كل عام ؟ قال فعلا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسكت وأغضب واستغضب ومكث طويلاً ثم تكلم فقال « من السائل » فقال الأعرابى أناذا فقال « ويحك ماذا يؤمنك أن أقول نعم والله لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لكفرتم ألا إنه إنما أهلكم الذين من قبلكم أئمة الحرج والله لو أنى أحللت لكم جميع ما فى الأرض وحرمت عليكم منها موضع خف لوقعتم فيه » قال فأنزل الله عند ذلك (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا

عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) الى آخر الآية في إسناده ضعف وظاهر الآية النهي عن السؤال عن الأشياء التي إذا علمها الشخص ساءته فالأولى الاعراض عنها وتركها وما أحسن الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال حدثنا حجاج قال سمعت إسرائيل بن يونس عن الوليد بن أبي هاشم مولى الهمداني عن زيد بن زائد عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « لا يبلغني أحد عن أحد شيئا فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » الحديث وقد رواه أبو داود والترمذي من حديث إسرائيل قال أبو داود عن الوليد وقال الترمذي عن إسرائيل عن السدي عن الوليد بن أبي هاشم به ثم قال الترمذي غريب من هذا الوجه وقوله تعالى (وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) أى وإن تسألوا عن هذه الأشياء التي نهيت عن السؤال عنها حين ينزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم تبين لكم (وذلك على الله يسير) ثم قال (عفا الله عنها) أى عما كان منكم قبل ذلك (والله غفور حلیم) وقيل المراد بقوله (وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) أى لاتسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها فلعله قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضييق وقد ورد في الحديث « أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته » ولكن إذا نزل القرآن بها مجمل فسالتم عن بيانها بينت لكم حينئذ لاحتياجكم اليها (عفا الله عنها) أى ما لم يذكره في كتابه فهو مما عفا عنه فاسكتوا أتم عنها كما سكنت عنها وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال « ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم » وفي الحديث الصحيح أيضاً « ان الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها » ثم قال تعالى (قد سألتهم عن قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين) أى قد سألتهم هذه المسائل الممنوعة عنها قوم من قبلكم فأجيبوا عنها ثم لم يؤمنوا بها فأصبحوا بها كافرين أى بسببها أى بينت لهم فلم ينتفعوا بها لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد بل على وجه الاستهزاء والعناد وقال العوفي عن ابن عباس في الآية أن رسول الله ﷺ أذن في الناس فقال « يا قوم كتب عليكم الحج » فقام رجل من بني أسد فقال يا رسول الله أفى كل عام فأغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا فقال « والذى نفسى بيده لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ما استطعتم وإذا لكفرتم فاتركوني ما تركتكم وإذا أمرتكم بشيء فافعلوا وإذا نهيتكم عن شيء فاتمروا عنه » فأنزل هذه الآية تنهاهم أن يسألوا عن مثل الذي سألت عنه النصارى من المائدة فأصبحوا بها كافرين فنهى الله عن ذلك وقال لاتسألوا عن أشياء ان نزل القرآن فيها بتعليق ساءكم ذلك ولكن انتظروا فاذا نزل القرآن فإنكم لاتسألون عن شيء الا وجدتم بيانه رواه ابن جرير وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) قال لما نزلت آية الحج نادى النبي صلى الله عليه وسلم في الناس فقال « يا أيها الناس إن الله قد كتب عليكم الحج فحجوا » فقالوا يا رسول الله أعاما واحدا أم كل عام ؟ فقال « لا بل عاما واحدا ولو قلت كل عام لوجبت ولو وجبت لكفرتم » ثم قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء) إلى قوله (ثم أصبحوا بها كافرين) رواه ابن جرير وقال خفيف عن مجاهد عن ابن عباس (لاتسألوا عن أشياء) قال هي البحيرة والوصيلة والسائبة والحام ألا ترى أنه قال بعدها (ما جعل الله من بحيرة) ولا كذا ولا كذا قال وأما عكرمة فقال إنهم كانوا يسألونه عن الآيات فنهوا عن ذلك ثم قال (قد سألتهم عن قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين) رواه ابن جرير ، يعنى عكرمة رحمه الله أن المراد بهذا النهي عن سؤال وقوع الآيات كما سألت قريش أن يجرى لهم أنهارا وأن يجعل لهم الصفا ذهباً وغير ذلك وكما سألت اليهود أن ينزل عليهم كتابا من السماء وقد قال الله تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً) وقال تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون * ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحسبنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله

ولكن أكثرهم يجهلون

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿

قال البخارى حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا إبراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب قال البحيرة التي يمنع درها للطواغيت فلا يخلها أحد من الناس والسائبة كانوا يسيبونها لآلهم لا يحمل عليها شيء قال وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار كان أول من سب السوائب » والوصيلة الناقة البكر تبكر في أول نتاج الابل ثم تنثى بعد بأنثى وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحدهما بالأخرى ليس بينهما ذكر ، والحام فحل الابل يضرب الضراب المعداد فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه عن الحمل فلم يحمل عليه شيء وسموه الحامى وكذا رواه مسلم والنسائي من حديث إبراهيم بن سعد به ثم قال البخارى وقال لى أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال سمعت سعيدا يخبر بهذا قال وقال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه ورواه ابن الهاد عن ابن شهاب عن سعيد عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الحاكم أراد البخارى أن يزيد بن عبد الله بن الهاد رواه عن عبد الوهاب بن بخت عن الزهري كذا حكاه شيخنا أبو الحجاج المزى في الأطراف وسكت ولم ينسبه عليه وفيما قاله الحاكم نظر فان الإمام أحمد وأبا جعفر بن جرير روياه من حديث الليث بن سعد عن ابن الهاد عن الزهري نفسه والله أعلم ، ثم قال البخارى حدثنا محمد بن أبي يعقوب أبو عبد الله الكرماني حدثنا حسان بن إبراهيم حدثنا يونس عن الزهري عن عروة أن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا ورأيت عمرا يجر قصبه وهو أول من سب السوائب ، تفرد به البخارى وقال ابن جرير حدثنا هناد حدثنا يونس بن بكير حدثنا محمد بن إسحق حدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبي صالح عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأكرم بن الجون « يا أكرم رأيت عمرو بن لحي بن قعدة بن خندف يجر قصبه في النار فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا به منك » فقال أكرم تخشى أن يضرنى شبهه يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ « لا ، إنك مؤمن وهو كافر إنه أول من غير دين إبراهيم وبحر البحيرة وسب السائبة وسمى الحامى » ثم رواه عن هناد عن عبدة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه أو مثله ، ليس هذان الطريقان في الكتب وقال الإمام أحمد حدثنا عمرو بن مجمع حدثنا إبراهيم الهجرى عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال « إن أول من سب السوائب وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر وإنى رأيته يجر أمعاءه في النار » تفرد به أحمد من هذا الوجه وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله ﷺ « إني لأعرف أول من سب السوائب وأول من غير دين إبراهيم عليه السلام » قالوا ومن هو يا رسول الله ؟ قال « عمرو بن لحي أخو بني كعب ، لقد رأيته يجر قصبه في النار تؤذى رائحته أهل النار وإنى لأعرف أول من بحر البحائر » قالوا ومن هو يا رسول الله قال « رجل من بني مدلج كانت له نائتان فجذع آذانهما وحرم ألبانهما ثم شرب ألبانهما بعد ذلك فلقد رأيته في النار وهما يعضانه بأفواههما ويطأانه بأخفافهما » فعمرو هذا هو ابن لحي بن قعدة أحد رؤساء خزاعة الذين ولوا البيت بعد جرهم وكان أول من غير دين إبراهيم الخليل فأدخل الأصنام إلى الحجاز ودعا الرعاع من الناس إلى عبادتها والتقرب بها وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها كذا ذكره الله تعالى في سورة الأنعام عند قوله تعالى (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا) إلى آخر الآيات في ذلك فأما البحيرة فقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما هي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن

نظروا إلى الخامس فإن كان ذكرا ذبحوه فأكله الرجال دون النساء وإن كان أنثى جددوا آذانها فقالوا هذه بحيرة وذكر السدى وغيره قريبا من هذا، وأما السائبة فقال مجاهد هي من الغنم نحو ما فسر من البحيرة إلا أنها ما ولدت من ولد كان بينها وبينه ستة أولاد كانت على هيتها فإذا ولدت السابع ذكر أو ذكرين ذبحوه فأكله رجالهم دون نسائهم وقال محمد بن إسحق: السائبة هي الناقة إذا ولدت عشر إناث من الولد ليس بينهن ذكر سببت فلم تترك ولم يحز وبرها ولم يحلب لبنها إلا لضيف وقال أبو روق السائبة كان الرجل إذا خرج فقضيت حاجته سبب من ماله ناقة أو غيرها فجعلها للطواغيت فما ولدت من شيء كان لها وقال السدى كان الرجل منهم إذا قضيت حاجته أو عوفي من مرض أو أكثر ماله سبب شيئا من ماله للأوثان فمن عرض له من الناس عوقب بعقوبة في الدنيا

وأما الوصية فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هي الشاة إذا نتجت سبعة أبطن نظروا إلى السابع فإن كان ذكرا وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء وإن كان أنثى استحيوها وإن كان ذكرا وأنثى في بطن واحد استحيوها وقالوا وصلته أخته فحرمته عليا رواه ابن أبي حاتم وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب (ولا وصيلة) قال فالوصيلة من الإبل كانت الناقة تبتكر بالأثني ثم ثلث بأثني فسموها الوصيلة ويقولون وصلت أنثيين ليس بينهما ذكر فكانوا يجددونها للطواغيتهم وكذا روى عن الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى وقال محمد بن إسحق الوصيلة من الغنم إذا ولدت عشر إناث في خمسة أبطن توأمين توأمين في كل بطن سميت الوصيلة وتركت فما ولدت بعد ذلك من ذكر أو أنثى جعلت للذكور دون الإناث وإن كانت ميتة اشتركوا فيها، وأما الحامى فقال العوفي عن ابن عباس قال كان الرجل إذا لقي فحله عشر اقل حام فأركوه وكذا قال أبو روق وقتادة وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وأما الحام فالحمل من الإبل إذا ولد لولده قالوا حمى هذا ظهره فلا يحملون عليه شيئا ولا يحزون له وبراً ولا يمنعونه من حمى رعى ومن حوض يشرب منه وإن كان الحوض لغير صاحبه وقال ابن وهب سمعت مالكا يقول أما الحام فمن الإبل كان يضرب في الإبل فإذا انقضى ضرابه جعلوا عليه ريش الطواويس وسيبوه وقد قيل غير ذلك في تفسير هذه الآية وقد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم من طريق أبي إسحق السبيعي عن أبي الأحوص الجشمي عن أبيه مالك بن نضلة قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في خلقان من الثياب فقال لي «هل لك من مال؟» قلت نعم قال «من أي المال؟» قال قلت من كل المال من الإبل والغنم والحيل والرقائق قال «فإذا آتاك الله مالا فكثر عليك» ثم قال «تنتج ابلك وافية آذانها؟» قال قلت نعم وهل تنتج الإبل إلا كذلك؟ قال «فعلك تأخذ موسى فتقطع آذان طائفة منها تقول هذه خير وتشق آذان طائفة منها تقول هذه حرم» قلت نعم قال «فلا تفعل إن كل ما آتاك الله لك حل» ثم قال (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام) أما البحيرة فهي التي يجددون آذانها فلا تنتفع امرأته ولا بناته ولا أحد من أهل بيته بصوفها ولا أوبارها ولا أشعارها ولا ألبانها فإذا ماتت اشتركوا فيها.

وأما السائبة فهي التي يسيبون لأهلتهم ويذهبون إلى آهلتهم فيسيبونها، وأما الوصيلة فالشاة تلد ستة أبطن فإذا ولدت السابع جددت وقطع قرننها فيقولون قد وصلت فلا يذبحونها ولا تضرب ولا تمنع مهما وردت على حوض هكذا يذكر تفسير ذلك مدرجا في الحديث

وقد روى من وجه آخر عن أبي إسحق عن أبي الأحوص عوف بن مالك من قوله وهو أشبه وقد روى هذا الحديث الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة عن أبي الزعراء عمرو بن عمرو عن عمه أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة عن أبيه به وليس فيه تفسير هذه والله أعلم.

وقوله تعالى (ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرم لا يعقلون) أي ما شرع الله هذه الأشياء ولا هي عنده قربة ولكن المشركون افتروا ذلك وجعلوه شرعا لهم وقربة يتقربون بها إليه وليس ذلك يحصل لهم بل هو وبال عليهم (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) أي إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه وترك ما حرمه قالوا يكفيننا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمساالك قال الله تعالى

(أولو كان آبؤهم لا يعلمون شيئاً) أى لا يفهمون حقاً ولا يعرفونه ولا يهتدون إليه فكيف يتبعونهم والحالة هذه لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم وأضل سبيلاً

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم وعجزهم لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس سواء كان قريباً منه أو بعيداً . قال العوفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية يقول تعالى إذا ما العبد أطاعني فيما أمرته به من الحلال ونهيته عنه من الحرام فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به وكذا روى الوالي عنه وهكذا قال مقاتل بن حيان فقله تعالى (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) نصب على الإغراء (لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون) أى فيجازى كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر وليس فيها دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كان فعل ذلك ممكناً . وقد قال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا زهير بن زهير عن ابن معاوية حدثنا إسماعيل بن أبي خالد حدثنا قيس قال قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) لا يضركم من ضل إذا اهتديتم (وإنكم تضعونها على غير موضعها وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يعبرونه يوشك الله عز وجل أن يجمعهم بعقابه» قال وسمعت أبا بكر يقول يا أيها الناس إياكم والكذب فإن الكذب بجانب الإيمان . وقد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة وابن حبان في صحيحه وغيرهم من طرق كثيرة عن جماعة كثيرة عن إسماعيل بن أبي خالد به متصلاً مرفوعاً ومنهم من رواه عنه به موقوفاً على الصديق وقد رجح رفعه الدارقطني وغيره وذكرنا طرقه والكلام عليه مطولاً في مسند الصديق رضي الله عنه . وقال أبو عيسى الترمذي حدثنا سعيد بن يعقوب الطائفي حدثنا عبد الله بن المبارك حدثنا عتبة بن أبي حكيم حدثنا عمرو ابن جارية اللخمي عن أبي أمية الشعباني قال أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له كيف تصنع في هذه الآية ؟ قال أية آية قلت قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) قال أما والله لقد سألت عنها خيراً سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «بل اتصروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحماً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام فإن من ورائكم أياماً الصابرين فيهن مثل القابض على الجر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم» قال عبد الله بن المبارك وزاد غير عتبة قيل يا رسول الله أجر خمسين رجلاً منا أو منهم قال «بل أجر خمسين منكم» ثم قال الترمذي هذا حديث حسن غريب صحيح وكذا رواه أبو داود ومن طريق ابن المبارك ورواه ابن ماجه وابن جرير وابن أبي حاتم عن عتبة بن أبي حكيم

وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الحسن أن ابن مسعود رضي الله عنه سأله رجل عن قول الله (عليكم أنفسكم) لا يضركم من ضل إذا اهتديتم فقال إن هذا ليس بزمانها إنما اليوم مقبولة ولكنه قديوشك أن يأتي زمانها تأمرون فيصنع بكم كذا وكذا أو قال فلا يقبل منكم فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل . ورواه أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالية عن ابن مسعود في قوله (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل) الآية قال كانوا عند عبد الله ابن مسعود جلوساً فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه فقال رجل من جلساء عبد الله ألا أقوم فأمرها بالمعروف وأنهاها عن المنكر فقال آخر إلى جنبه عليك بنفسك فإن الله يقول (عليكم أنفسكم) الآية قال فسمعها ابن مسعود فقال له لم يجيء تأويل هذه بعد إن القرآن أنزل حيث أنزل ومنه آى قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ومنه آى قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنه آى قد وقع تأويلهن بعد النبي صلى الله

عليه وسلم ييسر ومنه آى يقع تأويلهن بعد اليوم ومنه آى تأويلهن عند الساعة ما ذكر من الساعة ومنه آى يقع تأويلهن يوم الحساب ما ذكر من الحساب والجنة والنار فما دامت قلوبكم واحدة وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعاً ولم يندق بعضكم بأس بعض فأمرُوا وانهاوا وإذا اختلفت القلوب والأهواء وألبستم شيعاً وذاق بعضكم بأس بعض فأمرُوا ونفسه وعند ذلك جاءنا تأويل هذه الآية رواه ابن جرير

وقال ابن جرير حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا شعبة بن سوار حدثنا الربيع بن صبيح عن سفیان بن عقال قال قيل لابن عمر لو جلست في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه فإن الله قال (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) فقال ابن عمر إنها ليست لى ولا لأصحابى لأن رسول الله ﷺ قال « ألا فليبلغ الشاهد الغائب » فكنا نحن الشهود وأنتم الغيب ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم وقال أيضا حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر وأبو عاصم قالوا حدثنا عوف عن سوار بن شبيب قال كنت عند ابن عمر إذ أتاه رجل جليد في العين شديد اللسان فقال يا أبا عبد الرحمن نفر ستة كلهم قد قرأ القرآن فأسرع فيه وكلهم مجتهد لا يألو وكلهم بغض إليه أن يأتي دناءة إلا الخير وهم في ذلك يشهد بعضهم على بعض بالشرك فقال رجل من القوم وأى دناءة تريد أكثر من أن يشهد بعضهم على بعض بالشرك ؟ فقال الرجل إني لست إياك أسأل إنما أسأل الشيخ فأعاد على عبد الله الحديث فقال عبد الله لعلك ترى لا أباك أنى سأمرك أن تذهب ففتقاتهم عظيم وانهم وإن عصوك فعليك بنفسك فإن الله عز وجل يقول (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) الآية . وقال أيضا حدثني أحمد بن المقدم حدثنا المعتمر بن سليمان سمعت أبا حدثنا قتادة عن أبي مازن قال انطلقت على عهد عثمان إلى المدينة فإذا قوم من المسلمين جلوس فقرأ أحدهم هذه الآية (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل) فقال أكثرهم لم يجيء تأويل هذه الآية اليوم وقال حدثنا القاسم حدثنا الحسن حدثنا ابن فضالة عن معاوية بن صالح عن جبير بن نفير قال كنت في حلقة فيها أصحاب رسول الله ﷺ وإني لأصغر القوم فتذكروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقلت أنا أليس الله يقول في كتابه (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) ؟ فأقبلوا على بلسان واحد وقالوا تنزع آية من القرآن لاتعرفها ولا تدري ما تأويلها فتمنيت أنى لم أكن تكلمت وأقبلوا يتحدثون فلما حضر قيامهم قالوا إنك غلام حديث السن وإنك نزع آية ولا تدري ماهى وعسى أن تدرك ذلك الزمان، إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك بنفسك لا يضرك من ضل إذا اهتديت ، وقال ابن جرير حدثنا علي بن سهل حدثنا ضمرة بن ربيعة قال تلا الحسن هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) فقال الحسن الحمد لله بها والحمد لله عليها ما كان مؤمن فيما مضى ولا مؤمن فيما بقى إلا وإلى جنبه منافق يكره عمله . وقال سعيد بن المسيب إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر فلا يضرك من ضل إذا اهتديت رواه ابن جرير وكذا روى من طريق سفیان الثوري عن أبي العيس عن أبي البخترى عن حذيفة مثله وكذا قال غير واحد من السلف . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام بن خالد الدمشقي حدثنا الوليد حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن كعب في قوله (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) قال إذا هدمت كنيسة دمشق فجعلت مسجداً وظهر لبس العصب فحيثما تأويل هذه الآية

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهِدُوا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُوهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا نُشْتَرِ بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّآ إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ * فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَتَأَخَّرَا يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَٰئِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْتُمَا

أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا أَعْتَدَيْنَا إِنْ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَحْتَفُوا أَنْ تَرُدَّ أَيْمَنُهُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز قيل إنه منسوخ رواه العوفي عن ابن عباس وقال حماد بن أبي سليمان عن إبراهيم إنها منسوخة وقال آخرون وهم الأكثرون فيها قاله ابن جرير بل هو محكم ومن ادعى نسخه فعليه البيان فقلوه تعالى (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان (هذا هو الخبر^(١)) لقوله شهادة بينكم فقل تقديره شهادة اثنين حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وقيل دل الكلام على تقدير أن يشهد اثنان وقوله تعالى (ذوا عدل) وصف الاثنين بأن يكونا عدلين وفوله (منكم) أى من المسلمين قاله الجمهور قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضى الله عنه في قوله (ذوا عدل منكم) قال من المسلمين رواه ابن أبي حاتم ثم قال وروى عن عبيدة وسعيد بن المسيب والحسن ومجاهد ويحيى بن يعمر والسدى وقتادة ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم نحو ذلك قال ابن جرير وقال آخرون عن ذلك (ذوا عدل منكم) أى من أهل الموصى وذلك قول روى عن عكرمة وعبيدة وعدة غيرها ، وقوله (أو آخران من غيركم) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا سعيد بن عوف حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير قال : قال ابن عباس في قوله (أو آخران من غيركم) قال من غير المسلمين يعنى أهل الكتاب ثم قال وروى عن عبيدة وشريح وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين ويحيى ابن يعمر وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير والشعي وإبراهيم النخعي وقتادة وأبي مجاز والسدى ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم نحو ذلك وعلى ما حكاه ابن جرير عن عكرمة وعبيدة في قوله منكم أن المراد من قبيلة الموصى يكون المراد ههنا (أو آخران من غيركم) أى من غير قبيلة الموصى وروى ابن أبي حاتم مثله عن الحسن البصرى والزهرى رحمهما الله ، وقوله تعالى (إن أتم ضربتم في الأرض) أى سافرتهم (فأصابكم مصيبة الموت) وهذان شرطان لجواز اشتشهاد المسلمين عند فقد المؤمنين أن يكون ذلك في سفر وأن يكون في وصية كما صرح بذلك شريح الفاضى ، قال ابن جرير حدثنا عمرو بن علي حدثنا أبو معاوية ووكيع قال حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن شريح قال لا تجوز شهادة اليهود والنصارى إلا في سفر ولا تجوز في سفر إلا في الوصية ثم رواه عن أبي كريب عن أبي بكر ابن عياش عن أبي إسحق السبيعي قال : قال شريح فذكر مثله وروى نحوه عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى وهذه المسألة من أفراد وخالفه الثلاثة فقالوا لا تجوز شهادة أهل الذمة على المسلمين وأجازها أبو حنيفة فيما بين بعضهم بعضاً ، وقال ابن جرير حدثنا عمرو بن علي حدثنا أبو داود حدثنا صالح بن أبي الأخضر عن الزهرى قال مضت السنة أن لا تجوز شهادة الكافر في حضر ولا سفر إنما هي في المسلمين وقال ابن زيد نزلت هذه الآية في رجل توفى وليس عنده أحد من أهل الإسلام وذلك في أول الإسلام والأرض حرب والناس كفار وكان الناس يتوارثون بالوصية ثم نسخت الوصية وفرضت الفرائض وعمل الناس بها رواه ابن جرير وفي هذا نظر والله أعلم ، وقال ابن جرير اختلف في قوله (شهادة بينكم) إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم) هل المراد به أن يوصى إليهما أو يشهدهما على قولين (أحدهما) أن يوصى إليهما كما قال محمد بن إسحق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط قال سئل ابن مسعود رضى الله عنه عن هذه الآية قال هذا رجل سافر ومعه مال فأدركه قدره فان وجد رجلين من المسلمين دفع إليهما تركته وأشهد عليهما عدلين من المسلمين رواه ابن أبي حاتم وفيه انقطاع (والقول الثاني) انهما يكونان شاهدين وهو ظاهر سياق الآية الكريمة فان لم يكن وصى ثالث معهما اجتمع فيهما الوصفان الوصاية والشهادة كما في قصة نعيم الدارى وعدى بن بداء كما سيأتى ذكرها آنفاً إن شاء الله وبه التوفيق ، وقد استشكل ابن جرير كونهما شاهدين قال لأننا لا نعلم حكماً يخلف فيه الشاهد وهذا لا يمنع الحكم الذى تضمنته هذه الآية الكريمة وهو حكم مستقل بنفسه لا يلزم أن يكون جارياً على قياس جميع الأحكام على أن هذا حكم

(١) قوله هذا هو الخبر : كذا بالنسخ التى بأيدينا خروا .

خاص بشهادة خاصة في محل خاص وقد اغتفر فيه من الأمور ما لم يغتفر في غيره فإذا قامت قرينة الرية حلف هذا الشاهد بمقتضى ما دلت عليه هذه الآية الكريمة وقوله تعالى (تحبسونهما من بعد الصلاة) قال العوفي عن ابن عباس يعني صلاة العصر وكذا قال سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وقتادة وعكرمة ومحمد بن سيرين وقال الزهري يعني صلاة المسلمين وقال السدي عن ابن عباس يعني صلاة أهل دينهما وروى عن عبد الرزاق عن أيوب عن ابن سيرين عن عبيدة وكذا قال إبراهيم وقتادة وغير واحد ، والمقصود أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتماع الناس فيها بحضرتهم (فيقسمان بالله) أى فيحلفان بالله (إن ارتبتم) أى إن ظهرت لكم منهما رية أنهما خانا أو غلا فيحلفان حينئذ بالله (لا نشترى به) أى بأيماننا قالة مقاتل بن حيان (ثمننا) أى لا نعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الفانية الزائلة (ولو كان ذا قرني) أى ولو كان المشهود عليه قريباً لنا لا نحايه (ولا نكتم شهادة الله) أضافها إلى الله تشريفاً لها وتعظيماً لأمرها وقرأ بعضهم (ولا نكتم شهادة الله) مجروراً على القسم رواها ابن جرير عن عامر الشعبي وحكى عن بعضهم أنه قرأها (ولا نكتم شهادة الله) والقراءة الأولى هي المشهورة (إنا إذا لمن الآمين) أى إن فعلنا شيئاً من ذلك من تخريف الشهادة أو تبديلها أو تغييرها أو كتمانها بالسكينة ، ثم قال تعالى (فان عثر على أنهما استحقا إثماً) أى فان اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين (أنهما خانا أو غلا شيئاً من المال الموصى به إليهما وظهر عليهما بذلك) فآخراهم يقومان مقامهما من الدين استحق عليهم الأوليان) هذه قراءة الجمهور (استحق عليهم الأوليان) وروى عن علي وأبي الحسن البصري أنهم قرءوها (استحق عليهم الأوليان) وروى الحاكم في المستدرک من طريق إسحق بن محمد القروي عن سليمان بن بلال عن جعفر ابن محمد عن أبيه عن عبيد الله بن أبي رافع عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أن النبي ﷺ قرأ (من الدين استحق عليهم الأوليان) ثم قال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وقرأ بعضهم ومنهم ابن عباس (من الدين استحق عليهم الأوليين) وقرأ الحسن (من الدين استحق عليهم الأوليان) حكاه ابن جرير فعلى قراءة الجمهور يكون المعنى بذلك أى متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خياتهما فليقم اثنتان من الورثة المستحقين للتركة وليكونا من أولى من يرث ذلك المال (فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما) أى لقولنا إنهما خانا أحق وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة (وما اعتدنا) أى فيما قلنا فيهما من الحيانة (إنا إذا لمن الظالمين) أى إن كنا قد كذبنا عليهما وهذا التحليف للورثة والرجوع إلى قولهما والحالة هذه كما يحلف أولياء المقتول إذا ظهر لوث في جانب القاتل فيقسم المستحقون على القاتل فيدفع برمته إليهم كما هو مقرر في باب القسامة من الأحكام ، وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة فقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا الحسين بن زياد حدثنا محمد بن سلمة عن محمد بن إسحق عن أبي النضر عن بادام يعني أباصالح مولى أم هانئ بنت أبي طالب عن ابن عباس عن تميم الداري في هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت) قال برئ الناس منها غيرى وغير عدى بن بداء وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام فأتيا الشام لتجارتهما وقدم عليهما مولى لبنى سهم يقال له بديل بن أبى مريم بتجارة معه جام من فضة يريد به الملك وهو أعظم تجارته ففرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله قال تميم فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم واقتسمناه أنا وعدى فلما قدمنا إلى أهله هرعنا إليهم ما كان معنا وفقدوا الجام فسالونا عنه فقلنا ما ترك غير هذا وما دفع إلينا غيره قال تميم فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة تأملت من ذلك فأثبت أهله فأخبرتهم الخبر ودفعت إليهم خمسمائة درهم وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها فوثبوا عليه فأمرهم النبي أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه فحلف فنزلت (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم) إلى قوله (فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما) فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم فحلفا فنزعت الخمسمائة من عدى بن بداء وهكذا رواه أبو عيسى الترمذى وابن جرير كلاهما عن الحسن ابن أحمد بن أبي شبيب الحراني عن محمد بن سلمة عن محمد بن إسحق به فذكره وعنده فأتوا به رسول الله ﷺ فسألهم البينة فلم يجدوا فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه فحلف فأنزله الله هذه الآية إلى قوله (أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم) فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا فنزعت الخمسمائة من عدى بن بداء ، ثم قال هذا حديث غريب

وليس إسناده بصحيح وأبو النضر الذي روى عنه محمد بن إسحق هذا الحديث هو عندى محمد بن السائب الكلبي
يكفى أبا النضر وقد تركه أهل العلم بالحديث وهو صاحب التفسير ممعت محمد بن إسماعيل يقول محمد بن السائب الكلبي
يكفى أبا النضر ثم قال ولا نعرف لأبي النضر رواية عن أبي صالح مولى أم هانئ ، وقد روى عن ابن عباس شيء من
هذا على الاختصار من غير هذا الوجه حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا يحيى بن آدم عن ابن أبي زائدة عن محمد بن أبي القاسم
عن عبد الملك بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس قال خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بدء
فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم فلما قدما بتركته فقدوا جاما من فضة مخوصا بالذهب فأحلفهما رسول الله صلى الله
عليه وسلم ووجدوا الجاهل بمكة فقبلوا اشترياه من تميم وعدي فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله لشهادتنا أحق
من شهادتهما وإن الجاهل لصاحبهم وفيهم نزلت (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم) الآية وكذا رواه أبو داود عن الحسن
ابن علي عن يحيى بن آدم به ثم قال الترمذي هذا حديث حسن غريب وهو حديث ابن أبي زائدة ومحمد بن أبي القاسم
الكوفي قيل إنه صالح الحديث وقد ذكر هذه القصة مرسله غير واحد من التابعين منهم عكرمة ومحمد بن سيرين وقتادة
وذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر رواه ابن جرير وكذا ذكرها مرسله مجاهد والحسن والضحاك وهذا
يدل على اشتغالها في السلف وصحتها ، ومن الشواهد لصحة هذه القصة أيضا ما رواه أبو جعفر بن جرير حدثني يعقوب
حدثنا هشيم قال أخبرنا زكريا عن الشعبي أن رجلا من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقا هذه قال فحضرته الوفاة ولم يجد
أحدا من المسلمين يشهده على وصيته فأشهد رجلين من أهل الكتاب قال فقدموا الكوفة فأتيا الأشعري يعني أبا موسى
الأشعري رضى الله عنه فأخبراه وقدما الكوفة بتركته ووصيته فقال الأشعري هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على
عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدلا ولا كتما ولا غيرها وإنها
لوصية الرجل وتركته قال فأمضى شهادتهما ثم رواه عن عمرو بن علي الفلاس عن أبي داود الطيالسي عن شعبة عن
مغيرة الأزرق عن الشعبي أن أبا موسى قضى به وهذان إسنادان صحيحان إلى الشعبي عن أبي موسى الأشعري ، فقلوه
هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ الظاهر والله أعلم أنه إنما أراد بذلك قصة تميم وعدي بن
بدء وقد ذكرنا أن إسلام تميم بن أوس الداري رضى الله عنه كان سنة تسع من الهجرة فعلى هذا يكون هذا الحكم
متأخرا يحتاج مدعى نسخه إلى دليل فاصل في هذا المقام والله أعلم وقال أسباط عن السدي في الآية (يا أيها الذين آمنوا شهادة
بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم) قال هذا في الوصية عند الموت يوصى ويشهد رجلين من
المسلمين على ماله وما عليه قال هذا في الحضر (أو آخران من غيركم) في السفر (إن أتم ضربتم في الأرض فأصابكم
مصيبة الموت) هذا الرجل يدركه الموت في سفره وليس بحضرته أحد من المسلمين فيدعو رجلين من اليهود والنصارى
والمجوس فيوصى إليهما ويدفع إليهما ميراثه فيقبلان به فإن رضى أهل الميت الوصية وعرفوا ما لصاحبهم تركوها وإن
ارتابوا رفعوها إلى السلطان فذلك قوله تعالى (تخسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم) قال عبد الله بن عباس
رضي الله عنه كأنني أنظر إلى العلجين حين انتهى بهما إلى أبي موسى الأشعري في داره ففتح الصحيفة فأنكر أهل الميت
وخوفوها فأراد أبو موسى أن يستحلفهما بعد العصر فقلت لهما لا يباليان صلاة العصر ولكن استحلفهما بعد صلاتهما
في دينهما فيوقف الرجلان بعد صلاتهما في دينهما فيحلفان بالله لا نشترى به ثمنا قليلا ولو كان ذا قربي ولا نكتم شهادة الله
إننا إذا لمن الآثمين إن صاحبهم لهذا أوصى وإن هذه لتركته فيقول لهما الإمام قبل أن يحلفا إنكما إن كتما أو ختما
فضحتكما في قومكما ولم تجز لكما شهادة وعاقبتكما فاذا قال لهما ذلك (فإن ذلك أدنى أن يأتيوا بالشهادة على وجهها) رواه
ابن جرير ، وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا هشيم أخبرنا مغيرة عن إبراهيم وسعيد بن جبير أنهما
قالا في هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم) الآية قالوا إذا حضر الرجل الوفاة في سفر فليشهد رجلين من المسلمين
فإن لم يجد رجلين من المسلمين فرجلين من أهل الكتاب فاذا قدما بتركته فإن صدقهما الورثة قبل قولهما وإن اتهموهما
حلفا بعد صلاة العصر بالله ما كتما ولا كذبا ولا خنا ولا غيرنا ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه

الآية فان ارتيب في شهادتهما استحلها بعد العصر بالله ما اشترينا بشهادتنا ثمنا قليلا فان اطلع الأولياء على أن الكافرين كذبوا في شهادتهما قام رجلان من الأولياء فحلها بالله ان شهادة الكافرين باطلة وإنما لم نعتد فذلك قوله تعالى (فإن عثر على أنهما استحقا إثماً) يقول إن اطلع على أن الكافرين كذبوا (فأخران يقومان مقامهما) يقول من الأولياء فحلها بالله ان شهادة الكافرين باطلة وأنا لم نعتد فترد شهادة الكافرين وتجاوز شهادة الأولياء وهكذا روى العوفي عن ابن عباس رواها ابن جرير وهكذا قرر هذا الحكم على مقضى هذه الآية غير واحد من أئمة التابعين والسلف رضى الله عنهم وهو مذهب الإمام أحمد رحمه الله ، وقوله (ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها) أى شرعية هذا الحكم على هذا الوجه الرضى من تخليف الشاهدين اليمين واستريب بهما أقرب إلى إقامتهما الشهادة على الوجه الرضى وقوله (أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم) أى يكون الحامل لهم على الاتيان بها على وجهها هو تعظيم الحلف بالله ومراعاة جانبه واجلاله والخوف من الفضيحة بين الناس إن ردت اليمين على الورثة فيحلفون ويستحقون ما يدعون ولهذا قال (أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم) ثم قال (واتقوا الله) أى في جميع أموركم (واسمعوا) أى وأطيعوا (والله لا يهدي القوم الفاسقين) أى الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾

هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة عما أجيبوا به من أمهم الذين أرسلهم إليهم كما قال تعالى (فلنسلن الذين أرسل إليهم ولنسلن المرسلين) وقال تعالى (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) وقول الرسل (لا علم لنا) قال مجاهد والحسن البصري والسدى إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم قال عبد الرزاق عن الثوري عن الأعمش عن مجاهد (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتهم) فيفزعون فيقولون (لا علم لنا) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا ابن حنبل حدثنا عن عنبسة قال سمعت شيخا يقول سمعت الحسن يقول في قوله (يوم يجمع الله الرسل) الآية قال من هول ذلك اليوم

وقال أسباط عن السدى (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتهم قالوا لا علم لنا) ذلك أنهم نزلوا منزلا ذهلت فيه العقول فلما سئلوا قالوا (لا علم لنا) ثم نزلوا منزلا آخر فشهدوا على قومهم رواه ابن جرير ثم قال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا الحجاج عن ابن جريج في قوله (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتهم) أى ماذا عملوا بعدكم وما أحدثوا بعدكم قالوا (لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتهم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) يقولون للرب عز وجل لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا رواه ابن جرير ثم اختاره على هذه الأقوال الثلاثة ولا شك أنه قول حسن وهو من باب التأدب مع الرب جل جلاله . أى لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء فنحن وإن كنا أجبن وعرفنا من أجابنا ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره لا علم لنا بباطنه وأنت العليم بكل شيء المطلع على كل شيء فعلنا بالنسبة إلى علمك كلاً علم فلذلك (أنت علام الغيوب)

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُحْيِيَ ابْنَ مَرْيَمَ أَذْ كُنتَ نَعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِأَذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِأَذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۖ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ۖ

قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١﴾

يذكر تعالى ما من به على عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام مما أجراه على يديه من المعجزات الباهرات وخوارق العادات فقال (اذكر نعمتي عليك) أى فى خلقى إياك من أم بلا ذكر وجعلى إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتى على الأشياء (وعلى والدتك) حيث جعلتك لها برهاناً على براءتها مما نسبته الظالمون والجاهلون إليها من الفاحشة (إذ أيدتك بروح القدس) وهو جبريل عليه السلام وجعلتك نبياً داعياً إلى الله فى صفرك وكبرك فأنطقتك فى المهد صغيراً فشهدت ببراءة أمك من كل عيب واعترفت لى بالعبودية وأخبرت عن رسالتى إياك ودعوتى إلى عبادتى ولهذا قال (تكلم الناس فى المهد وكهلاً) أى تدعو إلى الله الناس فى صفرك وكبرك وضمن تكلم تدعو لأن كلامه الناس فى كهولته ليس بأمر عجيب وقوله (وإذ علمتك الكتاب والحكمة) أى الخط والفهم (والتوراة) وهى المنزلة على موسى بن عمران الكليم وقد يرد لفظ التوراة فى الحديث ويراد به ما هو أعم من ذلك وقوله (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير يا ذنى) أى تصوره وتشكله على هيئة الطائر يا ذنى لك فى ذلك فتنفخ فيها فتكون طيراً يا ذنى أى فتنفخ فى تلك الصورة التى شكلتها يا ذنى لك فى ذلك فتكون طيراً ذا روح تطير يا ذنى الله وخلقته

وقوله تعالى (وتبرئ الأكمة والأبرص يا ذنى) قد تقدم الكلام عليه فى سورة آل عمران بما أغنى عن إعادته وقوله (وإذ تخرج الموتى يا ذنى) أى تدعوهم فيقومون من قبورهم يا ذنى الله وقدرته وإرادته ومشيبته وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا مالك بن إسماعيل حدثنا محمد بن طلحة يعنى ابن مصرف عن أبى بشر عن أبى الهذيل قال كان عيسى بن مريم عليه السلام إذا أراد أن يحيى الموتى صلى ركعتين يقرأ فى الأولى (تبارك الذى بيده الملك) وفى الثانية (ألم تنزل) السجدة فإذا فرغ منهما مدح الله وأثنى عليه ثم دعا بسبعة أسماء يا قديم يا خفى يا دائم يا فرد يا وتر يا أحد يا صمد وكان إذا أصابته شديدة دعا بسبعة آخر يا حى يا قيوم يا الله يا رحمن يا ذا الجلال والإكرام يا نور السموات والأرض وما بينهما ورب العرش العظيم يارب وهذا أثر عظيم (١) جداً. وقوله تعالى (وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جثتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين) أى واذا ذكر نعمتى عليك فى كفى إياهم عنك حين جثتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك ورسالتك من الله إليهم فكذبوك واتهموك بأنك ساحر وسعوا فى قتلك وصلبك فنجيتك منهم ورفعتك إلى وطهرتك من دنسهم وكفيتك شرهم وهذا يدل على أن هذا الامتنان كان من الله إليه بعد رفعه إلى السماء أو يكون هذا الامتنان واقعا يوم القيامة وعبر عنه بصيغة الماضى دلالة على وقوعه لاحالة وهذا من أسرار الغيوب التى أطلع الله عليها نبيه محمداً ﷺ

وقوله (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى ورسولى) وهذا أيضاً من الامتنان عليه، عليه السلام بأن جعل له أصحاباً وأنصاراً ثم قيل إن المراد بهذا الوحي وحى إلهام كما قال تعالى (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) الآية وهو وحى إلهام بلا خلاف وكما قال تعالى (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر وبما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللاً) الآية وهكذا قال بعض السلف فى هذه الآية (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى ورسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) أى ألهموا ذلك فامتلأوا ما ألهموا قال الحسن البصرى ألهمهم الله عز وجل ذلك وقال السدى قذف فى قلوبهم ذلك ويحتمل أن يكون المراد وإذ أوحيت إليهم بواسطتك فدعوتهم إلى الإيمان بالله ورسوله واستجابوا لك واتقادوا وتابعوك فقالوا (آمنا بالله واشهد بأننا مسلمون)

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَقُولُوا اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَنَكُونَ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ

وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٦﴾

هذه قصة المائدة وإليها تنسب السورة فيقال سورة المائدة وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى لما أجاب دعاءه بنزولها فأنزل الله آية باهرة وحجة قاطعة وقد ذكر بعض الأئمة أن قصتها ليست مذكورة في الإنجيل ولا يعرفها النصارى إلا من المسلمين فالله أعلم بقوله تعالى (إذ قال الحواريون) وهم أتباع عيسى عليه السلام (يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك) هذه قراءة كثيرين وقرأ آخرون (هل تستطيع ربك) أى هل تستطيع أن تسأل ربك (أن ينزل علينا مائدة من السماء) والمائدة هي الخوان عليه طعام وذكر بعضهم أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقيرهم فسألوه أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يقتاتون منها ويتقوون بها على العبادة (قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) أى فأجابهم المسيح عليه السلام قائلاً لهم اتقوا الله ولا تسألوا هذا ففساهم أن يكون فتنة لكم وتوكلوا على الله في طلب الرزق إن كنتم مؤمنين (قالوا نريد أن نأكل منها) أى نحن محتاجون إلى الأكل منها (وتطمئن قلوبنا) إذا شاهدنا نزولها رزقاً لنا من السماء (ونعلم أن قد صدقتنا) أى ونزداد إيماناً بك وعلماً برسالتك (ونكون عليها من الشاهدين) أى ونشهد أنها آية من عند الله ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ما جئت به (قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا) قال السدى أى تتخذ ذلك اليوم الذى نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا وقال سفيان الثوري يعنى يوماً نصلى فيه وقال قتادة أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم وعن سلمان الفارسي عظة لنا ولمن بعدنا وقيل كافية لأولنا وآخرنا (وآية منك) أى دليلاً تنصبه على قدرتك على الأشياء وعلى إجابتك لدعوتى فيصدقونى فيما أبلغه عنك (وارزقنا) أى من عندك رزقاً هنيئاً بلا كلفة ولا تعب (وأنت خير الرازقين) قال الله إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ (أى فمن كذب بها من أمتك يا عيسى وعاندها) فإني أعذبها عذاباً لا أعذب به أحداً من العالمين (أى من عالمى زمانكم كقوله تعالى (ويوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) وكقوله (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار) وقد روى ابن جرير من طريق عوف الأعرابي عن أبي المغيرة القواس عن عبد الله بن عمرو قال إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون

﴿ ذكر أخبار رويت عن السلف في نزول المائدة على الحواريين ﴾

قال أبو جعفر بن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثني حجاج عن ليث عن عقيل عن ابن عباس أنه كان يحدث عن عيسى أنه قال لبنى إسرائيل هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوماً ثم تسألوه فيعطىكم ما سألتهم فإن أجر العامل على من عمل له ففعلوا ثم قالوا يا معلم الخير قلت لنا إن أجر العامل على من عمله وأمرت أن نصوم ثلاثين يوماً ففعلنا ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً إلا أطلعنا حين نفرغ طعاماً فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال عيسى (اتقوا الله إن كنتم مؤمنين * قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين * قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين * قال الله إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ) قال فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم كذا رواه ابن جرير ، ورواه ابن أبي حاتم عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب قال كان ابن عباس يحدث فذكر نحوه . وقال ابن أبي حاتم حدثنا سعيد بن عبد الله بن الحكم حدثنا أبو زرعة وهبة الله بن راشد حدثنا عقيل بن خالد أن ابن شهاب أخبره عن ابن عباس أن عيسى بن مريم قال والله ادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء قال فنزلت الملائكة بالمائدة يحملوها عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا الحسن بن قزعة الباهلي حدثنا

سفيان بن حبيب حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن جلاس عن عمار بن ياسر عن النبي ﷺ قال نزلت المائدة من السماء عليها خبز ولحم وأمروا أن لا يخونوا ولا يرفعوا لحد فخانوا وادخروا ورفعوا فمسخوا قردة وخنازير وكذا رواه ابن جرير عن الحسن بن قزعة ثم رواه ابن جرير عن ابن بشار عن ابن أبي عدي عن سعيد عن قتادة عن جلاس عن عمار قال نزلت المائدة وعليها ثمر من ثمار الجنة فأمروا أن لا يخونوا ولا يخبأوا ولا يدخروا قال فخان القوم وخبأوا وادخروا فمسخهم الله قردة وخنازير ، وقال ابن جرير حدثنا ابن المثنى حدثنا عبد الأعلى حدثنا داود عن سماك بن حرب عن رجل من بني عجل قال صليت إلى جانب عمار بن ياسر فلما فرغ قال هل تدري كيف كان شأن مائدة بني إسرائيل ؟ قال قلت لا قال إنهم سألو عيسى بن مريم مائدة يكون عليها طعام يأكلون منه لا ينفد قال فقبل لهم فإنها مقيمة لكم ما لم تخبأوا أو تخونوا أو ترفعوا فان فعلتم فاني معذبكم عذاباً لا أعذبه أحد من العالمين قال فامضى يومهم حتى خبأوا ورفعوا وخانوا فعذبوا عذاباً لم يعذبه أحد من العالمين وإنكم يامعشر العرب كنتم تتبعون أذناب الإبل والشاة فبعث الله فيكم رسولا من أنفسكم تعرفون حسبه ونسبه وأخبركم أنكم ستظهرون على العجم ونهاكم أن تكتنزوا الذهب والفضة وإيم الله لا يذهب الليل والنهار حتى تكتنزوها ويعذبكم الله عذاباً أليماً . وقال حدثنا القاسم حدثنا حسين حدثني حجاج عن أبي معشر عن إسحق ابن عبد الله أن المائدة نزلت على عيسى بن مريم عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات يأكلون منها ماشاءوا قال ففرق بعضهم منها وقال لعلها لا تنزل غدا فرفعت ، وقال العوفي عن ابن عباس نزل على عيسى بن مريم والحواريين خوان عليه خبز وسمك يأكلون منه أينما نزلوا إذا شاءوا . وقال خصيف عن عكرمة ومقسم عن ابن عباس كانت المائدة سمكة وأريغفة ، وقال مجاهد هو طعام كان ينزل عليهم حيث نزلوا وقال أبو عبد الرحمن السلمي نزلت المائدة خبزا وسمكا وقال عطية العوفي المائدة سمك فيه طعم كل شيء وقال وهب بن منبه أنزلها من السماء على بني إسرائيل فكان ينزل عليهم في كل يوم في تلك المائدة من ثمار الجنة فأكلوا ماشاءوا من ضروب شتى فكان يقعد عليها أربعة آلاف وإذا أكلوا أنزل الله مكان ذلك لثلثهم فلبثوا على ذلك ماشاء الله عز وجل وقال وهب بن منبه نزل عليهم قرصة من شعير وأحوات وحشا الله بين أضعافهن البركة فكان قوم يأكلون ثم يخرجون ثم يجيء آخرون فيأكلون ثم يخرجون حتى أكل جميعهم وأفضلوا . وقال الأعمش عن مسلم عن سعيد بن جبير أنزل عليها كل شيء إلا اللحم . وقال سفيان الثوري عن عطاء بن السائب عن زاذان وميسرة وجرير عن عطاء عن ميسرة قال كانت المائدة إذا وضعت لبني إسرائيل اختلفت عليهم الأيدي بكل طعام إلا اللحم وعن عكرمة كان خبز المائدة من الأرز رواه ابن أبي حاتم . وقال ابن أبي حاتم حدثنا جعفر بن علي فيما كتب إلى حدثنا إسماعيل بن أبي أويس حدثني أبو عبد الله عبد القدوس ابن إبراهيم بن أبي عبيد الله بن مرداس العبدي مولى بني عبد الدار عن إبراهيم بن عمر عن وهب بن منبه عن أبي عثمان النهدي عن سلمان الخير أنه قال لما سألت الحواريون عيسى بن مريم المائدة كره ذلك جدا فقال اقنعوا بما رزقكم الله في الأرض ولا تسألوا المائدة من السماء فإنها إن نزلت عليكم كانت آية من ربكم وإنما هلكتم ثم حين سألوا نبيهم آية فابتلوا بها حتى كان بوارهم فيها ، فأبوا إلا أن يأتيهم بها فلذلك (قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا) الآية فلما رأى عيسى أن قد أبوا إلا أن يدعو لهم بها قام فألقى عنه الصوف ولبس الشعر الأسود وجبة من شعر وعباءة من شعر ثم توضأ واغتسل ودخل مصلاه فصلى ماشاء الله فلما قضى صلاته قام قائما مستقبلا القبلة وصف قدميه حتى استويا فألصق الكعب بالكعب وحاذى الأصابع ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره وغض بصره وطأ رأسه خشوعا ثم أرسل عينيه بالبكاء فما زالت دموعه تسيل على خديه وتقطر من أطراف لحيته حتى ابتلت الأرض حيايا وجهه من خشوعه فلما رأى ذلك دعا الله فقال (اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء) فأنزل الله عليهم سفرة حمراء بين غماتين غمامة فوقها غمامة تحتها وهم ينظرون إليها في الهواء منقضة من فلك السماء تهوى إليهم وعيسى يبكي خوفا من أجل الشروط التي أخذها الله عليهم فيها أنه يعذب من يكفر بها منهم بعد نزولها عذابا ، لم يعذبه أحد من العالمين ، وهو يدعو الله في مكانه ويقول اللهم اجعلها رحمة لهم ولا تجعلها

عذاباً ، إلهي كم من عجيبة سألتك فأعطيتني ، إلهي اجعلنا لك شاكرين ، اللهم إني أعوذ بك أن تكون أنزلها غضبا ورجزاً إلهي اجعلها سلامة وعافية ولا تجعلها فتنة ومثلة . فلما زال يدعو حتى استقرت السفرة بين يدي عيسى والحواريين وأصحابه حوله يجدون رائحة طيبة لم يجدوا فيها مضي رائحة مثلها قط وخر عيسى والحواريون لله سجداً شكراً له لما رزقهم من حيث لم يحتسبوا ، وأراهم فيه آية عظيمة ذات عجب وعبرة ، وأقبلت اليهود ينظرون فرأوا أمراً عجيباً أورثهم كداً وغماً ، ثم انصرفوا بغيظ شديد ، وأقبل عيسى والحواريون وأصحابه حتى جلسوا حول السفرة فإذا عليها منديل مغطى فقال عيسى من أجرؤنا على كشف المنديل عن هذه السفرة وأوتقنا بنفسه وأحسننا بلاء عند ربه فليكشف عن هذه الآية حتى نراها ونحمد ربنا ونذكر باسمه ونأكل من رزقه الذي رزقنا فقال الحواريون ياروح الله وكلته أنت أولانا بذلك وأحقنا بالكشف عنها . فقام عيسى عليه السلام واستأنف وضوءاً جديداً ثم دخل مصلاه فصلى كذلك ركعات ثم بكى طويلاً ودعا الله أن يأذن له في الكشف عنها ويجعل له ولقومه فيها بركة ورزقاً ثم انصرف وجلس إلى السفرة وتناول المنديل وقال باسم الله خير الرازقين وكشف عن السفرة فإذا هو عليها بسمكة ضخمة مشوية ليس عليها بواسير وليس في جوفها شوك يسيل السمن منها سيلاً قد تحرق بها بقول من كل صنف غير الكراث وعند رأسها خل وعند ذنبها ملح وحول البقول خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الآخر تمرات وعلى الآخر خمس رمانات . فقال شمعون رأس الحواريين لعيسى ياروح الله وكلته أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الجنة ؟ فقال عيسى أما أن لكم أن تعتبروا بما ترون من الآيات وتنتهوا عن تنقيير المسائل ؟ ما أخوفى عليكم أن تعاقبوا في سبب نزول هذه الآية . فقال له شمعون لا وإله إسرائيل ما أردت بها سؤالاً يا ابن الصديقة فقال عيسى عليه السلام ليس شيء مما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الجنة إنما هو شيء ابتدعه الله في الهواء بالقدرة الغالبة القاهرة ، فقال له كن فكان أسرع من طرفة عين ، فكلوا مما سألتهم باسم الله واحمدوا عليه ربكم يمدكم منه ويزدكم فانه بديع قادر شاكر ، فقالوا ياروح الله وكلته إنا نحب أن يرينا الله آية في هذه الآية فقال عيسى سبحان الله أما اكتفيتم بما رأيتم من هذه الآية حتى تسألوا فيها آية أخرى ؟ ثم أقبل عيسى عليه السلام على السمكة فقال يسمكة عودي يأذن الله حية كما كنت فأحيها الله بقدرته فاضطربت وعادت بإذن الله حية طرية تلمظ كما تلمظ الأسد تدور عيناها لها بصيص وعادت عليها بواسيرها ففزع القوم منها وانحاسوا (١) فلما رأى عيسى منهم ذلك قال مالكم تسألون الآية فإذا أراكموها ربكم كرهتموها ؟ ما أخوفى عليكم أن تعاقبوا بما تصنعون ، يسمكة عودي يأذن الله كما كنت فعادت بإذن الله مشوية كما كانت في خلقها الأول ، فقالوا يا عيسى كن أنت ياروح الذي تبدأ بالأكل منها ثم نحن بعد ، فقال عيسى معاذ الله من ذلك . يبدأ بالأكل من طلبها . فلما رأى الحواريون وأصحابه امتناع عيسى منها خافوا أن يكون نزولها سخطه وفي أكلها مثلة فتحاموها فلما رأى ذلك عيسى منهم دعا لها الفقراء والزمنى وقال كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيكم واحمدوا الله الذي أنزلها لكم فيكون مهنؤها لكم وعقوبتها على غيركم وافتتحوا كلكم باسم الله واختموا بحمد الله ففعلوا فأكل منها ألف وثلاثمائة إنسان بين رجل وامرأة يصدرون عنها كل واحد منهم شعبان يتجشأ ، ونظر عيسى والحواريون فإذا ما عليها كهيتته إذ نزلت من السماء لم ينقص منها شيء ثم إنهم رفعت إلى السماء وهم ينظرون فاستغنى كل فقيراً كل منها وبرى كل زمن أكل منها فلم يزلوا أغنياء أصحاباً حتى خرجوا من الدنيا ، وندم الحواريون وأصحابهم الذين أبوا أن يأكلوا منها ندامة سالت منها أشفارهم وبقيت حسرتها في قلوبهم إلى يوم المات قال وكانت المائدة إذا نزلت بعد ذلك أقبل بنو إسرائيل إليها يسعون من كل مكان يزاحم بعضهم بعضاً الأغنياء والفقراء والصغار والكبار والأصحاء والمرضى يركب بعضهم بعضاً فلما رأى ذلك جعلها نوباً بينهم تنزل يوماً ولا تنزل يوماً فلبثوا على ذلك أربعين يوماً تنزل عليهم غياً عند ارتفاع النهار فلا تنزل موضوعة يؤكل منها حتى إذا قالوا ارتفعت عنهم إلى جو السماء بإذن الله وهم ينظرون إلى ظلها في الأرض حتى توارى عنهم قال فأوحى الله إلى نبيه عيسى عليه السلام أن اجعل رزقي في المائدة للفقراء واليتامى والزمنى دون الأغنياء من الناس ، فلما فعل ذلك ارتاب بها

الأغنياء من الناس وغمطوا ذلك حتى شكوا فيها في أنفسهم وشككوا فيها الناس وأذاعوا في أمرها القبيح والنكر وأدرك الشيطان منهم حاجته وقذف وسواسه في قلوب الربانيين حتى قالوا لعيسى أخبرنا عن المائدة ونزلها من السماء أحق فانه قد ارتاب بها منا بشر كثير؟ فقال عيسى عليه السلام هل كنتم وإله السبيح طلبتم المائدة إلى نبيكم أن يطلبها لكم إلى ربكم فلما أن فعل وأنزلها عليكم رحمة لكم ورزقاً وأراكم فيها الآيات والعبر كذبتم بها وشككنتم فيها فأبشروا بالعذاب فانه نازل بكم إلا أن يرحمكم الله ، فأوحى الله إلى عيسى إني آخذ المكذبين بشرطى فإني معذب منهم من كفر بالمائدة بعد نزلها عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين . قال فلما أمسى المرتابون بها وأخذوا مضاجعهم في أحسن صورة مع نسائهم آمنين فلما كان في آخر الليل مسحهم الله خزائير فأصبحوا يتبعون الأقدار في الكناسات ، هذا أثر غريب جداً قطعه ابن أبي حاتم في مواضع من هذه القصة وقد جمعتها أناليكون سياقه أتم وأكمل والله سبحانه وتعالى أعلم وكل هذه الآثار دالة على أن المائدة نزلت على بنى إسرائيل أيام عيسى بن مريم إجابة من الله لدعوته كما دل على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم (قال الله إني منزلها عليكم) الآية ،

وقال قائلون إنها لم تنزل فروى ليث بن أبي سليم عن مجاهد في قوله أنزل علينا مائدة من السماء قال هو مثل ضربه الله ولم ينزل شيء رواه ابن أبي حاتم وابن جرير ثم قال ابن جرير حدثنا الحارث حدثنا القاسم هو ابن سلام حدثنا حجاج عن ابن جريج عن مجاهد قال مائدة عليها طعام أبوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا فأبوا أن تنزل عليهم ، وقال أيضاً حدثنا ابن المنذر حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن منصور بن زاذان عن الحسن أنه قال في المائدة إنها لم تنزل . وحدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال كان الحسن يقول لما قيل لهم (فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين) قالوا لا حاجة لنا فيها فلم تنزل ، وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا يعرفه النصارى وليس هو في كتابهم ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله وكان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً ولا أقل من الآحاد والله أعلم ولكن الذي عليه الجمهور أنها نزلت وهو الذي اختاره ابن جرير قال لأن الله تعالى أخبر بنزلها في قوله تعالى (إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين) قال ووعد الله ووعده حق وصدق وهذا القول هو - والله أعلم - الصواب كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم وقد ذكر أهل التاريخ أن موسى بن نصير نائب بنى أمية في فتوح بلاد المغرب وجد المائدة هنالك مرصعة بالآلى وأنواع الجواهر فبعث بها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق فأت وهى في الطريق فحملت إلى أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة بعده فرآها الناس فتعجبوا منها كثيراً لما فيها من اليواقيت النفسية والجواهر اليتيمة ويقال إن هذه المائدة كانت لسليمان بن داود عليهما السلام فآله أعلم . وقد قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن سلمة بن كهيل عن عمران بن الحكم عن ابن عباس قال : قالت قريش للنبي ﷺ ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك قال « وتفعلون ؟ » قالوا نعم قال فدعا فأتاه جبريل فقال إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً فمن كفر منهم بعد ذلك عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة . قال « بل باب التوبة والرحمة » ثم رواه أحمد وابن مردويه والحاكم في مستدركه من حديث سفيان الثوري به .

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُجِّدَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ

فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنَّ تَعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٠﴾

هذا أيضاً مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام قائلا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله (يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله) وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رموس الأَشْهاد هكذا قاله قتادة وغيره واستدل قتادة على ذلك بقوله تعالى (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) وقال السدي هذا الخطاب والجواب في الدنيا وصوبه ابن جرير قال وكان ذلك حين رفعه إلى السماء واحتج ابن جرير على ذلك بمعنيين (أحدهما) أن الكلام بلفظ المضى (والثاني) قوله : (إن تعذبهم) (وإن تغفر لهم) وهذان الدليلان فيهما نظر لأن كثيراً من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ المضى ليدل على الوقوع والثبوت ومعنى قوله (إن تعذبهم فإنهم عبادك) الآية التبري منهم ورد المشيئة فهم إلى الله وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضى وقوعه كما في نطائر ذلك من الآيات والذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر والله أعلم أن ذلك كائن يوم القيامة ليدل على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رموس الأَشْهاد يوم القيامة وقد روى بذلك حديث مرفوع رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عبد الله مولى عمر بن عبد العزيز وكان ثقة قال سمعت أبا بردة يحدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله ﷺ « إذا كان يوم القيامة دعى بالأبياء وأُمهم ثم يدعى بعيسى فيذكره الله نعمته عليه فيقر بها فيقول (يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك) الآية ثم يقول (أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله) فينكر أن يكون قال ذلك فيؤتى بالنصارى فيسألون فيقولون نعم هو أمرنا بذلك قال فيطول شعر عيسى عليه السلام فيأخذ كل ملك من الملائكة بشرة من شعر رأسه وجسده فيجاثيهم بين يدي الله عز وجل مقدار ألف عام حتى ترفع عليهم الحجة ويرفع لهم الصليب وينطلق بهم إلى النار » وهذا حديث غريب عزيز

وقوله (سبحانه ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق) هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل كما قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمير حدثنا سفيان عن عمرو عن طاوس عن أبي هريرة قال يلقى عيسى حجته ولقاء الله تعالى في قوله (وإذا قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله) قال أبو هريرة عن النبي ﷺ فلقيه الله (سبحانه ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق) إلى آخر الآية وقد رواه الثوري عن معمر عن ابن طاوس عن طاوس بنحوه وقوله (إن كنت قلته فقد علمته) أى إن كان صدر منى هذا فقد علمته يا رب فإنه لا يخفى عليك شيء فما قلته ولا أردته في نفسي ولا أضمرته ولهذا قال (تعلم ما فى نفسي ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتني به) بإبلاغه (أن اعبدوا الله ربي وربكم) أى ما دعوتهم إلا إلى الذى أرسلتني به وأمرتني بإبلاغه (أن اعبدوا الله ربي وربكم) أى هذا هو الذى قلت لهم وقوله (وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم) أى كنت أشهد على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم (فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد) قال أبو داود الطيالسي حدثنا شعبة قال انطلقت أنا وسفيان الثوري إلى المغيرة بن النعمان فأملى على سفيان وأنا معه فلما قام انتسخت من سفيان فحدثنا قال سمعت سعيد بن جبيرة يحدث عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال « يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلا (كما بدأنا أول خلق نعيده) وإن أول الخلق يكسى يوم القيامة إبراهيم ألا وإنه يجاء برجال من أمم فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : أصحابي ، فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح (وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد * إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) فيقال إن هؤلاء لم يزوالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم » ورواه البخارى عند هذه الآية عن أبي الوليد عن شعبة وعن محمد بن كثير عن سفيان الثوري كلاهما عن المغيرة بن النعمان به

وقوله (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) هذا الكلام يتضمن رد الشيعة إلى الله عز وجل فإنه الفعال لما يشاء الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله وجعلوا لله نداً وصاحبة وولداً تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، وهذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قام بها ليلة حق الصباح يرددها

قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن فضيل حدثني فليت العامري عن جسة العامرية عن أبي ذر رضي الله عنه قال: صلى النبي ﷺ ذات ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) فلما أصبح قلت يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها ؟ قال « إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً »

(طريق أخرى وسياق آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يحيى حدثنا قدامة بن عبد الله حدثني جسة بنت دجاجة أنها انطلقت معتمرة فاتته إلى الربة فسمعت أبا ذر يقول قام رسول الله ﷺ ليلة من الليالي في صلاة العشاء فصلى بالقوم ثم تخلف أصحاب له يصلون فلما رأى قيامهم وتخلفهم انصرف إلى رحله فلما رأى القوم قد أدخلوا المكان رجع إلى مكانه يصلي فجئت فقممت خلفه فأومأ إلى يمينه فقممت عن يمينه ثم جاء ابن مسعود فقام خلفي وخلفه فأومأ إليه بشماله فقام عن شماله فقممتا ثلاثتنا يصلي كل واحد منا بنفسه وتلو من القرآن ما شاء الله أن تلو وقام بآية من القرآن يرددها حتى صلى العداة فلما أصبحنا أومأت إلى عبد الله بن مسعود أن سله ما أراد إلى ما صنع البارحة فقال ابن مسعود بيده لأسأله عن شيء حتى يحدث إلى ؟ قلت بأبي وأمي قلت بآية من القرآن ومعك القرآن لوفعل هذا بعضنا لوجدنا عليه قال « دعوت لأمتي » قلت فماذا أجبت أوماذا رد عليك ؟ قال « أجبت بالذي لو اطلع عليه كثير منهم طلعة تركوا الصلاة » قلت أفلا أبشر الناس ؟ قال « بلى » فانطلقت معتقاً قريباً من قذفة بحجر فقال عمر يا رسول الله إنك إن تبعث إلى الناس بهذا نكلوا عن العبادات فناداه أن « ارجع » فرجع وتلك الآية (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) وقال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث أن بكر بن سودة حدثه عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول عيسى (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) فرجع يديه فقال « اللهم أمتي » وبكى فقال الله يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فأسأله ما ييكبه ، فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم فقال الله يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك . وقال الإمام أحمد حدثنا حسين قال حدثنا ابن لميعة حدثنا ابن هبيرة أنه سمع أبا عيم الجيشاني يقول حدثني سعيد بن المسيب سمعت حذيفة بن اليمان يقول غاب عنا رسول الله ﷺ يوماً فلم يخرج حتى ظننا أن لن يخرج فلما خرج سجد سجدة ظننا أن نفسه قد قبضت فيها فلما رفع رأسه قال « إن ربي عز وجل استشارني في أمتي ماذا أفعل بهم ؟ فقلت ما شئت أي ربهم خلقك وعبادك فاستشارني الثانية فقلت له كذلك ، فقال لي لا أخزيك في أمتك يا محمد وبشرنى أن أول من يدخل الجنة من أمتي معي سبعون ألفاً مع كل ألف سبعون ألفاً ليس عليهم حساب . ثم أرسل إلى ؟ فقلت لرسوله أو معطى ربي سؤلى ؟ فقال ما أرسلني إليك إلا ليعطيك ، ولقد أعطاني ربي ولا فخر وغفلى ما تقدم من ذنبي وما تأخر وأنا أمشي حياً صحيحاً وأعطاني أن لا تجوع أمتي ولا تغلب ، وأعطاني الكوثر وهو نهر في الجنة يسيل في حوضي وأعطاني العز والنصر والرعب يسعى بين يدي أمتي شهراً ، وأعطاني أني أول الأنبياء يدخل الجنة وطيبلى ولأمتي الغنيمة وأحل لنا كثيراً مما شدد على من قبلنا ولم يجعل علينا في الدين من حرج » (١)

« قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * اللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »

(١) الحديث ضعيف السند وفي أحاديث الشفاعة والسبعين ألفاً في الصحاح غنى عنه

يقول تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام فيما أنجاه اليه من التبرى من النصارى الملحدون الكاذبين على الله وعلى رسوله ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه عز وجل فعند ذلك يقول تعالى (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) قال الضحاك عن ابن عباس يقول يوم ينفع الموحدين توحيدهم (لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً) أى ما كثرين فيها لا يحولون ولا يزولون رضى الله عنهم ورضوا عنه كما قال تعالى (ورضوان من الله أكبر) وسيأتى ما يتعلق بتلك الآية من الحديث وروى ابن أبي حاتم هاهنا حديثاً عن أنس فقال حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا المحاربى عن ليث عن عثمان يعنى ابن عمير أخبرنا اليقظان عن أنس مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ فيه « ثم تجلى لهم الرب جل جلاله فيقول سلونى أعطكم - قال - فيسألونه الرضا فيقول رضى أحلكم دارى وأنا لكم كرامتى فسلونى أعطكم فيسألونه الرضا - قال - فيشهدهم أنه قد رضى عنهم سبحانه وتعالى » وقوله (ذلك الفوز العظيم) أى هذا الفوز الكبير الذى لأعظم منه كما قال تعالى (لمثل هذا فليعمل العاملون) وكما قال (وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) وقوله (لله ملك السموات والأرض وما بينهما وهو على كل شيء قدير) أى هو الخالق للأشياء المالك لها المتصرف فيها القادر عليها فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته وفى مشيئته فلا زلزاله ولا وزير ولا عدل ولا والد ولا ولد ولا صاحبة ولا إله غيره ولا رب سواه . قال ابن وهب سمعت حى بن عبد الله يحدث عن أبي عبد الرحمن الحبلى عن عبد الله بن عمر قال آخر سورة أنزلت سورة المائدة

﴿ تفسير سورة الأنعام وهى مكية ﴾

قال العوفى وعكرمة وعطاء عن ابن عباس أنزلت سورة الأنعام بمكة . وقال الطبرانى حدثنا حلى بن عبد العزيز حدثنا حجاج بن منهال حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال نزلت سورة الأنعام بمكة ليلا جملة واحدة حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح . وقال سفيان الثورى عن ليث عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت نزلت سورة الأنعام على النبي ﷺ جملة وأنا آخذة بزمام ناقه النبی صلى الله عليه وسلم إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة . وقال شريك عن ليث عن شهر عن أسماء قالت نزلت سورة الأنعام على رسول الله ﷺ وهو فى مسير فى زجل من الملائكة وقد طبقوا ما بين السماء والأرض . وقال السدى عن مرة عن عبيد الله قال نزلت سورة الأنعام يشيعها سبعون ألفاً من الملائكة وروى نحوه من وجه آخر عن ابن مسعود . وقال الحاكم فى مستدركه حدثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب الحافظ وأبو الفضل الحسن بن يعقوب العدل قالا حدثنا محمد بن عبد الوهاب العبدى أخبرنا جعفر بن عون حدثنا إسماعيل بن عبد الرحمن السدى حدثنا محمد بن النكدر عن جابر قال لما نزلت سورة الأنعام سبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال « لقد شيع هذه السورة من الملائكة ماسد الأفق » ثم قال صحيح على شرط مسلم . وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن معمر حدثنا إبراهيم بن درستويه الفارسى حدثنا أبو بكر بن أحمد بن محمد بن سالم حدثنا ابن أبى فديك حدثنى عمر بن طلحة الرقاشى عن نافع بن مالك بن أبى سهيل عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سد ما بين الحافقين لهم زجل بالتسبيح والأرض بهم ترتج » وروى ابن مردويه عن الطبرانى عن إبراهيم بن نائلة عن إسماعيل بن عمر عن يوسف ابن عطية عن ابن عون عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « نزلت على سورة الأنعام جملة واحدة وشيعها سبعون ألفاً من الملائكة لهم زجل بالتسبيح والتحميد »

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ * هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ * وَهُوَ اللَّهُ

فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿

يقول الله تعالى مادحا نفسه الكريمة وحامدا لها على خلقه السموات والأرض قرارا لعباده . وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده في ليالهم ونهارهم فجمع لفظ الظلمات ووجد لفظ النور لكونه أشرف كقوله تعالى (عن اليمين والشمال) وكما قال في آخر هذه السورة (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) ثم قال تعالى (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) أى ومع هذا كله كفر به بعض عباده وجعلوا له شريكا وعدلا واتخذوا له صاحبة وولدا تعالى الله عز وجل عن ذلك علوا كبيرا . وقوله تعالى (هو الذى خلقكم من طين) يعنى أباهم آدم الذى هو أصلهم ومنه خرجوا فانتشروا فى المشارق والمغارب وقوله (ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) قال سعيد بن جبير عن ابن عباس (ثم قضى أجلا) يعنى الموت (وأجل مسمى عنده) يعنى الآخرة وهكذا روى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والضحاك وزيد بن أسلم وعطية والسدى ومقاتل بن حيان وغيرهم وقول الحسن فى رواية عنه (ثم قضى أجلا) وهو ما بين أن يخلق إلى أن يموت (وأجل مسمى عنده) وهو ما بين أن يموت إلى أن يبعث هو يرجع إلى ما تقدم وهو تقدير الأجل الخاص وهو عمر كل إنسان وتقدير الأجل العام وهو عمر الدنيا بكمالها ثم انتهائها وانقضائها وزوالها وانتقالها والمصير إلى الدار الآخرة وعن ابن عباس ومجاهد (ثم قضى أجلا) يعنى مدة الدنيا وأجل مسمى عنده) يعنى عمر الإنسان إلى حين موته وكأنه مأخوذ من قوله تعالى بعد هذا (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار) الآية وقال عطية عن ابن عباس (ثم قضى أجلا) يعنى النوم يقبض فيه الروح ثم يرجع إلى صاحبه عند القيظة (وأجل مسمى عنده) يعنى أجل موت الإنسان وهذا قول غريب ومعنى قوله (عنده) أى لا يعلمه إلا هو كقوله (إنما علمها عند ربى لا يحلها لوقتها إلا هو) وكقوله (بسألونك عن الساعة أيا نمرساها فم أنت من ذكرها إلى ربك منتهاها) وقوله تعالى (ثم أتىتم تترون) قال السدى وغيره يعنى تشكون فى أمر الساعة وقوله تعالى (وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون) اختلف مفسرو هذه الآية على أقوال بعد اتفاقهم على إنكار قول الجهمية الأول القائلين تعالى عن قولهم علوا كبيرا بأنه فى كل مكان حيث حملوا الآية على ذلك فالأصح من الأقوال أنه المدعو الله فى السموات وفى الأرض أى يعبد ويوحده ويقر له بالإلهية من فى السموات ومن فى الأرض ويسمونه الله ويدعونه رغبا ورهبا إلا من كفر من الجن والإنس وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله) أى هو إله من فى السماء وإله من فى الأرض وعلى هذا فىكون قوله (يعلم سركم وجهركم) خبرا أو حالا (والقول الثانى) أن المراد أنه الله الذى يعلم ما فى السموات وما فى الأرض من سر وجهركم فىكون قوله يعلم متعلقا بقوله (فى السموات وفى الأرض) تقديره وهو الله يعلم سركم وجهركم فى السموات وفى الأرض ويعلم ما تكسبون والقول الثالث أن قوله (وهو الله فى السموات) وقف تام ثم أستاذف الخبر فقال (وفى الأرض يعلم سركم وجهركم) وهذا اختيار ابن جرير وقوله (ويعلم ما تكسبون) أى جميع أعمالكم خيرها وشرها

﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَسْكَنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين المكذبين المعاندين أنهم كلما أتتهم من آية أى دلالة ومعجزة وحجة من الدلالات على وحدانية الله وصدق رسله الكرام فانهم يعرضون عنها فلا ينظرون إليها ولا يبالون بها قال الله تعالى (فقد كذبوا بالحق لما جاءهم

فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون (وهذا تهديد لهم ووعيد شديد على تكذيبهم بالحق بأنه لا بد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب وليجدن غبه وليذوقن وبالهم قال تعالى واعظا لهم ومحذرا لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الذي هو ما حل بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعا وأكثر أموالا وأولادا واستعلاء في الأرض وعمارة لها فقال (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم) أي من الأموال والأولاد والأعمار والجاه العريض والسعة والجنود ولهذا قال (وأرسلنا السماء عليهم مدرارا) أي شيئا بعد شيء (وجعلنا الأنهار تجري من تحته) أي أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض أي استدراجا وإملاء لهم (فأهلكناهم بذنوبهم) أي بخطيئهم وسيئاتهم التي اجترموها (وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) أي فذهب الأولون كأسس الداهب وجعلناهم أحاديث (وأنشأنا من بعدهم قوما آخرين) أي جيلا آخر لختبرهم فعملوا مثل أعمالهم فأهلكوا كإهلاكهم فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل ما أصابهم فإنتم بأعز على الله منهم والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم فأنتم أولى بالعذاب ومعالجة العقوبة منهم لولا لطفه وإحسانه

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ * وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَقَّ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ومباهتهم ومنازعتهم فيه (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم) أي عاينوه ورأوا نزوله وباشروا ذلك لقال (الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) وهذا كما قال تعالى مخبرا عن مكابرتهم للمحسوسات (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) وكقوله تعالى (وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مرقوم) (وقالوا لولا أنزل عليه ملك) أي ليكون معه نذيرا قال الله تعالى (ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون) أي لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاءهم من الله العذاب كما قال الله تعالى (ما نزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين) وقوله (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين) الآية وقوله تعالى (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون) أي ولو أنزلنا مع الرسول البشري ملكا أي لو بعثنا إلى البشر رسولا ملكيا لكان على هيئة الرجل ليحكمهم مخاطبته والاتفاق بالأخذ عنه ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري كقوله تعالى (قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) فمن رحمته تعالى بخلقهم أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلا منهم ليدعو بعضهم بعضا وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال كما قال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم) الآية قال الضحاك عن ابن عباس في الآية يقول لو أنهم ملك ما أنهم إلا في صورة رجل لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور (وللبسنا عليهم ما يلبسون) أي ولخلطنا عليهم ما يخلطون وقال الوالي عنه ولشبهنا عليهم وقوله (ولقد استهزئ برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) هذه تسلية للذين استهزئوا في تكذيبهم من قومه ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة ثم قال تعالى (قل سيرا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) أي فكروا في أنفسكم وانظروا ما أحل الله

بالقرون الماضية الذين كذبوا رسله وعاندوهم من العذاب والنكال والعقوبة في الدنيا مع ما ادخر لهم من العذاب الأليم في الآخرة وكيف نجى رسله وعباده المؤمنين

﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ أَغْنَى اللَّهُ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطِعمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ومن فيهما وأنه قد كتب على نفسه المقدسة الرحمة كما ثبت في الصحيحين من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله لما خلق الخلق كتب كتاباً عنده فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي » وقوله (ليجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) هذه اللام هي الموطئة للقسم فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده (إلى ميقات يوم معلوم) وهو يوم القيامة الذي لا ريب فيه أى لا شك عند عباده المؤمنين فأما الجاحدون المكذبون فهم في ربهم يترددون وقال ابن مردويه عند تفسير هذه الآية حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا عبيد الله بن أحمد بن عقبة حدثنا عباس بن محمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا محسن بن عتبة الجبائي عن الزبير بن شبيب عن عثمان بن حاضر عن ابن عباس قال سئل رسول الله ﷺ عن الوقوف بين يدي رب العالمين هل فيهماء قال « والذي نفسى بيده إن فيه لماء ، إن أولياء الله ليردون حياض الأنبياء ويبعث الله تعالى سبعين ألف ملك في أيديهم عصي من نار يذودون الكفار عن حياض الأنبياء » هذا حديث غريب وفي الترمذي « إن لكل نبي حوضاً وأرجو أن أكون أكرمهم واردة » وقوله (الذين خسروا أنفسهم) أى يوم القيامة (فهم لا يؤمنون) أى لا يصدقون بالمعاد ولا يخافون شر ذلك اليوم ثم قال تعالى (وله ما سكن في الليل والنهار) أى كل دابة في السموات والأرض الجميع عباده وخلقه وتحت قهره وتصرفه وتديره لإله الإلهو (وهو السميع العليم) أى السميع لأقوال عباده. العليم بحركاتهم وضائرتهم وسرائرهم ثم قال تعالى لعبيده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم الذي بعثه بالتوحيد العظيم وبالشرع القيم وأمره أن يدعو الناس إلى صراط الله المستقيم (قل أغفر الله لأتخذ ولياً في السموات والأرض) كقوله (قل أغفر الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون) والمعنى لأتخذ ولياً إلا الله وحده لا شريك له فإنه فاطر السموات والأرض أى خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق (وهو يطعم ولا يطعم) أى وهو الرزاق خلقة من غير احتياج إليهم كما قال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) الآية وقرأ بعضهم ها هنا (وهو يطعم ولا يطعم) أى لا يأكل ولا يشرب وفي حديث سهل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي صلى الله عليه وسلم على طعام فأنطلقنا معه فلما طعم النبي صلى الله عليه وسلم وغسل يديه قال « الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم ومن علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا من الشراب وكسانا من العرى وكل بلاء حسن أبلانا . الحمد لله غير مودع ربي ولا مكفي ولا مكفور ولا مستغنى عنه الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام وسقانا من الشراب وكسانا من العرى وهدانا من الضلال وبصرنا من العمى وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً الحمد لله رب العالمين » (قل إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ) أى من هذه الأمة (ولا تكونن من المشركين) قل إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (يعنى يوم القيامة (من يصرف عنه) أى العذاب (يومئذ فقد رَحِمَهُ) يعنى فقد رحمه الله (وذلك هو الفوز المبين) كقوله (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) والفوز حصول الرجب ونفي الخسارة

﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَهُوَ الْفَاحِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ * قُلْ أَيْ شَيْءٌ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتُشْهَدُوا أَنْ مَعَ اللَّهِ إِلَهٌ آخَرُ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِبَيِّنَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً أنه مالك الضر والنفع وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء لامعقب لحكمه ولا راد لقضائه (وإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) كقوله تعالى (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده) الآية وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول « اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد » ولهذا قال تعالى (وهو الفاهر فوق عباده) أى هو الذى خضعت له الرقاب ودلت له الجبابرة (١) وعنت له الوجوه وقهر كل شيء ودانت له الخلائق وتواضعت لعظمته جلاله وكبريائه وعظمته وعالوه وقدرته على الأشياء واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه (وهو الحكيم) أى فى جميع أفعاله (الخبير) بمواضع الأشياء ومحالها فلا يعطى إلا من يستحق ولا يمنع إلا من يستحق ثم قال (قُلْ أَيْ شَيْءٌ أَكْبَرُ شَهَادَةً) أى من أعظم الأشياء شهادة (قل الله شهيد بيني وبينكم) أى هو العالم بما جئتم به وما أتم قائلون لى (وأوحى إلى هذا القرآن لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) أى وهو نذير لكل من بلغه كقوله تعالى (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ، قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا وكيع وأبو أسامة وأبو خالد عن موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب فى قوله (ومن بلغ) من بلغه القرآن فكأنما رأى النبى ﷺ زاد أبو خالد وكله . ورواه ابن جرير من طريق أبى معشر عن محمد بن كعب قال من بلغه القرآن فقد أبلغه محمد صلى الله عليه وسلم وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة فى قوله تعالى (لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « بلغوا عن الله فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله » وقال الربيع بن أنس حق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذى دعا رسول الله ﷺ وأن ينذر بالذى أنذر وقوله (أَتَيْنَكُمْ لَتُشْهَدُوا) أيها المشركون (أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد) كقوله (فإن شهدوا فلا تشهد معهم) (قل إنما هو إله واحد وإنى برىء مما تشركون) ثم قال تعالى مخبراً عن أهل الكتاب أنهم يعرفون هذا الذى جئتم به كما يعرفون أبناءهم بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء فإن الرسل كلهم بشرى بوجود محمد ﷺ ونعته (١) وصفته وبلده ومهاجره وصفة أمته ولهذا قال بعده (الذين خسروا أنفسهم) أى خسروا كل الخسارة (فهم لا يؤمنون) بهذا الأمر الجلى الظاهر الذى بشرت به الأنبياء ونوهت به فى قديم الزمان وحديثه ثم قال (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته) أى لا أظلم ممن تقول على الله فادعى أن الله أرسله ولم يكن أرسله ثم لا أظلم ممن كذب بآيات الله وحججه وبراهينه ودلالاته (إنه لا يفلح الظالمون) أى لا يفلح هذا ولا هذا لا المفتري ولا الكذب

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَحْتَهِمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً لَا يُؤْمِنُوهَا

بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٧﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين (يوم نحشرهم جميعا) يوم القيامة فيسألهم عن الأصنام والأنداد التي كانوا يعبدونها من دونه قائلا لهم (أين شركاءكم الذين كنتم تزعمون) كقوله تعالى في سورة القصص (ويوم يناديهم فيقول أين شركائ الذين كنتم تزعمون) وقوله تعالى (ثم لم تكن فتنتهم) أي حجتهم إلا أن قالوا (والله ربنا ما كنا مشركين) قال الضحاك عن ابن عباس (ثم لم تكن فتنتهم) أي حجتهم. وقال عطاء الخراساني عنه أي معذرتهم وكذا قال قتادة وقال ابن جريج عن ابن عباس: أي قيلهم وكذا قال الضحاك وقال عطاء الخراساني (ثم لم تكن فتنتهم) بليتهم حين ابتلوا (إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) وقال ابن جرير والصواب ثم لم يكن قيلهم عند فتنتنا إياهم اعتذارا عما سلف منهم من الشرك بالله (إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو يحيى الرازي عن عمرو بن أبي قيس عن مطرف عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أتاه رجل فقال يا ابن عباس سمعت الله يقول (والله ربنا ما كنا مشركين) قال أما قوله (والله ربنا ما كنا مشركين) فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة فقالوا تعالوا فلنجد فيجحدون فيختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتُمون الله حديثا فهل في قلبك الآن شيء؟ إنه ليس من القرآن شيء إلا ونزل فيه شيء ولكن لا تعلمون وجهه. وقال الضحاك عن ابن عباس هذه في المنافقين وفيه نظر فان هذه الآية مكية والمنافقون إنما كانوا بالمدينة والتي نزلت في المنافقين آية المجادلة (يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له) الآية وهكذا قال في حق هؤلاء (انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) كقوله (ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا) الآية. وقوله (ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) أي يحشون ليستمعوا قراءتك ولا تجزى عنهم شيئا لأن الله (جعل على قلوبهم أكنة) أي أغطية لئلا يفقهوا القرآن (وفي آذانهم وقرا) أي صمما عن السماع النافع لهم كما قال تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء) الآية. وقوله (وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) أي مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات والبراهين لا يؤمنوا بها فلا فهم عندهم ولا إنصاف كقوله تعالى (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم) الآية وقوله تعالى (حتى إذا جاءوك يجادلونك) أي يحاجونك وينظرونك في الحق بالباطل (يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين) أي ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذ من كتب الأوائل ومنقول عنهم وقوله (وهم ينهون عنه وينأون عنه) في معنى ينهون عنه قولان (أحدهما) أن المراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق وتصديق الرسول والالتقاء للقرآن (وينأون عنه) أي ويبعدونهم عنه فيجمعون بين الفعلين القبيحين لا يتفجعون ولا يدعون أحدا ينتفع قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (وهم ينهون عنه) يردون الناس عن محمد ﷺ أن يؤمنوا به. وقال محمد بن الحنفية كان كفار قريش لا يأتون النبي ﷺ وينهون عنه وكذا قال قتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد وهذا القول أظهر والله أعلم وهو اختيار ابن جرير (والقول الثاني) رواه سفيان الثوري عن حبيب ابن أبي ثابت عن سمع ابن عباس يقول في قوله (وهم ينهون عنه) قال نزلت في أبي طالب كان ينهى الناس عن النبي ﷺ أن يؤذى وكذا قال القاسم بن مخيمرة وحبيب بن أبي ثابت وعطاء بن دينار وغيره أنها نزلت في أبي طالب وقال سعيد بن أبي هلال نزلت في عمومة النبي ﷺ وكانوا عشرة فكانوا أشد الناس معه في العلانية وأشد الناس عليه في السر رواه ابن أبي حاتم، وقال محمد بن كعب القرظي (وهم ينهون عنه) أي ينهون الناس عن قتله وقوله (وينأون عنه) أي يتباعدون منه (وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون) أي وما يهلكون بهذا الصنيع ولا يعودوا به إلا عليهم وهم لا يشعرون

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بَيِّنَاتٍ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأحوال فعند ذلك قالوا (ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا ليعملوا عملا صالحا ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين قال الله تعالى (بل بدلهم ما كانوا يخفون من قبل) أي بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاناة وإن أنكروها في الدنيا أو في الآخرة كما قال قبله بيسر (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين انظر كيف كذبوا على أنفسهم) ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه كقوله مخبرا عن موسى أنه قال لفرعون (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) الآية وقوله تعالى مخبرا عن فرعون وقومه (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان للناس ويبطنون الكفر ويكون هذا إخبارا عما يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار ولا ينافي هذا كون هذه السورة مكية والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من الأعراب فقد ذكر الله وقوع النفاق في سورة مكية وهي العنكبوت فقال (وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) وعلى هذا فيكون إخبارا عن قول المنافقين في الدار الآخرة حين يعاينون العذاب فظهر لهم حينئذ غيب ما كانوا يبطنون من الكفر والنفاق والشقاق والله أعلم وأما معنى الإضراب في قوله (بل بدلهم ما كانوا يخفون من قبل) فانهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان بل خوفا من العذاب الذي عاينوه جزاء على ما كانوا عليه من الكفر فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا عما شاهدوا من النار ولهذا قال (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) أي في طلبهم الرجعة رغبة ومحبة في الإيمان ثم قال مخبرا عنهم أنهم لوردوا إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والمخالفة (وإنهم لكاذبون) أي في قولهم ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين وقالوا إن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ أَي لَعَادُوا لما نهوا عنه ولقالوا إن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا أَي ما هِيَ إِلَّا هذه الحياة الدنيا ثم لا معاد بعدها ولهذا قال وما نحن بمبعوثين ، ثم قال (ولو تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ) أي أوقفوا بين يديه قال (أليس هذا بالحق ؟) أي أليس هذا المعاد بحق وليس يبطل كما كنتم تظنون (قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) أي بما كنتم تكذبون به فذوقوا اليوم مسه (أفسح هذا أم أتم لا تبصرون)

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرْتُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيلُونَ * وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا الَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن خسارته من كذب بلقائه وعن خيبته إذا جاءت الساعَةُ بَغْتَةً وعن ندامته على ما فرط من العمل وما أسلف من قبيح الفعل ولهذا قال (حتى إذا جاءتهم الساعَةُ بَغْتَةً قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها) وهذا الضمير يحتمل

عوده على الحياة وعلى الأعمال وعلى الدار الآخرة أى فى أمرها وقوله (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون) أى يحملون وقال قتادة يعملون ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن عمرو ابن قيس عن أبي مرزوق قال يستقبل الكافر أو الفاجر عند خروجه من قبره كأقبح صورته رأيتها وأنته ربحاً فيقول من أنت فيقول أو ما تعرفنى فيقول لا والله إلا أن الله قبح وجهك وأنتن ريحك فيقول أنا عملك الحثيث هكذا . كنت فى الدنيا خبيث العمل منتنه فظالمنا ركبتنى فى الدنيا هل أركبك فهو قوله (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) الآية ، وقال أسباط عن السدى انه قال : ليس من رجل ظالم يدخل قبره إلا جاءه رجل قبيح الوجه أسود اللون منتن الريح وعليه ثياب دنسة حتى يدخل معه قبره فإذا رآه قال ما أقبح وجهك قال كذلك كان عملك قبيحاً قال ما أنتن ريحك قال كذلك كان عملك منتناً ، قال ما أدنس ثيابك ، قال فيقول إن عملك كان دنساً ، قاله من أنت ؟ قال عملك ، قال فيكون معه فى قبره فإذا بعث يوم القيامة قال له : إني كنت أحملك فى الدنيا باللذات والشهوات وأنت اليوم تحملنى ، قال فيركب على ظهره فيسوقه حتى يدخله النار ، فذلك قوله (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون) وقوله (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو) أى إنما غالبا كذلك (ولدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون)

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِبَيِّنَاتٍ اللَّهِ يَمْجِدُونَ * وَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنْتَاهُمْ نُصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِيٍّ الْمُرْسَلِينَ * وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ * إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾

يقول تعالى مسلماً لنبيه صلى الله عليه وسلم فى تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه (قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون) أى قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم كقوله (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) كما قال تعالى فى الآية الأخرى (لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين) (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً) وقوله (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يمحذون) أى لا يتهمونك بالكذب فى نفس الأمر (ولكن الظالمين بآيات الله يمحذون) أى ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم كما قال سفيان الثوري عن أبي إسحق عن ناجية بن كعب عن علي قال : قال أبو جهل للنبي صلى الله عليه وسلم إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به فأنزل الله (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يمحذون) ورواه الحاكم من طريق إسرائيل عن أبي إسحق ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن الواسطى بمكة حدثنا بشر بن البشر الواسطى عن سلام بن مسكين عن أبي يزيد المدنى أن النبي صلى الله عليه وسلم لقي أبا جهل فصافحه فقال له رجل ألا أراك تصافح هذا الصابي ؟ فقال والله إني لأعلم إنه لني ولكن متى كنا لبي عبد مناف تبعاً ؟ وتلا أبو يزيد (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يمحذون) وقال أبو صالح وقتادة يعلمون أنك رسول الله ويحذون ، وذكر محمد بن إسحق عن الزهري فى قصة أبي جهل حين جاء يستمع قراءة النبي صلى الله عليه وسلم من الليل هو وأبو سفيان صخر بن حرب والأخنس بن شريق ولا يشعر أحد منهم بالآخر فاستمعوها إلى الصباح فلما هجم الصبح تفرقوا فجمعهم الطريق فقال كل منهم للآخر ما جاء بك ؟ فذكر له ما جاء به ثم تعاهدوا أن لا يعودوا لما يخافون من علم شباب قريش بهم لئلا يفتنوا بمجيئهم ، فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ظناً أن صاحبيه لا يحيثان لما سبق من العهود فلما أصبحوا جمعهم الطريق

فتلاوموا ثم تعاهدوا أن لا يعودوا فلما كانت الليلة الثالثة جاءوا أيضاً فلما أصبحوا تعاهدوا أن لا يعودوا مثلها ثم تفرقوا فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أباسفيان بن حرب في بيته فقال أخبرني يا أباحنظلة عن رأيتك فيما سمعت من محمد قال يا أبانعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها وسمعت أشياء ما عرفت معناها وما يراد بها ، قال الأخنس وأنا والذي حلفت به ، ثم خرج من عنده حتى أتى أباجهل فدخل عليه بيته فقال يا أبا الحكم مارأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال ماذا سمعت ؟ قال تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجأنا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمضى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدق ، قال فقام عنه الأخنس وتركه .

وروى ابن جرير من طريق أسباط عن السدي في قوله (قد علم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يخحدون) لما كان يوم بدر قال الأخنس بن شريق لبني زهرة يابني زهرة إن محمداً ابن أخنكم فأنتم أحق من ذب عن ابن أخته فإنه إن كان نبياً لم تقا تلوه اليوم وإن كان كاذباً كنتم أحق من كف عن ابن أخته ، فقوا حتى ألقى أبا الحكم فان غلب محمد رجعت سالمين ، وإن غلب محمد فان قومكم لم يصنعوا بكم شيئاً - فيومئذ سمى الأخنس وكان اسمه أبي - فالتقى الأخنس وأبو جهل فخلا الأخنس بأبي جهل فقال يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب فإنه ليس هاهنا من قريش غيري وغيرك يستمع كلامنا ؟ فقال أبو جهل ويحك والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهبت بنو قصى بالولاء والسقاية والحجابه والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ؟ فذلك قوله (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يخحدون) فآيات الله محمد ﷺ

وقوله (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا) هذه تسليية للنبي ﷺ وتعزية له فيمن كذبه من قومه ، وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، ووعد له بالنصر كما نصره ، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ ثم جاءهم النصر في الدنيا كما لهم النصر في الآخرة ولهذا قال (ولا مبدل لكلمات الله) أي التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين كما قال (ولقد سبقت كلتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون) وقال تعالى (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز) وقوله (ولقد جاءك من نبأ المرسلين) أي من خبرهم كيف نصره وأيدوا على من كذبهم من قومهم فلك فيهم أسوة وبهم قدوة . ثم قال تعالى (وإن كان كبر عليك إعراضهم) أي إن كان شق عليك إعراضهم عنك (فإن استطعت أن تتنقى نفقا في الأرض أو سلماً في السماء) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : الفق السرب فتذهب فيه فتأتيهم بآية أو تجعل لك سلماً في السماء فتصعد فيه فتأتيهم بآية أفضل مما آتيتهم به فافعل ، وكذا قال قتادة والسدي وغيرهما وقوله (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين) كقوله تعالى (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً) الآية قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) قال إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة في الذكر الأول ، وقوله تعالى (إنما يستجيب الذين يسمعون) أي إنما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه كقوله (لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين) وقوله (والموثق بيعة الله ثم إليه يرجعون) يعني بذلك الكفار لأنهم موتى القلوب فشبهم الله بأموال الأجساد فقال (والموثق بيعة الله ثم إليه يرجعون) وهذا من باب التكم بهم والازراء عليهم

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ

يُحْشَرُونَ* وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءِ اللَّهُ يُضِلِّهِ وَمَنْ يَشَاءِ اللَّهُ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين أنهم كانوا يقولون لولا نزل عليه آية من ربه أى خارق على مقتضى ما كانوا يريدون وما يتعنتون كقولهم (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) الآيات (قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون) أى هو تعالى قادر على ذلك ولكن حكمته تعالى تقتضى تأخير ذلك لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا لما جلهم بالمعقوبة كما فعل بالأمة السالفة كما قال تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتيناهم ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) وقال تعالى (إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلمت أعناقهم لها خاضعين) وقوله (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) قال مجاهد: أى أصناف مصنفة تعرف بأسمائها . وقال قتادة : الطير أمة والإنس أمة والجن أمة وقال السدى (إلا أمم أمثالكم) أى خلق أمثالكم وقوله (ما فرطنا فى الكتاب من شيء) أى الجميع علمهم عند الله ولا ينسى واحدا من جميعها من رزقه وتديره سواء كان برياً أو بحرياً كقوله (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين) أى مفصّل بأسمائها وأعدادها ومظانها وحاصر لحركاتها وسكناتها وقال تعالى (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم) وقد قال الحافظ أبو يعلى حدثنا محمد بن الثنى حدثنا عبيد بن واقد القيسى أبو عباد حدثني محمد بن عيسى بن كيسان حدثنا محمد بن النكدر عن جابر بن عبد الله قال: قل الجراد فى سنة من سنة عمر رضى الله عنه التى ولى فيها فسأل عنه فلم يخبر بشيء فاعتم لذلك فأرسل راكباً إلى كذا وآخر إلى الشام وآخر إلى العراق يسأل هل رأى من الجراد شيء أم لا ؟ قال فأما الراكب الذى من قبل اليمن بقبضة من جراد فألقاها بين يديه فلما رآها كبر ثلاثاً ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول (خلق الله عز وجل أمة منها ستائة فى البحر وأربعائة فى البر وأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد فإذا هلكت تابعت مثل النظام إذا قطع سلكه » وقوله (ثم إلى ربهم يحشرون) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله (ثم إلى ربهم يحشرون) قال حشرها الموت وكذا رواه ابن جرير من طريق إسرائيل عن سعيد بن مسروق عن عكرمة عن ابن عباس قال موت البهائم حشرها وكذا رواه العوفى عنه قال ابن أبى حاتم وروى عن مجاهد والضحاك مثله (والقول الثانى) إن حشرها هو بعثها يوم القيامة لقوله (وإذا الوحوش حشرت) وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سليمان عن منذر الثورى عن أشياخ لهم عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنتطحان فقال « يا أباذر هل تدرى فيم تنتطحان ؟ » قال لا قال « لكن الله يدرى وسيقضى بينهما » ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الأعمش عن عمن ذكره عن أبى ذر قال بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ انتطححت عنزان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتدرون فيم انتطححتا ؟ » قالوا لا ندرى قال « لكن الله يدرى وسيقضى بينهما » رواه ابن جرير ثم رواه من طريق منذر الثورى عن أبى ذر فذكره وزاد قال أبو ذر ولقد تركنا رسول الله ﷺ وما يقلب طائر جناحيه فى السماء إلا ذكر لنا منه علماً وقال عبد الله ابن الإمام أحمد فى مسند أبيه حدثني عباس بن محمد وأبو يحيى البزار قال حدثنا حجاج بن نصير حدثنا شعبة عن العوام بن مزاحم عن بنى قيس بن ثعلبة عن أبى عثمان النهدي عن عثمان رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة » وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عن أبى هريرة فى قوله (إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون) قال يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شيء فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجماء من القرناء ثم يقول كوني تراباً فلذلك يقول الكافر (يا ليتنى كنت تراباً) وقد روى هذا مرفوعاً فى حديث الصور

وقوله (والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات) أى مثلهم فى جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم وهو

الذى لا يسمع أبكم وهو الذى لا يتكلم وهو مع هذا فى ظلمات لا يبصر فكيف يهتدى مثل هذا إلى الطريق أو يخرج مما هو فيه كقوله (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمى فهم لا يرجعون) وكما قال تعالى (أو كظلمات فى بحر لجى يغشاء موج من فوقه سحب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) ولهذا قال (من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) أى هو المتصرف فى خلقه بما يشاء

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقَطَّعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

يخبر تعالى أنه الفعل لما يريد المتصرف فى خلقه بما يشاء وأنه لا معقب لحكمه ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه بل هو وحده لا شريك له الذى إذا سئل يحيب لمن يشاء ولهذا قال (قل أرايتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة) أى أتاكم هذا أو هذا (أغير الله تدعون إن كنتم صادقين) أى لا تدعون غيره لعلمكم أنه لا يقدر أحد على رفع ذلك سواه ولهذا قال (إن كنتم صادقين) أى فى اتخاذكم آلهة معه (بل إياه تدعون فى كشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون) أى فى وقت الضرورة لا تدعون أحدا سواه وتذهب عنكم أصدانكم وأندادكم كقوله (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه) الآية وقوله (ولقد أرسلنا إلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ) يعنى الفقر والضيقة فى العيش (والضراء) وهى الأمراض والأسقام والآلام (لعلمهم يتضرعون) أى يدعون الله ويتضرعون إليه ويخشعون ، قال الله تعالى (فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا) أى فهلا إذ ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتمسكنوا لدينا ولكن قست قلوبهم) أى مارقت ولا خشعت (وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) أى من الشرك والمعاندة والمعاصى (فلما نسوا ما ذكروا به) أى أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم (فتحنا عليهم أبواب كل شيء) أى فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم ، عياذا بالله من مكره ، ولهذا قال (حتى إذا فرحوا بما أوتوا) أى من الأموال والأولاد والأرزاق (أخذناهم بغتة) أى على غفلة (فإذا هم مبلسون) أى آيسون من كل خير قال الواجب عن ابن عباس الملبس : الآيس ، وقال الحسن البصرى من وسع الله عليه فلم ير أنه مكر به فلا رأى له ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له فلا رأى له ثم قرأ (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) قال مكر بالقوم ورب الكعبة أعطوا حاجتهم ثم أخذوا ، رواه ابن أبي حاتم ، وقال قتادة بغت القوم أمر الله وما أخذ الله قوما قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم فلا تقفروا بالله فانه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون رواه ابن أبي حاتم أيضاً

وقال مالك عن الزهري (فتحنا عليهم أبواب كل شيء) قال رخاء الدنيا ويسرها ، وقد قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين - يعنى ابن سعد أبا الحجاج المهرى - عن حملة بن عمران التجيبى عن عقبة بن مسلم عن عقبة ابن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج » ثم تلا رسول الله ﷺ (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا

أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث حرملة وابن لهيعة عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر به . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام بن عمار حدثنا عراك بن خالد بن يزيد حدثني أبي عن إبراهيم بن أبي عبلة عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ كان يقول : إذا أراد الله بقوم بقاء أو ناء رزقهم القصد والعفاف وإذا أراد الله بقوم اقتطاعاً فتح لهم - أو فتح عليهم - باب خيانة (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) كما قال (قطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) ورواه أحمد وغيره

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَيَّاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ * وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمْشِيهِمْ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ قل لهؤلاء الكذابين العاندين (أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم) أي سلبكم إياها كما أعطاكموها . كما قال تعالى (هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار) الآية ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بهما الانتفاع الشرعي ولهذا قال (وختم على قلوبكم) كما قال (أمن بملك السمع والأبصار) وقال (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) وقوله (من إله غير الله يأتيكم به) أي هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك اليكم إذا سلبه الله منكم لا يقدر على ذلك أحد سواه ولهذا قال (انظر كيف نصرف الآيات) أي نبينها ونوضحها ونفسرها دالة على أنه لا إله إلا الله وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال (ثم هم يصدفون) أي ثم هم مع هذا البيان يصدفون أي يعرضون عن الحق ويصدون الناس عن اتباعه قال العوفي عن ابن عباس يصدفون أي يعدلون وقال مجاهد وقتادة يعرضون وقال السدي يصدون وقوله تعالى (قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله بغتة) أي وأنتم لا تشعرون به حتى بغتكم وفجأكم (أو جهرة) أي ظاهراً عياناً (هل يهلك إلا القوم الظالمون) أي إنما كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله وينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون كقوله (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) الآية ، وقوله (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) أي مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات ومنذرين من كفر بالله النقيات والعقوبات ، ولهذا قال (فمن آمن وأصلح) أي فمن آمن قلبه بما جاءوا به وأصلح عمله باتباعه إياهم (فلا خوف عليهم) أي بالنسبة لما يستقبلونه (ولا هم يحزنون أي بالنسبة إلى مفاتهم وتركوا وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعها ، الله وليهم فيما خلفوه ، وحافظهم فيما تركوه ، ثم قال (والذين كذبوا بآياتنا يسعهم العذاب بما كانوا يفسقون) أي ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل وخرجوا عن أوامر الله وطاعته وارتكبوا من مناهيه ومحارمه واتهك حرماته

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ * وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ * وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ * وَإِذَا جَاءَكَ

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا نُنَزِّلُ مِنْ رَبِّهِمْ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣٤﴾

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله) أى لست أملكها ولا أتصرف فيها (ولا أعلم الغيب) أى ولا أقول لكم إني أعلم الغيب إنما ذلك من علم الله عز وجل ولا أطلع منه إلا على ما أطلعنى عليه (ولا أقول لكم إني ملك) أى ولا أدعى أنى ملك إنما أنا بشر من البشر يوحى إلى من الله عز وجل شرفنى بذلك وأنعم علىّ به ولهذا قال (إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ) أى لست أخرج عنه قيد شبر ولا أدنى منه (قل هل يستوى الأعمى والبصير) أى هل يستوى من اتبع الحق وهدى اليه ومن ضل عنه فلم ينقذ له (أفلا تتفكرون) وهذه كقوله تعالى (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يذكر أولو الأبواب) وقوله (وأنذر به الدين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع) أى وأنذر بهذا القرآن يا محمد (الذين هم من خشية ربهم مشفقون) (الذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) (الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) أى يوم القيامة (ليس لهم) أى يومئذ (من دونه ولى ولا شفيع) أى لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أرادهم بهم (لعلمهم يتقون) أى أنذر هذا اليوم الذى لا حاكم فيه إلا الله عز وجل (لعلمهم يتقون) فيعملون في هذه الدار عملاً ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه ، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه . وقوله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) أى لا تبع هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك كقوله (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً) وقوله (يدعون ربهم) أى يعبدونه ويسألونه (بالغداة والعشى) قال سعيد بن المسيب ومجاهد والحسن وقتادة المراد به الصلاة المكتوبة وهذا كقوله (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم) أى أقبل منكم وقوله (يريدون وجهه) أى يريدون بذلك العمل وجه الله الكريم وهم مخلصون فياهم فيه من العبادات والطاعات وقوله ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء) كقول نوح عليه السلام في جواب الذين قالوا أنؤمن لك واتبعت الأزدلون وما علمى بما كانوا يعملون إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون . أى إنما حسابهم على الله عز وجل وليس على من حسابهم من شيء كما أنه ليس عليهم من حسابى من شيء ، وقوله (فطردهم فتكون من الظالمين) أى إن فعات هذا والحالة هذه قال الإمام أحمد حدثنا أسباط هو ابن محمد حدثني أشعث عن كردوس عن ابن مسعود قال مر الملائم من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار فقالوا يا محمد أَرْضَيْتَ بِهِؤْلَاءَ ؟ فنزل فيهم القرآن (وأنذر به الدين يخافون أن يحشروا إلى ربهم - إلى قوله - أليس الله بأعلم بالشاكرين) ورواه ابن جرير من طريق أشعث عن عن كردوس عن ابن مسعود قال . مر الملائم من قريش برسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب وبلال وعمار وخباب وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا يا محمد أَرْضَيْتَ بِهِؤْلَاءَ من قومك ؟ أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نصير تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم فلعلك إن طردتهم تتبعك ، فنزلت هذه الآية (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) (وكذلك فتنا بعضهم ببعض) إلى آخر الآية ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد بن يحيى حدثنا سعيد القطان حدثنا عمرو بن محمد العقزى حدثنا أسباط بن نصر عن السدى عن أبي سعيد الأزدى - وكان فارسى الأزد - عن أبي الكنود عن خباب في قول الله عز وجل (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) قال جاء الأقرع ابن حابس التميمي وعيينة بن حسن الفزاري فوجدوا رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعدا في ناس من الضعفاء من المؤمنين فلما رأوهم حول النبي صلى الله عليه وسلم حقروهم في نفر في أصحابه فأتوه فخلوا به وقالوا إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا فإن وفود العرب تأتيك فستحجي أن ترانا العرب

مع هذه الأعباء فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت قال « نعم » قالوا فاكتب لنا عليك كتابا قال فدعا بصحيفة ودعا عليا ليكتب ونحن قعود في ناحية فنزل جبريل فقال (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) الآية فرمى رسول الله ﷺ بالصحيفة من يده ثم دعانا فأتيناه ، ورواه ابن جرير من حديث أسباط به ، وهذا حديث غريب فإن هذه الآية مكية والأقرع بن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر وقال سفيان الثوري عن المقدم بن شريح عن أبيه قال : قال سعد نزلت هذه الآية في ستة من أصحاب النبي ﷺ منهم ابن مسعود قال كنا نستبق إلى رسول الله ﷺ وندنو منه ونسمع منه فقالت قريش تدنى هؤلاء دوننا فنزلت (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) رواه الحاكم في مستدركه من طريق سفيان وقال على شرط الشيخين وأخرجه ابن حبان في صحيحه من طريق المقدم بن شريح به

وقوله (وكذلك فتننا بعضهم ببعض) أي ابتلينا واختبرنا وامتحاننا بعضهم ببعض (ليقولوا هؤلاء من الله عليهم من بيننا) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان غالب من اتبعه في أول بعثته ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل كما قال قوم نوح لنوح (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراد لنا بادي الرأي) الآية وكما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان حين سأله عن تلك المسائل فقال له فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم فقال بل ضعفاؤهم فقال هم أتباع الرسل والغرض أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفاءهم وبعذبون من يقدرون عليه منهم وكانوا يقولون هؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ أي ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير لو كان ماصاروا إليه خيرا ويدعنا كقولهم (لو كان خيرا ما سبقونا إليه) وكقوله تعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندباً) قال الله تعالى في جواب ذلك (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورثاً) وقال في جوابهم حين قالوا (هؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) أي أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضامهم فيوقفهم ويهديهم سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم كما قال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع الحسنيين) وفي الحديث الصحيح « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وقال ابن جرير حدثنا العاصم حدثنا الحسين عن حجاج عن ابن جريج عن عكرمة في قوله (وأندربه الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) الآية قال جاء عتبة ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة ومطعم بن عدي والحارث بن نوفل وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل في أشرف من بني عبد مناف من أهل الكفر إلى أبي طالب فقالوا يا أبا طالب لو أن ابن أخيك محمداً يطرد عنه موالينا وحلفاءنا فإنما هم عبيدنا وعسفاؤنا كان أعظم في صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقنا له قال فأتى أبو طالب النبي ﷺ فحدثه بذلك فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لو فعلت ذلك حتى تنظر ما الذي يريدون وإلى ما يصيرون من قولهم فأنزل الله عز وجل هذه الآية (وأندربه الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) إلى قوله (أليس الله بأعلم بالشاكرين) قال وكانوا بلالا وعمار بن ياسر وسالما مولى أبي حذيفة وصبيحا مولى أسيد ومن الحلفاء ابن مسعود والمقداد بن عمرو ومسعود ابن القاري وواقد بن عبد الله الحنظلي وعمرو بن عبد عمرو وذو الشمالين ومرثد بن أبي مرثد وأبو مرثد الغنوي حليف حمزة بن عبد المطلب وأشباههم من الحلفاء ونزلت في أئمة الكفر من قريش والموالي والحلفاء (وكذلك فتننا بعضهم ببعض ليقولوا هؤلاء من الله عليهم من بيننا) الآية فلما نزلت أقبلت عمر رضي الله عنه فأتى النبي ﷺ فاعتذر من مقالته فأ نزل الله عز وجل (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا) الآية وقوله (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم) أي فأكرمهم برد السلام عليهم وبشرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم ولهذا قال (كتب ربكم على نفسه الرحمة) أي أوجبها على نفسه الكريمة تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً (أنه من عملكم سمكم سواء بجهالة) قال بعض السلف كل من عصي الله فهو جاهل ، وقال معتمر بن سليمان عن الحكم بن أبان بن عكرمة في قوله (من عمل منكم سوءاً بجهالة) قال الدنيا كلها جهالة رواه ابن أبي حاتم (ثم تاب من بعده وأصلح) أي رحع عما كان عليه من المعاصي وأقلع

وعزم على أن لا يعود وأصلح العمل في المستقبل (فإنه غفور رحيم) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لما قضى الله على الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي » أخرجه في الصحيحين وهكذا رواه الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ورواه موسى بن عقبة عن الأعرج عن أبي هريرة وكذا رواه الليث وغيره عن محمد بن عجلان عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بذلك وقد روى ابن مردويه من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق أخرج كتابا من تحت العرش إن رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين فيقبض قبضة أو قبضتين فيخرج من النار خلقا لم يعملوا خيرا مكتوب بين أعينهم عتقاء الله » وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن عاصم بن سليمان عن أبي عثمان التهمدي عن سلمان في قوله (كتب ربكم على نفسه الرحمة) قال أنا نجد في التوراة عطفين أن الله خلق السموات والأرض وخلق مائة رحمة أوجعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق ثم خلق الخلق فوضع بينهم رحمة واحدة وأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة قال فيها يتراحمون وبها يتعاطفون وبها يتبذلون وبها يتزاورون وبها تحن الناقة وبها تبخ البقرة وبها تنغو الشاة وبها تتتابع الحيتان في البحر فإذا كان يوم القيامة جمع الله تلك الرحمة إلى ما عنده ورحمته أفضل وأوسع ، وقد روى هذا مرفوعا من وجه آخر وسيأتي كثير من الأحاديث الموافقة لهذه عند قوله (ورحمتي وسعت كل شيء) ومما يناسب هذه الآية من الأحاديث أيضا قوله ﷺ لمعاذ بن جبل « أتدرى ما حق الله على العباد ؟ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا » ثم قال « أتدرى ما حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك ؟ أن لا يعذبهم » وقد رواه الإمام أحمد من طريق كميل بن زياد عن أبي هريرة رضى الله عنه

﴿ وَكَذَلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ * قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ * قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ * قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ * وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْفُطُ مِنْ رِزْقٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾

يقول تعالى وكما بيننا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد وضم المجادلة والعتاد (كذلك نفصل الآيات) أي التي يحتاج المخاطبون إلى بيانها (ولتستبين سبيل المجرمين) أي ولتظهر طريق المجرمين الخالفين للرسول وقرئ (ولتستبين سبيل المجرمين) أي ولتستبين يا محمد أوبا مخاطب سبيل المجرمين وقوله (قل إنني على بينة من ربي) أي على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها الله إلي (وكذبتهم به) أي بالحق الذي جاءني من الله (ما عندي ما تستعجلون به) أي من العذاب (إن الحكم إلا لله) أي إنما يرجع أمر ذلك إلى الله إن شاء عجل لكم ما سألتموه من ذلك وإن شاء أنظركم وأجلكم لما له في ذلك من الحكمة العظيمة ولهذا قال (يقص الحق وهو خير الفاصلين) أي وهو خير من فصل القضايا وخير الفاتحين في الحكم بين عباده ، وقوله (قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضى الأمر بيني وبينكم) أي لو كان مرجع ذلك إلى لأوقت لكم ما تستحقونه من ذلك والله أعلم بالظالمين ، فان قيل فما الجمع بين هذه الآية وبين ما ثبت في الصحيحين من طريق ابن وهب عن يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة أنها قالت لرسول الله ﷺ يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ فقال لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منه يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يحبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم استنق إلا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا سحابة فدخلتني فظننت فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني فقال: إن الله قد

سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث اليك ملك الجبال لتأمرهم بما شئت فيهم قال فناداني ملك الجبال وسلم علي ثم قال يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وقد بعثني ربك اليك لتأمرني بأمرك فما شئت ، إن شئت أطقت عليهم الأخشبين فقال رسول الله ﷺ « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً » وهذا لفظ مسلم فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم فاستأثني بهم وسأل لهم التأخير لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئاً فما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة (قل لو أن عندى ماتستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم والله أعلم بالظالمين) فالجواب والله أعلم أن هذه الآية دلت على أنه لو كان اليه وقوع العذاب الذى يطلبونه حال طلبهم له لأوقعه بهم وأما الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم بل عرض عليه ملك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين وهما جبال مكة اللذان يكتشفانها جنوباً وشمالاً فلماذا استأثني بهم وسأل الرفق لهم . وقوله تعالى (وعنده معارج الغيب لا يعلمها إلا هو) قال البخارى حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا إبراهيم بن سعد عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مفتاح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله » (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس بأى أمر) علم الساعة ، وفى حديث عمر أن جبريل حين تبدى له فى صورة أعرابى فسأل عن الإيمان . والاسلام والاحسان فقال له النبي ﷺ فيما قال له « خمس لا يعلمهن إلا الله » ثم قرأ (إن الله عنده علم الساعة) الآية . وقوله (ويعلم ما فى البر والبحر) أى يحيط علمه الكريم بجميع الموجودات برها وبحريها لا يخفى عليه من ذلك شيء ولا مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء وما أحسن ما قال الصرصرى :

فلا يخفى عليه الدر إما * تراهى للنواظر أو توارى

وقوله (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) أى ويعلم الحركات حتى من الجمادات فما ظنك بالحيوانات ولا سائر الكلفون منهم من جنهم وإنسهم كما قال تعالى (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن سعيد بن مسروق حدثنا حسان النخعى عن ابن عباس فى قوله (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) قال ما من شجرة فى بر ولا بحر إلا وملك موكل بها يكتب ما يسقط منها رواه ابن أبي حاتم وقوله (ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) قال ابن أبي حاتم حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن السور الزهرى حدثنا مالك بن سعيير حدثنا الأعمش عن يزيد بن أبى زياد عن عبد الله بن الحارث قال ما فى الأرض من شجرة ولا مغرز إلا وعلمها ملك موكل بأمر الله بعلمها رطبها إذا رطبت ويوسفها إذا يبست وكذا رواه ابن جرير عن أبى الخطاب زياد بن عبد الله الحسانى عن مالك بن سعيير به . ثم قال ابن أبي حاتم ذكر عن أبى حذيفة حدثنا سفيان عن عمرو بن قيس عن رجل عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال خلق الله النون وهى الدواة وخلق الألواح فكتب فيها أمر الدنيا حتى ينقضى ما كان من خلق مخلوق أو رزق حلال أو حرام أو عمل بر أو فجور وقرأ هذه الآية (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) إلى آخر الآية قال محمد بن إسحق عن يحيى بن النضر عن أبيه سمعت عبد الله بن عمرو ابن العاص يقول إن تحت الأرض الثالثة وفوق الرابعة من الجن مالوا أنهم ظهروا يعنى لكم لترى أرواحهم نوراً على كل زاوية من زوايا الأرض خاتم من خواتيم الله عز وجل على كل خاتم ملك من الملائكة يبعث الله عز وجل اليه فى كل يوم ملكاً من عنده أن احتفظ بما عندك .

﴿ وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ * وَهُوَ الْغَايُ تُفَوِّقُ عِبَادَهُ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحُسْبِينِ ﴿

يقول تعالى إنه يتوفى عباده في منامهم بالليل وهذا هو التوفى الأصغر كما قال تعالى (إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعتك إلی) وقال تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) فذكر في هذه الآية الوفاتين الكبرى والصغرى وهكذا ذكر في هذا المقام حكم الوفاتين الصغرى ثم الكبرى فقال (وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار) أي ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقهم ونهارهم في حال سكونهم وحال حركتهم كما قال (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) وكما قال تعالى (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه) أي في الليل (ولتبتغوا من فضله) أي في النهار كما قال (وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً) ولهذا قال تعالى ها هنا (وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار) أي ما كسبتم من الأعمال فيه (ثم يبعثكم فيه) أي في النهار قاله مجاهد وقتادة والسدى ، وقال ابن جريج عن عبد الله بن كثير أي في المنام والأول أظهر وقد روى ابن مردويه بسنده عن الضحاك عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال « مع كل إنسان ملك إذا نام أخذ نفسه ويرد إليه فإن أذن الله في قبض روحه قبضه وإلأرد إليه » فذلك قوله (وهو الذي يتوفاكم بالليل)

وقوله (ليقضى أجل مسمى) يعنى به أجل كل واحد من الناس (ثم إليه مرجعكم) أي يوم القيامة (ثم ينشكم) أي فيخبركم (بما كنتم تعملون) أي ويحجزكم على ذلك إن خيراً فخير وإن شراً فشر وقوله (وهو القاهر فوق عباده) أي وهو الذي قهر كل شيء وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء (ويرسل عايكم حفظة) أي من الملائكة يحفظون بدن الإنسان كقوله (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) وحفظة يحفظون عمله ويحفظونه كقوله (وإن عليكم لحافظين) الآية وكقوله (عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) وقوله (إذ يتلقى التلقين) الآية وقوله (حتى إذا جاء أحدكم الموت) أي احتضر وحان أجله (توفته رسلنا) أي ملائكة موكلون بذلك قال ابن عباس وغير واحد : للملك الموت أعوان من الملائكة يخرجون الروح من الجسد فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحلقوم ، وسيأتى عند قوله تعالى (ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) الأحاديث المتعلقة بذلك الشاهدة لهذا الروى عن ابن عباس وغيره بالصحة ، وقوله (وهم لا يفرطون) أي في حفظ روح التوفى بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله عز وجل إن كان من الأبرار ففي عليين وإن كان من النجار ففي سجين عبادا بالله من ذلك وقوله (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) قال ابن جرير (ثم ردوا) يعنى الملائكة (إلى الله مولاهم الحق) ونذكرها هنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال حدثنا حسين بن محمد حدثنا ابن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال « إن الميت يحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، اخرجى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان فلا تزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا فيقال فلان فيقال مرحبا بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ادخلى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان فلا تزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل وإذا كان الرجل السوء قالوا اخرجى أيتها النفس الحبيثة كانت في الجسد الخبيث اخرجى دميعة وأبشرى بجميم وغساق وآخر من شكله أزواج فلا تزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا فيقال فلان فيقال لا مرحباً بالنفس الحبيثة كانت في الجسد الخبيث ارحمى دميعة فانه لا يفتح لك أبواب السماء فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل في الحديث الثانى » هذا حديث غريب ويحتمل أن يكون المراد بقوله (ثم ردوا) يعنى الخلائق كلهم إلى الله يوم القيامة فيحكم بهم بعدله كما قال (قل إن الأولين والآخرين لجموعون إلى ميقات يوم معلوم) وقال (وحشرناهم فلم تغادر منهم أحداً) إلى قوله (ولا يظلم ربك أحداً) ولهذا قال (مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين)

﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَاكُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ * قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ * قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿

يقول تعالى ممثلاً على عباده في إنجائهم المضطرين منهم من ظلمات البر والبحر أى الحائرين الواقعين في المهام البرية وفي اللجج البحرية إذا هاجت الرياح العاصفة فحينئذ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له كقوله (وإذا مسك الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه) الآية وقوله (هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم برح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجبتنا من هذه لنكونن من الشاكرين) الآية وقوله (أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته إله مع الله تعالى الله عما يشركون) وقال فى هذه الآية الكريمة (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية) أى جهراً وسراً (لئن أنجنا) أى من هذه الضائقة (لنكونن من الشاكرين) أى بعده قال الله (قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم) أى بعد ذلك (تشركون) أى تدعون معه فى حال الرفاهية آلهة أخرى وقوله (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم) لما قال ثم أنتم تشركون عقبه بقوله (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً) أى بعد إنجائهم إياكم كقوله فى سورة سبحان (ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحماً) وإذا مسك الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما أنجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً . أفأنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلاً أم أمتن أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) قال ابن أبى حاتم ذكر عن مسلم بن إبراهيم حدثنا هارون الأعور عن جعفر بن سليمان عن الحسن فى قوله (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم) قال هذه للمشركين . وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم) لأمة محمد ﷺ وعنى عنهم ، ونذكر هنا الأحاديث الواردة فى ذلك والآثار وبالله المستعان وعليه التكلان وبه الثقة

قال البخارى رحمه الله تعالى فى قوله تعالى (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم) أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض النظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون) يلبسكم يخلطكم من الالتباس يلبسوا يخلطوا شيعاً فرقاً حدثنا أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد عن عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله قال لما نزلت هذه الآية (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم) قال رسول الله ﷺ « أعوذ بوجهك » (أو من تحت أرجلكم) قال « أعوذ بوجهك » (أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض) قال رسول الله ﷺ « هذه أهون - أو - أيسر » وهكذا رواه أيضاً فى كتاب التوحيد عن قتبية عن حماد به ، ورواه النسائى أيضاً فى التفسير عن قتبية ومحمد بن الفضل ابن مساور ويحيى بن حبيب بن عدى أربعهم عن حماد بن زيد به ، وقد رواه الحميدى فى مسنده عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار سمع جابراً عن النبي صلى الله عليه وسلم به . ورواه ابن حبان فى صحيحه عن أبى يعلى الوصلى عن أبى خيثمة عن سفيان بن عيينة به ، ورواه ابن جرير فى تفسيره عن أحمد بن الوليد القرشى وسعيد بن الربيع وسفيان بن وكيع كلهم عن سفيان بن عيينة به ، ورواه أبو بكر بن مردويه عن حديث آدم بن أبى إياس ويحيى بن عبد الحميد وعاصم ابن حلى عن سفيان بن عيينة به ورواه سعيد بن منصور عن حماد بن زيد وسفيان بن عيينة كلاهما عن عمرو بن دينار به

(طريق آخر) قال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا مقدم بن داود حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا عبد الله بن لهيعة عن خالد بن يزيد عن أبي الزبير عن جابر قال لما نزلت (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) قال رسول الله ﷺ « أعوذ بالله من ذلك » (أو من تحت أرجلكم) قال رسول الله ﷺ « أعوذ بالله من ذلك » (أو يلبسكم شيئا) قال « هذا أيسر » ولو استعاذه لأعاده . ويتعلق بهذه الآية أحاديث كثيرة (أحدها) قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده حدثنا أبو اليمان حدثنا أبو بكر يعني ابن أبي مريم عن راشد هو ابن سعد المقرئ عن سعد بن أبي وقاص قال سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم) فقال « أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد » وأخرجه الترمذي عن الحسن بن عرفة عن إسماعيل بن عياش عن أبي بكر بن أبي مريم به ثم قال هذا حديث غريب .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا علي هو ابن عبيد حدثنا عثمان بن حكيم عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية فدخل فصلى ركعتين فصلينا معه فناجى ربه عز وجل طويلا ثم قال « سألت ربي ثلاثا سأله أن لا يهلك أمتي بالفرق فأعطانيها وسأله أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها وسأله أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » انفرد بإخراجه مسلم فرواه في كتاب الفتن عن أبي بكر بن أبي شيبة عن محمد بن عبد الله بن نمير كلاهما عن عبد الله بن نمير وعن محمد بن يحيى بن أبي عمرو عن مروان بن معاوية كلاهما عن عثمان بن حكيم به (حديث آخر) قال الإمام أحمد قرأت على عبد الرحمن بن مهدي عن مالك عن عبد الله بن عبد الله ابن جابر بن عتيك عن جابر بن عتيك أنه قال جاءنا عبد الله بن عمر في حرة بني معاوية - قرية من قرى الأنصار - فقال لي هل تدري أين صلى رسول الله ﷺ في مسجدكم هذا ؟ فقلت نعم فأشرت إلى ناحية منه فقال هل تدري ما الثلاث التي دعاها في فيه ؟ فقلت نعم فقال أخبرني بهن فقلت دعا أن لا يظهر عليهم عدوا من غيرهم ولا يهلكهم بالسنين فأعطيهما . ودعا بأن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعها ، قال صدقت فلا يزال المخرج إلى يوم القيامة . ليس هو في شيء من الكتب الستة وإسناده جيد قوى والله الحمد والمنة

(حديث آخر) قال محمد بن إسحق عن حكيم بن حكيم بن عباد عن خفيف عن عباد بن حنيف عن علي بن عبد الرحمن أخبرني حذيفة بن اليمان قال خرجت مع رسول الله ﷺ إلى حرة بني معاوية قال فصلى ثماني ركعات فأطال فيهن ثم التفت إلي فقال « حبستك يا حذيفة » قلت الله ورسوله أعلم قال « إني سألت الله ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سأله أن لا يسلط على أمتي عدوا من غيرهم فأعطاني وسأله أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعني » رواه ابن مردويه من حديث محمد بن إسحاق ، (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عبيدة ابن حميد حدثني سليمان بن الأعمش عن رجاء الأنصاري عن عبد الله بن شداد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال أتيت رسول الله ﷺ فقيل لي خرج قبل ، قال فجعلت لا أمر بأحد إلا قال مر قبل ، حتى مررت فوجدته قائما يصلي قال فجلت حتى قمت خلفه قال : فأطال الصلاة فلما قضى صلاته قلت يا رسول الله قد صليت صلاة طويلة فقال رسول الله ﷺ « إني صليت صلاة ورغبة ورهبة إني سألت الله عز وجل ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة ، سأله أن لا يهلك أمتي غرقا فأعطاني وسأله أن لا يظهر عليهم عدوا ليس منهم فأعطانيها وسأله أن لا يجعل بأسهم بينهم فردها علي » ورواه ابن ماجه في الفتن عن محمد بن عبد الله بن نمير وعلي بن محمد كلاهما عن أبي معاوية عن الأعمش به ورواه ابن مردويه من حديث أبي عوانة عن عبد الله بن عمير عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ بمثله أو نحوه

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا هارون بن معروف حدثنا عبد الله بن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن بكير بن الأشج أن الضحاك بن عبد الله القرشي أحدثه عن أنس بن مالك أنه قال رأيت رسول الله ﷺ في سفر صلى سبعة الضحى ثماني ركعات فلما انصرف قال « إني صليت صلاة ورغبة ورهبة وسألت ربي ثلاثا فأعطاني

اثنتين ومنعني واحدة سأله أن لا يتلى أمتي بالسنين ففعل وسأله أن لا يظهر عليهم عدوهم ففعل، وسأله أن لا يسلبهم شيعاً فأبى على « ورواه النسائي في الصلاة عن محمد بن سلمة عن ابن وهب به . (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا أبو النعمان أخبرنا شعيب بن أبي حمزة قال قال الزهري حدثني عبد الله بن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن عبد الله بن خباب عن أبيه خباب بن الأرت مولى بني زهرة وكان قد شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ أنه قال وافيت رسول الله ﷺ في ليلة صلاها كلها حتى كان مع الفجر فسلم رسول الله ﷺ من صلاته فقلت يا رسول الله لقد صليت الليلة صلاة مارأيتك صليت مثلها فقال رسول الله ﷺ « أجل إنها صلاة رغب ورهب سألت ربي عز وجل فيها ثلاث خصال فأعطاني اثنتين ومعنى واحدة سألت ربي عز وجل أن لا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا فأعطانها وسألت ربي عز وجل أن لا يظهر علينا عدوا من غيرنا فأعطانها وسألت ربي عز وجل أن لا يلبسنا شيعاً فمنعنيها » ورواه النسائي من حديث شعيب ابن أبي حمزة به . ومن وجه آخر وابن حبان في صحيحه بإسناديهما عن صالح بن كيسان والترمذي في الفتن من حديث النعمان بن راشد كلاهما عن الزهري به وقال حسن صحيح . (حديث آخر) قال أبو جعفر بن جرير في تفسيره حدثني زياد بن عبد الله المزني حدثنا مروان بن معاوية الفزاري حدثنا أبو مالك حدثني نافع بن خالد الخزازي عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى صلاة خفيفة تامة الركوع والسجود فقال « قد كانت صلاة رغبة ورهبة ، سألت الله عز وجل فيها ثلاثاً أعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألت الله أن لا يصيبكم بعباد أصاب به من كان قبلكم فأعطانها وسألت الله أن لا يسلط عليكم عدوا يستبيح يضتكم فأعطانها وسألت الله أن لا يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض فمنعنيها » قال أبو مالك فقلت له أبوك سمع هذا من في رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال نعم سمعته يحدث بها القوم أنه سمعها من في رسول الله صلى الله عليه وسلم (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق قال : قال معمر أخبرني أيوب عن أبي قلابة عن الأشعث الصنعاني عن أبي أسماء الرحبي عن شداد بن أوس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله زوى لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها وإن ملك أمتي سيبلغ مازوى لي منها وإني أعطيت الكززين الأبيض والأحمر وإني سألت ربي عز وجل أن لا يهلك أمتي بسنة عامة وأن لا يسلط عليهم عدوا فيهلكهم بعامة وأن لا يلبسهم شيعاً وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض فقال يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد وإني قد أعطيتك لأمتك أن لا أهلكتهم بسنة عامة وأن لا يسلط عليهم عدوا ممن سواهم فيهلكهم بعامة حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً وبعضهم يقتل بعضاً وبعضهم يسبي بعضاً » قال : وقال النبي ﷺ « إني لأخاف على أمتي إلا الأئمة المضلين فإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة » ليس في شيء من الكتب الستة وإسناده جيد قوى وقدرناه ابن مردويه من حديث حماد بن زيد وعبد بن منصور وقتادة ثلاثهم عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان عن رسول الله ﷺ بنحوه والله أعلم

(حديث آخر) قال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا عبد الله بن إسماعيل بن إبراهيم الهاشمي وميمون بن إسحق بن الحسن الحنفي قال حدثنا أحمد بن عبد الجبار حدثنا محمد بن فضيل عن أبي مالك الأشجعي عن نافع بن خالد الخزازي عن أبيه قال وكان أبوه من أصحاب رسول الله ﷺ وكان من أصحاب الشجرة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى والناس حوله صلى صلاة خفيفة تامة الركوع والسجود قال فجلس يوماً فأطال الجلوس حتى أوماً بعضنا إلى بعض أن اسكتوا إنه ينزل عليه فلما فرغ قال له بعض القوم يا رسول الله لقد أطلت الجلوس حتى أوماً بعضنا إلى بعض انه ينزل عليك قال « لا ولكن كانت صلاة رغبة ورهبة سألت الله فيها ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألت الله أن لا يعذبكم بعذاب عذب به من كان قبلكم فأعطانها وسألت الله أن لا يسلط على أمتي عدوا يستبيحها فأعطانها وسأله أن لا يلبسكم شيعاً وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها » قال قلت له أبوك سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال نعم سمعته يقول إنه سمعها من رسول الله ﷺ عدد أصابع هذه عشر أصابع (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا بونس هو ابن محمد المؤدب حدثنا ليث هو ابن سعد عن أبي وهب الخولاني

عن رجل قد ساء عن أبي بصرة الغفاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رسول الله ﷺ قال « سألت ربي عز وجل أربعاً فأعطاني ثلاثاً ومنعني واحدة سألت الله أن لا يجمع أمتي على ضلالة فأعطانيها وسألت الله أن لا يظهر عليهم عدواً من غيرهم فأعطانيها وسألت الله أن لا يهلكهم بالسنين كما أهلك الأمم قبلهم فأعطانيها وسألت الله عز وجل أن لا يلبسهم شيعاً وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها » لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة .

(حديث آخر) قال الطبراني حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا منجاب بن الحارث حدثنا أبو حذيفة الثعلبي عن زياد بن علاقة عن جابر بن سمرة السوائي عن علي أن رسول الله ﷺ قال « سألت ربي ثلاث خصال فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة قلت يارب لا تهلك أمتي جوعاً فقال هذه لك قلت يارب لا تسلط عليهم عدواً من غيرهم يعني أهل الشرك فيجتاحهم قال ذلك لك قلت يارب لا تجعل بأسهم بينهم - قال - فمنعني هذه » . (حديث آخر) قال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم عن أحمد بن محمد بن عاصم . حدثنا أبو الدرداء المروزي حدثنا إسحق بن عبد الله بن كيسان حدثني أبي عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال « دعوت ربي عز وجل أن يرفع عن أمتي أربعاً فرفع الله عنهم ثنتين وأبى علي أن يرفع عنهم ثنتين ، دعوت ربي أن يرفع الرجم من السماء والفرق من الأرض وأن لا يلبسهم شيعاً وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض ، فرفع الله عنهم الرجم من السماء والفرق من الأرض ، وأبى الله أن يرفع اثنتين القتل والهرج » . (طريق أخرى) عن ابن عباس أيضاً قال ابن مردويه حدثنا عبد الله بن محمد بن يزيد حدثني الوليد بن أبان حدثنا جعفر بن منير حدثنا أبو بدر شجاع بن الوليد حدثنا عمرو بن قيس عن رجل عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض) قال: ققام النبي ﷺ فتوضأ ثم قال « اللهم لا ترسل على أمتي عذاباً من فوقهم ولا من تحت أرجلهم ولا تلبسهم شيعاً ولا تذق بعضهم بأس بعض » قال فأثاه جبريل فقال يا محمد إن الله قد أجاز أمتك أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم . (حديث آخر) قال ابن مردويه حدثنا أحمد بن محمد بن عبد الله البزار حدثنا عبد الله بن أحمد بن موسى حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد حدثنا عمرو بن محمد العنقزي حدثنا أسباط عن السدي عن أبي المنهال عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « سألت ربي لأمتي أربع خصال فأعطاني ثلاثاً ومنعني واحدة سألت أن لا تكفر أمتي صفقة واحدة فأعطانيها وسألت أن لا يعذبهم بما عذب به الأمم قبلهم فأعطانيها وسألت أن لا يظهر عليهم عدواً من غيرهم فأعطانيها وسألت أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » ورواه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد بن يحيى بن سعيد القطان عن عمرو بن محمد العنقزي به نحوه .

(طريق أخرى) وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا محمد بن يحيى حدثنا أبو كريب حدثنا زيد بن الحباب حدثنا كثير بن زيد الليثي المدني حدثني الوليد بن رباح مولى آل أبي ذئب سمع أبا هريرة يقول قال النبي ﷺ « سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألت أن لا يسلط على أمتي عدواً من غيرهم فأعطاني وسألت أن لا يهلكهم بالسنين فأعطاني وسألت أن لا يلبسهم شيعاً وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعني » ثم رواه ابن مردويه بإسناده عن سعد بن سعيد عن أبي سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه ورواه البزار من طريق عمرو بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه .

(أثر آخر) قال سفيان الثوري عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب قال أربع قال في هذه الأمة قد مضت اثنتان وبقيت اثنتان (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم) قال الرجم (أو من تحت أرجلكم) قال الحسف (أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض) قال سفيان يعني الرجم والحسف ، وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض) قال فهي أربع خلال منها اثنتان بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة ألبسوا شيعاً وذاق بعضهم بأس بعض وبقيت اثنتان لا بد منهما واقعتان الرجم والحسف ، ورواه أحمد

عن وكيع عن أبي جعفر. ورواه ابن أبي حاتم وقال ابن أبي حاتم حدثنا المنذر بن شاذان حدثنا أحمد بن إسحق حدثنا أبو الأشهب عن الحسن في قوله (قل هو القادر على أن يبعث) الآية قال حسبت عقوبتها حتى عمل ذنبها فلما عمل ذنبها أرسلت عقوبتها وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو مالك والسدي وابن زيد وغير واحد في قوله (عذابا من فوقكم) يعني الرجم (أو من تحت أرجلكم) يعني الحسف وهذا هو اختيار ابن جرير، ورواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم) قال كان عبد الله بن مسعود يصيح وهو في المسجد أو على المنبر يقول ألا أيها الناس إنه قد نزل بكم، إن الله يقول (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) لو جاءكم عذاب من السماء لم يبق منكم أحدا (أو من تحت أرجلكم) لو خسف بكم الأرض أهلككم ولم يبق منكم أحدا (أو يلبسكم شيئا ويذيق بعضكم بأس بعض) ألا إنه نزل بكم أسوأ الثلاث (قول ثان) قال ابن جرير وابن أبي حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب سمعت خالد بن سليمان يقول سمعت عامر بن عبد الرحمن يقول إن ابن عباس كان يقول في هذه الآية (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) فأثم السوء (أو من تحت أرجلكم) فخدم السوء وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس (عذابا من فوقكم) يعني أمراءكم (أو من تحت أرجلكم) يعني عبيدكم وسفلكم، وحكى ابن أبي حاتم عن أبي سنان وعمرو بن هانيء نحو ذلك. قال ابن جرير وهذا القول وإن كان له وجه صحيح لكن الأول أظهر وأقوى، وهو كما قال ابن جرير رحمه الله ويشهد له بالصحة قوله تعالى (أأنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور أم أأنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير) وفي الحديث «ليكونن في هذه الأمة قذف وخسف ومسح» وذلك مذكور مع نظائره في أمارات الساعة وأشراتها وظهور الآيات قبل يوم القيامة وستأتي في موضعها إن شاء الله تعالى وقوله (أو يلبسكم شيئا) يعني يجعلكم ملتبسين شيئا فرقا متخالفين. قال الوالي عن ابن عباس يعني الأهواء وكذا قال مجاهد وغير واحد وقد ورد في الحديث المروي من طرق عنه عليه السلام أنه قال «وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة» وقوله تعالى (ويذيق بعضكم بأس بعض) قال ابن عباس وغير واحد يعني يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل وقوله تعالى (انظر كيف نصرف الآيات) أي نبينها ونوضحها مرة ونفسرها (لعلهم يفقهون) أي يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه. قال زيد بن أسلم لما نزلت (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيف» قالوا ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله قال «نعم» فقال بعضهم لا يكون هذا أبدا أن يقتل بعضنا بعضا ونحن مسلمون فنزلت (انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون) وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير

﴿وَكَذَّبَ بِهٖ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ * لَّكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَابِدِنَا فَاعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِئَنَّ الشَّيْطَانُ ۚ فَلَا تَقْعُدْۢ بَعْدَ الذِّكْرِىٓ مَعَ الظَّالِمِينَ * وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَٰكِنْ ذِكْرِىٓ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

يقول تعالى (وكذب به) أي بالقرآن الذي جئتهم به والهدى والبيان (قومك) يعني قريشا (وهو الحق) أي الذى ليس وراءه حق (قل لست عليكم بوكيل) أي لست عليكم بحفيظ ولست بموكل بكم كقوله (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) أي إنما على البلاغ وعلبكم السمع والطاعة فمن اتبعنى سعد فى الدنيا والآخرة ومن خالفنى فقد شقى فى الدنيا والآخرة ولهذا قال (لكل نبأ مستقر) قال ابن عباس وغير واحد أى لكل نبأ حقيقة أى لكل خبر وقوع ولو بعد حين كما قال (ولتعلمن نبأه بعد حين) وقال (لكل أجل كتاب) وهذا تهديد ووعد أكيد

ولهذا قال بعده (وسوف تعلمون) وقوله (وإذ أرايت الذين يخوضون في آياتنا) أى بالكذب والاستهزاء (فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره) أى حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب (وإما ينسبك الشيطان) والمراد بذلك كل فرد فرد من آحاد الأمة أن لا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها فان جلس أحد معهم ناسيا (فلا تعد بعد الله كرى) بعد التذكر (مع القوم الظالمين) ولهذا ورد في الحديث « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » . وقال السدي عن أبي مالك وسعيد بن جبير في قوله (وإما ينسبك الشيطان) قال إن نسيت فذكرت (فلا تعد) معهم وكذا قال مقاتل بن حيان وهذه الآية هي المشار إليها في قوله (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم) الآية أى إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك فقد ساوitemوهم فيما هم فيه وقوله (وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء) أى إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك فقد برئوا من عهدهم وتخلصوا من إثمهم ، قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا عبد الله بن موسى عن إسرائيل عن السدي عن أبي مالك عن سعيد بن جبير قوله (وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء) قال ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك أى إذا تجنبتهم وأعرضت عنهم ، وقال آخرون بل معناه وإن جلسوا معهم فليس عليهم من حسابهم من شيء وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية وهي قوله (إنكم إذا مثلهم) قاله مجاهد والسدي وابن جريج وغيرهم . وطى قولهم يكون قوله (ولكن ذكرى لعمهم يتقون) أى ولكن أمرناكم بالأعراض عنهم حيث تذكروا لهم عما هم فيه لعلهم يتقون ذلك ولا يعودون إليه

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

يقول تعالى (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا) أى دعهم وأعرض عنهم وأمهاتهم قليلا فانهم صائرون إلى عذاب عظيم ولهذا قال وذكر به أى ذكر الناس بهذا القرآن وحذرهم نقمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة وقوله تعالى (أن تبسل نفس بما كسبت) أى لتلا تبسل قال الضحاك عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن والسدي تبسل : تسل ، وقال الوالي عن ابن عباس تفتضح . وقال قتادة تبسج . وقال ابن زيد تؤاخذ . وقال الكلبي تجزى وكل هذه الأقوال والعبارات متقاربة في المعنى وحاصلها الإسلام للهلاكه والحبس عن الخير والارتهان عن درك المطلوب كقوله (كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين) وقوله (ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع) أى لا قريب ولا أحد يشفع فيها كقوله (من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون) وقوله (وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها) أى ولو بذلت كل مبذول ما قبل منها كقوله (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملة الأرض ذها) الآية وكذا قال ههنا (أولئك الذين أبلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون)

﴿ قُلْ أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقِبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُوهُ إِلَى الْهُدَىٰ أُنْتِنَا قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَإِمْرَانًا لِّلسَّلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ أَلْخَقْتُ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٤٥﴾

قال السدي: قال المشركون للمسلمين اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد فأنزل الله عز وجل (قل أندعوا من دون الله مالا ينفعا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا) أي في الكفر (بعد إلهادنا الله) فيكون مثلنا مثل الذي استهوته الشياطين في الأرض يقول مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق فضل الطريق فحيرته الشياطين واستهوته في الأرض وأصحابه على الطريق فجعلوا يدعونه إليهم يقولون ائتنا فإننا على الطريق فأبى أن يأتهم فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ ومحمد هو الذي يدعو إلى الطريق والطريق هو الإسلام رواه ابن جرير ، وقال قتادة (استهوته الشياطين في الأرض) أضلته في الأرض يعني استهوته سيرته كقوله (تهوى إليهم) وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (قل أندعوا من دون الله مالا ينفعا ولا يضرنا) الآية هذا مثل ضربه الله للألوهة ومن يدعوا إليها والدعاة الذين يدعون إلى هدى الله عز وجل كمثل رجل ضل عن طريق تائها إذ ناداه مناد يا فلان ابن فلان هلم إلى الطريق وله أصحاب يدعونه يا فلان هلم إلى الطريق فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى اهتدى إلى الطريق وهذه الداعية التي تدعو في البرية من الغيلان ، يقول مثل من يعبد هذه الألوهة من دون الله فإنه يرى أنه في شيء حتى يأتيه الموت فيستقبل الندامة والهلكة وقوله (كالذي استهوته الشياطين في الأرض) هم الغيلان يدعونه باسمه واسم أبيه وجده فيتبعها وهو يرى أنه في شيء فيصبح وقدرته في هلكة وربما أكلته أو تلقاه في مضلة من الأرض يهلك فيها عطشا فهذا مثل من أجاب الألوهة التي تعبد من دون الله عز وجل رواه ابن جرير وقال ابن أبي نجیح عن مجاهد كالذي (استهوته الشياطين في الأرض حيران) قال رجل حيران يدعوه أصحابه إلى الطريق وذلك مثل من يضل بعد أن هدى . وقال العوفي عن ابن عباس قوله (كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب) هو الذي لا يستجيب لهدى الله وهو رجل أطاع الشيطان وعمل في الأرض بالمعصية وحاد عن الحق وضل عنه وله أصحاب يدعونه إلى الهدى ويزعمون أن الذي يأمرونه به هدى يقول الله ذلك لأوليائهم من الإنس (إن الهدى هدى الله) والضلال ما يدعو إليه الجن رواه ابن جرير ثم قال وهذا يقتضي أن أصحابه يدعونه إلى الضلال وقد أخبر الله أنه هدى وهو كما قال ابن جرير فإن السياق يقتضي أن هذا الذي استهوته الشياطين في الأرض حيران وهو منصوب على الحال أي في حال حيرته وضلاله وجه المحجة وله أصحاب على المحجة سائرون فجعلوا يدعونه إليهم وإلى الذهاب معهم على الطريقة المثلى وتقدير الكلام فيأبى عليهم ولا يلتفت إليهم ولو شاء الله لهداه ولرد به إلى الطريق ولهذا قال (قل هدى الله هو الهدى) كما قال (ومن يهد الله فما له من مضل) أي وقال (إن تحرص على هدام فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين) وقوله (وأمرنا لنسلم لرب العالمين) أي نخلص له العبادة وحده لا شريك له (وأن أقيموا الصلاة واتقوه) أي وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه في جميع الأحوال (وهو الذي إليه تحشرون) أي يوم القيامة (وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق) أي بالعدل فهو خالقهما ومالكهما والمدير لهما ولن فيهما وقوله (ويوم يقول كن فيكون) يعني يوم القيامة الذي يقول الله كن فيكون عن أمره كلج البصر أو هو أقرب ، ويوم منصوب إما على العطف على قوله واتقوه وتقديره واتقوا يوم يقول كن فيكون وإما على قوله (خلق السموات والأرض) أي وخلق يوم يقول كن فيكون فذكر بدء الخلق وإعادة . وهذا مناسب . وإما على إضمار فعل تقديره وإذا ذكر يوم يقول كن فيكون وقوله (قوله الحق وله الملك) جملتان محلها الجر على أنهما صفتان لرب العالمين ، وقوله (يوم ينفع في الصور) يحتمل أن يكون بدلا من قوله (ويوم يقول كن فيكون يوم ينفع في الصور) ويحتمل أن يكون ظرفا لقوله (وله الملك يوم ينفع في الصور) كقوله (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار)

كقوله (الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا) وما أشبه ذلك ، واختلف المفسرون في قوله (يوم ينفخ في الصور) فقال بعضهم المراد بالصور هنا جمع صورة أى يوم ينفخ فيها فتحييا . قال ابن جرير كما يقال : سور لسور البلد وهو جمع سورة والصحيح أن المراد بالصور القرن الذى ينفخ فيه إسرائيل عليه السلام قال ابن جرير والصواب عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن إسرائيل قد التقم الصور وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ » رواه مسلم في صحيحه ، وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل حدثنا سليمان التيمي عن أسلم العجلي عن بشر بن شفاف عن عبد الله بن عمرو قال : قال أعرابي يا رسول الله ما الصور ؟ قال « قرن ينفخ فيه »

وقد روينا حديث الصور بطوله من طريق الحافظ أبي القاسم الطبراني في كتابه المطولات قال حدثنا أحمد بن الحسن المقرئ الأبلج حدثنا أبو عاصم النبيل حدثنا إسماعيل بن رافع عن محمد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي عن أبي هريرة رضى الله عنه قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو في طائفة من أصحابه فقال « إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرائيل فهو واضع على فيه شاخصا بصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر » قلت يا رسول الله وما الصور قال « القرن » قلت كيف هو ؟ قال « عظيم والذى بعثى بالحق إن عظم دارة فيه كعرض السموات والأرض ينفخ فيه ثلاث نفخات النفخة الأولى نفخة الفزع والثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة القيام لرب العالمين يأمر الله تعالى إسرائيل بالنفخة الأولى فيقول انفضح فينفخ نفخة الفزع فيفزع أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ويأمره فيطيلها ويديمها ولا يفتر وهي كقول الله (وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق) فيسير الجبال فتمرمر السحاب فتكون سرايا ثم ترج الأرض بأهلها رجا فتكون كالسفينة المرمية في البحر تضربها الأمواج تكفأ بأهلها كالقنديل المعلق في العرش ترجرجه الرياح وهو الذى يقول (يوم ترجف الراجفة * تتبعها الرادفة * قلوب يومئذ واجفة) فيميد الناس على ظهرها وتذهل المراضع وتضع الحوامل وتشيب الولدان وتطير الشياطين هاربة من الفزع حتى تاتى الأقطار فتأتى الملائكة فتضرب وجوهها فترجع وبولى الناس مدبرين ما لهم من أمن الله من عاصم ينادى بعضهم بعضا وهو الذى يقول الله تعالى (يوم التناد) فبينما هم على ذلك إذ تصدعت الأرض من قطر إلى قطر فأرأوا أمرا عظيما يروا مثله وأخذهم لذلك من الكرب والهول ما الله به علم ثم نظروا إلى السماء فإذا هى كالمهل ثم انشقت السماء فاتثرت نجومها وانخسفت شمسها وقرها » قال رسول الله ﷺ « الأموات لا يعلمون بشيء من ذلك » قال أبو هريرة يا رسول الله من استثنى الله عز وجل حين يقول (ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله) ؟ قال « أولئك الشهداء » وإعسا يصل الفزع إلى الأحياء وهم أحياء عند ربهم يرزقون وقام الله فزع ذلك اليوم وآمنهم منه وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه — قال — وهو الذى يقول الله عز وجل (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب شديد) فيقومون فى ذلك العذاب ما شاء الله إلا أنه يطول ثم يأمر الله إسرائيل بنفخة الصعق فينفخ نفخة الصعق فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله فإذا هم قد خمدوا وجاء ملك الموت إلى الجبار عز وجل فيقول يارب قد مات أهل السموات والأرض إلا من شئت فيقول الله وهو أعلم بمن بقى فمن بقى ؟ فيقول يارب بقيت أنت الحى الذى لا تموت وبقيت حملة العرش لا تموت وبقيت حملة عرشك وبقيت أنا فيقول الله لمت حملة العرش فتموت ويأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرائيل ثم يأتى ملك الموت فيقول يارب قد مات حملة عرشك فيقول الله وهو أعلم بمن بقى : فمن بقى ؟ فيقول يارب بقيت أنت الحى الذى لا تموت وبقيت أنا فيقول الله أنت خلق من خلقى خلقك لما رأيت فمت فيموت

فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد كان آخراً كما كان أولاً طوى السموات والأرض طوى السجل للكتب ثم دحاهما ثم يلقفهما ثلاث مرات ثم يقول أنا الجبار أنا الجبار ثلاثاً ثم هتف بصوته (لمن الملك اليوم) ثلاث مرات فلا يجيبه أحد ثم يقول لنفسه (الله الواحد القهار) يقول الله (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) فيبسطنهما ويسطحهما ثم يمد الأديم العكاظي (لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً) ثم يزرع الله الحلق زجرة واحدة فإذا هم في هذه الأرض المبدة مثل ما كانوا فيها من الأولى من كان في بطنها كان في بطنها ومن كان على ظهرها كان على ظهرها ثم ينزل الله عليهم ماء من تحت العرش ثم يأمر الله السماء أن تمطر فتعطر أربعين يوماً حتى يكون الماء فوقهم اثني عشر ذراعاً ثم يأمر الله الأجساد أن تنبت فتنبت كنبات الطرائث أو كنبات البقل حتى إذا تكاملت أجسادهم فكانت كما كانت قال الله عز وجل ليحي حملة عرشي فيحيون ويأمر الله إسرائيل فيأخذ الصور فيضعه على فيه ثم يقول ليحي جبريل وميكائيل فيحيان ثم يدعو الله بالأرواح فيؤتي بها تنويع أرواح المسلمين نورا وأرواح الكافرين ظلمة فيقبضها جميعاً ثم يلقها في الصور ثم يأمر الله إسرائيل أن ينفخ نفخة البعث فينفخ نفخة البعث فتخرج الأرواح كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض فيقول وعزتي وجلالي ليرجعن كل روح إلى جسده فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد فتدخل في الحياشيم ثم تمتلئ في الأجساد كما يمتلئ السم في اللدغ ثم تنشق الأرض عنهم وأنا أول من تنشق الأرض عنه فتخرجون سراعاً إلى ربكم تنسلون (مهطعين إلى الداع) يقول الكافرون هذا يوم عسر (حفاة عراة غرلا فتقفون موقفاً واحداً مقداره سبعون عاماً لا ينظر إليكم ولا يقضى بينكم فبكون حتى تنقطع الدموع ثم تدمعون دماً وتعرقون حتى يلجمكم العرق أو يبلغ الأذقان وتقولون من يشفع لنا إلى ربنا فيقضى بيننا فتقولون من أحق بذلك من أيكم آدم خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وكله قبلاً فيأتون آدم فيطلبون ذلك إليه فيأبى ويقول ما أنا بصاحب ذلك فيستقرئون الأنبياء نبياً نبياً كلوا جاءوا نبياً أبي عليهم - قال رسول الله ﷺ - حتى يأتوني فأطلق إلى الفحص فأخر ساجداً - قال أبو هريرة يارسول الله وما الفحص ؟ قال - قدام العرش حتى يبعث الله إليّ ملكاً فيأخذ بعضدى ويرفعني فيقول لي يا محمد فأقول نعم يارب ، فيقول الله عز وجل ماشاً نك وهو أعلم - فأقول يارب وعبدتي الشفاعة فشفعني في خلقك فأقضى بينهم قال الله قد شفعتك أنا آتيكم أفضى بينكم - قال رسول الله ﷺ - فأرجع فأقف مع الناس فبينما نحن وقوف إذ سمعنا من السماء حساً شديداً فيها لنا فينزل أهل السماء الدنيا بمثل من في الأرض من الجن والإنس حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافهم وقلنا لهم أفيكم ربنا ؟ قالوا لا وهو آت ، ثم ينزل أهل السماء الثانية بمثل من نزل من الملائكة وبمثل من فيها من الجن والإنس ، حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافهم وقلنا لهم أفيكم ربنا ؟ فيقولون لا . وهو آت ، ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف حتى ينزل الجبار عز وجل في ظلل من الغمام والملائكة فيحمل عرشه يومئذ ثمانية - وهم اليوم أربعة - أقدامهم في تخوم الأرض السفلى ، والأرض والسموات إلى حيزهم والعرش على مناكبهم لهم زجل في تسبيحهم يقولون سبحان ذي العرش والجبروت سبحان ذي الملك والملكوت سبحان الحي الذي لا يموت سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت سبوح قدوس قدوس قدوس سبحان ربنا الأعلى رب الملائكة والروح سبحان ربنا الأعلى الذي يميت الخلائق ولا يموت فيضع الله كرسيه حيث يشاء من أرضه ثم يهتف بصوته فيقول يا معشر الجن والإنس إني قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا أسمع قولكم وأبصر أعمالكم فأنصتوا إلى فإنما هي أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ، ثم يأمر الله جهنم فيخرج منها عنق ساطع مظلم ، ثم يقول (ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون * هذه جهنم التي كنتم توعدون) أو - بها تكذبون - شك أبو عاصم (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) فيميز الله الناس وتجنوا الأمم . يقول الله تعالى (وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون) فيقضى الله عز وجل بين خلقه إلا الثقلين الجن

والإنس فيقضى بين الوحوش والبهائم حتى إنه ليقضى للجاء من ذات القرن ، فإذا فرغ من ذلك فلم تبق تبعة عند واحدة للأخرى قال الله لها كوني ترابا فعند ذلك يقول الكافر (يا ليتني كنت ترابا) ثم يقضى الله بين العباد فكان أول ما يقضى فيه الدماء ويأتي كل قتيل في سبيل الله ويأمر الله عز وجل كل من قتل فيحمل رأسه تشخب أوداجه فيقول يارب فيم قتلني هذا ؟ فيقول - وهو أعلم - فيم قتلته ؟ فيقول قتلته لتكون العزة لك فيقول الله له صدقت فيجعل الله وجهه مثل نور الشمس ثم يمر به الملائكة إلى الجنة ، ثم يأتي كل من قتل على غير ذلك يحمل رأسه وتشخب أوداجه فيقول يارب فيم قتلني هذا ؟ فيقول - وهو أعلم - لم قتلته ؟ فيقول يارب قتلته لتكون العزة لي فيقول تعست ، ثم لا تبقى نفس قتلها إلا قتل بها ولا مظلة ظلمها إلا أخذ بها ، وكان في مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء رحمه ، ثم يقضى الله تعالى بين من بقى من خلقه حتى لا تبقى مظلة لأحد عند أحد إلا أخذها الله للمظلوم من الظالم حتى إنه ليكلف شائب اللبن بالماء ثم يبيعه أن يخلص اللبن من الماء ، فإذا فرغ الله من ذلك نادى مناد يسمع الخلائق كلهم . ألا ليأحق كل قوم بآلهم وما كانوا يعبدون من دون الله فلا يبقى أحد عبد من دون الله إلا مثلت له آلهته بين يديه ويجعل يومئذ ملك من الملائكة على صورة عزيز ويجعل ملك من الملائكة على صورة عيسى بن مريم . ثم يتبع هذا اليهود وهذا النصراني ثم قادتهم آلهتهم إلى النار ، وهو الذي يقول (لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها وكل فيها خالدون) فإذا لم يبق إلا المؤمنون فيهم المنافقون جاءهم الله فيما شاء من هيئته فقال يا أيها الناس ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون فيقولون والله ما لنا إله إلا الله وما كنا نعبد غيره فينصرف عنهم وهو الله الذي يأتيهم فيمكث ما شاء الله أن يمكث ثم يأتيهم فيقول : يا أيها الناس ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون . فيقولون والله ما لنا إله إلا الله وما كنا نعبد غيره فيكشف لهم عن ساقه ويتجلى لهم من عظمته ما يعرفون أنه ربهم فيخرون للأذقان سجدا على وجوههم ويغركل منافق على قفاه ويجعل الله أصلابهم كصاى البقر ، ثم يأذن الله لهم فيرفعون ويضرب الله الصراط بين ظهراني جهنم كحد الشفرة أو كحد السف على كلاب وخطاطيف وحسك كحسك السعدان دونه جسر دحض مزلة فيمرون كطرف العين أو كلعج البرق أو كجر الرمح أو كجباد الخيل أو كجباد الركاب أو كجباد الرجال فتاج سالم وناج مخدوش ومكردس على وجهه في جهنم ، فإذا أفضى أهل الجنة إلى الجنة قالوا من يشفع لنا إلى ربنا فندخل الجنة ؟ فيقولون من أحق بذلك من أيكم آدم عليه السلام خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وكله قبله فيأتون آدم فيطلب ذلك إليه فيذكر ذنبا ويقول ما أنا بصاحب ذلك ولكن عليكم بنوح فإنه أول رسل الله فيؤتى نوح فيطلب ذلك إليه فيذكر ذنبا ويقول ما أنا بصاحب ذلك ويقول عليكم إبراهيم فإن الله اتخذته خليلا ، فيؤتى إبراهيم فيطلب ذلك إليه فيذكر ذنبا ويقول ما أنا بصاحب ذلك ويقول عليكم موسى فإن الله قربه نجيا وكله وأنزل عليه التوراة . فيؤتى موسى فيطلب ذلك إليه فيذكر ذنبا ويقول لست بصاحب ذلك ولكن عليكم بروح الله وكلته عيسى بن مريم ، فيؤتى عيسى بن مريم فيطلب ذلك إليه فيقول ما أنا بصاحبكم ولكن عليكم بمحمد » قال رسول الله ﷺ « فيأتوني ولي عند ربى ثلاث شفاعات وعدنيهن فأنتلني فأنتلني الجنة فأخذ بحلقة الباب فأستفتح فيفتح لي فأحيا ويرحب بي فإذا دخلت الجنة فنظرت إلى ربى خررت ساجداً فيأذن الله لي من تحميده وتمجيده بشيء ما أذن به لأحد من خلقه ثم يقول ارفع رأسك يا محمد واشفع تشفع وسل تعطه فإذا رفعت رأسى يقول الله - وهو أعلم - ما شأنك ؟ فأقول يارب وعدتني الشفاعة فشفعني في أهل الجنة فيدخلون الجنة فيقول الله قد شفعتك وقد أذنت لهم في دخول الجنة » وكان رسول الله ﷺ يقول « والذى نفسى بيده ما أتم في الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم فيدخل كل رجل منهم على اثنتين وسبعين زوجة سبعين مما يذنب الله عز وجل واثنتين آدميتين من ولد آدم لهما فضل على من أنشأ الله لعبادهما الله في الدنيا فيدخل على الأولى في غرفة من ياقوتة على سرير من ذهب مكلل بالؤلؤ عليها سبعون زوجا من سندس وإستبرق ثم إنه يضع يده بين كتفها ثم ينظر إلى يده من صدرها ومن وراء ثيابها وجلدها ولحمها وأنه لينظر إلى مخ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السلك في قصبة الياقوت

كبدها له امرأة وكبده لها امرأة . فبينما هو عندها لا يملها ولا تملها ما يأتيها من مرة إلا وجدها عذراء ما يفتر ذكره وما تشتكي قبلها ، فبينما هو كذلك إذ نودي إنا قد عرفنا أنك لا تمل ولا تمل إلا أنه لا مئ ولا منية إلا أن لك أزواجا غيرها فيخرج فيأتيهن واحدة واحدة كلما أتى واحدة قالت له والله ما أرى في الجنة شيئا أحسن منك ولا في الجنة شيء أحب إلى منك . وإذا وقع أهل النار في النار وقع فيها خلق من خلق ربك أو بقتهم أعمالهم فمنهم من تأخذ النار قدميه لا تجاوز ذلك ومنهم من تأخذه إلى أنصاف ساقيه ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه ومنهم من تأخذه إلى حقويه ومنهم من تأخذ جسده كله إلا وجهه حرم الله صورته عليها « قال رسول الله ﷺ » فأقول يا رب شفعي فيمن وقع في النار من أمي فيقول أخرجوا من عرقم فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد ثم يأذن الله في الشفاعة فلا يبقى نبي ولا شهيد إلا شفع فيقول الله أخرجوا من وجدتم في قلبه زنة دينار إيمانا فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد ثم يشفع الله فيقول أخرجوا من وجدتم في قلبه إيمانا ثلثي دينار ثم يقول ثلث دينار ثم يقول ربع دينار ثم يقول قيراطا ثم يقول حبة من خردل فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد وحتى لا يبقى في النار من عمل الله خيرا قط ولا يبقى أحد له شفاعاة إلا شفع حتى إن إبليس يتناول مما يرى من رحمة الله رجاء أن يشفع له . ثم يقول بقيت وأنا أرحم الراحمين فيدخل يده في جهنم فيخرج منها ما لا يحصى غيره كأنهم حمم فيلقون على نهر يقال له نهر الحيوان فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل فمابلى الشمس منها أخضر وما بلى الظل منها أصفر ، فينبتون كنبات الطرائث حتى يكونوا أمثال الدر مكتوب في رقابهم الجهنميون عتقاء الرحمن يعرفهم أهل الجنة بذلك الكتاب ما عملوا خيرا لله قط فيمكنون في الجنة ما شاء الله وذلك الكتاب في رقابهم ثم يقولون ربنا امح عنا هذا الكتاب فيمحوه الله عز وجل عنهم »

ثم ذكره بطوله ثم قال هذا حديث مشهور وهو غريب جدا ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة وفي بعض ألفاظه نكارة ، تفرد به إسماعيل بن رافع قاضي أهل المدينة وقد اختلف فيه فعنه من وثقه ومنهم من ضعفه ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة كأحمد بن حنبل وأبي حاتم الرازي وعمرو بن علي الفلاس ومنهم من قال فيه هو متروك وقال ابن عدي أحاديثه كلها فيها نظر إلا أنه يكتب حديثه في جملة الضعفاء ، قلت وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة قد أفردتها في جزء على حدة وأما سياقه فغريب جدا ويقال إنه جمعه من أحاديث كثيرة وجعله سياقا واحدا فأنكر عليه بسبب ذلك وممعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزني يقول إنه رأى للوليد بن مسلم مصنفا قد جمعه كالشواهد لبعض مفردات هذا الحديث فآله أعلم

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ أَرَّاتُ أَخَذْتُ أَصْنَامًا إِلَهَةً إِنِّي أَرَىكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَكَذَلِكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ لَا أَحِبُّ إِلَّا فِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ لَيْتَن لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

قال الضحاك عن ابن عباس إن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر وإنما كان اسمه تارخ رواه ابن أبي حاتم وقال أيضا حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم النبيل حدثنا أبي حدثنا أبو عاصم شبيب حدثنا عكرمة عن ابن عباس في قوله (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر) يعني بآزر الصنم ، وأبو إبراهيم اسمه تارخ وأمه اسمها شاني وامراته اسمها سارة وأم إسماعيل اسمها هاجر وهي سرية إبراهيم وهكذا قال غير واحد من علماء النسب أن اسمه تارخ وقال مجاهد والسدي آزر اسم صنم قلت كأنه غلب عليه آزر لخدمته ذلك الصنم فآله أعلم ، وقال ابن جرير وقال آخرون هو سب وعيب بكلامهم ومعناه

معوج ولم يسنده ولا حكاه عن أحد. وقد قال ابن أبي حاتم ذكر عن معتمر بن سليمان سمعت أبي يقرأ (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر) قال بلغني أنها أعوج وأنها أشد كلمة قالها إبراهيم عليه السلام ثم قال ابن جرير والصواب أن اسم أبيه آزر ثم أورد على نفسه قول النسائي أن اسمه تارخ ثم أجاب بأنه قد يكون له اسمان كما لكثير من الناس أو يكون أحدهما لقباً وهذا الذي قاله جيد قوى والله أعلم ، واختلف القراء في أداء قوله تعالى (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر) فحكى ابن جرير عن الحسن البصري وأبي يزيد اللدني أنهما كانا يقرآن (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتخذ أصناماً آلهة) معناه يا آزر أتخذ أصناماً آلهة ، وقرأ الجمهور بالفتح إما على أنه علم أعجمي لا ينصرف وهو بدل من قوله لأبيه أو عطف يات وهو أشبه وعلى قول من جعله نعتاً لا ينصرف أيضاً كأحمر وأسود فأما من زعم أنه منصوب لكونه معمولاً لقوله (أتخذ أصناماً) تقديره يا أبت أتخذ آزر أصناماً آلهة فإنه قول بعيد في اللغة فإن ما بعد حرف الاستفهام لا يعمل فيما قبله لأن له صدر الكلام كذا قرره ابن جرير وغيره وهو مشهور في قواعد العربية والمقصود أن إبراهيم وعظ أباه في عبادة الأصنام وزجره عنها ونهاه فلم ينته كما قال (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتخذ أصناماً آلهة ؟) أى أتأله لصنم تعبده من دون الله (إني أراك وفومك) أى السالكين مسلكك (في ضلال مبين) أى تائهين لا يهتدون أين يسلكون بل في حيرة وجهل وأمركم في الجهالة والضلال بين واضح لكل ذى عقل سليم . وقال تعالى (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً * إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً * يا أبت إني قد جئتني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً * يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً * يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً * قال أراغت أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمك وأهجرني ملياً * قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بي حفياء * وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقياً) فكان إبراهيم عليه السلام يستغفر لأبيه مدة حياته فلما مات على الشرك وتبين إبراهيم ذلك رجع عن الاستغفار له وتبرأ منه كما قال تعالى (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم) وثبت في الصحيح أن إبراهيم يلقى أباه آزر يوم القيامة فيقول له آزر يا بني اليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم أى رب ألم تعدنى أنك لا تخزنى يوم يبعثون وأى خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقال يا إبراهيم انظر ما وراءك فإذا هو بنج متلطف فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار وقوله (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) أى نبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهم على وحدانية الله عز وجل في ملكه وخلقهم وأنه لا اله غيره ولا رب سواه كقوله (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) وقوله (أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض) وقال (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ان نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب) وأما ما حكاه ابن جرير وغيره عن مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والسدى وغيرهم قالوا واللفظ لمجاهد فرجت له السموات فنظر إلى ما فيهن حتى انتهى بصره إلى العرش وفرجت له الأرضون السبع فنظر إلى ما فيهن وزاد غيره فجعل ينظر إلى العباد على المعاصي ويدعو عليهم فقال الله له إني أرحم بعبادى منك لعلمهم أن يتوبوا أو يرجعوا . وروى ابن مردويه في ذلك حديثين مرفوعين عن معاذ وعلى ولكن لا يصح إسنادهما والله أعلم وروى ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من المؤمنين) فإنه تعالى جلاله الأمر سره وعلايته فلم يخف عليه شيء من أعمال الخلائق فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله إنك لا تستطيع هذا فردّه كما كان قبل ذلك فيحتمل أن يكون كشف له عن بصره حتى رأى ذلك عياناً ويحتمل أن يكون عن بصيرته حتى شاهده بفؤاده وتحققه وعرفه وعلم ما في ذلك من الحكم الباهرة والدلالات القاطعة كما رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه عن معاذ بن جبل في حديث المنام « أتاني ربى في أحسن صورة فقال يا محمد فيم يختصم الملائ الأعلى ؟ فقلت لا أدري يا رب ، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثديي فتجلى لى كل شيء وعرفت ذلك » وذكر الحديث . وقوله (وليكون من المؤمنين) قيل

الواو زائدة تقديره وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين كقوله (وكذلك فصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين) وقيل بل هي على بابها أى نريه ذلك ليكون عالماً وموقناً وقوله تعالى (فلما حن عليه الليل) أى تغشاه وستره (رأى كوكباً) أى نحياً (قال هذاربى فلما أفل) أى غاب قال محمد بن إسحاق بن يسار الأفل: الذهاب، وقال ابن جرير يقال أفل النجم يأفل ويأفل أفولاً وأفلاً إذا غاب ومنه قول ذى الرمة :

مصاييح ليست باللوأتى تقودها * دباح^(١) ولا بالآفلات الزوائل^(٢)

ويقال ابن أفلت عنا ؟ بمعنى أين غبت عنا : قال (لا أحب الآفلين) قال قتادة علم أن ربه دائم لا يزول فلما رأى القمر بازغاً (أى طالماً) قال هذا ربى فلما أفل قال (لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين *) (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى) أى هذا النير الطالع ربى (هذا أكبر) أى جرماً من النجم ومن القمر وأكثر إضاءة (فلما أفلت) أى غابت (قال يا قوم إني برىء مما تشركون * إني وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) أى أخلصت دينى وأفردت عبادتى (للذى فطر السموات والأرض) أى خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق (حنيفاً) أى فى حال كونى حنيفاً أى مائلاً عن الشرك إلى التوحيد ولهذا قال (وما أنا من المشركين) وقد اختلف المفسرون فى هذا المقام هل هو مقام نظر أو مناظرة فروى ابن جرير من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس ما يقتضى أنه مقام نظر واختاره ابن جرير مستدلاً بقوله (لئن لم يهدنى ربى) الآية وقال محمد بن إسحاق قال ذلك حين خرج من السرب الذى ولدته فيه أمه حين تخوفت عليه من عمرو بن كنعان لما كان قد أخبر بوجود مولود يكون ذهاب ملكه على يديه فأمر بقتل الغلمان عامئذ فلما حملت أم إبراهيم به وحن وضعها ذهبت به إلى سرب ظاهر البلد فولدت فيه إبراهيم وتركته هناك وذكر أشياء من خوارق العادات كما ذكرها غيره من المفسرين من السلف والخلف والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان فى هذا المقام مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام فبين فى المقام الأول مع أبيه خطأهم فى عبادة الأصنام الأرضية التى هى على صور الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكتهم ليشفعوا لهم عنده فى الرزق والنصر وغير ذلك مما يحتاجون إليه . وبين فى هذا المقام خطأهم وضلالهم فى عبادة الهياكل وهى الكواكب السيارة السبعة المتحركة وهى القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل وأشدهن إضاءة وأشرفهن عندهم الشمس ثم القمر ثم الزهرة فبين أولاً صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للالهية فإنها مسخرة مقدره بسير معين لاتزيع عنه يميناً ولا شمالاً ولا تملك لنفسها تصرفاً بل هى جرم من الأجرام خلقها الله منيرة لما له فى ذلك من الحكم العظيمة وهى تطلع من المشرق ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه ثم تبدو فى الليلة القابلة على هذا النوال ومثل هذه لا تصلح للالهية ثم انتقل إلى القمر فبين فيه مثل ما بين فى النجم ثم انتقل إلى الشمس كذلك فلما انتفت الالهية عن هذه الأجرام الثلاثة التى هى أنوار ما تقع عليه الأبصار وتحقق ذلك بالدليل القاطع (قال يا قوم إني برىء مما تشركون) أى أنا برىء من عبادتهم ومولاتهم فإن كانت آلهة فكيدونى بها جميعاً ثم لا تنظرون (إني وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) أى إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها الذى بيده ملكوت كل شئ وخالق كل شئ وربّه ومليكه وإلهه كما قال تعالى (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظراً فى هذا المقام وهو الذى قال الله فى حقه (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنّا به عاكفين * إذ قال لأبيه وقومه ها هذه النمايل التى أتم لها عاكفون) الآيات وقال تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباؤه وهدايه إلى صراط مستقيم * وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) وقال تعالى (قل

إني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين (وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال « كل مولود يولد على الفطرة » وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد أن رسول الله ﷺ قال « قال الله إني خلقت عبادي حنفاء » وقال الله في كتابه العزيز (فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) وقال تعالى (وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى) ومعناه على أحد القولين كقوله (فطرت الله التي فطر الناس عليها) كما سيأتي بيانه . فإذا كان هذا في حق سائر الخليفة فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله الله أمة فانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ناظراً في هذا المقام بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظراً لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظراً لقوله تعالى

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْجُونَنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم حين جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد وناظره بشبه من القول أنه قال (أتأججونني في الله وقد هدان) أي تجادلونني في أمر الله وأنه لا إله إلا هو وقد بصرفي وهداني إلى الحق وأنا على بينة منه فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة وقوله (ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً) أي ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئاً وأنا لا أخافها ولا أباليها فإن كان لها كيد فكيدوني بها ولا تنظرون بل عاجلون بذلك . وقوله تعالى (إلا أن يشاء ربي شيئاً) استثناء منقطع أي لا يضر ولا ينفع إلا الله عز وجل (وسع ربي كل شيء علماً) أي أحاط علمه بجميع الأشياء فلا تخفي عليه خافية (أفلا تتذكرون) أي فيما بينت لكم أفلا تعتبرون أن هذه الآلهة باطلة فتزجروا عن عبادتها وهذه الحجة نظير ما احتج بها نبي الله هود عليه السلام على قومه عاد فيما قص عنهم في كتابه حيث يقول (قالوا يا هود ما جئناك ببينة ومانحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلها بسوء قال إني أشهد الله وأشهدوا أني برى مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون * إني توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها) الآية وقوله (وكيف أخاف ما أشركتم) أي كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله (ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً) قال ابن عباس وغير واحد من السلف أي حجة وهذا كقوله تعالى (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) وقوله تعالى (إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بهامن سلطان) وقوله (فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون) أي فأى طائفتين أصوب الذي عبد من بيده الضر والنفع أو الذي عبد من لا يضر ولا ينفع بلا دليل أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة لاشريك له قال الله تعالى (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) أي هؤلاء الذي أخلصوا العبادة لله وحده لاشريك له ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة المهتدون في الدنيا والآخرة

قال البخاري حدثنا محمد بن بشار حدثنا ابن أبي عدي عن شعبة عن سليمان عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال لما نزلت (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) قال أصحابه وأينما لم يظلم نفسه ؟ فنزلت (إن الشرك لظلم عظيم) وقال الإمام أحمد

حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال لما نزلت هذه الآية (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) شق ذلك على الناس فقالوا يا رسول الله أين لا يظلم نفسه؟ قال «إنه ليس الذي تمنون ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح (يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) إنما هو الشرك»

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا وكيع وابن إدريس عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال لما نزلت (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ قالوا وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ «ليس كما تظنون إنما قال لابنه (يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم)» وحدثنا عمر بن تغلب الحمري حدثنا أبو أحمد حدثنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله بن مسعود قال لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فنزلت (إن الشرك لظلم عظيم) رواه البخاري وفي لفظ قالوا أين لم يظلم نفسه فقال النبي ﷺ «ليس بالذي تمنون ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح (إن الشرك لظلم عظيم) إنما هو الشرك» ولابن أبي حاتم عن عبد الله مرفوعاً قال (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) قال «بشرك» قال وروى عن أبي بكر الصديق وعمر وأبي بن كعب وسلمان وحذيفة وابن عباس وابن عمر وعمر بن شرحبيل وأبي عبد الرحمن السلمي ومجاهد وعكرمة والنخعي والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد نحو ذلك، وقال ابن مردويه حدثنا الشافعي حدثنا محمد بن شداد المسمعي حدثنا أبو عاصم حدثنا سفيان الثوري عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال لما نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) قال رسول الله ﷺ «قيل لي أنت منهم» وقال الإمام أحمد حدثنا إسحاق بن يوسف حدثنا أبو جناب عن زاذان عن جرير بن عبد الله قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما برزنا من المدينة إذا راكب يوضع نحونا فقال رسول الله ﷺ «كأن هذا راكب إياكم يريد» فاتمى إلينا الرجل فسلم فرددنا عليه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم «من أين أقبلت؟» قال من أهلي وولدي وعشيرتي قال: «فأين تريد؟» قال أريد رسول الله ﷺ قال «قد أصبته» قال يا رسول الله علمني ما الإيمان قال «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت» قال قد أقررت قال ثم إن بعيره دخلت يده في جحر جردان فهوى بعيره وهوى الرجل فوقع على هامته فمات فقال رسول الله ﷺ «علي بالرجل» فوثب إليه عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان فأقعدها فقالا: يا رسول الله قبض الرجل قال فأعرض عنهما رسول الله ﷺ ثم قال لهما رسول الله ﷺ «أما رأيكما إعراضاً عن الرجل فأنى رأيتم ملكين يداوران فيه من ثمار الجنة فعملت أنه مات جائعاً» ثم قال رسول الله ﷺ «هذا من الذين قال الله عز وجل فيهم (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) الآية» ثم قال «دونكم أخاكم» فاحتملناه إلى الماء فغسلناه وحنطناه وكفناه وحملناه إلى القبر فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس على شفير القبر فقال «الحدوا ولا تشقوا فان اللحد لنا والشق لغيرنا» ثم رآه أحمد عن أسود بن عامر عن عبد الحميد ابن جعفر الفراء عن ثابت عن زاذان عن جرير بن عبد الله فذكر نحوه وقال فيه هذا ممن عمل قليلاً وأجر كثيراً، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يوسف بن موسى القطان حدثنا مهرا بن أبي عمر حدثنا علي بن عبد الله عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كنا مع رسول الله ﷺ في مسير ساره إذ عرض له أعرابي فقال يا رسول الله والذي بعثك بالحق لقد خرجت من بلادى وتلادى ومالى لأهتدى بهداه وأخذ من قولك وما بلغتك حتى مالى طعام إلا من خضر الأرض فأعرض على فعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبل فازدحمنا حوله فدخل خف بكره في بيت جردان فتردى الأعرابي فانكسرت عنقه فقال رسول الله ﷺ «صدق والذي بعثني بالحق لقد خرج من بلاده وتلاده وماله لهتدى بهداه وأخذ من قولى وما بلغتني حتى ماله طعام إلا من خضر الأرض أستمع بالذى عمل قليلاً وأجر كثيراً؟ هذا منهم. هذا منهم. أستمع بالذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون؟ فإن هذا منهم» وفي لفظ قال «هذا عمل قليلاً وأجر كثيراً» وروى ابن مردويه من

حديث محمد بن يعلى الكوفي وكان نزل الرى حدثنا يزيد بن خيشمة عن أبي داود عن عبد الله بن سخبرة قال: قال رسول الله ﷺ « من أعطى فشكر ومنع فصر وظم فاستغفر وظم ففقر » وسكت قال : فقالوا يا رسول الله ماله ؟ قال (أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) وقوله (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) أى وجهنا حجة عليهم قال مجاهد وغيره يعنى بذلك قوله (وكيف أخاف ما شركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن) الآية وقد صدقه الله وحكى له بالأمن والهداية فقال (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) ثم قال بعد ذلك كله (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء) قرىء بالاضافة وبلا إضافة كما فى سورة يوسف وكلاهما قريب فى المعنى وقوله (إن ربك حكيم عليم) أى حكيم فى أقواله وأفعاله عليم أى بمن يهديه ومن يضلّه وإن قامت عليه الحجج والبراهين كما قال (ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) ولهذا قال ههنا (ان ربك حكيم عليم)

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ فَمَنْ يَكْفُرْ بِهَا هُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْقَائِلِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدِهَ قُلْ لَا اسْتَكْبَرُ عَلَيْهِ أَجْرٌ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾

يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحق بعد أن طعن فى السن وأيس هو وامرأته سارة من الولد فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط فبشروها بإسحق فتعجبت المرأة من ذلك وقالت (يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشيء عجيب) قالوا أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد (فبشروها مع وجوده بنوته وبأن له نسلا وعقبا كما قال تعالى) (وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين) وهذا أكمل فى البشارة وأعظم فى النعمة وقال (فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) أى ويولد لهذا المولود ولد فى حياتكما فتقر أعينكما به كما قرت بوالده فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضغفه وقعت البشارة به وبولده باسم يعقوب الذى فيه اشتقاق العقب والذرية وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم ونزع عنهم وهاجر من بلادهم ذاهبا إلى عبادة الله فى الأرض فعوضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه لتقربهم عنه كما قال تعالى (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا) وقال ههنا (ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا) وقوله (ونوحا هدينا من قبل) أى من قبله هديناه كما هديناه ووهبنا له ذرية صالحة وكل منهما له خصوصية عظيمة ، أمانوح عليه السلام فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به وهم الذين صحبوه فى السفينة جعل الله ذريته هم الباقين فالناس كلهم من ذريته ، وأما الخليل إبراهيم عليه السلام فلم يبعث الله عز وجل بعده نبيا إلا من ذريته كما قال تعالى (وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب) الآية وقال تعالى (ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب) وقال تعالى (أولئك الذين أنعم الله عليهم من

النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتبتنا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) وقوله في هذه الآية الكريمة (ومن ذريته) أى وهدينا من ذريته (داود وسليمان) الآية وعود الضمير إلى نوح لأنه أقرب المذكورين ظاهر لا إشكال فيه وهو اختيار ابن جرير . وعوده إلى إبراهيم لأنه الذى سيق الكلام من أجله حسن لكن يشكل عليه لوط فإنه ليس من ذرية إبراهيم بل هو ابن أخيه هاران بن آزر اللهم إلا أن يقال إنه دخل في الذرية تغليا كما في قوله (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون) فإسماعيل عمه دخل في آباءه تغليا ، وكما قال في قوله (فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس) فدخل إبليس في أمر الملائكة بالسجود وذم على المخالفة لأنه كان في تشبه بهم فعومل معاملتهم ودخل معهم تغليا وإلا فهو كان من الجن وطبيعته من النار والملائكة من النور وفي ذكر عيسى عليه السلام في ذرية إبراهيم أو نوح على القول الآخر دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجل لأن عيسى عليه السلام إنما ينسب إلى إبراهيم عليه السلام بأمه مريم عليها السلام فإنه لا أب له . قال ابن أبي حاتم حدثنا سهل ابن يحيى العسكرى حدثنا عبد الرحمن بن ضالح حدثنا علي بن عباس عن عبد الله بن عطاء السكي عن أبي حرب بن أبي الأسود قال أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر فقال بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبي صلى الله عليه وسلم بحجه في كتاب الله - وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده ؟ قال أليس تقرأ سورة الأنعام (ومن ذريته داود وسليمان) حتى بلغ (ويحيى وعيسى) قال بلى . قال أليس عيسى من ذرية إبراهيم وليس له أب ؟ قال صدقت . فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته أو وقف على ذريته أو وهبهم دخل أولاد البنات فيهم فأما إذا أعطى الرجل بنيه أو وقف عليهم فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه وبنوبنيه واحتجوا بقول الشاعر العربي :

بنونا بنو أبائنا وبناتنا * بنوهن أبناء الرجال الأجانب

وقال آخرون . ويدخل بنو البنات فيهم أيضا لما ثبت في صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ قال للحسن ابن علي « إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » فسماء ابنا فدل على دخوله في الأبناء . وقال آخرون : هذا تجوز ، وقوله (ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم) ذكر أصولهم وفروعهم ، وذوى طبعتهم وأن الهداية والاجتباء شملهم كلهم ولهذا قال (واجتبتناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم) ثم قال تعالى (ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده) أى إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهديته إليهم (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) تشديد لأمر الشرك وتعليظ لشأنه وتعظيم لملاسته كقوله تعالى (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحطن عملك) الآية ، وهذا شرط والشرط لا يقتضى جواز الوقوع كقوله (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) وكقوله (لو أردنا أن نتخذ لهم واتخذناه من لدنا إن كفارنا) وكقوله (لو أراد الله أن يتخذ ولدا لأصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار) : وقوله تعالى (أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة) أى أنعمنا عليهم بذلك رحمة للعباد بهم ولطفنا منا بالخلقة (فإن يكفر بها) أى بالنبوة ، ويحتمل أن يكون الضمير عائدا على هذه الأشياء الثلاثة الكتاب والحكم والنبوة ، وقوله (هؤلاء) يعنى أهل مكة قاله ابن عباس وسعيد ابن المسيب والضحاك وقتادة والسدى وغير واحد (فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) أى إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ومليين وكتائبين فقد وكلنا بها قوما آخرين ، أى المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة (ليسوا بها بكافرين) أى لا يجحدون منها شيئا ولا يردون منها حرفا واحدا بل يؤمنون بجميعها محكمها ومتشابهها جعلنا الله منهم بمنه وكرمه وإحسانه ثم قال تعالى مخاطبا عبده ورسوله محمد ﷺ (أولئك) يعنى الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والاخوان وهم الأشباه (الذين هدى الله) أى هم أهل الهدى لا غيرهم (فهداهم اقتده) أى اقتد واتبع ، وإذا كان هذا أمرا للرسول صلى الله عليه وسلم فأمته تبع له فيها يشرعه ويأمرهم به قال البخارى عند هذه الآية : حدثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا هشام أن ابن جريج

أخبرهم قال أخبرني سليمان الأحول أن مجاهداً أخبره أنه سأل ابن عباس أفي (ص) سجدة ؟ فقال نعم ثم تلا (ووهبنا له إسحق ويعقوب) إلى قوله (فبهدهم اقتده) ثم قال هومنهم ، زاد يزيد بن هرون ومحمد بن عبيد وسهيل بن يوسف عن العوام عن مجاهد قلت لابن عباس فقال نبيكم ﷺ ممن أمر أن يقتدى بهم وقوله تعالى (قل لا أسألكم عليه أجراً) أى لا أطلب منكم على إبلاغى إياكم هذا القرآن أجراً أى أجرة ولا أريد منكم شيئاً (إن هو إلا ذكرى للعالمين) أى يتذكرون به فيرشدوا من العمى إلى الهدى ، ومن الغي إلى الرشاد ومن الكفر إلى الإيمان

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ * وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ لِّلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾

يقول الله تعالى وماعظموا الله حق تعظيمه إذ كذبوا رسله اليهم : قال ابن عباس ومجاهد وعبد الله بن كثير نزلت في قريش واختاره ابن جرير ، وقيل نزلت في طائفة من اليهود . وقيل في فئحة رجل منهم . وقيل في مالك بن الصيف (قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) والاول أصح لأن الآية مكية واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء وقريش والعرب قاطبة كانوا ينكرون إرسال محمد ﷺ لأنه من البشر كما قال (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس) وكقوله تعالى (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا قل لوكان في الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً) وقال هاهنا (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) قال الله تعالى (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس) أى قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لا نزال شيء من الكتب من عند الله في جواب سلبهم العام باثبات قضية جزئية موجبة (من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى) وهو التوراة التي قد علمتم وكل أحد أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران نورا وهدى للناس أى ليستضاء بها في كشف المشكلات ويهتدى بها من ظلم الشبهات وقوله (تجعلونه قراطيس تبديونها وتخفون كثيرا) أى تجعلون جملتها قراطيس أى قطعاً تكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديكم وتخفون منها ما تحرفون وتبدلون وتتأولون وتقولون هذا من عند الله أى في كتابه المنزل وما هو من عند الله ولهذا قال (تجعلونه قراطيس تبديونها وتخفون كثيرا) وقوله تعالى (وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آبائكم) أى ومن أنزل القرآن الذي علمكم الله فيه من خبر ما سبق ونبا ما يأتي ما لم تكونوا تعلمون ذلك لأنتم ولا آبائكم وقد قال قتادة : هؤلاء مشركو العرب^(١) وقال مجاهد هذه للمسلمين وقوله تعالى (قل الله) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أى قل الله أنزله ، وهذا الذي قاله ابن عباس هو المتعين في تفسير هذه الكلمة ، لا ما قاله بعض التأخرين من أن معنى (قل الله) أى لا يكون خطابك لهم إلا بهذه الكلمة كلمة « الله » وهذا الذي قاله هذا القائل يكون أمراً بكلمة مفردة من غير تركيب والأتان بكلمة مفردة لا يفيد في لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها ، وقوله (ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) أى ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يلعبون حتى يأتيهم من الله اليقين فسوف يعلمون ألهم العاقبة أم لعباد الله المتقين ؟ وقوله (وهذا كتاب) يعنى القرآن (أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أُم القرى) يعنى مكة (ومن حولها) من أحياء العرب ومن سائر طوائف بني آدم من عرب وعجم كما قال في الآية الأخرى (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) وقال (لأنذرکم به ومن بلغ) وقال (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) وقال (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) وقال (وقل للذين أوتوا الكتاب والأُميين أأسلمتم ، فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد) وثبت في

(١) قبل إن هذه نزلت مرتين مرة بمكة والمحطاب فيها للمشركين . ولعلها قراءة ابن كثير وأبي عمرو يجعلونه بالياء ، ومرة بالمدينة . ولعلها قراءة تجعلونه بالناء لأنه خطاب لليهود .

الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى » وذكر منهم « وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعث إلى الناس عامة » ولهذا قال (والذين يؤمنوا بالآخرة يؤمنون به) أى كل من آمن بالله واليوم الآخر يؤمن بهذا الكتاب المبارك الذى أنزلناه إليك يا محمد وهو القرآن (وهم على صلاتهم يحافظون) أى يقيمون بما فرض عليهم من أداء الصلوات فى أوقاتها

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلَ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ * وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾

يقول تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) أى لا أحد أظلم ممن كذب على الله فجعل له شركاء أو ولد أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يرسله ولهذا قال تعالى (أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء) قال عكرمة وقتادة نزلت فى مسيلة الكذاب (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) أى ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي بما يفتريه من القول كقوله تعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا) الآية قال الله تعالى (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت) أى فى سكراته وغمراته وكرباته (والملائكة باسطوا أيديهم) أى بالضرب كقوله (لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى) الآية وقوله (يبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء) الآية وقال الضحاك وأبو صالح باسطوا أيديهم أى بالعذاب كقوله (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) ولهذا قال (والملائكة باسطوا أيديهم) أى بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم ولهذا يقولون لهم (أخرجوا أنفسكم) وذلك أن الكافر إذ احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمن الرحيم فتنفرك روحه فى جسده وتعض وتأبى الخروج فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم فائلين لهم (أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق) الآية أى اليوم تهانون غاية الإهانة كما كنتم تكذبون على الله وتستكبرون عن اتباع آياته والاقبياد لرسله ، وقد وردت الأحاديث المنوارة فى كيفية احتضار المؤمن والكافر وهى مقررة عند قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) وقد ذكر ابن مردويه هنا حديثا مطولا جداً من طريق غريبة عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعا فالله أعلم ، وقوله (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) أى يقال لهم يوم معادهم هذا كما قال (وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) أى كما بدأناكم أعدناكم وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه فهذا يوم البعث ، وقوله (وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم) أى من النعم والأموال التى اقتنيتموها فى الدار الدنيا وراء ظهوركم ، وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت ، وما سوى ذلك فذهب وتاركة للناس » وقال الحسن البصرى : يؤتى ابن آدم يوم القيامة كأنه بذبح فيقول الله عز وجل أين ما جمعت ؟ فيقول يارب جمعت وتركته أوفر ما كان فيقول له يا ابن آدم أين ما قدمت لنفسك ؟ فلا يراه قدم شيئا ، وتلا هذه الآية (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم) الآية رواه ابن أبى حاتم ، وقوله (وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فىكم شركاء) تبريح لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا فى الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان ظانين أنها تنفعهم فى معاشهم ومعادهم إن كان ثم معاد فإذا كان

يوم القيامة تقطعت بهم الأسباب وانزاح الضلال وضل عنهم ما كانوا يفترون ويناديهم الرب جل جلاله على رءوس الخلائق .
(أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟) ويقال لهم (أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟)
ولهذا قال ههنا (وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) أى فى العبادة لهم فيكم قسط فى استحقاق
العبادة لهم ، ثم قال تعالى (لقد تقطع بينكم) قرىء بالرفع أى شعلكم وبالنصب أى لقد تقطع (١) ما بينكم من الأسباب
والوصلات والوسائل (وضل عنكم) أى ذهب عنكم (ما كنتم تزعمون) من رجاء الأصنام والأنداد كقوله تعالى (إذ
تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب ونقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما
تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار) وقال تعالى (فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم
يومئذ ولا يتساءلون) وقال تعالى (إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم
 ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) وقال (قيل ادعوا شركاءكم فدعوه فلم يستجيبوا لهم) الآية
وقال (ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا) إلى قوله (وضل عنهم ما كانوا يفترون) والآيات فى هذا كثيرة جداً
﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْغَيَّ مِنَ الْغَيْبِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَ اللَّهُ فَأَنْتَ تُؤْفَكُونَ *
فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ
لَكُمْ النُّجُومَ لَتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه فالق الحب والنوى أى يشقه فى الثرى فتنبت منه الزروع على اختلاف أصنافها من الحبوب والثمار على
اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها من النوى ولهذا فسر قوله (فالق الحب والنوى) بقوله (يخرج من الحى من الميت
ويخرج الميت من الحى) أى يخرج النبات الحى من الحب والنوى الذى هو كالجماد الميت كقوله (وآية لهم الأرض
الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكولون) إلى قوله (ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) وقوله (ويخرج الميت من الحى)
معطوف على (فالق الحب والنوى) ثم فسرهم ثم عطف عليه قوله (ويخرج الميت من الحى) وقد عبروا عن هذا وهذا
بعبارات كلها متقاربة مؤدية للمعنى ، فمن قائل يخرج الدجاجة من البيضة وعكسه ومن قائل يخرج الولد الصالح من الفاجر وعكسه
وغير ذلك من العبارات التى تنتظمها الآية وتشملها

ثم قال تعالى (ذلكم الله) أى فاعل هذا هو الله وحده لا شريك له (فأنت تؤفكون) أى كيف تصرفون عن الحق
وتعدلون عنه إلى الباطل فتعبدون معه غيره وقوله (فالق الإصباح وجعل الليل سكناً) أى خالق الضياء والظلام كما قال
فى أول السورة (وجعل الظلمات والنور) أى فهو سبحانه يخلق ظلام الليل عن غرة الصباح فيضئ الوجود ، ويستتير
الأفق ، ويضمحل الظلام ، وينذهب الليل بسواده وظلام رواقه ، ويحيى النهار بضياؤه وإشراقه ، كقوله (يغشى الليل
النهار يطلبه حثيثاً) فبين تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة الدالة على كمال عظيمته وسلطانه فذكر أنه فالق
الإصباح وقابل ذلك بقوله (وجعل الليل سكناً) أى ساجياً مظلماً لتسكن فيه الأشياء كما قال (والضحى والليل إذا سجى)
وقال (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجل) وقال (والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها) وقال صهيب الرومى رضى الله عنه
لامرأته وقد عاتبته فى كثرة سهره : إن الله جعل الليل سكناً إلا لصهيب إن صهيباً إذ ذكر الجنة طال شوقه وإذا ذكر
النار طار نومه رواه ابن أبى حاتم . وقوله (والشمس والقمر حسباناً) أى يجريان بحساب مقنن مقدر لا يتغير ولا يضطرب
بل لكل منهما منازل يسلكها فى الصيف والشتاء فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولاً وقصراً كما قال (هو الذى
جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل) الآية وكما قال (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار
وكل فى فلك يسبحون) وقال (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) وقوله (ذلك تقدير العزيز العليم) أى الجميع
جار بتقدير العزيز الذى لا يمانع ولا يخالف ، العليم بكل شئ فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ،

وكثيرا ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر يختم السلام بالعزة والعلم كما ذكر في هذه الآية وكما في قوله (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) ولما ذكر خلق السموات والأرض وما فيها في أول سورة حم السجدة قال (وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم) وقوله تعالى (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) قال بعض السلف من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه : أن الله جعلها زينة للسماء ورجوا للشياطين ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر . وقوله (قد فصلنا الآيات) أي قديناها ووضحناها (لقوم يعلمون) أي يعقلون ويعرفون الحق ويتجنبون الباطل

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى (وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة) يعني آدم عليه السلام ، كما قال (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) وقوله (فمستقر ومستودع) اختلفوا في معنى ذلك فعن ابن مسعود وابن عباس وأبي عبد الرحمن السلمي وقيس بن أبي حازم ومجاهد وعطاء وإبراهيم النخعي والضحاك وقتادة والنسدي وعطاء الخراساني وغيرهم (فمستقر) أي في الأرحام قالوا أو أكثرهم (ومستودع) أي في الأصلاب وعن ابن مسعود وطائفة عكسه وعن ابن مسعود أيضا وطائفة فمستقر في الدنيا ومستودع حيث يموت ، وقال سعيد بن جبير فمستقر في الأرحام وعلى ظهر الأرض وحيث يموت ، وقال الحسن البصري المستقر الذي قدمنا فاستقر به عمله . وعن ابن مسعود ومستودع في الدار الآخرة والقول الأول أظهر والله أعلم ، وقوله تعالى (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) أي يفهمون ويعون كلام الله ومعناه ، وقوله تعالى (وهو الذي أنزل من السماء ماء) أي بقدر مبارك ورزقا للعباد وإحياء وغيانا للخلائق رحمة من الله بخلقهم (فأخرجنا به نبات كل شيء) كقوله (وجعلنا من الماء كل شيء حي) (فأخرجنا منه خضرا) أي زرعاً وشجراً أخضر ثم بعد ذلك نخلق فيه الحب والثمر ولهذا قال تعالى (نخرج منه حبا متراكبا) أي يركب بعضه بعضا كالسنبال ونحوها (ومن النخل من طلعها قنوان) أي جمع قنوه وهي عذوق الرطب (دانية) أي قريبة من المتناول كما قال علي بن أبي طلحة الواحي عن ابن عباس (قنوان دانية) يعني بالقنوان الدانية قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض رواه ابن جرير . قال ابن جرير وأهل الحجاز يقولون قنوان وقيس يقول قنوان . قال امرؤ القيس :

فأنت أعاليه وأدت أصوله * ومال بقنوان من البسر أحمر

قال وتميم يقولون قنيان يالباء قال وهي جمع قنوه كما أن صنوان جمع صنوه وقوله تعالى (وجنات من أعناب) أي ونخرج منه جنات من أعناب وهذان النوعان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز وربما كانا خيار الثمار في الدنيا كما امتن الله بهما على عباده في قوله تعالى (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا) وكان ذلك قبل تحريم الخمر وقال (وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب) وقوله تعالى (والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه) قال قتادة وغيره متشابه في الورق والشكل قريب بعضه من بعض ومتخالف في الثمار شكلا وطعما وطبعا وقوله تعالى (انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه) أي نضجه قاله البراء بن عازب وابن عباس والضحاك وعطاء الخراساني والنسدي وقتادة وغيرهم أي فكروا في قدرة خالقه من العدم إلى الوجود بعد أن كان حطبا صار عنباً ووطيا وغير ذلك مما خلق سبحانه وتعالى من الألوان والأشكال والطعوم والروائح كقوله تعالى (وفي الأرض قطع متحاورات وجنات من

أعقاب وزرع وتخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل) الآية ولهذا قال هاهنا (إن في ذلك) أيها الناس (آيات) أي دلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته (لقوم يؤمنون) أي يصدقون به ويتبعون رسله

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴾

هذا رد على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره وأشركوا به في عبادته أن عبدوا الجن فجعلوهم شركاء له في العبادة تعالى الله عن شركهم وكفرهم . فان قيل فكيف عبدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام ؟ فالجواب أنهم ما عبدوها إلا عن طاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك كقوله (إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يعبدون إلا شيطانا مريدا * لعنه الله وقال لأخذن من عبادك نصيبا مفروضا * ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا * يعدهم ويمينهم وما يعدهم الشيطان إلا غورا) وكقوله تعالى (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني) الآية وقال إبراهيم لأبيه (يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا) وكقوله (ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم) وتقول الملائكة يوم القيامة (سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) ولهذا قال تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم) أي وقد خلقهم فهو الخالق وحده لا شريك له فكيف يعبد معه غيره كقول إبراهيم (أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون) ومعنى الآية أنه سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق وحده فلهذا يجب أن يفرد بالعبادة وحده لا شريك له وقوله تعالى (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) ينه به تعالى على ضلال من ضل في وصفه تعالى بأن له ولداً كما يزعم من قاله من اليهود في عزيز ومن قال من النصارى في عيسى ومن قال من مشركي العرب في الملائكة أنها بنات الله (تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا) ومعنى وخرقوا أي اختلقوا واثفكوا وتخروصوا وكذبوا كما قاله علماء السلف قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وخرقوا يعني تخروصوا وقال العوفي عنه (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) قال جعلوا له بنين وبنات وقال مجاهد (وخرقوا له بنين وبنات) قال كذبوا وكذا قال الحسن وقال الضحاك وضعوا وقال السدي قطعوا قال ابن جرير وتأويله إذا : وجعلوا لله الجن شركاء في عبادتهم إياهم وهو المنفرد بخلقهم بغير شريك ولا معين ولا ظهير (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) بحقيقة ما يقولون ولكن جهلا بالله وبعلمته فانه لا ينبغي لمن كان إلها أن يكون له بنون وبنات ولا صاحبة ولا أن يشركه في خلقه شريك ولهذا قال (سبحانه وتعالى عما يصفون) أي تقدس وتنزه وتعظم عما يصفه هؤلاء الجبهة الضالون من الاولاد والانداد والنظراء والشركاء

﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَئِنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(بديع السموات والأرض) أي مبدعها وخالقها ومنشئها ومحدثها على غير مثال سبق كما قال مجاهد والسدي ومه سميت البدعة بدعة لانه لا نظير لها فيما سلف (أئني يكون له ولد) أي كيف يكون له ولد ولم تكن له صاحبة أي والولد إنما يكون متولدا بين شيئين متناسبين والله تعالى لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه لانه خالق كل شيء فلا صاحبة له ولا ولد كما قال تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئا إدا) إلى قوله (وكلهم آتبه يوم القيامة فردا) (وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم) فبين تعالى أنه الذي خلق كل شيء وأنه بكل شيء عليم فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه وهو الذي لا نظير له فأنى يكون له ولد تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

يقول تعالى (ذلکم الله ربکم) أى الذى خلق كل شىء ولا ولد له ولا صاحبة (لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه) أى فاعبدوه وحده لا شريك له وأقروا له بالوحدانية وأنه لا إله إلا هو وأنه لا ولد له ولا والد ولا صاحبة له ولا نظير ولا عدیل (وهو على كل شىء وكيل) أى حفيظ ورقب يدبر كل ما سواه ويرزقهم ويكلائهم بالليل والنهار وقوله (لا تدركه الأبصار) فيه أقوال للائمة من السلف (أحدها) لا تدركه فى الدنيا وإن كانت تراء فى الآخرة كما تواترت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير ما طريق ثابت فى الصحاح والمسانيد والسنن كما قال مسروق عن عائشة أنها قالت من زعم أن محمداً أبصر ربه فقد كذب وفى رواية على الله فان الله تعالى قال (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) رواه ابن أبى حاتم من حديث أبى بكر بن عياش عن عاصم بن أبى النجود عن أبى الضحى عن مسروق ورواه غير واحد عن مسروق وثبت فى الصحيح وغيره عن عائشة من غير وجه وخالفها ابن عباس فعنه إطلاق الرؤية وعنه أنه رآه بفؤاده مرتين والمسئلة تذكر فى أول سورة النجم إن شاء الله ، وقال ابن أبى حاتم ذكر محمد بن مسلم حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثنا يحيى بن معين قال سمعت إسماعيل بن علية يقول فى قول الله تعالى (لا تدركه الأبصار) قال هذا فى الدنيا ، وذكر أبى عن هشام بن عبيد الله أنه قال نحو ذلك . وقال آخرون (لا تدركه الأبصار) أى جميعها وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له فى الدار الآخرة ، وقال آخرون من المعتزلة بمقتضى ما فهموه من هذه الآية أنه لا يرى فى الدنيا ولا فى الآخرة فخالفوا أهل السنة والجماعة فى ذلك مع ما ارتكبه من الجهل بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله . أما الكتاب فقوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) وقال تعالى عن الكافرين (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) قال الإمام الشافعى قدل هذا على أن المؤمنين لا يحجبون عنه تبارك وتعالى . أما السنة فقد تواترت الأخبار عن أبى سعيد وأبى هريرة وأنس وجريج وصهيب وبلال وغير واحد من الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن المؤمنين يرون الله فى الدار الآخرة فى العرصات وفى روضات الجنات جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه آمين وقيل المراد بقوله (لا تدركه الأبصار) أى العقول رواه ابن أبى حاتم عن على بن الحسين عن الفلاس عن ابن مهيدي عن أبى الحصين يحيى بن الحصين قارىء أهل مكة أنه قال ذلك وهذا غريب جداً وخلاف ظاهر الآية وكأنه اعتقد أن الإدراك فى معنى الرؤية والله أعلم

وقال آخرون لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفى الإدراك وأخص من الرؤية فإن الإدراك لا يلزم من نفي الأخض انتفاء الأعم . ثم اختلف هؤلاء فى الإدراك المنفى ما هو فقيل معرفة الحقيقة فإن هذا لا يعلم إلا هو وإن رآه المؤمنون كما أن من رأى القمر فانه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته فالعظيم أولى بذلك وله المثل الأعلى . قال ابن علية فى الآية هذا فى الدنيا رواه ابن أبى حاتم

وقال آخرون الإدراك أخص من الرؤية وهو الاحاطة قالوا ولا يلزم من عدم الاحاطة عدم الرؤية كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم قال تعالى (ولا يحيطون به علماً) وفى صحيح مسلم « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ولا يلزم منه عدم الثناء فكذلك هذا . قال العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) قال لا يحيط بصر أحد بالملك وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عمرو بن حماد بن طلحة القناد حدثنا أسباط عن سماك عن عكرمة أنه قيل له (لا تدركه الأبصار) قال ألسنت ترى السماء ؟ قال بلى قال فكيف ترى ؟ وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة فى الآية (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) هو أعظم من أن تدركه الأبصار

وقال ابن جرير حدثنا سعد بن عبد الله بن عبد الحكم حدثنا خالد بن عبد الرحمن حدثنا أبو عرفة عن عطية العوفى فى قوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) قال هم ينظرون إلى الله لا تحيط أبصارهم به من عظمتهم وبصرهم محيط بهم فذلك قوله (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) وورد فى تفسير هذه الآية حديث رواه ابن أبى حاتم ههنا فقال حدثنا أبو زرعة حدثنا منجاب بن الحارث السهمي حدثنا بشر بن عمار عن أبى روق عن عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) قال « لو أن الجن والإنس

والشياطين والملائكة منذ خلقوا إلى أن فنوا صفوا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله أبداً » غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه ولم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة والله أعلم

وقال آخرون في الآية بما رواه الترمذي في جامعه وابن أبي عاصم في كتاب السنة له وابن أبي حاتم في تفسيره وابن مردويه أيضاً والحاكم في مستدركه من حديث الحكم بن أبان قال سمعت عكرمة يقول سمعت ابن عباس يقول رأى محمد ربه تبارك وتعالى فقلت أليس الله يقول (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) الآية فقال لي لا أم لك ذلك نوره الذي هو نوره إذا تجلى بنوره لا يدركه شيء ، وفي رواية لا يقوم له شيء ، قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وفي معنى هذا الأثر ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضى الله عنه مرفوعاً « إن الله لا ينالم ولا ينبغي له أن ينالم يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل النهار قبل الليل وعمل الليل قبل النهار حجاب النور - أو النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » وفي الكتب المتقدمة إن الله تعالى قال لموسى لما سأل الرؤية : يا موسى إنه لا يرانى حى إلا مات ولا يابس إلا تدهده . أى تدعثر وقال تعالى (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) ونفى هذا الأثر الإدراك الخاص لا ينفي الرؤية يوم القيامة يتجلى لعباده المؤمنين كما يشاء فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه تعالى وتقدس وتنزه فلا تدركه الأبصار ولهذا كانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تثبت الرؤية في الدار الآخرة وتنفيها في الدنيا وتحتج بهذه الآية (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) فالذى نفته الإدراك الذى هو بمعنى رؤية العظمة والجلال على ما هو عليه فان ذلك غير ممكن للبشر ولا للملائكة ولا لشيء وقوله (وهو يدرك الأبصار) أى يحيط بها ويعلمها على ما هى عليه لأنه خلقها كما قال تعالى (ألا يعلم من خلق هو اللطيف الخبير) وقد يكون عبر بالأبصار عن البصرين كما قال السدى فى قوله (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) لا يراه شيء وهو يرى الخلائق وقال أبو العالية فى قوله تعالى (وهو اللطيف الخبير) قال اللطيف لاستخراجها الخبير بمكانها والله أعلم وهذا كما قال تعالى إخباراً عن لقمان فيما وعظ به ابنه (يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها إن الله لطيف خبير)

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ * وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَيَّاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

البصائر هى البينات والحجج التى اشتمل عليها القرآن وما جاء به الرسول ﷺ (فمن أبصر فلنفسه) كقوله (فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها) ولهذا قال (ومن عمى فعليها) لما ذكر البصائر قال (ومن عمى فعليها) أى إنما يعود وباله عليه كقوله (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) (وما أنا عليكم بحفيظ) أى بحافظ ولا رقيب بل إنما أنا مبلغ والله يهتدى من يشاء ويضل من يشاء وقوله (وكذلك نصرَفُ الآيات) أى وكما فصلنا الآيات فى هذه السورة من بيان التوحيد وأنه لا إله إلا هو هكذا نوضح الآيات ونفسرها ونبينها فى كل موطن للجهالة الجاهلين وليقول المشركون والكافرون الكذوبون دارست يا محمد من قبلك من أهل الكتاب وقارأتهم وتعلمت منهم هكذا قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم وقال الطبرانى حدثنا عبد الله بن أحمد حدثنا أبى حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عمرو بن كيسان قال سمعت ابن عباس يقول دارست تلوت خاصمت جادلت وهذا كقوله تعالى إخباراً عن كذبهم وعنادهم (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً وقالوا أساطير الأولين اكتتبها) الآية وقال تعالى إخباراً عن زعيمهم وكاذبهم (إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر) ، وقوله (ولنبينه لقوم يعلمون) أى ولنوضحه لقوم

يعلمون الحق فيتبعونه والباطل فيجتنبونه فله تعالى الحكمة النالمة في إضلال أولئك وبيان الحق لهؤلاء كقوله تعالى (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً) الآية وكقوله (ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الله لهادي الدين آمنوا إلى صراط مستقيم) وقال تعالى (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الدين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً * كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو) وقال (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً) وقال تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى أنزل القرآن هدى للمتقين وأنه يضل به من يشاء ويهدي به من يشاء ولهذا قال هاهنا (وكذلك نصرف الآيات وليقولوا دارست ولنبينه لقوم يعلمون) وقرأ بعضهم (درست) قال التميمي عن ابن عباس درست أى قرأت وتعلمت وكذا قال مجاهد والسدى والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد وقال عبد الرزاق عن معمر قال الحسن (وليقولوا درست) يقول تقدمت وأتممت وقال عبد الرزاق أيضاً أنبأنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار سمعت ابن الزبير يقول إن صبيانا يقرأون هاهنا دارست وإنما هى درست وقال شعبة حدثنا أبو إسحق الهمداني قال هى فى قراءة ابن مسعود درست يعنى بغير ألف بنصب السين ووقف على التاء قال ابن جرير ومعناه أتممت أى أن هذا الذى تلاوه علينا قد مر بنا قديماً وتطاولت مدته وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة أنه قرأها درست أى قرئت وتعلمت وقال معمر عن قتادة درست قرئت وفى حرف ابن مسعود درس وقال أبو عبيد القاسم بن سلام حدثنا حجاج عن هرون قال هى فى حرف أبى بن كعب وابن مسعود وليقولوا درس قال يعنون النبى ﷺ أنه قرأ وهذا غريب فقد روى عن أبى بن كعب خلاف هذا قال أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا الحسن بن ليث حدثنا أبو سلمة حدثنا أحمد بن أبى بزة (١) السكى حدثنا وهب بن زمعة عن أبيه عن حميد الأعرج عن مجاهد عن ابن عباس عن أبى بن كعب قال أقرأت رسول الله صلى الله عليه وسلم (وليقولوا درست) ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث وهب بن زمعة وقال يعنى بحزم السين ونصب التاء ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه

﴿ اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ .

يقول تعالى أمرا لرسوله صلى الله عليه وسلم ولن اتبع طريقته (اتبع ما أوحى إليك من ربك) أى اقتد به واقتف أثره واعمل به فإن ما أوحى إليك من ربك هو الحق الذى لا مرية فيه لأنه لا إله إلا هو (وأعرض عن المشركين) أى اعف عنهم واصفح واحتمل أذاهم حتى يفتح الله لك وينصرك ويظفرك عليهم واعلم أن لله حكمة فى إضلالهم فانه لو شاء لهدى الناس جميعا ولو شاء لجمعهم على الهدى (ولو شاء الله ما أشركوا) أى بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره لا يسأل عما يفعل وهم يسألون وقوله تعالى (وما جعلناك عليهم حفيظا) أى حافظا تحفظ أقوالهم وأعمالهم (وما أنت عليهم بوكيل) أى موكل على أرزاقهم وأمورهم (إن عليك إلا البلاغ) كما قال تعالى (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بصيطر) وقال (إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب)

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يقول الله تعالى ناهياً لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين وإن كان فيه مصلحة إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين وهو (الله لا إله إلا هو) كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية قالوا يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك فنهام الله أن يسبوا أو ثأنهم (فيسبوا الله عدواً بغير علم) وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة كان المسلمون يسبون أصنام الكفار فيسب الكفار الله عدواً بغير علم فأنزل الله (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله) وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي أنه قال في تفسير هذه الآية لما حضر أبا طالب الموت قالت قريش انطلقوا فلندخل على هذا الرجل فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه فإننا نستحي أن يقتله بعد موته فتقول العرب كان يمنعهم فلما مات قتلوه فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحارث وأمية وأبي ابن خلف وعقبة بن أبي معيط وعمر بن العاص والأسود بن البختري وبعثوا رجلاً منهم يقال له المطلب قالوا استأذن لنا على أبي طالب فأبى فأبواب فقال هؤلاء مشيخة قومك يريدون الدخول عليك فأذن لهم عليه فدخلوا عليه فقالوا يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا وإن محمداً قد آذانا وآذى آلهتنا فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولدعه وإلهه فدعاه فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال له أبا طالب هؤلاء قومك وبنو عمك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماتريدون ؟ » قالوا نريد أن تدعنا وآلهتنا ولدعك وإلهك فقال النبي ﷺ « أرايتم إن أعطيتكم هذا هل أنتم معطى كلمة إن تكلمتم بها ملكتم بها العرب ودانت لكم بها العجم وأدت لكم الخراج » قال أبو جهل وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها قالوا فما هي ؟ قال « قولوا لا إله إلا الله » فأبوا واشمأزوا قال أبا طالب يا ابن أخى قل غيرها فان قومك قد فزعوا منها قال « يا عم ما أنا بالذي يقول غيرها حتى يأتوا بالشمس فيضعوها في يدي ولو أتوا بالشمس فوضعوها في يدي ما قلت غيرها » إرادة أن يؤسبهم فعضوا وقالوا لتكفن عن شتم آلهتنا أولنشتعنك ونشتعن من يأمرك فذلك قوله (فيسبوا الله عدواً بغير علم) ومن هذا القبيل وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها ما جاء في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ملعون من سب والديه » قالوا يارسول الله وكيف يسب الرجل والديه ، قال « يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه » أو كما قال صلى الله عليه وسلم وقوله (كذلك زينا لكل أمة عملهم) أى وكما زينا لهمؤلاء القوم حب أصنامهم والحماة لها والاتصار كذلك زينا لكل أمة أى من الأمم الحالية على الضلال عملهم الذى كانوا فيه والله الحجة البالغة والحكمة التامة فما يشاؤه ويختاره (ثم إلى ربهم مرجعهم) أى معادهم ومصيرهم (فينبئهم بما كانوا يعملون) أى يحازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ * وَتَقَلَّبُ أُنْقِدَتُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٦٤﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم أى حلفوا أيماناً مؤكدة (لئن جاءتهم آية) أى معجزة وخارق (ليؤمنن بها) أى ليصدقن (قل إنما الآيات عند الله) أى قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تعنتا وكفرا وعناداً لا على سبيل الهدى والاسترشاد إنما مرجع هذه الآيات إلى الله إن شاء جاءكم بها وإن شاء ترككم قال ابن جرير حدثنا هناد حدثنا يونس بن بكير حدثنا أبو معشر عن محمد بن كعب القرظى قال كلم رسول الله ﷺ قريش فقالوا يا محمد تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا وتخبرنا أن عيسى كان يحيى الموتى وتخبرنا أن نوحاً كانت لهم ناقة فأثنتا من الآيات حتى صدقك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أى شيء تخبون أن آتيكم به ، » قالوا تجعل لنا الصفا ذهباً فقال لهم « فإن فعلت تصدقوني » قالوا نعم والله لئن فعلت لتتبعنك أجمعون فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فجاءه جبريل عليه السلام فقال له ماشئت إن شئت أصبح الصفا ذهباً ولئن أرسل آية فلم يصدقوا عند ذلك ليعذبنهم ، وإن شئت فأتوكهم حتى يتوب تائبهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بل يتوب تائبهم » فأنزل الله تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) إلى قوله تعالى (ولكن أكثرهم يجهلون)

وهذا مرسل وله شواهد من وجوه آخر . وقال الله تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) الآية وقوله تعالى (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون) قيل المخاطب بما يشعركم المشركون ، وإليه ذهب مجاهد كأنه يقول لهم وما يدريك بصدقكم في هذه الأيمان التي تقسمون بها على هذا فالقراءة (إنها إذا جاءت لا يؤمنون) بكسر إنها على استئناف الخبر عنهم بنى الأيمان عند مجيء الآيات التي طلبوها ، وقرأ بعضهم (أنها إذا جاءت لا يؤمنون) بالتاء المثناة من فوق وقيل المخاطب بقوله وما يشعركم المؤمنون يقول وما يدريك أيها المؤمنون وعلى هذا فيجوز في قوله (أنها) الكسر كالأول والفتح على أنه معمول يشعركم وعلى هذا فتكون لا في قوله (أنها إذا جاءت لا يؤمنون) صلة كقوله (ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك) وقوله (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون) أي مامنعك أن تسجد إذ أمرتك وحرام أنهم لا يرجعون وتقديره في هذه الآية وما يدريك أيها المؤمنون الذين تودون لهم ذلك حرصاً على إيمانهم أنها إذا جاءتهم الآيات يؤمنون قال بعضهم أنها بمعنى لعلها قال ابن جرير وذكروا أن ذلك كذلك في قراءة أبي بن كعب قال وقد ذكر عن العرب سمعا اذهب إلى السوق انك تشتري لنا شيئاً بمعنى لعلك تشتري قال وقد قيل إن قول عدى ابن زيد العبادي من هذا : أعاذل ما يدريك أن منيتي * إلى ساعة في اليوم أوفي ضحي الغد

وقد اختار هذا القول ابن جرير وذكر عليه من شواهد أشعار العرب والله أعلم . وقوله تعالى (وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء وردت عن كل أمر وقال مجاهد في قوله (وتقلب أفئدتهم وأبصارهم) ونحول بينهم وبين الإيمان ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة وكذا قال عكرمة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال أخبر الله العباد قائلون قبل أن يقولوه وعملهم قبل أن يعملوه وقال (ولا يثبتك مثل خير) جل وعلا (أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله) إلى قوله (لو أن لي كرة فأكون من المحسنين) فأخبر الله سبحانه أنهم لو ردوا لم يكونوا على الهدى وقال (ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) وقال تعالى (وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) وقال ولوردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا وقوله (ونذرهم) أي تركهم (في طغيانهم) قال ابن عباس والسدى في كفرهم . وقال أبو العالية والريبع بن أنس وقتادة في ضلالهم (يعمهون) قال الأعمش يلعبون وقال ابن عباس ومجاهد وأبو العالية والريبع وأبو مالك وغيره في كفرهم يترددون

﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِن أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾

يقول تعالى ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها فنزلنا عليهم الملائكة تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل كما سألو أفعالوا (أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً) وقالوا لنؤمن لك حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا) (وكلمهم الموتى) أي فأخبرهم بصدق ما جاءتهم به الرسل (وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً) قرأ بعضهم قبلاً بكسر القاف وفتح الباء من المقابلة والمعاينة وقرأ آخرون بضمهما قيل معناه من المقابلة والمعاينة أيضاً كما رواه علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقال مجاهد قبلاً أي أفواجا قبيلاً قبيلاً أي تعرض عليهم كل أمة بعد أمة فيخبرونهم بصدق الرسل فيما جاءهم به (ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) أي إن الهداية إليه لا إليهم بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الفاعل لما يريد (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) لعلمه وحكمته وسلطانه وقهره وغلبته وهذه الآية كقوله تعالى (إن الذين حقن عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم)

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴾

يقول تعالى وكما جعلنا لك يا محمد أعداء يخالفونك ويعادونك ويعادونك جعلنا لكل نبي من قبلك أيضا أعداء فلا يخونك ذلك كما قال تعالى (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا) الآية وقال تعالى (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم) وقال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين) الآية وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي ، وقوله (شياطين الإنس والجن) بدل من (عدوا) أى لهم أعداء من شياطين الإنس والجن ، والشيطان كل من خرج عن نظيره بالشر ولا يعادى الرسل إلا الشياطين من هؤلاء وهؤلاء قبحهم الله ولعنهم ، قال عبد الرزاق حدثنا معمر عن قتادة في قوله (شياطين الإنس والجن) قال من الجن شياطين ومن الإنس شياطين يوحى بعضهم إلى بعض ، قال قتادة وبلغنى أن أبا ذر كان يوما يصلى فقال النبي ﷺ « تعوذ يا أبا ذر من شياطين الإنس والجن » فقال أو إن من الإنس شياطين فقال رسول الله ﷺ « نعم » وهذا منقطع بين قتادة وأبي ذر . وقد روى من وجه آخر عن أبي ذر رضى الله عنه ، قال ابن جرير حدثنا الثنى حدثنا أبو صالح حدثني معاوية بن صالح عن أبي عبد الله محمد بن أيوب وغيره من المشيخة عن ابن عائذ عن أبي ذر قال أتيت رسول الله ﷺ في مجلس قد أطلال فيه الجلوس قال: فقال « يا أبا ذر هل صليت » قلت لا يا رسول الله قال « قم فاركع ركعتين » قال ثم جئت فجلست إليه فقال « يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شياطين الجن والإنس » قال قلت لا يا رسول الله وهل للإنس من شياطين ؟ قال « نعم هم شر من شياطين الجن » وهذا أيضا فيه انقطاع ، وروى متصلا كما قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا السعدي أنبأني أبو عمر الهمشقي عن عبيد بن الحسيحاس^(١) عن أبي ذر قال أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد فجلست فقال « يا أبا ذر هل صليت ؟ » قلت لا قال « قم فصل » قال فقممت فصليت ثم جلست فقال « يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن » قال قلت يا رسول الله وللإنس شياطين ؟ قال « نعم » وذكر تمام الحديث بطوله وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث جعفر بن عون ويعلى بن عبيد وعبيد الله بن موسى ثلاثهم عن السعدي به .

(طريق أخرى عن أبي ذر) قال ابن جرير حدثنا الثنى حدثنا الحجاج حدثنا حماد عن حميد بن هلال حدثني رجل من أهل دمشق عن عوف بن مالك عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال « يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن » قال قلت يا رسول الله هل للإنس من شياطين ؟ قال « نعم »

(طريق أخرى للحديث) قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عوف الحمصي حدثنا أبو الغيرة حدثنا معاذ بن رفاعة عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ « يا أبا ذر تعوذت من شياطين الجن والإنس » قال يا رسول الله وهل للإنس شياطين ؟ قال « نعم » شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعضهم زخرف القول غرورا) وقوله (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) فهذه طرق لهذا الحديث ومجموعها يفيد قوته وصحته والله أعلم ، قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو نعيم عن شريك عن سعيد بن مسروق عن عكرمة (شياطين الإنس والجن) قال ليس في الإنس شياطين ولكن شياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس وشياطين الإنس يوحون إلى شياطين الجن ، قال وحدثنا الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا إسرائيل عن السدي عن عكرمة في قوله (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) قال للإنس شياطين وللجن شياطين فيلقى شيطان الإنس شيطان الجن فيوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، وقال أسباط عن السدي عن عكرمة في قوله (يوحى بعضهم إلى بعض)

أما شياطين الإنس فالشياطين التي تضل الإنس وشياطين الجن التي تضل الجن يلتقيان فيقول كل واحد منهما لصاحبه إني أضللت صاحبي بكذا وكذا فأضل أنت صاحبك بكذا وكذا فيعلم بعضهم بعضا ، ففهم ابن جرير من هذا أن المراد بشياطين الإنس عند عكرمة والسدى الشياطين من الجن الذين يضلون الناس لا أن المراد منه شياطين الإنس منهم ولا شك أن هذا ظاهر من كلام عكرمة وأما كلام السدى فليس مثله في هذا المعنى وهو محتمل وقد روى ابن أبي حاتم نحو هذا عن ابن عباس من رواية الضحاك عنه قال إن للجن شياطين يضلونهم مثل شياطين الإنس يضلونهم قال فيلتقي شياطين الإنس وشياطين الجن فيقول هذا لهذا أضلله بكذا فهو قوله (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) وعلى كل حال فالصحيح ما تقدم من حديث أبي ذر إن للانس شياطين منهم وشيطان كل شيء مارده ولهذا جاء في صحيح مسلم عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال « الكلب الأسود شيطان » ومعناه والله أعلم شيطان في الكلاب وقال ابن جريج قال مجاهد في تفسير هذه الآية كفار الجن شياطين يوحون إلى شياطين الإنس كفار الإنس زخرف القول غرورا ، وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال قدمت على المختار فأكرمنى وأنزلنى حتى كاد يتعاهد مبيتى بالليل ، قال: فقال لى أخرج إلى الناس فحدثهم قال فخرجت فجاء رجل فقال : ما تقول في الوحي ، فقلت الوحي وحيان قال الله تعالى (بما أوحينا إليك هذا القرآن) وقال تعالى (شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) قال فهموا بي أن يأخذوني فقلت لهم : ما لكم ذاك إني مقتيكم وضيغكم فتركونى ، وإنما عرض عكرمة بالمختار وهو ابن أبي عبيد قبحه الله ، وكان يزعم أنه يأتيه الوحي ، وقد كانت أخته صفية تحت عبد الله ابن عمر وكانت من الصالحات ، ولما أخبر عبد الله بن عمر أن المختار يزعم أنه يوحى إليه فقال صدق قال الله تعالى (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم) وقوله تعالى (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) أى يلقي بعضهم إلى بعض القول المزين المزخرف وهو المزوق الذى يغتر سامعه من الجهلة بأمره (ولو شاء ربك مافعلوه) أى وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيتته أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء (فذرهم) أى فدعهم (وما يفترون) أى يكذبون . أى دع أذاهم وتوكل على الله فى عداوتهم فإن الله كافيك وناصرك عليهم ، وقوله تعالى (ولنصغى إليه) أى ولنحيل إليه . قاله ابن عباس (أثبتة الذين لا يؤمنون بالآخرة) أى قلوبهم وعقولهم وأسماهم : وقال السدى : قلوب الكافرين (وليرضوه) أى يحبوه ويريدوه ، وإنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة كما قال تعالى (فإنكم وما تعبدون * ما أنتم عليه بفائنين * إلا من هو صالح الجحيم) وقال تعالى (إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك) وقوله (وليقتروا ما هم مقترفون) قال طى بن أبى طلحة عن ابن عباس وليكتسبوا ما هم مكتسبون وقال السدى وابن زيد وليعملوا ما هم عاملون

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِّنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ قل لهؤلاء المشركين بالله الذين يعبدون غيره (أغير الله أبتغى حكما) أى بينى وبينكم (وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا) أى مبينا (والذين آتيناهم الكتاب) أى من اليهود والنصارى يعلمون أنه منزل من ربك بالحق أى بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين (فلا تكونن من الممترين) كقوله (فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) وهذا شرط والشرط لا يقتضى وقوعه ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال « لا أشك ولا أسأل » وقوله تعالى (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) قال قتادة صدقا فما قال وعدلا فما حكم يقول صدقا فى الأخبار

وعدلا في الطلب فكل ما أخبر به فحق لأمريه فيه ولا شك وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه وكل مانه عنه فباطل فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة كما قال تعالى (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) إلى آخر الآية (لا مبدل لكلماته) أي ليس أحد يعقب حكمه تعالى ولا في الدنيا ولا في الآخرة (وهو السميع) لأقوال عباده (العليم) بحركاتهم وسكناتهم الذي يجازي كل عامل بعمله

﴿وَإِنْ تَطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ* إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾

يخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بني آدم أنه الضلال كما قال تعالى (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين) وقال تعالى (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم في ظنون كاذبة وحسبان باطل (إن يتبعون إلا الظن وإنهم إلا يخرصون) فإن الخرص هو الحزر ومنه خرص النخل وهو حزر ماعليها من الثمر وذلك كله عن قدر الله ومشيتته (هو أعلم من يضل عن سبيله) فيسره لذلك (وهو أعلم بالمعتدين) فييسرهم لذلك وكل ميسر لما خلق له

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِثَنَائِهِ مُؤْمِنِينَ* وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَضَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرُّرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾

هذا إباحة من الله لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمه ومفهومه أنه لا يباح ما لم يذكر اسم الله عليه كما كان يستبيحه كفار قريش من أكل الميتات وأكل ما ذبح على النصب وغيرها ثم ندب إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه فقال (وما لكم أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم) أي قديين لكم ما حرم عليكم ووضحه وقرأ بعضهم فصل بالتشديد وقرأ آخرون بالتحفيف والسكل بمعنى البيان والوضوح (إلا ما اضطررتم إليه) أي إلا في حال الاضطرار فإنه يباح لكم ما وجدتم ثم بين تعالى جهالة المشركين في آرائهم الفاسدة من استحلالهم الميتات وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى فقال (وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين) أي هو أعلم باعتدائهم وكذبهم وافتراءهم

﴿وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾

قال مجاهد (وذروا ظاهر الإثم وباطنه) العصية في السر والعلانية وفي رواية عنه هو ما ينوي مما هو عامل وقال قتادة (وذروا ظاهر الإثم وباطنه) أي سره وعلانيته قليله وكثيره ، وقال السدي : ظاهره الزنا مع البغايا ذوات الرايات وباطنه الزنا مع الخلية والصدائق والأخذان وقال عكرمة ظاهره نكاح ذوات المحارم والصحيح أن الآية عامة في ذلك كله وهي كقوله تعالى (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن) الآية ولهذا قال تعالى (إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون) أي سواء كان ظاهرا أو خفيا فإن الله سيجزيهم عليه قال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن ابن عرفة حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن معاوية بن صالح عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه عن النواس بن سمعان قال سألت رسول الله ﷺ عن الإثم فقال «الإثم ما جالك في صدرك وكرهت أن يطلع الناس عليه»

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخِذَ إِلَىٰ أُولِي الْأَلْبَابِ لِيُجْدِلُوكُمْ﴾

وَأِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ كُفْرٌ كُونَ ﴿١﴾

استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لأجل إذا لم يذكر اسم الله عليها وإن كان الذابح مسلماً ، وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة على ثلاثة أقوال ، فمنهم من قال لأجل هذه الذبيحة بهذه الصفة وسواء متروك التسمية عمداً أو سهواً وهو مروى عن ابن عمر ونافع مولاة وعامر الشعبي وعبد بن سيرين وهو رواية عن الإمام مالك ورواية عن أحمد بن حنبل نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين وهو اختيار أبي ثور وداود الظاهري واختار ذلك أبو الفتح محمد بن محمد بن علي الطائي من متأخري الشافعية في كتابه الأربعين واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية وبقوله في آية الصيد (فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه) ثم قد أكد في هذه الآية بقوله (وإنه لفسق) والضمير قيل عائد على الأكل وقيل عائد على الذبح لغير الله وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد كحديثي عدى بن حاتم وأبي ثعلبة « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك » وها في الصحيحين ، وحديث رافع بن خديج « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه » وهو في الصحيحين أيضاً وحديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال للجن « لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه » رواه مسلم ، وحديث جندب بن سفیان البجلي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ذبح قبل أن يصلي فليذبح مكانها أخرى ومن لم يكن ذبح حتى صليها فليذبح باسم الله » أخرجاه وعن عائشة رضي الله عنها أن ناساً قالوا يا رسول الله إن قومنا يأتوننا باللحم لاندري أذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ قال « سموا عليه أتم وكلوا » قالت وكانوا حديثي عهد بالكفر رواه البخاري ، ووجه الدلالة أنهم فهموا أن التسمية لابد منها وخشوا أن لا تكون وجدت من أولئك لحداثة إسلامهم فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح إن لم تكن وجدت وأمرهم بأجراء أحكام المسلمين على السداد والله أعلم والمذهب الثاني في المسئلة أنه لا يشترط التسمية بل هي مستحبة فإن تركت عمداً أو نسياناً لا يضر وهذا مذهب الإمام الشافعي رحمه الله وجميع أصحابه ورواية عن الإمام أحمد نقلها عنه حنبل وهو رواية عن الإمام مالك ونص على ذلك أشهب بن عبد العزيز من أصحابه وحكى عن ابن عباس وأبي هريرة وعطاء بن أبي رباح والله أعلم . وحمل الشافعي الآية الكريمة (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) على ما ذبح لغير الله كقوله تعالى (أو فسقا أهل لغير الله به) وقال ابن جرير عن عطاء (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) قال ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش للأوثان وينهى عن ذبائح المجوس وهذا السلك الذي طرقه الإمام الشافعي قوى وقد حاول بعض المتأخرين أن يقويه بأن جعل الواو في قوله (وإنه لفسق) حالية أي : لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه في حال كونه فسقاً ولا يكون فسقاً حتى يكون قد أهلك لغير الله . ثم ادعى أن هذا متعين ولا يجوز أن تكونوا الواو عاطفة لأنه يلزم منه عطف جملة اسمية خبرية على جملة فعلية طلبية وهذا ينتقض عليه بقوله (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم) فإنها عاطفة لاحالة فإن كانت الواو التي ادعى أنها حالية صحيحة على ما قال امتنع عطف هذه عليها فإن عطف على الطلبية ورد عليه ما أورد على غيره وإن لم تكن الواو حالية بطل ما قال من أصله والله أعلم ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يحيى بن المغيرة أنبأنا جرير عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في الآية (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) قال هي البتة . ثم رواه عن أبي زرعة عن يحيى بن أبي كثير عن ابن طبيعة عن عطاء وهو ابن السائب به ، وقد استدلل لهذا المذهب بما رواه أبو داود في المراسيل من حديث ثور بن زيد عن الصلت السدوسي مولى سويد بن ميمون أحد التابعين الذين ذكرهم أبو حاتم بن حبان في كتاب الثقات قال : قال رسول الله ﷺ « ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم الله أولم يذكر أنه إن ذكر لم يذكر إلا اسم الله » وهذا مرسى لبعضهم بما رواه الدارقطني عن ابن عباس أنه قال « إذا ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله فليأكل كل فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله » واحتج البيهقي أيضاً بحديث عائشة رضي الله عنها المتقدم أن ناساً قالوا يا رسول الله إن قومنا حديثي عهد بجاهلية يأتوننا بلحم لاندري أذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقال « سموا أتم وكلوا » قال : فلو كان وجود التسمية شرطاً لم يرخص لهم إلا مع تحقها والله أعلم

المذهب الثالث في المسئلة إن ترك البسملة على الذبيحة نسيانا لم يضر وإن تركها عمداً لم تحل هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه وإسحق بن راهويه وهو محكي عن علي وابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء وطاوس والحسن البصري وأبي مالك وعبد الرحمن بن أبي ليلى وجعفر بن محمد وربيعة بن أبي عبد الرحمن ونقل الإمام أبو الحسن المرغيناني في كتابه الهداية الإجماع قبل الشافعي على تحريم متروك التسمية عمداً فلماذا قال أبو يوسف والشافعي لو حكم حاكم بجواز بيعه لم ينفذ لمخالفة الإجماع ، وهذا الذي قاله غريب جداً وقد تقدم نقل الخلاف عمن قبل الشافعي والله أعلم . وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله من حرم ذبيحة الناسى فقد خرج من قول جميع الحجة وخالف الخبر الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك يعني مارواه الحافظ أبو بكر البيهقي أنبأنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو العباس الأصم حدثنا أبو أمية الطرسوسي حدثنا محمد بن يزيد حدثنا معقل بن عبيد الله عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « المسلم يكفيه اسمه إن نسي أن يسمى حين يذبح فليذكر اسم الله وليأكله » وهذا الحديث رفعه خطأ ، أخطأ فيه معقل بن عبيد الله الجزري فإنه وإن كان من رجال مسلم إلا أن سعيد بن منصور وعبد الله بن الزبير الحميدي وروياه عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن أبي الشعثاء عن عكرمة عن ابن عباس من قوله فزاد في إسناده أبا الشعثاء وثقه وهذا أصح ، نص عليه البيهقي وغيره من الحفاظ ثم نقل ابن جرير وغيره عن الشعبي ومحمد بن سيرين أنهما كرها متروك التسمية نسيانا والسلف يطلقون الكراهة على التحريم كثيراً والله أعلم إلا أن من قاعدة ابن جرير أنه لا يعتبر قول الواحد ولا الاثنين مخالفاً لقول الجمهور فيعده إجماعاً فليعلم هذا والله الموفق قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو أسامة عن جهم بن يزيد قال سئل الحسن سأله رجل أتيت بطير كذا فنه ما قد ذبح فذكر اسم الله عليه ومنه مانس أن يذكر اسم الله عليه واختلط الطير فقال الحسن كله كله ، قال وسألت محمد بن سيرين فقال: قال الله (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) واحتج لهذا المذهب بالحديث المروي من طرق عند ابن ماجه عن ابن عباس وأبي هريرة وأبي ذر وعقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله وضع عن أمي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » وفيه نظر والله أعلم ، وقد روى الحافظ أبو أحمد بن عدى من حديث مروان بن سالم القرقيساني عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أرايت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى ، فقال النبي ﷺ « اسم الله على كل مسلم » ولكن هذا إسناده ضعيف فإن مروان بن سالم القرقيساني أبا عبد الله الشامي ضعيف تكلم فيه غير واحد من الأئمة والله أعلم ، وقد أفردت هذه المسئلة على حدة وذكرت مذاهب الأئمة ومآخذهم وأدلهم ووجه الدلالات والمناقضات والمعارضات والله أعلم

قال ابن جرير وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية هل نسخ من حكمها شيء أم لا ؟ فقال بعضهم لم ينسخ منها شيء وهي محكمة فيما غنيت به ، وعلى هذا قول مجاهد وعامة أهل العلم وروى عن الحسن البصري وعكرمة ما حدثنا به ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح عن الحسين بن واقد عن عكرمة والحسن البصري قالوا : قال الله (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين) وقال (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) فنسخ واستثنى من ذلك فقال (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم) وقال ابن أبي حاتم قرأ على العباس بن الوليد بن يزيد حدثنا محمد بن شعيب أخبرني النعمان يعني ابن المنذر عن مكحول قال أنزل الله في القرآن (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) ثم نسخها الرب ورحم المسلمين فقال (اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) فنسخها بذلك وأحل طعام أهل الكتاب . ثم قال ابن جرير والصواب أنه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه ، وهذا الذي قاله صحيح ومن أطلق من السلف النسخ هاهنا فلما أراد التخصيص والله سبحانه وتعالى أعلم ، وقوله تعالى (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوك) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو بكر ابن عياش عن أبي إسحق قال : قال رجل لابن عمر إن المختار يزعم أنه يوحى إليه قال صدق وتلا هذه الآية (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم) وحدثنا أبي حدثنا أبو حذيفة حدثنا عكرمة بن عمار عن أبي زميل قال كنت قاعدا

عند ابن عباس وحج المختار بن أبي عبيد فجاءه رجل فقال يا ابن عباس زعم أبو إسحق أنه أوحى إليه الليلة فقال ابن عباس صدق ، فنفرت وقلت يقول ابن عباس صدق فقال ابن عباس هما وحيان وحي الله ووحى الشيطان فوحى الله إلى محمد ﷺ ووحى الشيطان إلى أوليائه ثم قرأ (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم) وقد تقدم عن عكرمة في قوله (يوحى بعض إلى بعض زخرف القول غرورا) نحو هذا وقوله (ليجادلوكم) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا عمران بن عيينة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير قال خاصمت اليهود النبي ﷺ فقالوا نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله ؟ فأنزل الله (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) هكذا رواه مرسلًا ورواه أبو داود متصلًا فقال حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا عمران بن عيينة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال جاءت اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله ؟ فأنزل الله (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) الآية وكذا رواه ابن جرير عن محمد بن عبد الأعلى وسفيان بن وكيع كلاهما عن عمران بن عيينة به . ورواه البزار عن محمد بن موسى الجرسى عن عمران بن عيينة به وهذا فيه نظر من وجوه ثلاثة (أحدها) أن اليهود لا يرون إباحة الميتة حتى يجادلوا (الثانى) أن الآية من الأنعام وهى مكية (الثالث) أن هذا الحديث رواه الترمذى عن محمد بن موسى الجرسى عن زياد بن عبد الله البكائى عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ورواه الترمذى بلفظ آتى ناس النبي صلى الله عليه وسلم فذكره وقال حسن غريب وروى عن سعيد بن جبير مرسلًا وقال الطبرانى حدثنا علي بن المبارك حدثنا زيد بن المبارك حدثنا موسى بن عبد العزيز حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال لما نزلت (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمدًا وقولوا له فما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال وما ذبح الله عز وجل بشمشير من ذهب يعنى الميتة فهو حرام فنزلت هذه الآية (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعموهم إنكم لمشركون) أى وإن الشياطين من فارس ليوحون إلى أوليائهم من قريش ، وقال أبو داود حدثنا محمد بن كثير أخبرنا إسرائيل حدثنا ممالك عن عكرمة عن ابن عباس في قوله (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم) يقولون ما ذبح الله فلا تأكلوه وما ذبحتم أتم فكلوه فأنزل الله (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) ورواه ابن ماجه وابن أبي حاتم عن عمرو بن عبد الله عن وكيع عن إسرائيل به وهذا إسناد صحيح ورواه ابن جرير من طرق متعددة عن ابن عباس وليس فيه ذكر اليهود ، فهذا هو المحفوظ لأن الآية مكية واليهود لا يحبون الميتة وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا جرير عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) إلى قوله (ليجادلوكم) قال يوحى الشياطين إلى أوليائهم تأكلون مما قتلتم ولا تأكلون مما قتل الله ؟ وفى بعض ألفاظه عن ابن عباس أن الذى قتلتم ذكر اسم الله عليه وأن الذى قد مات لم يذكر اسم الله عليه ، وقال ابن جرير قال عمرو بن دينار عن عكرمة إن مشركى قريش كاتبوا فارس على الروم وكاتبهم فارس فكتب فارس إليهم أن محمدًا وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله فما ذبح الله بسكين من ذهب فلا يأكلونه وما ذبحوه هم يأكلونه فكتب بذلك المشركون إلى أصحاب رسول الله ﷺ فوقع فى أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء فأنزل الله (وإنه لفسق) وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعموهم إنكم لمشركون) ونزلت (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) وقال السدى فى تفسير هذه الآية إن المشركين قالوا للمسلمين كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضاة الله فما قتل الله فلا تأكلونه وما ذبحتم أتم تأكلونه ؟ فقال الله تعالى (وإن أطعموهم) فى أكل الميتة (إنكم لمشركون) وهكذا قاله مجاهد والضحاك وغير واحد من علماء السلف وقوله تعالى (وإن أطعموهم إنكم لمشركون) أى حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعته إلى قول غيره فقدتم عليه غيره فهذا هو الشرك كقوله تعالى (اتخذوا أبحارهم ورباهم أربابا من دون الله) الآية وقد روى الترمذى فى تفسيرها عن عدى بن حاتم أنه قال يا رسول الله ما عبدوهم فقال « بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم »

﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زِينٌ لِّلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

هذا مثل ضرب به الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتاً أي في الضلالة هالكا حائرا فأحياه الله أي أحيا قلبه بالإيمان وهداه له ووقفه لاتباع رسله (وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس) أي يهتدي كيف يسلك وكيف يتصرف به والنور هو القرآن كما رواه العوفي وابن أبي طلحة عن ابن عباس وقال السدي الاسلام والكل صحيح (كمن مثله في الظلمات) أي الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة (ليس بخارج منها) أي لا يهتدي إلى منفذ ولا مخلص مما هو فيه ، وفي مسند الامام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأ ضل » كما قال تعالى (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وقال تعالى (آمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويّا على صراط مستقيم) وقال تعالى (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون) وقال تعالى (وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور * إن أنت إلا نذير) والآيات في هذا كثيرة ووجه المناسبة في ضرب المثلين ههنا بالنور والظلمات ما تقدم في أول السورة (وجعل الظلمات والنور) وزعم بعضهم أن المراد بهذا المثل رجلان معينان فقيل عمر بن الخطاب هو الذي كان ميتاً فأحياه الله وجعله نوراً يمشي به في الناس وقيل عمار بن ياسر وأما الذي في الظلمات ليس بخارج منها أبو جهل عمرو بن هشام لعنه الله . والصحيح أن الآية عامة يدخل فيها كل مؤمن وكافر

وقوله تعالى (كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) أي حسن لهم ما كانوا فيه من الجهالة والضلالة قدرا من الله وحكمة بالغة لا إله إلا هو وحده لا شريك له

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مِّمَّنْ فِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى وكما جعلنا في قريتك يا محمد أكابر من المجرمين ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله وإلى مخالفتك وعداوتك كذلك كانت الرسل من قبلك يتلون بذلك ثم تكون لهم العاقبة كما قال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين) الآية وقال تعالى (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا متر فيها ففسقوا فيها) الآية قيل معناه أمرناهم بالطاعة فخالقوا فدمرناهم وقيل أمرناهم أمرا قدريا كما قال ههنا (ليمكروا فيها) وقوله تعالى (أكابر مجرميها ليمكروا فيها) قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس (أكابر مجرميها ليمكروا فيها) قال سلطان شرارهم فعصوا فيها فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب . وقال مجاهد وقتادة (أكابر مجرميها) عظماؤها قلت وهكذا قوله تعالى (وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون * وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعدين) وقوله تعالى (وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) والمراد بالمكر ههنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال كقوله تعالى إخبارا عن قوم نوح (ومكروا مكرا كبارا) وقوله تعالى (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الدين استضعفوا للذين

استكبروا لولا أتم لكننا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صدقناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفربالله ونجعل له أنداداً (الآية وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان قال كل مكر في القرآن فهو عمل وقوله تعالى (وما يكفرون إلا بأنفسهم وما يشعرون) أى وما يعود وبال مكرهم ذلك وإضلالهم من أضلوه لإطاع أنفسهم كما قال تعالى (وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم) وقال (ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألاساء ما يزرون) . وقوله تعالى (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسول الله) أى إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة قالوا (لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسول الله) أى حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة كما تأتى إلى الرسل كقوله جل وعلا (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا) الآية ، وقوله (الله أعلم حيث يجعل رسالته) أى هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه كقوله تعالى (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير لجليل مبجل في أعينهم) (من القرئتين) أى من مكة والطائف وذلك أنهم قبضهم الله كانوا يزدرون بالرسول صلوات الله وسلامه عليه بغيا وحسدا ، وعنادا واستكباراً كقوله تعالى مخبرا عنه (وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا ، أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم يذكر الرحمن هم كفرون) وقال تعالى (وإذا رآوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا) وقال تعالى (ولقد استهزئ برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) هذا وهم معترفون بفضله وشرفه ونسبه ، وطهارة بيته ومرباه ، ومنشئه صلى الله وملائكته والمؤمنون عليه ، حتى أنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى اليه « الأمين » وقد اعترف بذلك رئيس الكفار أبو سفيان حين سأله هرقل ملك الروم وكيف نسبه فيكم ؟ قال هو فينا ذو نسب ، قال هل كنتم تنهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال لا - الحديث بطوله الذى استدلل ملك الروم بطهارة صفاته عليه السلام على صدق نبوته وصحة ما جاء به وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن مصعب حدثنا الأوزاعي عن شدداد أبي عمار عن وائلة ابن الأسقع رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة واصطفى من بنى كنانة قريشا واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم » انفراد باخراجه مسلم من حديث الأوزاعي وهو عبد الرحمن بن عمرو إمام أهل الشام به نحوه وفي صحيح البخارى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا حتى بعثت من القرن الذى كنت فيه » وقال الإمام أحمد حدثنا أبو نعيم عن سفيان عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن المطلب بن أبي وداعة قال : قال العباس بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس فصعد المنبر فقال « من أنا ؟ » قالوا أنت رسول الله ، فقال « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه وجعلهم فريقين فجعلنى فى خير فرقة وخلق القبائل فجعلنى فى خير قبيلة وجعلهم يوتا فجعلنى فى خيرهم بيتا ، فأنا خيركم بيتا وخيركم نفسا » صدق صلوات الله وسلامه عليه . وفى الحديث أيضا الروى عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « قال لى جبريل قلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلا أفضل من محمد ، وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد بنى أب أفضل من بنى هاشم » رواه الحاكم والبيهقى . وقال الإمام أحمد حدثنا أبو بكر حدثنا عاصم عن زر بن حبیش عن عبد الله بن مسعود قال : إن الله نظر فى قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فبعثه برسالاته ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند الله سئ . وقال أحمد حدثنا شجاع بن الوليد قال ذكر قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن سلمان قال : قال لى رسول الله ﷺ « يا سلمان لا تبغضنى فتفارق دينك » قلت يا رسول الله كيف أبغضك وبك هدانا الله ؟ قال « تبغض العرب فتبغضنى » وذكر ابن أبي حاتم فى تفسير هذه الآية ذكر عن محمد بن منصور الجواز حدثنا سفيان عن أبي

حسين قال أبصر رجل ابن عباس وهو داخل من باب المسجد فلما نظر إليه راعه فقال من هذا قالوا ابن عباس ابن عم رسول الله ﷺ فقال (الله أعلم حيث يجعل رسالته) ، وقوله تعالى (سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد) الآية هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد لمن تكبر عن اتباع رسله والانتقاد لهم فيما جاءوا به فإنه سيصيه يوم القيامة بين يدي الله صغار وهو الدلة الدائمة كما أنهم استكبروا فأعقبهم ذلك ذل يوم القيامة لما استكبروا في الدنيا كقوله تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) أى صاغرين ذليلين حقيرين وقوله تعالى (وعذاب شديد بما كانوا يمكرون) لما كان الكفر غالبا إنما يكون خفيا وهو التلطف في التحيل والخديعة قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة جزاء وفاقا (ولا يظلم ربك أحدا) كما قال تعالى (يوم تبلى السرائر) أى تظهر المستترات والمكنونات والضمانات وجاء في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « ينصب لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة فيقال هذه غدره فلان بن فلان » والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خفيا لا يطلع عليه الناس فيوم القيامة يصير علما منشورا على صاحبه بما فعل

﴿ فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) أى ييسره له وينشطه ويسهله لذلك فهذه علامات على الخير كقوله تعالى (أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه) الآية وقال تعالى (ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون) وقال ابن عباس رضى الله عنهما في قوله (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) يقول تعالى يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به وكذا قال أبو مالك وغير واحد وهو ظاهر . وقال عبد الرزاق أخبرنا الثوري عن عمرو بن قيس عن عمرو بن مرة عن أبي جعفر قال سئل رسول الله ﷺ أى المؤمنين أكيس ؟ قال « أكثرهم ذكرا للموت وأكثرهم لما بعده استعدادا » قال وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) قالوا كيف يشرح صدره يارسل الله ؟ قال « نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح » قالوا فهل لذلك من أمانة يعرف بها ؟ قال « الإجابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت » وقال ابن جرير حدثنا هناد حدثنا قبيصة عن سفيان بن الثوري عن عمرو بن مرة عن رجل يكنى أبا جعفر كان يسكن المدائن قال سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) فذكر نحو ماتقدم . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا ابن إدريس عن الحسن بن الفرات القزاز عن عمرو بن مرة عن أبي جعفر قال : قال رسول الله ﷺ (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) قال رسول الله ﷺ « إذا دخل الإيمان القلب انفسح له القلب واشرح » قالوا يارسل الله هل لذلك من أمانة ؟ قال « نعم الإجابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل الموت » وقد رواه ابن جرير عن سوار بن عبد الله العنبري حدثنا العتمر بن سليمان سمعت أبي يحدث عن عبد الله بن مرة عن أبي جعفر فذكره . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن عمرو بن قيس عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن مسعود قال تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) قالوا يارسل الله ما هذا الشرح ؟ قال « نور يقذف به في القلب » قالوا يارسل الله فهل لذلك من أمانة تعرف ؟ قال « نعم » قالوا وما هي قال « الإجابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل الموت »

وقال ابن جرير أيضا حدثني هلال بن البلاء حدثنا سعيد بن عبد الملك بن واقد حدثنا محمد بن مسلم عن أبي عبد الرحمن

عن زيد بن أبي أنيسة عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح » قالوا فهل لذلك من علامة يعرف بها ؟ قال « الانابة إلى دار الخلود والتنجي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت » وقد رواه من وجه آخر عن ابن مسعود متصلا مرفوعا فقال حدثني ابن سنان القزاز حدثنا محبوب بن الحسن الهاشمي عن يونس عن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عتبة عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) قالوا يا رسول الله وكيف يشرح صدره ؟ قال « يدخل فيه النور فينفسح » قالوا وهل لذلك علامة يا رسول الله ؟ قال « التجافي عن دار الغرور والانابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل أن ينزل الموت » فهذه طرق لهذا الحديث مرسله ومتصلة يشد بعضها بعضا والله أعلم

وقوله تعالى (ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا) قرىء بفتح الضاد وتسكين الياء والاكثر ضيقا بتشديد الياء وكسرها وهما لغتان كهين وهين وقرأ بعضهم حرجا بفتح الحاء وكسر الراء قيل بمعنى آثم قاله السدي وقيل بمعنى القراءة الأخرى حرجا بفتح الحاء والراء وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى ولا يخلص إليه شيء ما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه . وقد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلا من الأعراب من أهل البادية من مدلج عن الحرجة فقال هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء فقال عمر رضي الله عنه كذلك قلب المنافقين لا يصل إليه شيء من الخير . وقال العوفي عن ابن عباس يجعل الله عليه الإسلام ضيقا والإسلام واسع وذلك حين يقول (وما جعل عليكم في الدين من حرج) يقول ما جعل عليكم في الإسلام من ضيق وقال مجاهد والسدي ضيقا حرجا شاكا وقال عطاء الخراساني ضيقا حرجا أي ليس للخير فيه منفذ وقال ابن المبارك عن ابن جريج ضيقا حرجا بلا إله إلا الله حتى لا يستطيع أن تدخل قلبه كأنما يصعد في السماء من شدة ذلك عليه . وقال سعيد بن جبير يجعل صدره ضيقا حرجا قال لا يجد فيه مسلكا إلا صعودا وقال السدي (كأنما يصعد في السماء) من ضيق صدره

وقال عطاء الخراساني (كأنما يصعد في السماء) يقول مثله كمثل الذي لا يستقيم أن يصعد إلى السماء وقال الحكم ابن أبان عن عكرمة عن ابن عباس (كأنما يصعد في السماء) يقول فكأن لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه حتى يدخله الله في قلبه وقال الأوزاعي (كأنما يصعد في السماء) كيف يستطيع من جعل الله صدره ضيقا أن يكون مسلما . وقال الامام أبو جعفر بن جرير وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه يقول فمثله في امتناعه عن قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه لأنه ليس في وسعه وطاقته ، وقال في قوله (كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) يقول كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقا حرجا كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله بمن أبي الإيمان بالله ورسوله فيغويه ويصده عن سبيل الله وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس : الرجس الشيطان وقال مجاهد : الرجس كل ما لا خير فيه وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الرجس العذاب

﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿

لما ذكر تعالى طريق الضالين عن سبيله الصادقين عنها نبه على شرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق فقال تعالى (وهذا صراط ربك مستقيما) منصوب على الحال أي هذا الدين الذي شرعناه لك يا محمد بما أوحينا إليك هذا القرآن هو صراط الله المستقيم كما تقدم في حديث الحارث عن علي في نعت القرآن : هو صراط الله المستقيم وحبل الله المتين وهو الذي ذكره الحكيم رواه أحمد والترمذي بطوله (قد فصلنا الآيات) أي وضحناها وبينناها وفسرناها (لقوم يذكرون) أي لمن له فهم ووعي يعقل عن الله ورسوله (لهم دار السلام) وهي الجنة (عند ربهم) أي يوم القيامة وإنما وصف الله الجنة ههنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم المقتضى أثر الأنبياء وطرائقهم فكما

سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام (وهو وليهم) أى (١) حافظهم وناصرهم ومؤيدهم (بما كانوا يعملون) أى جزاء على أعمالهم الصالحة تولاهم وأثابهم الجنة بمنه وكرمه

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ أَلْجَنُّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَلَدَىٰ أَلَّيْ أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَلِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى (و) اذكر يا محمد فيا قصه عليهم وتندرهم به (يوم يحشرهم جميعا) يعنى الجن وأولياءهم من الانس الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا ويعوذون بهم ويطيعونهم ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا (يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس) أى يقول يا معشر الجن وسياق الكلام يدل على المحذوف ومعنى قوله (قد استكثرتم من الانس) أى من إغوائهم وإضلالهم كقوله تعالى (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبد الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون) وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس) يعنى أضلتم منهم كثيرا وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة (وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض) يعنى أن أولياء الجن من الانس قالوا مجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا . قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو الأشهب هوزة بن خليفة حدثنا عوف عن الحسن فى هذه الآية قال استكثرتم من أهل النار يوم القيامة فقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض ، قال الحسن وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت الانس . وقال محمد بن كعب فى قوله (ربنا استمتع بعضنا ببعض) قال الصحابة فى الدنيا . وقال ابن جرير كان الرجل فى الجاهلية ينزل الأرض فيقول أعوذ بكبير هذا الوادى . فذلك استمتاعهم فاعتذروا به يوم القيامة وأما استمتاع الجن بالانس فانه كان فى ذكر ما ينال الجن من الانس من تعظيمهم إياهم فى استعانتهم بهم فيقولون قد سدنا الانس والجن (وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا) قال السدى يعنى الموت (قال النار مثواكم) أى ما وأاكم ومنزلكم أتم وإياهم وأولياؤكم (خالدين فيها) أى ما كثرين فيها مكثا مخلدا إلى ما شاء الله قال بعضهم يرجع معنى الاستثناء إلى البرزخ وقال بعضهم هذا رد إلى مدة الدنيا وقيل غير ذلك من الأقوال التى سيأتى تقريرها عند قوله تعالى فى سورة هود (خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد) وقد روى ابن جرير وابن أبى حاتم فى تفسيره هذه الآية من طريق عبد الله بن صالح كاتب الليث حدثنى معاوية بن صالح عن على بن أبى حاتم بن أبى طلحة عن ابن عباس قال (النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم) قال إن هذه الآية آية لا ينبغى لأحد أن يحكم على الله فى خلقه ولا يزلهم جنة ولا ناراً

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

قال سعيد عن قتادة فى تفسيرها إنما يولى الله الناس بأعمالهم فالؤمن ولئ المؤمن أين كان وحيث كان والكافر ولئ الكافر أينما كان وحيثما كان ليس الايمان بالتمنى ولا بالتخلى واختاره ابن جرير ، وقال معمر عن قتادة فى تفسير الآية نولى الله بعض الظالمين بعضا فى النار يتبع بعضهم بعضا . وقال مالك بن دينار قرأت فى الزبور إني أنتقم من المناققين بالمناققين ثم أنتقم من المنافقين جميعا وذلك فى كتاب الله قوله الله تعالى (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا) وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا) قال ظالمى الجن وظالمى الانس وقرأ (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين) قال ونسائط ظلمة الجن على ظلمة الانس وقد روى الحفاظ ابن عساكر فى ترجمة عبد الباقي بن أحمد من طريق سعيد بن عبد الجبار الكرايىسى عن حماد بن سلمة عن عاصم عن ذر عن ابن مسعود مرفوعا « من أعان ظلما سلطه الله عليه » وهذا حديث غريب وقال بعض الشعراء :

وما من يد إلا يد الله فوقها * ولا ظالم إلا سيلى بظالم

(١) فى النسختين الأميرية والأزهرية أى والسلام وهو الله وليهم أى حافظهم الخ .

ومعنى الآية الكريمة كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن كذلك تفعل بالظالمين نسلط بعضهم على بعض ونهلك بعضهم ببعض وننتقم من بعضهم بعض جزاء على ظلمهم وبغيتهم

﴿يَمْعَشِرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمُ الْآيَاتِ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾

وهذا أيضا مما يقرع الله به كافر الجن والإنس يوم القيامة حيث يسألهم وهو أعلم هل بلغتهم الرسل رسالاته وهذا استفهام تقرير (يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم) أي من جملةكم والرسل من الإنس فقط وليس من الجن رسل كما قد نص على ذلك مجاهد وابن جريج وغير واحد من الأئمة من السلف والخلف ، وقال ابن عباس الرسل من بني آدم ومن الجن نزر . وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم أنه زعم أن في الجن رسلا واحتج بهذه الآية الكريمة وفيه نظر لأنها محتملة وليست بصريحة وهي والله أعلم كقوله (مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * فبأى آلاء ربكما تكذبان) إلى أن قال (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) ومعلوم أن اللؤلؤ والمرجان إنما يستخرجان من الملح لا من الحلوى (١) وهذا واضح والله الحمد وقد ذكر هذا الجواب بعينه ابن جرير ، والدليل على أن الرسل إنما هم من الإنس قوله تعالى (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده - إلى قوله - رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وقوله تعالى عن إبراهيم (وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب) فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم في ذريته ولم يقل أحد من الناس إن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل ثم انقطعت عنهم ببعثة وقال تعالى (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق) وقال (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى) ومعلوم أن الجن تبع للإنس في هذا الباب ولهذا قال تعالى إخباراً عنهم (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدفاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم * ياقومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويحرمكم من عذاب أليم * ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء ، أولئك في ضلال مبين) وقد جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا عليهم سورة الرحمن وفيها قوله تعالى (سنفرغ لكم أيها الثقلان * فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقال تعالى في هذه الآية الكريمة (يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا) أي أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك وأنذرونا لقاءك وأن هذا اليوم كائن لا محالة وقال تعالى (وغرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) أي وقد فرطوا في حياتهم الدنيا وهلكوا بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم للمعجزات لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها (وشهدوا على أنفسهم) أي يوم القيامة (أنهم كانوا كافرين) أي في الدنيا بما جاءتهم به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ * وَلَكُلِّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِفَعْلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾

يقول تعالى (ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون) أي إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإزالة الكتب لئلا يؤاخذ أحد بظلمه وهو لم يبلغه دعوة ولكن أعذرنا إلى الأمم وما عذبنا أحداً إلا بعد إرسال الرسل إليهم كما قال تعالى (وإن من قرية إلا خلا فيها نذير) وقال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطواغوت) كقوله (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقال تعالى (كلما أتى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير) (١) هكذا كان المتقدمون يقولون ، ثم ثبت أن بعض الأنهار الحلوة الماء قد استخرج منها اللؤلؤ .

يأتكم نذير ؟ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا (والآيات في هذا كثيرة قال الإمام أبو جعفر بن جرير ويحتمل قوله تعالى (بظلم) وجهين (أحدهما) ذلك من أجل أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم أهلها بالشرك ونحوه وهم غافلون يقول لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم رسولا ينههم على حجج الله عليهم وينذرهم عذاب الله يوم معادهم ولم يكن بالذي يؤاخذهم غفلة فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير (والوجه الثاني) (ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم) يقول لم يكن ربك ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسول والآيات والعبر فيظلمهم بذلك والله غير ظلام لعبيده ثم شرع رجع الوجه الأول ولأشك أنه أقوى والله أعلم .

قال وقوله تعالى (ولكل درجات مما عملوا) أى ولكل عامل من طاعة الله أو معصيته مراتب ومنازل من عمله يبلغه الله إياها ويشبه بها إن خيرا فخير وإن شرا فشر (قلت) ويحتمل أن يعود قوله (ولكل درجات مما عملوا) أى من كافرى الجن والانس أى ولكل درجة في النار بحسبه كقوله (قال لكل ضعف) وقوله (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون) (وماربك بغافل عما يعملون) قال ابن جرير أى وكل ذلك من عملهم يا محمد بعلم من ربك يحصيا ويثبتها لهم عنده ليجازيهم عليها عند لقاءهم إياه ومعادهم إليه

﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ * إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَأَتِيَنَّكُمْ مَعْجِزِينَ * قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتَتِكُمْ إِنِّي عَايِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِبةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

يقول تعالى (وربك) يا محمد (الغنى) أى عن جميع خلقه من جميع الوجوه وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم (ذوالرحمة) أى وهو مع ذلك رحيم بهم كما قال تعالى (إن الله بالناس لرؤوف رحيم) (إن يشأ يذهبكم) أى إذا خالفتهم أمره (ويستخلف من بعدكم ما يشاء) أى قوما آخرين أى يعملون بطاعته (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) أى هو قادر على ذلك سهل عليه يسير لديه كما أذهب القرون الأولى وأتى بالذي بعدها كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والأتیان بآخرين كما قال تعالى (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا) وقال تعالى (يا أيها الناس أتمموا الفقر إلى الله والله الغنى الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز)

وقال تعالى (والله الغنى وأتمم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) وقال محمد بن إسحق عن يعقوب بن عتبة قال سمعت أبا بن عثمان يقول في هذه الآية (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) الذرية الأصل والذرية النسل وقوله تعالى (إنما توعدون لآت وما أتمم بمعجزين) أى أخبرهم يا محمد أن الذي يوعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة (وما أتمم بمعجزين) أى ولا تعجزون الله بل هو قادر على إعادتكم وإن صرتم ترابا رفاتا وعظاما هو قادر لا يعجزه شيء ، وقال ابن أبي حاتم في تفسيرها حدثنا أبي حدثنا محمد بن المصعب حدثنا محمد بن حمير عن أبي بكر ابن أبي مريم عن عطاء بن أبي رباح عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال « يا بني آدم إن كنتم تعاقبون فعدوا أنفسكم من الموتى والذى نفسى بيده إنما توعدون لآت وما أتمم بمعجزين »

وقوله تعالى (قل يا قوم اعملوا على مكاتتكم إلى عامل فسوف تعلمون) هذا تهديد شديد ووعيد أكيد أى استمروا على طريقتكم وناحياتكم إن كنتم تظنون انكم على هدى فأنا مستمر على طريقي ومنهجي كقوله (وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكاتتكم إن اعاملون وانتظروا إن المنتظرون) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (على مكاتتكم) ناحيتكم (فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون) أى أكون لى أولكم وقد أنجز الله مواعده لرسوله صلوات الله عليه أى فانه تعالى مكنه في البلاد وحكمه في نواحي مخالفته من العباد وفتح له مكة وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناوأه واستقر أمره على سائر جزيرة العرب وكذلك الجن والبحرين وكل ذلك في حياته ثم

فتحت الأمصار والأقاليم والرسايق بعد وفاته في أيام خلفائه رضى الله عنهم أجمعين كما قال الله تعالى (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز) وقال (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) وقال تعالى (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) وقال تعالى إخبارا عن رسله (فأوحى إليهم ربه لتهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد) وقال تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا) الآية وقد فعل الله ذلك بهذه الأمة المحمدية وله الحمد والمنة أولا وآخرا وظاهرا وباطنا

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعا وكفروا وشركا وجعلوا لله شركا وجزءا من خلقه وهو خالق كل شيء سبحانه وتعالى ولهذا قال تعالى (وجعلوا لله مما ذرأ أى مما خلق وبرأ (من الحرث) أى من الزرع والثمار (والأنعام نصيبا) أى جزءا وقسما (فقالوا هذا لله برعهم وهذا لشركائنا) وقوله (فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم) قال على بن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس أنه قال فى تفسير هذه الآية إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثا أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزءا وللوثن جزءا فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه وإن سقط منه شيء فيما سقى للصمد ردوه إلى ما جعلوه للوثن وإن سبقهم الماء الذى جعلوه للوثن فسقى شيئا جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن وإن سقط شيء من الحرث والثمرة الذى جعلوه لله فاختلف بالذى جعلوه للوثن قالوا هذا فقير ولم يردوه إلى ما جعلوه لله وإن سبقهم الماء الذى جعلوه لله فسقى ما سقى للوثن تركوه للوثن وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام فيجعلونه للأوثان ويزعمون أنهم يحرمونه قربة لله فقال الله تعالى (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا) الآية وهكذا قال مجاهد وقتادة والسدى وغير واحد ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى الآية كل شيء يجعلونه لله من ذبح يذبحونه لا يأكلونه أبدا حتى يذكروا معه أسماء الآلهة وما كان للآلهة لم يذكر واسم الله معه وقرأ الآية حتى بلغ (ساء ما يحكمون) أى ساء ما يقسمون فانهم أخطأوا أولا فى القسم لأن الله تعالى هو رب كل شيء ومليكه وخالقه وله الملك وكل شيء له وفى تصرفه وتحت قدرته ومشيتته لا إله غيره ولا رب سواه ثم لما قسموا فيها زعموا القسمة الفاسدة لم يحفظوها بل جاروا فيها كقوله جل وعلا (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون) وقال تعالى (وجعلوا له سن عباده حزاً إن الإنسان لَكفور مبين) وقال تعالى (ألكم الذكر وله الأنثى) وقوله (تلك إذا قسمة ضيزى)

﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائُهُمْ لِيُرْذُوهُمْ وَرَلِيلِبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾

يقول تعالى وكما زينت الشياطين لهؤلاء أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الاملاق ووأد البنات خشية العار ، قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم زينوا لهم قتل أولادهم وقال مجاهد شركائهم شياطينهم يأمرونهم أن يثدوا أولادهم خشية العيلة وقال السدى أمرتهم الشياطين أن يقتلوا البنات إما ليردوهم فيهلكوهم ، وإما ليلبسوا عليهم دينهم أى فيخلطوا عليهم دينهم ونحو ذلك قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقتادة وهذا كقوله تعالى (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا

وهو كظم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به (الآية وكقوله) وإذا للوءودة سثلت بأى ذنب قتلت (وقد كانوا أيضا يقتلون الأولاد من الاملاق وهو الفقر أو خشية الاملاق أن يحصل لهم فى تلف المال وقد نهاهم عن قتل أولادهم لذلك وإنما كان هذا كله من تزيين الشياطين وشرعهم ذلك ، قوله تعالى (ولو شاء الله فعلاه) أى كل هذا واقع بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كونا وله الحكمة التامة فى ذلك فلا يسئل عما يفعل وهم يسئلون (فذرهم وما يفترون) أى فدعهم واجتنبهم وما هم فيه فسيحكم الله بينك وبينهم

﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرُهَا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونُ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

قال طى بن أبى طلحة عن ابن عباس الحجر الحرام مما حرّموا من الوصيلة وتحريم ما حرّموا وكذلك قال مجاهد والضحاك والسدى وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرها وقال قتادة (وقالوا هذا أنعام وحرت حجر) تحريم كان عليهم من الشياطين فى أموالهم وتعليظ وتشديد ولم يكن من الله تعالى ، وقال ابن زيد بن أسلم (حجر) إنما احتجروها لأنفسهم ، وقال السدى (لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم) يقولون حرام أن يطعم إلا من شئنا وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل الله أذن لكم أم على الله تفترون) وكقوله تعالى (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثروا لا يعقلون) وقال السدى أما الأنعام التى حرمت ظهورها فهى البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وأما الأنعام التى لا يذكر اسم الله عليها لا إذا ولدوها ولا إن نحرّوها . وقال أبو بكر بن عياش عن عاصم بن أبى النجود قال لى أبو وائل أندري مافى قوله (وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ؟) قلت لا قال هى البحيرة كانوا لا يحجون عليها ، وقال مجاهد كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها ولا فى شئ من شأنها إلا أن ركبوا ولا إن حلبوا ولا إن حملوا ولا إن تنجوا ولا إن عملت شيئا (افتراء عليه) أى على الله وكذبنا منهم فى إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه فانه لم يأذن لهم فى ذلك ولا رضىه منهم (سيجزيهم بما كانوا يفترون) أى عليه ويسندون إليه

﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

قال أبو إسحق السبيعي عن عبد الله بن أبى الهذيل عن ابن عباس (وقالوا مافى بطون هذه الأنعام خالصة لله كورنا) الآية قال اللبن وقال العوفي عن ابن عباس (وقالوا مافى بطون هذه الأنعام خالصة لله كورنا) فهو اللبن كانوا يحرمونه على إناهم ويشربه ذكرائهم وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه وكان للرجال دون النساء وإن كانت أنثى تركت فلم تدبح وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء فهى الله عن ذلك وكذا قال السدى وقال الشعبي البحيرة لا يأكل من لبنها إلا الرجال وإن مات منها شئ أكله الرجال والنساء وكذا قال عكرمة وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقال مجاهد فى قوله (وقالوا مافى بطون هذه الأنعام خالصة لله كورنا ومحرم على أزواجنا) قال هى السائبة والبحيرة وقال أبو العالية ومجاهد وقتادة فى قول الله (سيجزيهم وصفهم) أى قولهم الكذب فى ذلك يعنى كقوله تعالى (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع) الآية إنه (حكيم) أى فى أفعاله وأقواله وشرعه وقدره (عليم) بأعمال عباده ، من خير وشر وسيجزيهم عليها أتم الجزاء

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ﴾

وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٨١﴾

يقول تعالى قد خسر الدين فعلوا هذه الأفاعيل في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم وضيقتوا عليهم في أموالهم فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم وأما في الآخرة فيصيرون إلى أسوأ المنازل بكذبهم على الله واقترائهم كقوله تعالى (إن الدين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا محمد بن أيوب حدثنا عبد الرحمن بن المبارك حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام (قد خسر الدين قتلتوا أولادهم سفها بغير علم وحرمو ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين) وهكذا رواه البخاري منفرداً في كتاب مناقب قريش من صحيحه عن أبي النعمان محمد بن الفضل عازم عن أبي عوانة واسمه الوضاح بن عبد الله الليشكري عن أبي بشر واسمه جعفر بن أبي وحشية عن إياس به

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالْأَنْخُلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

يقول تعالى مبينا أنه الخالق لكل شيء من الزروع والثمار والأنعام التي تصرف فيها هؤلاء المشركون بأرائهم الفاسدة وقسموها وجزؤوها فجعلوا منها حراما وحلالا فقال (وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس معروشات مسموكات وفي رواية فالمعروشات ما عرش الناس وغير معروشات ما خرج في البر والجبال من الثمرات ، وقال عطاء الخراساني عن ابن عباس معروشات ما عرش من الكرم وغير معروشات ما لم يعرش من الكرم وكذا قال السدي وقال ابن جريج متشابهها وغير متشابهها قال متشابهها في النظر وغير متشابهها في الطعم وقال محمد بن كعب (كلوا من ثمره إذا أثمر) قال من رطبه وعنبه ، وقوله تعالى (وآتوا حقه يوم حصاده) قال ابن جرير قال بعضهم هي الزكاة المفروضة حدثنا عمرو حدثنا عبد الصمد حدثنا يزيد بن درهم قال سمعت أنس بن مالك يقول (وآتوا حقه يوم حصاده) قال الزكاة المفروضة وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (وآتوا حقه يوم حصاده) يعني الزكاة المفروضة يوم يكال ويعلم كيله وكذا قال سعيد بن المسيب ، وقال العوفي عن ابن عباس (وآتوا حقه يوم حصاده) وذلك أن الرجل كان إذا زرع فكان يوم حصاده لم يخرج مما حصده شيئا فقال الله تعالى (وآتوا حقه يوم حصاده) وذلك أن يعلم ما كيله وحقه من كل عشرة واحد وما يلقط الناس من سنبله ، وقد روى الإمام أحمد وأبو داود في سننه من حديث محمد بن إسحق حدثني محمد بن يحيى بن حبان عن عمه واسع بن حبان عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ أمر من كل جاذ عشرة أوسق من التمر بقنو يعلق في المسجد للمسكين وهذا إسناد جيد قوي ، وقال طاوس وأبو الشعثاء وقتادة والحسن والضحاك وابن جريج هي الزكاة وقال الحسن البصري هي الصدقة من الحب والثمار وكذا قال زيد بن أسلم وقال آخرون وهو حق آخر سوى الزكاة وقال أشعث عن محمد بن سيرين ونافع عن ابن عمر في قوله (وآتوا حقه يوم حصاده) قال كانوا يعطون شيئا سوى الزكاة رواه ابن مردويه وروى عبد الله بن المبارك وغيره عن عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء بن أبي رباح في قوله (وآتوا حقه يوم حصاده) قال يعطى من حضره يومئذ ما تيسر وليس بالزكاة وقال مجاهد إذا حضر المسكين طرحت لهم منه وقال عبد الرزاق عن ابن عينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد (وآتوا حقه يوم حصاده) قال عند الزرع يعطى القبضة

وعند الصرام يعطى القبضة ويتركهم فيتبعون آثار الصرام ، وقال الثوري عن حماد عن إبراهيم النخعي قال يعطى مثل الضغث وقال ابن المبارك عن شريك عن سالم عن سعيد بن جبير (وآتوا حقه يوم حصاده) قال كان هذا قبل الزكاة للمساكين القبضة والضغث لعلف دابته وفي حديث ابن لميعة عن دراج عن أبي الهيثم عن سعيد مرفوعا (وآتوا حقه يوم حصاده) قال (ماسقط من السنبل) رواه ابن مردويه وقال آخرون هذا شيء كان واجبا ثم نسخ الله بال عشر أو نصف العشر حكاه ابن جرير عن ابن عباس ومحمد بن الحنفية وإبراهيم النخعي والحسن والسدي وعطية العوفي وغيرهم واختاره ابن جرير رحمه الله ، قلت وفي تسمية هذا نسخا نظر لأنه قد كان شيئا واجبا في الأصل ثم إنه فصل بيانه وبين مقدار الخرج وكيفية قالوا وكان هذا في السنة الثانية من الهجرة فآله أعلم ، وقد ذم الله سبحانه الذين يصرمون ولا يتصدقون كما ذكر عن أصحاب الجنة في سورة « ن » (إذا قسموا ليعصر منها مصحين ولا يستننون * فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون * فأصبحت كالصريم) أي كالليل الدلم سوداء محترقة (فتنادوا مصحين * أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين * فانطلقوا وهم يتخافتون * أن لا يدخلها اليوم عليكم مسكين * وغدوا على حرد) أي قوة وجلد وهمة (قادرين * فلما رأوها قالوا إنا لضالون بل نحن محرومون * قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون * قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين * فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون * قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين * عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون * كذلك العذاب وللعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون)

وقوله تعالى (ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) قيل معناه لا تسرفوا في الاعطاء فتعطوا فوق المعروف وقال أبو العالية كانوا يعطون يوم الحصاد شيئا ثم تباروا فيه وأسرفوا فأنزله الله (ولا تسرفوا) وقال ابن جرير نزلت في ثابت بن قيس ابن شماس جذ نخلا له فقال لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة فأنزله الله تعالى (ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) رواه ابن جرير عنه وقال ابن جرير عن عطاء نهوا عن السرف في كل شيء ، وقال إياس بن معاوية ماجاوزت به أمر الله فهو سرف ، وقال السدي في قوله ولا تسرفوا قال لا تعطوا أموالكم فتقعدها فقراء وقال سعيد ابن المسيب ومحمد بن كعب في قوله (ولا تسرفوا) قال لا تمنعوا الصدقة فتعصوا ربكم ، ثم اختار ابن جرير قول عطاء أنه نهى عن الاسراف في كل شيء ولا شك أنه صحيح لكن الظاهر والله أعلم من سياق الآية حيث قال تعالى (كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا) أن يكون عائدا على الأكل أي لا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن كقوله تعالى (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) الآية ، وفي صحيح البخاري تعاقبا « كلوا واشربوا والبسوا من غير إسراف ولا مخيلة » وهذا من هذا والله أعلم وقوله عز وجل (ومن الأنعام حمولة وفرشا) أي وأنشأ لكم من الأنعام ماهو حمولة وما هو فرش قيل المراد بالحمولة ما يحمل عليه من الإبل والفرش الصغار منها كما قال الثوري عن أبي إسحق عن أبي الأحوص عن عبد الله في قوله حمولة ما حمل عليه من الإبل وفرش الصغار من الإبل رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه : وقال ابن عباس الحمولة هي الكبار والفرش الصغار من الإبل وكذا قال مجاهد ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (ومن الأنعام حمولة وفرشا) أما الحمولة فالإبل والحيل والبغال والحمير وكل شيء يحمل عليه وأما الفرش فالغنم واختاره ابن جرير قال وأحسبه إنما سمى فرشا لدنوه من الأرض ، وقال الربيع بن أنس والحسن والضحاك وقتادة وغيره الحمولة الإبل والبقر والفرش الغنم . وقال السدي أما الحمولة فالإبل وأما الفرش فالفصلاان والعجائيل والغنم وما حمل عليه فهو حمولة وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم الحمولة ما تركبون والفرش ما تأكلون وتحلبون : شاة لا تحمل تأكلون لحما وتتخذون من صوفها لحافا وفرشا وهذا الذي قاله عبد الرحمن في تفسير هذه الآية الكريمة حسن يشهد له قوله تعالى (أولم يروا أننا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون * وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) وقال تعالى (وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين) إلى أن قال (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين) وقال تعالى (الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون *

ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون (وقوله تعالى (كلوا مما رزقكم الله) أى من الثمار والزروع والأنعام فكلها خلقها الله وجعلها رزقا لكم (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أى طريقه وأوامره كما اتبعها المشركون الذين حرموا ما رزقهم الله أى من الثمار والزروع افتراء على الله (إنه لكم) أى إن الشيطان أيها الناس لكم (عدو مبين) أى بين ظاهر العداوة كما قال تعالى (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا لما يدعوه حربه ليكونوا من أصحاب السعير) وقال تعالى (يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما) الآية وقال تعالى (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) والآيات في هذا كثيرة في القرآن

(تَمْنِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّانِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَذْكَرَيْنِ حَرَّمَ أُمُّ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَذْكَرَيْنِ حَرَّمَ أُمُّ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾

هذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام فيما كانوا حرموا من الأنعام وجعلوها أجزاء وأنواعا بحيرة وسائبة ووصيلة وحاما وغير ذلك من الأنواع التي ابتدعوها في الأنعام والزروع والثمار فبين تعالى أنه أنشأ جنات معروشات وغير معروشات وأنه أنشأ من الأنعام حمولة وفرشا . ثم بين أصناف الأنعام إلى غنم وهو بياض وهو الضأن وسواد وهو المعز (١) ذكره وأثناه إلى إبل ذكورها وإناثها وبقر كذلك وأنه تعالى لم يحرم شيئا من ذلك ولا شيئا من أولادها بل كلها مخلوقة لبني آدم أكلا وركوبا وحمولة وحلبا وغير ذلك من وجوه المنافع كما قال (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) الآية وقوله تعالى (أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين) رد عليهم في قولهم (مافي بطون هذه الأنعام خالصة لكورنا ومحرم على أزواجنا الآية وقوله تعالى (نبئوني بعلم إن كنتم صادقين) أى أخبروني عن يقين كيف حرم الله عليكم ما زعمتم تحريمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك ، وقال العوفي عن ابن عباس قوله (ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين) فهذه أربعة أزواج (قل آله ذكرين حرم أم الانثيين) يقول لم أحرم شيئا من ذلك (أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين) (يعنى هل يشتمل الرحم إلا على ذكر أو أنثى فلم تحرمون بعضا وتحلون بعضا) (نبئوني بعلم إن كنتم صادقين) يقول تعالى كله حلال وقوله تعالى (أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا) تهكم بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله من بحريم ما حرموه من ذلك (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم) أى لا أحد أظلم منه (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) وأول من دخل في هذه الآية عمرو بن لحي بن قعدة لأنه أول من عير دين الأنبياء وأول من سيب السوائب ووصل الوصيلة وحامى الحامى كما ثبت ذلك في الصحيح

(قُلْ لَا أَجِدُ مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢﴾

يقول تعالى أمرا عبده ورسوله محمدا ﷺ (قل) يا محمد لهؤلاء الذين حرموا ما رزقهم الله افتراء على الله (لا أجِدُ فيما أوحى إلى محرم ما على طاعم يطعمه) أى آكل يأكله قيل معناه لا أجِدُ شيئا مما حرمت حراما سوى هذه وقيل معناه لا أجِدُ من الحيوانات شيئا حراما سوى هذه فعلى هذا يكون ما ورد من التحريم بعد هذا في سورة المائدة وفي الأحاديث الواردة رافعا لفهوم هذه الآية ومن الناس من يسمى هذا نسخا والأكثر من التأخيرين لا يسمونه نسخا لأنه من باب رفع مباح الأصل والله أعلم ، وقال العوفي عن ابن عباس (أو دما مسفوحا) يعنى المهرق

وقال عكرمة في قوله (أو دما مسفوحا) لولا هذه الآية لثبعت الناس ما في العروق كما تتبعه اليهود ، وقال حماد عن عمران ابن جرير قال سألت أبا مجلز عن الدم ، وما يتلطح من الذبيح من الرأس وعن القدير يرى فيها الحمرة فقال إنما نهى الله عن الدم المسفوح وقال قتادة حرم من الدماء ما كان مسفوحا فأما اللحم خالطه الدم فلا بأس به وقال ابن جرير حدثنا الثني حدثنا حجاج بن مناج حدثنا حماد عن يحيى بن سعيد عن القاسم عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت لا ترى بلحوم السباع بأسا والحمرة والدم يكونان على القدر بأسا وقرأت هذه الآية صحيح غريب

وقال الحميدي حدثنا سفيان حدثنا عمرو بن دينار قال قلت لجابر بن عبد الله إنهم يزعمون أن رسول الله ﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خير فقال قد كان يقول ذلك الحكم بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن أبي ذلك البحر يعني ابن عباس وقرأ (قل لا أجد فيها أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه) الآية وكذا رواه البخاري عن علي بن المديني عن سفيان به ، وأخرجه أبو داود من حديث ابن جريج عن عمرو بن دينار ورواه الحاكم في مستدركه مع أنه في صحيح البخاري كما رأيت ، وقال أبو بكر بن مردويه والحاكم في مستدركه حدثنا محمد بن علي بن دحيم حدثنا أحمد بن حازم حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين حدثنا محمد بن شريك عن عمرو بن دينار عن أبي الشعثاء عن ابن عباس قال كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقدر أفعث الله نبيه وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه فأحل فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكنت عنه فهو عفو وقرأ هذه الآية (قل لا أجد فيها أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه) الآية وهذا لفظ ابن مردويه ورواه أبو داود منفردا به عن محمد بن داود بن صبيح عن أبي نعيم به وقال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة عن سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال ماتت شاة لسودة بنت زمعة فقالت يا رسول الله ماتت فلانة تعني الشاة قال « فلم لا أخذتم مسكها » قالت تأخذ مسك شاة قد ماتت ؟ فقال لها رسول الله ﷺ « إنما قال الله (قل لا أجد فيها أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه) إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير) وإنكم لا تطعمونه أن تدبغوه فتنتفعوا به » فأرسلت فسلخت مسكها فدبغته فاتخذت منه قرصة حتى تخرقت عندها » رواه أحمد ورواه البخاري والنسائي من حديث الشعبي عن عكرمة عن ابن عباس عن سودة بنت زمعة بذلك أو نحوه وقال سعيد بن منصور حدثنا عبد العزيز بن محمد عن عيسى بن نائلة الفزاري عن أبيه قال كنت عند ابن عمر فسأله رجل عن أكل القنفذ فقرا عليه (قل لا أجد فيها أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه) الآية فقال شيخ عنده سمعت أبا هريرة يقول ذكر عند النبي ﷺ فقال « خيب من الخبائث » فقال ابن عمر : إن كان النبي ﷺ قاله فهو كما قال ورواه أبو داود عن أبي ثور عن سعيد بن منصور به

وقوله تعالى (فمن اضطر غير باع ولا عاد) أي فمن اضطر إلى أكل شيء محارم الله في هذه الآية الكريمة وهو غير متلبس ببغى ولا عدوان (فإن ربك غفور رحيم) أي غفور له رحيم به وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية والغرض من سياق هذه الآية الكريمة الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات على أنفسهم بأرائهم الفاسدة من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك فأمر رسوله أن يخبرهم أنه لا يجد فيها أوحاه الله إليه أن ذلك محرم وإنما حرم ما ذكر في هذه الآية من الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به وما عدا ذلك فلم يحرم وإنما هو عفو مسكوت عنه فكيف تزعمون أنتم أنه حرام ومن أين حرمتوه ولم يحرمه الله ؟ وعلى هذا فلا يبق تحريم أشياء أخر فيها بعد هذا كما جاء النهي عن لحوم الحمر الأهلية ولحوم السباع وكل ذي مخلب من الطير على المشهور من مذاهب العلماء

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِّقُونَ ﴾

قال ابن جرير يقول تعالى وحرمنا على اليهود كل ذي ظفر وهو البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع كالابل

والنعام والإوز والبط قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (وعلى الذين هادوا حرما كل ذى ظفر) وهو البعير والنعام وكذا قال مجاهد والسدى في رواية وقال سعيد بن جبير هو الذى ليس منفرج الأصابع وفي رواية عنه كل منفرج الأصابع ومنه الديك وقال قتادة في قوله (وعلى الذين هادوا حرما كل ذى ظفر) وكان يقال للبعير والنعام وأشياء من الطير والحياتان وفي رواية البعير والنعام وحرمة عليهم من الطير البط وشبهه وكل شيء ليس بمنفرد الأصابع ، وقال ابن جريج عن مجاهد كل ذى ظفر قال النعام والبعير شقاقا قلت للقاسم بن أبي بزة وحديثه ماشقاقا قال كل مالا ينفرج من قوائم البهائم قال وما انفرج أكلته قال انفرجت قوائم البهائم والعصافير قال فيهود تأكله قال ولم تنفرج قائمة البعير - خفه - ولا خف النعام ولا قائمة الوز فلا تأكل اليهود الإبل ولا النعام ولا الوز ولا كل شيء لم تنفرج قائمته ولا تأكل حمار الوحش ، وقوله تعالى (ومن البقر والغنم حرما عليهم شحومهما) قال السدى يعنى الثرب وشحم السكتين وكانت اليهود تقول إنه حرمة إسرائيل فنحن نحرمه وكذا قال ابن زيد ، وقال قتادة الثرب (١) وكل شحم كان كذلك ليس في عظم ، وقاله علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (إلا ما حملت ظهورها) يعنى معلق بالظهر من الشحوم ، وقال السدى وأبوصالح الألية مما حملت ظهورها وقوله تعالى (أو الحوايا) قال الإمام أبو جعفر بن جرير الحوايا جمع واحدها حاوية وحاوية موسوية وهو ما تحوى من البطن فاجتمع واستدار وهى بنات اللبن وهى اللباعر وتسمى المراض وفيها الأعماء قاله ومعنى الكلام : ومن البقر والغنم حرما عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورها وما حملت الحوايا . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أو الحوايا وهى المبرق وقال مجاهد الحوايا المبرق والمريض وكذا قال سعيد بن جبير والضحاك وقاتلة وأبو مالك والسدى وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد الحوايا المراض التى تكون فيها الأعماء تكون وسطحها وهى بنات اللبن وهى فى كلام العرب تدعى المراض ، وقوله تعالى (أو ما اختلط بعظم) يعنى إلا ما اختلط من الشحوم بعظم فقد أحلناه لهم ، وقال ابن جريج شحم الألية ما اختلط بالعصعص فهو حلال وكل شيء فى القوائم والجنب والرأس والعين وما اختلط بعظم فهو حلال ونحوه قاله السدى وقوله تعالى (ذلك جزيناهم بغيرهم) أى هذا التضييق إنما فعلناه بهم وألزمناهم به مجازة على بغيرهم ومخالفتهم أو امرنا كما قال تعالى (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا) وقوله (وإننا لصادقون) أى وإننا لعادلون فيما جازيناهم به وقال ابن جرير وإننا لصادقون فيما أخبرناك به يا محمد من تحريمنا ذلك عليهم لا كما زعموا من أن إسرائيل هو الذى حرمة على نفسه والله أعلم وقال عبد الله بن عباس بلغ عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن سمرة باع خمرا فقال قاتل الله سمرة ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال « لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجمعوها فباعوها » أخرجه من حديث سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن طاوس عن ابن عباس عن عمر به وقال الليث حدثني يزيد بن أبي حبيب قال : قال عطاء بن أبي رباح سمعت جابر بن عبد الله يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عام الفتح « ان الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام » قيل يا رسول الله أرايت شحوم الميتة فإنها يدهن بها الجلود وتطلى بها السفن ويستصبح بها الناس فقال « لا هو حرام » ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك « قاتل الله اليهود إن الله لما حرم عليهم شحومها جعلها ثم باعوها وأكلوا ثمنه » ورواه الجماعة من طرق عن يزيد بن أبي حميد به ، وقال الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « قاتل الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها » ورواه البخارى ومسلم جميعا عن عبدان عن ابن المبارك عن يونس عن الزهري به ، وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم حدثنا إسماعيل بن إسحاق حدثنا سليمان بن حرب حدثنا وهيب حدثنا خالد الحذاء عن بركة أبي الوليد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان قاعدا خلف المقام فرفع بصره إلى السماء فقال « لعن الله اليهود - ثلاثا - إن الله حرم عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها وإن الله لم يحرم على قوم أكل شيء إلا حرم عليهم ثمنه » وقال الإمام أحمد حدثنا علي بن عاصم أنبأنا خالد الحذاء عن بركة أبي الوليد أنبأنا ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدا في المسجد مستقبلا الحجر فنظر إلى السماء

(١) الثرب بالفتح : الشحم الذى على الكرش والأعماء .

وضحك فقال « لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها وإن الله إذا حرم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه » ورواه أبو داود من حديث خالد الحذاء ، وقال الأعمش عن جامع بن شداد عن كلثوم عن أسامة بن زيد قال دخلنا على رسول الله ﷺ وهو مريض نعوذ فوجدناه نائما قد غطي وجهه يرد عدني فكشف عن وجهه وقال « لعن الله اليهود يحرمون شحوم الغنم ويأكلون أثمانها » وفي رواية « حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها » وفي لفظ لأبي داود عن ابن عباس مرفوعا « إن الله إذا حرم أكل شيء حرم عليهم ثمنه »

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾

يقول تعالى فإن كذبك يا محمد مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم فقل (ربكم ذو رحمة واسعة) وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة واتباع رسوله (ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين) ترهيب لهم من مخالفهم الرسول خاتم النبيين وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن كما قال تعالى في آخر هذه السورة (إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم) وقال (وإن ربك للودود مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب) وقال تعالى (نبي عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم) وقال تعالى (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب) وقال (إن بطر ربك لشديد * إنه هو يبدئ ويعيد * وهو الغفور الودود) والآيات في هذا كثيرة جدا .

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ * قُلْ هَلَمْ شَهِدْكُمْ أَنْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِمَا يَكْتُمُونَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

هذه مناظرة ذكرها الله تعالى وشبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه وهو قادر على تغييره بأن يلهيهم الإيمان ويحول بيننا وبين الكفر فلم يغيره فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا بذلك ولهذا قالوا (لو شاء الله ما أشركنا ولا آبائنا ولا حرمنا من شيء) كافي قوله تعالى (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم) الآية وكذلك الآية التي في النحل مثل هذه سواء قال الله تعالى (كذلك كذب الذين من قبلهم) أي بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء وهي حجة داحضة باطلة لأنها لو كانت صحيحة لما أذافهم الله بأسه ودمر عليهم وأدال عليهم رسوله الكرام وأذاق المشركين من أليم الانتقام (قل هل عندكم من علم) أي بأن الله راض عنكم فيما أنتم فيه (فتخرجوه لنا) أي فظهروه لنا وتبينوه وتبرزوه (إن تتبعون إلا الظن) أي الوهم والخيال والراد بالظن هاهنا الاعتقاد الفاسد (وإن أنتم إلا تخرون) تكذبون على الله فيما ادعيتموه ، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (ولو شاء الله ما أشركنا) وقال (كذلك كذب الذين من قبلهم) ثم قال (ولو شاء الله ما أشركوا) فإهم قالوا عبادتنا الآلهة تقربنا إلى الله زلفى فأخبرهم الله أنها لا تقرهم فقلوه (ولو شاء الله ما أشركوا) يقول تعالى لو شئت لجمعهم على الهدى أجمعين ، وقوله تعالى (قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) يقول تعالى لنبيه ﷺ (قل) لهم يا محمد (فلله الحجة البالغة) أي له الحكمة التامة والحجة البالغة في هداية من هدى وإضلال من ضل (فلو شاء لهداكم أجمعين) فكل ذلك تقدرته ومشيتته واختياره وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويبغض الكافرين كما قال تعالى (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) وقال تعالى (ولو شاء ربك لآمن من الأرض) وقوله (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم

القرآن قال الله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود « من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة » والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جدا ، وروى ابن مردويه من حديث عبادة وأبي الدرداء « لا تشركوا بالله شيئا وإن قطعتم أو صلبتم أو حرقتهم » وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عوف الحمصي حدثنا ابن أبي مريم حدثنا نافع بن زيد حدثني سيار بن عبد الرحمن عن يزيد بن قوذر عن سلمة بن شريح عن عبادة بن الصامت قال أوصانا رسول الله ﷺ بسبع خصال « ألا تشركوا بالله شيئا وإن حرقتهم وقطعتم وصلبتهم » رواه ابن أبي حاتم . وقوله تعالى (وبالوالدين إحسانا) أى وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحسانا أى أن تحسنوا إليهم كما قال تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) وقرأ بعضهم ، ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا « أى أحسنوا إليهم والله تعالى كثيرا ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين كما قال (أن اشكر لى ولوالديك إلى المصبر وإن جاهدك على أن أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) فأمر بالإحسان إليهما وإن كانا مشركين بحسبهما وقال تعالى (وإذا أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا) الآية والآيات في هذا كثيرة وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى العمل أفضل ؟ قال « الصلاة على وقتها » قلت ثم أى ؟ قال « بر الوالدين » قلت ثم أى ؟ قال « الجهاد في سبيل الله » قال ابن مسعود حدثني بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادنى وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه بسنده عن أبي الدرداء وعن عبادة بن الصامت كل منهما يقول أوصانى خليلي رسول الله صلى الله عليه وسلم « أطع والديك وإن أمراك أن تخرج لهما من الدنيا فافعل » ولكن في إسنادهما ضعف والله أعلم . وقوله تعالى (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) لما أوصى تعالى بالوالدين (١) والأجداد عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد فقال تعالى (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق) وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك فكانوا يثدون البنات خشية العار وربما قتلوا بعض الكور خشية الافتقار ولهذا ورد في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الذنب أعظم ؟ قال « أن نحمل لله ندا وهو خلقك » قلت ثم أى قال « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قلت ثم أى قال « أن تزاني حيلة جارك » ثم تلا رسول الله ﷺ (والذين لا يدعون مع الله آلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون) الآية وقوله تعالى (من إملاق) قال ابن عباس وقتادة والسدى وغيره هو الفقر أى ولا تقتلوه من فقركم الحاصل ، وقال في سورة الاسراء (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) أى لا تقتلوه خوفا من الفقر في الآجل ولهذا قال هناك (نحن نرزقهم وإياكم) فبدأ برزقهم للاهتمام بهم أى لا تخافوا من فقركم بسبب رزقهم فهو على الله وأما هنا فلما كان الفقر حاصلا قال (نحن نرزقكم وإياهم) لأنه الأهم ههنا والله أعلم ، وقوله تعالى (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) كقوله تعالى (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبنى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) وقد تقدم تفسيرها في قوله تعالى (وذروا ظاهرا الإثم وباطنه) وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » وقال عبيد الملك بن عمير عن وزاد عن مولاة المغيرة قال : قال سعد بن عبادة لو رأيت مع امرأتى رجلا لضربته بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال « أتعجبون من غيرة سعد ؟ فوالله لأنا أغير من سعد ، والله أغير منى ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » أخرجه وقال كامل أبو العلاء عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قيل يا رسول الله إنا نغار قال « والله انى لأغار والله أغير منى ومن غيرته نهى عن الفواحش » رواه ابن مردويه ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة وهو على شرط الترمذى فقد روى بهذا السند . أعمار أمق ما بين الستين إلى السبعين » وقوله تعالى (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) وهذا مما نص تبارك وتعالى على النهى عنه تأكيدا وإلا فهو

داخل في النهي عن الفواحش مظهر منها وما بطن فقد جاء في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة » وفي لفظ لمسلم « والذي لا إله غيره لا يحل دم رجل مسلم وذكره قال الأعمش فحدثت به إبراهيم فحدثني عن الأسود عن عائشة بثله وروى أبو داود والنسائي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث خصال زان محصن يرمم ، ورجل قتل متعمدا فيقتل ورجل يخرج من الإسلام وحارب الله ورسوله فيقتل أو يصلب أو ينفي من الأرض » وهذا لفظ النسائي وعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال وهو محصور سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : رجل كفر بعد إسلامه ، أو زنى بعد إحصائه ، أو قتل نفسا بغير نفس » فوالله ما زنت في جاهلية ولا إسلام . ولا تمنيت أن ألي بدني بدلما منه بعد إذ هداني الله ، ولا قتلت نفسا ، فم تقتلونني ؟ » رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه وقال الترمذي هذا حديث حسن ، وقد جاء النهي والزجر والوعيد في قتل المعاهد وهو المستأمن من أهل الحرب فروى البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ مرفوعا « من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما » وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « من قتل معاهدا له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر بذمة الله فلا يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً » رواه ابن ماجه والترمذي وقال حسن صحيح ، وقوله (ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) أي هذا مما وصاكم به لعلكم تعقلون عن الله أمره ونهيه

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

قال عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما أنزل الله (ولا تقربوا مالا لليتيم إلا بالتي هي أحسن) (إن الدين يأكلون أموال اليتامى ظلما) الآية فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله ويفسد فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأُنزل الله (ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن غلطوهم فإخوانكم) قال فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم رواه أبو داود ، وقوله تعالى (حتى يبلغ أشده) قال الشعبي ومالك وغير واحد من السلف يعني حتى يحتلم وقال السدي حتى يبلغ ثلاثين سنة ، وقيل أربعون سنة وقيل ستون سنة قال وهذا كله بعيد هاهنا والله أعلم ، وقوله تعالى (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء كما توعده على تركه في قوله تعالى (ويل للمظلمين الذين إذا اكْتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين) وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخون المكيال والميزان وفي كتاب الجامع لأبي عيسى الترمذي من حديث الحسين بن قيس أبي علي الرحبي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحاب الكيل والميزان « إنكم ولستم أمرا هلكتم فيه الأمم السالفة قبلكم » ثم قال لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث الحسين وهو ضعيف في الحديث وقد روى بإسناد صحيح عن ابن عباس موقوفا ، قلت وقد رواه ابن مردويه في تفسيره من حديث شريك عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنكم معشر الموالي قد بشركم الله بخصلتين بها هلكتم القرون المتقدمة المكيال والميزان » وقوله تبارك وتعالى (لا نكلف نفسا إلا وسعها) أي من اجتهد في أداء الحق وأخذ به فإن أخطأ بعد است فراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه وقد روى ابن مردويه من حديث بقة عن ميسرة بن عبيد عن عمرو بن ميمون بن مهران عن أبيه عن

سعيد بن المسيب قال : قال رسول الله ﷺ في الآية (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفساً إلا وسعها) فقال « من أوفى على يده في الكيل والميزان والله يعلم صحة نيته بالوفاء فيهما لم يؤخذ وذلك تأويل وسعها » هذا مرسل غريب وقوله (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) كقوله (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهادة بالقسط) الآية وكذا التي تشبهها في سورة النساء يأمر تعالى بالعدل في الفعل والمقال على القريب والبعيد والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد في كل وقت وفي كل حال ، وقوله (وبعهد الله أوفوا) قال ابن جرير يقول وبوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا وإيفاء ذلك أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم وتعملوا بكتابه وسنة رسوله وذلك هو الوفاء بعهد الله (ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) يقول تعالى هذا أوصاكم به وأمركم به وأكد عليكم فيه (لعلكم تذكرون) أي تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه قبل هذا وقرأ بعضهم بتشديد الدال وآخرون بتخفيفها

﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وفي قوله (أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه) ونحو هذا في القرآن قال أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله ونحو هذا قاله مجاهد وغير واحد وقال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا الأسود بن عامر شاذان حدثنا أبو بكر هو ابن عياش عن عاصم هو ابن أبي النجود عن أبي وائل عبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه قال خط رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال « هذا سبيل الله مستقيما » وخط عن يمينه وشماله ثم قال « هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » ثم قرأ (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وكذا رواه الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن أبي بكر بن عياش به وقال صحيح ولم يخرجاه ، وهكذا رواه أبو جعفر الرازي وورقاء وعمر بن أبي قيس عن عاصم عن أبي وائل شقيق بن سلمة عن ابن مسعود مرفوعا به نحوه وكذا رواه يزيد بن هرون ومسدد والنسائي عن يحيى بن حبيب بن عربي وابن حبان من حديث ابن وهب أربعتهم عن حماد بن زيد عن عاصم عن أبي وائل عن ابن مسعود به ، وكذا رواه ابن جرير عن المثني عن الحمان عن حماد بن زيد به ورواه الحاكم عن أبي بكر بن إسحق عن إسماعيل بن إسحق القاضي عن سلمان بن حرب عن حماد بن زيد به كذلك وقال صحيح ولم يخرجاه . وقد روى هذا الحديث النسائي والحاكم من حديث أحمد بن عبد الله بن يونس عن أبي بكر بن عياش عن عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود مرفوعا ، وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث يحيى الحمان عن أبي بكر بن عياش عن عاصم عن زريه فقد صححه الحاكم كجرايت من الطريقتين ولعل هذا الحديث عن عاصم بن أبي النجود عن زر وعن أبي وائل شقيق بن سلمة كلاهما عن ابن مسعود به والله أعلم . وقال الحاكم وشاهد هذا الحديث حديث الشعبي عن جابر من وجه غير معتمد . يشير إلى الحديث الذي قال الإمام أحمد وعبد بن حميد جميعا واللفظ لأحمد حدثنا عبد الله بن محمد وهو أبو بكر بن أبي شيبة أنبأنا أبو خالد الأحمر عن مجالد عن الشعبي عن جابر قال كنا جلوسا عند النبي ﷺ فخط خطا هكذا أمامه فقال « هذا سبيل الله » وخطين عن يمينه وخطين عن شماله وقيل « هذه سبيل الشيطان » ثم وضع يده في الخط الأوسط ثم تلا هذه الآية (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) ورواه أحمد وابن ماجه في كتاب السنة من سننه والبخاري عن أبي سعيد عبد الله بن سعيد عن أبي خالد الأحمر به قلت ورواه الحافظ بن مردويه من طريقين عن أبي سعيد الكندي حدثنا أبو خالد عن مجالد عن الشعبي عن جابر قال خط رسول الله ﷺ خطا وخط عن يمينه خطا وخط عن يساره خطا ووضع يده على الخط الأوسط وتلا هذه الآية (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه) ولكن العمدة على حديث ابن مسعود مع ما فيه من الاختلاف ان كان مؤثرا ، وقد روى موقوفا عليه قال ابن جرير حدثنا محمد بن

عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن أبان بن عثمان أن رجلا قال لابن مسعود ما الصراط المستقيم ؟ قال تركنا محمد ﷺ في أدناه وطرفه في الجنة وعن يمينه جواد وعن يساره جواد ثم رجال يدعون من مريهم فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة ثم قرأ ابن مسعود (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم) الآية وقال ابن مردويه حدثنا أبو عمرو حدثنا محمد بن عبد الوهاب حدثنا آدم حدثنا إسماعيل بن عياش حدثنا أبان بن عياش عن مسلم بن أبي عمران عن عبد الله بن عمر سأل عبد الله عن الصراط المستقيم فقال ابن مسعود تركنا محمد ﷺ في أدناه وطرفه في الجنة وذكر تمام الحديث كما تقدم والله أعلم

وقد روى من حديث النواس بن سميان نحوه قال الإمام أحمد حدثني الحسن بن سوار أبو العلاء حدثنا ليث يعني ابن سعد عن معاوية بن صالح أن عبد الرحمن بن جبير بن نفير حدثه عن أبيه عن النواس بن سميان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعن جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول يا أيها الناس هلم ادخلوا الصراط المستقيم جميعا ولا تفرقوا وداع يدعو من فوق الصراط فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال ويحك لا تفتح فانك إن فتحتة تلججه فالصراط الإسلام والسوران حدود الله والأبواب المفتحة محارم الله وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم » ورواه الترمذي والنسائي عن علي بن حجر زاد النسائي وعمرو بن عثمان كلاهما عن بقة بن الوليد عن يحيى بن سعد عن خالد بن معدان عن جبير بن نفير عن النواس بن سميان به ، وقال الترمذي حسن غريب وقوله تعالى (فاتبعوه ولا تتبعوا السبل) إنما وحد سبيله لأن الحق واحد ولهذا جمع السبل لثفرقتها وتشعبها كما قال تعالى (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان الواسطي حدثنا يزيد بن هارون حدثنا سفيان بن حسين عن الزهري عن أبي إدريس الخولاني عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ « أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث » ثم تلا (قل تعالوا أنل ما حرم ربكم عليكم) حتى فرغ من ثلاث آيات ثم قال « ومن وفي بهن فأجره على الله ومن انتقص منهن شيئا فأدركه الله في الدنيا كانت عقوبته ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه »

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكًا فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿

قال ابن جرير (ثم آتينا موسى الكتاب) تقديره ثم قل يا محمد أخبرنا أنا آتينا موسى الكتاب بدلالة قوله (قل تعالوا أنل ما حرم ربكم عليكم) قلت وفي هذا نظروا ثم هنا إما هي لعطف الخبر بعد الخبر لا لترتيب ههنا كما قال الشاعر
قل لمن ساد ثم ساد أبوه * ثم قد ساد قبل ذلك جده

وههنا لما أخبر الله سبحانه عن القرآن بقوله (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه) عطف بمدح التوراة ورسوله فقال ثم آتينا موسى الكتاب وكثيرا ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة كقوله تعالى (ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا غريبا) وقوله أول هذه السورة (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا) الآية وبعدها (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) الآية وقال تعالى مخبرا عن المشركين (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى) قال تعالى (أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون) وقال تعالى مخبرا عن الجن أنهم قالوا (يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه هدى إلى الحق) الآية وقوله تعالى (تماما على الذي أحسن وتفصيلا) أي آتينا الكتاب الذي أنزلناه إليه تماما كاملا حاملا لما يحتاج إليه في شريعته كقوله (وكتبنا

له في الألواح من كل شيء (ع) الآية وقوله تعالى (على الذي أحسن) أي جزاء على إحسانه في العمل وقيامه بأوامرنا وطاعتنا كقوله (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) وكقوله (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً) وكقوله (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس (ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن) يقول أحسن فيما أعطاه الله وقال قتادة من أحسن في الدنيا تم له ذلك في الآخرة واختار ابن جرير أن تقديره (ثم آتينا موسى الكتاب تماماً) على إحسانه فكانه جعل الذي مصدرية كما قيل في قوله تعالى (وخضتم كالذي خاضوا) أي كخوضهم وقال ابن رواحة وثبت الله ما آتاك من حسن * في المرسلين ونصراً كالذي نصروا

وقال آخرون الذي ههنا بمعنى الذين قال ابن جرير وذكر عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقرؤها تماماً على الذين أحسنوا وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد تماماً على الذي أحسن قال على المؤمنين والمحسنين وكذا قال أبو عبيدة وقال البغوي المحسنون الأنبياء والمؤمنون . يعني أظهرنا فضله عليهم قلت كقوله تعالى (قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) ولا يلزم اصطفاؤه على محمد ﷺ خاتم الأنبياء والخليل عليهما السلام لأدلة أخرى قال ابن جرير وروى أبو عمرو بن العلاء عن يحيى بن يعمر أنه كان يقرؤها تماماً على الذي أحسن رفعاً وتأويل على الذي هو أحسن ثم قال وهذه قراءة لا تستجيز القراءة بها وإن كان لها في العربية وجه صحيح ، وقيل معناه تماماً على إحسان الله إليه زيادة على ما أحسن إليه حكاه ابن جرير والبغوي ولا منافاة بينه وبين القول الأول وبه جمع ابن جرير كما بيناه والله الحمد وقوله تعالى (وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة) فيه مدح لكتابه الذي أنزله الله عليه (لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) فيه الدعوة إلى اتباع القرآن يرغب سبحانه عباده في كتابه ويأمرهم بتدبره والعمل به والدعوة إليه ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به في الدنيا والآخرة لأنه جبل الله المتين

﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِبَيِّنَاتٍ مِنَ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾

قال ابن جرير معناه وهذا كتاب أنزلناه لثلاث قلوب (إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا) يعني لينقطع عذرهم كقوله تعالى (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم يقولوا ربنا لولا أرسلنا رسولاً فنتبع آياتك) الآية وقوله تعالى (على طائفتين من قبلنا) قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس هم اليهود والنصارى وكذا قال مجاهد والسدي وقتادة وغير واحد وقوله (وإن كنا عن دراستهم لفافلين) أي وما كنا نفهم ما يقولون لأنهم ليسوا بلساننا ونحن في غفلة وشغل مع ذلك عما هم فيه وقوله (أو تقولوا لو أننا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم) أي وقطعتنا لعلكم أن تقولوا لو أننا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكنا أهدى منهم فيما أتوه كقوله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم) الآية وهكذا قال ههنا (فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة) يقول فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ النبي العربي قرآن عظيم فيه بيان للحلال والحرام وهدى لما في القلوب ورحمة من الله لعباده الذين يتبعونه ويقتفون ما فيه . وقوله تعالى (فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها) أي لم ينتفع بما جاء به الرسول ولا اتبع ما أرسل به ولا ترك غيره بل صدف عن اتباع آيات الله أي صرف الناس وصدفهم عن ذلك قاله السدي، وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة وصدف عنها أعرض عنها وقول السدي ههنا فيه قوة لأنه قال (فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها) كما تقدم في أول السورة (وهم يهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم) وقال تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب) وقال في هذه الآية الكريمة (سنجزى الذين

يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون) وقد يكون المراد فيما قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة (فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها) أى لا آمن بها ولا عمل بها كقوله تعالى (فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى) وغير ذلك من الآيات الدالة على اشتغال الكافر على التكذيب بقلبه وترك العمل بجوارحه ولكن كلام السدى أقوى وأظهر والله أعلم لأن الله قال (فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها) كقوله تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون)

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَضِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾

يقول تعالى متوعدا للكافرين به والمخالفين لرسوله والمكذبين بآياته والصادقين عن سبيله (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك) وذلك كائن يوم القيامة (أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها) وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراتها حين يرون شيئاً من أشراط الساعة كما قال البخارى في تفسير هذه الآية حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا عبد الواحد حدثنا عماره حدثنا أبو زرعة عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها » فذلك حين (لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل) حدثنا إسحق حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها » وفي لفظ « فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل » ثم قرأ هذه الآية . هكذا رى هذا الحديث من هذين الوجهين ومن الوجه الأول أخرجه بقية الجماعة في كتبهم إلا الترمذى من طرق عن عماره بن القعقاع بن شبرمة عن أبي زرعة ابن عمرو بن جرير عن أبي هريرة به .

وأما الطريق الثانى فرواه عن إسحق غير منسوب وقيل هو ابن منصور الكوسج وقيل إسحق بن نصر والله أعلم وقد رواه مسلم عن محمد بن رافع الجندى ساورى كلاهما عن عبد الرزاق به وقد ورد هذا الحديث من طرق أخر عن أبي هريرة كما انفرد مسلم بروايته من حديث العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب مولى الحرقة عن أبيه عن أبي هريرة به ، وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا ابن فضيل عن أبيه عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض » ورواه أحمد عن وكيع عن فضيل بن غزوان عن أبي حازم سلمان عن أبي هريرة به وعنده والدخان ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة وزهير بن حرب عن وكيع ورواه هو أيضاً والتزمى من غير وجه عن فضيل بن غزوان به ورواه إسحق بن عبد الله القروى عن مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ولكن لم يخرج به أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه لضعف القروى والله أعلم ، وقال ابن جرير حدثنا الربيع بن سليمان حدثنا شعيب بن الليث عن أبيه عن جعفر بن ربيعة عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت آمن الناس كلهم وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل » الآية ورواه ابن لهيعة عن الأعرج عن أبي هريرة به ورواه وكيع عن فضيل بن غزوان عن أبي حازم عن أبي هريرة به أخرج هذه الطرق كلها الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره ، وقال ابن جرير حدثنا الحسن بن يحيى أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن أيوب عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها قبل منه » لم يخرج به أحد من أصحاب الكتب الستة

(حديث آخر) عن أبي ذر الغفارى في الصحيحين وغيرهما من طرق عن إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمى عن أبيه

عن أبي ذر جندب بن جنادة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أتدرى أين تذهب الشمس إذا غربت ؟ » قلت لأدرى : قال « إنها تنتهي دون العرش فتخر ساجدة ثم تقوم حتى يقال لها ارجعى فيوشك يا أبا ذر أن يقال لها ارجعى من حيث جئت وذلك حين (لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل) »

(حديث آخر) عن حذيفة بن أسيد بن أبي شريح الغفارى رضى الله عنه ، قال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا سفيان عن فرات عن أبي الطويل عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن ننذاكر الساعة فقال رسول الله ﷺ « لا تقوم الساعة حتى-تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى بن مريم ، وخروج الدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا » وهكذا رواه مسلم وأهل السنن الأربعة من حديث فرات القزاز عن أبي الطويل عامر بن واثلة عن حذيفة بن أسيد به وقال الترمذى حسن صحيح . (حديث آخر) عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه ، قال الثورى عن منصور عن ربعى عن حذيفة قال سألت رسول الله ﷺ فقلت يارسول الله ما آية طلوع الشمس من مغربها ؟ فقال النبي ﷺ « تطول تلك الليلة حتى تكون قدر ليلتين فينتبه الذين كانوا يصلون فيها فيعملون كما كانوا يعملون قبلها والنجوم لا ترى قد غابت مكانها ثم يرقدون ثم يقومون فيصلون ثم يرقدون ثم يقومون تبطل عليهم جنوبهم حتى يتناول عليهم الليل فيفزع الناس ولا يصحون فيبناهم ينتظرون طلوع الشمس من مشرقها إذ طلعت من مغربها فإذا رآها الناس آمنوا فلم ينفعهم إيمانهم » رواه ابن مردويه وليس هو فى شيء من الكتب الستة من هذا الوجه والله أعلم

(حديث آخر) عن أبي سعيد الخدرى واسمه سعد بن مالك بن سنان رضى الله عنه وأرضاه قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا ابن أبي ليلى عن عطية العوفى عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبي ﷺ « (يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها) - قال- طلوع الشمس من مغربها » ورواه الترمذى عن سفيان بن وكيع عن أبيه به وقال غريب ورواه بعضهم ولم يرفعه وفى حديث طلوت بن عباد عن فضال بن جبير عن أبي أمامة صدى بن عجلان قال : قال رسول الله ﷺ « إن أول الآيات طلوع الشمس من مغربها » وفى حديث عاصم بن أبى النجود عن زر بن حبيش عن صفوان بن عسال قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله فتح بابا قبل المغرب عرضه سبعون عاما للتوبة لا يعلق حتى تطلع الشمس منه » رواه الترمذى وصححه النسائى وابن ماجه فى حديث طويل

(حديث آخر) عن عبد الله بن أبي أوفى قال ابن مردويه حدثنا محمد بن علي بن دحيم حدثنا أحمد بن حازم حدثنا ضرار بن صرد حدثنا ابن فضيل عن سليمان بن زيد عن عبد الله بن أبي أوفى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ليأتين على الناس ليلة تعدل ثلاث ليالى من ليالىكم هذه فإذا كان ذلك يعرفها المتنفلون يقوم أحدهم فيقرأ حزبه ثم ينام ثم يقوم فيقرأ حزبه ثم ينام فيبناهم كذلك إذ صاح الناس بعضهم فى بعض فقالوا ما هذا فيفزعون إلى الساجد فإذا هم بالشمس قد طلعت حتى إذا صارت فى وسط السماء رجعت وطلعت من مطلعها - قال حينئذ - لا ينفع نفساً إيمانها » هذا حديث غريب من هذا الوجه وليس هو فى شيء من الكتب الستة

(حديث آخر) عن عبد الله بن عمرو قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا أبو حيان عن أبي زرعة عن عمرو بن جرير قال جلس ثلاثة نفر من المسلمين إلى مروان بالمدينة فسمعوه وهو يحدث عن الآيات يقول إن أولها خروج الدجال قال فانصرفوا إلى عبد الله بن عمرو فحدثوه بالذى سمعوه من مروان فى الآيات فقال لم يقل مروان شيئاً حفظت من رسول الله ﷺ يقول « إن أول الآيات خروج الشمس من مغربها وخروج الدابة ضحى فأيتهما كانت قبل صاحبها فالأخرى على أثرها » ثم قال عبد الله وكان يقرأ الكتب وأظن أولها خروج الشمس من مغربها وذلك أنها كلما غربت أتت تحت العرش وسجدت واستأذنت فى الرجوع فأذن لها فى الرجوع حتى إذا بدا الله

أن تطلع من مغربها فعلت كما كانت تفعل، أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع فلم يرد عليها شيء ثم استأذنت في الرجوع فلا يرد عليها شيء حتى إذا ذهب من الليل ما شاء الله أن يذهب وعرفت أنه إذا أذن لها في الرجوع لم تدرك الشرق قالت رب ما أبعد الشرق من لي بالناس حتى إذا صار الأفق كأنه طوق استأذنت في الرجوع فيقال لها من مكانك فاطلعي فطلعت على الناس من مغربها ثم تلا عبد الله هذه الآية (لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل) الآية وأخرجه مسلم في صحيحه وأبو داود وابن ماجه في سننهما من حديث أبي حيان التيجي واسمه يحيى بن سعيد بن حيان عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير به (حديث آخر عنه) قال الطبراني حدثنا أحمد بن يحيى بن خاله بن حيان الرقي حدثنا إسحاق بن إبراهيم ابن زريق الحمصي حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار حدثنا ابن لميعة عن حي بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال النبي ﷺ « إذا طلعت الشمس من مغربها خر إبليس ساجدا ينادي ويحجر إلهي مرني أن أسجد لمن شئت - قال - فيجتمع إليه زبائنه فيقولون كلهم ما هذا التضرع فيقول إنما سألت ربي أن ينظرني إلى الوقت المعلوم وهذا الوقت المعلوم - قال - ثم تخرج دابة الأرض من صدع في الصفا - قال - فأول خطوة تضعها بانطاكيا فتأتي إبليس فتلطمه » هذا حديث غريب جدا وسنده ضعيف ولعله من الزامتين اللتين أصابهما عبد الله بن عمرو يوم اليرموك فأما رفعه فنكر والله أعلم (حديث آخر) عن عبد الله بن عمرو وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنهم أجمعين قال الإمام أحمد حدثنا الحكم بن نافع حدثنا إسماعيل بن عياش عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد يرده إلى مالك بن يثامر عن ابن السعدى أن رسول الله ﷺ قال « لا تنقطع الهجرة مادام العدو يقاتل » فقال معاوية وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص إن رسول الله ﷺ قال « إن الهجرة خصلتان إحداهما تهجر السيئات والأخرى تهاجر إلى الله ورسوله ولا تنقطع ما تقبلت التوبة ولا تزال التوبة تقبل حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه وكفى الناس العمل » هذا الحديث حسن الإسناد ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة والله أعلم (حديث آخر) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال عوف الأعرابي عن محمد بن سيرين حدثني أبو عبيدة عن ابن مسعود أنه كان يقول ما ذكر من الآيات فقدمضي غير أربع طلوع الشمس من مغربها ، والدجال . ودابة الأرض وخروج يأجوج ومأجوج . قال وكان يقول الآية التي تختم بها الأعمال طلوع الشمس من مغربها ألم تر أن الله يقول (يوم يأتي بعض آيات ربك) الآية كلها يعني طلوع الشمس من مغربها . حديث ابن عباس رضي الله عنهما رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث عبد النعم بن إدريس عن أبيه عن وهب بن منبه عن ابن عباس مرفوعا فذكر حديثا طويلا غريبا منكرنا رفعه ، وفيه أن الشمس والقمر يطلمان يومئذ من الغرب مقرونين وإذا اتصفا السماء رجعا ثم عادا إلى ما كانا عليه . وهو حديث غريب جدا بل منكر بل موضوع إن ادعى أنه مرفوع فأما وقفه على ابن عباس أو وهب بن منبه وهو الأشبه بغير مدفوع والله أعلم ، وقال سفيان عن منصور عن عامر عن عائشة رضي الله عنها قالت إذا خرج أول الآيات طرحت وحبست الحفظة وشهدت الأجساد على الأعمال رواه ابن جرير رحمه الله تعالى ، فقوله تعالى (لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل) أي إذا أنشأ الكافر إيمانا يومئذ لا يقبل منه فأما من كان مؤمنا قبل ذلك فإن كان مصلحا في عمله فهو بخير عظيم وإن لم يكن مصلحا فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه توبته كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة وعليه يعمل قوله تعالى (أو كسبت في إيمانها خيرا) أي ولا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملا به قبل ذلك وقوله تعالى (قل انتظروا إنا منتظرون) تهديد شديد للكافرين ووعد أكيد لمن سوف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك وإنما كان هذا الحكم عند طلوع الشمس من مغربها لاقترب الساعة وظهور أشراطها كما قال (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون) وقوله تعالى (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) الآية

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا أَلَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

قال مجاهد وقتادة والضحاك والسدي نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى وقال العوفي عن ابن عباس في قوله (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً) وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث محمد ﷺ ففرقوا فلما بعث محمد ﷺ أنزل الله عليه (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء) الآية ، وقال ابن جرير حدثني سعيد بن عمر السكوني حدثنا بقية بن الوليد كتب إلى عباد بن كثير حدثني ليث عن طاوس عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ في هذه الآية « (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء) وليسوا منك هم أهل البدع وأهل الشبهات وأهل الضلالة من هذه الأمة » لكن هذا إسناد لا يصح فان عباد ابن كثير متروك الحديث ولم يخلق هذا الحديث ولكنه وهم في رفعه فانه رواه سفيان الثوري عن ليث وهو ابن أبي سليم عن طاوس عن أبي هريرة في الآية أنه قال نزلت في هذه الأمة ، وقال أبو غالب عن أبي أمامة في قوله (وكانوا شيعاً) قال هم الخوارج وروى عنه مرفوعاً ولا يصح وقال شعبة عن مجاهد عن الشعبي عن شريح عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لعائشة رضي الله عنها « (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً) قال - هم أصحاب البدع » وهذا رواه ابن مردويه وهو غريب أيضاً ولا يصح رفعه والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له فان الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وشرعه واحداً لاختلاف فيه ولا افتراق فمن اختلف فيه (وكانوا شيعاً) أي فرقا كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات فان الله تعالى قد برأ رسول الله ﷺ مما هم فيه وهذه الآية كقوله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك) الآية وفي الحديث « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد » فهذا هو الصراط المستقيم وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده لا شريك له والتمسك بشريعة الرسول المأخوذ وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء والرسل برءاء منها كما قال الله تعالى (لست منهم في شيء) وقوله تعالى (إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) كقوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة) الآية ثم بين لطفه سبحانه في حكمه وعدله يوم القيامة فقال تعالى

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

وهذه الآية الكرعة مفصلة لما أجمل في الآية الأخرى وهي قوله (من جاء بالحسنة فله خير منها) وقد وردت الأحاديث مطابقة لهذه الآية كما قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله حدثنا عفان حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا الجعد أبو عثمان عن أبي رجاء العطاردي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال فيها يروى عن ربه تبارك وتعالى « إن ربكم عز وجل رحيم من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشرة إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة . ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله عز وجل ولا يهلك على الله إلا هالك » ورواه البخاري ومسلم والنسائي من حديث الجعد أبي عثمان به وقال أحمد أيضاً حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن المعمر بن سويد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله عز وجل من عمل حسنة فله عشر أمثاله وأزيد ومن عمل سيئة فجزاؤه مثلها أو أغفر ومن عمل قراب الأرض خطيئة ثم لقيني لا يشرك بي شيئاً جعلت له مثلها مغفرة ومن اقترب إلى شبرا اقترب إليه ذراعاً ومن اقترب إلى ذراعاً اقترب إليه باعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة » ورواه مسلم عن أبي كريب عن أبي معاوية به وعن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع عن الأعمش به ورواه ابن ماجه عن علي بن محمد الطنافسي عن وكيع به ، وقال الحافظ أبو يعلى الوصلي حدثنا شيان حدثنا حماد حدثنا ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشرة ومن هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب عليه شيء فان عملها كتبت عليه سيئة واحدة » واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام تارة يتركها لله فهذا تكنت له حسنة على كفه عنها لله تعالى وهذا عمل ونية ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة

كما جاء في بعض ألفاظ الصحيح فأنما تركها من جرائي أى من أجلى ، وتارة يتركها نسيانا وذهولا عنها فهذا لا له ولا عليه لأنه لم ينو خيرا ولا فعل شرا ، وتارة يتركها عجزا وكسلا عنها بعد السعى في أسبابها والتلبس بما يقرب منها فهذا بمنزلة فاعلها كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » قالوا يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال « إنه كان حريصا على قتل صاحبه » وقال الإمام أبو يعلى الموصلى حدثنا مجاهد بن موسى حدثنا على حدثنا الحسن بن الصباح وأبو خيثمة فالأحدثنا إسحق بن سليمان كلاهما عن موسى بن عبيدة عن أبي بكر بن عبيد الله بن أنس عن جدته أنس قال قال رسول الله ﷺ « من هم بحسنة كتب الله له حسنة فان عملها كتبت له عشرة ومن هم بسيئة لم تكتب عليه حتى يعملها فإن عملها كتبت عليه سيئة فان تركها كتبت له حسنة يقول الله تعالى إنما تركها من مخافتى » هذا لفظ حديث مجاهد يعنى ابن موسى ، وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن ابن مهدي حدثنا شيبان بن عبد الرحمن عن الركين بن الربيع عن أبيه عن عمه فلان بن عميلة عن خريم بن فاتك الأسدي أن النبي ﷺ قال « إن الناس أربعة والأعمال ستة فالناس موسع له في الدنيا والآخرة وموسع له في الدنيا مقتور عليه في الآخرة ومقتور عليه في الدنيا موسع له في الآخرة وشقي في الدنيا والآخرة والأعمال موجبتان ومثل بمثل وعشرة أضعاف وسبعائة ضعف فال موجبتان من مات مسلما مؤمنا لا يشرك بالله شيئا وجبت له الجنة ومن مات كافرا وجبت له النار ومن هم بحسنة فلم يعملها فعلم الله أنه قد أشعرها قلبه وحرص عليها كتبت له حسنة ومن هم بسيئة لم تكتب عليه ومن عملها كتبت واحدة ولم تضاعف عليه ومن عمل حسنة كانت عليه بعشر أمثالها ومن أنفق نفقة في سبيل الله عز وجل كانت بسبعمائة ضعف » ورواه الترمذى والنسائى من حديث الركين بن الربيع عن أبيه عن بشير بن عميلة عن خريم بن فاتك به بيعه والله أعلم ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عبيد الله بن عمر القوارىرى حدثنا يزيد بن زريع حدثنا حبيب بن المعلم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدته عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يحضر الجمعة ثلاثة نفر رجل حضرها بلغو فهو حظه منها ورجل حضرها بدعاء فهو رجل دعا الله فإن شاء أعطاه وإن شاء منعه ورجل حضرها بالنصات وسكوت ولم يتخط رقبة مسلم ولم يؤذ أحدا فهي كفارة له إلى الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام وذلك لأن الله عز وجل يقول (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) » وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا هاشم بن مرثد حدثنا محمد بن إسماعيل حدثني أبي حدثني ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ « الجمعة كفارة لما بينها وبين الجمعة التي تليها ^(١) وزيادة ثلاثة أيام وذلك لأن الله تعالى قال (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) » وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله » رواه الإمام أحمد وهذا لفظه والنسائى وابن ماجه والترمذى وزاد « فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) اليوم بعشرة أيام » ثم قال هذا حديث حسن وقال ابن مسعود (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) من جاء بلا إله إلا الله ومن جاء بالسيئة يقول بالشرك وهكذا جاء عن جماعة من السلف رضى الله عنهم أجمعين وقد ورد فيه حديث مرفوع الله أعلم بصحته لكنى لم أروه من وجه يثبت والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جدا وفيها ذكر كفاية إن شاء الله وبه الثقة

﴿ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِن صَلَائِي وَنُسُكِي وَنَحْيَايَ وَمَا تَنِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾

يقول تعالى آمراً نبيه صلى الله عليه وسلم سديد المرسلين أن يخبر بما أنعم به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف (دينا قيما) أى قائما ثابتاً (ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) كقوله (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه) وقوله (وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم) وقوله (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه

اجتباؤه وهداه إلى صراط مستقيم ، وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) وليس يلزم من كونه ﷺ أمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفة أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها لأنه عليه السلام قام بها قياماً عظيماً وأكمل له إكمالاً تاماً لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال ولهذا كان خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم على الإطلاق ، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق حتى الخليل عليه السلام . وقد قال ابن مردويه حدثنا محمد بن عبد الله بن حفص حدثنا أحمد بن عصام حدثنا أبو داود الطيالسي حدثنا شعبة أنبأنا سلمة بن كهيل سمعت زر بن عبد الله الهمداني يحدث عن ابن أبيزى عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ إذا أصبح قال « أصبحنا على ملة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد وملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا محمد بن إسحق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أى الأديان أحب إلى الله تعالى ؟ قال « الحنيفة السمحة » وقال أحمد أيضاً حدثنا سليمان بن داود حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذقني على منكبيه لأنظر إلى زفن الحبشة حتى كنت التي مللت فانصرفت عنه . قال عبد الرحمن عن أبيه قال : قال لى عروة إن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ « لتعلم يهود أن في ديننا فسحة إني أرسلت بحنيفة سمحة » أصل الحديث مخرج في الصحيحين والريادة لها شواهد من طرق عدة وقد استقصيت طرقها في شرح البخاري والله الحمد والمنة ، وقوله تعالى (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) يأمره تعالى أن يحجر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم في ذلك فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له وهذا كقوله تعالى (فصل لربك وانحر) أى أخلص له صلاتك وذبحك فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه والاقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى قال مجاهد في قوله (إن صلاتي ونسكي) النسك الذبح في الحج والعمرة وقال الثوري عن السدي عن سعيد بن جبير (ونسكي) قال ذبحي وكذا قال السدي والضحاك ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عوف حدثنا أحمد بن خالد الذهبي حدثنا محمد بن إسحق عن يزيد بن أبي حبيب عن ابن عباس عن جابر ابن عبد الله قال قال ضحى رسول الله ﷺ في يوم عيد البحر بكبشين وقال حين ذبحهما (١) « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » وقوله عز وجل (وأنا أول المسلمين) قال قادة أى من هذه الأمة وهو كما قال فان جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام وأصله عبادة الله وحده لا شريك له كما قال (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقد أخبرنا تعالى عن نوح أنه قال لقومه (فإن توليتكم فمأسألتكم من أجر إن أجرى على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) وقال تعالى (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنوه ويعقوب يابني إن الله اصطفي لکم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) وقال يوسف عليه السلام (رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين) وقال موسى (يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين * فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين * ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) وقال تعالى (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار) الآية وقال تعالى (وإذ أوحيت إلى الخواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) فأخبر تعالى أنه بعث رسوله بالإسلام ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضاً إلى أن نسخت بشريعة محمد ﷺ التي لا تنسخ أبد الآبدين ولا تزال قائمة منصوراً وأعلامها منشورة إلى قيام الساعة ولهذا قال عليه السلام « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد » فإن أولاد العلات هم الإخوة

من أب واحد وأمها شتى فالدين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات كما أن أخوة الأخياف عكس هذا بنو الأم الواحدة من آباء شتى والأخوة الأعيان الأشقاء من أب واحد وأم واحدة والله أعلم وقد قال الإمام أحمد حدثنا أبو سعيد حدثنا عبد العزيز بن عبد الله الماجشون حدثنا عبد الله بن الفضل الهاشمي عن الأعرج عن عبيد الله بن أبي رافع عن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا كبر استفتح ثم قال « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيئا وما أنا من مشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين » إلى آخر الآية (١) « اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت أنت ربي وأنا عبدك ، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعا لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت ، تباركت وتعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك » ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله في الركوع والسجود والتشهد وقد رواه مسلم في صحيحه

﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ ابْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

يقول تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في اخلاص العبادة له والتوكل عليه (اغير الله ابني ربا) أى أطلب ربا سواه (وهو رب كل شيء) يرييني ويحفظني ويكلؤني ويدبر أمري ، أى لا أتوكل إلا عليه ولا أنيب إلا إليه لأنه رب كل شيء ومليكه وله الخلق والأمر . ففي هذه الآية الأمر باخلاص التوكل كما تضمنت التي قبلها اخلاص العبادة لله وحده لا شريك له وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيرا في القرآن كقوله تعالى مرشدا لعباده أن يقولوا له (إياك نعبد وإياك نستعين) وقوله (فاعبدوه وتوكل عليه) وقوله (قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا) وقوله (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذة وكيلا) وأشباه ذلك من الآيات . وقوله تعالى (ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى) إخبار عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد وهذا من عدله تعالى كما قال (وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قرابي) وقوله تعالى (فلا يخاف ظاهرا ولا باطنا) قال علماء التفسير : أى فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره ولا يهضم بأن ينقص من حسناته وقال تعالى (كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين) معناه كل نفس مرتبهة بعملها السيئ إلا أصحاب اليمين فإنه قد يعود بركة أعمالهم الصالحة على ذرياتهم وقرباتهم كما قال في سورة الطور (والذين آمنوا واتبعهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء) أى ألحقنا بهم ذريتهم في المنزلة الرفيعة في الجنة وإن لم يكونوا قد شاركوهم في الأعمال ، بل في أصل الإيمان ، وما ألتناهم أى نقصنا أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئا حتى ساويناهم وهؤلاء الذين هم أنقص منهم منزلة ، بل رفعهم تعالى إلى منزلة الآباء ببركة أعمالهم بفضله ومنته ثم قال (كل امرئ بما كسب رهين) أى من شر ، وقوله (ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) أى اعمالوا على مكاتكم إنا عاملون على ما نحن عليه فستعرضون ونعرض عليه وينبئنا وإياكم بأعمالنا وعمالكم وما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا كقوله (قل لا تسألون عما أجر منا ولا نسأل عما تعملون) قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتح العليم

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض) أى جعلكم تعمرونها جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن وخلفا بعد سلف . قاله ابن زيد وغيره كقوله تعالى (ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلقون) وكقوله تعالى

(١) كذا في النسختين الأميرية والمسكية والمراد إلى آخر الآية التي بعده وقد أثبتت الأخيرة في النسخة الأزهرية . فلم تذكر فيها هذه العبارة

(ويجعلكم خلفاء الأرض) وقوله (إني جاعل في الأرض خليفة) وقوله (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) وقوله (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) أى فأت بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحسن والمساوى والمناظر والأشكال والألوان وله الحكمة في ذلك كقوله تعالى (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) وقوله (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا)

وقوله تعالى (ليلوكم فيها آتاكم) أى ليختبركم في الذى أنعم به عليكم وامتنحكم به ليختبر الغنى في غناه ويسأله عن شكره والفقر في فقره ويسأله عن صبره . وفى صحيح مسلم من حديث أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الدنيا حاوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت في النساء » وقوله تعالى (إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم) ترهيب وترغيب أن حسابه وعقابه سريع فيمن عصاه وخالف رسله (وإنه لغفور رحيم) لمن والاه واتبع رسله فهاجأوا به من خبر وطلب . وقال محمد بن إسحق ليرحم العباد على ما فيهم رواه ابن أبى حاتم وكثيرا ما يقرن الله تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين كقوله (وإن ربك لدو مغفرة للناس على ظلمهم * وإن ربك لشديد العقاب) وقوله (نبي عبادى أتى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم) إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها وتارة بهما لينجع في كل محسبه ، جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر ، وترك ما عنهى وزجر ، وصدقه فيما أخبر ، إنه قريب مجيب جميع الدعاء جواد كريم وهاب . وقد قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا زهير عن العلاء عن أبىه عن أبى هريرة مرفوعا أن رسول الله ﷺ قال « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنطأ أحد من الجنة خلق الله مائة رحمة فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها وعند الله تسعة وتسعون » ورواه الترمذى عن قتبية عن عبد العزيز الدراوردي عن العلاء به وقال حسن ورواه مسلم عن يحيى ابن يحيى وقتبية وعلى بن حجر ثلاثهم عن إسماعيل بن جعفر عن العلاء وعنه أيضا قال : قال رسول الله ﷺ « لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي » وعنه أيضا قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا وأنزل في الأرض جزءا واحدا فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » رواه مسلم - آخر تفسير سورة الأنعام والله الحمد والمنة

﴿ تفسير سورة الاعراف وهي مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الْمَصَّ * كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِيُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * أَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

قد تقدم الكلام في أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف وبسطه واختلاف الناس فيه ، قال ابن جرير حدثنا سفيان ابن وكيع حدثنا أبى عن شريك عن عطاء بن السائب عن أبى الضحى عن ابن عباس (المص) أنا الله أفصل وكذا قال سعيد بن جبير (كتاب أنزل إليك) أى هذا كتاب أنزل إليك أى من ربك (فلا يكن في صدرك حرج منه) قال مجاهد وقادة والسدى شك منه وقيل لا تتحرج به في إبلاغه والانداز به (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) ولهذا قال (لتندر به) أى أنزلناه إليك لتندر به الكافرين (وذكري للمؤمنين) ثم قال تعالى مخاطبا للعالم (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم) أى اقتفوا آثار النبي الأسمى الذى جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شئ ومليكه (ولا تتبعوا من دونه أولياء) أى لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره (قليلا ما تذكرون)

كقوله (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وقوله (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) الآية وقوله (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)

﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

يقول الله تعالى (وكم من قرية أهلكناها) أى بمخالفة رسلنا وتكذيبهم فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولا بذل الآخرة كما قال تعالى (ولقد استهزى برسل من قبلك فحاق بالدين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) وكقوله (فكان من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد) وقال تعالى (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين) وقوله (فجاءها بأسنا بيناتا أوهم قائلون) أى فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته بيناتا أى ليلا أوهم قائلون من القيلولة وهى الاستراحة وسط النهار وكلا الوقتين وقت غفلة وهو كما قال (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بيناتا وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) وقال (أفأمن الذين مكروا السيئات أن نخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أو يأخذهم في تقلبهم فاهم بمعجزين * أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم) وقوله (فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين) أى فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم وأنهم حقيقون بهذا كقوله تعالى (وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة - إلى قوله - خامدين) قال ابن جرير : فى هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله « ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم » حدثنا بذلك ابن حميد حدثنا جرير عن أبي سنان عن عبد الملك بن ميسرة الزراد قال : قال عبد الله بن مسعود قال رسول الله ﷺ « ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم » قال قلت لعبد الملك كيف يكون ذلك قال فقرأ هذه الآية (فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين) ، وقوله (فلنسألن الذين أرسل إليهم) الآية كقوله (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) وقوله (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجاوبوا رسله فيما أرسلهم به ويسأل الرسل أيضا عن إبلاغ رسالاته ولهذا قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين) قال عما بلغوا ، وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسن حدثنا أبوسعيد الكندى حدثنا الحارث بن عيسى عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام يسأل عن رعيته والرجل يسأل عن أهله والمرأة تسأل عن بيت زوجها والعبد يسأل عن مال سيده » قال الليث وحدثني ابن طاوس مثله ثم قرأ (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين) وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين بدون هذه الزيادة وقال ابن عباس فى قوله (فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين) يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون (وما كنا غائبين) يعنى أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجيل وحير لأنه تعالى الشهيد على كل شىء لا يغيب عنه شىء ولا يغفل عن شىء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفى الصدور (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين)

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾

يقوله تعالى (والوزن) أى للأعمال يوم القيامة (الحق) أى لا يظلم تعالى أحدا كقوله (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) وقال تعالى (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما) وقال تعالى (فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأولئك هم المفلحون * وما أدراك ما هيه * نار حامية) وقال تعالى (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون)

﴿فصل﴾ والذى يوضع فى الميزان يوم القيامة قيل الأعمال وإن كانت أعرضا إلا أن الله تعالى يقبلها يوم القيامة أجساما قال البغوى يروى نحو هذا عن ابن عباس كما جاء فى الصحيح من أن البقرة وآل عمران يأتیان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف . ومن ذلك فى الصحيح قصة القرآن وأنه يأتى صاحبه فى صورة شاب شاحب اللون فيقول من أنت فيقول أنا القرآن الذى أسهرت ليلك وأظلمات نهارك . وفى حديث البراء فى قصة سؤال القبر « فيأتى المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح فيقول من أنت ؟ فيقول أنا عمالك الصالح » وذكر عكسه فى شأن الكافر والنفاق وقيل يوزن كتاب الأعمال كما جاء فى حديث البطاقة فى الرجل الذى يؤتى به ويوضع له فى كفة تسعة وتسعون سجلا كل سجل مد البصر ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها لا إله إلا الله يقول يارب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول الله تعالى إنك لا تظلم . فتوضع تلك البطاقة فى كفة الميزان قال رسول الله ﷺ « فطاشت السجلات وثقلت البطاقة » رواه الترمذى بنحو من هذا وصححه وقيل يوزن صاحب العمل كما فى الحديث « يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة » ثم قرأ (فلا تقيم لهم يوم القيامة وزنا) وفى مناقب عبد الله بن مسعود أن النبى ﷺ قال « أتعجبون من دقة ساقيه والذى نفسى بيده لها فى الميزان أثقل من أحد » وقديمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحا فتارة توزن الأعمال وتارة توزن محالها وتارة يوزن فاعلها والله أعلم

﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾

يقول تعالى ممتنا على عبده فيما مكن لهم من أنه جعل الأرض قرارا وجعل فيها رواسى وأنهارا وجعل لهم فيها نازل وبيوتا وأباح لهم منافعها وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها وجعل لهم فيها معاش أى مكاسب وأسبابا يكسبون بها ويتجرون فيها ويتسببون أنواع الأسباب وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك كقوله (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظالم كفار) وقد قرأ الجميع معاش بلا همز إلا عبد الرحمن بن هرمز الأعرج فإنه همزها والصواب الذى عليه الأكثرون بلا همز لأن معاش جمع معيشة من عاش يعيش عيشا ومعيشة أصلها معيشة فاستثقت الكسرة على الياء فنقلت إلى العين فصارت معيشة فلما جمعت رجعت الحركة إلى الياء لزوال الاستئصال قليل معاش ووزنه مفاعل لأن الياء أصلية فى الكلمة بخلاف مدائن وصحائف وبصائر جمع مدينة وصحيفة وبصرة من مدن وصحف وأبصر فان الياء فيها زائدة ولهذا تجمع على فاعل ونهزم لذلك والله أعلم

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾

ينبه تعالى بنى آدم فى هذا المقام على شرف أبيهم آدم وبين لهم عداوة عدوهم إبليس وما هو منطو عليه من الجسد لهم ولأبيهم آدم ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه فقال تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) وهذا كقوله تعالى (وإذا قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) وذلك أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب وصوره بشرا سويا ونفخ فيه من روحه أمر الملائكة بالسجود له تعظيما لشأن الله تعالى وجلاله فسمعوا كلهم وأطاعوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين وقد تقدم الكلام على إبليس فى أول تفسير سورة البقرة وهذا الذى قررناه هو اختيار ابن جرير أن المراد

بذلك كله آدم عليه السلام وقال سفيان الثوري عن الأعمش عن منهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) قال خلقوا في أصلاب الرجال وصوروا في أرحام النساء رواه الحاكم وقال صحيح على شرطهما ولم يخرجاه ونقل ابن جرير عن بعض السلف أيضا أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم الدرية وقال الربيع بن أنس والسدي وقتادة والضحاك في هذه الآية (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) أي خلقنا آدم ثم صورنا الدرية وهذا فيه نظر لأنه قال بعده (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) فدل على أن المراد بذلك آدم وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر كما يقول الله تعالى لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن النبي ﷺ (وظللنا عليكم الغمام وأنزلناه عليكم المن والسلوى) والمراد آبؤهم الذين كانوا في زمن موسى ولكن لما كان ذلك منة على الآباء الذين هم أصل صار كأنه واقع على الأبناء وهذا بخلاف قوله (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) الآية فإن المراد منه آدم المخلوق من السلالة وذريته مخلوقون من نطفة وصح هذا لأن المراد من خلقنا الإنسان الجنس لا معينا والله أعلم

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾

قال بعض النحاة في توجيه قوله تعالى (ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك) لا هنا زائدة وقال بعضهم زيدت لتأكيد الجحد كقول الشاعر * ما إن رأيت ولا سمعت بمثله * فأدخل « إن » وهي للنفي على ما النافية لتأكيد النفي قالوا وكذا هنا (ما منعك أن لا تسجد) مع تقدم قوله (لم يكن من الساجدين) حكاهما ابن جرير وردها واختار أن منعك مضمن معنى فعل آخر تقديره ما أخرجك وألزمك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك ونحو هذا . وهذا القول قوى حسن والله أعلم ، وقول إبليس لعنه الله (أنا خير منه) من العذر الذي هو أكبر من الذنب كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول يعنى لعنه الله وأنا خير منه فكيف تأمرني بالسجود له ؟ ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين فنظر للعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشریف العظيم وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نص قوله تعالى (فقعوا له ساجدين) فشذ من بين الملائكة لترك السجود فلماذا أبلس من الرحمة أى أوبس من الرحمة فأخطأ قبحه الله في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضا فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والثبوت، والطين محل النبات والنمو، والزيادة والإصلاح والنار من شأنها الأحراق والطيش والسرعة ولهذا خان إبليس عنصره ونفع آدم عنصره بالرجوع والالابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله والاعتراف وطلب التوبة والغفرة وفي صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم » هكذا رواه مسلم وقال ابن مردويه حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن مسعود حدثنا نعيم بن حماد حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ « خلق الله الملائكة من نور العرش وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم » قلت لنعيم بن حماد أين سمعت هذا من عبد الرزاق ؟ قال باليمن وفي بعض ألفاظ هذا الحديث في غير الصحيح « وخلق الحور العين من الزعفران » وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا محمد بن كثير عن ابن شاذب عن مطر الوراق عن الحسن في قوله (خلقتني من نار وخلقته من طين) قال قاس إبليس وهو أول من قاس إسناده صحيح وقال حدثني عمر بن مالك حدثني يحيى بن سليم الطائفي عن هشام عن ابن سيرين قال أول من قاس إبليس وما عبت الشمس والقمر إلا بالمقاييس إسناد صحيح أيضا

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ

يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿

يقول تعالى مخاطبا لإبليس بأمر قدرى كوني (فاهبط منها) أى بسبب عصيانك لأمرى وخروجك عن طاعتي

فما يكون لك أن تتكبر فيها قال كثير من المفسرين الضمير عائد إلى الجنة ويحتمل أن يكون عائداً إلى المنزل التي هو فيها في الملكوت الأعلى (فأخرج إنك من الصاغرين) أى الدليلين الحقيرين معاملة له بنقيض قصده ومكافأة لمراده بضده فعند ذلك استدرك العين وسأل النظرة إلى يوم الدين قال (أنظرني إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين) أجابه تعالى إلى ما سألتك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمنع ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب

﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَفْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا تَجِدُ لَهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه لما أنذر إبليس (إلى يوم يبعثون) واستوثق إبليس بذلك أخذ في المعاندة والقرود فقال (فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم) أى كما أغويتني قال ابن عباس كما أضللتني وقال غيره كما أهلكني لأقعدن لعبادك الذين تخلفهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه على (صراطك المستقيم) أى طريق الحق وسبيل النجاة ولأضلهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياي وقال بعض النحاة الباء هنا قسمية كأنه يقول فباغواك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم قال مجاهد : صراطك المستقيم يعنى الحق وقال محمد بن سوقة عن عون بن عبد الله يعنى طريق مكة ، قال ابن جرير الصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك (قلت) لما روى الإمام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا أبو عقيل يعنى الثقفى عبد الله بن عقيل حدثنا موسى بن المسيب أخبرني سالم بن أبي الجعد عن سيرة بن أبي الفاكه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه فقعد له بطريق الإسلام فقال أنسلم وتذر دينك ودين آبائك قال فعصاه وأسلم » قال « وقعد له بطريق الهجرة فقال أنهاجر وتدع أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كالفارس في الطول فعصاه وهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس والمال فقال تقاتل فتقتل فتتكح المرأة ويقسم المال قال فعصاه وجاهد » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة وإن قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة أو وقصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة » وقوله (ثم لا تينهم من بين أيديهم ومن خلفهم) الآية قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس (ثم لا تينهم من بين أيديهم) أشككهم في آخرتهم (ومن خلفهم) أرغبهم في دنياهم (وعن أيمانهم) أشبه عليهم أمر دينهم (وعن شمائلهم) أشهى لهم المعاصي وقال ابن أبي طلحة في رواية العوفي كلاهما عن ابن عباس أما من بين أيديهم فمن قبل دنياهم وأما من خلفهم فأمر آخرتهم وأما عن أيمانهم فمن قبل حسناتهم وأما عن شمائلهم فمن قبل سيئاتهم وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة أتاها من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار ومن خلفهم من أمر الدنيا فزينها لهم ودعاهم إليها وعن أيمانهم من قبل حسناتهم بطائم عنها وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصي ودعاهم إليها وأمرهم بها أذاك بابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله . وكذا روى عن إبراهيم النخعي والحكم بن عيينة والسدى وابن جريج إلا أنهم قالوا من بين أيديهم الدنيا ومن خلفهم الآخرة وقال مجاهد من بين أيديهم وعن أيمانهم من حيث يبصرون ومن خلفهم وعن شمائلهم حيث لا يبصرون واختار ابن جرير أن المراد جمع طرق الخير والشر فالخير يصددهم عنه والشر يحسنه لهم وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس في قوله (ثم لا تينهم من بين أيديهم ومن خلفهم) وعن أيمانهم وعن شمائلهم (ولم يقل من فوقهم لأن الرحمة تنزل من فوقهم وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس (ولا نجد أكثرهم شاكرين) قال موحدون وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم وقد وافق في هذا الواقع كما قال تعالى (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين) وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربك على كل شيء حفيظ) ولهذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها كما قال

الحافظ أبو بكر البزار في مسنده حدثنا نصر بن علي حدثنا عمرو بن مجمع عن يونس بن خباب عن ابن جبير بن مطعم يعني نافع بن جبير عن ابن عباس وحدثنا عمر بن الخطاب يعني السجستاني حدثنا عبيد الله بن جعفر حدثنا عبد الله بن عمرو عن زيد بن أبي أنيسة عن يونس بن خباب عن ابن جبير بن مطعم عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ يدعو « اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بك اللهم أن أغتال من تحتي » تفرد به البزار وحسنه وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا عبادة بن مسلم الفزاري حدثني جرير بن أبي سليمان بن جبير بن مطعم سمعت عبد الله بن عمر يقول لم يكن رسول الله يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي « اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بك بمظمتك أن أغتال من تحتي » قال وكيع من تحتي يعني الخسف . ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبادة بن مسلم به وقال الحاكم صحيح الإسناد

﴿ قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا لِمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

أكد تعالى عليه اللعنة والطرده والإبعاد والنفي عن محل الملا الأعلى بقوله (اخرج منها مذمومًا مدحورًا) قال ابن جرير أما المذموم فهو العيب والدائم غير مشدد العيب يقال ذامه يذامه ذامًا فهو مذموم ويتركون الحمز فيقول ذمته أذيمه ذيمًا وذامًا ، والدائم والديم أبلغ في العيب من الدائم قال والمدحور المقصي وهو المبعد المطرود وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم مانع من المذموم والمذموم إلا واحدًا وقال سفيان الثوري عن أبي إسحق عن التميمي عن ابن عباس اخرج منها مذمومًا مدحورًا قال مقيتا وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس صغيرًا مقيتا وقال السدي مقيتا مطرودا وقال قتادة لعينا مقيتا وقال مجاهد منفيًا مطرودًا وقال الربيع بن أنس مذمومًا منفيًا والمدحور المضر . وقوله تعالى (لمن اتبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين) كقوله (فالأذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاءكم موفورًا * واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا * إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلًا)

﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَهُمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَنَاصِحٌ حَقٌّ

يذكر تعالى أنه أباح لآدم عليه السلام وزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى في الكسر والوسوسة والخديعة ليسلبهما ماها فيه من النعمة واللباس الحسن (وقال) كذبًا وافتراء (مانها كما ربكنا عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين) أي لكلا تكونا ملكين أو خالدين هاهنا ولولا أنكما أكلتما منها لحصل لكلا ذلكا كقوله (قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) أي لكلا تكونا ملكين كقوله (بين الله لكم أن تضلوا) أي لكلا تضلوا (وألقي في الأرض رواسي أن تميد بكم) أي لكلا تميد بكم وكان ابن عباس ويحيى بن أبي كثير يقرآن (إلا أن تكونا ملكين) بكسر اللام وقرأه الجمهور بفتحها (وقاسمهما) أي حلف لهما بالله (إني لكما لمن الناصحين) فاني من قبلكما هاهنا وأعلم بهذا المكان وهذا من باب المفاعلة والمراد أحد الطرفين كقَالَ خَالِدُ بْنُ زَيْدٍ ابْنُ عِمْرَانَ أَنَّهُ قَالَ لَمَّا دَخَلَ الْمَدِينَةَ وَرَأَى النَّاسَ يَتَوَلَّوْنَ الْكَافِرِينَ وَكَانَ الْإِسْلَامُ قَدْ تَغَيَّرَ فِيهَا وَكَانَ الْإِسْلَامُ قَدْ تَغَيَّرَ فِيهَا وَكَانَ الْإِسْلَامُ قَدْ تَغَيَّرَ فِيهَا

وقاسمهم بالله جهدا لأتم * ألد من السلوى إذ مانشورها

أى حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله ، وقال قتادة فى الآية حلف بالله إني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعان أرسدكما وكان بعض أهل العلم يقول من خدعنا بالله انخدعنا له

﴿ فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

قال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال كان آدم رجلا طويلا كأنه نخلة سحق كثير شعر الرأس فلما وقع فيما وقع فيه من الخطيئة بدت له عورته عند ذلك وكان لا يراها فانطلق هاربا فى الجنة فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة فقال لها أرسليني فقالت إني غير مرسلتك فناداه ربه عز وجل يا آدم أمتى تفر؟ قال يارب إني استحييتك وقد رواه ابن جرير وابن مردويه عن طريق عن الحسن عن أبى بن كعب عن النبي ﷺ مرفوعا والموقوف أصح إسنادا وقال عبدالرزاق أنبأنا سفيان بن عيينة وابن المبارك أنبأنا الحسن بن عماره عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال كانت الشجرة التى نهى الله عنها آدم وزوجته السنبلة فلما أكل منها بدت لهما سواتهما وكان الذى وارى عنهما من سواتهما أظفارهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ورق التين يلزقان بعضه إلى بعض فانطلق آدم عليه السلام موليا فى الجنة فعلمت برأسه شجرة من الجنة فناداه الله يا آدم أمتى تفر؟ قال لا ولكنى استحييتك يارب قال أما كان لك فيما منحتك من الجنة وأبجنتك منها مندوحة عما حرمت عليك قال بلى يارب ولكن وعزتك ما حسبت أن أحدا يحلف بك كاذبا قال وهو قول الله عز وجل (وقاسنهما إني لك لمن الناصحين) قال فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كذا قال فأهبط من الجنة وكانا يأكلان منها رغدا فأهبط إلى غير رغد من طعام وشراب فلم صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وزرع ثم سقى حتى إذا بلغ حصده ثم داسه ثم ذراه ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزه ثم أكله فلم يبلغه حتى بلغ منه ماشاء الله أن يبلغ وقال الثوري عن ابن أبى ليلى عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) قال ورق التين صحيح إليه وقال مجاهد جملا يخصفان عليهما من ورق الجنة قال كهيئة الثوب وقال وهب بن منبه فى قوله ينزع عنهما لباسهما قال كان لباس آدم وحواء نورا على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه ولا هذه عورة هذا فلما أكل من الشجرة بدت لهما سواتهما رواه ابن جرير بسند صحيح إليه وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة قال : قال آدم أى رب أرايت إن تبت واستغفرت قال إذا أدخلك الجنة وأما إبليس فلم يسأله التوبة وسأله النظرة فأعطى كل واحد منهما الذى سأله وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا عباد بن العوام عن سفيان بن حسين عن يعلى بن مسلم عن سعيد ابن جبيرة عن ابن عباس قال لما أكل آدم من الشجرة قيل له لمأكلت من الشجرة التى نهيتك عنها قال حواء أمرتنى قال فإني قد أعقبته أن لا تحمل إلا كرها ولا تضع إلا كرها قال فرنت عند ذلك حواء فقيل لها الرنة عليك وعلى ولدك وقال الضحاك بن مزاحم فى قوله (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) هى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه

﴿ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾

قيل المراد بالخطاب فى (اهبطوا) آدم وحواء وإبليس والحية ومنهم من لم يذكر الحية والله أعلم والعمدة فى العداوة آدم وإبليس ولهذا قال تعالى فى سورة طه قال (اهبطا منها جميعا) الآية وحواء تبع لآدم والحية إن كان ذكرها صحيحا فهى تبع لإبليس وقد ذكر المفسرون الأماكن التى هبط فيها كل منهم ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات

والله أعلم بصحتها ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم أو دنياهم لله كرها الله تعالى في كتابه أو رسوله ﷺ وقوله (ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) أي قرار وأعمار مضمروبة إلى آجال معلومة قد جرى بها القلم وأحصاها القدر وسطرت في الكتاب الأول وقال ابن عباس (مستقر) القبور وعنه قال (مستقر) فوق الأرض وتحتها رواها ابن أبي حاتم وقوله (قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) كقوله تعالى (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) يخبر تعالى أنه جعل الأرض داراً لبني آدم مدة الحياة الدنيا فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم ومنها نشورهم ليوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويحازي كلا بعمله

﴿ يٰٓنَبِيَّ ۚ اٰدَمَ ۙ قَدْ اَنْزَلْنَا عَلٰىكَ لِبَاسًا يُؤْرِىْ سَوْءَ تِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوٰى ذٰلِكَ خَيْرٌ ذٰلِكَ مِنْ ءَايٰتِ اللّٰهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُوْنَ ۝ ﴾

يتمن تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش فاللباس ستر العورات وهي السوات والريش الراس وحمل به ظاهراً فالأول من الضروريات والريش من التكميلات والزيادات قال ابن جرير : الرياش في كلام العرب الأبات وما ظهر من الثياب وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وحكاه البخاري عنه الرياش : المال ، وهكذا قال مجاهد وعروة ابن الزبير والسدي والضحاك وغير واحد وقال العوفي عن ابن عباس : الريش اللباس والعيش والنعيم وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم الرياش الجمال وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هارون حدثنا أصبغ عن أبي العلاء الشامي قال لسأب أمانة ثوباً جديداً فلما بلغ ترقوته قال الحمد لله الذي كساني ما أوارى به عورتى وأتجمل به في حياتى ثم قال سمعت عمر بن الخطاب يقول : قال رسول الله ﷺ « من استجد ثوباً فلبسه فقال حين يبلغ ترقوته الحمد لله الذي كساني ما أوارى به عورتى وأتجمل به في حياتى ثم عمد إلى الثوب الخلق فتصدق به كان في ذمة الله وفي جوار الله وفي كنفه الله بها وبها » ورواه الترمذي وابن ماجه من رواية يزيد بن هارون عن أصبغ هو ابن زيد الجهني وقد وثقه يحيى بن معين وغيره وشيخه أبو العلاء الشامي لا يعرف إلا بهذا الحديث ولكن لم يخرج أحد والله أعلم وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا محمد بن عبيد حدثنا مختار بن نافع التمار عن أبي مطر أنه رأى علياً رضي الله عنه أتى غلاماً حدثاً فاشتري منه ثوباً بثلاثة دراهم ولبسه ما بين الرسغين إلى الكعبين يقول حين لبسه الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس وأوارى به عورتى قال هذا شيء ترويه عن نفسك أو عن النبي ﷺ قال هذا شيء سمعته من رسول الله ﷺ يقول عند الكسوة « الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس وأوارى به عورتى » رواه الإمام أحمد وقوله تعالى (ولباس التقوى ذلك خير) قرأ بعضهم ولباس التقوى بالنصب وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء وذلك خير خبر خبره واختلف المفسرون في معناه فقال عكرمة يقال هو ما يلبسه المقون يوم القيامة رواه ابن أبي حاتم وقال زيد بن علي والسدي وقتادة وابن جريج ولباس التقوى الإيمان وقال العوفي عن ابن عباس العمل الصالح قال الديال بن عمرو عن ابن عباس هو السميت الحسن في الوجه وعن عروة بن الزبير لباس التقوى خشية الله وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ولباس التقوى يتقى الله فيوارى عورته فذلك لباس التقوى وكلها متقاربة ويؤيد ذلك الحديث الذي رواه ابن جرير حيث قال حدثني المثنى حدثنا إسحق بن الحجاج حدثني إسحق بن إسماعيل عن سليمان بن أرقم عن الحسن قال رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه على منبر رسول الله ﷺ عليه قميص فوهي محلول الزر وسمعته يأمر بقتل الكلاب وينهى عن اللعب بالهام ثم قال يا أيها الناس اتقوا الله في هذه السرائر فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول « والذي نفس محمد بيده ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها علانية إن خيراً فخير وإن شراً فشر » ثم قرأ هذه الآية (وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله) قال السميت الحسن هكذا رواه ابن جرير من رواية سليمان بن أرقم وفيه ضعف وقد روى الأئمة الشافعي وأحمد والبخاري في كتاب الأدب من طرق صحيحة عن الحسن البصري أنه مع أمير المؤمنين عثمان ابن عفان يأمر بقتل الكلاب وذبح الهام يوم الجمعة على المنبر وأما المرفوع منه فقد روى الحافظ أبو القاسم الطبراني

في معجبه الكبير له شاهدا من وجه آخر حيث قال حدثنا (١)

﴿ يَلْبِسِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يحذر تعالى بنى آدم من إبليس وقبيله مبنياً لهم عداوته القديمة لأبى البشر آدم عليه السلام في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعم إلى دار التعب والعناء والتسبب في هتك عورته بعد ما كانت مستورة عنه وما هذا إلا عن عداوة أكيدة وهذا كقوله تعالى (أفنتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا)

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾

قال مجاهد كان المشركون يطوفون بالبيت عراة يقولون نطوف كما ولدتنا أمهاتنا فتضع المرأة على قلبها النسعة أو الشيء وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله * وما بدا منه فلا أحله

فأنزل الله (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) الآية قلت كانت العرب ماعدا قريش لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها وكانت قريش وهم المحس يطوفون في ثيابهم ومن أعاره أحسنى ثوبا طاف فيه ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يملكه أحد ومن لم يجد ثوبا جديداً ولا أعاره أحسنى ثوبا طاف عريانا وربما كانت امرأة فتطوف عريانة فتجعل على فرجها شيئا ليستره بعض الستر فتقول .

اليوم يبدو بعضه أو كله * وما بدا منه فلا أحله

وأكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل وكان هذا شيئا قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم ويعتقدون أن فعل آباءهم مستند إلى أمر من الله وشرع فأنكر الله تعالى عليهم ذلك فقال (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) فقال تعالى ردا عليهم (قل) أى يا محمد لمن ادعى ذلك (إن الله لا يأمر بالفحشاء) أى هذا الذى تصنعونه فاحشة منكورة والله لا يأمر بمثل ذلك (أتقولون على الله ما لا تعلمون) أى أتسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته وقوله تعالى (قل أمر ربي بالقسط) أى بالعدل والاستقامة (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) أى أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها وهى متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله وما جاءوا به من الشرائع وبالإخلاص له في عبادته فانه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين أن يكون صوابا موافقا للشريعة وأن يكون خالصا من الشرك وقوله تعالى (كما بدأكم تعودون) إلى قوله (الضلالة) اختلف في معنى قوله (كما بدأكم تعودون) فقال ابن أبى نجیح عن مجاهد (كما بدأكم تعودون) يحبسكم بعد موتكم وقال الحسن البصرى كما بدأكم في الدنيا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء وقال قتادة (كما بدأكم تعودون) قال بدأ خلقهم ولم يكونوا شيئا ثم ذهبوا ثم يعيدهم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم كما بدأكم ولا كذلك يعيدكم آخرها واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير وأيده بما رواه من حديث سفیان الثوري وشعبة بن الحجاج كلاهما عن المغيرة ابن النعمان عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال « يا أيها الناس إنكم

(١) كذا بهامش النسخة الأميرية : هنا بياض في الأصل بمقدار نصف صحيفة وانظر النسخ الصحيحة التامة .

نحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين» وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من حديث شعبة وفي حديث البخاري أيضاً من حديث الثوري به وقال ورقاء بن إياس أبو يزيد عن مجاهد (كما بدأكم تعودون) قال يبعث المسلم مسلماً والكافر كافراً وقال أبو العالية (كما بدأكم تعودون) ردوا إلى علمه فيهم وقال سعيد بن جبير (كما بدأكم تعودون) كما كتب عليكم تكونون وفي رواية كما كنتم عليه تكونون وقال محمد بن كعب القرظي في قوله تعالى (كما بدأكم تعودون) من ابتداء الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه وإن عمل بأعمال أهل السعادة ومن ابتداء خلقه على السعادة صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه وإن عمل بأعمال أهل الشقاء كما أن السحرة عملوا بأعمال أهل الشقاء ثم صاروا إلى ما ابتدؤوا عليه وقال السدي (كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة) يقول (كما بدأكم تعودون) كما خلقناكم فريقاً مهتدون وفريقاً ضلالاً كذلك تعودون وتخرجون من بطون أمهاتكم وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله (كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة) قال إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً كما قال (هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمناً وكافراً قلت ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري « فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة » . وقال أبو القاسم البغوي حدثنا علي بن الجعد حدثنا أبو غسان عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ « إن العبد ليعمل فيما يرى الناس يعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار وإنه ليعمل فيما يرى الناس يعمل أهل النار وإنه من أهل الجنة وإنما الأعمال بالخواتيم » هذا قطعة من حديث البخاري من حديث أبي غسان محمد بن مطرف المدني في قصة قرمان يوم أحد وقال ابن جرير حدثني ابن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال « تبعث كل نفس على ما كانت عليه » وهذا الحديث رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه عن الأعمش به ولفظه « يبعث كل عبد على مامات عليه » وعن ابن عباس مثله قلت ويتأيد بحديث ابن مسعود قلت ولا بد من الجمع بين هذا القول إن كان هو المراد من الآية وبين قوله تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها) وما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى « إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم » الحديث، ووجه الجمع على هذا أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر في ثاني الحال وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده والعلم بأنه لا إله غيره كما أخذ عليهم الميثاق بذلك وجعله في غرائزهم وفطرهم ومع هذا قدر أن منهم شقياً ومنهم سعيداً (هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) وفي الحديث « كل الناس يغدوا فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » وقدر الله نافذ في بريته فانه هو (الذي قدر فهدى) و (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) وفي الصحيحين « فأما من كان منكم من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة » ولهذا قال تعالى (فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة) ثم علم ذلك فقال (إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) الآية قال ابن جرير وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها فيركبها عناداً منه لربه فيها لأنه لو كان كذلك لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضل وهو يحسب أنه مهتد وفريق الهدى فرق وقد فرق الله تعالى بين أسماهما وأحكامهما في هذه الآية .

﴿ يَبْنِي ۖ أَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

هذه الآية السكرية رد على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراة كما رواه مسلم والنسائي وابن جرير واللفظ له من حديث شعبة عن سامة بن كهيل عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء الرجال بالنهار والنساء بالليل وكانت المرأة تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله * وما بدا منه فلا أحله

فقال الله تعالى (خذوا زينتكم عند كل مسجد) وقال العوفي عن ابن عباس في قوله (خذوا زينتكم عند كل مسجد) الآية قال كان رجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله بالزينة والزينة اللباس وهو ما يوارى السوءة وما سوى ذلك من جيد البر والتمتع فأمرهم أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد وهكذا قال مجاهد وعطاء وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير وقناة والسدي الضحاك ومالك عن الزهري وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها أنها نزلت في طوائف المشركين بالبيت عراة وقد روى الحافظ بن مردويه من حديث سعيد بن بشير والأوزاعي عن قناة عن أنس مرفوعاً أنها نزلت في الصلاة في النعال ولكن في صحته نظر والله أعلم ، ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنة يستحب التجميل عند الصلاة ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد والطيب لأنه من الزينة والسواك لأنه من تمام ذلك ومن أفضل اللباس البياض كما قال الإمام أحمد حدثنا علي بن حاصم حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير وصحبه عن ابن عباس مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ «البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم وإن خير أكلهم الأئدة فإنه يجلو البصر وينبت الشعر» هذا حديث جيد الإسناد رجاله على شرط مسلم ، ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث عبد الله بن عثمان بن خثيم به وقال الترمذي حسن صحيح ، ولالإمام أحمد أيضاً وأهل السنن بإسناد جيد عن مبرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ «عليكم بثياب البياض فالبسوها فإنها أطهر وأطيب وكفنوا فيها موتاكم» وروى الطبراني بسند صحيح عن قناة عن محمد بن صيرين أنه تيمم الداردي اشتري رداء بألف وكان يصلى فيه ، وقوله تعالى (وكلوا واشربوا) الآية قال بعض السلف جمع الله الطيب كله في نصف آية (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) وقال البخاري قال ابن عباس كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة ، وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال : أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلة ، إسناده صحيح ، وقال الإمام أحمد حدثنا بهز حدثنا همام عن قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده» ورواه النسائي وابن ماجه من حديث قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال «كلوا وتصدقوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة» وقال الإمام أحمد حدثنا أبو المغيرة حدثنا سليمان بن سليم الكلابي حدثنا يحيى بن جابر الطائي سمعت المقدم بن معد يكرب الكندي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان فاعلاً لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» ورواه النسائي والترمذي من طرق عن يحيى بن جابر به وقال الترمذي حسن وفي نسخة حسن صحيح وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده حدثنا سويد بن عبد العزيز حدثنا بقة عن يوسف بن أبي كثير عن نوح بن ذكوان عن الحسن عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ «إن من السرف أن تأكل كل ما اشتيت» ورواه الدارقطني في الأفراد وقال هذا حديث غريب تفرد به بقة ، وقال السدي كان الذين يطوفون بالبيت عراة يحرمون عليهم الودك ما أقاموا في الموسم فقال الله تعالى لهم (كلوا واشربوا) الآية يقول لا تسرفوا في التحريم وقال مجاهد أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم الله وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ولا تسرفوا) يقول ولا تأكلوا حراماً ذلك الإسراف ، وقال عطاء الخراساني عن ابن عباس قوله (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) لا يحب المسرفين في الطعام والشراب ، وقال ابن جرير وقوله (إنه لا يحب المسرفين) يقول الله تعالى (إن الله لا يحب المعتدين) حده في حلال أو حرام الغالين فيما أحل بأحلال الحرام

أو بحريم الحلال ولكنه يجب أن يحلل ما أحل ويحرم ما حرم وذلك العدل الذي أمر به
﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى ردا على من حرم شيئا من المأكول أو المشرب أو اللباس من تلقاء نفسه من غير شرع من الله (قل) يا محمد
لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم (من حرم زينة الله التي أخرج لعباده) الآية
أي هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبيده في الحياة الدنيا وإن شركهم فيها الكفار حسا في الدنيا فهي لهم خاصة يوم القيامة لا
يشركهم فيها أحد من الكفار فإن الجنة محرمة على الكافرين قال أبو القاسم الطبراني حدثنا أبو حصين محمد بن الحسين
القاضي حدثنا يحيى الحماني حسدنا يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كانت
قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون فأنزل الله (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده) فأمرهم بالثياب
﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ
يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبيد الله قال : قال رسول الله ﷺ
« لا أحد أعير من الله فلهذا حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه الدخ من الله » أخرجه في
الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن شقيق أبي وائل عن عبيد الله بن مسعود وتقدم الكلام على
ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن في سورة الأنعام وقوله (والإثم والبغى بغير الحق) قال السدي أما الإثم
فالمعصية والبغى أن تبغى على الناس بغير الحق وقال مجاهد الإثم المعاصي كلها وأخبر أن الباغي ببغيه على نفسه وحاصل
ما فسر به الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه والبغى هو التعدي إلى الناس فحرم الله هذا وهذا وقوله تعالى (وأن تشركوا
بالله ما لم ينزل به سلطانا) أي تجعلوا له شركاء في عبادته (وأن تقولوا على الله ما تعلمون) من الافتراء والكذب من
دعوى أن له ولدا ونحو ذلك مما لا علم لكم به كقوله (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) الآية

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ يَبْنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنكُمْ رُسُلٌ
مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَأَتَىٰ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

يقول تعالى (ولكل أمة) أي قرن وجيل (أجل فإذا جاء أجلهم) أي ميقاتهم المقدر لهم (لا يستأخرون ساعة ولا
يستقدمون) ثم أنذر تعالى بني آدم أنه سيبعث إليهم رسلا يقصون عليهم آياته وبشر وحذر فقال (فمن اتقى واصلح)
أي ترك المحرمات وفعل الطاعات (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها (أي كذبت
بها قلوبهم واستكبروا عن العمل بها) أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (أي ما كشون فيها مكثا مغلدا

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْعَذَابِ حَتَّىٰ إِذَا
جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا آمِنَّا مَا كُنْتُمْ تُدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ
كَانُوا كَافِرِينَ ﴾

يقول (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته) أى لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله أو كذب بآياته المنزلة (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) اختلف المفسرون في معناه فقال العوفي عن ابن عباس ينالهم ما كتب عليهم وكتب لمن كذب على الله أن وجهه مسود وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يقول نصيبهم من الأعمال من عمل خيرا جزى به ومن عمل شرا جزى به وقال مجاهد ما وعدوا به من خير وشر وكذا قال قتادة والضحاك وغير واحد واختاره ابن جرير وقال محمد بن كعب القرظي (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) قال عمله ورزقه وعمره وكذا قال الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهذا القول قوى في المعنى والسباق يدل عليه وهو قوله (حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم) ونظير المعنى في هذه الآية كقوله (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) وقوله (ومن كفر فلا يحزنك كفره إنا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور فمتعهم قليلا) الآية وقوله (حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم) الآية يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفرغهم عند الموت وقبض أرواحهم إلى النار يقولون لهم أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه قالوا (ضلوا عنا) أى ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم (وشهدوا على أنفسهم) أى أقروا واعترفوا على أنفسهم (أنهم كانوا كافرين)

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَنَّا بِهِمُ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عما يقوله لهؤلاء المشركين به المقتربين عليه الكاذبين بآياته (ادخلوا في أمة) أى من أمثالكم وعلى صفاتكم (قد خلت من قبلكم) أى من الأمم السالفة الكافرة (من الجن والإنس في النار) يحتمل أن يكون بدلا من قوله في أمة ويحتمل أن يكون في أمة أى مع أمة وقوله (كلما دخلت أمة لعنت أختها) كما قال الخليل عليه السلام (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض) الآية ، وقوله تعالى (إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كره فتبرأ منهم كما تبراء منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار) وقوله (حتى إذا داركوا فيها جميعا) أى اجتمعوا فيها كلهم (قالت أخراهم لأولاهم) أى أخراهم دخولا وهم الإتيان لأولاهم وهم المتبوعون لأنهم أشد جرما من أتباعهم فدخلوا قبلهم فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل فيقولون (ربنا هؤلاء أضلونا فآتاهم عذابا ضعفا من النار) أى أضعف عليهم العقوبة كما قال تعالى (يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا * وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا * ربنا آتاهم ضعف من العذاب) الآية وقوله (فالكل ضعف) أى قد فعلنا ذلك وجازينا كلنا بحسبه كقوله (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا) الآية وقوله (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) وقوله (ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) الآية (وقالت أولاهم لأخراهم) أى قال المتبوعون للأتباع (فما كان لكم علينا من فضل) قال السدي فقد ضللتكم كما ضللنا (فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) وهذه الحال كما أخبر الله تعالى عنهم في حال محشرهم في قوله تعالى (ولو رى إذ الطالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الدين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين * قال الدين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم محرمين * وقال الدين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار

إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَذَلِكَ تُجْزَى الظَّالِمِينَ ﴾

قوله (لا تفتح لهم أبواب السماء) قيل المراد لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء قاله مجاهد وسعيد بن جبير ورواه العوفي وعلى بن أبي طلحة عن ابن عباس وكذا رواه الثوري عن ليث عن عطاء عن ابن عباس ، وقيل المراد لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء رواه الضحاك عن ابن عباس وقاله السدي وغير واحد ويؤيده ما قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن المنهال هو ابن عمرو عن زاذان عن البراء أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر وأنه يصعد بها إلى السماء فيصعدون بها فلا تمر على ملائكة من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون فلان بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء فيستفتحون بابها له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تفتح لهم أبواب السماء) الآية هكذا رواه وهو قطعة من حديث طويل رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من طرق عن المنهال بن عمرو به وقد رواه الإمام أحمد بطوله فقال حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فأتينا إلى القبر ولما يحد فجلس رسول الله ﷺ وحلنا حوله كأن على رءوسنا الطير وفي يده عود ينكت به في الأرض فرفع رأسه فقال « استعينوا بالله من عذاب القبر - مرتين أو ثلاثة ثم قال - إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء يبصرون الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان - قال - فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمر بها على ملائكة من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينهي بها إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل اكتبوا كتاب عبدى في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى قال فتعاد روحه فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول ربى الله فيقولان له ما دينك فيقول ديني الاسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقولان هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولان له وما عملك فيقول قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد البصر - قال - ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أشر بالذى يسرك هذا يومك الذي كنت توعده فيقول له من أنت فوجهك الوجه يحى بالخير فيقول أنا عملك الصالح فيقول رب أقم الساعة رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى - قال - وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب قال ففرق في جسده فينزعها كما ينزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ويخرج منها كأتان ربح جيفة وحدث على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمر بها على ملائكة

اللائكة إلا قالوا ماهذه الروح الحبيثة فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا يفتح له - ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم - (لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحا - ثم قرأ - (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق) فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لأدرى فيقولان مادينك فيقول هاه هاه لأدرى فيقولان ماهذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هاه هاه لأدرى فينادى مناد من السماء أن كذب عبدي فأفرشوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعده فيقول من أنت فوجهك الوجه يجيء بالشعر فيقول أنا عمالك الحبيث فيقول رب لا تقم الساعة » وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر بن يونس بن خباب عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة فذكر نحوه وفيه حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وفتحت له أبواب السماء ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله عز وجل أن يعرج بروحه من قبلهم وفي آخره ثم يقبض له أعمى أصم أبكم في يده مرزبة لو ضرب بها جبل كان ترابا فيضربه ضربة فيصير ترابا ثم يعيده الله عز وجل كما كان فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين قال البراء ثم يفتح له باب من النار ويهد له فرش من النار وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه وابن جرير واللفظ له من حديث محمد بن عمرو بن عطاء عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا اخرجي أيتها النفس الطمئنة كانت في الجسد الطيب اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان فيقولون ذلك حتى يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا فيقولون فلان فيقال مرحبا بالنفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان فيقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل وإذا كان الرجل السوء قالوا اخرجي أيتها النفس الحبيثة كانت في الجسد الحبيث اخرجي ذميمة وأبشري بهميم وغساق وآخر من شكله أزواج فيقولون ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا فيقولون فلان فيقولون لا مرحبا بالنفس الحبيثة التي كانت في الجسد الحبيث ارجعي ذميمة فإنه لم يفتح لك أبواب السماء فتدخل بين السماء والأرض فتصل إلى القبر » وقد قال ابن جرير في قوله (لا تفتح له أبواب السماء) لا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم وهذا فيه جمع بين القولين والله أعلم ، وقوله تعالى (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) هكذا قرأه الجمهور وفسروه بأنه البعير قال ابن مسعود هو الجمل ابن الناقة وفي رواية زوج الناقة وقال الحسن البصري حتى يدخل البعير في خرق الابرة وكذا قال أبو العالية والضحاك وكذا روى علي بن أبي طلحة والعمري عن ابن عباس وقال مجاهد وعكرمة عن ابن عباس أنه كان يقرأها يلج الجمل في سم الخياط بضم الجيم وتشديد الميم يعني الجمل الغليظ في خرق الابرة وهذا اختيار سعيد بن جبير وفي رواية أنه قرأ حتى يلج الجمل يعني قلوس السفن وهي الحبال الغلاظ ، وقوله (لهم من جهنم مهاد) قال محمد بن كعب القرظي (لهم من جهنم مهاد) قال الفرش (ومن فوقهم غواش) قال اللخف وكذا قال الضحاك بن مزاحم والسدي (وكذلك نجزي الظالمين)

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَزَعَنَّا مَتَافِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَمْتَدِّىَ لَهُ لَا أَن هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَّبَّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء فقال (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ضد (أولئك الذين كفروا بآيات الله واستكبروا عنها) نبه تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل لأنه تعالى قال (لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون * ونزعنا ما فى صدورهم من غل) أى من حسد وبغض كما جاء فى صحيح البخارى من حديث قتادة عن أبى التوكل الناجى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « إذا خلس المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فاقصص لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هذبوا وتقوا أذن لهم فى دخول الجنة فوالذى نفسى بيده إن أحدهم بمنزله فى الجنة أدل منه بمسكنه كان فى الدنيا » وقال السدى فى قوله (ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار) الآية إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة فى أصل ساقها عينان فشربوها من إحدهما فينزع ما فى صدورهم من غل فهو الشراب الطهور واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعدها أبداً ، وقد روى أبو إسحق عن عاصم عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب نحو ما من هذا كما سيأتى فى قوله تعالى (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً) إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان ، وقال قتادة : قال على رضى الله عنه إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) رواه ابن جرير وقال عبد الرزاق أخبرنا ابن عيينة عن إسرائيل قال سمعت الحسن يقول قال على : فينا والله أهل بدر نزلت (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) وروى النسائي وابن مردويه واللفظ له من حديث أبى بكر بن عياش عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول لولا أن الله هداني فيكون له شكرا وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول لو أن الله هداني فيكون له حسرة » ولهذا لما أورشوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا أن تلكم أورشتموها بما كنتم تعملون ، أى بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم . وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت فى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال « واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة » قالوا ولا أنت يا رسول الله قال « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته منه وفضل »

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾

يخبر تعالى بما يخاطب به أهل النار على التفريع والنوبيخ إذا استقروا فى منازلهم (أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً) أن ههنا مفسرة للقول المحذوف وقد للتحقيق أى قالوا لهم قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً قالوا نعم كما أخبر تعالى فى سورة الصافات عن الذى كان له قرين من الكفار (فاطلع قرأه فى سواء الجحيم * قال تالله إن كدت لتردين * ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين * أفما نحن بمبتلين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعدين) أى ينكر عليه مقالته التى يقولها فى الدنيا ويقرعه بما صار إليه من العذاب والنكال وكذلك تفرعهم الملائكة يقولون لهم (هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أنسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا نصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون) وكذلك قرع رسول الله ﷺ قتلى القلب يوم بدر فنادى « يا أبا جهل بن هشام ويا عتبة بن ربيعة ويا شبة بن ربيعة - وسمى رؤسهم - هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فاني وجدت ما وعدنى ربى حقاً » وقال عمر يا رسول الله تخاطب قوما قد جفوا فقال «والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا »

وقوله تعالى (فأذن مؤذن بينهم) أى أعلم معلم ونادى مناد (أن لعنة الله على الظالمين) أى مستقرة عليهم ثم وصفهم

بقوله (الذين يصدون عن سبيل ويغونها عوجا) أى يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء ويغنون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد (وهم بالآخرة كافرون) أى وهم بقاء الله في الدار الآخرة كافرون أى جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل لأنهم لا يخافون حسابا عليه ولا عقابا فهم شر الناس أقوالا وأعمالا

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار به أن بين الجنة والنار حجابا وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة ، قال ابن جرير وهو السور الذي قال الله تعالى فيه (فضرِبَ بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) وهو الأعراف الذي قال الله تعالى فيه (وعلى الأعراف رجال) ثم روى بإسناده عن السدى أنه قال في قوله تعالى (وبينهما حجاب) هو السور وهو الأعراف وقال مجاهد الأعراف حجاب بين الجنة والنار سور له باب ، قال ابن جرير والأعراف جمع عرف وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفا ، وإنما قيل لعرف الديك عرفا لارتفاعه . حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا ابن عيينة عن عبد الله بن أبي يزيد سمع ابن عباس يقول الأعراف هو الشيء المشرف وقال الثوري عن جابر عن مجاهد عن ابن عباس قال الأعراف سور كعرف الديك ، وفي روايه عن ابن عباس الأعراف جمع : تل بين الجنة والنار حبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار ، وفي رواية عنه هو سور بين الجنة والنار ، وكذا قال الضحاك وغير واحد من علماء التفسير ، وقال السدى إنما سمي الأعراف أعرافا لأن أصحابه يعرفون الناس ، واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف من هم وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله ، وقد جاء في حديث مرفوع رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا عبد الله بن إسماعيل حدثنا عبيد بن الحسن حدثنا سليمان بن داود حدثنا النعمان بن عبد السلام حدثنا شيخ لما يقال له أبو عباد عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر بن عبد الله قال سئل رسول الله ﷺ عن استوت حسناته وسيئاته فقال « أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون » وهذا حديث غريب من هذا الوجه ورواه من وجه آخر عن سعيد بن سالم عن أبي الحسام عن محمد بن المنكدر عن رجل من مزينة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن استوت حسناته وسيئاته وعن أصحاب الأعراف فقال « إنهم قوم خرجوا عصاة بغير إذن آبائهم فقتلوا في سبيل الله » وقال سعيد بن منصور حدثنا أبو معشر حدثنا يحيى بن شبل عن يحيى بن عبد الرحمن المرنى عن أبيه قال سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف قال « هم ناس قتلوا في سبيل الله بمعصية آبائهم فمنعهم من دخول الجنة معصية آبائهم ومنعهم من النار قتلهم في سبيل الله » ورواه ابن مردويه وابن جرير وابن أبي حاتم من طرق عن أبي معشر به ، وكذا رواه ابن ماجه مرفوعا من حديث أبي سعيد الخدري وابن عباس والله أعلم بصحة هذه الأخبار المرفوعة وقصارها أن تكون موقوفة وفيه دلالة على ما ذكر . وقال ابن جرير حدثني يعقوب حدثنا هشيم أخبرنا حصين عن الشعبي عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف قال فقال : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقصدت بهم سيئاتهم عن الجنة وخلفت بهم حسناتهم عن النار ، قال فوقفوا هناك على السور حتى يقضى الله فيهم ، وقد رواه من وجه آخر أبسط من هذا فقال حدثنا ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح حدثنا يونس بن أبي إسحق قال : قال الشعبي أرسل إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن وعنده أبو الزناد عبد الله بن ذكوان مولى قرش فإذا هما قد ذكرا من أصحاب الأعراف ذكر آ ليس كما ذكرنا فقلت لهما إن شئكما أنبأكما بما ذكر حذيفة فقالا هات فقلت إن حذيفة ذكر أصحاب الأعراف فقال : هم قوم مجاوزت بهم حسناتهم النار وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة (فإذا صرف

أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) فبيناهم كذلك إذ طلع عليهم ربك فقال لهم اذهبوا فادخلوا الجنة فإنني قد غفرت لكم . وقال عبد الله بن المبارك عن أبي بكر الهذلي قال : قال سعيد بن جبير وهو يحدث ذلك عن ابن مسعود قال يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ثم قرأ قول الله (فمن ثقلت موازينه) الآيتين ثم قال الميزان يخف بمنقال حبة ويرجح قال ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوققوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا سلام عليكم وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم نظروا أهل النار (قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) تعوذوا بالله من منازلهم قال فأما أصحاب الحسنات فانهم يعطون نوراً يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم ويعطى كل عبد يومئذ نوراً وكل أمة نوراً فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة فلما رأى أهل الجنة مالتى المناقون قالوا (ربنا أقم لنا نورنا) وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان بأيديهم فلم ينزع فهناك يقول الله تعالى (لم يدخلوها وهم يطمعون فكان الطمع دخولا قال فقال ابن مسعود: إن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة ثم يقول هلك من غلبت آثامه عشراته رواه ابن جرير وقال أيضاً حدثني ابن وكيع حدثنا ابن حميد قال حدثنا جرير عن منصور عن حبيب بن أبي ثابت عن عبد الله بن الحارث عن ابن عباس قال الأعراف: السور الذي بين الجنة والنار وأصحاب الأعراف بذلك المكان حتى إذا بدا الله أن يعافهم انطلق بهم إلى نهر يقال له نهر الحياة حافته قصب الذهب مكلل بالؤلؤ ترابه المسك فألقوا فيه حتى تصلح ألوانهم وتبدو في بحورهم شامة بيضاء يعرفون بها حتى إذا صلحت ألوانهم أتى بهم الرحمن تبارك وتعالى فقال : تمنوا ما شئتم ، فيتمنون حتى إذا انقطعت أمنيتهم قال لهم : لكم الذي تمنيت ومثله سبعون ضعفاً ، فيدخلون الجنة وفي بحورهم شامة بيضاء يعرفون بها يسمون مساكين أهل الجنة وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن يحيى بن المغيرة عن جرير به وقد رواه سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن مجاهد وعن عبد الله بن الحارث من قوله وهذا أصح والله أعلم وهكذا روى عن مجاهد والضحاك وغير واحد وقال سعيد بن داود حدثني جرير عن عمارة بن القعقاع عن أبي ررعة عن عمرو بن جرير قال سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف قال « هم آخر من يفصل بينهم من العباد فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال أتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ولم تدخلوا الجنة فأنتم عتقائي فارعوا من الجنة حيث شئتم » وهذا مرسل حسن ، وقيل هم أولاد الزنا حكاه القرطبي وروى الحافظ بن عساكر في ترجمة الوليد بن موسى عن شعبة ابن عثمان عن عروة بن رويم عن الحسن بن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أن مؤمنى الجن لهم ثواب وعليهم عقاب فسألناه عن ثوابهم وعن مؤمنهم فقال على الأعراف وليسوا في الجنة مع أمة محمد ﷺ فسألناه وما الأعراف فقال حائط الجنة تجري فيه الأنهار وتنبت فيه الأشجار والثمار رواه البيهقي عن ابن بشران عن علي بن محمد المصري عن يوسف ابن يزيد عن الوليد بن موسى به ، وقال سفيان الثوري عن خفيف عن مجاهد قال أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية عن سليمان التيمي عن أبي مجاز في قوله تعالى (وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم) قال هم رجال من الملائكة يعرفون أهل الجنة وأهل النار قال (ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون * وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين * ونادى أصحاب الأعراف رجلاً يعرفهم بسيماهم قالوا ما أغشى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون * أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة) قال فيقال حين يدخل أهل الجنة الجنة (ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون) وهذا صحيح إلى أبي مجاز لاحق بن حميد أحد التابعين وهو غريب من قوله وخلاف الظاهر من السياق وقول الجمهور مقدم على قوله بدلالة الآية على ما ذهبوا إليه وكذا قول مجاهد إنهم قوم صالحون علماء فقهاء فيه غرابة أيضاً والله أعلم ، وقد حكى القرطبي وغيره فيهم اثني عشر قولاً منها أنهم شهدوا أنهم صلحاء تهرعوا من فزع الآخرة وخلق يطلعون على أخبار الناس وقيل هم أنبياء وقيل هم ملائكة وقوله تعالى (يعرفون كلا بسيماهم) قال

على بن أبي طلحة عن ابن عباس قال يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه وأهل النار بسواد الوجوه وكذا روى الضحاك عنه ، وقال العوفي عن ابن عباس أنزلهم الله بتلك المنزلة ليعرفوا من في الجنة والنار وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه ويتعبدوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين وهم في ذلك يحبون أهل الجنة بالسلام لم يدخلوها وهم يطعمون أن يدخلوها وهم داخلوها إن شاء الله وكذا قال مجاهد والضحاك والسدي والحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم ، وقال معمر عن الحسن إنه تلا هذه الآية (لم يدخلوها وهم يطعمون) قال والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدونها بهم وقال قتادة قد أنبأكم الله بمكانهم من الطمع وقوله (وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) قال الضحاك عن ابن عباس إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . وقال السدي وإذا مروا بهم يعني بأصحاب الأعراف بزمرة يذهب بها إلى النار قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . وقال عكرمة تحدد وجوههم للنار فإذا رأوا أصحاب الجنة ذهب ذلك عنهم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله (وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار) فرأوا وجوههم مسودة وأعينهم مزرقفة قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين)

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا لَا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُسْتَكْبِرُونَ ﴾
 ﴿ أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾

يقول الله تعالى إخبارا عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم يعرفونهم في النار بسيماهم (ما أغنى عنكم جمعكم) أي كثرتكم (وما كنتم تستكبرون) أي لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنعكال (أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني أصحاب الأعراف (ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون) وقال ابن جرير حدثني محمد بن سعد حدثني أبي حدثني عمي حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس (قالوا ما أغنى عنكم جمعكم) الآية قال فلما قالوا لهم الذي قضى الله أن يقولوا يعني أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار قال الله لأهل التكبر والأموال (أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون) وقال حذيفة إن أصحاب الأعراف قوم تكاثفت أعمالهم فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة وقصرت بهم سيئاتهم عن النار فجعلوا على الأعراف يعرفون الناس بسيماهم فلما قضى الله بين العباد أذن لهم في طلب الشفاعة فأتوا آدم فقالوا يا آدم أنت أبونا فاشفع لنا عند ربك فقال هل تعلمون أن أحدا خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وسبقت رحمته إليه غضبه وسجدت له الملائكة غيري ؟ فيقولون لا فيقول ما علمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن اتوا ابني إبراهيم فيأتون إبراهيم صلى الله عليه وسلم فيسألونه أن يشفع لهم عند ربهم فيقول تعلمون من أحد اتخذ الله خليلا هل تعلمون أن أحدا أحرقه قومه بالنار في الله غيري ؟ فيقولون لا فيقول ما علمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن اتوا ابني موسى فيأتون موسى عليه السلام فيقول هل تعلمون من أحد كلمه الله تسليما وقربه بحيا غيري فيقولون لا فيقول ما علمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن اتوا عيسى فيأتونه عليه السلام فيقولون له اشفع لنا عند ربك فيقول هل تعلمون أحدا خلفه الله من غير أب^(١) فيقولون لا فيقول هل تعلمون من أحد كان يرى الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله غيري ؟ قال فيقولون لا فيقول أنا حجبيج نفسي ما علمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن اتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فيأتوني فأصرب يدي على صدري ثم أقول أنا لها ثم أمشي حتى أقف بين يدي العرش فأتي ربي عز وجل فيفتح لي من السماء ما لم يسمع السامعون بمثله قط ثم أسجد فيقال لي يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسي ثم أثنى على ربي عز وجل ثم أخر ساجدا فيقال لي ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول ربي أمتي فيقول هم لك فلا يبقى نبي مرسل ولا ملك مقرب إلا غبطني بذلك المقام وهو المقام المحمود فأتى بهم الجنة فأستفتح فيفتح لي ولهم

(١) لم يرد في النسخ هنا كلمة غيري .

فيذهب بهم إلى نهر يقال له نهر الحيوان حافته قصب مكلل بالؤلؤ ترابه المسك وحصابؤه الياقوت فيغتسلون منه فتعود إليهم ألوان أهل الجنة ويرج أهل الجنة فيصرون كأنهم الكواكب اللرية ويبقى في صدورهم شامات بيض يعرفون بها يقال مساكين أهل الجنة

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ * الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمْ الْخَيَاطَةُ الدُّنْيَا فَاَلْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِثَابِتِينَ يَجْعَدُونَ ﴾

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرايبهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك قال السدي (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله) يعني الطعام وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يستطعمونهم ويستسقونهم ، وقال الثوري عن عثمان الثقفي عن سعيده بن جبير في هذه الآية قال: ينادى الرجل أباه أو أخاه فيقول له قد احترقت فأفوض على من الماء فيقال لهم أجيبوهم فيقولون (إن الله حرمهما على الكافرين) وروى من وجه آخر عن سعيد عن ابن عباس مثله سواء وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (إن الله حرمهما على الكافرين) يعني طعام الجنة وشرايبها ، قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا نصر بن علي أخبرنا موسى بن المغيرة حدثنا أبو موسى الصغار في دار عمرو بن مسلم قال سألت ابن عباس أو سئل أي الصدقة أفضل ؟ فقال : قال رسول الله ﷺ « أفضل الصدقة الماء ألم تسمع إلى أهل النار لما استعاثوا بأهل الجنة قالوا أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » وقال أيضاً حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي صالح قال لما مرض أبو طالب قالوا له لو أرسلت إلى ابن أخيك هذا فيرسل إليك بعنقود من الجنة لعله أن يشفيك به فجاءه الرسول وأبو بكر عند النبي ﷺ فقال أبو بكر إن الله حرمهما على الكافرين ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا بأخذهم الدين لهوا ولعبا واعتراهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للآخرة ، وقوله (فاليوم ننسأهم كما نسأ لقاء يومهم هذا) أي بعاملهم معاملة من نسأهم لأنه تعالى لا يشف عن علمه شيء ولا ينسأ كما قال تعالى (في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة كقوله (نسأ الله فنسأهم) وقال (كذلك أتتك آياتنا فنسأيتها وكذلك اليوم تنسى) وقال تعالى (وقيل اليوم ننسأكم كما نسأتم لقاء يومكم هذا) وقال العوفي عن ابن عباس في قوله (فاليوم ننسأهم كما نسأ لقاء يومهم هذا) قال نسأهم الله من الخير ولم ينسأهم من الشر ، وقال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال تركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا ، وقال مجاهد تركهم في النار ، وقال السدي تركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا لقاء يومهم هذا ، وفي الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أزوجهك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك رأساً وتربع ؟ فيقول بلى فيقول أظننت أنك ملاقي ؟ فيقول لا فيقول الله تعالى فاليوم أنسأكم كما نسأتم

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن أعدائه إلى المشركين بارسال الرسل إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول وأنه كتاب مفصل مبين كقوله (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت) الآية ، وقوله (فصلناه على علم) للعالمين أي على علم منا بما فصلناه

به كقوله (أنزله بعلمه) قال ابن جرير - وهذه الآية مردودة على قوله (كتاب أنزل إليك فلا تكن في صدرك حرج منه) الآية (ولقد جئناهم بكتاب) الآية وهذا الذي قاله في نفسه نظر فانه قد طال الفصل ولا دليل عليه وإنما الأمر أنه لما أخبر بما صاروا إليه من الحسارة في الآخرة ذكر أنه قد أراح عليهم في الدنيا بارسال الرسل وإنزال الكتب كقوله (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ولهذا قال (هل ينظرون إلا تأويله) أى ما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار قاله مجاهد وغير واحد وقال مالك: ثوابه، وقال الربيع لا يزال يحىء من تأويله أمر حتى يتم يوم الحساب حتى يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فيتم تأويله يومئذ قوله (يوم يأبى تأويله) أى يوم القيامة قاله ابن عباس (يقول الذين نسوه من قبل) أى تركوا العمل به وتناسوه في الدار الدنيا (قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) أى في خلاصنا مما صرنا إليه مما نحن فيه (أو نرد) إلى الدار الدنيا (فنعمل غير الذي كنا نعمل) كقوله (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون المؤمنين * بل بدلهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) كما قال ههنا (قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها (وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا يشفعون فيهم ولا ينصرونهم ولا ينقذونهم مما هم فيه

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ أَنْهَارٌ يُطَلِّبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه خالق العالم سماواته وأرضه وما بين ذلك في ستة أيام كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن والسننة الأيام هي الأحد والاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس والجمعة وفيه اجتمع الخلق كله وفيه خلق آدم عليه السلام واختلفوا في هذه الأيام هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان أو كل يوم كألف سنة كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس ، فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق لأنه اليوم السابع ومنه سمى السبت وهو القطع فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال حدثنا حجاج بن محمد أخبرني إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أبي هريرة قال أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال « خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال فيها يوم الأحد وخلق الشجر فيها يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل » فقد رواه مسلم بن الحجاج في صحيحه والنسائي من غير وجه عن حجاج وهو ابن محمد الأعور عن ابن جرير به وفيه استيعاب الأيام السبعة والله تعالى قد قال في سنة أيام ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار ليس مرفوعا والله أعلم

وأما قوله تعالى (ثم استوى على العرش) فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدا ليس هذا موضع بسطها وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديما وحديثا وهو إمرارها كما جاءت من غير تكيف ولا تشبيه ولا تعطيل والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله فان الله لا يشبهه شيء من خلقه (ليس كمثل شيء وهو السميع البصير) بل الأمر كما قال الأئمة منهم نعيم بن حماد الخزازي شيخ البخاري قال من شبه الله بخلقه كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى ، وقوله تعالى (يغشى الليل والنهار يطلبه حثيثا) أى يذهب ظلام هذا بضياء هذا وضياء هذا بظلام هذا وكل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا أى سريعا

لا يتأخر عنه بل إذا ذهب هذا جاء هذا وعكسه كقوله (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجري
لمستقرها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغي لها أن تدرك
القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) فقوله (ولا الليل سابق النهار) أى لا يفوته بوقت يتأخر عنه بل
هو فى أثره بلا واسطة بينهما ولهذا قال (يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) منهم من نصب ومنهم
من رفع وكلاهما قريب المعنى أى الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيتته ولهذا قال منها (ألا له الخلق والأمر) أى له الملك
والتصرف (تبارك الله رب العالمين) كقوله (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا) الآية قال ابن جرير حدثني الثني حدثنا
إسحق حدثنا هشام أبو عبد الرحمن حدثنا بقية بن الوليد حدثنا عبد الغفار بن عبد العزيز الأنصارى عن عبد العزيز
الشامى عن أبيه وكانت له صحبة قال : قال رسول الله ﷺ « من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح وحمد
نفسه فقد كفر وحبط عمله ومن زعم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئاً فقد كفر بما أنزل الله على أنبيائه » لقوله (ألا له
الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) وفى الدعاء المأثور عن أبي الدرداء وروى مرفوعاً « اللهم لك الملك كله ولك
الحمد كله وإليك يرجع الأمر كله أسألك من الخير كله وأعوذ بك من الشر كله »

﴿ اذْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ * وَلَا تَنفِسُوا فِي الْأَرْضِ بِغَدِ ضَاحِيهَا وَأَذْعُوهُ خَوْفًا
وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿

أرشد تبارك وتعالى عباده إلى دعائه الذى هو صلاحهم فى دنياهم وأخراهم فقال (اذعوا ربكم تضرعاً وخفية) قيل
معناه تذلاً واستكانة ، وخيفة كقوله (واذكر ربك فى نفسك) الآية وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال رفع الناس
أصواتهم بالدعاء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غاباً إن
الذى تدعون سميع قريب » الحديث ، وقال ابن جريج عن عطاء الخراسانى عن ابن عباس فى قوله (تضرعاً وخفية) قال
السر وقال ابن جرير تضرعاً تذلاً واستكانة لطاعته وخفية يقول بحشوع قلوبكم وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما
بينكم وبينه لاجهاراً مراعاة وقال عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال إن كان الرجل لقد جمع القرآن
وما يشعر به الناس وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكبير وما يشعر به الناس وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة فى
بيته وعنده الزور وما يشعرون به ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدر أن يعملوه فى السر فيكون
علانية أبداً ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم وذلك أن الله
تعالى يقول (اذعوا ربكم تضرعاً وخيفة) وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رضى فعله فقال (إذ نادى ربه نداء خفياً) وقال
ابن جريج يكره رفع الصوت والنداء والصباح فى الدعاء ويؤمر بالضرع والاستكانة ثم روى عن عطاء الخراسانى
عن ابن عباس فى قوله (إنه لا يحب المعتدين) فى الدعاء ولا فى غيره وقال أبو عجلان (إنه لا يحب المعتدين) لا يسأل منازل
الأنبياء ، وقال أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا شعبة عن زياد بن مخرق سمعت أبا نعام عن مولى لسعد أن
سعداً سمع ابناً له يدعو وهو يقول اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحوها من هذا وأعوذ بك من النار وسلاسلها
وأغلالها فقال لقد سألت الله خيراً كثيراً وتعوذت به من شر كثير وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
« إنه سيكون قوم يعتدون فى الدعاء - وفى لفظ - يعتدون فى الطهور والدعاء - وقرأ هذه الآية (اذعوا ربكم تضرعاً)
الآية - وإن بحسبك أن تقول اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من
قول أو عمل » ورواه أبو داود من حديث شعبة عن زياد بن مخرق عن أبى نعام عن مولى لسعد عن سعد فذكره والله
أعلم ، وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا الحريري عن أبى نعام أن عبد الله بن مغفل
سمع ابنه يقول اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها فقال يا بنى سئل الله الجنة وعذبه من النار

فأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يكون قوم يمشون في السماء والظهور » وهكذا رواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عفان به وأخرجه أبو داود عن موسى بن إسماعيل عن حماد بن سلمة عن معبد بن إلياس الحريري عن أبي نعام وأحمد قيس بن عباة الحنفي البصري وهو إسناد حسن لا بأس به والله أعلم ، وقوله تعالى (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض وما أضرمه بعد الإصلاح فإنه إذا كانت الأمور ماضية على السداد ثم وقع الانسداد بعد ذلك كان أضرم ما يكون على العباد فنهى تعالى عن ذلك وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه فقال (وادعوه خوفاً وطمعاً) أي خوفاً بما عند الله من ريب العقاب وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب ثم قال (إن رحمت الله قريب من المحسنين) أي إن رحمته مرسدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ويتذكرون زواجه كما قال تعالى (ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون) الآية وقال قريب ولم يقل قريبة لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب أو لأنها مضافة إلى الله فلهذا قال قريب من المحسنين وقال مطهر الوراق استشجروا موعود الله بطاعته فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين رواه ابن أبي حاتم

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَفْلَتْ سَحَابًا نَقَلْنَا سَمَكَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ * وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر وأرشد إلى دعائه لأنه على ما يشاء قادر به تعالى على أنه الرزاق وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال (وهو الذي يرسل الرياح نفثاً) أي منتشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر ومنهم من قرأ بشراً كقوله (ومن آياته أنه يرسل الرياح مبشرات) وقوله (بين يدي رحمته) أي بين يدي المطر كما قال (وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد) وقال (فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لحجج الموتى وهو على كل شيء قدير) وقوله (حتى إذا أفلت سحاباً نقلاً) أي حملت الرياح سحاباً نقلاً أي من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة كما قال زيد ابن عمرو بن نفيل رحمه الله

وأسلمت وجهي لمن أسلمت * له الزن تحمل عذاباً زلالاً وأسلمت وجهي لمن أسلمت * له الأرض تحمل صخرات نقلاً وقوله (سقناه لبلد ميت) أي إلى أرض ميتة مجدبة لانبات فيها كقوله (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها) الآية ولهذا قال (فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى) أي كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها كذلك نحيي الأجساد بعد صيورتها رمياً يوم القيامة ينزل الله سبحانه وتعالى ماء من السماء فتسطر الأرض أربعين يوماً فتنبث منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض وهذا المعنى كثير في القرآن يضرب الله مثلاً ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها ولهذا قال (لعلكم تذكرون) وقوله (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه) أي والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسناً كقوله (وأنبتنا نباتاً حسناً) (والذي خبث لا يخرج إلا نكداً) قال مجاهد وغيره كالسباخ ونحوها وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية : هذا مثل ضرب به الله للمؤمن والكافر ، وقال البخاري حدثنا محمد بن العلاء حدثنا حماد ابن أسامة عن يزيد بن عبد الله عن أبي بردة عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ « مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت منها ثقية قبأت الماء فأنبثت السكلاً والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وررعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعمل وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » رواه مسلم والنسائي من طرق عن أبي أسامة حماد بن أسامة به

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوْمِ ااعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَتَقَوْمِ لَيْسَ بِي صَلَافٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَبْلَغُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة وما يتعلق بذلك وما يتصل به وفرغ منه شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام الأول فالأول فابتدأ بذكر نوح عليه السلام فانه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن اخنوخ وهو إدريس النبي عليه السلام فيما يزعمون وهو أول من خط بالقلم ابن برد بن مهليل بن قنين بن يانش بن شيث بن آدم عليهم السلام هكذا نسبه محمد بن إسحق وغير واحد من أئمة النسب قال محمد بن إسحق ولم يلق نبيا من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبي قتل وقال يزيد الرقاشي إنما سمى نوح لكثرة مانح على نفسه وقد كان بين آدم إلى زمن نوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الإسلام قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير وكان أول ما عبادت الأصنام أن قوما صالحين ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صوراً أولئك فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم فلما طال الزمان جعلوا أجناساً على تلك الصور فلما تبادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين ودا وسواها ويعوق ونسرا فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة رسوله نوحاً فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له فقال (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) أي من عذاب يوم القيامة إذا لقيتم الله وأتم مشركون به (قال الملأ من قومه) أي الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم (إنا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) أي في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة كقوله (وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون) (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سُبِّحُوا بِهِ إِذْ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم) إلى غير ذلك من الآيات (قال ياقوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين) أي ما أنا ضال ولكن أنا رسول من رب كل شيء ومليكه (أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون) وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله لا يدرهم أحد من خلق الله في هذه الصفات كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعا «أيها الناس إنكم مسئولون عني فما أنتم قائلون؟» قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ويقول «الهم اشهد اللهم اشهد»

﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه (أو عجبتم) الآية أي لا تعجبوا من هذا فان هذا ليس بعجب أن يوحى الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفاً وإحساناً إليكم لينذركم ولتتقوا نعمة الله ولا تشركوا به (ولعلكم ترحمون) قال الله تعالى (فكذبوه) أي تمادوا على تكذيبه ومخالفته وما آمن معه منهم إلا قليل كما نص عليه في موضع آخر (فأنجيناه والذين معه في الفلك) أي السفينة كما قال: فأنجيناه وأصحاب السفينة (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) كما قال (مما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً) وقوله (إنهم كانوا قوماً عَمِينَ) أي عن الحق لا يبصرون ولا يهتدون له فبين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه وأنجى رسوله والمؤمنين وأهلك أعداءهم من الكافرين كقوله (إنا لننصر رسلنا) الآية وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة أن العاقبة فيها للمتقين

والظفر والغلب لهم كما أهلك قوم نوح بالغرق ونجى نوحا وأصحابه المؤمنين وقال مالك عن زيد بن أسلم كان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبل وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ما عذب الله قوم نوح إلا والأرض ملاءى بهم وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحائز وقال ابن وهب بلغني عن ابن عباس أنه نجا مع نوح في السفينة ثمانون رجلا أحدهم جرهم وكان لسانه عربيا رواه ابن أبي حاتم وروى متصلا من وجه آخر عن ابن عباس رضى الله عنهما

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ * قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۖ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿

يقول تعالى وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحا كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا قال محمد بن إسحق هم ولد عاد ابن إرم بن عوص بن سام بن نوح (قلت) هؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمدة في البر كما قال تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات الجوارح * التي لم يخلق مثلها في البلاد) وذلك لشدة بأسهم وقوتهم كما قال تعالى (فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون) وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف وهي جبال الرمل قال محمد بن إسحق عن محمد بن عبد الله بن أبي سعيد الخزاعي عن أبي الطفيل عامر بن واثلة سمعت عليا يقول لرجل من حضرموت : هل رأيت كشيئا أحمر يخالطه مدرة حمراء ذا أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت ، هل رأيته ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين والله إنك لتنتعته نعت رجل قد رآه ، قال لا ولكني قد حدثت عنه فقال الحضرمي وما شأنه يا أمير المؤمنين قال فيه قبر هود عليه السلام رواه ابن جرير ، وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن فإن هودا عليه السلام دفن هناك وقد كان من أشرف قومه نسباً لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم وكانوا من أشد الأمم تكديبا للحق ولهذا دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى طاعته وتقواه (قال الملاء الذين كفروا من قومه) والملاء هم الجمهور والسادة والقادة منهم (إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين) أي في ضلالة حيث تدعوننا إلى ترك عبادة الأصنام والاقبال على عبادة الله وحده كما تعجب الملاء من قریش من الدعوة إلى إله واحد فقالوا (أجعل الآلهة إلهاً واحداً) الآية (قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين) أي لست كما تزعمون بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء فهو رب كل شيء ومليكه (أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين) وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغ والنصح والأمانة (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم) أي لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولا من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه بل احمدا الله على ذاكم (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) أي واذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم من ذرية نوح الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوتهم لما خالفوه وكذبوه (وزادكم في الخلق بسطة) أي زاد طولكم على الناس بسطة أي جعلكم أطول من أبناء جنسكم كقوله في قصة طالوت (وزاده بسطة في العلم والجسم) (واذكروا آلاء الله) أي نعمه ومننه عليكم (لعلكم تفلحون) والآلاء جمع إلى وقيل إلى

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ * قَالَ

قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِمَا يَدَّعُونَ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

يخبر تعالى عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام (قالوا أجبنا لن عبد الله وحده) الآية كقول الكفار من قريش (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) وقد ذكر محمد بن إسحق وغيره أنهم كانوا يعبدون أصناما فضمن يقال له صمد وآخر يقال له صمود وآخر يقال له الهنا (١) ولهذا قال هود عليه السلام (قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب) أي قد وجب عليكم بمقاتلتكم هذه من ربكم رجس قيل هو مقلوب من رجز وعن ابن عباس معناه سخط وغضب (أتجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم) أي أتجادلونني في هذه الأصنام التي سميتوها أنتم وآباؤكم آلهة وهي لا تضر ولا تنفع ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلا ولهذا قال (ما نزل الله بها من سلطان؟ فانتظروا إني معكم من المنتظرين) وهذا تهديد ووعد من الرسول لقومه ولهذا عقبه بقوله (فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين) وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم في أما كن آخر من القرآن بأنه أرسل عليهم الريح العقيم ماتذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم كما قال في الآية الأخرى (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ففري القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية) لما تمردوا وعتوا أهلهم الله بريح عاتية فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فشلق رأسه حتى تبينه من بين جثته ولهذا قال (كأنهم أعجاز نخل خاوية) وقال محمد بن إسحق كانوا يسكنون باليمن بين عمان وحضرموت وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله فبعث الله إليهم هودا عليه السلام وهو من أوسطهم نسبا وأفضلهم موصفاً فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلها غيره وأن يكفوا عن ظلم الناس فأبوا عليه وكذبوه وقالوا من أشد منا قوة واتبعه منهم ناس وهم يسير يكتمون إيمانهم فلما عتت عاد على الله وكذبوا نبيه وأكثروا في الأرض الفساد وتجبروا وبنوا بكل ريع آية عبثا بغير نفع كلهم هود فقال (أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون * قالوا يا هود ما جئنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلها نكتاب سوء) أي يجنون (قال إني أشهد الله وأشهدوا أني بريء مما تشركون * من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون * إني توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بما نصيحتها إن ربي على صراط مستقيم) قال محمد بن إسحق فلما أبوا إلا الكفر به أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين فيما يزعمون حتى جهدهم ذلك قال وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان وطلبوا من الله الفرج فيه إنما يطلبونه بخرمه ومكان بيته وكان معروفاً عند أهل ذلك الزمان وبه العماليق مقيمون وهم من سلالة عمليق بن لاود (٢) بن سام بن نوح وكان سيدهم إذ ذاك رجلاً يقال له معاوية بن بكر وكانت له أم من قوم عاد واسمها جلهدة (٣) ابنة الحيري (٤) قال فبعثت عاد وفد اقربيا من سبعين رجلاً إلى الحرم ليستسقوا لهم عند الحرم فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنهم الجرادتان: قيتان لمعاوية وكانوا قد وصلوا إليه في شهر فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف عمل شعرا يعرض لهم بالانصراف وأمر القيتين أن تغنياهم به فقال :

ألا يا قيل ويحك قم فهنم * لعل الله يصحبنا غمماً * فيسقي أرض عاد إن عاداً
قد امسوا لا يبينون الكلام * من العطش الشديد فليس نرجو * به الشيخ الكبير ولا الغلام

(١) في المكية : وصوابها الهباء . (٢) في نسخة الأزهر : لاوم باليم . (٣) في تفسير البغوي : في النسخة الهندية كلمة .

(٤) في نسخة الأزهر : الحيري

وقد كانت نساؤهم بخير * فقد أمت نساؤهم غيامي * وإن الوحش تأتهم جهارا
ولا تخشى لعادي سهامها * وأنتم هاهنا فيما اشتيت * نهاركم وليلكم التمام
قبح وفدكم من وفد قوم * ولا لقوا التحية والسلاما

قال فعند ذلك تنبه القوم لما جاءوا له فنهضوا إلى الحرم ودعوا لقومهم فدعا داعيهم وهو قيل بن عذر فأنشأه الله
سحابات ثلاثا بيضاء وسوداء وحمرأ ثم ناداه مناد من السماء اختر لنفسك أو لقومك من هذا السحاب فقال :
اخترت هذه السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء فناداه مناد اخترت رمادا رمدا ، لا تبقى من عاد أحدا لا والدا
تترك ولا ولدا ، إلا جعلته همدا ، إلا بني الوذية الهندا ، قال وبني الوذية بطن من عاد يقيمون بمكة فلم يصعبهم ما أصاب
قومهم قال وهم من بني من أنسأهم وذرايعهم عاد الآخرة قال وساق الله السحابة السوداء فيما يذكرون التي اختارها قيل
ابن عذر بما فيها من النعمة إلى عاد حتى تخرج عليهم من واد يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا وقالوا هذا عارض
مخطرنا يقول (بل هو ما استعجلتم به ربح فيها عذاب أليم * تدمر كل شيء) أي تهلك كل شيء مرث به فكان أول
من أبصر ما فيها وعرف أنهار ربح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها ميمد^(١) فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صمعت فلما أفادت
قالوا مارأيت يا ميمد ؟ قالت ربحا فيها شبه النار أمامها رجال يقودونها فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما
كما قال الله تعالى والحسوم الدائمة فلم تدع من عاد أحدا إلا هلك ، واعتزل هود عليه السلام فيما ذكر لي ومن معه
من المؤمنين في حظيرة ما يصيبه ومن معه الا ماتلين عليه الجلود وتلد الأنفس وانها تمر على عاد بالظعن ما بين السماء
والأرض وتدمغهم بالحجارة وذكر تمام القصة بطولها وهو سياق غريب فيه فوائد كثيرة وقد قال الله تعالى (ولما
جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ)

وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده قريب مما أورده محمد بن إسحق بن يسار رحمه الله ، وقال
الإمام أحمد حدثنا زيد بن الحباب حدثني أبو المنذر سلام بن سليمان النحوي حدثنا عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل
عن الحارث البكري قال خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمررت بالربذة
فإذا بعجوز من بني تميم منقطع بها فقالت لي يا عبد الله إن لي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة هل أنت مبغى
إليه قال فحملتها فأتيت المدينة فإذا المسجد غاص بأهله وإذا راية سوداء تخفق وإذا بلال متقلد سيفاً بين يدي رسول
الله ﷺ فقلت ماشأن الناس ؟ قالوا يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها قال فجلست فدخل منزله أو قال
رحله فاستأذنت عليه فأذن لي فدخلت وسلمت فقال هل بينكم وبين تميم شيء قلت نعم وكانت لنا الدائرة عليهم
ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها فسألتني أن أحملها إليك وهاهي بالباب فأذن لها فدخلت فقلت يا رسول الله
إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزا فاجعل الدهناء فحمت العجوز واستوفزت وقالت يا رسول الله فإني يضطر
مضطرك قال قلت : إن مثلي مثل ما قال الأول : معزى حملت حنظها ، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصما أعوذ
بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد قال لي « وما وافد عاد ؟ » وهو أعلم بالحديث منه ولكن يستطعمه قلت إن عاد
قحطوا فبعثوا وافدا لهم يقال له قيل فربمعاوية بن بكر فأقام عنده شهرا يسقيه الحمر وتغنيه جاريثان يقال لهما الجرادتان
فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة فقال اللهم إنك تعلم أنني لم أجيء إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه .
اللهم اسق عاد ما كنت تسقيه ، فمرت به سحابات سود فنودي منها اختر فأوما إلى سحابة منها سوداء فنودي منها خذها
رمادا رمدا ، لا تبقى من عاد أحدا قال فما بلغني أنه بعث الله عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا حتى
هلكوا قال أبو وائل وصدق قال وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداهم قالوا لا تنكن كوافد عاد هكذا رواه الإمام
أحمد في المسند ، ورواه الترمذي عن عبد بن حميد عن زيد بن الحباب به نحوه ، ورواه النسائي من حديث سلام
ابن أبي المنذر عن عاصم وهو ابن بهدلة ومن طريقه رواه ابن ماجه أيضا عن أبي وائل عن الحارث بن حسان البكري
به ورواه ابن جرير عن أبي كريب عن زيد بن حباب به ووقع عنده عن الحارث بن زيد البكري فذكره ورواه أيضا

(١) في النسخة المسكية مهد ، وفي البغوي مهدد .

عن أبي كريب عن أبي بكر بن عياش عن عاصم عن الحارث بن حسان البكري فذكره ولم أر في النسخة أبواثل والله أعلم
 ﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ
 نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ * وَأَذْكُرُوا إِذْ
 جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ مُهُولِهِمْ أَقْصُورًا وَتَنْجِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا
 آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ
 مِنْهُمْ أَنْ عَالَمُونَ أَنْ صَالِحًا مَرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي
 آمَنْتُمْ بِهِ كَاذِبُونَ * فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحْ أُنْتُمْ بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ *
 فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾

قال علماء التفسير والنسب ثمود بن عائر بن إرم بن سام بن نوح وهو أخو جدس بن عائر وكذلك قبيلة طسم كل
 هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام وكانت ثمود بعد عاد ومساكنهم مشهورة فيما
 بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله وقد مر رسول الله ﷺ على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى
 تبوك في سنة تسع قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال لما نزل
 رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب
 منها ثمود ففجعوا منها ونصبوا لها القدور فأمرهم النبي ﷺ فأهراقوا القدور وعلفوا العجيين الإبل ثم
 ارتحل بهم حتى نزل بهم على البر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال
 «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم» وقال أحمد أيضاً حدثنا عفان حدثنا عبد العزيز بن مسلم
 حدثنا عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر «لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين
 إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم» وأصل هذا الحديث مخرج
 في الصحيحين من غير وجه، وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا يزيد بن هارون السعدي عن إسماعيل بن واسط عن
 محمد بن أبي كبشة الأنماري عن أبيه قال لما كان في غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم فبلغ
 ذلك رسول الله ﷺ فنادى في الناس «الصلاة جامعة» قال فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ممسك بعزة
 وهو «يقول ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم» فناداه رجل منهم نعجب منهم يا رسول الله؟ قال «أفلا أنبئكم
 بأعجب من ذلك. رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وبما هو كائن بعدكم فاستقيموا وسددوا فإن الله لا يعاب
 بعدابكم شيئاً وسيأتى قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً» لم يخرج أحد من أصحاب السنن وأبو كبشة اسمه عمر بن سعد
 ويقال عامر بن سعد والله أعلم، وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن
 أبي الزبير عن جابر قال لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال «لا تسألوا الآيات فقد سألتها قوم صالح فكانت
 — يعني الناقة — ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب مدهم يوماً
 ويشربون لبنها يوماً فعقروها فأخذتهم صيحة أحمد الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله»
 فقلوا من هو يا رسول الله قال: «أبو رغال فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه» وهذا الحديث ليس في شيء من
 الكتب الستة وهو على شرط مسلم. قوله تعالى (وإلى ثمود) أي ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً (قال ياقوم

اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) فجميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقوله (قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية) أى قد جاءكم حجة من الله على صدق ما جئتمكم به وكانوا هم الذين سألوا صالحا أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه بأن يخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها الكاتبة فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض فأخذ عليهم صالح اليهود والمواثيق لأن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه فلما أعطوه على ذلك عهدهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عز وجل فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنبها بين جنبها كما سألوا فعند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا فصدحهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صعر بن جلس وكان جندع بن عمرو بن عم يقال له : شهاب بن خليفة بن محلاة بن لبيد بن حراس وكان من أشراف ثمود وأفاضلها فأراد أن يسلم أيضا فنهأ أولئك الرهط فأطاعهم فقال في ذلك رجل من مؤمنى ثمود يقال له مهوش بن عثمة بن الدميل رحمه الله

وكانت عصبة من آل عمرو * إلى دين النبي دعوا شهابا * عزيز ثمود كلهم جميعا * فهم بأن يجيب فلو أجابا لأصبح صالح فينا عزيزاً * وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا * ولكن الغواة من آل حجر * تولوا بعد رشحهم ذيابا وأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم مدة تشرب من بئرها يوما وتدعه لهم يوما وكانوا يشربون لبنها يوم شربها يحتلبونها فيملأون ما شاءوا من أوعيتهم وأوانيهم كما قال في الآية الأخرى (ونبتهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب مختصر) وقال تعالى (هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم) وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ترد من فجج وتصدر من غيره ليسعها لأنها كانت تتضلع من الماء وكانت على ما ذكر خلقا هائلا ومنظراً رائعا إذا مرت بأنعامهم نفرت منها فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبي عليه السلام عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم فيقال انهم اتفقوا كلهم على قتلها ، قال قتادة بلغني أن الذي قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها حتى على النساء في خدورهن وعلى الصبيان قلت وهذا هو الظاهر لقوله تعالى (فكذبوه فعدوها فقدم عليهم ربهم بذنهم فسواها) وقال (وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها) وقال (فعقروا الناقة) فأسند ذلك على مجموع القبيلة فدل على رضى جميعهم بذلك والله أعلم ، وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير وغيره من علماء التفسير أن سبب قتلها أن امرأة منهم يقال لها عنيزة ابنة غنم بن مجاز وتكنى أم عثمان كانت عجوزا كافرة وكانت من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام وكانت لها بنات حسان ومال جزيل وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود وامرأة أخرى يقال له صدقة^(١) بنت الحيا بن زهير بن المختار ذات حسب ومال وجمال وكانت تحت رجل مسلم من ثمود ففارقته فكانتا تجعلان لمن التزم لها بقتل الناقة فدعت صدقة رجلا يقال له الحباب فعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة فأبى عليها فدعت ابن عم لها يقال له مصدع بن مهرج بن الحيا فأجابه إلى ذلك ودعت عنيزة بنت غنم قدار بن سالف بن جندع وكان رجلا أحمر أزرق قصيرا يزعمون أنه كان ولد زنية وأنه لم يكن من أيه الذي ينسب إليه وهو سالف وإنما هو من رجل يقال له صبياد ولكن ولد على فراش سالف وقالت له أعطيك أى بناتى شئت على أن تعقر الناقة فعند ذلك انطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج فاستغويا غواة من ثمود فاتبعهما سبعة نفر فصاروا تسعة رهط وهم الذين قال الله تعالى (وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون) وكانوا رؤساء في قومهم فاستمالوا القبيلة الكافرة بكملها فطاوعتهم على ذلك فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار ابن سالف في أصل صحرة على طريقها وكمن لها مصدع في أصل أخرى فثرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها وخرجت بنت غنم عنيزة وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس وجهها فسفرت عن وجهها لقدار وزمرته وشد عليها قدار بالسيف فكشف عن عرقوبها فثرت ساقطة إلى الأرض ورعت رغبة واحدة تحذر سقبها ثم طعن

في لبتها فنحراها وانطلق سقيم' وهو فضيلها حتى أتى جبلا مسيعا فصعد أعلى صخرة فيه ورغا فروى عبدالرزاق عن معمر
عمن سمع الحسن البصري أنه قال يارب أين أمي ويقال إنه رغا ثلاث مرات وإنه دخل في صخرة فغاب فيها ويقال إنهم
اتبعوه ففقروه مع أمه فأنه أعلم . فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة وبلغ الخبر صالحا عليه السلام فجاءهم وهم
مجمعون فلما رأى الناقة بكى وقال (تمتعوا في داركم ثلاثة أيام) الآية وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء فلما أمسى أولئك
التسعة الرهط عزموا على قتل صالح وقالوا إن كان صادقا عجلناه قبلنا وإن كان كاذبا ألحقناه بناقته (قالوا تقاسموا بالله
لنبيته وأهله ثم نقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإننا لصادقون ومكروا مكرا ومكروا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف
كان عاقبة مكروهم) الآية فلما عزموا على ذلك وتواطؤوا عليه وجاءوا من الليل ليفتكوا بني الله فأرسل الله سبحانه وتعالى
وله العزة ورسوله عليهم حجارة فرضختهم سلفا وتعجلا قبل قومهم وأصبح ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من
أيام النظرة ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح عليه السلام وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة
ووجوههم محمرة وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة فلما أصبحوا من يوم
الأحد وقد تخطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه عياذا بالله من ذلك لا يدرون ماذا يفعل بهم ولا كيف يأتيهم
العذاب وأشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت النفوس
في ساعة واحدة (فأصبحوا في دارهم جاثمين) أي صرعى لا أرواح فيهم ولم يفلت منهم أحد لا صغير ولا كبير
لا ذكر ولا أنثى قالوا إلا جارية كانت مقعدة واسمها كلبة ابنة السلق ويقال لها الدريعة وكانت كافرة شديدة العداوة
لصالح عليه السلام فلما رأت ما رأت من العذاب أطلقت رجلاها فقامت تسعى كأسرع شيء فأتت حيا من
الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها ثم استسقتهم من الماء فلما شربت ماتت قال علماء التفسير ولم يبق من
ذرية ثمود أحد سوى صالح عليه السلام ومن تبعه رضى الله عنهم إلا أن رجلا يقال له أبو رغال كان لما وقعت النقمة
بقومه مقيا إذ ذاك في الحرم فلم يصبه شيء فلما خرج في بعض الأيام إلى الحل جاءه حجر من السماء فقتله وقد تقدم
في أول القصة حديث جابر بن عبد الله في ذلك وذكروا أن أبا رغال هذا هو والد ثقيف الذين كانوا يسكنون
الطائف قال عبد الرزاق عن معمر أخبرني إسماعيل بن أمية أن النبي ﷺ مر بقبر أبي رغال فقال « أتدرون
من هذا ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم قال « هذا قبر أبي رغال رجل من ثمود كان في حرم الله فأنعه حرم الله
عذاب الله فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن هاها ودفن معه غصن من ذهب فنزل القوم فابتدروه بأسيا فهم
فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن » وقال عبد الرزاق قال معمر قال الزهري أبو رغال أبو ثقيف هذا مرسل من هذا
الوجه ، وقد روى متصلا من وجه آخر كما قال محمد بن إسحق عن إسماعيل بن أمية عن بجير بن أبي بجير قال سمعت
عبد الله بن عمرو يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمرنا بقبر فقال « هذا قبر
أبي رغال وهو أبو ثقيف وكان من ثمود وكان بهذا الحرم فدفن عنه فلما خرج أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا
المكان فدفن فيه وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب إن أتم نبشتم عنه أصبتموه فابتدروه الناس فاستخرجوا
منه الغصن » وهكذا رواه أبو داود عن يحيى بن معين عن وهب بن جرير بن حازم عن أبيه عن ابن إسحق به
قال شيخنا أبو الحجاج المزي وهو حديث حسن عزيز (قلت) تفرد بوصله بجير بن أبي بجير هذا وهو شيخ لا يعرف إلا
بهذا الحديث ، قال يحيى بن معين ولم أسمع أحدا روى عنه غير إسماعيل بن أمية (قلت) وعلى هذا فيخشى أن يكون وهم
في رفع هذا الحديث . وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو مما أخذه من الزاملتين قال شيخنا أبو الحجاج بعد أن
عرضت عليه ذلك وهذا محتمل والله أعلم

﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمٍ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ ﴾

هذا تفریع من صالح عليه السلام لقومه لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه وتمردهم على الله وإيائهم عن قبول الحق

وإعراضهم عن الهدى إلى العمى قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريبا وتوبيخا وهم يسمعون ذلك كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ظهر على أهل بدر أقام هناك ثلاثا ثم أمر براحلته فشدت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها ثم سار حتى وقف على القلب قلب بدر فجعل يقول « يا أبا جهل بن هشام يا عبدة بن ربيعة يا شبيبة ابن ربيعة ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعد ربكم حقا فأني وجدت ما وعدني ربي حقا » فقال له عمر يا رسول الله ماتكم من أقوام قد جيفوا فقال « والذي نفسي بيده ما أتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيئون » وفي السيرة أنه عليه السلام قال لهم « بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم كذبتموني وصدقتي الناس وأخرجتموني وآواني الناس وقاتلتموني ونصرني الناس فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم » وهكذا صالح عليه السلام قال لقومه (لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم) أي فلم تنتفعوا بذلك لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحا ولهذا قال (ولكن لا تحبون الناصحين) وقد ذكر بعض المفسرين أن كل نبي هلك أمة كان يذهب فيقيم في الحرم حرم مكة والله أعلم، وقد قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا زبعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال لما مر رسول الله ﷺ بوادي عسفان حين حج قال (يا أبا بكر أي واد هذا ؟) قال هذا وادي عسفان قال « لقد مر به هود وصالح عليهما السلام على بكرات خطمهن الليف أزهرهم العباء وأرديتهن النار يلبنون يحجون البيت العتيق » هذا حديث غريب من هذا الوجه لم يخرج به أحد منهم

﴿ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾

يقول تعالى (و) لقد أرسلنا (لوطا) أو تقديره (و) اذ كر (لوطا) إذ قال لقومه (ولوط هو ابن هاران بن آزر وهو ابن أخى إبراهيم الخليل عليهما السلام وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام وهاجر معه إلى أرض الشام فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله عز وجل ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم وهو إتيان الذكور دون الإناث وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ولا يخطر ببالهم حتى صنع ذلك أهل سدوم عليهم لعائن الله قال عمرو بن دينار في قوله (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) قال مانزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي باني جامع دمشق لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكر آيولو ذكرنا ولهذا قال لهم لوط عليه السلام (أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين *) إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء) أي عدلتم عن النساء وما خلق لكم ربه منهن إلى الرجال وهذا إسراف منكم وجهل لانه وضع الشيء في غير محله ولهذا قال لهم في الآية الأخرى (هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين) فأرشدهم إلى نسائهم فاعتدروا اليه بأنهم لا يشتهونهن (قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد) أي لقد علمت أنه لا أرب لنا في النساء ولا إرادة وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض وكذلك نسائهم كن قد استغنين بعضهم ببعض أيضا

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ * إِنَّهُمْ أَنْفُسُ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

أي ما أجابوا لوطا إلا أن هموا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم فأخرجهم الله تعالى سالما وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين ، وقوله تعالى (إنهم أناس يتطهرون) قال قتادة عابوهم بغير عيب . وقال مجاهد : إنهم أناس يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء . وروى مثله عن ابن عباس أيضا

﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾

يقول تعالى فَأَنبِئْنَا لوطاً وأهله ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط كما قال تعالى (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين * فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) إلا امرأته فإنها لم تؤمن به ، بل كانت على دين قومها تماثلهم عليه وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم ، ولهذا لما أمر لوط عليه السلام ليسرى بأهله أمر أن لا يعلمها ولا يخرجها من البلد ، ومنهم من يقول بل اتبعتم فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم والأظهر أنها لم تخرج من البلد ولا أعلمها لوط بل بقيت معهم ، ولهذا قال ههنا (إلا امرأته كانت من الغابرين) أى الباقيات وقيل من الهالكين وهو تفسير بالازم ، وقوله (وأمطرنا عليهم مطرا) مفسر بقوله (وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين بعباد) ولهذا قال (فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) أى انظروا محمد كيف كان عاقبة من يجترأ على معاصي الله عز وجل ويكذب رسله وقد ذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله إلى أن اللائط يلقي من شاطئ ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط ، وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يرمم سواء كان محصنا أو غير محصن وهو أحد قولى الشافعى رحمه الله والحجة ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث الدراوردي عن عمرو بن أبى عمر عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » وقال آخرون هو كالزاني فإن كان محصنا رجم ، وإن لم يكن محصنا جلد مائة جلدة وهو القول الآخر للشافعى ، وأما إتيان النساء فى الأدبار فهو اللواطية الصغرى وهو حرام باجماع العلماء إلا قولاً شاذاً لبعض السلف وقد ورد فى النهى عنه أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ وقد تقدم الكلام عليها فى سورة البقرة

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمُ عِبَادُوا اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾

قال محمد بن إسحق : هم من سلالة مدين بن إبراهيم وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر قال واسمه بالسريانية يثرون (قلت) مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهى التى بقرب معان من طريق الحجاز قال الله تعالى (ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون) وهم أصحاب الأيكة كما سذكروه إن شاء الله بوجه الثقة (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) هذه دعوة الرسل كلهم قد جاءكم بينة من ربكم ، أى قد أقام الله الحجج والبيئات على صدق ما جئكم به ، ثم وعظهم فى معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان ولا يبخسوا الناس أشياءهم ، أى لا يخونوا الناس فى أموالهم ويأخذوها على وجه البخس وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليسا كما قال تعالى (ويل للطففين — إلى قوله — لرب العالمين) وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد نسأل الله العافية منه ، ثم قال تعالى إخبارا عن شعيب الذى يقال له خطيب الأنبياء لفصاحة عبارته وجزالة موعظته

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظَرْتُمْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ * وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِأَلَّذِي أَرْسَلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾

ينهاهم شعيب عليه السلام عن قطع الطريق الحسى والعنوى بقوله (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) أى توعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم قال السدى وغيره : كانوا عشارين ، وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد (ولا

تعدوا بكل صراط توعدون) أى تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعب ليتبعوه والأول أظهر لأنه قال (بكل صراط) وهو الطريق وهذا الثانى هو قوله (وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا) أى وتودون أن تكون سبيل الله عوجا مائلة (واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم) أى كنتم مستضعفين لقلتكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم فاذكروا نعمة الله عليكم فى ذلك (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) أى من الأمم الحالية والقرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصى الله وتكذيب رسله . وقوله (وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به ووطائفة لم يؤمنوا) أى قد اختلفتم على (فاصبروا) أى انتظروا (حتى يحكم الله بيننا) وبينكم أى يفصل (وهو خير الحاكمين) فإنه سيجعل العاقبة للمتقين ، والدمار على الكافرين

﴿ قَالَ أَلَمْ لَا الَّذِينَ اسْتَكَبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُولُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾

هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار بنيه شعيبا ومن معه من المؤمنين فى توعدهم إياه ومن معه من المؤمنين بالنفى عن القرية أو الاكراه على الرجوع فى ملتهم والدخول معهم فيهاهم فيه ، وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة ، وقوله (أو لو كنا كارهين)؟ يقول أو أتم فاعلون ذلك ولو كنا كارهين ما تدعوننا إليه فإنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أتم فيه فقد أعظمنا القرية على الله فى جعل الشركاء معه أندادا وهذا تنفير منه عن اتباعهم (وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا) وهذا رد إلى الله مستقيم فانه يعلم كل شىء وقد أحاط بكل شىء علما (على الله توكلنا) أى فى أمورنا ما نأتى منها وما نذر (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) أى احكم بيننا وبين قومنا وانصرنا عليهم (وأنت خير الفاتحين) أى خير الحاكمين ، فانك العادل الذى لا يجوز أبداً

﴿ وَقَالَ أَلَمْ لَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾

يخبر تعالى عن شدة كفرهم وتمردهم وعتوهم وما هم فيه من الضلال وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق ولهذا أقسموا وقالوا (لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون) فلماذا عقبه بقوله (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين) أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة وذلك كأرجفوا شعيبا وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء كما أخبر عنهم فى سورة هود فقال (ولما جاءهم أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) والمناسبة هناك والله أعلم أنهم لما تهكموا به فى قولهم (أصلاتك تأمرك) الآية فجاءت الصيحة فأسكتتهم ، وقال تعالى إخبارا عنهم فى سورة الشعراء (فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) وما ذاك إلا لأنهم قالوا فى سياق القصة (فأسقط علينا كسفا من السماء) الآية ، فأحبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة وقد اجتمع عليهم ذلك كله أصابهم عذاب يوم الظلة وهى سحابة أظلمت فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم ، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم فزهقت الأرواح وفاضت النفوس وخمدت الأجسام (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) ثم قال تعالى (كأن لم يغنوا فيها) أى كأنهم لما أصابهم النعمة لم يقيموا بديارهم التى أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها ثم قال تعالى مقابلا لقليلهم (الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين)

﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَ قَوْمٍ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾
 أى فتولى عنهم شعيب عليه السلام بعد ما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنقمة والكال وقال مقرعا لهم وموبخا
 (يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم) أى قد أديت إليكم ما أرسلت به فلا آسف عليكم وقد كفرتم بما جئتكم
 به فلهذا قال (فكيف آسى على قوم كافرين ؟)

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ
 السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عما اختبر به الأمم الماضية الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء . يعنى بالبأساء ما يصيبهم
 فى أبدانهم من أمراض وأسقام ، والضراء ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك لعلهم يضرعون ، أى يدعون ويخشعون
 ويبتلون إلى الله تعالى فى كشف منازلهم . وتقدير الكلام انه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا فما فعلوا شيئا من الذى أراد
 منهم فقلب عليهم الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه ولهذا قال (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة) أى حولنا الحال من شدة إلى
 رخاء ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية ومن فقر إلى غنى ليذكروا على ذلك فما فعلوا وقوله (حتى عفوا) أى كثروا
 وكثرت أموالهم وأولادهم يقال عفا الشيء إذا كثرت . (وقالوا قدمس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون)
 يقول تعالى ابتليناهم بهذا وهذا ليتضرعوا وينيبوا إلى الله فما نجح فيهم لا هذا ولا هذا ولا اتهموا بهذا ولا بهذا ، وقالوا
 قد مسنا من البأساء والضراء ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا فى قديم الزمان والدهر ، وإنما هو الدهر تارات
 وتارات ، بل لم يفتطنوا لأمر الله فيهم ولا استشعروا ابتلاء الله لهم فى الحالىن وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله
 على السراء ويصبرون على الضراء كما ثبت فى الصحيحين « عجا للمؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له ، إن
 أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له » فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من
 الضراء والسراء ، ولهذا جاء فى الحديث « لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقيها من ذنوبه ، والمنافق مثله كمثل الحمار لا يدرى
 فيه ربطه أهله ولا فيه أرسلوه » أو كما قال ، ولهذا عقب هذه الصفة بقوله (فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون) أى أخذناهم
 بالعقوبة بغتة ، أى على بغتة وعدم شعور منهم أى أخذناهم فجأة كما فى الحديث « موت الفجأة رحمة للمؤمن
 وأخذة أسف للكافر »

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم
 بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن
 يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًىٰ وَهُمْ يُلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل كقوله تعالى (فلولا كانت قرية آمنت فنفخنا فيها إيمانها
 إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) أى ما آمنت قرية بتامها إلا قوم
 يونس فإنهم آمنوا وذلك بعد ما عاينوا العذاب كما قال تعالى (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمغنناهم إلى
 حين) وقال تعالى (وما أرسلنا فى قرية من نذير) الآية وقوله تعالى (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا) أى آمنت
 قلوبهم بما جاء به الرسل وصدقت به واتبعوه واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات (لفتحنا عليهم بركات من السماء
 والأرض) أى قطر السماء ونبات الأرض قال تعالى (ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) أى ولكن كذبوا
 رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والحارم ثم قال تعالى محذرا من مخالفة أوامره والتجرؤ على

زواجره (أفأمن أهل القرى) أى الكافرة (أن يأتيهم بأسنا) أى عذابنا ونكالنا (بيانا) أى ليلا (وهم ناعون * أوأومن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) أى فى حال شغلهم وغفلتهم (أفأمنوا مكر الله) أى بأسه ونعمته وقدرته عليهم وأخذهم إياهم فى حال سهوهم وغفلتهم (فلايأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) ولهذا قال الحسن البصرى رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف والفاجر يعمل بالمعاصى وهو آمن

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله (أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها) أولم يتبين لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم وكذا قال مجاهد وغيره وقال أبو جعفر بن جرير فى تفسيرها يقول تعالى أولم يتبين للذين يستخلفون فى الأرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها فساروا سيرتهم وعملوا أعما لهم وعتوا على ربهم (أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم) يقول أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم (ونطبع على قلوبهم) يقول ونختم على قلوبهم (فهم لا يسمعون) موعظة ولا تذكرا (قلت) وهكذا قال تعالى (أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) وقال تعالى (أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون) وقال (أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال * وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم) الآية وقال تعالى (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) أى هل ترى لهم شخصا أو تسمع لهم صوتا وقال تعالى (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحته فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) وقال تعالى بعد ذكره إهلاك عاد (فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين * ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزون * ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون) وقال تعالى (وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلنا فكيف كان نكير) وقال تعالى (ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير) وقال تعالى (فكأن من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد * أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) وقال تعالى (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزون) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نعمه بأعدائه وحصول نعمه لأوليائه ولهذا عقب ذلك بقوله وهو أصدق القائلين ورب العالمين

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقِصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ * وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾

لما قص تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين قال تعالى (تلك القرى نقص عليك) أى يا محمد (من أنبائها) أى من أخبارها (ولقد جاءهم رسلهم بالبينات) أى الحجج على صدقهم فيما أخبروهم به كما قال تعالى (وما كنا معذبين حق نبث رسولا) وقال تعالى (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد * وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم) وقوله تعالى (فما كانوا ليؤمنوا بما

كذبوا من قبل) الباء سببية أى فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم حكاه ابن عطية رحمه الله وهو متجه حسن كقوله (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) الآية ولهذا قال هنا (كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين وما وجدنا لأكثرهم) أى لأكثر الأمم الماضية (من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) أى ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال والعهد الذى أخذه هو ما جبلهم عليه وفطرنهم عليه وأخذ عليهم فى الأصلاب أنه ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو وأقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم به وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة لا من عقل ولا شرع وفى الفطر السليمة خلاف ذلك وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهى عن ذلك كما جاء فى صحيح مسلم يقول الله تعالى « إني خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحلت لهم » وفى الصحيحين « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » الحديث وقال تعالى فى كتابه العزيز (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقوله تعالى (وأسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا أنجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وقال تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) إلى غير ذلك من الآيات وقد قيل فى تفسير قوله تعالى (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) ما روى أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أنس بن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أنس بن الربيع بن أنس عن أبي بن كعب عن أنس واختاره ابن جرير وقال السدى (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) قال ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فأمنوا كرها وقال مجاهد فى قوله (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) هذا كقوله (ولو ردوا لعادوا) الآية

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِنَايْتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾
يقول تعالى (ثم بعثنا من بعدهم) أى الرسل للتقدم ذكرهم كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين (موسى بآياتنا) أى بحجتنا ودلائلنا البينة إلى فرعون وهو ملك مصر فى زمن موسى (وملائته) أى قومه (فظلموا بها) أى جحدوا وكفروا بها ظلما منهم وعنادا كقوله تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) أى الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله أى انظر يا محمد كيف فعلنا بهم وأغرقتهم عن آخرهم برأى من موسى وقومه وهذا أبلغ فى النكال بفرعون وقومه وأشنى لقلوب أولياء الله موسى وقومه من المؤمنين به

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يُفِرُّ فِرْعَوْنُ عَنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ * قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِثَبَاتٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون وإلجامة إياه بالحجة وإظهاره الآيات البينات بخضرة فرعون وقومه من قبط مصر فقال تعالى (وقال موسى بافرعون إني رسول من رب العالمين) أى أرسلنى الذى هو خالق كل شئ وربهم ومليكهم (حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق) فقال بعضهم معناه حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق أى جدير بذلك وحرى به قالوا والباء وعلى يتعاقبان يقال رميت بالقوس وعلى القوس وجاء على حال حسنة وبحال حسنة وقال بعض المفسرين معناه حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق وقرأ آخرون من أهل المدينة حقيق على بمعنى واجب وحق على ذلك أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه (قد جئتكم ببينة من ربكم) أى بحجة قاطعة من الله أعطانها دليلا على صدق فيما جئتكم به (فأرسل معى بنى إسرائيل) أى أطلقهم من أسرك وقهرك ودعهم لعبادة ربك وربهم

فأنهم من سلالة نبي كريم إسرائيل وهو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن (قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين) أى قال فرعون لست بمصدقك فيما قلت ولا بمطيعك فيما طلبت فان كانت معك حجة فأظهرها لنراها إن كنت صادقا فيما ادعيت

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴾

قال طي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (ثعبان مبين) الحية الله كرك وكذا قال السدى والضحاك وفي حديث الفتون من رواية يزيد بن هارون بن الأصم بن زيد عن القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال (فألقى عصاه) فتحولت حية عظيمة فاغرة فاهامسرة إلى فرعون فلما رآها فرعون أنها قاصدة إليه اقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل وقال قتادة تحولت حية عظيمة مثل المدينة وقال السدى في قوله (فإذا هي ثعبان مبين) الثعبان الله كرك من الحيات فأنحاة فاهامسرة لحيها الأسفل في الأرض والأعلى على سور القصر ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه فلما رآها ذعر منها ووثب وأحدث ولم يكن يحدث قبل ذلك وصاح يا موسى خذها وأنا أومن بك وأرسل معك بنى إسرائيل فأخذها موسى عليه السلام فعادت عصاه وروى عن عكرمة عن ابن عباس نحو هذا ، وقال وهب بن منبه لما دخل موسى على فرعون قال له فرعون أعرفك قال نعم قال (ألم نريك فينا وليدا) قال فرد إليه موسى الذى رد فقال فرعون خذوه فبادر موسى (فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين) فحملت على الناس فانهمزوا منها فأت منهم خمسة وعشرون ألفا قتل بعضهم بعضا وقام فرعون منهزما حتى دخل البيت رواه ابن جرير والإمام أحمد في كتابه الزهد وابن أبي حاتم وفيه غرابة في سياقه والله أعلم وقوله (ونزع يده فإذا هي بيضاء للنظرين) أى أخرج يده من درعه بعدما أدخلها فيه فإذا هي بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض كما قال تعالى (وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) الآية وقال ابن عباس في حديث الفتون: من غير سوء يعنى من غير برص ثم أعادها إلى كفه فعادت إلى لونها الأول وكذا قال مجاهد وغير واحد

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾

أى قال الملأ وهم والجمهور والسادة من قوم فرعون موافقين لقول فرعون فيه بعد ما رجع إليه روعه واستقر على سريره مملكته بعد ذلك قال للملأ حوله (إن هذا ساحر عليم) فوافقوه وقالوا كمقاتلته وتشاوروا في أمره كيف يصنعون في أمره وكيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره وإحماذ كلته وظهور كذبه وإفترائه وتخوفوا أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون فيكون ذلك سببا لظهوره عليهم وإخراجه إياهم من أرضهم والذى خافوا منه وقعوا فيه كما قال تعالى (ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) فلما تشاوروا في شأنه واتتمروا بما فيه اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ خَاشِعِينَ * يَأْتُواكَ بِكُلِّ سَحِيرٍ عَلِيمٍ ﴾

قال ابن عباس (أرجه) أخره وقال قتادة احبسه (وأرسل) أى ابعت (في المدائن) أى في الأقاليم ومدائن مملكتك (خاشعين) أى من يخشرك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم وقد كان السحر في زمانهم غالبا كثيرا ظاهرا واعتقد من اعتقد منهم وأوهم من أوهم منهم أن ما جاء موسى به عليه السلام من قبيل ما تشعبه سحرهم فلهمذا جمعوا السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال (أجتئنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتيك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى * قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشرن الناس ضحى * فتولى فرعون فججمع كيده ثم أتى) وقال تعالى ههنا

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى عليه السلام إن غلبوا موسى ليثيبنهم وليعطينهم عطاء جزيلا فوعدهم ومنهم أن يعطيهم ما أرادوا ويجعلهم من جلسائه والقريين عنده فلما توثقوا من فرعون لعنه الله

﴿ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَزَهَبُوهُمْ وَجَاءَهُ بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿

هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام في قولهم (إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ) أى قبلك كما قال في الآية الأخرى (وإِمَّا أَنْ نَكُونَ أُولَٰئِ الَّذِينَ أُلْقُوا) فقال لهم موسى عليه السلام ألقوا أى أتموا أولاء قبل الحكمة في هذا والله أعلم ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه فإذا فرغوا من بهرجهم ومعالهم جاءهم الحق الواضح الجلى بعد التطلب له والانتظار منهم لحيثه فيكون أوقع في النفوس وكذا كان ولهذا قال تعالى (فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَزَهَبُوهُمْ) أى خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال كما قال تعالى (فإذا جبالهم وعصيم يخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ فأوجس في نفسه خيفة موسى * قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألقى ما في يمينك تلقف ما صنعوا إن ما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) قال سفيان بن عيينة حدثنا أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس : ألقوا جبالا غلاظا وخشبًا طوالا قال فأقبلت يخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى وقال محمد بن إسحق صف خمسة عشر ألف ساحر مع كل ساحر جباله وعصيه وخرج موسى عليه السلام معه أخوه يشكى على عصاه حتى أتى الجمع وفرعون في مجلسه مع أشراف أهل مملكته ثم قال السحرة (يا موسى إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أُولَٰئِ الَّذِينَ أُلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا جبالهم وعصيم) فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصير موسى وبصر فرعون ثم أبصار الناس بعد ثم ألقى كل رجل منهم ما في يده من الجبال والعصى فإذا حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا وقال السدى كانوا بضعة وثلاثين ألف رجل ليس رجل منهم إلا ومعه جبل وعصا (فلما ألقوا سحروا أعيُن الناس واستزهبوهم) يقول فرعونهم أى من الفرق وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية عن هشام الدستوائى حدثنا القاسم بن أبي برة قال جمع فرعون سبعين ألف ساحر فألقوا سبعين ألف جبل وسبعين ألف عصا حتى جعل يخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى ولهذا قال تعالى (وجاءوا بسحر عظيم)

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ * فَغَلِبُوا هَٰؤُلَاءِ وَانْقَلَبُوا صَٰغِرِينَ ﴾ * وَأَلْقَىٰ السَّحَرَةُ سَجْدًا * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام في ذلك الموقف العظيم الذى فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل يأمره بأن يلقى ما في يمينه وهى عصاه (فإذا هى تلقف) أى تأكل (ما يافكون) أى ما يلقونه ويوهمون أنه حق وهو باطل قال ابن عباس فجعلت لأمر شئ من جبالهم ولا من خشبهم إلا التقمته فعرفت السحرة أن هذا شئ من السماء ليس هذا بسحر فخرجوا سجدا وقالوا (آمنا برب العالمين رب موسى وهرون) وقال محمد بن إسحق جعلت تتبع تلك الجبال والعصى واحدة واحدة حتى ما يرى بالوادى قليل ولا كثير مما ألقوا ثم أخذها موسى فإذا هى عصا في يده كما كانت ووقع السحرة سجدا قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون لو كان هذا ساحرا ما غلبنا وقال القاسم ابن أبي برة أوحى الله إليه أن ألقى عصاك فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين فاغرفاه يبتلع جبالهم وعصيم فألقى السحرة عند ذلك سجدا فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلها

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَاٰمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَكُرْهُ مَكْرُومُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴾

فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَا صَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * وَمَا نُنْقِصُ مِنْهَا إِلَّا أَنْ أَمَّانَا بِثَانِيَةِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٠٠﴾

يخبر تعالى عما توعده به فرعون لعنه الله السحرة لما آمنوا بموسى عليه السلام وما أظهره للناس من كيده ومكره في قوله (إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها) أى إن غلبته لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك كقوله في الآية الأخرى (إنه لسكريركم الذى علمكم السحر) وهو يعلم وكل من له لب أن هذا الذى قاله من أبطال الباطل فإن موسى عليه السلام بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاملته سلطنته فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر ممن اختار هو والملا من قومه وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل ولهذا قد كانوا من أحرص الناس على ذلك وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون . وموسى عليه السلام لا يعرف أحدا منهم ولا رآه ولا اجتمع به وفرعون يعلم ذلك وإنما قال هذا تسترا وتديسا على رعاى دولته وجهلهم كما قال تعالى (فاستخف قومه فأطاعوه) فإن قوما صدقوه في قوله (أناركم الأعلى) من أجهل خلق الله وأضلهم ، وقال السدى في تفسيره بإسناده الشهود عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة في قوله تعالى (إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة) قال التقى موسى عليه السلام وأمير السحرة فقال له موسى أرايتك إن غلبتك أتؤمن بى وتشهد أن ما جئت به حق قال الساحر لآتين غدا بسحر لا يغلبه سحر فأولاه لئن غلبتني لأؤمن بك ولأشهدن أنك حق وفرعون ينظر اليهما قالوا فلماذا قال ما قال ، وقوله (لتخرجوا منها أهلها) أى تجتمعوا أتم وهو تكون لكم دولة وصولة وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء وتكون الدولة والتصرف لكم (فسوف تعلمون) أى ما أصنع بكم ثم فسر هذا الوعيد بقوله (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلف) يعنى يقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس (ولأصلبكنم أجمعين) وقال في الآية الأخرى (في جذوع النخل) أى على الجذوع قال ابن عباس وكان أول من صلب وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف فرعون وقول السحرة (إننا إلى ربنا منقلبون) أى قد تحققنا أننا إليه راجعون وعذابه أشد من عذابك ونكاله على ما تدعوننا إليه اليوم وما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب الله ولهذا قالوا (ربنا أفرغ علينا صبرا) أى عمن بالصبر على دينك والثبات عليه (وتوفنا مسلمين) أى متابعين لنبيك موسى عليه السلام وقالوا لفرعون (فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا * إنا آمننا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى * إنه من يأت ربه محرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى * ومن يأت مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) فكانوا في أول النهار سحرة ، فصاروا في آخره شهداء برة ، قال ابن عباس وعبيد بن عمير وقتادة وابن جريج كانوا في أول النهار سحرة وفي آخره شهداء

﴿وَقَالَ السَّلَامُونَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقْلِبُ أَبْنَاءَهُمْ وَأَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالَ أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِنَا مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾

يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وملؤه وما أضمره لموسى عليه السلام وقومه من الأذى والبغضة (وقال

اللائ من قوم فرعون) أى لفرعون (أتذر موسى وقومه) أى أتدعهم ليفسدوا فى الأرض أى يفسدوا أهل رعيك ويدعهم إلى عبادة ربهم دونك يا الله العجب صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه ! ألا إن فرعون وقومه هم المفسدون ولكن لا يشعرون ولهذا قالوا (ويدرك وأهلك) قال بعضهم الواو هنا حالة أى أتذرهم وقومهم يفسدون فى الأرض وقد ترك عبادتك ؟ وقرأ ذلك أبى بن كعب وقد تركوك أن يبدوك وأهلك حكاه ابن جرير وقال آخرون هى حاطفة أى أتدعهم يفسدون من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى ترك أهلك وقرأ بعضهم إلهتك أى عبادتك وروى ذلك عن ابن عباس ومجاهد وغيره وعلى القراءة الأولى قال بعضهم كان لفرعون إله يعبده قال الحسن البصرى كان لفرعون إله يعبده فى السر وقال فى رواية أخرى كان له حنطة فى عنقه معلقة يسجد لها وقال السدى فى قوله تعالى (ويدرك وأهلك) وأهلكه فيما زعم ابن عباس كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها فلذلك أخرج لهم السامرى عجلا جسدا له خوار . فأجابهم فرعون فيما سألوه بقوله سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وهذا أمر ثان بهذا الصنيع وقد كان نكل بهم قبل ولادة موسى عليه السلام حذرا من وجوده فكان خلاف ما رامه وضد ما قصده فرعون . وهكذا عومل فى صنيعه أيضا لما أراد إذلال بنى إسرائيل وقهرهم فجاء الأمر على خلاف ما أراد : أعزم الله وأذله وأرغم أنه وأغرقه وجنوده . ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساء لبنى إسرائيل (قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا) ووعدهم بالعاقبة وأن النار ستصير لهم فى قوله (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) * قال أودينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) أى قد فعلوا بنا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى ومن بعد ذلك فقال منبها لهم على حالهم الحاضر وما يصيرون إليه فى ثانى الحال (عسى ربكم أن يهلك عدوكم) الآية وهذا تخصيص لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ * فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحُسْنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ إِلَّا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى (ولقد أخذنا آل فرعون) أى اختبرناهم وامتحانهم وابتليناهم (بالسنين) وهى سنين الجوع بسبب قلة الزروع (ونقص من الثمرات) قال مجاهد وهو دون ذلك وقال أبو إسحق عن رجاء بن حيوة كانت النخلة لا تحمل إلامرة واحدة (لعلهم يذكرون فإذا جاءتهم الحسنة) أى من الخصب والرزق (قالوا لنا هذه) أى هذا لنا بما نستحقه (وإن تصيبهم سيئة) أى جذب وقحط (يطيرون بموسى ومن معه) أى هذا بسببهم وما جاءوا به (ألا إنما طائرهم عند الله) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (ألا إنما طائرهم عند الله) يقول مصائبهم عند الله (ولكن أكثرهم لا يعلمون) وقال ابن جرير عن ابن عباس قال (ألا إنما طائرهم عند الله) أى من قبل الله

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ مُّتصِلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمُوسَىٰ أَدْعُ رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِلِقَاؤِهِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴾

هذا إخبار من الله عز وجل عن تمرد قوم فرعون وعتوهم وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل فى قولهم (مهما

تأثنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) يقولون أى آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها رددناها فلا تقبلها منك ولا تؤمن بك ولا بما جئت به قال الله تعالى (فأرسلنا عليهم الطوفان) اختلفوا في معناه فعن ابن عباس في رواية كثرة الأمطار المفرقة التلفة للزروع والثمار وبه قال الضحاك بن مزاحم ، وعن ابن عباس في رواية أخرى هو كثرة الموت وكذا قال عطاء ، وقال مجاهد الطوفان : الماء والطاعون على كل حال ، وقال ابن جرير حدثنا ابن هشام الرفاعي حدثنا يحيى بن يمان حدثنا المنهال بن خليفة عن الحجاج عن الحكم بن ميناء عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « الطوفان الموت » وكذا رواه ابن مردويه من حديث يحيى بن يمان به وهو حديث غريب وقال ابن عباس في رواية أخرى هو أمر من الله طاف بهم ثم قرأ (فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون) وأما الجراد فمعروف مشهور وهو ما كول لما ثبت في الصحيحين عن أبي يعفور قال سألت عبد الله بن أبي أوفى عن الجراد فقال غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد ، وروى الشافعى وأحمد بن حنبل وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال « أحلت لنا ميتتان ودمان . الحوت والجراد والسكبد والطحال » ورواه أبو القاسم البغوى عن داود بن رشيد عن سويد بن عبد العزيز عن أبي تمام الأيلي عن زيد بن أسلم عن ابن عمر مرفوعا مثله ، وروى أبو داود عن محمد بن الفرغ عن محمد بن زبرقان الأهوازي عن سليمان التيمي عن أبي عثمان عن سلمان قال سئل رسول الله ﷺ عن الجراد فقال « أكثر جنود الله لا آكله ولا أحرمه » وإنما تركه عليه السلام لأنه كان يعافه كما عافت نفسه الشريفة أكل الضب وأذن فيه ، وقد روى الحافظ ابن عساكر في جزء جمعه في الجراد من حديث أبي سعيد الحسن بن علي العدوى حدثنا نصر بن يحيى بن سعيد حدثنا يحيى بن خاله عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ وسلم لا يأكل الجراد ولا السكوتين ولا الضب من غير أن يحرّمها أما الجراد فرجز وعذاب . وأما السكوتان فلقربهما من البول ، وأما الضب فقال « أتخوف أن يكون مسخا » ثم قال غريب لم أكتبه إلا من هذا الوجه وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشفيه ويحبّه فروى عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن عمر سئل عن الجراد فقال ليت أن عندنا منه قفعة أوقععتين نأكله ، وروى ابن ماجه حدثنا أحمد بن منيع عن سفيان بن عيينة عن أبي سعد سعيد بن المرزبان البقال سمع أنس بن مالك يقول كان أزواج النبي ﷺ يتهادين الجراد على الأطباق ، وقال أبو القاسم البغوى حدثنا داود بن رشيد حدثنا بقية بن الوليد عن يحيى بن يزيد القعني حدثني أبي عن صدى بن عجلان عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ « إن مريم بنت عمران عليها السلام سألت ربها عز وجل أن يطعمها لحما لادم له فأطعمها الجراد فقالت اللهم أعشّه بغير رضاع وتابع بينه بغير شياخ » وقال نعيم الشيع الصوت وقال أبو بكر بن أبي داود حدثنا أبو بقى هشام بن عبد الملك المزني حدثنا بقية بن الوليد حدثنا إسماعيل بن عياش عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي زهير النخيري قال : قال رسول الله ﷺ « لا تقتلوا الجراد فانه جند الله الأعظم » غريب جداً وقال ابن أبي نجیح عن مجاهد في قوله تعالى (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد) قال كانت تأكل مسامير أبوابهم وتدع الخشب ، وروى ابن عساكر من حديث علي بن زيد الخرائطي عن محمد بن كثير سمعت الأوزاعي يقول خرجت إلى الصحراء فإذا أنا برجل من جراد في السماء فإذا برجل راكب على جرادة منها وهو شاك في الحديد وكلا قال بيده هكذا مال الجراد مع يده وهو يقول الدنيا باطل باطل ما فيها الدنيا باطل باطل ما فيها ، وروى الحافظ أبو الفرغ اللعافى بن زكريا الحريرى حدثنا محمد بن الحسن بن زياد حدثنا أحمد بن عبد الرحيم أخبرنا وكيع عن الأعمش أنبأنا عامر قال سئل شريح القاضي عن الجراد فقال قبح الله الجرادة فيها خلقة سبعة جبابرة رأسها رأس فرس . وعنقها عنق ثور . وصدرها صدر أسد . وجناحها جناح نسر . ورجلاها رجل حمل . وذنبها ذنب حية . وبطنها بطن عقرب . وقدمنا عند قوله تعالى (أهلك لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة) حديث حماد بن سلمة عن أبي المهزم عن أبي هريرة قال قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حج أو عمرة فاستقبلنا رجل جراد فجعلنا نضربه بالصصى ونحن

محمرون فسألنا رسول الله ﷺ فقال « لا بأس بصيد البحر » وروى ابن ماجه عن هرون الحماني عن هشام بن القاسم عن زياد بن عبد الله بن علانة وعن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أنس وجابر عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا دعا على الجراد قال « اللهم أهلك كبارهم واقتل صغارهم وأفسد بيضه واقطع دابره وخذ بأفواههم عن معايشنا وأرزاقنا إنك صميع الدعاء » فقال له جابر يا رسول الله أتمدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره ؟ فقال « إنما هو ثرة حوت في البحر » قال هشام أخبرني زياد أنه أخبره من رآه ينثره الحوت قال من حقق ذلك إن السمك إذا باض في ساحل البحر فنضب الماء عنه وبدا للشمس أنه يفسد كله جرادا طيارا . وقد معنا عند قوله (إلا أمم أمثالكم) حديث عمر رضي الله عنه ان الله خلق ألف أمة ستائة في البحر وأربعائة في البر وان أولها هلاك الجراد ، وقال أبو بكر بن أبي داود حدثنا يزيد بن المبارك حدثنا عبد الرحمن بن قيس حدثنا سلم بن سالم حدثنا أبو المغيرة الجوزجاني محمد بن مالك عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ « لا وباء مع السيف ولا لحاء مع الجراد » حديث غريب ، وأما القمل فعن ابن عباس هو السوس الذي يخرج من الحنطة وعنه أنه الدبا وهو الجراد الصغار الذي لأجنحة له وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة وعن الحسن وسعيد بن جبير القمل دواب سود صغار ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : القمل البراغيث ، وقال ابن جرير القمل جمع واحدتها قملة وهي دابة تشبه القمل تأكل الإبل فيما بلغني وهي التي عناها الأعشى بقوله :

قوم يعالج قملاً أنباؤهم * وسلاسل أجداً وباباً موصداً

قال وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة يزعم أن القمل عند العرب الجنان واحدتها جمنانة وهي صغار القردان فوق القممقامة . وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثنا ابن حميد الرازي حدثنا يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير قال : لما أتى موسى عليه السلام فرعون قال له : أرسل معي بني إسرائيل فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر فصب عليهم منه شيئا خافوا أن يكون عذابا فقالوا لموسى ادع لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل فأثبت لهم في تلك السنة شيئا لم ينبئه قبل ذلك من الزروع والثمار والكلأ فقالوا هذا ما كنا نتمنى فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلأ ، فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يبقى الزرع ، فقالوا يا موسى ادع لنا ربك فيكشف عنا الجراد فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعاه ربه فكشف عنهم الجراد فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل فداسوا وأحرزوا في البيوت فقالوا قد أحرزنا فأرسل الله عليهم القمل وهو السوس الذي يخرج منه فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحي فلا يرد منها إلا ثلاثة أفزة فقالوا يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا القمل فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع ثقيق ضفدع فقال لفرعون ما تلقى أنت وقومك من هذا فقال وما عسى أن يكون كيد هذا فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع في فيه ، فقالوا لموسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل (١) فلم يؤمنوا وأرسل الله عليهم الدم فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار وما كان في أوعيتهم وجسدهم دما عبيطا فشكوا إلى فرعون فقالوا إنا قد ابتلينا بالدم وليس لنا شراب فقال : إنه قد سحركم ، فقالوا من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئا من الماء إلا وجدناه دما عبيطا فأتوه وقالوا يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل ، وقد روى نحو هذا عن ابن عباس والسدي وقتادة وغير واحد من علماء السلف أنه أخبر بذلك ، وقال محمد بن إسحق بن يسار رحمه الله : فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوبا مغلوبا ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتحاكي في الشر فتابع الله عليه الآيات فأخذته بالسنين وأرسل عليه الطوفان ، ثم الجراد ، ثم القمل . ثم الضفادع ، ثم الدم ، آيات مفصلات ، فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض ، ثم ركذ لا يقدررون

(١) كذا في جميع النسخ ، ولعله سقط منه ، فدعا ربه فكشف عنهم الضفادع .

على أن يخرجوا ولا أن يعملوا شيئا حتى جهدوا جوعا فلما بلغهم ذلك (قالوا يا موسى ادع لنار بك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسل معك بنى إسرائيل) فدعا موسى ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر فيما بلغنى حتى إن كان لياكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم فقالوا مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم القمل فذكر لى أن موسى عليه السلام أمر أن يمشى إلى كتيب حتى يضربه بعصاه فمشى إلى كتيب أهيل عظيم فضربه بها فاشال عليهم قلا حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار ، فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم الضفادع فلاث البيوت والأطعمة والآنية فلا يكشف أحد ثوبا ولا طعاما إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه ، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا فسأل ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دما لا يستقون من بش ولا نهر ، ولا يغترفون من إناء إلا عاد دما عبيطا . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن منصور المروزي أنبأنا النضر أنبأنا إسرائيل أنبأنا جابر بن يزيد عن عكرمة عن عبيد الله بن عمرو قال : لا تقتلوا الضفادع فإنها لما أرسلت على قوم فرعون انطلق ضفدع منها فوقع في تنور فيه نار يطلب بذلك مرضاة الله فأبدطن الله من هذا أبرد شيء يعلمه من الماء وجعل تقيقهن التسبيح ، وروى من طريق عكرمة عن ابن عباس نحوه ، وقال زيد بن أسلم : يعنى بالدم الرعاف . رواه ابن أبي حاتم

﴿ فَأَنفَقْنَا مِنْهُمْ غَيْرَ فَنَهُم فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة اتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم وهو البحر الذي فرقه لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه ، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها ، وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون وهم بنو إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها كما قال تعالى (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وقال تعالى (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكين * كذلك وأورثناها قوما آخرين) وعن الحسن البصري وقناة في قوله (مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها) يعنى الشام ، وقوله (وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا) قال مجاهد وابن جرير وهى قوله تعالى (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وقوله (ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه) أى وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع (وما كانوا يعرشون) قال ابن عباس ومجاهد (يعرشون) يبنون :

﴿ وَجَوَّزْنَا لِيَبْنِيَ إِسْرَءِيلَ الْبَيْتَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُمْتَرِبُونَ مَا هُمْ فِيهِ وَبِطْلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عما قاله جهلة بنى إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه مارأوا (فأتوا) أى فروا (على قوم يعكفون على أصنام لهم) . قال بعض المفسرين كانوا من الكنعانيين وقيل كانوا من لحم

قال ابن جرير وكانوا يعبدون أصناما على صور البقر فلهمذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك فقالوا (يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم تجهلون) أى تجهلون عظمة الله وجلاله وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل (إن هؤلاء متبر ما هم فيه) أى هالك (وباطل ما كانوا يعملون) وروى الإمام أبو جعفر بن جرير في تفسير هذه الآية من حديث محمد بن إسحق وعقيل ومعمار كلهم عن الزهرى عن سنان بن أبى سنان عن أبى واقد الليثى أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين قال وكان للكفار سدرية يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط قال فمررنا بسدرية خضراء عظيمة قال قفلنا يا رسول الله : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال « قلتهم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى لموسى : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم تجهلون إن هؤلاء منبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون » وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن سنان بن أبى سنان الدبلى عن أبى واقد الليثى قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرية فقلت يا نبي الله : اجعل لنا هذه ذات أنواط كاللکفار ذات أنواط وكان الکفار ينوطون سلاحهم بسدرية ويعكفون حولها ، فقال النبي ﷺ « الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة إنكم تركبون سنان من قبلكم » أورده ابن جرير ورواه ابن أبى حاتم من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى عن أبيه عن جده مرفوعا

﴿ قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

يذكرهم موسى عليه السلام نعم الله عليهم من إنقاذهم من أسرفرعون وقهره وما كانوا فيه من الهوان والدلة وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه وغرقه ودماره وقد تقدم تفسيرها في البقرة

﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَرْنٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

يقول تعالى ممتنا على بنى إسرائيل بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى عليه السلام وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفصيل شرعهم فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة قال المفسرون فصامها موسى عليه السلام وطواها فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر أربعين وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي فالأكثر على أن الثلاثين هي ذو القعدة والعشر عشر ذى الحجة قاله مجاهد ومسروق وابن جريج وروى عن ابن عباس وغيره فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ كما قال تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) فلما تم الميقات وعزم موسى على الذهاب إلى الطور كما قال تعالى (يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم حانب الطور الأيمن) الآية فحينئذ استخلف موسى على بنى إسرائيل أخاه هارون ووصاه بالإصلاح وعدم الفساد. وهذا تنبيه وتذكير وإلا فهارون عليه السلام نبى شريف كريم على الله له وجهة وجلالة صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ

سُبْحَانَكَ تَبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام أنه لما جاء لميقات الله تعالى وحصل له التكلم من الله سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال (رب أرني أنظر إليك قال لن تراني) وقد أشكل حرف لن ههنا على كثير من العلماء لأنها موضوعة لنفي التأيد فاسندل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة وهذا أضعف الأقوال لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة كما سنوردها عند قوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) وقوله تعالى إخبارا عن الكفار (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) وقيل إنها لنفي التأيد في الدنيا جمعاً بين هذه الآية وبين الدليل القاطع على صحة الرؤية في الدار الآخرة وقيل إن هذا الكلام في هذا المقام كالشك في قوله تعالى (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) وقد تقدم ذلك في الأنعام وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام «يا موسى أنه لا يراني حتى إلا مات ولا يابس إلا تدهده» ولهذا قال تعالى (فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا) قال أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسير هذه الآية حدثنا أحمد بن سهيل الواسطي حدثنا قرة بن عيسى حدثنا الأعمش عن رجل عن أنس عن النبي ﷺ قال لما تجلّى ربه للجبل أشار بأصبعه فجعله دكا وأرانا أبو إسحاق باصبعه السبابة ، هذا الإسناد فيه رجل مبهم لم يسم ، ثم قال حدثني الثني حدثنا حجاج بن منهال حدثنا حماد عن ليث عن أنس أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية (فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكا) قال: هكذا بأصبعه ، ووضع النبي ﷺ أصبعه الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر ، فساخ الجبل هكذا وقع في هذه الرواية حماد بن سلمة عن ليث عن أنس والمشهور حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس كما قال ابن جرير حدثني الثني حدثنا هذبة بن خالد حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال قرأ رسول الله ﷺ (فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكا) قال: ووضع الإبهام قريباً من طرف خنصره ، قال: فساخ الجبل ، قال حميد لثابت يقول هكذا فرغ ثابت يده فضرب صدر حميد وقال يقول رسول الله ﷺ ويقول أنس وأنا أكنمه ؟ وهكذا رواه الإمام أحمد في مسنده حدثنا أبو الثني معاذ بن معاذ العنبري حدثنا حماد بن سلمة حدثنا ثابت البناني عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ في قوله (فلما تجلّى ربه للجبل) قال: قال: هكذا ، يعني أنه أخرج طرف الخنصر قال أحمد أرانا معاذ فقال له حميد الطويل ما تريد إلى هذا يا أبا محمد قال فضرب صدره ضربة شديدة وقال من أنت يا حميد وما أنت يا حميد حدثني به أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول ما تريد إليه ؟ وهكذا رواه الترمذي في تفسير هذه الآية عن عبد الوهاب بن الحكم الوراق عن معاذ بن معاذ به وعن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي عن سليمان بن حرب عن حماد بن سلمة به ثم قال هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث حماد وهكذا رواه الحاكم في مستدركه من طرق عن حماد بن سلمة به وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ورواه أبو محمد الحسن بن محمد بن علي الخلال عن محمد بن علي بن سويد عن أبي القاسم البغوي عن هذبة بن خالد عن حماد بن سلمة فذكره وقال هذا إسناد صحيح لا علة فيه ، وقد رواه داود بن المخبر عن شعبة عن ثابت عن أنس مرفوعاً وهذا ليس بشيء لأن داود بن المخبر كذاب رواه الحفاظ أبو القاسم الطبراني وأبو بكر بن مردويه من طريقين عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس مرفوعاً بنحوه وأسنده ابن مردويه من طريق ابن اليماني عن أبيه عن ابن عمر مرفوعاً ولا يصح أيضاً ، رواه الترمذي وصححه الحاكم وقال على شرط مسلم وقال السدي عن عكرمة عن ابن عباس في قول الله تعالى (فلما تجلّى ربه للجبل) قال ما تجلّى منه إلا قدر الخنصر (جعله دكا) قال ترابا (وخر موسى صعقا) قال معشياً عليه رواه ابن جرير وقال قتادة (وخر موسى صعقا) قال ميتاً وقال سفيان الثوري ساخ الجبل في الأرض حتى وقع في البحر فهو يذهب معه وقال سنيد عن حجاج بن محمد الأعور عن أبي بكر الهذلي (فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكا) انقعر فدخل تحت الأرض فلا يظهر إلى يوم القيامة وجاء في بعض الأخبار أنه ساخ في الأرض فهو يهوى فيها إلى يوم القيامة رواه ابن مردويه وقال ابن أبي حاتم حدثنا عمر بن شبة حدثنا محمد بن يحيى أبو غسان الكنانى حدثنا

عبد العزيز بن عمران عن معاوية بن عبد الله عن الجلد بن أيوب عن معاوية بن قررة عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال « لما تجلى الله للجبال طارت لعظمته ستة أجبل فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة بالمدينة أحد وورقان ورضوى ووقع بمكة حراء وثبير وثور » وهذا حديث غريب بل منكر وقال ابن أبي حاتم ذكر عن محمد بن عبد الله بن أبي البلج حدثنا الهيثم بن خارجة حدثنا عثمان بن حصين بن العلاف عن عروة بن رويم قال كانت الجبال قبل أن يتجلى الله لموسى على الطور صما ملساء فلما تجلى الله لموسى على الطور ذك وتفتطرت الجبال فصارت الشقوق والكهوف وقال الربيع بن أنس (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا) وذلك أن الجبل حين كشف الغطاء ورأى النور صار مثل دك من الدكاك وقال بعضهم جعله دكا أى فتنة وقال مجاهد في قوله (ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني) فإنه أكبر منك وأشد خلقا (فلما تجلى ربه للجبل جعله) فنظر إلى الجبل لايتالك وأقبل الجبل فدك على أوله ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقا وقال عكرمة جعله دكا قال نظر الله إلى الجبل فصار صحرأ ترابا وقد قرأ بهذا القراءة بعض القراء واختارها ابن جرير وقد ورد فيها حديث مرفوع رواه ابن مردويه والمعروف أن الصعق هو الغشى هاهنا كما فسره ابن عباس وغيره لا كما فسره قتادة بالموت وإن كان ذلك صحيحا في اللغة كقوله تعالى (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) فإن هناك قرينة تدل على الموت كما أن هنا قرينة تدل على الغشى وهي قوله (فلما أفاق) والافاقة لا تكون إلا عن غشى (قال سبحانه) تنزيها وتعظيما وإجلالا أن يراه أحد في الدنيا لإمات وقوله (ثبت إليك) قال مجاهد أن أسألك الرؤية (وأنا أول المؤمنين) قال ابن عباس ومجاهد من بنى إسرائيل واختاره ابن جرير وفي رواية أخرى عن ابن عباس (وأنا أول المؤمنين) أنه لا يراك أحد وكذا قال أبو العالية قد كان قبله مؤمنون ولكن يقول أنا أول من آمن بك انه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة وهذا قول حسن له ابنه وقد ذكر محمد بن جرير في تفسيره هاهنا أثرا طويلا فيه غرائب وعجائب عن محمد بن إسحق بن يسار وكأنه تلقاه من الإسرائيليات والله أعلم ، وقوله (وخر موسى صعقا) فيه أبو سعيد وأبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فأما حديث أبي سعيد فأسنده البخارى في صحيحه هاهنا فقال حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن عمرو بن يحيى المازنى عن أبيه عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال جاء رجل من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم قد لطم وجهه ، وقال يا محمد إن رجلا من أصحابك من الأنصار لطم وجهي قال « ادعوه » فدعوه قال « لم لطمت وجهه ؟ » قال يا رسول الله إنى مررت باليهودى فسمعتهم يقول والذى اصطفى موسى على البشر قال وعلى محمد ؟ قال فقلت وعلى محمد وأخذتني غصبة فلطمته فقال « لا تخبروني من بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور » وقد رواه البخارى في أما كن كثيرة من صحيحه ومسلم في أحاديث الأنبياء من صحيحه وأبو داود في كتاب السنة من سننه من طرق عن عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبي الحسن المازنى الأنصارى المدنى عن أبيه عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدرى به . وأما حديث أبي هريرة فقال الإمام أحمد في مسنده حدثنا أبو كامل حدثنا إبراهيم بن سعد حدثنا ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة رضى الله عنه قال استب رجلان من المسلمين ورجل من اليهود فقال المسلم والذى اصطفى محمداً على العالمين فقال اليهودى والذى اصطفى موسى على العالمين فغضب المسلم على اليهودى فلطمه فأبى اليهودى رسول الله ﷺ فسأله فأخبره فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعترف بذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تخبروني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا موسى ممسك بجانب العرش فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلى أم كان ممن استثنى الله عز وجل » أخرجاه في الصحيحين من حديث الزهرى به . وقد روى الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا رحمه الله أن الذى لطم اليهودى في هذه القضية هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه ولكن تقدم في الصحيحين أنه رجل من الأنصار وهذا هو أصح وأصرح والله أعلم والكلام في قوله عليه السلام « لا تخبروني على موسى » كالكلام على قوله « لا تفضلوني على الأنبياء ولا على

يونس بن متى « قيل من باب التواضع وقيل قبل أن يعلم بذلك ، وقيل نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضب والتعصب وقيل على وجه القول بمجرد الرأي والنشهى والله أعلم ، وقوله « فإن الناس يصعقون يوم القيامة » الظاهر أن هذا الصعق يكون في عرصات القيامة يحصل أمر يصعقون منه والله أعلم به وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء وتجلي لاخلائق الملك الديان كما صعق موسى من تجلى الرب تبارك وتعالى ولهذا قال عليه السلام « فلا أدري أفاق قبلي أم جوزى بصعقة الطور » وقد روى القاضى عياض في أوائل كتابه الشفاء بسنده عن محمد بن محمد ابن مرزوق حدثنا قتادة حدثنا الحسن عن قتادة عن يحيى بن وثاب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لما تجلى الله لموسى عليه السلام كان يبصر النملة على الصفا في الليلة الظلماء مسيرة عشرة فراسخ » ثم قال ولا يبعد على هذا أن يختص نبينا بما ذكرناه من هذا الباب بعد الإسراء والحظوة بما رأى من آيات ربه الكبرى انتهى ما قاله وكأنه صحح هذا الحديث وفي صحته نظر ولا تخلو رجال إسناده من مجاهيل لا يعرفون ومثل هذا إنما يقبل من رواية العدل الضابط عن مثله حتى ينتهى إلى منتهاه والله أعلم

﴿ قَالَ يَمُوسَى إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَأَمْرِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾

يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على أهل زمانه برسالاته تعالى وبكلامه ولا شك أن محمداً ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين ولهذا اختصه الله تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تستمر شريعته إلى قيام الساعة وتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم وبعده في الشرف والفضل إراهم الخليل عليه السلام ثم موسى بن عمران كلم الرحمن عليه السلام ولهذا قال الله تعالى له (فخذ ما آتيتك) أى من الكلام والمناجاة (وكن من الشاكرين) أى على ذلك ولا نطلب مالا طاقة لك به ثم أخبر تعالى أنه كتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء قيل كانت الألواح من جوهر وان الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكاماً مفصلة مبينة للحلال والحرام وكانت هذه الألواح مشتملة على الموراة التي قال الله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس) وقيل الألواح أعطاها موسى قبل التوراة فآله أعلم ، وعلى كل تقدير فكانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومنع منه والله أعلم (وقوله فخذها بقوة) أى بعزم على الطاعة (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) قال سفيان بن عيينة حدثنا أبو سعد عن عكرمة عن ابن عباس قال أمر موسى عليه السلام أن يأخذ بأشد ما أمر قومه وقوله (سأريكم دار الفاسقين) أى سترون عاقبة من خالف أمرى وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب ، قال ابن جرير وإنما قال (سأريكم دار الفاسقين) كما يقول القائل لمن يخاطبه سأريك غدا إلى ما يصير اليه حال من خالف أمرى على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره ، ثم نقل معنى ذلك عن مجاهد والحسن البصري وقيل معناه (سأريكم دار الفاسقين) أى من أهل الشام وأعطيكم إياها وقيل منازل قوم فرعون والأول أولى والله أعلم لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر وهو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التيه والله أعلم

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْعِثْرِ يُتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْمَلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) أى سأسمع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمى وشريعتى وأحكامى قلوب المتكبرين عن طاعتي ويتكبرون على الناس بغير حق أى كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل كما قال تعالى (وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) وقال تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) وقال بعض السلف لا ينال العلم حي ولا مستكبر وقال آخر من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبداً ، وقال سفيان بن عيينة في قوله (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) قال أنزع عنهم فهم القرآن وأصرفهم عن آياتي قال ابن جرير وهذا يدل على أن هذا خطاب لهذه الأمة . قلت ليس هذا بل لازم لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد في حق كل أمة ولا فرق بين أحد وأحد في هذا والله أعلم ، وقوله (وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) كما قال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) وقوله (وإن يروا سبيل الرش لا يتخذوه سبيلاً) أى وإن ظهر لهم سبيل الرشداً طريق النجاة لا يسلكوها وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله (ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا) أى كذبت بها قلوبهم (وكانوا غافلين) أى لا يعملون بما فيها . وقوله (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم) أى من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى المات حبط عملهم وقوله (هل يحزون إلا ما كانوا يعملون) أى إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها إن خيراً فخير وإن شراً فشر وكما تدن تدان .

﴿ وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ * وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري من حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم فشكل لهم منه عجلاً ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام فصار عجلاً جسداً له خوار والخوار صوت البقر وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى فأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة (قال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري) وقد اختلف المفسرون في هذا العجل هل صار لحماً ودماً له خوار أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبحر على قولين والله أعلم ويقال إنهم لما صوت لهم العجل رقصوا حوله وافتنوا به وقالوا هذا الحكم وإله موسى فنسى قال الله تعالى (أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعا) وقال في هذه الآية الكريمة (ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً) ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل وذهولهم عن خالق السموات والأرض ورب كل شيء ومليكه أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خوار لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير ولكن غطى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلال كما تقدم من رواية الإمام أحمد وأبي داود عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ « حبك الشيء يعمى ويصم » وقوله (ولما سقط في أيديهم) أى ندموا على ما فعلوا (ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا) وقرأ بعضهم لئن لم ترحمنا بالتاء المثناة من فوق ربنا منادى وتغفر لنا (لئكونن من الخاسرين) أى من المالكين وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبًا أَسْفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَا حَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِيْسَاقُ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّقُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ

الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١﴾
 يخبر تعالى أن موسى عليه السلام لما رجع إلى القومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف قال أبو الدرداء
 الأسف أشد الغضب (قال بشما خلفتموني من بعدى) يقول بش ما صنعتكم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتمكم،
 وقوله (أعجلتم أمر ربكم) يقول استعجلتم مجيئى اليكم وهو مقدر من الله تعالى وقوله (وألقى الألواح وأخذ برأس
 أخيه يجره إليه) قيل كانت الألواح من زمرد وقيل من ياقوت وقيل من بردوقيل من سدروفي هذا دلالة على مجاء في الحديث
 « ليس الخبر كالمعاينة » ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضبا على قومه وهذا قول جمهور العلماء سلفا وخلفا
 وروى ابن جرير عن قتادة في هذا قولاً غريباً لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة وقد رده ابن عطية وغير واحد من
 العلماء وهو جدير بالرد وكأنه تلقاه قتادة عن بعض أهل الكتاب وفيهم كذابون ووضاعون وأفاكون وزنادقة
 وقوله (وأخذ برأس أخيه يجره إليه) خوفاً أن يكون قد قصر في نهيمهم كما قال في الآية الأخرى (قال يا هارون ما منعك
 إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن أفصيت أمري * قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي * إني خشيت أن تقول فرقت
 بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى) وقال هاهنا (ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونى فلا تشمت بنى الأعداء
 ولا تجعلنى مع القوم الظالمين) أى لا تسقى مساقهم ولا تخلصهم معهم وإنما قال : ابن أم ليكون أرق وأنجع عنده وإلا
 فهو شقيقه لأبيه وأمه فلما تحقق موسى عليه السلام براءة هارون عليه السلام كما قال تعالى (ولقد قال لهم
 هارون من قبل يا قوم إنما فتنتهم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى) فعند ذلك (قال) موسى (رب اغفر لى
 ولإخى وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين) وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا عفان حدثنا
 أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « يرحم الله موسى ليس
 للمعين كالخبر أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح فلما رآهم ألقى الألواح »

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ *
 وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

أما الغضب الذى نال بنى إسرائيل في عبادة العجل فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضاً كما تقدم
 في سورة البقرة (فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم) وأما
 الذلة فأعقبهم ذلك دلاً وصغاراً في الحياة الدنيا وقوله (وكذلك نجزي المفتريين) نائلة لكل من افترى بدعة فإن ذل
 البدعة ومخالفة الرشاد متصلة من فله على كنفه كما قال الحسن البصري : إن ذل البدعة على أكنافهم وإن هملجت بهم
 البغلات وطقطقت بهم البراذين : وهكذا روى أيوب السخيتاني عن أبي قلابة الجرمي أنه قرأ هذه الآية (وكذلك
 نجزي المفتريين) فقال هى والله لكل مفتر إلى يوم القيامة وقال سفيان بن عيينة كل صاحب بدعة دليل ، ثم نبه تعالى
 عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أى ذنب كان حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق ولهذا عقب
 هذه القصة بقوله (والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك) أى يا محمد يا رسول التوبة ونبى الرحمة (من
 بعدها) أى من بعد تلك الفعلة (لغفور رحيم) . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا أبان حدثنا
 قتادة عن عذرة عن الحسن العرنى عن علقمة عن عبد الله بن مسعود أنه سئل عن ذلك يعنى عن الرجل يزنى بالمرأة ثم يتزوجها
 فتلا هذه الآية (والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) فتلاها عبد الله
 عشر مرات فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾

يقول تعالى (ولما سكنت) أي سكن (عن موسى الغضب) أي غضبه على قومه (أخذ الألواح) أي التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل غير الله وغضبا له (وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) يقول كثير من المفسرين إنها لما ألقاها تكسرت ثم جمعها بعد ذلك ولهذا قال بعض السلف فوجد فيها هدى ورحمة ، وأما التفصيل فذهب وزعموا إن رضاها لم يزل موجودا في خزائن الملوك من بني إسرائيل إلى الدولة الإسلامية والله أعلم بصحة هذا . وأما الدليل الواضح على أنها تكسرت حين ألقاها وهي من جوهر الجنة فقد أخبر تعالى أنه لما أخذها بعد ما ألقاها وجد فيها (هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) ضمن الرهبة معنى الخضوع ولهذا عداها باللام ، وقال قتادة: في قوله تعالى (أخذ الألواح) قال رب اني أجد في الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فاجعلهم أمي قال تلك أمة أحمد . قال رب اني أجد في الألواح أمة هم الآخرون السابقون أي آخرون في الخلق سابقون في دخول الجنة رب اجعلهم أمي قال تلك أمة أحمد . قال رب اني أجد في الألواح أمة أنا جيلهم في صدورهم يقرؤونها وكان من قباهم يقرءون كتابهم نظرا حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئا ولم يعرفوه وإن الله أعطاهم من الحفظ شيئا لم يعطه أحدا من الأمم قال رب اجعلهم أمي قال تلك أمة أحمد . قال رب اني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ويقانون فصول الضلالة حتى يقانون الأعور الكذاب فاجعلهم أمي قال تلك أمة أحمد قال رب اني أجد في الألواح أمة صدقاني يا كلوها في بطونهم ويؤجرون عليها وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه بعث الله عليها نارا فأكلها وان ردت عليه فتأكلها السباع والطير وإن الله أخذ صدقاتهم من غنيمهم لفقرهم قال رب فاجعلهم أمي قال تلك أمة أحمد . قال رب اني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة رب اجعلهم أمي قال تلك أمة أحمد . قال رب اني أجد في الألواح أمة هم المشفعون والشفوع لهم فاجعلهم أمي قال تلك أمة أحمد . قال فإذ فذكر لنا أن نبي الله موسى عليه السلام نبذ الألواح وقال اللهم اجعلني من أمة أحمد .

﴿ وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ
وَأَيُّ أَتْمَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا أَفْنَتْكَ تَضَلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ
لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ۖ ۝ وَأَكْتُبُ لَنَا فِي هَذِهِ الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَىٰكَ ۝ ﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلا فاختار سبعين رجلا فبرزهم لبدعوا ربهم وكان فيما دعوا الله أن قالوا اللهم أعطنا ما لم تعطه أحدا قبلنا ولا تعطه أحدا بعدنا فكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة (قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي) الآية وقال السدي إن الله أمر موسى أن يأتيه في ثلاثين من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موعدا (واختار موسى قومه سبعين رجلا) على عينه ثم ذهب بهم ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان قالوا (لن نؤمن لك) يا موسى (حتى نرى الله جهرة) فانك قد كلمته فأرناه (فأخذتهم الصاعقة) فماتوا فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم (رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي) وقال محمد بن إسحق اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلا الخير فالخير وقال انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا واطهروا ثيابكم فخرج بهم إلى طور سيناء لمقات وقتله ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم فقال له السبعون فيما ذكر لي حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا معه للقاء ربهم موسى اطلب لنا نسمع كلام ربنا فقال أقبل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود النعام حتى نقشى الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا وكان موسى إذا كمل الله وقع على جبهة موسى نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه ف ضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا في النعام وقعوا سجودا فقسمهم وهو يكلم موسى يأمرهم وينهاهم ففعل ولا تفعل فلما فرغ إليه من أمره وانكشف عن موسى النعام فأقبل إليهم فقالوا يا موسى (لن نؤمن لك حتى

نرى الله جهره فأخذتهم الرجفة) وهى الصاعقة فالتقت أرواحهم فأتوا جميعا فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول (رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى) قد سفهوا ، أفتهلك من ورأى من بنى إسرائيل وقال سفيان الثوى حدثنى أبو إسحق عن عمارة بن عبيد السولى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال انطلق موسى وهارون وشبر وشبير فانطلقوا إلى سفح جبل فقام هارون على سرير فتوفاه الله عز وجل فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل قالوا له أين هارون قال توفاه الله عز وجل قالوا أنت قتلته حسدنا على خلقه ولينه أو كلمة نحوها قال فاخترأوا من شئهم قال فاخترأوا سبعين رجلا قال فذلك قوله تعالى (واخترأ موسى قومه سبعين رجلا) فلما اتهاوا إليه قالوا يا هارون من قتلك قال ما قتلنى أحد ولكن توفانى الله قالوا يا موسى لن نعصى بعد اليوم فأخذتهم الرجفة قال فجعل موسى عليه السلام يرجع يمينا وشمالا وقال يا رب (لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) قال فأحيام الله وجعلهم أنبياء كلهم هذا أثر غريب جدا وعمارة بن عبيد هذا لا أعرفه وقد رواء شعبة عن أبى إسحق عن رجل من بنى سلول عن على فذكره وقال ابن عباس وقتادة ومجاهد وابن جرير إنهم أخذتهم الرجفة لأنهم لم يزايلوا قومهم فى عبادتهم العجل ولا نهوهم ويتوجه هذا القول بقول موسى (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) وقوله (إنا هى إلا فتنتك) أى ابتلاؤك واختبارك وامتحانك قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وأبو العالية والريبع بن أنس وغير واحد من علماء السلف والخلف ولا معنى له غير ذلك يقول ان الأمر إلا أمرك وإن الحكم إلا لك فما شئت كان . تضل من تشاء وتهدى من تشاء ولا هادى لمن أضللت ولا مضل لمن هديت ولا معطى لمن منعت ولا مانع لما أعطيت فالملك كله لك والحكم كله لك ، لك الخلق والأمر وقوله (أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين) الغفر هو الستر وترك المؤاخذة بالذنب والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها أن لا يوقمه فى مثله فى المستقبل (وأنت خير الغافرين) أى لا يغفر الذنب إلا أنت (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة) الفصل الأول من الدعاء لدفع المحذور وهذا لتحصيل المقصود (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة) أى أوجب لنا وأثبت لنا فيها حسنة وقد تقدم تفسير الحسنة فى سورة البقرة (إنا هدانا إليك) أى تبنا ورجعنا وأنبنا إليك قاله ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وأبو العالية والضحاك وإبراهيم التيمى والسدى وقتادة وغير واحد وهو كذلك لغة ، وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبى عن شريك عن جابر عن عبد الله بن يحيى عن على قال إنما سميت اليهود لأنهم قالوا (إنا هدانا إليك) جابر هو ابن يزيد الجعفى ضعيف

﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى مجيبا لنفسه فى قوله (إن هى إلا فتنتك) الآية قال (عذابى أصيب به من أشاء وأشار ورحمتى وسعت كل شىء) أى أفعل ما أشاء وأحكم ما أريدولى الحكمة والعدل فى كل ذلك سبحانه لا إله إلا هو ، وقوله تعالى (ورحمتى وسعت كل شىء) آية عظيمة الشمول والعموم كقوله تعالى إخبارا عن حملة العرش ومن حوله انهم يقولون (ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلم) . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا أبى حدثنا الجريرى عن أبى عبد الله الجشمى حدثنا جندب هو ابن عبد الله البجلي رضى الله عنه قال جاء أعرابى فأناخ راحلته ثم علقها ثم صلى خلف رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقلاها ثم ركبها ثم نادى اللهم ارحمنى ومحمد ولا تشرك فى رحمتنا أحدا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتقولون هذا أضل أم بعيره أم تسمعون ما قال ؟ » قالوا بلى قال « لقد حظرت رحمة واسعة ان الله عز وجل خلق مائة رحمة فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جنبها وانسها وبها تمها وأخر عنده تسعا وتسعين رحمة أتقولون هو أضل أم بعيره ؟ » رواء أحمد وأبو داود عن على بن نصر عن عبد الصمد بن عبد الوارث

به ، وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا يحيى بن سعيد عن سليمان عن أبي عثمان عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن لله عز وجل مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش على أولادها وآخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة » تفرد بإخراجه مسلم فرواه من حديث سليمان هو ابن طرخان وداود بن أبي هند كلاهما عن أبي عثمان واسمه عبد الرحمن بن مل عن سلمان هو الفارسي عن النبي ﷺ به ، وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد عن عاصم بن بهدلة عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن لله مائة رحمة عنده تسعة وتسعون وجعل عندكم واحدة تتراحمون بها بين الجن والإنس وبين الخلق فإذا كان يوم القيامة ضمها إليه » تفرد به أحمد من هذا الوجه وقال أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الواحد حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « لله مائة رحمة فقسم منها جزءاً واحداً بين الخلق به يتراحم الناس والوحش والطيور » ورواه ابن ماجه من حديث أبي معاوية عن الأعمش به ، وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا أحمد بن بونس حدثنا سعد أبو غيلان الشيباني عن حماد بن أبي سليمان عن إبراهيم عن صلة بن زفر عن حذيفة بن الجبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « والذي نفسي بيده ليدخلن الجنة الفاجر في دينه الأحق في معيشه والذي نفسي بيده ليدخلن الجنة الذي قد محشته النار بذنبه والذي نفسي بيده ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة يتناول لها إبليس رجاء أن تصيبه » هذا حديث غريب جداً وسعد هذا لا أعرفه ، وقوله (فسأكتبها للذين يتقون) الآية يعنى فسأوجب حصول رحمتي مئة مئة وإحساناً إليهم كما قال تعالى (كتب ربكم على نفسه الرحمة) وقوله (للذين يتقون) أى سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم (الذين يتقون) أى الشرك والعظائم من الذنوب قوله (ويؤتون الزكاة) قيل زكاة النفوس وقيل الأموال ويحتمل أن تكون عامة لهما فإن الآية مكية (والذين هم بآياتنا يؤمنون) أى يصدقون

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

(الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل) وهذه صفة محمد صلى الله عليه وسلم في كتب الأنبياء بشروا أمهم بيعته وأمرهم بمتابعته ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماءهم وأخبارهم . كما روى الإمام أحمد حدثنا إسماعيل عن الجريري عن أبي صخر العقيلي حدثني رجل من الأعراب . قال جلبت حلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ فلما فرغت من بيعي قلت لألقين هذا الرجل فلا تسمع منه قال فلتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون فتبعهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرأها يعزى بها نفسه عن ابن له في الموت كأجل الفتيان وأحسنها فقال رسول الله ﷺ « أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي » فقال برأسه هكذا أى لا فقال ابنه أى والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله فقال « أقيموا اليهودى عن أخيك » ثم تولى كفه والعلاة عليه هذا حديث جيد قوى له شاهد في الصحيح عن أنس ، وقال الحاكم صاحب المستدرک أخبرنا محمد بن عبد الله ابن إسحق البغوي حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدي حدثنا عبد العزيز بن مسلم بن إدريس حدثنا عبد الله بن إدريس عن شريح بن مسلم عن أبي أمامة الباهلي عن هشام بن العاصم الأموي قال بعثت أنا ورجل آخر إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام فخرجنا حتى قدمنا القوطة يعنى عوطة دمشق فنزلنا على جبلة بن الأيهم الغساني فدخلنا عليه فإذا هو على سرير له فأرسل إلينا برسوله نكلمه فقلنا والله لا نكلم رسولا وإنما بعثنا إلى الملك فإن أذن لنا نكلمناه وإلا لم

نكلم الرسول فرجع اليه الرسول فأخبره بذلك قال فأذن لنا فقال تكلموا فكلهم هشام بن العاص ودعاه إلى الإسلام فاذا عليه ثياب سود فقال له هشام وما هذه التي عليك ؟ فقال لبستها وحلفت أن لا أنزعها حتى أخرجكم من الشام قلنا ومجاسك هذا والله لناخذنه منك ولناخذن ملك الملك الأعظم إن شاء الله أخبرنا بذلك نبينا محمد ﷺ قال : لستم بهم بل هم قوم يصومون بالنهار ويقومون بالليل فكيف صومكم ؟ فأخبرناه فلي وجهه سوادا فقال قوموا وبعث معنا رسولا إلى الملك فخرجنا حتى إذا كنا قريبا من المدينة قال لنا الذي معنا إن دوابكم هذه لا تدخل مدينة الملك فإن شئتم حملناكم على براذين وبغال قلنا والله لا ندخل إلا عليها فأرسلوا إلى الملك أنهم يأبون ذلك فأمرهم أن ندخل على رواحنا فدخلنا عليها متقلدين سيوفنا حتى انتهينا إلى غرفة له فأنخنا في أصلها وهو ينظر إلينا فقلنا لا إله إلا الله والله أكبر فإله يعلم لقد انتفضت الغرفة حتى صارت كأنها عذق تصفقه الرياح . قال فأرسل إلينا ليس لكم أن تجهروا علينا بدينكم وأرسل إلينا أن ادخلوا فدخلنا عليه وهو على فراشه وعنده بطارقة من الروم وكل شيء في مجلسه أحمر وما حوله حمرة وعليه ثياب من الحمرة فسدنونا منه فضحك فقال ما عليكم لوجئتموني بتحيتكم فيما بينكم ؟ وإذا عنده رجل فصيح بالعربية كثير الكلام قلنا ان تحيتنا فيما بيننا لا تحل لك تحيتك التي تحيا بها لا يحل لنا أن نخيك بها قال كيف نخيتكم فيما بينكم ؟ قلنا السلام عليك قال فكيف تحيون ملككم ؟ قلنا بها قال فكيف يرد عليكم ؟ قلنا بها ، قال فما أعظم كلامكم قلنا لا إله إلا الله والله أكبر فلما تكلمنا بها والله يعلم لقد انتفضت الغرفة حتى رفع رأسه لها قال فهذه الكلمة التي قلموها حيث انتفضت الغرفة كلما قلموها في بيوتكم انتفضت عليكم غرفكم فلما لا ، ما رأيناها فعات هذا قط إلا عندك قال لوددت أنكم كلما قلمتم انتفض كل شيء عليكم وإني قد خرجت من نصف ملكي قلنا لم ؟ قال لأنه كان أيسر لشأنها وأجدر أن لا تكون من أمر النبوة وأنها تكون من حيل الناس ، ثم سألنا عما أراد فأخبرناه ثم قال كيف صلاتكم وصومكم فأخبرناه فقال قوموا فأمر لنا بمنزل حسن ونزل كثير فأقننا ثلاثا فأرسل إلينا ليلا فدخلنا عليه فاستعاد قولنا فأعدناه ثم دعا بشيء كهيئة الربة العظيمة مذهبة فيها بيوت صغار عليها أبواب ففتح بيوتا وقلنا فاستخرج حريرة سوداء فنشرناها فاذا فيها صورة حمراء وإذا فيها رجل ضخم العينين عظيم الألتين لم أر مثل طول عنقه وإذا ليست له لحية وإذا له ضفيران أحسن ما خلق الله فقال أتعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا آدم عليه السلام وإذا هو أكثر الناس شعرا ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة سوداء وإذا فيها صورة بيضاء وإذا له شعر كشعر القطط أحمر العينين ضخم الهامة حسن اللحية فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا نوح عليه السلام ، ثم فتح بابا آخر فاستخرج حريرة سوداء وإذا فيها رجل شديد البياض حسن العينين صلت الجبين طويل الخد أبيض اللحية كأنه يتسم فقال هل تعرفون هذا قلنا لا قال هذا إبراهيم عليه السلام ثم فتح بابا آخر فاذا فيه صورة بيضاء وإذا والله رسول الله ﷺ فقال أتعرفون هذا ؟ قلنا نعم هذا محمد رسول الله ﷺ قال وبكينا قال والله يعلم أنه قام قائما ثم جلس وقال والله إنه لم هو قلنا نعم إنه لم هو كأنك ننظر إليه فأمسك ساعة ينظر إليها ثم قال أما إنه كان آخر البيوت ولكني عجلته لكم لأنظر ما عندكم ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فاذا فيها صورة أدماء سحاء وإذا رجل جعد قطط غائر العينين حديد النظر عابس متراكب الأسنان متقلص الشفة كأنه غضبان فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا موسى عليه السلام وإلى جنبه صورة تشبه إلا أنه مدهان الرأس عريض الجبين في عينيه قبل فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا هرون بن عمران عليه السلام ، ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فاذا فيها صورة رجل آدم سبط ربة كأنه غضبان فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا لوط عليه السلام ، ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فاذا فيها صورة رجل أبيض مشرب حمرة أفتى خفيف العارضين حسن الوجه فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا إسحق عليه السلام ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فاذا فيها صورة تشبه إسحق إلا أنه على شفته خال فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا يعقوب عليه السلام ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فيها صورة رجل أبيض حسن الوجه أفتى الأنف حسن القامة يعلو وجهه نور يعرف في وجهه الخشوع يضرب إلى الحمرة قال هل تعرفون هذا ؟

وسلم في الكتب المتقدمة وهكذا كانت حاله عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر كما قال عبد الله بن مسعود إذا سمعت الله يقول (يا أيها الذين آمنوا) فأرعبها سمعتك فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه ، ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له والنهي عن عبادة من سواه كما أرسل به جميع الرسل قبله كما قال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال الإمام أحمد حدثنا أبو عمار هو العقدي عبد الملك بن عمرو حدثنا سليمان هو ابن بلال عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن عبد الملك بن سعيد عن أبي حميد وأبي أسيد رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه » رواه الإمام أحمد رضي الله عنه بإسناد جيد ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب ، وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البخترى عن علي رضي الله عنه قال إذا سمعتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا فظنوا به الذي هو أهدى والذي هو أهنى والذي هو أتقى ثم رواه عن يحيى عن ابن سعيد عن مسعر عن عمرو بن مرة عن أبي البخترى عن أبي عبد الرحمن عن علي رضي الله عنه قال إذا حدثتم عن رسول الله ﷺ حديثا فظنوا به الذي هو أهدأ وأهنا وأتقاء ، وقوله (ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) أى يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوسائل والحام ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم ويحرم عليهم الخبائث قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المأكول التي حرمها الله تعالى . قال بعض العلماء فكل ما أحل الله تعالى من المأكول فهو طيب نافع في البدن والدين وكل ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتقبيح العقلين وأجيب عن ذلك بما لا يتسع هذا الموضوع له وكذا احتج بها من ذهب من العلماء إلا أن المرجع في حل المأكول التي لم ينص على تحليلها ولا تحريمها إلى ما استطابته العرب في حال رفايتها وكذا في جانب التحريم إلى ما استخبثته وفيه كلام طويل أيضا ، وقوله (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم) أى أنه جاء بالتيسير والسباحة كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « بعثت بالحنيفية السمحة » وقال ﷺ لأمريره معاذ وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن « بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تسفرا وتطاولا ولا تختفلا » وقال صاحبه أبو برزة الأسلمي إني صحبت رسول الله ﷺ وشهدت تيسيره وقد كانت الأمم الدين قبلنا في شرائهم ضيق عليهم فوسع الله على هذه الأمة أمورها وسهلها لهم ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل » وقال « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ولهذا قال أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا نمثلنا ملاطاة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) وثبت في صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه قد فعلت قد فعلت ، وقوله (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه) أى عظموه ووقروه ، وقوله (واتبعوا النور الذي أنزل معه) أى القرآن والوحي الذي جاء به مبلغا إلى الناس (أولئك هم المفلحون) أى في الدنيا والآخرة

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ (قل) يا أيها الناس (وهذا خطاب للأحرار والأسود والعربى والعجمي) (إني رسول الله إليكم جميعا) أى جميعكم وهذا من شرفه وعظمته صلى الله عليه وسلم أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث إلى الناس كافة كما قال الله تعالى (قل الله شهيد بنى وبينكم وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) وقال

معالي (ومن يكفر به الأحزاب فالنار موعده) وقال تعالى (وقل للذين أوتوا الكتاب والأمةين أسلمتم؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ) والآيات في هذا كثيرة كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى الناس كلهم قال البخاري رحمه الله في تفسير هذه الآية حدثنا عبد الله حدثنا سليمان بن عبد الرحمن وموسى بن هارون قالا حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا عبد الله بن العلاء بن زيد حدثني بسر بن عبد الله حدثني أبو إدريس الخولاني قال سمعت أبا الدرداء رضي الله عنه يقول: كانت بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما محاورة فأغضب أبو بكر عمر فانصرف عنه عمر مغضبا فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له فلم يفعل حتى أغلق بابيه في وجهه فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال أبو الدرداء ونحن عنده فقال رسول الله ﷺ «أما صاحبكم هذا فقد غامر» أي غاضب وحاقد قال وندم عمر على ما كان منه فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقص على رسول الله ﷺ الخبر قال أبو الدرداء فعضب رسول الله ﷺ وحمل أبو بكر يقول والله يا رسول الله لأننا كنت أظلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «هل أتم تاركوا لي صاحبي؟ إني قلت يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت» انفرد به البخاري وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا يزيد بن أبي زياد عن مقسم عن ابن عباس مرفوعا أن رسول الله ﷺ قال «أعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبلي ولا أقوله فخرا بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود ونصرت بالرعب مسيرة شهر وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا وأعطيت الشفاعة فأخترتها لأمتي يوم القيامة فهي لمن لا يشرك بالله شيئا» إسناده جيد ولم يخرجوه وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا بكر بن مضر عن أبي الهاد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك قام من الليل يصلي فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم «لقد أعطيت الليلة خمسا ما أعطيتن أحد قبلي أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة وكان من قبلي إنما يرسل إلى قومه ونصرت على العدو بالرعب ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لم يأتني رعبا وأحلت لي الغنائم أكلها وكان من قبلي يعظمون أكلها كانوا يخرجونها وجعلت الأرض مسجدا وطهورا أينما أدركتني الصلاة تمسحت وعليت وكان من قبلي يعظمون ذلك إنما كانوا يصاون في بيعهم وكنائسهم والخامسة هي ما هي قيل لي سل فإن كل نبي قد سأل فأخترت مسألتني إلى يوم القيامة فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله» إسناده جيد قوى أيضا ولم يخرجوه، وقال أيضا حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «من سمع بي من أمتي يهودي أو نصراني فلم يؤمن بي لم يدخل الجنة» وهذا الحديث في صحيح مسلم من وجه آخر عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ «والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار» وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لميعة حدثنا أبو يونس وهو سليم بن جبير عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» تفرد به أحمد وقال الإمام أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا إسرائيل عن أبي إسحق عن أبي بردة عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أعطيت خمسا بعثت إلى الأحمر والأسود وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا وأحلت لي الغنائم ولم تحل لمن كان قبلي ونصرت بالرعب مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة وليس من نبي إلا وقد سأل الشفاعة وإني قد اخبأت شفاعة ثم جعلتها لمن مات من أمتي لم يشرك بالله شيئا» وهذا أيضا إسناده صحيح ولم أرهم خروجوه والله أعلم وله مثله من حديث ابن عمر بسند جيد أيضا وهذا الحديث ثابت في الصحيحين أيضا من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا فأما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة

وكان النبي يبعث إلى قومه وبعث إلى الناس عامة « وقوله (الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت) صفة الله تعالى في قول رسول الله ﷺ أي الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربّه ومليكه الذي بيده الملك والاحياء والاماتة وله الحكم » وقوله (فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي) أخبرهم أنه رسول الله إليهم ثم أمرهم باتباعه والإيمان به (النبي الأمي) أي الذي وعدتم به وبشركم به في الكتب المتقدمة فانه منعوت بذلك في كتبهم ولهذا قال النبي الأمي وقوله (الذي يؤمن بالله وكلماته) أي يصدق قوله عمله وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه (واتبعوه) أي اسلكوا طريقه واقتفوا أثره (لعلكم تهتدون) أي إلى الصراط المستقيم

﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن بني إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به كما قال تعالى (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) وقال تعالى (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب) وقال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا تلى عليهم فآلوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) الآية وقال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به) الآية وقال تعالى (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا تلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان ليكون يزيدهم خشوعا) وقد ذكر ابن جرير في تفسيرها خبرا عجيبا فقال حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا حجاج عن ابن جريج قوله (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) قال بلغني أن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطا تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله عز وجل أن يفرق بينهم وبينهم ففتح الله لهم نفقا في الأرض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين فهم هنالك حنفاء مسلمين يستقبلون قبلتنا قال ابن جريج قال ابن عباس فذلك قوله (وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم ليفضا) ووعد الآخرة عيسى بن مريم قال ابن جريج قال ابن عباس ساروا في السرب سنة ونصفا وقال ابن عيينة عن صدقة أبي الهذيل عن السدي (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) قال قوم بينكم وبينهم نهر من شهد

﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ أَثَدَتِي عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَثَدَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَّ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَفِّرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾

تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة وهي مدنية وهذا السياق مكى ونهنا على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن إعادته هنا والله الحمد والمنة

﴿ وَسُئِلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

هذا السياق هو بسط لقوله تعالى (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت) الآية يقول تعالى لئيبه صلوات الله

وسلامه عليه (واسألهم) أى واسأل عن هؤلاء اليهود الذين محضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ففاجأهم بقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتياهم في المخالفة وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي يحدونها في كتبهم لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلمهم وهذه القرية هي أيلة وهي على شاطئ بحر القلزم قال محمد بن إسحق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر) قال هي قرية يقال لها أيلة بين مدين والطور وكذا قال عكرمة ومجاهد وقتادة والسدي وقال عبد الله بن كثير القاري سمعنا أنها أيلة وقيل هي مدين وهو رواية عن ابن عباس وقال ابن زيد هي قرية يقال لها معتا بين مدين وعينونا وقوله (إذ يمدون في السبت) أى يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذلك (إذ تأتهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا) قال الضحاك عن ابن عباس أى ظاهرة على الماء وقال العوفي عن ابن عباس ظاهرة من كل مكان قال ابن جرير وقوله (ويوم لا يستنون لا تأتهم كذلك نبلوهم) أى نخبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده واخفائها عنهم في اليوم الحلال لهم صيده (كذلك نبلوهم) نخبرهم (بما كانوا يفسقون) يقول بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها وهؤلاء قوم اختلفوا على انهم محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطى الحرام وقد قال الفقيه الإمام أبو عبد الله ابن بطه رحمه الله: حدثنا أحمد بن محمد بن سلم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني حدثنا يزيد بن هرون حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «لأنركبوا ما إنركبتم اليهود فتستحلوا محارم الله بأذى الحيل» وهذا إسناد جيد فإن أحمد بن محمد بن سلم هذا ذكره الخطيب في تاريخه ووثقه وباقي رجاله مشهورون ثقات ويصحح الترمذي بمثل هذا الاسناد كثيراً

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةَ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِزَابٍ يَبْسُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق فرقة ارتكبت المحذور واحتلوا على اصطيد السمك يوم السبت كما تقدم بيانه في سورة البقرة وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم وفرقة سكنت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرة (لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً) أى لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قدهلكوا واستحلوا العقوبة من الله فلا فائدة في نهيك إياهم ، قالت لهم المنكرة (معذرة إلى ربكم) قرأ بعضهم بالرفع كأنه على تقديره هذه معذرة وقرأ آخرون بالنصب أى نفعل ذلك (معذرة إلى ربكم) أى فيما أخذنا علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ولعلمهم يتقون) يقولون ولعل لهذا الانكار يتقون ما هم فيه ويتركونه ويرجعون إلى الله تائبين فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم قال تعالى (فلما نسوا ما ذكروا به) أى فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة (أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا) أى ارتكبوا المعصية (بعذاب بئس) فنص على نجات الناهين وهلاك الظالمين وسكت عن الساكتين لأن الجزاء من جنس العمل فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيماً فيعذبوا ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم هل كانوا من الهالكين أو من الناجين على قولين ، وقال علي بن أبي طاحه عن ابن عباس (وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً) هي قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة يقال لها أيلة فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم وكانت الحيتان تأتهم يوم سبتهم شرعا في ساحل البحر فإذا مضى يوم السبت لم يقصدوا عليها فحضى على ذلك ما شاء الله ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم فنهتهم طائفة وقالوا تأخذونها وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم ، فلم يزدادوا إلا غيا وعتوا وجعلت طائفة أخرى نههم فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النباهة تعلمون أن هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب (لم تعظون قوماً الله مهلكهم)

وكانوا أشد غضبا لله من الطائفة الأخرى فقالوا (معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون) وكل قد كانوا ينهون فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم والذين قالوا معذرة إلى ربكم وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة ، وروى العوفي عن ابن عباس قريبا من هذا ، وقال حماد بن زيد عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس في الآية قال ما أدري أنجأ الدين قالوا (لم تعظون قوما الله مهلكهم) أم لا ؟ قال فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا فكساني حلة ، وقال عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج حدثني رجل عن عكرمة قال جثث ابن عباس يوما وهو يبكي وإذا المصحف في حجره فأعظمت أن أدنومنه ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست فقلت ما يبكيك يا ابن عباس جعاني الله فذاك ؟ قال فقال هؤلاء الورقات قال وإذا هو في سورة الأعراف قال تعرف أيلة ؟ قلت نعم قال فإنه كان بها حتى من اليهود سيق الحيتان إليهم يوم السبت ثم غاصت لا يقصدون عليها حتى يغوصوا بعد كد ومؤنة شديدة كانت تأتيتهم يوم سبتهم شرعا بيضاء سمنا كأنها الماخض تنتطح ظهورها لبطونها بأفئيتهم فكانوا كذلك برهة من الدهر ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال إيمانهم عن أكلها يوم السبت فخذوها فيه واكلوها في غيره من الأيام فقالت ذلك طائفة منهم وقالت طائفة بل نهيتهم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت فكانوا كذلك حتى جاءت الجمعة المقبلة فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونساءها واعتزلت طائفة ذات اليمين وتحت واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكنت وقال الأيمنون ويلكم الله ، نهاكم أن تتعرضوا لعقوبة الله وقال الأيسرون (لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا) قال الأيمنون (معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون) أى يتقون ، إن يتقوا فهو أحب إلينا أن لا يصابوا ولا يهلكوا وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم فمضوا على الخطيئة وقال الأيمنون فقد فعلتم يا أعداء الله والله لنا تينكم الليلة في مدينتكم والله مانراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا فلم يجابوا فوضعوا سلما وأعلوا سور المدينة رجلا فالتفت إليهم فقال أى عباد الله قردة والله تعادى تعاوى لها أذنان قال ففتحوا فدخلوا عليهم فعرفت القروء أنسا بها من الإنس ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة فجعلت القروء يأتنها نسيها من الإنس فقتلن ثيابه وتبكي فيقول ألم تهكم عن كذا فتقول برأسها أى نعم ثم قرأ ابن عباس (فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس) قال فأرى الذين نهوا قد نجوا ولا أرى الآخرين ذكروا ، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها ، قال قلت جعلني الله فداك ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوه وقالوا (لم تعظون قوما الله مهلكهم) ؟ قال فأه رلى فكسيت ثوبين غليظين ، وكذا روى مجاهد عنه ، وقال ابن جرير حدثنا يونس أخبرنا أشهب بن عبد العزيز عن مالك قال قال زعم ابن رومان أن قوله تعالى (تأتيتهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبثون لا تأتيتهم) قال كانت تأتيتهم يوم السبت فإذا كان المساء ذهب فلا يرى منها شيء إلى يوم السبت الآخر فاتخذ لذلك رجل خيطا ووتدا فربط حوتا منها في الماء يوم السبت حتى إذا أمسوا ليلة الأحد أخذه فاشتواه فوجد الناس ريحه فأتوه فسألوه عن ذلك فوجدوه فلم يزالوا به حتى قال لهم فإنه جلد حوت وجدناه فلما كان السبت الآخر فعل مثل ذلك ولا أدري لعله قال ربط حوتين فلما أمسى من ليلة الأحد أخذه فاشتواه فوجدوا رائحة فجاءوا فسألوه فقال لهم لو شتمت صنعتم كما أصنع فقالوا له وما صنعت ؟ فأخبرهم ففعلوا مثل ما فعل حتى كثر ذلك وكانت لهم مدينة لها ربض يعلقونها عليهم فأصابهم من السخ ما أصابهم ففقدوا عليهم حيرانهم ممن كانوا حولهم يطلبون منهم ما يطلب الناس فوجدوا المدينة مغلقة عليهم فنادوا فلم يجيبوهم فتسوروا عليهم فإدامهم قردة فجعل القرود يدنو يتمسح بمن كان يعرف قبل ذلك ويدنومنه ويتمسح به ، وقد قدمنا في سورة البقرة من الآثار في خبر هذه القرية ما فيه مقنع وكفاية ولله الحمد والمنة (القول الثانى) ان الساكتين كانوا من الهالكين قال محمد بن إسحق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال ابتدعوا السبت فابتلوا فيه فحرمت عليهم فيه الحيتان فكانوا إذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر فإذا انقضى السبت ذهب فلم تر حتى السبت المقبل فإذا جاء السبت جاءت شرعا فكشوا ماشاء الله أن يمكنوا كذلك ثم إن رجلا منهم أخذ حوتا فخزم أنفه ثم

ضرب له وتدا في الساحل وربطه وتركه في الماء ، فلما كان الغد أخذته فشواه فأكله ففعل ذلك وهم ينظرون ولا ينكرون ولا ينهاه منهم أحد إلا عصبه منهم هوه حتى ظهر ذلك في الأسواق ففعل علانية قال فقالت طائفة للذين ينهونهم (لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم) فقالوا نسخط أعمالهم (ولعلمهم يتقون * فلما نسوا ما ذكروا به - إلى قوله - قردة خاسئين) قال ابن عباس كانوا أثلاثا ثلث نهوا وثلث قالوا (لم تعظون قوما الله مهلكهم) وثلث أصحاب الخطيئة فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم ، وهذا إسناد جيد عن ابن عباس ولكن رجوعه إلى قول عكرمة في نجاة الساكيتين أولى من القول بهذا لأنه تبين حالهم بعد ذلك والله أعلم ، وقوله تعالى (وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس) فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا وبئس فيه قراآت كثيرة ومعناه في قول مجاهد الشديد . وفي رواية أليم وقال قتادة موجه والكل متقارب والله أعلم ، وقوله (خاسئين) أي ذليلين حقيرين مهانين

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

(تأذن) تفعل من الأذان أى أعلم قاله مجاهد وقال غيره أمر ، وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة ، ولهذا أتبع باللام في قوله (ليعثن عليهم) أى على اليهود (إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) أى بسبب عصيانهم ومخالفتهم وأمر الله وشرعه واحتياهم على المحارم ، ويقال إن موسى عليه السلام ضرب عليهم الخراج سبع سنين وقيل ثلاث عشرة سنة وكان أول من ضرب الخراج ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشديانيين والكلدانيين ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم إياهم وأخذهم منهم الجزية والخراج ثم جاء الإسلام ومحمد صلى الله عليه وسلم فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الخراج والجزية : قال العوفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال هى المسكنة وأخذ الجزية منهم ، وقال على بن أبى طلحة عنه هى الجزية والذى يسومهم سوء العذاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمه إلى يوم القيامة ، وكذا قال سعيد بن جبير وابن جريج والسدى وقاتدة ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم الجزرى عن سعيد بن المسيب قال يستحب أن تبعث الأنباط في الجزية قلت : ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصارا للدجال فيقتلهم المسلمون مع عيسى بن مريم عليه السلام وذلك آخر الزمان وقوله (إن ربك لسريع العقاب) أى لمن عصاه وخالف شرعه (وإنه لغفور رحيم) أى لمن تاب إليه وأتاب وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة لئلا يحصل اليأس فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيرا لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف

﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمُ مِّثْلُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَىٰ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَنْتَقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾

يذكر تعالى أنه فرقهم في الأرض أمما أى طوائف وفرقا كما قال (وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض

فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيها) (منهم الصالحون ومنهم دون ذلك) أى فيهم الصالح وغير ذلك كقول الجن (وأنما الصالحون ومنادون ذلك كنا طرائق قددا) (وبلونا هم) أى اختبرناهم (بالحسنات والسيئات) أى بالرءاء والشدء والرغبة والرهبء والعافية والبلاء (لعلهم يرجعون) ثم قال تعالى (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى) الآية يقول تعالى فخلف من بعدهم خلف آخر لا خير فيهم وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة وقال مجاهد هم النصارى وقد يكون أعم من ذلك (يأخذون عرض هذا الأدنى) أى يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا ويسوفون أنفسهم ويعدونها بالتوبة وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه ، ولهذا قال (وإن يأثمهم عرض مثله يأخذوه) وكما قال سعيد بن جبير يعملون الذنب ثم يستغفرون الله منه ويعترفون لله فان عرض ذلك الذنب أخذوه وقال مجاهد فى قوله تعالى (يأخذون عرض هذا الأدنى) قال لا يشرف لهم شىء من الدنيا إلا أخذوه حالاً كان أو حراماً ويتمنون المغفرة (ويقولون سيغفر لنا وإن يأثمهم عرض مثله يأخذوه) وقال قنادة فى الآية إى والله لـلف سوء (ورثوا الكتاب) بعد أنبيائهم ورسلمهم أورثهم الله وعهد إليهم ، وقال الله تعالى فى آية أخرى (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة) الآية قال (يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا) تمنوا على الله أمانى وغرة يغترون بها (وإن يأثمهم عرض مثله يأخذوه) لا يشغلهم شىء عن شىء ولا ينههم شىء عن ذلك كلما هف لهم شىء من الدنيا أكلوه لا يبالون حالاً كان أو حراماً ؛ وقال السدى قوله (خلف من بعدهم خلف) إلى قوله (ودرسوا ما فيه) قال كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضياً إلا ارتضى فى الحكم وإن خيارهم اجتمعوا فأخذ بعضهم على بعض اليهود أن لا يفعلوا ولا يرتشوا فجعل الرجل منهم إذا استضى ارتضى فيقال له ما شأنك ترتضى فى الحكم ؟ فيقول سيغفرلى ، فتطعن عليه البقية الآخرون من بنى إسرائيل فيما صنع فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه فيرتضى ، يقول وإن يأت الآخريـن عرض الدنيا يأخذوه قال الله تعالى (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق) الآية يقول تعالى منكراً عليهم فى صنعهم هذا مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبين الحق للناس ولا يكتمونوه كقوله (وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون) وقال ابن جريج قال ابن عباس (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق) قال فيما يتمنون على الله من غفران ذنوبهم التى لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها ، وقوله تعالى والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون) يرغبهم فى جزيل ثوابه ويحذرهم من ويل عقابه أى وثوابى وما عندى خير لمن اتقى المحارم وترك هوى نفسه وأقبل على طاعة ربه (أفلا تعقلون) يقول أفلـيس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندى عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير ، ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذى يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ كما هو مكتوب فيه فقال تعالى (والذين يمسكون بالكتاب) أى اعتصموا به واقتدوا بأوامره ، وتركوا زواجه (وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين)

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله (وإذ نتقنا الجبل فوقهم) يقول رفعناه وهو قوله (ورفعنا فوقهم الطور) بميثاقهم وقال سفيان الثورى عن الأعمش عن سعيد بن جبـير عن ابن عباس رفعته الملائكة فوق رؤوسهم وهو قوله (ورفعنا فوقهم الطور) وقال القاسم بن أبى أيوب عن سعيد بن جبـير عن ابن عباس قال ثم سار بهم موسى عليه السلام إلى الأرض المقدسة وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب وأمرهم بالذى أمر الله أن يبلغهم من الوظائف فتقلت عليهم وأبوا أن يقرأوا بها حتى نتق الله الجبل فوقهم (كأنه ظلة) قال رفعته الملائكة فوق رؤوسهم رواء للنسأى بطوله. وقال سنيـد بن داود فى تفسيره عن حجاج بن محمد عن أبى بكر بن عبد الله قال هذا كتاب أتقبلونه بما فيه فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم وما أمركم وما نهاكم ؟ قالوا انشر علينا ما فيها فان كانت فرائضها وحدودها يسيرة قبلناها قال

أقبلوها بما فيها قالوا لا حتى نعلم ما فيها كيف حدودها وفرائضها فراجعوه مرارا فأوحى الله إلى الجبل فارتفع فارفع في السماء حتى إذا كان بين رءوسهم وبين السماء قال لهم موسى ألا ترون ما يقول ربى عز وجل لأن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل قال فحدثني الحسن البصرى قال لما نظروا إلى الجبل خر كل رجل ساجدا على حاجبيه الأيسر ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقا من أن يسقط عليه فكذلك ليس اليوم في الأرض يهودى يسجد إلا على حاجبيه الأيسر يقولون هذه السجدة التى رفعت بها العقوبة قال أبو بكر فلما نشر الألواح فيها كتاب الله كتبه بيده لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز فليس اليوم يهودى على وجه الأرض صغير ولا كبير تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونفض لها رأسه أى حول كما قال تعالى (فسينغضون إليك رءوسهم) والله أعلم

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نَقُصُّ الْأَيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكمهم وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجلبهم عليه قال تعالى (فأقم وجهك للدين خفيّاً فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة » وفى رواية « على هذه الملة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تولد بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله إني خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله حدثنا يونس ابن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرنى السرى بن يحيى أن الحسن بن أبى الحسن حدثهم عن الأسود بن سريع من بنى سعد قال غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع غزوات قال فتناول القوم الدرية بعد ما قتلوا المقاتلة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه ثم قال « ما بال أقوام يتناولون الدرية » فقال رجل يارسول الله أليسوا أبناء المشركين فقال « إن خياركم أبناء المشركين ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها فأبواها يهودانها وينصرانها » قال الحسن والله لقد قال الله فى كتابه (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) الآية ، وقدرناه الإمام أحمد عن إسماعيل بن علية عن يونس بن عبيد عن الحسن البصرى به ، وأخرجه النسائى فى سننه من حديث هشيم بن يونس بن عبيد عن الحسن قال حدثنى الأسود بن سريع فذكره ولم يذكر قول الحسن البصرى واستحضاره الآية عند ذلك ، وقد وردت أحاديث فى أخذ الدرية من صلب آدم عليه السلام وبميزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وفى بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم : قال الإمام أحمد حدثنا حجاج حدثنا شعبة عن أبى عمران الجونى عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرايت لو كان لك ما على الأرض من شئ أ كنت مقتديا به قال فيقول نعم فيقول قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بى » أخرجه فى الصحيحين من حديث شعبة به . (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا جرير يعنى ابن حازم عن كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلا قال (ألسنت بربكم قالوا بلى شهدنا أن أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا - إلى قوله - البطلون) وقد روى هذا الحديث النسائى فى كتاب التفسير من سننه عن محمد بن عبد الرحيم صاعقة عن حسين بن محمد المروزى به ورواه ابن جرير وابن أبى حاتم من

حديث حسين بن محمد به إلا أن ابن أبي حاتم جعله موقوفاً ، وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث حسين بن محمد وغيره عن جرير بن حازم عن كلثوم بن جبير به ، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبير هكذا قال وقد رواه عبد الوارث عن كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فوقفه ، وكذا رواه إسماعيل بن علقمة ووكيع عن ربيعة بن كلثوم عن جبير عن أبيه به ، وكذا رواه عطاء بن السائب وحبيب بن أبي ثابت وعلي بن بذيمة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وكذا رواه العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس فهذا أكثر وأثبت والله أعلم . وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبي عن أبي هلال عن أبي حمزة الضبيعي عن ابن عباس . قال أخرج الله ذرية آدم من ظهره كهيئة الدر وهو في أذى من الماء ، وقال أيضاً حدثنا علي بن سهل حدثنا ضمرة بن ربيعة حدثنا أبو مسعود عن جرير قال مات ابن للضحك بن مزاحم ابن ستة أيام قال : فقال يا جابر إذا أنت وضعت ابني في لحد فبرز وجهه وحل عنه عقده فان ابني مجلس ومستول ففعلت به الذي أمر فلما فرغت قلت يرحمك الله عما يسئلك من يسأله إياه قال يسأل عن الميثاق الذي أقر به في صلب آدم قلت يا أبا القاسم وما هذا الميثاق الذي أقر به في صلب آدم قال حدثني ابن عباس إن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وتكمل لهم بالأرزاق ثم أعادهم في صلبه فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقربه لم ينفعه الميثاق الأول ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة فهذه الطرق كلها مما نقوى وقف هذا على ابن عباس والله أعلم

(حديث آخر) قال ابن جرير حدثنا عبد الرحمن بن الوليد حدثنا أحمد بن أبي طيبة عن سفيان بن سعيد عن الأجلح عن الضحاك عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم) قال أخذ من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم (أأستبرئكم قالوا بلى) قالت الملائكة (شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلون) أحمد بن أبي طيبة هذا هو أبو محمد الجرحاني قاضي قومس كان أحد الرهاد أخرج له النسائي في سننه وقال أبو حاتم الرازي يكتب حديثه وقال ابن عدى حدث بأحداث كثيرة غرائب وفد روى هذا الحديث عبد الرحمن بن حمزة بن مهدي عن سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو وكذا رواه جرير عن منصور به وهذا أصح والله أعلم . (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا روح هو ابن عبادة حدثنا مالك وحدثنا إسحاق حدثنا مالك عن زيد بن أبي أنيسة أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) الآية فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال « إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال خلفت هؤلاء لاجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون » فقال رحل يا رسول الله فقيم العمل قال رسول الله ﷺ « إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار » وهكذا رواه أبو داود عن القعني والنسائي عن قتيبة والترمذي في تفسيرهما عن إسحاق ابن موسى عن معمر بن أبي حاتم عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب وابن جرير عن روح بن عبادة وسعيد بن عبد الحميد بن جعفر ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه من رواية أبي مصعب الزبيري كلهم عن الإمام مالك بن أنس به قال الترمذي وهذا حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع عمر كذا قاله أبو حاتم وأبو زرعة زاد أبو حاتم وبينهما نعيم بن ربيعة وهذا الذي قاله أبو حاتم رواه أبو داود في سننه عن محمد بن مصفى عن بقية عن عمر بن جعثم القرشي عن زيد بن أبي أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن مسلم بن يسار الجهني عن نعيم بن ربيعة قال كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم) فذكره وقال

الحافظ الدارقطني وقد تابع عمر بن جعشم بن زيد بن سنان أبو فروة الرهاوي وقولها أولى بالصواب من قول مالك والله أعلم قلت الظاهر أن الإمام مالكا إنما أسقط ذكر نعيم بن ربيعة عمدا لما جهل حال نعيم ولم يعرفه فانه غير معروف إلا في هذا الحديث ولذلك يستقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيه ولهذا يرسل كثيرا من المرفوعات ويقطع كثيرا من الموصولات والله أعلم. (حديث آخر) قال الترمذي عند تفسيره هذه الآية حدثنا عبد بن حميد حدثنا أبو نعيم حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عيني كل إنسان منهم ويصا من نور ثم عرضهم على آدم فقال أي رب من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلا منهم فأعجبه ويص ما بين عيني قال أي رب من هذا قال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود قال رب وكم جعلت عمره قال ستين سنة قال أي رب قد وهبت له من عمري أربعين سنة فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت قال أو لم يبق من عمري أربعون سنة قال أو لم تعطها ابنك داود قال فجحد آدم فجحدت ذريته ونبي آدم فنسبت ذريته وخطي آدم فخطت ذريته » ثم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح وقد روى من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ورواه الحاكم في مستدركه من حديث أبي نعيم الفضل بن دكين به وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه أنه حدث عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ فذكر نحو ما تقدم إلى أن قال « ثم عرضهم على آدم فقال يا آدم هؤلاء ذريتك وإذا فيهم الأجنم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام فقال آدم يا رب لم فعلت هذا بذريتي قال كي تشكر نعمتي وقال آدم يا رب من هؤلاء الذين أراهم أظهر الناس نورا قال هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك » ثم ذكر قصة داود كنجوما تقدم (حديث آخر) قال عبد الرحمن بن قتادة النضري عن أبيه عن هشام بن حكيم رضي الله عنه أن رجلا سأل النبي ﷺ فقال يا رسول الله أنبأ الأعمال أم قد قضى القضاء ؟ قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم ثم أشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم في كفيه ثم قال هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار » رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق عنه (حديث آخر) روى جعفر بن الزبير وهو ضعيف عن القاسم عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ « لما خلق الله الخلق وقضى القضية أخذ أهل اليمين يمينه وأهل الشمال بشماله فقال يا أصحاب اليمين فقالوا لبيك وسعديك قال ألسنت بربكم ؟ قالوا بلى قال يا أصحاب الشمال قالوا لبيك وسعديك قال ألسنت بربكم ؟ قالوا بلى ثم خلط بينهم فقال قائل له يا رب لم خلطت بينهم قال لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ثم ردهم في صلب آدم » رواه ابن مردويه.

(أثر آخر) قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم) الآيات قال فجعلهم له يومئذ جميعا ما هو كائن منه إلى يوم القيامة فجعلهم في صورهم ثم استنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق (وأشهدهم على أنفسهم ألسنت بربكم ؟ قالوا بلى) الآية قال فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة ولم نعلم بهذا أعلموا أنه لا إله غيري ولا رب غيري ولا تشركوا بي شيئا وإني سأرسل إليكم رسلا لينذروكم عهدي وميثاقى وأنزل عليكم كتبى قالوا نشهد أنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك ولا إله لنا غيرك فأقرروا له يومئذ بالطاعة ورفع أباهم آدم فنظر إليهم فرأى فهم الغنى والفقر وحسن الصورة ودون ذلك فقال يا رب لو سويت بين عبادك ؟ قال إني أحببت أن أشكر ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنوطة فهو الذى يقول تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) الآية وهو الذى يقول (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله) الآية ومن ذلك قال (هذا نذير من النذر الأولى) ومن ذلك قال (وما وجدنا لأكثرهم من عهد) الآية رواه عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير

وابن مردويه في تفاسيرهم من رواية ابن جعفر الرازي به وروى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جابر والحسن وقتادة والسدي وغير واحد من علماء السلف سياقات توافق هذه الأحاديث اكتفينا بإيرادها عن التطويل في تلك الآثار كلها وبالله المستعان . فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار وأما الأشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وفي حديث عبد الله بن عمرو وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان كما تقدم ومن ثم قال قائلون من الساف والخلف إن المراد بهذا الأشهاد إنما هو فطرحهم على التوحيد كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سريع وقد فسر الحسن الآية بذلك قالوا ولهذا قال (وإذا أخذ ربك من بني آدم لخلقهم) ولم يقل من آدم (من ظهورهم) ولم يقل من ظهره (ذرياتهم) أي جعل نسلهم جيلا بعد جيل وقرناً بعد قرن كقوله تعالى (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض) وقال (ويجعلكم خلفاء الأرض) وقال (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) ثم قال (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) أي أوجدتهم شاهدين بذلك قائلين له حالا وقالوا والشهادة تارة تكون بالقول كقوله (قالوا شهدنا على أنفسنا) الآية وتارة تكون حالا كقوله تعالى (ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر) أي حالهم شاهد عليهم بذلك لأنهم قائلون ذلك وكذا قوله تعالى (وإنه على ذلك لشهيد) كما أن السؤال تارة يكون بالقال وتارة يكون بالحال كقوله (وآتاكم من كل ما سألتموه) قالوا ومما يدل على أن المراد بهذا هذا أن جعل هذا الأشهاد حجة عليهم في الشرك فلو كان قد وقع هذا كما فاله من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه فان قيل إخبار الرسول ﷺ به كاف في وجوده فالجواب أن الكذابين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره ، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد ولهذا قال (أن تقولوا) أي لثلاث تقولوا يوم القيامة (إنا كنا عن هذا) أي التوحيد (غافلين أو تقولوا إنما أشرك آبائنا) الآية

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَعَلَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَسْلَحُ السُّلُوكِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتَرَكَّهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلًا لِّلْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَانفُسُهُمْ كَانُوا بِظَالِمُونَ ﴾

قال عبد الرزاق عن سفيان الثوري عن الأعمش ومنصور عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه في قوله تعالى (وأتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) الآية قال هو رجل من بني إسرائيل يقال له بلعم ابن باعوراء وكذا رواد شعبة وغير واحد عن منصور به وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن ابن عباس هو صفي بن الراهب قال قتادة وقال كعب كان رجلاً من أهل البلقاء وكان يعلم الاسم الأكبر وكان مقيماً ببيت المقدس مع الجبارين وقال العوفي عن ابن عباس رضى الله عنه هو رجل من أهل اليمن يقال له بلعم آتاه الله آياته فتركها ، وقال مالك ابن دينار كان من علماء بني إسرائيل وكان مجاب الدعوة يقدمونه في الشدائد بعثه نبي الله موسى عليه السلام إلى ملك مدين يدعوهم إلى الله فأقطعهم وأعطاء فتبع دينه وترك دين موسى عليه السلام وقال سفيان بن عيينة عن حصين عن عمران بن الحارث عن ابن عباس هو بلعم بن باعوراء ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وقال ابن جرير حدثني الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا إسرائيل عن مغيرة عن مجاهد عن ابن عباس قال هو بلعم وقالت ثقيف هو أمية بن أبي الصلت وقال شعبة عن يعلى بن عطاء عن نافع بن عاصم عن عبد الله بن عمرو في قوله (وأتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا) الآية .

قال هو صاحبكم أمية بن أبي الصلت وقد روى من غير وجه عنه وهو صحيح اليه وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبي الصلت يشبه فإنه كان قد اتصل اليه علم كثير من علم الشرائع المقدمة ولكنه لم ينتفع بعلمه فإنه أدرك زمان رسول الله ﷺ وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته وظهرت لكل من له بصيرة ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه وصار إلى موالاة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم ورث أهل بدر من المشركين بمروءة بليغة قبجه الله . وقد جاء في بعض الأحاديث أنه بمن آمن لسانه ولم يؤمن قلبه فإن له أشعارا ربانية وحكما وفصاحة ولكنه لم يشرح الله صدره للإسلام . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمير عن أبي سعيد الأور عن عكرمة عن ابن عباس في قوله (وائل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) قال هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فهن وكانت له امرأة له منها ولد فقالت اجعل لي منها واحدة قال فلاك واحدة فما الذي تريد ؟ قالت ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل فدعا الله فجعلها أجمل امرأة في بني إسرائيل فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه وأرادت شيئا آخر فدعا الله أن يجعلها كلبة فصارت كلبة فذهبت دعوتان فجاء بنوها فقالوا ليس بنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها فادع الله أن يردّها إلى الحال التي كانت عليها فدعا الله فعادت كما كانت وذهبت الدعوات الثلاث وتسمى البسوس ، غريب ، وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة فإنما هو رجل من المتقدمين في زمن بني إسرائيل كما قال ابن مسعود وغيره من السلف وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هو رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعام وكان يعلم اسم الله الأكبر ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره من علماء السلف كان محاب الدعوة ولا يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه وأغرب بل أبعد بل أخطأ من قال كان قد أوتي النبوة فانسلخ منها حكاه ابن جرير عن بعضهم ولا يصح ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس لما نزل موسى بهم يعني بالجبارين ومن معه أماته - يعني بلعم - أنه بنوعه وقومه فقالوا إن موسى رجل حديد ومعهم جنود كثيرة وإنه إن يظهر علينا يهلكنا فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه ، قال إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرى ، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخه الله ما كان عليه فذلك قوله تعالى (فانسلخ منها فأتبعه الشيطان) الآية ، وقال السدي لما انقضت الأربعون سنة التي قال الله (فإنها محرمة عليهم أربعين سنة) بعث يوشع بن نون نبيا فدعا بني إسرائيل فأخبرهم أنه نبى وأن الله أمره أن يقاتل الجبارين فبايعوه وصدقوه وانطلق رجل من بني إسرائيل يقال له بلعام فكان عالما يعلم الاسم الأعظم المكتوم فكفر - لعنه الله - وآتى الجبارين وقال لهم لا ترهبوا بني إسرائيل فاني إذا خرجتم تقتلونهم أذعو عليهم دعوة فيهلكون وكان عندهم فيما شاء من الدنيا غير أنه كان لا يستطيع أن يأتي النساء لعظمهن فكان ينكح أنثاه وهو الذي قال الله تعالى (فانسلخ منها) وقوله تعالى (فأتبعه الشيطان) أى استحوذ عليه وعلى أمره فلهما أمره امنثل وأطاعه ولهذا قال (فكان من الغاوين) أى من الهالكين الخائرين والمثربين وقد ورد في معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى في مسنده حيث قال حدثنا محمد بن مرزوق حدثنا محمد بن بكر عن الصلت بن بهرام حدثنا الحسن حدثنا جندب الجبلى في هذا المسجد أن حذيفة يعني ابن اليمان رضى الله عنه حدثه قال : قال رسول الله ﷺ « إن مما أخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان رداؤه الاسلام اعتراه إلى ما شاء الله انسلخ منه ونبذه وراء ظهره وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك » قال قلت يابني الله أيهما أولى بالشرك المرمى أو الراعى ؟ قال « بل الراعى » هذا إسناد جيد والصلت بن بهرام كان من ثقات الكوفيين ولم يرم بشيء سوى الارعاء وقد وثقه الإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وغيرها

وقوله تعالى (ولو شئنا لرفعناه بها) ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه (يقول تعالى (ولو شئنا لرفعناه بها) أى لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها (ولكنه أخلد إلى الأرض) أى مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها وأقبل على لذاتها ونعيمها وغرته كما غرت غيره من غير أولى البصائر والنهى ، وقال أبو الراهوية في قوله تعالى (ولكنه أخلد إلى الأرض) قال تراءى له الشيطان على علوة من قنطرة بانياس فسجدت الحجارة لله وسجد بلعام للشيطان ، وكذا قال عبد الرحمن بن جبير بن نفير وغير واحد ، وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله وكان من قصة

هذا الرجل ما حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا المعتز عن أبيه أنه سئل عن هذه الآية (وائل عليهم نبأ الذي آتينا آياتنا) فحدث عن سيار أنه كان رجلا يقال له بلعام وكان محباب الدعوة قال وإن موسى أقبل في بني إسرائيل يريد الأرض التي فيها بلعام أو قال الشام قال فرعب الناس منه رعبا شديدا فأتوا بلعام فقالوا ادع الله على هذا الرجل وجيشه قال حتى أوامر ربي أو حتى أوامر في الدعاء عليهم فقل له لا تدع عليهم فإنهم عبادي وفيهم نبيهم قال فقال لقومه إنني قد أمرت ربي في الدعاء عليهم وإنني قد نهيت فأهدوا له هدية فقبها ثم راجعوه فقالوا ادع عليهم فقال حتى أوامر ربي فأمروا فلم يأمره بشيء فقال قد وأمرت فلم يأمرني بشيء فقالوا لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهك كما نهك المرة الأولى قال فأخذ يدعو عليهم فإذا دعا عليهم جرى على لسانه الدعاء على قومه وإذا أراد أن يدعو أن يفتح لقومه دعا أن يفتح لموسى وجيشه أو نحو من ذلك إن شاء الله قال فقالوا ما نراك تدعو إلا علينا قال ما يجري على لساني إلا هكذا ولو دعوت عليه أيضا ما استجيب لي ولكن سأدلكم على أمر عسى أن يكون فيه هلاكهم ، إن الله يبغض الزنا وإنهم إن وقعوا في الزنا هلكوا ورجوت أن يهلكهم الله فأخرجوا النساء تستقبلهم فأنهم قوم مسافرون فغسي أن يزنا فهلكوا قال ففعلوا فأخرجوا النساء تستقبلهم قال وكان للملك ابنة فذكر من عظمها ما الله أعلم به قال فقال أبوها أو بلعام لا يمكن نفسك إلا من موسى قال ووقعوا في الزنا قال فأتاها رأس سبط من أسباط بني إسرائيل فأرادها على نفسها فقالت ما أنا بممكنة نفسي إلا من موسى فقال إن منزلي كذا وكذا وإن من حالي كذا وكذا فأرسلت إلى أبيها تستأمره قال فقال لها مكنيه قال ويأتيها رجل من بني هرون ومعه الرمح فيقطعنها قال وأيده الله بقوة فانتظهما جميعا ورفعها على رمح فرآها الناس - أو كما حدث - قال وسلط الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفا . قال أبو المعتز فحدثني سيار أن بلعاما ركب حمارة له حتى أتى المعلولى أو قال طريقا من المعلولى جعل يضربها ولا تتقدم وقامت عليه فقالت علام تضربني ؟ أما ترى هذا الذي بين يديك ؟ فإذا الشيطان بين يديه قال فنزل وسجد له قال الله تعالى (وائل عليهم نبأ الذي آتينا آياتنا فانسخ منها - إلى قوله - لعلمهم يتفكرون) قال فحدثني بهذا سيار ولا أدري لعلمه قد دخل فيه شيء من حديث غيره (قلت) هو بلعام ويقال بأهم بن باعوراء ويقال ابن ابر ، ويقال ابن باعور ابن شهتوم بن قوشتم بن ماب بن لوط بن هاران ويقال ابن حران بن آزر وكان يسكن قرية من فرى البلقاء قال ابن عساکر : وهو الذي كان يعرف اسم الله الأعظم فانسخ من دينه له ذكر في القرآن ثم أورد من فضته نحو ما ذكرنا هاهنا وأورده عن وهب وغيره والله أعلم ، وقال محمد بن إسحق بن يسار عن سالم أبي النضر أنه حدث أن موسى عليه السلام لما نزل في أرض بني كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام إليه فقالوا له هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل وإنا قومك وليس لنا منزل وأنت رجل محباب الدعوة فأخرج فادع الله عليهم قال ويلكم نبي الله معه الملائكة والمؤمنون كيف أذهب أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم ؟ قالوا له مالنا من منزل فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليه حتى فتتوه فافتتن فركب حمارة له متوجها إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل وهو جبل حسان فلما سار عليها غير كثير ربضت به فنزل عنها فضربها حتى إذا أزلها قامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت به فضربها حتى إذا أزلها أذن لها فكلمته حجة عليه فقالت ويحك يا بلعم أين تذهب ؟ أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا ؟ تذهب إلى نبي الله والمؤمنين لتدعو عليهم فلم ينزع عنها فضربها فخلى الله سبيلها حين فعل بها ذلك فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حسان على عسكر موسى وبني إسرائيل جعل يدعو عليهم ولا يدعو عليهم بشر إلا صرف الله لسانه إلى قوم ولا يدعو عليهم بشيء إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل فقال له قومه أتدري يا بلعم ما تصنع ؟ إنما تدعولهم وتدعو علينا قال فهذا مالا أملك ، هذا شيء قد غلب الله عليه ، قال واندلع لسانه فوق على صدره فقال لهم قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة فسأمركم وأحتال ، حملوا النساء وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنها فيه ومروهن فلا تمتع امرأة نفسها من رجل أرادها فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كفيتموهم ففعلوا فلما دخل النساء العسكر مرت

امرأة من الكنعانيين اسمها كسبتى - ابنة صور رأس أمته - برجل من عطاء بنى إسرائيل وهو زمري بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام فلما رآها أعجبه فقام فأخذ بيدها وآتى بها موسى وقال إني أظنك ستقول هذا حرام عليك لا تقر بها قال أجل هي حرام عليك قال فوالله لا أطيعك (١) في هذا فدخل بها قبله فوقع عليها وأرسل الله عز وجل الطاعون في بنى إسرائيل وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى وكان غائبا حين صنع زمري بن شلوم ما صنع فجاء الطاعون يحوس فيهم فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها ثم دخل القبة وهما متضاجعان فانتظمهما بحر بتهنم خرج بهما رافعهما إلى السماء والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى لحيته وكان بكر العيزار وجعل يقول اللهم هكذا فعل بمن عصيك ورفع الطاعون فحسب من هلك من بنى إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصاب زمري المرأة إلى أن قتله فنحاص فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفا والمقلل لهم يقول عشرون ألفا في ساعة من النهار فمن هنالك تعطى بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها الرقة والزراع واللحي والبكر من كل أموالهم وأنفسها لأنه كان بكر أبيه العيزار ، ففى بلعام بن باعوراء أنزل الله (وائل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها - إلى قوله - لعلمهم يتفكرون) وقوله تعالى (فثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) اختلف المفسرون في معناه فعلى سياق ابن إسحق عن سالم عن أبي النضر أن بلعاما اندلع لسانه على صدره فتشبهه بالكلب في لهيئه في كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك ظاهر ، وقيل معناه فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء كالكلب في لهيئه في حالتيه إن حملت عليه وإن تركته هو يلهث في الحالين فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عذمه كما قال تعالى (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) ونحو ذلك : وقيل معناه أن قلب الكافر والمنافق والضال ضعيف فارغ من الهدى فهو كثير الوجيب فعب عن هذا بهذا ثقل نحوه عن الحسن البصري وغيره وقوله تعالى (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ (فاقصص القصص لعلهم) أى لعل بنى إسرائيل العالمين بحال بلعام وما جرى له في إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه في تعليمه الاسم الأعظم الذى إذا سئل به أعطى وإذا دعى به أجاب في غير طاعة ربه بل دعا به على حزب الرحمن . وشعب الإيمان ، أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان ، كلم الله موسى بن عمران عليه السلام ولهذا قال (لعلمهم يتفكرون) أى فيحذروا أن يكونوا مثله فإن الله قد أعطاهم علما وميزهم على من عداهم من الأعراب وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرتهم وموازرتهم كما أخبرتهم أنبياءهم بذلك وأمرتهم به ولهذا من خالف منهم مافى كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد أحل الله به ذلا في الدنيا موصولا بذل الآخرة وقوله (ساء مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) يقول تعالى ساء مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا أى ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التى لاهمة لها إلا فى تحصيل أكلة أو شهوة فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه واتبع هواه صار شبيها بالكلب وبشئ الثلث مثله ولهذا ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « ليس لنا مثل السوء ، العائد فى هبته كالكلب يعود فى قيئه » وقوله (أنفسهم كانوا يظلمون) أى ما ظلمهم الله ولكن هم ظلموا أنفسهم باعراضهم عن اتباع الهدى ، وطاعة المولى ، إلى الركون إلى دار البلى ، والاقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى

﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَنْ يُضِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

يقول تعالى من هداه الله فانه لا مضل له ومن أضله فقد ضل لا محالة ، فانه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولهذا جاء فى حديث ابن مسعود « إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضل الله فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك

له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد وأهل السنن وغيرهم
﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ
أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾

يقول تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم) أى خلقنا وجعلنا لجهنم (كثيرا من الجن والإنس) أى هيأناهم لها وبعمل أهلها
يعملون فانه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم فكاتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات
والأرض بخمسين ألف سنة كما ورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال « إن الله قدر
مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء »

وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث عائشة بنت طلحة عن خالتها عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت: دعى النبي
صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبي من الأنصار فقلت يا رسول الله طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء
ولم يدركه ، فقال رسول الله ﷺ « أو غير ذلك يا عائشة إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا وهم في أصلاب
آبائهم ، وخلق النار وخلق لها أهلا وهم في أصلاب آبائهم » وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود « ثم يبعث الله إليه
الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أم سعيد » وتقدم أن الله لما استخرج ذرية آدم من صلبه
وجعلهم فريقين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال قال « هؤلاء للجنة ولا أبالي ، وهؤلاء للنار ولا أبالي » والأحاديث في
هذا كثيرة ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها وقوله تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون
بها ولهم أذان لا يسمعون بها) يعنى ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التى جعلها الله سببا للهداية كما قال تعالى
(وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله)
الآية ، وقال تعالى (صم بكم عمى فهم لا يرجعون) هذا في حق المنافقين ، وقال في حق الكافرين (صم بكم عمى فهم
لا يعقلون) ولم يكونوا صما ولا بكما ولا عميا إلا عن الهدى كما قال تعالى (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم
لتولوا وهم معرضون) وقال (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) وقال (ومن يعش عن ذكر
الرحمن قبيض له شيطانا فهو له قرين * وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) وقوله تعالى (أولئك
كالأنعام) أى هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى كالأنعام السارحة التى لا تنفع بهذه الحواس
منها إلا فى الذى يقيتها فى ظاهر الحياة الدنيا كقوله تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء
ونداء) أى ومثلهم فى حال دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته ، ولا تفقه ما يقول .
ولهذا قال فى هؤلاء (بل هم أضل) أى من الدواب لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أبس بها ، وإن لم تفقه كلامه
بخلاف هؤلاء ؛ ولأنها تفعل ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها بخلاف الكافر فانه إنما خلق ليعبد الله ويوحده
فكفر بالله وأشرك به ، ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة فى معاده ، ومن كفر به من
البشر كانت الدواب أتم منه ، ولهذا قال تعالى (أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون)

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن لله تسعا وتسعين اسما مائة إلا واحدا من
أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر » أخرجاه فى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة عن أبى الزناد عن الأعرج
عنه ؛ ورواه البخارى عن أبى اليمان عن شعيب عن أبى حمزة عن أبى الزناد به ، وأخرجه الترمذى فى جامعه عن
الجوزجاني عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن شعيب فذكر بسنده مثله وزاد بعد قوله « يحب الوتر : هو
الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور

الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكيم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب الحبيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدي المعيد المحي المميت الحي القيوم الواحد للمجد الواحد الأحد الفرد الصمد القادر المقدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والاكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور » ثم قال الترمذي هذا حديث غريب وقد روى من غير وجه عن أبي هريرة ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث ، ورواه ابن حبان في صحيحه من طريق صفوان به ، وقد رواه ابن ماجه في سننه من طريق آخر عن موسى بن عقبة عن الأعرج عن أبي هريرة مرفوعا فسرده الأسماء كنحو ما تقدم بزيادة وتقصان ، والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه ، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك ، أي أنهم جمعوها من القرآن كما روى عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللغوي والله أعلم ، ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة في تسعة وتسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن يزيد بن هارون عن فضيل ابن مرزوق عن أبي سلمة الجهني عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال « ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهب همي إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدل مكانه فرحا » فقيل يا رسول الله أفلا تتعلمها ؟ فقال « بلى ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها » وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البستي في صحيحه بمثله ، وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه الأحوذى في شرح الترمذي أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم فأنه أعلم ، وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى (وذروا الذين يلحدون في أسمائه) قال إلحاد للملحدين أن دعوا اللات في أسمائه الله ، وقال ابن جريج عن مجاهد (وذروا الذين يلحدون في أسمائه) قال اشتقوا اللات من الله ، والعزى من العزيز ، وقال قتادة يلحدون : يشركون في أسمائه . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس إلحاد : التكذيب ، وأصل إلحاد في كلام العرب العدول عن القصد ، والليل والجور والانحراف ، ومنه اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر

﴿ وَمِنْ خَلْقِنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

يقول تعالى (ومن خلقنا) أي بعض الأمم (أمة) قائمة بالحق قولاً وعملاً (يهدون بالحق) يقولونه ويدعون إليه (وبه يعدلون) يعملون ويقضون ، وقد جاء في الآثار أن المراد بهذه الأمة المذكورة في الآية هي هذه الأمة المحمدية قال سعيد بن قتادة في تفسير هذه الآية بلغني أن النبي ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية « هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) » وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس في قوله تعالى (ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) قال : قال رسول الله ﷺ « إن من أمتي قوماً على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم متى ما نزل » وفي الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان قال : قال رسول الله ﷺ « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة » وفي رواية « حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » وفي رواية « وهم بالشام »

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾

يقول تعالى (والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) ومعناه أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شيء كما قال تعالى (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظاهروا والحمد لله رب العالمين) ولهذا قال تعالى (وأملى لهم) أى وسأملى لهم أى أطول لهم ما هم فيه (إن كيدى متين) أى قوى شديد

﴿ أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾

يقول تعالى (أو لم يتفكروا) هؤلاء المكذبون بآياتنا (ما بصاحبهم) يعنى محمداً ﷺ (من جنة) أى ليس به جنون بل هو رسول الله حق (إن هو إلا نذير مبين) أى ظاهر لمن كان له لب وقلب يعقل به ويعى به كما قال تعالى (وما صاحبكم بمجنون) وقال تعالى (قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا وما لصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد) يقول إنما أطب منكم أن تقوموا قياماً خالصاً لله ليس فيه تعصب ولا عناد مثنى وفرادى أى مجتمعين ومتفرقين ثم تتفكروا في هذا الذى جاءكم بالرسالة من الله أبه جنون أم لا فإنكم إذا فعلتم ذلك بان لكم وظهر أنه رسول الله حقاً وصدقاً ، وقال قتادة بن دعامة ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان على الصفا فدعا قريشا فجعل يفخذهم فخذاً فخذاً يا بنى فلان يا بنى فلان فحذرهم بأس الله ووقائع الله فقال قائلهم إن صاحبكم هذا مجنون بات يصوت إلى الصباح أو حتى أصبح فأنزل الله تعالى (أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين)

﴿ أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكَوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا في ملك الله وسلطانه في السموات والأرض وفيما خلق من شيء فيهما فيندبروا ذلك ويعتبروا به ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه ومن فعل من لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له فيؤمنوا به ويصدقوا رسوله وينبئوا إلى طاعته ويخلصوا الأنداد والأوثان ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم ويصبروا إلى عذاب الله وأليم عقابه ، وقوله (فبأي حديث بعده يؤمنون) يقول فبأي تخويف وتحذير وترهيب بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه الذى أتاهم به من عند الله في آى كتابه يصدقون إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذى جاءهم به محمد من عند الله عز وجل ؟ وقد روى الإمام أحمد عن حسن بن موسى وعثمان بن مسلم وعبد الصمد بن عبد الوارث كلهم عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن أبي الصلت عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « رأيت ليلة أسرى بنى كذا فلما اتهمنا إلى السماء السابعة فنظرت فوقى فإذا أنا برعد وبرق وصواعق ، وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم قلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء أكلة الربا فلما نزلت إلى السماء الدنيا فنظرت إلى أسفل منى فإذا أنا برهيج ودخان وأصوات فقلت ما هذا يا جبريل ؟ قال هؤلاء الشياطين يحومون على أعين بنى آدم أن لا يتفكروا في ملكوت السموات والأرض ولولا ذلك لرأوا العجائب » على بن زيد بن جدعان له منكرات . ثم قال تعالى

﴿ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

يقول تعالى من كتب عليه الضلالة فانه لا يهديه أحد ولو نظر لنفسه فيما نظر فانه لا يجزى عنه شيئاً (ومن يرد الله فنته فلن يملك له من الله شيئاً) وكما قال تعالى (قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون)

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى (يسألونك عن الساعة) كما قال تعالى (يسألك الناس عن الساعة) قيل نزلت في قريش وقيل في نفر من اليهود والأول أشبه لأن الآلة مكية وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعادا لوقوعها وتكديبا بوجودها كما قال تعالى (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) وقال تعالى (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق إلا أن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد) وقوله (أيان مرساها) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس منتهأ أي متى محطها وأيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة (قل إنما علمها عند ربي لا يحلها لوقتها إلا هو) أمر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم إذا سئل عن وقت الساعة أن يرد علمها إلى الله تعالى فإنه هو الذي يحلها لوقتها أي يعلم جليلة أمرها ومتى يكون على التحديد لا يعلم ذلك إلا هو تعالى ولهذا قال (ثقلت في السموات والأرض) قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله (ثقلت في السموات والأرض) قال ثقل علمها على أهل السموات والأرض أنهم لا يعلمون قال معمر قال الحسن إذا جاءت ثقلت على أهل السموات والأرض يقول كبرت عليهم ، وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله (ثقلت في السموات والأرض) قال ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة ، وقال ابن حريج (ثقلت في السموات والأرض) قال إذا جاء انشفت السماء وانتثرت النجوم . وكورت الشمس . وسيرت الجبال وكان ما قال الله عز وجل فذلك ثقلها ، واختار ابن جرير رحمه الله أن المراد ثقل علم وقها على أهل السموات والأرض كما قال قتادة ، وهو كما قاله كقوله تعالى (لا تأتاكم إلا بغتة) ولا ينفي ذلك ثقل مجيئها على أهل السموات والأرض والله أعلم وقال السدي (ثقلت في السموات والأرض) يقول خفيت في السموات والأرض فلا يعلم قيامها حين تقوم ملك مقرب ولا نبي مرسل (لا تأتاكم إلا بغتة) يبغثهم قيامها تأتتهم على غفلة وقال قتادة في قوله تعالى (لا تأتاكم إلا بغتة) قضى الله أنها (لا تأتاكم إلا بغتة) قال وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول « إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقي ماشيته والرجل يقيم سلعته في السوق ويخفف يزرانه ويرفعه » وقال البخاري حدثنا أبو اليمان أن أنبا ناسعيا أنبا نأ أبو الزناد عن عبد الرحمن عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا ولتقوم الساعة وقد نشر الرجlan ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقوم الساعة وهو يلبط حوضه فلا يسقي فيه ولتقوم الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها » وقال مسلم في صحيحه حدثني زهير بن حرب حدثنا سفان بن عيينة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة يبلغ به قال تقوم الساعة والرجل يحلب لقحته فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم الساعة والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم الساعة ، والرجل يلو ط حوضه فما يصدر حتى تقوم .

وقوله (يسألونك كأنك حفي عنها) اختلف المفسرون في معناه فقل معناه كما قال العوفي عن ابن عباس (يسألونك كأنك حفي عنها) يقول كأن بينك وبينهم مودة كأنك صدق لهم قال ابن عباس لما سأل الناس النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمدا حفي بهم فأوحى الله إليه إنما علمها عنده استأثر به فلم يطلع الله عليها ملكا مقربا ولا رسولا ، وقال قتادة قالت قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم إن بيننا وبينك قرابة فأسر إلينا متى الساعة فقال الله عز وجل (يسألونك كأنك حفي عنها) وكذا روى عن مجاهد وعكرمة وأبي مالك والسدي وهذا قول والصحيح عن مجاهد من رواية ابن أبي نجيح وغيره (يسألونك كأنك حفي عنها) قال استحفيت عنها السؤال حفي علمت وقتها وكذا قال الضحاك عن ابن عباس (يسألونك كأنك حفي عنها) يقول كأنك عالم بها لست تعلمها (قل إنما علمها عند الله) وقال معمر عن بعضهم (كأنك حفي عنها) كأنك عالم بها وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (كأنك حفي عنها) كأنك بها عالم وقد أخفى الله علمها على خلقه وقرأ (إن الله عنده علم الساعة) وهذا القول أرحح

في المقام من الأول والله أعلم ولهذا قال (قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ولهذا لما جاء جبريل عليه السلام في صورة أعرابي ليعلم الناس أمر دينهم فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد وسأله صلى الله عليه وسلم عن الإسلام . ثم عن الإيمان . ثم عن الإحسان . ثم قال فمتى الساعة ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » أى لست أعلم بها منك ولا أحد أعلم بها من أحد ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم (إن الله عنده علم الساعة) الآية ، وفي رواية فسأله عن أشراط الساعة فبين له أشراط الساعة ثم قال « في خمس لا يعلمهن إلا الله » وقرأ هذه الآية وفي هذا كله يقول له بعد كل جواب صدقت ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدق ، ثم لما انصرف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » وفي رواية قال « وما أتاني في صورة إلا عرفته فيها إلا صورته هذه » وقد ذكرت هذا الحديث بطرقه وألفاظه من الصحاح والحسان والمسانيد في أول شرح البخارى والله الحمد والمنة ، ولما سأله ذلك الأعرابي وناداه بصوت جهورى فقال يا محمد قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « هاؤم » على نحو من صوته قال يا محمد متى الساعة ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « ويحك إن الساعة آتية فما أعددت لها » قال ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام ولكنى أحب الله ورسوله فقال له رسول الله ﷺ « المرء مع من أحب » فما فرح المسامون بشيء فرحهم بهذا الحديث وهذا له طرق متعددة في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال « المرء مع من أحب » وهى متواترة عند كثير من الحفاظ المتقنين فيه أنه عليه السلام كان إذا سئل عن هذا الذى لا يحتاجون إلى علمه أرشدهم إلى ما هو الأهم في حقهم وهو الاستعداد لوقوع ذلك والتهيؤ له قبل نزوله وان لم يعرفوا تعيين وقته . ولهذا قال مسلم في صحيحه حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة وأبو كريب قالوا حدثنا أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة متى الساعة فينظر إلى أحدث إنسان منهم فيقول « إن يعش هذا لم يدركه الهرم حتى قامت عليكم ساعتكم » يعنى بذلك موتهم الذى يفضى بهم إلى الحصول فى برزخ الدار الآخرة ثم قال مسلم وحدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا يونس بن محمد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن يعش هذا الغلام فعسى أن لا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة » انفرد به مسلم وحدثني حجاج بن الشاعر حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد حدثنا سعيد بن أبى هلال المصرى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم قال متى الساعة ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم هنيهة ثم نظر إلى غلام بين يديه من أزدشنوءة فقال « إن عمر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة » قال أنس ذلك الغلام من أترابي وقال حدثنا هرون بن عبد الله حدثنا عفان بن مسلم حدثنا همام حدثنا قتادة عن أنس قال مر غلام للمغيرة بن شعبة وكان من أترابي فقال النبي ﷺ « إن يؤخر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة » ورواه البخارى في كتاب الأدب من صحيحه عن عمرو بن عاصم عن همام بن يحيى عن قتادة عن أنس أن رجلا من أهل البادية قال يا رسول الله متى الساعة فذكر الحديث وفي آخره فمر غلام للمغيرة بن شعبة وذكره وهذا الاطلاق في هذه الروايات محمول على التقييد بساعتكم في حديث عائشة رضى الله عنها ، وقال ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر « تسألوني عن الساعة وإنما علمها عند الله وأقسم بالله ما على ظهر الأرض اليوم من نفس منقوسة تأتى عليها مائة سنة » رواه مسلم وفي الصحيحين عن ابن عمر مثله قال ابن عمر وإنما أراد رسول الله ﷺ انخرام ذلك القرن ، وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم أنبأنا العوام عن جبلة بن سحيم عن موثر بن عفرة عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال « لقيت ليلة أسرى بنى إبراهيم وموسى وعيسى فتذاكروا أمر الساعة - قال - فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام فقال لا علم لى بها ، فردوا أمرهم إلى موسى فقال لا علم لى بها ، فردوا أمرهم إلى عيسى فقال عيسى أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله عز وجل وفيما عهد إلى ربه عز وجل أن السجال خارج - قال -

ومعنى قضيبان فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص قال فيهلكه الله عز وجل إذا رآنى حتى إن الشجر والحجر يقول يا مسلم إن تحق كافرا فاعقله قال فيهلكهم الله عز وجل ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم قال فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيطأون بلادهم لا يأتون على شيء إلا أهلوكوه ولا يمرون على ماء إلا شربوه قال ثم يرجع الناس إلى فيشكونهم فأدعو الله عز وجل عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم أى نتن قال فينزل الله عز وجل المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر قال الإمام أحمد قال يزيد بن هارون ثم تنسف الجبال وتمد الأرض مد الأديم ثم رجع إلى حديث هشيم قال فبقيا عهد إلى ربى عز وجل أن ذلك إذا كان كذلك فإن الساعة كالحامل المم لا يدرى أهلها متى تفجأهم بولادتها ليلا أو نهارا ورواه ابن ماجه عن بندار عن يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب بسنده نحوه فهو لأ كابر أولى العزم من المرسلين ليس عندهم علم بوقت الساعة على التعيين وإنما ردوا الأمر إلى عيسى عليه السلام فتكلم على أشراطها لأنه ينزل فى آخر هذه الأمة سفنذا لأحكام رسول الله ﷺ ويقتل المسيح الدجال ويجعل الله هلاك يأجوج ومأجوج بركة دعائه فأخبر بما أعلمه الله تعالى به : وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن أبى بكير حدثنا عبد الله بن زياد بن لقيط قال سمعت أبى يذكر عن حذيفة قال سئل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال « علمها عند ربى عز وجل لا يجلبها لوقتها إلا هو ولكن سأخبركم بمشاريطها وما يكون بين يديها إن بين يديها فتنة وهرجا » قالوا يا رسول الله الفتنة قد عرفناها فما المخرج قال « بلسان الحبشة القتل » قال « ويلقى بين الناس التناكر فلا يكاد أحد يعرف أحدا » لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه وقال وكيع حدثنا ابن أبى خالد عن طارق بن شهاب قال كان رسول الله ﷺ لا يزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت (يسألونك عن الساعة أيان مرساها) الآية ورواه النسائي من حديث عيسى بن يونس عن إسماعيل بن أبى خالد به وهذا إسناد جيد قوى فهذا النبى الأمى سيد الرسل وخاتمهم محمد صلوات الله عليه وسلامه نبى الرحمة ونبى التوبة ونبى اللحمة والعاقب والمقفى والحاشر الذى تحشر الناس على قدميه مع قوله فيها ثبت عنه فى الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد رضى الله عنهما « بعثت أنا والساعة كهاتين » وقرن بين إصبعيه السبابة والى تليها ومع هذا كله قد أمره الله أن يرد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها فقال (قل إن علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه كما قال تعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا) الآية وقوله (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) قال عبد الرزاق عن الثورى عن منصور عن مجاهد (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) قال لو كنت أعلم متى أموت لعملت عملا صالحا وكذا روى ابن أبى نجيح عن مجاهد وقال مثله ابن جريج وفيه نظر لأن عمل رسول الله ﷺ كان ديمة ، وفى رواية كان إذا عمل عملا أثبته فجميع عمله كان على منوال واحد كأنه ينظر إلى الله عز وجل فى جميع أحواله اللهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك والله أعلم . والأحسن فى هذا ما رواه الضحاك عن ابن عباس (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) أى من المال وفى رواية لعلمت إذا اشتريت شيئا ما أربح فيه فلا أبيع شيئا إلا ربحت فيه ولا يصيبنى الفقر ، وقال ابن جرير وقال آخرون معنى ذلك لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدة من الخصبه ولوقت الغلاء من الرخص فاستعددت له من الرخص وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (وما مسنى السوء) قال لاجتنت ما يكون من الشر قبل أن يكون واتقيته ثم

أخبر أنه إنما هو نذير وبشير أى نذير من العذاب وبشير للمؤمنين بالجنات كما قال تعالى (فلما يسرناه بلسانك لتبشر به المقين وتنذر به قومالدا)

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام وأنه خلق منه زوجته حواء ثم انتشر الناس منهما كما قال تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقال تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها) الآية وقال فى هذه الآية الكريمة (وجعل منها زوجها ليسكن إليها) أى ليألفها ويسكن بها كقوله تعالى (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيدته إلى التفارقة بين المرء وزوجه (فلما تغشاهما) أى وطئها (حملت حملا خفيا) وذلك أول الحمل لا تجد المرأة له ألما إنما هى النطفة ثم العلقه ثم المضغة وقوله (فمرت به) قال مجاهد استمرت بحمله ، وروى عن الحسن وإبراهيم النخعى والسدى نحوه ، وقال ميمون بن مهران عن أبيه استخفته ، وقال أيوب سألت الحسن عن قوله (فمرت به) قال لو كنت رجلا عربيا لعرفت ما هى إنما هى فاستمرت به ، وقال قتادة (فمرت به) استبان حملها ، وقال ابن جرير معناه استمرت بالماء قامت به وقعدت ، وقال العوفى عن ابن عباس استمرت به فشكت أحملت أم لا (فلما أثقلت) أى صارت ذات ثقل بحملها ، وقال السدى كبر الولد فى بطنها (دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا) أى بشرا سويا كما قال الضحاك عن ابن عباس أشفقا أن يكون بهيمة وكذلك قال أبو البخترى وأبو مالك أشفقا أن لا يكون إنسانا . وقال الحسن البصرى لئن آتيتنا غلاما (لنكونن من الشاكرين فلما آتاهاما صالحا جعلاه شركاء فيما آتاهاما فتعالى الله عما يشركون) ذكر المفسرون ههنا آثارا وأحاديث سأوردها وأبين ما فيها ثم تتبع ذلك ببيان الصحيح فى ذلك إن شاء الله وبه الثقة ، قال الإمام أحمد فى مسنده حدثنا عبد الصمد حدثنا حمير بن إبراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن ممرة عن النبي ﷺ قال « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فانه يعيش فسمته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره » وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن بشار عن بندار عن عبد الصمد بن عبد الوارث به ورواه الترمذى فى تفسيره هذه الآية عن محمد بن المثنى عن عبد الصمد به وقال هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث حمير بن إبراهيم ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه ، ورواه الحاکم فى مستدركه من حديث عبد الصمد مرفوعا ثم قال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ورواه الإمام أبو محمد بن أبى حاتم فى تفسيره عن أبى زرعة الرازى عن هلال بن فياض عن حمير بن إبراهيم به مرفوعا ، وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره من حديث شاذ بن فياض عن حمير بن إبراهيم مرفوعا : قلت وشاذ هو هلال وشاذ لقبه والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه (أحدها) أن حمير بن إبراهيم هذا هو البصرى وقد وثقه ابن معين ولكن قال أبو حاتم الرازى لا يحتج به ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتز عن أبيه عن الحسن عن ممرة مرفوعا فالله أعلم (الثانى) أنه قد روى من قول ممرة نفسه ليس مرفوعا كما قال ابن جرير حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا المعتز عن أبيه حدثنا بكر بن عبد الله عن سليمان التيمى عن أبى العلاء بن الشخير عن ممرة بن جندب قال سمى آدم ابنه عبد الحارث (الثالث) أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا فلو كان هذا عنده عن ممرة مرفوعا لما عدل عنه قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا سهل بن يوسف عن حمير عن الحسن (جعلاه شركاء فيما آتاها) قال كان هذا فى بعض أهل الملل ولم يكن بآدم ،

وحدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر قال : قال الحسن عني بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده يعني (جعل له شركاء فيما آتاهما) وحدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال كان الحسن يقول هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا ، وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضى الله عنه أنه فسر الآية بذلك وهو من أحسن التفسير وأولى ما حملت عليه الآية ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عدل عنه هو ولا غيره ولا سيما مع تقواه لله وورعه فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما كما سيأتي بيانه إن شاء الله إلا أننا برئنا من عهدة الرفوع والله أعلم . فأما الآثار فقال محمد بن إسحق بن يسار عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فيعبدون الله ويسمونه عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك فيصيبهم الموت فأتاهما إبليس فقال إنكما لو سميتاه بغير الذي تسميان به لعاش قال فولدت له رجلاً فسماه عبد الحارث فيه أنزل الله يقول (هو الذي خلقكم من نفس واحدة - إلى قوله - جعل له شركاء فيما آتاهما) إلى آخر الآية ، وقال العوفي عن ابن عباس قوله في آدم (هو الذي خلقكم من نفس واحدة - إلى قوله - فمرت به) شكت أحملت أم لا ؟ (فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين) فأتاهما الشيطان فقال هل تدريان ما يولد لكما ؟ أم هل تدريان ما يكون أبهما ؟ أم لا ؟ وزين لهما الباطل إنه غوى مبين ، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فأتاهما فقال لهما الشيطان إنكما إن لم تسمياه بي لم يخرج سويًا ومات كمامات الأول فسميا ولدهما عبد الحارث فذلك قول الله تعالى (فلما آتاهما صالحاً جعل له شركاء فيما آتاهما) الآية ، وقال عبد الله بن مبارك عن شريك عن خفيف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله (فلما آتاهما صالحاً جعل له شركاء فيما آتاهما) قال : قال الله تعالى (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها) آدم (حملت) فأتاهما إبليس لعنه الله فقال إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني وألأجعلن له قرني إيل فيخرج من بطنك فيشققه ولأفعلن ولأفعلن يخوفهما فسمياهما عبد الحارث فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً ثم حملت الثانية فأتاهما أيضاً فقال أنا صاحبكما الذي فعلت ما فعلت لتفعلن أو لأفعلن - يخوفهما - فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضاً فذكر لهما فأدركما حب الولد فسمياهما عبد الحارث فذلك قوله تعالى (جعل له شركاء فيما آتاهما) رواه ابن أبي حاتم

وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه كعجابه وسعيد بن جبير وعكرمة ومن الطبقة الثانية قتادة والسدي وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة وكأنه والله أعلم أصله مأخوذ من أهل الكتاب فإن ابن عباس رواه عن أبي بن كعب كما رواه ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو الجاهر حدثنا سعيد يعني ابن بشير عن عقبة عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال لما حملت حواء أتاهما الشيطان فقال لها أطيعيني ويسلم لك ولدك ، سميه عبد الحارث فلم تفعل فولدت فماتت ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل ثم حملت الثالثة فجاءها فقال إن تطيعيني يسلم وإلا فإنه يكون بهيمة فهيبهما فأطاعا

وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب وقد صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » ثم أخبرهم على ثلاثة أقسام فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله ومنها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً ومنها ما هو مسكوت عنه فهو المأذون في روايته بقوله عليه السلام « حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » وهو الذي لا يصدق ولا يكذب لقوله « فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » وهذا الأثر هو من القسم الثاني أو الثالث فيه نظر ، فأما من حدث به من صحابي أو تابعي فإنه يراه من القسم الثالث ، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ولهذا قال الله (فتعالى الله عما يشركون) ثم قال فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين وهو كالاتطراد من ذكر الشخص إلى الجنس كقوله (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) الآية ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زينت بها السماء ليست

هي التي يرمى بها وإنما هذا استطراد من شخص للصايح إلى جنسها ولهذا نظائر في القرآن والله أعلم

﴿ أَشِرُّ كَوْنًا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أُمْنَانُ كُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ * إِنَّ إِلَهِي اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ * وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان وهي مخلوقة لله مربية مصنوعة لا تملك شيئاً من الأمر ولا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تتنصر لعابديها بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم ولهذا قال (أشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون) أي أشركون به من المعبودات مالا يخلق شيئاً ولا يستطيع ذلك كقوله تعالى (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب * ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز) أخبر تعالى أن آلهتهم لو اجتمعوا كلهم ما استطاعوا خلق ذبابة بل لو سلبتهم الذبابة شيئاً من حقير الطعام وطارت لما استطاعوا إنقاذها منها فمن هذه صفته وحاله كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟ ولهذا قال تعالى (لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون) أي بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الحليل (أتعبدون ما تنتحون) الآية ثم قال تعالى (ولا يستطيعون لهم نصراً) أي لعابديهم (ولا أنفسهم ينصرون) يعني ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء كما كان الحليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة كما أخبر تعالى عنه في قوله (فراغ عليهم ضرباً باليمين) وقال تعالى (فجعلهم جذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون) وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما وكانا شابين قد أساما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرنها ويتلفانها ويتخذانها خطباً للأرامل ليعتبر قومهما بذلك ويرتاوا لأنفسهم فكان لعمر بن الجموح وكان سيداً في قومه صنم يعبد ويطيعه فكانا يجثان في الليل فينكسانه على رأسه ويلطخان به بالعدرة فيجىء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطيعه ويضع عنده سيفاً ويقول له انتصر ثم يعودان لمثل ذلك ويعود إلى صنيعه أيضاً حتى أخذه مرة فقرناه مع كلب ميت ودلياه في جبل في برهناك فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك نظر فعمل أن ما كان عليه من الدين باطل وقال :

تالله لو كنت إلهاً مستدن * لم تك والسكب جميعاً في قرن

ثم أسلم فحسن إسلامه وقتل يوم أحد شهيداً رضى الله عنه وأرضاه وجعل جنة الفردوس مأواه وقوله (وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم) الآية يعني أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها وسواء لديها من دعاها ومن دحها كما قال إبراهيم (يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً) ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها أي مخلوقات مثلهم بل الأناس أكمل منها لأنها تسمع وتبصر وتبش وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك وقوله (قل ادعوا شركاءكم) الآية أي استنصروا بها على فلا تؤخروني طرفة عين واجهدوا جهدكم (إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) أي الله حسي وكافيني وهو نصيري وعليه متكلي وإليه ألبأ وهو ولي في الدنيا والآخرة وهو ولي كل صالح بعدى وهذا كما

قال هود عليه السلام لما قال له قومه (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهمنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون * إني توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم) وكنقول الحليل (أفرأيتم ما كنتم تعبدون أتم وآبأؤم الأقدمون * فانهم عدو لى إلارب العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين) الآيات وكنقوله لأبيه وقومه (إنى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فانه سهدىن وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون) وقوله (والذىن تدعون من دونه) إلى آخر الآية مؤكدا لما تقدم إلا أنه بصيغة الخطاب وذلك بصيغة الغيبة ، ولهذا قال (لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم يصرون) وقوله (وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) كقوله تعالى (إن تدعوهم لا يسمعون دعاءكم) الآية وقوله (وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) إنما قال (ينظرون إليك) أى يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهى حماد ولهذا عاملهم معاملة من يعقل لأنها على صور مصورة كالإنسان وتراهم ينظرون إليك فعب عنها بضمير من يعقل ، وقال السدى المراد بهذا الشركون ، وروى عن مجاهد نحوه والأول أولى وهو اختيار ابن جرير وقاله قتادة

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ * وَإِنَّمَا يَنزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله (خذ العفو) يعنى خذ ما عفا لك من أموالهم وما أتوك به من شىء فخذهُ وكان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها وما انتهت إليه الصدقات، قاله السدى وقال الضحاك عن ابن عباس (خذ العفو) أنفق الفضل ، وقال سعيد بن جبیر عن ابن عباس (خذ العفو) قال الفضل وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم فى قوله (خذ العفو) أمره الله بالعفو والصفح عن الشرکین عشر سنين ثم أمره بالغلظة عليهم ، واختار هذا القول ابن جرير ، وقال غير واحد عن مجاهد فى قوله تعالى (خذ العفو) قال من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس ، وقال هشام بن عروة عن أبيه أمر الله رسوله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وفى رواية قال خذ ما عفا لك من أخلاقهم ، وفى صحيح البخارى عن هشام عن أبيه عروة عن أخيه عبد الله بن الزبير قال إنما أنزل خذ العفو من أخلاق الناس ، وفى رواية لغيره عن هشام عن أبيه عن ابن عمر ، وفى رواية عن هشام عن وهب بن كيسان عن أبي الزبير أنهما قالا مثل ذلك والله أعلم ، وفى رواية سعيد بن منصور عن أبي معاوية عن هشام عن وهب بن كيسان عن أبي الزبير خذ العفو قال من أخلاق الناس والله لا أخذنه منهم ما صحبتهم وهذا أشهر الأقوال ويشهد له ما رواه ابن جرير وابن أبى حاتم جميعا حدثنا يونس حدثنا سفيان هو ابن عيينة عن أبى قال لما أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ (خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلین) قال رسول الله ﷺ « ما هذا جبريل ؟ » قال إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك وتصل من قطعك ، وقد رواه ابن أبى حاتم أيضا عن أبى يزيد القراطيسى كتابة عن اصبع بن الفرّج عن سفيان عن أبى عن الشعبي نحوه ، وهذا مرسل على كل حال وقد روى له شواهد من وجوه أخر وقد روى مرفوعا عن جابر وقيس بن سعد بن عبادة عن النبى ﷺ أسندهما ابن مردويه ، وقال الإمام أحمد حدثنا أبو المغيرة حدثنا شعبة حدثنا معاذ بن رفاعة حدثنى على بن يزيد عن القاسم بن أبى أمامة الباهلى عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته فأخذت بيده فقلت يا رسول الله أخبرنى بفواضل الأعمال فقال « يا عقبة صل من قطعك وأعط من حرمك وأعرض عمن ظلمك » وروى الترمذى نحوه من طريق عبيد الله بن زحر عن على بن يزيد به وقال حسن قلت ولكن على بن يزيد وشيخه القاسم أبو عبد الرحمن فيهما ضعف ، وقال البخارى قوله (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین) العرف المعروف حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهرى أخبرنى عبيد الله بن عبيد الله بن عتبة أن ابن عباس رضى الله عنهما قال قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من نفر الدين يدينهم عمر وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته

كمولا كانوا أو شبانا فقال عيينة لابن أخيه يا ابن أخى لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لى عليه قال سأستأذن لك عليه قال ابن عباس فاستأذن الحر لعينة فأذن له عمر فلما دخل عليه قال هى يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر حتى هم أن يوقع به فقال له الحر يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وإن هذا من الجاهلين والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقفا عند كتاب الله عز وجل انفرده باخراجه البخارى ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة أخبرنا ابن وهب أخبرنى مالك بن أنس عن عبد الله بن نافع أن سالم بن عبد الله بن عمر مر على غير لأهل الشام وفيها جرس فقال إن هذا منى عنه فقالوا نحن أعلم بهذا منك إنما يكره الجبل الكبير فأما مثل هذا فلا بأس به فسكت سالم وقال (وأعرض عن الجاهلين) وقول البخارى : العرف المعروف ، نص عليه عروة بن الزبير والسدى وقنادة وابن جرير وغير واحد وحكى ابن جرير أنه يقال أوليته معروفا وعارفا وعارفة كل ذلك بمعنى المعروف قال وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف ويدخل فى ذلك جميع الطاعات وبالأعراض عن الجاهلين وذلك وإن كان أمراً لنبيه ﷺ فإنه تأديب لحلقه باحتفال من ظلمهم واعتدى عليهم لا بالأعراض عمن جهل الحق الواجب من حق الله ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته وهو للمسلمين حرب وقال سعيد بن أبى عروة عن قتادة فى قوله (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) قال هذه أخلاق أمر الله بها نبيه ﷺ ودله عليها وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى فسبكه فى بيتين فيما جناس فقال :

خذ العفو وأمر بعرف كما * أمرت وأعرض عن الجاهلين
ولن فى الكلام لكل الأنام * فمستحسن من ذوى الجاه لين

وقال بعض العلماء: الناس رجالان فرحل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يحرجه وإما مسمى فمره بالمعروف فإن نمدى على صلاله واستعصى عليك واستمر فى جهله فأعرض عنه ففعل ذلك أن يرد كيده كما قال تعالى (ادفع بالى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون) * وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون) وقال تعالى (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) أى هذه الوصية (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) وقال فى هذه السورة الكريمة أيضاً (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه مسمع عليم) فهذه الآيات الثلاث فى الاعراف والمؤمنون وحمة السجدة لارابع لهن فانه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصى من الإنس بالمعروف بالى هى أحسن فانه ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى ولهذا قال (فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان فانه لا يكفه عنك الإحسان وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية فانه عدو مبین لك ولأبيك من قبلك قال ابن جرير فى تفسير قوله (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ) (وإما يغضبك من الشيطان غضب يصدك عن الاعراض عن الجاهل ويحملك على مجازاته (فاستعذ بالله) يقول فاستعج بالله من نزغه (إنه سميع عليم) سميع لجهل الجاهل عليك والاستعاذة به من نزغه ولغير ذلك من كلام خلقه لا يخفى عليه منه شىء عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لما نزلت (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) قال: يا رب كيف بالغضب ؟، فأنزل الله (وإما ينزغنك الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم) قلت وقد تقدم فى أول الاستعاذة حديث الرجلين اللذين تسابا بحضرة النبی ﷺ فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمزغ غضبا ، فقال رسول الله ﷺ «إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقيل له فقال ما بى من جنون . وأصل النزغ الفساد إما بالغضب أو غيره قال الله تعالى (وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم) والعياد الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشر ، وأما الملاذفى طلب الخير كما قال الحسن بن هانئ فى شعره

يامن ألوذ به فيما أومله * ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره * ولا يهضون عظماً أنت جابره

وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة في أول التفسير بما أغنى عن إعادته هاهنا

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي
الْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر ، وتركوا ما عنه زجرأئهم (إذا مسهم) أى أصابهم طيف وقرأ الآخرون طائف وقد جاء فيه حديث وهما قراءتان مشهورتان ف قيل بمعنى واحد وقيل بينهما فرق ومنهم من فسر ذلك بالغضب ومنهم من فسر بمس الشيطان بالصرع ونحوه ومنهم من فسره بالهم بالذنب ومنهم من فسره باصابة الذنب وقوله (تذكروا) أى عقاب الله وجزيل ثوابه ووعدته ووعيده فتأبوا وأتابوا واستعاذوا بالله ورجعوا اليه من قريب (فإذا هم مبصرون) أى قد استقاموا وصحوا بما كانوا فيه وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه هاهنا حديث محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضى الله عنه قال جاءت امرأة الى النبي ﷺ وبها طيف فقالت يا رسول الله ادع الله أن يشفينى فقال « إن شئت دعوت الله فشفاك وإن شئت فاصبرى ولا حساب عليك » فقالت بل أصبر ولا حساب علىّ ورواه غير واحد من أهل السنن وعندهم قالت يا رسول الله إني أصرع وأتكشف فادع الله أن يشفينى فقال « إن شئت دعوت الله أن يشفيك وإن شئت صبرت ولك الجنة » فقالت بل أصبر ولى الجنة ولكن ادع الله أن لا أتكشف فدعا لها فكانت لا تتكشف وأخرجه الحاكم من مستدركه وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وقد ذكر الحافظ بن عساكر فى ترجمة عمرو بن جامع من تاريخه أن شابا كان يتعبد فى المسجد فهو يهوته امرأة فدعته إلى نفسها فمأزالت به حتى كاد يدخل معها المنزل فذكر هذه الآية (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) فخر مغشيا عليه ثم أفاق فأعادها فمات فجاء عمر فعزى فيه أباه وكان قد دفن ليلا فذهب فصلى على قبره بمن معه ثم ناداه عمر فقال يافتي (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فأجابه الفتى من داخل القبر يا عمر قد أعطانيهما ربى عز وجل فى الجنة مرتين . وقوله تعالى (وإخوانهم يمدونهم) أى وإخوان الشياطين من الإنس كقوله (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) وهم أتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم يمدونهم فى الغى أى تساعد الشياطين على المعاصى وتسهلها عليهم وتحسنها لهم وقال ابن كثير المد الزيادة يعنى يزيدونهم فى الغى يعنى الجهل والسفه (ثم لا يقصرون) قيل معناه إن الشياطين تمد الانس لا تقصر فى أعمالهم بذلك كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون) الآية قال لا الانس يقصرون عما يعملون ولا الشياطين تمسك عنهم وقيل معناه كما رواه العوفى عن ابن عباس فى قوله (يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون) قال هم الجن يوحون إلى أوليائهم من الإنس ثم لا يقصرون يقول لا يسأمون وكذا قال السدى وغيره أن يعنى الشياطين يمدون أولياءهم من الانس ولا تسأم من إمدادهم فى الشر لأن ذلك طبيعة لهم وسجية (لا يقصرون) لا تفر فيه ولا تبطل عنه كما قال تعالى (ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً) قال ابن عباس وغيره تزعجهم إلى المعاصى إزعاجا

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِبَيِّنَةٍ قَالُوا لَوْلَا أُجْتَبِئَتْ قُلُوبُنَا لَمَّا أَتَيْنَا بِمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَإٌ مِن رَّبِّكُمْ
وَهَدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْقَوْمِ الْيُؤْمِنُونَ ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى (قالوا لولا اجتبيتها) يقول لولا تلقينها وقال مرة أخرى لولا أحدثها فألشأنها وقال ابن جرير عن عبد الله بن كثير عن مجاهد فى قوله (وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجنيتها) قال لولا

اقتضيتها قالوا نخرجها عن نفسك وكذا قال قتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير وقال العوفي عن ابن عباس (لولا اجتبيتها) يقول تلقيتها من الله تعالى وقال الضحاك (لولا اجتبيتها) يقول لولا أخذتها أنت فبحث بها من السماء ومعنى قوله تعالى (وإذا لم تأتهم بآية) أي معجزة وخارق كقوله تعالى (إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) يقولون للرسول صلى الله عليه وسلم ألا تجهد نفسك في طلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها قال الله تعالى له (قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي) أي أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء وإنما أتبع ما أمروني به فأمثل ما يوحى إلي فإن بحثت آية قبلتها وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها إلا أن يأذن لي في ذلك فإنه حكيم عليم ثم أرشدني إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات وأبين الدلالات وأصدق الحجج والبيّنات فقال (هذا بصائر من ربكم وهدي ورحمة لقوم يؤمنون)

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدي ورحمة أمر تعالى بالانصات عند تلاوته إعظاما له واحتراما لا كما كان يعتمد كفار قريش المشركون في قولهم (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) الآية ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة كما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا» وكذا رواه أهل السنن من حديث أبي هريرة أيضا وصححه مسلم بن الحجاج أيضا ولم يخرج في كتابه وقال إبراهيم بن مسلم الهجري عن أبي عياض عن أبي هريرة قال كانوا يتكلمون في الصلاة فلما نزلت هذه الآية (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له) والآية الأخرى أمروا بالانصات قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم عن المسيب بن رافع قال ابن مسعود كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة فجاء القرآن (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) وقال أيضا حدثنا أبو كريب حدثنا المحارب عن داود بن أبي هند عن بشير بن جابر قال صلى ابن مسعود فسمع ناسا يقرءون مع الإمام فلما انصرف قال أما أن لكم أن تفهموا أما أن لكم أن تعقلوا (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) كما أمركم الله قال وحدثني أبو السائب حدثنا حفص عن أشعث عن الزهري قال نزلت هذه الآية في فتي من الأنصار (١) كان رسول الله ﷺ كلما قرأ شيئا قرأه فنزلت (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن من حديث الزهري عن أبي أكتمة الليثي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال «هل قرأ أحد منكم معي آتفا؟» قال رجل نعم يا رسول الله ، قال «إني أقول مالي أنزع القرآن» قال فاتته الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ وقال الترمذي هذا حديث حسن وصححه أبو حاتم الرازي ، وقال عبد الله بن المبارك عن يونس عن الزهري : قال لا يقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يسمعهم صوته ولكنهم يقرءون فيما لا يجهر به سرا في أنفسهم ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سرا ولا علانية فإن الله تعالى قال (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) قلت هذا مذهب طائفة من العلماء أن المأموم لا يجب عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام لا الفاتحة ولا غيرها وهو أحد قولي الشافعية وهو القديم كذهب مالك ورواية عن أحمد بن حنبل لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة وقال في الجديد يقرأ الفاتحة فقط في سكنت الإمام وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل لا يجب على المأموم قراءة أصلا في السرية ولا الجهرية بما ورد في الحديث «من كان له إمام فقرأته قراءته» وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر مرفوعا وهو في موطأ مالك عن وهب بن كيسان عن جابر موقوفا وهذا أصح وهذه السألة مبسوبة في غير هذا الموضع وقد أفرد لها الإمام أبو عبد الله البخاري مصنفا على حدة واختار وجوب القراءة خلف الإمام في السرية والجمهرية أيضا والله أعلم وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية (١) فيه أن الآية مكية نزلت قبل إسلام الأنصار .

قوله (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) يعنى فى الصلاة المفروضة ، وكذا روى عن عبد الله بن المغفل ، وقال ابن جرير حدثنا حميد بن مسعدة حدثنا بشر بن المفضل حدثنا الجريرى عن طلحة بن عبيد الله بن كريب قال : رأيت عبيد بن عمير وعطاء بن أبى رباح يتحدثان والقاص يقص ، فقلت ألا تستمعان إلى الذكر وتستوجبان الموعود ؟ قال فنظرا إلى ثم أقبلتا على حديثهما ، قال فأعدت فنظرا إلى وأقبلا على حديثهما ، قال فأعدت الثالثة قال فنظرا إلى فقالا : إنما ذلك فى الصلاة (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) وكذا قال سفيان الثوري عن أبى هاشم إسماعيل بن كثير عن مجاهد فى قوله (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) قال فى الصلاة وكذا رواه غير واحد عن مجاهد ، وقال عبد الرزاق عن الثوري عن ليث عن مجاهد قال : لا بأس إذا قرأ الرجل فى غير الصلاة أن يتكلم ، وكذا قال سعيد ابن جبير والضحاك وإبراهيم النخعي وقتادة والشعبي والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن المراد بذلك فى الصلاة وقال شعبة عن منصور سمعت إبراهيم بن أبى حمزة يحدث أنه سمع مجاهدا يقول فى هذه الآية (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) قال فى الصلاة والخطبة يوم الجمعة ، وكذا روى ابن جرير عن عطاء مثله ، وقال هشيم عن الربيع بن صبيح عن الحسن قال فى الصلاة وعند الذكر ، وقال ابن المبارك عن بقية سمعت ثابت بن عجلان يقول سمعت سعيد بن جبير يقول فى قوله (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) قال الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة وفيما يجهر به الإمام من الصلاة وهذا اختيار ابن جرير أن المراد من ذلك الإنصات فى الصلاة وفى الخطبة كما جاء فى الأحاديث من الأمر بالإنصات خلف الإمام وحال الخطبة ، وقال عبد الرزاق عن الثوري عن ليث عن مجاهد أنه كره إذا مر الإمام بآية خوف أو بآية رحمة أن يقول أحد من خلفه شيئا قال السكوت ، وقال مبارك بن فضالة عن الحسن إذا جلست إلى القرآن فأنصت له وقال الإمام أحمد حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا عباد بن ميسرة عن الحسن عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة » تفرد به الإمام أحمد رحمه الله تعالى

﴿ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ * إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيرا كما أمر بعبادته فى هذين الوقتين فى قوله (فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الاسراء وهذه الآية مكية ، وقال ههنا بالغدو وهو أول النهار والآصال جمع أصيل كما أن الأيمان جمع يمين ، وأما قوله (تضرعا وخيفة) أى اذكر ربك فى نفسك رغبة ورهبة وبالقول لا جهر ولهذا قال (ودون الجهر من القول) وهكذا يستحب أن يكون الله لا يكون نداء وجهرا بليغا ، ولهذا لما سألوا رسول الله ﷺ فقالوا : أقرئ ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله عز وجل (وإذا سألك عبادى عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان)

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعري رضى الله عنه قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء فى بعض الأسفار فقال لهم النبي ﷺ « يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائبا إن الذى تدعونه سميع قريب أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » وقد يكون المراد من هذه الآية كما فى قوله تعالى (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا) فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه وسبوا من أنزله وسبوا من جاء به فأمره الله تعالى أن لا يجهر به لئلا ينال منه المشركون ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعونهم وليتخذ سبيلا بين الجهر والاسرار ، وكذا قال فى هذه الآية الكريمة (ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين) وقد زعم ابن جرير وقبلة عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن المراد بها أمر السامع للقرآن فى حال استماعه بالذكر على هذه الصفة وهذا بعيد مناف للإنصات للمأمور به ، ثم إن المراد بذلك فى الصلاة كما تقدم أو فى الصلاة والخطبة ومعلوم

أن الأنصت إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان سواء كان سرا أو جهرا فهذا الذي قالاه لم يتابعا عليه ، بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال لئلا يكونوا من الغافلين ، ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون فقال (إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته) الآية ، وإنما ذكرهم بهذا ليقتنى بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم ، ولهذا شرع لنا السجود ههنا لما ذكر سجودهم لله عز وجل كما جاء في الحديث « ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها يتمون الصفوف الأول فالأول ويتراصون في الصف » وهذه أول سجدة في القرآن مما يشرع لتأليها ومستمعها السجود بالإجماع ، وقد ورد في حديث رواه ابن ماجه عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه عدها في سجدة القرآن آخر تفسير سورة الأعراف والله الحمد والمنة

(تفسير سورة الأنفال)

وهي مدنية . آياتها سبعون وست آيات . كلماتها ألف كلمة وستمائة كلمة وإحدى وثلاثون كلمة . حروفها خمسة آلاف ومائتان وأربعة وتسعون حرفا والله أعلم .

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ)
 إن كنتم مؤمنين

قال البخاري : قال ابن عباس : الأنفال المغنم ، حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا سعيد بن سليمان أخبرنا هشيم أخبرنا أبو بشر عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس رضي الله عنهما سورة الأنفال قال نزلت في بدر . أما ما علقه عن ابن عباس فكذلك رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال الأنفال الغنائم كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء والضحاك وقتادة وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد أنها المغنم ، وقال السكبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال : الأنفال الغنائم ، قال فيها لبيد :
 إن تقوى ربنا خير نفل * ويأذن الله ربي والعجل

وقال ابن جرير حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني مالك بن أنس عن ابن شهاب عن القاسم بن محمد قال سمعت رجلا يسأل ابن عباس عن الأنفال فقال ابن عباس رضي الله عنهما : الفرس من النفل والسلب من النفل . ثم عايناه فقال ابن عباس ذلك أيضا ثم قال الرجل : الأنفال التي قال الله في كتابه ما هي ؟ قال القاسم فلم يزل يسأله حتى كاد يخرجه فقال ابن عباس أتدرون ما مثل هذا مثل صبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن القاسم بن محمد قال : قال ابن عباس : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إذا سئل عن شيء قال لا أمرك ولا أنهك ثم قال ابن عباس والله ما بعث الله نبيه ﷺ إلا زاجرا أمرا محملا محرما . قال القاسم فسلط علي ابن عباس رجلا فسأله عن الأنفال فقال ابن عباس : كان الرجل ينفل فرس الرجل وسلاحه فأعاد عليه الرجل فقال له مثل ذلك ثم عاد عليه حتى أغضبه فقال ابن عباس : أتدرون ما مثل هذا ؟ مثل صبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب حتى سالت الدماء على عقبه أو على رجله ، فقال الرجل أما أنت فقد انتقم الله لعمر منك . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس أنه فسر النفل بما ينقله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم وهو المنبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل والله أعلم .

وقال ابن أبي نجيع عن مجاهد : إنهم سألوا رسول الله ﷺ عن الخمس بعد الأربعة من الأخماس فنزلت (يسألونك عن الأنفال) وقال ابن مسعود وسروق لا نفل يوم الزحف إنما النفل قبل التقاء الصفوف رآه ابن أبي حاتم عنهما ، وقال ابن المبارك وغير واحد عن عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء بن أبي رباح في الآية (يسألونك عن الأنفال) قال يسألونك فيما شئ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال من دابة أو عبد أو أمة أو متاع فهو نفل للنبي صلى الله

عليه وسلم يصنع به ما يشاء ، وهذا يقتضى أنه فسر الأنفال بالفاء وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال . قال ابن جرير وقال آخرون هي أنفال السرايا حدثني الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا علي بن صالح بن حي قال بلغني في قوله تعالى (يسألونك عن الأنفال) قال السرايا ومعنى هذا ما ينقله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش . وقد صرح بذلك الشعبي . واختار ابن جرير أنها الزيادة على القسم ويشهد لذلك ما ورد في سبب نزول الآية وهو ما رواه الإمام أحمد حدث قال : حدثنا أبو معاوية حدثنا أبو إسحق الشيباني عن محمد بن عبيد الله الثقفي عن سعد بن أبي وقاص قال : لما كان يوم بدر وقتل أخى عمير قتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه وكان يسمى ذا الكتيفة فأنتيت به النبي صلى الله عليه وسلم فقال « اذهب فاطرحه في القبض » قال فرجعت وبى ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخى وأخذ سلمي قال فمجاوزت إلا يسيرا حتى نزلت سورة الأنفال فقال لي رسول الله ﷺ « اذهب فخذ سلبك »

وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا أسود بن عامر أخبرنا أبو بكر عن عاصم بن أبي النجود عن مصعب بن سعد عن سعد بن مالك قال : قلت يا رسول الله قد شفاني الله اليوم من المشركين فهب لي هذا السيف ، فقال « إن هذا السيف لالك ولالى ، ضعه » قال فوضعتة ثم رجعت فقلت عسى أن يعطى هذا السيف من لا يبلى بلائى ، قال فإذا رجل يدعوني من ورائي قال قلت قد أنزل الله في شيئا ؟ قال كنت سألتني السيف وليس هو لى وإنه قد وهب لى فهو لك قال وأنزل الله هذه الآية (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول) ورواه أبو داود والترمذى والنسائى من طرق عن أبي بكر بن عياش به وقال الترمذى حسن صحيح وهكذا رواه أبو داود الطيالسى أخبرنا شعبة أخبرنا سماك بن حرب قال سمعت مصعب بن سعد يحدث عن سعد قال نزلت في أربع آيات أصبت سيفايوم بدر فأنتيت النبي ﷺ فقلت ثقلني ، فقال « ضعه من حيث أخذته » مرتين ثم عاودته فقال النبي ﷺ « ضعه من حيث أخذته » فنزلت هذه الآية (يسألونك عن الأنفال) الآية وتعام الحديث في نزول (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا) وقوله تعالى (إنما الحمر والميسر) وآية الوصية وقد رواه مسلم في صحيحه من حديث شعبة به وقال محمد بن إسحق حدثني عبد الله بن أبي بكر عن بعض بنى ساعدة قال : سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة يقول أصبت سيف ابن عائد يوم بدر وكان السيف يدعى بالمرزبان ، فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أن يردوا ما في أيديهم من النفل أقبلت به فألقيته في النفل وكان رسول الله ﷺ لا يمنع شيئا يسأله فراه الأرقم بن أبي الأرقم المخزوم فسأله رسول الله ﷺ فأعطاه إياه ، ورواه ابن جرير من وجه آخر

﴿ سبب آخر في نزول الآية ﴾

وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن سلمة عن ابن إسحق عن عبد الرحمن عن سليمان بن موسى عن مكحول عن أبي أمامة قال سألت عبادة عن الأنفال فقال فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقا فاتزع الله من أيدينا وجعله الى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين عن بواء ، يقول عن سواء . وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا أبو معاوية بن عمر أخبرنا أبو إسحق عن عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة عن سليمان بن موسى عن أبي سلامة عن أبي أمامة عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرا فالتقى الناس فهزم الله تعالى العدو فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون ، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه ، وأحدثت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصيب العدو منه غرة حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم الى بعض قال الدين جمعوا الغنائم نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب ، وقال الدين خرجوا في طلب العدو لستم بأحق به منا نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم ، وقال الدين أحذقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به فنزلت (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم) فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غار في أرض العدو نفل الربع ، فإذا أقبل راجعا نفل الثالث ، وكان يكره الأنفال ، ورواه الترمذى وابن ماجه من حديث سفيان الثوري عن عبد الرحمن بن الحارث به نحوه قال الترمذى هذا حديث صحيح ، ورواه ابن حبان في صحيحه والحاكم في

مستدرکه من حديث عبد الرحمن بن الحارث وقال الحاكم صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه وروى أبو داود والنسائي وابن جرير وابن مردويه واللفظ له ، وابن حبان والحاكم من طرق عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ « من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا » فتسارع في ذلك شبان القوم وبقى الشيوخ تحت الرايات ، فلما كانت الغنائم جاءتوا يطلبون الذي جعل لهم فقال الشيوخ لا تستأثروا علينا فإننا كنا ردءا لكم لو انكشفتم لفثتم لنا . فتنازعوا فأنزل الله تعالى (يسألونك عن الأنفال - إلى قوله - وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين) ، وقال الثوري عن السكابي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ « من قتل قتيلًا فله كذا وكذا ، ومن أتى بأسير فله كذا وكذا » فجاء أبو اليسر بأسيرين فقال يا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت وعدتنا بقاء سعد بن عباد فقال يا رسول الله : إنك لو أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة في الأجر ، ولا جبن عن العدو ، وإنما قمنا بهذا المقام محافظة عليك مخافة أن يأتوك من وراءك ، فتشاجروا ونزل القرآن (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول) قال ونزل القرآن (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسة) إلى آخر الآية وقال الإمام أبو عبيد الله القاسم بن سلام رحمه الله في كتاب الأموال الشرعية وبيان جهانها ومصارفها : أما الأنفال فهي الغنائم وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب ، فكانت الأنفال الأولى لرسول الله ﷺ يقول الله تعالى (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول) فقسّمها يوم بدر على ما أراه الله من غير أن يخمسها على ما ذكرناه في حديث سعد ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس فنسخت الأولى ، قلت هكذا روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس سواء ، وبه قال مجاهد وعكرمة والسدي . وقال ابن زيد ليست منسوخة بل هي محكمة ، قال أبو عبيد وفي ذلك آثار ، والأنفال أصلها جماع الغنائم إلا أن الخمس منها مخصوص لأهلها على ما نزل به الكتاب وجرت به السنة ، ومعنى الأنفال في كلام العرب كل إحسان فعله فاعل تفضلا من غير أن يجب ذلك عليه ، فذلك النفل الذي أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم وإنما هو شيء خصهم الله به تطولا منه عليهم بعد أن كانت الغنائم محرمة على الأمم قبلهم فنفلها الله تعالى هذه الأمة فهذا أصل النفل ، قلت شاهد هذا ما في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي - فذكر الحديث إلى أن قال - وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي » وذكر تمام الحديث : ثم قال أبو عبيد ولهذا سمى ما جعل الإمام للمقاتلة نفلا وهو تفضيله بعض الجيش على بعض بشيء سوى سهامهم يفعل ذلك بهم على قدر الغناء ، عن الإسلام والنكاح في العدو ، وفي النفل الذي ينقله الإمام سنن أربع لكل واحدة منهن موضع غير موضع الأخرى (فإحداهن) في النفل لخمس فيه وذلك السلب (والثانية) النفل الذي يكون من الغنيمة بعد إخراج الخمس وهو أن يوجه الإمام السرايا في أرض الحرب فتأتي بالغنائم فيكون للسرية مما جاءت به الربع أو الثلث بعد الخمس (والثالثة) في النفل من الخمس نفسه وهو أن تحاز الغنيمة كلها ثم تخمس فإذا صار الخمس في يدي الإمام نفل منه على قدر ما يرى (والرابعة) في النفل في حيلة الغنيمة قبل أن يخمس منها شيء وهو أن يعطى الأدلاء ورعاة الماشية والسواق لها . وفي كل ذلك اختلاف

قال الربيع : قال الشافعي : الأنفال أن لا يخرج من رأس الغنيمة قبل الخمس شيء غير السلب . قال أبو عبيد والوجه الثاني من النفل هو شيء زيدوه غير الذي كان لهم وذلك من خمس النبي صلى الله عليه وسلم فإن له خمس الخمس من كل غنيمة فينبغي للإمام أن يجتهد ، فإذا كثر العدو واشتدت شكوتهم وقل من يازاؤه من المسلمين قل منه ابتعا لسنة رسول الله ﷺ وإذا لم يكن ذلك لم ينفل (والوجه الثالث) من النفل إذا بعث الإمام سرية أو جيشا فقال لهم قبل اللقاء من غنم شيئا فهو له بعد الخمس فهو لهم على ما شرط الإمام لأنهم على ذلك غزوا وبه رضا انتهى كلامه ، وفيما تقدم من كلامه وهو قوله : إن غنائم بدر لم تخمس نظر ، ويرد عليه حديث علي بن أبي طالب في شارفيه اللذين حصلاه من الخمس يوم بدر وقد بينت ذلك في كتاب السيرة بيانا شافيا والله الحمد والمنة . وقوله تعالى (فاتقوا

الله وأصلحوا ذات بينكم) أى اتقوا الله فى أموركم وأصلحوا فيما بينكم ولا تظلموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه (وأطيعوا الله ورسوله) أى فى قسمه بينكم على ما أَرَادَهُ اللهُ ، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والانصاف وقال ابن عباس هذا تحريج من الله ورسوله أن يتنوا ويصلحوا ذات بينهم وكذا قال مجاهد ، وقال السدى (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم) أى لا تستبوا . ولنذكر هنا حديثاً أورده الحافظ أبو يعلى أحمد بن حلى بن المثنى الموصلى رحمه الله فى مسنده فإنه قال : حدثنا مجاهد بن موسى حدثنا عبد الله ابن بكير حدثنا عباد بن شيبة الجبلى عن سعيد بن أنس عن أنس رضى الله عنه قال : بينا رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر ما أضحكك يا رسول الله بأبى أنت وأمى ؟ فقال « رجلان من أمى جثيا بين يدى رب العزة تبارك وتعالى فقال أحدهما : يا رب خذلى مظلمتى من أخى . قال الله تعالى أعطى أخاك مظلمته قال : يا رب لم يبق من حسناتى شيء قال : رب فليحمل عني من أوزارى » قال : ففاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ثم قال « إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى من يتحمل عنهم من أوزارهم ، فقال الله تعالى للطالب ارفع بصرك وانظر فى الجنان فرفع رأسه فقال : يا رب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة بالؤلؤ . لأى نبي هذا ؟ لأى صديق هذا ؟ لأى شهيد هذا ؟ قال هذا لمن أعطى ثمنه ؟ قال رب ومن يملك ثمنه ؟ قال أنت تملكه قال ما ذا يا رب ؟ قال تغفو عن أخيك ، قال يا رب فأنى قد عفوت عنه ، قال الله تعالى خذ بيد أخيك فادخلا الجنة » ثم قال رسول الله ﷺ « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة »

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) قال : المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه . ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ولا يتوكلون ولا يصلون إذا غابوا ولا يؤدون زكاة أموالهم ، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين ثم وصف الله المؤمنين فقال (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) فأدوا فرائضه (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) يقول زادتهم تصديقاً (وعلى ربهم يتوكلون) يقول لا يرجون غيره وقال مجاهد (وجلت قلوبهم) فرقت أى فزعت وخافت وكذا قال السدى وغير واحد ، وهذه صفة المؤمن حق المؤمن الذى إذا ذكر الله وجل قلبه أى خاف منه ، ففعل أوامره ، وترك زواجره كقوله تعالى (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) وكقوله تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هى المأوى) ولهذا قال سفيان الثورى سمعت السدى يقول فى قوله تعالى (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) قال هو الرجل يريد أن يظلم أو قال يهيم بمعضية فيقال له اتق الله فيجل قلبه وقال الثورى أيضاً عن عبد الله بن عثمان بن خيثم عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء فى قوله (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) قال الوجل فى القلب كاحتراق السعفة أما تجدل له تشعيرة ؟ قال بلى قالت إذا وجدت ذلك فادع الله عند ذلك فإن الدعاء يذهب ذلك ، وقوله (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) كقوله (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيسكم زادته هذه إيماناً ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون) وقد استدل البخارى وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهاها على زيادة الإيمان وتفاضله فى القلوب كما هو مذهب جمهور الأئمة بل قد حكى الإجماع عليه غير واحد من الأئمة كالشافعى وأحمد بن حنبل وأبى عبيد كما بينا ذلك مستقصى فى أول شرح البخارى والله الحمد والمنة (وعلى ربهم يتوكلون)

أى لا يرجون سواء ولا يقصدون إلا إياه ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأنه التصرف في الملك ، وحده لا شريك له ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ولهذا قال سعيد بن جبير التوكل على الله جماع الإيمان . وقوله (الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) ينبه تعالى بذلك على أعمالهم بعد ما ذكر اعتقادهم وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها ، وهو إقامة الصلاة وهو حق الله تعالى وقال قتادة: إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها ، وقال مقاتل بن حيان إقامتها المحافظة على مواقيتها وإسباغ الطهور فيها وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها والتشهد والصلاة على النبي ﷺ هذا إقامتها ، والاتفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب . والخلق كلهم عيال الله فأحبههم إلى الله أنفعهم لخلقهم . قال قتادة في قوله (ومما رزقناهم ينفقون) فأنفقوا مما رزقكم الله فإنما هذه الأموال عوارى وودائع عندك يا ابن آدم أو شكت أن تفارقها

وقوله (أولئك هم المؤمنون حقا) أى المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان . وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي حدثنا أبو كريب حدثنا زيد بن الحباب حدثنا ابن لهيعة عن خالد بن يزيد السكسكي عن سعيد بن أبي هلال عن محمد بن أبي الجهم عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مر برسول الله ﷺ فقال له « كيف أصبحت يا حارث ؟ » قال . أصبحت مؤمنا حقا قال « انظر ما تقول فان لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ » فقال عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظلمات نهارى وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاوون فيها وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها . فقال « يا حارث عرفت فالزم » ثلاثا وقال عمرو بن مرة في قوله تعالى (أولئك هم المؤمنون حقا) إنما أنزل القرآن باسان العرب كقولك فلان سيد حقا وفى القوم سادة . وفلان تاجر حقا وفى القوم تجار . وفلان شاعر حقا وفى القوم شعراء . وقوله (لهم درجات عند ربهم) أى منازل ومقامات ودرجات فى الجنات كما قال تعالى (لهم درجات عند الله والله بصير بما يعملون) (ومغفرة) أى يغفر لهم السيئات ويشكر لهم الحسنات . وقال الضحاك فى قوله (لهم درجات عند ربهم) أهل الجنة بعضهم فوق بعض فىرى الذى هو فوق فضله على الذى هو أسفل منه ، ولا يرى الذى هو أسفل منه أنه فضل عليه أحد ، ولهذا جاء فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « إن أهل عليين ليأمرهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر فى أفق من آفاق السماء » قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم فقال « بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » وفى الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث ابن أبى عتيبة عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الدرجات العلى كما تراءون الكوكب الغابر فى أفق السماء وإن أبابكر وعمر منهم وأنما »

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * وَإِذْ بَعَدُكُمْ اللَّهُ إِخْدَى الْأَطَائِفَ فَمِنْهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكِةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾

قال الإمام أبو جعفر الطبرى اختلف المفسرون فى السبب الجالب لهذه الكاف فى قوله (كما أخرجك ربك) فقال بعضهم شبه به فى الصلاح للمؤمنين اتقاؤهم ربهم وإصلاحهم ذات بينهم وطاعتهم لله ورسوله ثم روى عن عكرمة نحو هذا ومعنى هذا أن الله تعالى يقول كما أنكم لما اختلفتم فى الغنائم وتشاحتم فيها فاتزعها الله منكم وجعلها إلى قسمه وقسم رسول الله ﷺ فقسمها على العدل والتسوية فكان هذا هو المصلحة التامة لكم وكذلك لما كرهتم الخروج إلى

الأعداء من قتال ذات الشوكة وهم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم وإحراز غيرهم فكان عاقبة كراحتكم للقتال بأن قدره لكم وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد رشدًا وهدى ، ونصرا وفتحًا ، كما قال تعالى (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) قال ابن جرير وقال آخرون معنى ذلك (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) على كره من فريق من المؤمنين كذلك هم كارهون للقتال فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم .. ثم روى عن مجاهد نحوه أنه قال (كما أخرجك ربك) قال كذلك يجادلونك في الحق وقال السدي أنزل الله في خروجه إلى بدر ومجادلتهم إياه فقال (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون) لطلب المشركين (يجادلونك في الحق بعد ما تبين) وقال بعضهم يسألونك عن الأنفال مجادلة كما جادلوك يوم بدر فقالوا أخرجتنا للغير ولم تعلمنا قتالا فنستعد له . قلت رسول الله ﷺ إنما خرج من المدينة طالباً لغير أبي سفيان التي بلغه خبرها أنها صادرة من الشام فيها أموال جزيلة لقريش فاستنص رسول الله ﷺ المسلمين من خف منهم فخرج في ثلثائة وبضعة عشر رجلاً ، وطلب نحو الساحل من على طريق بدر ، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في طلبه فبعث ضمضم بن عمرو نذيراً إلى أهل مكة فهضوا في قريب من ألف مقنع ما بين التسعمائة إلى الألف وتيامن أبو سفيان بالغير إلى سيف البحر فنجوا وجاء النفير فوردوا ما بدر وجمع الله بين المسلمين والكافرين على غير ميعاد لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين ونصرهم على عدوهم والفرقة بين الحق والباطل كما سيأتي بيانه ، والغرض أن رسول الله ﷺ لما بلغه خروج النفير أوحى الله إليه بعده إحدى الطائفتين إما العير وإما النفير ورغب كثير من المسلمين إلى العير لأنه كسب بلا قتال كما قال تعالى (وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين) قال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره حدثنا سليمان بن أحمد الطبراني حدثنا بكر بن سهل حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران حدثه أنه سمع أبا أيوب الأنصاري يقول : قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة « إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله أن يغنمناها ؟ » فقلنا نعم فخرج وخرجنا فلمسرنا يوماً أو يومين قال لنا « ماترون في قتال القوم فإنهم قد أخبروا بخروجكم ؟ » فقلنا لا والله ما لنا طاقة بقتال العدو ولكننا أردنا العير ثم قال « ماترون في قتال القوم ؟ » فقلنا مثل ذلك فقال القنادين عمرو إذا لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) قال فتمنينا معشر الأنصار أن لو قلنا كما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم ، قال فأنزل الله على رسوله ﷺ (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون) وذكر تمام الحديث ورواه ابن أبي حاتم من حديث ابن لهيعة نحوه وروى ابن مردويه أيضاً من حديث محمد بن عمرو بن علقمة بن أبي وقاص الليثي عن أبيه عن جده قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر حتى إذا كانت بالروحاء خطب الناس فقال « كيف ترون ؟ » فقال أبو بكر : يا رسول الله بلغنا أنهم بمكان كذا وكذا ، قال : ثم خطب الناس فقال « كيف ترون ؟ » فقال عمر مثل قول أبي بكر ثم خطب الناس فقال « كيف ترون ؟ » فقال سعد بن معاذ يا رسول الله إيانا تريد ؟ فوالذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ولا لي بها علم ولئن سرت حتى تأتي برك الغماد من ذي يمن لنسيرن معك ولا نكون كالذين قالوا لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون ، ولعلك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله اليك غيره فانظر الذي أحدث الله اليك فامض له ، فصل جبال من شئت ، واقطع جبال من شئت ، وعاد من شئت ، وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، فزّل القرآن على قول سعد (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون) الآيات وقال العوفي عن ابن عباس لما شاور النبي صلى الله عليه وسلم في لقاء العدو ، وقال له سعد بن عباد ما قال وذلك يوم بدر أمر الناس أن يتهيأوا للقتال وأمرهم بالشوكة فكره ذلك أهل الإيمان فأنزل الله (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون) * يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم

ينظرون) وقال مجاهد يجادلونك في الحق : في القتال ، وقال محمد بن إسحق (يجادلونك في الحق) أى كراهية للقاء المشركين ، وإنكاراً لمسير قريش حين ذكروا لهم وقال السدى (يجادلونك في الحق بعد ماتين) أى بعد ماتين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله به . قال ابن جرير وقال آخرون عنى بذلك المشركين ، حدثنا يونس أنبأنا ابن وهب قال : قال ابن زيد في قوله تعالى (يجادلونك في الحق بعد ماتين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون) قال هؤلاء المشركون جادلوه في الحق كأنما يساقون إلى الموت حين يدعون إلى الاسلام وهم ينظرون . قال وليس هذا من صفة الآخرين . هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر . ثم قال ابن جرير ولا معنى لما قاله لأن الذى قبل قوله (يجادلونك في الحق) خبر عن أهل الإيمان والذى يتلوه خبر عنهم . والصواب قول ابن عباس وابن إسحق أنه خبر عن المؤمنين وهذا الذى نصره ابن جرير هو الحق وهو الذى يدل عليه سياق الكلام والله أعلم . وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا يحيى بن بكير وعبد الرزاق قالا : حدثنا إسرائيل عن سهاك عن عكرمة عن ابن عباس قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر عليك بالخير ليس دونها شيء فناداه العباس بن عبد المطلب قال عبد الرزاق وهو أسير في وثاقه إنه لا يصلح لك : قال ولم ؟ قال لأن الله عز وجل إنما وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك الله ما وعدك إسناد جيد ولم يخرج^(١) ومعنى قوله تعالى (وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) أى يحبون أن الطائفة التى لاحد لها ولا منعة ولا قتال تكون لهم وهى العير (ويريد الله أن يحق الحق بكلماته) أى هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التى لها الشوكة والقتال ليظفركم بهم وينصركم عليهم . ويظهر دينه ويرفع كلمة الاسلام ويجعله غالباً على الأديان وهو أعلم بعواقب الأمور وهو الذى يدبركم بحسن تدبيره ، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم كقوله تعالى (كتب عليكم القتال وهو كره لكم . وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم) وقال محمد بن إسحق رحمه الله حدثني محمد بن مسلم الزهرى . وعاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبى بكر ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا عن عبد الله بن عباس كل قد حدثني بعض هذا الحديث فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر قالوا لما سمع رسول الله ﷺ بأبى سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم . وقال هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها فاتتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقي حرباً وكان أبوسفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار . ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً على أمر الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فحذر عند ذلك فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى فبعثه إلى أهل مكة وأمره أن يأتى قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه فخرج ضمضم ابن عمرو سريعاً إلى مكة وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه حتى بلغ وادياً يقال له ذفران فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم لينعوا غيرهم فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر رضى الله عنه فقال فأحسن . ثم قام عمر رضى الله عنه فقال فأحسن . ثم قام المقداد بن عمرو فقال يا رسول الله امض لما أمرك الله به فبحن معك والله لا تقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغنم لبعثت الجحش لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ودعا له بخير ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أشيروا على أيها الناس » وإنما يريد الأنصار ، وذلك أنهم كانوا عسدد الناس وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا يا رسول الله : إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا بمن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم فاما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك قال له سعد

(١) فى نسخة الأهر : ولم يخرجوه ، يعنى الشيخين وأصحاب السنن .

ابن معاذ والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أجل» فقال فقد آمننا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا وموآثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أمرك الله فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما يتخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ، فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك ثم قال «سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأنني الآن أنظر إلى مصارع القوم» وروى العوفي عن ابن عباس نحوه هذا وكذلك قال السدي وقتادة وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم وغير واحد من علماء السلف والخلف اختصروا أقوالهم اكتفاء بسياق محمد بن إسحق

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نوح قرأ حدثنا عكرمة بن عمار حدثنا ممالك الحنفى أبو زميل حدثني ابن عباس حدثني عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلثمائة ونيف ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة فاستقبل النبي ﷺ القبلة وعليه رداؤه وإزاره ، ثم قال «اللهم أنجز لى ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد فى الأرض أبدا» قال فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداء فرداه ثم التزمه من ورائه ثم قال: يا نبي الله كفالك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) فلما كان يومئذ القوا فهزم الله المشركين فقتل منهم سبعون رجلا وأسر منهم سبعون رجلا ، واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعلياً فقال أبو بكر: يا رسول الله هؤلاء بنو العلم والعشيرة والاخوان وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضدا فقال رسول الله ﷺ «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قال: قلت والله ما أرى ما رأى أبو بكر ولكنى أرى أن تمكنى من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه وتمكن علياً من عقيل فبضرب عنقه وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله أن ليس فى قلوبنا هودة للمشركين ، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم . فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت وأخذ منهم الفداء فلما كان من الغد قال عمر فتدوت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وهما يكيان فقلت: يا رسول الله ما يكيان أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تبكيت لبكائكما . قال النبي ﷺ «لله الذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة» لشجرة قريبة من النبي ﷺ وأنزل الله عز وجل (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض - إلى قوله - فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا) فأحل لهم الغنائم . فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون وفر أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه وسال الدم على وجهه فأنزل الله (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شىء قدير) بأخذكم الفداء ورواه مسلم وأبو داود والترمذى وابن جرير وابن مردويه من طرق عن عكرمة بن عمار به وصححه على بن الدينى والترمذى وقال لا يعرف إلا من حديث عكرمة بن عمار الجمانى وهكذا روى على بن أبى طاحه والعوفي عن ابن عباس أن هذه الآية الكريمة قوله (إذ تستغيثون ربكم) فى دعاء النبي ﷺ وكذا قال يزيد بن تبيع والسدي وابن جريج وقال أبو بكر بن عياش عن أبى حصين عن أبى صالح قال: لما كان يوم بدر جعل النبي ﷺ يناشد ربه أشد المناشدة يدعو فأتاه عمر بن الخطاب

رضي الله عنه فقال يا رسول الله : بعض مناشدتك فوالله ليفين الله لك بما وعدك ، قال البخارى فى كتاب المغازى باب قول الله تعالى (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم - إلى قوله - فإن الله شديد العقاب) حدثنا أبو نعم حدثنا إسرائيل عن عمارق عن طارق بن شهاب قال سمعت ابن مسعود يقول شهدت من القداد بن الأسود مشهدا لأن أكون صاحبه أحب إلى مما عبد به ، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : لا تقول كما قال قوم مومى (اذهب أنت وربك فقاتلا) ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره يعنى قوله . حدثني محمد بن عبد الله بن حوشب حدثنا عبد الوهاب حدثنا خالد الحذاء عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال النبي ﷺ يوم بدر « اللهم أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد » فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك فخرج وهو يقول « سيزم الجمع ويولون الدبر » ورواه النسائي عن بندار عن عبد الوهاب عن عبد الحميد الثقفي وقوله تعالى (بألف من الملائكة مردفين) أى يردف بعضهم بعضا كما قال هارون بن هيرة عن ابن عباس (مردفين) متابعين ويحتمل أن المراد (مردفين) لكم أى نجدة لكم كما قال العوفي عن ابن عباس (مردفين) يقول المدد كما تقول أنت للرجل زده كذا وكذا وهكذا قال مجاهد وابن كثير القارىء وابن زيد (مردفين) مدين ، وقال أبو كدينة عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس (يمددكم ربكم بألف من الملائكة مردفين) قال وراء كل ملك ملك . وفى رواية بهذا الإسناد (مردفين) قال بعضهم على أثر بعض وكذا قال أبو ظبيان والضحاك وقتادة وقال ابن جرير حدثني الثني حدثنا إسحق حدثنا يعقوب بن محمد الزهرى حدثني عبد العزيز بن عمران عن الربيع عن أنى الحويرث عن محمد بن جبير عن علي رضي الله عنه قال : نزل جبريل فى ألف من الملائكة عن ميمنة النبي ﷺ وفيها أبو بكر ، ونزل ميكائيل فى ألف من الملائكة عن ميسرة النبي ﷺ وأنا فى الميسرة . وهذا يقتضى إن صح إسناده أن الألف مردفة بمثلها ولهذا قرأ بعضهم (مردفين) بفتح الدال والله أعلم . والمشهور ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة فكان جبريل فى خمسمائة من الملائكة مجنبة ، وميكائيل فى خمسمائة مجنبة ، وروى الإمام أبو جعفر ابن جرير ومسلم من حديث عكرمة بن عمار عن أبي زميل سماك ابن وليد الحنفى عن ابن عباس عن غمر الحديث المتقدم ثم قال أبو زميل : حدثني ابن عباس قال : بينا رجل من المسلمين يشد فى أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيا قال فنظر إليه فإذا هو قد حطم وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع فجاء الأنصارى فحدث ذلك رسول الله ﷺ فقال صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين وقال البخارى : (باب شهود الملائكة بدرا) حدثنا إسحق بن إبراهيم حدثنا جرير عن يحيى بن سعيد عن معاذ بن رفاع بن رافع الزرقى عن أبيه وكان أبوه من أهل بدر قال جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال « من أفضل المسلمين » أو كلمة نحوها قال : وكذلك من شهد بدرا من الملائكة . انفرد بإخراجه البخارى وقد رواه المطبراني فى المعجم الكبير من حديث رافع بن خديج وهو خطأ ، والصواب رواية البخارى والله أعلم وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لعمر لما شاوره فى قتل حاطب بن أبى بلتعة « إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله قد أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » وقوله تعالى (وما جعله الله إلا بشرى) الآية . أى وما جعل الله بعث الملائكة واعلامه إياكم بهم إلا بشرى (ولنطمئن به قلوبكم) وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله أى بدون ذلك ولهذا قال (وما النصر إلا من عند الله) كما قال تعالى (فإذا لقيتم الذين كفروا فاضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها * ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سهدهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم) وقال تعالى (وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليحص الله الذين آمنوا

ويعحق الكافرين) فهذه حكم شرع الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمم المكذبة كما أهلك قوم نوح بالطوفان ، وعادا الأولى بالدبور ، وثمود بالصيحة ، وقوم لوط بالحسف والقلب وحجارة السجيل ، وقوم شعيب بيوم الظلة ، فلما بعث الله تعالى موسى وأهلك عدوه فرعون وقومه بالفرق في اليم ثم أنزل على موسى التوراة شرع فيها قتال الكفار واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك كما قال تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر) وقتل المؤمنين للكافرين أشد إهانة للكافرين ، وأشفى لصدور المؤمنين ، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة (قاتلوهم بعذابهم الله بأيديكم ، ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين) ولهذا كان قتل صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدراهم أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان ، فقتل أبي جهل في معركة القتال وحومة الوغى أشد إهانة له من موته على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك كما مات أبو لهب لعنه الله بالعدسة بحيث لم يقربه أحدهم من أقرابه ، وإنما غسلوه بالماء قذفا من بعيد ، ورجموه حتى دفنوه ، ولهذا قال تعالى (إن الله عزيز) أي له العزة ورسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة كقوله تعالى (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) (حكيم) فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته سبحانه وتعالى

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَ كُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْتِي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَغْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذَٰلِكُمْ فَذَوْقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾

يذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلفائه النعاس عليهم أمانا أمنهم به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد كما قال تعالى (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم) الآية ، قال أبو طلحة : كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد ، ولقد سقط السيف من يدي مرارا يسقط وأخذه ، ويسقط وأخذه ولقد نظرت إليهم يمدون وهم تحت الحجب : وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا زهير حدثنا ابن مهدي عن شعبة عن أبي إسحق عن حارثة بن مضرب عن علي رضي الله عنه قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح . وقال سفيان الثوري عن عاصم عن أبي رزين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : النعاس في القتال أمانة من الله ، وفي الصلاة من الشيطان ، وقال قتادة : النعاس في الرأس ، والنوم في القلب ، قلت أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد وأمر ذلك مشهور جدا ، وأما الآية الشريفة إنما هي ^(١) في سياق قصة بدر ، وهي دالة على وقوع ذلك أيضا وكان ذلك كائن للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم أمانة مطمئنة بنصر الله ، وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمته عليهم وكما قال تعالى (فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا) ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق رضي الله عنه وهما يدعوان أخذت رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة من النوم ثم استيقظ متبسما فقال « أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثناياه النقع » ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى (سبزم الجمع ويولون الدبر) وقوله (وينزل عليكم من السماء ماء) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : نزل النبي صلى الله عليه وسلم حين سار إلى بدر والمشركون بينهم وبين الماء رملة دعصة وأصاب المسلمين ضعف شديد وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله وقد

(١) الوجه أن يقال فإنما هي إلى الخ وفي الأميرية وفي نسخة الأزهر ، وأما يوم بدر فهذه الآية الشريفة إنما هي في سياق قصة بدر .

غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصالون مجننين فأمر الله عليهم مطرا شديدا فشرب المسلمون وتطهروا وأذهبت الله عنهم رجس الشيطان وثبت الرمل حين أصابه المطر ومشي الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم ، وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة فكان جبريل في خمسمائة مجنبة ، وميكائيل في خمسمائة مجنبة . وكذا قال العوفي عن ابن عباس : إن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير وليقاتلوا عنها نزلوا على الماء يوم بدر فغلبوا المؤمنين عليه فأصاب المؤمنين الظما فجعلوا يصلون مجننين محدثين حتى تعاطوا ذلك في صدورهم فأُنزل الله من السماء ماء حتى سأل الوادي فشرب المؤمنون وملؤا الأسقية وسقوا الركاب واغتسلوا من الجنابة فجعل الله في ذلك طهورا وثبت به الأقدام وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة فبعث الله المطر عليها فضر بها حتى اشتدت وثبتت عليها الأقدام . ونحو ذلك روى عن قيادة والضحاك والسدي ، وقد روى عن سعيد بن المسيب والشعبي والزهرى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه طش أصحابهم يوم بدر . والمعروف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سار إلى بدر نزل على أدنى ماء هناك أى أول ماء وحده فتقدم إليه الحباب بن النذر فقال يا رسول الله هذا المنزل الذي نزلته منزل أنزلك الله إياه فليس لنا أن نجاوزة أو منزل نزلته للحرب والمكيدة ؟ فقال « بل منزل نزلته للحرب والمكيدة » فقال يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل ولكن سربنا حتى نزل على أدنى ماء إلى القوم ونغور ما وراءه من القلب ، ونستقي الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء فسار رسول الله ﷺ ففعل كذلك ، وفي مغازي الأموي أن الحباب لما قال ذلك نزل ملك من السماء وجبريل جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ذلك الملك ، يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول لك إن الرأي ما أشار به الحباب بن النذر فالتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل عليه السلام فقال « هل تعرف هذا ؟ » فنظر إليه فقال : ما كل الملائكة أعرفهم وإنه ملك وليس بشيطان . وأحسن ما في هذا ما رواه الإمام محمد ابن إسحق بن يسار صاحب المغازي رحمه الله حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قال : بعث الله السماء وكان الوادي دهسا فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبسده لهم الأرض ولم يمنعهم من المسير وأصاب قريشا ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه وقال مجاهد : أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس فأطفأ بالمطر الغبار وتلبدت به الأرض وطابت نفوسهم وثبتت به أقدامهم ، وقال ابن جرير : حدثنا هرون بن إسحق حدثنا مصعب بن المقدم حدثنا إسرائيل حدثنا أبو إسحق عن جارية عن علي رضي الله عنه قال : أصابنا من الليل طش من المطر يعنى اليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر فانطلقنا تحت الشجرة والحجف نستظل تحتها من المطر وبات رسول الله ﷺ وحرص على القتال . وقوله (ليظهركم به) أى من حدث أصغر أو أكبر وهو تطهير الظاهر (ويذهب عنكم رجس الشيطان) أى من وسوسة أو خاطر سيء وهو تطهير الباطن كما قال تعالى في حق أهل الجنة (عليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة) فهذا زينة الظاهر (وسقامهم ربهما شرابا طهورا) أى مطهرا لما كان من غل أو حسد أو تباعض وهو زينة الباطن وطهارته (وليربط على قلوبكم) أى بالصبر والاقدام على مجاهدة الأعداء وهو شجاعة الباطن (ويثبت به الأقدام) وهو شجاعة الظاهر والله أعلم

وقوله (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا) وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها وهو أنه تعالى وتقدس وتبارك وتمجد أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين يوحى إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا قال ابن إسحق : وأزروهم ، وقال غيره : قاتلوا معهم وقيل كثروا سوادهم وقيل كان ذلك بأن الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيقول سمعت هؤلاء القوم يعنى المشركين يقولون والله لئن حملوا علينا لننكشفن فيحدث المسلمون بعضهم بعضا بذلك فتقوى أنفسهم حكاة ابن جرير وهذا لفظه بحروفه ، وقوله (سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب) أى ثبتوا أنتم المؤمنين وقوا أنفسكم على أعدائهم عن أمرى لكم بذلك سألقى الرعب والدلة والصغار على من خالف أمرى وكذب رسولى (فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) أى اضربوا الهام ففأقوها ، واحزوا الرقاب فقطعوها ، وقطعوا الأطراف منهم وهى

أيديهم وأرجلهم وقد اختلف المفسرون في معنى (فوق الأعناق) فقيل معناه اضربوا الرؤوس قاله عكرمة وقيل معناه أى على الأعناق وهى الرقاب قاله الضحاك وعطية العوفى ويشهد لهذا المعنى أن الله تعالى أُرشد المؤمنين إلى هذا في قوله تعالى (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق) وقال وكيع عن المسعودى عن القاسم قال : قال النبي ﷺ « إني لم أبعث لأعذب بعذاب الله ، إنما بعث لضرب الرقاب وشد الوثاق » واختار ابن جرير أنها قد تدل على ضرب الرقاب وفلق الهام ، قلت وفي مغازى الأموى أن رسول الله ﷺ جعل يمر بين القتلى يوم بدر فيقول « يفلق هاما » فيقول أبو بكر (١) ... من رجال أعزة علينا * وهم كانوا أعق وأظلما فيبتدى رسول الله ﷺ بأول البيت ويستطعم أبا بكر رضى الله عنه إنشاد آخره لأنه كان لا يحسن إنشاد الشعر كما قال تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) وقال الربيع بن أنس : كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلهم بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل ممة النار قد أحرق به ، وقوله (واضربوا منهم كل بنان) قال ابن جرير معناه واضربوا من عدوكم أيها المؤمنون كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم ، والبنان جمع بنانة كما قال الشاعر :

ألا ليتنى قطعت منى بنانة * ولاقيته في البيت يقظان حاذرا

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (واضربوا منهم كل بنان) يعنى بالبنان الأطراف وكذا قال الضحاك وابن جرير وقال السدى البنان الأطراف ويقال كل مفصل وقال عكرمة وعطية العوفى والضحاك في رواية أخرى كل مفصل وقال الأوزاعى في قوله تعالى (واضربوا منهم كل بنان) قال اضرب منه الوجه والعين وارمه بشهاب من نار فإذا أخذته حرم ذلك كله عليك وقال العوفى عن ابن عباس فذكر قصة بدر إلى أن قال فقال أبوجهل لا تنفاهم قتلوا ولكن خذوهم أخذنا حتى تعرفوهم الذى صنعوا من طعنهم في دينكم ورضيتهم عن اللات والعزى فأوحى الله إلى الملائكة (أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألنى في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) الآية . فقتل أبوجهل لعنه الله في تسعة وستين رجلا ، وأسر عقبة بن أبى معيط فقتل صبرا فوفى ذلك سبعين يعنى قتيلا ولهذا قال تعالى (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله) أى خالفوها فسااروا في شق وتركوا الشرع والإيمان به واتساعه في شق ، ومأخوذ أيضا من شق العصا وهو جعلها فرقتين (ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب) أى هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه لا يفوته شىء ولا يقوم لغضبه شىء تبارك وتعالى لا إله غيره ولا رب سواه (ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار) هذا خطاب للكفار أى ذوقوا هذا العذاب والنكال في الدنيا واعلموا أيضا أن للكافرين عذاب النار في الآخرة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْأُدْبَارَ * وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

يقول تعالى متوعدا على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا) أى تقاربتم منهم ودبوتهم إليهم (فلا تولوهم الأدبار) أى تفروا وتركوا أصحابكم (ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال) أى يفر بين يدي قرنه مكيدة ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه ثم يكر عليه فيقتله فلا بأس عليه في ذلك نص عليه سعيد بن جبير والسدى وقال الضحاك أن يتقدم عن أصحابه ليرى غرة من العدو فيصيبها (أو متحيزا إلى فئة) أى فر من هاهنا إلى فئة أخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونونه فيجوز له ذلك حتى لو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم دخل في هذه الرخصة قال الإمام أحمد : حدثنا حسن حدثنا زهير حدثنا يزيد بن أبى زياد عن عبد الرحمن بن أبى ليلي عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس حصية فكنت فيمن حاص فقلنا كيف نضنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا لو دخلنا المدينة

ثم بتنا ثم قلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا ، فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال « من القوم ؟ » فقلنا نحن الفرارون فقال « لا بل أتم العكارون أنا فتشكم وأنا فئة المسلمين » قال فأتيناه حتى قبلنا يده . وهكذا رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من طرق عن يزيد بن أبي زياد ، وقال الترمذي حسن لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي زياد ورواه ابن أبي حاتم من حديث يزيد بن أبي زياد ، وزاد في آخره وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (أو متحيزا إلى فئة) قال أهل العلم معنى قوله « العكارون » أي العرافون ، وكذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أبي عبيدة لما قتل على الجسر بأرض فارس لكثرة الجيش من ناحية المجوس فقال عمر لو تحيز إلى لكنت له فئة هكذا رواه محمد بن سيرين عن عمر ، وفي رواية أبي عثمان النهدي عن عمر قال لما قتل أبو عبيدة قال عمر أيها الناس أنا فتشكم ، وقال مجاهد قال عمر أنا فئة كل مسلم ، وقال عبد الملك بن عمير عن عمر أيها الناس لا تعزبنكم هذه الآية فإنما كانت يوم بدر وأنا فئة لكل مسلم ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا حسان بن عبد الله المصري حدثنا خلاد بن سليمان الحضرمي حدثنا نافع أنه سأل ابن عمر قلت إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا ، ولا ندرى من الفئة امامنا أو عسكرنا فقال إن الفئة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت إن الله يقول (إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً) الآية ، فقال إنما أنزلت هذه الآية في يوم بدر لأقبلها ولا بعدها ، وقال الضحاك في قوله (أو متحيزا إلى فئة) المتحيز الفار إلى النبي وأصحابه ، وكذلك من فر اليوم إلى أميره أو أصحابه فأما إن كان الفرار لاعتن سبب من هذه الأسباب فإنه حرام وكبيرة من الكبائر لما رواه البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « اجتنبوا السبع الموبقات » قيل يا رسول الله وما هن ؟ قال « الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » وله شواهد من وجوه أخر ، ولهذا قال تعالى (فقد باء) أي رجع (بغضب من الله ومأواه) أي مصيره ومنقلبه يوم مياعده (جهنم وبئس المصير) وقال الإمام أحمد حدثنا زكريا بن عدي حدثنا عبد الله ابن عمر الرقي عن زيد بن أبي أنيسة حدثنا جبلة بن سحيم عن أبي المثني العبدى سمعت السدوسي يعنى ابن الخصاصة وهو بشير بن معبد قال أتيت النبي ﷺ لأبايه فاشتط على شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن أقيم الصلاة ، وأن أؤدى الزكاة ، وأن أحج حجة الاسلام ، وأن أصوم شهر رمضان ، وأن أجاهد في سبيل الله . فقلت يا رسول الله أما اثنتان فوالله لا أطيقهما : الجهاد ، فإنهم زعموا أنه من ولى الدبر فقد باء بغضب من الله فأخاف إن حضرت ذلك خشعت نفسي وكرهت الموت ، والصدقة فوالله مالى إلا غنيمة وعشر ذودهن رسل أهلى وحمولتهم ، فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حرك يده ثم قال « فلا جهاد ولا صدقة فم تدخل الجنة إذا ؟ » قلت يا رسول الله أنا أبايك فبايعته علمين كلهم ، هذا حديث غريب من هذا الوجه ولم يخرجوه في الكتب الستة . وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة حدثنا إسحق بن إبراهيم أبو النضر حدثنا يزيد ابن ربيعة حدثنا أبو الأشعث عن ثوبان مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ثلاثة لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله وعقوق الوالدين والفرار من الزحف » وهذا أيضا حديث غريب جدا ، وقال الطبراني أيضا حدثنا العباس ابن مقاتل الاسفاطى حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حفص بن عمر السني حدثني عمرو بن مرة قال سمعت بلال بن يسار بن زيد مولى رسول الله ﷺ قال سمعت أبي يحدث عن جدى قال : قال رسول الله ﷺ « من قال : أستغفر الله الذى لا إله إلا هو وأتوب اليه غفر له وإن كان قد فر من الزحف » وهكذا رواه أبو داود عن موسى بن إسماعيل به وأخرجه الترمذي عن البخاري عن موسى بن إسماعيل به وقال غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، قلت ولا يعرف لزيد مولى النبي ﷺ عنه سواء ، وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إثم كان حراما على الصحابة لأنه (١) كان فرض عين عليهم ، وقيل على الأنصار خاصة لأنهم بايعوا على السمع والطاعة في المنشط والمكره . وقيل المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة يروى هذا عن عمر وابن عمر وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد (١) كذا والمراد لأن الجهاد .

وأبي نصرته ونافع مولى ابن عمر وسعيد بن جبير والحسن البصري وعكرمة وقتادة والضحاك وغيرهم ، وحجتهم في هذا أنه لم تكن عصاة لها شوكة يفيثون إليها إلا عصابتهم تلك كما قال النبي صلى الله عليه « اللهم إن تهلك هذه العصاة لا تعبد في الأرض » ولهذا قال عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن في قوله (ومن يولهم يومئذ دبره) قال ذلك يوم بدر فأما اليوم فإن انحاز إلى فئة أو مصر أحسبه قال فلا بأس عليه ، وقال ابن المبارك أيضا عن ابن لهيعة حدثني يزيد بن أبي حبيب قال أوجب الله تعالى لمن فر يوم بدر النار قال (ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله) فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال (إن الذين تولوا منكم يوم التقي الجمعان إلى قوله ولقد عفا الله عنهم) ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين قال (ثم وليتم مدبرين * ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) وفي سنن أبي داود والنسائي ومستدرک الحاكم وتفسير ابن جرير وابن مردويه من حديث داود بن أبي هند عن أبي نصرته عن أبي سعيد أنه قال في هذه الآية (ومن يولهم يومئذ دبره) إنما أنزلت في أهل بدر ، وهذا كله لا ينفي أن يكون الفرار من الزحف حراما على غير أهل بدر؛ وإن كان سبب نزول الآية فيهم كما دل عليه حديث أبي هريرة المتقدم من أن الفرار من الزحف من الموبقات كما هو مذهب الجماهير والله أعلم .

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ذَلِكَمُ وَأَنَّ اللَّهَ مَوْهِنُ الْكَافِرِينَ ﴾

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه ولهذا قال (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) أي ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم . أي بل هو الذي أظهركم عليهم كما قال (ولقد نصركم الله ببدر وأتم أذلة) الآية ، وقال تعالى (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبكم كثيركم فلم تغن عنهم شيئا وضائق عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين) يعلم تبارك وتعالى أن النصر ليس على كثرة العدد ولا بلبس الأئمة والعدد ، وإنما النصر من عنده تعالى كما قال تعالى (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) ثم قال تعالى لنبيه ﷺ أيضاً في شأن القبضة من التراب التي حصب بها وجوه الكافرين يوم بدر حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته فرماهم بها وقال « شأهت الوجوه » ثم أمر أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ففعلوا فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله ولهذا قال تعالى (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) أي هو الذي بلغ ذلك إليهم وكتبهم بها لا أنت . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رفع رسول الله ﷺ يديه يعني يوم بدر فقال « يا رب إن تهلك هذه العصاة فلن تعبد في الأرض أبداً » فقال له جبريل خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفيه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين ، وقال السدي قال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه يوم بدر « أعطني حصبا من الأرض » فنأله حصبا عليه تراب فرمى به في وجوه القوم فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه من ذلك التراب شيء ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم وأنزل الله (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) وقال أبو معشر المدني عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي قالا: لما دنا القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه القوم وقال « شأهت الوجوه » فدخلت في أعينهم كلهم وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم ويأسرونهم وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ﷺ فأنزل الله (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) قال هذا يوم بدر أخذ رسول الله ﷺ ثلاث حصبات فرمى بحصبات ميمنة القوم ، وحصبات في ميسرة القوم وحصبات بين أظهرهم وقال « شأهت الوجوه » فانهزموا ، وقد روى في هذه القصة عن عروة ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد من الأئمة أنها نزلت في رمية النبي ﷺ يوم بدر وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين

أيضاً ، وقال أبو جعفر بن جرير . حدثنا أحمد بن منصور حدثنا يعقوب بن محمد حدثنا عبد العزيز بن عمران حدثنا موسى ابن يعقوب بن عبد الله بن ربيعة عن يزيد بن عبد الله عن أبي بكر بن سليمان بن أبي خيثمة عن حكيم بن حزام قال : لما كان يوم بدر سمعنا صوتاً وقع من السماء كأنه صوت حصاة وقعت في طست ورمى رسول الله ﷺ تلك الرمية فانهز منا غريب من هذا الوجه ، وههنا قولان آخران غريبان جداً (أحدهما) قال ابن جرير حدثني محمد بن عوف الطائي حدثنا أبو الغيرة حدثنا صفوان بن عمرو حدثنا عبد الرحمن بن جبير أن رسول الله ﷺ يوم ابن أبي الحقيق بخير دعا بقوس فأتى بقوس طويلة وقال « جيئوني بقوس غيرها » فجاءوه بقوس كبداء فرمى النبي ﷺ الحصن فأقبل السهم يهوى حتى قتل ابن أبي الحقيق وهو في فراشه فأنزل الله عز وجل (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) وهذا غريب وإسناده جيد إلى عبد الرحمن بن جبير بن نفيير ولعله اشتبه عليه أو أنه أراد أن الآية تعم هذا كله وإلا فسياق الآية في سورة الأنفال في قصة بدر لا محالة وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم والله أعلم (والثاني) روى ابن جرير أيضاً والحاكم في مستدركه بإسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب والزهرى أنهما قالوا : أنزلت في رمية النبي ﷺ يوم أحد أبي بن خلف بالحربة وهو في لأمته فخدشه في ترقوته فجعل يتدأدأ عن فرسه مراراً حتى كانت وفاته بعد أيام قاسى فيها العذاب الأليم موصولاً بعذاب البرزخ المتصل بعذاب الآخرة ، وهذا القول عن هذين الإمامين غريب أيضاً جداً ولعلها أراد أن الآية تتناولها بعمومها لا أنها نزلت فيه خاصة كما تقدم والله أعلم . وقال محمد ابن إسحق حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير في قوله (وليلى المؤمنين منه بلاء حسناً) أى يعرف المؤمنين نعمته عليهم من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا بذلك نعمته وهكذا فسره ابن جرير أيضاً ، وفي الحديث « وكل بلاء حسن أبلانا » وقوله (إن الله سميع عليم) أى سميع الدعاء عليهم بمن يستحق النصر والغلب ، وقوله (ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين) هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر أنه أعلمهم تعالى بأنه مضاعف كيد الكافرين فبما يستقبل مصغر أمرهم وأنهم كل ما لهم في تبار ودمار والله الحمد والمنة

﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَعُوْذٌ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى للكفار (إن تستفتحوا) أى تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين فقد جاءكم ما سألتكم كما قال محمد بن إسحق وغيره عن الزهرى عن عبد الله بن ثعلبة بن صغير أن أبا جهل قال يوم بدر : اللهم أينما كان أقطع للرحم وآتانا بما لا يعرف (١) فاحنه الغداة . وكان ذلك استفتاحاً منه فنزلت (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) إلى آخر الآية ، وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن يعنى ابن هارون أخبرنا محمد بن إسحق حدثني الزهرى عن عبد الله بن ثعلبة أن أبا جهل قال حين التقى القوم اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فاحنه الغداة . فكان المستفتح ، وأخرجه النسائي في الفيسر من حديث صالح بن كيسان عن الزهرى به ، وكذا رواه الحاكم في مستدركه من طريق الزهرى به وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وروى نحو هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة ويزيد بن رومان وغير واحد ، وقال السدى كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين فقال الله (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) يقول قد نصرت ما قلتم وهو محمد ﷺ . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هو قوله تعالى إخباراً عنهم (وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك) الآية ، وقوله (وإن تنتهوا) أى عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله (فهو خير لكم) أى في الدنيا والآخرة ، وقوله تعالى (وإن تعودوا نعد) كقوله (وإن عدتم عدنا) معناه وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة نعد لكم بمثل هذه الواقعة . وقال السدى (وإن

(١) في نسخة الأزهر : بما لا نعرف بالنون

تعودوا) أى إلى الاستفتاح (نعد) أى إلى الفتح لمحمد ﷺ والنصر له وتظفيره على أعدائه والأول أقوى (ولن تنفى عنكم فتنة شيتاً ولو كثرت) أى ولو جمعتم من الجوع ماعسى أن تجمعوا ، فان من كان الله معه فلا غالب له (وإن الله مع المؤمنين) وهم الحزب النبوى والجناب المصطفى

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَقُولُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له ولهذا قال (ولا تولوا عنه) أى تركوا طاعته وامتنال أوامره وترك زواجه (وأتم تسمعون) أى بعد ماعتهم مادامكم إليه (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون) قيل المراد المشركون واختاره ابن جرير ، وقال ابن إسحق هم المنافقون فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا وليسوا كذلك ، ثم أخرج تعالى أن هذا الضرب من بنى آدم شر الخلق والخليقة فقال (إن شر الدواب عند الله الصم) أى عن سماع الحق (البكم) عن فهمه ولهذا قال (الذين لا يعقلون) فهؤلاء شر البرية لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيها خلقها له وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا ، ولهذا شبههم بالأنعام فى قوله (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء) الآية ، وقال فى الآية الأخرى (أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) وقيل المراد بهؤلاء المذكورين نمر من بنى عبد الدار من قریش روى عن ابن عباس ومجاهد واختاره ابن جرير . وقال محمد بن إسحق هم المنافقون ، قلت ولا منافاة بين المشركين والمنافقين فى هذا لأن كلا منهم مسلوب الفهم الصحيح والقصد إلى العمل الصالح ، ثم أخبر تعالى بأنهم لا يفهم لهم صحيح ولا قصد لهم صحيح لو فرض أن لهم فهما فقال (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم) أى لأفهمهم وتقدير الكلام (و) لكن لاخير فيهم فلم يفهمهم لأنه يعلم أنه (لو أسمعهم) أى أفهمهم (لتولوا) عن ذلك قصدا وعنادا بعد فهمهم ذلك (وهم معرضون) عنه

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْنَا تُحْشَرُونَ﴾

قال البخارى (استجيبوا) أجيبوا (لما يحييكم) لما يصلحكم . حدثني إسحق حدثنا روح حدثنا شعبة عن خبيب ابن عبد الرحمن قال : سمعت حفص بن عاصم يحدث عن أبى سعد بن المعلى رضى الله عنه قال كنت أصلى فمررت بالنبي صلى الله عليه وسلم فدعاني فلم آتته حتى صليت ثم أتيت فقال « مامنك أن تأتيني ؟ ألم يقل الله (يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) - ثم قال - لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قبل أن أخرج » فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له . وقال معاذ : حدثنا شعبة عن خبيب بن عبد الرحمن سمع حفص بن عاصم سمع أباً سعيد رجلاً من أصحاب النبي ﷺ بهذا وقال (الحمد لله رب العالمين) هى السبع المثاني . هذا لفظه بحروفه وقد تقدم الكلام على هذا الحديث بذكر طرقه فى أول تفسير الفاتحة . وقال مجاهد فى قوله (لما يحييكم) قال للحق ، وقال قتادة (لما يحييكم) قال هو هذا القرآن فيه النجاة والبقاء والحياة وقال السدى (لما يحييكم) فى الاسلام احيائهم بعد موتهم بالكفر ، وقال محمد بن إسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير (يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) أى للحرب التى أعزكم الله تعالى بها بعد النذل وقواكم بها بعد الضعف ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم . وقوله تعالى (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) قال ابن عباس يحول بين المؤمن وبين الكفر

وبين الكافر وبين الإيمان ، رواء الحاكم في مستدرکه موقوفا ، وقال صحيح ولم يخرجاه ، ورواه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعا ، ولا يصح لضعف إسناده والموقوف أصح ، وكذا قال مجاهد وسعيد وعكرمة والضحاك وأبو صالح وعطية ومقاتل بن حيان والسدي ، وفي رواية عن مجاهد في قوله (يحول بين المرء وقلبه) أى حتى يتركه لا يعقل ، وقال السدي يحول بين الانسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه . وقال قتادة هو كقوله (ونحن أقرب إليه من حسبي) (الوريد) وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما يناسب هذه الآية وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » قال قلنا يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ قال « نعم » إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله تعالى يقبلها . وهكذا رواء الترمذي في كتاب القدر من جامعه عن هناد بن السرى عن أبي معاوية محمد بن حازم الضرير عن الأعمش واسمه سليمان بن مهران عن أبي سفيان واسمه طلحة بن نافع عن أنس ثم قال حسن . وهكذا روى عن غير واحد عن الأعمش ، ورواه بعضهم عنه عن أبي سفيان عن جابر عن النبي ﷺ وحديث أبي سفيان عن أنس أصح . (حديث آخر) قال الإمام أحمد في مسنده حدثنا عبد بن حميد حدثنا عبد الملك بن عمرو حدثنا شعبة عن الحكم عن ابن أبي ليلى عن بلال رضى الله عنه أن النبي ﷺ كان يدعو « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » هذا حديث جيد الاسناد إلا أن فيه انقطاعا . وهو مع ذلك على شرط أهل السنن ولم يخرجوه (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا الوليد بن مسلم قال : سمعت ابن جابر يقول : حدثني بشر بن عبيد الله الحضرمي أنه سمع أبا إدريس الخولاني يقول سمعت النواس بن سميان السكابي رضى الله عنه يقول سمعت النبي ﷺ يقول « ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن رب العالمين إذا شاء أن يقيمه أقامه وإذا شاء أن يزيغه أزاغه » وكان يقول « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » قال « والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه » وهكذا رواء النسائي وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر فذكر مثله (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يونس حدثنا حماد بن زيد عن المولى بن زياد عن الحسن أن عائشة قالت : دعوات كان رسول الله ﷺ يدعو بها « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » قالت : فقلت يا رسول الله إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء فقال « إن قلب الآدمي بين أصبعين من أصابع الله فإذا شاء أزاغه وإذا شاء أقامه » (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا هاشم حدثنا عبد الحميد حدثني شهر سمعت أم سلمة تحدث أن رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه يقول « اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » قالت فقلت يا رسول الله أو إن القلوب لتقلب ؟ قال « نعم ما خلق الله من بشر من بنى آدم إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله عز وجل فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه ففسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب » قالت فقلت يا رسول الله ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي ؟ قال « بلى قولى اللهم رب النبي محمد اغفر لى ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرنى من مضلات الفتن ما أحيتنى » (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا حيوة أخبرني أبوهاني أنه سمع أبا عبد الرحمن الحبلي أنه سمع عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « إن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصفرفها كيف شاء » ثم قال رسول الله ﷺ « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك » انفرد بإخراجه مسلم عن البخاري فرواه مع النسائي من حديث حيوة بن شريح المصري به .

﴿ وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين فتنة أى اخبارا ومحنة يعم بها المسيء وغيره لا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب بل يعمهما حيث لم تدفع وترفع ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم حدثنا شداد بن سعيد حدثنا غيلان ابن جرير عن مطرف قال : قلنا للزبير يا أبا عبد الله ما جاء بك ؟ صعم الخليفة الذي قتل ثم جثم تطلبون بدمه ؟

فقال الزبير رضى الله عنه : إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم (واتقوا فتنة لا تصيبن الدين ظلموا منكم خاصة) لم نكن نحسب أنها أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت ، وقد رواه البزار من حديث مطرف عن الزبير وقال : لا نعرف مطرفاً روى عن الزبير غير هذا الحديث ، وقد روى النسائي من حديث جرير بن حازم عن الحسن عن الزبير نحو هذا ، وقد روى ابن جرير حدثني الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا المبارك بن فضالة عن الحسن قال : قال الزبير لقد خوفنا يعني قوله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الدين ظلموا منكم خاصة) ونحن مع رسول الله ﷺ وما ظننا أننا خصصنا بها خاصة وكذا رواه حميد عن الحسن عن الزبير رضى الله عنه وقال داود بن أبي هند عن الحسن في هذه الآية قال نزلت في علي وعمار وطلحة والزبير رضى الله عنهم ، وقال سفيان الثوري عن الصلت بن دينار عن عقبة بن صهبان سمعت الزبير يقول . لقد قرأت هذه الآية زماناً وما أراها من أهلها فإذا نحن المعنيون بها (واتقوا فتنة لا تصيبن الدين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب) وقد روى من غير وجه عن الزبير بن العوام ، وقال السدي : نزلت في أهل بدر خاصة فأصابهم يوم الجمل فاقْتَلُوا ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الدين ظلموا منكم خاصة) يعني أصحاب النبي ﷺ خاصة . وقال في رواية له عن ابن عباس في تفسير هذه الآية أمر الله المؤمنين أن لا يقرؤا المنكر بين ظهرانيهم فيعصمهم الله بالعذاب ، وهذا تفسير حسن جداً ، ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الدين ظلموا منكم خاصة) هي أيضاً لكم ، وكذا قال الضحاك ويزيد بن أبي حبيب ، وغير واحد ، وقال ابن مسعود ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة إن الله تعالى يقول (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) فأيسم استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن رواه ابن جرير ، والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم وإن كان الخطاب بهم هو الصحيح ، ويدل عليه الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن ، ولذلك كتاب مستقل يوضح فيه إن شاء الله تعالى كما فعله الأئمة وأوردوه بالتصنيف ، ومن أخص ما يذكر ههنا ما رواه الإمام أحمد حيث قال : حدثنا أحمد بن الحجاج أخبرنا عبد الله يعني ابن المبارك ، أنبأنا سيف بن أبي سليمان سمعت عدى بن عدى السكدي يقول ، حدثني مولى لنا أنه سمع جدي يعني عدى بن عميرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه ، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة » فيه رجل منهم ولم يخرجوه في الكتب الستة ولا واحد منهم والله أعلم (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا سليمان الهاشمي حدثنا إسماعيل يعني ابن جعفر أخبرني عمرو بن أبي عمر عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهل عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهين عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم » ورواه عن أبي سعيد عن إسماعيل بن جعفر وقال « أو ليعائن الله عليكم قومائم تدعونه فلا يستجيب لكم » . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن نعيم قال حدثنا زر بن حبيب الجهني حدثني أبو الرقاد قال : خرجت مع مولاى فدفعت إلى حذيفة وهو يقول : إن كان الرجل لبكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير مناقفاً ، وإنى لأسمعها من أحدكم في المقعد الواحد أربع مرات ، لتأمرن بالمعروف ولتنهين عن المنكر ولتأمرن على الخير أو ليسحتكم الله جميعاً بعذاب أوليؤمرن عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم (حديث آخر) قال الإمام أحمد أيضاً . حدثنا يحيى بن سعيد عن زكريا حدثنا عامر رضى الله عنه قال : سمعت النعمان بن بشير رضى الله عنه يخطب يقول - وأوماً بأصبعه إلى أذنه يقول : مثل القائم على حدود الله والواقع فيها والذهب فيها كمثل قوم ركبوا سفينة فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها وأصاب بعضهم أعلاها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فأدغمهم فقالوا لو خرقتنا في نصيبنا خرقتنا فاستقمنا منه ولم نؤد من قوما : فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً . انفراد بإخراجه البخارى دون مسلم فرواه في الشركة والشهادات ، والترمذي في الفتن من غير وجه عن سليمان بن مهران الأعمش عن عامر بن شراحيل الشعبي به (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا حسين حدثنا خلف بن خليفة عن ليث عن

علقمة بن مرثد عن المعرور بن سويد عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا ظهرت المعاصي في أمتي عظمهم الله بعذاب من عنده » فقلت يا رسول الله أما فيهم أناس صالحون قال « بلى » قالت فكيف يصنع أولئك ؟ قال « يصيبهم ما أصاب الناس ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان » . (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا حجاج بن محمد حدثنا شريك عن أبي إسحق عن المنذر بن جري عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من قوم يعملون بالمعاصي وفيهم رجل أعز منهم وأمنع لا يغيره إلا عظمهم الله بعقاب أو أصابهم العقاب » ورواه أبو داود عن مسدد عن أبي الأحوص عن أبي إسحق به : وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة سمعت أبا إسحق يحدث عن عبيد الله بن جري عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعملون ثم لم يغيروه إلا عظمهم الله بعقاب » ثم رواه أيضاً عن وكيع عن إسرائيل ، وعن عبد الرزاق عن معمر وعن أسود عن شريك ويونس كلهم عن أبي إسحق السبيعي به وأخرجه ابن ماجه عن علي بن محمد عن وكيع به وقال الإمام أحمد حدثنا سفیان حدثنا جامع بن أبي راشد عن منذر عن الحسن بن محمد عن أمهاته عن عائشة تبلغ به النبي ﷺ « إذا ظهر السوء في الأرض أنزل الله بأهل الأرض بأسه » فقلت وفيهم أهل طاعة الله ؟ قال « نعم ثم يصيرون إلى رحمة الله » .

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَتَوَبُّوهُمْ وَأَدْنَيْكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

فيه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم ، وإحسانه إليهم ، حيث كانوا قليلين فكثروهم ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم ، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات واستشكرهم فأطاعوه وامتثلوا جميع ما أمرهم . وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستضعفين مضطهدين يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله من مشرك ومجوسي وروحي كلهم أعداء لهم لفلنتهم وعدم قوتهم ، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة فآواهم إليها وقبض لهم أهلها آووا ونصروا يوم بدر وغيره وواسوا بأموالهم وبذلوا مهجهم في طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم قال قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله في قوله تعالى (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض) قال كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلاً ، وأشقاء عيشاً . وأجوعه بطونا ، وأعراة جلوداً وأبينه ضللاً ، من عاش منهم عاش شقياً ومن مات منهم ردى في النار يؤكلون ولا يأكلون والله ما نعلم قبيلة من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أكثر منزلاً منهم حتى جاء الله بالإسلام فمكن به في البلاد ووسع به في الرزق وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا الله على نعمه فإن ربكم منعم يحب الشكر ، وأهل الشكر في مزيد من الله

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَعْلَمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

قال عبد الرزاق بن أبي قتادة والزهرى أنزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستشاروه في ذلك فأشار عليهم بذلك وأشار بيده إلى حلقه أى إنه الذبح ، ثم فطن أبو لبابة ورأى أنه قد خان الله ورسوله فحلف لا يدوق دواقاً حتى يموت أو يتوب الله عليه وانطلق إلى مسجد المدينة فربط نفسه في سارية منه فكث كذلك تسعة أيام حتى كان يخر مغشياً عليه من الجهد حتى أنزل الله توبته على رسوله فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه وأرادوا أن يخلوه من السارية فحلف لا يخله منها إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فخله ، فقال يا رسول الله : إني كنت بدت أن أنخل من مالى صدقة فقال (يجزيك

الثالث أن تصدق به . وقال ابن جرير حدثني الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا بونس بن الحارث الطائي حدثنا محمد بن عبد الله بن عون الثقفي عن المغيرة بن شعبة قال نزلت هذه الآية في قتل عثمان رضي الله عنه (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول) الآية

وقال ابن جرير أيضا حدثنا القاسم بن بشر بن معروف حدثنا شابة بن سوار حدثنا محمد بن المحرم قال لقيت عطاء بن أبي رباح فحدثني قال حدثني جابر بن عبد الله أن أبا سفيان خرج من مكة فأتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا ، فقال رسول الله ﷺ « إن أبا سفيان في موضع كذا وكذا فاخرجوا إليه واكتموا » فكتب رجل من المنافقين إليه إن محمدا يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله عز وجل (لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم) الآية ، هذا حديث غريب جدا وفي سنده وسياقه نظر وفي الصحيحين قصة حاطب ابن أبي بلتعة أنه كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم عام الفتح فأطلع الله رسوله على ذلك فبعث في إثر الكتاب فاسترجعه واستحضر حاطبا فأقر بما صنع ، وفيها ققام عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله : ألا أضرب عنقه فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ؟ فقال « دعه فإنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » قلت والصحيح أن الآية عامة وإن صح أنها وردت على سبب خاص فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء . والحيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعمدة . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (وتخونوا أماناتكم) الأمانة الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد يعني الفريضة يقول لا تخونوا لا تنقضوها وقال في رواية لا تخونوا الله والرسول يقول بترك سنته وارتكاب معصيته وقال محمد بن إسحق حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير في هذه الآية أي لا تظهروا له من الحق ما يرضى به منكم ثم يخالفوه في السر إلى غيره فإن ذلك هلاك لأماناتكم ، وخيانة لأنفسكم . وقال السدي : إذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم . وقال أيضا كانوا يسمعون من النبي صلى الله عليه وسلم الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين ، وقال عبد الرحمن بن زيد أنها كم أن تخونوا الله والرسول كما صنع المنافقون ، وقوله (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) أي اختبار وامتحان منه لكم إذ أعطاكموها ليعلم أنشكرونها عليها وتطيعونه فيها أو تشغلون بها عنه وتتناضون بها منه كما قال تعالى (إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم) وقال (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تلهمكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم) الآية ، وقوله (وأن الله عنده أجر عظيم) أي ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد فإنه قد يوجد منهم عدو ، وأكثرهم لا يخفى عنك شيئا ، والله سبحانه هو المتصرف المالك للدينا والآخرة ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة . وفي الأثر يقول الله تعالى : يا ابن آدم اطلبني تجدني فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فأنك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء ، وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قل « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواها ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ، ومن كان أن يلقى في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه » بل حب رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدم على الأولاد والأموال والنفوس كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين »

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

قال ابن عباس والسدي ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان وغير واحد (فرقانا) مخرجا ، زاد مجاهد في الدنيا والآخرة ، وفي رواية عن ابن عباس (فرقانا) حجة ، وفي رواية عنه نصيرا وقال محمد بن إسحق (فرقانا) أي

فصلا بين الحق والباطل وهذا التفسير من ابن إسحق أعم مما تقدم وهو يستلزم ذلك كله فان من اتقى الله جعل أومره وترك زواجه وفق لمعرفة الحق من الباطل فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا وسعادته يوم القيامة وتكفير ذنوبه وهو محوها ، وغفرها سترها عن الناس وسببا لنيل ثواب الله الجزيل كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويفرلکم والله غفور رحيم)

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِيرِينَ ﴾

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة (ليثبتوك) ليقيدوك ، وقال عطاء وابن زيد . ليحبسوك ، وقال السدي الاثبات هو الحبس والوثاق وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء وهو مجمع الأقوال وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء ، وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج قال عطاء سمعت عبيد بن عمير يقول : لما ائتمروا بالنبي ﷺ ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه . قال له عمه أبو طالب هل تدري ما ائتمروا بك ؟ قال « يريدون أن يسجنوني أو يقتلوني أو يخرجوني » فقال من أخبرك بهذا ؟ قال « ربى » قال نعم الرب ربك استوص به خيرا . قال « أنا أستوصى به بل هو يستوصى بى » وقال أبو جعفر بن جرير حدثني محمد بن إسماعيل المصري المعروف بالسواسى أخبرنا عبد الحميد بن أبي داود عن ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن الطلب بن أبي وداعة أن أبا طالب قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما يأمر بك قومك ؟ قال « يريدون أن يسجنوني أو يقتلوني أو يخرجوني » فقال من أخبرك بهذا قال « ربى » قال نعم الرب ربك فاستوص به خيرا . قال « أنا أستوصى به بل هو يستوصى بى » قال فنزلت (وإذ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ) الآية وذكر أبي طالب في هذا غريب جدا بل منكر لأن هذه الآية مدنية ، ثم إن هذه القصة واجتماع قريش على هذا الاثم والمشاورة على الاثبات أو النفي أو القتل إنما كان ليلة الهجرة سواء كان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين لما سكنوا منه واجتروا عليه بسبب موت عمه أبي طالب الذى كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه والدليل على صحة ما قلنا ماروى الإمام محمد بن إسحق بن يسار صاحب المغازى عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال : وحدثني الكلبي عن باذان مولى أم هانئ عن ابن عباس أن نفرا من قريش من أشرف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل فلما رأوه قالوا له من أنت ؟ قال شيخ من أهل نجد سمعت أنكم اجتمعتم فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم رأيي ونصحي : قالوا أجل ادخل فدخل معهم فقال انظروا في شأن هذا الرجل والله ليوشكن أن يوائسكم في أمركم بأمره . فقال قائل منهم احبسوه في وثاق ثم تربصوا به ريب النون حتى يهلك كماهلك من كان قبله من الشعراء زهير والناطقة إنما هو كأحدهم . قال فصرخ عدو الله الشيخ النجدي فقال والله ما هذا لكم برأى والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه فليوشكن أن يئبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيجنعوه منكم فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم . قالوا صدق الشيخ فانظروا في غير هذا . قال قائل منهم أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع إذا غاب عنكم أذاه واسترحم وكان أمره في غيركم . فقال الشيخ النجدي والله ما هذا لكم برأى ألم تروا حلاوة قوله . وطلاقة لسانه . وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه ؟ والله لأن فعلتم ثم استعرض العرب ليجمعن عليه ثم ليأتين اليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم . قالوا صدق والله فانظروا رأيا غير هذا . قال : فقال أبو جهل لعنه الله : والله لأشيرن عليكم برأى ما أراكم أبصرتموه بعد لا أرى غيره ، قالوا وما هو ؟ قال تأخذون من كل قبيلة غلاما شابا وسيطا نهذا ثم يعطى كل غلام منهم سيفا صارما ثم يضربونه ضربة رجل واحد فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها فما أظن هذا الحى من بى هاشم يقيمون على حرب قريش كلها . فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا وقطعنا عنا أذاه . قال : فقال الشيخ النجدي هذا والله الرأى القول ما قال الفتى لا أرى غيره . قال ففارقوا على ذلك وهم مجمعون له . فأتى جبريل النبي ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه

الذي كان يبيت فيه وأخبره بمكر القوم فلم يبت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة وأذن الله له عند ذلك بالخروج وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة الأنفال يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) وأنزل في قولهم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء (أم يقولون شاعر تربص به ريب المنون) فكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة للذي اجتمعوا عليه من الرأي ، وعن السدي نحو هذا السياق وأنزل الله في إرادتهم إخراجهم قوله تعالى (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلفك إلا قليلا) وكذا روى العوفي عن ابن عباس وروى عن مجاهد وعروة بن الزبير وموسى بن عقبة وقتادة ومقسم وغير واحد نحو ذلك ، وقال يونس بن بكير عن ابن إسحق فأقام رسول الله ﷺ ينتظر أمر الله حتى إذا اجتمعت قريش فذكرت به وأرادوا به ما أرادوا أثناء جبريل عليه السلام فأمره أن لا يبيت في مكانه الذي كان يبيت فيه فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب فأمره أن يبيت على فراشه ويتسجى يرد له أخضر ففعل ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه وخرج معه بحفنة من تراب فجعل يذرها على رؤوسهم وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد ﷺ وهو يقرأ (يس والقرآن الحكيم - إلى قوله - فأغشيناهم فهم لا يبصرون) وقال الحافظ أبو بكر البيهقي : روى عن عكرمة ما يؤكد هذا ، وقد روى ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن عثمان ابن خنيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهي تبكي فقال « ما يبكيك يا بنية ؟ » قالت يا أبت وما لي لا أبكي وهؤلاء اللأ من قريش في الحجر يتعاهدون باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى لو قدر أهلك لقاموا إليك فيقتلونك وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك فقال « يا بنية اثني بوضوء » فتوضأ رسول الله ﷺ ثم خرج إلى المسجد فلما رأوه قالوا هاهو ذا فطأطأوا رؤوسهم وسقطت رقابهم بين أيديهم فلم يرفعوا أبصارهم فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها وقال « شاهدت الوجوه » فما أصاب رجلا منهم حصاة من حصياته إلا قتل يوم بدر كافرا ، ثم قال الحاكم صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ولا أعرف له علة . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر أخبرني عثمان الجريري عن مقسم مولى ابن عباس أخبره ابن عباس في قوله (وإذ يمكر بك) الآية قال تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبي ﷺ وقال بعضهم بل اقتلوه وقال بعضهم بل أخرجوه فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فبات على رضى الله عنه على فراش رسول الله ﷺ وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه ﷺ فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوا عليا رد الله تعالى مكرهم فقالوا أين صاحبك هذا ؟ قال لا أدري فاقتصوا أنره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا في الجبل فعمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاث ليل ، وقال محمد بن إسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير في قوله (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) أى فمكرت بهم بكيدى المتين حتى خلصتكم منهم .

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْخَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنْزِلْ عَلَيْنَا آيَاتٌ مِنْ سَمَاءِ رَبِّنَا فَانْزِلْ * وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

يغير تعالى عن كفر قريش وعتوهم وعردهم وعنادهم ودعواهم الباطل عند مماع آياته إذا تلى عليهم أنهم يقولون (قد سمعنا لو شاء لقلنا مثل هذا) وهذا منهم قول بلا فعل وإلا فقد تحدوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله

فلا يجدون إلا ذلك سبيلا وإنما هذا القول منهم يغرون به أنفسهم ومن تبعهم على باطلهم ، وقد قيل إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث لعنه الله كما قد نص على ذلك سعيد بن جبير والسدي وابن جريج وغيرهم فانه لعنه الله كان قد ذهب إلى بلاد فارس وتعلم من أخبار ملوكهم رستم واسفنديار ، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله وهو يتأول على الناس القرآن فكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس جلس فيه النضر فحدثهم من أخبار أولئك ثم يقول بالله أينما أحسن قصصا أنا أو محمد ؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع في الأسارى أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبته صبرا بين يديه ففعل ذلك والله الحمد ، وكان الذي أسره المقداد بن الأسود رضى الله عنه كما قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال قتل النبي ﷺ يوم بدر صبرا عقبه بن أبي معيط وطعيمة بن عدى والنضر بن الحارث وكان المقداد أسر النضر فلما أمر بقتله قال المقداد يا رسول الله أسيرى فقال رسول الله ﷺ إنه كان يقول في كتاب الله عز وجل ما يقول فأمر رسول الله ﷺ بقتله فقال المقداد يا رسول الله أسيرى فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « اللهم أغن المقداد من فضلك » فقال المقداد هذا الذي أردت قال وفيه أنزلت هذه الآية (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين) وكذا رواه هشيم عن أبي بشر جعفر بن أبي دحية عن سعيد بن جبير أنه قال المطعم بن عدى بدل طعيمة وهو غلط لأن المطعم بن عدى لم يكن حيا يوم بدر ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ لو كان المطعم بن عدى حيا ثم سألني في هؤلاء الثنتي لو هبتهم له يعنى الأسارى لأنه كان قد أجاز رسول الله ﷺ يوم رجع من الطائف ، ومعنى (أساطير الأولين) وهو جمع أسطورة أى كتبهم اقتبسها فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس وهذا هو الكذب البحت كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا * قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحما) أى لمن تاب إليه وأتاب فانه يتقبل منه ويصفح عنه ، وقوله (وإذا قال اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) هذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم وعتوهم ، وهذا مما عيىابوه وكان الأولى لهم أن يقولوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه ولكن استفتحوا على أنفسهم واستعجلوا العذاب ، وتقديم العقوبة كقوله تعالى (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون) (وقالوا ربنا عجل لنا قنابل الحسب) وقوله (سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع * من الله ذى المكاره) وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة كما قال قوم شعيب له (فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين) وقال هؤلاء (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) قال شعبة عن عبد الحميد صاحب الزيادة عن أنس بن مالك قال هو أبو جهل بن هشام قال (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) فزلت (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) رواه البخارى عن أحمد ومحمد بن النضر كلاهما عن عبيد الله بن معاذ عن أبيه عن شعبة به وأحمد هذا هو أحمد ابن النضر بن عبد الوهاب قاله الحاكم أبو أحمد والحاكم أبو عبد الله النيسابورى والله أعلم وقال الأعمش عن رجل عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس فى قوله (وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) قال هو النضر بن الحارث بن كعدة قال : فأنزل الله (سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع) وكذا قال مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والسدي إنه النضر بن الحارث زاد عطاء فقال الله تعالى (وقالوا ربنا عجل لنا قنابل قبل يوم الحساب) وقال (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقتنا كم أول مرة) وقال (سأل سائل بعذاب واقع للكافرين) قال عطاء ولقد أنزل الله فيه بضع عشرة آية من كتاب الله عز وجل وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن إبراهيم حدثنا الحسن ابن أحمد بن الليث حدثنا أبو عسان حدثنا أبو نميلة حدثنا الحسين عن ابن بريدة عن أبيه قال : رأيت عمرو بن العاص واقفا يوم أحد على فرس وهو يقول : اللهم إن كان ما يقول محمد حقا فاحسب بى وبفرسى . وقال قتادة فى قوله (وإذا قالوا

اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك (الآية قال : قال ذلك سفهة هذه الأمة وجهلتها فعاد الله بعائده ورحمته على سفهة هذه الأمة وجهلتها وقوله تعالى (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو حذيفة موسى بن مسعود حدثنا عكرمة بن عمار عن أبي زميل سالك الحنفي عن ابن عباس قال كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون : ليك اللهم ليك ، ليك لا شريك لك . فيقول النبي ﷺ « قد قد » ويقولون : ليك اللهم ليك ، ليك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك . ويقولون غفرانك غفرانك فأنزل الله (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) الآية قال ابن عباس كان فيهم أمانان النبي صلى الله عليه وسلم والاستغفار فذهب النبي صلى الله عليه وسلم وبقي الاستغفار . وقال ابن جرير حدثني الحارث حدثني عبد العزيز حدثنا أبو معشر عن يزيد بن رومان ومحمد بن قيس قالا : قالت قريش بعضها لبعض محمد أكرم الله من بيننا (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك) الآية فلما أمسوا ندموا على ما قالوا فقالوا غفرانك اللهم . فأنزل الله (وما كان الله معذبهم - إلى قوله - ولكن أكثرهم لا يعلمون) وقال قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) يقول ما كان الله ليعذب قوما وأنبياءهم بين أظهرهم حتى يخرجهم ثم قال (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) يقول وفيهم من قد سبق له من الله الدخول في الإيمان وهو الاستغفار يستغفرون يعني يصلون يعني بهذا أهل مكة وروى عن مجاهد وعكرمة وعطية العوفي وسعيد بن جبير والسدي نحو ذلك . وقال الضحاك وأبو مالك (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) يعني المؤمنين الذين كانوا بمكة وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الغفار بن داود حدثنا النضر بن عدى قال : قال ابن عباس إن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب مادام بين أظهرهم فأمان قبضه الله إليه وأمان بقي فيكم قوله (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) وقال أبو صالح عبد الغفار حدثني بعض أصحابنا أن النضر بن عدى حدثه هذا الحديث عن مجاهد عن ابن عباس . وروى ابن مردويه وابن جرير عن أبي موسى الأشعري نحوه من هذا وكذا روى عن قتادة وأبي العلاء النحوي المقرئ . وقال الترمذي حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا ابن نمير عن إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر عن عباد بن يوسف عن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « أنزل الله على أمانين لأمتي (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة » ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال « إن الشيطان قال وعزتك يارب لا أبرح أغوى عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم فقال الرب وعزتي وجلالي لأزال أغفر لهم ما استغفروني » ثم قال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، وقال الإمام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا راشد هو ابن سعد حدثني معاوية بن سعد التميمي عن حدثه عن فضالة بن عبيد عن النبي ﷺ أنه قال « العبد آمن من عذاب الله ما استغفر الله عز وجل »

﴿ وَمَا لَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولِيَاءُهُ إِلَّا الْمُتَفُونُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام الرسول ﷺ بين أظهرهم ولهذا لما خرج من بين أظهرهم أوقع الله بهم بأسه يوم بدر فقتل صناديدهم وأسرى سرائهم وأرشدهم تعالى إلى الاستغفار من الذنوب التي هم متلبسون بها من الشرك والفساد . وقال قتادة والسدي وغيرهما لم يكن القوم يستغفرون ولو كانوا يستغفرون ما عذبوا . واختاره ابن جرير فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين لوقع بهم البأس الذي لا يرد ولكن دفع عنهم بسبب أولئك كما قال تعالى في يوم الحديبية (الذين كفروا وصدوكم عن

المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم
 معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً . قال ابن جرير :
 حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب عن جعفر بن أبي المغيرة عن ابن أبيزى قال كان النبي ﷺ بمكة فأنزل الله (وما
 كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) قال فخرج النبي ﷺ إلى المدينة فأنزل الله (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون)
 قال وكان أولئك البقية من المسلمين الذين بقوا فيها مستضعفين يعنى بمكة (يستغفرون) فلما خرجوا أنزل الله
 (وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه) قال فأذن الله في فتح مكة فهو العذاب
 الذى وعدهم . وروى عن ابن عباس وأبي مالك والضحاك وغير واحد نحو هذا ، وقد قيل إن هذه الآية ناسخة لقوله
 تعالى (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) على أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم قال ابن جرير
 حدثنا ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح عن الحسين بن واقد عن يزيد النحوى عن عكرمة والحسن البصرى قالا : قال في
 الأنفال (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) فنسخها الآية التى تليها (وما لهم
 ألا يعذبهم الله - إلى قوله - فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) فقاتلوا بمكة فأصابهم فيها الجوع والضر ، وكذا
 رواه ابن أبي حاتم من حديث أبي نعيم يحيى بن واضح . وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا
 حجاج بن محمد عن ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) ثم استثنى أهل
 الشرك فقال (وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام) وقوله (وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون
 عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون) أى وكيف لا يعذبهم الله
 وهم يصدون عن المسجد الحرام أى الذى بمكة يصدون المؤمنين الذين هم أهلهم عن الصلاة فيه والطواف به ، ولهذا
 قال (وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون) أى هم ليسوا أهل المسجد الحرام وإنما أهل الله ﷺ
 وأصحابه كما قال تعالى (ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت
 أعمالهم وفى النار هم خالدون * إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش
 إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) وقال تعالى (وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج
 أهله منه أكبر عند الله) الآية . وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسير هذه الآية : حدثنا سليمان بن أحمد هو
 الطبرانى حدثنا جعفر بن الياس بن صدقة المصرى حدثنا نعيم بن حماد حدثنا نوح بن أبى مريم عن يحيى بن سعيد
 الأنصارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ من أولياؤك ؟ قال « كل تقى » وتلا رسول
 الله ﷺ (إن أولياؤه إلا المتقون) . وقال الحاكم فى مستدركه : حدثنا أبو بكر الشافعى حدثنا إسحق بن الحسن
 حدثنا أبو حذيفة حدثنا سفيان عن عبد الله بن خيثم عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعة عن أبيه عن جده قال : جمع
 رسول الله ﷺ قريشا فقال « هل فيكم من غيركم ؟ » فقالوا فينا ابن أختنا وفينا حليفنا وفينا مولانا فقال
 « حليفنا منا وابن أختنا منا ومولانا منا إن أولياؤى منكم المتقون » ثم قال هذا صحيح ولم يخرجاه وقال عروة
 والسدى ومحمد بن إسحق فى قوله تعالى (إن أولياؤه إلا المتقون) قال هم محمد ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم .
 وقال مجاهد هم المجاهدون من كانوا وحيث كانوا ، ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدون عند المسجد الحرام وما كانوا
 يعاملونه به فقال (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) قال عبد الله بن عمرو وابن عباس ومجاهد وعكرمة
 وسعيد بن جبير وأبورجاء العطاردى ومحمد بن كعب القرظى وحجر بن عنبس ونبيط بن شريط وقتادة وعبد الرحمن
 ابن زيد بن أسلم : هو الصفير وزاد مجاهد وكانوا يدخلون أصابعهم فى أفواههم وقال السدى المساء الصفير على نحو
 طير أبيض يقال له المساء ويكون بأرض الحجاز (وتصدية) قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبوخلاد سليمان بن خلاد حدثنا
 يونس بن محمد المؤدب حدثنا يعقوب يعنى ابن عبد الله الأشعرى حدثنا جعفر بن المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى
 قوله (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) قال كانت قريش تطوف بالبيت عرا تصفرو وتصفق ، والمساء الصفير

والتصدية التصفيق ، وهكذا روى على بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس ، وكذا روى عن ابن عمر ومجاهد ومحمد بن كعب وأبي سلمة بن عبد الرحمن والضحاك وقتادة وعطية العوفي وحجر بن عنبس وابن أبي نجيح ، وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار حدثنا أبو عامر حدثنا قرة عن عطية عن ابن عمر في قوله (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) قال المكاء الصفر والتصدية التصفيق قال قرة وحكى لنا عطية فعل ابن عمر فصفر ابن عمر وأمال خده وصفق يديه ، وعن ابن عمر أيضاً أنه قال إنهم كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويصفقون ويصفرون رواه ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده عنه . وقال عكرمة كانوا يطوفون بالبيت على الشمال قال مجاهد وإنما كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ صلاته ، وقال الزهري يستهزئون بالمؤمنين ، وعن سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد (وتصدية) قال صددهم الناس عن سبيل الله عز وجل . قوله (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) قال الضحاك وابن جرير ومحمد بن إسحاق هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي ، وإخاره ابن جرير ولم يحك غيره ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال عذاب أهل الاقرار بالسيف وعذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿

قال محمد بن إسحاق حدثني الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحسين بن عبد الرحمن بن عمرو ابن سعيد بن معاذ قالوا لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رحال من قريش أصيب آبائهم وأبناءهم وإخوانهم ببدر فكلوا وأأسفان ابن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقلوا يا معشر قريش إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثاراً بمن أصيب منا ففعلوا قال ففهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله عز وجل (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله - هم الخاسرون) وكذا روى عن مجاهد وسعيد بن جبير والحكم ابن عيينة وقتادة والسدي وابن أبي نجيح أنها نزلت في أبي سفيان ونفقته الأموال في أحد لقتال رسول الله ﷺ ، وقال الضحاك : نزلت في أهل بدر وعلى كل تقدير فهي عامة ، وإن كان سبب نزولها خاصاً فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق فيسفعلون ذلك ثم تذهب أموالهم ثم تكون عليهم حسرة أي ندامة حيث لم نجد شيئاً لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمهم على كلمة الحق والله متم نوره ولو كره الكافرون وناصر دينه ومعلن كلمته ومظهر دينه على كل دين فهذا الحزى لهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه ، ومن قتل منهم أو مات فإلى الحزى الأبدى والعذاب السرمدي ، ولهذا قال (فيسفنقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون) وقوله تعالى (ليميز الله الخبيث من الطيب) قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (ليميز الله الخبيث من الطيب) فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء ، وقال السدي يميز المؤمن من الكافر ، وهذا يحتمل أن يكون هذا التميز في الآخرة كقوله (ثم تقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم) الآية وقوله (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) وقال في الآية الأخرى (يومئذ يصدعون) وقال تعالى (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) ويحتمل أن يكون هذا التميز في الدنيا بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين ، وتكون اللام معللة لما جعل الله للكافرين من مال ينفقونه في الصد عن سبيل الله أي إنما أقدرناهم على ذلك (ليميز الله الخبيث من الطيب) أي من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين ، أو يعصيه بالنسكول عن ذلك كقوله (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فيلأن الله

وليعلم المؤمنين وليعلم الذين ناقفوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم (الآية وقال تعالى (ما كا الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعه على الغيب) الآية وقال تعالى (أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) ونظيرتها في براءة أيضا فمعنى الآية على هذا إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها في ذلك (ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركه) أى يجمعه كله وهو جمع الشيء بعضه على بعض كما قال تعالى في السحاب (ثم يجعله ركاما) أى متراكما متراكبا (فيجعل في جهنم أولئك هم الخاسرون) أى هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَنَبَّهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وَقَتْلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ اُنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرُ ﴿

يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف) أى عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد ويدخلوا في الإسلام والطاعة والانابة يغفر لهم ما قد سلف أى من كفرهم ، وذنوبهم وخطاياهم كما جاء في الصحيح من حديث أبي وائل عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر » وفي الصحيح أيضا أن رسول الله ﷺ قال الإسلام يجب ما قبله والتوبة تجب ما كان قبلها « وفوله (وإن يعودوا) أى يستمروا على ما هم فيه (فقد مضت سنة الأولين) أى فقد مضت سنتنا في الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم إنا نعاملهم بالعذاب والعقوبة . قال مجاهد في قوله (فقد مضت سنة الأولين) أى في قریش يوم بدر وغيرها من الأمم ، وقال السدى ومحمد بن إسحق أى يوم بدر وقوله تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) قال البخارى حدثنا الحسن بن عبد العزيز حدثنا عبد الله بن يحيى حدثنا حيوة بن شريح عن بكر بن عمر عن بكير عن نافع عن ابن عمر أن رجلا جاء فقال : يا أبا عبد الرحمن ألا تصنع ما ذكر الله في كتابه (وإن طائفتين من المؤمنين اقتتلوا) الآية فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه ؟ فقال : يا ابن أخى أعير بهذا الآية ولا أقاتل أحب إلى من أن أعير بالآية التى يقول الله عز وجل (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) إلى آخر الآية قال : فان الله تعالى يقول (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) قال ابن عمر قد فعلنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كان الإسلام قليلا وكان الرجل يفتن في دينه إما أن يقتلوه وإما أن يوثقوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة ، فلما رأى أنه لا يوافقها فيما يريد قال فما قولكم فى على وعثمان ؟ قال ابن عمر أما قولى فى على وعثمان أما عثمان فكان الله قد عفا عنه وكرهتم أن يعفو الله عنه ، وأما على فابن عم رسول الله ﷺ وختنه وأشار بيده وهذه ابنته أو بنته حيث ترون ، وحدثنا أحمد بن يونس حدثنا زهير حدثنا بيان أن ابن وبرة حدثه قال حدثني سعيد بن جبير قال : خرج علينا أو إلينا ابن عمر رضى الله عنهما فقال كيف ترى فى قتال الفتنة ؟ فقال : وهل تدري ما الفتنة ؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين وكان الدخول عليهم فتنة ، وليس بقتالكم على الملك . هذا كله سياق البخارى رحمه الله تعالى وقال عبيد الله عن نافع عن ابن عمر أنه أتاه رجلان فى فتنة ابن الزبير فقالا : ان الناس قد صنعوا ما ترى وأنت ابن عمر بن الخطاب وأنت صاحب رسول الله ﷺ فما يمنعك أن تخرج ؟ قال يمنعنى أن الله حرم على دم أخى المسلم . قالوا أو لم يقل الله (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ؟) قال قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله . وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله . وكذا روى حماد بن سلمة عن على بن زيد عن أيوب

ابن عبد الله اللخمي قال كنت عند عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فأتاه رجل فقال إن الله يقول (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) قال قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله . وكذا رواه عماد بن سلمة فقال ابن عمر قاتلت أنا وأصحابي حتى كان الدين كله لله ، وذهب الشرك ولم تكن فتنة ولكنك وأصحابك تقاتلون حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله رواها ابن مردويه . وقال أبو عوانة عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال : قال ذوالبطين يعني أسامة بن زيد لأقاتل رجلا يقول لا إله إلا الله أبدا . فقال سعد بن مالك وأنا والله لأقاتل رجلا يقول لا إله إلا الله أبدا فقال رجل ألم يقل الله (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) فقالا قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله . رواه ابن مردويه ، وقال الضحاك عن ابن عباس (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) يعني لا يكون شرك ، وكذا قال أبو العالية ومجاهد والحسن وقادة والريبع ابن أنس والسدي ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم ، وقال محمد بن إسحق بلغني عن الزهري عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا حتى لا تكون فتنة حتى لا يفتن مسلم عن دينه . وقوله (ويكون الدين كله لله) قال الضحاك عن ابن عباس في هذه الآية قال يخلص التوحيد لله ، وقال الحسن وقادة وابن جريج (ويكون الدين كله لله) أن يقال لا إله إلا الله وقال محمد بن إسحق ويكون التوحيد خالصا لله ليس فيه شرك ويخلص مادونه من الأنداد .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ويكون الدين كله لله) لا يكون مع دينكم كفر ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل » وفيهما عن أبي موسى الأشعري قال سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقا تل حمية ويقا تل رياء أى ذلك في سبيل الله عز وجل ؟ فقال « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل » .

وقوله (فإن انهوا) أى بقتالكم عما هم فيه من الكفر فكفوا عنه وإن لم تعلموا بواطنهم (فإن الله بما يعملون بصير) كقوله (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) الآية وفي الآية الأخرى (فإخوانكم في الدين) وقال (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأسامة لما عسا ذلك الرجل بالسيف فقال لا إله إلا الله فضر به فقتله فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال لأسامة « أفنلته بعد ما قال لا إله إلا الله ؟ وكيف تصنع بالآله إلا الله يوم القيامة ؟ » فقال يا رسول الله إنما قالها تعودا قال « هلا شققت عن قلبه ؟ » وحمل يقول ويكرر عليه « من لك بالآله إلا الله يوم القيامة ؟ » قال أسامة حتى تمتيت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ وقوله (وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير) أى وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم فاعلموا أن الله مولاكم سيدكم وناصركم على أعدائكم فنعن المولى ونعم النصير . وقال محمد جرير حدثني عبد الوارث بن عبد الصمد حدثنا أبي حدثنا أبان العطار حدثنا هشام بن عروة عن عروة أن عبد الملك بن مروان كتب اليه يسأله عن أشياء فكتب اليه عروة : سلام عليك فإني أحمد اليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد فإنك كتبت إلى تسألني عن مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة وسأخبرك به ولا حول ولا قوة إلا بالله كان من شأن خروج رسول الله ﷺ من مكة أن الله أعطاه النبوة فنعم النبي ونعم السيد ونعم العشيرة فجراه الله خيرا وعرفنا وجهه في الجنة وأحيانا على ملته وأمانتنا وبعثنا عليها وأنه لما دعا قومه لما بعثه الله به من الهدى والنور الذى أنزل عليه لم يبعدوا منه أول مادعاهم اليه وكانوا يسمعون له حتى إذا ذكر طواغيتهم وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال أنكر ذلك عليه ناس واشتدوا عليه وكرهوا ما قال وأغروا به من أطاعهم فانعطف عنه عامة الناس فتركوه إلا من حفظه الله منهم وهم قليل فكث بذلك ما قدر الله أن يمكث ثم ائتمرت رءوسهم بأن يفتنوا من اتبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم فكانت فتنة شديدة الزلزال فافتن من افتن وعصم الله ماشاء منهم فلما فعل ذلك بالمسلمين أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا إلى أرض الحبشة وكان الحبشة ملك

صالح يقال له النجاشي لا يظلم أحد بأرضه وكان يثني عليه مع ذلك وكانت أرض الحبشة متجرا لقريش يتجرون فيها وكانت مساكن لتجارهم يجدون فيها رفاغا من الرزق وأما ومتجرا حسنا فأمرهم بها النبي ﷺ فذهب إليها عامتهم لما قهروا بمكة وخافوا عليهم الفتن ومكث هو فلم يبرح فكثت بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم ثم إنه فشا الإسلام فيها ودخل فيه رجال من أشrafهم ومنعتهم فلما رأوا ذلك استرخوا استرخاء عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه وكانت الفتنة الأولى هي التي أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ قبل أرض الحبشة مخافتها وفرارا مما كانوا فيه من الفتن والزلازل فلما استرخى عنهم ودخل في الإسلام من دخل منهم تحدث باسترخائهم عنهم فبلغ من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ أنه قد استرخى عنهم كان منهم بمكة وأنهم لا يفتنون فرجعوا إلى مكة وكادوا يأمنون بها وجعلوا يزدادون ويكثرُونَ وأنه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير وفشا الإسلام بالمدينة وطلق أهل المدينة يأتون رسول الله ﷺ بمكة فلما رأت قريش ذلك توامروا على أن يفتنوهم ويشدوا فأخذوهم فحرسوا على أن يفتنوهم فأصابهم جهد شديد فكانت الفتنة الآخرة فكانت فتنتان فتنة أخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة حين أمرهم النبي ﷺ بها وأذن لهم في الخروج إليها وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة ثم إنه جاء رسول الله ﷺ من المدينة سبعون نقيبا رؤوس الدين أساموا فوافوه بالحج فبايعوه بالعقبة وأعطوه عهودهم ومواثيقهم على أنا منك وأنت منا وعلى أن من جاء من أصحابك أوجئنا فإننا نمنعك مما تمنع منه أنفسنا فاشتدت عليهم قريش عند ذلك فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يخرجوا إلى المدينة وهي الفتنة الآخرة التي أخرج فيها رسول الله ﷺ أصحابه وخرج هو . وهي التي أنزل الله عز وجل فيها (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) ثم رواه عن نونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه عن عروة بن الزبير أنه كتب إلى الوليد يعني ابن عبد الملك بن مروان بهذا فذكر مثله وهذا صحيح إلى عروة رحمه الله .

﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَالَّذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يبين تعالى تفصيل ماشرعه مخصصا لهذه الأمة الشريفة من بين سائر الأمم المتقدمة باحلال الغنائم . والغنيمة هي المال المأخوذ من الكفار بإجفاف الحيل والركاب ، والفيء ما أخذ منهم بغير ذلك كالأموال التي يصالحون عليها أو يتوفون عنها ولا وارث لهم والجزية والخراج ونحو ذلك هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف ، ومن العلماء من يطلق الفيء على ما تطلق عليه الغنيمة وبالعكس أيضا ، ولهذا ذهب قتادة إلى أن هذه الآية ناسخة لآية الجشر (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي القربى) الآية قال ففسخت آية الأنفال تلك وجعلت الغنائم أربعة أخماس للمجاهدين وخمسا منها لهؤلاء المذكورين ، وهذا الذي قاله بعيد لأن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر وتلك نزلت في بني النضير ولا خلاف بين علماء السير والمغازي فاطبة أن بني النضير بعد بدر وهذا أمر لا يشك فيه ولا يرتاب فمن يفرق بين معنى الفيء والغنيمة يقول تلك نزلت في أموال الفيء وهذه في الغنائم ومن يجعل أمر الغنائم والفيء راجعا إلى رأى الإمام يقول لا منافاة بين آية الجشرويين التخميس إذا رآه الإمام والله أعلم . فقله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة) توكيد لتخميس كل قليل وكثير حتى الحيط والمحيط قال الله تعالى (ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) وقوله (فإن لله خمسة وللرسول) اختلف المفسرون ههنا فقال بعضهم لله نصيب من الخمس يجعل في السكبة . قال أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالية الرياحي : قال كان رسول الله ﷺ يوتي بالغنيمة فيخمسها على خمسة تكون أربعة أخماس لمن شهد بها ثم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه فيأخذ منه الذي قبض كقله فيجعله للسكبة وهو سهم الله ثم يقسم ما بقي على خمسة أسهم فيكون سهم للرسول وسهم لذوي القربى وسهم لليتامى

وسهم للمساكين وسهم لابن السبيل ؛ وقال آخرون ذكر الله ههنا استفتاح كلام للتبرك وسهم لرسوله عليه السلام قال الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا خمس الغنيمة فضرب ذلك الخمس في خمسة ثم قرأ (واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول) فإن لله خمسة مفتاح كلام (لله ما في السموات وما في الأرض) فجعل سهم الله وسهم الرسول صلى الله عليه وسلم واحدا وهكذا قال إبراهيم النخعي والحسن بن محمد بن الحنفية والحسن البصري والشعبي وعطاء بن أبي رباح وعبد الله بن بريدة وقتادة ومغيرة وغير واحد أن سهم الله ورسوله واحد ويؤيد هذا ما رواه الإمام الحافظ أبو بكر البهقي بإسناد صحيح عن عبد الله بن شقيق عن رجل قال أتيت النبي ﷺ وهو بوادي القرى وهو يعرض فرساً فقات يا رسول الله ما تقول في الغنيمة ؟ فقال « لله خمسها وأربعة أخماسها للجيش » قلت فما أحد أولى به من أحد ؟ قال « لا ولا السهم تستخرجه من جيبيك ليس أنت أحق به من أخيك المسلم »

وقال ابن جرير : حدثنا عمران بن موسى حدثنا عبد الوارث حدثنا أبان عن الحسن قال أوصى الحسن بالخمسة من ماله وقال ألا أرضى من مالى بما رضى الله لنفسه ثم اختلف قائلوه هذا القول فروى على بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : كانت الغنيمة تخمس على خمسة أخماس فأربعة منها بين من قاتل عليها وخمس واحد يقسم على أربعة أخماس فربح لله وللرسول ﷺ فما كان لله وللرسول فهو لقراة النبي صلى الله عليه وسلم ولم يأخذ النبي ﷺ من الخمس شيئاً ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو معمر المقرئ حدثنا عبد الوارث بن سعيد عن حسين المعلم عن عبد الله بن بريدة في قوله (واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول) قال الذى لله فلهيبه والذى للرسول لأزواجه وقال عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء بن أبي رباح قال خمس الله والرسول واحد يحمل منه ويصنع فيه ما شاء يعنى النبي ﷺ وهذا أعم وأشمل وهو أنه صلى الله عليه وسلم يتصرف في الخمس الذى جعله الله له بما شاء ويرده في أمته كيف شاء ، ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد حيث قال : حدثنا إسحاق بن عيسى حدثنا إسماعيل بن عياش عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم عن أبي سلام الأعرج عن المقدم بن معديكرب الكندى أنه جلس مع عبادة ابن الصامت وأبي الدرداء والحارث بن معاوية الكندى رضى الله عنهم فتذاكروا حديث رسول الله ﷺ فقال أبو الدرداء لعبادة يا عبادة كليات رسول الله ﷺ في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس فقال عبادة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم في غزوة إلى بعر من الغنم فلما سلم قام رسول الله ﷺ فتناول وبرة بين أمتيه فقال « إن هذه من غنائمكم وإنه ليس لى فيها إلا نصيبى معكم الخمس والخمس مردود عليكم فأدوا الحيط والمحيط وأكبر من ذلك وأصغر ولا تغلوا فإن الغلول عارونار على أصحابه في الدنيا والآخرة واجهدوا الناس في الله القريب والبعيد ولا تبالوا في الله لومة لائم وأقيموا حدود الله في السفر والحضر واجهدوا في الله فإن الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم ينجى الله به من الهم والغم » هذا حديث حسن عظيم ولم أره في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه ولكن روى الإمام أحمد أيضاً وأبو داود والنسائي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحوه في قصة الخمس والنهى عن الغلول . وعن عمرو بن عبسة أن رسول الله ﷺ صلى بهم إلى بعر من الغنم فلما سلم أخذ وبرة من هذا البعر ثم قال « ولا يحل لى من غنائمكم مثل هذه إلا الخمس والخمس مردود عليكم » رواه أبو داود والنسائي ، وقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم من الغنائم شيء يصطفيه لنفسه عبد أو أمة أو فرس أو سيف أو نحو ذلك كما نص عليه محمد بن سيرين وعامر الشعبي وتبعهما على ذلك أكثر العلماء . وروى الإمام أحمد والترمذى وحسنه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ تنفل سيفه ذا الفقار يوم بدر وهو الذى رأى فيه الرؤيا يوم أحد ، وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كانت صفية من الصفي رواء أبو داود في سننه وروى أيضاً بإسناده والنسائي أيضاً عن يزيد بن عبد الله قال : كنا بالمربد إذ دخل رجل معه قطعة أديم فقرأناها فإذا فيها « من محمد رسول الله إلى بى زهير بن أقيش إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله

وأقيم الصلاة وآتيت الزكاة وأديت الخمس من المغنم وسهم النبي ﷺ وسهم الصفي أتم آمنون بأمان الله ورسوله « فقلنا من كتب لك هذا ؟ فقال رسول الله ﷺ فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرير هذا وثبوته ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه ، وقال آخرون : إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين كما يتصرف في مال الفيء وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية رحمه الله وهذا قول مالك وأكثر السلف وهو أصح الأقوال . فإذا ثبت هذا وعلم فقد اختلف أيضاً في الذي كان يناله عليه السلام من الخمس ماذا يصنع به من بعده فقال قائلون يكون لمن يلي الأمر من بعده روى هذا عن أبي بكر وعلى وقتادة وجماعة . وجاء فيه حديث مرفوع وقال آخرون يصرف في مصالح المسلمين وقال آخرون بل هو مردود على بقية الأصناف ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل اختاره ابن جرير وقال آخرون بل سهم النبي ﷺ وسهم ذوى القربى مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل . قال ابن جرير وذلك قول جماعة من أهل العراق ، وقيل إن الخمس جميعه لذوى القربى كما رواه ابن جرير حدثنا الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا عبد الغفار حدثنا المنهال بن عمرو سألت عبد الله ابن محمد بن علي وعلى بن الحسين عن الخمس فقالا : هو لنا فقلت لعلي فان الله يقول (واليتامى والمساكين وابن السبيل) فقالا يتامانا ومساكيننا ، وقال سفيان الثوري وأبو نعيم وأبو أسامة عن قيس بن مسلم سألت الحسن بن محمد بن الحنفية رحمه الله تعالى عن قول الله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول) فقال هذا مفتاح كلام الله الدنيا والآخرة ثم اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قائلون : سهم النبي صلى الله عليه وسلم تسليماً^(١) للخليفة من بعده . وقال آخرون لقربة النبي صلى الله عليه وسلم وقال آخرون سهم القربة لقربة الخليفة ، واجتمع رأيهم أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما قال الأعمش عن إبراهيم كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبي ﷺ في الكراع والسلاح فقلت لإبراهيم ما كان علي يقول فيه ؟ قال : كان أشدهم فيه وهذا قول طائفة كثيرة من العلماء رحمهم الله ، وأما سهم ذوى القربى فانه يصرف إلى بني هاشم وبني المطلب لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية وفي أول الإسلام ودخلوا معهم في الشعب غضبا لرسول الله ﷺ وحماية له مساهم طاعة لله ولرسوله وكافرهم حمية للعشيرة وأنفة وطاعة لأبي طالب عم رسول الله ﷺ وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل ، وإن كانوا بني عمهم فلم يوافقهم على ذلك بل حاربوهم وناذوهم ومالوا بطون قريش على حرب الرسول ولهذا كان ذم أبي طالب لهم في قصيدته اللامية أشد من غيرهم لشدة قربهم ولهذا يقول في أثناء قصيدته

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا * عقوبة شر عاجل غير آجل * بميزان قسط لا يخيس شعيرة

له شاهد من نفسه غير عائل * لقد سفهت أحلام قوم تبدلوا * بنى خلف قيسا بنا والعياطل

ونحن الصميم من ذؤابة هاشم * وآل قصي في الخطوب الأوائل

وقال جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل مشيت أنا وعثمان بن عفان يعني ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس إلى رسول الله ﷺ فقلنا يا رسول الله أعطيت بني المطلب من خمس خير وتركتنا ونحن وهم منك بمنزلة واحدة فقال « إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد » رواه مسلم^(٢) وفي بعض روايات هذا الحديث « إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام » وهذا قول جمهور العلماء انهم بنو هاشم وبنو المطلب . قال ابن جرير وقال آخرون هم بنو هاشم ثم روى عن خصيف عن مجاهد قال : علم الله أن في بني هاشم ققراء فجعل لهم الخمس مكان الصدقة ، وفي رواية عنه قال هم قربة رسول الله ﷺ الذين لا تحل لهم الصدقة ثم روى عن علي بن الحسين نحو ذلك قال ابن جرير وقال آخرون بل هم قريش كلها حدثني يونس بن عبد الأعلى حدثني عبد الله بن نافع عن أبي معشر عن سعيد المقبري قال كتب نجدة إلى عبد الله بن عباس يسأله عن ذوى القربى فكتب إليه ابن عباس كذا تقول : إنهم فأبى علينا ذلك قومنا وقالوا قريش كلها ذوو قربي وهذا الحديث صحيح رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث سعيد المقبري عن يزيد بن هرمز

(١) كذا في الأصول أى يسلم تسليماً . (٢) كذا في جميع النسخ وإنما رواه البخارى في عدة أبواب قليلة فهو سهو أو سبق قلم من المؤلف .

أن نجدة كتب إلى ابن عباس يسأله عن ذوى القربى فذكره إلى قوله فأنى ذلك علينا قومنا والزيادة من أفراد أبى معشر نجيح بن عبد الرحمن المدنى وفيه ضعف ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا إبراهيم بن مهدي الصيصى حدثنا المعتمر ابن سليمان عن أبيه عن حنش عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « رغب لكم عن غسالة الأيدي لأن لكم من خمس الخمس ما يغنيكم أو يكفيكم » هذا حديث حسن الإسناد وإبراهيم بن مهدي هذا وثقه أبو حاتم ، وقال يحيى بن معين يأنى بمنأى والله أعلم ، وقوله (واليتامى) أى أيتام المسلمين واختلف العلماء هل يختص بالأيتام الفقراء أو يعم الأغنياء والفقراء ؟ على قولين ، والمساكين هم الخواص الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكنهم (وابن السبيل) هو المسافر أو المرید للسفر إلى مسافة تقصر فيها الصلاة وليس له ما ينفقه في سفره ذلك وسيأتى تفسير ذلك في آية الصدقات من سورة براءة إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان

وقوله (إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا) أى امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس في الغنائم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل على رسوله : ولهذا جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن عباس في حديث وفد عبد القيس أن رسول الله ﷺ قال لهم « وأمركم بأربع وأنها لكم عن أربع . أمركم بالإيمان بالله - ثم قال - هل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا الخمس من المغنم » الحديث بطوله فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان ، وقد بوب البخارى على ذلك في كتاب الإيمان من صحيحه فقال « باب أداء الخمس من الإيمان » ثم أورد حديث ابن عباس هذا ، وقد بسطنا الكلام عليه في شرح البخارى والله الحمد والمنة ، وقال مقاتل بن حيان (وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان) أى في القسمة وقوله (يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير) ينبه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه بمافرق به بين الحق والباطل بيدر ، ويسمى الفرقان لأن الله أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه ، قال على بن أبى طلحة والوعفى عن ابن عباس : يوم الفرقان يوم بدر ، فرق الله فيه بين الحق والباطل رواه الحاكم . وكذا قال مجاهد ومقسم وعبيد الله بن عبد الله والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان وغير واحد أنه يوم بدر ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن عروة بن الزبير في قوله (يوم الفرقان) يوم فرق الله بين الحق والباطل ، وهو يوم بدر ، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ ، وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة أو سبع عشرة مضت من رمضان وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلثمائة وبضعة عشر رجلا والمشركون مائتا ألف والتسعمائة فهزم الله المشركين وقتل منهم زيادة على السبعين وأسر منهم مثل ذلك ، وقد روى الحاكم في مستدركه من حديث الأعمش عن إبراهيم عن الأسود عن ابن مسعود قال في ليلة القدر : تحروها لإحدى عشرة يمين فإن في صبيحتها يوم بدر وقال على شرطهما ، وروى مثله عن عبد الله بن الزبير أيضا من حديث جعفر بن برقان عن رجل عنه وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح حدثنا يحيى بن يعقوب أبو طالب عن ابن عون عن محمد بن عبد الله الثقفى عن أبى عبد الرحمن السلمى قال : قال الحسن بن على كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان لسبع عشرة من رمضان ، إسناد جيد قوى ورواه ابن مردويه عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن حبيب عن على قال : كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان ، وهو الصحيح عند أهل الغزى والسير وقال يزيد بن أبى حبيب إمام أهل الديار المصرية في زمانه : كان يوم بدر يوم الاثنين ولم يتابع على هذا وقول الجمهور مقدم عليه والله أعلم

﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خَقَلْتُمْ فِي الْمَعِیدِ وَلَكِنْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى خبرنا عن يوم الفرقان (إذ أنتم بالعدوة الدنيا) أى إذ أنتم نزول بعدوة الوادى الدنيا القرية إلى المدينة (وهم) أى المشركون نزول (بالعدوة القصوى) أى البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة (والركب) أى العير الذى فيه

أبوسفيان بجمعه من النجارة (أسفل منكم) أى مما يلي سيف البحر (ولو تواعدتم) أى أنهم والمشركون إلى مكان (لاختلفتم في المعاد) قال محمد بن إسحق وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه في هذه الآية قال ولو كان ذلك عن معياد منكم ومنهم ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم ما لقيتموهم (ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً) أى ليقضى الله ما أراد بقدرته من إعزاز الاسلام وأهله وإذلال الشرك وأهله من غير ملأ منكم ففعل ما أراد من ذلك بلطفه ، وفي حديث كعب بن مالك قال إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون غير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير معياد ، وقال ابن جرير حدثني يعقوب حدثني بن علي عن ابن عون عن عمير بن إسحاق قال : أقبل أبو سفيان في الركب من الشام وخرج أبو جهل ليمتعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فالتقوا بدر ولا يشعر هؤلاء بهؤلاء ولا هؤلاء بهؤلاء حتى التقى السقاة ونهد الناس بعضهم لبعض ، وقال محمد بن إسحاق في السيرة ومضى رسول الله ﷺ على وجهه ذلك حتى إذا كان قريباً من الصفراء بعث بسبس بن عمرو وعدى ابن أبي الزغباء الجهنين يلتحسان الخبر عن أبي سفيان فانطلقا حتى إذا وردا بدرأ فأتاها بعيريهما إلى تل من البطحاء فاستقيا في شئ لهما من الماء فسمعا جارتين يختصمان تقول إحداها لصاحبتها اقضيني حتى ، وتقول الأخرى إنما تأت العير غدا أو بعد غد فأقضيك حثك فخاص بينهما مجدى بن عمرو وقال صدقت فسمع بذلك بسبس وعدى فجلسا على بعيريهما حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخراه الخبر وأقبل أبو سفيان حين وليا وقد حذر فتقدم أمام عيره وقال لمجدي بن عمرو هل أحسست على هذا الماء من أحد تشكره ؟ فقال لا والله إلا أنى قد رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل فاستقيا من شئ لهما ثم انطلقا فاجاء أبو سفيان إلى مناخ بعيريهما فأخذ من أبعارهما ففقه فإذا فيه النوى فقال هذه والله علائف يثرب ، ثم رجع سريعاً فضرب وجهه عيره فانطلق بها فساحل حتى إذا رأى أنه قد أحرز عيره بعث إلى قريش فقال : إن الله قد نجى عيركم وأموالكم ورجالكم فارجعوا : فقال أبو جهل والله لا نرجع حتى نأتى بدرأ . وكانت بدر سوقاً من أسواق العرب . فنقم بها ثلاثاً فنطعم بها الطعام ونحرق بها الجزر ونسقى بها الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا فلا يزالون يهابونا بعدها أبدا . فقال الأخنس بن شريق : يا معشر بنى زهرة إن الله قد أنجى أموالكم ونجى صاحبكم فارجعوا فأطاعوه فرجعت بنو زهرة فلم يشهدوها ولا بنو عدى . قال محمد بن إسحاق وحدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قال : وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دنا من بدر على بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام في نفر من أصحابه يتجسسونه الخبر فأصابوا سقاة لقريش غلاماً لبني سعيد بن العاص وغلاماً لبني الحجاج فأثوا بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدوه يصلى فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونهما لمن أنتم ؟ فيقولان نحن سقاة لقريش بعثونا نستقيهم من الماء فكره القوم خبرهما ، ورجوا أن يكونا لأبني سفيان فضربوهما فلما أزلوهما قالان نحن لأبني سفيان فتركوهما وركع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد سجدتين ثم سلم وقال « إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما صدقا والله إنهما لقريش أخراى عن قريش » قالاهم وراء هذا الكتيب الذى ترى بالعدوة القصوى ، والكاتب : العتققل فقال لهما رسول الله ﷺ « كم القوم ؟ » قالوا كثير قال « ماعدتهم ؟ » قالوا ما ندرى قال « كم يسحرون كل يوم ؟ » قالوا يوماً تسعاً ويوماً عشرة قال رسول الله ﷺ « القوم ما بين التسعمائة إلى الألف » ثم قال لهما « فمن فهم من أشراف قريش ؟ » قالوا عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام ونوفل بن خويلد والحارث ابن عامر بن نوفل وطعيمة بن عدى بن نوفل والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود وأبو جهل بن هشام وأممية بن خلف ونبية ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبد ود فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس فقال « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها » قال محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم أن سعد بن معاذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما التقى الناس يوم بدر يارسول الله ألا نبني لك عريشا تكون فيه وننسخ إليك ركائبك ، ونلقى عدونا فإن أطفرنا الله عليهم وأعزنا فذاك مانحب وإن تكن الأخرى فتجلس

على ركائبك وتلحق بمن وراءنا من قومنا فقد والله نخلف عنك أقوام ما نحن بأشد لك حبا منهم لو علموا أنك تلتقي حربا ما تخلفوا عنك ويوازرونك وينصرونك . فأتى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ودعا له به فبنى له عرش فكان فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر ما معهما غيرهما . قال ابن إسحق وارتحلت قريش حين أصبحت فلما أقبلت ورآها رسول الله ﷺ تصوب من العقنقل وهو الكتيب الذي جاءوا منه إلى الوادي فقال « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم أحزم الغداة » وقوله (لهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة) قال محمد بن إسحق أى ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة ، ويؤمن من آمن على مثل ذلك وهذا تفسير جيد . وبسط ذلك أنه تعالى يقول إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير معاد لينصركم عليهم ويرفع كلمة الحق على الباطل ليصير الأمر ظاهراً والحجة قاطعة والبراهين ساطعة ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة فحينئذ يهلك من هلك أى يستمر في الكفر من استمر فيه طى بصيرة من أمره إنه مبطل لقيام الحجة عليه (ويحيى من حي) أى يؤمن من آمن (عن بينة) أى حجة وبصيرة والإيمان هو حياة القلوب قال الله تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به في الناس) وقالت عائشة في قصة الإفك فهلك أى قال فيها ما قال من البهتان والإفك وقوله (وإن الله لسميع) أى لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به (عليم) أى بكم وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين .

﴿ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا قَلْبًا لَفُتِنْتُمْ وَلَتَنَزَعْنُمْ فِي الْأُمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَاتُمُ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾

قال مجاهد أراهم الله إياه في منامه قليلا وأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فكان تثبيتا لهم ، وكذا قال ابن إسحق وغير واحد وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه رآهم بعينه التي ينام بها ، وقد روى ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يوسف بن موسى حدثنا أبو قتبية عن سهل السراج عن الحسن في قوله (إذ يريكمهم الله في منامك قليلا) قال بعينك وهذا القول غريب ، وقد صرح بالنام ههنا فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه وقوله (ولو أراكم كثيرا لفشتكم) أى لجبتكم عنهم واختلفتم فيما بينكم (ولكن الله سلم) أى من ذلك بأن أراكم قليلا (إنه عليم بذات الصدور) أى بما تجننه الضمائر وتنطوى عليه الأحشاء (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) وقوله (وإذ يريكمهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا) وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم إذ أراهم إياهم قليلا في رأى العين فيجروهم عليهم ويطمعهم فيهم قال أبو إسحق السبيعي عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي تراهم سبعين ؟ قال لا بل هم مائة حتى أخذنا رجلا منهم فسألناه فقال كنا ألفا رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وقوله (ويقللهم في أعينهم) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن الزبير بن الحارث عن عكرمة (وإذ يريكمهم إذ التقيتم) الآية قال حضض بعضهم على بعض إسناد صحيح وقال محمد بن إسحق حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه في قوله تعالى (ليقتض الله أمراً كان مفعولاً) أى ليلقى بينهم الحرب للثمة ممن أراد الانتقام منه والآنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر ، وقلله في عينه ليطمع فيه وذلك عند المواجهة فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من اللاتسكة مردفين بقى حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه كما قال تعالى (قد كان لكم آية في فتنين القضاة فتنازل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار) وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين فإن كلا منها حق وصدق والله الحمد والمنة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

هذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء فقال (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا) ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى إذ مالت الشمس قام فيهم فقال « يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموه فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ثم قام النبي صلى الله عليه وسلم وقال « اللهم منزل الكتاب ، وجري السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم » وقال عبد الرزاق عن سفيان الثوري عن عبد الرحمن ابن زياد عن عبد الله بن يزيد عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموه فاثبتوا واذكروا الله فان صخبوا وصاحوا فعليكم بالصمت » وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا إبراهيم بن هاشم البغوي حدثنا أمية بن بسطام حدثنا معتمر بن سليمان حدثنا ثابت بن زيد عن رجل عن زيد بن أرقم عن النبي ﷺ مرفوعا قال « إن الله يحب الصمت عند ثلاث عند تلاوة القرآن . وعند الزحف وعند الجنابة » وفي الحديث الآخر المرفوع يقول الله تعالى « إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قرنه » أي لا يشغله ذلك الحال عن ذكرى ودعائي واستعائتي

وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في هذه الآية ، قال افترض الله ذكره عند أشغل ما يكون عند الضرب بالسيوف وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبدة بن سليمان حدثنا ابن المبارك عن ابن جريج عن عطاء : قال وجب الانصات وذكر الله عند الزحف ثم تلا هذه الآية قلت يجهرون بالله كره ؟ قال نعم وقال أيضاً قرأ علي بن يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب أخبرني عبد الله بن عباس عن يزيد بن فوذر عن كعب الأحبار قال ما من شيء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والفكر ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال ألا ترون أنه أمر الناس بالله كره عند القتال فقال (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) قال الشاعر :

ذكرتك والحطى يخطر بيننا * وقد نهلت فينا المثقفة السمر

وقال عنتره

ولقد ذكرتك والرماح نواهل * منى وبيض الهند تقطر من دمي

فأمرته الى بالثبت عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجنبوا وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه بل يستعينوا به ويتوكلوا عليه ويسألوه النصر على أعدائهم وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا . وما نهاهم عنه انزجروا ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا فيكون سببا لتخاذلهم وفشلهم (وتذهب ريحكم) أي قوتكم وحدتكم وما كنتم فيه من الاقبال (واصبروا إن الله مع الصابرين) وقد كان للصحابه رضي الله عنهم في باب الشجاعة والاثبات بما أمرهم الله ورسوله به ، وامثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم ولا يكون لأحد ممن بعدهم فانهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم فتحوا القلوب والأقاليم شرقا وغربا في المدة اليسيرة ، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم . قهروا الجميع حتى علت كلمة الله وظهر دينه على سائر الأديان ، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة فرضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين وحشرنا في زميرتهم إنه كريم وهاب

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ

مُحِيطٌ * وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ * إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءُ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله وكثرة ذكره ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم بطراً أي دفعاً للحق (ورثاء الناس) وهو الفأخرة والتكبر عليهم كما قال أبو جهل لما قيل له إن العير قد نجا فارجعوا ، فقال لا والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر وننحر الجزر ونشرب الخمر وتعزف علينا القيان وتحدث العرب بمكاننا فيها يوماً أبداً فانعكس ذلك عليه أجمع لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحمام ، وركبوا في أطواء بدر مهانين أذلاء ، صغرة أشقياء في عذاب سرمدي أبدى ولهذا قال (والله بما يعملون محيط) أي عالم بما جاءوا به وله ، ولهذا جازاهم عليه شر الجزاء لهم . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك والسدي في قوله تعالى (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورثاء الناس) قالوا هم المشركون الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر . وقال محمد بن كعب لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا بالقيان والذفوف فأنزل الله (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورثاء الناس ، ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط) وقوله تعالى (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم) الآية ، حسن لهم لعنه الله ما جاءوا له وما هموا به وأطعمهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس ونفي عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بنى بكر فقال إني جار لكم ، وذلك أنه تبدى لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم سيد بني مدلج كبير تلك الناحية وكل ذلك منه كما قال تعالى عنه (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) قال ابن جريج قال ابن عباس في هذه الآية لما كان يوم بدر سار إبليس برأيه وجنوده مع المشركين وألقى في قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم ، وإني جار لكم ، فلما التقوا ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة (نكص على عقبيه) قال رجع مدبراً وقال (إني أرى ما لا ترون) الآية وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال . جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه برأيه في صورة رجل من بني مدلج في صورة سراقة بن مالك بن جعشم فقال الشيطان للمشركين لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ، فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين فولوا مدبرين : وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس ، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع يده ثم ولى مدبراً وشيعته فقال الرجل يسراقة أتزعم أنك لنا جار فقال ، إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب وذلك حين رأى الملائكة وقال محمد بن إسحق حدثني السكبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن إبليس خرج مع قريش في صورة سراقة بن مالك بن جعشم فلما حضر القتال ورأى الملائكة نكص على عقبيه وقال إني بَرِيءٌ مِّنْكُمْ فتشبت به الحارث ابن هشام فنخر في وجهه فخر صعباً فقبله ويلك يسراقة على هذه الحال تخذلنا وتبرأ منا فقال إني بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب

وقال محمد بن عمر الواقدي أخبرني عمر بن عقبة عن شعبة مولى ابن عباس عن ابن عباس قال لما تواقف الناس أغشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم كشف عنه فبشر الناس بجبريل في جند من الملائكة ميمنة الناس ، وميكائيل في جند آخر ميسرة الناس ، وإسرافيل في جند آخر ألف ، وإبليس قد تصور في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي يدبر المشركين ويخبرهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس فلما أبصر عدو الله الملائكة نكص على عقبيه وقال إني بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إني أرى ما لا ترون فتشبت به الحارث بن هشام وهو يرى أنه سراقة لما سمع من كلامه فضرب في صدر الحارث فسقط الحارث وانطلق إبليس لا يرى حتى سقط في البحر ورفع ثوبه وقال يارب موعده الذي وعدتني . وفي الطبراني عن رفاة ابن رافع قريب من هذا السياق وأبسط منه ذكرناه في السيرة ، وقال محمد بن إسحق حدثني يزيد بن رومان عن عروة

ابن الزبير قال : لما أجمعت قريش المسير ذكرت الذي بينها وبين بكر من الحرب فكد ذلك أن يشنهم فتبدى لهم إبليس في صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي وكان من أشراف بني كنانة فقال أنا جار لكم أن تأتيتكم كنانة بشيء تكرهونه فخرجوا سراعا ، قال محمد بن إسحق فذكر لي أنهم كانوا يرونه في كل منزل في صورة سراقه بن مالك لا ينكرونه حتى إذا كان يوم بدر والنقي الجمعان كان الذي رآه حين نكص الحارث بن هشام أو عمير بن وهب فقال أين سراقه ؟ أين وميل عدو الله فذهب قال فأوردتهم ثم أسلمهم ، قال ونظر عدو الله إلى جنود الله قدامه يد الله بهم رسوله والمؤمنين فنكص على عقبيه وقال إني برىء منكم إني أرى مالا ترون وصدق عدو الله وقال إني أخاف الله والله شديد العقاب ، وهكذا روى عن السدي والضحاك والحسن البصري ومحمد بن كعب القرظي وغيرهم رحمهم الله ، وقال قتادة وذكر لنا أنه رأى جبريل عليه السلام تنزل معه الملائكة فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة فقال إني أرى مالا ترون إني أخاف الله وكذب عدو الله . والله ما به مخافة الله ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستفاد له حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم وتبرأ منهم عند ذلك قلت يعنى بعادته لمن أطاعه قوله تعالى (كذل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إني برىء منك إني أخاف الله رب العالمين) وقوله تعالى (وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أتم بمصرخى إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم) وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق حدثني عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم عن بعض بني ساعدة قال : سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة بعدما كف بصره يقول : لو كنت معكم الآن بيدرومعى بصرى لأخبرتكم بالشعب الذي خرجت منه الملائكة لا أشك ولا أتمارى فلما نزلت الملائكة ورآها إبليس وأوحى الله إليهم أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، وتثبتهم أن الملائكة كانت تأتي الرجل في صورة الرجل يعرفه فيقول له أبشر فإنهم ليسوا بشيء والله معكم فكروا عليهم فلما رأى إبليس الملائكة نكص على عقبيه وقال إني برىء منكم إني أرى مالا ترون وهو في صورة سراقه وأقبل أبوجهل يحضض أصحابه ويقول لا يهولنكم خذلان سراقه إياكم فإنه كان على موعد من محمد وأصحابه . ثم قال واللات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمدا وأصحابه في الحبال فلا تقتلوهم وخذوهم أخذنا وهذا من أبي جهل لعنه الله كقول فرعون للسحرة لما أسلموا (إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها) وكقوله (إنه لكبيركم الذي علمكم السحر) وهو من باب البهت والافتراء ، ولهذا كان أبوجهل فرعون هذه الأمة .

وقال مالك بن أنس عن إبراهيم بن أبي علي عن طلحة بن عبيد الله بن كريز أن رسول الله ﷺ قال « ما رأى إبليس يوما هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدر ولا أغبط من يوم عرفة وذلك مما يرى من نزول الرحمة والعفو عن الذنوب إلا ما رأى يوم بدر » قالوا يارسول الله وما رأى يوم بدر ؟ قال « أما إنه رأى جبريل عليه السلام يزعم الملائكة » هذا مرسل من هذا الوجه

وقوله (إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين ، وقلل المشركين في أعين المسلمين فقال المشركون غر هؤلاء دينهم وإنما قالوا ذلك من قتلهم في أعينهم فظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون في ذلك فقال الله (ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم) وقال قتادة : رأوا عصابة من المؤمنين تشددت لأمر الله ، وذكر لنا أن أبوجهل عدو الله لما أشرف على محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه قال : والله لا يعبد الله بعد اليوم - قسوة وعتوا . وقال ابن جريج في قوله (إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض) هم قوم كانوا من المنافقين بمكة قالوه يوم بدر ، وقال عامر الشعبي كان ناس من أهل مكة قد تكلموا بالاسلام فخرجوا مع المشركين يوم بدر فلما رأوا قلة المسلمين قالوا غر هؤلاء دينهم . وقال مجاهد في قوله عز وجل (إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم) قال فثة من قريش قيس بن الوليد بن الغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب وعلي بن أمية بن خلف

والعاص بن منه بن الحجاج خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياح فحبسهم ارتياحهم ، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا غر هؤلاء دينهم حتى قدموا على ما قدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم وهكذا قال محمد بن إسحق بن يسار سواء . وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن الحسن في هذه الآية قال هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين ، قال معمر وقال بعضهم هم قوم كانوا أقروا بالإسلام وهم بمكة فخرجوا مع المشركين يوم بدر فلما رأوا قلة المسلمين قالوا غر هؤلاء دينهم ، وقوله (ومن يتوكل على الله) أى يعتمد على جنبه (فإن الله عزيز) أى لا يضام من التجأ إليه فإن الله عزيز منيع الجنب عظيم السلطان (حكيم) فى أفعاله لا يضعها إلا فى مواضعها ، فينصر من يستحق النصر ، ويخذل من هو أهل لذلك

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْزَبُهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾
ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿

يقول تعالى ولو عاينت يا محمد حال توفى الملائكة أرواح الكفار لرأيت أمراً عظيماً لا تفضيها منكر (إذ يضربون وجوههم وأذبارهم ويقولون لهم ذوقوا عذاب الحريق) . قال ابن جرير عن مجاهد (أذبارهم) أستاههم ، قال يوم بدر قال ابن جرير قال ابن عباس إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيوف وإذا ولوا أدركتهم الملائكة يضربون أذبارهم . وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد فى قوله (إذ يتوفى الذين كفروا والملائكة يضربون وجوههم وأذبارهم) يوم بدر ، وقال وكيع عن سفيان الثوري عن أبي هاشم إسماعيل بن كثير عن مجاهد ، وعن شعبة عن يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبيرة يضربون وجوههم وأذبارهم قال وأستاههم ولكن الله يكتفى وكذا قال عمر مولى عفرة . وعن الحسن البصري قال : قال رجل يا رسول الله : إني رأيت بظهير أبي جهل مثل الشوك ، قال « ذاك ضرب الملائكة » رواه ابن جرير وهو مرسل ، وهذا السياق وإن كان سببه وقعة بدر ولكنه عام فى حق كل كافر ، ولهذا لم يخصه تعالى بأهل بدر بل قال تعالى (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأذبارهم) وفى سورة القتال مثلاً ، وتقدم فى سورة الأنعام قوله تعالى (ولو ترى إذ المجرمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسهم) أى باسطوا أيديهم بالضرب فيهم بأمر ربهم إذا استصعبت أنفسهم وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهراً وذلك إذا بشروهم بالعذاب والغضب من الله كما فى حديث البراء أن ملك الموت إذا جاء الكافر عند احتضاره فى تلك الصورة المنكرة يقول : أخرجى أيتها النفس الحبيثة إلى سموم وحمم وظل من يحوم فتنفرك فى بدنه فيستخرجونها من جسده كما يخرج السفود من الصوف المبلول فتخرج معها العروق والعصب ، ولهذا أخبر تعالى أن الملائكة تقول لهم ذوقوا عذاب الحريق ، وقوله تعالى (ذلك بما قدمت أيديكم) أى هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة فى حياتكم الدنيا : جازاكم الله بهذا الجزاء (وأن الله ليس بظلام للعبيد) أى لا يظلم أحداً من خلقه ، بل هو الحكم العدل الذى لا يجور تبارك وتعالى وتقدس وتنزه الغنى الحميد ، ولهذا جاء فى الحديث الصحيح عن مسلم رحمه الله من رواية أبى ذر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ إن الله تعالى يقول « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » ولهذا قال تعالى

﴿ كَذَّبَ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

يقول تعالى فعل هؤلاء من المشركين المكذبين بما أرسلت به يا محمد كما فعل الأمم المكذبة قبلهم ففعلنا بهم ما هو دأبنا أى عادتنا وسنتنا فى أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسول ، الكافرين بآيات الله (فأخذهم الله بذنوبهم) أى بسبب ذنوبهم أهلكهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر (إن الله قوى شديد العقاب)

أى لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ كَذَابُ
آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ
كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿

يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه كقوله
تعالى (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ومالمهم من دونه من وال)
وقوله (كذاب آل فرعون) أى كصنع آل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته أهلكتهم بسبب ذنوبهم وسلبهم تلك
النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون وزروع وكنوز ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، وما ظالمهم الله
في ذلك بل كانوا هم الظالمين

﴿ إِن شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي
كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿ فَإِمَّا تَثَقَّفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشِرِّدْ بِهِمْ مِّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ ﴿

أخبر تعالى أن شر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون ، الذين كلما عاهدوا عهدا نقضوه
وكلا أكدوه بالإيمان نكثوه (وهم لا يتقون) أى لا يخافون من الله في شيء ارتكبوه من الآثام (فإما تشققهم في الحرب)
أى تغلبهم وتظفر بهم في حرب (فشردهم من خلفهم) أى نكل بهم قاله ابن عباس والحسن البصرى والضحاك والسدى
وعطاء الخراسانى وابن عيينة ومعناه غلظ عقوبتهم وأثخنهم قتلا ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم
ويصيروا لهم عبرة (لعلمهم يدكرون) وقال السدى يقول لعلمهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ (وإما تخافن من قوم) قد عاهدتهم (خيانة) أى نقضا لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود
(فانبد إليهم) أى عهدهم على سواء أى أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم وهم
حرب لك وأنه لا عهد بينك وبينهم على سواء ، أى تستوى أنت وهم في ذلك قال الراجز
فاضرب وجوه الغدر للأعداء * حتى يحببوك إلى سواء

وعن الوليد بن مسلم أنه قال في قوله تعالى (فانبد إليهم على سواء) أى على مهل (إن الله لا يحب الخائنين) أى حتى ولو في حق
الكفار لا يحبها أيضا. قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي الفيص عن سليم بن عامر قال: كان معاوية يسير
في أرض الروم وكان بينه وبينهم أمد فأراد أن يدنو منهم فإذا انقضى الأمد غزاهم فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر، الله
أكبر وفاء لا غدرا إن رسول الله ﷺ قال « ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدها حتى ينقضى أمدها
أو ينبذ إليهم على سواء » قال فبلغ ذلك معاوية فرجع فإذا بالشيخ عمرو بن عبسة رضى الله عنه ، وهذا الحديث رواه
أبو داود الطيالسى عن شعبة ، وأخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان في صحيحه من طرق عن شعبة به وقال
الترمذى حسن صحيح . وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا محمد بن عبد الله الزبيرى حدثنا إسرائيل عن عطاء بن السائب
عن أبي البختري عن سلمان بنى الفارسى رضى الله عنه أنه انتهى إلى حصن أو مدينة فقال لأصحابه دعونى أدعوهم كما
رأيت رسول الله ﷺ يدعوهم فقال إنما كنت رجلا منكم فهدانى الله عز وجل للإسلام فان أسلمتم
فلكم مالتنا وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم فأدوا الجزية وأتم صاغرون ، وإن أبيتم نابذناكم على سواء (إن الله لا يحب الخائنين)

يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله
﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْزِزُونَ ﴾ * وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ
تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
يُوفَ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ (ولا تحسبن^(١)) يا محمد (الذين كفروا سبقوا) أى فانتونا فلا تقدر عليهم بل هم تحت
قهر قدرتنا وفى قبضة مشيئتنا فلا يعجزوننا كقوله تعالى (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا سوء
ما يحكمون) أى يظنون وقوله تعالى (لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض وما أواهم النار ولبئس المصير) وقوله
تعالى (لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) ثم أمر تعالى بإعداد آلات
الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والامكان والاستطاعة فقال (وأعدوا لهم ما استطعتم) أى مهما أمكنكم (من قوة ومن
رباط الخيل) قال الإمام أحمد : حدثنا هرون بن معروف حدثنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث عن أبى على ثمامة بن
شفي أخى عقبة بن عامر أنه سمع عقبة بن عامر يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر « (وأعدوا لهم ما استطعتم من
قوة) ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي » رواه مسلم عن هرون بن معروف وأبو داود عن سعيد بن منصور
وابن ماجه عن يونس بن عبد الأعلى ثلاثهم عن عبد الله بن وهب . ولهذا الحديث طرق أخر عن عقبة بن عامر منها
مارواه الترمذى من حديث صالح بن كيسان عن رجل عنه وروى الإمام أحمد وأهل السنن عنه قال : قال رسول الله
ﷺ « ارموا واركبوا وأن ترموا خير من أن تركبوا » وقال الإمام مالك عن زيد بن أسلم عن أبى صالح
السمان عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « الخيل لثلاثة ، لرجل أجر ، ولرجل ستر وعلى
رجل وزر فأما الذى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله فأطال لها فى مرج أو روضة فما أصابت فى طيلها ذلك
من المرج أو الروضة كانت له حسنة ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت آثارها وأروائها حسنة
له ، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقى به كان ذلك حسنة له فهى لذلك الرجل أجر ، ورجل
ربطها تغنياً وتعففاً ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها فهى له ستر ، ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء فهى على
ذلك وزر » وسئل رسول الله ﷺ عن الحجر فقال « ما أنزل الله على فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة (فمن
يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) » رواه البخارى وهذا لفظه ومسلم كلاهما من حديث
مالك وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج أخبرنا شريك عن الركين بن الربيع عن القاسم بن حسان عن عبد الله بن
مسعود عن النبى ﷺ قال « الخيل لثلاثة : ففرس للرحمن ، وفرس للشيطان ، وفرس للانسان ، فأما فرس الرحمن
فالذى يربط فى سبيل الله فعلفه وروثه وبوله - وذكر ما شاء الله - وأما فرس الشيطان فالذى يقامر أو يراهن عليها ،
وأما فرس الانسان فالفرس يربطها الانسان يلتمس بطنها فهى له ستر من الفقر » وقد ذهب أكثر العلماء إلى
أن الرمي أفضل من ركوب الخيل ، وذهب الإمام مالك إلى أن الركوب أفضل من الرمي ، وقول الجمهور أقوى للحديث
والله أعلم وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج وهشام قالوا : حدثنا ليث حدثنى يزيد بن أبى حبيب عن ابن شماس أن معاوية
ابن خديج مر على أبى ذر وهو قائم عند فرس له فسأله ماتعاً من فرسك هذا ؟ فقال إني أظن أن هذا الفرس قد استجيب له
دعوته . قال وما دعاء بهيمة من البهائم ، قال والذى نفسى بيده ما من فرس إلا وهو يدعو كل سحر فيقول : اللهم أنت
خولتى عبداً من عبادك وجعلت رزقي بيده فاجعلنى أحب إليه من أهله وماله وولده . قال وحدثنا يحيى بن سعيد عن
عبد الحميد بن أبى جعفر حدثنى يزيد بن أبى حبيب عن سويد بن قيس عن معاوية بن خديج عن أبى ذر رضى الله عنه
قال : قال رسول الله ﷺ « إنه ليس من فرس عربى إلا يؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوتين يقول اللهم إنك خولتى

(١) مشى الفسر على قراءة ولا تحسبن بالتاء .

من خولتي من بى آدم فاجعلني من أحب أهله وماله إليه - أو - أحب أهله وماله إليه » رواه النسائي عن عمرو بن علي الفلاس عن يحيى القطان به . وقال أبو القاسم الطبراني حدثنا الحسين بن إسحق التستري حدثنا هشام بن عمار حدثنا يحيى بن حمزة حدثنا المطعم بن المقدم الصنعاني عن الحسن بن أبي الحسن أنه قال لابن الحنفلية يعني سهلاً حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة وأهلها معانون عليها ومن ربط فرساً في سبيل الله كانت النفقة عليه كالماد يده بالصدقة لا يقبضها » والأحاديث الواردة في فضل ارتباط الخيل كثيرة . وفي صحيح البخاري عن عروة بن أبي الجعد البارق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم » : وقوله (ترهبون) أي تخوفون (به عدوا الله وعدوكم) أي من الكفار (وآخرين من دونهم) قال مجاهد يعني بني قريظة ، وقال السدي : فارس ، وقال سفيان الثوري قال ابن عمار هم الشياطين التي في الدور ، وقد ورد حديث بمثل ذلك . قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو عتبة أحمد بن الفرغ الحصى حدثنا أبو حيوية يعني شريح بن يزيد المقرئ حدثنا سعيد بن سنان عن ابن غريب يعني يزيد بن عبد الله بن غريب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ كان يقول في قول الله تعالى (وآخرين من دونهم لا تعلمونهم) قال هم الجن ورواه الطبراني عن إبراهيم بن دحيم عن أبيه عن محمد بن شعيب عن سنان بن سعيد بن سنان عن يزيد بن عبد الله بن غريب به وزاد : قال رسول الله ﷺ « لا يخل بيت فيه عتيق من الخيل » وهذا الحديث منكر لا يصح إسناده ولا متنه ، وقال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم هم المنافقون وهذا أشبه الأقوال ويشهد له قوله تعالى (ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم) وقوله (وماتنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) أي مهما أنفقتم في الجهاد فإنه يوفى إليكم على التمام والسكال ، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود أن الدرهم يضاعف ثوابه في سبيل الله إلى سبعة ضعف كما تقدم في قوله تعالى (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبئت سبع سنابل في كل سنبل مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكي حدثنا أبي عن أبيه حدثنا الأشعث بن إسحق عن جعفر عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه كان يأمر أن لا يتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت (وماتنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم) فأمر بالصدقة بعدها على كل من سأل من كل دين وهذا أيضاً غريب

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

يقول تعالى إذا خفت من قوم خيانة فانبذ إليهم عهدهم على سواء فإن استمروا على حربك ومنابدتك فقاتلهم (وإن جنحوا) أي مالوا (للسلم) أي السائلة والمصالحة والمهادنة (فاجنح لها) أي قل لها واقبل منهم ذلك ، ولهذا لما طلب الشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع سنين أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الآخر . وقال عبد الله ابن الإمام أحمد حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي حدثني فضيل ابن سلمان يعني النخعي حدثنا محمد بن أبي يحيى عن إياس بن عمرو الأسلمي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إنه سيكون اختلاف أو أمر فإن استعظت أن يكون السلم فافعل » وقال مجاهد نزلت في بني قريظة وهذا فيه نظر لأن السياق كله في وقعة بدر وذكرها مكنتف لهذا كله ، وقال ابن عباس ومجاهد وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني وعكرمة والحسن وقادة : إن هذه الآية منسوخة بآية السيف في راءة (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا

باليوم الآخر) الآية وفيه نظر أيضاً لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك فأما إن كان العدو كشيافاً فإنه يجوز مهادنتهم كما دلت عليه هذه الآية الكريمة وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص والله أعلم . وقوله (وتوكل على الله) أى صالحهم وتوكل على الله فإن الله كافيك وناصرك ولو كانوا يريدون بالصالح خديعة ليتقوا ويستعدوا (فإن حسبك الله) أى كافيك وحده ثم ذكر نعمته عليه بما أيد به من المؤمنين المهاجرين والأنصار فقال (هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم) أى جمعها على الإيمان بك وعلى طاعتك ومناصرتك وموازرتك (لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم) أى لما كان بينهم من العداوة والبغضاء فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة فى الجاهلية بين الأوس والخزرج وأمور يلزم منها التسلسل فى الشر حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان كما قال تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين لكم آياته لعلكم تهتدون) وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار فى شأن غنائم حنين قال لهم « يا معشر الأنصار ألم أجِدْكُمْ صَلاَلاً فهداكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي وكنتم متفرقين فألفكم الله بي » كلما قال شيئاً قالوا الله ورسوله أمين ، ولهذا قال تعالى (ولكن الله ألفت بينهم إنه عزيز حكيم) أى عزيز الجنب فلا يغيب رجاء من توكل عليه حكيم فى أفعاله وأحكامه ، وقال الحافظ أبو بكر البيهقى أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أنبأنا على بن بشر الصيرفى القزوينى فى منزلنا أنبأنا أبو عبد الله محمد ابن الحسين القنديل الاستراباذى حدثنا أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن النعمان الصفار حدثنا ميمون بن الحكم حدثنا بكر ابن الشروذ عن محمد بن مسلم الطائفى عن إبراهيم بن ميسرة عن طاوس عن ابن عباس قال قرابة الرحم تقطع ومنه النعمة تكفر ولم ير مثل تقارب القلوب يقول الله تعالى (لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم) وذلك موجود

فى الشعر إذا بت ذو قرى إليك بزلة * فشك واستغنى فليس بذى رحم
ولكن ذا القرى الذى إن دعوته * أجاب وأن يرى العدو الذى ترى

قال ومن ذلك قول القائل :

ولقد صحبت الناس ثم سبرتهم * وبلوت ما وصلوا من الأسباب
فإذا القرابة لا تقرب قطعاً * وإذا المودة أقرب الأسباب

قال البيهقى لا أدري هذا موصول بكلام ابن عباس أو هو من قول من دونه من الرواة ، وقال أبو إسحق السبعى عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه سمعه يقول (لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم) الآية قال هم المتحابون فى الله . وفى رواية نزلت فى المتحابين فى الله . رواه النسائى والحاكم فى مستدركه وقال صحيح وقال عبد الرزاق أخرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال : إن الرحم لتقطع ، وإن النعمة لتكفروا إن الله إذا قارب بين القلوب لم يزعزحها شئ ثم قرأ (لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم) رواه الحاكم أيضاً ، وقال أبو عمرو الأوزاعى حدثنى عبدة بن أبى لبابة عن مجاهد ولقيته فأخذ يدي فقال : إذا التقى المتحابان فى الله فأخذ أحدهما بيد صاحبه وضحك إليه تحات خطاياهما كما تحات ورق الشجر . قال عبدة : فقلت له إن هذا ليسير فقال : لا تقل ذلك فإن الله يقول (لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم) قال عبدة فعرفت أنه أفقه منى وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا ابن يمان عن إبراهيم الجزرى عن الوليد بن أبى مغيث عن مجاهد قال إذا التقى المسلمان فتصافحا غفر لهما ، قال قلت لمجاهد بمصافحة يغفر لهما ؟ قال مجاهد أما سمعته يقول (لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألفت بينهم) فقال الوليد لمجاهد أنت أعلم منى وكذا روى طلحة بن مصرف عن مجاهد ، وقال ابن عون عن عمير بن إسحق قال : كنا نتحدث أن أول ما يرفع من الناس الالفة وقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى رحمه الله حدثنا الحسين بن إسحق التستري حدثنا عبيد الله بن عمر القواريرى حدثنا سالم بن غيلان سمعت جعداً أبا عثمان حدثنى أبو عثمان النهدي عن سلمان الفارسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن المسلم إذا لقي

أخاه المسلم فأخذ بيده تحاتت عنهما ذنوبهما كما تحات الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف وإلا غفر لهما ذنوبهما ولو كانت مثل زبد البحار »

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ حَسِبَكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ حَرَّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

يحرص تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران ويخبرهم أنه حسبهم أي كافهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمداهم ، ولو قل عدد المؤمنين . قال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم حدثنا عبيد الله بن موسى أنبأنا سفيان عن ابن شاذب عن الشعبي في قوله (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) قال حسبك الله وحسب من شهد معك قال وروى عن عطاء الخراساني وعبد الرحمن ابن زيد مثله ، ولهذا قال (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال) أي حثهم وذمهم عليه ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرص على القتال عند صفهم ومواجهة العدو كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون في عددهم وعددهم « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » فقال عمير بن الحمام عرضها السموات والأرض ؟ فقال رسول الله ﷺ « نعم » فقال بخ بخ فقال « ما يحملك على فولك بخ بخ ؟ » قال رجاء أن أكون من أهلها قال « فإنك من أهلها » فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن ثم ألقى بقيتهن من يده وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها حياة طويلة ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضى الله عنه ، وقد روى عن سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير أن هذه الآية نزلت حين أسلم عمر بن الخطاب وكمل به الأربعون ، وفي هذا نظر لأن هذه الآية مدنية وإسلام عمر كان يمكنه بعد الهجرة إلى أرض الحبشة وقبل الهجرة إلى المدينة والله أعلم . ثم قال تعالى مبشرا للمؤمنين وآمرا (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا) كل واحد بعشرة ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة . قال عبد الله بن المبارك حدثنا جرير بن حازم حدثني الزبير بن الحارث عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما نزلت (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) شق ذلك على المسلمين حين فرض الله عليهم أن لا يفر واحد من عشرة ثم جاء التخفيف فقال (الآن خفف الله عنكم) إلى قوله (يغلبوا مائتين) قال خفف الله عنهم من العدة وقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم . وروى البخاري من حديث ابن المبارك نحوه . وقال سعيد بن منصور حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس في هذه الآية قال : كتب عليهم أن لا يفر عشرون من مائتين ثم خفف الله عنهم فقال (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا) فلا ينبغي لمائة أن يفروا من مائتين ، وروى البخاري عن علي ابن عبد الله عن سفيان بن عيينة ، وقال محمد بن إسحاق حدثني ابن أبي نجيح عن عطاء عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية ثقل على المسلمين وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين ومائة ألفا فخفف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرى فقال (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا) الآية فكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم لم يسع لهم أن يفروا من عدوهم ، وإذا كانوا دون ذلك لم يجب عليهم قتالهم وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم ، وروى علي بن أبي طلحة والوفى عن ابن عباس نحوه ذلك قال ابن أبي حاتم وروى عن مجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني والضحاك وغيرهم نحوه ذلك وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث المسيب بن شريك عن ابن عون عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما في قوله (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) قال نزلت فينا أصحاب محمد ﷺ ، وروى الحاكم

في مستدرکه من حديث أبي عمرو بن العلاء عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا) رفع ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُخْذَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَوْ لَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا علي بن هاشم عن حميد عن أنس رضي الله عنه قال استشار النبي صلى الله عليه وسلم الناس في الأسارى يوم بدر فقال « إن الله قد أمكنكم منهم » فقال عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله اضرب أعناقهم فأعرض عنه النبي ﷺ ثم عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم وإنما هم إخوانكم بالأمس » فقال عمر فقال يا رسول الله اضرب أعناقهم فأعرض عنه النبي ﷺ ثم عاد النبي ﷺ فقال للناس مثل ذلك فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال يا رسول الله نرى أن تغفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء قال فذهب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان فيه من الغم فعفا عنهم وقبل منهم الفداء قال وأنزل الله عز وجل (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) وقد سبق في أول السورة حديث ابن عباس في صحيح مسلم بنحو ذلك وقال الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله قال لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ « ماتقولون في هؤلاء الأسارى ؟ » فقال أبو بكر يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستبتهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر يا رسول الله كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم ، وقال عبد الله بن رواحة يا رسول الله أنت في واد كثير الحطب فاضرم الوادى عليهم نارا ثم ألقهم فيه قال فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئا ثم قام فدخل فقال ناس يأخذ بقول أبي بكر وقال ناس يأخذ بقول عبد الله بن رواحة ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال « إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام قال (فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم) وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام قال (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) وإن مثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام قال (ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) وإن مثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام قال (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) أتم عالة فلا ينفكن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق » قال ابن مسعود قلت يا رسول الله إلا سهيل ابن بيضاء فإنه يذكر الإسلام فسكت رسول الله ﷺ فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع على حجارة من السماء مني في ذلك اليوم حتى قال رسول الله ﷺ « إلا سهيل بن بيضاء » فأنزل الله عز وجل (ما كان لبي أن يكون له أسرى) إلى آخر الآية رواه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي معاوية عن الأعمش به والحاكم في مستدرکه ، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن عبد الله بن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ نحوه . وفي الباب عن أبي أيوب الأنصاري وروى ابن مردويه أيضا واللفظ له والحاكم في مستدرکه من حديث عبيد الله بن موسى حدثنا إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن ابن عمر قال لما أسر الأسارى يوم بدر أسر العباس فيمن أسر . أسره رجل من الأنصار ، قال وقد أوعده الأنصار أن يقتلوه فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ « إني لم أنم الليلة من أجل عمى العباس وقد زعمت الأنصار أنهم قتلوه » فقال له عمر أفأتهم فقال « نعم » فأبى عمر الأنصار فقال لهم أرسلوا العباس فقالوا لا والله لا نرسله فقال لهم عمر فان كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم رضي قالوا فان كان لرسول الله ﷺ رضي فخذ فآخذه عمر فلما صار في يده قال له يا عباس

أسلم فوالله لأن تسلم أحب إلى من أن يسلم الخطاب وما ذاك إلا لما رأيته رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك قال واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر فيهم فقال أبو بكر عشتك فأرسلهم فاستشار عمر فقال اقتلهم ففاداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله (ما كان لنبي أن يكون له أسرى) الآية قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال سفيان الثوري عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن عبيدة عن علي رضي الله عنه قال جاء جبريل إلى النبي ﷺ يوم بدر فقال خير أصحابك في الأسارى إن شاءوا الفداء وإن شاءوا القتل على أن يقتل عاماً مقبلاً منهم مثلهم قالوا الفداء ويقتل منا رواه الترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه من حديث الثوري به ، وهذا حديث غريب جداً ، وقال ابن عون عن عبيدة عن علي قال : قال رسول الله ﷺ في أسارى يوم بدر « إن شئتم قتلتموهم وإن شئتم فاديتموهم واستمتعتم بالفداء واستشهد منكم بعدتهم » قال فكان آخر السبعين ثابت بن قيس قتل يوم اليمامة رضي الله عنه ، ومنهم من روى هذا الحديث عن عبيدة مرسلًا فالله أعلم وقال محمد بن إسحاق عن ابن أبي نجیح عن عطاء عن ابن عباس (ما كان لنبي أن يكون له أسرى) فقرأ حتى بلغ عذاب عظيم . قال غنائم بدر قبل أن يخلها لهم يقول لولائي لأعذب من عصاني حتى أتقدم إليه لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ، وكذا روى ابن أبي نجیح عن مجاهد وقال الأعمش سبق منه أن لا يعذب أحداً شهد بدرًا وروى نحوه عن سعد بن أبي وقاص وسعيد بن جبير وعطاء ، وقال شعبة عن أبي هاشم عن مجاهد (لولا كتاب من الله سبق) أي لهم بالمغفرة ونحوه عن سفيان الثوري رحمه الله ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (لولا كتاب من الله سبق) يعني في أم الكتاب الأول أن المغنم والأسارى حلال لكم (لمسكم فيما أخذتم) من الأسارى (عذاب عظيم) قال الله تعالى (فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً) الآية . وكذا روى العوفي عن ابن عباس ، وروى مثله عن أبي هريرة وابن مسعود وسعيد بن جبير وعطاء والحسن البصري وقادة والأعمش أيضاً أن المراد (لولا كتاب من الله سبق) لهذه الأمة باحلال الغنائم وهو اختيار ابن جرير رحمه الله ، ويستشهد لهذا القول بما أخرجه في الصحيحين عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحللت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة » وقال الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لم تحل الغنائم لسود الرءوس غيرنا » ولهذا قال تعالى (فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً) الآية فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء ، وقد روى الإمام أبو داود في سننه حدثنا عبد الرحمن بن المبارك العيسى حدثنا سفيان بن حبيب حدثنا شعبة عن أبي العنيس عن أبي الشعثاء عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعائة ، وقد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء أن الإمام غيرهم إن شاء قتل كما فعل بنو قريظة ، وإن شاء فادى بما كفا فعل بأسرى بدر ، أو بمن أسر من المسلمين كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع حيث ردتهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين ، وإن شاء استرق من أسرى . هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء ، وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر في موضعه من كتب الفقه

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُلْ لَنَ فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَظُنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُّؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٥٠ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥١ ﴾

قال محمد بن إسحاق حدثني العباس بن عبد الله بن مغفل عن بعض أهله عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر « إني قد عرفت أن أناساً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقي منكم أحداً منهم - أي من بني هاشم - فلا يقتله ، ومن لقي أبا البختري بن هشام فلا يقتله ، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله فإنه إنما أخرج مستكرها » فقال أبو حذيفة بن عتبة أقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا

وعشائرنا وترك العباس والله لئن لقيته لألجئنه بالسيف فبلغت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لعمر بن الخطاب « يا أبا حفص - قال عمر والله إنه لأول يوم كنانى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا حفص - أ يضرب وجه عم رسول الله - ﷺ - بالسيف؟ » فقال عمر يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه فوالله لقد نافق ، فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك والله ما آمن من تلك الكلمة التي قلت ولا أزال منها خائفا إلا أن يكفرها الله تعالى عني بشهادة ، فقتل يوم الحيمة شهيدا رضى الله عنه . وبه عن ابن عباس قال لما أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر والأسارى محبسون بالوثاق بات رسول الله ﷺ ساهراً أول الليل فقال له أصحابه يا رسول الله مالك لا تنام ؟ وقد أسر العباس رجل من الأنصار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سمعت أئین عمى العباس فى وثاقه فأطلقوه » فسكت فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال محمد بن إسحق وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس بن عبد المطلب وذلك أنه كان رجلا موسرا فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهباً ، وفى صحيح البخارى من حديث موسى بن عقبة قال ابن شهاب حدثنا أنس بن مالك أن رجلا من الأنصار قالوا يا رسول الله ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه . قال « لا والله لا تذرون منه درهما » وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحق عن يزيد بن رومان عن عروة عن الزهرى عن جماعة مما هم قالوا بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ فى فداء أسراهم ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا ، وقال العباس يا رسول الله قد كنت مسلما فقال رسول الله ﷺ « الله أعلم بإسلامك فان يكن كما تقول فان الله يحزيك وأما ظاهرك فقد كان علينا فافتد نفسك وابنى أخيك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبى طالب بن عبد المطلب ، وحليفك عتبة بن عمرو أخى بنى الحارث بن فهر » قال ما ذاك عندي يا رسول الله قال « فأئین المال الذى دفتته أنت وأم الفضل ؟ فقلت لها إن أصبت فى سفري هذا ، فهذا المال الذى دفتته لبنى الفضل وعبد الله وقيم » قال والله يا رسول الله إني لأعلم أنك رسول الله إن هذا لشيء ما علمه أحد غيبي وغير أم الفضل فأحسب لي يا رسول الله ما أصبتم منى عشرين أوقية من مال كان معي فقال رسول الله ﷺ « لا ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك » ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه فأنزل الله عز وجل فيه (يا أيها النبي قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم) قال العباس فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية فى الإسلام عشرين عبدا كلهم فى يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل ، وقد روى ابن إسحق أيضا عن ابن أبى نجیح عن عطاء عن ابن عباس فى هذه الآية بنحو مما تقدم . وقال أبو جعفر بن حرير حدثنا ابن وكيع حدثنا ابن إدريس عن ابن أبى نجیح عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال العباس فى نزلت (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يشخن فى الأرض) فأخبرت النبى ﷺ بإسلامي وسألته أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التى أخذت منى فأبى فأبدلني الله بها عشرين عبدا كلهم تاجر مالى فى يده ، وقال ابن إسحق أيضا حدثني الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما عن جابر بن عبد الله بن رباب قال كان العباس بن عبد المطلب يقول فى نزلت والله حين ذكرت لرسول الله ﷺ إسلامي ثم ذكر نحو الحديث كالأدى قبله . وقال ابن جريج عن عطاء الخراساني عن ابن عباس (يا أيها النبي قل لمن فى أيديكم من الأسرى) عباس وأصحابه قال : قالوا للنبى ﷺ آمنا بما جئت به ونشهد أنك رسول الله لننصحن لك على قومنا . فأنزل الله (إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) إيماننا وتصديقا يخلف لكم خيرا مما أخذ منكم (ويغفر لكم) الشرك الذى كنتم عليه قال فكان العباس يقول ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا وإن لى الدنيا لقد قال (يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) فقد أعطاني خيرا مما أخذ منى مائة ضعف وقال (ويغفر لكم) وأرجو أن يكون قد غفر لى ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية كان العباس أسير يوم بدر فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب فقال العباس حين قرئت هذه الآية لقد أعطاني الله عز وجل خصلتين ما أحب أن لى بهما الدنيا : إني أسرت يوم بدر ففديت نفسى بأربعين أوقية فأتاني أربعين عبدا وإني لأرجو المغفرة التى وعدنا الله عز وجل فقال قتادة فى تفسير هذه الآية ذكر لنا أن رسول الله ﷺ

لما قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفا وقد توشأ لصلاة الظهر فما أعطى يومئذ شاكيا ولا حرم سائلا وما صلى يومئذ حتى فرقه ، فأمر العباس أن يأخذ منه ويحشى فكان العباس يقول : هذا خير مما أخذ منا وأرجو المغفرة وقال يعقوب بن سفيان حدثنا عمرو بن عاصم حدثنا سليمان بن الغيرة عن حميد بن هلال قال بعث ابن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ من البحرين ثمانين ألفا ما أتاه مال أكثر منه لا قبل ولا بعد . قال فثرت على حصير ونودى بالصلاة . قال وجاء رسول الله ﷺ ففعل قائما على المال وجاء أهل المسجد فما كان يومئذ عدد ولا وزن ما كان إلا فيضا وجاء العباس بن عبد المطلب فحشا في خبيصة عليه وذهب يقوم فلم يستطع قال فرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : ارفع على . قال فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى خرج ضاحكه أو نابه وقال له « أعدت من المال طائفة وقم بما تطيق » قال ففعل وجعل العباس يقول : وهو منطلق أما إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا ، وما ندرى ما يصنع في الأخرى (يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى) الآية ثم قال هذا خير مما أخذ منا وما أدرى ما يصنع الله في الأخرى فما زال رسول الله ﷺ مائلا على ذلك المال حتى ما بقى منه درهم وما بعث إلى أهله بدرهم ثم أتى الصلاة فصلى .

(حديث آخر في ذلك) قال الحافظ أبو بكر البيهقي أثبنا أبو عبد الله الحافظ . أخبرني أبو الطيب محمد بن محمد بن عبد الله السعدي حدثنا محمد بن عصام حدثنا حفص بن عبد الله حدثنا إبراهيم بن طهمان عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك قال أتى رسول الله ﷺ بمال من البحرين فقال « ائتروه في مسجدي » قال وكان أكثر مال أتى به رسول الله ﷺ فخرج إلى الصلاة ولم يلتفت إليه فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه فما كان يرى أحدا إلا أعطاه إذ جاءه العباس فقال يا رسول الله أعطني فإنني فاديت نفسي ، وفاديت عقيلًا فقال له رسول الله ﷺ « خذ » فحشا في ثوبه ثم ذهب يقفه فلم يستطع فقال مر بعضهم يرفعه إلى قال « لا » قال فارفعه أنت على قال « لا » فثرت منه ثم احتمله على كاهله ثم انطلق فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خفى عنه عجباً من حرصه فما قام رسول الله ﷺ وثم منها درهم ، وقد رواه البخاري في مواضع من صحيحه تعليقا بصيغة الجزم يقول : وقال إبراهيم بن طهمان ويسوقه وفي السياقات أنهم من هذا

وقوله (وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل) أي (وإن يريدوا خيانتك) فيما أظهروا لك من الأقوال (فقد خانوا الله من قبل) أي من قبل بدر بالكفر به (فأمكن منهم) أي بالأسارى يوم بدر (والله عليم حكيم) أي علم بفعله حكيم فيه . قال قتادة نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح الكاتب حين ارتد ولحق بالمشركين وقال ابن جريج عن عطاء الخراساني عن ابن عباس نزلت في عباس وأصحابه حين قالوا لننصحن لك على قومنا وفسرها السدي على العموم وهو أشمل وأظهر والله أعلم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلِيَّتِهِم مِّنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

ذكر تعالى أصناف المؤمنين وقسمهم إلى مهاجرين خرجوا من ديارهم وأموالهم وجاءوا لنصر الله ورسوله وإقامة دينه وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك ، وإلى أنصارهم المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك آووا وإخوانهم المهاجرين في منازلهم وواسوهم في أموالهم ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم فهؤلاء (بعضهم أولياء بعض) أي كل منهم أحق بالآخر من كل أحد ، ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار كل اثنين أخوان فكانوا يتوارثون بذلك إراثا مقدما على القرابة حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواثيق . ثبت ذلك في صحيح البخاري عن ابن عباس ، ورواه

العوفى وطى بن أبي طلحة عنه ، وقال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد : قال الإمام أحمد حدثنا وكيع عن شريك عن عاصم عن أبي وائل عن جرير هو ابن عبيد الله البجلي رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض ، والطلاقاء من قريش والعنقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة » تفرد به أحمد . وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا سفيان حدثنا عكرمة يعنى ابن إبراهيم الأزدي حدثنا عاصم عن شقيق عن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « المهاجرون والأنصار ، والطلاقاء من قريش والعنقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة » هكذا رواه في مسند عبد الله بن مسعود . وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في كتابه فقال (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار) الآية وقال (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة) الآية وقال تعالى (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون * والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) الآية وأحسن ما قيل في قوله (ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا) أى لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار ، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء لا يختلفون في ذلك ، ولهذا قال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده حدثنا محمد بن معمر حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن حذيفة قال : خيرنى رسول الله ﷺ بين الهجرة والنصرة فاخترت الهجرة ثم قال لانعرفه إلا من هذا الوجه وقوله تعالى (والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم) قرأ حمزة ولايتهم بالكسر والباقون بالفتح وما واحد كالدلالة والدلالة (من شيء حتى يهاجروا) هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا بل أقاموا في بواديهم فهو لاء ليس لهم في الغنائم نصيب ، ولا في خمسها إلا ما حضروا فيه القتال كما قال أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه عن يزيد بن الحبيب الأسدي رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً ، وقال « اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال - أوخلال - فأيتهم ما أجابوك إليها فاقبل منهم ، وكف عنهم . ادعهم إلى الاسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم مالاً للمهاجرين وأن عليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم فى الفئ والغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإنهم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية . فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم » انفرد به مسلم وعنده زيادات أخر وقوله (وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر) الآية يقول تعالى وإن استنصركم هؤلاء الأعراب الذين لم يهاجروا فى قتال دى على عدوهم فانصروهم فإنه واجب عليكم نصرهم لأنهم إخوانكم فى الدين إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار بينكم وبينهم ميثاق أى مهادنة الى مدة فلا تخفروا ذمتكم ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم وهذا مروي عن ابن عباس رضى الله عنه

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض قطع الموالاة بينهم وبين الكفار كما قال الحاكم في مستدركه حدثنا محمد بن صالح بن هانى حدثنا أنوسعيد يحيى بن منصور الهروي حدثنا محمد بن أبان حدثنا محمد بن يزيد وسفيان بن حسين عن الزهري عن علي بن الحسين عن عمرو بن عثمان عن أسامة عن النبي ﷺ قال « لا توارث أهل

ملتين ولا يرث مسلم كافراً ولا كافر مسلماً - ثم قرأ - (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) ثم قال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه . قلت الحديث في الصحيحين من رواية أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ « لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم » وفي المسند والسنن من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يتوارث أهل ملتين شتى » وقال الترمذى حسن صحيح وقال أبو جعفر بن جرير حدثنا محمد بن معمر عن الزهري أن رسول الله ﷺ أخذ على رجل دخل في الاسلام فقال « تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتحج البيت وتصوم رمضان ، وإنك لا ترى نار مشرك إلا وأنت له حرب » وهذا مرسل من هذا الوجه وقد روى متصلاً من وجه آخر عن رسول الله ﷺ أنه قال « أنا برىء من كل مسلم بين ظهرائى المشركين » ثم قال « لا يترامى نارهما » وقال أبو داود في آخر كتاب الجهاد حدثنا محمد بن داود بن سفيان أخبرني يحيى بن حسان أنبأنا سليمان بن موسى أبو داود حدثنا جعفر بن سعيد بن سمرة بن جندب عن سمرة بن جندب : أما بعد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من جامع المشرك ومسكن معه فإنه مثله » وذكر الحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث حاتم بن إسماعيل عن عبد الله بن هرم عن محمد وسعيد ابني عبيد عن أبي حاتم المزني قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض » قالوا يا رسول الله وإن كان^(١) فيه قال : « إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه » ثلاث مرات وأخرجه أبو داود والترمذى من حديث حاتم بن إسماعيل به بنحوه ثم روى من حديث عبد الحميد بن سليمان عن ابن عجلان عن أبي وثيمة النضري عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه ، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض » ومعنى قوله (إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) أى إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين وإلا وقعت فتنة في الناس وهو التباس الأمر واختلاط المؤمنين بالكافرين فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا عطف به ذكر ما لهم في الآخرة فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان كما تقدم في أول السورة وأنه سبحانه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب إن كانت ، وبالرزق الكريم وهو الحسن الكثير الطيب الشريف دائم مستمر أبداً لا ينقطع ولا ينقضى ولا يسأم ولا يمل لحسنه وتنوعه . ثم ذكر أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة كما قال (والسابقون الأولون) الآية وقال (والذين جاءوا من بعدهم) الآية . وفي الحديث المتفق عليه بل المتواتر من طرق صحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « المرء مع من أحب » وفي الحديث الآخر « من أحب قوما فهو منهم » وفي رواية « حشر معهم » . وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع عن شريك عن عاصم عن أبي وائل عن جرير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض ، والطلاقاء من قريش والعقلاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة » قال شريك فحدثنا الأعمش عن تميم بن سلمة عن عبد الرحمن بن هلال عن جرير عن النبي ﷺ مثله تفرد به أحمد من هذين الوجهين . وأما قوله تعالى (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) أى في حكم الله وليس المراد بقوله (وأولوا الأرحام) خصومية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة الذين لا فرض لهم ولا هم عصبة بل يدلون بوارث كالحالة والحال والعمة وأولاد البنات وأولاد الأخوات ونحوهم كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية ويعتقد ذلك صريحاً في المسألة بل الحق

(١) في النسخة الأميرية باض بعد لفظ كان وليس فيها لفظ فيه

أن الآية عامة تشمل جميع القربات كما نص عليه ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد على أنها ناسخة للارث بالخلف والاخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولا ، وعلى هذا فتشمل ذوى الارحام بالاسم الخاص ، ومن لم يورثهم يحتاج بأدلة من أقواها حديث « إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث » قالوا فلو كان ذا حق لكان ذا فرض في كتاب الله مسمى فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثا والله أعلم

آخر تفسير سورة الأنفال والله الحمد والملة وعليه الكلان وهو حبسنا ونعم الوكيل

﴿ تفسير سورة التوبة مدنية ﴾

﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلَمُوا أَنكُمُ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ كما قال البخارى حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة عن أبي إسحق قال سمعت البراء يقول آخر آية نزلت (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة) وآخر سورة نزلت براءة ، وإنما لم يبسم في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا بالبسملة في أولها في المصحف الإمام بل اقتدوا في ذلك بأمر المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه وأرضاه كما قال الترمذى حدثنا محمد بن بشار حدثنا يحيى بن سعيد ومحمد بن أبي جعفر وابن أبي عدى وسهيل بن يوسف قالوا حدثنا عوف بن أبي جميلة أخبرني يزيد الفارسي أخبرني ابن عباس قال قلت لعثمان بن عفان ما حملكم أن عهدهم إلى الأنفال وهي من الثاني وإلى براءة وهي من الثين وقرت بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطول ما حملكم على ذلك فقال عثمان كان رسول الله ﷺ مما يأتى عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن وكانت قصتها شبيهة بقصتها وخشيت أنها وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها من أجل ذلك قرنت بينهما ولم يكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطول وكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه من طرق آخر عن عوف الأعرابي به وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك وأنهم يطوفون بالبيت عراة فكره مخالطهم وبعث أبا بكر الصديق رضى الله عنه أميرا على الحج تلك السنة ليقيم للناس مناسكهم ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا وأن ينادى في الناس (براءة من الله ورسوله) فلما قفل أتبعه بعلى بن أبي طالب ليكون مبلغا عن رسول الله ﷺ لكونه عصبه له كما سيأتى بيانه فقله تعالى (براءة من الله ورسوله) أى هذه براءة أى تبرؤ من الله ورسوله (إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا في الأرض أربعة أشهر) اختلف المفسرون ههنا اختلافا كثيرا فقال قائلون هذه الآية لدوى العهود المطلقة غير المؤقتة أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان لقوله تعالى (فأتوا إليهم عهدهم إلى مدتهم) الآية ولما سيأتى في الحديث . ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهد إلى مدته وهذا أحسن الأقوال وأقواها ، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله وروى عن الكلبي ومحمد بن كعب القرظي وغير واحد . وقال على ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا في الأرض أربعة أشهر) الآية قال حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسيحون في الأرض حيث شاءوا وأجل أجل من ليس عهد الأسلخ الأشهر الحرم من يوم النحر إلى سلخ الحرم فذلك خمسون ليلة فأمر الله نبيه إذا أسلخ الحرم

أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد يقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام وأمر بمن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر أن يضع فيهم السيف أيضا حتى يدخلوا في الإسلام وقال أبو معشر المدني حدثنا محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا بعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميرا على الموسم سنة تسع وبعث علي بن أبي طالب بثلاثين آية وأربعين آية من براءة فقرأها على الناس يؤجل المشركين أربعة أشهر يسبحون في الأرض فقرأها عليهم يوم عرفة أجلبهم عشرين من ذى الحجة والحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشرا من ربيع الآخر وقرأها عليهم في منازلهم وقال : لا يحجن بعد عامنا هذا مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان . وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد (براءة من الله ورسوله) إلى أهل العهد خراعة ومدلج ومن كان له عهد أو غيرهم ففعل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحج ثم قال : « إنما يحضر المشركون فيطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك » فأرسل أبا بكر وعلياً رضي الله عنهما فطافا بالناس في ذى الحجاز وبأمكنتهم التي كانوا يتابعون بها وبالمواسم كلها فآذنوا أصحاب العهد بأن يؤمنوا أربعة أشهر فهي الأشهر المتواليات عشرون من ذى الحجة إلى عشر يخلون من ربيع الآخر ثم لا عهد لهم وآذن الناس كلهم بالقتال إلا أن يؤمنوا وهكذا روى عن السدي وقتادة وقال الزهري : كان ابتداء التأجيل من شوال وآخره سلخ المحرم وهذا القول غريب وكيف يحاسبون بمدة لم يبلغهم حكمها وإنما ظهر لهم أمرها يوم النحر حين نادى أصحاب رسول الله ﷺ بذلك ولهذا قال تعالى .

﴿ وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

يقول تعالى وإعلام (من الله ورسوله) وتقدم وإنذار إلى الناس (يوم الحج الأكبر) وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكبرها جميعا (أن الله برئ من المشركين ورسوله) أي برئ منهم أيضا ثم دعاهم إلى التوبة إليه فقال (فإن تبتم) أي مما أنتم فيه من الشرك والضلال (فهو خير لكم ، وإن توليتم) أي استمررتهم على ما أنتم عليه (فاعلموا أنكم غير معجزى الله) ، بل هو قادر عليكم وآتم في قبضته وتحت قهره ومشيئته (وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) أي في الدنيا بالخزي والنكال وفي الآخرة بالمقارع الأغلال ، قال البخاري رحمه الله : حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا الليث حدثني عقيل عن ابن شهاب قال : أخبرني حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال : بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمعنى أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . قال حميد ثم أردف النبي صلى الله عليه وسلم بعلي بن أبي طالب فأمره أن يؤذن ببراءة : قال أبو هريرة فأذن معنا علي في أهل منى يوم النحر ببراءة وأن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ورواه البخاري أيضا حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري أخبرني حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال : بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمعنى ألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ويوم الحج الأكبر يوم النحر وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس الحج الأصغر فنبت أبو بكر إلى الناس في ذلك العام فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله ﷺ مشرك . هذا لفظ البخاري في كتاب الجهاد . وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله (براءة من الله ورسوله) قال لما كان النبي ﷺ زمن حنين اعتمر من الجعرانة ثم أمر أبا بكر علي تلك الحجة قال معمر : قال الزهري وكان أبو هريرة يحدث أن أبا بكر أمر أبا هريرة أن يؤذن ببراءة في حجة أبي بكر قال أبو هريرة ثم أتبعنا النبي ﷺ علياً وأمره أن يؤذن ببراءة وأبو بكر على الموسم كما هو أو قال على هيئته . وهذا السياق فيه غرابة من جهة أن أمير الحج كان سنة عمرة الجعرانة إنما هو عتاب بن الأسيد فأما أبو بكر إنما كان أميراً سنة تسع

وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن مغيرة عن الشعبي عن محرز بن أبي هريرة عن أبيه قال كنت مع علي بن أبي طالب حين بعث رسول الله ﷺ إلى أهل مكة براءة فقال : ما كنتم تنادون ؟ قال كنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فإن أجله أو مدته إلى أربعة أشهر فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله يرى من المشركين ورسوله ، ولا يحج هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك ، قال فكنت أنادي حتى صجل صوتي ، وقال الشعبي حدثني محرز بن أبي هريرة عن أبيه قال كنت مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين بعث النبي ﷺ ينادي فكان إذا صجل ناديت فقلت بأى شيء كنتم تنادون ؟ قال بأربع : لا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فعهدته إلى مدته ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يحج بعد عامنا هذا مشرك . رواه ابن جرير من غير وجه عن الشعبي ، ورواه شعبة عن مغيرة عن الشعبي به إلا أنه قال : ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهدته إلى أربعة أشهر وذكر تمام الحديث . قال ابن جرير وأخشي أن يكون وما من بعض نقلته لأن الأخبار متضاربة في الأجل بخلافه .

وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد عن سماك عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعثه براءة مع أبي بكر فلما بلغ ذا الحليفة قال « لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي » فبعث بها مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ورواه الترمذي في التفسير عن بندار عن عفان وعبد الصمد كلاهما عن حماد بن سلمة به ثم قال حسن غريب من حديث أنس رضي الله عنه ، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنا محمد بن سلمان حدثنا لوين حدثنا محمد بن جابر عن سماك عن حنشل عن علي رضي الله عنه قال : لما نزلت عشر آيات من براءة علي النبي ﷺ دعا النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر فبعثه بها ليقراها على أهل مكة ثم دعاني فقال « أدرك أبا بكر فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه فادهب إلى أهل مكة فاقرأهم عليهم » فلحقته بالجحفة فأخذت الكتاب منه ورجع أبو بكر إلى النبي ﷺ فقال يارسول الله ، نزل في شيء ؟ فقال « لا ولكن جبريل جاءني فقال لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك » هذا إسناد فيه ضعف ، وليس المراد أن أبا بكر رضي الله عنه رجع من فوره بل بعد قضائه للمناسك التي أمره عليها رسول الله ﷺ كما جاء مبينا في الرواية الأخرى . وقال عبد الله أيضا حدثني أبو بكر حدثنا عمرو بن حماد عن أسباط بن نصر عن سماك عن حنشل عن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه براءة قال يابني الله إنني لست باللسن ولا بالخطيب قال « لا بد لي أن أذهب بها أنا أو تذهب بها أنت » قال فإن كان ولا بد فسادذهب أنا ، قال « انطلق فإن الله يثبت لسانك ويهدي قلبك » قال ثم وضع يده على فيه . وقال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن أبي إسحق عن زيد بن يثيغ رجل من همدان سألنا عليا بأى شيء بعثت ؟ يعني يوم بعثه النبي ﷺ مع أبي بكر في الحجة قال بعثت بأربع : لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد فعهدته إلى مدته ، ولا يحج للمشركون بعد عامهم هذا ، ورواه الترمذي عن قلابة عن سفيان بن عيينة وقال حسن صحيح كذا قال ، ورواه شعبة عن أبي إسحق فقال زيد بن أنثيل وهم فيه ، ورواه الثوري عن أبي إسحق عن بعض أصحابه عن علي رضي الله عنه . وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو أسامة عن زكريا عن أبي إسحق عن زيد بن يثيغ عن علي قال : بعثني رسول الله ﷺ حين أنزلت براءة بأربع : أن لا يطوف بالبيت عريان ، ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا ، ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ثم رواه ابن جرير عن محمد بن عبد الأعلى عن ابن ثور عن معمر عن أبي إسحق عن الحارث عن علي قال أمرت بأربع فذكره ، وقال إسرائيل عن أبي إسحق عن زيد بن يثيغ قال نزلت براءة فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر ثم أرسل عليا فأخذها فلما رجع أبو بكر قال نزل في شيء ؟ قال « لا ولكن أمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي » فانطلق إلى أهل مكة فقام فيهم بأربع لا يدخل مكة مشرك بعد عامه هذا ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهدته إلى مدته وقال محمد بن إسحق عن حكيم بن عباد بن حنيفة عن أبي جعفر

محمد بن علي بن الحسين بن علي قال : لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ وفد كان بعث أبا بكر ليقم الحج للناس فقيل يارسول الله : لو بعثت إلى أبي بكر فقال « لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي » ثم دعا عليا فقال « اذهب بهذه القصة من سورة براءة وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بنى أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان : ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ - فهو له إلى مدته » فخرج على رضى الله عنه على ناقه رسول الله ﷺ العضاء حتى أدرك أبا بكر في الطريق فلما رآه أبو بكر قال : أمير أو مأمور ؟ فقال بل مأمور ثم مضى فأقام أبو بكر للناس الحج إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبي طالب فأذن بالناس بالذى أمره رسول الله ﷺ فقال يا أيها الناس إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته : فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان ، ثم قدما على رسول الله ﷺ فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام وأهل المدة إلى الأجل المسمى

وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أخبرنا أبو زرعة وعبد الله بن راشد أخبرنا حيوة بن شريح أخبرنا ابن صخر أنه سمع أبا معاوية البجلي من أهل الكوفة يقول سمعت أبا الصهباء البكري وهو يقول : سألت عليا عن يوم الحج الأكبر فقال إن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر بن أبي قحافة ليقم للناس الحج وبعثنى معه بأربعين آية من براءة حتى أتى عرفة فخطب الناس يوم عرفة ، فلما قضى خطبته التفت إلى فقال قم يا علي فأد رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقامت فقرأت عليهم أربعين آية من براءة ثم صدرنا فأتينا منى فرميت الجرة ونحرت البدنة ثم حلفت رأسي وعلمت أن أهل الجمع لم يكونوا كلهم حضروا خطبة أبي بكر يوم عرفة فطفت أتتبع بها الفساطيط أقرأها عليهم فمن ثم أخال حسبت أنه يوم النحر ألا وهو يوم عرفة ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن أبي إسحق سألت أبا جحيفة عن يوم الحج الأكبر قال يوم عرفة ، فقلت أمن عندك أم من عند أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال كل في ذلك وقال عبد الرزاق أيضا عن ابن جريح عن عطاء قال : يوم الحج الأكبر يوم عرفة . وقال عمرو ابن الوليد السهمي حدثنا شهاب بن عباد البصري عن أبيه قال سمعت عمر بن الخطاب يقول : هذا يوم عرفة هذا يوم الحج الأكبر فلا يصومه أحد . قال فعجبت بعد أبي فأتيت المدينة فسألت عن أفضل أهلها فقالوا سعيد بن المسيب فأتيته فقلت إني سألت عن أفضل أهل المدينة فقالوا سعيد بن المسيب فأخبرني عن صوم يوم عرفة فقال أخبرك عن من هو أفضل منى مائة ضعف عمر أو ابن عمر كان ينهى عن صومه ويقول هو يوم الحج الأكبر رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، وهكذا روى عن ابن عباس وعبد الله بن الزبير ومجاهد وعكرمة وطاوس أنهم قالوا يوم عرفة هو يوم الحج الأكبر وقد ورد فيه حديث مرسل رواه ابن جريح أخبر عن محمد بن قيس عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب يوم عرفة فقال « هذا يوم الحج الأكبر » وروى من وجه آخر عن ابن جريح عن محمد بن قيس عن المسور بن مخرمة عن رسول الله ﷺ أنه خطبهم بعرفات فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أما بعد فإن هذا يوم الحج الأكبر » والقول الثاني أنه يوم النحر قال هشيم عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي عن علي رضى الله عنه قال : يوم الحج الأكبر يوم النحر . وقال أبو إسحق السبيعي عن الحارث الأعور سألت عليا رضى الله عنه عن يوم الحج الأكبر فقال هو يوم النحر ، وقال شعبة عن الحكم سمعت يحيى بن الجزار يحدث عن علي رضى الله عنه أنه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبابة فجاء رجل فأخذ بلجام دابته فسأله عن يوم الحج الأكبر فقال هو يومك هذا خل سبيلها ، وقال عبد الرزاق عن سفيان عن شعبة عن عبد الملك بن عمير عن عبد الله بن أبي أوفى أنه قال يوم الحج الأكبر يوم النحر ، وروى شعبة وغيره عن عبد الملك بن عمير بن نحوه . وهكذا رواه هشيم وغيره عن الشيباني عن عبد الله بن أبي أوفى . وقال الأعمش عن عبد الله بن سنان قال خطبنا النخيرة بن شعبة يوم الأضحى على بعير فقال : هذا يوم الأضحى وهذا يوم النحر وهذا يوم الحج الأكبر وقال حماد بن سلمة عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس انه قال : الحج الأكبر

يوم النحر ، وكذا روى عن أبي جحيفة وسعيد بن جبير وعبد الله بن شداد بن الهاد ونافع بن جبير بن مطعم والشعبي وإبراهيم النخعي ومجاهد وعكرمة وأبي جعفر الباقر والزهري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا: يوم الحج الأكبر هو يوم النحر واختاره ابن جرير ، وقد تقدم الحديث عن أبي هريرة في صحيح البخاري أن أبا بكر بعثهم يوم النحر يؤذنون بمعنى وقد ورد في ذلك أحاديث أخر كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثني سهل بن محمد الحسناني حدثنا أبو جابر الحرثي حدثنا هشام بن الغازي الجرشي عن نافع عن ابن عمر قال: وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع فقال « هذا يوم الحج الأكبر » وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه من حديث أبي جابر وإسمه محمد بن عبد الملك به ، ورواه ابن مردويه أيضاً من حديث الوليد بن مسلم عن هشام بن الغازي به ثم رواه من حديث سعيد بن عبد العزيز عن نافع به ، وقال شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة الهمداني عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : قام فينا رسول الله ﷺ على ناقه حمراء مخضمة فقال « أتدرون أي يوم يومكم هذا؟ » قالوا يوم النحر ، قال « صدقتم يوم الحج الأكبر »

وقال ابن جرير حدثنا أحمد بن المقدم حدثنا يزيد بن زريع حدثنا بن عون عن محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال لما كان ذلك اليوم قعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير له وأخذ الناس بخطامه أوزمame فقال « أي يوم هذا ؟ » قال فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه فقال « أليس هذا يوم الحج الأكبر ؟ » وهذا إسناد صحيح وأصله مخرج في الصحيح . وقال أبو الأحوص عن شبيب عن عروة عن سليمان بن عمرو بن الأحوص عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع فقال « أي يوم هذا ؟ » فقالوا اليوم الحج الأكبر ، وعن سعيد بن المسيب أنه قال : يوم الحج الأكبر اليوم الثاني من يوم النحر رواه ابن أبي حاتم ، وقال مجاهد أيضاً: يوم الحج الأكبر أيام الحج كلها ، وكذا قال أبو عبيد. قال سفيان: يوم الحج والجل ويوم صفين أي أيامه كلها ، وقال سهل السراج شل الحسن البصري عن يوم الحج الأكبر فقال مالك وللحج الأكبر ذاك عام حج فيه أبو بكر الذي استخلفه رسول الله ﷺ فحج بالناس رواه ابن أبي حاتم ، وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو أسامة عن ابن عون سألت محمداً يعني ابن سيرين عن يوم الحج الأكبر فقال كان يوماً وافق فيه حج رسول الله ﷺ وحج أهل الوبر

﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظْهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت فأجله أربعة أشهر يسبح في الأرض يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته الضرورية التي عوهد عليها وقد تقدمت الأحاديث ومن كان له عهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فعهد إلى مدته وذلك بشرط أن لا ينقض المعاهد عهده ولم يظهر على المسلمين أحداً أي يمالئ عليهم من سواهم فهذا الذي يوفى له بدمته وعهده إلى مدته ولهذا حرص تعالى على الوفاء بذلك فقال (إن الله يحب المتقين) أي الموفين بعهدهم

﴿ فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُواهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْبِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرَصِدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم ههنا ما هي فذهب ابن جرير إلى أنها المذكورة في قوله تعالى (منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم) الآية قاله أبو جعفر الباقر ولكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حقهم المحرم وهذا الذي ذهب إليه حكاة على بن أبي طلحة عن ابن عباس وإليه ذهب الضحاك أيضاً وفيه نظر والذي يظهر من

حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس في رواية العوفي عنه وبه قال مجاهد وعمر بن شبيب ومحمد بن إسحق وقنادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها بقوله (فسيحوا في الأرض أربعة أشهر) ثم قال (فإذا انسلك الأشهر الحرم) أي إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمن عليكم فيها قتالهم وأجلناهم فيها فحينما وجدتموهم فاقتلوهم لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتي بيان حكمها في آية أخرى بعد في هذه السورة الكريمة ، وقوله (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) أي من الأرض وهذا عام والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم) وقوله (وخذوهم) أي وأسروهم إن شئتم قتلاً وإن شئتم أسراً وقوله (واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد) أي لا تكفوا بمجرد وجدانكم لهم ، بل اقصدوهم بالحصار في معازلهم وحصونهم والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام ولهذا قال (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) ولهذا اعتمد الصديق رضي الله عنه في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال وهي الدخول في الإسلام والقيام بأداء واجباته ونبه بأعلاها على أدائها فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلاة التي هي حق الله عز وجل وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعدد إلى الفقراء والمحاويج وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالخلقين ، ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة . وقد جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة» الحديث وقال أبو إسحق عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ومن لم يترك فلا صلاة له . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أبي الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة وقال : يرحم الله أبا بكر ما كان ألقه !

وقال الإمام أحمد حدثنا علي بن إسحق أنبأنا عبد الله بن المبارك أنبأنا حميد الطويل عن أنس أن رسول الله ﷺ قال «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا وصلوا صلاتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحمقها ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم» ورواه البخاري في صحيحه وأهل السنن إلا ابن ماجه من حديث عبد الله بن المبارك به وقال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنا عبد الأعلى بن واصل الأسدي حدثنا عبيد الله بن موسى أخبرنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا يشرك به شيئاً فارقها والله عنه راض» قال : وقال أنس : هودين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما أنزل ، قال الله تعالى (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) قال : توبتهم خلع الأوثان وعبادة ربهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ثم قال في آية أخرى (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين) ورواه ابن مردويه ورواه محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة له . حدثنا إسحق بن إبراهيم أنبأنا حكام بن سلمة حدثنا أبو جعفر الرازي به سواء وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مزاحم إنها نسخت كل عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين وكل عقد وكل مدة وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة منذ نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل براءة أربعة أشهر من يوم أذن براءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية : قال أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا في الإسلام ، وتقضى ما كان سمي لهم من العهد والميثاق ، وأذهب الشرط الأول . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا إسحق بن موسى الأنصاري قال : قال سفيان بن عيينة قال علي بن أبي طالب بعث النبي ﷺ بأربعة أسياف سيف في المشركين من العرب ، قال الله تعالى (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) هكذا رواه مختصراً وأظن أن السيف الثاني هو قتال

أهل الكتاب لقوله تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدنون من الحلق من الدين أو تواتوا الكتاب حتى يمتطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) (والسيف الثالث) قتال المنافقين في قوله (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين) الآية (والرابع) قتال الباغين في قوله (ولئن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبنى حتى تنفيء إلى أمر الله) ثم اختلف المفسرون في آية السيف هذه فقال الضحاك والسدي هي منسوخة بقوله تعالى (فإمامنا بعد وإمامنا) وقال قتادة بالعكس

(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ)

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه (وإن أحد من المشركين) الدين أمرتك بقتالهم وأحلت لك استباحة نفوسهم وأموالهم (استجارك) أى استأمنك فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله أى القرآن تقرأه عليه وتذكر له شيئا من أمر الدين تقيم به عليه حجة الله (ثم أبلغه مأمنه) أى وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه (ذلك بأنه قوم لا يعلمون) أى إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله في عباده ، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في تفسير هذه الآية قال إنسان يأتيك ليسمع ما تقول وما أنزل عليك فهو آمن حتى يأتيك فتسمعه كلام الله وحتى يبلغ مأمنه حيث جاء ، ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطى الأمان لمن جاءه مسترشدا أو في رسالة ، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش منهم عروة بن مسعود ومكرز بن حفص وسهيل بن عمرو وغيرهم واحدا بعد واحد يترددون في القضية بينه وبين المشركين فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا يقصر فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك ، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم ، ولهذا أيضا لما قدم رسول مسيلة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له أنشهد أن مسيلة رسول الله ؟ قال نعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عقتك» وقد قبض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة ، وكان يقال له ابن النواحة ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلة بالرسالة فأرسل إليه ابن مسعود فقال له إنك الآن لست في رسالة وأمر به فضربت عنقه لارحمه الله ولعنه . والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الاسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب وطلب من الإمام أو نائبه أمانا أعطى أمانا مادام مترددا في دار الاسلام ، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه ، لكن قال العلماء لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الاسلام سنة ، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر ، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء رحمهم الله

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا كُفُّوا عَنْهُ عَنِ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرتة إليهم أربعة أشهر ثم بعد ذلك السيف المرفف أين تقفوا فقال تعالى (كيف يكون للمشركين عهد) أى أمان ويتركون فيهم فيه وهم مشركون بالله كافرون به ورسوله (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام) يعنى يوم الحديبية كما قال تعالى (هم الذين كفروا وصدوك عن المسجد الحرام والهدى معكوا أن يبلغ محله) الآية (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) أى مهما تمسكوا بما عاهدتموه عليه وعاهدتموه من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين (فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين) وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك والمسلمون . استمر العقد والمهدنة مع أهل مكة من ذى القعدة في سنة ست إلى أن قضت قريش العهد وما لؤا حلفاءهم وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتلوه معهم في الحرم أيضا فعند ذلك غزاهم

رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان ففتح الله عليه البلد الحرام ومكنه من نواصبهم والله الحمد والمنة فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم فسموا الطلقاء ، وكانوا قريبا من ألفين ، ومن استمر على كفره وفر من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتيسير في الأرض أربعة أشهر يذهب حيث شاء ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وغيرها ، ثم هدهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام ، والله الحمود على جميع ما يقدره ويفعله

﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

يقول تعالى محرضا للمؤمنين على معاداتهم والتبري منهم ومبيناً أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله ﷺ ولأنهم لو ظهروا على المسلمين وأدبوا عليهم لم يبقوا ولم يذروا ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة . قال علي بن أبي طلحة وعكرمة والعمري عن ابن عباس : الإل القراية والذمة العهد . وكذا قال الضحاك والسدي كما قال عيم بن مقبل أفسد الناس خلوف خلفوا * قطعوا الإل وأعراق الرحم

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه وجدناهم كاذبا لهم * وذو الإل والعهد لا يكذب وقال ابن أبي نجیح عن مجاهد لا يرقبون في مؤمن إلا : قال الإل الله ، وفي رواية لا يرقبون الله ولا غيره . وقال ابن جرير حسدني يعقوب حدثنا ابن علية عن سليمان عن أبي مجاز في قوله تعالى (لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة) مثل قوله جبريل ميكائيل إسرافيل كأنه يقول لا يرقبون الله والقول الأول أظهر وأشهر وعليه الأكثر . وعن مجاهد أيضا الإل العهد . وقال قتادة الإل الحلف

﴿ اشْتَرَوْا بِبَايَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَفَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنَفَصَلُ الْأَيْتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى ذمًا للمشركين وحثًا للمؤمنين على قتالهم (اشتروا بآيات الله ثمنًا قليلا) يعنى أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التوا به من أمور الدنيا الخسيسة (فصدوا عن سبيله) أى منعوا المؤمنين من اتباع الحق (إنهم ساء ما كانوا يعملون * لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة) تقدم تفسيره وكذا الآية التي بعدها (فإن تابوا وأقاموا الصلاة) إلى آخرها تقدمت . وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن الثني حدثنا يحيى بن أبي بكر حدثنا أبو جعفر الرازي حدثنا الربيع بن أنس قال سمعت أنس بن مالك يقول قال رسول الله ﷺ « من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته لا يشرك به وأقام الصلاة وآتى الزكاة فارقها والله عنه راض » وهو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء وتصديق ذلك في كتاب الله (فإن تابوا) يقول فان خلعوا الأوثان وعبادتها (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) وقال في آية أخرى (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين) ثم قال البزار آخر الحديث عندي والله أعلم فارقها وهو عنه راض وباقه عندي من كلام الربيع بن أنس

﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾

يقول تعالى وإن نكث هؤلاء المشركون الدين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم أى عهودهم ومواثيقهم (وطعنوا

في دينكم) أى عابوه وانتقصوه ، ومن هنا أخذ قتل من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه أو من طعن في دين الإسلام أو ذكره بنقص ، ولهذا قال (فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم يتقون) أى يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال . وقد قال قتادة وغيره : أئمة الكفر كأبي جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف وعدد رجالا ، وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال مر سعد بن أبي وقاص برجل من الخوارج فقال الخارجى هذا من أئمة الكفر فقال سعد كذبت بل أنا قاتلت أئمة الكفر رواه ابن مردويه ، وقال الأعمش عن زيد بن وهب عن حذيفة أنه قال ما قاتل أهل هذه الآية بعد . وروى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه مثله ، والصحيح أن الآية عامة وإن كان سبب نزولها مشركى قريش فهي عامة لهم ولغيرهم والله أعلم ، وقال الوليد بن مسلم حدثنا صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير أنه كان في عهد أبي بكر رضى الله عنه إلى الناس حين وجههم إلى الشام قال إنكم ستجدون قوما مجوفة رءوسهم فاضربوا معاقد الشيطان منهم بالسيف فوالله لأن أقتل رجلا منهم أحب إلى من أن أقتل سبعين من غيرهم وذلك بأن الله يقول (فقاتلوا أئمة الكفر) رواه ابن أبي حاتم

﴿ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَ اللَّهَ فَالَهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

وهذا أيضا تهيج وتحريض وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم الذين هموا بإخراج الرسول من مكة كما قال تعالى (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) وقال تعالى (يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم) الآية وقال تعالى (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها) الآية وقوله (وهم بدءوكم أول مرة) قيل المراد بذلك يوم بدر حين خرجوا لنصر عيرهم فلما نجحت وعلموا بذلك استمروا على وجوههم طلبا للقتال بغيا وتكبيرا كما تقدم بسط ذلك ، وقيل المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بنى بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح وكان ما كان والله الحمد والمنة . وقوله (أتخشوهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين) يقول تعالى لا تخشوهم واخشون فأنا أهل أن يخشى العباد من سطوتي وعقوبتي فيبدي الأمر وما شئت كان وما لم أشأ لم يكن ، ثم قال تعالى عزيمة على المؤمنين وبيانا لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين) وهذا عام في المؤمنين كلهم ، وقال مجاهد وعكرمة والسدي في هذه الآية (ويشف صدور قوم مؤمنين) يعنى خزاعة ، وأعاد الضمير في قوله (ويذهب غيظ قلوبهم) عليهم أيضا . وقد ذكر ابن عساكر في ترجمة مؤذن لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه عن مسلم بن يسار عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا غضبت أخذ بأنفها وقال « يا عويش قولى اللهم رب النبي محمد اغفر ذنبي وأذهب غيظ قلمي وأجرني من مضلات الفتن » ساقه من طريق أبي أحمد الحاكم عن الباغدى عن هشام بن عمار حدثنا عبد الرحمن بن أبي الجوزاء عنه (ويتوب الله على من يشاء) أى من عباده (والله عليم) أى بما يصلح عباده (حكيم) فى أفعاله وأقواله الكونية والشرعية فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وهو العادل الحاكم الذى لا يجوز أبدا ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر بل يجازى عليه فى الدنيا والآخرة

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى (أم حسبتم) أيها المؤمنون أن تتركهم مهملين لا تخبركم بأمر يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب ولهذا قال (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) أي بطانة ودخيلة بل هم في الظاهر والباطن على النصيح لله ولرسوله فاكتمى بأحد القسمين عن الآخر كما قال الشاعر

وما أدري إذا يمت أرضاً * أريد الخير أيهما يلي

وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى (الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وقال تعالى (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة؟) الآية وقال تعالى (ما كان الله ليجز المؤمنين على ما أنتم عليه) الآية : والحاصل أنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد بين أن له فيه حكمة وهو اختبار عبيده من يطيعه ممن يعصيه وهو تعالى العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون فيعلم الشيء قبل كونه ومع كونه على ما هو عليه لا إله إلا هو ولا رب سواه ، ولا راد لما قدره وأمضاه

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿

يقول تعالى ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له ، ومن قرأ مسجداً لله فأراد به المسجد الحرام أشرف المساجد في الأرض الذي بنى من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له وأسس خليل الرحمن هذا وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر أي بحالهم وقلمهم كما قال السدي لو سألت النصراني ما دينك ؟ لقال نصراني ، ولو سألت اليهودي ما دينك لقال يهودي ، والصابي لقال صابي ، والمشرک لقال مشرك (أولئك حبطت أعمالهم) أي بشركم (وفي النار هم خالدون) وقال تعالى (وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون) ولهذا قال تعالى (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) فشهد تعالى بالإيمان لعلم المساجد كما قال الإمام أحمد : حدثنا شريح حدثنا ابن وهب عن عمرو ابن الحارث أن دراجاً أبا السمع حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان . قال الله تعالى (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) » ورواه الترمذي وابن مردويه والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن وهب به : وقال عبد بن حميد في مسنده حدثنا يونس بن محمد حدثنا صالح المري عن ثابت البناني عن ميمون بن سياه وجعفر بن زيد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « إنما عمار المساجد هم أهل الله » ورواه الحافظ أبو بكر البزار عن عبد الواحد بن غياث عن صالح بن بشير المري عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « إنما عمار المساجد هم أهل الله » ثم قال لا نعلم رواه عن ثابت غير صالح ، وقد روى الدارقطني في الأفراد من طريق حكام بنت عثمان بن دينار عن أبيها عن أخيه مالك بن دينار عن أنس مرفوعاً « إذا أراد الله بقوم عاهة نظر إلى أهل المساجد فصرف عنهم » ثم قال غريب ، وروى الحافظ البهائي في المستقصى عن أبيه بسنده إلى أبي أمية الطرسوسي حدثنا منصور بن صفيح حدثنا صالح المري عن ثابت عن أنس مرفوعاً يقول الله : وعزتي وجلالي إني لأهم بأهل الأرض عذاباً فإذا نظرت إلى عمار بيوتى وإلى المتحابين في وإلى المستغفرين بالإسحار صرفت ذلك عنهم . ثم قال ابن عساكر حديث غريب . وقال الإمام أحمد : حدثنا روح حدثنا سعيد عن قتادة حدثنا العلاء بن زياد عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال « إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية فاياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامية والمسجد » وقال عبد الرزاق عن معمر عن أبي إسحق عن عمرو بن ميمون الأودي قال : أدركت أصحاب محمد ﷺ

وهم يقولون إن المساجد بيوت الله في الأرض وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها . وقال المسعودي عن حبيب ابن أبي ثابت وعدي بن ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي عنهما قال : من سمع النداء بالصلاة ثم لم يجب ولم يأت المسجد ويصلي فلا صلاة له وقد عصى الله ورسوله . قال الله تعالى (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) الآية رواه ابن مردويه . وقد روى مرفوعاً من وجه آخر وله شواهد من وجوه آخر ليس هذا موضع بسطها . وقوله (وأقام الصلاة) أي التي هي أكبر عبادات البدن (وآتى الزكاة) أي التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق وقوله (ولم يخش إلا الله) أي ولم يخف إلا من الله تعالى ولم يخش سواه (فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) يقول من وحد الله وآمن باليوم الآخر يقول من آمن بما أنزل الله (وأقام الصلاة) يعني الصلوات الخمس (ولم يخش إلا الله) يقول لم يعبد إلا الله ثم قال (فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) يقول تعالى إن أولئك هم الفالحون كقوله لنبيه ﷺ (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) وهي الشفاعة ، وكل عسى في القرآن فهي واجبة ، وقال محمد بن إسحق بن يسار رحمه الله : وعسى من الله حق

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال إن المشركين قالوا عمارة بيت الله وقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد ، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره فذكر الله استكبارهم وإعراضهم فقال لأهل الحرم من المشركين (قد كانت آياتي تتلى عليكم فكتم على أعقابكم تكسون * مستكبرين به سامراً تهجرون) يعني أنهم كانوا يستكبرون بالحرم قال (به سامراً) كانوا يسمرون به ويهجرون القرآن والنبي ﷺ فخير الله الإيمان والجهاد مع النبي ﷺ على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به ، وإن كانوا يعمرون بيته ويحرمون به . قال الله تعالى (لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين) يعني الذين زعموا أنهم أهل العمارة فسأهم الله ظالمين بشركهم فلن تقن عنهم العمارة شيئاً

وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: قال قد نزلت في العباس بن عبد المطلب حين أسر يدر قال لأن كنتم سبقتهمونا بالاسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي ونفك العاني ، قال الله عز وجل (أجعلتم سقاية الحاج - إلى قوله - والله لا يهدي القوم الظالمين) يعني أن ذلك كله كان في الشرك ولا أقبل ما كان في الشرك وقال الضحاك بن مزاحم أقبل المسلمون على العباس وأصحابه الذين أسروا يوم بدر يعيرونهم بالشرك فقال العباس أما والله لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونفك العاني ونحجب البيت ونسقي الحاج فأُنزل الله (أجعلتم سقاية الحاج) الآية . وقال عبد الرزاق أخبرنا ابن عيينة عن إسماعيل عن الشعبي قال نزلت في علي والعباس رضي الله عنهما بماتكما في ذلك وقال ابن جرير حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني ابن لبيعة عن أبي صخرة قال سمعت محمد بن كعب القرظي يقول افتخر طلحة بن شيبه من بني عبد الدار وعباس بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب فقال طلحة أنا صاحب البيت معي مفتاحه ولو أشاء بت فيه ، وقال العباس أنا صاحب السقاية والقائم عليها ولو أشاء بت في المسجد ، فقال علي رضي الله عنه ما أدرى ما تقولان لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد فأُنزل الله عز وجل

(أجعلتم سقاية الحاج ؟) الآية كلها وهكذا قال السدى إلا أنه قال افخر على والعباس وشيبة بن عثمان وذكر نحوه ، وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن عمرو عن الحسن قال : نزلت في علي وعباس وعثمان وشيبة تكلّموا في ذلك فقال العباس ما أراى إلا أنى تارك سقائنا فقال رسول الله ﷺ « أقيموا على سقائكم فإن لكم فيها خيرا » ورواه محمد بن نور عن معمر عن الحسن فذكر نحوه ، وقد ورد في تفسير هذه الآية حديث مرفوع فلا بد من ذكره هنا ، قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن يحيى بن أبي كثير عن النعمان بن بشير رضى الله عنه أن رجلا قال : ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد الاسلام إلا أن أسقى الحاج . وقال آخر : ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد الاسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام . وقال آخر : الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم . فزجرهم عمر رضى الله عنه وقال لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة ، ولكن إذا صلينا الجمعة دخلنا على النبي ﷺ فسألناه . فنزلت (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام - إلى قوله - لا يستوون عند الله)

(طريق أخرى) قال الوليد بن مسلم حدثني معاوية بن سلام عن جده أبي سلام الأسود عن النعمان بن بشير الأنصاري قال : كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فقال رجل منهم : ما أبالى أن لا أعمل لله عملا بعد الاسلام إلا أن أسقى الحاج . وقال آخر : بل عمارة المسجد الحرام . وقال آخر : بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم فزجرهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه . قال ففعل فأنزل الله عز وجل (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام - إلى قوله - والله لا يهدي القوم الظالمين) ورواه مسلم في صحيحه وأبوداود وابن جرير وهذا لفظه وابن مردويه وابن أبي حاتم في تفاسيرهم وابن حبان في صحيحه

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ * قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿

أمر تعالى بمباينة الكفار به وإن كانوا آباء أو أبناء ، وهى عن موالاتهم إن استحبوا أى اختاروا الكفر على الإيمان ، وتوعد على ذلك كقوله تعالى (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار) الآية . وروى الحافظ البيهقي من حديث عبدالله بن شاذب قال : جعل أبو أبى عبيدة بن الجراح ينعته الآلهة يوم بدر وجعل أبو عبيدة يحيد عنه فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله فأنزل الله فيه هذه الآية (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) الآية . ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد في سبيله فقال (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها) أى اكتسبتموها وحصلتموها (وتجارة تخشون كسادها ومسكن ترضونها) أى تحبونها لطيبها وحسنها أى إن كانت هذه الأشياء (أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا) أى فاتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم ولهذا قال (حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين)

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا ابن لهيعة عن زهرة بن معبد عن جده قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب فقال : والله يا رسول الله لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى ،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » فقال عمر فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي ، فقال رسول الله « الآن يا عمر » انفرد بإخراجه البخاري فرواه عن يحيى بن سليمان عن ابن وهب عن حيوة بن شريح عن أبي عقيل زهرة بن معبد أنه سمع جده عبد الله بن هشام عن النبي ﷺ بهذا وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » وروى الإمام أحمد وأبو داود واللفظه من حديث أبي عبد الرحمن الحراساني عن عطاء الحراساني عن نافع عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم » وروى الإمام أحمد أيضا عن يزيد ابن هارون عن أبي حباب عن شهر بن حوشب أنه سمع عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ بنحو ذلك ، وهذا شاهد للذي قبله والله أعلم

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَوَّقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُذَبِّرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قال ابن جرير عن مجاهد هذه أول آية نزلت من براءة يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله ، وأن ذلك من عنده تعالى وتأييده وتقديره لا بعددكم ولا بعددكم ونبيهم على أن النصر من عنده سواء قل الجمع أو أكثر فإن يوم حنين أعجبهم كثرتهم ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئا فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه كما سنبينه إن شاء الله تعالى مفعلا ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبإمداده وإن قل الجمع فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . وقد قال الإمام أحمد حدثنا وهب بن جرير حدثنا أبي سمعت يونس يحدث عن الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « خير الصحابة أربعة » وخير السرايا أربعة آلاف ، وخير الجيوش أربعة آلاف ولن تغلب اثنا عشر ألفا من قلة » وهكذا رواه أبو داود والترمذي ثم قال هذا حديث حسن غريب جدا لا يسنده أحد غير جرير بن حازم ، وإنما روى عن الزهري عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل . وقد رواه ابن ماجه والبيهقي وغيره عن أكرم بن الجون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحوه والله أعلم . وقد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة . وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة وتمهدت أمورها وأسلم عامة أهلها وأطلقهم رسول الله ﷺ فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه وأن أميرهم مالك بن عوف النضري ، ومعه ثقيف بكالها وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وأوزاع من بني هلال وهم قليل وناس من بني عمرو بن عامر وعون بن عامر وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم وجاءوا بقضهم وقضيضهم فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ومعهم الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء في ألفين فصار بهم إلى العدو فالتقوا بوادي بين مكة والطائف يقال له حنين فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح انحدروا في الوادي وقد كمت فيه هوازن فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم ، ورشقوا بالنبال وأصلتوا السيوف وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم فعند ذلك ولي المسلمون مدبرين كما قال الله عز وجل ، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راكب يومئذ بغلة الشهباء

يسوقها إلى نحر العدو ، والعباس همه أخذ بركابها الأيمن ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخذ بركابها الأيسر
يثقلانها لئلا تسرع السير وهو ينوء باسمه عليه الصلاة والسلام ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول « إلى عباد الله إلى »
أنا رسول الله « ويقول في تلك الحال « أنا النبي لا كذب » أنا ابن عبد المطلب » وثبت معه من أصحابه قريب من مائة
ومنهم من قال ثمانون فمنهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما والعباس وعلي والفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث
وأيمن بن أم أيمن وأسامة بن زيد وغيرهم رضي الله عنهم ثم أمر ﷺ عمة العباس وكان جهير الصوت أن
ينادي بأعلى صوته يا أصحاب الشجرة يعني شجرة يعة الرضوان التي يابعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على أن
لا يفروا عنه فجعل ينادي بهم يا أصحاب السمرة ، ويقول تارة يا أصحاب سورة البقرة ، فجعلوا يقولون يالبيك يالبيك ،
وانعطف الناس فتراجعوا إلى رسول الله ﷺ حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع
لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما اجتمعت شزيمة منهم عند
رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم عليه السلام أن يصدقوا الحلة وأخذ قبضة من تراب بعد ما دعا ربه واستنصره ،
وقال « اللهم أنجز لي ما وعدتني » ثم رمى القوم بها فابقى لإنسان منهم إلا أصابه منها في عينيه وفيه ما شغله عن القتال ثم
انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدي رسول الله صلى
الله عليه وسلم وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا يعلى بن عطاء عن عبيد الله بن سيار عن
أبي همام عن أبي عبد الرحمن الفهري واسمه يزيد بن أسيد ويقال يزيد بن أنيس ويقال كرز قال : كنت مع رسول الله
ﷺ في غزوة حنين فسرنا في يوم قاتل شديد الحر فزلنا تحت ظلال الشجر فلما زالت الشمس لبست
لأمتي وركبت فرسي فانطلقت إلى رسول الله ﷺ وهو في فسطاطه فقلت السلام عليك يا رسول الله ورحمة
الله وبركاته حان الرواح فقال : « أجل » فقال « يابلل » فאר من تحت سمرة كأن ظلها ظل طائر فقال : لبيك وسعديك
وأنا فداؤك فقال « أسرج لي فرسي » فأخرج سرجا فدناه من ليف ليس فيهما أثر ولا بطر قال فأسرج فركب وركبنا
فصاففناهم عشيتنا وليتنا فتشامت الخيلان فولى المسلمون مدبرين كما قال الله تعالى (ثم وليتم مدبرين) فقال رسول الله
ﷺ « يا عباد الله أنا عبد الله ورسوله » ثم قال « يا معشر المهاجرين أنا عبد الله ورسوله » قال ثم اقتحم عن
فرسه فأخذ كفا من تراب فأخبرني الذي كان أدنى إليه منى أنه ضرب به وجوههم وقال « شامت الوجوه » فهزمهم
الله تعالى . قال يعلى بن عطاء فحدثني أبنائهم عن آبائهم أنهم قالوا لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفيه ترابا وسمعنا
صلصلة بين السماء والأرض كأمرار الحديد على الطست الجديد ، وهكذا رواه الحافظ البيهقي في دلائل النبوة من
حديث أبي داود الطيالسي عن حماد بن سلمة به وقال محمد بن إسحق حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر
عن أبيه جابر بن عبد الله قال فخرج مالك بن عوف بمن معه إلى حنين فسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه فأعدوا
وتهيئوا في مضائق الوادي وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى انحط بهم الوادي في عمية
الصبح فلما انحط الناس ثارت في وجوههم الخيل فشدت عليهم وانكشفوا الناس منهزمين لا يقبل أحد على أحد وانحاز
رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين يقول « أيها الناس هلموا إلى أنا رسول الله ، أنا رسول الله ، أنا محمد
ابن عبد الله » فلا شيء وركبت الإبل بعضها بعضا فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الناس قاله « يا عباس
اصرخ يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة » فأجابوه لبيك ، لبيك ، فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره فلا يقدر على ذلك
فيقذف درعه في عنقه ويأخذ سيفه وقوسه ثم يؤم الصوت حتى اجتمع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم مائة
فاستعرض الناس فاقتتلوا وكانت الدعوة أول ما كانت بالأنصار ثم جعلت آخر بالخزرج وكانوا صبراء عند الحرب
وأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم في ركابه فنظر إلى مجتلد القوم فقال « الآن حمى الوطيس » قال فواته ما راجعه
الناس إلا والأسارى عند رسول الله ملقون فقتل الله منهم من قتل وانهرم منهم ما انهزم وأفاء الله على رسوله أموالهم
وأبناءهم وفي الصحيحين من حديث شعبة عن أبي إسحق عن البراء بن عازب رضي الله عنهما أن رجلا قال له يا أبا عمار

أقرتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ؟ فقال لكن رسول الله ﷺ لم يفر إن هوازن كانوا قوما رماة فلما لعيناهم وحملنا عليهم انهزموا فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهم فانهزم الناس فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوسقيان بن الحارث أخذ بلجام بغلته البيضاء وهو يقول « أنا النبي لا كذب * أنا ابن عبد المطلب » قلت وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة أنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه وهو مع هذا على بغلة وليست سريعة الجرى ولا تصلح لفر ولا لكر ولا لحرب ، وهو مع هذا أيضاً يركضها إلى وجوههم وينوء باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين وما هذا كله إلا ثقة بالله وتوكلا عليه وعلماً منه بأنه سينصره ويتم ما أرسله به ويظهر دينه على سائر الأديان ، ولهذا قال تعالى (ثم أنزل الله سكينته على رسوله) أى طمأنينته وثباته على رسوله (وعلى المؤمنين) أى الذين معه (وأنزل جنوداً لم تروها) وهم الملائكة كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثني الحسن بن عرفة قال حدثني العنبر بن سليمان عن عوف هوا بن أبي جميلة الاعرابي قال سمعت عبد الرحمن مولى ابن برثن حدثني رجل كان مع المشركين يوم حنين قال لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين لم يقوموا لنا حلب شاة ، قال لما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه فقالوا لنا شأمت الوجوه ارجعوا قال فانهزمنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها ، وقال الحافظ أبو بكر البيهقي أنبأنا أبو عبد الله الحافظ حدثني محمد بن أحمد بن بالويه حدثنا إسحق بن الحسن الجرمي حدثنا عفان بن مسلم حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الحارث بن حصيرة حدثنا القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه قال : قال ابن مسعود رضي الله عنه كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولى عنه الناس وبقيت معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار قد معنا ولم نولهم الدبر وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة قال ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يعصى قدما فحادث بغلته فقال عن السرج فقلت : ارتفع رفك الله قال « ناولني كفاً من التراب » فناولته قال فضرب به وجوههم فامتلاأت أعينهم تراباً قال « أين المهاجرون والأنصار ؟ » قلت : هم هناك قال « اهتف بهم » فتهتف بهم فجاءوا وسيوفهم بأيامهم كأنها الشهب وولى المشركون أدبارهم ، ورواه الإمام أحمد في مسنده عن عفان بن نخوع ، وقال الوليد بن مسلم حدثني عبد الله بن المبارك عن أبي بكر الهذلي عن عكرمة مولى ابن عباس عن شيبة بن عثمان قال رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين قد عرى ذكركت أفي وعمى وقتل على وحمزة إياها فقلت اليوم أدرك ثأري منه قال فذهبت لأجيئه عن يمينه فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائماً عليه درع بيضاء كأنها فضة يكشف عنها العجاج فقلت : عمه ولن يخذه قال فجثته عن يساره فإذا أنا بأبي سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب فقلت : ابن عمه ولن يخذه فجثته من خلفه فلم يبق إلا أن أسوره سورة بالسيف إذ رفع لي شواظ من نار بيني وبينه كأنه برق فخطت أن يخمشني فوضعت يدي على بصرى ومشيت القهقري فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « يا شيبه يا شيبه ادن مني اللهم أذهب عنه الشيطان » قال فرفعت إليه بصرى وهو أحب إلي من سمعي وبصري فقال « يا شيبه قاتل الكفار » رواه البيهقي من حديث الوليد فذكره ثم روى من حديث أيوب بن جابر عن صدقة بن سعيد عن مصعب بن شيبة عن أبيه قال خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين والله ما أخرجني إسلام ولا معرفة به ولكنني أبيت أن تظهر هوازن على قريش فقلت وأنا واقف معه يا رسول الله إني أرى خيلاً بلقا فقال « يا شيبه إنه لا يراها إلا كافر » فضرب يده على صدرى ثم قال « اللهم اهد شيبة » ثم ضربها الثانية ثم قال « اللهم اهد شيبة » ثم ضربها الثالثة ثم قال « اللهم اهد شيبة » قال فوالله ما رفع يده عن صدرى في الثالثة حتى ما كان أحد من خلق الله أحب إلي منه وذكرك تمام الحديث في التقاء الناس وانهزام المسلمين ونداء العباس واستنصار رسول الله ﷺ حتى هزم الله تعالى المشركين ، قال محمد بن إسحق حدثني أبي إسحق بن يسار عن حدثه عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال إنا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين والناس يقتلون إذ نظرت إلى مثل البجاد الأسود يهوى من السماء حتى وقع بيننا وبين القوم فإذا نعل مشور قد ملأ الوادي فلم يكن إلا هزيمة القوم فما كنا نشك

أنها الملائكة ، وقال سعيد بن السائب بن يسار عن أبيه قال سمعت يزيد بن عامر السوائي وكان شهد حيننا مع المشركين ثم أسلم بعد فكنا نسأله عن الرعب الذي ألقى الله في قلوب المشركين يوم حنين فكان يأخذ الحصاة فيرمي بها في الطست فيطن فيقول كنا نجد في أجوافنا مثل هذا ، وقد تقدم له شاهد من حديث القهري يزيد بن أسيد فأنه أعلم ، وفي صحيح مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق أنبأنا معمر عن همام قال هذا ما حدثنا أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال « نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم » ولهذا قال تعالى (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين) وقوله (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم) قد تاب الله على بقية هوازن فأسلموا وقدموا عليه مسلمين ولحقوه وقد قارب مكة عند الجحرانة وذلك بعد الوقعة بقریب من عشرين يوما فعند ذلك خيروهم بين سبهم وبين أموالهم فاختاروا سبهم وكانوا ستة آلاف أسير مابين صبي وامرأة فرده عليهم وقسم الأموال بين الغنائمين ونقل أناسا من الطلقاء لكي يتألف قلوبهم على الاسلام فأعطاهم مائة مائة من الإبل وكان من جملة من أعطى مائة مالك بن عوف النضري واستعمله على قومه كما كان فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها :

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله * في الناس كلهم بمثل محمد * أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى
ومنى يشأ يخبرك عما في غد * وإذا الكتيبة عردت أنيابها * بالسهمى وضرب كل مهند
فكانه ليث على أشباله * وسط الباءة خادر في مرصد

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ قَتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ
عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين دينا وذاتا بنبي المشركين الذين هم نجس دينا عن المسجد الحرام وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية وكان نزولها في سنة تسع ولهذا بعث رسول الله ﷺ عليا صحبة أبي بكر رضي الله عنهما عامئذ وأمره أن ينادى في المشركين أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . فأنتم الله ذلك وحكم به شرعا وقدرآ . وقال عبد الرزاق : أخبرنا ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول في قوله تعالى (إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) إلا أن يكون عبداً أو أحداً من أهل الدمة . وقد روى مرفوعا من وجه آخر فقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا شريك عن الأشعث يعني ابن سوار عن الحسن عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ « لا يدخل مسجدنا بعد عامنا هذا مشرك إلا أهل العهد وخدمهم » تفرد به الإمام أحمد مرفوعا والموقوف أصح إسنادا . وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين وأتبع نهيه قول الله تعالى (إنما المشركون نجس) وقال عطاء : الحرم كله مسجد لقوله تعالى (فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما ورد في الصحيح « المؤمن لا ينجس » وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب ، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم ، وقال أشعث عن الحسن من صافحهم فليتوضأ . رواه ابن جرير . وقوله (وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله) قال محمد بن إسحاق وذلك أن الناس قالوا لتقطع عنا الأسواق وتلهكن التجارة وليذهبن عنا ما كنا نصيب فيها من المرافق فأنزل الله (وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله) من وجه غير ذلك (إن شاء) إلى قوله (وهم صاغرون) أي هذا عوض ما تخوفتم من قطع

تلك الأسواق فعوضهم الله عما قطع أمر الشرك ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية ، وهكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك وغيرهم (إن الله عليم) أى بما يصلحكم (حكيم) أى فيما يأمر به وينهى عنه لأنه الكامل في أفعاله وأقواله العادل في خلقه وأمره تبارك وتعالى ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل النعمة . وقوله تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنوا بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ولا بما جاءوا به وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه لا لأنه شرع الله ودينه ، لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ لأن جميع الأنبياء بشروا به وأمرو باتباعه فلما جاء وكفروا به وهو أشرف الرسل علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله . بل لحظوظهم وأهوائهم فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم ، ولهذا قال (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب) وهذه الآية الكريمة أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعد ما تمهد أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجا واستقامت جزيرة العرب أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى وكان ذلك في سنة تسع ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فأنعسوا معه واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفاً وتحلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم وكان ذلك في عام جدب ووقت قيظ وحر وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام لقتال الروم فبلغ تبوك فنزل بها وأقام بها قريباً من عشرين يوماً ثم استخار الله في الرجوع فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله تعالى . وقد استدلل بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب أو من أشبههم كالجوس كما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر وهذا مذهب الشافعي وأحمد في المشهور عنه وقال أبو حنيفة رحمه الله : بل تؤخذ من جميع الأعاجم سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب . وقال الإمام مالك : بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي ومجوسى ووثنى وغير ذلك ولما أخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا والله أعلم . وقوله (حتى يعطوا الجزية) أى إن لم يسلموا (عن يد) أى عن قهر لهم وغلبة (وهم صاغرون) أى ذليلون حقيرون مهانون فلهذا لا يجوز إعزاز أهل النعمة ولا رفعهم على المسلمين بل هم أذلاء صغرة أشقياء كما جاء في صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال « لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه » ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ من رواية عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال : كتبت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى من أهل الشام بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرائبنا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدينتنا ولا فيها حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب منها ولا نحبي منها ما كان خطاً للمسلمين وأن لا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل وأن نترز من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم ولا نؤوى في كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً ولا نكتم غشاً للمسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شركاً ولا ندعو إليه أحداً ولا نمنع أحداً من ذوى قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه وأن نوقر المسلمين وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتفى بكنائهم ولا نركب السروج ولا نتقلد السيوف ولا

تتخذ شيئاً من السلاح ولا نحملة معنا ولا ننقش خواتمنا بالعربية ولا نبيع الخمر وأن نجز مقادير رءوسنا وأن نلزم زينا حينا كنا وأن نشد الزناير على أوساطنا وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا وأن لا نظهر صلبنا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً وأن لا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ولا نخرج سعادين ولا بعوثاً ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين وأن نرشد المسلمين ولا نطلع عليهم في منازلهم . قال فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه ولا نضرب أحداً من المسلمين شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبائنا عليه الأمان فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم ووظفنا على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ إِنْ يَؤُفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَبَهُمْ وَرَهَبَتَهُمْ أَزْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقاتلتهم هذه المقالة الشنيعة والفرية على الله تعالى فأما اليهود فقالوا في العزيز إنه ابن الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وذكر السدى وغيره أن الشبهة التي حصلت لهم في ذلك أن العمالة لما غلبت على بني إسرائيل قتلوا علماءهم وسبوا كبارهم بقى العزيز يبيكي على بني إسرائيل وذهاب العلم منهم حتى سقطت جفون عينيه فيبيناً هو ذات يوم إذ مر على جبانة وإذا امرأة تبكي عند قبر وهي تقول : وامطعاه واكاسياه فقال لها : ويحك من كان يطعمك قبل هذا ؟ قالت الله قال : فإن الله حي لا يموت ، قالت يا عزيز فمن كان يعلم قبر العلماء قبل بني إسرائيل ؟ قال : الله . قالت فلم تبكي عليهم ؟ فعرف أنه شيء قد وعظ به ثم قيل له اذهب إلى نهر كذا فاغتسل منه وصل هناك ركعتين فانك ستلقى هناك شيخاً فما أطعمك فكله فذهب ففعل ما أمر به فإذا الشيخ فقال له افتح فمك ففتح فمعه فالقى فيه شيئاً كهيشة الجرة العظيمة ثلاث مرات فرجع عزيز وهو من أعلم الناس بالتوراة فقال يا بني إسرائيل قد جشتم بالتوراة فقالوا يا عزيز ما كنت كذاباً فعمد فربط على أصبع من أصابعه قلماً وكتب التوراة بأصبعه كلها فلما تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء أخبروا بشأن عزيز فاستخرجوا النسخ التي كانوا أودعوها في الجبال وقابلوها بها فوجدوا ما جاء به صحيحاً فقال بعض جهلتهم إنما صنع هذا لأنه ابن الله . وأما ضلال النصارى في المسيح فظاهر ، ولهذا كذب الله سبحانه الطائفتين فقال (ذلك قولهم بأفواههم) أى لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افتراءهم واختلاقهم (يضاؤون) أى يشابهون (قول الذين كفروا من قبل) أى من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء (قاتلهم الله) قال ابن عباس لعنهم الله (أنى يؤفكون ؟) أى كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل ؟ وقوله (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم) روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير من طرق عن عدى بن حاتم رضى الله عنه أنه لما بلغت دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام وكان قد تنصر في الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأعطاهما فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدى إلى المدينة وكان رئيساً في قومه طيء وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدمه فدخل على رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم وفي عنق عدى صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) قال : فقلت إنهم لم يعبدوهم فقال « بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » وقال رسول الله ﷺ « يا عدى ما تقول ؟ أضررك أن يقال الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ما يضررك أضررك أن يقال لا إله إلا الله فهل تعلم إلهاً غير الله ؟ » ثم دعاه

إلى الاسلام فأسلم وشهد شهادة الحق قال فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال « إن اليهود مغضوب عليهم والبصاري ضالون » وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرّموا ، وقال السدي : استنصحو الرجال ونبدوا كتاب الله وراء ظهورهم ولهذا قال تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا) أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام وماحلّه فهو الحلال وماشرعه اتبع وما حكم به نفذ (لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) أي تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد لا إله إلا هو ولا رب سواه .

﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾

يقول تعالى يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب (أن يطفئوا نور الله) أي ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق بمجرد حداهم واقترائهم مثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفى شمع الشمس أو نور القمر بنفخه وهذا لا سبيل إليه فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لا بد أن يتم ويظهر ولهذا قال تعالى مقابلا لهم فيما راموه وأرادوه (وبأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) والكافر هو الذي يستر الشيء ويغطيه ومنه سمى الليل كافرا لأنه يستر الأشياء والزرع كافرا لأنه يغطي الحب في الأرض كما قال (يجب الكفار ناته) ثم قال تعالى (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) فالهدى هو ما جاء به من الاخبار الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع ودين الحق هو الأعمال الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة (ليظهر على الدين كله) أي على سائر الأديان كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله زوى لى الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمي ما زوى لى منها » ، وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن محمد بن أبي يعقوب سمعت شقيق بن حيان يحدث عن مسعود بن قبيصة أوقبيصة بن مسعود يقول : صلى هذا الحى من محارب الصبح فلما صلوا قال شاب منهم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها ، وإن عمالها في النار إلا من اتقى الله وأدى الأمانة » . وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان حدثنا سليم بن عامر عن تميم الدارى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « ليلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين يعز عزيرا وينزل ذليلا ، عزاز الله به الاسلام وذلا يذل الله به الكفر » فكان تميم الدارى يقول قد عرفت ذلك أهل بيتي لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ولقد أصاب من كان كافرا منهم الذل والصغار والجزية .

وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا الوليد بن مسلم حدثني ابن جابر سمعت سليم بن عامر قال سمعت المقداد بن الأسود يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا دخلته كلمة الاسلام يعز عزيرا ، وينزل ذليلا أما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها ، وأما يذلهم فيدينون لها » وفي المسند أيضا حدثنا محمد بن أبي عدي عن ابن عون عن ابن سيرين عن أبي حذيفة عن عدي بن حاتم سمعه يقول دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا عدي أسلم تسلم » فقلت إني من أهل دين قال « أنا أعلم بدينك منك » فقلت أنت أعلم بدينى منى ؟ قال « نعم ألت من الركسية وأنت تأكل مرباع قومك ؟ » قلت بلى قال « فإن هذا لا يحل لك في دينك » قال فلم يعد أن قالها فتواضعت لها ، قال « أما إني أعلم ما الذى يمنعك من الاسلام ، تقول إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له وقد رمتهم العرب أتعرف الحيرة ؟ » قلت لم أرها وقد سمعت بها ، قال « فوالله نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز » قلت كسرى بن هرمز ؟ قال « نعم كسرى بن هرمز ، وليذلن المال حتى لا يقبله أحد » قال عدي بن حاتم : فهذه

الطعنة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذي نفسى بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها . وقال مسلم حدثنا أبو معن زيد بن يزيد الرقاشي حدثنا خالد بن الحارث حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن الأسود بن العلاء عن أبي سلمة عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى » فقلت يارسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله عز وجل (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) الآية أن ذلك تام ، قال « إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عز وجل ، ثم يبعث الله ريحا طيبة فيتوفي كل من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فيبقى من لاخير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم »

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَبَشْنَاهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُنْفَخُ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُكْرُكُمْ إِنِّي يَهَابُهَا لَهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لَا نَفْسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كَنْزْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

قال السدي : الأخبار من اليهود والرهبان من النصارى وهو كما قال فإن الأخبار هم علماء اليهود كما قال تعالى (لولا ينهمم الرابانيون والأخبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت) والرهبان عباد النصارى والقسيسون علماءهم كما قال تعالى (ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً) والمقصود التحذير من علماء السوء وعباد الضلال كما قال سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى . وفي الحديث الصحيح « لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة » قالوا اليهود والنصارى ؟ قال « فمن ؟ » وفي رواية فارس والروم ؟ قال « فمن الناس إلا هؤلاء ؟ » والحاصل التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم ولهذا قال تعالى (لئلا يكون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله) وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس يأكلون أموالهم بذلك كما كان لأخبار اليهود على أهل الجاهلية شرف ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تجيء إليهم فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعا منهم أن تبقى لهم تلك الرياست فأطفأها الله بنور النبوة وسلبهم إياها وعوضهم الدل والصغار وباءوا بغضب من الله تعالى . وقوله تعالى (ويصدون عن سبيل الله) أى وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق ويلبسون الحق بالباطل ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير وليسوا كما يزعمون بل هم دعاة إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون . وقوله (والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله) الآية . هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس فإن الناس عالة على العلماء وعلى العباد وعلى أرباب الأموال فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس كما قال ابن المبارك

وهل أفسد الدين إلا الملوك * وأخبار سوء ورهبانها

وأما الكنز فقال مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر هو المال الذي لا تؤدى زكاته ، وروى الثوري وغيره عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال : ما أدى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين وما كان ظاهرا لا تؤدى زكاته فهو كنز ، وقد روى هذا عن ابن عباس وجابر وأبي هريرة موقوفا ومرفوعا ، وقال عمر بن الخطاب نحوه أيما مال أدبت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفونا في الأرض ، وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كنز يكوى به صاحبه وإن كان على وجه الأرض ، وروى البخارى من حديث الزهري عن خالد بن أسلم قال : خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال هذا قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله طهرة للأموال ، وكذا قال عمر بن العزيز وعراك بن مالك نسخها قوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة) الآية . وقال سعيد بن محمد بن زياد عن أبي أمامة أنه قال : حلية السيوف من الكنز . ما أحدثكم إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ وقال الثوري عن أبي حصين عن أبي الضحى عن جعدة بن

هيرة عن علي رضي الله عنه قال : أربعة آلاف فمادونها نفقة فما كان أكثر من ذلك فهو كنز وهذا غريب وقد جاء في مدح التقليل من الذهب والفضة وذم التكثير منهما أحاديث كثيرة. ولينورد منها هنا طرفا يدل على الباقي قال عبد الرزاق أخبرنا الثوري أخبرني أبو حصين عن أبي الضحى عن جعدة بن هيرة عن علي رضي الله عنه في قوله (والذين يكنزون الذهب والفضة) الآية . قال النبي ﷺ « تبا للذهب تبا للفضة » يقولها ثلاثا قال فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا فأى مال تتخذ ؟ فقال عمر رضي الله عنه أنا أعلم لكم ذلك فقال يا رسول الله إن أصحابك قد شق عليهم وقالوا فأى المال تتخذ قال « لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة تعين أحدكم على دينه »

(حديث آخر) قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن عمرو بن مرة عن أبي محمد بن جعفر حدثنا شعبه حدثني سالم بن عبد الله أخبرنا عبد الله بن أبي الهذيل حدثني صاحب لي أن رسول الله ﷺ قال « تبا للذهب والفضة » قال وحدثني صاحب أنه انطلق مع عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله قولك « تبا للذهب والفضة » ماذا ندخر ؟ قال رسول الله ﷺ « لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة تعين على الآخرة »

(حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع حدثنا عبد الله بن عمرو بن مرة عن أبيه عن سالم بن أبي الجعد عن ثوبان قال : لما نزل في الذهب والفضة ما نزل قالوا فأى المال تتخذ ؟ قال عمر فأنا أعلم لكم ذلك فأوضع على بعير فأدركه وأنا في أثره فقال يا رسول الله أى المال تتخذ ؟ قال « قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وزوجة تعين أحدكم على أمر الآخرة » ورواه الترمذي وابن ماجه من غير وجه عن سالم بن أبي الجعد وقال الترمذي حسن وحكى عن البخاري أن سالما لم يسمعه من ثوبان قلت ولهذا رواه بعضهم عنه مرسلًا والله أعلم

(حديث آخر) قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا حميد بن مالك حدثنا يحيى بن يعلى المحاربي حدثنا أبي حدثنا غيلان بن جامع المحاربي عن عثمان بن أبي اليقظان عن جعفر بن أبي إياس عن مجاهد عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية (والذين يكنزون الذهب والفضة) الآية كبر ذلك على المسلمين وقالوا ما يستطيع أحد منا يدع ولده مالا يبقى بعده فقال عمر : أنا أفرج عنكم فانطلق عمر واتبعه ثوبان فأنى النبي ﷺ فقال : باني الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية. فقال رسول الله ﷺ « إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم وإنما فرض الموارث من أموال تبق بعدكم » قال فكبر عمر ثم قال له النبي ﷺ « ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته » ورواه أبو داود والحاكم في مستدركه وابن مردويه من حديث يحيى بن يعلى به وقال الحاكم صحيح على شرطهما ولم يخرجاه

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا الأوزاعي عن حسان بن عطية قال كان شداد بن أوس رضي الله عنه في سفر فنزل منزلا فقال لعلامة اثننا بالسفرة نعبث بها فأنكرت عليه فقال ما تكلمت بكلمة منذ أسلت إلا وأنا أخطئها وأزمها غير كلتي هذه فلا تحفظوها على واحفظوا ما أقول لكم سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكثروا هؤلاء الكلمات اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد وأسألك شكر نعمتك وأسألك حسن عبادتك وأسألك قلبا سليما وأسألك لسانا صادقا وأسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب »

وقوله تعالى (يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) أى يقال لهم هذا الكلام تكبينا وتقريرا وتهكما كما في قوله (ثم صبا فوق رأسه من عذاب الحميم) * ذق إنك أنت العزيز الكريم) أى هذا بذاك وهذا الذى كنتم تكنزون لأنفسكم ولهذا يقال من أحب شيئا وقدمه على طاعة الله عذب به وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم عذبوا بها كما كان أبو لهب لعنه الله جاهدا في عداوة رسول الله ﷺ وامراته تعينه في ذلك كانت يوم القيامة عوننا على عذابه أيضا في جيدها أى عنقها جبل من مسد أى يجمع من الحطب في النار وتلقى عليه ليكون ذلك أبلغ في عذابه ممن هو أشفق عليه في الدنيا

كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها كانت أضر الأشياء عليهم في الدار الآخرة فيحصى عليها في نار جهنم وناهيك بجرها فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم قال سفيان عن الأعمش عن عبد الله بن عمرو بن مرة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود: والذي لا إله غيره لا يكوى عبد يكثر فيمس دينار دينار ولا درهم درهم ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حدة ، وقد رواه ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعا ولا يصح رفعه والله أعلم وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال بلغني أن الكنز يتحول يوم القيامة شجاعا يتبع صاحبه وهو يفر منه ويقول: أنا كنزك لا يدرك منه شيئا إلا أخذه . وقال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن معدان بن أبي طلحة عن ثوبان أن رسول الله ﷺ كان يقول « من ترك بعده كنزا مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يتبعه ويقول ويلك ما أنت ؟ فيقول أنا كنزك الذي تركته بعدك ولا يزال يتبعه حتى يلقيه يده فيقضمها ثم يتبعها سائر جسده » ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث يزيد عن سعيد به وأصل هذا الحديث في الصحيحين من رواية أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي صحيح مسلم من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفايح من نار فيكوى بها جنبه وجهه وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار » وذكر تمام الحديث . وقال البخاري في تفسير هذه الآية حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا جرير عن حصين عن زيد بن وهب قال مررت على أبي ذر بالربذة فقلت ما أتراك بهذه الأرض ؟ قال كنا بالشام فقرأت (والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) فقال معاوية ما هذه فينا ما هذه إلا في أهل الكتاب ، قال قلت إنها لقينا وفيهم ورواه ابن جرير من حديث عبيد بن القاسم عن حصين عن زيد بن وهب عن أبي ذر رضي الله عنه فذكره وزاد فارتفع في ذلك بيني وبينه القول فكتب إلى عثمان يشكوني فكتب إلى عثمان أن أقبل إليه قال فأقبلت إليه فلما قدمت المدينة ركبنى الناس كأنهم لم يروني قبل يومئذ فشكوت ذلك إلى عثمان فقال لي تنح قريبا قلت والله لن أدع ما كنت أقول (قلت) كان من مذهب أبي ذر رضي الله عنه محرم ادخار ما زاد على نفقة العيال وكان يفتي بذلك ويحثهم عليه ويأمرهم به ويحلف في خلافه فنهاه معاوية فلم ينته فخشى أن يضر بالناس في هذا فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان وأن يأخذه إليه فاستقدمه عثمان إلى المدينة وأنزله بالربذة وحده وبها مات رضي الله عنه في خلافة عثمان . وقد اختبره معاوية رضي الله عنه وهو عنده هل يوافق عمله قوله فبعث إليه بألف دينار ففرقها من يومه ثم بعث إليه الذي أتاه بها فقال إن معاوية إنما بعثنى إلى غيرك فأخطأت فهاهنا الذهب فقال ويحك إنها خرجت ولكن إذا جاء مالي حاسبناك به وهكذا روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنها عامة وقال السدي هي في أهل القبلة وقال الأخنف بن قيس قدمت المدينة فبينما أنا في حلقة فيها ملا من قريش إذ جاء رجل أخشن الثياب أخشن الجسد أخشن الوجه فقام عليهم فقال . بشر الكنازين برضف يحصى عليه في نار جهنم فيوضع على حلمة تدى أحدهم حتى يخرج من نفض كتفه ويوضع على نفض كتفه حتى يخرج من حلمة تديه يتنزل قال فوضع القوم رؤوسهم فما رأيت أحدا منهم يرجع إليه شيئا قال وأدبر فاتبعته حتى جلس إلى سارية فقلت ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم ، فقال إن هؤلاء لا يعلمون شيئا وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر « ما يسرنى أن عندي مثل أحد ذهبا يمر على ثلاثة أيام وعندي منه شيء إلا دينار أرصده لدين » فهذا والله أعلم هو الذي حدا بأبذر على القول بهذا

وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام حدثنا قتادة عن سعيد بن أبي الحسن عن عبد الله بن الصامت رضي الله عنه أنه كان مع أبي ذر فخرج عطاؤه ومعه جارية فجعلت تقضي حوائجهم ففضلت معها سبعة فأمرها أن تشتري به فلوسا قال قلت لو ادخرته لحاجة بيوتك وللضيف ينزل بك قال إن خليلي عهد إلى أن أيا ذهب أو فضة أو كء عليه فهو جرح على صاحبه حتى يفرغه في سبيل الله عز وجل . ورواه عن يزيد عن همام به وزاد إفراغا

وقال الحافظ ابن عساكر بسنده إلى أبي بكر الشبلي في ترجمته عن محمد بن مهدي حدثنا عمر بن أبي سلمة عن صدقة ابن عبد الله عن طلحة بن زيد عن أبي فروة الراوي عن عطاء عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « القى الله فقيراً ولا تلقه غنيا » قال يارسول الله كيف لي بذلك ؟ قال « ما سئلت فلا تمنع ، وما رزقت فلا تنجأ » قال يارسول الله كيف لي بذلك ؟ قال رسول الله ﷺ « هوذاك وإلا فالنار » إسناده ضعيف

وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا عيينة عن يزيد بن الصرم قال سمعت علياً رضي الله عنه يقول مات رجل من أهل الصفة وترك دينارين أو درهمن فقال رسول الله ﷺ « كيتان صلوا على صاحبكم » وقد روى هذا من طرق أخر ، وقال قتادة عن شهر بن حوشب عن أبي أمامة صدى بن عجلان قال مات رجل من أهل الصفة فوجد في مئزره دينار فقال رسول الله ﷺ « كية » ثم توفي رجل آخر فوجد في مئزره ديناران فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كيتان » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو النضر إسحق بن إبراهيم الفراء يسي حدثنا معاوية بن يحيى الأطرابلسي حدثني أرواة حدثني أبو عامر الهوزني سمعت ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مامن رجل يموت وعنده أحمر أو أبيض إلا جعل الله بكل قيراط صفحة من نار يكوى بها من قدمه إلى ذقنه » وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا محمود بن خدّاش حدثنا سيف بن محمد الثوري حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا يوضع الدينار على الدينار ، ولا الدرهم على الدرهم ولكن يوسع جلده فيكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكزون » سيف هذا كذاب متروك

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل أخبرنا أبواب أخبرنا محمد بن سيرين عن أبي بكرة أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب في حجته فقال « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ومضر الذي بين جمادى وشعبان » ثم قال « أي يوم هذا ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال « أليس يوم النحر » قلنا بلى ثم قال « أي شهر هذا » قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال « أليس ذا الحجة » قلنا بلى ثم قال « أي بلد هذا ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال : « أليست البلدة ؟ » قلنا بلى قال « فإن دماءكم وأموالكم - وأحسبه قال - وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا لا ترجعوا بعدي ضلّالا يضرب بعضكم رقاب بعض ألاهل بلغت ؟ ألا ليلغ الشاهد منكم الغائب فلعن من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه » ورواه البخاري في التفسير وغيره . ومسلم من حديث أبواب عن محمد وهو ابن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه به ، وقد قال ابن جرير حدثنا معمر حدثنا روح حدثنا أشعث عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ثلاثة متواليات - ذو القعدة وذو الحجة والمحرم - ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » ورواه البزار عن محمد ابن معمر به . ثم قال لا يروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه ، وقد رواه ابن عون وقره عن ابن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه به ، وقال ابن جرير أيضاً حدثني موسى بن عبد الرحمن المسروقي حدثنا زيد ابن حباب حدثنا موسى بن عبيدة الربذي حدثني صدقة بن يسار عن ابن عمر قال خطب رسول الله ﷺ في حجة

الوداع بمنى في أواسط أيام التشريق فقال « أيها الناس إن الزمان قد استدار فهو اليوم كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم أولهن رجب مضر بين جمادى وشعبان ، وذو القعدة وذو الحجة والمحرم » وروى ابن مردويه من حديث موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر مثله أو نحوه وقال حماد بن سلمة حدثني علي بن زيد عن أبي حمزة الرقاشي عن عمه وكانت له صحبة قال كنت آخذنا بزمام ناقه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أواسط أيام التشريق أذود الناس عنه فقال رسول الله ﷺ « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم فلا تظلموا فيهن أنفسكم » وقال سعيد بن منصور حدثنا أبو معاوية عن السكاكي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله (منها أربعة حرم) قال محرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة . وقوله ﷺ في الحديث « إن الزمان قد وثبت استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » تقرير منه صلوات الله وسلامه عليه ، وثبتت للأمر على ما جعله الله في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير ، ولا زيادة ولا نقص ، ولا نسيء ولا تبديل كما قال في تحرير مكة « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة » وهكذا قال ههنا « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » أي الأمر اليوم شرعا كما ابتدع الله ذلك في كتابه يوم خلق السموات والأرض ، وقد قال بعض المفسرين والتكلمين على هذا الحديث إن المراد بقوله « قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » أنه اتفق أن حج رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك السنة في ذي الحجة وأن العرب قد كانت نسأت النسيء يحجون في كثير من السنين بل أكثرها في غير ذي الحجة وزعموا أن حجة الصديق في سنة تسع كانت في ذي القعدة وفي هذا نظر كما سنبينه إذا تكلمنا على النسيء وأغرب منه ما رواه الطبراني عن بعض السلف في جملة حديث أنه اتفق حج المسلمين واليهود والنصارى في يوم واحد وهو يوم النحر عام حجة الوداع والله أعلم . (فصل) ذكر الشيخ علم الدين السخاوى في جزء جمعه سماه (المشهور في أسماء الأيام والشهور) أن المحرم سمي بذلك لكونه شهرا محرما ، وعندى أنه سمي بذلك تأكيداً لتحريره لأن العرب كانت تتقلب به فتحله عاما وتحرمه عاما قال ويجمع على محرمات ومحارم ومحاريم ، وصفر سمي بذلك لخلو بيوتهم مهم حين يخرجون للقتال والأسفار يقال صفر المسكان إذا خلا ويجمع على أصفار كجمل وأجمال ، وشهر ربيع الأول سمي بذلك لارتباعتهم فيه والارتباعت الإقامة في عمارة الربع ويجمع على أربعاء كنصيب وأنصباء وعلى أربعة كزغيف وأرغفة ، وربيع الآخر كالأول . جمادى سمي بذلك لجمود الماء فيه ، قال وكانت الشهور في حسابهم لا تدور ، وفي هذا نظر إذ كانت شهورهم منوطة بدورانها فلعلهم سموه بذلك أول ما سمي عند جمود الماء في البرد كما قال الشاعر .

وليلة من جمادى ذات أندية * لا يبصر العبد في ظلماتها الطنبا

لا ينبج الكلب فيها غير واحدة * حتى يلف على خرطومها الدنيا

ويجمع على جماديات كجبارى وجباريات وقد يذكر ويؤنث فيقال جمادى الأولى والأول وجمادى الآخر والآخرة . رجب من الترجيب وهو التعظيم ويجمع على أرجاب ورجاب ورجبات . شعبان من تشعب القبائل وتفرقها للغارة ويجمع على شعباين وشعبانات . رمضان من شدة الرمضاء وهو الحر يقال رمضت الفصال إذا عطشت ويجمع على رمضانات ورماضين وأرمضة قال وقول من قال إنه اسم من أسماء الله خطأ لا يعرج عليه ولا يلتفت إليه ، قلت قد ورد فيه حديث ولكنه ضعيف وبينته في أول كتاب الصيام . شوال من شالت الإبل بأذنانها للطراق قال ويجمع على شواول وشواويل وشوالات . القعدة بفتح القاف : قلت وكسرهما . لقعودهم فيه عن القتال والترحال ويجمع على ذوات القعدة . الحجة بكسر الحاء قلت وفتحها سمي بذلك لإيقاعهم الحج فيه ويجمع على ذوات الحجة ، أسماء الأيام أولها الأحد ويجمع على آحاد وأوحد ووحد ، ثم يوم الاثنين ويجمع على اثنين والثلاثاء عد ويذكر ويؤنث ويجمع على ثلاثاوات وأثالث ثم الأربعاء بالمد ويجمع على أربعاوات وأرباع والخميس يجمع على خمسة وأخامس ثم الجمعة بضم الميم وإسكانها وفتحها أيضا ويجمع على جمع وجاعات ، السبت مأخوذ من السبت وهو القطع لانهاء العدد عنده وكانت العرب تسمى الأيام أول ثم أهون ثم

جبار ثم دبار ثم مؤنس ثم العروبة ثم شيار ، قال الشاعر : من العرب العاربة المتقدمين :
أرجى أن أعيش وإن يوحى * بأول أو بأهون أو جبار * أو التالى دبار فان أفته * فؤنس أو عروبة أو شيار
وقوله تعالى (منها أربعة حرم) فهذا مما كانت العرب أيضا فى الجاهلية تحرمه وهو الذى كان عليه جمهورهم إلا
طائفة منهم يقال لهم البسل كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر تعمقا وتشديدا ، وأما قوله « ثلاثة متواليات ذو القعدة
وذو الحجة والحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » فإنما أضافه إلى مضر ليسين صحة قولهم فى رجب أنه الشهر
الذى بين جمادى وشعبان لا كما تظنه ربعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذى بين شعبان وشوال وهو رمضان اليوم
فبين ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربعة ، وإنما كانت الأشهر الحرم أربعة ثلاثة سرد وواحد فرد ، لأجل
أداء مناسك الحج والعمرة فحرم قبل أشهر الحج شهرا وهو ذو القعدة لأنهم يقعدون فيه عن القتال وحرم شهر
ذى الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشغلون فيه بأداء المناسك وحرم بعده شهرا آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى
بلادهم آمنين ، وحرم رجب فى وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتبار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب
فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمنا ، وقوله (ذلك الدين القيم) أى هذا هو الشرع المستقيم من امتثال أمر الله فاجعل
من الأشهر الحرم والحذو بها على ما سبق فى كتاب الله الأول قال تعالى (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) أى فى هذه الأشهر
الحرمه لأنها أكد وأبلغ فى الاتهم من غيرها كما أن المعاصى فى البلد الحرام تضاعف لقوله تعالى (ومن يرد فيه بالحاد
بظلم نذقه من عذاب أليم) وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام ، ولهذا تغلظ فيه الدية فى مذهب الشافعى وطائفة
كثيرة من العلماء ، وكذا فى حق من قتل فى الحرم أو قتل ذا محرم ، وقال حماد بن سلمة عن عيسى بن زيد عن يوسف بن
مهران عن ابن عباس فى قوله (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) قال فى الشهور كلها ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس
قوله (إن عدة الشهور عند الله) الآية فلا تظلموا فيهن أنفسكم فى كلهن ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حراما
وعظم حرمانهن وجعل الذنب فيهن أعظم والعمل الصالح والأجر أعظم وقال قتادة فى قوله (فلا تظلموا فيهن أنفسكم)
إن الظلم فى الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزرا من الظلم فيما سواها ، وإن كان الظلم على كل حال عظيما ولكن الله يعظم
من أمره ما يشاء ، وقال : إن الله اصطفى صفايا من خلقه . اصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس رسلا واصطفى من
الكلام ذكره ، واصطفى من الأرض المساجد واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم واصطفى من الأيام
يوم الجمعة واصطفى من الليالى ليلة القدر فعظموا ما عظم الله . فإنما تعظم الأمور بما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل
العقل وقال الثورى عن قيس بن مسلم عن الحسن بن محمد بن الحنفية بأن لا تحرموهن كحرمتهن وقال محمد بن إسحق
(فلا تظلموا فيهن أنفسكم) أى لا تجعلوا حرامها حلالا ولا حلالها حراما كما فعل أهل الشرك فإنما النسيء الذى كانوا
يصنعون من ذلك زيادة فى الكفر (يصل به الذين كفروا) الآية ، وهذا القول اختيار ابن جرير وقوله (وقتلوا المشركين
كافة) أى جميعكم (كما يقتلونكم كافة) أى جميعهم (واعلموا أن الله مع المتقين) وقد اختلف العلماء فى تحريم ابتداء القتال
فى الشهر الحرام هل هو منسوخ أو محكم على قولين (أحدهما) وهو الأشهر أنه منسوخ لأنه تعالى قال ههنا (فلا تظلموا
فيهن أنفسكم) وأمر بقتال المشركين ، وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمرا عاما ولو كان محرما فى الشهر الحرام
لأوشك أن يقيد به بالنسلاخ ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف فى شهر حرام وهو ذو القعدة كما ثبت فى
الصحيحين أنه خرج إلى هوازن فى شوال فلما كسروهم واستغاثواهم ورجع فلهم لجئوا إلى الطائف فعمد إلى الطائف
فحاصروهم أربعين يوما وانصرف ولم يفتتحها فثبت أنه حاصر فى الشهر الحرام والقول الآخر أن ابتداء القتال فى الشهر الحرام
حرام وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام لقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام) وقال (الشهر
الحرام بالشهر الحرام والحرمت قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) الآية وقال (فإذا نسلخ
الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين) الآية وقد تقدم أنها الأربعة المقررة فى كل سنة لا أشهر التيسير على أحد القولين . وأما قوله
تعالى (وقتلوا المشركين كافة كما يقتلونكم كافة) فيحتمل أنه منقطع عما قبله وأنه حكم مستأنف ويكون من باب التيسير

والتحضيض أى كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أتم أيضا لهم إذا حاربتموهم وفانلوهم بنظير ما يفعلون ، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين قتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداية منهم كما قال تعالى (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمت قصاص) وقال تعالى (ولا تقتلواهم عند المسجد الحرام حتى يقتلواكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم) الآية وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام فانه من تنمة قتال هوازن وأحلافها من تقيف فانهم هم الذين ابتدءوا القتال وجمعوا الرجال ودعوا إلى الحرب والنزال فعندها قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدم فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم فنالوا من المسلمين وقتلوا جماعة ، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريبا من أربعين يوما ، وكان ابتداء في شهر حلال ودخل الشهر الحرام فاستمر فيه أياما ثم قفل عنهم لأنه يغتفر في الدوام مالا يغتفر في الابتداء ، وهذا أمر مقرر وله نظائر كثيرة والله أعلم ، ولنذكر الأحاديث الواردة في ذلك (١) وقد حررنا ذلك في السيرة والله أعلم

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَلِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة ، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة ، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله ، فانهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم ، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم فأخروه إلى صفر فيحلون الشهر الحرام ويحرمون الشهر الحلال ليواطئوا عدة ما حرم الله الأشهر الأربعة كما قال شاعرهم وهو عمير بن قيس المعروف بجندل الطعان

لقد علمت معدّ بأن قومي * كرام الناس إن لهم كراما * ألسنا الناسين على معد

شهور الحل نجعلها حراما * فأى الناس لم ندرك بوتر * وأى الناس لم نعلك لجاما

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (إنما النسء زيادة في الكفر) قال النسء أن جنادة بن عوف بن أمية الكناني كان يوافي الموسم في كل عام وكان يكنى أبا ثمامة فينادى ألا إن أبا ثمامة لا يحجب ولا يعاب ألا وإن صفر العام الأول العام حلال فيحله للناس فيحرم صفرنا عاما ويحرم المحرم عاما فذلك قول الله (إنما النسء زيادة في الكفر) يقول يتركون المحرم عاما وعاما يحرمونه ، وروى العوفي عن ابن عباس نحوه ، وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد كان رجل من بني كنانة يأتي كل عام إلى الموسم على حمار له فيقول أيها الناس : إني لا أعاب ولا أجاب ولا مرد لما أقول ، إنا قد حررنا المحرم وأخرنا صفر . ثم يحيى العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته ويقول إنا قد حررنا صفر وأخرنا المحرم فهو قوله (ليواطئوا عدة ما حرم الله) قال يعني الأربعة فيحلوا ما حرم الله بتأخير هذا الشهر الحرام ، وروى عن أبي وائل والضحاك وقتادة نحوه هذا ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله (إنما النسء زيادة في الكفر) الآية . قال هذا رجل من بني كنانة يقال له القلمس وكان في الجاهلية وكانوا في الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض في الشهر الحرام يلقى الرجل قاتل أبيه ولا يمد إليه يده ، فلما كان هو قال اخرجوا بنا قالوا له هذا المحرم قال ننسئه العام هما العام صفران ، فإذا كان العام القابل قضينا جعلناهما محرمين ، قال ففعل ذلك فلما كان عام قابل قال لا تغزوا في صفر حرموه مع المحرم هما محرمان ، فهذه صفة غريبة في النسء وفيها نظر لأنهم في عام إنما يحرمون على هذا ثلاثة أشهر فقط وفي العام الذي يليه يحرمون خمسة أشهر فأين هذا من قوله تعالى (يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله) وقد روى عن مجاهد صفة أخرى غريبة أيضا فقال عبد الرزاق أنا معمر عن أبي نجيع عن مجاهد في قوله تعالى (إنما النسء زيادة في الكفر) الآية ، قال ، فرض الله عز وجل الحج في ذى الحجة ، قال وكان المشركون

يسمون ذا الحجة المحرم وصفر وربيع وربيع وجادى وجادى ورجب وشعبان ورمضان وشوالا وذا القعدة
وذا الحجة يحجون فيه مرة ثم يسكتون عن المحرم ولا يذكرونه ثم يعودون فيسمون صفرا ، ثم يسمون رجب
جمادى الآخر ، ثم يسمون شعبان رمضان ، ثم يسمون شوالا رمضان ، ثم يسمون ذا القعدة شوالا ، ثم يسمون
ذا الحجة ذا القعدة ، ثم يسمون المحرم ذا الحجة فيحجون فيه واسمه عندهم ذو الحجة . ثم عادوا بمثل هذه الصفة
فكانوا يحجون في كل شهر عامين حتى إذا وافق حجة أبى بكر الآخر من العامين فى ذى القعدة ، ثم حج النبى صلى الله
عليه وسلم حجته التى حج فوافق ذا الحجة فذلك حين يقول النبى صلى الله عليه وسلم فى خطبته « إن الزمان
قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض » وهذا الذى قاله مجاهد فيه نظر أيضا وكيف تصح حجة أبى بكر
وقد وقعت فى ذى القعدة وأنى هذا ؟ وقد قال الله تعالى (وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله
برئ من المشركين ورسوله) الآية وإنما نودى به فى حجة أبى بكر فلم تكن فى ذى الحجة لما قال تعالى (يوم الحج
الأكبر) ولا يلزم من فعلهم النسيء هذا الذى ذكره من دوران السنة عليهم وحجهم فى كل شهر عامين فإن النسيء
حاصل بدون هذا فانهم لما كانوا يحلون شهر المحرم عاما يحرمون عوضه صفرا وبعده ربيع وربيع إلى آخر السنة
بحالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها ثم فى السنة الثانية يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه وبعده صفر وربيع
وربيع إلى آخرها (فيحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطأوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله) أى فى تحريم أربعة أشهر
من السنة إلا أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية وهو المحرم وتارة ينسئون إلى صفر
أى يؤخرونه وقد قدمنا الكلام على قوله ﷺ « إن الزمان قد استدار » الحديث أى إن الأمر فى عدة الشهور
وتحريم ما هو محرم منها على ما سبق فى كتاب الله من العدد والتوالى لا كما تعتمد به جهة العرب من فصلهم تحريم بعضها
بالنسيء عن بعض والله أعلم وقال ابن أبى حاتم : حدثنا صالح بن بشر بن سامة الطبرانى حدثنا مكى بن إبراهيم حدثنا موسى
ابن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أنه قال : وقف رسول الله ﷺ بالعقبة فاجتمع إليه من شاء الله
من المسلمين فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال « وإنما النسيء من الشيطان زيادة فى الكفر يضل به الذين
كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما » فكانوا يحرمون المحرم عاما ويستحلون صفر ويستحلون المحرم وهو النسيء وقد تكلم
الإمام محمد بن إسحق على هذا فى كتاب السيرة كلاما جيدا مفيدا حسنا فقال : كان أول من نسأ الشهور على العرب فأحل منها
ما حرم الله وحرم منها ما أحل الله عز وجل القلمس وهو حذيفة بن عبد قيس بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك
ابن كنانة بن خزيم بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد ثم من بعد عباد ابنه
قلع بن عباد ثم ابنه أمية بن قلع ثم ابنه عوف بن أمية ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف وكان آخرهم وعليه قام الإسلام فكانت
العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه فقام فيهم خطيبا فحرم رجبيا وذا القعدة وذا الحجة ويحل المحرم عاما ويجعل
مكانه صفر ويحرمه عاما ليواطىء عدة ما حرم الله فيحل ما حرم الله يعنى ويحرم ما أحل الله والله أعلم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ
الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ
قُوَّةً غَيْرَ كُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

هذا شروع فى عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال فى شدة الحر
وحمارة القيظ فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله) أى إذا دعيت إلى الجهاد
فى سبيل الله (أنا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ) أى تكاسلتم وملتم إلى المقام فى الدعة والحفص وطيب الثمار (أرضيتكم بالحياة الدنيا
من الآخرة ؟) أى مالكم فعلمن هكذا رضا منكم بالدنيا بدلا من الآخرة ، ثم زهد تبارك وتعالى فى الدنيا ، ورجب

في الآخرة فقال (فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) كما قال الإمام أحمد . حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس عن المستورد أخى بنى فهر قال : قال رسول الله ﷺ « ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بما ترجع ؟ » وأشار بالسبابة انفرد بإخراجه مسلم . وروى ابن أبي حاتم حدثنا بشر بن مسلم بن عبد الحميد الحمصي بمحمص حدثنا الربيع بن روح حدثنا محمد بن خالد الوهبي حدثنا زياد يعني الجصاص عن أبي عثمان قال : قلت يا أبا هريرة سمعت من إخواني بالبصرة أنك تقول سمعت نبي الله ﷺ يقول « إن الله يجزي بالحسنة ألف ألف حسنة » قال أبو هريرة بل سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله يجزي بالحسنة ألفي ألف حسنة » ثم تلا هذه الآية (فما متاع الحياة في الدنيا في الآخرة إلا قليل) فالدنيا ماضى منها وما بقى منها عند الله قليل . وقال الثوري عن الأعمش في الآية (فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) قال كزاد الراكب وقال عبدالعزيز ابن أبي حازم عن أبيه لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة . قال ائتوني بكفى الذى أ كفن فيه أنظر اليه فلما وضع بين يديه نظر اليه فقال أُمالي من كبير ما أخلف من الدنيا إلا هذا ؟ ثم ولى ظهره فسكى وهو يقول أف لك من دار إن كان كثير لك قليل ، وإن كان قليل لك قصير ، وإن كنا منك لفي غرور . ثم تواعدتعالى من ترك الجهاد فقال (إلاتنفروا يعذبكم عذاباً أليماً) قال ابن عباس : استنفر رسول الله ﷺ حيا من العرب فتشاقلوا عنه فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم (ويستبدل قوما غيركم) أى لنصرة نبيه وإقامة دينه كما قال تعالى (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم * ثم لا يكونوا أمثالكم) (ولا تضروه شيئاً) أى ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد ، ونكولكم وتشاقلكم عنه (والله على كل شيء قدير) أى قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم ، وقد قيل إن هذه الآية وقوله (انفروا خفافاً وثقالاً) وقوله (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله) انهن منسوخات بقوله تعالى (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) روى هذا عن ابن عباس وعكرمة والحسن وزيد ابن أسلم ورده ابن جرير وقال إنما هذا فيمن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الجهاد فتعين عليهم ذلك فلو تركوه لعوقبوا عليه وهذا له اتجاه والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب

﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

يقول تعالى (إلاتنصروه) أى تنصروا رسوله فان الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه كما تولى نصره (إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين) أى عام الهجرة لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه فخرج منهم هاربا صحبة صدقه وصاحبه أبى بكر بن أبى قحافة فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا فى آثارهم ثم يسيروا نحو المدينة فجعل أبوبكر رضى الله عنه يجزع أن يطلع عليهم أحد فيخلص إلى الرسول عليه الصلاة والسلام منهم أذى فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يسكنه ويثبته ويقول « يا أبابكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » كما قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام أنبأنا ثابت عن أنس أن أبابكر حدثه قال : قلت للنبي ﷺ ونحن فى الغار لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا نحت قدميه قال فقال « يا أبابكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » أخرجاه فى الصحيحين ، ولهذا قال تعالى (فأنزله الله سكينته عليه) أى تأييده ونصره عليه أى على الرسول ﷺ فى أشهر القولين وقيل على أبى بكر ، وروى عن ابن عباس وغيره قالوا لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينه وهذا لا ينافى تجديد سكينه خاصة بتلك الحال ولهذا قال (وأيده بجنود لم تروها) أى الملائكة (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا) قال ابن عباس يعنى بكلمة الذين كفروا الشرك وكلمة الله هى لا إله إلا الله . وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله

عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أى ذلك في سبيل الله فقال « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » وقوله (والله عزيز) أى في انتقامه وانتصاره ، منيع الجنب لا يضام من لاذ يبابه ، واحتسب بالتمسك بخطابه (حكيم) في أقواله وأفعاله

﴿ اُنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

قال سفيان الثوري عن أبيه عن أبي الضحى مسلم بن صبيح : هذه الآية (انفروا خفافا وثقالا) أول ما نزل من سورة براءة وقال معتمر بن سليمان عن أبيه قال : زعم حضرمي أنه ذكر له أن ناسا كانوا عسى أن يكون أحدهم عليلا وكبيرا فيقول إني لا آثم فأنزل الله (انفروا خفافا وثقالا) الآية أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب وحتم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المنشط والمكره والعسر واليسر فقال (انفروا خفافا وثقالا) وقال علي بن زيد عن أنس عن أبي طلحة : كهولا وشبابا ما سمع الله عذر أحد ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قتل وفي رواية قرأ أبو طلحة سورة براءة فأثى على هذه الآية (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله) فقال أرى ربنا استنفرونا شيوخا وشبابا جهزوني يا بني ، فقال بنوه يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات ومع أبي بكر حتى مات ومع عمر حتى مات فنحن نغزو عنك فأبى فركب البحر فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفنوه فيها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير فدفنوه فيها وهكذا روى عن ابن عباس وعكرمة وأبي صالح والحسن البصري وسهيل ابن عطية ومقاتل بن حيان والشعبي وزيد بن أسلم أنهم قالوا في تفسير هذه الآية (انفروا خفافا وثقالا) كهولا وشبابا وكذا قال عكرمة والضحاك ومقاتل بن حيان وغير واحد ، وقال مجاهد شبانا وشيوخا وأغنياء ومساكين وكذا قال أبو صالح وغيره وقال الحكم بن عتيبة : مشاغيل وغير مشاغيل ، وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى (انفروا خفافا وثقالا) يقول انفروا نشاطا وغير نشاط ، وكذا قال قتادة وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد (انفروا خفافا وثقالا) قالوا فإن الثقل وذو الحاجة والضيعة والشغل والتيسر به أمره فأنزل الله وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا (خفافا وثقالا) أى على ما كان منهم وقال الحسن بن أبي الحسن البصري أيضا في العسر واليسر وهذا كله من مقتضيات العموم في الآية وهذا اختيار ابن جرير

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي إذا كان النفير إلى دروب الروم نفر الناس إليها خفافا وركبانا وإذا كان النفير إلى هذه السواحل نفروا إليها خفافا وثقالا وركبانا ومشاة وهذا تفصيل في المسألة وقد روى عن ابن عباس ومحمد ابن كعب وعطاء الخراساني وغيرهم أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله ، وقال السدي قوله (انفروا خفافا وثقالا) يقول غنيا وفقيرا وقويا وضعيفا فجاءه رجل يومئذ زعموا أنه المقداد وكان عظيما سمينا فشكا إليه وسأله أن يأذن له فأبى فنزلت يومئذ (انفروا خفافا وثقالا) فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس فنسخها الله فقال (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا الله ورسوله) وقال ابن جرير : حدثني يعقوب حدثنا ابن علية حدثنا أيوب عن محمد قال شهد أبو أيوب مع رسول الله ﷺ بدرًا ثم لم يتخلف عن غزاة المسلمين إلا عاما واحدا قال وكان أبو أيوب يقول قال الله تعالى (انفروا خفافا وثقالا) فلا أجدني إلا خفيفا أو ثقيلا . وقال ابن جرير حدثني سعيد بن عمرو السكوني حدثنا جرير حدثني عبد الرحمن بن ميسرة حدثني أبو راشد الحراني قال وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا على تابوت من توايت الصيارفة بمحصر وقد فصل عنها من عظمه يريد الغزو فقلت له قد أعذر الله إليك فقال أتت علينا سورة البعوث (انفروا خفافا وثقالا) وقال ابن جرير حدثني حبان بن زيد الشرعي قال نفرنا مع صفوان بن عمرو وكان واليا على حمص قبل الأفسوس إلى الجراجمة فرأيت شيخا

كبراهما قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار فأقبلت إليه فقلت يا عم لقد أعذر الله إليك قال فرفع حاجبيه فقال يا ابن أخي استنفرنا الله خفافا وثقالا ألا إنه من يحبه الله يبتليه ثم يعيده الله فيقيه وإنما يبتلى الله من عباده من شكره وصبره وذكر ولم يعبد إلا الله عز وجل . ثم رغب تعالى في النفقة في سبيله وبذل المهج في مرضاته ومروضة رسوله فقال (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) أى هذا خير لكم في الدنيا والآخرة لأنكم تقرمون في النفقة قليلا فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة كما قال النبي ﷺ « تكفل الله للجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة ، أو يرد به إلى منزله بما نال من أجر أو غنيمة ولهذا قال الله تعالى (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) ومن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد حدثنا محمد بن أبي عدي عن حميد عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل « أسلم » قال اجدنى كارها قال « أسلم وإن كنت كارها »

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّعْيَةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

يقول تعالى موبخا للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك وقعدوا بعدما استأذنوه في ذلك مظهرين أنهم ذوو أعذار ولم يكونوا كذلك فقال (لو كان عرضا قريبا) قال ابن عباس : غنيمة قريبة (وسفرا قاصداً) أى قريبا أيضا (لاتبعوك) أى لكانوا جاءوا معك لذلك (ولكن بعدت عليهم السعفة) أى المسافة إلى الشام (وسيحلفون بالله) أى لكم إذا رجعت إليهم (لو استطعنا لخرجنا معكم) أى لو لم يكن لنا أعذار لخرجنا معكم قال الله تعالى (يهلكون أنفسهم والله يعلم أنهم لكاذبون)

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعِنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ ﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾

قال ابن أبي حاتم . حدثنا أبي حدثنا أبو حصين بن سليمان الرازي حدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر عن عون قال هل سمعتم معاتبة أحسن من هذا ؟ نداء بالعفو قبل المعاتبة فقال (عفا الله عنك لم أذن لهم) وكذا قال موري العجلي وغيره . وقال قتادة عاتبه كما تسمعون ثم أنزل التي في سورة النور فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء فقال (فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم) الآية . وكذا روى عن عطاء الخراساني ، وقال مجاهد نزلت هذه الآية في أناس قالوا استأذنوا رسول الله ﷺ فان أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا ، ولهذا قال تعالى (حتى يتبين لك الذين صدقوا) أى في إبداء الأعذار (وتعلم الكاذبين) يقول تعالى هلا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم في القعود لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب فانهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه . ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله فقال (لا يستأذنك) أى في القعود عن الغزو (الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) لأنهم يرون الجهاد قربة ولما ندهم إليه بادروا وامتثلوا (والله علم بالمتقين *) إنما يستأذنك (أى في القعود عن لا عذر له) (الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر) أى لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم (وارتابت قلوبهم)

أى شكت فى صحة ما جئتهم به (فهم فى ربهم يترددون) أى يتحIRON يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى وليست لهم قدم ثابتة فى شىء فهم قوم حيارى هلكت لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾

يقول تعالى (ولو أرادوا الخروج) أى معك إلى الغزو (لأعدوا له عدة) أى لكانوا تأهوا له (ولكن كره الله انبعاثهم) أى أبغض أن يخرجوا معك قدراً (فثبطهم) أى أخرجهم (وقيل اقعدوا مع القاعد) أى قدرا ثم بين تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين فقال (لوخرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا) أى لأنهم جناء مخذولون (ولأوضعوا خلالكم يبتغونكم الفتنة) أى ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالثيمة والبغضاء والفتنة (وفيكم سماعون لهم أى مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم يستنصحوهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم فيؤدى إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير . وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير (وفيكم سماعون لهم) أى عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم : وهذا لا يبق له اختصاص بخروجهم معهم بل هذا عام فى جميع الأحوال والمعنى الأول أظهر فى المناسبة بالسياق وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين . وقال محمد بن إسحق كان الدين استأذنوا فيما بلغنى من ذوى الشرف منهم عبد الله بن أبى ابن سؤل والجد بن قيس وكانوا أشرافا فى قومهم فثبطهم الله لعلمه بهم أن يخرجوا معه فيفسدوا عليه جنده وكان فى جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم فقال (وفيكم سماعون لهم) ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال (والله عليم بالظالمين) فأخبر بأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، ولهذا قال تعالى (لوخرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا) فأخبر عن حالهم كيف يكون لوخرجوا ومع هذا ماخرجوا كما قال تعالى (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) وقال تعالى (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) وقال تعالى (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد ثبثا * وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما * ولهدىناهم صراطا مستقيما) والآيات فى هذا كثيرة

﴿ لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونِ ﴾

يقول تعالى محرضا لنبيه عليه السلام على المنافقين (لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور) أى لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم فى كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماده مدة طويلة : وذلك أول مقدم النبي ﷺ المدينة رمتهم العرب عن قوس واحدة ، وحاربتهم يهود المدينة ومنافقوها ، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته قال عبد الله بن أبى وأصحابه هذا أمر قد توجه فدخلوا فى الإسلام ظاهراً ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظمهم ذلك وساءهم ولهذا قال تعالى (حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون)

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أُنْذِنَ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾

يقول تعالى ومن المنافقين من يقول لك يا محمد (انذن لى) فى القعود (ولا تفتنى) بالخروج معك بسبب الجوارى من نساء الروم . قال الله تعالى (ألا فى الفتنة سقطوا) أى قد سقطوا فى الفتنة بقولهم هذا كما قال محمد بن إسحق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبى بكر وعاصم بن قتادة وغيرهم قالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

ذات يوم وهو في جهازه للجد بن قيس أخى بنى سلمة « هل لك يا جد العام في جلد بنى الأصفر ؟ » فقال يا رسول الله أو تأذن لى ولا تقتنى ، فوالله لقد عرف قومى ما رجل أشد عجباً بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر أن لا أصبر عنهن . فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال « قد أذنت لك » فى الجد بن قيس نزلت هذه (ومنهم من يقول ائذن لى ولا تقتنى) الآية : أى إن كان إنما يخشى من نساء بنى الأصفر وليس ذلك به فاسقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم . وهكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنها نزلت فى الجد بن قيس ، وقد كان الجد بن قيس هذا من أشرف بنى سلمة . وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لهم « من سيدكم يا بنى سلمة ؟ » قالوا الجد بن قيس طى أنا نبخله . فقال رسول الله ﷺ « وأى داء أدوا من البخل ! ولكن سيدكم الفتى الجعد الأبيض بشر بن البراء بن معرور » وقوله تعالى (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) أى لا محيد لهم عنها ولا محيص ولا مهرب

﴿ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُوءُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ قَرِحُونَ * قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

يعلم تبارك وتعالى نبيه ﷺ بعدواة هؤلاء له لأنه مهما أصابه من حسنة أى فتح ونصر وظفر على الأعداء مما يسره ويسر أصحابه ساءهم ذلك (وإن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل) أى قد احترزنا من متابعتهم من قبل هذا (ويتولوا وهم قرحون) فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم فى عداوتهم هذه التامة فقال (قل) أى لهم (لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) أى نحن تحت مشيئته وقدره (هو مولانا) أى سيدنا وملجؤنا (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى ونحن متوكلون عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ * قُلْ أَنْفَقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ * وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ ﴾

يقول تعالى (قل) لهم يا محمد (هل ترصدون بنا) أى تنتظرون بنا (إلا إحدى الحسينين) شهادة أو ظفر بكم قاله ابن عباس ومجاهد وقادة وغيرهم (ونحن نترصد بكم) أى ننتظركم (أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) أى ننتظر بكم هذا أو هذا إما (أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) بسى أو بقتل (فترصدوا إنا معكم مترصدون) وقوله تعالى (قل أنفقوا طوعاً أو كرها) أى مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين (لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين) ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك وهو أنهم لا يتقبل منهم (لأنهم كفروا بالله وبرسوله) أى والأعمال إنما تصح بالإيمان (ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى) أى ليس لهم قدم صحيح ولا همزة فى العمل (ولا ينفقون) نفقة (إلا وهم كارهون) وقد أخبر الصادق المصدق ﷺ أن الله لا يعمل حتى تملوا وأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً . فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً لأنه إنما يتقبل من المتقين

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم) كما قال تعالى (ولا تمدن عينيك إلى

ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى (وقال (أيجسبون أن مانعدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون) وقوله (إنما يريد الله ليغذيهم بها في الحياة الدنيا) قال الحسن البصري بركاتها والنفقة منها في سبيل الله ، وقال قتادة هذا من المقدم والمؤخر تقديره : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليغذيهم بها في الآخرة . واختار ابن جرير قول الحسن ، وهو القول القوي الحسن وقوله (وتزهق أنفسهم وهم كافرون) أى ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لغذابهم . عياذا بالله من ذلك وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه

﴿ وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَإِنتَهُمْ لِمَنَّكُمْ وَمَا هُمْ بِمَنَّكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾

يخبر الله تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفزعهم وفرقهم وهلعهم أنهم (يخلفون بالله إنيهم لمنكم) يميناً مؤكدة (وما هم منكم) أى في نفس الأمر (ولكنهم قوم يفرقون) أى فهو الذى حملهم على الحلف (لويجدون ملجأ) أى حصناً يتحصنون به وحرزاً يتحرزون به (أو مغارات) وهى التى فى الجبال (أو مدخلا) وهو السرب فى الأرض والنفق قال ذلك فى الثلاثة ابن عباس ومجاهد وقتادة (لولوا إليه وهم يجمحون) أى يسرعون فى ذهابهم عنكم لأنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة وودوا أنهم لا يخالطونكم ولكن للضرورة أحكام ولهذا لا يزالون فى هم وحزن وغم لأن الإسلام وأهله لا يزال فى عز ونصر ورفعة ، فلهذا كلما سر المسلمون ساءهم ذلك فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين ولهذا قال (لويجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون)

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾

يقول تعالى (ومنهم) أى ومن المنافقين (من يلزمك) أى يعيب عليك (فى) قسم (الصدقات) إذا فرقها ويتهكم فى ذلك وهم التهمون المأبونون وهم مع هذا لا ينكرون للدين وإنما ينكرون لحظ أنفسهم ولهذا (إن أعطوا من الزكاة رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يستخطون) أى يغضبون لأنفسهم ، قال ابن جريج أخبرنى داود ابن أبى عاصم قال أتى النبى ﷺ بصدقة فقسمها هاهنا وههنا حتى ذهبت قال ووراء رجل من الأنصار فقال ماهذا بالعدل فنزلت هذه الآية ، وقال قتادة فى قوله (ومنهم من يلزمك فى الصدقات) يقول ومنهم من يطعن عليك فى الصدقات ، وذكر لنا أن رجلاً من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقسم ذهاباً وفضة فقال يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ما عدلت فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم « ويلك فمن ذا الذى يعدل عليك بعدى ؟ » ثم قال نبى الله « احذروا هذا وأشباهه فإن فى أمقى أشباه هذا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم فإذا خرجوا فاقتلوه ثم إذا خرجوا فاقتلوه ثم إذا خرجوا فاقتلوه » وذكر لنا أن نبى الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « والذى نفسى بيده ما أعطيكم شيئاً ولا أمنعكموه إنما أنا خازن » وهذا الذى ذكره قتادة يشبه ما رواه الشيخان من حديث الزهري عن أبى سلمة عن أبى سعيد فى قصة ذى الخويصرة واسمه حرقوص لما اعترض على النبى صلى الله عليه وسلم حين قسم غنائم حنين فقال له اعدل فإنك لم تعدل فقال « لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رآه مقفياً « إنه يخرج من ضئضى هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يرمقون من الدين مروق السهم من الرمية فأينا لقيتموهم فاقتلوه فأنهم شر قتلى تحت أديم السماء » وذكر بقية الحديث ثم قال تعالى منها لهم على ما هو خير لهم من ذلك

فقال (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون) فتضمنت هذه الآية الكريمة أدبا عظيما وسرا شريفا حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده وهو قوله (وقالوا حسبنا الله) وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامثال أوامره وترك زواجه وتصديق أخباره والاقتفاء بآثاره .

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَامِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهة على النبي ﷺ ولمزم إياه في قسم الصدقات بين تعالى أنه هو الذي قسمها وبين حكمها وتولى أمرها بنفسه ولم يكل قسمها إلى أحد غيره فجزأها لهؤلاء المذكورين كما رواه الإمام أبو داود في سننه من حديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وفيه ضعف عن زياد بن نعيم عن زياد بن الحارث الصدائي رضي الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ فبايعته فأتى رجل فقال أعطني من الصدقة فقال له « إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أصناف فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك » وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية هل يجب استيعاب الدفع لها أو إلى ما أمكن منها ؟ على قولين (أحدهما) أنه يجب ذلك وهو قول الشافعي وجباجة (والثاني) أنه لا يجب استيعابها بل يجوز الدفع إلى واحد منها ويعطى جميع الصدقة مع وجود الباقي وهو قول مالك وجباجة من السلف والخلف منهم عمر وحذيفة وابن عباس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون ابن مهران ، قال ابن جرير وهو قول عامة أهل العلم ، وعلى هذا فأنما ذكرت الأصناف ههنا لبيان المصروف لا لوجوب استيعابها . ولوجوه الحجاج والمأخذ مكان غير هذا والله أعلم ، وإنما قدم الفقراء ههنا على البقية لأنهم أحوج من غيرهم على المشهور ولشدة فاقهم وحاجتهم ، وعند أبي حنيفة أن المسكين أسوأ حالا من الفقير وهو كما قال أحمد وقال ابن جرير حدثني يعقوب حدثنا ابن علية أنبأنا ابن عون عن محمد قال : قال عمر رضي الله عنه : الفقير ليس بالذي لامال له ، ولكن الفقير الأخلق الكسب قال ابن علية الأخلق المحارف عندنا ، والجمهور على خلافه وروى عن ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وابن زيد . واختار ابن جرير وغير واحد أن الفقير هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئا والمسكين هو الذي يسأل ويطوف ويتبع الناس وقال قتادة الفقير من به زمانة والمسكين الصحيح الجسم وقال الثوري عن منصور عن إبراهيم هم فقراء المهاجرين ، قال سفيان الثوري يعني ولا يعطى الأعراب منها شيئا وكذا روى عن سعيد ابن جبير وسعيد بن عبد الرحمن بن أبي ، وقال عكرمة لا تقولوا للفقراء المسلمين مساكين إنما المساكين أهل الكتاب ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية * فأما الفقراء فعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوى » رواه أحمد وأبو داود والترمذي ، ولأحمد أيضا والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة مثله وعن عبيد الله بن عدي بن الحيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من الصدقة فقلب فيهما البصر فرآهما جليدين فقال « إن شئكما أعطيتكما ولا حظ فيها لغني ولا لقوى مكتسب » رواه أحمد وأبو داود والنسائي بإسناد جيد قوى وقال ابن أبي حاتم في كتاب الجرح والتعديل : أبو بكر العبسي قال قرأ عمر رضي الله عنه (إنما الصدقات للفقراء) قال هم أهل الكتاب روى عنه عمر بن نافع سمعت أبي يقول ذلك (قلت) وهذا قول غريب جدا بتقدير صحة الإسناد فإن أبا بكر هذا وإن لم ينص أبو حاتم على جهالته لكنه في حكم المجهول ، وأما المساكين فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان ، والتمر والتمران قالوا فما المسكين يا رسول الله ؟ قال « الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئا » رواه الشيخان . وأما العاملون عليها فهم الجباة والسعاة يستحقون منها قسطا على ذلك ولا يجوز

أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة لما ثبت في صحيح مسلم عن عبد المطلب من ربيعة بن الحارث أنه انطلق هو والفضل ابن العباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة فقال « إن الصدقة لأحل لمحمد ولا لآل محمد إنما هي أوساخ الناس » . وأما المؤلفلة قلوبهم فأقسام منهم من يعطى ليسلم كما أعطى النبي صلى الله عليه وسلم صفوان بن أمية من غنائم حنين وقد كان شهدا مشركا قال فلم يزل يعطيني حتى صار أحب الناس إلى بعد أن كان أبغض الناس إلى ، كما قال الإمام أحمد حدثنا زكريا بن عدي أنا ابن المبارك عن يونس عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية قال : أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الناس إلى فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلى ، ورواه مسلم والترمذي من حديث يونس عن الزهري به ومنهم من يعطى ليحسن إسلامه ويثبت قلبه كما أعطى يوم حنين أيضا جماعة من صناديد الطلقاء وأشرفهم مائة من الإبل مائة من الإبل وقال « إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلى منه خشية أن يكبه الله على وجهه في نار جهنم » . وفي الصحيحين عن أبي سعيد أن عليا بعث إلى النبي صلى الله عليه وسلم بذهبية في تربتها من اليمن فقسمها بين أربعة نفر : الأفرع بن حابس ، وعيينة بن بدر ، وعلقمة بن علاثة ، وزيد الخير ، وقال « أنألفهم » ومنهم من يعطى لما يرجى من إسلام نظرائه ، ومنهم من يعطى ليجي الصدقات ممن يليه أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد ، ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع والله أعلم

وهل تطعى المؤلفلة على الإسلام بعد النبي ﷺ ؟ فيه خلاف ، فروى عن عمر وعامر والشعبي وجماعة أنهم لا يعطون بعده لأن الله قد أعز الإسلام وأهله ومكن لهم في البلاد ، وأذل لهم رقاب العباد . وقال آخرون بل يعطون لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم . وأما الرقاب فروى عن الحسن البصري ومقاتل بن حيان وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن جبير والنخعي والزهري وابن زيد أنهم المكاتبون ، وروى عن أبي موسى الأشعري نحوه وهو قول الشافعي والليث رضي الله عنهما . وقال ابن عباس والحسن لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة وهو مذهب أحمد ومالك وإسحق أي أن الرقاب أعم من أن يعطى المكاتب أو يشتري رقبة فيعتقها استقلالاً ، وقد ورد في ثواب الاعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة وأن الله يعتق بكل عضو منها عضواً من معتقها حتى الفرج بالفرج وما ذاك إلا لأن الجزء من جنس العمل (وما تجزون إلا ما كنتم تعملون) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال « ثلاثة حق على الله عونهم : الغازي في سبيل الله ، والمكاتب الذي يريد الأداء ، والناكح الذي يريد العفاف » رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا أبا داود ، وفي المسند عن البراء بن عازب قال جاء رجل فقال يا رسول الله دلتني على عمل يقربني من الجنة ويباعدني من النار فقال « أعتق النسيئة وفك الرقبة » فقال يا رسول الله أوليس واحداً ؟ قال « لا ، عتق النسيئة أن تفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها » وأما الغارمون فهم أقسام فمنهم من تحمل حمالة أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بماله أو غرم في أداء دينه أو في معصية ثم تاب فهو لاء يدفع إليهم ، والأصل في هذا الباب حديث قبيصة بن مخارق الهلالي قال : تحملت حمالة فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله فيها فقال « أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها » قال ثم قال « يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسه رجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال سداداً من عيش - ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوى الحجا من قرابة قومه فيقولون لقد أصابت فلانة فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال سداداً من عيش - فما سواه من المسألة سحت يأكلها صاحبها سحتاً » رواه مسلم ، وعن أبي سعيد قال : أصيب رجل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثمار ابتاعها فكثر دينه فقال النبي ﷺ « تصدقوا عليه » فتصدق الناس عليه فلم يباغ ذلك وفاء دينه فقال النبي صلى الله عليه وسلم لغرمائه « خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك » رواه مسلم . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد أنبأنا صدقة بن موسى عن أبي عمران الجوني عن قيس بن يزيد عن قاضي مصر بن عبد الرحمن بن

أبي بكر قال : قال رسول الله ﷺ « يدعو الله لصاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يديه فيقول : يا ابن آدم فيم أخذت هذا الدين وفيم ضيعت حقوق الناس ؟ فيقول يا رب إنك تعلم أنني أخذته فلم آكل ولم أشرب ولم أضيع ولكن أتى على يدي إما حرق وإما سرق وإما وضيعه . فيقول الله صدق عبدي أنا أحق من قضى عنك اليوم فيدعو الله بشيء يضعه في كفة ميزانه فترجع حسناته على سيئاته فيدخل الجنة بفضل الله ورحمته » وأما في سبيل الله فمنهم الغزاة الذين لاحق لهم في الديوان وعند الإمام أحمد والحسن وإسحق والحج من سبيل الله للحديث ، وكذلك ابن السبيل وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه . والدليل على ذلك الآية وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه من حديث معمر بن زید بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تحل الصدقة لغنى إلا لخمسة : العامل عليها أو رجل اشتراها بماله أو غارم أو غاز في سبيل الله أو مسكين تصدق عليه منها فأهدى لغنى » وقد رواه السفينان عن زيد بن أسلم عن عطاء مرسلًا ، ولأبي داود عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ « لا تحل الصدقة لغنى إلا في سبيل الله وابن السبيل أو جار فقير فيهدى لك أو يدعوك » وقوله (فريضة من الله) أى حكماً مقدراً بتقدير الله وفرضه وقسمه (والله عليم حكيم) أى عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده (حكيم) فيما يقوله ويفعله ويشعره ويحكم به لإلهه إلا هو ولا رب سواه

﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَذْنٌ قُلْ أَذْنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكلام فيه ويقولون (هو أذن) أى من قال له شيئاً صدقه فينا ومن حدثه صدقه فإذا جشناه وحلفنا له صدقنا . روى معناه عن ابن عباس ومجاهد وقتادة . قال الله تعالى (قل أذن خير لكم) أى هو أذن خير يعرف الصادق من الكاذب (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) أى ويصدق المؤمنين (ورحمة للذين آمنوا منكم) أى وهو حجة على الكافرين ولهذا قال (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم)

﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ أُخْزِيَ الْعَظِيمُ ﴾

قال قتادة في قوله تعالى (يخلفون بالله لكم ليرضوكم) الآية . قال ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا وإن كان ما يقول محمد حقاً ، لهم شر من الحمير . قال فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله إن ما يقول محمد لحق ولأنت أشر من الحمار قال فسعى بها الرجال إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال « ما حملك على الذى قلت ؟ » فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك ، وجعل الرجل المسلم يقول : اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب ، فأنزله الله الآية . وقوله تعالى (ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله) الآية أى ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حاد الله عز وجل أى شاقه وحاربه وخالفه وكان فى حد والله ورسوله فى حد (فأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا) أى مهاناً معذباً (ذلك الخزي العظيم) أى وهذا هو الذل العظيم والشقاء الكبير

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَغْنُوا إِنَّ اللَّهَ مُحَرِّجُ مَا تَحْذَرُونَ ﴾

قال مجاهد : يقولون القول يذنبهم ثم يقولون عسى الله أن لا يفتنى علينا سرنا هذا ، وهذه الآية شبهة بقوله تعالى

(وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير) وقال في هذه الآية (قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون) أى إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به ويبين له أمركم كقوله تعالى (أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم - إلى قوله - ولتعرفنهم في لحن القول) الآية ، ولهذا قال قتادة كانت تسمى هذه السورة الفاضحة فاضحة المنافقين

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾

قال أبو معشر الدينى عن محمد بن كعب القرظى وغيره قالوا قال رجل من المنافقين ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونا وأكذبنا ألسنة ، وأحببنا عند اللقاء . فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ارتحل وركب ناقته فقال يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب . فقال (أبا الله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون - إلى قوله - كانوا مجرمين) وإن رجله لتسفعان الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال عبد الله بن وهب : أخبرنى هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر قال : قال رجل فى غزوة تبوك فى مجلس : ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا ولا أكذب ألسنا ولا أجهن عند اللقاء . فقال رجل فى المسجد : كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن فقال عبد الله بن عمرو أنا رأيت متعلقا بحقب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم تتكبه الحجارة وهو يقول يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (أبا الله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون .) الآية . وقد رواه الليث عن هشام بن سعد بنحو من هذا . وقال ابن إسحق وقد كان جماعة من المنافقين منهم ودیعة بن ثابت أخو بنى أمية بن زيد بن عمرو بن عوف ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له مخشى بن حمير يسيرون مع رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض اتحسبون جلاذ بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا والله لكأننا بكم غداً مقرنين فى الجبال ، إرجافا وترهيبا للمؤمنين فقال مخشى بن حمير والله لوددت أن أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة وإننا نلعب وأن ينزل فىنا قرآن لمقاتلكم هذه وقال رسول الله ﷺ فيما بلغنى لعبار بن ياسر « أدرك القوم فانهم قد احترقوا فاسألهم عما قالوا فان أنكروا قتل بلى قاتم كذا وكذا » فانطلق إليهم عمار فقال ذلك لهم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون إليه فقال ودیعة بن ثابت ورسول الله ﷺ واقف على راحلته فجعل يقول وهو أخذ بحقبها يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب فقال مخشى بن حمير يا رسول الله قعد بنى اسمى واسم أبى فكان الذى عفى عنه فى هذه الآية مخشى بن حمير فتسمى عبد الرحمن وسأل الله أن يقتل شهيدا لا يعلم بمكانه فقتل يوم البجامة ولم يوجد له أسر . وقال قتادة (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب) قال فيينا النبی صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها هيات هيات فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ما قالوا فقال « على هؤلاء النفر » فدعاهم فقال « قلتم كذا وكذا » فحلفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب . وقال عكرمة فى تفسير هذه الآية كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول اللهم إنى أسمع آية أنا عفى بها تقشر منها الجلود وتجب منها القلوب اللهم فاجعل وفاتى قتلا فى سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت . قال فأصيب يوم البجامة فما من أحد من المسلمين إلا وقد وجد غيره . وقوله (لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) أى بهذا المقل الذى استهزأتم به (إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة) أى لا يعفى عن جميعكم ولا بد من عذاب بعضهم (بأنهم كانوا مجرمين) أى مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة .

﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بِفُضُولِهِمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾

يقول تعالى منكرا على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كان هؤلاء (يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم) أى عن الاتفاق في سبيل الله (نسوا الله) أى نسوا ذكر الله (فنسيهم) أى عاملهم معاملة من نسيهم كقوله تعالى (فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا) (إن المنافقين هم الفاسقون) أى الخارجون عن طريق الحق الداخلون في طريق الضلالة وقوله (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم) أى على هذا الصنيع الذى ذكر عنهم (خالدين فيها) أى ما كثرين فيها مخلصين هم والكفار (هي حسبتهم) أى كفايتهم في العذاب (ولعنهم الله) أى طردهم وأبعدهم (ولهم عذاب مقيم)

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرَ أَمْوَالُهُمْ وَأُولَادُهُمْ فَاسْتَغْتَمَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

يقول تعالى أصاب هؤلاء من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم وقوله (بخلاقهم) قال الحسن بدينهم وقوله (وخضتم كالذى خاضوا) أى في الكذب والباطل (أولئك حبطت أعمالهم) أى بطلت مساعيهم فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة (في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون) لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب. قال ابن جرير عن عمرو بن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس في قوله (كالذين من قبلكم) الآية قال ابن عباس ما أشبه الليلة بالبارحة (كالذين من قبلكم) هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم لا أعلم إلا أنه قال : « والذى نفسى بيده لتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضب لدخلتموه » قال ابن جرير وأخبرني زياد بن سعد عن محمد بن زياد بن مهاجر عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده لتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع وباعا ببيع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا ومن هم يا رسول الله ؟ أهل الكتاب قال « فممن ؟ » وهكذا رواه أبو معشر عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فذكره وزاد قال أبو هريرة أقرأوا إن شئتم القرآن (كالذين من قبلكم) الآية قال أبو هريرة الخلاق الدين (وخضتم كالذى خاضوا) قالوا يا رسول الله كما صنعت فارس والروم ؟ قال « فهل الناس إلا هم ؟ » وهذا الحديث له شاهد في الصحيح

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِيَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

يقول تعالى واعظا لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسول (ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم) أى ألم تخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسول (قوم نوح) وما أصابهم من الفرق العالم لجميع أهل الأرض إلا من آمن بعبده ورسوله نوح عليه السلام (وعاد) كيف أهلكوا بالرج العقيم لما كذبوا هودا عليه السلام (وثمود) كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحا عليه السلام وعقروا الناقة (وقوم إبراهيم) كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم وأهلك ملكهم عمرو بن كنعان بن كوش الكنعانى لعنه الله (وأصحاب مدين) وهم قوم شعيب عليه السلام

وكيف أصابتهم الرجفة وعذاب يوم الظلة (والمؤثفات) قوم لوط وقد كانوا يسكنون في مدائن ، وقال في الآية الأخرى (والمؤثفة أهوى) أى الأمة المؤثفة وقيل أم قراهم وهى سدوم والقرض أن الله تعالى أهلكتهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطا عليه السلام وإتيانهم الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين (أتهم رسلهم بالبينات) أى بالحجج والدلائل القاطعات (فما كان الله ليظلمهم) أى باهلاكه إياهم لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

لما ذكر تعالى صفات المنافقين النسيمة عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة فقال (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) أى يتناصرون ويتعاضدون كما جاء في الصحيح «المؤمن للمؤمن كالبنان يشد بعضه بعضا» وشبك بين أصابعه ، وفي الصحيح أيضا «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى والسهر» وقوله (يأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) كقوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) الآية وقوله (ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) أى يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه (ويطيعون الله ورسوله) أى فيما أمر وترك ما عنه زجر (أولئك سيرحمهم الله) أى سيرحمهم الله من اتصف بهذه الصفات (إن الله عزيز) أى يعز من أطاعه فإن العزة لله ورسوله وللمؤمنين (حكيم) فى قسمته هذه الصفات هؤلاء وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة فانه الحكمة فى جميع ما يفعله تبارك وتعالى

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

يخبر تعالى بما أعدّه للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم اللقيم فى (جنت تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) أى ما كسبن فيها أبدا (ومساكن طيبة) أى حسنة البناء طيبة القرار كما جاء فى الصحيحين من حديث أبى عمران الجوفى عن أبى بكر بن أبى موسى عبد الله بن قيس الأشعرى عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ «جنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آتيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن» وبه قال : قال رسول الله ﷺ «إن للمؤمن فى الجنة لحيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلا فى السماء للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم لا يرى بعضهم بعضا» أخرجاه فى الصحيحين ، وفيهما أيضا عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان فإن حقا على الله أن يدخله الجنة هاجر فى سبيل الله أو حبس فى أرضه التى ولد فيها» قالوا يارسول الله أفلا نخبر الناس ؟ قال «إن فى الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين فى سبيله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألت الله فأسأله الفردوس فانه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن» وعند الطبرانى والترمذى وابن ماجه من رواية زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن معاذ بن جبل رضى الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول فذكر مثله . وللترمذى عن عبادة بن الصامت مثله وعن أبى حازم عن سهل بن سعد قاله : قال رسول الله ﷺ «إن أهل الجنة ليتراءون العرف فى الجنة كما ترون الكوكب فى السماء» أخرجاه فى الصحيحين ، ثم ليعلم أن أعلى منزلة فى الجنة مكان يقال له الوسيلة لقربه من العرش وهو مسكن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجنة كما قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن ليث عن

كعب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إذا صليتم على فسلوا الله إلى الوسيلة » قيل يا رسول الله وما الوسيلة ؟ قال « أسمى درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا هو »

وفي صحيح مسلم من حديث كعب بن علقمة عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على فانه من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا لي الوسيلة فانها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله . وأرجو أن أكون هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة يوم القيامة » وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا أحمد بن علي الأبار حدثنا الوليد بن عبد الملك الحراني حدثنا موسى بن أعين عن ابن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سلوا الله لي الوسيلة فانه لم يسألها لي عبد في الدنيا إلا كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة » رواه الطبراني . وفي مسند الإمام أحمد من حديث سعد بن مجاهد الطائفي عن أبي المدله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قلنا يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال « لبنة ذهب ولبنة فضة ، وملاطها المسك وحصاؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران . من يدخلها ينعم لا يبأس ويخلد لا يموت ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه » وروى عن ابن عمر مرفوعا نحوه ، وعند الترمذي من حديث عبد الرحمن بن إسحق عن النعمان بن سعد عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة لعرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها » فقام أعرابي فقال يا رسول الله لمن هي ؟ فقال « لمن طيب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام » ثم قال حديث غريب ورواه الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو وأبي مالك الأشعري كل منهما عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه وكل من الاسنادين جيد حسن . وعنده أن السائل هو أبو مالك الأشعري فانه أعلم ، وعن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ « ألا هل من مشعر إلى الجنة ؟ فان الجنة لا حظ لها ، هي ورب الكعبة نور يتلأأ وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام في أبد في دار سليمة ، وفاكهة وخضرة وحبرة ونعمة في محلة عالية بهية » قالوا نعم يا رسول الله نحن المشعرون لها ، قال « قولوا إن شاء الله » فقال القوم إن شاء الله ، رواه ابن ماجه . وقوله تعالى (ورضوان من الله أكبر) أي رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم كما قال الإمام مالك رحمه الله عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك . فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ، فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون يا رب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا » أخرجاه من حديث مالك ، وقال أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملي حدثنا الفضل الرجائي حدثنا الفريابي عن سفيان عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله عز وجل هل تشتهون شيئا فأزيدكم ؟ قالوا يا ربنا ما خير مما أعطيتنا ؟ قال رضواني أكبر » ورواه البزار في مسنده من حديث الثوري ، وقال الحافظ الضياء المقدسي في كتابه صفة الجنة هذا عندي على شرط الصحيح والله أعلم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ جَاهَدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلبة عليهم كما أمره بأن يخض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة ، وقد تقدم عن أمير المؤمنين طي بن أبي طالب أنه قال : بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف : سيف للمشركين (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين) وسيف للكفار أهل الكتاب (فقاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) وسيف للمنافقين (جاهد الكفار والمنافقين) وسيف للبغي (فقاتلوا التي تبغى حتى تقضى إلى أمر الله) وهذا يقتضى أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهر والنفاق وهو اختيار ابن جرير . وقال ابن مسعود في قوله تعالى (جاهد الكفار والمنافقين) قال يده فان لم يستطع فليكنفهم في وجهه . وقال ابن عباس أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان وأذهب الرفق عنهم ، وقال الضحاك جاهد الكفار بالسيف واغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهدتهم . وعن مقاتل والريعي مثله : وقال الحسن وقتادة ومجاهد : مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم وقد يقال إنه لا منافاة بين هذه الأقوال لأنه تارة يؤاخذهم بهذا وتارة بهذا بحسب الأحوال والله أعلم . وقوله (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم) قال قتادة نزلت في عبد الله بن أبي وذلك أنه اقتتل رجلان جهني وأنصاري فعلا الجهني على الأنصاري ، فقال عبد الله للأنصار ألا تنصروا أخاكم ؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إل كما قال القائل : سمن كليك يا كلك ، وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف بالله ما قاله فأنزل الله فيه هذه الآية : وروى إسماعيل بن إبراهيم بن عتبة عن عمة موسى بن عتبة قال فحدثني عبد الله بن الفضل أنه سمع أنس بن مالك رضى الله عنه يقول حزنت على من أصيب بالحرمة من قومي فكتب إلى زيد بن أرقم وبلغه شدة حزني يذكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار » وشك ابن الفضل في أبناء أبناء الأنصار قال ابن الفضل فسأل أنس بعض من كان عنده عن زيد بن أرقم فقال هو الذي يقول له رسول الله ﷺ « أوفى الله له بإذنه » قال وذلك حين سمع رجلا من المنافقين يقول ورسول الله ﷺ يخطب لئن كان صادقا فنحن شر من الحمير ، فقال زيد بن أرقم فهو والله صادق ولأنت شر من الحمير . ثم رفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فجحدته القائل فأنزل الله هذه الآية تصديقا لزيد ، يعنى قوله (يحلفون بالله ما قالوا) الآية رواه البخارى في صحيحه عن إسماعيل بن أبي أويس عن إسماعيل بن إبراهيم بن عتبة - إلى قوله - هذا الذي أوفى الله له بإذنه . ولعل ما بعده من قول موسى بن عتبة وقد رواه محمد بن فليح عن موسى ابن عتبة بإسناده ثم قال : قال ابن شهاب فذكر ما بعده عن موسى عن ابن شهاب . والمشهور في هذه القصة أنها كانت في غزوة بني المصطلق فلعل الراوى وهم في ذكر الآية وأراد أن يذكر غيرها فذكرها والله أعلم . قال الأموى في مغازيه : حدثنا محمد بن إسحق عن الزهرى عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه عن جده قال لما قدم رسول الله ﷺ أخذنى قومي فقالوا إنك امرؤ شاعر فان شئت أن تعتذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث بعض العلة ثم يكون ذنبا تستغفر الله منه وذكر الحديث بطوله إلى أن قال وكان ممن تخلف من المنافقين ونزل فيه القرآن منهم ممن كان مع النبي صلى الله عليه وسلم الجلاس بن سويد بن الصامت وكان على أم عمير بن سعد وكان عمير في حجره فلما نزل القرآن وذكرهم الله بما ذكر مما أنزل في المنافقين قال الجلاس والله لئن كان هذا الرجل صادقا فيما يقول لنحن شر من الحمير فسمعها عمير بن سعد فقال : والله يا جلاس إنك لأحب الناس إلى وأحسنهم عندى بلاء وأعزهم على أن يصله شيء يكرهه ، ولقد قلت مقالة لئن ذكرت لها لتفضحنى ولئن كتمتها لتلكنى ولا أحدهما أهون على من الأخرى . فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال الجلاس فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى أتى النبي ﷺ فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد ولقد كذب على ، فأنزل الله عز وجل فيه (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم) إلى آخر الآية فوقه رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها

فرعهموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته ونزع فأحسن النزوع . هكذا جاء هذا مدرجا في الحديث متصلا به وكأنه والله أعلم من كلام ابن إسحق نفسه لا من كلام كعب بن مالك ، وقال عروة بن الزبير نزلت هذه الآية في الجلاس ابن سويد بن الصامت أقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء فقال الجلاس إن كان ما جاء به محمد حقا فنحن أشرف من حمرا هذه التي نحن عليها ، فقال مصعب أما والله يا عدو الله لأخبرن رسول الله ﷺ بما قات فأتيت النبي ﷺ وخفت أن ينزل في القرآن أو تصيبني قارعة أو أن أخلط بخطيئته فقلت يا رسول الله أقبلت أنا والجلاس من قباء فقال كذا وكذا ولولا مخافة أن أخلط بخطيئة أو تصيبني قارعة ما أخبرتك . قال فدعا الجلاس فقال « يا جلاس أقلت الذي قاله مصعب ؟ » فحلف فأنزل الله (يحلفون بالله ما قالوا) الآية وقال محمد بن إسحق كان الذي قال تلك المقالة فيما بلغني الجلاس بن سويد بن الصامت فرفعها عليه رجل كان في حجره يقال له عمير بن سعد فأنكرها فحلف بالله ما قالها فلما نزل فيه القرآن تاب ونزع وحسنت توبته فيما بلغني ، وقال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثني أيوب ابن إسحق بن إبراهيم حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا إسرائيل عن سمالك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ حالسا في ظل شجرة فقال « إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم - يعني الشيطان - فإذا جاء فلا تكلموه » فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ » فانطلق الرجل فجاءه بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم فأنزل الله عز وجل (يحلفون بالله ما قالوا) الآية وقوله (وهموا بما لم ينالوا) قيل أنزلت في الجلاس بن سويد وذلك أنه هم بقتل ابن امرأته حين قال لأخبرن رسول الله ﷺ وقيل في عبد الله بن أبي هم بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال السدي نزلت في أناس أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبي وإن لم يرض رسول الله ﷺ وقد ورد أن نفرا من المنافقين هموا بالفتك بالنبي ﷺ وهو في غزوة تبوك في بعض تلك الليالي في حال السير وكانوا بضعة عشر رجلا قال الضحاك ففهم نزلت هذه الآية ، وذلك بين فيما رواه الحافظ أبو بكر البهقي في كتاب دلائل النبوة من حديث محمد بن إسحق عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال كنت آخذنا بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقوده به وعمار يسوق الناقة أو أنا أسوقه وعمار يقوده حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا بآثني عشر راكبا قد اعترضوه فيها قال فاتهرهم رسول الله ﷺ بهم ، وصرخ بهم فولوا مدبرين فقال لنا رسول الله ﷺ « هل عرفتم القوم ؟ » قلنا لا يا رسول الله قد كانوا متلثمين ولكننا قد عرفنا الركاب قال « هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة وهل تدرون ما أرادوا ؟ » قلنا لا ، قال « أرادوا أن يزاحموا رسول الله ﷺ في العقبة فيلفوه منها » قلنا يا رسول الله أفلا نعت إلى عشائهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم ؟ قال « لا ، أكره أن تتحدث العرب بيننا أن محمدا قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم - ثم قال - اللهم ارمهم بالدبيلة » قلنا يا رسول الله وما الدبيلة ؟ قال « شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدكم فيهلك » وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا يزيد أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل قال لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر مناديا فنادى : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ العقبة فلا يأخذها أحد فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل فغشوا عمارا وهو يسوق برسول الله ﷺ فأقبل عمار رضى الله عنه يضرب وجوه الرواحل فقال رسول الله ﷺ لحذيفة « قد قد » حتى هبط رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما هبط نزل ورجع عمار فقال يا عمار « هل عرفت القوم ؟ » فقال لقد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون قال « هل تدري ما أرادوا ! » قال الله ورسوله أعلم قال « أرادوا أن ينفروا برسول الله - ﷺ - راحلته فيطرحوه » قال فسأل عمار رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ فقال شذتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة ؟ قال أربعة عشر رجلا فقال إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر قال فعد رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا والله ما سمعنا منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم

وما علمنا ما أراد القوم فقال عمار أشهد أن الاثنى عشر الباقرين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد وهكذا روى ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير نحو هذا وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن يمشى الناس في بطن الوادي وصعد هو وحذيفة وعمار العقبة فتبعهم هؤلاء النفر الأزدلون وهم مثلثمون فأرادوا سلوك العقبة فأطلع الله على مرادهم رسول الله ﷺ فأمر حذيفة فرجع اليهم ففزعوا ففرغوا ورجعوا مقبوحين وأعلم رسول الله ﷺ حذيفة وعماراً بأسمائهم وما كانوا هموا به من الفتك به صلوات الله وسلامه عليه وأمرها أن يكتبها عليهم ، وكذا روى يونس بن بكير عن ابن إسحق إلا أنه سمي جماعة منهم فالله أعلم . وكذا قد حكى في معجم الطبراني قاله البيهقي ويشهد لهذه القصة بالصحة ما رواه مسلم حدثنا زهير ابن حرب حدثنا أبو أحمد الكوفي حدثنا الوليد بن جميع حدثنا أبو الطفيل قال : كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس فقال أنشدك بالله كم كان أصحاب العقبة قال فقال له القوم أخبره إذ سألك فقال كنا نخبر أنهم أربعة عشر فان كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر وأشهد بالله أن اثنى عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وعذر ثلاثة قالوا ما سمعنا منادى رسول الله ﷺ ولا علمنا بما أراد القوم وقد كان في حرة يمشى فقال إن الماء قليل فلا يسبقني إليه أحد فوجد قوما قد سبقوه فلعنهم يومئذ وما رواه مسلم أيضاً من حديث قتادة عن أبي نصر عن قيس بن عباد عن عمار بن ياسر قال : أخبرني حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال « في أصحابي اثنا عشر منافقاً لا يدخلون الجنة ولا يخرجون ریحها حتى يلج الجمل في سم الخياط : ثمانية منهم تكفيكم الديلة سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم في صدورهم » ولهذا كان حذيفة يقال له صاحب السر الذي لا يعلمه غيره أى من تعيين جماعة من المنافقين وهم هؤلاء قد أطلعه عليهم رسول الله ﷺ دون غيره والله أعلم ، وقد ترجم الطبراني في مسند حذيفة تسمية أصحاب العقبة ثم روى عن علي بن عبد العزيز عن الزبير بن بكار أنه قال : هم معتب بن قشير ووديع بن ثابت وجد بن عبد الله بن نبتل (١) بن الحارث من بني عمرو بن عوف والحارث بن يزيد الطائي وأوس ابن قيطي والحارث بن سويد وسعد بن زرارة وقيس بن فهد وسويد بن دأعس من بني الحلبى وفيس بن عمرو بن سهل وزيد بن اللصيت وسلالة بن الحمام وهما من بني قينقاع أظهروا الاسلام . وقوله تعالى (وما تقوموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) أى وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته وعين سعادته ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به كما قال ﷺ « ألم أجعلكم ضللاً فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي » كلما قال شيئاً قالوا الله ورسوله أمن . وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب كقوله (وما تقوموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله) الآية وقوله عليه السلام « ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيراً فأغناه الله » ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال (فإن يتوبوا يك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة) أى وإن يستمروا على طريقهم يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا أى بالقتل والحمل والغم والآخرة أى بالعذاب والنكال والهوان والصغار (وما لهم في الأرض من ولى ولا نصير) أى وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم لا يحصل لهم خيراً ولا يدفع عنهم شراً

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عٰهَدَ اللّٰهَ لَئِنْ ءَاتٰنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُوْنُ مِنَ الصّٰلِحِيْنَ * فَلَمَّا ءَاتٰهُمْ مِّنْ فَضْلِهِۦ بَخِلُوْا بِهٖ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُوْنَ * فَاَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِىْ قُلُوْبِهِمْ اِلٰى يَوْمٍ يَلْقَوْنَہٗ بِمَا اٰخَلَفُوْا اللّٰهَ مَا وَعَدُوْهُ وَبِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ * اَلَمْ يَعْلَمُوْا اَنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَاَنَّ اللّٰهَ عَلٰمُ الْغُیُوْبِ ﴾

يقول تعالى ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناهم الله لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين فما وفى بما قال ولا صدق فما ادعى فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقوا الله عز وجل يوم القيامة عياذاً بالله من ذلك وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصري أن سبب نزول هذه الآية الكريمة

في ثعلبة بن حاطب الأنصاري وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير ههنا وابن أبي حاتم من حديث معان بن رفاعه عن علي بن يزيد عن أبي عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية عن أبي أمامة الباهلي عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري أنه قال لرسول الله ﷺ : ادع الله أن يرزقني مالا ، قال فقال رسول الله ﷺ « ويحك يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه » قال ثم قال مرة أخرى فقال « أما ترضى أن تكون مثل نبي الله ؟ فوالذي نفسي بيده لو شئت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت » قال والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه ، فقال رسول الله ﷺ « اللهم ارزق ثعلبة مالا » قال فأنخذ غنما فنمت كما ينمي الدود فضاقت عليه المدينة ففتنحي عنها فنزل واديا من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ماسواها ، ثم نمت وكثرت فتنحي حتى ترك الصلوات إلا الجمعة وهي تنمي كما ينمي الدود حتى ترك الجمعة فطلق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار فقال رسول الله ﷺ « ما فعل ثعلبة ؟ » فقالوا يا رسول الله أخذ غنما فضاقت عليه المدينة فأخبروه بأمره فقال « يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة » وأنزل الله جل ثناؤه (خذ من أموالهم صدقة) الآية ونزلت فرائض الصدقة فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة من المسلمين رجلا من جهينة ورجلا من سليم وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين وقال لهما « مرا بشعلبة وبفلان - رجل من بني سليم - فخذوا صدقاتهما » فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرأه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية مأدري ما هذا ؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلى فانطلقا وسمع بهما السلمي فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأوها قالوا ما يجب عليك هذا وما نريد أن نأخذ هذا منك . فقال بلى فخذوها فان نفسي بذلك طيبة وإنما هي له ، فأخذها منه ومرا على الناس فأخذوا الصدقات ثم رحا إلى ثعلبة فقال ، أروني كتابكما فقرأه فقال ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى أرى رأيي فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ فلما رأهما قال « يا ويح ثعلبة » قبل أن يكلمهما ودعا للسلمي بالبركة فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمي . فأنزل الله عز وجل (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدون) الآية قال وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال : ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته فقال « إن الله منعه أن أقبل منك صدقتك » فجعل يحشو على رأسه التراب فقال له رسول الله ﷺ « هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني » فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبل صدقته رجع إلى منزله فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه ولم يقبل منه شيئا ، ثم أتى أبو بكر رضي الله عنه حين استخلف فقال قد علمت منزلي من رسول الله وموضعي من الأنصار فأقبل صدقتي فقال أبو بكر لم يقبلها منك رسول الله ﷺ وأبي أن يقبلها فقبض أبو بكر ولم يقبلها . فلما ولي عمر رضي الله عنه أتاه فقال : يا أمير المؤمنين أقبل صدقتي فقال لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر وأنا أقبلها منك فقبض ولم يقبلها فلما ولي عثمان رضي الله عنه أتاه فقال : أقبل صدقتي فقال لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك ؟ فلم يقبلها منه فهلك ثعلبة في خلافة عثمان ، وقوله تعالى (بما أخلفوا الله ما وعدوه) الآية أي أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم كافي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان » وله شواهد كثيرة والله أعلم . وقوله (ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم) الآية يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهرها أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها فإن الله أعلم بهم من أنفسهم لأنه تعالى علام الغيوب أي يعلم كل غيب وشهادة وكل سر ونجوى ويعلم ما ظهر وما باطن

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ

اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾

وهذا أيضا من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عيبتهم ولمزم في جميع الأحوال حتى ولا المتصدقون بسلامون منهم إن جاء أحد منهم بالجزيل قالوا هذا مرأء وإن جاء بشيء يسير قالوا إن الله لغنى عن صدقة هذا ، كما روى البخارى حدثنا عبيد الله بن معيذ حدثنا أبو النعمان البصرى حدثنا شعبة عن سليمان عن أبي وائل عن أبي مسعود رضى الله عنه قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل (١) على ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا مرأى وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا إن الله لغنى عن صدقة هذا . فنزلت (الذين يلزمون المطوعين) الآية . وقد رواه مسلم أيضا في صحيحه من حديث شعبة به ، وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد الجريري عن أبي السليل قال : وقف علينا رجل في مجلسنا بالبقيع فقال : حدثني أبي أو عمي أنه رأى رسول الله ﷺ بالبقيع وهو يقول « من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة » قال فحللت من عمامتي لوثا أولوتين وأنا أريد أن أتصدق بهما فأدركني ما يدرك ابن آدم فعقدت على عمامتي . فجاء رجل لم أر بالبقيع رجلا أشد منه سوادا ولا أصغر منه ولا أذم بيعير ساقه لم أر بالبقيع ناقة أحسن منها فقال يا رسول الله أصدقة ؟ قال « نعم » قال دونك هذه الناقة قال فلمزه رجل فقال هذا يتصدق بهذه فوالله لهى خير منه . قال فسمعها رسول الله ﷺ فقال « كذبت بل هو خير منك ومنها » ثلاث مرات ثم قال « ويل لأصحاب الثنين من الإبل » ثلاثا قالوا إلامن يا رسول الله ؟ قال « إلا من قال بالمال هكذا وهكذا » وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله ثم قال « قد أفلح المزهّد المجهد » ثلاثا . الزهّد في العيش المجهد في العبادة وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس في هذه الآية قال جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ وجاءه رجل من الأنصار بصاع من طعام فقال بعض المنافقين والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء ، وقالوا إن الله ورسوله الغنيان عن هذا الصاع . وقال العوفى عن ابن عباس إن رسول الله ﷺ خرج إلى الناس يوما فنادى فيهم أن اجمعوا صدقاتكم فجمع الناس صدقاتهم ثم جاء رجل من آخرهم بصاع من تمر فقال يا رسول الله هذا صاع من تمرت ليلتي أجر بالجرير الساء حتى نلت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما وأنتيتك بالآخر فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات فسخر منه رجال وقالوا إن الله ورسوله لغنيان عن هذا وما يصنعون بصاعك من شيء ، ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال لرسول الله ﷺ هل بقي أحد من أهل الصدقات ؟ فقال رسول الله ﷺ « لم يبق أحد غيرك » فقال له عبد الرحمن بن عوف فإن عندى مائة أوقية من ذهب في الصدقات فقال له عمر ابن الخطاب رضى الله عنه أعجنون أنت ؟ قال ليس بى جنون قال أفعلت ما فعلت ؟ قال نعم مالى ثمانية آلاف أما أربعة آلاف فأقرضها ربى وأما أربعة آلاف فى فقال له رسول الله ﷺ « بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت » ولمزه المنافقون فقالوا والله ما أعطى عبد الرحمن عطيته إلا رياء وهم كاذبون إنما كان به متطوعا فأنزل الله عز وجل عذره وعذر صاحبه المسكين الذى جاء بالصاع من التمر فقال تعالى فى كتابه (الذين يلزمون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات) الآية ، وكذا روى عن مجاهد وغير واحد وقال ابن إسحق كان من المطوعين من المؤمنين فى الصدقات عبد الرحمن بن عوف تصدق بأربعة آلاف درهم وعاصم بن عدى أخو بنى العجلان وذلك أن رسول الله ﷺ رغب فى الصدقة وحض عليها فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف وقام عاصم بن عدى وتصدق بمائة وسق من تمر فلمزوها وقالوا ما هذا إلا رياء وكان الذى تصدق بجهد أبو عقيل أخو بنى أئيف الاراشى حليف بنى عمرو بن عوف أتى بصاع من تمر فأفرغه فى الصدقة فتضاحكوا به وقالوا إن لغنى عن صاع أبى عقيل وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا طالت بن عباد حدثنا أبو عوانة عن عمرو بن أبى سلمة عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « تصدقوا فإنى أريد أن أبعث بعثا » قال فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال يا رسول الله عندى أربعة آلاف ألفين أقرضهما ربى وألفين لعمالى فقال رسول الله ﷺ « بارك الله لك فيما أعطيت »

(١) أى نؤاجر أنفسنا فى الحل ، وفى رواية عنده فى التفسير نتحامل أى يحمل بعضا لبعض بالأجرة .

وبارك لك فيما أمسكت . وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر فقال يا رسول الله أصبت صاعين من تمر صاع أقرضه لربي وصانع ليعالي قال فلمزه المنافقون وقالوا ما أعطى النبی أعطى ابن عوف إلا رياء وقالوا ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا ؟ فأُتِلَ الله (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم) الآية ثم رواه عن أبي كامل عن أبي عوانة عن عمرو بن أبي سلمة عن أبيه مرسلًا قال ولم يسنده أحد إلا طالت ، وقال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا زيد بن الحباب عن موسى بن عبيدة حدثني خالد بن يسار عن ابن أبي عقيل عن أبيه قال بت أجر الجرير على ظهري على صاعين من تمر فانتقلت بأحدهما إلى أهلي يتبلغون به وجئت بالآخر أتقرب إلى رسول الله ﷺ فأُتِيته فأخبرته فقال « ائثره في الصدقة » قال فسخر القوم وقالوا لقد كان الله غنيا عن صدقة هذا المسكين فأُتِلَ الله (الذين يلمزون المطوعين) الآيتين ، وكذا رواه الطبراني من حديث زيد بن الحباب به وقال اسم أبي عقيل حباب ويقال عبد الرحمن بن عبد الله بن ثعلبة وقوله (فيسخرون منهم سخر الله منهم) هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين لأن الجزاء من جنس العمل فعاملهم معاملته من سخر منهم انتصارا للمؤمنين في الدنيا وأعد للمنافقين في الآخرة عذابا أليما لأن الجزاء من جنس العمل

﴿ اُسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلا للاستغفار وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم وقد قيل إن السبعين إنما ذكرت حسبا لمادة الاستغفار لهم لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها ولا تريد التحديد بها ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها ، وقيل بل لها مفهوم كما روى العوفي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال « لما نزلت هذه الآية أسمع ربي قد رخص لي فيها فوالله لأستغفرن لهم أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم » فقال الله من شدة غضبه عليهم (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم) الآية . وقال الشعبي لما ثقل عبد الله بن أبي انطلق ابنه إلى النبي ﷺ فقال إن أبي قد احتضر فأحب أن تشهده وتصلي عليه فقال له النبي ﷺ « ما اسمك » قال الحباب بن عبد الله قال « بل أنت عبد الله بن عبد الله إن الحباب اسم شيطان » ، فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو عرق وصلّى عليه فقيل له : أتصلّي عليه ؟ فقال « إن الله قال (إن تستغفر لهم سبعين مرة) ولأستغفرن لهم سبعين وسبعين وسبعين » وكذا روى عن عروة بن الزبير ومجاهد وقتادة بن دعامة ورواه ابن جرير بأسانيد

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

يقول تعالى ذاما للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وفرحوا ببعودهم بعد خروجه (وكرهوا أن يجاهدوا) معه (بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا) أي بعضهم لبعض (لا تنفروا في الحر) وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر عند طيب الظلال والثمار فلماذا قالوا (لا تنفروا في الحر) قال الله تعالى لرسوله ﷺ (قل) لهم (نار جهنم) التي تصيرون إليها بمخالفتكم (أشد حرا) مما فرتم منه من الحر بل أشد حرا من النار كما قال الإمام مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « نار بنى آدم التي توقدونها جزء من سبعين جزءا من نار جهنم » فقالوا يا رسول الله إن كانت لكافية فقال

« فضت عليها بتسعة وستين جزءاً » أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك به ، وقال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم وضربت في البحر مرتين ولولا ذلك ماجعل الله فيها منفعة لأحد » وهذا أيضاً إسناداه صحيح ، وقد روى الإمام أبو عيسى الترمذى وابن ماجه عن ابن عباس الدورى ، وعن يحيى بن أبي بكر عن شريك عن عاصم عن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أوقد الله على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء كالليل المظلم » ثم قال الترمذى لا أعلم أحداً رفعه غير يحيى . كذا قال ، وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه عن إبراهيم بن محمد عن محمد بن الحسين بن مكرم عن عبيد الله بن سعيد عن عمه عن شريك وهو ابن عبد الله اللخمي به ، وروى أيضاً ابن مردويه من رواية مبارك بن فضالة عن ثابت عن أنس قال تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (ناراً وقودها الناس والحجارة) قال « أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت وألف عام حتى احمرت وألف عام حتى اسودت فهي سوداء كالليل لا يضيء لها ، وروى الحافظ أبو القاسم الطبرانى من حديث تمام بن نجيح وقد اختلف فيه عن الحسن عن أنس رفعه « لو أن شرارة بالمشرق - أى من نار جهنم - لوجد حرها من المغرب » وروى الحافظ أبو يعلى عن إسحق بن أبي إسرائيل عن أبي عبيدة الحداد عن هشام بن حسان عن محمد بن شبيب عن جعفر بن أبي وحشية عن سعيد بن جبيرة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لو كان في هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون وفيهم رجل من أهل النار فتنفس فأصابهم نفسه لاحترق المسجد ومن فيه » غريب وقال الأعمش عن أبي إسحق عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لمن له نعلان وشر كان من نار جهنم يغلى منهما دماغه كما يغلى المرحل لا يرى أن أحداً من أهل النار أشد عذاباً منه وإنه أهونهم عذاباً » أخرجاه في الصحيحين من حديث الأعمش ، وقال مسلم أيضاً حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا يحيى بن أبي كثير حدثنا زهير بن محمد عن سهيل بن أبي صالح عن النعمان بن أبي عياش عن أبي سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال « إن أدنى أهل النار عذاباً يوم القيامة يتعل بنعلين من نار يغلى دماغه من حرارة نعليه » وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى عن ابن عجلان سمعت أبي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « إن أدنى أهل النار عذاباً رجل يحمل له نعلان يغلى منهما دماغه » وهذا إسناد جيد قوى رجاله على شرط مسلم والله أعلم ، والأحاديث والآثار النبوية في هذا كثيرة ، وقال الله تعالى في كتابه العزيز (كلا إنها لظى نزاعة للشوى) وقال تعالى (يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهره ما فى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق) وقال تعالى (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصابهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب) وقال تعالى في هذه الآية الكريمة (قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون) أى لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول فى سبيل الله فى الحر ليقوا به من حر جهنم الذى هو أضعاف أضعاف هذا ولكنهم كما قال الآخر

* كالمستجير من الرمضاء بالنار *

عمرك بالحمية أفنيته * خوفامن البارد والحر

وقال الآخر

وكان أولى لك أن تتقى * من العاصى حذر النار

ثم قال تعالى جل جلاله متوعدا هؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا (فليضحكوا قليلاً) الآية قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاءوا فإذا انقطع الدنيا صاروا إلى الله عز وجل استأثفوا بكاء لا ينقطع أبداً ، وكذا قال أبو رزین والحسن وقتادة والربيع بن خثيم وعون العقيلي وزيد بن أسلم ، وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا عبد الله بن عبد الصمد بن أبي خداس حدثنا محمد بن جبيرة عن ابن المبارك عن عمران بن يزيد حدثنا يزيد الرقائى عن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يا أيها الناس ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا فإن أهل النار سيكون حتى تسيل دموعهم فى وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء

فتفرح العيون فلو أن سفناً أزعجت فيها لجرت « ورواه ابن ماجه من حديث الأعمش عن يزيد الرقاشي به ، وقال الحافظ أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا حدثنا محمد بن العباس حدثنا حماد الجزري عن زيد بن رفيع رفعه قال إن أهل النار إذا دخلوا النار بكوا الدموع زماناً ثم بكوا القيح زماناً قال فتقول لهم الجنة يامعشر الأشقياء تركتم البكاء في الدار الرحوم فيها أهلها في الدنيا هل تجدون اليوم من تستغيثون به قال فيرفعون أصواتهم يا أهل الجنة يامعشر الآباء والأمهات والأولاد خرجنا من القبور عطاشا وكنا طول الموقف عطاشا ونحن اليوم عطاش فأفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، فيدعون أربعين سنة لا يجيبهم ثم يجيبهم (إنكم ما كنتم) فيأسون من كل خير »

﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾

يقول تعالى أمراً لرسوله عليه الصلاة والسلام (فإن رجعتك الله) أي ردك الله من غزوتك هذه (إلى طائفة منهم) قال قتادة : ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً (فاستأذنوك للخروج) أي معك إلى غزوة أخرى (فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا) أي تعزيرا لهم وعقوبة ثم علل ذلك بقوله (إنكم رضيتم بالقعود أول مرة) وهذا كقوله تعالى (وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) الآية فإن جزاء السيئة السيئة بعدها كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها كقوله في عمرة الحديبية (سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها) الآية . وقوله تعالى (فاقعدوا مع الخالفين) قال ابن عباس أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة : وقال قتادة (فاقعدوا مع الخالفين) أي مع النساء ، قال ابن جرير وهذا لا يستقيم لأن جمع النساء لا يكون بالياء والنون ولو أريد النساء لقال فاقعدوا مع الخوالف أو الخالفات ورجح قول ابن عباس رضي الله عنهما

﴿ وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴾

أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبرأ من المنافقين وأن لا يصل على أحد منهم إذا مات وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعوه لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين كما قال البخاري : حدثنا عبيد بن إسماعيل عن أبي أسامة عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال : لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ثم سأله أن يصل على فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصل على فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله تصل على وقد نهاك ربك أن تصل على ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما خيرني الله فقال (استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) وسأزيده على السبعين » قال إنه مناقق . قال فصل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنازل الله عز وجل آية (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) وكذا رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن أبي أسامة حماد بن أسامة به ، ثم رواه البخاري عن إبراهيم بن المنذر عن أنس بن عياض عن عبيد الله وهو ابن عمر العمرى به وقال فصل على وصلينا معه وأنازل الله (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا) الآية . وهكذا رواه الإمام أحمد عن يحيى بن سعيد القطان عن عبيد الله به ، وقد روى من حديث عمر بن الخطاب نفسه أيضا بنحو من هذا فقال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن ابن إسحق حدثني الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لما توفي عبد الله بن أبي دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه فقام إليه فلما وقف عليه يريد الصلاة عليه تحولت حتى قمت في صدره فقلت يا رسول الله أعلى عدو الله عبد الله بن

أبى القائل يوم كذا كذا وكذا — بعدد أيامه — ، قال ورسول الله ﷺ يتبسم حتى إذا أكرت عليه قال « أخرعني يا عمر ، إني خيرت فاخترت ، قد قيل لي (استغفر لهم) الآية . لو أعلم أني لوزدت على السبعين غفر له لذت » قال ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره حتى فرغ منه قال فعجبت من جرأتي على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم . قال فوالله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا) الآية . فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل . وهكذا رواه الترمذى فى التفسير من حديث محمد بن إسحق عن الزهرى به وقال حسن صحيح ، ورواه البخارى عن يحيى بن بكير عن الليث عن عقيل عن الزهرى به فذكر مثله وقال « أخرعني يا عمر » فلما أكرت عليه قال « إني خيرت فاخترت ولو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لذت عليها » قال فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف فلم يلبث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) الآية فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله ﷺ ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم . وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبيد حدثنا عبد الملك عن ابن الزبير عن جابر قال : لما مات عبد الله بن أبى أتي ابنه النبي ﷺ فقال يا رسول الله إنك إن لم تأتته لم نزل نغير بهذا فأثاه النبي ﷺ فوجده قد أدخل فى حفرة فقال « أفلا قبل أن تدخله ، » فأخرج من حفرة وتفل عليه من ريقه من قرنه إلى قدمه وألبسه قميصه ؛ ورواه النسائي عن أبى داود الحراني عن يعلى بن عبيد عن عبد الملك وهو ابن أبى سليمان به ؛ وقال البخارى حدثنا عبد الله بن عثمان أخيرنا بن عينة عن عمرو سمع جابر بن عبد الله قال : أتي النبي ﷺ عبد الله بن أبى بعد ما أدخل فى قبره فأمر به فأخرج ووضع على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه والله أعلم

وقد رواه أيضاً فى غير موضع مسلم والنسائي من غير وجه عن سفيان بن عينة به . وقال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو ابن عبد الخالق البزار فى مسنده حدثنا عمرو بن على حدثنا يحيى حدثنا مجالد حدثنا عامر حدثنا جابر ح وحدثنا يوسف بن موسى حدثنا عبد الرحمن بن مغراء الدوسى حدثنا مجالد عن الشعبي عن جابر قال لما مات رأس الملقين قال يحيى بن سعيد بالمدينة فأوصى أن يصلى عليه النبي ﷺ فجاء ابنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن أبى أوصى أن يكفن بقميصك وهذا السلام فى حديث عبد الرحمن بن مغراء قال يحيى فى حديثه فصلى عليه وألبسه قميصه فأنزل الله تعالى (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) وزاد عبد الرحمن : وخلع النبي ﷺ قميصه فأعطاه إياه ومشى فصلى عليه وقام على قبره فأثاه جبريل عليه السلام لما ولى قال (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) وإسناده لأبأس به وما قبله شاهد له

وقال الإمام أبو جعفر الطبرى حدثنا أحمد بن إسحق حدثنا أبو أحمد حدثنا حماد بن سلمة عن زيد الرقاشى عن أنس أن رسول الله ﷺ أراد أن يصلى على عبد الله بن أبى فأخذ جبريل بثوبه وقال (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) ورواه الحافظ أبو يعلى فى مسنده من حديث زيد الرقاشى وهو ضعيف . وقال قتادة أرسل عبد الله بن أبى إلى رسول الله ﷺ وهو مريض فلما دخل عليه قال له النبي صلى الله عليه وسلم « أهلكك حب يهود » قال يا رسول الله إنما أرسلت إليك لتستغفر لى ولم أرسل إليك لتؤنبنى ثم سأله عبد الله أن يعطيه قميصه يكفن فيه إياه فأعطاه إياه وصلى عليه وقام على قبره فأنزل الله عز وجل (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا) الآية ، وقد ذكر بعض السلف أنه إنما كساه قميصه لأن عبد الله بن أبى لما قدم العباس طلب له قميص فلم يوجد على تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أبى لأنه كان ضحاً طويلاً ففعل ذلك به رسول الله ﷺ مكافأة له فوالله أعلم . ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلى على أحد من المنافقين ولا يقوم على قبره كما قال الإمام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا أبى عن أبيه حدثني عبد الله بن أبى قتادة عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا دعى إلى جنازة سأل عنها ، فإن أئتمى عليها خيراً قام فصلى عليها ، وإن كان غير ذلك قال لأهلها « شأنكم بها » ولم يصل

عليها ، وكان عمر بن الخطاب لا يصلى على جنازة من جهل حاله حتى يصلى عليها حذيفة بن اليمان لأنه كان يعلم أعيان المنافقين قد أخبره بهم رسول الله ﷺ ، ولهذا كان يقال له صاحب السر الذى لا يعلمه غيره أى من الصحابة . وقال أبو عبيد فى كتاب الغريب فى حديث عمر أنه أراد أن يصلى على جنازة رجل فمرزه حذيفة كأنه أراد أن يصدّه عن الصلاة عليها . ثم حكى عن بعضهم أن المرزبلغة أدل اليمامة هو القرص بأطراف الأصابع ، ولما نهى الله عز وجل عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم كان هذا الصنيع من أكبر القربات فى حق المؤمنين فشرع ذلك ، وفى فعله الأجر الجزيل كما ثبت فى الصحاح وغيرها من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط ، ومن شهدا حتى تدفن فله قيراطان » قيل وما القيراطان ؟ قال « أصغرهما مثل أحد » وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات فروى أبو داود حدثنا إبراهيم بن موسى الرازى أخبرنا هشام عن عبد الله بن بجير عن هانىء وهو أبو سعيد البريرى مولى عثمان بن عفان عن عثمان رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل » انفرد بأخراجه أبو داود رحمه الله

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة والله الحمد والله

﴿ وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطُّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ * رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

يقول تعالى منكرا واذما للمتخلفين عن الجهاد النا كلين عنه مع القدرة عليه ووجود السعة والطول واستأذنوا الرسول فى القعود وقالوا (ذرنا نكون مع القاعدى) ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود فى البلد مع النساء وهن الخوالف بعد خروج الجيش فاذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس ، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلاما كما قال تعالى عنهم فى الآية الأخرى (فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد) أى علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوى فى الأمن ، وفى الحرب أجبن شىء وكما قال الشاعر

أفى السلم أعيارا جفاء وغلظة وفى الحرب أشباه النساء الفوارك ؟

وقال تعالى فى الآية الأخرى (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة ، فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم طاعة وقول معروف فإدعزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم) الآية ، وقوله (وطبع على قلوبهم) أى بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول فى سبيل الله (فهم لا يفقهون) أى لا يفهمون مافيه صلاح لهم فيفعلوه ولا مافيه مضرة لهم فيجتنبوه

﴿ لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

لما ذكر تعالى ذنب المنافقين وبين ثناءه على المؤمنين ومالهم فى آخرتهم فقال (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا) إلى آخر الآيتين من بيان حالهم ومآلهم ، وقوله (وأولئك لهم الخيرات) أى فى الدار الآخرة فى جنات الفردوس والدرجات العلى

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّبُونَ مِنَ الْأَغْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

ثم بين تعالى حال ذوى الأعذار فى ترك الجهاد الذين جاءوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ويبينون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة . قال الضحاك عن ابن عباس إنه كان يقرأ (وجاء العذرون) بالتخفيف ويقول هم أهل العذر . وكذا روى ابن عينة عن حميد عن مجاهد سواء قال ابن إسحق وبلغنى أنهم نفر من بنى غفار خفاف بن إيماء بن رخصة وهذا القول هو الأظهر فى معنى الآية لأنه قال بمدهذا (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) أى لم يأتوا فيعتذروا ، وقال ابن جريج عن مجاهد (وجاء العذرون من الأعراب) قال نفر من بنى غفار جاءوا فاعتذروا فلم يعذرهم الله ، وكذا قال الحسن وقناة ومحمد بن إسحق والقول الأول أظهر والله أعلم لما قدمنا من قوله بعده (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) أى وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار ثم أوعدهم بالعذاب الأليم فقال (سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم)

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لَيَذْلَبُنَّهُمْ قُلْتُ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاكُمْ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

ثم بين تعالى الأعذار التى لا حرج على من قعد معها عن القتال فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه وهو الضعف فى التركيب الذى لا يستطيع معه الجهاد فى الجهاد ومنه العمى والعرج ونحوهما ولهذا بدأ به ومنها ما هو عارض بسبب مرض عن له فى بدنه شغله عن الخروج فى سبيل الله أو بسبب فقره لا يقدر على التجهيز للحرب فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا فى حال قعودهم ولم يرجفوا بالناس ولم يشيطوهم وهم محسنون فى حالهم هذا ولهذا قال (ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم) وقال سفيان الثورى عن عبد العزيز بن رفيع عن أبي ثمامة رضى الله عنه قال: قال الحواريون يا روح الله أخبرنا عن الناصح لله ؟ قال الذى يؤثر حق الله على حق الناس ، وإذا حدث له أمران أو بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة بدأ بالذى للآخرة ثم تفرغ للذى للدنيا ، وقال الأوزاعى خرج الناس إلى الاستسقاء فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا معشر من حضر الستم مقرين بالاساءة ؟ قالوا اللهم نعم فقال اللهم إنا نسمعك تقول (ما على المحسنين من سبيل) اللهم وقد أقررنا بالاساءة فاغفر لنا وارحمنا واسقنا ، ورفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا ، وقال قتادة نزلت هذه الآية فى عائذ بن عمرو المزنى حدثنا ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام بن عبيد الله الرازى حدثنا ابن جابر عن ابن فروة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن زيد بن ثابت قال كنت أكتب لرسول الله ﷺ فكنت أكتب براءة فإني لو اضع القلم على أذنى إذ أمرنا بالقتال فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه إذ جاء أعمى فقال كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى ؟ فنزلت (ليس على الضعفاء) الآية وقال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية ، وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل بن مقرن المزنى فقالوا يا رسول الله احمنا فقال لهم « والله لا أجد ما أحملكم عليه » فتولوا وهم سيكون وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا تحملا . فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم فى كتابه فقال (ليس على الضعفاء) إلى قوله (فهم لا يعلمون) وقال مجاهد فى قوله (ولا على الذين إذا ما اتوك لتحملهم) نزلت فى بنى مقرن من مزينة ، وقال محمد بن كعب كانوا سبعة نفر من بنى عمرو بن عوف سالم بن عوف ومن بنى واقف حرمى بن عمرو ومن بنى مازن بن النجار عبد الرحمن بن كعب ويكنى أبا ليلى ومن بنى للمعلى فضل الله ومن بنى سلمة عمرو بن عتبة وعبد الله بن عمرو المزنى ، وقال محمد بن إسحق فى سياق غزوة تبوك ثم إن رجلا من

المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم البكاءون وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بني عمرو بن عوف سالم ابن عمير وعليه بن زيد أخو بني حارثة وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب أخو بني مازن بن النجار وعمرو بن الحام بن الجوح أخو بني سلمة وعبد الله بن المغفل المزني وبعض الناس يقول بل هو عبد الله بن عمرو المزني وحرى بن عبد الله أخو بني واقف وعياض بن سارية الفزاري فاستحملوا رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة فقال (لا أجد ما أحملك عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون) وقال ابن أبي حاتم حدثنا عمرو بن الأودي حدثنا وكيع عن الربيع عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ « لقد خلفتم بالمدينة أقواما ما أنفقتم من نفقة ولا قطعتم واديا ولا نلتهم من عدو نيلا إلا وقد شركوكم في الأجر » ثم قرأ (ولا على الدين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملك عليه) الآية ، وأصل الحديث في الصحيحين من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال « إن بالمدينة أقواما ما قطعتم واديا ولا سرتهم سيرا إلا وهم معكم » قالوا وهم بالمدينة ؟ قال « نعم حبسهم العذر » وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ « لقد خلفتم بالمدينة رجالا ما قطعتم واديا ولا سلككم طريقا إلا شركوكم في الأجر حبسهم المرض » ورواه مسلم وابن ماجه من طرق عن الأعمش به ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء وأنهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوائف في الرحال (وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون)

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا أُنْقَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم (قل لا تعتذروا لن تؤمن لكم) أى لن تصدقكم (قد نبأنا الله من أخباركم) أى قد أعلمنا الله أحوالكم (وسيرى الله عملكم ورسوله) أى سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا (ثم تردون إلى علم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) أى فيخبركم بأعمالكم خيرا وشرها ويخبركم عليها ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون لكم معتذرين لتعرضوا عنهم فلا تؤنبوهم فأعرضوا عنهم احتقارا لهم إنهم رجس أى خبث نجس بواطنهم واعتقاداتهم ومآواهم في آخرتهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون أى من الآثام والخطايا وأخبر أنهم إن رضوا عنهم بحلفهم لهم (فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) أى الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسوله فإن الفسق هو الخروج ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها من جحرها للافساد ، ويقال فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

أخبر تعالى أن في الأعراب كفارا ومنافقين ومؤمنين ، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد وأجدر أى

أخرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله كما قال الأعمش عن إبراهيم قال : جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند فقال الأعرابي والله إن حديثك ليحجني ، وإن يدك لتريني . فقال زيد ما يريك من يدي إنها الشمال ؟ فقال الأعرابي والله ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال ، فقال زيد بن صوحان : صدق الله (الأعراب أشد كفرا ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا سفيان عن أبي موسى عن وهب بن منبه عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من سكن البادية جفا ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتن » ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من طرق عن سفيان الثوري به ، وقال الترمذي حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الثوري ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولا ، وإنما كانت البعثة من أهل القرى كما قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى) ولما أهدي ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ﷺ فرد عليه أضعافها حتى رضى ، قال « لقد هممت أن لا أقبل هدية إلا من قرشي أو ثقي أو أنصاري أو دوسي » لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن مكة والطائف والمدينة واليمن فهم ألطف أخلاقا من الأعراب لما في طباع الأعراب من الجفاء . (حديث الأعرابي في تقبيل الولد) قال حديث مسلم حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب قال حدثنا أبو أسامة وابن نمير عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أئقبلون صيانتكم ؟ قالوا نعم قالوا لكنا والله ما قبل فقال رسول الله ﷺ « وأملك^(١) إن كان الله نزع منكم الرحمة » وقال ابن نمير « من قلبك الرحمة » وقوله (والله علم حكيم) أى علم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم ، حكيم فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق لا يستل عما يفعل لعلمه وحكمته ، وأخبر تعالى أن منهم (من يتخذ ما ينفق) أى فى سبيل الله (مغرمًا) أى غرامة وخسارة (ويتربص بكم الدوائر) أى ينتظر بكم الحوادث والآفات (عليهم دائرة السوء) أى هى منعكسه عليهم والسوء دائر عليهم (والله سميع عليم) أى سميع لدعاء عباده عليهم عن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان ، وقوله (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول) هذا هو القسم الممدوح من الأعراب وهم الذين يتخذون ما ينفقون فى سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله ويتقربون بذلك دعاء الرسول لهم (ألا إنها قربة لهم) أى ألا إن ذلك حاصل لهم (سيد خلهم الله فى رحمته إن الله غفور رحيم) ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم والنعيم المقيم ، قال الشعبي : السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية ، وقال أبو موسى الأشعري وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين والحن وقناة هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال محمد بن كعب القرظي : مر عمر بن الخطاب برجل يقرأ هذه الآية ، (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار) فأخذ عمر بيده فقال : من أقرأك هذا ؟ فقال أبى بن كعب فقال لا تفارقنى حتى أذهب بك إليه ، فلما جاءه قال عمر أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا ؟ قال نعم . قال : وسمعتها من رسول الله ﷺ ؟ قال نعم . قال : لقد كنت أرى أنا رفعا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا فقال أبى تصديق هذه الآية فى أول سورة الجمعة (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم) وفى سورة الحشر (والذين جاءوا من بعدهم) الآية وفى الأنفال (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا معكم) الآية رواه ابن جرير قال وذكر عن الحسن البصرى أنه كان يقرأها برفع الأنصار عطفًا على السابقين الأولون ، فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضى عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم

(١) وفى البخارى أو أملك لك إن نزع الله من قلبك الرحمة

ياحسان : فياويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم ، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم أعنى الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رضى الله عنه فان الطائفة المخدولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويغضونهم ويسبونهم . عياذا بالله من ذلك . وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضى الله عنهم ؟ وأما أهل السنة فانهم يترضون ممن رضى الله عنه ويسبون من سبه الله ورسوله ويوالون من يوالى الله ويعادون من يعادى الله وهم متبعون لا مبتدعون ويقتدون ولا يبتدون ، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنين

﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّةً تَبَيَّنَ لَكُمْ يَرُدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾

يخبر تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون ، وفي أهل المدينة أيضا منافقون (مردوا على النفاق) أى مروا واستمروا عليه ومنه يقال شيطان مريد ومارد ويقال تمرد فلان على الله أى عتا وتجبر ، وقوله (لا تعلمهم نحن نعلمهم) لاينا في قوله تعالى (ولو نشاء لأرينا كههم فلعرقتهم بسباهم ولتعرفنهم في لحن القول) لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقا وإن كان يراه صباحا ومساء ، وشاهد هذا بالصحة ما رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن النعمان بن سالم عن رجل عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال قلت : يا رسول الله إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة فقال « لتأتينكم أجوركم ولو كنتم في جحر ثعلب » وأصغى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم برأسه فقال « إن في أصحابي منافقين » ومعناه أنه قد ييوح بعض المنافقين والمرجفين من الكلام بما لا صحة له ومن مثلهم صدر هذا الكلام الذى سمعه جبير بن مطعم ، وتقدم في تفسير قوله (وهموا بما لم ينالوا) أنه صلى الله عليه وسلم أعلم حذيفة بأعيان أربعة عشرة أو خمسة عشر منافقا وهذا تخصيص لا يقتضى أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم والله أعلم ، وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عمر البيرونى من طريق هشام بن عمار حدثنا صدقة بن خالد حدثنا ابن جابر حدثني شيخ بيروت يكنى أبا عمر أظنه حدثني عن أبي الدرداء أن رجلا يقال له حرمة أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : الإيمان ههنا وأشار بيده إلى لسانه : والنفاق ههنا وأشار بيده إلى قلبه ولم يذكر الله إلا قليلا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل له لسانا ذا كرا ، وقلبا شاكرا ، وارزقه حبي وحب من يحبني ، وصير أمره إلى خير » فقال يا رسول الله : إنه كان لى أصحاب من المنافقين وكنت رأسا فيهم أفلا أتيتك بهم ؟ قال « من أنا استغفرنا له ، ومن أصر فالله أولى به ، ولا تحرقن على احد سترا » قال وكذا رواه أبو أحمد الحاكم عن أبي بكر الباغندي عن هشام بن عمار به ، وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة في هذه الآية أنه قال ما بال أقوام يتكلفون علم الناس فلان في الجنة وفلان في النار فاذا سألت أحدكم عن نفسه قال لا أدري لعمرى أنت بنصيبك أعلم منك بأحوال الناس ولقد تكلفت شيئا ما تكلفه الأنبياء قبلك ، قال نبي الله نوح عليه السلام (وما علمى بما كانوا يعملون) وقال نبي الله شعيب عليه السلام (بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ) وقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (لا تعلمهم نحن نعلمهم) وقال السدي عن أبي مالك عن ابن عباس في هذه الآية قال : قام رسول صلى الله عليه وسلم خطيبا يوم الجمعة فقال « اخرج يا فلان فإنك منافق ، وأخرج يا فلان فانك منافق » فأخرج من المسجد ناسا منهم فضجهم ، فجاء عمر وهم يخرجون من المسجد اختبأ منهم حياء أنه لم يشهد الجمعة وظن أن الناس قد انصرفوا ، واختبأوا هم من عمر ظنوا أنه قد علم بأمرهم فجاء عمر فدخل المسجد فاذا الناس لم يصلوا ، فقال له رجل من المسلمين : أبشر يا عمر قد فصح الله المنافقين اليوم : قال ابن عباس فهذا

العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد ، والعذاب الثاني عذاب القبر ، وكذا قال الثوري عن السدي عن أبي مالك نحو هذا ، وقال مجاهد في قوله (سنعذبهم مرتين) يعنى القتل والسبي ، وقال في رواية بالجوع وعذاب القبر ، ثم يردون إلى عذاب عظيم ، وقال ابن جريج عذاب الدنيا وعذاب القبر ثم يردون إلى عذاب عظيم النار ، وقال الحسن البصري عذاب في الدنيا وعذاب في القبر ، وقال عبد الرحمن بن زيد : أما عذاب في الدنيا فالأموال والأولاد وقرأ قوله تعالى (فلا نعجزك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا) فهذه المصائب لهم عذاب وهي للمؤمنين أجر ، وعذاب في الآخرة في النار (ثم يردون إلى عذاب عظيم) قال النار ، وقال محمد بن إسحق (سنعذبهم مرتين) قال هو فيما بلغني ما هم فيه من أمر الإسلام وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حسبة ، ثم عذابهم في القبور إذا صاروا إليها ، ثم العذاب العظيم الذي يردون إليه عذاب الآخرة والخلد فيه ، وقال سعيد عن قتادة في قوله (سنعذبهم مرتين) عذاب الدنيا وعذاب القبر (ثم يردون إلى عذاب عظيم) وذكر لنا أن نبي الله ﷺ أسر إلى حذيفة بائني عشر رجلا من المنافقين فقال ستة منهم تكفيهم الديلة سراج من نار جهنم يأخذ في كتف أحدهم حتى يفضي إلى صدره ، وستة يموتون موتا . وذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا مات رجل ممن يرى أنه منهم نظر إلى حذيفة فينصلي عليه وإلا تركه وذكر لنا أن عمر قال لحذيفة أنشدك الله أنهم أنا ؟ قال لا ولا أومن منها أحدا بعدك

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

لما بين تعالى حال المنافقين المخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتكديبا وشكا شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلا وميلا إلى الراحة مع إيمانهم وتصديقهم بالحق فقال (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) أى أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم ولهم أعمال أخر صالحة خلطوا هذه بتلك وهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه ، وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين إلا أنها عامة في كل المذنبين الخطائين المخلطين للمؤمنين ، وقد قال مجاهد إنها نزلت في أبي لبابة لما قال لبنى قريظة إنه الدج وأشار بيده إلى حلقه ، وقال ابن عباس (وآخرون) نزلت في أبي لبابة وجماعة من أصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقال بعضهم أبو لبابة وخمسة معه ، وقيل وسبعة معه ، وقيل وتسعة معه ، فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوته ربطوا أنفسهم بسوارى المسجد وحلفوا لا يخلهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أنزل الله هذه الآية (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) أطلقهم رسول الله ﷺ وعفاهم ، وقال البخارى حدثنا مؤمل بن هشام حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا عوف حدثنا أبو رجاء حدثنا سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ لنا « أتاني الليلة آتيان فابتهتاني فأتنيها بي إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة فتلقتنا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطر كأفبح ما أنت راء قالوا لهم اذهبوا فقعوا في ذلك النهر فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة ، قالوا هذه جنة عدن وهذا منزلك ، قالوا وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فانهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم » هكذا رواه البخارى مختصرا في تفسير هذه الآية

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكهم بها وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير في أموالهم إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون وإنما كان هذا خاصا بالرسول صلى الله عليه وسلم ولهذا احتجوا بقوله

تعالى (خذ من أموالهم صدقة) الآية ، وقد رد عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد أبو بكر الصديق وسائر الصحابة وقائلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال الصديق : والله لو منعوني عناقا - وفي رواية عقلا - كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه ، وقوله (وصل عليهم) أى ادع لهم واستغفر لهم كما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن أبي أوفى قال : كان النبي ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم فأتاه أبي بصدقته فقال « اللهم صل على آل أبي أوفى » وفي الحديث الآخر أن امرأة قالت يا رسول الله صل على ولى زوجى فقال « صلى الله عليك وعلى زوجك » وقوله (إن صلاتك سكن لهم) قرأ بعضهم صلواتك على الجمع وآخرون قرأوا إن صلاتك على الافراد (سكن لهم) قال ابن عباس رحمة لهم ، وقال قتادة وقار ، وقوله (والله سميع) أى لدعائك (عليم) أى بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له ، قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا أبو العميس عن أبي بكر بن عمرو بن عتبة عن ابن الحذيفة عن أبيه أن النبي ﷺ كان إذا دعا لرجل أصابته وأصابته ولده وولد ولده ، ثم رواه عن أبي نعيم عن مسعر عن أبي بكر بن عمرو بن عتبة عن ابن الحذيفة قال مسعر وقد ذكره مرة عن حذيفة إن صلاة النبي ﷺ لتدرك الرجل وولده وولد ولده . وقوله (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات) هذا تهيج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منها يحط الذنوب ويمحسها ويمحسها ، وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله تعالى يتقبلها يمينه فيربها لصاحبها حتى تصير النمرة مثل أحد ، كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ كما قال الثوري ووكيع كلاهما عن عباد بن منصور عن القاسم بن محمد أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ « إن الله يقبل الصدقة ويأخذها يمينه فيربها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره حتى إن اللقمة لتكون مثل أحد » وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات) وقوله (يمحق الله الربا ويربى الصدقات) وقال الثوري والأعمش كلاهما عن عبد الله بن السائب عن عبد الله بن أبي قتادة قال : قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه إن الصدقة تقع في يد الله عز وجل قبل أن تقع في يد السائل ثم قرأ هذه الآية (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات) وقد روى ابن عساکر في تاريخه في ترجمة عبد الله بن الشاعر السكسكى الدمشقي وأصله حمصى وكان أحد الفقهاء روى عن معاوية وغيره ، وحكى عنه حوشب بن سيف السكسكى الحمصى قال غزا الناس في زمان معاوية رضى الله عنه وعليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فغل رجل من المسلمين مائة دينار رومية . فلما قفل الجيش ندم وأنى الأمير فأبى أن يقبلها منه وقال : قد تفرق الناس ولن أقبلها منك حتى تأتى الله بها يوم القيامة فجعل الرجل يستقرى الصحابة فيقولون له مثل ذلك ، فلما قدم دمشق ذهب إلى معاوية ليقلها منه فأبى عليه فخرج من عنده وهو يكي ويسترجع فربعده الله بن الشاعر السكسكى فقال له ما ييكيك ؟ فذكر له أمره ، فقال له أومطيعى أنت ؟ فقال نعم ، فقال اذهب إلى معاوية فقل له أقبل منى خمسك فادفع اليه عشرين دينارا وانظر إلى الثمانين الباقية فتصدق بها عن ذلك الجيش فإن الله يقبل التوبة عن عباده وهو أعلم بأسمائهم ومكانهم ، ففعل الرجل فقال معاوية رضى الله عنه لأن أكون أفتيته بها أحب إلى من كل شيء أملكه ، أحسن الرجل

﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

قال مجاهد : هذا وعيد يعنى من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى المؤمنين وهذا كائن لاحالة يوم القسامة كما قال (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) وقال تعالى (يوم تبلى السرائر) وقال (وحصل ما فى الصدور) وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس فى الدنيا كما قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد مرفوعا عن رسول الله صلى الله عليه

وسلم أنه قال « لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لأخرج الله عمله للناس كائنًا ما كان » وقد ورد : أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ كما قال أبو داود الطيالسي : حدثنا الصلت ابن دينار عن الحسن عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم في قبورهم فإن كان خيرا استبشروا به وإن كان غير ذلك قالوا اللهم ألهمهم أن يعملوا بطاعتك ، وقال الإمام أحمد أنبأنا عبد الرزاق عن سفيان عمن سمع أنسًا يقول : قال النبي ﷺ « إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات فإن كان خيرا استبشروا به وإن كان غير ذلك قالوا اللهم لا تمنهم حتى تهديهم كما هديتنا » وقال البخاري قالت عائشة رضي الله عنها : إذا أحببك حسن عمل امرئ مسلم فقل (اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) وقد ورد في الحديث شبيه بهذا قال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا حميد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا بهم ينجم له ، فإن العامل يعمل زمانًا من عمره أو برهة من دهره يعمل صالح لو مات عليه دخل الجنة ثم يتحول فيعمل عملا سيئا ، وإن العبد يعمل البرهة من دهره بعمل سيئ لو مات عليه دخل النار ثم يتحول فيعمل عملا صالحا ، وإذا أراد الله بعبد خيرا استعمله قبل موته » قالوا يا رسول الله وكيف يستعمله ؟ قال « يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه » تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه

﴿ وَآخِرُونَ مُرْجُونَ لَإِمْرٍ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغير واحد : هم الثلاثة الذين خلفوا أي عن التوبة وهم مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلا وميلا إلى الدعة والحفظ وطيب الخمار والظلال لا شكا ونفاق فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسوارى كما فعل أبو لبابة وأصحابه وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء وأرجى هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية وهي قوله (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار) الآية (وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت) الآية كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك ، وقوله (إما يعذبهم وإما يتوب عليهم) أي هم تحت عفو الله إن شاء فعل بهم هذا وإن شاء فعل بهم ذلك ، ولكن رحمته تغلب غضبه (والله عليم حكيم) أي عليم بمن يستحق العقوبة بمن يستحق العفو ، حكيم في أفعاله وأقواله لا إله إلا هو ولا رب سواه

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّسَجِدُ أَشْسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾

سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير ، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجرا إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر شرق العين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها وخرج فارا إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أحد فكان من أمر المسلمين ما كان وامتنعهم الله عز وجل ، وكانت العاقبة للمتقين ، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوق في إحداهن رسول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه ، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخطبهم

واستألمهم إلى نصره ومواقفته ، فلما عرفوا كلامه قالوا لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله ، ونالوا منه وسبوه فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومي بعدى شر ، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرد ، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيدا طريدا فنالته هذه الدعوة ، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ورأى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم في ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي صلى الله عليه وسلم فوعده ومناه وأقام عنده وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يهدمهم ويمنعهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويغلبه ويرده عما هو فيه ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك ، وجاءوا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأبى إليهم فيصل في مسجدهم ليجتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية فعصمه الله من الصلاة فيه فقال « إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله » فلما قفل عليه السلام راجعا إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بنحس مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى . فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية هم أناس من الأنصار بنوا مسجدا فقال لهم أبو عامر ابنوا مسجدا واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح فأبى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فأبى بجند من الروم وأخرج محمدا وأصحابه ، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلى فيه وتدعو لنا بالبركة ، فأنزل الله عز وجل (لا تقم فيه أبدا) إلى قوله (الظالمين) وكذا روى عن سعيد بن جبيرة ومجاهد وعروة بن الزبير وقنادة وغير واحد من العلماء ، وقال محمد بن إسحق بن يسار عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمرو بن قتادة وغيرهم قالوا أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني من تبوك حتى نزل بنى أوان بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار ، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا يا رسول الله إنا قد بنينا مسجدا لدى العلة والحاحة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه فقال « إني على جناح سفر وحال شغل » أو كما قال رسول الله ﷺ « ولو قد قدمنا إن شاء الله تعالى أتيناكم فصلينا لكم فيه » فلما نزل بنى أوان أتاه خبر المسجد فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف ومعن بن عدي أو أخاه عامر بن عدي أخا بلعجلان فقال « انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقا » فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم . فقال مالك لمعن أنظرنى أخرج إليك بنار من أهلي فدخل أهله فأخذ سيفا من الدخول فأشعل فيه نارا ثم خرجا يشندان حتى دخلا المسجد وفيه أهله فحرقا وهدماه وتفرقوا عنه ، ونزل فيهم من القرآن ما نزل (والذين اتخذوا مسجدا ضارا وكفرا) إلى آخر القصة . وكان الذين بنوه اثني عشر رجلا خدام بن خالد بن عبيد بن زيد أحد بني عمرو بن عوف ومن داره أخرج مسجد الشقاق ، وثلعة بن حاطب من بني عبيد وموالى بني أمية بن زيد ومعتب بن قشير من بني ضبيعة بن زيد ، وأبو حبيبة بن الأزعر من بني ضبيعة بن زيد وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف من بني عمرو بن عوف وحارثة بن عامر وابناه مجمع بن حارثة وزيد بن حارثة ونبتل الحارث وهم من بني ضبيعة وخرج وهم من بني ضبيعة ويحاذ بن عمران وهو من بني ضبيعة ووديع بن ثابت وموالى بني أمية رهط أوى لبابة بن عبد المنذر . وقوله (وليحلفن) أى الدين بنوه (إن أردنا إلا الحسنى) أى ما أردنا بينا أنه إلا خيرا ورققا بالناس قال الله تعالى (والله يشهد إنهم لكاذبون) أى فيما قصدوا وفيما نوا وإمما بنوه ضارا لمسجد قباء وكفرا بالله وتفرقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وهو أبو عامر الفاسق الذي يقال له الراهب لعنه الله ، وقوله (لا تقم فيه أبدا) نهى له صلى الله عليه وسلم

وسلم والأمة تبع له في ذلك عن أن يقوم فيه أى يصلى أبداً . ثم حثه على الصلاة بمسجد قباء الذى أسس من أول يوم بنيانه على التقوى وهى طاعة الله وطاعة رسوله وجمعا لكلمة المؤمنين ومعقلا وموثلا للإسلام وأهله ، ولهذا قال تعالى (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه) والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « صلاة في مسجد قباء كعمرة » وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يزور مسجد قباء راكباً ومشياً ، وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بناه وأسس أول قدمه ونزوله على بنى عمرو بن عوف كان جبريل هو الذى عين له جهة القبلة فالتفت إليه

وقال أبو داود حدثنا محمد بن العلاء حدثنا معاوية بن هشام عن يونس بن الحارث عن إبراهيم بن أبي ميمونة عن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال « نزلت هذه الآية في أهل قباء (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) » قال - كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية . ورواه الترمذى وابن ماجه من حديث يونس بن الحارث وهو ضعيف ، وقال الترمذى غريب من هذا الوجه ، وقال الطبرانى حدثنا الحسن بن على العمري حدثنا محمد بن حميد الرازى حدثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحق عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) بعث رسول الله ﷺ إلى عويم بن ساعدة فقال « ما هذا الطهور الذى أثنى الله عليكم » فقال يارسول الله ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه أو قال مقعدته فقال النبي ﷺ « هو هذا » وقال الإمام أحمد حدثنا حسن بن محمد حدثنا أبو أويس حدثنا شرحبيل عن عويم بن ساعدة الأنصارى أنه حدثه أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال « إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجدكم فما هذا الطهور الذى تطهرون به ؟ » فقالوا والله يارسول الله ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا ، ورواه ابن خزيمة في صحيحه ، وقال هشيم عن عبد الحميد المدنى عن إبراهيم بن المعلى الأنصارى أن رسول الله ﷺ قال لعويم بن ساعدة « ما هذا الذى أثنى الله عليكم (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) » الآية قالوا يارسول الله إنما نغسل الأدبار بالماء ، وقال ابن جرير حدثني محمد بن عمار الأسدى حدثنا محمد ابن سعد عن إبراهيم بن محمد عن شرحبيل بن سعد قال : سمعت خزيمة بن ثابت يقول : نزلت هذه الآية (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) والله يحب المطهرين (قال كانوا يغسلون أدبارهم من الغائط

(حديث آخر) قال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا يحيى بن آدم حدثنا مالك يعنى ابن مغول سمعت سياراً أبا الحكم عن شهر بن حوشب عن محمد بن عبد الله بن سلام قال : تقدم قدم رسول الله ﷺ يعنى قباء فقال « إن الله عز وجل قد أثنى عليكم في الطهور خيراً أفلا تخبرونى ؟ » يعنى قوله (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) فقالوا يارسول الله إنما نجده مكتوباً علينا في التوراة الاستنجاء بالماء

وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف ، رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن عروة بن الزبير ، وقاله عطية العوفى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم والشعبي والحسن البصرى وثقة البغوى عن سعيد بن جبيرة وقتادة ، وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذى في جوف المدينة هو المسجد الذى أسس على التقوى ، وهذا صحيح . ولا منافاة بين الآية وبين هذا لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى ، ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده حدثنا أبو نعيم حدثنا عبد الله بن عامر الأسلمى عن عمران بن أبى أنس عن سهل بن سعد عن أبى بن كعب أن النبي ﷺ قال « المسجد الذى أسس على التقوى مسجدى هذا » تفرد به أحمد

(حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع حدثنا ربيعة بن عثمان التيمي عن عمران بن أبى أنس عن سهل بن سعد الساعدى قال : اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ في المسجد الذى أسس على التقوى فقال أحدهما

هو مسجد رسول الله ﷺ ، وقال الآخر هو مسجد قباء ، فأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فسألاه فقال « هو مسجدى هذا » تفرد به أحمد أيضا .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا ليث عن عمران بن أبي أنس عن سعيد بن أبي سعيد الحدرى قال : تمارى رجلان فى المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم فقال أحدهما هو مسجد قباء ، وقال الآخر هو مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هو مسجدى هذا » تفرد به أحمد (طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا إسحق بن عيسى حدثنا ليث حدثني عمران بن أبي أنس عن ابن أبي سعيد عن أبيه أنه قال : تمارى رجلان فى المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم فقال رجل هو مسجد قباء وقال الآخر هو مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هو مسجدى » وكذا رواه الترمذى والنسائى عن قتيبة عن الليث وصححه الترمذى ورواه مسلم كما سيأتى .

(طريق أخرى) قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى عن أنيس بن أبي يحيى حدثني أبي قال سمعت أبا سعيد الحدرى قال : اختلف رجلان رجل من بنى خدره ورجل من بنى عمرو بن عوف فى المسجد الذى أسس على التقوى فقال الحدرى هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال العمرى هو مسجد قباء فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن ذلك فقال « هو هذا المسجد » لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال فى ذلك يعنى مسجد قباء . (طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا يحيى عن أنيس قال أبو جعفر بن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا حميد الخراط المدنى سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن أبي سعيد فقلت كيف سمعت أباك يقول (١) فى المسجد الذى أسس على التقوى ؟ فقال إني أتيت رسول الله ﷺ فدخلت عليه فى بيت لبعض نسائه فقلت يا رسول الله : أين المسجد الذى أسس على التقوى ؟ قال فأخذ كفا من حصاء فضرب به الأرض ثم قال « هو مسجدكم هذا » ثم قال سمعت أباك يذكره ، رواه مسلم منفرداً به عن محمد بن حاتم عن يحيى بن سعيد به ، ورواه عن أبي بكر بن أبي شيبة وغيره عن حاتم بن إسماعيل عن حميد الخراط به ، وقد قال بأنه مسجد النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من السلف والخلف وهو مروى عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وزيد بن ثابت وسعيد بن المسيب ، واختاره ابن جرير ، وقوله (مسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) دليل على استحباب الصلاة فى المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له ، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين والعباد العاملين المحافظين على أسباغ الوضوء والنزاهة عن ملابس القاذورات .

وقد قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن عبد الملك بن عمير سمعت شيباً أبا روج يحدث عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم الصبح فقرأ الروم فيها فأوهم فلما انصرف قال « إنه يلبس علينا القرآن إن أقواماً منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء » ثم رواه من طريقين آخرين عن عبد الملك بن عمير عن شيبان بن روح من ذى الكلاع أنه صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم فذكره فدل هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام فى العبادة ويعين على إتمامها وإكمالها والقيام بمشروعاتها . وقال أبو العالية فى قوله تعالى (والله يحب المطهرين) إن الطهور بالماء الحسن ولكنهم المطهرون من الذنوب . وقال الأعمش التوبة من الذنوب والتطهر من الشرك ، وقد ورد فى الحديث المروى من طرق فى السنن وغيرها أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء « قد أثنى الله عليكم فى الطهور فماذا تصنعون ! » فقالوا تستنجى بالماء ، وقد قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا عبد الله بن شبيب حدثنا أحمد بن محمد بن عبد العزيز قال : وجدته فى كتاب أبي عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية فى أهل قباء (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) فسألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا إنا نتبع الحجارة بالماء . رواه البزار ، ثم قال تفرد به محمد بن عبد العزيز عن الزهرى ولم يرو عنه سوى ابنه (قلت) وإنما ذكرته بهذا

اللفظ لأنه مشهور بين الفقهاء ولم يعرفه كثير من المحدثين المتأخرين أو كلهم والله أعلم .

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

يقول تعالى لا يستوى من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ومن بنى مسجدا ضاررا وكفرا وتفرقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل فانما يبني هؤلاء بنيانهم على شفا جرف هار أى طرف حفيرة مثاله (فى نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين) أى لا يصلح عمل المفسدين . قال جابر بن عبد الله رأيت المسجد الذى بنى ضاررا يخرج منه الدخان على عهد رسول الله ﷺ ، وقال ابن جريج ذكر لنا أن رجلا حفروا فوجدوا الدخان الذى يخرج منه . وكذا قال قتادة وقال خلف بن ياسين الكوفي رأيت مسجد المنافقين الذى ذكره الله تعالى فى القرآن وفيه جحر يخرج منه الدخان وهو اليوم مزبلة ، رواه ابن جرير رحمه الله . وقوله تعالى (لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم) أى شكا ونفاقا بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع أورثهم نفاقا فى قلوبهم كما أشرب عابده العجل حبه ، وقوله (إلا أن تقطع قلوبهم) أى بموتهم قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وزيد بن أسلم والسدى وحبيب بن أبى ثابت والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد من علماء السلف (والله عليم أى بأعمال خلقه (حكيم) فى مجازاتهم عنها من خير وشر

﴿ إِنْ اللَّهُ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمْ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

يخبر تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوا لها فى سبيله الجنة وهذا من فضله وكرمه وإحسانه فانه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبيده الطيعين له . ولهذا قال الحسن البصرى وقتادة بايعهم والله فأغلى ثمنهم . وقال شمر بن عطية مامن مسلم إلا والله عزوجل فى عنقه بيعة وفى بها أومات عليها ثم تلا هذه الآية . ولهذا يقال من حمل فى سبيل الله بايع الله أى قبل هذا العقد ووفى به . وقال محمد بن كعب القرظى وغيره قال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى ليلة العقبة اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال « اشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا . واشترط لنفسى أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » قالوا فما لنا إذا فعلنا ذلك قال « الجنة » قالوا ربح البيع لا تقبل ولا نستقبل ، فنزلت (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم) الآية وقوله (يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون) أى سواء قتلوا أو قتلوا ، أو اجتمع لهم هذا وهذا فقد وجبت لهم الجنة . ولهذا جاء فى الصحيحين « وتكفل الله لمن خرج فى سبيله لا يخرج به إلا جهاد فى سبيل وتصدق برسلى بأن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى منزله الذى خرج منه نائلا ما نال من أحر أو غنيمة » وقوله (وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن) تأكيد لهذا الوعد وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة وأنزله على رسوله فى كتبه الكبار وهى التوراة المنزلة على موسى . والإنجيل المنزلة على عيسى . والقرآن المنزل على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وقوله (ومن أوفى بعهد من الله) فانه لا يخلف الميعاد . هذا كقوله (ومن أصدق من الله حديثا) (ومن أصدق من الله قولا) ولهذا قال (فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو

الفوز العظيم) أى فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد بالفوز العظيم والنعيم المقيم .

﴿التَّائِبُونَ الْعَبَدُونَ الْحَامِدُونَ السَّاجِدُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجليلة والحلال الجليلة (التائبون) من الذنوب كلها التاركون للفواحش (العابدون) أى القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها وهى الأقوال والأفعال فمن أخص الأقوال الحمد فلماذا قال (الحامدون) ومن أفضل الأعمال الصيام وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع وهو المراد بالسياحة ههنا ولهذا قال (السائحون) كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك فى قوله تعالى (سائحات) أى صائحات وكذا الركوع والسجود وهما عبارة عن الصلاة ولهذا قال (الراكعون الساجدون) وهم مع ذلك ينفعون خلق الله ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع العلم بما ينبغى فعله ويجب تركه وهو حفظ حدود الله فى تحليله وعهره علما وعملا فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق ولهذا قال (وبشر المؤمنين) لأن الإيمان يشمل هذا كله والسعادة كل السعادة لمن اتصف به .

﴿بيان أن المراد بالسياحة الصيام﴾ قال سفيان الثوري عن عاصم عن ذر عن عبد الله بن مسعود قال (السائحون) الصائمون وكذا روى عن سعيد بن جبير والعمري عن ابن عباس وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس كل ما ذكر الله فى القرآن السياحة هم الصائمون وكذا قال الضحاك رحمه الله وقال ابن جرير حدثنا أحمد بن إسحق حدثنا أبو أحمد حدثنا إبراهيم بن يزيد عن الوليد بن عبد الله عن عائشة رضى الله عنها قالت : سياحة هذه الأمة الصيام ، وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وعبد الرحمن السلمي والضحاك بن مزاحم وسفيان بن عيينة وغيرهم أن المراد بالسائحين الصائمون ، وقال الحسن البصري (السائحون) الصائمون شهر رمضان وقال أبو عمرو العبدى (السائحون) الذين يديمون الصيام من المؤمنين ، وقد ورد فى حديث مرفوع نحو هذا وقال ابن جرير حدثني محمد بن عبد الله بن بزيع حدثنا حكيم بن حزام حدثنا سليمان عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « السائحون هم الصائمون » وهذا الموقوف أصح وقال أيضا حدثني يونس عن ابن وهب عن عمر بن الخطاب عن عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير قال سئل النبي ﷺ عن السائحين فقال « هم الصائمون » وهذا مرسل جيد وهذا أصح الأقوال وأشهرها وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد وهو ما روى أبو داود فى سننه من حديث أبي أمامة أن رجلا قال يا رسول الله ائذن لى فى السياحة فقال النبي ﷺ « سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله » وقال ابن المبارك عن ابن لهيعة أخبرنى عمارة بن غزية أن السياحة ذكرت عند رسول الله ﷺ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أبذلنا الله بذلك الجهاد فى سبيل الله والتكبير على كل شرف » وعن عكرمة أنه قال : هم طلبة العلم ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المهاجرون رواها ابن أبي حاتم وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة فى الأرض والتفرد فى شواقي الجبال والكهوف والبرارى فان هذا ليس بمشروع إلا فى أيام الفتن والزلازل فى الدين كما ثبت فى صحيح البخارى عن أبي سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال « يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شرف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن » وقال العمري وعلى بن أبي طلحة عن ابن عباس فى قوله (والحافظون لحدود الله) قال القائمون بطاعة الله وكذا قال الحسن البصري وعنه رواية (الحافظون لحدود الله) قال لفرائض الله وفى رواية القائمون على أمر الله

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ

أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١٢٧﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن ابن السيب عن أبيه قال لما حضرت أنا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال « أي عم ، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فقال أنا على ملة عبد المطلب فقال النبي ﷺ « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » فنزلت (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربي من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) قال ونزلت فيه (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) أخرجاه . وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن آدم أخبرنا سفيان عن أبي إسحق عن أبي الخليل عن علي رضي الله عنه قال : سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت أيستغفر الرجل لأبويه وهما مشركان ؟ فقال أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه ؟ . فذكرت ذلك للنبي ﷺ فنزلت (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) الآية قال لما مات فلا أدري قاله سفيان أو قاله إسرائيل أو هو في الحديث لما مات قلت : هذا ثابت عن مجاهد أنه قال لما مات . وقال الإمام أحمد : حدثنا الحسن بن موسى حدثنا زهير حدثنا زيد بن الحارث اليامي عن محارب بن دثار عن ابن بريدة عن أبيه قال كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ونحن في سفر فنزل بنا ونحن قريب من ألف راك فصلى ركعتين ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان فقام إليه عمر بن الخطاب وفداه بالأب والأم وقال : يا رسول الله مالك ؟ قال « إني سألت ربي عز وجل في الاستغفار لأي فلما يأذن لي فدمعت عيناى رحمة لها من النار وإني كنت نهيتكم عن ثلاث : نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها لتذكركم زيارتها خيراً . ونهيتكم عن لحوم الأضاحى بعد ثلاث فكلوها وأمسكوا ما شئتم ، ونهيتكم عن الأشربة في الأوعية فاشربوا في أى وعاء شئتم ولا تشربوا مسكراً » وروى ابن جرير من حديث علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن النبي ﷺ لما قدم مكة أتى رسم قبر فجلس إليه فجعل يخطب ثم قام مستعبراً فقلنا يا رسول الله إنا رأينا ما صنعت . قال « إني استأذنت ربي في زيارة قبر أى فأذن لي واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي » فما رثى باكياً أكثر من يومئذ . وقال ابن أبي حاتم في تفسيره حدثنا أبو حدثنا خالد بن خداح حدثنا عبد الله بن وهب عن ابن جريج عن أيوب بن هانيء عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى المقابر فاتبعناه فجاء حتى جلس إلى قبر منها فناداه طويلاً ثم بكى فبكينا لبكائه ثم قام فقام إليه عمر بن الخطاب فدعاه ثم دعانا فقال « ما أبكاكم ؟ » فقلنا بكينا لبكائك . قال « إن القبر الذى جلست عنده قبر آمنة وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي » ثم أورده من وحه آخر ثم ذكر من حديث ابن مسعود قريباً منه . وفيه « وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي وأنزل على (ما كان للنبي والذين آمنوا) الآية . فأخذنى ما يأخذ الولد للوالد : وكنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فانها تذكر الآخرة »

(حديث آخر) في معناه قال الطبراني : حدثنا محمد بن علي بن المروزي حدثنا أبو الدرداء عبد العزيز بن منيب حدثنا إسحق بن عبد الله بن كيسان عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما أقبل من غزوة تبوك واعتمر فلما هبط من ثنية عسفان أمر أصحابه : أن استلذوا إلى العقبة حتى أرجع إليكم ، فذهب فنزل على قبر أمه فنادى وبه طويلاً ثم إنه بكى فاشتد بكاءه وبكى هولاء لبكائه وقالوا ما بكى نبي الله بهذا المكان إلا وقد أحدث الله في أمته شيئاً لا تطيقه فلما بكى هولاء قام فرجع إليهم فقال « ما يبكيكم ؟ » قالوا يا نبي الله بكينا لبكائك فقلنا لعله أحدث في أمته شيء لا تطيقه ، قال « لا ، وقد كان بعضه ولكن نزلت على قبر أمي فسألت الله أن يأذن لي في شفاعتها يوم القيامة فأبى الله أن يأذن لي فرحمها وهى أى فكيت ثم جاءني جبريل فقال (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) فتبرأ أنت من أمك كما تبرأ إبراهيم من أبيه فرحمها وهى أى

ودعوت ربي أن يرفع عن أمي أربعا فرفع عنهم اثنتين وأني أن يرفع عنهم اثنتين : دعوت ربي أن يرفع عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض وأن لا يلبسهم شيئا وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض فرفع الله عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض وأني الله أن يرفع عنهم القتل والهرج » وإنما عدل إلى قبر أمه لأنها كانت مدفونة تحت كداء وكانت عسفاً لهم ، وهذا حديث غريب وسياق عجيب وأغرب منه وأشد نكارة ما رواه الخطيب البغدادي في كتاب السابق واللاحق بسند مجهول عن عائشة في حديث فيه قصة أن الله أحيا أمه فأمنت ثم عادت ، وكذلك ما رواه السهيلي في الروض بسند فيه جماعة مجهولون : إن الله أحيا له أباه وأمّه فأمنّا به . وقد قال الحافظ بن دحية : هذا الحديث موضوع يرده القرآن والإجماع ، قال الله تعالى (ولا الذين يموتون وهم كفار) وقال أبو عبد الله القرطبي : إن مقتضى هذا الحديث ورد على ابن دحية في هذا الاستدلال بما حاصله أن هذه حياة جديدة كما رجعت الشمس بعد غيوبتها فصلى على العصر قال الطحاوي وهو حديث ثابت يعني حديث الشمس قال القرطبي فليس إحياءهما يمتنع عقلا ولا شرعا قال وقد سمعت أن الله أحيا عمه أبا طالب فأمن به (قلت) وهذا كله متوقف على صحة الحديث فإذا صح فلا مانع منه والله أعلم . وقال العوفي عن ابن عباس في قوله (ما كان للنبي والدين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) الآية أن النبي ﷺ أراد أن يستغفر لأمه فنهاه الله عز وجل عن ذلك فقال « إن إبراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم قد استغفر لأبيه » فأنزل الله (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه) الآية ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية كانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية فأمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا ثم أنزل الله (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه) الآية وقال قتادة في الآية ذكر لنا أن رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا يا نبي الله إن من آباءنا من كان يحسن الجوار ويصل الأرحام ويفك العاني ويوفى بالدينم أفلا نستغفر لهم ؟ قال فقال النبي صلى الله عليه وسلم « بلى والله إنني لأستغفر لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه » فأنزل الله (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) حتى بلغ قوله (الجحيم) ثم عذرا لله تعالى إبراهيم عليه السلام فقال (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه) الآية قال وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال « قد أوحى الله إلي كلمات فدخلن في أذني وقرن في قلبي : أمرت أن لا أستغفر لمن مات مشركا ومن أعطى فضل ماله فهو خير له ومن أمسك فهو شر له ولا يلوم الله على كفاف » وقال الثوري عن الشيباني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : مات رجل يهودي وله ابن مسلم فلم يخرج معه فذكر ذلك لابن عباس فقال فكان ينبغي له أن يمشی معه ويدفنه ويدعو له بالصالح مادام حيا فإذا مات وكله إلى شأنه ثم قال (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه - إلى قوله - تبرأ منه) لم يدع . ويشهد له بالصحة ما رواه أبو داود وغيره عن علي رضي الله عنه ، لما مات أبو طالب قلت يا رسول الله إن عمك الشيخ الضال قد مات قال « اذهب فواره ولا عهدن شيئا حتى تأتيني » فذكر تمام الحديث ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما مرت به جنازة عمه أبي طالب قال « وصلتك رحمة يا عم » وقال عطاء بن أبي رباح : ما كنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة ولو كانت حبشية حبلى من الزنا لأنني لم أسمع الله حجب الصلاة إلا عن المشركين يقول الله عز وجل (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) الآية

وروى ابن جرير عن ابن وكيع عن أبيه عن عصمة بن رامل عن أبيه قال : سمعت أبا هريرة يقول رحم الله رجلا استغفر لأبي هريرة ولأمه قلت ولأبيه قال لا . قال إن أبي مات مشركا ، وقوله (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) قال ابن عباس ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وفي رواية لما مات تبين له أنه عدو لله وكذا قال مجاهد والضحاك وقاتدة وغيرهم رحمهم الله وقال عبيد بن عمير وسعيد بن جبير إنه تبرأ منه يوم القيامة حين يلقي أباه وعلى وجهه أبيه القفرة والغبرة فيقول يا إبراهيم إنني كنت أعصيك وإني اليوم لأعصيك فيقول أي ربي ألم تعدني أن لا تخزني يوم يبعثون ، فأخزى أخزى من أبي الأبعد فقال انظر إلى ما وراءك فإذا هو بذبح متلطح أي قد مسخ ضباعه يسحب بقوائمه ويلقى في النار . وقوله (إن إبراهيم لأواه حليم) قال سفيان الثوري وغير واحد عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبیش عن عبد الله بن مسعود أنه قال الأواه الدعاء وكذا روى من غير وجه عن ابن مسعود وقال ابن جرير

حدثني المثنى حدثنا الحجاج بن منهال حدثني عبد الحميد بن بهرام حدثنا شهر بن حوشب عن عبد الله بن شداد بن الهاد قال بينا النبي ﷺ جالس قال رجل يا رسول الله ما الأواء ؟ قال « المتضرع » قال (إن إبراهيم لأواء حلیم) ورواه ابن أبي حاتم من حديث ابن المبارك عن عبد الحميد بن بهرام به ولفظه قال الأواء المتضرع الدعاء . وقال الثوري عن سلمة بن كهيل عن مسلم البطيين عن أبي الغدير أنه سأل ابن مسعود عن الأواء فقال هو الرحيم ، وبه قال مجاهد وأبو ميسرة عمر بن شر حبيب والحسن البصري وقتادة وغيرهما أنه أي الرحيم أي بعباد الله . وقال ابن المبارك عن خالد عن عكرمة عن ابن عباس قال الأواء الموقن بلسان الحبشة ، وكذا قال العوفي عن ابن عباس أنه الموقن ، وكذا قال مجاهد والضحاك وقال علي بن أبي طلحة ومجاهد عن ابن عباس الأواء المؤمن زاد علي بن أبي طلحة عنه هو المؤمن التواب ، وقال العوفي عنه هو المؤمن بلسان الحبشة . وكذا قال ابن جريج هو المؤمن بلسان الحبشة

وقال الإمام أحمد حدثنا موسى حدثنا ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن هلي بن رباح عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل يقال له ذو النجادين « إنه أواء » وذلك أنه رجل كان إذا ذكر الله في القرآن رفع صوته بالدعاء ورواه ابن جرير . وقال سعيد بن جبير والشعبي الأواء المسبح وقال ابن وهب عن معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية عن جبير بن نفير عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : لا يحافظ على سبحة الضحى إلا الأواء ، وقال شفي ابن مانع عن أبي أيوب الأواء الذي إذا ذكر خطاياهم استغفر منها ، وعن مجاهد الأواء الحفيظ الرجل يذنب الذنب سرأثم يتوب منه سرا ذكر ذلك كله ابن أبي حاتم رحمه الله . وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا المحاربي عن حجاج عن الحكم عن الحسن بن مسلم بن بيان أن رجلا كان يكثر ذكر الله ويسبح فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال « إنه أواء » وقال أيضا حدثنا أبو كريب حدثنا ابن هانئ حدثنا النبال بن خليفة عن حجاج بن أرطاة عن عطاء عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم دفن ميتا فقال « رحمك الله إن كنت لأواها » يعني تلاء للقرآن ، وقال شعبة عن أبي يونس الباهلي قال سمعت رجلا بمكة وكان أصله روميا وكان قاصا يحدث عن أبي ذر قال : كان رجل يطوف بالبيت الحرام ويقول في دعائه أوه أوه فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال « إنه أواء » قال فخرجت ذات ليلة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفن ذلك الرجل ليلا ومعه المصباح . هذا حديث غريب رواه ابن جرير . وروي عن كعب الأحبار أنه قال سمعت (إن إبراهيم لأواء) قال كان إذا ذكر النار قال أوه من النار وقال ابن جريج عن ابن عباس (إن إبراهيم لأواء) قال قفيه . قال الإمام أبو جعفر بن جرير وأولى الأقوال قول من قال إنه الدعاء وهو المناسب للسياق وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعدة وعدها أبيه وقد كان إبراهيم كثير الدعاء حلما عن ظلمه وأثاله مكرها ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه له في قوله (أرأغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجنك واهجرني مليا * قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بي حفيا) فحلم عنه مع أذاه له ودعا له واستغفر ولهذا قال تعالى (إن إبراهيم لأواء حلیم)

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَسْئَلَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

يقال تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة وحكمه العادل إنه لا يضل قوما إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة كما قال تعالى (وأما نوح فهدينا ناهم) الآية . وقال مجاهد في قوله تعالى (وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم) الآية قال بيان الله عز وجل للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة وفي بيانه لهم معصيته وطاعته عامة فافعلوا أو ذروا . وقال ابن جرير يقول الله تعالى وما كان الله ليضل قوما في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلal بعد إذا رزقكم الهداية ووقفكم للإيمان به وبرسوله حتى يتقدم إليكم بالتهى عنه فتتركوا فأما قبل أن يبين لكم كراهة ذلك بالتهى عنه ثم تتعدوا نهيه إلى ما نهاكم عنه فإنه لا يحكم عليكم بالضلal فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من الأمور

والنبي ، وأما من لم يؤمن ولم يهتد فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فبما لم يؤمر به ولم يهتد عنه ، وقوله تعالى (إن الله له ملك السموات والأرض يحيى ويميت ومالك من دون الله من ولي ولا نصير) قال ابن جرير هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر وأنهم يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض ولا يرهبوا من أعدائه فإنه لا ولي لهم من دون الله ولا نصير لهم سواء وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن أبي دلامة البغدادي حدثنا عبد الوهاب بن عطاء حدثنا سعيد عن قتادة عن صفوان بن محرز عن حكيم بن حزام قال بينا رسول الله صلى الله عليه بين أصحابه إذا قال لهم « هل تسمعون ما أسمع ؟ » قالوا ما نسمع من شيء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إني لأسمع أطيظ السماء وما تلام أن تثط وما فيها من موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم » وقال كعب الأحبار ما من موضع خرمة إبرة من الأرض إلا وملك موكل بها يرفع علم ذلك إلى الله ، وإن ملائكة السماء لأكثر من عدد التراب ، وإن حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى مخه مسيرة مائة عام

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

قال مجاهد وغير واحد برزت هذه الآية في غزوة تبوك وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مجدية وحر شديد وعسر من الزاد والماء ، قال قتادة خرجوا إلى الشام عام تبوك في لحيان الحر طى ما يعلم الله من الجهد أصابهم فيها جهد شديد حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما وكان نفر يتداولون التمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليها ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها فتاب الله عليهم وأقبلهم من غزوتهم ، وقال ابن جرير حدثني يونس ابن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن عتبة بن أبي عتبة عن نافع بن جبير بن مطعم عن عبد الله بن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة فقال عمر بن الخطاب خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع وحتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع وحتى إن الرجل لينجر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده فقال أبو بكر الصديق يا رسول الله إن الله عز وجل قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا فقال « تحب ذلك ؟ » قال نعم فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سألت السماء فأهطلت ثم سكنت فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجد لها جاوزت العسكر ، وقال ابن جرير في قوله (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة) أى من النفقة والظهر والزاد والماء (من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم) أى عن الحق ويشك في دين الرسول صلى الله عليه وسلم ويرتاب للذى نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم (ثم تاب عليهم) يقول ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه (إنه بهم رءوف رحيم)

﴿ وَكَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِقُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن أخى الزهري محمد بن عبد الله عن عمه محمد بن مسلم الزهري أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبيد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بني حنيفة عن عمي قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فقال كعب بن مالك لم

أنخلف عن رسول الله ﷺ في غزاة غزاها قط إلا في غزاة تبوك غير أني كنت تخلفت في غزاة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها ، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد غير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواقنا على الاسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يريد غزوة يغزوها إلا وري بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفاوز واستقبل عدوا كثيرا فدخل للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم فأخبرهم وجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يحجمهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب : فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفي عليه ما لم ينزل فيه وحى من الله عز وجل وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال وأنا إليها أصغر فتجهر إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه فطفقت أغمدو لكي أنجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازي شيئا فأقول لنفسي أنا قادر على ذلك إذا أردت فلم يزل ذلك يتبادى بي حتى استمر بالناس الجدد فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم غاديا والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئا وقلت أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه فغدوت بعد ما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازي شيئا ثم غدت فرجعت ولم أقض شيئا فلم يزل ذلك يتبادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهممت أن ارتحل فألحقهم وليت أني فعلت ثم لم يقدر ذلك لي فطفقت إذا خرجت في الناس بعد رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه في النفاق أو رجلا من عذره الله عز وجل ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك « ما فعل كعب بن مالك » فقال رجل من بني سلمة حبسه يارسول الله برداه والنظر في عطفه فقال معاذ بن جبل : بشما قلت والله يارسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال كعب بن مالك فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلا من تبوك حضرنى بئى وطفقت أذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غدا وأستمعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظلم قاعا زاح عنى الباطل وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبدا فأجمعت صدقه فأصبح رسول الله ﷺ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون اليه ويخلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى حتى جثت فلما سامت عليه تبسم تبسم الغضب ثم قال لي « تعال » فجلست أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي « ما خلفك ألم تكن قد اشتريت ظهرا » فقلت يارسول الله إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر لقد أعطيت جدلا ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على ولئن حدثتك بصديق تجد على فيه إني لأرجو عقي ذلك من الله عز وجل والله ما كان لي عذر والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك قال : فقال رسول الله ﷺ « أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك » فقام إلى رجال من بني سلمة واتبعوني فقالوا لي والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ولقد عجزت أن لا تكون اعذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك قال فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي قال ثم قلت لهم هل لقي معي هذا أحد فالوا نعم لقيه معك رجلان قالوا مثل ما قلت وقيل لهما مثل ما قيل لك فقلت فمنها قالوا مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا لي فيهما أسوة قال فمضيت حين ذكروها لي قال ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وتغيروا لا حتى

تسكرت لى فى نفسى الأرض فما هى بالأرض التى كنت أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما أصحابى فاستكانوا وقعدا فى بيوتهما يتيكان وأما أنا فكنيت أشد القوم وأجلدهم فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمنى أحد وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول فى نفسى أحرك شفتيه برد السلام على أم لا ثم أصلى قريامنه وأسارقه النظر فاذا أقبلت على صلاتى نظر الى فادا التفت نحوه أعرض عنى حتى إذا طال على ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلىّ فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام فقلت له يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلم أنى أحب الله ورسوله قال فسكت قال فعدت له فنشدته فسكت فعدت له فنشدته فسكت فقال الله ورسوله أعلم . قال ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار فبينما أنا أمشى بسوق المدينة إذا أنا بنبطى من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك قال فطفق الناس يشيرون له إلى حتى جاء فدفع إلى كتابا من ملك غسان وكنيت كتابا فاذا فيه : أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك وإن الله لم يجعلك فى دار هوان ولا مضیعة فالحق بنا نواسك قال فقلت حين قرأته وهذا أيضا من البلاء قال فتبعمت به التور فسجرت به حتى إذا مضت أربعون ليلة من الحسین إذا برسول رسول الله ﷺ يأتينى يقول يأمرک رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تعتزل امرأتك قال فقلت أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال . بل اعتزلها ولا تقر بها ، قال وأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك قال فقلت لا مرأى الحق بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ما يشاء قال فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت يارسول الله إن هلالا شيخ ضعيف ليس له خادم فهل تذكره أن أخدمه قال « لا ولكن لا يقربك » قالت وإنه والله ما به من حركة إلى شيء وإنه والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، قال فقال لى بعض أهلى لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه قال فقلت والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدرى ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب قال فلبثنا عشر ليال فكمّل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا قال ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا فبينما أنا جالس على الحال التى ذكر الله تعالى منا قد ضاقت على نفسى وضافت على الأرض بما رحبت سمعت صارخا أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته أبشر يا كعب بن مالك قال فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبى مبشرون وركض إلى رجل فرسا وسعى ساع من أسلم وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبى فكسوتهما إياه ببشارته والله ما أملك يومئذ غيرها واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أؤم رسول الله ﷺ وتلقانى الناس فوجا فوجا يهنونى بتوبة الله يقولون لهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد فاذا رسول الله ﷺ جالس فى المسجد والناس حوله فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره قال فكان كعب لا ينساها لطلحة قال كعب فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » قال قلت أومن عندك يارسول الله أم من عند الله قال « لا بل من عند الله » قال وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر حتى يعرف ذلك منه فلما جلست بين يديه قلت يارسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله قال « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » قال فقلت فإنى أمسك سهمى الذى بخير وقلت يارسول الله إنما نجاني الله بالصدق وإن من توبتى أن لأحدث لإصداقا ما بقيت قال فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله من الصدق فى الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلانى الله تعالى والله ما تعدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم الى يومى هذا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله عز وجل فيما بقى

(قال) وأنزل الله تعالى (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ

قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين (إلى آخر الآيات . قال كعب فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هدى إلى الاسلام أعظم في نفسى من صدق رسول الله ﷺ يومئذ أن لا أكون كذبتة فأهلك كما هلك الذين كذبوه فان الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال الله تعالى (سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون * يحلفون لكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) قال وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله أمرنا حتى قضى الله فيه فذلك قال الله عز وجل (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) وليس تخليفه إيانا وارجأؤه أمرنا الذى ذكر مما خلفنا يتخلفنا عن الغزو وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه . هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته رواه صاحب الصحيح البخارى ومسلم من حديث الزهرى بنحوه فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها وكذا روى عن غير واحد من السلف فى تفسيرها كما رواه الأعمش عن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله فى قوله تعالى (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) قال هم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وكلهم من الأنصار ، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغير واحد وكلهم قال مرارة بن ربيعة ، وكذا فى مسلم بن ربيعة فى بعض نسخه وفى بعضها مرارة بن الربيع ، وفى رواية عن الضحاك مرارة بن الربيع كما وقع فى الصحيحين وهو الصواب ، وقوله فسموا رجلين شهدا بدرًا قيل إنه خطأ من الزهرى فإنه لا يعرف شهود واحد من هؤلاء الثلاثة بدرًا والله أعلم . ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين بإيهم نحووا من خمسين ليلة بأيامها وضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت أى مع سعتها فسدت عليهم المسالك والمذاهب فلا يهتدون ما يصنعون فصبروا لأمر الله واستكانوا لأمر الله وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تخلفهم وأنه كان عن غير عذر فعوقبوا على ذلك هذه المدة ثم تاب الله عليهم فكان عاقبة صدقهم خيرا لهم وتوبة عليهم ، ولهذا قال (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) أى اصدقوا والزمو الصدق تكونوا من أهله وتتجوا من المهالك ويجعل لكم فرجا من أموركم ومخارجا وقد قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله هو ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عليكم بالصدق فان الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار ولا يزال الرجل يكذب يكذب صديقا ، وإياكم والكذب فان الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » أخرجاه فى الصحيحين ، وقال شعبة عن عمرو بن مرة سمع أبا عبيدة يحدث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل اقرءوا إن شئتم (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) هكذا قرأها ثم قال فهل تجدون لأحد فيه رخصة ، وعن عبد الله بن عمرو فى قوله (اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) قال مع محمد ﷺ وأصحابه ، وقال الضحاك مع أبى بكر وعمر وأصحابهم ما قال الحسن البصرى إن أردت أن تكون مع الصادقين فعليك بالزهد فى الدنيا والكف عن أهل اللذة

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا أَكُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

يعاتب تبارك وتعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل له من الشقة فانهم تقصوا أنفسهم من الأجر لأنهم (لا يصيبهم ظمأ) وهو العطش (ولا نصب) وهو التعب (ولا مخمصة) وهي المجاعة (ولا يطشون موطئاً يغيظ الكفار) أي ينزلون منزلاً يرهب عدوهم (ولا ينالون) منه ظفراً وغلبة عليه (إلا كتب لهم) بهذه الأعمال التي ليست داخلية تحت قدرهم وإنما هي ناشئة عن أفعالهم أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً (إن الله لا يضيع أجر المحسنين) كقوله (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً)

﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى : ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله (نفقة صغيرة ولا كبيرة) أي قليلاً ولا كثيراً (ولا يقطعون وادياً) أي في السير إلى الأعداء (إلا كتب لهم) ولم يقل همنا به لأن هذه أفعال صادرة عنهم ولهذا قال (ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) وقد حصل لأمر المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه من هذه الآية الكريمة حظ وافر ونصيب عظيم ، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة والأموال الجزيلة كما قال عبد الله ابن الإمام أحمد حدثنا أبو موسى الغنوي حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدثني سليمان بن المغيرة حدثني الوليد بن أبي هشام عن فرقد بن أبي طلحة عن عبد الرحمن بن حباب السلمي قال خطب رسول الله ﷺ فحث على جيش العسرة فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه على مائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، قال ثم نزل مرفأة من النبر ثم حث فقال عثمان بن عفان على مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها . قال فرأيت رسول الله ﷺ قال بيده هكذا يحرکہا ، وأخرج عبد الصمد يده كالمعجب « ما على عثمان ما عمل بعد هذا » وقال عبد الله أيضاً حدثنا هارون ابن معروف حدثنا ضمرة حدثنا عبد الله بن شاذب عن عبد الله بن القاسم عن كثير مولى عبد الرحمن بن سمرة عن عبد الرحمن بن سمرة قال جاء عثمان رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حتى جهز النبي ﷺ جيش العسرة قال فصبا في حجر النبي ﷺ فرأيت النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول « ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم » يرددنها مراراً ، وقال قتادة في قوله تعالى (ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم) الآية ما ازداد قوم في سبيل الله بعدا من أهليهم إلا ازدادوا قربا من الله

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من تغير الأحياء مع الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فإنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ ولهذا قال تعالى (انفروا خفافاً وثقالاً) وقال (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب) الآية قال فنسخ ذلك بهذه الآية . وقد يقال إن هذا بيان لمراده تعالى من تغير الأحياء كلها وشرذمة سن كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم ليتفقوا الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو فيجتمع لهم الأمران في هذا النفير المعين وبعده ﷺ تكون الطائفة النافرة من الحى إما للتفقه وإما للجهاد فإنه فرض كفاية على الأحياء وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) يقول ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي ﷺ وحده (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) يعنى عصبة يعنى السرايا ولا يسيرا

إلا يأذنه فإذا رجعت السرايا وقد أنزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنا وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم ويبعث سرايا أخرى فذلك قوله (ليتفقوها في الدين) يقول ليعلموا ما أنزل الله على نبيهم وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم (لعلهم يحذرون) وقال مجاهد نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خرجوا في البوادي فاصابوا من الناس معروفاً ، ومن الخصب ما ينتفعون به ، ودعوا من وحدوا من الناس إلى الهدى فقال الناس لهم ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا فوجدوا في أنفسهم من ذلك تخرجوا وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم فقال الله عز وجل (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) يعنيون الخير (ليتفقوها في الدين) وليستمعوا ما في الناس وما أنزل الله فمذرمهم (ولينذروا قومهم) الناس كلهم إذا رجعوا إليهم (لعلهم يحذرون) وقال قتادة في الآية هذا إذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الجيوش أمرهم الله أن يغزوا بنبيه صلى الله عليه وسلم وتقيم طائفة مع رسول الله يتفقها في الدين وتطلق طائفة تدعو قومها وتحذروهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم ، وقال الضحاك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا بنفسه لم يحل لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه إلا أهل الأعذار وكان إذا أقام وأسرى السرايا لم يحل لهم أن ينطلقوا إلا بأذنه وكان الرجل إذا استرى فنزل بعده قرآن وتلاه نبي الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه القاعدين معه فإذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآنا فيقرئوهم ويفقهوهم في الدين وهو قوله (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) يقول إذا أقام رسول الله (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) يعني بذلك أنه لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعاً ونبي الله صلى الله عليه وسلم قاعد ولكن إذا قعد نبي الله ففسرت السرايا وقعد معه معظم الناس . وقال علي بن أبي طلحة أيضاً عن ابن عباس في الآية قوله (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) إنها ليست في الجهاد ولكن لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على مضر بالسنين أجذبت بلادهم وكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يحل بالمدينة من الجهد ويعتلوا بالسلام وهم كاذبون فضيقوا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجهدوهم فأنزل الله تعالى يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين فردهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عشائهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم فذلك قوله (ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم) الآية وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية كان ينطلق من كل حي من العرب عصاة فيأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم ويتفقون في دينهم ويقولون للنبي صلى الله عليه وسلم ما تأمرنا أن نفعله ؟ وأخبرنا بما نأمر به عشائركم إذا قدما عليهم قال فيأمرهم نبي الله صلى الله عليه وسلم بطاعة الله وطاعة رسوله ويعيهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة وكانوا إذا أتوا قومهم قالوا إن من أسلم فهو منا وينذرونهم حتى إن الرجل ليفارق أباه وأمه وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخبرهم وينذرهم قومهم فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم الجنة ، وقال عكرمة لما نزلت هذه الآية (إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً) (وما كان لأهل المدينة) الآية قال المناقبون هلك أصحاب البدو الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه ، وقد كان ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهوهم فأنز الله عز وجل (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) الآية ونزلت (والذين يحاجون في الله من بعدما استجيب له حاجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد) وقال الحسن البصري في الآية ليتفقها الدين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَكُونُكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام ، ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين في جزيرة العرب ، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وحضر موت وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين

الله أفواجاً شرع في قتال أهل الكتاب فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لأنهم أهل الكتاب فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس وجذب البلاد وضيق الحال وذلك سنة تسع من هجرته عليه السلام ، ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد حجه بأحد وثمانين يوماً فاختره الله لما عنده وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضي الله عنه وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجفل فثبتته الله تعالى به فوطد القواعد وثبت الدعائم ، ورد شارذ الدين وهو راغم ، ورد أهل الردة إلى الإسلام ، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطعام ، وبين الحق لمن جهله ، وأدى عن الرسول ما حمّله ، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلطان ، وإلى الفرس عبدة النيران ، ففتح الله بركة سفارته البلاد ، وأرغم أنفس كسرى وقيصرو من أطاعهما من العباد . وأنفق كنوزها في سبيل الله كما أخبر بذلك رسول الله وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده ، وولى عهذه الفاروق الأبواب ، شهيد المحراب ، أبي حفص عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه فأرغم الله به أنوف الكفرة للملحدين ، وقمع الطغاة والمنافقين ، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً . وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعداً وقرباً . ففرقها على الوجه الشرعي . والسبيل المرضي . ثم لمات شهيداً وقد عاش حميداً . أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه شهيد الدار . فكسى الإسلام رياسة حلة سابعة . وأمدت في سائر الأقاليم على رقب العباد حجة الله البالغة . فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها . وعلت كلمة الله وظهر دينه . وبلغت الملة الحنيفة من أعداء الله غاية مآربها . وكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم ثم الدين يلونهم من العتاة الفجار امتثالاً لقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) وقوله تعالى (وليجدوا فيكم غلظة) أي وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً لأخيه المؤمن غليظاً على عدوه الكافر كقوله تعالى (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) وقوله تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) وقال تعالى (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أنا الضحوك القتال » يعني أنه ضحوك في وجه وليه قتال لهامة عدوه وقوله (واعلموا أن الله مع المتقين) أي قاتلوا الكفار وتوكلوا على الله واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى لم يزالوا ظاهرين على عدوهم . ولم تزل الفتوحات كثيرة ولم تزل الأعداء في سفال وخسار ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك طمع الأعداء في أطراف البلاد وتقدموا إليها فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام فأخذوا من الأطراف بلدانا كثيرة ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام والله الأمر من قبل ومن بعد ، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام وأطاع أوامر الله وتوكل على الله فتح الله عليه من البلاد واسترجع من الأعداء بحسبه وبقدر ما فيه من ولاية الله . والله المستوث المأمول أن يمكن المسلمين نواصي أعدائهم الكافرين وأن يعلى كلمتهم في سائر الأقاليم إنه جواد كريم

﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿

يقول تعالى (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادت هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون) (من يقول أيكم زادت هذه إيماناً) أي يقول بعضهم لبعض يا أيكم زادت هذه السورة إيماناً قال الله تعالى (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون) وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء . بل قد حكى غير واحد الإجماع على ذلك . وقد بسط الكلام على هذه المسئلة في أول شرح البخارى رحمه الله (وأما الذين في قلوبهم مرض

فزادتهم رجساً إلى رجسهم) أى زادتهم شكا إلى شكهم وربيا إلى ربهم كما قال تعالى (ونزل من القرآن ما هو شفاء والآية ، وقوله تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد) وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدى القلوب يكون سببا لضلالهم ودمارهم كما أن سبي المزاج لوغذى بما غدى به لايزيده إلا خبالا ونقصا .

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَسُكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

يقول تعالى أولا يرى هؤلاء المنافقون (أنهم يفتنون) أى يختبرون (فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون) أى لا يتوبون من ذنوبهم السالفة ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم قال مجاهد يختبرون بالسنة والجوع وقال قتادة بالغزو فى السنة مرة أو مرتين ، وقال شريك عن جابر عن الجعفى عن أبى الضحى عن حذيفة فى قوله (أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين) قال كنا نسمع فى كل عام كذبة أو كذبتين فيضل بها فثام من الناس كثير رواه ابن جرير . وفى الحديث عن أنس : لا يزداد الأمر إلا شدة ولا يزداد الناس إلا شحا ومامن عام إلا والذى بعده شر منه . سمعته من نبيكم ﷺ وقوله (وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض : هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) هذا أيضا إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ (نظر بعضهم إلى بعض) أى تلفتوا (هل يراكم من أحد ثم انصرفوا) أى تولوا عن الحق وانصرفوا عنه وهذا حالهم فى الدنيا لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه كقوله تعالى (فلما لهم عن التذكرة معرضين * كأنهم حمرة مستفرفة فرت من قسورة) وقوله تعالى (فما للذين كفروا قبلك مهطعين * عن اليمين وعن الشمال عزين) أى ما لهؤلاء القوم يتفلملون عنك يمينا وشمالا هروبا من الحق وذهابا إلى الباطل وقوله (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم) كقوله (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) أى لا يفهمون عن الله خطابه ولا يتصدون لهم ولا يريدونه بل هم فى شغل عنه ونفور منه فلماذا صاروا إلى ما صاروا إليه

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾

يقول تعالى ممتنا على المؤمنين بما أرسل اليهم رسولا من أنفسهم أى من جنسهم وعلى لغتهم كما قال إبراهيم عليه السلام (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) وقال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) وقال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) أى منكم وبلغتكم كما قال جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه للنجاشى والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى : إن الله بعث فينا رسولا منا يعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته وذكر الحديث وقال سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه فى قوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) قال لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية وقال ﷺ « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح » وقد وصل هذا من وجه آخر كما قال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمى فى كتابه الفاصل بين الراوى والواعى : حدثنا أبو أحمد يوسف بن هرون بن زياد حدثنا ابن أبى عمر حدثنا محمد بن جعفر بن محمد قال : أشهد على أبى لحدثنى عن أبيه عن جده عن على قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى ولم يمسنى من سفاح الجاهلية شيء » وقوله تعالى (عزيز عليه ما عنتم) أى يعز عليه الشيء الذى يعنت أمته ويشق عليها ولهذا جاء فى الحديث المروى من طرق عنه أنه قال « بعثت بالحنيفية السمجة » وفى الصحيح « إن

هذا الدين يسر وشريعته كلها سهلة ممحة كاملة يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه « (حريص عليكم) أى على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي اليكم ، وقال الطبراني حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ حدثنا سفيان بن عيينة عن قطن عن أبي الطفيل عن أبي ذر قال : تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقرب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علما قال : وقال رسول الله ﷺ « ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم » وقال الإمام أحمد : حدثنا قطن حدثنا السعدي عن الحسن بن سعد عن عبدة الهذلي عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله لم يحرم حرمة إلا وقد علم أنه سيطلمها منكم مطلع ألا وإنى أخذ بحجزكم أن تهاقنوا في النار كتهافت الفراش أو الدباب » وقال الإمام أحمد حدثنا حسن ابن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه ملكان فيا يرى النائم فقعده أحدهما عند رجله والآخر عند رأسه . فقال الذي عند رجله للذي عند رأسه اضرب مثل هذا ومثل أمته فقال : إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر اتهموا إلى رأس مفازة ولم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به فيبيناهم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة فقال : رأيتم إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء تتبعوني ؟ فقالوا نعم قال فانطلق بهم فأوردهم رياضاً معشبة وحياضاً رواء فأكلوا وشربوا ومنموا فقال لهم ألم ألقكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعوني ؟ فقالوا بلى فقال : فان بين أيديكم رياضاً أعشب من هذه وحياضاً أروى من هذه فاتبعوني فقلت طائفة صدق والله لتتبعن ، وقالت طائفة قدرضينا بهذا نقيم عليه ، وقال البزار حدثنا سلمة بن شبيب وأحمد بن منصور قال حدثنا إبراهيم بن الحكم ابن أبان حدثنا أبي عن عكرمة عن أبي هريرة رضى الله عنه أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ يستعينه في شيء قال عكرمة أراه قال في دم^(١) فأعطاه رسول الله ﷺ شيئاً ثم قال « أحسنت إليك » قال الأعرابي لا ولا أجملت فغضب بعض المسلمين وهما أن يقوموا إليه فأشار رسول الله ﷺ إليهم أن كفوا فلما قام رسول الله ﷺ وبلغ إلى منزله دعا الأعرابي إلى البيت فقال « إنك إنما جئتنا تسألنا فأعطيناك فقلت ما قلت » فزاده رسول الله ﷺ شيئاً وقال « أحسنت إليك ؟ » فقال الأعرابي نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً . قال النبي صلى الله عليه وسلم « إنك جئتنا فسألنا فأعطيناك فقلت ما قلت . وفي أنفس أصحابي عليك من ذلك شيء فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب عن صدورهم » فقال نعم : فلما جاء الأعرابي قال رسول الله ﷺ « إن صاحبكم كان جاعاً ففسأنا فأعطيناه فقال ما قال ، وإننا قد دعوناه فأعطيناه فزعم أنه قد رضى ، كذلك يا أعرابي ؟ » فقال الأعرابي نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدها إلا نفورا . فقال لهم صاحب الناقة خلوا بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها وأنا أعلم بها فتوجه إليها وأخذ لها من قشام الأرض ودعاها حتى جاءت واستجابت وشدها عليها رحلها وإنى لو أقطعكم حيث قال ما قال لدخل النار » رواه البزار ثم قال لانعله يروى إلا من هذا الوجه (قلت) وهو ضعيف بحال إبراهيم بن الحكم بن أبان والله أعلم ، وقوله (بالمؤمنين رءوف رحيم) كقوله (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون * وتوكل على العزيز الرحيم) وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى (فإن تولوا) أى تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة (قل حسبى الله لا إله إلا هو) أى الله كافى لا إله إلا هو عليه توكلت كما قال تعالى (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً) (وهو رب العرش العظيم) أى هو مالك كل شيء وخالقه لأنه رب العرش العظيم الذى هو سقف المخلوقات وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى ، وعلمه محيط بكل شيء وقدره نافذ فى كل شيء وهو على كل شيء وكيل ، قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن أبى بكر حدثنا بشر بن عمر حدثنا شعبة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس رضى الله عنهما عن أبى بن كعب

(١) أى دية قتيل .

قال : آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخر السورة ، وقال عبد الله بن الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا عبد المؤمن حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب رضي الله عنهم أنهم جمعوا القرآن في مصاحف في خلافة أبي بكر رضي الله عنه فكان رجال يكتبون ويملأ عليهم أبي بن كعب فلما انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم) الآية فظنوا أن هذا آخر ما نزل من القرآن فقال لهم أبي بن كعب إن رسول الله ﷺ أقرأني بعدها آيتين (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخر السورة قال هذا آخر ما نزل من القرآن فخم بما فتح به بالله الذي لا إله إلا هو وهو قول الله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وهذا غريب أيضاً ، وقال أحمد حدثنا علي بن بحر حدثنا علي بن محمد بن سلمة عن محمد بن إسحق عن يحيى بن عباد عن أبيه عباد بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى عمر بن الخطاب فقال من معك على هذا ؟ قال لا أدري والله إني لأشهد لسمعتهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيتهما وحفظتهما فقال عمر وأنا أشهد لسمعتهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة فانظروا سورة من القرآن فضعوها فيها فوضعوها في آخر براءة ، وقد تقدم الكلام أن عمر ابن الخطاب هو الذي أشار على أبي بكر الصديق رضي الله عنهما بجمع القرآن فأمر زيد بن ثابت فجعله وكان عمر يحضرهم وهم يكتبون ذلك ، وفي الصحيح أن زيدا قال فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت أو أبي خزيمة ، وقد قدمنا أن جماعة من الصحابة تذكر ذلك عند رسول الله ﷺ كما قال خزيمة بن ثابت حين ابتدأهم بها والله أعلم ، وقد روى أبو داود عن يزيد بن محمد عن عبد الرزاق بن عمر - وقال كان من ثقات المسلمين من المتعبدين عن مدرك بن سعد قال يزيد شيخ ثقة عن يونس بن ميسرة عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال : من قال إذا أصبح وإذا أمسى : حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم . سبع مرات إلا كفاه الله ما أهمه (١) ، وقد رواه ابن عساکر في ترجمة عبد الرزاق عن عمر هذا من رواية أبا زرعة الدمشقي عنه عن أبي سعد مدرك بن أبي سعد الفزاري عن يونس بن ميسرة بن حليس عن أم الدرداء سمعت أبا الدرداء يقول : ما من عبد يقول حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات صادقاً كان بها أو كاذباً إلا كفاه الله ما أهمه . وهذه زيادة غريبة ثم رواه في ترجمة عبد الرزاق أبي محمد عن أحمد بن عبد الله بن عبد الرزاق عن جده عبد الرزاق بن عمر بسنده فرفعه فذكر مثله بالزيادة وهذا منكر والله أعلم آخر تفسير سورة براءة والله الحمد والمنة

﴿ تفسير سورة يونس عليه السلام وهي مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَجْرٌ مُّبينٌ ﴾

أما الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم الكلام عليها في أوائل سورة البقرة ، وقال أبو الضحى عن ابن عباس في قوله تعالى (الر) أي أنا الله أرى . وكذلك قال الضحاك وغيره (تلك آيات الكتاب الحكيم) أي هذه آيات القرآن الحكم المبين وقال مجاهد (الر تلك آيات الكتاب الحكيم) (٢) وقال الحسن الثوري والربور : وقال قتادة : (تلك آيات الكتاب) قال الكتب التي كانت قبل القرآن . وهذا القول لا أعرف وجهه ولا معناه : وقوله (أكان للناس عجا) الآية . يقول تعالى منكراً على من تعجب من الكفار ومن إرسال المرسلين من البشر كما أخبر تعالى عن القرون

(١) كذا في الأصول بالاستثناء ولا يظهر إلا في الرواية التالية المبدوءة بالنفي

(٢) بياض بالأصل

الماضين من قولهم (أبشر يهودنا) وقال هود وصالح لقومهما (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم) وقال تعالى مخبرا عن كفار قريش أنهم قالوا (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب) وقال الضحاك عن ابن عباس لما بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم رسولا أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم فقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد قال فأنزل الله عز وجل (أكان للناس عجباً) الآية . وقوله (أن لهم قدم صدق عند ربهم) اختلفوا فيه فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق) يقول سبقت لهم السعادة في الذكر الأول وقال العوفي عن ابن عباس (أن لهم قدم صدق عند ربهم) يقول أجرا حسنا بما قدموا وكذا قال الضحاك والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهذا كقوله تعالى (لينذر بأسا شديداً) الآية وقال مجاهد (أن لهم قدم صدق عند ربهم) قال الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقاتهم وتسييحهم قال ومحمد ﷺ يشفع لهم ، وكذا قال زيد بن أسلم ومقاتل بن حيان وقال قتادة سلف صدق عند ربهم واختار ابن جرير قول مجاهد أنها الأعمال الصالحة التي قدموها كما يقال له قدم في الإسلام كقول حسان

لنا القدم العليا إليك وخلفنا * لأولنا في طاعة الله تابع

وقول ذى الرمة : لكم قدم لا ينكر الناس انها * مع الحسب العادي طمت على البحر

وقوله تعالى (قال الكافرون إن هذا الساحر مبین) أى مع أنا بعثنا إليهم رسولا منهم رجلا من جنسهم بشيرا ونذيرا (قال الكافرون إن هذا لساحر مبين) أى ظاهر وهم الكاذبون في ذلك

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمُورَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِ ذِيهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه ، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام قيل كهذه الأيام وقيل كل يوم كالف سنة مما تعدون كما سيأتى بيانه ثم استوى على العرش والعرش أعظم المخلوقات وسقفها قال ابن أبى حاتم حدثنا ججاج ابن حمزة حدثنا أبو أسامة حدثنا إسماعيل بن أبي خالده قال سمعت سعدا الطائي يقول : العرش يا قوته حمراء ، وقال وهب بن منبه خلقه الله من نوره وهذه غريب وقوله (يدبر الأمر) أى يدبر الخلائق (لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض) ولا يشغله شأن عن شأن ولا تغلظه المسائل ولا يتبرم بالحاح الملحين ولا يليه تديير الكبير عن الصغير في الجبال والبحار وال عمران والفقار (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) الآية (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) وقال الدراوردي عن سعد بن إسحق بن كعب بن عجرة أنه قال حين نزلت هذه الآية (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض) الآية لقيهم ركب عظيم لا يرون إلا أنهم من العرب فقالوا لهم من أنتم ؟ قالوا من الجن خرجنا من المدينة أخرجتنا هذه الآية رواه ابن أبي حاتم وقوله (ما من شافع إلا من بعد إذنه) كقوله تعالى (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) وكقوله تعالى (وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وقوله (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) وقوله (ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون) أى أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له (أفلا تذكرون) أى أيها المشركون في أمركم تعبدون مع الله إلها غيره وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق كقوله تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ؟ ليقولن الله) وقوله (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون الله قل أفلا تتقون) وكذا الآية التي قبلها والتي بعدها

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٠٧﴾

يخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة لا يترك منهم أحدا حتى يعيده كما بدأه ، ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) أى بالعدل والجزاء الأوفى (والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) أى بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العذاب من سموم وحميم وظل من يحموم (هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج) (هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن)

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ * إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿١٠٨﴾

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء وجعل شعاع القمر نورا ، هذا فن وهذا فن آخر ، ففاوت بينهما لثلا يشتمها ، وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل ، وقدر القمر منازل ، فأول ما يبدو صغيرا ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره ، ثم يشرع فى النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى فى تمام شهر كقوله تعالى (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) وقوله تعالى (والشمس والقمر حسبانا) الآية وقوله فى هذه الآية الكريمة (وقدره) أى القمر (منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) فبالشمس تعرف الأيام وبسیر القمر تعرف الشهور والأعوام (ما خلق الله ذلك إلا بالحق) أى لم يخلقه عبثا بل له حكمة عظيمة فى ذلك وحجة بالغة كقوله تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) وقال تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) وقوله (تفصل الآيات) أى نبين الحجج والأدلة (لقوم يعلمون) وقوله (إن فى اختلاف الليل والنهار) أى تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب وإذا ذهب هذا جاء هذا لا يتأخر عنه شيئا كقوله تعالى (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا) وقال (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر) الآية . وقال تعالى (فالق الإصباح وجعل الليل سكنا) الآية وقوله (وما خلق الله فى السموات والأرض) أى من الآيات الدالة على عظمته تعالى كما قال (وكأين من آية فى السموات والأرض) الآية وقوله (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تنفى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) وقال (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض) وقال (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) أى العقول : وقال ههنا (لآيات لقوم يتقون) أى عقاب الله وسخطه وعذابه

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ﴾ * أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٠٩﴾

يقول تعالى مخبرا عن حال الأشقياء الذين كفروا ببقاء الله يوم القيامة ولا يرجون فى لقاءه شيئا ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأننت إليها نفوسهم . قال الحسن : والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها والشرعية فلا ياتعمرون بها بأن مأواهم يوم معادهم النار جزاء على ما كانوا يكسبون فى دنياهم من الآثام والخطايا والأجرام مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعْوُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وامتثلوا ما أمروا به فعملوا الصالحات بأنه سيهديهم بإيمانهم ، يحتمل أن تكون الباء هنا سببية فتقديره بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة ، ويحتمل أن تكون للاستعانة كما قال مجاهد في قوله (يهديهم ربهم بإيمانهم) قال يكون لهم نوراً يعيشون به ، وقال ابن جريج في الآية يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره يعارض صاحبه ويبشره بكل خير فيقول له من أنت ؟ فيقول أنا عملك فيجعل له نوره من بين يديه حتى يدخله الجنة فذلك قوله تعالى (يهديهم ربهم بإيمانهم) والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة فيلزم صاحبه ويلاذه حتى يقذفه في النار ، وروى نحوه عن قتادة مرسلًا قاله أعلم ، وقوله (دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) أى هذا حال أهل الجنة. قال ابن جريج أخبرني أن قوله (دعواهم فيها سبحانك اللهم) قال إذا مر بهم الطير يشتهونه قالوا سبحانك اللهم وذلك دعواهم فيأتيهم الملك بما يشتهونه فيسلم عليهم فيردون عليه فذلك قوله (وتحيتهم فيها سلام) قال فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم فذلك قوله (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) وقال مقاتل بن حيان : إذا أراد أهل الجنة أن يدعوا بالطعام قال أحدهم (سبحانك اللهم) قال فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم مع كل خادم صحيفة من ذهب فيها طعام ليس في الأخرى قال فيأكل كل منهمن كلهن ، وقال سفيان الثوري إذا أراد أحدهم أن يدعو بشئ قال (سبحانك اللهم) وهذه الآية فيها شبه من قوله (تحيتهم يوم يلقونه سلام) الآية . وقوله (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً) وقوله (سلام قولاً من رب رحيم) وقوله (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم) الآية وقوله (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) هذا فيه دلالة على أنه تعالى هو الحمود أبداً ، العبود على طول الداء ، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره وفي ابتداء كتابه وعند ابتداء تنزيله حيث يقول تعالى (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب) (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض) إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها وأنه الحمود في الأولى والآخرة في الحياة الدنيا وفي الآخرة في جميع الأحوال ولهذا جاء في الحديث : إن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس . وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تزايد نعم الله عليهم فتكرر وتعاود وتزداد فليس لها انقضاء ولا أمد فلا إله إلا هو ولا رب سواه

﴿ وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالشر في حال ضجرهم وغضبهم وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك فلماذا لا يستجيب لهم والحالة هذه لطفًا ورحمة كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم أو لأولادهم بالخير والبركة والخاء ولهذا قال (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم) الآية أى لو استجاب لهم كلما دعوه به في ذلك لأهلكهم ولكن لا ينبغي إلا كثر من ذلك كما جاء في الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده : حدثنا محمد بن معمر حدثنا يعقوب بن محمد حدثنا حاتم بن إسماعيل حدثنا يعقوب بن مجاهد أبو جزرة عن عبادة بن الوليد حدثنا جابر قال : قال رسول الله ﷺ لا تدعوا على أنفسكم ، لا تدعوا على أولادكم لا تدعوا على أموالكم . لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم » ورواه أبو داود من حديث حاتم بن إسماعيل به . وقال البزار وتفرد به عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت الأنصاري لم يشاركه أحديه وهذا كقوله تعالى (ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير) الآية ، وقال مجاهد في تفسير هذه الآية (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير) الآية

هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه : اللهم لا تبارك فيه والعنه . فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم .

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر كقوله (وإذا مسه الشرف فدعاه عريض) أى كثير وهما في معنى واحد وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها وأكثر الدعاء عند ذلك فدعا الله في كشفها ورفعها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه وفي جميع أحواله فإذا فرج الله شدته وكشف كربته أعرض ونأى بجانبه وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء (مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه) ثم ذم تعالى من هذه صفة وطريقته فقال (كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد فانه مستثنى من ذلك كقوله تعالى (إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات) وكقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « عجا المؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له : إن أصابته ضراء فصر كان خيرا له وإن أصابته سراء فشكر كان خيرا له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن »

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاءهم به من البينات والحجج الواضحات ، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم وأرسل إليهم رسولا لينظر طاعتهم له ، واتباعهم رسوله وفي صحيح مسلم من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فأنظروا كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فان أول فتنة بى إسرائيل كانت من النساء » وقال ابن جرير حدثني الثني حدثنا زيد بن عوف أبو ربيعة بهذا أنبا ناسحا عن ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن عوف بن مالك قال لأبي بكر رأيت فيما يرى النائم كأن سببا دلى من السماء فانتشط رسول الله ﷺ ثم أعيد فانتشط أبو بكر ثم ذرع الناس حول المنبر ففضل عمر بثلاث أذرع حول المنبر فقال عمر : دعنا من رؤياك لا أرب لنا فيها فلما استخلف عمر قال : يا عوف رؤياك ؟ قال وهل لك في رؤياى من حاجة أو لم تنتهني ؟ قال ويحك إني كرهت أن تنعى لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه فقص عليه الرؤيا حتى إذا بلغ ذرع الناس إلى المنبر بهذه الثلاث الأذرع قال : أما إحداهن فانه كان خليفة . وأما الثانية فانه لا يخاف في الله لومة لائم ، وأما الثالثة فانه شهيد ، قال : فقال يقول الله تعالى (ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) فقد استخلفت يا ابن أم عمر فأنظر كيف تعمل ؟ وأما قوله فإني لا أخاف في الله لومة لائم فيما شاء الله وأما قوله (شهيد) فأني لعمر الشهادة والمسلمون مطيفون به ؟

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بَقَرَةٌ أَوْ بَذْلَةٌ أَوْ كَلْبٌ أَوْ أَشِدُّ أَوْ عَظِيمٌ * لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأَكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يخبر تعالى عن نعت الكفار من مشركي قريش الجاحدين المعرضين عنه أنهم إذا قرأ عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم كتاب الله وحججه الواضحة قالوا له ائت بقرآن غير هذا أي رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر أو بدله إلى وضع آخر قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي) أي ليس هذا إلى إنما أنا عبد مأمور ورسول مبلغ عن الله (إن أتبع إلا ما يوحى إلي إنى أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) ثم قال محتجا عليهم في صحة ما جاءهم به (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به) أي هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته ، والدليل على أنى لست أقوله من عندي ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عز وجل لا تنتقدون على شيئا تعمصوني به ولهذا قال : (فقد لبث فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون) أي أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل ولهذا لماسأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه فيما سأله من صفة النبي ﷺ قال هرقل لأبي سفيان هل كنتم تتهمون به بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان فقلت لا ، وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين ومع هذا اعترف بالحق * والفضل ما شهدت به الأعداء * فقال له هرقل قد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة بعث الله فينا رسولا نعرف صدقه ونسبه وأمانته ، وقد كانت مدة مقامه عليه السلام بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة ، وعن سعيد بن المسيب ثلاثا وأربعين سنة ، والصحيح المشهور الأول

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِشَايئِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

يقول تعالى لا أحد أظلم ولا أعق ولا أشد إجراما (ممن افتري على الله كذبا) وتقول على الله وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك فليس أحد أكبر جرما ولا أعظم ظلما من هذا ، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء فكيف يشته به حال هذا بالأنبياء فإن من قال هذه المقالة صادقا أو كاذبا فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس ، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى وبين نصف الليل في حندس الظماء ، فمن شيم كل منهما وأفعاله وكلامه يستدل من له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب وسجاج والأسود العنسي . قال عبد الله بن سلام لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس (١) فكنت فيمن انجفل ، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب قال فكان أول ما سمعته يقول « يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » ولما وفد ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله فيما قال له من رفع هذه السماء قال « الله » قال ومن نصب هذه الجبال ؟ قال « الله » قال ومن سطح هذه الأرض ؟ قال « الله » قال فبالذي رفع هذه السماء ونصب هذه الجبال وسطح هذه الأرض أرسلك إلى الناس كلهم ؟ قال « اللهم نعم » ثم سأله عن الصلاة والزكاة والحج والصيام ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين ويحلف له رسول الله ﷺ فقال له صدقت ، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص ، فاكتمى هذا الرجل بمجرد هذا ، وقد أيقن بصدقه صلوات الله وسلامه عليه بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه . وقال حسان بن ثابت لو لم تكن فيه آيات مبينة * كانت بديهته تأنيك بالخبر

وأما مسيلمة فمن شاهده من ذوى البصائر علم أمره لا محالة بأقواله الركيكة التي ليست بفصيحة ، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة ، وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الحسرة والفضيحة ، وكمن فرق بين قوله تعالى (الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم) إلى آخرها . وبين قول مسيلمة قبحه الله ولعنه : يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقي كم تشقين لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين . وقوله قبحه الله لقد أنعم الله على الحلي ، إذ أخرج منها نسمة تسعى ، من بين

(١) يعنى قومه اليهود . وأما العرب وهم الأنصار فكانوا في أشد الغبطة والسرور .

صفاق وحشى . وقوله خلده الله فى نار جهنم ، وقد فعل : الفيل وما أدراك ما الفيل ، له خرطوم طويل ، وقوله أبعده الله عن رحمته : والعاجنات عجنا ، والحازبات خبزا ، واللاقيات لقما ، إهالة وسنا ، إن قريشا قوم يعتدون . إلى غير ذلك من الخرافات والهدايات التى يأنف الصبيان أن يتلفظوا بها إلا على وجه السخرية والاستهزاء ، ولهذا أرغم الله أنفه ، وشرب يوم الحديقة حنقه . ومزق ثملته . ولعنه صحبه وأهله . وقدموا على الصديق تائبين ، وجاءوا فى دين الله راغبين فسألهم الصديق خليفة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ورضى عنه أن يقرأوا عليه شيئا من قرآن مسيلة لعنه الله فسألوه أن يعفهم من ذلك فأبى عليهم إلا أن يقرأوا شيئا منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس فيعرفوا فضل ما هم عليه من الهدى والعلم فقرأوا عليه من هذا الذى ذكرناه وأشباهه ، فلما فرغوا قال لهم الصديق رضى الله عنه ويحكم أين كان يذهب بعقولكم ؟ والله إن هذا لم يخرج من إل ، ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلة وكان صديقاله فى الجاهلية وكان عمرو لم يسلم بعد فقال له مسيلة ويحك يا عمرو ماذا أنزل على صاحبكم يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه المدة . فقال لقد سمعت أصحابه يقرأون سورة عظيمة قصيرة فقال : وماهى فقال (والعصر إن الإنسان لئى خسر) إلى آخر السورة ففكر مسيلة ساعة ثم قال وأنا قد أنزل على مثله فقال وما هو فقال ياوبر ، ياوبر ، إنما أنت أذنان وصدر ، وسائر كحفر نقر . كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو والله إنك لتعلم أنى أعلم أنك تكذب . فإذا كان هذا من مشرك فى حال شركه لم يشتبه عليه حال محمد ﷺ وصدقه ، وحال مسيلة لعنه الله وكذبه ، فكيف بأولى البصائر والنهى ، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجى ، ولهذا قال الله تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء ، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) وقال فى هذه الآية الكريمة (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون) وكذلك من كذب بالحق الذى جاءت به الرسل . وقامت عليه الحجج ، لا أحد أظلم منه كما فى الحديث « أعتى الناس على الله رجل قتل نبيا أو قتله نبي »

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئا ، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها ولا يكون هذا أبدا ولهذا قال تعالى (قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض) وقال ابن جرير معناه أنخبرون الله بما لا يكون فى السموات ولا فى الأرض ؟ ثم نزه نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم فقال (سبحانه وتعالى عما يشركون) ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث فى الناس كائن بعد أن لم يكن وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام قال ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ثم وقع الاختلاف بين الناس وعبدت الأصنام والأنداد والأوثان فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة) وقوله (ولولا كلمة سبقت من ربك) الآية أى لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه ؛ وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه فأسعد المؤمنين وأعنت الكافرين

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِيَّ اللَّهُ فَأَنْتَظِرُونَ ﴾

أى ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون : لولا أنزل على محمد آية من ربه يعنون كما أعطى الله نوحا الناقة أو أن يحول لهم الصفا ذهابا أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهارا أو نحو ذلك مما الله عليه قادر ولكنه

حكيم في أفعاله وأقواله كما قال تعالى (تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا * بل كذبوا بالساعة واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) وكقوله (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) الآية يقول تعالى : إن سنقي في خلقي أني إذا آتيتهم ما سألوا ، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة . ولهذا لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين إعطائهم ما سألوا فإن آمنوا والا عذبوا وبين إظهارهم اختار انظارهم كما حلم عنهم غير مرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال تعالى إرشادا لنبيه ﷺ إلى الجواب عما سألوا (قل إنما الغيب لله) أي الأمر كله لله وهو يعلم العواقب في الأمور (فانتظروا إني معكم من المنتظرين) أي إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتهم فانتظروا حكم الله في فيكم . هدامع أنهم قد شاهدوا من آياته صلى الله عليه وسلم أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره فانشق اثنين فرقة من وراء الجبل وفرقة من دونه . وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا ولم يسألوا ، ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشادا وثبنا لأجابه ، ولكن علم أنهم إنما يسألون عنادا وتعتنا فتركهم فيما راىهم وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد كقوله تعالى (إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية) الآية . وقوله تعالى (ولو أنزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموت وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) الآية ، ولما فهم من المكابرة كقوله تعالى (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء) الآية ، وقوله تعالى (وإن يروا كسفا من السماء ساقطا) الآية ، وقال تعالى (ولو أنزلنا عليك كتابا في قرطاس فأسوسه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا إلى ما سألوا لأنه لا فائدة في جوابهم لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم لكثرة فجورهم وفسادهم ولهذا قال (فانتظروا إني معكم من المنتظرين)

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي ءَايَتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ * هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْأَرْضِ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّكْرِينَ * فَلَمَّا أَنجَيْنَاهُمْ إِذَاهُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ أَحْقَاقٍ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

غير تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة ، والحصب بعد الجذب ، والطرب بعد القحط ونحو ذلك (إذا لهم مكر في آياتنا) قال مجاهدا استهزاء وتكذيب كقوله (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائما) الآية ، وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم الصبح على أثر سماء كانت من الليل أي مطر ثم قال « هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم قال : « قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب » وقوله (قل الله أسرع مكرًا) أي أشد استدراجا وإمهالا حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب وإنما هو في مهلة ثم يؤخذ على غرة منه والكاثبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله ويحسونه عليه ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة فيجازيه على الجليل والحقير والتقيير والقطمير ، ثم أخبر تعالى أنه (هو الذي يسيركم في البر والبحر) أي يحفظكم ويكلؤكم بحراسته (حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم برية طيبة وفرحوا بها) أي بسرعة سيرهم رافقين فيها هم كذلك إذ (جاءتها) أي تلك السفن (ريح عاصف) أي شديدة (وجاءهم الموج من كل مكان) أي اغتم البحر عليهم (وظنوا أنهم أحيط بهم) أي هلكوا (دعوا الله مخلصين له الدين) أي لا يدعون معه صنما ولا وثنا بل يفردون بالدعاء والابتهال كقوله تعالى (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه . فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا) وقال ههنا (دعوا الله

مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه) أى هذه الحال (لنكونن من الشاكرين) أى لا نشرك بك أحداً ولنفردك بالعبادة هناك كما أفردناك بالداء ههنا ، قال الله تعالى (فلما أنجاهم) أى من تلك الورطة (إذا هم ييغون فى الأرض بغير الحق) أى كأن لم يكن من ذلك شيء (كأن لم يدعنا إلى ضرر مسه) ثم قال تعالى (يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم) أى إنما يذوق وبال هذا البغى أنتم أنفسكم ولا تضرون به أحداً غيركم كما جاء فى الحديث « ما من ذنب أجدر أن يجعل الله عقوبته فى الدنيا مع ما يدخر الله لصاحبه فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم » وقوله (متاع الحياة الدنيا) أى إنما لكم متاع فى الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة (ثم إلينا مرجعكم) أى مصيركم ومآلكم (فنبشركم) أى فنحبركم بجميع أعمالكم ونوفيكم بإيها فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَطْنَ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَنَّهُمْ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

ضرب تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها بالنبات الذى أخرجه الله من الأرض بماء أنزل من السماء ممياً كل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها وماتاً كل الأنعام من أب وقضب وغير ذلك (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها) أى زينتها الفانية (وازيدت وطن أهلها) أى حسنت بما خرج فى ربها من زهور نصرة مختلفة الأشكال والألوان (الذين زرعوها وغرسوها) (أنهم قادرون عليها) أى على جذاها وحصادها فيبينهم كذلك إذ جاءتها صاعقة أوريح شديدة باردة فأبيست أوراقها وأتلفت ثمارها ولهذا قال تعالى (أتأثنا أمرنا ليلاً أو نهراً فجعلناها حصيداً) أى يابساً بعد الخضرة والنضارة (كأن لم تغن بالأمس) أى كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك . وقال قتادة : كأن لم تغن كأن لم تنعم ، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن . ولهذا جاء فى الحديث « يؤتى بأنعم أهل الدنيا فيغس فى النار غمسة فيقال له هل رأيت خيراً قط ؟ هل مريبك نعيم قط ؟ فيقول لا ، ويؤتى بأشد الناس عذاباً فى الدنيا فيغس فى النعم غمسة ثم يقال له هل رأيت بؤساً قط ؟ فيقول لا » وقال تعالى إخباراً عن المهلكين (فأصبحوا فى دارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها) ثم قال تعالى (كذلك نفصل الآيات) أى نبين الحجج والأدلة (لقوم يتفكرون) فيعتبرون بهذا المثل فى زوال الدنيا عن أهلها سريعاً مع اغترارهم بها وتمسكهم وثقتهم بموعيدها وتفتتها عنهم فان من طبعها الحرب ممن طلبها ، والطلب لمن هرب منها ، وقد ضرب الله تعالى مثل الدنيا بنبات الأرض فى غير ما آية من كتابه العزيز فقال فى سورة الكهف (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً) وكذا فى سورة الزمر والحديد يضرب الله بذلك مثل الحياة الدنيا . وقال ابن جرير : حدثني الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال : سمعت مروان بن الحكم يقرأ على المنبر : وازينت وطن أهلها أنهم قادرون عليها ، وما كان لهلكهم إلا بذنوب أهلها . قال قد قرأتها وليست فى المصحف ، فقال عباس بن عبد الله بن عباس هكذا يقرؤها ابن عباس فاسلوا إلى ابن عباس فقال هكذا أقرأنى أبى بن كعب وهذه قراءة غريبة وكأنها زيدت للتفسير وقوله تعالى (والله يدعو إلى دار السلام) الآية . لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها رغب فى الجنة ودعا إليها وسبها دار السلام أى من الآفات ، والنقائص والتكبات فقال (والله يدعو إلى دار السلام ، ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) قال أيوب عن أنى قلابة عن النبي ﷺ قال « قيل لى لئن عنيك ولعقل قلبك ولتسمع أذنك فنامت عيني وعقل قلبي وسمعت أذنى ثم قيل لى (١) .

وأكل من المأدبة ورضى عنه السيد، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة ولم يرض عنه السيد والله السيد والدار الاسلام والمأدبة الجنة والداعي محمد ﷺ « وهذا حديث مرسل وقد جاء متصلا من حديث الليث عن خاله بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال خرج علينا رسول الله ﷺ يوما فقال « إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسى وميكائيل عند رجلى يقول أحدهما لصاحبه اضرب له مثلا، فقال : اسمع سمعت أذنك ، واعقل عقل قلبك ، إنما مثلك ومثل أمثك كمثل ملك اتخذ دارا ثم بنى فيها بيتا ثم جعل فيها مأدبة ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه ففهم من أجاب الرسول ومنهم من تركه فالله الملك والدار الاسلام والبيت الجنة وأنت يا محمد الرسول فمن أجابك دخل الاسلام ومن دخل الاسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل منها » رواه ابن جرير وقال قتادة حدثني خليل العصري عن أبي الدرداء مرفوعا قال : قال رسول الله ﷺ « ما من يوم طلعت فيه الشمس إلا وبجنيها ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم إن ماقل وكفى خيرا كثيرا وألهى » قال وأنزل في قوله يا أيها الناس هلموا إلى ربكم (والله يدعو إلى دار السلام) الآية . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح : الحسنى في الدار الآخرة كقوله تعالى (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) وقوله (وزيادة) هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضا ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحدود والرضا عنهم وما أخفاه لهم من قرة أعين وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم فانه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم بل بفضلته ورحمته وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وسعيد بن المسيب وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعبد الرحمن بن سابط ومجاهد وعكرمة وعامر بن سعد وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحق وغيرهم من السلف والخلف وقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد حدثنا عفان أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وقال « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى نادى يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون وما هو ألم يقتل موازيننا ؟ ألم يبيض وحوهنا ويدخلنا الجنة ويخرجنا من النار - قال - فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعظمهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم » وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة من حديث حماد بن سلمة به ، وقال ابن جرير حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال أخبرني شبيب عن أبان عن أبي تيممة الهجيمي أنه سمع أبا موسى الأشعري يحدث عن رسول الله ﷺ « إن الله يبعث يوم القيامة مناديا ينادى يا أهل الجنة - بصوت يسمع أولهم وآخرهم - إن الله وعدكم الحسنى وزيادة ، فالحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجهه الرحمن عز وجل » ورواه أيضا ابن أبي حاتم من حديث أبي بكر الهذلي عن أبي تيممة الهجيمي به وقال ابن جرير أيضا حدثنا ابن حميد حدثنا إبراهيم بن المختار عن ابن جريج عن عطاء عن كعب بن عجرة عن النبي ﷺ في قوله (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال « النظر إلى وجهه الرحمن عز وجل » وقال أيضا حدثنا ابن عبد الرحيم حدثنا عمر بن أبي سلمة سمعت زهيراً عن سمع أبا العالية حدثنا أنى بن كعب أنه سأل رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال : « الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجهه الله عز وجل » ورواه ابن أبي حاتم أيضا من حديث زهير به . وقوله تعالى (ولا يرهق وجوههم قتر) أى قمام وسواد في عرصات المحشر كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة من القتر والغبرة (ولا ذلة) أى هوان وصغار أى لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر بل هم كما قال

تعالى في حقهم (فواقهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا) أى نضرة في وجوههم وسرورا في قلوبهم ، جعلنا الله منهم فضله ورحمته آمين

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَتَرَهُمْ ذِلَّةً مَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات ويزدادون على ذلك عطف بذكر حال الأشقياء فذكر تعالى عدله فيهم وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها لا يزيدهم على ذلك (وترهقهم) أى تعزيبهم وتعلمهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها كما قال (وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل) الآية وقال تعالى (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون * إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رؤسهم) الآيات وقوله (ما لهم من الله من عاصم) أى مانع ولا واق يقيهم العذاب كقوله تعالى (يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لا وزر * إلى ربك يومئذ المستقر) وقوله (كأنما أغشيت وجوههم) الآية إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة كقوله تعالى (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين استودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم ؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون) وقوله تعالى (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة) الآية

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فزَيْلَنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِلِينَ * هُنَالِكَ تَبْلَوْا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمْ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

يقول تعالى (ويوم نحشرهم) أى أهل الأرض كلهم من جن وإنس وبر وفاجر كقوله (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا) (ثم نقول للذين أشركوا) الآية أى الزموا أنتم وهم مكانا معينا امتازوا فيه عن مقام المؤمنين كقوله تعالى (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) وقوله (ويوم تقوم الساعة يومئذ يفرقون) وفى الآية الأخرى (يومئذ يصدعون) أى يصيرون صدعين وهذا يكون إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء ولهذا قيل ذلك (١)

المؤمنون إلى الله تعالى أن يأتى لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا ، وفى الحديث الآخر « نحن يوم القيامة على كور فوق الناس » وقال الله تعالى فى هذه الآية الكريمة إخبارا عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة (مكانكم أنتم وشركاؤكم ، فزيلنا بينهم) الآية أنهم أنكروا عبادتهم وتبرءوا منهم كقوله (كلا سيكفرون بعبادتهم) الآية وقوله (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا) وقوله (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء) الآية وقوله فى هذه الآية إخبارا عن قول الشركاء فمأراجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم (فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم) الآية أى ما كنا نشعر بها ولا نعلم بها ، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندرى بكم والله شهيد بيننا وبينكم أنا مادعونكم إلى عبادتنا ولا أمرناكم بها ولا رضينا منكم بذلك ، وفى هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيئا ، ولم يأمرهم بذلك ولا رضى به ولا أراد به بل تبرأ منهم وقت أحوج ما يكونون إليه وقد تركوا عبادة الحى القيوم السميع البصير القادر على كل شيء العليم بكل شيء ، وقد أرسل رسوله وأنزل كتبه آمرا بعبادته وحده لا شريك له ناهيا عن عبادة ما سواه كما قال تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة)

وقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجمعنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟) والمشركون أنواع وأقسام كثيرون قد ذكرهم الله في كتابه وبين أحوالهم وأقوالهم ورد عليهم فيما هم فيه أثم رد ، وقوله تعالى (هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت) أى فى موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما سلف من عملها من خير وشر كقوله تعالى (يوم تبلى السرائر) وقال تعالى (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) وقال تعالى (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسييا) وقد قرأ بعضهم (هنالك تتلو كل نفس ما أسلفت) وفسرها بعضهم بالقراءة ، وفسرها بعضهم بمعنى تتبع ما قدمت من خير وشر وفسرها بعضهم بحديث «لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت » الحديث ، وقوله (وردوا إلى الله مولاهم الحق) أى ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل ففصلها وأدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار (وضل عنهم) أى ذهب عن المشركين (ما كانوا يفترون) أى ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه .

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ أَلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ * كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية إلهيته فقال تعالى (قل من يرزقكم من السماء والأرض) أى من ذا الذى ينزل من السماء ماء المطر فيشق الأرض شقا بقدرته ومشيتته فيخرج منها حبا وعنباً وقضبا وزيتونا ونخلا وحداثق غلبا وفاكهها وأبا) إله مع الله ؟ فسيقولون الله (أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه ؟) وقوله (أمن يملك السمع والأبصار) أى الذى وهبكم هذه القوة السامعة ، والقوة الباصرة ، ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها كقوله تعالى (قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار) الآية . وقال (قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم) الآية وقوله (ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) أى بقدرته العظيمة ومنته العميمة ، وقد تقدم ذكر الخلاف فى ذلك وأن الآية عامة لذلك كله وقوله (ومن يدبر الأمر) أى من يديه ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه وهو المتصرف الحاكم الذى لا معقب لحكمه ، ولا يسئل عما يفعل وهم يسألون (يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن) فالملك كله العلوى والسفلى وما فهما من ملائكة وإنس وجان فقبيرون إليه عبيد له خاضعون لديه (فسيقولون الله) أى وهم يعلمون ذلك ويعترفون به (قل أفلا تَتَّقُونَ) أى أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم وقوله (فذللكم الله ربكم الحق) الآية أى فهذا الذى اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذى يستحق أن يفرد بالعبادة (فماذا بعد الحق إلا الضلال) أى فكل معبود سواه باطل لا إله إلا هو واحد لا شريك له (فأنى تصرفون) أى فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه وأنتم تعلمون أنه الرب الذى خلق كل شىء والمتصرف فى كل شىء ، وقوله (كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا) الآية أى كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيرهم مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرزاق المتصرف فى الملك وحده الذى بعث رسله بتوحيده ، فلماذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكنى النار كقوله (قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين)

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَا يَهْدِي

إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿١٧﴾

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره ، وعبدوا من الأصنام والأنداد (قل هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده ؟) أى من بدأ خلق هذه السموات والأرض ثم ينشئ ما فيها من الخلائق ، ويفرق أجرام السموات والأرض ويبدلها ببناء ما فيها ثم يعيد الخلق خلقاً جديداً (قل الله) هو الذى يفعل هذا ويستقل به وحده لا شريك له (فأنى تؤفكون) أى فكيف تصرفون عن طريق الرشd إلى الباطل (قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ؟ قل الله يهدى للحق) أى أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال ، وإنما يهدى الحيارى والضلال ويقلب القلوب من الغى إلى الرشd الذى لا إله إلا هو (أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدى إلا أن يهدى) أى أفتتبع العبد الذى يهدى إلى الحق ويصبر بعد العمى أم الذى لا يهدى إلى شىء إلا أن يهدى لعماه وبكمه كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً) وقال لقومه (أتعبدون ما تتحتون والله خلقكم وما تعملون) إلى غير ذلك من الآيات وقوله (فما لكم كيف تحكمون) أى فما بالكم أن يذهب بعقولكم كيف سويتم بين الله وبين خلقه وعدلتم هذا بهذا وعبدتم هذا وهذا ، وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم المهادى من الضلالة بالعبادة وحده وأخلصتم إليه الدعوة والابانة ، ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون فى دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً وإنما هو ظن منهم أى توهم وتخيل ، وذلك لا يغنى عنهم شيئاً (إن الله عليم بما يفعلون) نهديد لهم ووعيد شديد لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أنم الجزء

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾

هذا بيان لإعجاز القرآن وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعانى العزيزة العزيزة النافعة فى الدنيا والآخرة لا يكون إلا من عند الله الذى لا يشبهه شىء فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله وأقواله فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين ولهذا قال تعالى (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) أى مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله ولا يشبه هذا كلام البشر (ولكن تصديق الذى بين يديه) أى من الكتب المتقدمة ومهيمن عليه ومبين لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل وقوله (وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين) أى وبيان الأحكام والحلال والحرام بيانا شافياً كافياً حقاً لا مزية فيه من الله رب العالمين كما تقدم فى حديث الحارث الأعور عن على بن أبى طالب فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وفصل ما بينكم أى خبر عما سلف وعما سأتى وحكم فيما بين الناس بالشرع الذى يحبه الله ويرضاه . وقوله (أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) أى إن ادعيتم وافتريتم وشككتم فى أن هذا من عند الله وقتلتم كذباً ومينا إن هذا من عند محمد فمحمد بشر مثلكم وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن فأتوا أتم بسورة مثله ، أى من جنس هذا القرآن واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان ، وهذا هو المقام الثالث فى التحدى فإنه تعالى تحداهم ودعاهم إن كانوا صادقين فى دعواهم أنه من عند محمد فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده وليستعينوا بمن شاءوا وأخبر أنهم لا يقدرُونَ على ذلك ولا سبيل لهم إليه فقال تعالى (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض

ظهِرَ) ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال في أول سورة هود (أم يقولون افتراء قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) ثم تنازل إلى سورة فقال في هذه السورة (أم يقولون افتراء قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) وكذا في سورة البقرة وهي مدنية تحداهم بسورة منه وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبدا فقال (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاقوا النار) الآية ، هذا وقد كانت الفصاحة من سجايهم ، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب ، ولكن جاءهم من الله مالا قبل لأحديه ، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته وجزالته وطلاوته وإفادته وبراعته فكانوا أعلم الناس به وأفهمهم له وأتبعهم له وأشدهم له انقيادا كما عرف السحرة بعلمهم بفنون السحر أن هذا الذي فعله موسى عليه السلام لا يصدر إلا عن مؤيد مسدد مرسل من الله وأن هذا لا استطاع لبشر إلا بإذن الله . وكذلك عيسى عليه السلام بعث في زمان علماء الطب ومعالجة المرضى فكان يرى الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله ، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله . ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله صلى عليه وسلم أنه قال « ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أتى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا » . وقوله (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) يقول بل كذب هؤلاء بالقرآن ولم يفهموه ولا عرفوه (ولما يأتهم تأويله) أى ولم يحصلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلا وسفها (كذلك كذب الذين من قبلهم) أى من الأمم السالفة (فانظر كيف كان عقابة الظالمين) أى فانظر كيف أهلكتهم بتكذيبهم رسلنا ظلما وعلوا وكفرا وعنادا وجهلا فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم . وقوله (ومنهم من يؤمن به) الآية ، أى ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك ويتنفع بما أرسلت به (ومنهم من لا يؤمن به) بل يموت على ذلك ويبعث عليه (وربك أعلم بالمفسدين) أى وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ؟ ومن يستحق الضلالة فيضلّه ، وهو العادل الذي لا يجوز ، بل يعطى كلا ما يستحقه تبارك وتعالى وتقدس وتنزه لإله الإلهو

﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُهْدِي الْعُمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصِرُونَ * إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ وإن كذبك هؤلاء المشركون فبرأهم ومن عملهم (فقل لي عملي ولكم عملكم) كقوله تعالى (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون) إلى آخرها ، وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين (إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله) الآية ، وقوله (ومنهم من يستمعون إليك) أى يسمعون كلامك الحسن والقرآن العظيم والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة في القلوب والأديان والأبدان وفي هذا كفاية عظيمة ، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم فإنك لا تقدر على إسراع الأصم وهو الأطرش فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله (ومنهم من ينظر إليك) أى ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التؤدة والسمت الحسن والخلق العظيم ، والدلالة الظاهرة على نبوتك لأولى البصائر والنهى ، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم ، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار ، وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الاحتقار (وإذ أروك إن يتخذونك إلا هزوا) الآية ، ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحدا شيئا وإن كان قد هدى به من هدى وبصر به من العمى ، وفتح به أعينا عميا ، وأذانا صما ، وقلوبا غلفا ، وأضل به عن الإيمان آخرين ، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء الذي لا يسل عما يفعل وهم يسئلون لعلمه وحكمته وعدله ، ولهذا قال تعالى (إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون) وفي الحديث عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم

محرمًا قلا تظالموا - إلى أن قال في آخره - يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم بإها فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلو من إلا نفسه » رواه مسلم بطوله

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَبَّانٌ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

يقول تعالى مذكرا للناس قيام الساعة وحصرهم من أجدانهم إلى عرصات القيامة (ويوم يحشرهم) الآية . كقوله (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) وكقوله (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) وقال تعالى (يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا * يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا * نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقه إن لبثتم إلا يوما) وقال تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) الآيتين ، وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة كقوله (قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين * قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون) ، وقوله (يتعارفون بينهم) أى يعرف الأبناء الآباء والقرابات بعضهم لبعض كما كانوا في الدنيا ولكن كل مشغول بنفسه (فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم) الآية ، وقال تعالى (ولا يسأل حميم حميما) الآيات وقوله (قد خسر الدين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين) كقوله تعالى (ويل للمكذبين) لأنهم خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة ألا ذلك هو الحشران المبين ولا خسارة أعظم من خسارة من فرق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخاطبا الرسول ﷺ (وإما نريك بعض الذى نعدهم) أى ننتقم منهم فى حياتك لتقر عينك منهم (أو تتوفاك فإلينا مرجعهم) أى مصيرهم ومنقلبهم والله شهيد على أفعالهم بعدك وقد قال الطبرانى ، حدثنا عبد الله ابن أحمد حدثنا عقبة بن مكرم حدثنا أبو بكر الحنفى حدثنا داود بن الجارود عن أبي السليل عن حذيفة بن أسيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « عرضت على أمى البارحة لدى هذه الحجرة أولها وآخرها » فقال رجل يارسول الله عرض عليك من خلق فكيف من لم يخلق ؟ فقال « صوروا لى فى الطين حتى أتى لأعرف بالإنسان منهم من أحكم بصاحبه » ورواه عن محمد بن عثمان بن أبى شيبة عن عقبة بن مكرم عن يونس بن بكير عن زياد بن النذير عن أبى الطفيل عن حذيفة بن أسيد به نحوه . وقوله (ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم) قال مجاهد يعنى يوم القيامة (قضى بينهم بالقسط) الآية كقوله تعالى (وأشرق الأرض بنور ربها) الآية فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسوله وكتاب أعمالها من خير وشر موضوع شاهد عليهم وحفظهم من الملائكة شهود أيضا أمة بعد أمة وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم فى الخلق إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم ويقضى لهم كما جاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، المقضى لهم قبل الخلائق » فأتمته إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا ﴾

مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ * أَأَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَلَا لَنْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ * ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى مخبرا عن كفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب وسؤالهم عن وقته قبل التعيين ممالا فائدة لهم فيه كقوله (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق) أى كائنة لا محالة وواقعة وإن لم يعلموا وقتها عينا ، ولهذا أرشد تعالى رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال (قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا) الآية أى لا أقول إلا ما علمنى ولا أقدر على شيء مما استأثر به إلا أن يطلعنى الله عليه فأنا عبده ورسوله إليكم وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وأنها كائنة ولم يطلعنى على وقتها ولكن (لكل أمة أجل) أى لكل قرن مدة من العمر مقدرة فاذا انقضى أجلهم (فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) كقوله (ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها) الآية ثم أخبر أن عذاب الله سيأتيهم بغتة فقال (قل أرأيتم أن أتاكم عذابه بينا تأتونهارا ؟) أى ليلا أو نهارا (ماذا يستعجل منه المجرمون * ثم إذا ما وقع أنتم به الآن وقد كنتم به تستعجلون) يعنى أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا (ربنا أبصرنا وسمعنا) الآية وقال تعالى (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون) (ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد) أى يوم القيامة يقال لهم هذا تبكيئا وتقريبا كقوله (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسح هذا أم أتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تبصروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون)

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُوبِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَا فِتْنَتَ بِهِ وَأَسْرَوْا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

يقول تعالى ويستخبرونك (أحق هو) أى المعاد والقيامة من الأجداث بعد صيرورة الأجسام تراباً (قل إى وربى إنه حق وما أتم بمعجزين) أى ليس صيرورتكم تراباً بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم فإِنما أمره إذا أراد شيئاً أن له كن فيكون) وهذه الآية ليس لها نظير فى القرآن إلا آيتان أخريان يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد فى سورة سباء (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم) وفى التغابن (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير) ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يود الكافر لو افترس من عذاب الله بلاء الأرض ذهباً (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضى بينهم بالقسط) أى بالحق (وهم لا يظلمون)

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * هُوَ يُخَيِّ

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأن وعده حق كائن لا محالة وأنه يحيي ويميت وإليه مرجعهم ، وأنه القادر على ذلك العلم بما تفرق من الأجسام وتمزق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ قَبِذْكَ فَلْيَمْرُؤًا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾

يقول تعالى: ثم اتينا على خلقه بما أنزل من القرآن العظيم على رسوله الكريم (يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم)

أى زاجر عن الفواحش (وشفاء لما فى الصدور) أى من الشبه والشكوك وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس وهدى ورحمة أى يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى ، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه كقوله تعالى (وتزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسار) وقوله (قل هو الذى آمنوا هدى وشفاء) الآية، وقوله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) أى بهذا الذى جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا فإنه أولى ما يفرحون به (هو خير مما يجمعون) أى من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الناهية لا محالة كما قال ابن أبى حاتم فى تفسير هذه الآية وذكر بسنده عن بقية بن الوليد عن صفوان بن عمرو سمعت أيفع بن عبد الكلاعى يقول لما قدم خراج العراق إلى عمر رضى الله عنه خرج عمرو ومولى له فجعل عمر يعد الإبل فإذا هى أكثر من ذلك فجعل عمر يقول الحمد لله تعالى ويقول مولاه هذا والله من فضل الله ورحمته فقال عمر كذبت ليس هذا . هو الذى يقول الله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته) الآية وهذا مما يجمعون وقد أسنده الحافظ أبو القاسم الطبرانى فرواه عن أبى زرعة الدمشقى عن حيوة بن شريح عن بقية فذكره

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ ءَلَّهِ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم نزلت إنكار على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصايل كقوله تعالى (وجعلوا لله ممّا ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً) الآيات وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبى إسحق سمعت أبا الأحوص وهو عوف بن مالك بن نضلة يحدث عن أبيه قال أتيت رسول الله ﷺ وأنا رث الهيمّة فقال «هل لك مال؟» قلت نعم . قال من أى المال؟ قال قلت من كل المال من الإبل والرقيق والحيل والغنم فقال «إذا آتاك الله مالا فلير عليك - وقال - هل تنتج إبلك صحاحا آدابها فتعتمد إلى موسى فتقطع آذانها فتقول هذه بحر وتشق جلودها وتقول هذه صرم ونحرّمها عليك وعلى أهلِكَ» قال نعم قال «فإن ما آتاك الله لك حل ، ساعد الله أشد من ساعدك وموسى الله أحد من موساك» وذكر عام الحديث، ثم رواه عن سفيان بن عيينة عن أبى الزعراء عمرو بن عمرو عن عمه أبى الأحوص ، وعن بهز بن أسد عن حماد بن سامة عن عبد الملك بن عمير عن أبى الأحوص به، وهذا حديث جيد قوى الإسناد ، وقد أنكر الله تعالى على من حرم ما أحل الله أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء التى لا مستند لها ولا دليل عليها، ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة فقال (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة) أى ما ظنهم أن يصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة ، وقوله (إن الله وفضل على الناس) قال ابن جرير فى تركه معاجلتهم بالعقوبة فى الدنيا (قلت) ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المباح فى الدنيا ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم فى دنياهم أو دينهم (ولكن أكثرهم لا يشكرون) بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم ، ويضيقون على أنفسهم فيجعلون بعضا حلالا وبعضا حراما . وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم ، وأهل الكتاب فيما استدعوه فى دينهم . وقال ابن أبى حاتم فى تفسير هذه الآية حدثنا أبى حدثنا أحمد بن أبى الحوارى حدثنا رباح حدثنا عبد الله بن سليمان حدثنا موسى بن الصباح فى قوله عز وجل (إن الله وفضل على الناس) قال إذا كان يوم القيامة يؤتى بأهل ولاية الله عز وجل فيقومون بين يدى الله عز وجل ثلاثة أصناف فيؤتى برجل من الصنف الأول فيقول : عبدى لما إذا عملت ؟ فيقول يا رب خلقت الخنة وأشجارها وثمارها وأنهارها وحورها ونعيمها وما أعددت لأهل طاعتك فيها فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى شوقا إليها - قال - فيقول الله تعالى عبدى إنما عملت للجنة هذه الجنة فادخلها ومن فضلى عليك قد أعثقتك من النار ومن فضلى عليك أن أدخلك جنتى

فیدخل هو ومن معه الجنة - قال - ثم یؤتی برجل من الصنف الثانی فیقول عبدی لماذا عملت فیقول یا رب خلقت ناراً وخلقت أغلالها وسعیرها ومحمومها ومحمومها وما أعددت لأعدائك وأهل معصیتك فیها فأسهرت لیلی وأظلمات نهاری خوفاً منها فیقول عبدی إنما عملت ذلك خوفاً من ناری فإنی قد أعتقتك من النار ومن فضلی عليك أن أدخلك جنتی فیدخل هو ومن معه الجنة . ثم یؤتی برجل من الصنف الثالث فیقول عبدی لماذا عملت ؟ فیقول رب حباً لك وشوقاً إلیك وعزتك لقد أسهرت لیلی وأظلمات نهاری شوقاً إلیك وحباً لك . فیقول تبارك وتعالی : عبدی إنما عملت حباً لی وشوقاً إلی فتجتلی له الرب جل جلاله ویقول ها أنا ذا فانظر إلی ثم یقول من فضلی عليك أن أعتقتك من النار وأبیحك جنتی وأزیرك ملائكتی وأسلم عليك بنفسی . فیدخل هو ومن معه الجنة

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾

يخبر تعالى نبیه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمة وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين كقوله (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) الآية وقال تعالى (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) الآية وإذا كان هذا علمه بركات هذه الأشياء فكيف علمه بركات المكلفين للمؤمنين بالعبادة كما قال تعالى (وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين) ولهذا قال تعالى (وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه) أي إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راءون سامعون ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

يخبر تعالى أن أولياء الله الذين آمنوا وكانوا يتقون كفسرهم بهم ، فكل من كان تقياً كان لله ولياً (لا خوف عليهم) أي فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة (ولا هم يحزنون) على ما وراءهم في الدنيا ، وقال عبد الله بن مسعود وابن عباس وغير واحد من السلف أولياء الله الذين إذا رؤوا ذكر الله ، وقد ورد هذا في حديث مرفوع كما قال البزار حدثنا علي بن حرب الرازي حدثنا محمد بن سعيد بن سابق حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعري وهو القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رجل يا رسول الله من أولياء الله ؟ قال « الذين إذا رؤوا ذكروا الله » ثم قال البزار وقد روى عن سعيد مرسل ، وقال ابن جرير حدثنا أبو هشام الرقاعي حدثنا أبو فضيل حدثنا أبي عن عمارة بن القفيع عن أبي زرعة عن عمرو بن جرير البجلي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن من عباد الله عباداً يعظمهم الأنبياء والشهداء » قيل من هم يا رسول الله لعلنا نجهم ؟ قال « هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب وجوههم نور على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس » ثم قرأ (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ثم رواه أيضاً أبو داود من حديث جرير عن عمارة

ابن القعقاع عن أبي زرعة عن عمرو بن جرير عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم بمثله وهذا أيضا إسناد جيد إلا أنه منقطع بين أبي زرعة وعمر بن الخطاب والله أعلم ، وفي حديث الإمام أحمد عن أبي النضر عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ « يأتى من أفناء الناس ونوازع القبائل قوم لم تتصل بينهم أرحام متقاربة تحابوا في الله وتصافوا في الله يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم عليها يفرح الناس ولا يهرعون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » والحديث مطول وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن الأعمش عن ذكوان بن أبي صالح عن رجل عن أبي الدرداء رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) قال « الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له » وقال ابن جرير حدثني أبو السائب حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن عطاء بن يسار عن رجل من أهل مصر عن أبي الدرداء في قوله (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) قال سألت رجل أبا الدرداء عن هذه الآية فقال : لقد سألت عن شيء ما سمعت أحدا سأل عنه بعد رجل سأل عنه رسول الله ﷺ فقال « هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم أو ترى له بشرها في الحياة الدنيا وبشرها في الآخرة الجنة » ثم روى ابن جرير عن سفيان عن ابن النكدر عن عطاء بن يسار عن رجل من أهل مصر أنه سأل أبا الدرداء عن هذه الآية فذكر نحوه ما تقدم ثم قال ابن جرير حدثني الثوري حدثنا حجاج بن منهال حدثنا حماد بن زيد عن عاصم بن بهدلة عن أبي صالح قال : سمعت أبا الدرداء سئل عن هذه الآية (الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى) فذكر نحوه سواء وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبان حدثنا يحيى عن أبي سلمة عن عباد بن الصامت أنه سأل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أرأيت قول الله تعالى (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) فقال « لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد من أمتي - أو قال أحد قبلك - تلك الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له » وكذا روى أبو داود الطيالسي عن عمران الفطان عن يحيى بن أبي كثير به ، ورواه الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير فذكره ورواه علي بن المبارك عن يحيى عن أبي سلمة قال : نبئنا عن عباد بن الصامت سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فذكره ، وقال ابن جرير حدثني أبو حميد الحمصي حدثني يحيى بن سعيد حدثنا عمر بن عمرو بن عبد الأحمشي عن حميد بن عبد الله المزني قال : أتى رجل عباد بن الصامت فقال آية في كتاب الله أسألك عنها قول الله تعالى (لهم البشرى في الحياة الدنيا) فقال عباد ما سألتني عنها أحد قبلك سألت عنها نبي الله فقال مثل ذلك « ما سألتني عنها أحد قبلك الرؤيا الصالحة يراها العبد المؤمن في المنام أو ترى له » ثم روى من حديث موسى بن عبيدة عن أيوب بن خالد ابن صفوان عن عباد بن الصامت أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) فقد عرفنا بشرى الآخرة الجنة فما بشرى الدنيا ؟ قال « الرؤيا الصالحة يراها العبد أو ترى له . وهي جزء من أربعة وأربعين جزءا أو سبعين جزءا من النبوة » وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا بهز حدثنا حماد حدثنا أبو عمران عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر أنه قال يا رسول الله : الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ، ويثنون عليه به فقال رسول الله ﷺ « تلك عاجل بشرى المؤمن » روى مسلم ، وقال أحمد أيضا حدثنا حسن يعني الأشيب حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال « لهم البشرى في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن جزءا من تسعة وأربعين جزءا من النبوة » قال - الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن جزء من تسعة وأربعين جزءا من النبوة فمن رأى ذلك فليخبر بها ، ومن رأى سوى ذلك فإمهاو من الشيطان ليحزنه فلينبث عن يساره ثلاثا وليكبر ولا يخبر بها أحدا » لم يخرجوه وقال ابن جرير حدثني يونس أنبأنا ابن وهب حدثني عمرو بن الحارث أن دراجا أبا السمع حدثنا عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال « لهم البشرى في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة » وقال أيضا ابن جرير حدثني محمد بن أبي حاتم المؤدب حدثنا عمار ابن محمد حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ « (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) - قال - في

الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد أو تراه وهي في الآخرة الجنة » ثم رواه عن أبي كريب عن أبي بكر بن عياش عن أبي حصين عن أبي صالح عن أبي هريرة أنه قال : الرؤيا الحسنة بشرى من الله ، وهي من المبشرات هكذا رواه من هذه الطرق موفوفا ، وقال أيضا حدثنا أبو كريب حدثنا أبو بكر حدثنا هشام عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « الرؤيا الحسنة هي البشارة يراها المسلم أو ترى له » وقال ابن جرير حدثني أحمد بن حماد الدولابي حدثنا سفيان عن عبيد الله بن أبي يزيد عن أبيه عن سباع بن ثابت عن أم كريب السكبية سمعت رسول الله ﷺ يقول « ذهبت النبوة وبقيت المبشرات » وهكذا روى عن ابن مسعود وأبي هريرة وابن عباس ومجاهد وعروة بن الزبير ويحيى بن أبي كثير وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح وغيرهم أنهم فسروا ذلك بالرؤيا الصالحة . وقيل المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة كقوله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهون أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نزلا من غفور رحيم) وفي حديث البراء رضى الله عنه أن المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب فقالوا اخرجي أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ورب غير غضبان فتخرج من فيه كاتسيل القطرة من فم السقاء ، وأما بشرهم في الآخرة فكما قال تعالى (لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون) وقال تعالى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم) وقوله (لا تبدل لكلمات الله) أي هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة (ذلك هو الفوز العظيم)

﴿ وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ مِمَّا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ (ولا يحزنك) قول هؤلاء المشركين واستعن بالله عليهم وتوكل عليه فإن العزة لله جميعا أي جميعها له ولرسوله وللمؤمنين (هو السميع العليم) أي السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم ، ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وأن المشركين يعبدون الأصنام وهي لا غلاك شيئا لا ضرا ولا نفعا ولا دليل لهم على عبادتها ، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخريصهم وكذبهم وإفكهم ، ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه ، أي يستريحون فيه من نصبهم وكلالهم وحركاتهم (والنهار مبصر) أي مضيا لمعاشهم وسعيهم وأسفارهم ومصالحهم (إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون) أي يسمعون هذه الحجج والأدلة فيعتبرون بها ويسندلون على عظمة خالقها ومقدرها ومسيرها

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ إِنْ الَّذِينَ يُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

يقول تعالى منكرا على من ادعى أن له (ولدا) سبحانه هو الغني أي تقدر عن ذلك هو الغني عن كل ما سواه وكل شيء فقير اليه (له ما في السموات وما في الأرض) أي فكيف يكون له ولد مما خلق وكل شيء مملوك له عبده (إن عندكم من سلطان بهذا) أي ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان (أتقولون على الله ما لا تعلمون) إنكار ووعيد أكيد وتهديد شديد كقوله تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إذا * تكاد السموات ينفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا

أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عداً * وكلهم آتية يوم القيامة فرداً * ثم توعده تعالى الكاذبين عليه المقتربين ممن زعم أن له ولداً بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة فأما في الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متعهم قليلاً (ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ) كما قال تعالى هبنا (متاع في الدنيا) أي مدة قريبة (ثم إلينا مرجعهم) أي يوم القيامة (ثم نذيقهم العذاب الشديد) أي الموجع المؤلم (بما كانوا يكفرون) أي بسبب كفرهم وافتراءهم وكذبهم على الله فيما ادعوه من الإفك والزور

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِبَآئِتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ * فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَسْأَلُكُمْ مِنْ أَجْرِي إِن أَدْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَذَبْجْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَةً وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِبَآئِتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه (واتل عليهم) أي أخبرهم واقصص عليهم أي على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك (نبأ نوح) أي خبره مع قومه الذين كذبوه كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم لحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك (إذ قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم) أي عظم عليكم (مقامي) أي فيكم بين أظهركم (وتذكيري) أي بآيات الله (أي بحججه وبراهينه) (فعلى الله توكلت) أي فاني لا أبالي ولا أكف عنكم سواء عظم عليكم أولا (فاجمعوا أمركم وشركاءكم) أي فاجتمعوا أتم وشركاءكم الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن (ثم لا يكن أمركم عليكم غمة) أي ولا يجعلوا أمركم عليكم ملتبسا، بل افصلوا حالكم معي فإن كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا إلى ولا تنظرون أي ولا تؤخروني ساعة واحدة أي مهما قدرتم فافعلوا فاني لا أباليكم ولا أخاف منكم لأنكم لستم على شيء كما قال هود لقومه (إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدي في جميعائهم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم) الآية . وقوله (فان توليتهم) أي كذبتهم وأدبرتهم عن الطاعة (فما سألتكم من أجر) أي لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئا (إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) أي وأنا ممثلا ما أمرت به من الإسلام لله عز وجل والإسلام هو دين الأنبياء جميعا من أولهم إلى آخرهم ، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهلهم كما قال تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) قال ابن عباس سيلا وسنة فهذا نوح يقول (وأمرت أن أكون من المسلمين) وقال تعالى عن إبراهيم الخليل (إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين) * ووصى بها إبراهيم بنه ويعقوب يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تعوتن إلا وأنتم مسلمون) وقال يوسف (رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين) وقال موسى (يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) وقالت السحرة (ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين) وقالت بلقيس (رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) . وقال تعالى (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا) وقال تعالى (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) وقال خاتم الرسل وسيد البشر صلى الله عليه وسلم (إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) أي من هذه الأمة ، ولهذا قال في الحديث الثابت عنه «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات وديننا واحد» أي وهو عبادة الله وحده لا شريك له وإن تنوعت شرائعنا وذلك معنى قوله أولادى علات وهم الاخوة من أمهات شتى والأب واحد ، وقوله تعالى (فكذبوه فنجيناها ومن معه) أي على دينه (في الفلك) وهي السفينه (وجعلناهم خلائف) أي في الأرض (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة النذرين) أي يا محمد

كيف أنجين المؤمنين وأهلكنا المكذبين

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾

يقول تعالى ثم بعثنا من بعد نوح رسلا إلى قومهم فجاءهم بالبينات أى بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاءهم به (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) أى لما كانت الأمم لتؤمن بما جاءهم به رسلهم بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلاوا إليهم كقوله تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) الآية وقوله (كذلك نطبع على قلوب المعتدين) أى كما طبع الله على قلوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم معن بعدهم ويختم على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، والمراد أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسول وأنجي من آمن بهم وذلك من بعد نوح عليه السلام فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم عليه السلام على الإسلام إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام فبعث الله إليهم نوحا عليه السلام ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض . وقال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، وقال الله تعالى (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح) الآية ، وفي هذا انذار عظيم لشركي العرب الذين كذبوا سيد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العذاب والنكال فماذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك ؟

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ * قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفَاحُ السَّحَرُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾

يقول تعالى (ثم بعثنا) من بعد تلك الرسل (موسى وهارون إلى فرعون وملئه) أى قومه (بآياتنا) أى حججنا وبراهيننا (فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) أى استكبروا عن اتباع الحق والالتقاد له وكانوا قوما مجرمين (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين) كأنهم قبحهم الله أقسموا على ذلك وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان كما قال تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) الآية (قال لهم موسى) منكر عليهم (أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون) قالوا أجيئنا لنلفتنا (عما وجدنا عليه آباءنا) أى الدين الذى كانوا عليه (وتكون لكم) أى لك ولهارون (الكبرياء) أى العظمة والرياسة (في الأرض وما نحن لكم بمؤمنين)

وكثيرا ما يذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون في كتابه العزيز لأنها من أعجب القصص فإن فرعون حذر من موسى كل الحذر فسخره القدر أن ربه هذا الذى يحذر منه على فراشه ومائدته بمنزلة الولد ثم ترعرع وعقد الله له سببا أخرجه من بين أظهرهم وورقه النبوة والرسالة والتكليم وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده ويرجع إليه هذا مع ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان ، فجاءه برسالة الله تعالى وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه السلام ، فتمرد فرعون واستكبر وأخذته الحمية ، والنفس الحبيشة الآية وقوى رأسه وتولى بركنه وادعى ماليس له وتجهرم على الله وعتا وبغى وأهان حزب الإيمان من بنى إسرائيل والله تعالى يحفظ رسوله موسى عليه السلام وأخاه هارون ويحوطهما بعنايته ويحرسهما بعينه التى لاتسام ولم تزل الحاجة والمحادلة والآيات تقوم على يدي موسى شيئا بعد شيء : ومرة بعد مرة مما يهز العقول ويدهش الأبواب مما لا يقوم له شيء ولا يأتى به إلا من هو مؤيد من الله (وما تأتيتهم

من آية إلهي أكبر من أخها) وصمم فرعون وملؤه فبحمهم الله على التكذيب بذلك كله والجحد والعناد والمكابرة حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، وأغرفهم في صبيحة واحدة أجمعين (فقطح دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين)

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُنْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾

ذكر الله سبحانه قصة السحرة مع موسى عليه السلام في سورة الأعراف وقد تقدم الكلام عليها هناك وفي هذه السورة وفي سورة طه وفي الشعراء وذلك أن فرعون لعنه الله أراد أن يهرج على الناس ويعارض ما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين، بزخارف السحرة والشعبدنين، فانعكس عليه النظام ولم يحصل له ذلك الرام، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك الحفل العام (وألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون) فظن فرعون أنه يستنصر بالسحار، على رسول عالم الأسرار فخاب وخسر الجلبة واستوجب النار (وقال فرعون اتنوني بكل ساحر عليم * فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) وإنما قال لهم ذلك لأنهم لما اصطفوا وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل (قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى * بل ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألقى ما في يمينك تلفف ما صنعوا وإن ما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) فعند ذلك قال موسى لما ألقوا (ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عمار بن الحارث حدثنا عبد الرحمن يعني اللشكبي أخبرنا أبو جعفر الرازي عن ليث وهو ابن أبي سليم قال: بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى تقرأ في إناء فيه ماء ثم يصب على رأس المسحور الآية التي من سورة يونس (فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) والآية الأخرى (فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون) إلى آخر أربع آيات وقوله (إن ما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى)

﴿ فَمَاءٌ آمِنٌ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات إلا قليل من قوم فرعون من الذرية وهم الشباب على وجل وخوف منه ومن ملئه أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر، لأن فرعون لعنه الله كان جبارا عنيدا مسرفا في التمرد والعنوت وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعيته منه خوفا شديدا. قال العوفي عن ابن عباس (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئه أن يفتنهم) قال فان الذرية التي آمنت لموسى من أناس غير بني إسرائيل من قوم فرعون يسير منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه وروى على بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه) يقول بني إسرائيل وعن ابن عباس والضحاك وقادة الذرية القليل وقال مجاهد في قوله (إلا ذرية من قومه) قال هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آبائهم واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية أنها من بني إسرائيل

لا من قوم فرعون لعود الضمير على أقرب المذكورين ، وفي هذا نظر لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب وانهم من بني إسرائيل فالمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام واستبشروا به وقد كانوا يعرفون نعمته وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه ولهذا لما بلغ هذا فرعون حذر كل الحذر فلم يجد عنه شيئا ، ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى و (قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) وإذا تقرر هذا فكيف يكون الراد إلا ذرية من قوم موسى وهم بنو إسرائيل (على خوف من فرعون وملئهم) أى وأشرف قومهم أن يفهم ولم يكن في بني إسرائيل من يخاف منه أن يفتن عن الإيمان سوى قارون فإنه كان من قوم موسى فبغى عليهم لكرهه كان طاويا إلى فرعون متصلا به متعلقا بحباله ومن قال إن الضمير في قوله وملئهم عائد إلى فرعون وعظم الملك من أجل اتباعه أو بحذف آل فرعون وإقامة المضاف إليه مقامه فقد أبعد وإن كان ابن جرير قد حكاهما عن بعض النحاة. وما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن بقوله تعالى

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَاقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَىٰ اللّٰهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن موسى أنه قال لبني إسرائيل (يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) أى فإن الله كاف من توكل عليه (أليس الله بكاف عبده) (ومن ينوكل على الله فهو حسبه) وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين العبادة والتوكل كقوله تعالى (فاعبده وتوكل عليه) (فل هو الرحمن آمنابه وعليه توكلنا) (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة (إياك نعبد وإياك نستعين) وقد امثال بنو إسرائيل ذلك فقالوا (على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) أى لا تطفرهم باوتسلطهم علينا فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل فيفتنوا بذلك هكذا روى عن أبي مجلز وأبي الصحنى ، وقال ابن أبي نجيح وغيره عن مجاهد لا تعذبنا بأيدي آل فرعون ولا بعذاب من عندك فيقول قوم فرعون لو كانوا على حق ما عذبوا ولا سلطنا عليهم فيفتنونا وقال عبد الرزاق أنبأنا ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) لا تسلطهم علينا فيفتنونا وقوله (ونجنا برحمتك) أى خلصنا برحمة منك وإحسان (من القوم الكافرين) أى الذين كفروا الحق وستروه ونحن قد آمننا بك وتوكلنا عليك .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

يذكر تعالى سبب انجائهم بنو إسرائيل من فرعون وقومه وكيفية خلاصهم منهم وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبوأ أى يتخذوا لقومهما بمصر بيوتا ، واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى (واجعلوا بيوتكم قبلة) فقال الثوري وغيره عن خصيف عن عكرمة عن ابن عباس (واجعلوا بيوتكم قبلة) قال أمروا أن يتخذوها مساجد ، وقال الثوري أيضا عن ابن منصور عن إبراهيم (واجعلوا بيوتكم قبلة) قال كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا في بيوتهم وكذا قال مجاهد وأبو مالك والربيع بن أنس والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وأبو زيد ابن أسلم وكأن هذا والله أعلم لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه وضيقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة) وفي الحديث كان رسول الله ﷺ إذا حز به أمر صلى أخرجه أبو داود ، ولهذا قال تعالى في هذه الآية (واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) أى

بالثواب والنصر القريب ، وقال العوفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا في بيوتهم وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة ، وقال مجاهد (واجعلوا بيوتكم قبلة) لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يقتلوا في الكنائس الجامعة أمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة السكبة يصلون فيها سرّاً وكذا قال قتادة والضحاك وقال سعيد بن جبير (واجعلوا بيوتكم قبلة) أى يقابل بعضها بعضاً

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۚ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۚ ﴾

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملكه لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين ظلما وعلوا وتكبيرا وعتوا قال موسى (ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة) أى من أثاث الدنيا ومتاعها (وأموالا) أى جزيلة كثيرة (فى) هذه (الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك) بفتح الياء أى أعطيهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به اليهم استدراجاً منك لهم كقوله تعالى (لفتنهم فيه) وقرأ آخرون ليضلوا بضم الياء أى ليفتنن بما أعطيهم من شئت من خلقك ليظن من أغويته أنك إنما أعطيهم هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم (ربنا اطمس على أموالهم) قال ابن عباس ومجاهد أى أهلكها ، وقال الضحاك وأبو العالية والربيع بن أنس جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت ، وقال قتادة بلغنا أن زروعهم تحولت حجارة ، وقال محمد بن كعب القرظي جعل سكرهم حجارة ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث حدثنا يحيى بن أبي بكير عن أبي معشر حدثني محمد بن قيس أن محمد بن كعب قرأ سورة يونس على عمر بن عبد العزيز حتى بلغ (وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا) إلى قوله (ربنا اطمس على أموالهم) الآية فقال عمر يا أبا حمزة أى شيء اطمس ؟ قال : عادت أموالهم كلها حجارة ، فقال عمر بن عبد العزيز لعلهم لا يأتوني بكيس فجاءه بكيس فإذا فيه حص ويص قد حول حجارة وقوله (واشدد على قلوبهم) قال ابن عباس أى اطمس عليها (فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضا لله ولدينه على فرعون وملكه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا يرجى منهم شيء كما دعانا نوح عليه السلام فقال (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً) * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلد إلا فاجراً كفاراً) ولهذا استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام فهم هذه الدعوة التى أمن عليها أخوه هرون فقال تعالى (قد أجيب دعوتكما) قال أبو العالية وأبو صالح وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي والربيع بن أنس دعا موسى وأمن هرون أى قد أجبتكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون ، وقد يحتج بهذه الآية من يقول إن تأمين المأموم على قراءة الفاتحة ينزل منزلة قراءتها لأن موسى دعا وهرون أمن ، وقال تعالى (قد أجيب دعوتكما فاستقيما) الآية أى كما أحييت دعوتكما فاستقيما على أمرى قال ابن جريج عن ابن عباس : فاستقيما فامضيا لأمرى وهى الاستقامة قال ابن جريج يقولون إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة ، وقال محمد بن كعب وعلى بن الحسين أربعين يوماً

﴿ وَجُوزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَاَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاَمَنْتُ بِهِ بَنُوا إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۚ * ءَالْثَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۚ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ

ءَايَتِنَا لَعَلَّوْنَ ﴿

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده فان بنى إسرائيل لما خرجوا من مصر صحبة موسى عليه السلام وهم فيما قيل ستمائة ألف مقاتل سوى النرية وقد كانوا استعاروا من القبط حليا كثيرا فخرجوا به معهم فاشتد حق فرعون عليهم فأرسل في المدائن حاشرين بجمعون له جنوده من أقاليه فركب وراءهم في أبهة عظيمة وجيوش هائلة لما يريد الله تعالى بهم ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته فلاحقوهم وقت شروق الشمس (فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون) وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر وفرعون وراءهم ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان وألح أصحاب موسى عليه السلام عليه في السؤال كيف الخلق مما نحن فيه ؟ فيقول إني أمرت أن أسلك ههنا (كلا إن معى ربي سيهدين) فعند ماضق الأمر اتسع فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه فضربه فانفلق البحر فكان كل فرق كالطود العظيم أى كالجبل العظيم وصار اثني عشر طريقا لكل سبط واحد وأمر الله الريح فنشفت أرضه (فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى) وتغرق الماء بين الطرق كهيئة الشبايك ليرى كل قوم الآخرين لئلا يظنوا أنهم هلكوا . وجاوزت بنو إسرائيل البحر فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى وهو في مائة ألف أدمهم سوى بقية الألوان ، فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب وهم بالرجوع وهيات ولات حين مناص ، نفذ القدر ، واستجيب الدعوة . وجاء جبريل عليه السلام على فرس وديق حائل فر إلى جانب حصان فرعون فحجمهم إليها واقحم جبريل البحر فافتحم الحصان وراءه ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئا فتجلد لأمرائه وقال لهم ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا فافتحموا كلهم عن آخرهم وميكائيل في ساقهم لا يترك منهم أحدا إلا ألحقه بهم ، فلما استوسقوا فيه وتكاملوا وهم أولهم بالخروج منه أمر الله الفدير البحر أن يرتطم عليهم فارطم عليهم فلم ينج منهم أحد ، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم وتراكت الأمواج فوق فرعون وغشيته سكرات الموت فقال وهو كذلك (آمنت أنه لا إله إلا الله آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) فأمن حيث لا ينفعه الإيمان (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون) ولهذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال (آلآن وقد عصيت قبل) أى أهدأ الوقت تقول ، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه (وكنت من المفسدين) أى في الأرض الذين أضلوا الناس (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون) وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله ذلك من أسرار الغيب التي أعلم الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « لما قال فرعون آمنت أنه لا إله إلا الله آمنت به بنو إسرائيل - قال - قال لي جبريل لو رأيتني وقد أخذت من حال (١) البحر فدسسته فيه مخافة أن تناله الرحمة » ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم في تفاسيرهم من حديث حماد بن سلمة به ، وقال الترمذي حديث حسن ، وقال أبو داود الطيالسي حدثنا شعبة عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « قال لي جبريل لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة » وقد رواه أبو عيسى الترمذي أيضا وابن جرير أيضا من غير وجه عن شعبة به فذكر مثله ، وقال الترمذي حسن غريب صحيح ، ووقع في رواية عند ابن جرير عن محمد بن المنثري عن غندر عن شعبة عن عطاء وعدي عن سعيد عن ابن عباس رفعه أحدهما فكان الآخر لم يرفع فأنه أعلم ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن عمر بن عبد الله بن يعلى السقفي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أغرق الله فرعون أشار بأصبعه ورفع صوته (آمنت أنه لا إله إلا الله آمنت به بنو إسرائيل) قال فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه فجعل يأخذ الحبال بجناحيه فيضرب به وجهه فيرمسه ، وكذا رواه ابن جرير عن سفيان بن وكيع عن أبي خاله به

موقوفا ، وقد روى من حديث أبي هريرة أيضا فقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا حكام عن عنبسة هو ابن أبي سعيد عن كثير بن زاذان عن أبي حازم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال لي جبريل يا محمد لورأتني وأنا أغطه وأدس من الحال (١) في فيه مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له » يعنى فرعون . كثير بن زاذان هذا قال ابن معين لا أعرفه ، وقال أبو زرعة وأبو حاتم مجهول وباقي رجاله ثقات ، وقد أرسل هذا الحديث جماعة من السلف قتادة وإبراهيم التيمي وميمون بن مهران ونقل عن الضحاك بن قيس أنه خطب بهذا للناس فأنشدهم وقوله (فاليوم ننجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية) قال ابن عباس وغيره من السلف إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده سويا بلا روح وعليه درعه المعروفة على نجوة من الأرض وهو المكان المرتفع ليتحققوا موته وهلاكه ولهذا قال تعالى (فاليوم ننجيك) أى نرفعك على نشز من الأرض (بيدك) قال مجاهد بجسدك ، وقال الحسن بجسم لا روح فيه ، وقال عبد الله بن شداد سويا صحيحا أى لم يتمزق ليحققوه ويعرفوه ، وقال أبو صخر بدرعك . وكل هذه الأقوال لا منافاة بينهما كما تقدم والله أعلم وقوله (لتكون لمن خلفك آية) أى لتكون لبني إسرائيل دليلا على موتك وهلاكك وأن الله هو القادر الذى ناصية كل دابة ييده وأنه لا يقوم لغضبه شئ ولهذا قرأ بعضهم (لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) أى لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها ، وقد كان إهلاكهم يوم عشوراء كما قال البخارى حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقال « ما هذا اليوم الذى تصومونه ؟ » فقالوا هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون . فقال النبي ﷺ لأصحابه « أتم أحق بموسى منهم فصوموه »

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَءَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ أَلْعَلُّمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية الدنيوية وقوله (مَبْوَءَ صِدْقٍ) قيل هو بلاد مصر والشام مما يلي بيت المقدس ونواحيه فان الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكاملها كما قال الله تعالى (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) وقال في الآية الأخرى (فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني إسرائيل) وقال (كم تركوا من جنات وعيون) الآيات ولكن استمروا مع موسى عليه السلام طالبين إلى بلاد بيت المقدس وهى بلاد الخليل عليه السلام فاستمر موسى بمن معه طالبا بيت المقدس وكان فيه قوم من العمالة فنكس بنو إسرائيل عن قتالهم فسردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة ومات فيه هارون ثم موسى عليهما السلام وخرجوا بعدها مع يوشع بن نون ففتح الله عليهم بيت المقدس واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بختنصر حينما من الدهر ثم عادت إليهم ثم أخذها ملوك اليونان فكانت أحكامهم مدة طويلة وبعث الله عيسى بن مريم عليه السلام في تلك المدة فاستعانت اليهود قبجهم الله على معاداة عيسى عليه السلام بملوك اليونان وكانت تحت أحكامهم ووشوا عندهم وأوحوا إليهم أن هذا يفسد عليكم الرعايا فبعثوا من يقبض عليه فرفعه الله إليه وشبه لهم بعض الحواريين بمشيئة الله وقدره فأخذوه فصلبوه واعتقدوا أنه هو (وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيمًا ثم بعد المسيح عليه السلام بنحو ثلثمائة سنة دخل قسطنطين أحد ملوك اليونان في دين النصرانية وكان فيلسوفا قبل ذلك فدخل في دين النصارى قيل تقية وقيل حيلة ليفسده فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة بدعوها وأحدثوها فبنى لهم الكنائس والبيع الكبار والصغار والصوامع والميا كل والمعابد والقلايات وانتشر دين النصرانية في ذلك الزمان واشتهر على مافيه من تبديل وتغيير

وتحريف ووضع وكذب ومخالفة لدين المسيح ولم يبق على دين المسيح على الحقيقة منهم إلا القليل من الرهبان فاتخذوا لهم الصوامع في البراري والمهامه والقفار ، واسحذت يد النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم وبني هذا الملك المذكور مدينة قسطنطينية والقمامة وبيت لحم وكنائس ببلاد بيت المقدس ومدن حوران كبصرى وغيرها من البلدان ببناءات هائلة محكمة وعبدوا الصليب من حينئذ وصلوا إلى الشرق وصوروا الكنائس ، وأحلوا لحم الخنزير وغير ذلك مما أحدثوه من الفروع في دينهم والأصول ووضعوا له الأمانة الحقة التي يسمونها الكبيرة وصنفوا له القوانين وبسط هذا بطول . والغرض أن يدهم لم تزل على هذه البلاد إلى أن انتزعها منهم الصحابة رضى الله عنهم وكان فتح بيت المقدس على يدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه والله الحمد والمنة وقوله (ورزقناهم من الطيبات) أى الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً وقوله (فما اختلفوا حتى جاءهم العلم) أى ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم أى ولم يكن لهم أن يختلفوا وقد بين الله لهم وأزال عنهم اللبس ، وقد ورد في الحديث : أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة وستفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة منها واحدة في الجنة واثنتان وسبعون في النار . قيل من هم يا رسول الله ؟ قال « ما أنا عليه وأصحابي » رواه الحاكم في مستدركه بهذا اللفظ وهو في السنن والمسائيد ولهذا قال الله تعالى (إن ربك يقضى بينهم) أى يفصل بينهم (يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون)

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَيِّنَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾

قال قتادة بن دعامة بلغنا أن رسول الله ﷺ قال « لا أشك ولا أسأل » وكذا قال ابن عباس وسعيد ابن حبيب والحسن البصري وهذا فيه تثبيت للأمة وإعلام لهم أن صفة نبهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب كما قال تعالى (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدهونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل) الآية ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم ولهذا قال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولوجاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) أى لا يؤمنون إيماناً ينفعهم بل حين لا ينفع نفساً إيمانها ولهذا لما دعا موسى عليه السلام على فرعون وملئه قال (ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) كما قال تعالى (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون) ثم قال تعالى

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾

يقول تعالى فهلا كانت قرية آمنت بكلمها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه أو أكثرهم كقوله تعالى (يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون) (وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) وفي الحديث الصحيح « عرض على الأنبياء فجعل النبي يمر ومعه الفئام من الناس والنبي يمر معه الرجل والنبي معه الرجلان والنبي ليس معه أحد » ثم ذكر كثرة أتباع موسى عليه السلام ثم ذكر كثرة أمته صلوات الله وسلامه عليه كثرة سدت الحاققين الشرقي والغربي ، والغرض ، أنه لم توجد قرية آمنت

بكلها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس وهم أهل نينوى وما كان إيمانهم إلا تخوفا من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعد ما عاينوا أسبابه ، وخرج رسولهم من بين أظهرهم فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به وتضرعوا له واسكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به بنبيهم فعندها رحمهم الله وكشف عنهم العذاب وأخروا كما قال تعالى (إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) واختلف المفسرون هل كشف عنهم العذاب الأخرى مع الدينوى أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط ؟ على قولين (أحدهما) إنما كان ذلك في الحياة الدنيا كما هو مقيد في هذه الآية (والثاني) فيها لقوله تعالى (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين) فأطلق عليهم الإيمان ، والإيمان منقاد من العذاب الأخرى وهذا هو الظاهر والله أعلم . وقال قتادة في تفسير هذه الآية لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب فتركت إلا قوم يونس لما فقدوا بنبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم قذف الله في قلوبهم التوبة ولبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عجزوا إلى الله أربعين ليلة فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم ، قال قتادة وذكر أن قوم يونس بنينوى أرض الموصل وكذا روى عن ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف وكان ابن مسعود يقرؤها (فهلا كانت قرية آمنت) وقال أبو عمران عن أبي الجلود قال لما نزل بهم العذاب جعل يدور على رءوسهم كقطع الليل المظلم فشوا إلى رجل من علمائهم فقالوا علمنا دعاء ندعوا به لعل الله أن يكشف عنا العذاب فقال قولوا يا حي حين لا حى ، يا حي حي الموتى ، يا حى لا إله إلا أنت ، قال فكشف عنهم العذاب . وعام القصة سيأتى مفصلا في سورة الصافات إن شاء الله

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَوْمَنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

يقول تعالى (ولو شاء ربك) يا محمد لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به فآمنوا كلهم ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كقوله تعالى (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وقال تعالى (أفلم يأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) ولهذا قال تعالى (أفأنت تكره الناس) أى تلزمهم وتلجئهم (حتى يكونوا مؤمنين) أى ليس ذلك عليك ولا إليك بل الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء) (لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين) (إنك لا تهدى من أحببت) (فأما عليك البلاغ وعلينا الحساب) (فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمصيطر) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد الهادى من يشاء المضل لمن يشاء لعلمه وحكمته وعدله ولهذا قال تعالى (وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس) وهو الخبال والضلال (على الذين لا يعقلون) أى حجج الله وأدلتها ، وهو العادل في كل ذلك في هدايته من هدى وإضلال من ضل

﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ * قُلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

يرشد تعالى عباده إلى التفكير في آلائه وما خلق الله في السموات والأرض من الآيات الباهرة لدوى الأبواب ، مما في السموات من كواكب نيرات ، ثوابت وسيارات ، والشمس والقمر والليل والنهار واختلافهما وإيلاج أحدهما

في الآخر حتى يطول هذا ويقصر هذا ، ثم يقصر هذا ويطول هذا ، وارتفاع السماء واتساعها وحسنها وزينتها وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها ، وأخرج فيها من أفانين الثمار والروع والأزاهير وصنوف النبات وما ذرا فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمافع وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب ، وما في البحر من العجائب والأمواج وهو مع هذا مسخر مدلل للسالكين يحمل سفنهم ويمجى بها برفق بتسخير القدير لا إله إلا هو ولا رب سواه . وقوله (وما تغى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) أى أى شئ تغى الآيات السماوية والأرضية والرسائل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها عن قوم لا يؤمنون كقوله (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون) الآية . وقوله (فهل ينتظرون إلا مثل أيام الدين خلوا من قبلهم) أى فهل ينظرون هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النعمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم الماضية المكذبة لرسولهم (قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين * ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا) أى ونهلك المكذبين بالرسول (كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين) حقا أوجبه الله تعالى على نفسه الكريمة كقوله (كتب ربكم على نفسه الرحمة) وكما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أى أنه قال « إن الله كتب كتابا فهو عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت (١) غضيبي »

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي تَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِّنَ الظَّالِمِينَ * وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من صحت ما جئتكم به من الدين الحنيف الذى أوحاه الله إلى فأنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله وحده لا شريك له وهو الذى يتوفاكم كما أحياكم ثم إليه مرجعكم فان كانت آلهتكم التى تدعون من دون الله حقا فأنا لا أعبدها فادعوها فلتضرني فانها لا تضر ولا تنفع وإنما الذى بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له وأمرت أن أكون من المؤمنين وقوله (وأن أقم وجهك للدين حنيفا) الآية أى أخلص العبادة لله وحده حنيفا أى منحرفا عن الشرك ولهذا قال (ولا تكونن من المشركين) وهو معطوف على قوله (وأمرت أن أكون من المؤمنين) وقوله (وإن يمسك الله بضر) الآية فيه بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه فى ذلك أحد وهو الذى يستحق العبادة وحده لا شريك له ، روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة صفوان بن سليم من طريق عبد الله بن وهب أخبرني يحيى بن أيوب عن عيسى بن موسى عن صفوان بن سام عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال « اطلبوا الخير دهركم كله وتعرضوا لنفحات ربكم ، فان لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده ، وأسألوه أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم » ثم رواه من طريق الليث عن عيسى بن موسى عن صفوان عن رجل من أشجع عن أبي هريرة مرفوعا بمثله سواء وقوله (وهو الغفور الرحيم) أى لمن تاب إليه ولومن أى ذنب كان حتى من الشرك به فانه يتوب عليه

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾

يقول تعالى أمرا لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبر الناس أن الذى جاءهم به من عند الله هو الحق الذى لا مرية

فيه ولا شك فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه ، ومن ضل عنه فإنه يرجع وبال ذلك عليه (وما أنا عليكم بوكيل) أى وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين وإنما أنا نذير لكم ، والهداية على الله تعالى وقوله (واتبع ما يوحى إليك واصبر) أى تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك واصبر على مخالفة من خالفك من الناس (حتى يحكم الله) أى يفتح بينك وبينهم (وهو خير الحاكمين) أى خير الفاتحين بعده وحكمته .

﴿ تفسير سورة هود عليه السلام وهى مكية ﴾

قال الحافظ أبو يعلى حدثنا خلف بن هشام الزار حدثنا أبو الأحوص عن أبي إسحق عن عكرمة قال : قال أبو بكر سألت رسول الله ﷺ ما شريك ؟ قال « شيتنى هود والواقعة وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت » وقال أبو عيسى الترمذى حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء حدثنا معاوية بن هشام عن شيان عن أبي إسحق عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال أبو بكر يا رسول الله قد شئت قال « شيتنى هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت » وفى رواية « هود وأخواتها » وقال الطبرانى حدثنا عبدان بن أحمد حدثنا حجاج بن الحسن حدثنا سعيد بن سلام حدثنا عمر بن محمد عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شيتنى هود وأخواتها : الواقعة والحاقة وإذا الشمس كورت » وفى رواية « هود وأخواتها » وقد روى من حديث ابن مسعود نحوه فقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى فى معجمه الكبير حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة حدثنا أحمد بن طارق الراشى حدثنا عمرو بن ثابت عن أبي إسحق عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن أبا بكر قال يا رسول الله ما شريك ؟ ، قال « هود والواقعة » . عمرو بن ثابت متروك وأبو إسحق لم يدرك ابن مسعود والله أعلم

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الرَّكِيبُ أَهْكَمَتْ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ * إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء فى أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا وبالله التوفيق ، وأما قوله (أحكمت آياته ثم فصلت) أى هى محكمة فى لفظها مفصلة فى معناها فهو كامل صورة ومعنى ، هذا معنى ما روى عن مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير . وقوله (من لدن حكيم خبير) أى من عند الله الحكيم فى أقواله ، وأحكامه خير بعواقب الأمور (ألا تعبدوا إلا الله) أى نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له كقوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقوله (إننى لكم نذير وبشير) أى إننى لكم نذير من العذاب إن خالفتموه ، وبشير بالثواب إن أطعتموه كما جاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ صعد الصفا فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب فاجتمعوا فقال « يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تصبحكم ألسنهم مصدق ؟ » فقالوا ما جربنا عليك كذبا قال « فإننى نذير لكم بين يدي عذاب شديد » وقوله (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله) أى وأمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله عز وجل فيما تسقبلونه ، وأن تستمروا على ذلك (يمتعكم متاعا حسنا) أى فى الدنيا (إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله) أى فى الدار الآخرة قاله قتادة كقوله (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن

فلنجينه حياة طيبة) الآية وقد جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لسعد « وانك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل في امرأتك » وقال ابن جرير حدثني المسيب بن شريك عن أبي بكر عن سعيد بن جبيرة عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله (ويؤت كل ذي فضل فضله) قال من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ، ثم يقول هلك من غلب آحاده على أعشاره ، وقوله (وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير) هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى وكذب رسوله فإن العذاب يناله يوم القيامة لا محالة (إلى الله مرجعكم) أي معادكم يوم القيامة (وهو على كل شيء قدير) أي وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه وانتقامه من أعدائه ، وإعادة الخلائق يوم القيامة ، وهذا مقام الترهيب كما أن الأول مقام ترغيب .

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

قال ابن عباس كانوا يكرهون أن يستقبلوا البهاء بفروجهم وحال وقاعهم فأنزل الله هذه الآية ، روى البخاري من طريق ابن جريج عن محمد بن عباد بن جعفر أن ابن عباس قرأ ألا إنهم ثنوني صدورهم ، الآية فقلت يا أبا العباس ما ثنوني صدورهم ؟ قال الرجل كان يجامع امرأته فيستحي أو يتخلى فيستحي فنزلت : ألا إنهم ثنوني صدورهم . وفي لفظ آخر له قال ابن عباس أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيهم ثم قال : حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثنا عمر قال قرأ ابن عباس . ألا إنهم ثنوني صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم . قال البخاري وقال غيره عن ابن عباس (يستغشون) يغطون رؤوسهم ، وقال ابن عباس في رواية أخرى في تفسير هذه الآية يعني به الشك في الله وعمل السيئات وكذا روى عن مجاهد والحسن وغيرهم أي أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوا فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك فأخبرهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل (يعلم ما يسرون) من القول (وما يعلنون) * إنه عليم بذات الصدور أي يعلم ما تكن صدورهم من النيات والضمائر والسرائر ، وما أحسن ما قال زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة

فلا تكتمن الله ما في قلوبكم * ليخفي ومهما يكتم الله يعلم

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر * ليوم حساب أو يعجل فينقم

فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلي بوجود الصانع وعلمه بالجزئيات وبالمعاد والجزاء وبكتابة الأعمال في الصحف ليوم القيامة ، وقال عبد الله بن شداد : كان أحدهم إذا مر برسول الله ﷺ ثنى عنه صدره وغطى رأسه فأنزل الله ذلك ، وعود الضمير إلى الله أولى لقوله (ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون) وقرأ ابن عباس ألا إنهم ثنوني صدورهم برفع الصدور على الفاعلية وهو قريب المعنى

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض صغيرها وكبيرها بحريها وبريها وأنه يعلم مستقرها ومستودعها أي يعلم أين تنتهي سيرها في الأرض وأين تأوى إليه من وكرها وهو مستودعها . وقال علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس (ويعلم مستقرها) أي حيث تأوى (ومستودعها) حيث تموت ، وعن مجاهد (مستقرها) في الرحم (ومستودعها) في الصلب كالتى في الأنعام ، وكذا روى عن ابن عباس والضحاك وجماعة ، وذكر ابن أبي حاتم أقوال المفسرين هنا كما ذكره عند تلك الآية فإنه أعلم ، وأن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك كقوله

(وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون) وقوله (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين)

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَعْبُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك كما قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن جامع بن شداد عن صفوان بن محرز عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ « اقبلوا البشري يابني تمم » قالوا قد بشرتنا فأعطنا ، قال « اقبلوا البشري يا أهل اليمن » قالوا قد قبلنا . فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان ؟ قال « كان الله قبل كل شيء ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء » قال : فأتاني آت فقال يا عمران انحلت ناقك من عقالمها ، قال فخرجت في إثرها فلا أدري ما كان بعدى ، وهذا الحديث مخرج في صحيح البخاري ومسلم بألفاظ كثيرة فنهنا قالوا جئناك نسألك عن أول هذا الأمر فقال « كان الله ولم يكن شيء قبله - وفي رواية غيره - وفي رواية معه - وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء ، ثم خلق السموات والأرض » وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء » وقال البخاري في تفسير هذه الآية : حدثنا أبو الهيثم أخبرنا شعيب أخبرنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « قال الله عز وجل أنفق أنفق عليك » وقال « يد الله ملائ لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار » وقال « أفرأيت ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فانه لم يفض ما في يمينه وكان عرشه على الماء ، ويده الميزان يخفض ويرفع »

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا حماد بن سلمة عن يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدس عن عمه أبي رزين واسمه لقيط بن عامر بن المنفق العقيلي قال : قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه قال « كان في عمام ما تحته هواء وما فوقه هواء ، ثم خلق العرش بعد ذلك » وقد رواه الترمذي في التفسير وابن ماجه في السنن من حديث يزيد بن هرون به وقال الترمذي هذا حديث حسن ، وقال مجاهد (وكان عرشه على الماء) قبل أن يخلق شيئا ، وكذا قال وهب بن منبه وضمرة وقتادة وابن جرير وغير واحد ، وقال قتادة في قوله (وكان عرشه على الماء) ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض ، وقال الربيع بن أنس (وكان عرشه على الماء) فلما خلق السموات والأرض قسم ذلك الماء قسمين فجعل نصفاً تحت العرش وهو البحر المسجور . وقال ابن عباس إنما سمي العرش عرشاً لارتفاعه ، وقال إسماعيل بن أبي خالد سمعت سعداً الطائي يقول : العرش باقونة حمراء ، وقال محمد بن إسحق في قوله تعالى (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) فكان كما وصف نفسه تعالى إذ ليس إلا الماء وعليه العرش وعلى العرش ذو الجلال والاكرام ، والعزة والسلطان ، والملك والقدرة ، والحلم والعلم ، والرحمة والنعمة الفعال لما يريد ؛ وقال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبيرة قال : سئل ابن عباس عن قول الله (وكان عرشه على الماء) على أي شيء كان الماء ؟ قال على متن الريح ، وقوله تعالى (ليلوكم أيكم أحسن عملاً) أي خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ولم يخلق ذلك عبثاً كقوله (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) وقال تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون

فعلى الله الملك الحى لا إله إلا هو رب العرش الكريم) وقال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) الآية وقوله (ليلوكم) أى ليختبركم (أيكم أحسن عملا) ولم يقل أكثر عملا ، بل أحسن عملا ولا يكون العمل حسنا حتى يكون خالصا لله عز وجل على شريعة رسول الله ﷺ فمضى فقد العمل واحدا من هذين الشرطين حبط وبطل . وقوله (ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت) الآية يقول تعالى ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كأبدأهم مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذى خلق السموات والأرض كما قال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسحر الشمس والقمر ليقولن الله) وهم مع هذا يشكرون البعث والمعاد يوم القيامة الذى هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة كما قال تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) وقال تعالى (ما خلقتكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) وقولهم (إن هذا إلا سحر مبين) أى يقولون كفرا وعنادا ما صدقتك على وقوع البعث ، وما يذكر ذلك إلا من سحرته فهو يتبعك على ما تقول ، وقوله (ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة) الآية . يقول تعالى ولئن أخرنا العذاب والمؤاخذه عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور وأوعدناهم إلى مدة مضروبة ليقولن تكذبا واستعجالا : ما يحبسهم أى يؤخر هذا العذاب عنا فإن سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك فلم يبق لهم محيص عنه ولا حميد والأمة تستعمل فى القرآن والسنة فى معان متعددة فيراد بها الأمد كقوله فى هذه الآية (إلى أمة معدودة) وقوله فى يوسف (وقال الذى نجماهما وادكر بعد أمة) وتستعمل فى الإمام المقتدى به كقوله (إن إبراهيم كان أمة قاتنا لله حنيفا ولم يك من المشركين) وتستعمل فى الملة والدين كقوله اخبارا عن المشركين إنهم قالوا (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) وتستعمل فى الجماعة كقوله (ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون) وقوله (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال تعالى (ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) والمراد من الأمة ههنا الذين يبعث فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم كما فى صحيح مسلم « والذى نفسى بيده لا يسجد بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى لا يؤمن بى إلا دخل النار » وأما أمة الأتباع فهم المصدقون للرسول كما قال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وفى الصحيح « فأقول أمتى أمتى » وتستعمل الأمة فى الفرقة والطائفة كقوله تعالى (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) وكقوله (من أهل الكتاب أمة قائمة) الآية

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ بِكَفُورٍ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْأٍ مِّسْتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

يخبر تعالى عن الانسان وما فيه من الصفات الدميعة إلا من رحم الله من عباده المؤمنين أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل وكفر وجحود لماضى الحال كأنه لم ير خيرا ولم يرج بعد ذلك فرجا . وهكذا إن أصابته نعمة بعد تقمة (ليقولن ذهاب السيئات عني) أى يقول ما ينالنى بعد هذا ضيم ولا سوء (إنه لفرح فخور) أى فرح بما فى يده بظرف فخور على غيره ، قال الله تعالى (إلا الذين صبروا) أى على الشدائد والمكاره (وعملوا الصالحات) أى فى الرخاء والعافية (أولئك لهم مغفرة) أى بما يصيبهم من الضراء (وأجر كبير) بما أسلفوه فى زمن الرخاء كما جاء فى الحديث « والذى نفسى بيده لا يصيب المؤمن هم ولا غم ولا نصب ولا وصب ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياه » وفى الصحيحين « والذى نفسى بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له ، وإن أصابته ضراء فصر كان خيرا له ، وليس ذلك لأحد غير المؤمن » ولهذا قال الله تعالى (والعصر إن الإنسان لئى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر

وقال تعالى (إن الإنسان خلق هالوعا) الآيات

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ يَعْلَمُ اللَّهُ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

يقول تعالى مسليا لرسوله ﷺ عما كان يتعنن به المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول كما أخبر تعالى عنهم في قوله (وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؛ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا *) وأبلى إلى كثر أوتكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) فأمر الله تعالى رسوله صلوات الله تعالى وسلامه عليه وأرشدته إلى أن لا يضيق بذلك منهم صدره ولا يصدنه ذلك ولا يثنيه عن دعائهم إلى الله عز وجل آناء الليل وأطرف النهار كما قال تعالى (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) الآية ، وقال ههنا (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا) أى لقولهم ذلك فانما أنت نذير ولك أسوة باخوانك من الرسل قبلك فانهم كذبوا وأوذوا فصبروا حتى أتاهاهم نصر الله عز وجل ، ثم بين تعالى إعجاز القرآن وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ولا بعشر سور مثله ، ولا بسورة من مثله لأن كلام الرب تعالى لا يشبه كلام المخلوقين كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات . وذاته لا يشبهها شيء . تعالى وتقدس ونزه لا إله إلا هو ولا رب سواه ثم قال تعالى (فان لم يستجيبوا لكم) أى فان لم يأتوا بمعارضة مادعوتهم إليه فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك ، وأن هذا الكلام منزل من عند الله متضمن علمه وأمره ونهي (وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون)

﴿ مَنْ كَانَ يَرْيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُفُوسٌ إِيَّاهُمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا وذلك أنهم لا يظلمون تقيرا يقول من عمل صالحا للناس الدنيا صوما أو صلاة أو تهجد بالليل ليعمله إلا الناس الدنيا يقول الله تعالى : أوفيه الذى التمس في الدنيا من المثابة وحبط عمله الذى كان يعمل لا للناس الدنيا وهو في الآخرة من الخاسرين : وهكذا روى عن مجاهد والضحاك وغير واحد ، وقال أنس بن مالك والحسن : نزلت في اليهود والنصارى ، وقال مجاهد وغيره : نزلت في أهل الرياء ، وقال قتادة من كانت الدنيا همه ونيتته وطلبت به جازاه الله بحسناته في الدنيا ثم يفضى إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة ، وقد ورد في الحديث الرفوع نحو من هذا ، وقال تعالى (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذمومًا مدحورا *) ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا * كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا * انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) وقال تعالى (من كان يريد حرث الآخرة نزدله في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب)

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا نَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ أَخْلَقُ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

لَا يُؤْمِنُونَ ﴿

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو كما قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها) الآية وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل يحسون فيها من جدعاء ؟ » الحديث . وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله تعالى إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا » وفي المسند والسنن « كل مولود يولد على هذه الفطرة حتى يعرب عنه لسانه » الحديث، فالؤمن باق على هذه الفطرة ، وقوله (ويتلوها شاهده منه) أى وجاءه شاهد من الله وهو ما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكملة العظيمة المختتمة بشريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . ولهذا قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو العالية والضحاك وإبراهيم النخعي والسدي وغير واحد في قوله تعالى (ويتلوها شاهد منه) انه جبريل عليه السلام ، وعن علي رضي الله عنه والحسن وقتادة هو محمد صلى الله عليه وسلم وكلها قريب في المعنى لأن كلام جبريل ومحمد صلوات الله عليهما بلغ رسالة الله تعالى فجبريل إلى محمد ومحمد إلى الأمة ، وقيل هو علي وهو ضعيف لا يثبت له قائل الأول والثاني هو الحق ، وذلك أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة والتفاصيل تؤخذ من الشريعة والفطرة تصدقها وتؤمن بها ، ولهذا قال تعالى (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوها شاهد منه) وهو القرآن بلغه جبريل إلى النبي ﷺ وبلغه النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى أمته ، ثم قال تعالى (ومن قبله كتاب موسى) أى ومن قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة (إماما ورحمة) أى أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماما لهم وقدوة يقتدون بها ورحمة من الله بهم فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن ، ولهذا قال تعالى (أولئك يؤمنون به) ثم قال تعالى متوعدا لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) أى ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ممن بلغه القرآن كما قال تعالى (لأندركم به ومن بلغ) وقال تعالى (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا) وقال تعالى (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) . وفي صحيح مسلم من حديث شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار » وقال أيوب السخيتاني عن سعيد ابن جبير قال : كنت لا أسمع بحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم على وجهه إلا وجدت مصداقه أو قال تصديقه في القرآن فبلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى فلا يؤمن بي إلا دخل النار » فجعلت أقول أين مصداقه في كتاب الله ؟ قال ولما سمعت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وجدت له تصديقا في القرآن حتى وجدت هذه الآية (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) قال من الملل كلها وقوله (فلأتك في مرية منه إنه الحق من ربك) الآية ، أى القرآن حق من الله لا مرية ولا شك فيه كما قال تعالى (ألم تنزل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين) وقال تعالى (ألم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه) وقوله (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) كقوله تعالى (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وقال تعالى (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) وقال تعالى (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين)

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ

كَفَرُونَ * أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَعِفُ لَهُمْ
الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَفْتَرُونَ * لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿

يبين تعالى حال المفتريين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق من الملائكة والرسل والأنبياء وسائر
البشر والجان كما قال الإمام أحمد حدثنا بهز وعفان قالا أخبرنا همام حدثنا قتادة عن صفوان بن محرز قال : كنت آخذاً
بيد ابن عمر إذ عرض له رجل قال كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة ، قال سمعته
يقول « إن الله عز وجل يدني المؤمن فيضع عليه كفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له أتعرف ذنبك كذا ؟
أتعرف ذنبك كذا ؟ أتعرف ذنبك كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال فاني قدسترها عليك في الدنيا
وإني أعفها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول (الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم
ألا لعنة الله على الظالمين) » الآية أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث قتادة به وقوله (الذين يصدون عن سبيل
الله ويغيثونها عوجاً) أي يردون الناس عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عز وجل ويحبونهم الجنة
(ويغيثونها عوجاً) أي ويريدون أن يكون طريقهم عوجاً غير معتدلة (وهم بالآخرة هم كافرون) أي جاحدون بها مكذبون
بوقوعها وكونها (أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء) أي بل كانوا تحت قهره
وغلبته وفي قبضته وسلطانه وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة (ولكن يؤخرهم ليوم تشخص فيه
الأبصار) وفي الصحيحين « إن الله لم يخلق للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ولهذا قال تعالى (يضاعف لهم العذاب) الآية أي
يضاعف عليهم العذاب ، وذلك أن الله تعالى جعل لهم سمعاً وأبصاراً وأئدة فما أغنى عنهم معهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم
بل كانوا صماً عن سماع الحق عمياً عن اتباعه كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار كقوله (وقالوا لو كنا نسمع أو
نعقل ما كنا في أصحاب السعير) وقال تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب) الآية ،
ولهذا يعذبون على كل أمر ركوه وعلى كل نهى ارتكبوه ولهذا كان أصح الأقوال أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها
ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة وقوله (أولئك الذين خسروا أنفسهم وصل عنهم ما كانوا يفترون) أي خسروا أنفسهم
لأنهم أدخلوا ناراً حامية فهم معذبون فيها لا يفترون عنهم من عذابها طرفة عين كما قال تعالى (كلما خبت زدناهم سعيراً)
(وصل عنهم) أي ذهب عنهم (ما كانوا يفترون) من دون الله من الأنداد والأصنام فلم تجد عنهم شيئاً بل ضرتهم كل
الضرر كما قال تعالى (وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وقال تعالى (واتخذوا من دون الله
آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً) وقال الخليل لقومه (إنما اتخذتم من دون الله
أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويباعدكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من
ناصرين) وقوله (إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب) إلى غير ذلك من الآيات
الدالة على خسارهم ودمارهم ولهذا قال (لا جرم لهم في الآخرة هم الأخسرون) يخبر تعالى عن ما لهم أنهم أخسر الناس
صفقة في الدار الآخرة لأنهم استبدلوا الدركات عن الدرجات ، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آت وعن شرب الرحيق
المختوم . بسموم وحميم وظل من يحموم وعن الحور العين بطعام من غسيلين وعن القصور العالية بالهاوية ، وعن قرب
الرحمن ، ورؤيته بغضب الديان وعقوبته ، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ
الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات فأمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولاً وفعلًا من الإتيان بالطاعات وترك المنكرات وبهذا ورثوا الجنات ، المشتعلة على الغرف العاليات ، والسرر المصفوفات ، والقطوف الدانيات ، والفرش المرتفعات والحسان الحيرت ، والفواكه المتنوعات ، والمأككل المشتهيات ، والمشارب المستلذات ، والنظر إلى خالق الأرض والسموات ، وهم في ذلك خالدون لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون وينامون ولا يتغطون ولا يصبغون ولا يتمشطون ، إن هو إلا رشح مسك يعرقون ؛ ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال (مثل الفريقين) أي الذين وصفهم أولا بالشقاء والمؤمنين بالسعادة فأولئك كالأعمى والأصم وهؤلاء كالبصير والسميع ، فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا والآخرة لايتهدى إلى خير ولا يعرفه ، أصم عن سماع الحجج فلا يسمع ما ينتفع به (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم) الآية ، وأما المؤمن ففطن ذكي لبيب بصير بالحق يميز بينه وبين الباطل فيتبع الخير ويترك الشر سميع للحجة يفرق بينها وبين الشبهة فلا يروج عليه باطل ، فهل يستوى هذا وهذا ؟ (أفلاتذكرون) أفلا تعتبرون فتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء كما قال في الآية الأخرى (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون) وكقوله (وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور * إن أنت إلا نذير إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرِيكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرِي لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام أنه قال لقومه (إني لكم نذير مبين) أي ظاهر النذارة لكم من عذاب الله إن أتم عبدتم غير الله ، ولهذا قال (أن لا تعبدوا إلا الله) وقوله (إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم) أي إن استمررتم على ما أتم عليه عذبكم الله عذاباً أليماً موجعاً شاقاً في الدار الآخرة (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) والملأ هم السادة والكبراء من الكافرين منهم (ما نراك إلا بشراً مثلاً) أي لست بملك ولكنك بشر فكيف أوحى إليك من دوننا ثم ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا كالباعة والحاكمة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن ترو منهم ولا فكر ولا نظر بل بمجرد مادعوتهم أجابوك فاتبعوك ولهذا قالوا (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي) أي في أول نادىء (وما نرى لكم علينا من فضل) يقولون ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلق ولا خلق ولا رزق ولا حال لما دخلتم في دينكم هذا (بل نظنكم كاذبين) أي فبا تدعونكم لكم من البر والصلاح والعبادة والسعادة في الدار الآخرة إذ صرتم إليها ، هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم فانه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه ، فان الحق في نفسه صحيح سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل بل الحق الذى لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء والذين يأبونهم الأراذل ولو كانوا أغنياء ثم الواقع غالباً أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس ، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفتهم كما قال تعالى و (وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي صلى الله عليه وسلم قال له فيما قال : أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم ؟ قال بل ضعفاؤهم . فقال هرقل هم أتباع الرسل ، وقولهم بادي الرأي ليس بمنزلة ولا عيب لأن الحق إذا وضع لا يبق للرأى ولا لفكر مجال بل لابد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذى ماء وذكاء بل لا يفكر ههنا إلا غي أوعى ، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

إنما جاءوا بأمر جلى واضح . وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال « ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر فإنه لم يتعلم » أى ما تردد ولا تروى لأنه رأى أمرا جليا عظيما واضحا فبادر إليه وسارع وقوله: وما نرى لكم عايينا من فضل هم لا يرون ذلك لأنهم عمى عن الحق لا يسمعون ولا يبصرون بل هم فى ربههم يترددون فى ظلمات الجهل يعمهون وهم الأفاكيون الكاذبون الأقولون الأرذلون وفى الآخرة هم الأخسرون

﴿ قَالَ يَقُومِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّىَّ وَءَاتَنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عما رده نوح على قومه فى ذلك (أرايتم إن كنت على بيتة من ربى) أى على يقين وأمر حلى ونبوة صادقة وهى الرحمة العظيمة من الله به وبهم (فعميت عليكم) أى خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها ولا عرفتم قدرها بل بادرتم إلى تكذيبها وردوها (أنلزمكموها) أى نعصبكم بقبولها وأتم لها كارهون .

﴿ وَيَقُومِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِى إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّى أَرِىكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَقُومِ مَن يَنْصُرُنِى مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

يقول لقومه لا أسألكم على نصحى لكم مالا: أجرة أخذها منكم إنما أبتغى الأجر من الله عز وجل (وما أنا بطارد الذين آمنوا) كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه احتشاما ونفاة منهم أن يجلسوا معهم كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلسا خاصا فأنزل الله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالعدة والعشى) الآية وقال تعالى (وكذلك فتننا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ أليس الله بأعلم بالشاكرين) الآية

﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدْرِى أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنْفُسِهِمْ إِنِّى إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

ينبهرهم أنه رسول من الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له بإذن الله له فى ذلك ولا يسألهم على ذلك أجرا بل هو يدعو من لقيه من شريف ووضع فمن استجاب له فقد نجا وينبهرهم أنه لا قدرة له على التصرف فى خزائن الله ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه وليس هو بملك من الملائكة بل هو بشر مرسل مؤيد بالمعجرات ولا أقول عن هؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم أنهم ليس لهم عند الله ثواب على أعمالهم الله أعلم بما فى أنفسهم فان كانوا مؤمنين باطنا كما هو الظاهر من حالهم فلهم جزاء الحسنى ولو قطع لهم أحد بشر بعد ما آمنوا لكان طالما فائلا مالا علم له به

﴿ قَالُوا يَنْتُحِ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِى إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه ، والبلاء موكل بالمنطق . (قالوا يا نوح قد حادلتنا فأكثر جدالنا) أى حاججتنا فأكثر من ذلك ونحن لا نتبعك (فأتنا بما تعدنا) أى من النقمة والعذاب

ادع علينا بما شئت فليأتنا ما تدعو به (إن كنت من الصادقين قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين) أى إنما الذي يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذى لا يعجزه شيء (ولا ينفعكم نصحي أن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم) أى أى شيء يجدى عليكم إبلاغى لكم وإنذارى إياكم ونصحي (إن كان الله يريد أن يغويكم) أى اغواءكم ودماركم (هو ربكم وإليه ترجعون) أى هو مالك أزمة الأمور المتصرف الحاكم العادل الذى لا يحور، له الخلق وله الأمر وهو المبدى العبد مالك الدنيا والآخرة

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَجْرُمُونَ ﴾

هذا كلام معترض فى وسط هذه القصة مؤكدا لها . مقرر لها يقول تعالى لمحمد ﷺ أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون افترى هذا وافعله من عنده (قل إن افتريته فعلى إجرامى) أى فائم ذلك على (وأنا برىء مما تجرمون) أى ليس ذلك مفتعلا ولا مفترى لأنى أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه .

﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ * وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴾ * وَيَصْنَعُ الْفُلَكَ وَكَلَّمَآمَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ * فَسَوْفَ نَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نعمة الله بهم وعذابه لهم فدعا عليهم نوح دعوته التى قال الله تعالى عجبنا عنه أنه قال (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) (فدعا ربه أنى مغلوب فاتصر) فعند ذلك أوحى الله إليه (أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) فلا تحزن عليهم ولا يهمنك أمرهم (واصنع الفلك) يعنى السفينة (بأعيننا) أى بمرأى منا (ووحيانا) أى تعليننا لك ما تصنعه (ولا تخاطبنى فى الدين ظالموا إنهم مغرقون) فقال بعض السلف أمره الله تعالى أن يغرز الحشب ويقطعه ويببسه فكان ذلك فى مائة سنة ونجرتها فى مائة سنة أخرى وقيل فى أربعين سنة والله أعلم ، وذكر محمد بن إسحق عن التوراة أن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج وأن يجعل طولها ثمانين ذراعا وعرضها خمسين ذراعا وأن يطل ياطنها وظاهرها بالقار وأن يجعل لها جوجوا أزورا يشق الماء ، وقال قتادة كان طولها ثلثمائة ذراع فى عرض خمسين وعن الحسن طولها ستمائة ذراع وعرضها ثلثمائة وعنه مع ابن عباس طولها ألف ومائتا ذراع فى عرض ستمائة وقيل طولها ألفا ذراع وعرضها مائة ذراع فأن الله أعلم ، قالوا كلهم وكان ارتفاعها فى السماء ثلاثين ذراعا ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع فالسفلى للدواب والوحوش والوسطى للإنس والعليا للطيور وكان بابها فى عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها ، وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير أثرا غريبا من حديث على بن زيد بن جده عن يوسف بن مهران عن عبد الله بن عباس أنه قال : قال الحواريون لعيسى بن مريم لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة فحدثنا عنها قال فانطلق بهم حتى انتهى إلى كتيب من تراب فأخذ كفا من ذلك التراب بكفه فقال أتدرون ما هذا ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال هذا كعب حام بن نوح . قال فضرب الكتيب بعصاه قال قم ياذن الله فإذا هو قائم ينفذ التراب عن رأسه قد شاب قال له عيسى عليه السلام أهكذا هلك ؟ قال لا . ولكنى مت وأنا شاب ولكنى ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت ، قال حدثنا عن سفينة نوح ؟ قال كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات فطبقة فيها الدواب والوحوش وطبقة فيها الإنس وطبقة فيها الطير فلما كثروا الدواب أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه

فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث فلما وقع الفأر بحوف السفينة يقرضها وجالها أوحى الله إليه أن اضرب بين عيني الأسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفأر ، فقال له عيسى عليه السلام كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت ؟ قال بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوق عليها فدعا عليه بالخوف فلذلك لا يألف البيوت. قال ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجليها فعلم أن البلاد قد غرقت قال فطوقها الخصرة التي في عنقها ودعا لها أن تكون في أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت قال فقلنا يا رسول الله ألا نطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا ؟ قال كيف يتبعكم من لارزق له ؟ قال فقال له عد بإذن الله فعاد ترابا ، وقوله (ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) أى يهزمون به ويكذبون بما يتوعدهم به من العرق (قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم) الآية وعيد شديد وتهديد أكيد (من يأتيه عذاب يخزيه) أى يهينه في الدنيا (ويحل عليه عذاب مقيم) أى دائم مستمرا أبدا.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

هذه موعدة من الله تعالى لنوح عليه السلام إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة والهتان الذي لا يقلع ولا يفر ، بل هو كما قال تعالى (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر) وأما قوله (وفار التنور) فعن ابن عباس التنور وجه الأرض ، أى صارت الأرض عيونا تفور حتى فار الماء من التناير التي هي مكان النار صارت تفور ماء وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف ، وعن علي بن أبي طالب رضى الله عنه التنور فلق الصبح وتوير الفجر وهو ضياؤه وإشراقه والأول أظهر وقال مجاهد والشعبي كان هذا التنور بالكوفة ، وعن ابن عباس عين بالهند ، وعن قتادة عين بالجزيرة يقال لها عين الوردة وهذه أقوال غريبة فحينئذ أمر الله نوحا عليه السلام أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح ، قيل وغيرها من النباتات اثنين ذكرا وأنثى فليل كان أول من أدخل من الطيور الدرة وآخر من أدخل من الحيوانات الحمار فتعلق إبليس بذنبه وجعل يريد أن ينهض فينقله إبليس وهو متعلق بذنبه فجعل يقول له نوح عليه السلام : مالك ويحك ادخل فينهض ولا يقدر فقال : ادخل وإن كان إبليس معك فدخل في السفينة ، وذكر بعض السلف أنهم لم يستطيعوا أن يحملوا معهم الأسد حتى ألقيت عليه الحمى .

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث حدثني الليث حدثني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال « لما حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين قال أصحابه وكيف تطمئن المواشي ومعها الأسد ؟ فسلط الله عليه الحمى فكانت أول حمى نزلت في الأرض ثم شكوا الفأرة فقالوا الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا فأوحى الله إلى الأسد فعطس فخرجت المرة منه فتخبأت الفأرة منها . وقوله (وأهلك إلا من سبق عليه القول) أى واحمل فيها أهلك وهم أهل بيته وقرايته إلا من سبق عليه القول منهم ممن لم يؤمن بالله فكان منهم ابنه يام الذي انزل وحده وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله ، وقوله (ومن آمن) أى من قومك (وما آمن معه إلا قليل) أى نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، فعن ابن عباس كانوا ثمانين نفسا منهم نساؤهم ، وعن كعب الأحبار كانوا اثنين وسبعين نفسا . وقيل كانوا عشرة ، وقيل إن ما كان نوح وبنوه الثلاثة سام وحام ويافث وكنائنه الأربع نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام ، وقيل بل امرأة نوح كانت معهم في السفينة وهذا فيه نظر ، بل الظاهر أنها هلكت لأنها كانت على دين قومها فأصابها ما أصابهم كما أصاب امرأة لوط ما أصاب قومها والله أعلم وأحكم :

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجَّيْنَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ

وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَقَرٍّ يَتَلَوَّى أَزْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَتَأْتِي إِلَى جِبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿١٠١﴾

يقول تعالى إخبار عن نوح عليه السلام أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة (اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها) أي بسم الله يكون جريها على وجه الماء ، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوها ، وقرأ أبو رجاء العطاردي (بسم الله مجريها ومرساها) وقال الله تعالى (فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجاننا من القوم الظالمين) وقل رب أنزلي منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور عند الركوب على السفينة وعلى الدابة كما قال تعالى (والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره) الآية ، وجاءت السنة بالحث على ذلك والندب إليه كما سيأتي في سورة الزخرف إن شاء الله وبه الثقة وقال أبو القاسم الطبراني حدثنا إبراهيم بن هاشم البغوي حدثنا محمد بن أبي بكر المديني وحدثنا زكريا بن يحيى الساجي حدثنا أحمد بن موسى الحرشي قالا حدثنا عبد الحميد بن الحسن الهلالي عن نهشل بن سعيد عن الضحاك عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال « أمان أمي من الغرق إذا ركبو في السفن أن يقولوا بسم الله الملك (وما قدره الله حق قدره) - الآية - (بسم الله مجريها ومرساها أن رب لغفور رحيم) » وقوله (إن رب لغفور رحيم) مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين فذكر أنه غفور رحيم كقوله (إن ربك لسريع العقاب * وإنه لغفور رحيم) وقال (وإن ربك لذوم مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب) إلى غير ذلك من الآيات التي يقرن فيها بين رحمته وانتقامه وقوله (وهى تجري بهم في موج كالجبال) أي السفينة سائرة بهم على وجه الماء الذي قد طبق جميع الأرض حتى طفت على رؤوس الجبال وارتفع عليها خمسة عشر ذراعا وقيل ثمانين ميلا ، وهذه السفينة جارية على وجه الماء سائرة بأذن الله وتحت كنفه وعنايته وحراسته وامتنانه كما قال تعالى (إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية * لنجعلها لكم تذكرا وتعيها أذن واعية) وقال تعالى (وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجري باعيننا جزاء لمن كان كفر * ولقد تركناها آية فهل من مدكر) وقوله (ونادى نوح ابنه) الآية ، هذا هو الابن الرابع واسمه يام وكان كافرا دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ولا يفرق مثل ما يفرق الكافرون (قال سأوى إلى جبل يعصمني من الماء) وقيل إنه اتخذ له مركبا من زجاج وهذا من الأساطيليات والله أعلم بصحته ، والذي نص عليه القرآن أنه قال (سأوى إلى جبل يعصمني من الماء) اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال ، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق ، فقال له أبوه نوح عليه السلام (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) أى ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله . وقيل إن عاصما بمعنى معصوم كما يقال طاعم وكاس بمعنى مطعم ومكسو (وحال بينها الموج فكان من المغرقين)

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَاةُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأُسْتُوتَ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه لما أغرق أهل الأرض كلهم الا أصحاب السفينة أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها ، وأمر السماء أن تفلح عن المطر (وغيض الماء) أى شرع في النقص (وقضى الأمر) أى فرغ من أهل الأرض قاطبة ممن كفر بالله لم يبق منهم ديار (واستوت) السفينة بمن فيها (على الجودى) قال مجاهد وهو جبل بالجزيرة تشاخصت الجبال يومئذ من الغرق وتناولت وتواضع هو الله عز وجل فلم يغرق وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام وقال قتادة استوت عليه شهرا حتى نزلوا منها ، قال قتادة . قد أبقى الله سفينة نوح عليه السلام على الجودى من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت وصارت رمادا

وقال الضحاك : الجودي جبل بالموصل وقال بعضهم : هو الطور ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أي حدثنا عمرو بن رافع حدثنا محمد بن عبيد عن توبة بن سالم قال رأيت زر بن حبیش يصلي في الزاوية حين يدخل من أبواب كندة على يمينك فسأله إنك لكثير الصلاة ههنا يوم الجمعة قال بلغني أن سفينة نوح أرسدت من ههنا . وقال علباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلا معهم أهلهم وإناهم كانوا فيها مائة وخمسين يوما وإن الله وجه السفينة إلى مكة فطافت بالبيت أربعين يوما ثم وجهها الله إلى الجودي فاستقرت عليه فبعث نوح الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب فوق على الجيف فأبطأ عليه فبعث الحمامة فأنته بورق الزيتون فلطخت رجلها بالطين فعرف نوح عليه السلام أن الماء قد نضب فهبط إلى أسفل الجودي فابتنى قرية وسماها ثمانين فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة إحداها اللسان العربي ، فكان بعضهم لا يفقه كلام بعض فكان نوح عليه السلام يعبر عنهم . وقال كعب الأحبار : إن السفينة طافت ما بين المشرق والمغرب قبل أن تستقر على الجودي ، وقال قتادة وغيره ركبوا في عاشر شهر رجب فساروا مائة وخمسين يوما واستقرت بهم على الجودي شهراً وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم ، وقد ورد نحو هذا في حديث مرفوع رواه ابن جرير وأنهم صاموا يومهم ذلك والله أعلم .

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو جعفر حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدي عن أبيه حبيب بن عبد الله عن شبل عن أبي هريرة قال : مر النبي ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء فقال « ما هذا الصوم ؟ » قالوا هذا اليوم الذي نجى الله به موسى وبني إسرائيل من الغرق وغرق فيه فرعون وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي فصام نوح وموسى عليهما السلام شكراً لله عز وجل : فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أنا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم » فصام وقال لأصحابه « من كان أصبح منكم صائماً فليتم صومه ، ومن كان أصاب من غداء أهله فليتم بقية يومه » وهذا حديث غريب من هذا الوجه ولبعضه شاهد في الصحيح ، وقوله (وقيل بعدا للقوم الظالمين) أي هلاكاً وخساراً لهم وبعداً من رحمة الله فانهم قد هلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية ، وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير والخبر أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيرها من حديث يعقوب بن موسى الزمعي عن قائد مولى عبيد الله بن أبي رافع أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة أخبره أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته أن النبي ﷺ قال « لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي » قال رسول الله ﷺ « كان نوح عليه السلام مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يعني وغرس مائة سنة الشجر فعظمت وذهبت كل مذهب ثم قطعها ثم جعلها سفينة ويمرون عليه ويستخرون منه ويقولون تعمل سفينة في الر فكيف تجرى ؟ قال سوف تعامون فلما فرغ ونبع الماء وصار في السكك خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حباً شديداً فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبتهما رفعت يديها ففرقا ، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي » وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، وقد روى عن كعب الأحبار ومجاهد ابن جبير قصة هذا الصبي وأمه بنحو من هذا

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ * قَالَ يَسْأَلُكَ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

هذا سؤال استلام وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق (قال رب إن ابني من أهلي) أي وقد وعدتني بنجاة أهلي ووعدك الحق الذي لا يخلف فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين (قال يا نوح إنه ليس من أهلك) أي الدين وعدت إنجاءهم لأنني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك ، ولهذا قال (وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم) فكان هذا

الولد ممن سبق عليه القول بالفرق لكفره ومخالفته أبيه نبي الله نوحا عليه السلام ، وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه وإنما كان ابن زنية ، ويحكي القول بأنه ليس بابنه وإنما كان ابن امرأته عن مجاهد والحسن وعبيد بن عمير وأبي جعفر الباقر وابن جريج واحتج بعضهم بقوله (إنه عمل غير صالح) وقوله (فخايتها) فمن قاله الحسن البصري احتج بهاتين الآيتين وبعضهم يقول ابن امرأته وهذا يحتمل أن يكون أراد ما أراد الحسن أو أراد أنه نسب إليه مجازا لكونه كان ربيبا عنده فآله أعلم . وقال ابن عباس وغير واحد من السلف ما زنت امرأة نبي قط قال : وقوله (إنه ليس من أهلك) أي الذين وعدتكم نجاتهم ، وقول ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا يحيد عنه فإن الله سبحانه أغير من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة ولهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبي ﷺ وأنكر على المؤمنين الذين تسكلموا بهذا وأشاعوه ولهذا قال تعالى (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم * لكل امرئ ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) إلى قوله ﷻ إذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم) وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة وغيره عن عكرمة عن ابن عباس قال : هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية قال عكرمة في بعض الحروف إنه عمل عملا غير صالح ، والخيانة تكون على غير باب ، وقد ورد في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بذلك فقال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هرون حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ (إنه عمل غير صالح) وسمعت يقول (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) ولا يبالى (إنه هو الغفور الرحيم) وقال أحمد أيضا حدثنا وكيع حدثنا هرون النحوي عن ثابت البناني عن شهر بن حوشب عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قرأها (إنه عمل غير صالح) أعاده أحمد أيضا في مسنده ، أم سلمة هي أم المؤمنين والظاهر والله أعلم أنها أسماء بنت يزيد فانها تكفى بذلك أيضا . وقال عبد الرزاق أيضا أنا الثوري عن ابن عيينة عن موسى ابن أبي عائشة عن سليمان بن قبة قال سمعت ابن عباس سئل وهو إلى جنب الكعبة عن قول الله (فخايتها) قال أما إنه لم يكن بالزنا ولكن كانت هذه تحبر الناس أنه مجنون ، وكانت هذه تدل على الأضياف ثم قرأ (إنه عمل غير صالح) قال ابن عيينة وأخبرني عمار النهدي أنه سأل سعيد بن جبير عن ذلك فقال : كان ابن نوح إن الله لا يكذب . قال تعالى (ونادى نوح ابنه) قال وقال بعض العلماء ما فجرت امرأة نبي قط . وكذا روى عن مجاهد أيضا وعكرمة والضحاك وميمون بن مهران وثابت بن الحجاج وهو اخنيار أبي جعفر بن جرير وهو الصواب الذي لا شك فيه

﴿ قِيلَ يٰ نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّنْ مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يخبر تعالى عما قيل لنوح عليه السلام حين أرسى السفينة على الجودي من السلام عليه وعلى من معه من المؤمنين وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة كما قال محمد بن كعب دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة وكذلك في العذاب والتعاقب كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة وقال محمد بن إسحق لما أراد الله أن يكف الطوفان أرسل ريحا على وجه الأرض فسكن الماء وانسدت ينايع الأرض الغمر الأكبر وأبواب السماء يقول الله تعالى (وقيل يا أرض ابلعي ماءك) الآية فجعل الماء ينقص ويعيض ويدير وكان استواء الفلك على الجودي فيما يزعم أهل التوراة في الشهر السابع اسبع عشرة ليلة مضت منه وفي أول يوم من الشهر العاشر رأى رؤوس الجبال فلما مضى بعد ذلك أربعون يوما فتح نوح كوة الفلك التي ركب فيها ثم أرسل الغراب لينظر له ماصع الماء فلم يرجع إليه فأرسل الحمامة فرجعت إليه لم تجد لرجلها موضعا فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها ثم مضى سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له فرجعت حين أمست وفيها ورق ريتون فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها

فلم ترجع فعلم نوح أن الأرض قد برزت فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنتين برز وجه الأرض وظهر البر وكشف نوح عطاء الفلك وفي الشهر الثاني من سنة اثنتين في ست وعشرين ليلة منه (قيل يا نوح اهبط بسلام منا) الآية

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ هذه القصة وأشباهها (من أنباء الغيب) يعنى من أخبار الغيوب السالفة نوحيا إليك على وجهها كأنك شاهدها نوحيا إليك أى نعملك بها وحيا منا إليك (ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) أى لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها حتى يقول من يكذبك إنك تعلمتها منه بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك وأذا هم لك فانا سننصرك ونحوطك بعنايتنا ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا) الآية وقال تعالى (ولقد سبقت كلتنا لعبادنا المرسلين إناهم المنصورون) الآية وقال تعالى (فاصبر إن العاقبة للمتقين)

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ * يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾

يقول تعالى (و) لقد أرسلنا (إلى عاد أخاهم هودا) أمرا لهم بعبادة الله وحده لا شريك له ناهيا لهم عن الأوثان التي افتروها واختلفوا لها أسماء الآلهة وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجره على هذا النصح والبلاغ من الله إنما يعنى ثوابه من الله الذى فطره أفلا تعقلون من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجره ثم أمرهم بالاستغفار الذى فيه تكفير الذنوب السالفة والتوبة عما يستقبلون ، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه وسهل عليه أمره وحفظ شأنه ولهذا قال (يرسل السماء عليكم مدرارا) وفي الحديث « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب »

﴿ قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَمْتَرْنَاكَ بِبَعْضِ آلِهَتِنَا بِسُوءِ قَالَ إِنْ شَهِدَ اللَّهُ فَأَسْبِغُوا عَلَىَّ مَاءً ثُمَّ لَا تَنْظُرُونَ * إِنْ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رِئَاسَتُكُمْ مِمَّنْ دَابَّةٌ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِيهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

يخبر تعالى أنهم قالوا للنبيهم (ما جئتنا ببينة) أى بحجة وبرهان على ما تدعيه (وما نحن بتاركي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ) أى بمجرد قولك أتركوهم تركهم (وما نحن لك بمؤمنين) بمصدقين (إن نقول إلا اعتراك بعض آلِهَتِنَا بِسُوءِ) يقولون ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بخنون وخبل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها (قال إني أشهد الله وأشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه) يقول إني برىء من جميع الأنداد والأصنام (فكيدونى جميعا) أى أنتم وآلهتكم إن كانت حقا (ثم لا تنظرون) أى طرفة عين وقوله (إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها) أى

تحت قهره وسلطانه وهو الحاكم العادل الذي لا يجوز في حكمه فانه على صراط مستقيم فال الوليد بن مسلم عن صفوان ابن عمرو عن أيفع بن عبد الكلاعي أنه قال في قوله تعالى (ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم) قال فيأخذ بنواصي عباديه فيلقن المؤمن حتى يكون له أنشفق من الوالد لولده ويقول (ما غرك بربك الكريم) وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر بل هي جماد لا تسمع ولا تبصر ولا توالى ولا تعادى وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له الذي بيده الملك وله التصرف وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه فلا إله إلا هو ولا رب سواه

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ ءَادَ جَحَدُوا بِنَائِتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ أَلْدُنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ ءَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّءَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾

يقول لهم هود فإن تولوا عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له فقد قامت عليكم الحجة بالدلائل إياكم رسالة الله التي بعثني بها (ويستخلف ربي قوما غيركم) يعبدونه وحده لا يشركون به ولا يبالى بكم فانكم لا تضررونه بكفركم بل يعود وبال ذلك عليكم (إن ربي على كل شيء حفيظ) أى شاهد وحافظ لأقوال عباديه وأفعالهم ويجزبهم عليها إن خير فخير وإن شرا فشر (ولما جاء أمرنا) وهو الرمح العقم فأهلكهم الله عن آخرهم ونجى هودا وأتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه (وتلك عاد جحدوا بنائت ربهم) كفروا بها وعصوا رسل الله وذلك أن من كفر بربي فقد كفر بجميع الأنبياء لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به فعاد كفروا بهود فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) تركوا اتباع رسولهم الرشيد ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، فلهمذا أتبعوا في هذه الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلا ذكروا وينادي عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد (ألا إن عادا كفروا ربهم) الآية قال السدي ما بعث نبي بعد عاد إلا لعنوا على لسانه

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾

يقول تعالى (و) لقد أرسلنا (إلى ثمود) وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينه وكانوا بعد عاد فبعث الله منهم (أخاهم صالحا) فأمرهم بعبادة الله وحده ولهذا قال (هو أنشأكم من الأرض) أى ابتداء خلقكم منها خلق منها أبابكم آدم (واستعمركم فيها) أى جعلكم عمارا تعمرونها وتسكنونها (فاستغفروه) لسالف ذنوبكم (ثم توبوا إليه) فيما تستقبلونه (إن ربي قريب مجيب) كما قال تعالى (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) الآية

﴿ قَالُوا يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ * قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح عليه السلام وبين قومه وما كان عليه قومه من الجهل والعدا في قولهم (قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) أى كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت (أنها بنا أن نعبد ما يعبد آبائنا) وما كان عليه أسلافنا (وإننا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب) أى شك كثير (قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربى فيما أرسلنى به إليكم على يقين وبرهان (وآتاني منه رحمة فمن ينصرفى من الله إن عصيته) وتركتم دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده ، فلو تركته لما نفعتمونى ولما زدتونى (غير تخسير) أى خسارة .

﴿ وَيَقَوْمٍ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ فَمَقَرُّوهَا فَقَالَ لَمُتُّمْ فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جِثِيمِينَ * كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا نَعْدَا لِمُؤَدَّ

تقدم الكلام على هذه القصة مستوفى في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته هاهنا وبالله التوفيق .

﴿ وَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ * فَلَمَّا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلَبَسَ نَهْأً يَأْسَخَقُ مِنْ وَّرَاءِ يَسْحَقٍ يَقُوبُ * قَالَتْ يَوَيْلَ لِيَّاءُ أَلَدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ

يقول تعالى (ولما جاءت رسلنا) وهم الملائكة إبراهيم بالبرى قيل تبشره بأسحق وقيل بهلاك قوم لوط ويشهد للاول قوله تعالى (ولما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط) (قالوا سلاما قال سلام) أى عليكم قال علماء البيان : هذا أحسن مما حيوه به لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام (فما لبث أن جاء بعجل حنيد) أى ذهب سريعا فأتاهم بالضيافة وهو عجل فنى البقر : حنيد : شوى على الرضف وهى الحجارة المحمأة . هذا معنى ماروى عن ابن عباس وقتادة وغير واحد كما قال فى الآية الأخرى (فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون) وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة وقوله (فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم) (نكرهم) (وأوجس منهم خيفة) وذلك أن الملائكة لا همة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلون فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به فارغين عنه بالكلية فعند ذلك نكرهم (وأوجس منهم خفة) قال السدى لما بعث الله الملائكة لقوم لوط أقبلت تمشى فى صور رجال شبان حتى نزلوا على إبراهيم فتضيفوه ، فلما رآهم أجلبهم (فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين) فذبجه ثم شواه فى الرضف وأتاهم به فقعده معهم وقامت سارة تخدمهم فذلك حين يقول - وامرأته قائمة وهو جالس - فى قراءة ابن مسعود (فلما قرب به إليهم قال ألا تأكلون ؟) قالوا يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاما إلا بضعم ، قال فان لهذا ثمنا ، قالوا وما ثمنه ؟ قال تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال حق لهذا أن يتخذ ربه خليلا (فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم) يقول فلما رآهم لا يأكلون فزع منهم (وأوجس منهم خيفة) فلما نظرت سارة أنه قد أكرمهم وقامت هى تخدمهم صحت وقالت : عجا لأضيافنا هؤلاء نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم وهم لا يأكلون

طعامنا ! وقال ابن حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا نصر بن علي حدثنا نوح بن قيس عن عثمان بن محيص عن أبيه عن إبراهيم قال كانوا أربعة : جبريل وميكائيل وإسرافيل ورؤفائيل . قال نوح بن قيس فزعم نوح بن أبي شداد أنهم لما دخلوا على إبراهيم فقبلوا عليه العجل مسح جبريل بخصاه فقام يدرج حتى لحق بأمه وأمه العجل في الدار ، وقوله تعالى إخبارا عن الملائكة (قالوا لا تخف) أي قالوا لا نخف منا إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم ، فضحكت سارة استبشارا بهلاكهم لكثرة فسادهم وغلظ كفرهم وعنادهم فلهدأ حوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس ، وقال قتادة ضحكت وعجبت أن قوما يأتيهم العذاب وهم في غفلة ، وقوله (ومن وراء إسحق يعقوب) قال العوفي عن ابن عباس فضحكت أي حاضت ، وقول محمد بن قيس إنها إنما ضحكت من أنها ظنت أنهم يريدون أن يعملوا كما يعمل قوم لوط . وقول السكبي إنها إنما ضحكت لما رأت من الروع بإبراهيم ضعفا ووجدا وإن كان ابن جرير قد رواها بسنده إليهما فلا يلغى ذلك إلى ذلك والله أعلم . وقول وهب بن منبه : إنما ضحكت لما بشرت بإسحق وهذا مخالف لهذا السياق فإن البشارة صريحة مرتبة على ضحكها (فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) أي بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل فإن يعقوب ولد إسحق كما قال في آية البقرة (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذا قال لنيه ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسحق هما واحدا ونحن له مسلمون) ومن ههنا استدل من استدل بهذه الآية على أن الديسج إنما هو إسماعيل ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحق لأنه وقعت البشارة به وأنه سيولد له يعقوب فكيف يؤمر إبراهيم بدبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده ووعد الله حق لا خلف فيه فيمنع أن يؤمر بدبح هذا والحالة هذه ، فتعين أن يكون هو إسماعيل وهذا من أحسن الاستدلال وأصح وأبينه والله الحمد (قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا) الآية حكى قولها في هذه الآية كما حكى فعلها في الآية الأخرى فإنها (قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز) وفي الداريات (فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم) كما جرت به عادة النساء في أفوالهن وأفعالهن عند التعجب (قالوا أتعجبين من أمر الله أي قالت الملائكة لها لا تعجبين من أمر الله فإنه إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . فلا تعجبين من هذا وإن كنت عجوزا عقيما وبعلك شيخا كبيرا فإن الله على ما يشاء قدير) رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت أنه حميد مجيد) أي هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله محمود مجيد في صفاته وذاته ، ولهذا ثبت في الصحيحين أنهم قالوا : قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك يا رسول الله ؟ قال « قولوا اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد »

(فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُهَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ *
يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَا يَتَذَكَّرُونَ)

يخبر تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه لما ذهب عنه الروع وهو ما أوجس من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا وبشروه بعد ذلك بالولد وأخبروه بهلاك قوم لوط أخذ يقول كما قال سعيد بن جبير في الآية قال لما جاءه جبريل ومن معه قالوا له (انا مهلكوا أهل هذه القرية) قال لهم أتهلكون قرية فيها نائمة مؤمن ؟ قالوا لا ، قال أهلكون قرية فيها مائة مؤمن ؟ قالوا لا ، قال أهلكون قرية فيها مائة مؤمن ؟ قالوا لا ، حتى بلغ خمسة قالوا لا قال ؟ رأيتم أن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكوها ؟ قالوا لا ، فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك (إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته) الآية فسك عنهم واطمأنت نفسه ، وقال قتادة وغيره قريبا من هذا زاد ابن إسحق أفرأيت إن كان فيها مؤمن واحد ؟ قالوا لا ، قال فإن كان فيها لوط يدفع به عنهم العذاب قالوا (نحن أعلم بمن فيها) الآية ، وقوله (إن إبراهيم لحليم أواه منيب) مدح لإبراهيم بهذه الصفات الجميلة ، وقد تقدم تفسيرها ، وقوله تعالى (يا إبراهيم أعرض عن هذا

أنه قد جاء أمر ربك (الآية ، أى أنه قد نفذ فيهم القضاء وحققت عليهم الكلمة بالهلاك وحلول البأس الذى لا يرد عن القوم المجرمين

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَتَقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾

يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة بعد ما أعلموا إبراهيم بهلاكهم وفارقوه وأخبروه بهلاك الله قوم لوط هذه الليلة فانطلقوا من عنده فاتوا لوطا عليه السلام وهو على ما قيل فى أرض له وقيل فى منزله ووردوا عليه وهم فى أجمل صورة تكون على هيئة شبان حسان الوحوه ابتلاء من الله وله الحكمة والحجة البالغة فساء شأنهم وضاعت نفسه بسببهم وخشى إن لم يضيفهم أن يضيقهم أحد من قومه فينالهم بسوء (وقال هذا يوم عاصيب) قال ابن عباس وغير واحد شديد بلاؤه وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم ويشق عليه ذلك . وذكر قتادة أنهم أتوه وهو فى أرض له فتضيفوه فاستجيا منهم فانطلق أمامهم وقال لهم فى أثناء الطريق كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه انه والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبت من هؤلاء . ثم مشى قليلا ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرهه أربع مرات ، قال قتادة وقد كانوا أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبينهم بذلك ، وقال السدى خرج الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فبلغوا نهر سدوم نصف النهار ولقوا بنت لوط تستقي فقالوا يا جارية هل من منزل ؟ فقالت مكانكم حتى أتاكم وفرقت عليهم من قومها فأتت أباهما فقالت يا أبتاه أدرك فتينا على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم أحسن منهم لا يأخذهم قومك وكان قومه نهوه أن يضيف رجلا فقالوا خل عنا فلنضيف الرجال فجاءهم فلم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته فخرجت امرأته فأخبرت قومها فجاءوا يهرعون إليه وقوله (يهرعون إليه) أى يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك وقوله (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) أى لم يزل هذا من سجيئتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال وقوله (قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) يرشدهم إلى نساءهم فان النبى للامة بمنزلة الوالدة فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم فى الدنيا والآخرة كما قال لهم فى الآية الأخرى (أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون) وقوله فى الآية الأخرى (قالوا أولم ننهك عن العالمين) أى ألم تنهك عن ضيافة الرجال (قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين * لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) وقال فى هذه الآية الكريمة (هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) قال مجاهد لم يكن بناته ولكن كن من أمته وكل نبى أبو أمته وكذا روى عن قتادة وغير واحد وقال ابن جريج: أمرهم أن يتزوجوا النساء لم يعرض عليهم سفاحا . وقال سعيد بن جبير عن نساءهم هن بناته وهو أب لهم ويقال فى بعض القراءات (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم) وكذا روى عن الربيع بن أنس وقاتدة والسدى ومحمد بن إسحق وغيرهم وقوله (فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى) أى اقبلوا ما أمركم به من الاعتصار على نساءكم (أليس منكم رجل رشيد) أى فيه خير يقبل ما أمره به ويترك ما أنهى عنه (قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق) أى إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتهين (وإنك لتعلم ما نريد) أى ليس لنا غرض إلا فى الذكور وأنت تعلم ذلك فأى حاجة فى تكرار القول علينا فى ذلك ؟ قال السدى (وإنك لتعلم ما نريد) إنما نريد الرجال

﴿ قَالَ لَوْ أَن لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن نبيه لوط عليه السلام إن لوطا توعدهم بقوله (لو أن لى لكم قوة) الآية أى لكت نكات بكم

وفعلت بكم الأفاعيل بنفسى وعشيرتى، ولهذا ورد فى الحديث من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال «رحمة الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد - يعنى الله عز وجل - فما بعث الله بعده من نبي إلا فى ثروة من قومه» فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه وأنهم لا وصول لهم إليه (قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) وأمره أن يسرى بأهله من آخر الليل وأن يتبع أديبارهم أى يكون ساقية لأهله (ولا يلتفت منكم أحد) أى إذا سمعت ما نزل بهم ولا تنولنكم تلك الأصوات المزعجة ولكن استمروا ذاهبين (إلا امرأتك) قال الأكرن هو استثناء من المثلث وهو قوله (فأسر بأهلك) تقديره (إلا امرأتك) وكذلك قرأها ابن مسعود، ونصب هؤلاء امرأتك لأنه من مثبت فوجب نصبه عندهم، وقال آخرون من القراء والنحاة هو استثناء من قوله (ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك) فجوزوا الرفع والنصب. وذكر هؤلاء أنها خرجت معهم وأنها لما سمعت الوجبة التفتت وقالت: واقوما فجاءها حجر من السماء فقتلها ثم قبرا له هلاك قومه تبشيرا له لأنه قال لهم أهلكوهم الساعة فقالوا (إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب) هذا وقوم لوط وقوف على الباب وعكوف قد جاءوا يهرعون إليه من كل جانب ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه وهم لا يقبلون منه بل يتوعدونه ويتهددونه فعند ذلك خرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه فطمس أعينهم فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق كما قال تعالى (ولقد راودوه عن ضيفة فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر) الآية وقال معمر عن قتادة عن حذيفة بن اليمان قال كان إبراهيم عليه السلام يأتى قوم لوط فيقول أنها كم الله أن تعرضوا لعقوبته فلم يطيعوه حتى إذا بلغ الكتاب أجله انتهت الملائكة إلى لوط وهو يعمل فى أرض له فدعاهم إلى الضيافة فقالوا إنا ضيوفك الليلة وكان الله قد عهد إلى جبريل ألا يعذبهم حتى يشهد عليهم لوط ثلاث شهادات فلما توجه بهم لوط إلى الضيافة ذكر ما يعمل قومه من الشر فمشى معهم ساعة ثم التفت إليهم فقال أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض شرا منهم أين أذهب بكم؟ إلى قومي وهم أشركوا خلق الله، فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال احفظوها هذه واحدة ثم مشى معهم ساعة فلما توسط القرية وأشفق عليهم واستحيا منهم قال أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض أشركوا قومي أشركوا خلق الله فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال احفظوا هاتان اثنتان، فلما انتهى إلى باب الدار بكى حياء منهم وشفقة عليهم فقال إن قومي أشركوا خلق الله؟ أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض أهل قرية شر منهم. فقال جبريل للملائكة احفظوا هذه ثلاث قد حق العذاب فلما دخلوا ذهب عجزه عجز السوء فصعدت فلوحت بثوبها فأثاها الفساق يهرعون يسارعون إلى الباب فعالجهم لوط على الباب فدفعوه طويلا وهو داخل وهم خارج يناشدتهم الله ويقول (هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) فقام الملك فلن بالباب - يقول فشدته - واسأذن جبريل فى عقوبتهم فأذن الله له فقام فى الصورة التى يكون فيها فى السماء، فنشر جناحه - وجبريل جناحان - وعليه وشاح من درمنظوم وهو براق الثنايا أحلى الجبين ورأسه حبك حبك مثل المرجان وهو اللؤلؤ كأنه الثلج ورجلاه إلى الخصرة فقال يا لوط (إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) امض يا لوط عن الباب ودعنى وإياهم، فنحى لوط عن الباب فخرج إليهم فنشر جناحه فضرب به وجوههم ضربة شدة شدة أعينهم فصاروا عميا لا يعرفون الطريق، ثم أمر لوط فاحتمل بأهله فى ليلته قال (فأسر بأهلك بقطع من الليل) وروى عن محمد بن كعب وقادة والسدى نحو هذا

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مَّسْوُومَةٍ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ ﴾

يقول تعالى (فلما جاء أمرنا) وكان ذلك عند طلوع الشمس (جعلنا عليها) وهى سدوم (سافلها) كقولها (فغشاها ما غشى) أى أمطرنا عليها حجارة من سجيل وهى بالفارسية حجارة من طين قاله ابن عباس وغيره وقال بعضهم أى

من سنك وهو الحجر وكل وهو الطين وقد قال في الآية الأخرى حجارة من طين أى مستحجرة قوية شديدة ، وقال بعضهم مشوية ، وقال البخارى سجيل : الشديد الكبير ، سجيل وسجين اللام والنون أختان ، وقال تميم بن مقبل ورحله يضربون البيض صاحبة * ضربا تواصت به الأبطال سجيئا

وقوله (منضود) قال بعضهم منضودة في السماء أى معدة لذلك وقال آخرون (منضود) أى يتبع بعضها بعضا في نزولها عليهم وقوله (مسومة) أى معلة مختومة عليها أسماء أصحابها كل حجر مكتوب عليه اسم الذى ينزل عليه وقال قتادة وعكرمة (مسومة) مطوقة بها نضج من حمرة وذكروا أنها نزلت على أهل البلد وعلى المتفرقين في القرى مما حولها فينا أحدهم يكون عند الناس يتحدث إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس فدمره فقتلهم بالحجارة من سائر البلاد حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد ، وقال مجاهد أخذ جبريل قوم لوط من سرحهم ودورهم حملهم بمواشيهم وأمتعتهم ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم كفأها ، وكان حملهم على خوافى جناحه الأيمن قال ولما قلبها كان أول ماسقط منها شرفاتها ، وقال قتادة بلغنا أن جبريل أخذ بعروة القرية الوسطى ثم ألوى بها إلى جو السماء حتى سمع أهل السماء ضواغى كلابهم ثم دمر بعضها على بعض ثم اتبع شذاذ القوم صخرا قال وذكرنا أنهم كانوا أربع قرى في كل قرية مائة ألف وفي رواية ثلاث قرى الكبرى منها سدوم ، قال وبلغنا أن إبراهيم عليه السلام كان يشرف على سدوم ويقول سدوم يوم هالك وفي رواية عن قتادة وغيره بلغنا أن جبريل عليه السلام لما أصبح نشر جناحه فالتسف بها أرضهم بما فيها من قصورها ودوابها وحجارتها وشجرها وجميع ما فيها فضمها في جناحه فطواها في جوف جناحه ثم صعد بها إلى السماء الدنيا حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب وكانوا أربعة آلاف ألف ثم قلبها فأرسلها إلى الأرض منكوسة ودمدم بعضها على بعض فجعل عاليها سافلها ثم أتبعها حجارة من سجيل ، وقال محمد بن كعب القرظي كانت قرى قوم لوط خمس قرى سدوم وهى العظمى وصعبه وصعود وغمرة ودوحاء احتملها جبريل بجناحه ثم صعد بها حتى إن أهل السماء الدنيا ليسمعون نائحة كلابها وأصوات دجاجها ثم كفأها على وجهها ثم أتبعها الله بالحجارة يقول الله تعالى (جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل) فأهلكها الله وما حولها من المؤمنين ، وقال السدى لما أصبح قوم لوط نزل جبريل فالتعل الأرض من سبع أرضين فحملها حتى بلغ بها السماء حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وأصوات ديوكهم ثم قلبها فقتلهم فذلك قوله (والمؤتفة أهوى) ومن لم يمت حتى سقط للأرض أمطر الله عليه وهوتحت الأرض الحجارة ومن كان منهم شاذا في الأرض يتبعهم في القرى فكان الرجل يتحدث ويأنيه الحجر فيقتله فذلك قوله عز وجل (وأمطرنا عليهم) أى في القرى حجارة من سجيل هكذا قال السدى وقوله (وماهى من الظالمين يبعيد) أى وما هذه النعمة بمن تشبه بهم في ظلمهم يبعيد عنه ، وقد ورد في الحديث المروى في السنن عن ابن عباس مرفوعا « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الماعل والمفعول به » وذهب الإمام الشافعى في قول عنه وجماعة من العلماء إلى أن اللائط يقتل سواء كان محصنا أو غير محصن عملا بهذا الحديث ، وذهب الإمام أبو حنيفة أنه يلقي من شاقق ويتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْنَؤُمْ أَعْبُدُوا مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنفَعُوهُ الْمَلَائِكَةُ وَالْمِيزَانُ
إِنِّي أُرِيكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾

يقول تعالى ولقد أرسلنا إلى مدين وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريبا من معان . بلادا تعرف بهم يقال لها مدين فأرسل الله اليهم شعيبا وكان من أشرفهم نسبا ، ولهذا قال (أخاهم شعيبا) يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له وينهاهم عن التطعيم في المكياج والبران (إني أراكم بخير) أى في معيشتكم ورزقكم

وإني أخاف أن تسلبوا ما أتم فيه باتهاكم محارم الله (وإني أخاف عليكم عذاب يوم محبط) أى فى الدار الآخرة ﴿وَيَقُومُوا أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ*﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾

ينهاهم أولا عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس ، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين ونهاهم عن العثو فى الأرض بالفساد وقد كانوا يقطعون الطريق ، وقوله (بقية الله خير لكم) قال ابن عباس: رزق الله خير لكم وقال الحسن رزق الله خير لكم من بخسكم الناس ، وقال الربيع بن أنس وصية الله خير لكم ، وقال مجاهد طاعة الله وقال قتادة حظكم من الله خير لكم ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم الهلاك فى العذاب والبقية فى الرحمة ، وقال أبو جعفر بن جرير (بقية الله خير لكم) أى ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس قال وقد روى هذا عن ابن عباس قلت ويشبهه قوله تعالى (قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث) الآية وقوله (وما أنا عليكم بحفيظ) أى بربيق ولا حفيظ أى افعلوا ذلك لله عز وجل لا تفعلوه ليراكم الناس بل لله عز وجل

﴿قَالُوا يَشْعِيبُ أَصْلَوْتَكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾

يقولون له على سبيل التهكم قبجهم الله (أصلاتك) قال الأعمش أى قراءة تترك (تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا) أى الأوثان والأصنام (أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء) فترك التطفيف عن قولك وهى أموالنا نفعل فيها ما نريد ، قال الحسن فى قوله (أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا) أى والله إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم ، وقال الثورى فى قوله (أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء) يعنون الزكاة (إنك لانت الحليم الرشيد) قال ابن عباس وميمون ابن مهران وابن جريج وأسلم وابن جرير يقولون ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء قبجهم الله لعنهم عن رحمته وقد فعل

﴿قَالَ يَقُومُوا أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالَفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

يقول لهم هل أرايتم إن كنت على بيتة من ربى أى على بصيرة فيما أَدْعُوا إليه (ورزقنى منه رزقا حسنا) قيل أراد النبوة وقيل أراد الرزق الحلال ويحتمل الأمرين ، وقال الثورى (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) أى لأنهاكم عن الشيء وأخالف أنا فى السر فأفعله خفية عنكم كما قال قتادة فى قوله (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه يقول لم أكن أنهاكم عن أمر وأرتكبه) (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت) أى فيما أمركم وأنهاكم إنما أريد إصلاحكم جهدى وطاقتى (وما توفيقى) أى فى إصابة الحق فيما أريد (إلا بالله عليه توكلت) فى جميع أمورى (وإليه أنيب) أى أرجع قاله مجاهد قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة حدثنا أبو قزعة سويد بن حجير الباهلى عن حكيم بن معاوية عن أبيه أن أخاه مالا قال يامعاوية إن محمدا أخذ جيرانى فانطلق إليه فانه قد كلمك وعرفك فانطلقت معه فقال : دع لى جيرانى فقد كانوا أسلموا فأعرض عنه فقام مغضبا فقال : أما والله لئن فعلت إن الناس يزعمون أنك لتأمرنا بالأمر وتحالف إلى غيره وجعلت أجره وهويتكم فقال رسول الله « ما تقول ؟ » فقال إنك والله لئن فعلت ذلك إن الناس يزعمون أنك لتأمر بالأمر وتحالف إلى غيره . قال فقال « أوقد قالوها أى قائلهم^(١) ولئن فعلت ماذا إلا على وما

(١) وفى نسخة الأزهر : أو قائلهم يبنى أو قالها قائلهم .

عليهم من ذلك من شيء أرسلوا له جيرانه » وقال أيضا حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : أخذ النبي ﷺ ناسا من قومي في تهمة فحبسهم فجاء رجل من قومي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فقال يا محمد علام تحبس جيرانى ؟ فصمت رسول الله ﷺ فقال : إن ناسا يقولون إنك تنهى عن الشيء وتستخلى به فقال النبي صلى الله عليه وسلم « ما تقول » قال فجعلت أعرض بينهما كلاما مخافة أن يسمعها فيدعوا على قومي دعوة لا يفلحون بعدها أبدا فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فهمها فقال « قد قالوها وأقائلها منهم والله لو فعلت لكان على وما كان عليهم خلوا عن جيرانه » ومن هذا القليل الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا أبو عامر حدثنا سليمان بن بلال عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن عبد الملك بن سعيد بن سويد الأنصارى قال سمعت أبا حميد وأبا أسيد يقولون عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه » إسناده صحيح . وقد أخرج مسلم بهذا السند حديث « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللهم افتح لى أبواب رحمتك ، وإذا خرج فليقل اللهم إنى أسألك من فضلك » ومعناه والله أعلم مهما بلغكم عنى من خير فأنا أولاكم به . ومهما يكن من مكروه فأنا أبعدكم منه (وما أريد أن أخالفكم إلى ماأنهاكم عنه) وقال قتادة عن عروة عن الحسن العرنى عن يحيى بن الزار عن مسروق قال : جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت تنهى عن الواصلة ؟ قال نعم ، قالت فعله بعض نساءك ، فقال ما حفظت وصية العبد الصالح إذا (وما أريد أن أخالفكم إلى ماأنهاكم عنه) وقال عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن أبي سليمان الضبي قال كانت تبيثا كتب عمر بن عبد العزيز فيها الأمر والنهى فيكتب فى آخرها وما كانت من ذلك إلا كما قال العبد الصالح (وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)

﴿ وَيَقَوْمٍ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ * وَأَسْتَغْفِرُكُمْ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾

يقول لهم (وما قوم لا يجرم منكم شقائي) أى لا تحملنكم عدواني وبغضى على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط من النعمة والعذاب وقال قتادة (وما قوم لا يجرم منكم شقائي) يقول لا يحملنكم فراقى ، وقال السدى عداوتى ، على أن تبادوا فى الضلال والكفر فيصيبكم من العذاب ما أصابهم . وقال ابن أبي حاتم حدثنا ابن عوف الحمصى حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج حدثنا ابن أبي عيينة حدثنى عبد الملك بن أبي سليمان عن ابن أبي ليلى الكندى قال : كنت مع مولاى أمسك دابته وقد أحاط الناس بعمان ابن عفان إذ أشرف علينا من داره فقال (يا قوم لا يجرم منكم شقائي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح) يا قوم لا تقتلونى إنكم إن قتلتمونى كنتم هكذا وشبك بين أصابعه ، وقوله (وما قوم لوط منكم ببعيد) قيل المراد فى الزمان ، قال قتادة يعنى إنما هلكوا بين أيديكم بالأسس ، وقيل فى المكان ويحتمل الأمران (واستغفروا ربكم) من سالف الذنوب (ثم توبوا إليه) فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة وقوله (إن ربى رحيم ودود) لمن تاب ﴿ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ * قَالَ يَقَوْمِ أَرَهْطَى عَلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُموهَ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِي إِنْ رَبِّي لَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

يقولون (يا شعيب ما نفقه) ما نفهم (كثيرا) من قولك (وإنا لراك فىنا ضعيفا) قال سعيد بن جبیر والثورى وكان ضرير البصرى ؛ وقال الثورى كان يقال له خطيب الأنبياء ؛ قال السدى (وإنا لراك فىنا ضعيفا) قال أنت واحد ، وقال أبو روق يعنون ذليلا لأن عشيرتك ليسوا على دينك (ولولا رهطك لرجمناك) أى قومك لولا معزتهم علينا

لرجمناك قيل بالحجارة وقيل لسببناك (وما أنت علينا بعزير) أى ليس عندنا لك معزة (قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله) يقول أتركونى لأجل قوى ولا تتركونى إعظاما لجناح الرب تبارك وتعالى أن تنالوا نبيه بمساءة وقد أخذتم جانب الله (وراءكم ظهريا) أى نبذتموه خلفكم لا تطيعونه ولا تعظمونه (إن ربى بما تعملون محيط) أى هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزىكم

﴿ وَيَقَوْمِ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ اِنِّي عَمِلُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَاَرْتَقِبُوا اِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ * وَلَمَّا جَاءَ اَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ اٰمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَاَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَاَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جُثَّةٍ * كَانُ لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا اِلَّا بَعْدَ الْمَدِينِ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ ﴾

لما يش نبي الله شعيب من استجابتهم له قال يا قوم (اعملوا على مكانتكم) أى طريقتم وهذا تهديد شديد (إني عامل) على طريقتي (سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب) أى منى ومنكم (وارقبوا) أى انتظروا (إني معكم رقيب) قال الله تعالى (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين) وقوله جاثمين أى هامدين لا حراك بهم . وذكر ههنا أنه أتتهم صيحة ، وفي الأعراف رجفة وفي الشعراء عذاب يوم الظلة وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها ، وإعما ذكر في كل سياق ما يناسبه ففي الأعراف لما قالوا (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا) ناسب أن يذكر هناك الرجفة فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها وأرادوا إخراج نبيهم منها ، وههنا لما أساءوا الأدب في مقالاتهم على نبيهم ذكر الصيحة التي استلبتهم وأخذتهم ، وفي الشعراء لما قالوا (فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين) قال فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم (وهذا من الأسرار الدقيقة والله الحمد والمنة كثيرا دائما ، وقوله كأن لم يغنوا فيها) أى يعيشوا في دارهم قبل ذلك (ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود) وكانو جيرانهم قريبا منهم في الدار وشبهاً بهم في الكفر وقطع الطريق وكانوا عربا مثلهم

﴿ وَلَقَدْ اَرْسَلْنَا مُوسٰى بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ * اِلٰى فِرْعَوْنَ وَمَلٰٓئِهٖ فَاتَّبَعُوْا اَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا اَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيْدٍ * يَتَقَدَّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُوْدُ * وَاتَّبِعُوا فِيْ هٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ بِئْسَ الرُّفْدُ الْمَرْفُوْدُ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن إرسال موسى بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون ملك القبط ومملكته (فاتبعوا أمر فرعون) أى منهجه ومسلكه وطريقته في الغي (وما أمر فرعون برشيد) أى ليس فيه رشد ولا هدى . وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد ، وكما أنهم اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إياها وشربوا من حياض رداها ؛ وله في ذلك الخط الأوفر ، من العذاب الأكبر ، كما قال تعالى (فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً بيلا) وقال تعالى (فكذب وعصى * ثم أدبر يسعى * فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذ الله نكال الآخرة والأولى * إن في ذلك لعبرة لمن يخشى) وقال تعالى (يقدم قومه يوم القيامة فأوردتهم النار ، وبئس الورد المورد) وكذلك شأن المتبوعين يكونون موفرين في العذاب يوم القيامة كما قال تعالى (لكل ضعف ولكن لا تعلمون) وقال تعالى إخبارا عن الكفرة أنهم يقولون في النار (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتتهم ضعفين من العذاب) الآية وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم حدثنا أبو الجهم عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « امرؤ اقيس حامل لواء شعراء الجاهلية إلى النار » وقوله

(وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة) الآية أى أتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة في الدنيا (ويوم القيامة بشئ الرغد المرفود) قال مجاهد : زيدوا لعنة يوم القيامة فتلك لعنتان ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (بشئ الرغد المرفود) قال لعنة الدنيا والآخرة وكذا قال الضحاك وقتادة وهو كقوله (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون *) وأتبعناهم في هذه الدنيا ويوم القيامة هم من المقبوحين (وقال تعالى (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب)

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيبٍ ﴾

لما ذكر تعالى خبر الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين قال (ذلك من أنباء القرى) أى أخبارهم (نقصه عليك منها قائم) أى عامر (وحصيد) أى هالك (وما ظلمناهم) أى إذا أهلكناهم (ولكن ظلموا أنفسهم) بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم (فما أغنت عنهم آلهم) أوثانهم التي يعبدونها ويدعونها (من دون الله من شيء) ما نفعوهم ولا أضادوهم باهلاكمهم (وما زاد وهم غير تنبيب) قال مجاهد وقتادة وغيرهما أى غير تخسير وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة فلماذا خسروا في الدنيا والآخرة

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾

يقول تعالى وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسولنا كذلك نفعل بأشباههم (إن أخذه أليم شديد) وفي الصحيحين عن أبي موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله ليلى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة) الآية

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ * وَمَا نُوَخَّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾

يقول تعالى إن في إهلاكنا الكافرين وإنجائنا المؤمنين (آية) أى عظة واعتباراً على صدق موعودنا في الآخرة (إنا لنسرر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) وقال تعالى (فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين) الآية وقوله (ذلك يوم تجموع له الناس) أى أولهم وآخرهم كقوله (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً) (وذلك يوم مشهود) أى عظيم تحضره الملائكة ويجتمع فيه الرسل وتحشر الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة إن تلك حسنة يضاعفها ، وقوله (وما نؤخره إلا لأجل معدود) أى ما نؤخر إقامة القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله في وجود أناس معدودين من ذرية آدم وصرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم قامت الساعة ولهذا قال (وما نؤخره إلا لأجل معدود) أى لمدة مؤقتة لا يزداد عليها ولا ينقص منها (يوم يأتى لا تكلم نفس إلا بإذنه) أى يوم يأتى يوم القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن الله كقوله (لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) وقال (وخشعت الأصوات للرحمن) الآية . وفي الصحيحين في حديث الشفاعة « ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم » وقوله (فمنهم شقى وسعيد) أى من أهل الجمع شقى ومنهم سعيد كما قال (فريق في الجنة وفريق في السعير) وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده ثنا موسى بن حسان ثنا عبد الملك بن عمرو ثنا سليمان أبو سفيان ثنا عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن عمر قال : لما نزلت (فمنهم شقى وسعيد) سألت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله : علام نعمل ؟ على شيء قد فرغ منه أم على شيء لم يفرغ منه ، فقال « على شيء »

قد فرغ منه يا عمر وجرت به الأقلام ، ولكن كل ميسر لما خلق له » ثم بين تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال
﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا
مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾

يقول تعالى (لهم فيها زفير وشهيق) قال ابن عباس الزفير في الخلق والشهيق في الصدر أى تنفسهم زفير وأخذهم النفس
شهيق ، لما هم فيه من العذاب عياداً بالله من ذلك (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض) قال الإمام أبو جعفر بن
حرير : من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت هذا دائم دوام السموات والأرض ، وكذلك
يقولون هو باق ما اختلف الليل والنهار ، وما سمر أبناء سمر وما لألات العير بأذنابهم يعنون بذلك كله أبداً فخطابهم
جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم فقال (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض) قلت : ويحتمل أن المراد بما دامت
السموات والأرض الجنس لأنه لا بد في عالم الآخرة من سموات وأرض كما قال تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض
والسموات) ولهذا قال الحسن البصري في قوله (ما دامت السموات والأرض) قال يقول سماء غير هذه السماء وأرض
غير هذه فما دامت تلك السماء وتلك الأرض . وقال ابن أبي حاتم ذكر عن سفيان بن حسين عن الحكم عن مجاهد عن
ابن عباس قوله (ما دامت السموات والأرض) قال لكل جنة سماء وأرض ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ما دامت
الأرض أرضاً والسماء سماء . وقوله (إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد) كقوله (النار مثواكم خالدين فيها إلا
ما شاء الله إن ربك حكيم عليم) وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة حكاه الشيخ
أبو الفرج بن الجوزي في كتابه زاد المسير ، وغيره من علماء التفسير ، ونقل كثيراً منها الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه
الله في كتابه واختار هو ما نقله عن خالد بن معدان والضحاك وقتادة وابن سنان ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس
والحسن أيضاً أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم الله من النار يشفاعة الشافعين ، من الملائكة
والسبيين والمؤمنين ، حتى يشفعون في أصحاب الكبائر ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين فتخرج من لم يعمل خيراً
قط وقال يوماً من الدهر لا إله إلا الله كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك
من حديث أنس وجابر وأبي سعيد وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه
الخلود فيها ولا محيد له عنها ، وهذا الذى عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً في تفسير هذه الآية الكريمة .
وقد روى في تفسيرها عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وابن مسعود وابن عباس وأبي هريرة وعبد الله بن عمرو وجابر
وأبي سعيد من الصحابة ، وعن أبي مجاز والشعبي وغيرهما من التابعين ، وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وإسحق بن
راهويه وغيرهما من الأئمة في أقوال غريبة وورد حديث غريب في معجم الطبراني الكبير عن أبي أمامة صدى بن عجلان
الباهلي ولكن سنده ضعيف والله أعلم . وقال قتادة : الله أعلم بشيئه ، وقال السدى هي منسوخة بقوله (خالد بن فيها أبداً)
﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ ﴾

يقول تعالى (وأما الذين سعدوا) وهم أتباع الرسل (في الجنة) أى فمأواهم الجنة (خالدين فيها) أى ما كثرين فيها أبداً
(ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك) معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعم ليس أمراً واحداً بذاته
بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى فله المنة عليهم دائماً ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس . وقال الضحاك
والحسن البصري هي في حق عصاة الموحدين الذين كانوا في النار ثم أخرجوا منها وعقب ذلك بقوله (عطاء غير مجذوذ) أى
غير مقطوع قاله مجاهد وابن عباس وأبو العالية وغير واحد لثلاثتهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم تقطاع أو لبس أو شىء بل
حتم له بالدوام وعدم الاقطاع كما بين هناك أن عذاب أهل النار في النار دائماً مردود إلى مشيئته وأنه بعدله وحكمته عذبهم
ولهذا قال (إن ربك فعال لما يريد) كما قال (لا يسئل عما يفعل وهم يسألون) وهنا طيب القلوب وثبت المقصود بقوله

(عطاء غير مجذوذ) وقد جاء في الصحيحين «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلاموت ، ويا أهل النار خلود فلاموت» وفي الصحيح أيضا «يقال يا أهل الجنة إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وإن لكم أن تنعموا فلا تنبأسوا أبدا»

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيحُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْ مُرِيبٍ * وَإِنْ كُلاَّ لَمَّا لِيُؤْفِيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلُهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ حَبِيرٌ ﴾

يقول تعالى (فلاتك في مرية مما يعبد هؤلاء) المشركون انه باطل وجهل وضلال فانهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل أى ليس لهم مستند فيهم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات وسيجزىهم الله على ذلك أتم الجزاء فيعذبهم عذاباً لا يعذبه أحدا وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة . فالسفيان الثوري عن جابر الجعفي عن مجاهد عن ابن عباس (وإنالموفوهم نصيهم غير منقوص) قال ما وعدوا من خير أوشر . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لموفوهم من العذاب نصيهم غير منقوص ثم ذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه فمن مؤمن به ومن كافر به فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة فلا يعظنك تكذيبهم لك ولا يهيدنك ذلك (ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم) قال ابن جرير لولا ماتقدم من تأجيله العذاب إلى أحل معلوم لقضى الله بينهم ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول اليه كما قال (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فانه قد قال في الآية الأخرى (ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى * فاصر على ما يقولون) ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم ويجزيهم بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر فقال (وإن كلالا ليوفنهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير) أى علمهم بأعمالهم جميعها جليلها وحقيها صغيرها وكبيرها وفي هذه الآية قرا آت كثيرة يرجع معناها إلى هذا الذى ذكرناه كما في قوله تعالى (وإن كل لما جميع لدينا محضرون)

وقوله (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس لاتداهنوا وقال العوفي عن ابن عباس هو الركون إلى الشرك وقال أبو العالية لاترضوا بأعمالهم وقال ابن جرير عن ابن عباس ولا تميلوا إلى الذين ظلموا وهذا القول حسن أى لاتستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيت بأعمالهم (فتمسك النار ومالككم من دون الله من أولياء ثم لاتنصرون) أى ليس لكم من دونه من ولى ينقذك ولا ناصر يخلصكم من عذابه

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَا تَرْكُدُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءِ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد ونهى عن الطغيان وهو البغى فانه مصرعة حتى ولو كان على شرك وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد لا يغفل عن شيء ولا يخفى عليه شيء

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ أَحْسَنْتَ يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ * وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (وأقم الصلاة طرفي النهار) قال يعنى الصبح والمغرب وكذا قال الحسن وعبد الرحمن

ابن زيد بن أسلم ، وقال الحسن في رواية قتادة والضحاك وغيرهم هي الصبح والعصر وقال مجاهد هي الصبح في أول النهار والظهر والعصر مرة أخرى (وزلفاً من الليل) قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم يعني صلاة العشاء وقال الحسن في رواية ابن المبارك عن مبارك بن فضالة عنه (وزلفاً من الليل) يعني المغرب والعشاء قال رسول الله ﷺ « هما زلفاً الليل المغرب والعشاء » وكذا قال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والضحاك إنها صلاة المغرب والعشاء ، وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الاسراء فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان . صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها ، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة ثم نسخ في حق الأمة وثبت وجوبه عليه ثم نسخ عنه أيضاً في قول والله أعلم .

وقوله (إن الحسنات يذهبن السيئات) يقول إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال : كنت إذا سمعت من رسول الله حديثاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه وإذا حدثني عنه أحد استحلقتة فإذا حلف لي صدقته ، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « مامن مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين لا يغفر له » وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أنه نوضاً لهم كوضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : هكذا رأيت رسول الله يتوضأ وقال « من توضأ وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه » وروى الإمام أحمد وأبو جعفر بن جرير من حديث أبي عقيل زهرة بن معبد أنه سمع الحارث مولى عثمان يقول : جلس عثمان يوماً وجلسنا معه فجاء المؤذن فدعا عثمان بماء في إناء أظنه سيكون فيه قدر مد فتوضأ ثم قال رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا ثم قال « من توضأ وضوئي هذا ثم قام فصلى صلاة الظهر غفر له ما بينه وبين صلاة الصبح ثم صلى العصر غفر له ما بينه وبين صلاة الظهر ثم صلى المغرب غفر له ما بينه وبين صلاة العصر ثم صلى العشاء غفر له ما بينه وبين صلاة المغرب ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته ثم إن قام فتوضأ وصلى الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء وهن الحسنات يذهبن السيئات » وفي الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « أرأيتم لو أن يباب أحدكم نهرا غمرا يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟ » قالوا لا يا رسول الله قال « كذلك الصلوات الخمس يغمر الله بهن الذنوب والخطايا » وقال مسلم في صحيحه حدثنا أبو الطاهر وهو ابن سعيد قال حدثنا ابن وهب عن أبي صخر أن عمر بن إسحق مولى زائدة حدثه عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر » . وقال الإمام أحمد حدثنا الحكم بن نافع حدثنا إسماعيل بن عباس عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد أن أباهم السلمي كان يحدث أن أبا أيوب الأنصاري حدثه أن رسول الله ﷺ كان يقول « إن كل صلاة تحط ما بين يديها من خطيئة » وقال أبو جعفر بن جرير حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا أبي عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ « جعلت الصلوات كفارات لما بينهن » فإن الله قال (إن الحسنات يذهبن السيئات)

وقال البخاري حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا يزيد بن زريع عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبله فأتى النبي ﷺ فأخبره فأمره أن يقرأ قل هو الله أحد وأتم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات فقال الرجل يا رسول الله ألي هذا ؟ قال « لجميع أمتي كلهم » هكذا رواه في كتاب الصلاة وأخرجه في التفسير عن مسدد عن يزيد بن زريع بنحوه ورواه مسلم وأحمد وأهل السنن إلا أبا داود من طرق عن أبي عثمان النهدي واسمه عبد الرحمن بن مله . ورواه الإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وهذا لفظه من طرق عن سالك بن حرب أنه سمع إبراهيم بن يزيد يحدث عن عقلمة والأسود عن ابن مسعود قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أتاني وجدت امرأة في بستان ففعلت بها كل شيء غير أني لم أجامعها قبلتها ولزمتها ولم أفعل غير ذلك فافعل بي ما شئت فلم يقل رسول الله ﷺ شيئاً فذهب الرجل . فقال عمر لقد استر الله عليه لو ستر على نفسه ، فأتبعه رسول الله ﷺ بصره

ثم قال « ردوه على » فردوه عليه فقرأ عليه (أقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) فقال معاذ وفي روايه عمر يا رسول الله وحده أم للناس كافة ؟ فقال « بل للناس كافة » وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن عبيد حدثنا أبان بن إسحق عن الصباح بن محمد عن مرة الحمداي عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله يعطي الدينار من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا من أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه » قال قلنا وما بوائقه يائي الله ؟ قال « غشه وظلمه ولا يكسب عبد مالا حراما فينفق منه فيبترك له فيه ولا يتصدق فيقبل منه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار إن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن إن الحبيث لا يمحو الحبيث » وقال ابن جرير حدثنا أبو السائب حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم قال كان فلان بن معتب رجلا من الأنصار فقال يا رسول الله دخلت على امرأة فقلت منها ما ينال الرجل من أهله إلا أنني لم أواقعها فلم يدر رسول الله ما يحبه حتى نزلت هذه الآية (وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) فدعاه رسول الله فقرأها عليه وعن ابن عباس أنه عمرو بن غزية الأنصاري التمار وقال مقاتل هو أبو نضيل عامر بن قيس الأنصاري وذكر الخطيب البغدادي أنه أبو اليسر كعب بن عمرو . وقال الإمام أحمد حدثنا يونس وعفان قال حدثنا حماد يعني ابن سلمة عن علي بن زيد قال عفان أنبأنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رجلا أتى عمر فقال إن امرأة جاءت تباعه فأدخلتها الدوخل فأصببت منها مادون الجامع ، فقال ويحك لعلها مغيبة في سبيل الله ؟ قال أجل ، قال فائت أبا بكر فسله . قال فأتاه فسأله فقال لعلها مغيبة في سبيل الله ؟ فقال مثل قول عمر ثم أتى النبي ﷺ فقال له مثل ذلك قال « فاعلمها مغيبة في سبيل الله » ونزل القرآن (وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات) إلى آخر الآية ، فقال يا رسول الله إلى خاصة أم للناس عامة ؟ فضرب يعني عمر صدره بيده وقال لا ولا نعمة عين بل للناس عامة فقال رسول الله ﷺ « صدق عمر » وروى الإمام أبو جعفر بن جرير من حديث قيس بن الربيع عن عثمان بن موهب موسى بن طلحة عن أبي اليسر كعب بن عمرو الأنصاري قال أتتني امرأة تبتاع مني بدرهم تمرا فقلت إن في البيت تمرا أجود من هذا فدخلت فأهوت إليها فقبلتها فأثبتت عمر فسأله فقال اتق الله واستر على نفسك ولا تخبرن أحدا فلم أصبر حتى أتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال « أخلفت رجلا غازيا في سبيل الله في أهله بمثل هذا ؟ » حتى ظننت أنني من أهل النار حتى تمت أني أسلمت ساعتئذ فاطرق رسول الله ﷺ ساعة فنزل جبريل فقال أبو اليسر فبحث فقرأ على رسول الله (وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) فقال إنسان يا رسول الله له خاصة أم للناس عامة ؟ قال « للناس عامة » وقال الحافظ أبو الحسن الدارقطني حدثنا الحسين بن سهل الحمالي حدثنا يوسف بن موسى حدثنا جرير عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبل أنه كان فاعدا عند النبي ﷺ فجاء رجل فقال يا رسول الله ما تقول في رجل أصاب من امرأة لا تحل له فلم يدع شيئا يصيبه الرجل من امرأته إلا قد أصاب منها غير أنه لم يجامعها ؟ فقال له النبي ﷺ توضحوا وضوءا حسنا ثم قم فصل « فأنزل الله عز وجل هذه الآية يعني قوله (وأقم الصلاة طرفي النهار) فقال معاذ أهى له خاصة أم للمسلمين عامة ؟ قال « بل للمسلمين عامة » ورواه ابن جرير من طرق عن عبد الملك بن عمير به . وقال عبد الرزاق حدثنا محمد بن مسلم عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة أن رجلا من أصحاب النبي ﷺ ذكر امرأة وهو جالس مع رسول الله فاستأذنه الحاجة فأذن له فذهب يطلبها فلم يجدها فأقبل الرجل يريد أن يبشر النبي ﷺ بالمر فوجد المرأة جالسة على غدير فدفع في صدرها وجلس بين رجلها فصار ذكره مثل الهدبة فقام نادما حتى أتى النبي ﷺ فأخبره بما صنع فقال له « استغفر ربك وصل أربع ركعات » قال وتلا عليه (وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل الآية . وقال ابن جرير حدثني عبد الله بن أحمد بن سيويه حدثنا إسحق بن إبراهيم حدثني عمرو بن الحارث حدثني عبد الله بن سالم عن الزبيدي سليم بن عامر أنه سمع أبا أمامة يهول إن رجلا أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أقم في حد الله - مرة أو اثنتين - فأعرض عنه رسول الله ثم أقيمت الصلاة فلما فرغ النبي ﷺ من الصلاة قال « أين هذا

الرجل القائل أقم في حدة الله ؟ قال أنا ذا . قال أتممت الوضوء وصليت معنا آتفا ؟ قال نعم . قال « فأنك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد » وأنزل الله على رسول الله (وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أنبأنا علي بن زيد عن أبي عثمان قال كنت مع سامان الفارسي تحت شجرة فأخذ منها غصنا يابساً فنهزه حتى تحات ورقه ثم قال أبا عثمان ألا تسألني لم أفعل هذا قلت ولم تفعله قال هكذا فعل رسول الله ﷺ فقال : إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تحات خطايا به كما يتحات هذا الورق . وقال (وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن ميمون بن أبي شبيب عن معاذ أن رسول الله ﷺ قال له يا معاذ « أتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن حبيب عن ميمون بن أبي شبيب عن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » وقال أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن شمر بن عطية عن أشياخه عن أبي ذر قال قلت يا رسول الله أوصني ، قال « إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها » قال قلت يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال « هي أفضل الحسنات » وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا هذيل بن إبراهيم الجاني حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الزهر من ولد سعد بن أبي وقاص عن الزهري عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « ما قال عبداً لا إله إلا الله في ساعة من ليل أو نهار إلا طلست ما في الصحيفة من السيئات حتى تسكن إلى مثلها من الحسنات » عثمان بن عبد الرحمن يقال له الوقاصي فيه ضعف . وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا بشر بن آدم وزيد بن أكرم قالوا حدثنا الضحاك بن مخلد حدثنا مستور بن عباد عن ثابت عن أنس أن رجلاً قال يا رسول الله ما تركت من حاجة ولا دابة فقال رسول الله ﷺ « تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟ » قال بلى . قال « فان هذا يأتي على ذلك » تفرد به من هذا الوجه مستور

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَهُوَى عَنْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾

يقول تعالى فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير يهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض ، وقوله (الا قليلا) أى قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيرا وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نعمته ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما قال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وفي الحديث « ان الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب » ولهذا قال تعالى (فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية يهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم) وقوله (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه) أى استمروا على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجأهم العذاب (وكانوا مجرمين) ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها ولم يأت قرية مصلحة بأمره وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين كما قال تعالى (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم) وقال (وما ربك بظلام للعبيد)

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفر كما قال تعالى (ولو شاء ربك لآمن من

في الأرض كلهم جميعا) وقوله (ولا يزالون مخلصين إلا من رحم ربك) أى ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم ، قال عكرمة مختلفين في الهدى وقال الحسن البصرى مختلفين في الرزق يسخر بعضهم بعضا ، والمشهور الصحيح الأول . وقوله (إلا من رحم ربك) أى إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين ، أخبرتهم به رسل الله إليهم ولم يزل ذلك دأبهم حتى كان النبي وخاتم الرسل والأنبياء فاتبعوه وصدقوه ووازره ففاز بسعادة الدنيا والآخرة لأنهم الفرقة الناجية كما جاء في الحديث المروى في المسانيد والسنن من طرق يشد بعضها بعضا « ان اليهود افترقت على إحدى وسبعين فرقة وان النصارى افترقت على ثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة واحدة » قالوا ومن هم يا رسول الله ؟ قال « ما أنا عليه وأصحابي » رواه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة ، وقال عطاء (ولا يزالون مختلفين) يعنى اليهود والنصارى والمجوس إلا من رحم ربك) يعنى الحنيفة وقال قتادة أهل رحمة الله أهل الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم ، وقوله (ولذلك خلقهم) قال الحسن البصرى في رواية عنه وللإختلاف خلقهم ، وقال مكى بن أبى طلحة عن ابن عباس : خلقهم فرقتين كقوله (فمنهم شقي وسعيد) وقيل للرحمة خلقهم قال ابن وهب أخبرني مسلم بن خالد عن ابن أبى نجيح عن طاوس أن رجلا اختصا إليه فأكثر فقال طاوس اختلعا وأكثرنا فقال أحد الرجلين لذلك خلقنا فقال طاوس : كذبت فقال ليس الله يقول (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) قال لم يخلقهم ليختلفوا ولكن خلقهم للجماعة والرحمة كما قال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب ، وكذا قال مجاهد والضحاك وقادة ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وقيل بل المراد بالرحمة والاختلاف خلقهم كما قال الحسن البصرى في رواية عنه في قوله (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) قال الناس مختلفون على أديان شتى (إلا من رحم ربك) فمن رحم ربك غير محتاف فليل له ذلك خلقهم قال خلق هؤلاء الجنة وخلق هؤلاء النار وخلق هؤلاء لعذابه وكذا قال عطاء بن أبى رباح والأعمش ، وقال ابن وهب سألت مالكاً عن قوله تعالى (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) قال فربق في الجنة وفريق في السعير ، وقد اخبر هذا القول ابن جرير وأبو عبيد الفراء وعن مالك فيما روينا عنه في التفسير (ولذلك خلقهم) قال للرحمة وقال قوم للاختلاف وقوله (وتمت كلمة ربك لأملأن جوهن من الجنة والناس أجمعين) بخر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره لعلمه التام وحكمته النافذة أن بمن خلقه من يستحق الجنة ومنهم من يستحق النار وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس وله الجنة البالغة والحكمة التامة . وفي الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « اختصمت الجنة والنار فقالت الجنة ما لى لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وفالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتحبرين فقال الله عز وجل للجنة : أنت راحتي أرحم بك من أشاء وقال للنار أنت عذابي أنتقم بك بمن أشاء وكل واحدة منكم ملؤها فأما الجنة فلا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقا يسكن فضل الجنة وأما النار فلا تزال تقول هل من مزيد حتى يضع عليها رب العزة قدمه فتقول قط قطوعن تلك . »

﴿ وَكَلا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى وكل أخبار قصصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أهمهم وكيف جرى لهم من الحاجات والخصومات وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى وكيف نصر الله حربه المؤمنين وخذل أعداء الكافرين . كل هذا مما ثبت به فؤادك أى قلبك يا محمد ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة ، وقوله (وجاءك في هذه الحق) أى هذه السورة قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة من السلف ، وعن الحسن في رواية عنه وقادة في هذه الدنيا والصحيح في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك الكافرين حاءك فيها

فصص حق وبأ صدق وموعظة يرندع بها الكافرون وذكري يتذكر بها المؤمنون ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَا * وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾
يقول تعالى أمرا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد (اعملوا على مكاتبتكم) أى على طريقتهكم ومنهجكم (إنا عاملون) أى على طريقتنا ومنهجنا (وانتظروا إنا منتظرون) أى (فسنعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا بفلح الظالمون) وقد أنجز الله لرسوله وعده وبصره وأيده وجعل كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ فَاَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِفَعْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

خبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض وأنه إليه المرجع والمآب ، وسيؤتي كل عامل عمله يوم الحساب ، فله الخلق والأمر ، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه . فإنه كاف من توكل عليه وأتاب إليه ، وقوله (وما ربك بغافل عما تعملون) أى ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين ، وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا زيد بن الحباب عن جعفر ابن سليمان عن أبي عمران الجوني عن عبد الله بن رباح عن كعب قال خاتمة التوراة خاتمة هود

﴿ تم تفسير سورة هود ﴾

﴿ تفسير سورة يوسف عليه السلام وهي مكية ﴾

روى الثعلبي وغيره من طريق سلام بن سليم ويقال سليم المدائني وهو متروك عن هارون بن كثير وقد نص على جهالته أبو حاتم عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي أمامة عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ « علموا أرقام سورة يوسف فإنه أيما مسلم تلاها أو علمها أهله أو ما ملكته عينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه من القوة أن لا يحسد مسلماً » وهذا من هذا الوجه لا يصح لضعف إسناده بالكسبية ، وقد ساقه الحافظ ابن عساكر متابعا من طريق القاسم بن الحكم عن هارون بن كثير به ومن طريق شعبة عن محمد بن عبد الواحد النضري عن علي ابن زيد بن جدهان ، وعن عطاء بن أبي ميمونة عن زر بن حبیش عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكر نحوه وهو منكر من سائر طرقه ، وروى البيهقي في الدلائل أن طائفة من اليهود حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة أسلموا لموافقتها ما عندهم وهو من رواية السكبي عن أبي صالح عن ابن عباس

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْبَيِّنَاتِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة وقوله (تلك آيات الكتاب) أى هذه آيات الكتاب وهو القرآن البين أى الواضح الجلي الذى يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرهما ويبينها (إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعاني التى تقوم بالنفوس فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك فى أشرف بقاع الأرض ، وأبدى إنزاله فى أشرف شهور السنة وهورمضان ، فأكمل من كل الوجوه ، ولهذا قال تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) بسبب إيجائها إليك هذا القرآن ، وقد ورد فى سبب نزول هذه الآية

مارواه ابن جرير حدثني نصر بن عبد الرحمن الأودي حدثنا حكام الرازي عن أيوب عن عمرو هو ابن قيس الملائي عن ابن عباس قال : قالوا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم لو قصصت علينا ؟ فنزلت (نحن نقص عليك أحسن القصص) ورواه من وجه آخر عن عمرو بن قيس مرسلًا . وقال أيضا حدثنا محمد بن سعيد القطان حدثنا عمرو بن محمد أنبأنا خالد الصفار عن عمرو بن قيس عن عمرو بن مرة عن مصعب بن سعد عن أبيه قال أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم القرآن قال فتلوه عليهم زمانا فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا ؟ فأنزل الله عز وجل (الرتلك آيات الكتاب المبين) إلى قوله (لعلكم تعقلون) ثم تلاه عليهم زمانا فقالوا يا رسول الله لو حدثنا فأنزل الله عز وجل (الله نزل أحسن الحديث) الآية وذكر الحديث ، ورواه الحاكم من حديث إسحق بن راهويه عن عمرو بن محمد القرشي المنقري به ، وروى ابن جرير بسنده عن المسعودي عن عون بن عبد الله قال مل أصحاب رسول الله ﷺ ملة فقالوا : يا رسول الله حدثنا فأنزل الله (الله نزل أحسن الحديث) ثم ملوا ملة أخرى فقالوا يا رسول الله حدثنا فوق الحديث ودون القرآن يعنون القصص - فأنزل الله عز وجل (الرتلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) * نحن نقص عليك أحسن القصص (الآية فأرادوا الحديث فدلهم على أحسن الحديث ، وأرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص . وبما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة المشتملة على مدح القرآن ، وأنه كاف عن كل ماسواه من الكتب مارواه الإمام أحمد حدثنا شريح بن النعمان أنا هشيم أنبأنا مجالد عن الشعبي عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقراه على النبي ﷺ قال فغضب وقال «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب ؟ والذي نفسي بيده لقد حثك بها بيضاء نقية ، لاتسألوهن عن شيء فيخبروك بحق فتكذبونه أو يبطل فتصدقونه ، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني » وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أنا سفيان عن جابر عن الشعبي عن عبد الله بن ثابت قال : جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إني مررت بأخ لي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك ؟ قال فغير وجه رسول الله ﷺ ، قال عبد الله بن ثابت فقلت له ألا ترى ما بوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر : رضينا بالله ربا وبالإسلام ديننا ، وبمحمد رسولا ، قال فسرى عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال « والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضلتم ، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين » وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا عبد الغفار بن عبد الله بن الزبير حدثنا علي بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحق عن خليفة بن قيس عن خالد بن عرفة قال كنت جالسا عند عمر إذ أتى رجل من عبد القيس مسكنه بالسوس فقال له عمر : أنت فلان بن فلان العبدى ؟ قال نعم ، قال وأنت النازل بالسوس ؟ قال نعم ، فضربه بقناة معه ، قال فقال الرجل مالي يا أمير المؤمنين ؟ فقال له عمر اجلس فجلس فقراه عليه (بسم الله الرحمن الرحيم) * آكر * تلك آيات الكتاب المبين * إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * نحن نقص عليك أحسن القصص - إلى قوله - لمن الغافلين (فقراه عليه ثلاثا وضربه ثلاثا فقال له الرجل مالي يا أمير المؤمنين ؟ فقال أنت الذى نسخت كتاب دانيال ، قال مرني بأمرك أتبعه ، قال انطلق فاحبه بالحلم والصوف الأبيض ثم لاتقرأ ولا تقرئه أحدا من الناس فلئن بلغنى عنك أنك قرأته أو أقرأته أحدا من الناس لأنهنكك عقوبة ثم قال اجلس فجلس بين يديه ، فقال انطلقت أنا فانتسخت كتابا من أهل الكتاب ثم جئت به في أديم فقال لي رسول الله ﷺ « ما هذا في يدك يا عمر ؟ » قال قلت يا رسول الله كتاب نسخته لزداد به علما إلى علمنا فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى احمرت وجنتاه ثم نودى بالصلاة جامعة فقالت الأنصار أغضب نبيكم صلى الله عليه وسلم السلاح السلاح ، فبجاءوا حتى أحرقوا بمنبر رسول الله ﷺ فقال « يا أيها الناس إني قد أوتيت جوامع الكلام وخواتيمه ، واختصر لي اختصارا ، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تهوكوا ولا ينعركم التهوكون » قال عمر فقامت فقلت رضيت بالله ربا وبالإسلام ديننا ، وبك رسولا . ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رواه ابن أبي حاتم في تفسيره مختصرا من حديث عبد الرحمن بن إسحق به وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، وعبد الرحمن بن إسحق هو أبو شيبه الواسطي وقد

ضعفوه وشيخه . قال البخاري لا يصح حديثه ، قلت وقد روى له شاهد من وجه آخر فقال الحافظ أبو بكر أحمد بن إبراهيم الأسعدي أخبرني الحسن بن سفيان حدثنا يعقوب بن سفيان حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدي حدثني عمرو بن الحارث حدثنا عبد الله بن سالم الأشعري عن الزبيدي حدثنا سليم بن عامر أن جبير بن نفير حدثهم أن رجلين كانا بحمص في خلافة عمر رضي الله عنه فأرسل إليهما فيمن أرسل من أهل حمص وكانا قد اكتتبا من اليهود صلاصة فأخذاهما معهما يستفتيان فيها أمير المؤمنين يقولون : إن رضيها لنا أمير المؤمنين ازددنا فيها رغبة . وإن نهانا عنها رفضناها ، فلما قدما عليه قال إنا بأرض أهل الكتاب وإنا نسمع منهم كلاما تقشعر منه جلودنا أفأخذ منه أو تترك ؟ فقال لعلكما كتبتما منه شيئا فقالا : لا ، قال سأحدثكما : انطلقت في حياة النبي صلى الله عليه وسلم حتى أتيت خير فوجدت يهوديا يقول قولاً أعجبنى فقلت : هل أنت مكتبي مما تقول ، قال نعم فأتيت بأديم فأخذ بملى على حتى كتبت في الأكراع فلما رجعت قلت يانبي الله وأخبرته قال « اثنتي به » فانطلقت أرغب عن الشيء رجاء أن أكون حيث رسول الله ببعض ما يحب ؟ فلما أتيت به قال « اجلس اقرأ على » فقرأت ساعة ثم نظرت إلى وجه رسول الله ﷺ فاذا هو يتلون فتحيرت من الفرق فما استطعت أن أجيز منه حرفاً ، فلما رأى النبي بي رفعه ثم جعل يتبعه رسماً فيمحوه بريقه وهو يقول « لا تتبعوا هؤلاء فانهم قد هوكوا وتهوكوا » حتى محاً آخره حرفاً حرفاً : قال عمر رضي الله عنه فلو علمت أنكما كتبتما منه شيئاً جعلتكما نكالا لهذه الأمة ، قالوا والله ما نكتب منه شيئاً أبداً فخرجنا بصلاصفتهم فحفرنا لها فلم يألوا أن يعمقا ودفناها فكان آخر العهد منها ، وهكذا روى الثوري عن جابر بن يزيد الجعفي عن الشعبي عن عبد الله بن ثابت الأنصاري عن عمر بن الخطاب بنحوه ، وروى أبو داود في المراسيل من حديث أبي قلابة عن عمر بن الخطاب بنحوه والله أعلم

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾

يقول تعالى اذكر لقومك يا محمد في قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه ، وأبوه هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام كما قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال « الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم » انفرد بإخراجه البخاري فرواه عن عبد الله بن محمد عن عبد الصمد به . وقال البخاري أيضا حدثنا محمد أنا عبدة عن عبيد الله عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم ؟ قال « أكرمهم عند الله أتقاهم » قالوا ليس عن هذا نسألك ، قال « فأكرم الناس يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله » قالوا ليس عن هذا نسألك ، قال « فمعدن العرب تسألوني ؟ » قالوا نعم قال « فخيركم في الجاهلية خياركم في الاسلام اذا فقهوا » ثم قال تابعه أبو أسامة عن عبيد الله . وقال ابن عباس رؤيا الأنبياء وحى ، وفد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكبا عبارة عن اخوته وكانوا أحد عشر رجلا سواه ، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه . روى هذا عن ابن عباس والضحاك وقتادة وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة وقيل ثمانين سنة وذلك حين رفع أبويه على العرش وهو سريره وإخوته بين يديه (وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا) وقد جاء في حديث تسمية هذه الأحد عشر كوكبا فقال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثني علي بن سعيد الكندي حدثنا الحكم بن ظهير عن السدي عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر قال : أتى النبي ﷺ رجل من يهود يقال له بستانة اليهودى فقال له : يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له ما أسماؤها ؟ قال فسكت النبي ﷺ ساعة فلم يجبه بشيء ونزل عليه جبريل عليه السلام فأخبره بأسمائها قال فبعث رسول الله ﷺ إليه فقال « هل أنت مؤمن إذا أخبرتك بأسمائها ؟ » فقال نعم قال « جريان ، والطارق والدليل ، وذوالكفات (١) ، وقابس ، ووئاب ، وعمودان ، والفليق ، والمصبح ، والضروح وذوالفرغ (٢) والضياء والنور (٣) » فقال اليهودى : إى والله إنها لأسماؤها . ورواه البيهقي في الدلائل من حديث سعيد بن منصور عن الحكم بن ظهير . وقد روى (١) في النسخة الأميرية : ذوالكفتين . (٢) وفيها : والفرغ . (٣) الضياء والور ، زيادة في النسخة المكية .

هذا الحديث الحافظان أبو يعلى الموصلى وأبو بكر البرار في مسندهما ، وابن أبي حاتم في تفسيره ، أما أبو يعلى فرواه عن أربعة من شيوخه عن الحكم بن ظهير به وزاد : قال رسول الله ﷺ « لما رآها يوسف قصها على أبيه يعقوب فقال له أبوه هذا أمر مشئت يجمعه الله من بعد ، قال - والشمس أبوه والقمر أمه » تفرد به الحكم بن ظهير الفزارى وقد ضعفه الأئمة وتركه الأكثرون وقال الجوزجاني ساقط وهو صاحب حديث حسن يوسف ثم ذكر الحديث المروى عن جابر أن يهوديا سأل النبي ﷺ عن السكواكب التي رآها يوسف ما أسماؤها وأنه أجابه ثم قال تفرد به الحكم بن ظهير ، وقد ضعفه الأربعة

﴿ قَالَ يَبْنِي لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾
يقول تعالى مخبرا عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا التي تعيرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظما زائدا بحيث يخرون له ساجدين إجلالا واحتراما وإكراما فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته فيجسدونه على ذلك فيغفون له الغوائل حسداً منهم له ، ولهذا قال له (لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا) أى يحالوا لك حيلة يردونك فيها ، ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ قال « إذا رأى أحداً ما يحب فليحدث به وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر وليتقل عن يساره ثلاثا وليسعد بالله من شرها ولا يحدث بها أحداً فانها لن نضره » . وفي الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن من رواية معاوية بن حيدة (١) القشيري أنه قال : قال رسول الله ﷺ « الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر ، فإذا عبرت وقعت » ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر كما ورد في حديث « استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها فان كل ذى نعمة محسود »

﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن قول يعقوب لولده يوسف إنه كما اختارك ربك وأراك هذه السكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك (كذلك يجتبيك ربك) أى يختارك ويصطفيك لنبوته (ويعلمك من تأويل الأحاديث) قال مجاهد وغير واحد بعنى تعبير الرؤيا (ويتم نعمته عليك) أى بارسالك والاحياء إليك ، ولهذا قال (كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم) وهو الخليل (وإسحق) ولده وهو الذي يحسب فى قول وليس بالرجيح (إن ربك عليهم حكيم) أى هو أعلم حيث يجعل رسالته كما قال فى الآية الأخرى

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِّلسَّائِلِينَ * إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيْكُمُ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾

يقول تعالى لقد كان فى قصة يوسف وإخوته آيات للسائلين * إذا قالوا لىوسف وأخوه أحب إلينا مما نحن غصبة إن أبانا لى فى ضلال مبين * اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أئكم وتكونوا من بعده قوم صالحين * قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابت الجب يلتقطه بعض السيارَةِ إن كنتم فاعلين *
يقول تعالى لقد كان فى قصة يوسف وإخوته آيات أى عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك المستخبرين عه فانه خبر عجيب يستحق أن يخبر عنه (إذا قالوا لىوسف وأخوه أحب إلينا مما) أى حلفوا فيما يظنون والله لىوسف وأخوه ، يعنون بنيامين وكان شقيقه لأمه (أحب إلينا مما ونحن غصبة) أى جماعة فكيف أحب ذاك الاثنين أكثر من الجماعة (إن أبانا لى فى ضلال مبين) يعنون فى تقديمهما علينا ، ومحبة إياها أكثر منا واعلم أنه لم يقم دليل على نبوه أخوة يوسف ، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك ، ومن الناس من يزعم أنهم أوحى

إلهم بعد ذلك وفي هذا نظر ، ويحتاج مدعى ذلك إلى دليل ، ولم يذكر سوى قوله تعالى (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط) وهذا فيه احتمال لأن بطون بنى إسرائيل يقال لهم الأسباط كما يقال للعرب قبائل وللعجم شعوب ، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بنى إسرائيل فذكرهم إجمالا لأنهم كثيرون ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم والله أعلم (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم) يقولون هذا الذى يراحمكم فى محبة أبيكم لكم أعدموه من وجه أبيكم ليخلو لكم وحدكم إما بأن تقتلوه أو تلقوه فى أرض من الأراضى تستريحوا منه وتخلوا أتم بأبيكم (وتكونوا من بعده قوما صالحين) فأضرموا التوبة قبل الذنب (قال قائل منهم) قال قتادة ومحمد بن إسحق : وكان أكبرهم واسمه روييل وقال السدى الذى قال ذلك يهوذا وقال مجاهد هو شمعون الصفا (لا تقتلوا يوسف) أى لا تصلوا فى عداوته وبغضه إلى قتله ، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله لأن الله تعالى كان يريد منه أمرا لا بد من إمضائه وإتمامه من الإجماع إليه بالنبوة ومن التمكن له ببلاد مصر والحكم بها فصرفهم الله عنه بمقالة روييل فيه وإشارته عليهم بأن يلقوه فى غيابة الجب وهو أسفله . قال قتادة وهى بئر بيت المقدس (يلتقطه بعض السيارة أى المارة من المسافرين فتستريحوا منه بهذا ولا حاجة إلى قتله) (إن كنتم فاعلين) أى إن كنتم عازمين على ما تقولون . قال محمد بن إسحق بن يسار : لقد اجتمعوا على أمر عظيم من طبيعة الرحم وعقوق الوالد وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذى لا ذنب له وبالكبير الفانى ذى الحق والحرمة والفضل وخطره عند الله مع حق الوالد على ولده ليفرقوا بينه وبين أبيه وحببيه على كبر سنه ورقة عظمه مع مكانه من الله ممن أحبه طفلا صغيرا وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين فقد احتملوا أمرا عظيما رواه ابن أبي حاتم من طريق سلمة بن الفضل عنه

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ * أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَب وَإِنَّا لَهُ لَنَحْفُظُونَ ﴾

لما تواطأوا على أخذه وطرحه فى البئر كما أشار به عليهم أخوهم الكبير روييل جاءوا أباهم يعقوب عليه السلام فقالوا ما بالك (لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون) وهذه توطئة ودعوى وهم يريدون خلاف ذلك لما له فى قلوبهم من الحسد لحب أبيه له (أرسله معنا) أى ابعته معنا (غدا نرتع ونلعب) وقرأ بعضهم بالياء (يرتع ويلعب) قال ابن عباس يسعى وينشط وكذا قال قتادة والضحاك والسدى وغيرهم (وإنا له لحافظون) يقولون ونحن نحفظه ونحوطه من أهلك

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَنُخْسِرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه فى جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعى فى الصحراء (إنى ليحزننى أن تذهبوا به) أى يشق على مفارقتة مدة ذهابكم به إلى أن يرجع وذلك لفرط محبته له لما يتوسم فيه من الخير العظيم وشأن النبوة والكمال فى الخلق والخلق صلوات الله وسلامه عليه . وقوله (وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) يقول وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم فىأنه ذئب فىأكله وأنتم لا تشعرون ، فأخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عندهم فيما فعلوه وقالوا محبين له عنها فى الساعة الراهنة (لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون) يقولون لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ونحن جماعة إنا إذا لها لكون عاجزون

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

يقول تعالى فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك (وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب) هذا فيه تعظيم لما فعلوه أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهر أنه إكرام له وبسطا وشرحا لصدوره وإدخاله للسور عليه فيقال إن يعقوب عليه السلام لما بعثه معهم ضمه إليه وقبله ودعا له. فذكر السدى وغيره أنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه والفعل من ضرب ونحوه ثم جاءوا به إلى ذلك الجب الذي اتفقوا على رميه فيه فربطوه بحبل ودلوه فيه فكان إذا الجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة فسقط في الماء فغمره فصعد إلى صخرة تكون في وسطه يقال لها الراغوفة فقام فوقها وقوله (وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) يقول تعالى ذاكرنا لطفه ورحمته وعائده وانزاله اليسر في حال العسر إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق تطيبا لقلبه وتثبيتا له إنك لا تحزن مما أنت فيه فإن لك من ذلك فرجا ومخرجا حسنا وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع وقوله (وهم لا يشعرون) قال مجاهد وقتاده (وهم لا يشعرون) بإيحاء الله إليه وقال ابن عباس ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقك وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك كما قال ابن جرير حدثني الحارث ثعالب عن عبد العزيز بن صدقة بن عباد الأسدي عن أبيه سمعت ابن عباس يقول: لما دخل إخوة يوسف عليه فرغهم وهم له مسكرون قال جىء بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال إنه ليخبرني هذا الحمام أنه كان لكم أخ من أبيكم فقال له يوسف يدنيه دونكم وأنكم اطلقتم به فألقيتموه في غيابة الجب قال ثم نقره فطن قال فأتيتكم أباكم فقلتم إن الذئب أكله وحتم على قميصه بدم كذب قال فقال بعضهم لبعض إن هذا الحمام ليخبره بخبركم قال ابن عباس رضي الله عنهما فلا يرى هذه الآية نزلت إلا فيهم لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّاتْ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾

يقول تعالى مخبرا عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعدما ألقوه في غيابة الجب أنهم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل ليكون وبظهور الأسماء وللحزع على يوسف ويتغممون لأبيهم وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا (إنا ذهبنا نستيق) أي نترامى (وتركنا يوسف عند متاعنا) أي ثيابنا وأمتعنا (فأكله الذئب) وهو الذي كان قد جزع منه وحذر عليه وقوله (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) تلتطف عظم في تقرير ما يحاولونه يقولون ونحن نعلم أنك لا تصدقا والحالة هذه لو كنا عندك صادقين فكيف وأنت تهتمنا في ذلك لأنك خشيت أن يأكله الذئب فأكله الذئب فأنت معذور في تكذيبك لنا لغرابة ما وقع وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا (وجاءوا على قميصه بدم كذب) أي مكذوب مفترى وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالأوا عليه من المكيدة وهو أنهم عمدوا إلى سخلة فيما ذكره مجاهد والسدى وغير واحد فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب وقد أصابه من دمه ولكنهم نسوا أن يخرقوه فلماذا لم يرج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب بل قال لهم معرضا عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من لبسهم عليه (بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل) أي فسأصبر صبرا جميلا على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه (والله المستعان على ما تصفون) أي على ما تذكرون من الكذب والحال وقال الثوري عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (وجاءوا على قميصه بدم كذب) قال لو أكله السبع لحرق القميص وكذا قال الشعبي والحسن وفنادة وغير واحد وقال مجاهد الصبر الجميل الذي لا جزع فيه وروى هشيم عن عبد الرحمن بن يحيى عن حبان بن أبي حيلة قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله (فصبر جميل) فقال صبر لا شكوى فيه، وهذا مرسل. وقال عبد الرزاق قال الثوري عن بعض أصحابه أنه قال ثلاث من الصبر: أن لا تحدث

بوحك ولا بمصيتك ، ولا تزكى نفسك ، وذكر البخارى ههنا حديث عائشة في الافك حتى ذكر قولها والله لا أجدلى
ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف (فصر جميل والله المستعان على ما تصفون)

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضْعَةً ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا
يَعْمَلُونَ ﴾ * وَشَرَّوهُ بِشْمَنِ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿

يقول تعالى مخبرا عما جرى ليوسف عليه السلام في الحب حين ألقاه إخوته وتركوه في ذلك الحب وحيداً فريداً فكث
عليه السلام في البئر ثلاثة أيام فيما قاله أبو بكر بن عياش ، وقال محمد بن إسحق لما ألقاه إخوته في البئر جلسوا حول البئر يومهم ذلك
ينظرون ماذا يصنع وما يصنع به فساق الله له سيارة فنزلوا قريباً من تلك البئر وأرسلوا واردهم وهو الذي يطلب لهم
الماء فلما جاء ذلك البئر وأدلى دلوه فيها تشبث يوسف عليه السلام فيها فأخرجه واستبشر به وقال (يا بشرى هذا
غلام) وقرأ بعض القراء يا بشرى فزعم السدى أنه اسم رجل ناداه ذلك الرجل الذي أدلى دلوه معلماً له أنه أصاب
غلاماً وهذا القول من السدى غريب لأنه لم يسبق إلى تفسير هذه القراءة بهذا إلا في رواية عن ابن عباس والله أعلم
وإنما معنى القراءة على هذا التحوير رجوع إلى القراءة الأخرى ويكون قد أضاف البشري إلى نفسه وحذف ياء الإضافة
وهو يريد بها كما تقول العرب يا نفس اصبرى ويا غلام أقبل بحذف حرف الإضافة ، ويجوز الكسر حينئذ والرفع وهذا
منه ، وتفسرها القراءة الأخرى يا بشرى والله أعلم ، وقوله (وأسروه بضاعة) أى وأسره الواردون من بقية السيارة
وقالوا اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره قاله مجاهد والسدى وابن جرير هذا
قول ، وقال العوفي عن ابن عباس قوله (وأسروه بضاعة) يعنى إخوة يوسف أسروا شأنه وكتبوا أن يكون أخاهم
وكتب يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته واختار البيهقي فذكره إخوته لوارد القوم فنادى أصحابه (يا بشرى هذا غلام)
يباع فباعه إخوته وقوله (والله علم بما يعملون) أى علم بما يفعله إخوة يوسف ومشتروه وهو قادر على تغيير
ذلك ودفعه ولكن له حكمة وقدر سابق فترك ذلك لخصى ما قدره وقضاه (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)
وفي هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ وإعلام له بأبني عالم بأذى قومك لك وأنا قادر على الإنكار عليهم ولكى
سأملى لهم ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته . وقوله (وشروه)
بشمن بخس دراهم معدودة) يقول تعالى : وباعه إخوته بشمن قليل . قاله مجاهد وعكرمة ، والبخس : هو النقص كما قال
تعالى (فلا يخاف بخساً ولا رهقاً) أى اعتاض عنه إخوته بشمن دون قليل ومع ذلك كانوا فيه من الزاهدين أى ليس
لهم رغبة فيه بل لو سألوهم بلا شيء لأجابوا . قال ابن عباس ومجاهد والضحاك : إن الضمير في قوله (وشروه) عائذ
على إخوة يوسف ، وقال قتادة بل هو عائذ على السيارة والأول أقوى لأن قوله (وكانوا فيه من الزاهدين) إنما
أراد إخوته لا أولئك السيارة لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه فترجع من
هذا أن الضمير في (وشروه) إنما هو لإخوانه وقيل المراد بقوله (بخس) الحرام ، وقيل الظلم وهذا وإن كان كذلك لكن
ليس هو المراد هنا لأن هذا معلوم يعرفه كل أحد لأن ثمنه حرام على كل حال وعلى كل أحد لأنه نبي ابن نبي ابن خليل
الرحمن فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم وإنما المراد هنا بالبخس الناقص أو الزيف أو كلاهما أى إنهم
إخوته وقد باعوه ومع هذا بأقل من الثمن ولهذا قال (دراهم معدودة) فمن ابن مسعود رضى الله عنه باعوه بعشرين درهماً
وكذا قال ابن عباس ونوف البكالى والسدى وقاتدة وعطية العوفي وزادوا قسموها درهمين درهمين ، وقال مجاهد اثنان
وعشرون درهماً ، وقال محمد بن إسحق وعكرمة أربعون درهماً وقال الضحاك في قوله (وكانوا فيه من الزاهدين) وذلك
أنهم لم يعلموا نبوته ومنزلته عند الله عز وجل ، وقال مجاهد لما باعوه جعلوا يتبعونهم ويقولون لهم استوثقوا منه لا يأتى
حتى وبقوه بمصر فقال : من يبتاعنى وليبشر ؟ فاشتراه الملك وكان مسلماً

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

يخبر تعالى بالطفافه يوسف عليه السلام أنه قبض له الذي اشتراه من مصر حتى اعتنى به وأكرمه وأوصى أهله به وتوسم فيه الخير والصلاح فقال لامرأته (أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً) وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير بها . حدثنا العوفي عن ابن عباس وكان اسمه قطيفير ، وقال محمد بن إسحق اسمه اطفير بن روحيب وهو العزيز . وكان على خزائن مصر وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق قال واسم امرأته راعيل بنت رعايل ، وقال غيره اسمها زليخا ، وقال محمد بن إسحق أيضاً عن محمد بن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس كان الذي باعه بمصر مالك بن ذعر بن قزب بن عنقا بن مديان بن إبراهيم فله أعلم وقال أبو إسحق عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود أنه قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لامرأته (أكرمي مثواه) والمرأة التي قالت لأبيها (يا أبت استأجره) الآية وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضى الله عنهما . يقول تعالى كما أثقنا يوسف من إخوته (كذلك مكنا يوسف في الأرض) يعني بلاد مصر (ولعلهم من تأويل الأحاديث) قال مجاهد والسدى هو تعبير الرؤيا (والله غالب على أمره) أى إذا أراد شيئاً فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف بل هو الغالب لما سواه ، قال سعيد بن جبير في قوله (والله غالب على أمره) أى فعال لما يشاء ، وقوله (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) يقول لا يدرون حكمته في خلقه وتلطفه وفعله لما يريد ، وقوله (ولما بلغ) أى يوسف عليه السلام (أشده) أى استكمل عقله وتم خله (آتيناه حكماً وعلماً) يعني النبوة انه حباه بها بين أولئك الأقوام (وكذلك نجزي المحسنين) أى انه كان محسناً في عمله عاملاً بطاعة الله تعالى ، وقد اختلف في مقدار المدة التي بلغ فيها أشده فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة ثلاث وثلاثون سنة وعن ابن عباس بضع وثلاثون ، وقال الصحاح عشرون ، وقال الحسن أربعون سنة ، وقال عكرمة خمس وعشرون سنة ، وقال السدى ثلاثون سنة ، وقال سعيد بن جبير ثمانى عشرة سنة ، وقال الإمام مالك وربيع بن زيد بن أسلم والشعبي الأشد الحلم وقيل غير ذلك والله أعلم .

﴿ وَرَوَدَتْهُ الْمَتَىٰ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر وقد أوصاها زوجها به وليأكرامه فراودته عن نفسه أى حاولته على نفسه ودعته إليها وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجمالها وحسبه وبهاؤه فحملها ذلك على أن تجملت له وغلقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها (وقالت هيت لك) فامتنع من ذلك أشد الامتناع و (قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي) وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير أى إن بعلك ربي أحسن مثواي أى منزلي وأحسن إلىّ فلا أقبله بالمأحشة في أهله (إنه لا يفلح الظالمون) قال ذلك مجاهد والسدى ومحمد بن إسحق وغيرهم ، وقد اختلف القراء في قوله (هيت لك) فقرأه كثيرون بفتح الهاء وإسكان الياء وفتح التاء قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد معناها أنها تدعوه إلى نفسها ، وقال علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس هيت لك تقول هلم لك وكذا قال زر بن حبیش وعكرمة والحسن وقتادة ، قال عمرو بن عبيد عن الحسن وهي كلمة بالسريانية أى عليك ، وقال السدى هيت لك أى هلم لك وهي بالقبطية ، وقال مجاهد : هي لغة عربية تدعوه بها ، وقال البخاري وقال عكرمة هبت لك أى هلم لك بالخورانية . هكذا ذكره معلقاً وقد

أسنده الإمام أبو جعفر بن جرير حدثني أحمد بن سهل الواسطي حدثنا قرة بن عيسى حدثنا النضر بن علي الجزري عن عكرمة مولى ابن عباس في قوله (هيت لك) قال هلم لك قال : هي بالخورانية ، وقال أبو عبيد القاسم بن سلام وكان الكسائي يحكي هذه القراءة يعني هيت لك ويقول هي لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز ومعناها تعال ، وقال أبو عبيدة سألت شيخا عالما من أهل حوران فذكر أنها لغتهم يعرفها واستشهد الإمام ابن جرير على هذه القراءة بقول الشاعر لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه .

أبناغ أمير المؤمنين * بين أذى العراق إذا أتينا إن العراق وأهله * عنق إليك فهيت هيتا

بقول ففعال واقرب ، وقرأ ذلك آخرون هتت لك بكسر الهاء والهمز وضم التاء بمعنى تهيات لك من قول القائل هتت بالأمر أهى هتة ، ومن روى عنه هذه القراءة ابن عباس وأبو عبد الرحمن السلمي وأبو وائل وعكرمة وقتادة وكلهم يفسرها بمعنى تهيات لك . قال ابن جرير وكان أبو عمرو والكسائي ينكران هذه القراءة ، وقرأ عبد الله بن إسحق هيت بفتح الهاء وكسر التاء وهي غريبة ، وقرأ آخرون منهم عامة أهل المدينة هبت بفتح الهاء وضم التاء وأنشد قول الشاعر : ليس قومي بالأبعدين إذا ما * قال داع من العشيرة هيت

قال عبد الرزاق أنبأنا الثوري عن الأعمش عن أبي وائل قال : قال ابن مسعود وقد سمع القراء سمعهم متقاربين فاقروا كما علمتم وإياكم والسنط والاختلاف وإنما هو كقول أحدكم هلم وتعال . ثم قرأ عبد الله هيت لك فقال يا أبا عبد الرحمن إن ناسا يقرءونها هيت قال عبد الله أن أقرأها كما علمت أحب إلى ، وقال ابن جرير حدثني ابن وكيع حدثنا ابن عيينة عن منصور عن أبي وائل قال : قال عبد الله : هيت لك فقال له مسروق إن ناسا يقرءونها هيت لك فقال دعوني فإني أقرأ كما أقرئت أحب إلى وقال أيضا حدثني المثني حدثنا آدم بن أبي إياس حدثنا شعبة عن شقيق عن ابن مسعود قال : هيت لك بنصب الهاء والتاء ولا تهمز ، وقال آخرون هيت لك بكسر الهاء وإسكان الباء وضم التاء ، قال أبو عبيد معمر بن المثني هت لا تنثني ولا تجمع ولا تؤنث بل مخاطب الجميع بلفظ واحد فيقال هيت لك وهيت لكم وهيت لكما وهيت لهن

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾

اختلفت أقوال الناس وعباراتهم في هذا المقام ، وقد روى عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبيرة وطائفة من السلف في ذلك ما رواه ابن جرير وغيره والله أعلم ، وقيل المراد بهم بها خطرات حديث النفس حكاه البغوي عن بعض أهل التحقيق ثم أورد البغوي ههنا حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى : إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها ، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فأنما تركها من جرائي فان عملها فاكتبوها بمثلها » وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وله ألفاظ كثيرة هذا منها ، وقيل هم بضربها ، وقيل تمنأها زوجة وقيل هم بها لولا أن رأى برهان ربه أي فلم يهم بها ، وفي هذا القول نظر من حيث العربية حكاه ابن جرير وغيره ، وأما البرهان الذي رآه ففيه أقوال أيضا فعن ابن عباس وسعيد ومجاهد وسعيد بن جبيرة ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة وأبي صالح والضحاك ومحمد بن إسحاق وغيرهم رأى صورة أبيه يعقوب عاضا على أصبعه بضمه وقيل عنه في رواية فضرب في صدر يوسف . وقال العوفي عن ابن عباس رأى خيال الملك يعنى سيده وكذا قال محمد بن إسحاق فيما حكاه عن بعضهم أنما هو خيال قطفير سيده حين دنا من الباب

وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا وكيع عن أبي مودود سمعت من محمد بن كعب القرظي قال رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت فإذا كتاب في حائط البيت (لا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا) وكذا رواه أبو معشر المدني عن محمد بن كعب . وقال عبد الله بن وهب أخبرني نافع بن يزيد عن أبي صخر قال سمعت القرظي يقول في البرهان

الذي رآه يوسف ثلاث آيات من كتاب الله (إن عليكم لحافظين) الآية وقوله (وما تكون في شأن) الآية وقوله (أقم هو قائم على كل نفس بما كسبت) قال نافع سمعت أبا هلال يقول مثل قول القرظي وزاد آية رابعة (ولا تقرّبوا الزنا) وقال الأوزاعي رأى آية من كتاب الله في الجدار تنهاه عن ذلك . قال ابن جرير والصواب أن يقال إنه رأى آية من آيات الله تزجره عما كان هم به ، وجائز أن يكون صورة يعقوب وجائز أن يكون صورة الملك وجائز أن يكون ما رآه مكتوبا من الزجر عن ذلك ولا حجة فاطمة على تعيين شيء من ذلك ، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى وقوله (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) أي كما أرياه برهانا صرفه عما كان فيه كذلك نفيه السوء والفحشاء في جميع أموره (إنه من عبادنا الخاصين) أي من المجتبيين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار صلوات الله وسلامه عليه

﴿وَأَسْتَبْقَا الْبَابَ فَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾

نجى تعالى عن حالهما حين خرجا يستقيان إلى الباب يوسف هارب والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت ، فلحقته في أثناء ذلك فأمسكت بقميصه من ورائه ففدته فداً فظيعاً يقال إنه سقط عنه واستمر يوسف هارباً ذاهباً وهي في إثره فألفيا سيدها وهو زوجها عند الباب فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها وقالت لزوجها متصلة وقاذفة يوسف بدائها (ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً) أي فاحشة (إلا أن يسجن) أي يحبس (أو عذاب أليم) أي يضرب ضرباً شديداً موجعاً . فعند ذلك انتصر يوسف عليه السلام بالحق وتبرأ مما رمت به من الخيانة ، و (قال) باراً صادقاً (هي راودني عن نفسي) وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قدت قميصه (وشهد شاهد من أهلها) إن كان قميصه قد من قبل (أي من قدامه) (فصدقت) أي في قولها إنه راودها على نفسها لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته في صدره فقدت قميصه فيصح ما قالت (وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) وذلك يكون كما وقع لما هرب منها وتطلبته أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها فقدت قميصه من ورائه ، وقد اختلفوا في هذا الشاهد هل هو صغير أو كبير ، على قولين لعلماء السلف فقال عبد الرزاق أخبرنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس (وشهد شاهد من أهلها) قال ذو الحجة وقال الثوري عن جابر عن ابن أبي مابكة عن ابن عباس كان من خاصة الملك وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحق وعبرهم إنه كان رجلاً ، وقال زيد بن أسلم والسدي كان ابن عمها ، وقال ابن عباس كان من خاصة الملك وقد ذكر ابن إسحق أن زليخا كانت بنت أخت الملك الريان بن الوليد وقال العوفي عن ابن عباس في قوله (وشهد شاهد من أهلها) قال كان صبياً في المهد وكذا روى عن أبي هريرة وهلال بن يساف والحسن وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم أنه كان صبياً في الدار واختاره ابن جرير وقد ورد فيه حديث مرفوع فقال ابن جرير حدثنا الحسن بن محمد حدثنا عفان حدثنا حماد هو ابن سلمة أخبرني عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس صلى الله عليه وسلم قال «تكلم أربعة وهم صغار» فذكر فيهم شاهد يوسف ورواه غيره عن حماد بن سلمة عن عطاء بن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال «تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة بنت فرعون ، وشاهد يوسف وصاحب حريج وعيسى بن مريم» وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد كان من أمر الله تعالى ولم يكن

إنسيا وهذا قول غريب وقوله (فلما رأى قميصه قد من دبر) أى لما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبهم فها قد فته وورثته به (قال إنه من كيدكن) أى إن هذا الهبت واللطخ الذى لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدكن (إن كيدكن عظيم) ثم قال آمرا ليوسف عليه السلام بكتمان ما وقع (يوسف أعرض عن هذا) أى اضرب عن هذا صفحا أى فلا تذكره لأحد (واستغفرى لذنوبك) يقول لامرأته وقد كان لين العريكة سهلا أو أنه عذرها لأنها رأت مالا صبر لها عنه فقال لها استغفرى لذنوبك أى الذى وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ثم قذفه بما هو برىء منه (إنك كنت من الخاطئين)

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مَتَكِنًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٢﴾ قَالَتِ قَدْ لَبِئْسَ الَّذِي لُمْتُنِنِي فِيهِ وَالْقَدْ تَوَدَّتُّهُ عَنِ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصِمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَكُونَنَّ مِنَّا مَجْرُومٌ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة وهى مصر حتى تحدث به الناس (وقال نسوة في المدينة) مثل نساء الكبراء والأمراء ينكرون على امرأة العزيز وهو الوزير ويعين ذلك عليها (امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) أى تحاول غلامها عن نفسه وتدعوه إلى نفسها (قد شغفها حبا) أى قد وصل حبه إلى شغاف قلبها وهو غلافه قال الضحاك عن ابن عباس: الشغف الحب القاتل والشغف دون ذلك والشغاف حجاب القلب (إنا لنهاها في ضلال مبين) أى في صنعها هذا من حبها فتاها ومرادتها إياه عن نفسه (فلما سمعت بمكرهن) قال بعضهم بقولهن ذهب الحب بها وقال محمد بن إسحق بل بلغهن حسن يوسف فأحببن أن يرينه فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته فعند ذلك (أرسلت إليهن) أى دعتهن إلى منزلها لتضيفهن (وأعدت لهن متكنا) قال ابن عباس وسعيد بن جبيرة ومجاهد والحسن والسدى وغيرهم هو المجلس المعد فيه مفارش ومخاد وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه ولهذا قال تعالى (وآتت كل واحدة منهن سكيना) وكان هذا مكيدة منها ومقابلة لهن في احتياطن على رؤيته (وقالت اخرج عليهن) وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر (فلما) خرج و(رأينه أكبرنه) أى أعظمه أى أعظم شأنه وأجل قدره وجعلن يقطعن أيديهن دهشا برؤيته وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين والمراد أنهن حزنن أيديهن بها قاله غير واحد وعن مجاهد وقبادة قطعن أيديهن حتى ألقينها فأنه أعلم . وقد ذكر غير واحد أنها قالت لهن بعدما أكلن وطابت أنفسهن ثم وضعت بين أيديهن أترجا وآتت كل واحد منهن سكينا هل لكن في النظر إلى يوسف ؟ قلن نعم فبعثت إليه تأمره أن اخرج إليهن فاما رأينه جعلن يقطعن أيديهن ثم أمرته أن يرجع ليرينه مقبلا ومدبرا فرجع وهن يحزنن في أيديهن فلما أحسنن بالألم جعلن يولولن فقالت أنتن من نظرة واحدة فعلنن هذا فكيف ألام أنا ؟ (فقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم) ثم قلن لها وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذى رأينا ، لأنهن لم يرين في البشر شيئا ولا قريبا منه فانه عليه السلام كان قد أعطى شطر الحسن كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الاسراء أن رسول الله ﷺ مر بيوسف عليه السلام في السماء الثالثة قال « فإذا هو قد أعطى شطر الحسن » وقال حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعطى يوسف وأمه شطر الحسن » وقال سفيان الثوري عن أبي إسحق عن أنى الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال أعطى يوسف وأمه ثلث الحسن ، وقال أبو إسحق

أيضا عن أبي الأحوص عن عبد الله قال : كان وجه يوسف مثل البرق وكانت المرأة إذا ألتته لحاجة غطى وجهه مخافة أن تفتتن به ورواه الحسن البصري مرسلا عن النبي ﷺ أنه قال « أعطى يوسف وأمه ثلث حسن أهل الدنيا ، وأعطى الناس الثلثين » أو قال « أعطى يوسف وأمه الثلثين والناس الثلث » وقال سفيان عن منصور عن مجاهد عن ربيعة الحرشي قال : قسم الحسن نصفين فأعطى يوسف وأمه سارة نصف الحسن . والنصف الآخر بين سائر الخلق . وقال الإمام أبو القاسم السهيلي معناه أن يوسف عليه السلام كان على النصف من حسن آدم عليه السلام فإن الله خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها ولم يكن في ذريته من يوازيه في جماله وكان يوسف قد أعطى شطر حسنه فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته (حاش لله) قال مجاهد وغير واحد معاذ الله (ماهذا بشرا) وقرأ بعضهم ماهذا بشرى أى بمشترى بشراء (إن هذا إلا ملك كريم * قالت فذلكم الذى لم تثنى فيه) تقول هذا معتذرة اليهن بأن هذا حقيق أن يحب الجماله وكماله (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) أى فامتنع قال بعضهم لما رأين جماله الظاهر أخبرتهن بصفاته الحسنة التى تخفى عنهن وهى العفة مع هذا الجمال ثم قالت تتوعده (ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين) فعند ذلك استعاذ يوسف عليه السلام من شرهن وكيدهن و(قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه) أى من الفاحشة (وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن) أى إن وكلتني إلى نفسى فليس لى منها قدرة ولا أملك لها ضرا ولا نفعا إلا بحولك وقوتك أنت المستعان وعليك التكلان فلانكأنى إلى نفسى (أصب اليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه) الآية ، وذلك أن يوسف عليه السلام عصمه الله عصمة عظيمة وحماه فامتنع منها أشد الامتناع واختار السجن على ذلك وهذا فى غاية مقامات الكمال أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته وهى امرأة عزيز مصر وهى مع هذا فى غاية الجمال والمال والرياسة ويمتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك خوفا من الله ورجاء ثوابه

ولهذا ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله . ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود اليه . ورحلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شاله ما أنفقت يمينه ، ورجل دعتة امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه »

﴿ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُزْءُهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾

يقول تعالى ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنوه إلى حين أى إلى مدة وذلك بعدما عرفوا براءته وظهرت الآيات وهى الأدلة على صدقه وعفته ونزاهته وكانهم والله أعلم إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاما أنه راودها عن نفسها وأنهم سجنوه على ذلك . ولهذا لما طلبه الملك الكبير فى آخر المدة امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب اليه من الخيانة . فلما تقرر ذلك خرج وهو نقي العرض صلوات الله عليه وسلامه . وذكر السدى أنهم إنما سجنوه لتلاشيح ما كان منها فى حقه ويبرأ عرضه فيفضحها

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرِيتِي أُعْصِرُ سُخْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرِيتِي أُجِلُّ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

قال قتادة كان أحدهما ساقى الملك والآخر خبازه . قال محمد بن إسحق كان اسم الذى على الشراب نبوا والآخر مجلث . قال السدى كان سبب حبس الملك إيهاما أنه نوحهم أنهمما تآملا على سمه فى طعامه وشرابه وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر فى السجن بالجلود والأمانة وصدق الحديث وحسن السمعة وكثرة العبادة صلوات الله عليه وسلامه . ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعبادة مرضاهم والقيام بحقوقهم . ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن تألفا به وأحباه حبا شديدا وقالاه : والله لقد أحبيناك حبا زائدا . قال بارك الله فيكما إنه ما أحببني أحد إلا دخل على من محبته

ضرر ، أحببني عمي فدخل على الضرر بسببها ، وأحبنى أبي فأوذيت بسببه ، وأحببني امرأة العزيز فكذلك ، فقالوا والله ما نستطيع إلا ذلك ، ثم إنهما رأيا مناما فرأى الساقى أنه يعصر خمرا يعنى عنبا وكذلك هى فى قراءة عبد الله بن مسعود إني أراى أعصر عنبا ، ورواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن سنان عن يزيد بن هرون عن شريك عن الأعمش عن زيد بن وهب عن ابن مسعود أنه قرأها أعصر عنبا . وقال الضحاك فى قوله (إني أراى أعصر خمرا) يعنى عنبا ، قال وأهل عمان يسمون العنب خمرا ، وقال عكرمة : قال له إني رأيت فيما يرى النائم أنى غرست حبله من عنب فنبتت فخرج فيها عناقيد فعصرتهن ثم سقيتهن الملك فقال : تمكث فى السجن ثلاثة أيام ثم نخرج فتسقيه خمرا . وقال الآخر وهو الجباز (إني أراى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبثا بتأويله) الآية والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه أنهما رأيا مناما وطلبا تعبيرا . وقال ابن جرير حدثنا وكيع وابن حميد قالا حدثنا جرير عن عمارة بن القعقاع عن إبراهيم عن عبد الله ابن مسعود قال : ما رأى صاحبنا يوسف شيئا إنما كانا نحلمنا ليحربا عليه

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ۖ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

يخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا فى منامهما من حلم فانه عارف بتفسيره ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه ولهذا قال (لا يأتىكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله) قال مجاهد يقول (لا يأتىكما طعام ترزقانه) فى يومكما (إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتىكما) وكذا قال السدى وقال ابن أبي حاتم رحمه الله حدثنا على بن الحسين حدثنا محمد بن العلاء حدثنا محمد بن يزيد شيخ له حدثنا رشدين عن الحسن بن ثوبان عن عكرمة عن ابن عباس قال : ما أدرى لعل يوسف عليه السلام كان يعتاف وهو كذلك لأنى أجد فى كتاب الله حين قال للرجلين (لا يأتىكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله) قال إذا جاء الطعام حاولا أو مرا اعتاف عند ذلك . ثم قال ابن عباس إنما علم فعلم وهذا أثر غريب ثم قال وهذا إنما هو من تعلم الله إياى لأنى اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر فلا يرجون ثوابا ولا عقابا فى المعاد (واتبع ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب) الآية يقول هجرت طريق الكفر والشرك وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى واتبع طريق المرسلين وأعرض عن طريق الضالين فإن الله يهدي قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلم ويجعله إماما يقتدى به فى الخير وداعيا إلى سبيل الرشاد (ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس) هذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له (من فضل الله علينا) أى أوحاه اليا وأمرنا به (وعلى الناس) إذ جعلنا دعاء لهم إلى ذلك (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) أى لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل اليهم بل (بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دارالبوار) وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية حدثنا حجاج عن ابن عباس أنه كان يجعل الجدأ با ويقول والله لمن شاء لا عنته عند الحجر ما ذكر الله جدا ولا جدة قال الله تعالى يعنى إخبارا عن يوسف (واتبع ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب)

﴿ يَصْحَبِ السَّجْنَءَ أَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۖ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتيين بالخطابة والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ماسواه من الأوثان التي يعبدونها قومهما فقال (أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) أي الذي ذل كل شيء لعز جلاله وعظمته سلطانه ، ثم بين لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة إنما هو جعل منهم وتسمية من تلقاء أنفسهم تلقاها خلفهم عن سلفهم وليس لذلك مستند من عند الله ولهذا قال (ما أنزل الله بها من سلطان) أي حجة ولا برهان ، ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشية والملك كله لله وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه ثم قال تعالى (ذلك الدين القيم) أي هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له هو الدين المستقيم الذي أمر الله به وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أي فلهذا كان أكثرهم مشركين (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وقد قال ابن جرير إنما عدل بهم يوسف عن تعبير الرؤيا إلى هذا لأنه عرف أنها ضارة لأحدهما فأحب أن يشغلها بغير ذلك لئلا يعاودوه فيها فعاودوه فأعاد عليهم الموعظة ، وفي هذا الذي قاله نظر لأنه قد وعدا أولا بتعيرها ولكن جعل سؤالهما على وجه التعظيم والاحترام وصلة وسببا إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام لما رأى في سجيتهما من قبول الخير والاقبال عليه والإنصات إليه ، ولهذا لما فرغ من دعوتهما شرع في تعبير رؤياهما من غير تكرار سؤال فقال .

﴿يَصْحَبِي السِّجْنُ أَمْ أَحَدُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾

يقول لهما (يا صاحبي السجن أَمْ أَحَدُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا) وهو الذي رأى أنه يعصر خمرا ولكنه لم يعينه لئلا يحزن ذاك ولهذا أبهمه في قوله (وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه) وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه وهو واقع لاحالة لأن الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت ، وقال الثوري عن عمارة بن القعقاع عن إبراهيم بن عبد الله قال : لما قال ما قالوا وأخبرهما قال ما رأيا شيئا فقال (قضى الأمر الذي فيه تستفتيان) ورواه محمد بن فضيل عن عمارة عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود به وكذا فسر مجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم وحاصله أن من تحمل بياطل وفسره فانه يلزم بتأويله والله تعالى أعلم ، وقد ورد في الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد عن معاوية بن حيدة عن النبي ﷺ قال «الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت» وفي مسند أبي يعلى من طريق يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعا «الرؤيا لأول عابر»

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَمِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾

ولما ظن يوسف عليه السلام أن الساقى ناج قال له يوسف خفية عن الآخر والله أعلم — لئلا يشعره أنه المصلوب — قال له (اذكرني عند ربك) بقول اذكر قصتي عند ربك وهو الملك فنسى ذلك الموصى أن يذكر مولاه الملك بذلك وكان من جملة مكائد الشيطان لئلا يطلع نبي الله من السجن هذا هو الصواب أن الضمير في قوله (فأنساه الشيطان ذكرك) عائد على الناجي كما قاله مجاهد ومحمد بن إسحق وغير واحد ويقال إن الضمير عائد على يوسف عليه السلام رواه ابن جرير عن ابن عباس ومجاهد أيضا وعكرمة وغيرهم وأسند ابن جرير ههنا حديثا فقال : حدثنا ابن وكيع حدثنا عمرو بن محمد عن إبراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعا قال : قال النبي ﷺ «لو لم يقل - يعني يوسف - الكلمة التي قال ما لبث في السجن طول ما لبث حيث يبتغي الفرج من عند غير الله» وهذا الحديث ضعيف جدا لأن سميان بن وكيع ضعيف وإبراهيم بن يزيد هو الجوزي أضعف منه أيضا ، وقد روى عن الحسن وقتادة مراسلا عن كل منهما وهذه المرسلات ههنا لا تقبل من قبل المرسلة من حيث هو في غير هذا الموطن والله أعلم ، وأما البضع فقال مجاهد وقتادة : هو ما بين الثلاث إلى التسع ، وقال وهب بن منبه : مكث أيوب في البلاء سبعا

ويوسف في السجن سبعا وعذب بختصر سبعا ، وقال الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما (فلبث في السجن بضع سنين) قال ثننا عشرة سنة ، وقال الضحاك أربعة عشرة سنة

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رَأْيِي إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ * قَالُوا أَضْغَاتُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ * وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾

هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدر الله تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسف عليه السلام من السجن معززا مكرما ، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا فهاثه وتعجب من أمرها وما يكون تفسيرها فجمع الكهنة والحادة وكبار دولته وأمراء ققص عليهم ما رأى وسألهم عن تأويلها فلم يعرفوا ذلك واعتذروا إليه بأنها (أضغاث أحلام) أى أخلاط أحلام اقتضته رؤياك هذه (وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) أى لو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط لما كان لنا معرفة بتأويلها وهو تعبيرها فعند ذلك تذكر الذى نجا من ذينك الفتيتين اللذين كانا في السجن مع يوسف وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به يوسف من ذكر أمره للملك فعند ذلك تذكر بعد أمة أى مدة وقرأ بعضهم بعدأمة أى بعد نسيان فقال لهم أى للملك والذين جمعهم لذلك (أنا أنبئكم بتأويله) أى بتأويل هذا المنام (فأرسلون) أى فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن ، ومعنى الكلام فبعثوه فجاء فقال (يوسف أيها الصديق أفتنا) وذكر المنام الذى رآه الملك فعند ذلك ذكر له يوسف عليه السلام تعبيرها من غير تعنيف لافقى في نسيانه ما وصاه به ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك بل قال (تزرعون سبع سنين دأبا) أى يأتىكم الحصب والمطر سبع سنين متواليات ففسر البقر بالسنين لأنها تثير الأرض التى تشتغل منها الثمرات والزروع وهن السنبلات الخضراء ثم أرشدهم إلى ما يعتدونه فى تلك السنين فقال (فما حصدتم فذرروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون) أى مهما استغلتم فى هذه السبع السنين الحصب فادخروه فى سنبله ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه إلا المقدار الذى تأكلونه وليكن قليلا قليلا لا تسرفوا فيه لتنتفعوا فى السبع الشداد وهن السبع السنين المحل التى تعقب هذه السبع المتواليات وهن البقرات العجاف اللاتى تأكل السمان لأن سنى الجذب يؤكل فيها ما جمعه فى سنى الحصب وهن السنبلات اليابسات وأخبرهم أنهم لا ينبتن شيئا وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء ولهذا قال (يا كلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون) ثم بشرهم بعد الجذب العام التوالى بأنه يعقبهم بعد ذلك عام فيه يغاث الناس أى يأتىهم الغيث وهو المطر وتغل البلاد ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم من زيت ومحوه وسكر ونحوه حتى قال بعضهم : يدخل فيه حلب اللبن أيضا . قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (وفيه يعصرون) يحلبون

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤَيِّ بِهٍ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَمِّهِ مَا بَالُ النَّسُوءِ الَّتِي قَطَعْنَ

وابن أبي الهذيل والضحاك والحسن وقتادة والسدى والقول الأول أقوى وأظهر لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم بل بعد ذلك أحضره الملك

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى إخبارا عن الملك حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ونزاهة عرضه بما نسب إليه قال (ائتونى به أستخلصه لنفسى) أى أجعله من خاصتى وأهل مشورتى (فلما كلمه) أى خاطبه الملك وعرفه ورأى فضله وبراعته وعلم ما هو عليه من خلق وخلق وكما قال له الملك (إنك اليوم لدينا مكين أمين) أى إنك عندنا قد بقيت ذامكا مائة وأمانه فقال يوسف عليه السلام (اجعلنى على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) مدح نفسه ويجوز للرجل ذلك إذا جهل أمره ولا حاجة، وذكر أنه (حفيظ) أى خازن أمين (عليم) ذو علم وبصيرة بما يتولاه . وقال شيبه بن نعام : حفيظ لما استودعتنى عليم بسنى الجذب رواه ابن أبى حاتم وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه ولما فيه من المصالح للناس وإنما سأله أن يجعله على خزائن الأرض وهى الأهرام التى يجمع فيها الغلات لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد فأجيب إلى ذلك رغبة فيه وتكرمة له ولهذا قال تعالى

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

يقول تعالى (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض) أى أرض مصر (يتبعوا منها حيث يشاء) قال السدى وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم يتصرف فيها كيف يشاء ، وقال ابن جرير يتخذ منها منزلا حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار (نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين) أى وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز فهذا أعقبه الله عز وجل السلام والنصر والتأييد (ولا نضيع أجر المحسنين * ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) يخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبىه يوسف عليه السلام فى الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من النصر والنفوذ فى الدنيا كقوله فى حق سليمان عليه السلام (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب * وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) والغرض أن يوسف عليه السلام ولاءه ملك مصر الريان بن الوليد الوزارة فى بلاد مصر مكان الذى اشتراه من مصر زوج التى راودته وأسلم الملك على يدى يوسف عليه السلام. قاله مجاهد

وقال محمد بن إسحق لما قال يوسف للملك (اجعلنى على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) قال الملك قد فعلت فولاه فيما ذكره عمل اطفير وعزل اطفير عما كان عليه ، يقول الله عز وجل (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبعوا منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين) قال فذكر لى والله أعلم أن اطفير هلك فى تلك الليالى وأن الملك الريان بن الوليد زوج يوسف امرأة اطفير راعيل وأنها حين دخلت عليه قال لها : أليس هذا خيرا مما كنت تريدین ؟ قال فزعمون أنها قالت أيها الصديق لا تلمنى فأنى كنت امرأة كما ترى حسناء جميلة ناعمة فى ملك ودنيا وكان صاحبى لا يأتى النساء وكنت كما جعلك الله فى حسنك وهيتك على ما رأيت ، فزعمون أنه وجدها عذراء فأصابها فولدت له رجلين افرائيم بن يوسف وميشا بن يوسف وولد لافرايم نون والديوشع بن نون ورحمة امرأة أيوب عليه السلام ، وقال الفضيل بن عياض وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق حتى مر يوسف فقالت : الحمد لله الذى جعل العبيد ملوكا بطاعته ، والملوك عبيدا بمعصيته .

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ * وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِآخِ

لَكُمْ مِّنْ أَيْبِكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ * قَالُوا سُبُوذُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ * وَقَالَ لِفَتَيْهِ أَجْعَلُوا بُضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا أُنْقِلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٠﴾

ذكر السدي ومحمد بن إسحق وغيرهما من المفسرين أن السبب الذي أقدم إخوة يوسف بلاد مصر أن يوسف عليه السلام لما باشر الوزارة بمصر ومضت السبع السنين الخصبه ثم تلتها السبع السنين المجدة وعم القحط بلاد مصر بكاملها ووصل إلى بلاد كنعان وهي التي فيها يعقوب عليه السلام وأولاده ، وحينئذ احتاط يوسف عليه السلام للناس في غلاتهم وجمعها أحسن جمع فحصل من ذلك مبلغ عظيم وهذا متعده هائلة وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والعمالات ، يتارون لأنفسهم وعليلهم فكان لا يعطى الرجل أكثر من حمل بعير في السنة ، وكان عليه السلام لا يشبع نفسه ولا يأكل كل هو الملك وجنودها إلا أكلة واحدة في وسط النهار حتى يتكفأ الناس بما في أيديهم مدة السبع سنين وكان رحمة من الله على أهل مصر . وما ذكره بعض المفسرين من أنه باعهم في السنة الأولى بالأموال ، وفي الثانية بالمتاع وفي الثالثة بكذا . وفي الرابعة بكذا حتى باعهم بأنفسهم وأولادهم بعد ما ملك عليهم جميع ما يملكون ، ثم أعتقهم ورد عليهم أموالهم كلها ، الله أعلم بصحة ذلك وهو من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب ، والغرض أنه كان في جملة من ورد للميرة إخوة يوسف عن أمر أبيهم لهم في ذلك فانه بلغهم أن عزيز مصر يعطى الناس الطعام بثمنه فأخذوا معهم بضاعة يعاضون بها طعاما وركبوا عشرة نفر واحتبس يعقوب عليه السلام عنده ابنه بنيامين شقيق يوسف عليه السلام وكان أحب ولده إليه بعد يوسف ، فلما دخلوا على يوسف وهو جالس في أبيته وراسته وسيادته عرفهم حين نظر إليهم وهم له منكرون أي لا يعرفونه لأنهم فارقوه وهو صغير حدث وباعوه للسيارة ولم يدروا أن يذهبوا به ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه ، فلهذا لم يعرفوه ، وأما هو فعرفهم . فذكر السدي وغيره أنه شرع غاظهم فقال لهم كالمنكر عليهم ما أقدمكم بلادى ؟ فقالوا أيها العزيز إنا قدمنا للميرة ، قال فلعلكم عيون ؟ قالوا معاذ الله ، قال فمن أين أتم ؟ قالوا من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبي الله ، قال وله أولاد غيركم ؟ قالوا نعم كنا اثني عشر فذهب أصغرنا هلك في البرية وكان أحبنا إلى أبيه وبقى شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه ، فأمر بئزلهما وإكرامهم (ولما جهزهم بجهارهم) أي أوفى لهم كيلهم وحمل لهم أحملهم قال أثوني بأخيكم هذا الذي ذكرتم لأعلم صدقكم فيما ذكرتم (ألا ترون أي أوفى السكيل وأنا خير المنزلين ؟) يرغبهم في الرجوع إليه ، ثم رهبهم فقال (فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي) الآية . أي إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية فليس لكم عندي ميرة (ولا تقرّبون *) قالوا سناود عنه أباه وإنا لفاعلون (أي سنحرص على جيئه إليك بكل ممكن ولا نبقى مجهودا لتعلم صدقا فيما قلناه ، وذكر السدي أنه أخذ منهم رهائن حتى يقدموا به معهم وفي هذا نظر لأنه أحسن إليهم ورعهم كثيرا وهذا لحرصه على رجوعهم (وقال لفتيانه) أي غلامه (اجعلوا بضاعتهم) أي التي قدموا بها لبتاروا عوضا عنها (في رحالهم) أي في أمتعتهم من حيث لا يشعرون (لعلهم يرجعون) بها ، قيل خشى يوسف عليه السلام أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها ، وقيل تدمم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضا عن الطعام ، وقيل أراد أن يردهم إذا وجدوها في متاعهم تحرجا وتورعا لأنه يعلم ذلك منهم والله أعلم

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَيْبِهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ نَحْفِظُونَ * قَالَ هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَحِيهِ مِنْ قَبْلُ قَالَهُ خَيْرٌ خَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

يقول تعالى عنهم إنهم رجعوا إلى أبيهم (قالوا يا أبانا منع منا الكيل) يعنون بعد هذه المرة إن لم ترسل معنا أخانا

بنيامين لانكتل فأرسله معانكتل وإناله لحافظون ، قرأ بعضهم بالياء أى يكتل هو (وإناله لحافظون) أى لا تخف عليه فانه سيرجع اليك وهذا كما قالوا له فى يوسف (أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإناله لحافظون) ولهذا قال لهم (هل آمنكم عليه إلا كما أمتكم على أخيه من قبل) أى هل أتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل ، تعيينونه على وتحولون بيني وبينه ؟ (فالله خير حافظا) وقرأ بعضهم حفظا (وهو أرحم الراحمين) أى هو أرحم الراحمين بى وسيرحم كبرى وضعفى ووجدى بولدى وأرجو من الله أن يرده على ويجمع شملى به إنه أرحم الراحمين .

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا نَبِيَّ مَا نَبِئُكَ هَذِهِ بَضَاعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَبِئُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزَّدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ * قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْتِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا تَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

يقول تعالى . ولما فتح إخوة يوسف متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم وهى التى كان أمر يوسف فتياها بوضعها فى رحالهم فلما وجدوها فى متاعهم (قالوا يا أبانا ما نبغى) أى ماذا نريد (هذه بضاعتنا ردت إلينا) كما قال قتادة . ما نبغى وراء هذا إن بضاعتنا ردت إلينا وقد أوفى لنا الكيل (ونمير أهلنا) أى إذا أرسلت أخانا معنا نأتى بالميرة إلى أهلنا (ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير) وذلك أن يوسف عليه السلام كان يعطى كل رجل حمل بعير ، وقال مجاهد حمل حمار ، وقد يسمى فى بعض اللغات بعيرا ، كذا قال (ذلك كيل يسير) هذا من تمام الكلام وتحسينه أى إن هذا يسير فى مقابلة أخذ أخيهما ما يعدل هذا (قال لن أرسله معكم حتى تؤتونا ميثقا من الله) أى تحلفون بالعهد والمواثيق (لتأتينى به إلا أن يحاط بكم) إلا أن تلبوا كلمكم ولا تقدر على نخليصه (فلما آتوه موثقهم) أكدده عليهم فقال (الله على ما تقول وكيل) قال ابن إسحق وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بدا من بعثهم لأجل الميرة التى لا غنى لهم عنها فبعثه معهم .

﴿ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبُوهُمْ مَا كَانُ يُنْفِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَدُوْعٌ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى إخبارا عن يعقوب عليه السلام أنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيه بنيامين إلى مصر أن لا يدخلوا كلهم من باب واحد وليدخلوا من أبواب متفرقة فانه كما قال ابن عباس ومحمد بن كعب ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغير واحد انه خشى عليهم العين وذلك أنهم كانوا ذوى جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء فخشى عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم فإن العين حق تستنزل الفارس عن فرسه وروى ابن أبى حاتم عن إبراهيم النخعى فى قوله (وادخلوا من أبواب متفرقة) قال علم أنه سيلقى إخوته فى بعض تلك الأبواب وقوله (وما أغنى عنكم من الله من شيء) أى ان هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاه فان الله إذا أراد شيئا لا يخالف ولا يمانع (إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتكول المتوكلون *) ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهما ما كان يغنى عنهم من الله من شيء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاهما قالوا هى دفع إصابة العين لهم (وإنه لدوْعٌ لما علمناه) . قال قتادة والثورى لدو عمل بعلمه ، وقال ابن جرير لدو علم لتعليمنا إياه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين وأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته وأفاض عليهم الصلة والإلطف والإحسان واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه وما جرى له وعرفه أنه أخوه ، وقال له لا تبتئس أى لا تأسف على ما صنعوا بى وأمره بكتان ذلك عنهم وأن لا يطلعهم على ما أطلعهم عليه من أنه أخوه ، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززا مكرما معظما

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا نَقْصِدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾

لما جهزهم وحمل لهم أبعرتهم طعاما أمر بعض فتياته أن يضع السقاية وهي إناء من فضة في قول الأكثرين ، وقيل من ذهب قاله ابن زيد كان يشرب فيه ويكيل للناس به من عزة الطعام إذ ذاك قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد ، وقال شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس صواع الملك قال : كان من فضة يشربون فيه وكان مثل المكوك ، وكان للعباس مثله في الجاهلية ، فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد ثم نادى مناد بينهم (أيها العير إنكم لسارقون) فالتفتوا إلى المنادى وقالوا (ماذا تفقدون * قالوا نقصد صواع الملك) أى صاعه الذى يكيل به (ولمن جاء به حمل بعير) وهذا من باب الجمالة (وأنا به زعيم) وهذا من باب الضمان والكفالة

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة قال لهم إخوة يوسف (تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين) أى لقد تحققت وعامتهم منذ عرفتمونا لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة أنا (ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين) أى ليست سحابانا تقتضى هذه الصفة فقال لهم الفتيان (فما جزاؤه) أى السارق إن كان فيكم (إن كنتم كاذبين) أى أى شيء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه ؟ (قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين) وهكذا كانت شريعة إبراهيم عليه السلام أن السارق يدفع إلى المسروق منه ، وهذا هو الذى أراد يوسف عليه السلام ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه أى فتشها قبله تورية (ثم استخرجها من وعاء أخيه) فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم وإلزاما لهم بما يعتقدونه ولهذا قال تعالى (كذلك كدنا ليوسف) وهذا من السكيد المحبوب المراد الذى يحبه الله ويرضاه لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة . وقوله (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) أى لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر قاله الضحاك وغيره وإنما قبض الله له أن التزم له أخوته بما التزموه وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم ولهذا مدحه الله تعالى فقال (نرفع درجات من نشاء) كما قال تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم) الآية (وفوق كل ذي علم عليم) قال الحسن البصرى ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهى إلى الله عز وجل ، وكذا روى عبد الرزاق عن سفيان الثوري عن عبد الأعلى الثعلبي عن سعيد بن جبير قال كنا عند ابن عباس فحدث بحديث عجيب فتعجب رجل فقال : الحمد لله فوق كل ذي علم عليم ، فقال ابن عباس بشئ ما قلت ، الله العليم فوق كل عالم ، وكذا روى سماك عن عكرمة

عن ابن عباس (وفوق كل ذي علم عليم) قال يكون هذا أعلم من هذا وهذا أعلم من هذا والله فوق كل عالم وهكذا قال عكرمة وقال قتادة: وفوق كل ذي علم عليم. حتى ينتهي العلم إلى الله ، منه بدىء وتعلمت العلماء واليه يعود ، وفي قراءة عبد الله وفوق كل عالم عليم

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾

وقال إخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أخرج من متاع بنيامين (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) يتنصلون إلى العزيز من التشبه به ويدكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل يعنون به يوسف عليه السلام قال سعيد بن جبير عن قتادة كان يوسف عليه السلام قد سرق صنما لجدته أبي أمه فكسره ، وقال محمد بن إسحق عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد قال كان أول ما دخل على يوسف من البلاء فيما بلغنى أن عمته ابنة إسحق وكانت أكبر ولد إسحق وكانت عندها منطقة إسحق وكانوا يتوارثونها بالكبر وكان من اختبائها ممن وليها كان له سلما لا ينازع فيه يصنع فيه ما يشاء ، وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد حضنته عمته وكان لها به وله فلم تحب أحدا حبها إياه حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات تأقت إليه نفس يعقوب عليه السلام فأثاها فقال يا أختي سلمى إلى يوسف فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة قالت فوالله ما أنا بتاركته ثم قالت: فدعه عندي أياما أنظر إليه وأسكن عنه لعل ذلك يسليني عنه أو كما قالت فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحق فخرمها على يوسف من تحت ثيابه ثم قالت فقدت منطقة إسحق عليه السلام فانظروا من أخذها ومن أصابها ؟ فالتفت ثم قالت اكشفوا أهل البيت فكشفوهم فوجدوها مع يوسف فقالت والله إنه لى لسم أصنع فيه ما شئت فأثاها يعقوب فأخبرته الخبر فقال لها أنت وذلك إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ، ما أستطيع عبر ذلك ، فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت ، قال فهو الذى يقول إخوة يوسف حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) وقوله (فأسرها يوسف في نفسه) يعنى الكسامة التى بعدها وهى قوله (أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون) أى تذكرون قال هذا في نفسه ولم يبد له وهذا من باب الاضمار قبل الذكر وهو كثير كقول الشاعر :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر * وحسن فعل كما يجزى سنار

وله شواهد كثيرة فى القرآن والحديث واللغة فى منشورها وأخبارها وأشعارها. قال العوفى عن ابن عباس (فأسرها يوسف في نفسه) قال أسر فى نفسه (أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون)

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ * قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ ﴾

لما تعين أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم شرعوا يترققون له ويعطفونه عليهم (فقالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا) يعنون وهو يحبه حبا شديدا ويتسلى به عن ولده الذى فقده (فخذ أحدا مكانه) أى بدله يكون عندك عوضا عنه (إنا نراك من المحسنين) أى العادلين للنصفين الفالين للخير (قال معاذ الله أن تأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) أى كما قلتم واعترفتم (إنا إذا لظالمون) أى إن أخذنا بريئا بسقيم (١) .

﴿ فَلَمَّا أَسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ

مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَسُئِلَ الْقَرْيَةُ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٠٠﴾

يخبر تعالى عن اخوة يوسف أنهم لما يئسوا من تخلص أخيه بنيامين الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه وعاهدوه على ذلك فامتنع عليهم ذلك (خلصوا) أي انقردوا عن الناس (نحيا) يتباحون فيما بينهم (قال كبيرهم) وهو روييل وويل يهوذا وهو الذي أشار عليهم بإلفائه في البئر عند ما هموا بقتله فالهم (ألم تعلموا أن أناكم قد أخذ عليكم موثقا من الله) لتردبه إليه فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه (فلن أبرح الأرض) أي لن أفارق هذه البلدة (حتى يأذن لي أبي) في الرجوع إليه راضيا عنى (أويحكم الله لي) قيل بالسيف ، وقيل بأن تمكبي من أخذ أخى (وهو خير الحاكمين) ثم أمرهم أن يخبروا آباهم بصورة ما وقع حتى يكون عذرا لهم عنده ويتصلوا إليه ويبرؤا مما وقع بقولهم وقوله (وما كنا للغيب حافظين) قال قتادة وعكرمة : ما علمنا أن ابنك سرق . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ما علمنا في الغيب أنه سرق له شيئا ، إنما سألنا ماجزاء السارق ؟ (واسأل القرية التي كسافها) قيل المراد مصر قاله قتادة وويل غيرها (والعير التي أقبلنا فيها) أي التي رافقناها عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا (وإننا لصادقون) فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخذوه بسرقة

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْ تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

قال لهم كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب (بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل) قال محمد ابن إسحق لما جاءوا يعقوب وأخبروه بما جرى اتهمهم فظن أنها كفتلهم بيوسف قال (بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل) وقال بعض الناس لما كان صنيهم هذا امرتاً على فعاهم الأول سحب حكم الأول عليه وصح قوله (بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل) ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة يوسف وأخاه بنيامين وروييل الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه ، وإما أن يأخذ أخاه خفية ، ولهذا قال (عسى الله أن يأتيهم جميعا إنه هو العليم) أي العليم بحالى (الحكيم) في أفعاله وقضائه وقدره (وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف) أي أعرض عن بنييه وقال متذكرا حزن يوسف القدم الأول (يا أسفا على يوسف) جدله حزن الابن حزن الدفين ، قال عبد الرزاق أنا الثورى عن سفيان العصفري عن سعيد بن جبير أنه قال لم يعط أحد غير هذه الأمة الاسترجاع ، ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام (يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) أي ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق . قاله قتادة وغيره ، وقال الضحاك فهو كظيم كئيب حزين

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن الحسن عن الأحف بن قيس أن النبي ﷺ قال « إن داود عليه السلام قال : يارب إن نبي إسرائيل يسألونك إبراهيم وإسحق ويعقوب فاجعل لي لهم رابعا فأوحى الله تعالى إليه أن ياداد إن إبراهيم ألقى في النار بسبى فصبر وتلك بلية لم تتلك وإن إسحق بدل مهجة دمه بسبى فصبر وتلك بلية لم تتلك ، وإن يعقوب أخذت منه حبيبه فايضت عيناه من الحزن فصبر وتلك بلية لم تتلك » وهذا

مرسل وفيه نكارة فإن النسيح أن إسماعيل هو الله يسبح ، ولكن علي بن زيد بن جدعان له منا كبر وغرائب كثيرة والله أعلم ، وأقرب ما في هذا أن الأحنف بن قيس رحمه الله حكاه عن بعض بني إسرائيل ككعب ووهب ونحوهما والله أعلم فإن بني إسرائيل ينقلون أن يعقوب كتب إلى يوسف لما احتبس أخاه بسبب السرقة يتلطف له في رد ابنه ويذكر له أنهم أهل بيت مصابون بالبلاء فإبراهيم ابتلى بالنار وإسحق بالذبح ويعقوب بفراق يوسف في حديث طويل لا يصح والله أعلم ، فعند ذلك رقى له بنوه وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه (تالله تفتؤ تذكر يوسف) أي لا تفارق تذكر يوسف (حق تكون حرصاً) أي ضعيف القوة (أو تكون من الهالكين) يقولون إن استمر بك هذا الحال خشيانا عليك الهلاك والتلف (قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله) أي أجابهم عما قالوا بقوله (إنما أشكو بثي وحزني) أي همي وما أنا فيه (إلى الله) وحده (وأعلم من الله ما لا تعلمون) أي أرجو منه كل خير ، وعن ابن عباس (وأعلم من الله ما لا تعلمون) يعني رؤيا يوسف أنها صدق وأن الله لا بد أن يظهرها ، وقال العوفي عنه في الآية أعلم أنه رؤيا يوسف صادقة وأنى سوف أسجد له . وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا يحيى بن عبد الملك بن أبي بحنة عن حفص بن عمر بن أبي الزبير عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كان يعقوب النبي عليه السلام أخ مؤاخ له فقال له ذات يوم ما الذي أذهب بصرك وقوس ظهرك ؟ قال أما الذي أذهب بصري فالبكاء على يوسف وأما الذي قوس ظهري فالحزن على بنيامين ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا يعقوب إن الله يقرئك السلام ويقول لك أما تستحي أن تشكوني إلى غيري ؟ فقال يعقوب إنما أشكو بثي وحزني إلى الله فقال جبريل عليه السلام الله أعلم بما تشكو » وهذا حديث غريب فيه نكارة :

﴿ يَدْنِيْ اُذْهَبُوْا فَتَحْسَبُوْا مِنْ يُّوسُفَ اَوْ اَخِيْهِ وَلَا تَاْيَسُوْا مِنْ رُّوْحِ اللّٰهِ اِنَّهٗ لَا يَآيَسُ مِنْ رُّوْحِ اللّٰهِ اِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُوْنَ ﴾ فَلَمَّا دَخَلُوْا عَلَيْهِ قَالُوْا يَا اَيُّهَا الْعَزِيْزُ مَسْنَا وَاَهْلُنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُّزَجَّةٍ قَاوُفٍ لَّنَا الْكَيْلُ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا اِنَّ اللّٰهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِيْنَ ﴿

يقول تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام إنه ندب بنيه على الذهاب في الأرض يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين والتجسس يكون في الخير والتجسس يكون في الشر ، ونهضهم وبشرهم وأمرهم أن لا يياسوا من روح الله أي لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه فإنه لا يقطع الرجاء ولا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون . وقوله (فلما دخلوا عليه) تقدير الكلام : فذهبوا فدخلوا مصر ودخلوا على يوسف (قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر) يعنون من الجذب والتحط وقلة الطعام (وجئنا ببضاعة مزججة) أي ومعنا من الطعام الذي نمتاره وهو ثمن قليل قاله مجاهد والحسن وغير واحد وقال ابن عباس الرديء لا ينفق مثل خلق الغرارة والحبل والشئ ، وفي رواية عنه الدراهم الرديئة التي لا تجوز إلا بنقصان وكذا قال قتادة والسدي وقال سعيد بن جبير هي الدراهم الفسول . وقال أبو صالح : هو الصنوبر وحبه الخضراء وقال الضحاك كاسدة لا تنفق وقال أبو صالح جاءوا بحب البطم الأخضر والصنوبر ، وأصل الإزجاء الدفع لضعف الشئ كما قال حاتم طي :

لييك على ملحان ضيف مدافع * وأرملة تزجي مع الليل أرملا

وقال أعشى بني ثعلبة الواهب المائة الهجان وعبيدها * عودا تزجي خلفها أطفالها

وقوله إخباراً عنهم (قأوف لنا الكيل) أي أعطينا بهذا الثمن القليل ما كنت نعطينا قبل ذلك وقرأ ابن مسعود فأقر ركابنا وتصديق علينا وقال ابن جريج وتصديق علينا برد أخينا إلينا وقال سعيد بن جبير السدي (وتصديق علينا) يقولون تصديق علينا بقبض هذه البضاعة المزججة وتجوز فيها وسئل سفيان بن عيينة عن حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبي ﷺ فقال ألم تسمع قوله (قأوف لنا الكيل وتصديق علينا) إن الله يجزي

(التصدقين) رواه ابن جرير عن الحارث عن القاسم عنه . وقال ابن جرير حدثنا الحارث حدثنا القاسم حدثنا مروان ابن معاوية عن عثمان بن الأسود سمعت مجاهدا وسئل هل يكره أن يقول الرجل في دعائه : اللهم تصدق على ؟ قال نعم إنما الصدقة لمن يتنقى الثواب

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُوا أَهَؤُلَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاتَاكَ اللَّهُ عِلْمًا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن يوسف عليه السلام أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجذب وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته وبدره البكاء فتعرف إليهم فيقال إنه رفع التاج عن جبهته وكان فيها شامة وقال (هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون) يعني كيف فرقوا بينه وبين أخيه (إذ أنتم جاهلون) أي إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه كما قال بعض السلف كل من عصى الله فهو جاهل وقرأ (ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة) الآية والظاهر والله أعلم أن يوسف عليه السلام إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له في ذلك كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك والله أعلم ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر فرج الله تعالى من ذلك الضيق كما قال تعالى (فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا) فعند ذلك قالوا (أنتك لأنت يوسف ؟) وقرأ أبي بن كعب (إنك لأنت يوسف) وقرأ ابن محيصن (أنت يوسف) والقراءة المشهورة هي الأولى لأن الاستفهام يدل على الاستعظام أي أنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر وهم لا يعرفونه وهو مع هذا يعرفهم ويكنم نفسه فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام (أنتك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى) . وقوله (قد من الله علينا) أي بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة (إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) قالوا تالله لقد آثرك الله علينا الآية يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخلق والخلق والسعة والملك والتصرف والنبوة أيضا على قول من لم يجعلهم أنبياء وأقروا له بأنهم أساءوا إليه وأخطأوا في حقه (قال لا تثريب عليكم اليوم) يقول أي لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم ولا أعيد عليكم ذنبكم في حق بعد اليوم ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال (يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) قال السدي اعتذروا إلى يوسف فقال (لا تثريب عليكم اليوم) يقول لا أذكر لكم ذنبكم وقال ابن إسحق والثوري (لا تثريب عليكم) أي لا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتم (يغفر الله لكم) أي يستر الله عليكم فيما فعلتم (وهو أرحم الراحمين)

﴿ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ * وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ * قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾

يقول اذهبوا بهذا القميص (فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا) وكان قد عسى من كثرة البكاء (وأتونى بأهلكم أجمعين) أي بجميع بني يعقوب (ولما فصلت العير) أي خرجت من مصر (قال أبوهم) يعني يعقوب عليه السلام لمن بقي عنده من بني (إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) تنسبونى إلى الفند والكبر . قال عبد الرزاق أنبأنا إسرائيل عن أبي سنان عن عبد الله بن أبي الهذيل قال سمعت ابن عباس يقول : ولما فصلت العير قال لما خرجت العير حاجت ريح فجاغت يعقوب بريح قميص يوسف فقال (إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) قال فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام وكذا رواه سفيان الثوري

وشعبة وغيرها عن أبي سنان به ، وقال الحسن وابن جريج كان بينهما ثمانون فرسخا وكان بينه وبينه منذ افتراقا ثمانون سنة وقوله (لولا أن تفندون) قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة وسعيد بن جبير تسفهون ، وقال مجاهد أيضا والحسن تهرمون وقولهم (إنك لفي ضلالك القديم) قال ابن عباس لفي خطئك القديم وقال قتادة أي من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه قالوا لو ألهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لو ألهم ولا لنبي الله ﷺ وكذا قال السدي وغيره .

﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بِصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قَالُوا يَٰ أَبَا بَنِيَّ اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

قال ابن عباس والضحاك (البشير) البريد ، وقال مجاهد والسدي كان يهوذا بن يعقوب قال السدي إنما جاء به لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب فأحب أن يغسل ذلك بهذا فجاء بالقميص فألفاه على وجه أبيه فرجع بصيرا وقال لبيته عند ذلك (ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون) أى أعلم أن الله سيرده إلى وقت لك (إنى لأجدر جريج يوسف لولا أن تفندون) فعند ذلك قالوا الأبيهم مترققين له (يا أبا بنانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) * قال سوف استغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم) أى من تاب إليه تاب عليه قال ابن مسعود وإبراهيم التيمي وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم أرجأهم إلى وقت السحر وقال ابن جرير حدثني أبو السائب حدثنا ابن إدريس سمعت عبد الرحمن بن إسحق يذكر عن محارب بن دثار قال كان عمر رضى الله عنه يأتى المسجد فيسمع إنسانا يقول : اللهم دعوتى فأجبت وأمرتنى فأطعت وهذا السحر فاغفر لى قال فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود فسأل عبد الله عن ذلك فقال إن يعقوب آخر بنيه إلى السحر بقوله (سوف استغفر لكم ربى) وقد ورد فى الحديث أن ذلك كان ليلة الجمعة كما قال ابن جرير أيضا حدثني الثنى حدثنا سليمان بن عبد الرحمن أبو أبواب الدمشقي حدثنا أبو الوليد أنبأنا ابن جريج عن عطاء وعكرمة عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ « (سوف استغفر لكم ربى) يقول حق تانى ليلة الجمعة وهو قول أخى يعقوب لبيته » وهذا غريب من هذا الوجه وفى رفعه نظروا الله أعلم

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَبَّابَتِ هَٰذَا تَوَلَّىٰ رُؤُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رَبِّي خَفًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام وقدمه بلاد مصر لما كان يوسف قد تقدم لإخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين فتحملوا عن آخرهم وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر فلما أخبر يوسف عليه السلام باقتراحهم خرج للفيهم وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقى نبي الله يعقوب عليه السلام ويقال إن الملك خرج أيضا للنقبة وهو الأشبه وقد أشكل قوله (آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر) على كثير من المفسرين فقال بعضهم هذا من التقديم والمؤخر ومعنى الكلام (وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) وآوى إليه أبويه ورفعهما على العرش ورد ابن جرير هذا وأحد فى ذلك ثم اختار ما حكاه عن السدي أن يوسف آوى إليه أبويه لما تلقاهما ثم لما وصلوا باب البلد قال (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) وفى هذا نظر أيضا لأن الإيواء إنما يكون فى المنزل كقوله (آوى إليه أخاه) وفى الحديث «من آوى محدثا» وما المانع أن يكون قال لهم بعد ما دخلوا عليه وآواهم إليه ادخلوا مصر وضعناه اسكنوا مصر إن شاء الله آمنين أى مما كنتم فيه من الجهد والقحط ويقال والله أعلم إن الله تعالى رفع عن أهل مصر بقية السنين المحذبة بركة قدوم يعقوب عليهم كما رفع بقية السنين التى دعا بها رسول الله ﷺ على أهل مكة حين قال « اللهم أعف عنيهم بسبع كسيع

يوسف « ثم لما تضرعوا إليه واستشفعوا لديه وأرسلوا أباسفيان في ذلك فدعا لهم فرفع عنهم بقية ذلك ببركة دعائه عليه السلام وقوله (آوى إليه أبويه) قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم إنما كان أباه وخالته وكانت أمه قد ماتت قدما ، وقال محمد بن إسحق وابن جرير كان أبوه وأمه يعيشان قال ابن جرير ولم يسم دليل على موته أمه ، وظاهر القرآن يدل على حياتها وهذا الذي نصره هو المنصور الذي يدل عليه السياق وقوله (ورفع أبويه على العرش) قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد يعنى السريير أى أحلسهما معه على سريره (وخرأ له سجداً) أى سجد له أبواه وإخوته الباؤون وكانوا أحد عشر رجلاً (وقال يا أبت هذاتأويل رؤياي من قبل) أى التى كان قصصها على أبيه من قبل (إنى رأيت أحد عشر كوكباً) الآية وقد كان هذاسائعا في شرايعهم إذاساموا على الكبير يسجدون له ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام فحرم هذا في هذه الملة وجعل السجود مخصصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى هذا مضمون قول قتادة وغيره ، وفي الحديث أن معاداً قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال « ما هذا يا معاذ ؟ » فقال إنى رأيهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله فقال « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقها عليها » وفي حديث آخر : أن سلمان لقي النبي صلى الله عليه وسلم في بعض طرق المدينة وكان سلمان حديث عهد بالاسلام فسجد للنبي صلى الله عليه وسلم فقال « لا تسجدلى يا سلمان واسجد للحى الذى لا يموت » والغرض أن هذا كان حائراً في شريعتهم ولهذا خروا له سجداً فعندها قال يوسف (يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل فاجعلها ربي حقاً) أى هذا ما آل إليه الأمر فان التأويل يطلق على ما يصير اليه الأمر كما قال تعالى (هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله) أى يوم القيامة يأتهم ما وعدوا به من خير وشر وفوله (قد جعلها ربي حقاً) أى صحيحة صدقاً يذكر نعم الله عليه (وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو) أى البادية قال ابن جرير وغيره كانوا أهل بادية وماشية ، وقال كانوا يسكنون بالعربات من أرض فلسطين من غور الشام ، قال وبعض يقول كانوا بالأولاج من ناحية شعب أسفل من حسمى وكانوا أصحاب بادية وشاء وإبل ، (من بعد أن نزع الشيطان بينى وبين إخوتى إن ربي لطيف لما يشاء) أى إذا أراد أمراً قضاه أسباباً وقدره ويسره (إنه هو العالم) بمصالح عبادته (الحكيم) فى أقواله وأفعاله وقضائه وقدره وما يختاره ويريد ، قال أبو عثمان الهذلى عن سليمان كان بين رؤيا يوسف ونأويلها أربعون سنة قال عبد الله بن شداد وإلها ينهى أقصى الرؤيا رواه ابن جرير وقال أيضاً حدثنا عمر بن علي حدثنا عبد الوهاب الثقفى حدثنا هشام عن الحسن قال كان مند فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيأثمانون سنة لم يمارق الحزن قلبه ودموعه تجرى على حديه وما على وجه الأرض عبد أحب الى الله من يعقوب ، وقال هشيم عن نونس عن الحسن ثلاث وثمانون سنة ، وقال مبارك بن فضالة عن الحسن ألقى يوسف فى الحب وهو ابن سبع عشرة سنة فغاب عن أبيه ثمانين سنة وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة ثم مات وله عشرون ومائة سنة وقال قتادة كان بينهما خمس وثلاثون سنة وقال محمد بن إسحق : ذكر والله أعلم ان غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثمانى عشرة سنة ، قال وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين سنة أو نحوها ، وأن يعقوب عليه السلام بقى مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة ثم قبضه الله إليه . وقال أبو اسحق السبيعى عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال : دخل بنو إسرائيل مصر وهم ثلاثة (١) وستون إنساناً وخرجوا منها وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً ، وقال أبو اسحق عن مسروق دخلوا وهم ثلثمائة وتسعون بين رجل وامرأة فأنه أعلم . وقال موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب الفرطى عن عبد الله بن شداد اجتمع آل يعقوب الى يوسف بمصر وهم ستة وثمانون إنساناً صغرىهم وكبرىهم ، وذكرهم وأثناهم وخرجوا منها وهم ستمائة ألف ونيف .

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

هذا دعاء من يوسف الصديق دعا به ربه عز وجل لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته وما من الله به عليه من النبوة والملك، سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة وأن يتوفاه مسامحا حين يتوفاه قاله الضحاك، وأن يلحقه بال صالحين وهم إخوانه من النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف عليه السلام قاله عند احتضاره كما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول « اللهم في الرفيق الأعلى » ثلاثا ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللاحق بال صالحين إذا جاء أجله وانقضى عمره ، لا أنه سأل ذلك منجزاً كما يقول الداعي لغيره أمانك الله على الإسلام ، ويقول الداعي اللهم أحيينا مسلمين وتوفنا مسلمين وألحقنا بال صالحين ، ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً وكان ذلك سائفاً في ملتهم كما قال قتادة قوله (توفي مسلماً وألحقني بال صالحين) لما جمع الله شمله وأقر عينه وهو يومئذ مغفور في الدنيا وملكها ونغارتها اشتاق إلى الصالحين قبله ، وكان ابن عباس يقول ما معني نبي قط الموت قبل يوسف عليه السلام ، وكذا ذكر ابن جرير والسدي عن ابن عباس أنه أول نبي دعا بذلك وهذا يحتمل أنه أول من سأل الوفاة على الإسلام كما أن نوحاً أول من قال (رب اغفر لي ولوالدي وللمن دخل بيتي مؤمناً) ويحتمل أنه أول من سأل إنجاز ذلك وهو ظاهر سياق قول قتادة ، ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا ، قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، فإن كان ولا بد متمنياً الموت فليقل اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي » وأخرجاه في الصحيحين ، وعندهما « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به إما محسناً فيزداد ، وإما مسيئاً فلعله يستعقب ، ولكن ليقل اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي » وقال الإمام أحمد حدثنا أبو النعمان حدثنا معاذ بن رفاعة حدثني علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة قال : جلسنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ورقنا فبكى سعد بن أبي وقاص فأكثر البكاء وقال باليتي مت ، فقال النبي ﷺ « ياسعد أعندى تتمنى الموت ؟ » فردد ذلك ثلاث مرات ثم قال « ياسعد إن كنت حلفت للجنة فمأطال من عمرك وحسن من عملك فهو خير لك » وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لميعة حدثنا أبو يونس هو مسلم بن جبير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ولا يدع به من قبل أن يأتيه إلا أن يكون قد وثق بعمله ، فإنه إذا مات أحدكم انقطع عنه عمله وإنه لا يزيد المؤمن عمله إلا خيراً » تفرد به أحمد ، وهذا فيما إذا كان الضر خاصاً به ، وأما إذا كان فتنة في الدين فيجوز سؤال الموت كما قال الله تعالى إخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهديمهم بالقتل (قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين) وقالت مريم لما أجاها المخاض وهو الطلق إلى جذع النخلة (ياليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً) لما علمت من أن الناس يقذفونها بالفاحشة لأنها لم تكن ذات زوج وقد حملت ووضعت وقد قالوا (يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً) فجعل الله لها من ذلك الحال فرجاً ومخرجاً وأنطق الصبي في المهد بأنه عبد الله ورسوله فكان آية عظيمة ومعجزة باهرة صلوات الله وسلامه عليه . وفي حديث معاذ الذي رواه الإمام أحمد والترمذي في قصة المنام والدعاء الذي فيه « وإذا أردت بموم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون »

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو سلمة أنا عبد العزيز بن محمد عن عمرو بن عاصم عن كثير بن قتادة عن محمود بن لبيد مرفوعاً أن النبي ﷺ قال « اثنتان يكرههما ابن آدم : يكره الموت والموت خير للمؤمن من الفتن ، ويكره قلة المال وقلة المال أقل للحساب » فعند حلول الفتن في الدين يجوز سؤال الموت ، ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر خلافته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له ولا يزداد الأمر إلا شدة فقال : اللهم خذني إليك فقد سئمتهم وسموني . وقال البخاري رحمه الله لما وقعت له تلك الفتنة وجري له مع أمير خراسان ما جرى قال : اللهم توفني إليك وفي الحديث « إن الرجل ليرى القدر - أي في زمان الدجال - فيقول ياليتني مكانك » لما يرى من الفتن والزلازل

والبلابل والأمور الهائلة التي هي فتنة لكل مفتون . قال أبو جعفر بن جرير: وذكر أن بني يعقوب الدين فعلوا يوسف ما فعلوا استغفروا لهم أبوهم فتاب الله عليهم وعفا عنهم وغفر لهم ذنوبهم

(ذكر من قال ذلك)

حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثني حجاج عن صالح المري عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال إن الله تعالى لما جمع ليعقوب شمله بعينه خلا ولده نجيا فقال بعضهم لبعض ألسن قد علمتم ما صنعتم وما لقي منكم الشيخ وما لقي منكم يوسف ؟ قالوا بلى ، قال فيغركم عفوها عنكم فكيف لكم بربكم ؟ فاستقام أمرهم على أن أتوا الشيخ فجلسوا بين يديه ويوسف إلى جنب أبيه قاعد قالوا يا أبانا إنا أتيناك لأمر لم نأتك لأمر مثله قط ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله قط حتى حركوه والأنبياء عليهم السلام أرحم البرية فقال ما لكم يا بني ؟ قالوا ألسن قد علمت ما كان منا إليك وما كان منا إلى أخينا يوسف ، قال بلى ، قالوا أو لستما قد غفرتما لنا ؟ قالوا بلى ، قالوا فان عفوك لا يعني عنا شيئا إن كان الله لم يعف عنا ، قال فما تريدون يا بني ؟ قالوا نريد أن تدعو الله لنا ، فإذا جاءك الوحي من الله بأنه قد عفا عما قرأت أعيننا واطمأنت قلوبنا وإلا فلا قررة عين في الدنيا لنا أبداً ، قال فقام الشيخ فاستقبل القبلة وقام يوسف خلف أبيه وقاموا خلفهما أذلة خاشعين ، قال فدعا وأمن يوسف فلم يجب فيهم عشرين سنة ، قال صالح المري يخفيهم قال حتى إذا كان على رأس العشرين نزل جبريل عليه السلام على يعقوب عليه السلام فقال إن الله تعالى قد بعثنى إليك أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك في ولدك وأن الله تعالى قد عفا عما صنعوا وأنه قد اعتقد موافقهم من بعدك على النبوة . هذا الأثر موقوف عن أنس . ويزيد الرقاشي وصالح المري ضعيفان جداً ، وذكر السدي أن يعقوب عليه السلام لما حضره الموت أوصى إلى يوسف بأن يدفن عند إبراهيم وإسحق ، فلما مات صبره وأرسله إلى الشام فدفن عندهما عليهم السلام .

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ * وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ * وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾

يقول تعالى لمحمد ﷺ لما قص عليه نبأ إخوة يوسف وكيف رفعه الله عليهم وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والاعدام هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة (نوحية إليك) ونعلمك به يا محمد لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك (وما كنت لديهم) حاضرا عندهم ولا مشاهدا لهم (إذ أجمعوا أمرهم) أي على إلقائه في الجب (وهم يمكرون) به ، ولكننا أعلمناك به وحيا إليك وإنزالا عليك كقوله (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم) الآية وقال تعالى (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر) الآية إلى قوله (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) الآية ، وقال (وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا) الآية وقال (ما كان لي من علم بالملاء الأعلى إذ يختصمون * إن يوحى إلا أنما أنا نذير مبين) يقول تعالى إنه رسوله وإنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم ودنياهم ومع هذا ما آمن أكثر الناس ولهذا قال (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وقال (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) كقوله (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) إلى غير ذلك من الآيات وقوله (وما تسألهم عليه من أجر) أي ما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر أي من جمالة ولا أجرة بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصحا لخلق الله (إن هو إلا ذكر للعالمين) أي يتذكرون به ويهتدون وينجون به في الدنيا والآخرة

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ * أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

نخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التذكر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت ، وسيارات وأفلاك دائرات . والجميع مسخرات ، وكم في الأرض من قطع متجاورات ، وحدائق وجنات ، وجبال راسيات . وبحار زاخرات ، وأمواج متلاطحات ، وقفار شاسعات ، وكم من أحياء وأموات ، وحيوان ونبات ، وثمرات متشابهة ومختلفات في الطعوم والروائح والألوان والصفات فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات ، المتفرد بالدوام والبقاء والصفدية للأسماء والصفات ، وغير ذلك

وقوله (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) قال ابن عباس : من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم : من خلق السموات ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال ؟ قالوا الله وهم مشركون به . وكذا قال مجاهد وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وفي الصحيحين : أن المشركين كانوا يقولون في تليبتهم : ليك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك ، وفي صحيح مسلم أنهم كانوا إذا قالوا ليك لا شريك لك قال رسول الله ﷺ « قد قد » أى حسب حسب لا تزيدوا على هذا ، وقال الله تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) وهذا هو الشرك الأعظم يعبد مع الله غيره كما في الصحيحين عن ابن مسعود قلت يا رسول الله : أى الذنب أعظم ؟ قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » وقال الحسن البصري في قوله (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) قال ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس وهو مشرك بعمله ذلك يعنى قوله تعالى (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا) وثم شرك آخر خفي لا يشعر به غالبا فاعله كما روى حماد بن سلمة عن عاصم بن أبى النجود عن عروة قال : دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سيرا فقطعه — أو انزعه — ثم قال (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) وفي الحديث « من حلف بغير الله فقد أشرك » رواه الترمذى وحسنه من رواية ابن عمر ، وفي الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرقى والتائم والتولة شرك » وفي لفظ لهما « الطيرة شرك وما منا إلا ولكن الله يذهب بالتوكل » ورواه الإمام أحمد بأبسط من هذا فقال حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن يحيى الجزار عن ابن أخى زينب عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فاتته إلى الباب تنحنح وبرق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه قالت وإنه جاء ذات يوم فتحنح وعندى عجوز ترقينى من الحجرة فأدخلتها تحت السرير ، قالت فدحل فجلس إلى جانبي فرأى في عنقي خيطا فقال : ما هذا الخيط ؟ قالت : قلت خيط رقى لي فيه فأخذه فقطعه ثم قال إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الرقى والتائم والتولة شرك » قالت : قلت له لم تقول هذا وقد كانت عيني تقذف فكنت أختلف إلى فلان اليهودى يرقها فكان إذا رقاها سكنت ، فقال إنما ذاك من الشيطان كان ينخسها بيده فإذا رقاها كف عنها إنما كان يكفيك أن تقولى كما قال النبي ﷺ « أذهب الباس ، رب الناس ، اشف وأنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما » وفي حديث آخر رواه الإمام أحمد عن وكيع عن ابن أبي ليلى عن عيسى بن عبد الرحمن قال دخلت على عبد الله بن عكيم وهو مريض نعوذه فقيل له لو تعلقت شيئا ، فقال أتعلق شيئا وقد قال رسول الله ﷺ « من تعلق شيئا وكل إليه » ورواه النسائي عن أبي هريرة . وفي مسند الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ « من علق تيممة فقد أشرك » وفي رواية « من تعلق تيممة فلا أتم الله له ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له » وعن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه » رواه مسلم . وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادى مناد من كان أشرك في عمل عمله فليطلب ثوابه من عند غير الله فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » رواه الإمام أحمد . وقال أحمد حدثنا يونس حدثنا ليث عن زيد يعنى ابن الهاد عن عمرو عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ

قال «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال «الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جاز الناس بأعمالهم اذهبوا إلى الدين كتمت تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟» وقد رواه إسماعيل بن جعفر عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب عن عاصم بن عمرو عن قتادة عن محمود بن لبيد به، وقال الإمام أحمد حدثنا حسن أنبأنا ابن لهيعة أنبأنا ابن هبيرة عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ «من ردتبه الطيرة عن حاجته فقد أشرك» قالوا يا رسول الله ما كفارة ذلك؟ قال «أن يقول أحدهم اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك» وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان العرزمي عن أبي علي رجل من بني كاهل قال: خطبنا أبو موسى الأشعري فقال: يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من ديب النمل. فقام عبد الله بن حرب وقيس بن المضارب فقالا والله لتخرجن مما قلت أو لنأتين عمر مأذونا لنا أو غير مأذون قال بل أخرج مما قلت خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال «يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من ديب النمل» فقال له من شاء الله أن يقول فكيف تنقيه وهو أخفى من ديب النمل يا رسول الله؟ قال «قولوا اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفر لك لما لا نعلمه» وقد روى من وجه آخر وفيه أن السائل في ذلك هو الصديق كما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي من حديث عبد العزيز بن مسلم عن ليث بن أبي سليم عن أبي محمد عن معقل بن يسار قال شهدت النبي ﷺ أو قال حدثني أبو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ أنه قال «الشرك أخفى فيكم من ديب النمل» فقال أبو بكر وهل الشرك إلا من دعا مع الله إله آخر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الشرك فيكم أخفى من ديب النمل» ثم قال «ألا أدلك على ما يذهب عنك صغير ذلك وكبيره؟ قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفر لك مما لا أعلم» وقد رواه الحافظ أبو القاسم البغوي عن شيخان بن فروخ عن يحيى بن كثير عن الثوري عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر الصديق قال: قال رسول الله ﷺ «الشرك أخفى في أمق من ديب النمل على الصفا» قال: فقال أبو بكر يا رسول الله فكيف النجاة والمخرج من ذلك؟ فقال «ألا أخبرك بشيء إذا قلته برئت من قليله وكثيره وصغيره وكبيره؟» قال بلى يا رسول الله قال: «قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفر لك لما لا أعلم» قال الدارقطني يحيى بن أبي كثير هذا يقال له أبو النضر متروك الحديث، وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي من حديث يعلى بن عطاء سمعت عمرو بن عاص سمعت أبا هريرة قال: قال أبو بكر الصديق يا رسول الله علمني شيئا أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعي قال «قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه» ورواه أبو داود والنسائي وصححه، وزاد الإمام أحمد في رواية له من حديث ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن أبي بكر الصديق قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أقول - فذكر هذا الدعاء وزاد في آخره - «وأن أقترف على نفسي سوءا أو أجره إلى مسلم». وقوله (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله) الآية: أي أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون كقوله تعالى (أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون * أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين * أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم) وقوله (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون * أو آمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون * أفأمنوا مكر الله؟ فلا يأتين مكر الله إلا القوم الخاسرون)

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم إلى الثقلين الإنس والجن أمراً له أن يخبر الناس أن هذه سبيله أى طريقته ومسلكه وسنته وهى الدعوة الى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين

وبرهان هو وكل من اتبعه يدعو إلى مادعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي ؛ وقوله (وسبحان الله) أى وأتزه الله وأجله وأعظمه وأقدسه عن أن يكون له شريك أونظير أوعديل أونديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير تبارك وتقدس وتنزه وتعالى عن ذلك كله علوا كبيرا (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا)

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسوله من الرجال لا من النساء وهذا قول جمهور العلماء كادل عليه سياق هذه الآية الكريمة أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بنى آدم وحي تشريع. وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل وأم موسى ومريم بنت عمران أم عيسى نبيات واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب وبقوله (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) الآية وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى عليه السلام وبقوله تعالى (إذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرتك واصطفاك على نساء العالمين * يامريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين) وهذا القدر حاصل لمن ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك ، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف فهذا لا شك فيه ويبقى الكلام معه في أن هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرد أم لا ؟ الذى عليه أهل السنة والجماعة وهو الذى نقله الشيخ أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعري عنهم أنه ليس في النساء نبية وإنما فيهن صدقات كما قال تعالى مخبرا عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال تعالى (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام) فوصفها في أشرف مقاماتها بالصدقية فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والاعظام فهي صديقة بنص القرآن . وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا) الآية أى ليسوا من أهل السماء كما قلتم وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق) الآية وقوله تعالى (وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين * ثم صدقناهم الوعد فأتجنيهاهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين) وقوله تعالى (قل ما كنت بدعا من الرسل) الآية وقوله (من أهل القرى) المراد بالقرى المدن لأنهم من أهل البوادي الذين هم من أجنى الناس طباعا وأخلاقا وهذا هو اليهود المعروف أن أهل المدن أرق طباعا وأطعم من أهل بوادهم وأهل الريف والسواد أقرب حالا من الذين يسكنون في البوادي ولهذا قال تعالى (الأعراب أشد كفرا ونفاقا) الآية وقال قتادة في قوله (من أهل القرى) لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمود ، وفي الحديث الآخر أن رجلا من الأعراب أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ناقة فلم يزل يعطيه ويزيده حتى رضى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد هممت أن لا أنهب هبة إلا من قرشى أو أنصارى أو ثقيفى أو دوسى»

وقال الإمام أحمد حدثنا حجاج حدثنا شعبة عن الأعمش عن يحيى بن وثاب عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ قال قال الأعمش هو عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم» وقوله (أفلم يسبروا في الأرض) يعنى هؤلاء المكذبين لك يا محمد في الأرض (فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) أى من الأمم المكذبة للرسول كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها كقوله (أفلم يسبروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) الآية فإذا استمعوا خبر ذلك رأوا أن الله قد أهلك الكافرين وبجى المؤمنين وهذه كانت سنته تعالى في خلقه ولهذا قال تعالى (ولدار الآخرة خير للذين اتقوا) أى وكما نجينا المؤمنين في الدنيا كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة وهى خير لهم من الدنيا بكثير كقوله (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) وأضاف الدار إلى الآخرة فقال (ولدار الآخرة)

كما يقال صلاة الأولى ومسجد الجامع وعام أول وبارحة الأولى ويوم الخميس . قال الشاعر :

أتمح فقمسا وتدم عبسا * ألا لله أمك من هجين * ولو أقوت عليك ديار عبس * عرفت الدل عرفان اليقين
(حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنْ

الْقَوْمِ الْمَجرِمِينَ ﴿

يذكر تعالى أن نصره ينزل على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله في أحوج الأوقات إليه كقوله تعالى (وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) الآية وفي قوله (كذبوا) قراءتان إحداهما بالتشديد قد كذبوا ، وكذلك كانت عائشة رضى الله عنها تقرؤها ، قال البخارى حدثنا عبد العزيز ابن عبد الله حدثنا إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب قال أخبرني عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى (حتى إذا استيسر الرسل) قال قلت أ كذبوا أم كذبوا ؟ قالت عائشة كذبوا قلت فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم فما هو بالظن ؟ قالت أجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك فقلت لها (وظنوا أنهم قد كذبوا ؟ قالت معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك برها) قلت فما هذه الآية ؟ قالت هم أتباع الرسل الذين آمنوا برهم وصدقوهم فطال عليهم البلاء واستأخروهم النصر (حتى إذا استيسر الرسل) ممن كذبهم من قومهم وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك حدثنا أبو اليمان أن أناسا من الزهري قال أخبرنا عروة فقات لها لعلها قد كذبوا مخففة ؟ قالت معاذ الله . انتهى ما ذكره ، وقال ابن جريج أخبرني ابن أبي مليكة أن ابن عباس قرأها (وظنوا أنهم قد كذبوا) خفيفة قال عبد الله هو ابن أبي مليكة ثم قال لي ابن عباس كانوا بشرأ ثم تلا (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) قال ابن جريج وقال لي ابن أبي مليكة وأخبرني عروة عن عائشة أنها خالفت ذلك وأبته وقالت ما وعد الله محمدًا ﷺ من شيء إلا قد علم أنه سيكون حتى مات ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبوهم . قال ابن أبي مليكة في حديث عروة كانت عائشة تقرؤها (وظنوا أنهم قد كذبوا) مثقلة من التكذيب وقال ابن أبي حاتم أنا يونس ابن عبد الأعلى قراءة أنا ابن وهب أخبرني سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد قال : جاء إنسان إلى القاسم بن محمد فقال إن محمد بن كعب القرظي قرأ هذه الآية (حتى إذا استيسر الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا) فقال القاسم أخبره عنى أنى سمعت عائشة زوج النبي ﷺ تقول (حتى إذا استيسر الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا) تقول كذبهم أتباعهم . إسناده صحيح أيضا . والقراءة الثانية بالتخفيف ، واختلفوا في تفسيرها فقال ابن عباس ما تقدم ، وعن ابن مسعود فيما رواه سفيان الثوري عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله أنه قرأ (حتى إذا استيسر الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا) مخففة قال عبد الله هو الذي تكره وهذا عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما مخالف لما رواه آخرون عنهما . أما ابن عباس فروى الأعمش عن مسلم عن ابن عباس في قوله (حتى إذا استيسر الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا) قال لما أيسر الرسل أن يستجيب لهم قومهم وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم جاءهم النصر على ذلك (فنجى من نشاء) وكذا روى عن سعيد بن جبير وعمران بن الحارث السلمي وعبد الرحمن بن معاوية وعلى بن أبي طلحة والعمري عن ابن عباس بمثله وقال ابن جريج حدثني الثوري حدثنا عازم أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد حدثنا شعيب حدثنا إبراهيم بن أبي حمزة الجوزي قال : سألت فتي من قرشي سعيد بن جبير قال أخبرنا أبا عبد الله كيف هذا الحرف فاني إذا أتيت عليه تمنيت أن لا أقرأ هذه السورة (حتى إذا استيسر الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا) قال نعم حتى إذا استيسر الرسل من قومهم أن يصدقوهم وظن الرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا ، فقال الضحاك بن مزاحم ما رأيت كاليوم قط رجلا يدعى إلى علم فيتركه لورحلت إلى اليمن في هذه كان قليلا ، ثم روى ابن جريج أيضا من وجه آخر أن مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبير عن ذلك فأجابته بهذا الجواب فقام إلى سعيد فاعتقه وقال فرج الله عنك كما فرجت عنى وهكذا روى من غير وجه عن سعيد بن جبير أنه فسرهما كذلك وكذا فسرهما مجاهد بن جبر وغير واحد من السلف حتى إن مجاهدا قرأها (وظنوا أنهم قد كذبوا

بفتح الدال . رواه ابن جرير إلا أن بعض من فسرهما كذلك يعيد الضمير في قوله (وظنوا أنهم قد كذبوا) إلى أتباع الرسل من المؤمنين ومنهم من يعيده إلى الكافرين منهم أى وظن الكفار أن الرسل قد كذبوا مخفية فيما وعدوا به من النصر ، وأما ابن مسعود فقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا محمد بن فضيل عن حمش^(١) بن زياد الضبي عن عيم بن حزم^(٢) قال سمعت عبدا لله بن مسعود يقول في هذه الآية (حق إذا استأس الرسل) من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا بالضعيف . فهاتان الروايتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس وقد أنكرت ذلك عائشة على من فسرهما بذلك وانتصر لها ابن جرير ووجه المشهور عن الجمهور وزيف القول الآخر بالكيفية ورده وأباه ولم يقبله ولا ارتضاه والله أعلم

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى لقد كان في خبر الرسلين مع قومهم وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين (عبرة لأولي الألباب وهي العقول (ما كان حديثاً يفترى) أى وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله ، أى يكذب ويخترق (ولكن تصديق الذي بين يديه) أى من الكتب المنزلة من السماء هو يصدق ما فيها من الصحيح وينفى ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير (وتفصيل كل شيء) من تحليل وتحريم ومحجوب ومكروه وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات والإخبار عن الأمور الجليلة وعن الغيوب المستقبلة الجملة والتفصيلية والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات وتنزهه عن مائلة الخلوقات فلهذا كان (هدى ورحمة لقوم يؤمنون) تهتدى به قلوبهم من النقى إلى الرشاد ، ومن الضلال إلى السداد ، ويتنعمون به الرحمة من رب العباد في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد ، فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة ، يوم يفوز بالرجح المبيضة وجوههم الناضرة ، ويرجع المسودة وجوههم بالصفقة الخاسرة . آخر تفسير سورة يوسف عليه السلام والله الحمد والمنة وبه المستعان

﴿ تفسير سورة الرعد وهي مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الْمَرَّةَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم في أول سورة البقرة وقدمنا أن كل سورة ابتدئت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب ولهذا قال (تلك آيات الكتاب) أى هذه آيات الكتاب وهو القرآن وقيل التوراة والإنجيل قاله مجاهد وقتادة وفيه نظر بل هو بعيد ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال (والذى أنزل إليك) أى يا محمد (من ربك الحق) خبر تقدم مبتدؤه وهو قوله (والذى أنزل إليك من ربك) هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة واختار ابن جرير أن تكون الواو زائدة أو عاطفة صفة على صفة كما قدمنا ، واستشهد بقول الشاعر : إلى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتيبة في المزدحم وقوله (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) كقوله (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) أى مع هذا البيان والجلال والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق ، والعناد والنفاق .

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي فِي أَمْرِ اللَّهِ فِي نَسْخَةِ ابْنِ جَرِير جَحْش (٢) فِي النُّسخَةِ الْمَكِّيَّةِ جَامِعَةً فِي نَسْخَةِ ابْنِ جَرِير حُزْمٌ بِالذَّالِ وَالصَّوَابُ الَّذِي فِي التَّقْرِيبِ أَنَّهُ حُزْمٌ بِالزَّايِ الْمُعْجَمَةِ .

لِأَجْلِ مَسْمَى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿١٠٠﴾

نخبر تعالى عن كمال قدرته وعظم سلطانه أنه الذى يؤذنه وأمره رفع السموات بغير عمد بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بعدا لاتتال ولا يدرك مداها ، فالسما الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها مرتفعة عليها من كل جانب على السواء وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام وسبكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام ، ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت وبينهما من بعد المسير خمسمائة عام وسبكها خمسمائة عام وهكذا الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة كما قال تعالى (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) الآية . وفى الحديث « ما السموات السبع وما فيهن وما بينهما فى الكرى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة والكرسى فى العرش المجيد كذلك الحلقة فى تلك الفلاة » وفى رواية « والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل » وجاء عن بعض السلف أن بعد ما بين العرش إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة وبعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة وهو من ياقوتة حمراء . وقوله (بغير عمد ترونها) روى عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد أنهم قالوا لها عمد ولكن لا ترى ، وقال إياس بن معاوية السماء على الأرض مثل القبة يعنى بلا عمد وكذا روى عن قتادة وهذا هو اللائق بالسياق ، والظاهر من قوله تعالى (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) فعلى هذا يكون قوله (ترونها) تأكيداً لنفى ذلك أى هى مرفوعة بغير عمد كما ترونها وهذا هو الأكل فى القدرة ، وفى شعر أمية ابن أبى الصلت الذى آمن شعره وكفر قلبه كما ورد فى الحديث ، ويروى لزيد بن عمرو بن نفيل رضى الله عنه

وأنت الذى من فضل من ورحة * بعثت إلى موسى رسولا مناديا * فقلت له فاذهب وهرون فادعوا إلى الله فرعون الذى كان طاغيا * وقولا له هل أنت سويت هذه * بلا وتد حتى استقلت كما هيا وقولا له آنت رفعت هذه * بلا عمد أو فوق ذلك بانيا ؟ * وقولا له هل أنت سويت وسطها منيرا إذا ما جئك الليل هاديا * وقولا له من يرسل الشمس غدوة * فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا وقولا له من أنبت الحب فى الثرى * فيصبح منه العشب يهتز رايا ويخرج منه حبه فى رءوسه * ففى ذاك آيات لمن كان واعيا

وقوله تعالى (ثم استوى على العرش) تقدم تفسيره فى سورة الأعراف وأنه يمر كما جاء من غير تكيف ولا تشبيه ولا تعطيل ، ولا تمثيل ، تعالى الله علوا كبيرا . وقوله (وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى) قيل المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة كقوله تعالى (والشمس تجري لمستقر لها) وقيل المراد إلى مستقرها وهو تحت العرش مما يلي بطن الأرض من الجانب الآخر فأنهما وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك يكونون أبعد ما يكون عن العرش لأنه على الصحيح الذى تقوم عليه الأدلة قبة مما يلي العالم من هذا الوجه وليس بمحيط كسائر الأفلاك لأن له قوائم وحملته يحملونه ، ولا يتصور هذا فى الفلك المستدير وهذا واضح لمن تدبر ما وردت به الآيات والأحاديث الصحيحة والله الحمد والمنة . وذكر الشمس والقمر لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة التى هى أشرف وأعظم من الثوابت فاذا كان قد سخر هذه فلائن يدخل فى التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأحرى كما نبه بقوله تعالى (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) مع أنه قد صرح بذلك بقوله (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألاله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) ، وقوله (يفصل الآيات لعلكم بقاء ربكم توقنون) أى يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه .

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُفِئِشِ اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وفى الأرض قطع متجورات وجنت من أعناب

وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسَمَّى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى الْآخَرِ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَتَّبِعُ الْقَوْمَ يَعْقِلُونَ ﴿

لما ذكر تعالى العالم العلوى شرع في ذكر قدرته وحكمته وأحكامه للعالم السفلى فقال (وهو الذى مد الأرض) أى جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض وأرسلها بجبال راسيات شامخات وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون ليسقى ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح (من كل زوجين اثنين) أى من كل شكل صنفان (يفشى الليل النهار) أى جعل كلا منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا فاذا ذهب هذا غشيه هذا واذا انقضى هذا جاء الآخر فيتصرف أيضا في الزمان كما يتصرف في المكان والسكان (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) أى في آلاء الله وحكمه ودلائله . وقوله (وفي الأرض قطع متجاورات) أى أراض يحاور بعضها بعضا مع أن هذه طيبة تنبت ما ينفع الناس وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئا . هكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغير واحد ، ويدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض فهذه تربة حمراء وهذه بيضاء وهذه صفراء وهذه سوداء وهذه محجرة وهذه سهلة وهذه مرملة وهذه سميكة وهذه رقيقة والكل متجاورات فهذه بصفتهن وهذه بصفتهن الأخرى فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار لا إله إلا هو ولا رب سواه ، وقوله (وجنات من أعناب وزرع ونخيل) يحتمل أن تكون عاطفة على جنات فيكون (وزرع ونخيل) مرفوعين . ويحتمل أن يكون معطوفا على أعناب فيكون مجرورا ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة . وقوله (صنوان وغير صنوان) الصنوان هو الأصول المجتمعة في منبت واحد كالرمان والتين وبعض النخيل ونحو ذلك ، وغير الصنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار ومنه سمى عم الرجل صنو أبيه كما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لعمر «أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه» وقال سفيان الثوري وشعبة عن أبي إسحق عن البراء رضى الله عنه : الصنوان هي النخلات في أصل واحد وغير الصنوان المنفرقات . وقاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد . وقوله (تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل) قال الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ (ونفضل بعضها على بعض في الأكل) قال «الدقل والفارسي والحلو والحامض» رواه الترمذي وقال حسن غريب أى هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزرع في أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها وأوراقها وأزهارها فهذا في غاية الحلاوة وهذا في غاية الحوضنة وهذا في غاية المرارة وهذا عذب وهذا عذب وهذا جمع هذا وهذا ثم يستحيل إلى طعم آخر باذن الله تعالى ، وهذا أصفر وهذا أحمر وهذا أبيض وهذا أسود وهذا أزرق ، وكذلك الزهورات مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء مع هذا الاختلاف الكثير الذى لا ينحصر ولا ينضب ، ففي ذلك آيات لمن كان واعيا ، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار الذى بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد ولهذا قال تعالى (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون)

﴿ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبُ قَوْلِهِمْ أَذًا كُنَّا تُرَابًا أَفَلَا نَفِي خَلَقِ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنُقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ (وإن تعجب) من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلائله في خلقه على أنه القادر على ما يشاء ومع ما يعترفون به من أنه ابتداء خلق الأشياء فكونها بعد أن لم تكن شيئا مذكورا ثم هم بعد هذا يكذبون خبره في أنه سيعيد العالم خلقا جديدا وقد اعترفوا وشاهدوا ماهو أعجب مما كذبوا به فالعجب من قولهم (أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد) وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، وأن من بدأ الخلق فالإعادة عليه أسهل كما قال تعالى (أولم يروا أن الله الذى

خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شيء قدير) ثم نعت المكذبين بهذا فقال (أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم) أى يسبحون بها في النار (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أى ما كثون فيها أبدا لا يحولون عنها ولا يزولون .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

يقول تعالى (ويستعجلونك) أى هؤلاء المكذبون (بالسبيئة قبل الحسنة) أى بالعقوبة كما أخبر عنهم في قوله (وقالوا يا أيها الذى أنزل عليه الذكر إنك لمجنون ، لو ما تأتينا بالملأكة إن كنت من الصادقين ، ما نزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين) وقال تعالى (ويستعجلونك بالعذاب) الآيتين وقال تعالى (سأل سائل بعذاب واقع) وقال (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق) (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا) الآية أى عقابنا وحسابنا كما قال مخبرا عنهم (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك) الآية فكانوا من شدة تكذيبهم وعنادهم وكفرهم يطلبون أن يأتهم بعذاب الله قال الله تعالى (وقد خلت من قبلهم الثلاث) أى قد أوقعنا نعمنا بالأثم الحالية وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم ، ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة كما قال (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) وقال تعالى في هذه الآية الكريمة (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) أى إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف كما قال تعالى (فإن كذبوك قتل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين) وقال (إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم) وقال (نبى عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هو العذاب الأليم) إلى أمثال ذلك من الآيات التى تجمع الرجاء والخوف وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد عن عيسى بن زيد عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) الآية قال رسول الله ﷺ « لولا عفو الله وتجاوزة ما هنا أحدا العيش ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد » وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن بن عثمان أبى حسان الرمادى (١) أنه رأى رب العزة في النوم ورسول الله ﷺ واقف بين يديه يشفع في رجل من أمته فقال له ألم يكفك أنى أنزلت عليك في سورة الرعد (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) قال ثم انتهت

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾

يقول تعالى إخبارا عن المشركين أنهم يقولون كفرا وعنادا لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون كما تعنتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن يزيح عنهم الجبال ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً قال تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) الآية قال الله تعالى (إنما أنت منذر) أى إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التى أمرك بها ، و (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) وقوله (ولكل قوم هاد) قال عيسى بن أبى طلحة عن ابن عباس : أى ولكل قوم داع ، وقال العوفي عن ابن عباس في الآية يقول الله تعالى أنت يا محمد منذر وأنا هادى كل قوم وكذا قال محمد وسعيد بن جبير والضحاك وغير واحد وعن مجاهد (ولكل قوم هاد) أى نبى كقوله (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد وقال أبو صالح ويحيى بن رافع (ولكل قوم هاد) أى قائد وقال أبو العالية : الهادى القائد والقائد الإمام والإمام العمل وعن عكرمة وأبى الضحى (ولكل قوم هاد) قالوا هو محمد ﷺ وقال مالك (ولكل قوم هاد) يدعوهم إلى الله عز وجل وقال أبو جعفر بن جرير حدثنى أحمد بن يحيى الصوفى حدثنا الحسن بن الحسين الأنصارى حدثنا معاذ بن مسلم حدثنا الهروى عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لما نزلت (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) قال وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره وقال « أنا المنذر ولكل قوم هاد » وأومأ بيده إلى منكب على فقال « أنت الهادى يا على بك يهتدى المهتدون من بعدى » وهذا الحديث فيه نكارة شديدة، وقال ابن أبي حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا المطلب بن زياد عن السدى عن عبدخير عن على (ولكل قوم هاد) قال الهادى رجل من بنى هاشم قال الجنيد هو على بن أبى طالب رضى الله عنه قال ابن أبى حاتم وروى عن ابن عباس فى إحدى الروايات وعن أبى جعفر محمد بن على نحو ذلك .

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾

يخبر تعالى عن تمام علمه الذى لا يخفى عليه شيء وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات كما قال تعالى (ويعلم ما فى الأرحام) أى ما حملت من ذكر أو أنثى أو حسن أو قبيح . أو شقى أو سعيد أو طويل العمر أو قصيره كقوله تعالى (هو أعلم بك إذ أنشأكم من الأرض وإذ أتم أجنّة) الآية وقال تعالى (يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث) أى خلقكم طورا من بعد طور كما قال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه ملكا فيؤمر بأربع كلمات ، بكتب رزقه وعمره وعمله وشقى أو سعيد » وفى الحديث الآخر « فيقول الملك أى رب أذكر أم أنثى ؟ أى رب أشقى أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيقول الله ويكتب الملك » وقوله (وما تغيض الأرحام وما تزداد) قال البخارى حدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا معن حدثنا مالك عن عبد الله ابن دينار عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمن إلا الله لا يعلم ما فى غد إلا الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله . ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله » وقال العوفى عن ابن عباس (وما تغيض الأرحام) يعنى السقط (وما تزداد) يقول ما زادت الرحم فى الحمل على ما غاضت حتى ولدتها تماما وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ومن تحمل تسعة أشهر ومنهن من تزيد فى الحمل ومنهن من تنقص فذلك الغيض والزيادة التى ذكر الله تعالى وكل ذلك بعلمه تعالى . وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله (وما تغيض الأرحام وما تزداد) قال ما نقصت من تسعة وما زاد عليها ، وقال الضحاك وضعتى أمى وقد حملتني فى بطنها سنتين وولدتني وقد نبشت ثنيتي وقال ابن جريج عن جميلة بنت سعد عن عائشة قالت : لا يكون الحمل أكثر من سنتين قدر ما يتحرك ظل مغزل ، وقال مجاهد (وما تغيض الأرحام وما تزداد) قال ما ترى من الدم فى حملها وما تزداد على تسعة أشهر وبه قال عطية العوفى والحسن البصرى وقتادة والضحاك وقال مجاهد أيضا إذا رأت المرأة الدم دون التسعة زاد على التسعة مثل أيام الحيض وقاله عكرمة وسعيد بن جبير وابن زيد وقال مجاهد أيضا (وما تغيض الأرحام) إراقة الدم حتى ينحس الولد (وما تزداد) إن لم تهرق الدم تم الولد وعظم ، وقال مكحول : الجنين فى بطن أمه لا يطلب ولا يحزن ولا يغتم وإمّا يأتية رزقه فى بطن أمه من دم حيضها فمن ثم لا تحيض الحامل ، فإذا وقع إلى الأرض استهل واستهله استنكاره لمكانه فإذا قطعت سرتة حول الله رزقه إلى ثدى أمه حتى لا يحزن ولا يطلب ولا يغتم ثم يصير طفلا يتناول الشيء بكفه فأكله فإذا هو بلغ قال هو الموت أو القتل أتى لى بالرزق ؟ فيقول مكحول يا ويحك ، غذاك وأنت فى بطن أمك وأنت طفل صغير حتى إذا اشتدت وعقلت قلت هو الموت أو القتل أتى لى بالرزق ، ثم قرأ مكحول (الله يعلم ما تحمل كل أنثى) الآية وقال

قادة (وكل شيء عنده بمقدار) أى بأجل ، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم وجعل لذلك أجلا معلوما . وفي الحديث الصحيح أن إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه أن ابناً لها في الموت وأنها تحب أن يحضره فبعث إليها يقول « إن الله ما أخذ وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فمروها فلتصبر ولتحتسب » الحديث بتمامه ، وقوله (عالم الغيب والشهادة) أى يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم ولا يخفى عليه منه شيء (الكبير) الذى هو أكبر من كل شيء (المتعال) أى على كل شيء (قد أحاط بكل شيء علما) وقهر كل شيء فخضعت له الرقاب ودان له العباد طوعا وكرها .

﴿ سَوَاءٌ مِّنْ أَمْرٍ أَلْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ * لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِّنْ وَالٍ ﴾

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه وأنه سواء منهم من أسر قوله أو جهر به فانه يسمعه لا يخفى عليه شيء كقوله (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) وقال (ويعلم ما تخفون وما تعلنون) وقالت عائشة رضى الله عنها : سبحان الذى وسع سمعه الأصوات ، والله لقد جاءت المجادلة تشتكى زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا فى جنب البيت وإنه ليخفى على بعض كلامها فأنزل الله (قد سمع الله قول الذى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) وقوله (ومن هو مستخف بالليل) أى محتف فى قعر بيته فى ظلام الليل (وسارب بالنهار) أى ظاهر ماش فى بياض النهار وضيائه فان كلاهما فى علم الله على السواء كقوله تعالى (ألا حين يستغشون ثيابهم) الآية وقوله تعالى (وماتكون فى شأن وماتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) . وقوله (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) أى للعبد ملائكة يتعاقبون عليه حرس بالليل وحرس بالنهار يحفظونه من الأسواء والحادثات ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، فائتان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال صاحب اليمين يكتب الحسنات وصاحب الشمال يكتب السيئات ، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه واحد من ورائه وآخر من قدماه فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل بدلا حافطان وكاتبان كما جاء فى الصحيح « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويحتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر فيصعد إليهم الله باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم كيف تركم عبادى ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصابون » وفى الحديث الآخر « إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الحلاء وعند الجماع فاستحيوهم وأكرمهم » وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) والمعقبات من الله هى الملائكة ، وقال عكرمة عن ابن عباس (يحفظونه من أمر الله) قال ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فاذا جاء قدر الله خلوا عنه ، وقال مجاهد ما من عبد إلا له ملك موكل يحفظه فى نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فإمناها شيء يأتيه يريد به الإقال له : الملك وراءك إلا شيء أذن الله فيه فيصيه .

وقال الثورى عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله (له معقبات من بين يديه ومن خلفه) قال ذلك ملك من ملوك الدنيا له حرس من دونه حرس ، وقال العوفى عن ابن عباس (له معقبات من بين يديه ومن خلفه) يعنى ولى السلطان يكون عليه الحرس ، وقال عكرمة فى تفسيرها هؤلاء الأمراء الموالى من بين يديه ومن خلفه ، وقال الضحاك فى الآية هو السلطان المحروس من أمر الله وهم أهل الشرك ، والظاهر والله أعلم أن مراد ابن عباس وعكرمة والضحاك بهذا أن حرس الملائكة للعبد يشبه حرس هؤلاء الملوكهم وأمرائهم ، وقد روى الإمام أبو جعفر

ابن جرير ههنا حديثاً غريباً جداً فقال حدثني المثنى حدثنا إبراهيم بن عبد السلام بن صالح القشيري حدثنا علي بن جرير عن حماد بن سلمة عن عبد الحميد بن جعفر عن كنانة العدوي قال : دخل عثمان بن عفان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أخبرني عن العبد كم معه من ملك ؟ فقال « ملك على يمينك على حسناتك وهو أمير على الذي على الشمال فإذا عملت حسنة كتبت عشرا ، وإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين اكتبها ؟ قال لا ، لعله يستغفر الله ويتوب فيستأذنه ثلاث مرات ، فإذا قال ثلاثا قال اكتبها أراحنا الله منه فبئس القرين ، ما أقل مراقبته الله وأقل استحياءه منا ، يقول الله (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) وملك من بين يديك ومن خلفك يقول الله تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه) - الآية - وملك قابض على ناصيتك فإذا تواضعت لله رفعك ، وإذا تجبرت على الله قصمك ، وملك على شفيتك ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد - صلى الله عليه وسلم - وملك قائم على فيك لا يدع أن تدخل الحية في فيك وملك على عينيك فهو لاء عشرة أملاك على كل آدمي ، ينزلون ملائكة الليل على ملائكة النهار لأن ملائكة الليل سوى ملائكة النهار فهو لاء عشرون ملكا على كل آدمي ، وإبليس بالنهار وولده بالليل . وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا أسود بن عامر حدثنا سفيان حدثني منصور عن سالم بن أبي الجعد عن أبيه عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « مامنكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة » قالوا وإياك يا رسول الله ، قال « وإياي ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير » انفراد باخراجه مسلم وقوله (يحفظونه من أمر الله) قيل المراد حفظهم له من أمر الله رواه علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس واليه ذهب مجاهد وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وغيرهم وقال قتادة (يحفظونه من أمر الله) قال وفي بعض القراءات يحفظونه بأمر الله ، وقال كعب الأحبار : لو بجلى لابن آدم كل سهل وكل حزن لرأى كل شيء من ذلك شيئا يقينه لولا أن الله وكل بكم ملائكة يذوبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم إذا لتخطفتهم . وقال أبو أمامة مامن آدمي إلا ومعه ملك يذود عنه حتى يسلمه للذي قدر له ، وقال أبو مجاز : جاء رجل من مراد إلى علي رضي الله عنه وهو يصلي فقال احترس فإن ناساً من مراد يريدون قتلك فقال إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه . إن الأجل جنة حصينة ، وقال بعضهم (يحفظونه من أمر الله) بأمر الله كما جاء في الحديث أنهم قالوا يا رسول الله أرأيت رقيبا نسترقى بها هل ترد من قدر الله شيئا ، فقال « هي من قدر الله » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا حفص بن غياث عن أشعث عن جهم عن إبراهيم قال أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك انه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله إلا حول الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون ثم قال ان تصديق ذلك في كتاب الله (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وقد ورد هذا في حديث مرفوع فقال الحافظ محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتابة صفة العرش حدثنا الحسن بن علي حدثنا الهيثم بن الأشعث السلمي حدثنا أبو حنيفة الجاني الأنصاري عن عمير بن عبد الملك قال : خطبنا علي بن أبي طالب على منبر الكوفة قال : كنت إذا أمسكت عن رسول الله ﷺ ابتدأني وإذا سأله عن الخبر أنبأني وإنه حدثني عن ربه عز وجل قال « قال الرب وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي مامن قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهت من معصيتي ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابني إلى ما يحبون من رحمتي » وهذا غريب وفي إسناده من لا أعرفه

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ

خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾

يخبر تعالى أنه هو الذي يسخر البرق وهو ما يرى من النور الالامع ساطعا من خلل السحاب ، وروى ابن جرير أن ابن عباس كتب إلى أبي الجلد يسأله عن البرق فقال : البرق : الماء . وقوله (خوفا وطمعا) قال قتادة خوفا للمسافر يخاف

أذاه ومشقته وطمعا للقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله (وينشئ السحاب الثقال) أى ويخلقها منشأة جديدة وهى لكثرة ماؤها ثقيلة قريبة إلى الأرض، قال مجاهد : السحاب الثقال الذى فيه الماء قال (ويسبح الرعد بحمده) كقوله (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا إبراهيم بن سعد أخبرنى أبى قال كنت جالسا إلى جنب حميد بن عبد الرحمن فى المسجد ثم شيخ من بنى غفار فأرسل إليه حميد فلما أقبل قال يا ابن أخى وسع فيما بينى وبينك فإنه قد صعب رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء حتى جلس فيما بينى وبينه فقال له حميد ما الحديث الذى حدثنى عن رسول الله ﷺ فقال له الشيخ سمعت عن شيخ من بنى غفار أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله ينشئ السحاب فينطق أحسن النطق ويضحك أحسن الضحك » والراد والله أعلم أن نطقها الرعد وضحكها البرق ، وقال موسى بن عبيدة عن سعد بن إبراهيم قال يبعث الله الغيث فلا أحسن منه مضحكا ولا آنس منه منطقا فضحكه البرق ومنطقه الرعد، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا هشام بن عبيد الله الرازى عن محمد بن مسلم قال بلغنا أن البرق ، ملك له أربعة وجوه : وجه إنسان، ووجه ثور، ووجه نسر، ووجه أسد فإذا مضع بذنبه فذاك البرق ، وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الحجاج حدثنا أبو مطر عن سالم عن أبيه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع الرعد والصواعق قال « اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك » ورواه الترمذى والبخارى فى كتاب الأدب والنسائى فى اليوم والليلة والحاكم فى مستدركه من حديث الحجاج بن أرطاة عن أبى مطر ولم يسم به ، وقال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنا أحمد بن إسحق حدثنا أبو أحمد حدثنا إسرائيل عن أبيه عن رجل عن أبى هريرة رفعه أنه كان إذا سمع الرعد قال « سبحان من يسبح الرعد بحمده » وروى عن على رضى الله عنه أنه كان إذا سمع صوت الرعد يقول : سبحان من سبحت له . وكذا روى عن ابن عباس وطاوس والأسود بن يزيد أنهم كانوا يقولون كذلك ، وقال الأوزاعى كان ابن أبى زكريا يقول : من قال حين يسمع الرعد سبحان الله وبحمده لم تصبه صاعقة ، وعن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال : سبحان الذى يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته . ويقول إن هذا لوعيد شديد لأهل الأرض رواه مالك فى موطنه والبحارى فى كتاب الأدب

وقال الإمام أحمد حدثنا سليمان بن داود الطيالسى حدثنا صدقة بن موسى حدثنا محمد بن واسع عن معمر بن نهار عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « قال ربكم عز وجل لو أن عبيدى أطاعونى لأستقيهم المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ، ولما أسمعتم صوت الرعد » وقال الطبرانى حدثنا زكريا بن يحيى الساجى حدثنا أبو كامل الجحدري حدثنا يحيى بن كثير أبو النضر حدثنا عبد الكريم حدثنا عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله فإنه لا يصيب ذا كرا » وقوله تعالى (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) أى يرسلها نقمة ينتقم بها من يشاء ولهذا تكثر فى آخر الزمان كما قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن مصعب حدثنا عمارة عن أبى نضرة عن أبى سعيد الجحدري رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة حتى يأتى الرجل القوم فيقول من صعق قبلكم الغداة فيقولون صعق فلان وفلان وفلان » ، وقد روى فى سبب نزولها ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا إسحق حدثنا على بن أبى سارة الشيبانى حدثنا ثابت عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا مرة إلى رجل من فراعنة العرب فقال « اذهب فأدعه لى » قال فذهب إليه فقال يدعوك رسول الله ﷺ ، فقال له من رسول الله ، وما الله ، أمن ذهب هو أم من فضة هو أم من نحاس هو ؟ قال فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال يا رسول الله قد خبرتك أنه أعنى من ذلك قال لى كذا وكذا ، فقال لى « ارجع إليه الثانية » فذهب فقال له مثلها فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله قد أخبرتك أنه أعنى من ذلك . فقال « ارجع إليه فادعه » فرجع إليه الثالثة قال فأعاد عليه ذلك الكلام فبينما هو يكلمه إذ بعث الله عز وجل سحابة حيال رأسه فرعدت فوقعت منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه فأنزله الله عز وجل (ويرسل الصواعق) الآية ، ورواه ابن جرير من حديث على بن أبى سارة به ، ورواه الحافظ أبو بكر البزار عن عدة بن عبد الله عن يزيد

ابن هارون عن ديلم بن غزوان عن ثابت عن أنس فذكر نحوه وقال : حدثنا الحسن بن محمد حدثنا عفان حدثنا أبان ابن يزيد حدثنا أبو عمران الجوني عن عبد الرحمن بن صبحار العبدى أنه بلغه أن النبي ﷺ بعثه إلى جبار يدعوهم فقال رأيتكم ربكم أذهب هو؟ أم فضة هو؟ أم لؤلؤ هو؟ قال فبينما هو يجادلهم إذ بعث الله سبحانه فرعدت فأرسل عليه صاعقة فذهبت بحف رأسه ونزلت هذه الآية وقال أبو بكر بن عياش عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد قال : جاء يهودى فقال يا محمد أخبرني عن ربك من أى شيء هو؟ من نحاس هو، أم من لؤلؤ أو ناقوت ، قال فجاءت صاعقة فأخذته وأنزل الله (ويرسل الصواعق) الآية

وقال قتادة ذكر لنا أن رجلا أنكر القرآن وكذب النبي ﷺ فأرسل الله صاعقة فأهلكته وأنزل الله (ويرسل الصواعق) الآية وذكروا في سبب نزولها قصة عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة لما قدما على رسول الله ﷺ المدينة فسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر فأبى عليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له عامر بن الطفيل لعنه الله أما والله لأملأنها عليك خيلا جرذا ورجالا مردا فقال له رسول الله ﷺ « يأبى الله عليك ذلك وأبناء قيلة » يعنى الأنصار ، ثم إنهما هما بالفتك برسول الله ﷺ فجعل أحدهما يخاطبه والآخر يستل سيفه ليقتله من ورائه فخماه الله تعالى منهما وعصمه ، فخرجا من المدينة فانطلقا في أحياء العرب يجمعان الناس لحربه عليه الصلاة والسلام فأرسل الله على أربد سحابة فيها صاعقة فأحرقتة ، وأما عامر بن الطفيل فأرسل الله عليه الطاعون فخرجت فيه غدة عظيمة فجعل يقول يا آل عامر غدة كغدة البكر وموت في بيت سلوية حتى ماتا لعنهما الله ، وأنزل الله في مثل ذلك (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله) وفي ذلك يقول لبيد بن ربيعة أخو أربد يرثيه

أخشى على أربد الختوف ولا * أرهب نوء السماك والأسد

فجنى الرعد والصواعق بال * فارس يوم الكريمة النجد

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا مسعدة بن سعيد العطار حدثنا إبراهيم بن النضر الحزامي حدثني عبد العزيز ابن عمران حدثني عبد الرحمن وعبد الله ابنا زيد بن أسلم عن أبيهما عن عطاء بن يسار عن ابن عباس أن أربد بن قيس ابن حز بن جليد بن جعفر بن كلاب وعامر بن الطفيل بن مالك قدما المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنهيا إليه وهو جالس فجلسا بين يديه فقال عامر بن الطفيل يا محمد ما تجعل لي إن أسلمت ، فقال رسول الله ﷺ « لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم » قال عامر بن الطفيل أتجعل لي الأمر إن أسلمت من بعدك ، قال رسول الله ﷺ « ليس ذلك لك ولا لقومك ولكن لك أعنة الخيل » قال أنا الآن في أعنة خيل نجد اجعل لي الوبر ولك المدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا » فلما قفلا من عنده قال عامر : أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « يمنعك الله » فلما خرج أربد وعامر قال عامر يا أربد أنا أشغل عنك محمدا بالحديث فاضربه بالسيف فان الناس إذا قتل محمدا لم يزيدوا على أن يرضوا بالدية ويكرهوا الحرب فنعطهم الدية ، قال أربد اقبل ، فأقبلا راجعين إليه فقال عامر يا محمد قم معي أكلك ققام مع رسول الله ﷺ فجلسا إلى الجدار ووقف معه رسول الله ﷺ يكلمه وسل أربد السيف فلما وضع يده على السيف يبست يده على قائم السيف فلم يستطع سسل السيف فأبطأ أربد على عامر بالضرب فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى أربد وما يصنع فانصرف عنهما فلما خرج عامر وأربد من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كانا بالحرّة - حرّة راقم - نزلا فخرج إليهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير فقالا اشخصا يا عدوى الله لعنكما الله فقال عامر من هذا يا سعد ، قال هذا أسيد بن حضير الكتاب فخرجا حتى إذا كانا بالرقم أرسل الله على أربد صاعقة فقتلته وخرج عامر حتى إذا كان بالحريم أرسل الله قرحة فأخذته فأدركه الليل في بيت امرأة من بني سلول فجعل يمس قرحته في حلقة ويقول غدة كغدة الجمل في بيت سلوية يرغب أن يموت في بيتها ، ثم ركب فرسه فأحضره حتى مات عليه راجعا فأنزل الله فيهما (الله يعلم ما تحمل كل أنثى - إلى قوله - وما لهم من دونه من وال) قال الملقبات من أمر الله يحفظون محمدا ﷺ ، ثم

ذكر أربد وما قتله به فقال (ويرسل الصواعق) الآية وقوله (وهم يجادلون في الله) أى يشكون في عظمته وأنه لا إله إلا هو (وهو شديد الحال) قال ابن جرير شديدة محاملته في عقوبة من طغى عليه وعتا وتمادى في كفره ، وهذه الآية شبيهة بقوله (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكركم أنادمرناهم وقومهم أجمعين) وعن علي رضي الله عنه (وهو شديد الحال) أى شديد الأخذ ، وقال مجاهد: شديد القوة .

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كَبْسُطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِّغِهِ وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه (له دعوة الحق) قال التوحيد رواه ابن جرير ، وقال ابن عباس وقتادة ومالك عن محمد بن المنكدر (له دعوة الحق) لا إله إلا الله (والذين يدعون من دونه) الآية أى ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله (كبسط كفيه إلى الماء ليلبغ فاه) قال علي بن أبي طالب كمثل الذى يتناول الماء من طرف البئر بيده وهو لا يناله لأبداً بيده فكيف يلبغ فاه ؟ وقال مجاهد (كبسط كفيه) يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبداً . وقيل المراد كقباض يده على الماء فانه لا يحكم منه على شيء كما قال الشاعر :

فانى وإياكم وشوقاً إليكم * كقباض ماء لم تسقه أنامله

فأصبحت مما كان بيني وبينها * من الود مثل القابض الماء باليد

وقال الآخر

ومعنى هذا السلام أن الذى يبسط يده إلى الماء إما قابضاً وإما متناولاً له من بعد كما أنه لا ينتفع بالماء الذى لم يصل إلى فيه الذى جعله محلاً للشرب فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره لا ينتفعون بهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة ولهذا قال (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال)

﴿ وَرَبِّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلْمُهُم بِالْغَدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذى قهر كل شيء ودان له كل شيء . ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين وكرهاً من الكافرين (وظلالهم بالغدو) أى البكر (والآصال) وهو جميع أصيل وهو آخر النهار كقوله تعالى (أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله) الآية

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو لأنهم معترفون بأنه هو الذى خلق السموات والأرض وهو ربها ومدبرها وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم وأولئك الآلهة لا تملك لأنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى نفعاً ولا ضراً أى لا تحصل لهم منفعة ولا تدفع عنهم مضرة فهل يستوى من عبد هذه الآلهة مع الله ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من ربه ؟ ولهذا قال (قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم) أى أحل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب ومماثلة في الخلق فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره أى ليس الأمر كذلك فانه لا يشابهه شيء ولا مماثلة ولاند له ولا عدل له ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم معترفون أنها مخلوقة له عبيد له كما كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك تملكه وما

ملك وكما أخبر تعالى عنهم في قوله (مانعدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فأنكر تعالى عليهم ذلك حيث اعتقدوا ذلك وهو تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) (وكم من ملك في السموات) الآية وقال (إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عدداً * وكلهم آتية يوم القيامة فرداً) فإذا كان الجميع عبيدا فلم يعبد بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع ثم قد أُرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك وتنهاهم عن عبادة من سوى الله فكذبوهم وخالفوهم فحق عليهم كلمة العذاب لاحالة (ولا يظلم ربك أحداً)

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَايَا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرْدٍ كَذَلِكَ يُضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه والباطل في اضمحلاله وفناءه فقال تعالى (أنزل من السماء ماء) أى مطرا (فسالت أودية بقدرها) أى أخذ كل واد بحسبه فهذا كبير وسع كثيرا من الماء وهذا صغير وسع بقدره وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها فمنها ما يسع علما كثيرا ومنها من لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها (فاحتمل السيل زبدا راييا) أى فجاء على وجه الماء الذى سال في هذه الأودية زبد على عليه هذا مثل وقوله (ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع) الآية هذا هو المثل الثانى وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ابتغاء حلية أى ليجعل حلية أو نحاسا أو حديدا فيجعل متاعا فانه يعلوه زبد منه كما يعلو ذلك زبد منه (كذلك يضرب الله الحق والباطل) أى إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولادوام له كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوها مما يسبك في النار بل يذهب ويضمحل ولهذا قال (فأما الزبد فيذهب جفاء) أى لا ينتفع به بل يتفرق ويتعزق ويذهب في جانبي الوادى ويلقى بالشجر وتنسفه الرياح وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شيء ولا يبقى إلا الماء وذلك الذهب ونحوه ينتفع به ولهذا قال (وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال) كقوله تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وقال بعض السلف كنت إذا قرأت مثلا من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسى لأن الله تعالى يقول (وما يعقلها إلا العالمون) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) الآية هذا مثل ضرب به الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها فأما الشك فلا ينفع معه العمل ، وأما اليقين فينفع الله به أهله وهو قوله (فأما الزبد) وهو الشك (فيذهب جفاء) وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) وهو اليقين وكما يجعل الحلى في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك ، وقال العوفي عن ابن عباس قوله (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا راييا) يقول احتمل السيل ما في الوادى من عود ودمنة (ومما يوقدون عليه في النار) فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد فللنحاس والحديد خبث فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة ، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأثبتت فجعل ذلك مثل العمل الصالح يبقى لأهله والعمل السيئ يضمحل عن أهله كما يذهب هذا الزبد وكذلك الهدى والحق جاءا من عند الله فمن عمل بالحق كان له وبقي كما بقي ما ينفع الناس في الأرض وكذلك الحديد لا يستطيع أن يعمل منه سكينة ولا سيف حتى يدخل في النار فتأكل خبثه ويخرج جوده فينتفع به فكذلك يضمحل الباطل فإذا كان يوم القيامة وأقيم الناس وعرضت الأعمال فيزيح الباطل ويهلك وينتفع أهل الحق بالحق وهكذا روى في تفسيره عن مجاهد والحسن البصرى وعطاء وقتادة وغير واحد من السلف والخلف ، وقد صرب سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين ناريا ومائيا وهما قوله (مثلهم كمثل الذى استوفد نارا فلما أضاءت ما حوله) الآية ثم قال (أو كصيب من

السما فيه ظلمات ورعد وبرق) الآية وهكذا ضرب للكافرين في سورة النور مثلين (أحدهما) قوله (والذين كفروا أعمالهم كسراب) الآية والسراب إنما يكون في شدة الحر ولهذا جاء في الصحيحين فيقال لليهود يوم القيامة فاتريدون؟ فيقولون أي ربنا عطشنا فاسقنا فيقال ألا تردون؟ فيردون النار فاذا هي كسراب يحطم بعضها بعضا ثم قال تعالى في المثل الآخر (أو كظلمات في بحر لجي) الآية وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكانت منها أجاذب أمسكت الماء فنعث الله بها الناس فشربوا وورعوا وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به فعم وعلم؟ ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» فهذا مثل ما في الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال «مثلي ومثلكم كمثلكم رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبهن فيقتحمن فيها — قال — فذلكم مثلي ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار فتغلبوني فقتلتموني فيها» وأخرجاه في الصحيحين أيضا فهذا مثل نارى

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾

ينحبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال (للذين استجابوا لربهم) أى أطاعوا الله ورسوله واتقادوا لأوامره وصدقوا أخباره الماضية والآتية فلهم (الحسنى) وهو الجزاء الحسن كقوله تعالى مخبرا عن ذى القرنين أنه قال (أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا . وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وستنقل له من أمرنا يسرا) وقال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وقوله (والذين لم يستجيبوا له) أى لم يطيعوا الله (لو أن لهم ما في الأرض جميعا) أى في الدار الآخرة لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لافتدوا به ولكن لا يتقبل منهم لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفا ولا عدلا (أولئك لهم سوء الحساب) أى في الدار الآخرة . أى يناقشون على النقيير والقطمير والجليل والحقير ومن نوقش الحساب عذب ، ولهذا قال (ومأواهم جهنم وبئس المهاد)

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

يقول تعالى لا يستوى من يعلم من الناس أن الذى (أنزل إليك) يا محمد (من ربك) هو الحق الذى لا شك فيه ولا مرية ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه ، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضا لا يضاد شىء منه شيئا آخر فأخبره كلها حق وأوامره ونواهيها عدل كما قال تعالى (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) أى صدقا في الإخبار ، وعدلا في الطلب فلا يستوى من تحقق صدق ما جئت به يا محمد ومن هو أعمى لا يتهدى إلى خير ولا يفهمه ولو فهمه ما اتقاد له ولا صدقه ولا اتبعه كقوله تعالى (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون) وقال في هذه الآية الكريمة (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) أى أفهذا كهذا؟ لا استواء، وقوله (إنما يتذكر أولو الأبواب) أى إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة جعلنا الله منهم

﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَتَّقُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصُلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَنَفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

وَيَذَرُهُمْ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿١٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن انصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم عقبي الدار وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة (الذين يوفون بعهد الله ولا ينفضون الميثاق) وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدكم غدروا ، وإذا خاصم فجر . وإذا حدث كذب ، وإذا ائتمن خان (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) من صلة الأرحام والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف (ويخشون ربهم) أى فيما يأتون وما يذرون من الأعمال يراقبون الله في ذلك ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة فلهمنا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية (والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم) أى عن المحارم والمآثم فقطموا أنفسهم عنها لله عز وجل ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه (وأقاموا الصلاة) بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى (وأنفقوا مما رزقناهم) أى على الذين يجب عليهم الاتفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب من فقراء ومحاويج ومساكين (سرا وعلانية) أى في السر والجهر لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال أثناء الليل وأطراف النهار (ويدعرون بالحسنة السيئة) أى يدفعون القبيح بالحسن ، فإذا آذاهم أحد قابضه بالجيل صبرا واحتمالا وصفحاً وعفوا كقوله تعالى (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين بهؤلاء الصفات الحسنة بأن لهم عقبي الدار ثم فسر ذلك بقوله (جنات عدن) والعدن الإقامة أى حنات إقامة يخلدون فيها ، وعن عبد الله بن عمرو أنه قال: إن في الجنة قصراً يقال له عدن حوله البروج والبروج فيه خمسة آلاف باب على كل باب خمسة آلاف حبرة لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد ، وقال الضحاك في قوله (جنات عدن) مدينة الجنة فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى والناس حولهم بعد الجنات حولها رواها ابن جرير ، وقوله (ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) أى يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الأباء والأهلين والأبناء ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين لتقر أعينهم بهم حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتناناً من الله وإحساناً من غير تنقيص للأعلى عن درجته كما قال تعالى (والذين آمنوا واتبعهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) الآية وقوله (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار) أى وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ومن ههنا للتنهتة بدخول الجنة فعند دخولهم إياها تفسد عليهم الملائكة مسلمين مهتئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والانعام والإقامة في دار السلام في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام ، وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا أبو عبد الرحمن حدثني سعيد بن أبي أيوب حدثنا معروف ابن سويد الحراني عن أبي عشانة المعافري عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال « هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم . قال « أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور وتتق بهم الكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته : اتوهم فحيوهم فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء ونسلم عليهم ؟ فيقول إنهم كانوا عباداً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً وتسد بهم الثغور وتتق بهم الكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء — قال — فتأتهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار) » ورواه أبو القاسم الطبراني عن أحمد بن رشدين عن أحمد بن صالح عن عبد الله بن وهب عن عمر بن الحارث عن أبي عشانة سمع عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال « أول ثلثة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين الذين تتق بهم الكاره وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى سلطان لم تقض حتى يموت وهي في صدره وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتى بزخرفها وزينتها فيقول أين عبادي

الذين قاتلوا في سبيلي وأوذوا في سبيلي وجاهدوا في سبيلي ؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب وتأتى الملائكة فيسجدون ويقولون ربنا نحن نسبح بحمديك الليل والنهار وتقدس لك من هؤلاء الذين آثرتهم علينا ؟ فيقول الرب عز وجل هؤلاء عبادي الذين جاهدوا في سبيلي وأوذوا في سبيلي فتدخل عليهم الملائكة من كل باب : (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) وقال عبدالله بن المبارك عن بقية بن الوليد حدثنا أرطاة بن النضر سمعت رجلا من مشيخة الجند يقال له أبو الحجاج يقول جلست إلى أبي أمامة فقال : إن المؤمن ليكون متكئا على أريكته إذا دخل الجنة وعنده سلطان من خدم وعند طرف السباطين باب مبوب فيقبل الملك فيستأذن فيقول للذي يليه ملك يستأذن ويقول الذي يليه للذي يليه ملك يستأذن حتى يبلغ المؤمن فيقول ائذنوا فيقول أقربهم للمؤمن ائذنوا له ويقول الذي يليه للذي يليه ائذنوا له حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب فيفتح له فيدخل فيسلم ثم ينصرف رواء ابن جرير ورواه ابن أبي حاتم من حديث إسماعيل بن عياش عن أرطاة بن النضر عن أبي الحجاج يوسف الإلهاني قال سمعت أبا أمامة فذكر نحوه وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور الشهداء في رأس كل حول فيقول لهم ((سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)) وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان

﴿ وَالَّذِينَ يَنْتَقِضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾

هذا حال الأشقياء وصفاتهم وذكراهم في الآخرة ومصيرهم إلى خلاف ما صار اليه المؤمنون كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ويصلون ما أمر الله به أن يوصل ، وهؤلاء (ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض) كاثبت في الحديث « آية المافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان » وفي رواية « وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر » ولهذا قال (أولئك لهم اللعنة) وهي الإبعاد عن الرحمة (ولهم سوء الدار) وهي سوء العاقبة والمآل (ومأواهم جهنم وبئس المهاد) وقال أبو العالية في قوله تعالى (والذين ينقضون عهد الله) الآية قال هي ست خصال في المناققين إذا كان فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال إذا حدثوا كذبوا وإذا وعدوا أخلفوا وإذا ائتمنوا خانوا ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل وأفسدوا في الأرض ، وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الثلاث الخصال : إذا حدثوا كذبوا وإذا وعدوا أخلفوا وإذا ائتمنوا خانوا

﴿ اللَّهُ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾

يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء ويقتصر على من يشاء لما له في ذلك من الحكمة والعدل وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا استندراجا لهم وإمهالا كما قال (يحسبون أنهم آمنوا ندمهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون) ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال (وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع) كما قال (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا) وقال (بل تؤثرن الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا : حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس عن المستورد أخى بنى فهر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر به ترجع » وأشار بالسبابة رواء مسلم في صحيحه . وفي الحديث الآخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بجدي أسك ميت والأسك الصغير الأذنين فقال « والله الدنيا أهون على الله

من هذا على أهله حين ألقوه .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا بَدَأَ

يخبر تعالى عن قيل المشركين (لولا) أى هلا (أنزل عليه آية من ربه) كقولهم (فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة وأن الله قادر على إجابة ما سألوا ، وفي الحديث أن الله أوحى إلى رسوله لما سأله أن يحول لهم الصفا ذهباً وأن يجرى لهم ينبوعاً وأن يزج الجبال من حول مكة فيصير مكانها مروج وبساتين : إن شئت يا محمد أعطيهم ذلك فإن كفروا أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحدٌ من العالمين وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة فقال « بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة » ولهذا قال لرسوله (قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب) أى هو المضل والهادى سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا أو لم يوجههم إلى سؤالهم فإن الهداية والاضلال ليس منوطاً بذلك ولا عدمه كما قال (وما تنفى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) وقال (إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) وقال (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون) ولهذا قال (قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب) أى ويهدي إليه من أناب إلى الله ورجع إليه واستعان به وتضرع لديه (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله) أى تطيب وتركن إلى جانب الله وتسكن عند ذكره وترضى به مولى ونصيراً ولهذا قال (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) أى هو حقيق بذلك وقوله (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس: فرح وقرة عين . وقال عكرمة نعم ما لهم ، وقال الضحاك غبطة لهم ، وقال إبراهيم النخعي خير لهم ، وقال قتادة هي كلمة عرية يقول الرجل طوبى لك أى أصبت خيراً وقال في رواية طوبى لهم حسنى لهم (وحسن مآب) أى مرجع وهذه الأقوال شيء واحد لا منافاة بينها ، وقال سعيد بن جبیر عن ابن عباس (طوبى لهم) قال هي أرض الجنة بالجشية ، وقال سعيد بن مسجوع: طوبى اسم الجنة بالهندية وكذا روى السدى عن عكرمة طوبى لهم هي الجنة وبه قال مجاهد وقال العوفي عن ابن عباس لما خلق الله الجنة وفرغ منها قال (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) وذلك حين أعجبته .

وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب عن جعفر عن شهر بن حوشب قال طوبى شجرة في الجنة كل شجر الجنة منها أغصانها من وراء سور الجنة وهكذا روى عن أبى هريرة وابن عباس ومغيث بن سمى وأبى إسحق السبيعي وغير واحد من السلف أن طوبى شجرة في الجنة في كل دار منها غصن منها ، وذكر بعضهم أن الرحمن تبارك وتعالى غرسها يسه من حبة لؤلؤة وأمرها أن تمتد فامتدت إلى حيث يشاء الله تبارك وتعالى وخرجت من أصلها يتابع أنهار الجنة من عسل وخمر وماء ولبن ، وقد قال عبد الله بن وهب حدثنا عمرو بن الحارث أن دراجاً أبا السمع حدثه عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً « طوبى شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكلها » وقال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى سمعت عبد الله بن لهيعة حدثنا دراج أبو السمع أن أبى الهيثم حدثه عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ أن رجلاً قال يا رسول الله : طوبى لما رآك وآمن بك ، قال « طوبى لما رآنى وآمن بى ، وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى » قال له رجل وما طوبى ، قال « شجرة في الجنة مسيرتها مائة عام ثياب أهل الجنة تخرج من أكلها » وروى البخارى ومسلم جميعاً عن إسحق بن راهويه عن مغيرة المخزومي عن وهيب عن أبى حازم عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها » قال فحدثت به النعمان بن أبى عياش الزرقى فقال حدثنى أبو سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام

ما يقطعها » وفي صحيح البخارى من حديث يزيد بن زريع عن سعيد بن قباد عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ في قول الله تعالى (وظل ممدود) قال « فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها » وقال الإمام أحمد حدثنا شريح حدثنا فليح عن هلال بن على عن عبد الرحمن بن أبي عمرة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة أقرأوا إن شئتم وظل ممدود » أخرجه فى الصحيحين وفى لفظ لأحمد أيضا حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا : حدثنا شعبة سمعت أبا الضحاك يحدث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين - أو مائة سنة - هى شجرة الخلد » وقال محمد بن إسحق عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنها قالت سمعت رسول الله ﷺ ذكر سدرة المنتهى فقال « يسير فى ظل الغصن منها الراكب مائة سنة - أو قال - يستظل فى الفتن منها مائة راکب فيها فراش الذهب كأن ثمرها القلال » رواه الترمذى وقال إسماعيل بن عياش عن سعيد بن يوسف عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلام الأسود قال سمعت أبا أمامة الباهلى قال : قال رسول الله ﷺ « ما مسمك من أحد يدخل الجنة إلا انطلق به إلى طوبى فتفتح له أكامها فيأخذ من أى ذلك شاء ، إن شاء أبيض وإن شاء أحمر ، وإن شاء أصفر ، وإن شاء أسود مثل شقائق النعمان وأرق وأحسن » وقال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر بن أشعث بن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : طوبى شجرة فى الجنة يقول الله لها تفتقى لعبدى عما شاء فتفتق له عن الخيل يسرونها ولجها ، وعن الإبل بأزمها ، وعما شاء من الكسوة ، وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه ههنا أثر أغريبا عجيبا ، قال وهب رحمه الله إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، زهرها رباط وورقها برود وقضبانها عنبر وبطحاؤها يافوت وترباها كافور ووحلها مسك يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل وهى مجلس لأهل الجنة فينهلون من مجلسهم إذا أتتهم ملائكة من ربهم يقودون نجبا مزهومة بسلاسل من ذهب وجوهها كالمصابيح حسنا وورقها كخمر المرعى من لبنه عليها رجال ألواحها من ياقوت ودفوفها من ذهب وثيابها من سندس وإستبرق فيفتحونها يقولون إن ربنا أرسلنا إليك لزوروه وتسلموا عليه قال فيركبونها فهى أسرع من الطائر وأوطأ ، من الفرائس نجبا من غير مهنة يسير الرجل إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه لا تصيب أذن راحلة منها أذن الأخرى ولا برك راحلة برك الأخرى ، حتى إن الشجرة لتتنحى عن طريقهم لئلا تفرق بين الرجل وأخيه ، قال فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه فإذا رأوه قالوا اللهم أنت السلام ومنك السلام وحق لك الجلال والإكرام قال فيقول تعالى عند ذلك : أنا السلام ومنى السلام وعليكم حقت رحمتى ومحبتى ، مرحبا بعبادى الذين خشوني بغيب وأطاعوا أمرى . قال فيقولون ربنا لم نعبدك حق عبادتك ولم نقدرك حق قدرك فأذن لنا فى السجود قدامك . قال فيقول الله إنها ليست بدار نصيب ولا عبادة ولكنها دار ملك ونعيم . وإنى قد رفعت عنكم نصب العبادة فسلو ما شئتم فإن لكل رجل منكم أمنيته فيسألونه حتى إن أقصرهم أمنيته ليقول ربى تنافس أهل الدنيا فى دنياهم فتضايقوا فيها رب فأتى مثل كل شىء كانوا فيه من يوم خلقها إلى أن انتهت الدنيا فيقول الله تعالى لقد قصرت بك أمنيته ولقد سألت دون منزلتك . هذا لك منى لأنه ليس فى عطائى نكد ولا قصر يد ، قال ثم يقول اعرضوا على عبادى ما لم يبلغ أمانهم ولم يخطر لهم على بال قال فيعرضون عليهم حتى تقصر بهم أمانهم التى فى أنفسهم فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مقرنة على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة على كل سرير منها قبة من ذهب مفرغة فى كل قبة منها فرش من فرش الجنة متظاهرة فى كل قبة منها جارتان من الحور العين على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة وليس فى الجنة لون إلا وهو فيها ولا ريح ولا طيب إلا قد عبى بهما ينفذ سوء وجوههما غلظ القبة حتى يظن من يراها أنهما دون القبة يرى مخهما من فوق سوقهما كالسلك الأبيض فى ياقوتة حمراء يربان . له من الفضل على صاحبه كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل ، ويرى هو لهما مثل ذلك ويدخل إليهما فيحييانه ويقبلان وتعلقان به ويقولان له والله ما ظننا

أن الله يخلق مثلك ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفا في الجنة حتى ينهي كل رجل منهم إلى منزله التي أعدت له ، وقد روى هذا الأثر ابن أبي حاتم بسنده عن وهب بن منبه وزاد فالنظروا إلى موهوب ربكم الذي وهب لكم فإذا هو بقباب في الرفيق الأعلى وغرف مبنية من الدر والمرجان أبوابها من ذهب وسررها من ياقوت وفرشها من سندس وإستبرق ، ومنابرها من نور يفور من أبوابها وعراصها نور مثل شعاع الشمس عنده مثل الكوكب الدر في النهار المضيء ، وإذا بقصور شاحخة في أعلى عليين من الياقوت يزهر نورها ، فلولا أنه مسخر إذا لا لتمتع الأنصار ، فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض فهو مفروش بالحرير الأبيض وما كان فيها من الياقوت الأحمر فهو مفروش بالعقري الأحمر وما كان فيها من الياقوت الأخضر فهو مفروش بالسندس الأخضر ، وما كان فيها من الياقوت الأصفر فهو مفروش بالأرجوان الأصفر مبوبة بالزمرد الأخضر والذهب الأحمر والفضة البيضاء قوائمها وأركانها من الجوهر وشرفها قباب من لؤلؤ ، وبروجها غرف من المرجان ، فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم قربت لهم براذين من ياقوت أبيض منفوخ فيها الروح تجنبها الولدان المخلدون بيد كل وليد منهم حكمة برذون من تلك البراذين وجلجها وأعتنتها من فضة بيضاء منظومة بالدر والياقوت سروحها سرر موضونة مفروشة بالسندس والإستبرق فانطلقت بهم تلك البراذين تزف بهم بطن رياض الجنة ، فلما انتهوا إلى منازلهم وحدوا الملائكة قعودا على منابر من نور ينتظرونهم ليزروهم ويصافحهم ويهنئوهم كرامة ربهم ، فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ما تطاول به عليهم وما سألوا وتمنوا ، وإذا على باب كل قصر من تلك القصور أربعة جنان جنتان ذواتا أفنان وجنتان مدهامتان ، وفيهما عينان نضاختان ، وفيهما من كل فاكهة زوجان ، وحوار مقصورات في الخيام ، فلما تبوءوا منازلهم واستقروا قرارهم قال لهم ربهم هل وحدتم ما وعد ربكم حقا ؟ قالوا نعم وربنا ، قال هل رضيتم ثواب ربكم ؟ قالوا ربنا رضينا فارض عنا ، قال برضاي عنكم حالتم داري ونظرتي إلى وجهي وصافحتكم ملائكتي فهنئنا هنيئاً لكم (عطاء غير مجذوذ) ليس فيه تنغيص ولا قصر يد فغند ذلك قالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن وأدخلنا دار المقامة من فضله لا يمسن فيها نصب ولا يمسن فيها لغوب . إن ربنا لغفور شكور وهذا سياق غريب وأثر عجيب ولبعضه شواهد ، ففي الصحيحين أن الله تعالى يقول لذلك الرجل الذي يكون آخر أهل الجنة دخولا الجنة : تمن فيتمنى حتى إذا انتهت به الأمانى يقول الله تعالى : تمن من كذا وتمن من كذا يذكره ثم يقول ذلك لك وعشرة أمثاله .

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل « يا عبادي لو أن أولكم وآحركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئا إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل في البحر » الحديث بطوله ، وقال خالد بن معدان : إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى ، لها ضروع كلها ترضع صبيان أهل الجنة ، وإن سقط المرأة يكون في نهر من أنهار الجنة يتقلب فيه حتى تقوم القيامة فيبعث ابن أربعين سنة . رواه ابن أبي حاتم

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴾

بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَكِبُ ﴿

يقول تعالى وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة (لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك) أي تبليغهم رسالة الله إليهم كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله وقد كذب الرسل من قبلك فلك بهم أسوة ، وكما أوقعنا بأسنا ونقممتنا بأولئك فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم فان تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من الرسلين قال الله تعالى (تالله لقد أرسلناك إلى أمم من قبلك) الآية ، وقال تعالى (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين) أي كيف نصرناهم وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة ،

وقوله (وهم يكفرون بالرحمن) أى هذه الأمة التى بعثناك فيها يكفرون بالرحمن لا يقرون به لأهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم ، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم وقالوا ماندرى ما الرحمن الرحيم ، قاله قتادة والحديث فى صحيح البخارى ، وقد قال الله تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « إن أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » (قل هو ربي لا إله إلا هو) أى هذا الذى تكفرون به أنا مؤمن به معترف ، مقرله بالربوبية والإلاهية هو ربي لا إله إلا هو (عليه توكلت) أى فى جميع أمورى (وإليه متاب) أى إليه أرجع وأئيب فانه لا يستحق ذلك أحد سواه .

﴿ وَلَوْ أَن قُرْءَانَا سِيرَتِ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلَّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِنَسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّو يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَىٰ النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخَافُ الْمِيعَادَ ﴾

يقول تعالى مادحا للقرآن الذى أنزله على محمد ﷺ ومفضلا له على سائر الكتب المنزلة قبله (ولو أن قرأنا سيرت به الجبال) أى لو كان فى الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها أو تقطع به الأرض وتنشق أو تكلم به الموتى فى قبورها لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره أو بطريق الأولى أن يكون كذلك لما فيه من الإعجاز الذى لا يستطيع الإنسان والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ولا بسورة من مثله ومع هذا فهؤلاء المشركون كفرون به جاحدون له (بل لله الأمر جميعا) أى مرجع الأمور كلها إلى الله عز وجل ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ومن يضل الله فلا هادى له ، ومن يهد الله فماله من مضل ، وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة لأنه مشتق من الجمع ، قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا أبو هريرة قال قال رسول الله ﷺ « خفف على داود القرآن فكان يأمر بدابته أن تسرج فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته وكان لا يأكل إلا من عمل يديه » انفرد باخراجه البخارى ، والمراد بالقرآن هو الزبور وقوله (أفلم يئأس الذين آمنوا) أى من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا (أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) فانه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجح فى العقول والنفوس من هذا القرآن الذى لو أنزله الله على جبل لرأيت حاشعا متصدعا من خشية الله ، وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « مامن نبى إلا وقد أوتى ما آمن على مثله البشر وإعما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » معناه أن معجزة كل نبى انقضت بموته وهذا القرآن حجة باقية على الآباد لانقضى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد ولا يشعب منه العلماء هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا منجاب ابن الحارث أنبأنا بشر بن عمار حدثنا عمر بن حسان عن عطية العوفى قال قلت له (ولو أن قرأنا سيرت به الجبال) الآية قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم لو سيرت لنا حبال مكة حتى تتسع فحجرت فيها أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيى الموتى لقومه فأنزل الله هذه الآية ، قال قلت هل ترون هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبى ﷺ ؟ قال نعم عن أبى سعيد عن النبى ﷺ صلى الله عليه وسلم وكذا روى عن ابن عباس والشعبي وقتادة والثوري وغير واحد فى سبب نزول هذه الآية والله أعلم ، وقال قتادة لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم لفعل بقرآنكم ، وقوله (بل لله الأمر جميعا) قال ابن عباس أى لا يصنع من ذلك إلا ماشاء ولم يكن ليفعل رواه ابن إسحق بسنده عنه وقاله ابن جرير أيضا وقال غير واحد من السلف فى قوله (أفلم يئأس الذين آمنوا) أفلم يعلم الذين آمنوا ، وقرأ آخرون أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا وقال أبو العالية قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا ولو يشاء الله لهدى الناس جميعا ، وقوله (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم)

دارهم) أى سبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم فى الدنيا أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعبروا كما قال تعالى (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلمهم يرجعون) وقال (أفلا يرون أننا نأتى الأرض نقصها من أطرافها أفهم الغالبون) قال قتادة عن الحسن (أو تحل قريباً من دارهم) أى القارعة وهذا هو الطاهر من السياق ، وقال أبو داود الطيالسى حدثنا المسعودى عن قتادة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة) قال سرية (أو تحل قريباً من دارهم) قال محمد صلى الله عليه وسلم (حتى يأتى وعد الله) قال «فتح مكة» وهكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد فى رواية ، وقال العوفى عن ابن عباس (تصيبهم بما صنعوا قارعة) قال عذاب من السماء ينزل عليهم (أو تحل قريباً من دارهم) يعنى نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وقتاله إياهم وكذا قال مجاهد وقاتادة وقال عكرمة فى رواية عن ابن عباس (قارعة) أى نكبة وكلهم قال (حتى يأتى وعد الله) يعنى فتح مكة وقال الحسن البصرى يوم القيامة ، وقوله (إن الله لا يخلف الميعاد) أى لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم فى الدنيا والآخرة (فلا تحسبن الله يخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام)

﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ فى تكذيب من كذبه من قومه (ولقد استهزئ برسل من قبلك) أى فلك فهم أسوة (فأملت للذين كفروا) أى أنظرتهم وأجلتهم (ثم أخذتهم) أخذت رابية فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم وأملت لهم كما قال تعالى (وكأين من قرية أملت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير) وفى الصحيحين «إن الله ليلى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد)

﴿ أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَظْهَرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴾

يقول تعالى (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) أى حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر ولا يخفى عليه خافية (وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذا تفيضون فيه) وقال تعالى (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) وقال (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين) وقال (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) وقال (يعلم السر وأخفى) وقال (وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير) أفمن هو كذلك كالأصنام التى يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ولا تملك نفعا لأنفسها ولا لعابديها ولا تكشف ضر عنها ولا عن عابديها ؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه وهو قوله (وجعلوا لله شركاء) أى عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان (قل سموهم) أى أعلمونا بهم واكشفوا عنهم حتى يعرفوا فانهم لا حقيقة لهم ولهذا قال (أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض) أى لا وجود له لأنه لو كان لها وجود فى الأرض لعلمها لأنه لا يخفى عليه خافية (أم بظاهر من القول) قال مجاهد بظن من القول ، وقال الضحاك وقاتادة يبطل من القول أى إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر وسميت عموها آلهة (إن هى إلا أسماء سميت عموها أتم وآبأؤكم ما أنزل الله بها من سلطان * إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) (بل زين للذين كفروا مكرهم) قال مجاهد قولهم أى ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آتاء الليل وأطراف النهار كقوله تعالى (وقضنا لهم قرناء فزينوا لهم) الآية (وصدوا عن السبيل) من قرأها بفتح الصاد معناه أنه لما زين لهم ما فيه وأنه حق دعوا إليه وصدوا الناس عن اتباع طريق الرسل ، ومن قرأها بالضم أى بما زين لهم من صحة ما هم عليه صدوا به عن سبيل الله ولهذا قال (ومن بضلل الله فماله من هاد) كما قال (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا) وقال (إن نحصر على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين)

﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ * مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿

ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار فقال بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك (لهم عذاب في الحياة الدنيا) أى بأيدي المؤمنين قتلا وأسرا (ولعذاب الآخرة) أى المدخر مع هذا الخزي في الدنيا (أشق) أى من هذا بكثير كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة» وهو كما قال صلوات الله وسلامه عليه . فإن عذاب الدنيا له انقضاء وذلك دائم أبدا في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفا ووثاق لا يتصور كشافته وشدته كما قال تعالى (فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد) وقال تعالى (وأعدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) * إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا * وإذا ألقوا منها من مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا * لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا * قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا) ولهذا قرن هذا بقوله (مثل الجنة التي وعد المتقون) أى صفتها ونعتها (تجري من تحتها الأنهار) أى سارحة في أرحائها وجوانبها وحيث شاء أهلها يفجرونها نفجيرا أى يصرفونها كيف شاءوا وأن شاءوا كقوله (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لينة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة) الآية وقوله (أكلها دائم وظلها) أى فيها الفواكه والمطاعم والشارب لا انقطاع ولا فناء، وفي الصحيحين من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف وفيه قالوا يا رسول الله رأيناك تناولت شيئا في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكت فقال «إني رأيت الجنة - وأرأيت الجنة - فتناولت منها عنقودا ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا» وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا أبو خيثمة حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا عبيد الله حدثنا أبو عقيل عن جابر قال : بينا نحن في صلاة الظهر إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا ثم تناول شيئا ليأخذه ثم تأخر فلما قضى الصلاة قال له أبى بن كعب يا رسول الله صنعت اليوم في الصلاة ما رأيناك كنت تصنعه فقال «إني عرضت على الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة فتناولت منها قطفا من عنب لآتيكم به فحيل بيني وبينه ، ولو آتيكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه » وروى مسلم من حديث أبى الزبير عن جابر شاهدا لبعضه ، وعن عتبة بن عبد السلمي أن أعرابيا سأل النبي ﷺ عن الجنة فقال فيها عنب ؟ قال « نعم » قال فما عظم العنقود ؟ قال « مسيرة شهر للغراب الأبقع ولا يفتر » رواه الإمام أحمد وقال الطبراني حدثنا معاذ بن النعمان حدثنا علي بن المدني حدثنا ريجان بن سعيد عن عباد بن منصور عن أيوب عن أبي قلابة عن أبى أسماء عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ « إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى » وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « يأكل أهل الجنة ويشربون ولا يمتخطون ولا يتعوطون ولا يبولون طعامهم جشاء كريح المسك ويأهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون النفس » ورواه مسلم ، وروى الإمام أحمد والنسائي من حديث الأعمش عن نعام بن عقبة سمعت زيد بن أرقم قال : جاء رجل من أهل الكتاب فقال يا أبا القاسم : تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ؟ قال « نعم والذي نفس محمد بيده إن الرجل منهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة » قال إن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة وليس في الجنة أذى قال « تكون حاجة أحدهم رشحا يفيض من جلودهم كريح المسك فيضمر بطنه » رواه الإمام أحمد والنسائي وقال الحسن بن عرفة حدثنا خلف بن خليفة عن حميد بن الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ « إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فيخر بين يديك مشوبا » وجاء في بعض الأحاديث أنه إذا فرغ منه عاد طائرا كما كان باذن الله تعالى وقد قال الله تعالى (وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة) وقال (ودانية عليهم طلالها وذلت قطوفها تنذिला) وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص كما قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم حنات تجري

من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا)
وقد تقدم في القصصيين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال « إن في الجنة شجرة يسير الراكب المجد الجواد
المضمر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها » ثم قرأ (وظل ممدود) وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار
ليرغب في الجنة ويحذر من النار ، ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر قال بعده (تلك عقبي الذين اتقوا وعقبى الكافرين
النار) كما قال تعالى (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون) وقال بلال بن سعد خطيب
دمشق في بعض خطبه : عباد الله ، هل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئا من عبادتكم تقبلت منكم أو أن شيئا من خطاياكم غفرت
لكم ؟ (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون) والله لوعجل لكم الثواب في الدنيا لاسنقلتم كلكم ما افترض
عليكم ، أو ترغبون في طاعة الله لتعجيل دنياكم ولا تنافسون في جنة (أكلها دائم) رواه ابن أبي حاتم

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ يُرِيدُونَ مِنَ اللَّهِ الْفَتْحَ لِيُخْرِجَهُمْ مِنَ الْغُفْرِ وَالْعَذَابِ أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَآتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابٌ * وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾

يقول تعالى (والذين آمنوا منكم يريدون من الله الفتح ليخرجهم من الغفر والعذاب أولئك الذين آمنوا بالله وآتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليهم) أي من القرآن لما في كتبهم
من الشواهد على صدقه والبشارة به كما قال تعالى (الذين آمنوا منكم يريدون من الله الفتح ليخرجهم من الغفر والعذاب أولئك الذين آمنوا بالله وآتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليهم) أي من القرآن لما في كتبهم
آمنوا به أولا تؤمنوا - إلى قوله - إن كان وعد ربنا لمفعولا) أي إن كان ما وعدنا الله به في كتبنا من إرسال محمد
ﷺ لحقا وصدقا ، ففعولا لا محالة وكائننا فسبحانه ما أصدق وعده فله الحمد وحده (ويخرون للأذقان يكون
ويزيدهم خشوعا) وقوله (ومن الأحزاب من ينكسر بعضه) أي ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليهم
وقال مجاهد (ومن الأحزاب) أي اليهود والنصارى (من ينكسر بعضه) أي بعض ما جاءك من الحق وكذا
قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهذا كما قال تعالى (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله) الآية (قل إنما
أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به) أي إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له كما أرسل الأنبياء من قبلي (إليه أَدْعُوا) أي إلى
سبيله أَدْعُوا النَّاسَ (وإليه مَتَابٌ) أي مرجعي ومصيري . وقوله (وكذلك أنزلناه حكما عربيا) أي وكما أرسلنا قبلك
المرسلين وأنزلنا عليهم الكتب من السماء كذلك أنزلنا عليك القرآن محكما معربا شرفناك به وفضلناك على من سواك بهذا
الكتاب المبين الواضح الجلي الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) وقوله (ولئن
اتبع آهواءهم) أي آراءهم (بعد ما جاءك من العلم) أي من الله سبحانه (مالك من الله من ولي ولا واق) وهذا وعيد
لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والحجة الحميدة على من جاء بها
أفضل الصلاة والسلام .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِدَهُ أَمْ أَلْكَتَابُ ﴾

يقول تعالى وكما أرسلناك يا محمد رسولا بشريا كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشريا يأكلون الطعام ويمشون
في الأسواق ويأتون الزوجات ويولد لهم وجعلنا لهم أزواجا وذرية وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم (قل
إنما أنا بشر مثلكم بوحى إلى) وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أما أنا أفأصوم وأفطر
وأقوم وأنام وآكل اللحم وأزويج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني » وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد أنبأنا الحجاج

ابن أُرطاة عن مكحول قال : قال أبو أيوب : قال رسول الله ﷺ « أربع من سنن من المرسلين . التعطر والنسكاح والسواك والحاء » وقد رواه أبو عيسى الترمذى عن سفيان بن وكيع عن حفص بن غيلان عن الحجاج عن مكحول عن أنى الشمال عن أنى أيوب فذكره ثم قال وهذا أصح من الحديث الذى لم يذكر فيه أبو الشمال وقوله (وما كان لرسول أن تأتي بآية إلا بإذن الله) أى لم يكن يأتي قومه بخارق إلا إذا أذن له فيه ليس ذلك إليه بل إلى الله عز وجل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد (لكل أجل كتاب) أى لكل مدة مضروبة كتاب مكتوب بها وكل شيء عنده بمقدار (ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير) وكان الضحاك ابن مزاحم يقول فى قوله (لكل أجل كتاب) أى لكل كتاب أجل يعنى لكل كتاب أنزله من السماء مدة مضروبة عند الله ومقدار معين فلهدا (يحجوا الله ما يشاء) منها (ويثبت) يعنى حتى نسخت كلها بالقرآن الذى أنزله الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، وقوله (يحجوا الله ما يشاء ويثبت) اختلف المفسرون فى ذلك فقال الثورى ووكيع وهشيم عن ابن أنى لىلى عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : يدبر أمر السنة فيمحوا الله ما يشاء إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت ، وفى رواية (يحجوا الله ما يشاء ويثبت) قال كل شيء إلا الموت والحياة والشقاء والسعادة فانهما قد فرغ منهما ، وقال مجاهد (يحجوا الله ما يشاء ويثبت) إلا الحياة والموت والشقاء والسعادة فانهما لا يتغيران ، وقال منصور سألت مجاهداً فقلت أرأيت دعاء أحدنا يقول : اللهم إن كان اسمى فى السعداء فأثبتته فيهم وإن كان فى الأشتياء فاحجه عنهم واجعله فى السعداء فقال حسن ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر فسألته عن ذلك فقال (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) الآيتين قال يقضى فى ليلة القدر ما يكون فى السنة من رزق أو مصيبة ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء ، فأما كتاب السعادة والشقاوة فهو ثابت لا يعبر ، وقال الأعمش عن أنى وائل شقيق بن سلمة إنه كان كثيراً يدعو بهذا الدعاء : اللهم إن كنت كتبنا أشتياء فاحجه واكتبنا سعداء وإن كنت كتبنا سعداء فأثبتنا فانك تمحو ما تشاء ونثبت وعندك أم الكتاب . رواه ابن جرير ، وقال ابن جرير أيضاً حدثنا عمرو بن على حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أنى عن أنى حكيمة عصمة^(١) عن أنى عثمان النهدي أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال وهو يطوف بالبيت ويكي : اللهم إن كنت كتبت على شقوة أو ذنباً فاحجه فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب ، فاجعله سعادة ومغفرة وقال حماد عن خالد الحذاء عن أنى قلابة عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه كان يدعو بهذا الدعاء أيضاً ورواه شريك عن هلال بن حميد عن عبد الله بن عليم عن ابن مسعود بمثله ، وقال ابن جرير حدثني الثنى حدثنا حجاج حدثنا خصاص^(٢) عن أنى حمزة عن إبراهيم أن كعباً قال لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين لولا آية فى كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة ، قال وما هى ؟ قال قول الله تعالى (يحجوا الله ما يشاء) الآية ومعنى هذه الأقوال أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها ويثبت منها ما يشاء ، وقد يستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان هو الثورى عن عبد الله بن عيسى عن عبد الله بن أبي الجعد عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ « إن الرجل ليحرم الرزق بالأنب يصبه ولا برد القدر إلا الدعاء ولا يزيد فى العمر إلا البر » ورواه النسائي وابن ماجه من حديث سفيان الثورى به ، وثبت فى الصحيح أن صلة الرحم تزيد فى العمر ، وفى حديث آخر « إن الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والأرض » وقال ابن جرير حدثني محمد بن سهل بن عسكر حدثنا عبد الرزاق أنا ابن جرير عن عطاء عن ابن عباس قال إن لله لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء لها دفتان من ياقوت — والدفتان لوحان — لله . كل يوم ثلاثمائة وستون لحظة يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب . وقال الليث بن سعد عن زيادة بن محمد عن محمد بن كعب القرظى عن فضالة بن عبيد عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ « يفتح الذكر فى ثلاث ساعات يبقين من الليل ، فى الساعة الأولى منها ينظر فى الذكر الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيمحوا ما يشاء ويثبت » وذكر تمام الحديث رواه ابن جرير وقال الكلبى يحجوا الله ما يشاء ويثبت قال يحجوا من الرزق ويؤيد فيه ، ويمحو من الأجل ويؤيد فيه ، فقيل له من حدثك بهذا ؟ فقال أبو صالح عن جابر بن عبد الله بن رباب عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم سئل بعد ذلك

(١) كلمة عصمة غير موجودة فى نسخة ابن جرير . (٢) وفيها : حماد .

عن هذه الآية فقال يكتب القول كله حتى إذا كان يوم الحيس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب مثل قولك أكلت وشربت دخلت وخرجت ونحو ذلك من الكلام وهو صادق ويثبت ما كان فيه الثواب وعليه العقاب ، وقال عكرمة عن ابن عباس : الكتاب كتابان فكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وقال العوفي عن ابن عباس في قوله (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) يقول هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة فهو الذي يمحو ؛ والذي يثبت الرجل يعمل بمعصية الله وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله وهو الذي يثبت ، وروى عن سعيد بن جبير أنها بمعنى (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير) وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (يمحو الله ما يشاء ويثبت) يقول يبدل ما يشاء فينسخه ويثبت ما يشاء فلا يبدله (وعنده أم الكتاب) وجهلة ذلك عنده في أم الكتاب الناسخ وما يثبت كل ذلك في كتاب ، وقال قتادة في قوله (يمحو الله ما يشاء ويثبت) كقوله (ما ننسخ من آية أو ننسها) الآية ، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله (يمحو الله ما يشاء ويثبت) قال قالت كفار قريش لما نزلت (وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله) ما نرى محمداً يملك شيئاً وقد فرغ من الأمر فأنزلت هذه الآية تخويفاً ووعيداً لهم إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا ونحدث في كل رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء من أرزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم وما يقسم لهم ، وقال الحسن البصري (يمحو الله ما يشاء ويثبت) قال من جاء أجله يذهب ويثبت الذي هو حي يجرى إلى أجله ، وقد اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير رحمه الله وقوله (وعنده أم الكتاب) قال الحلال والحرام ، وقال قتادة أى جملة الكتاب وأصله ، وقال الضحاك (وعنده أم الكتاب) قال كتاب عند رب العالمين ، وقال سنيد بن داود حدثني معتمر عن أبيه عن يسار عن ابن عباس أنه سأل كعباً عن أم الكتاب فقال : علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون ثم قال لعلمه : كن كتاباً فكان كتاباً ، وقال ابن جريج عن ابن عباس (وعنده أم الكتاب) قال الله كر .

﴿ وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفِّيكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

يقول تعالى لرسوله (وإما نرينك) يا محمد بعض الذي نعد أعداءك من الخزي والنكال في الدنيا (أو نتوفيك) أى قبل ذلك (فإنما عليك البلاغ) أى إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله وقد فعلت ما أمرت به (وعلينا الحساب) أى حسابهم وجزاؤهم كقوله تعالى (فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر * إلا من تولى وكفر * فيعذبه الله العذاب الأكبر * إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم) وقوله (أو لم يروا أن تأتي الأرض تنقصها من أطرافها) قال ابن عباس أو لم يروا أن تنفتح لمحمد صلى الله عليه وسلم الأرض بعد الأرض ، وقال في رواية أو لم يروا إلى القرية تخرب حتى يكون العمران في ناحية وقال مجاهد وعكرمة تنقصها من أطرافها قال خرابها ، وقال الحسن والضحاك هو ظهور المسلمين على المشركين ، وقال العوفي عن ابن عباس : نقصان أهلها وبركتها وقال مجاهد نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض ، وقال الشعبي لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشك ولكن تنقص الأنفس والثمرات وكذا قال عكرمة لو كانت الأرض تنقص لم تجد مكاناً تقعد فيه ولكن هو الموت . وقال ابن عباس في رواية خرابها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها ، وكذا قال مجاهد أيضاً : هو موت العلماء ، وفي هذا المعنى روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أحمد بن عبد العزيز أبي القاسم المصري الواعظ سكن أصفهان حدثنا أبو محمد طلحة بن أسد الرى بدمشق أنشدنا أبو بكر الأجرى بمكة قال أنشدنا أحمد بن نمرال لنفسه .

الأرض تحيا إذا ما عاش علمها * متى يموت عالم منها يموت طرف

كالأرض تحيا إذا ما أغيث حل بها * وإن أبى عادى كفافها التالف

والقول الأول أولى وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية كقوله (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى)

الآية وهذا اختيار ابن جرير .

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَعَالُ الْكَفَرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾

يقول تعالى (وقد مكر الذين من قبلهم) يرسلهم وأرادوا إخراجهم من بلادهم فمكر الله بهم وحمل العاقبة للمتقين كقوله (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين) وقوله تعالى (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنادمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) الآيتين ، وقوله (يعلم ما تكسب كل نفس) أى أنه تعالى عالم بجميع السرائر والصائر وسيحرق كل عامل بعمله (وسيعلم الكافر) والقراءة الأخرى الكفار (لمن عقي الدار) أى لمن تكون الدائرة والعاقبة لهم أو لأتباع الرسل ، كلا ، بل هى لأتباع الرسل فى الدنيا والآخرة والله الحمد والمنة

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾

يقول تعالى يكذبك هؤلاء الكفار ويقولون (لست مرسلا) أى ما أرسلك الله (قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم) أى حسبى الله هو الشاهد على وعليكم ، شاهد على فيما بلغت عنه من الرسالة وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من الهتان ، وقوله (ومن عنده علم الكتاب) قيل نزلت فى عبد الله بن سلام . قاله مجاهد وهذا القول غريب لأن هذه الآية مكية ، وعبد الله بن سلام إنما أسلم فى أول مقدم النبي ﷺ المدينة ، والأظهر فى هذا ما قاله العوفي عن ابن عباس قال هم من اليهود والنصارى ، وقال قادة منهم ابن سلام وسلمان وتميم الدارى ، وقال مجاهد فى رواية عنه هو الله تعالى وكان سعيد بن جبير ينسب أن يكون المراد بها عبد الله بن سلام ويقول هى مكية وكان يقرأها (ومن عنده علم الكتاب) ويقول من عند الله ، وكذا قرأها مجاهد والحسن البصرى . وقد روى ابن جرير من حديث هارون الأعور عن الزهرى عن سالم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأها (ومن عنده علم الكتاب) ثم قال لأصله من حديث الزهرى عند الثقات ، قلت وقد رواه الحافظ أبو يعلى فى مسنده من طريق هارون بن موسى هذا عن سليمان ابن أرقم وهو ضعيف عن الزهرى عن سالم عن أبيه مرفوعا كذلك ولا يثبت والله أعلم . والصحيح فى هذا أن (ومن عنده) اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجحدون صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته فى كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به كما قال تعالى (ورحمى وسعت كل شئ فسا كتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآبائنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجحدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل) الآية ، وقال تعالى (أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل) الآية وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بنى إسرائيل أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة . وقد ورد فى حديث الأخبار عن عبد الله بن سلام بأنه أسلم بمكة قبل الهجرة . قال الحافظ أبو نعيم الاصبهاني فى كتاب دلائل النبوة وهو كتاب جليل حدثنا سليمان بن أحمد الطبراني حدثنا عبدان بن أحمد حدثنا محمد بن مصفى حدثنا الوليد بن مسلم عن محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده عبد الله بن سلام أنه قال لأخبار اليهود إنى أردت أن أحدث بمسجد أبينا إبراهيم وإسماعيل عهدا فانطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فوافاهم وقد انصرفوا من الحج فوجد رسول الله ﷺ بنى والناس حوله تقام مع الناس ، فلما نظر إليه رسول الله ﷺ قال « أنت عبد الله بن سلام ؟ » قال قلت نعم ؛ قال « ادن » قال فدنوت منه قال « أنشدك بالله يا عبد الله ابن سلام أما تجدنى فى التوراة رسول الله ؟ » فقلت له انعت ربنا ، قال فجاء جبريل حتى وقف بين يدى رسول الله ﷺ فقال له (قل هو الله أحد الله الصمد) إلى آخرها ، فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابن سلام أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، ثم انصرف ابن سلام إلى المدينة فحكم إسلامه ، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وأنا فوق نخلة لى أجدها فألقيت نفسى فقالت أمى : لله أنت لو كان موسى بن عمران ما كان

لك أن نأفي نفسك من رأس الدجلة فقلت والله لأننا أسر بقدم رسول الله ﷺ من موسى بن عمران إذ بعث . وهذا حديث غريب جدا آخر تفسير سورة الرعد والله الحمد والله

﴿ تفسير سورة إبراهيم عليه السلام وهي مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الرَّكِيبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور (كتاب أنزلناه إليك) أي هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد وهو القرآن العظيم الذي هو أشرف كتاب أنزل الله من السماء على أشرف رسول بعثه الله في الأرض إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) أي إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي إلى الهدى والرشد كما قال تعالى (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولئذ لهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) الآية . وقال تعالى (هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور) الآية وقوله (بإذن ربهم) أي هو الهادي لمن قدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره يهديهم (إلى صراط العزيز) أي العزيز الذي لا يمانع ولا يغالب بل هو القاهر لكل ما سواه (الحمد) أي الحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وأمره ونهيه الصادق في خبره وقوله (الله الذي له ما في السموات وما في الأرض) قرأ بعضهم مستأنفاً مرفوعاً وقرأ آخرون على الاتباع صفة للجلالة كقوله تعالى (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض) الآية وقوله (وويل للكافرين من عذاب شديد) أي ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوا يا محمد وكذبوك، ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة أي يقدمونها ويؤثرونها عليها ويعملون للدنيا ونسوا الآخرة ونزكوها وراء ظهورهم (ويصدون عن سبيل الله) وهي اتباع الرسل (ويبغونها عوجاً) أي ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عاثلة وهي مستقيمة في نفسها لا يضرها من خالفها ولا من خذلها فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق لا يرجي لهم والحالة هذه صلاح

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ ﴾

هذا من لطفه تعالى بخلقه أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم كما روى الأمام أحمد حدثنا وكيع عن عمر بن ذر قال: قال مجاهد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ «لم يبعث الله عز وجل نبياً إلا بلغه قومه» وقوله (يفضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) أي بعد البيان وإقامة الحجج عليهم يضل الله من يشاء عن وجه الهدى ويهدي من يشاء إلى الحق (وهو العزيز) الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن (الحكيم) في أفعاله يفضل من يستحق الضلال ويهدي من هو أهل لذلك، وقد كانت هذه سنته في خلقه أنه ما بعث نبياً في أمة إلا أن يكون بلغتهم فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم واختص محمد بن عبد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم بموم الرسالة إلى سائر الناس كما ثبت في الصحيحين عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » وله شواهد من وجوه كثيرة وقال تعالى (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

يقول تعالى وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس كلهم تدعوهم إلى الخروح من الظلمات إلى النور كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا قال مجاهد : هي التسع الآيات (أن أخرج قومك) أي أسرناه قائلين له (أخرج قومك من الظلمات إلى النور) أي ادعهم إلى الخير ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان (وذكرهم بآيات الله) أي بآياده ونعمه عليهم في إخراجهم من أسر فوعون وقهره وظلمه وغشمة وإنجائه إياهم من عدوهم وقلقه لهم البحر وتظليله إياهم العماء وانزاله عليهم المن والسلوى إلى غير ذلك من نعم قال ذلك مجاهد وقبادة وغير واحد ، وقد ورد فيه الحديث المرفوع الذي رواه عبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل في مسند أبيه حيث قال حدثني يحيى بن عبدالله مولى بني هاشم حدثنا محمد بن أبان الجعفي عن أبي إسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (وذكرهم بآيات الله) قال بعم الله ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث محمد بن أبان به ورواه عبدالله بن أبيه أيضاً موقوفاً وهو أشبه ، وقوله (إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) أي إن فيها صنعا بأوليائنا بني إسرائيل حين ألقوا بهم من يد فرعون وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهيئ لعبارة لكل صبار أي في الضراء شكور أي في السراء كما قل قبادة نعم العبد عبد إذا ابتلى صبر وإذا أعطى شكر . وكذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن أمر المؤمن كله عجب لا يقص الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته صراء صبر فكان خيراً له وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له »

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ * وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى حين ذكر قومه بآيات الله عندهم ونعمه عليهم إذا أنجاهم من آل فرعون وما كانوا يسومونهم به من العذاب والاذلال ، حيث كانوا يذبجون من وجد من أبنائهم ويتركون إناهم فأقدهم الله - من ذلك وهذه نعمة عظيمة ولهذا قال (وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم) أي نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك أنتم عاجزون عن القيام بشكرها . وقيل وفيما كان يصنعهم بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل (بلاء) أي اختبار عظيم ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا والله أعلم كقوله تعالى (وبلوهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) وقوله (وإذ تأذن ربكم) أي آدابكم وأعلمكم بوعده لكم ، ويحتمل أن يكون المعنى : وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه كقوله تعالى (وإذ تأذن ربك ليعتقن عليهم إلى يوم القيامة) وقوله (لئن شكرتم لأزيدنكم) أي لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها (ولئن كفرتم) أي كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها (إن عذابي لشديد) وذلك بسلبها عنهم وعقابه إياهم على كفرها وقد جاء في الحديث « إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه » وفي السند أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر به سائل

فأعطاه تمره فتسخطها ولم يقبلها ثم مر به آخر فأعطاه إياها فقبلها وقال تمره من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر له أربعين درهما أو كما قال : قال الإمام أحمد حدثنا أسود حدثنا عمارة الصيدلاني عن ثابت عن أنس قال أتى النبي ﷺ سائل فأمر له بتمره فلم يأخذها أو وحش بها - قال - وأتاه آخر فأمر له بتمره فقال سبحان الله تمره من رسول الله ﷺ فقال للجارية « اذهبي إلى أم سلمة فأعطيه الأربعين درهما التي عندها » تفرد به الإمام أحمد وعمار بن زاذان وثقه ابن حبان وأحمد ويعقوب بن سفيان ، وقال ابن معين : صالح وقال أبو زرعة لأبأس به وقال أبو حاتم يكتب حديثه ولا يحتج به ليس بالمتين ، وقال البخاري ربما يضطرب في حديثه وعن أحمد أيضا أنه قال روى أحاديث منكورة ، وقال أبو داود ليس بذلك وضعفه الدارقطني وقال ابن عدى لأبأس به ممن يكتب حديثه

وقوله تعالى (وقال موسى إن تكفروا أتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد) أي هو غني عن شكر عباده وهو الحمد المحمود وإن كفره من كفره كقوله (إن تكفروا فإن الله غني عنكم) الآية وقوله (فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد) وفي صحيح مسلم ^(١) عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ماقص ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ماقص ذلك من ملكي شيئا إلا كناية نقص الخيط إذا دخل البحر » فسبحانه وتعالى الغني الحميد

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾

قال ابن جرير هذا من تمام قول موسى لقومه يعني وتذكيره إياهم بأيام الله بانتقامه من الأمم المكذبة بالرسل ، وفيما قال ابن جرير نظر ، والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة فإنه قد قبل إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة فلمكان هذا من كلام موسى لقومه وقصصه عليهم لاشك أن تكون هاتان القصتان في التوراة والله أعلم وبالجملة فالله تعالى قد قص علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل مما لا يحصى عددهم إلا الله عز وجل (جاءتهم رسلهم بالبينات) أي بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات ، وقال ابن إسحق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله أنه قال في قوله (لا يعلمهم إلا الله) كذب النسابون وقال عروة بن الزبير ما وجدنا أحدا يعرف ما بعد معد بن عدنان وقوله (فردوا أيديهم في أفواههم) اختلف المفسرون في معناه قيل معناه أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرهم بالسكوت عنهم لما دعواهم إلى الله عز وجل وقيل بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكديبا لهم ، وقيل بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل وقال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة : معناه أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم قال ابن جرير وتوجيه أن في هنا معنى الباء قال وقد سمع من العرب أدخلك الله بالجنة يعنون في الجنة ، وقال الشاعر :

وأرغب فيها عن لقيط ورهطه * ولكنني عن سننيس لست أرغب

يريد أرغب بها قلت ويؤيد قول مجاهد تفسير ذلك بتمام الكلام (وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب) فكأن هذا والله أعلم تفسير لمعنى (فردوا أيديهم في أفواههم) وقال سفيان الثوري وإسرائيل عن أبي إسحق عن أبي الأحوص عن عبد الله في قوله (فردوا أيديهم في أفواههم) قال عضوا عليها غيظا وقال شعبة عن أبي إسحق عن أبي هبيرة بن مريم عن عبد الله أنه قال ذلك أيضا ، وقد اختاره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ووجهه ابن جرير مختار له بقوله تعالى عن المنافقين (وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) وقال العوفي عن ابن عباس لما سمعوا كلام الله عجبوا ورجعوا

بأيديهم إلى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلنا به الآية يقولون لا نصديقكم فيها جثمت به فان عندنا فيه شك قوبا
 ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ
 إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصَدُّونَا عَلَّمَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ
 مُّبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ
 لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ
 وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿

نخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة وذلك أن أمهم لما واحبهم بالشك فيما جاءهم به من عبادة
 الله وحده لا شريك له قالت الرسل (أفى الله شك) وهذا يحتمل شيئين (أحدهما) أفى وجوده شك فان الفطر مشاهدة بوجوده
 ومجولة على الاقرار به فان الاعتراف به ضرورى فى الفطر السليمة ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطرار ففتحناج
 إلى النظر فى الدليل الموصول إلى وجوده ولهذا قالت لهم الرسل ترشدكم إلى طريق معرفته بأنه (فاطر السموات والأرض)
 الذى خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق فان شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر علمه ما فلا بد لهما من صانع
 وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء وإلاه ومليكه، والمعنى الثانى فى قولهم (أفى الله شك) أى أفى إلهيته وتفرد به بوجوب
 العبادة له شك وهو الخالق لجميع الموجودات ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له فان غالب الأمم كانت مقرة
 بالصانع ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التى يظنونها تنفعهم أو تضرهم من الله زلفى، وقالت لهم رسلهم (يدعوكم ليغفر
 لكم من ذنوبكم) أى فى الدار الآخرة (ويؤخركم إلى أجل مسمى) أى فى الدنيا كما قال تعالى (وأن استغفروا ربكم ثم
 توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله) الآية فقالت لهم الأمم محاجين فى مقام الرسالة
 بعد تقدير تسليمهم المقام الأول وحاصل ما قالوه (إن أنتم إلا بشر مثلنا) أى كيف تتبعكم بمجرد قولكم ولما نر منكم
 معجزة (فأتونا بسطان مبین) أى خارق تقترحه عليكم (قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم) أى صحيح أنا بشر
 مثلكم فى البشرية (ولكن الله يمين على من يشاء من عباده) أى بالرسالة والنبوة (وما كان لنا أن نأتىكم بسطان) على وفق
 ما سألتم (إلا بإذن الله) أى بعد سؤالنا إياه وإذنه لنا فى ذلك (وعلى الله فليتكول المؤمنون) أى فى جميع أمورهم ثم قالت الرسل
 (وما لنا أن لا تتوكل على الله) أى وما يمنعنا من التوكل عليه وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها (ولنصبرن على
 ما آذيتمونا) أى من الكلام السيئ والأفعال السخيفة (وعلى الله فليتكول المتوكلون) .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ
 الظَّالِمِينَ * وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ * وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ
 جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ
 مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿

نخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الاخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم كما قال قوم شعيب له ولمن
 آمن به (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا) الآية. وكما قال قوم لوط (أخرجوا آل لوط من قريبتكم) الآية
 وقال تعالى إخباراً عن مشركى قريش (وإن كادوا ليستقروا لك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك

إلا قايلاً) وقال تعالى (وإدعكم بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) وكان من صنعه تعالى أنه أظهر رسوله ونصره وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصاراً وأعواناً وحنداً يقاتلون في سبيل الله تعالى ولم يزل يرقه تعالى من شيء إلى شيء حتى فتح له مكة التي أخرجته ومكن له فيها وأرغم أنوف أعدائهم منهم من سائر أهل الأرض حتى دخل الناس في دين الله أفواجا وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأدبان في مشارق الأرض ومغاربها في أسير رمان ولهذا قال تعالى (فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم كما قال) (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين* إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون) وقال تعالى (كتب الله لأعلن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز) وقال تعالى (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر) الآية (وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) وقال تعالى (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) وقوله (ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد) أي وعيدي هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة وخشى من وعيدي وهو تخويفي وعذابي كما قال تعالى (فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى) وقال (ولمن حاف مقام ربه جنتان) وقوله (واستفتحوا) أي استنصرت الرسل ربها على قومها قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم استفتحت الأمم على أنفسها كما قالوا (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) ويحتمل أن يكون هذا مراداً وهذا مراداً كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر واستفتح رسول الله ﷺ واستنصر ، وقال الله تعالى للمشركين (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم) الآية والله أعلم (وخاب كل جبار عنيد) أي متجبر في نفسه عنيد معاند للحق كقوله تعالى (ألقيا في جهنم كل كفار عنيد ، منع للخبر معتد مريب ، الذي جعل مع الله إلهاً آخر فآلتياء في العذاب الشديد) وفي الحديث «انه يؤتى بحجهم يوم القيامة فتنادى الحلائق فقولوا إني وكلت بكل جبار عنيد» الحديث . خاب وخسر حين اجتهد الأنبياء في الانبهاً إلى ربها العزيز المقتدر ، وقوله (من ورائه جهنم) وراء هنا بمعنى أمام كقوله تعالى (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) وكان ابن عباس يقرأها وكان أمامهم ملك أي من وراء الجبار العنيد جهنم أي هي له بالرصاد يسكنها مخلداً يوم المعاد ويعرض عليها غدواً وغشياً إلى يوم التناد (ويسقي من ماء صديد) أي في النار ليس له شراب إلا من حميم وغساق فهذا حار في غاية الحرارة وهذا بارد في غاية البرد والتن كما قال (هذا فيلذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج) وقال مجاهد وعكرمة : الصديد من القيح والدم ، وقال قتادة هو ما يسيل من لحمه وجلده وفي رواية عنه الصديد ما يخرج من جوف الكافر قد خالط القيح والدم ، وفي حديث شهر بن حوشب عن أسماء بنت زيد ابن السكن قالت قلت يا رسول الله ما طينة الجبال قال « صديد أهل النار » وفي رواية « عصارة أهل النار » وقال الإمام أحمد حدثنا علي بن إسحق أنبأنا عبد الله أنا صفوان بن عمرو عن عبيد الله بن بشر عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله (ويسقي من ماء صديد يتجرعه) قال « يقرب إليه فيتكرهه فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره » يقول الله تعالى (وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم) ويقول (وإن يسغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه) الآية ، وهكذا رواه ابن جرير من حديث عبد الله بن المبارك به ورواه هو وابن أبي حاتم من حديث بهية بن الوليد عن صفوان بن عمرو به ، وقوله (يتجرعه) أي يتغصصه ويتكرهه أي يشربه فهرا وقسرا لا يصعه في فمه حتى يصربه الملك بمطارق من حديد كما قال تعالى (ولهم مقامع من حديد) (ولا يكاد يسيغه) أي يردده لسوء طعمه ولونه وريحه وحرارته أو برده الذي لا يستطيع (ويأتيه الموت من كل مكان) أي يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعصائه قال عمرو بن ميمون بن مهران من كل عظم وعصب وعرق ، وقال عكرمة حتى من أطراف شعره ، وقال إبراهيم التيمي من موضع كل شعرة أي من جسده حتى من أطراف شعره وقال ابن جرير (ويأتيه الموت من كل مكان) أي من أمامه وخلفه وفي رواية وعن يمينه وشماله ومن فوقه

ومن تحت أرجله ومن سائر أعضاء جسده ، وقال الضحاك عن ابن عباس (ويأتيه الموت من كل مكان) قال أنواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه لو كان يموت ولكن لا يموت لأن الله تعالى قال (لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها) ومعنى كلام ابن عباس رضى الله عنه أنه مامن نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت ولكنه لا يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال ولهذا قال تعالى (ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت) وقوله (ومن وراءه عذاب غليظ) أى وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ أى مؤلم صعب شديد أغلظ من الذى قبله وأدهى وأمر وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم (إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم * طلعها كأنه رؤوس الشياطين * فإنهم لا كلون منها فما لثون منها البطون * ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم * ثم إن مرجعهم لالى الجحيم) فاخبر أنهم تارة يكونون فى أكل زقوم وتارة فى شرب حميم وتارة يردون إلى جحيم عياداً بالله من ذلك وهكذا قال تعالى (هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن) وقال تعالى (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ، كالمهل يعلى فى الطون كغلى الحمم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحمم ، ذق إنك أناب العزيز الكريم ، إن هذا ما كنتم به تمترون) وقال (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال فى سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم) وقال تعالى (هذا وإن للطاغين لشر مآب ، جهنم يصلونها فبئس المهاد ، هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم وتكراره وأنواعه وأشكاله مما لا يحصىه إلا الله عز وجل جزاء وفاقا (وما ربك بظلام للعبيد)

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره وكذبوا رسله ونوا أعمالهم على غير أساس صحيح فانها رت وعدموها أحوج ما كانوا إليها ، فقال تعالى (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم) أى مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء فلم يحمدوا شيئاً ولا ألفوا حاصل إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة (فى يوم عاصف) أى دى ريح شديدة عاصفة قوية فلم يقدرُوا على شيء من أعمالهم التى كسبوا فى الدنيا إلا كما يقدرُونَ على جمع هذا الرماد فى هذا اليوم كقوله تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) وقوله تعالى (مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله . ولكن أنفسهم يظلمون) وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالبن والأذى كالذى ينفق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثل كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرُونَ على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين) وقوله فى هذه الآية (ذلك هو الضلال البعيد) أى سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه (ذلك هو الضلال البعيد)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ إِذْ هَبَّ نَفْسُهُ قَالَ إِنِّي أَتَّبِعُكَ وَمَا أَنَا بِمُتَّبِعٍ لَكَ إِنِّي أَنَا عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة بأنه خلق السموات والأرض التى هى أكبر من خلق الناس أفليس الذى قدر على خلق هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات والحركات المختلفة والآيات الباهرات وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد وبرارى وصحارى وقفار وبحار وأشجار ونبات وحيوان على اختلاف أصنافها ومنافعها وأشكالها وألوانها (أولم يروا أن الله الذى خلق

السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ، بل إنه على كل شيء قدير) وقال تعالى (أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ؟ * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون * أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون) وقوله (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز) أى بعظيم ولا ممتنع بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره أن يذهبكم ويأت بآخرين على غير صفتكم كما قال (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز) وقال (وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم * ثم لا يكونوا أمثالكم) وقال (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) وقال إن يشأ يذهبكم ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَقُلْ أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءَ عَلَيْنَا أَجَزْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾

يقول تعالى (وبرزوا) أى برزت الخلائق كلها برها وفاجرها لله الواحد القهار أى اجتمعوا له فى براز من الارض وهو المكان الذى ليس فيه شيء يستتر أحدا (فقال الضعفاء) وهم الاتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم (للذين استكبروا) عن عبادة الله وحده لا شريك له وعن موافقة الرسل قالوا لهم (إنا كنا لكم تبعا) أى مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا (فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء) أى فهل تدفعون عنا شيئا من عذاب الله كما كنتم تعدوننا وتمنوننا فقالت القادة لهم (لو هدانا الله لهديناكم) ولكن حق علينا قول ربنا وسبق فينا وفيكم قدر الله وحقت كلمة العذاب على الكافرين (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) أى ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه وأجزعنا منه . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إن أهل النار قال بعضهم لبعض تعالوا فأنما أدرك أهل الجنة الجنة يسكاهم وتضرعهم إلى الله عز وجل تعالوا نبك وتضرع إلى الله فبكوا وتضرعوا فلما رأوا أنه لا ينفعهم قالوا إنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر تعالوا حتى نصبر فصبروا صبرا لم ير مثله فلم ينفعهم ذلك فعند ذلك قالوا (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا) الآية ، قلت والظاهر أن هذه المراجعة فى النار بعد دخولهم إليها كما قال تعالى (وإذا يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبع فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ، قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد) وقال تعالى (قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ؛ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون * وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) وقال تعالى (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا) وأما تخاصمهم فى المحشر فقال تعالى (ولو ترى إذا الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكننا مؤمنين قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أن نحن صددناكم عن الهدى بعد إذا جاءكم ، بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تماروننا أن نكفر بالله ونجعل له اندادا وأسروا الندامة لما راوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون)

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ

سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ
إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَأَدْخِلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
جَنَّاتٍ نَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿١٠٠﴾

يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعد ما قضى الله بين عباده فأدخل المؤمنين الجنت ، وأسكن الكافرين الدركات ،
فقام فبهن إبليس لعنه الله يومئذ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم وغيباً إلى غيبهم وحسرة إلى حسرتهم فقال (إن الله
وعدكم وعد الحق) أى على ألسنة رسله ووعدهم فى اتباعهم النجاة والسلامة وكان وعداً حقاً وخبراً صدقاً وأما أنا
فوعدتكم فأخلفتكم كما قال الله تعالى (بعدهم ويمنيهم وما بعدهم الشيطان لإغروراً) ثم قال (وما كان لى عليكم من سلطان)
أى ما كان لى عليكم فما دعوتكم إليه دليل ولا حجة فيما وعدتكم به (إلا أن دعوتكم فاستجبت لى) بمجرد ذلك هذا وقد أقامت
عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به فخالقتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه (فلا تلومونى) اليوم
(ولوموا أنفسكم) فإن الذنب لكم لكونكم خالقم الحجاج واتبعتهم بمرجود ما دعوتكم إلى الباطل (ما أنا بمصريحكم)
أى بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه (وما أنتم بمصريحى) أى بنافعى بانقاذى مما أنا فيه من العذاب والنكال (إنى كفرت
بما أشركتمون من قبل) قال قتادة أى بسبب ما أشركتمون من قبل ، وقال ابن جرير يقول إنى وجدت أن أكون
شريكاً لله عز وجل وهذا الذى قاله هو الراجح كما قال تعالى (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى
يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وقال (كلا سيكفرون
بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً) وقوله (إن الظالمين) أى فى إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل لهم عذاب أليم والظاهر
من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار كما قدمنا ولكن قد ورد فى حديث رواه ابن أبى
حاتم وهذا لفظه وابن جرير من رواية عبد الرحمن بن زياد : حدثنى دخين الحجرى عن عقبه بن عامر عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا جمع الله الأولين والآخرين فقصى بينهم ففرغ من القضاء قال المؤمنون قد قضى بيننا
ربنا فمن يشفع لنا ؟ فيقولون انطلقوا بنا إلى آدم وذكر نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى فيقول عيسى أدلكم على النبى
الأبى فيأتونى فيأذن الله لى أن أقوم إليه فيثور من مجلسى من أطيب ريح شمسها أحدهم حتى آتى ربه فيشفعنى ويجعل لى
نورا من شعر رأسى إلى ظفر قدمى ثم يقول الكافرون هذا قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ؟ ما هو إلا إبليس
هو الذى أضلنا ، فيأتون إبليس فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا فإنك أنت أضللتنا فيقوم
فيثور من مجلسه من أثنى ريح شمسها أحدهم ثم يعظم نحيبهم (وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق
ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبت لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم) « وهذا
سياق ابن أبى حاتم ورواه المبارك عن رشدين بن سعد عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن دخين عن عقبه بن مرفوعا ،
وقال محمد بن كعب القرظى رحمه الله لما قال أهل النار (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) قال لهم إبليس
(إن الله وعدكم وعد الحق) الآية فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم فنودوا (لقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون
إلى الإيمان فتكفرون) وقال عامر الشعبي يقوم خطيبان يوم القيامة على رؤوس الناس يقول الله تعالى لعيسى بن مريم
(أأنت قلت للناس اتخذونى وأبى إلهين من دون الله ؟) إلى قوله (قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) قال ويقوم
إبليس لعنه الله فيقول (وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبت لى) الآية . ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء
وما صاروا إليه من الخزي والنكال ، وأن خطيبهم إبليس عطف بمآل السعداء فقال (وأدخل الذين آمنوا وعملوا
الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار) سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا (خالدين فيها) ما كثرين أبداً لا يحولون
ولا نزولون (بإذن ربهم تحييتهم فيها سلام) كما قال تعالى (حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم)

وقال تعالى (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليهم) وقال تعالى (ويلقون فيها بحية وسلاما) وقال تعالى (دعواهم فيها سبحانك اللهم ونخيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين)

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله (مثلا كلمة طيبة) شهادة أن لا إله إلا الله (كشجرة طيبة) وهو المؤمن (أصلها ثابت) يقول لا إله إلا الله في قلب المؤمن (وفرعها في السماء) يقول يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء وهكذا قال الضحاك وسعيد ابن جبير وعكرمة ومجاهد وغير واحد إن ذلك عبارة عن عمل المؤمن وقوله الطيب وعمله الصالح وإن المؤمن كشجرة من النخل لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت وصباح ومساء وهكذا رواه السدي عن مرة عن ابن مسعود قال هي النخلة وشعبة عن معاوية بن قره عن أنس هي النخلة ، وحماد بن سلمة عن شعيب بن الحجاب عن أنس أن رسول الله ﷺ أتى بقتاع بسر فقرأ (مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة) قال هي النخلة ، وروى من هذا الوجه ومن غيره عن أنس موقوفا وكذا نص عليه مسروق ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وغيرهم ، وقال البخاري حدثنا عبيد بن إسماعيل عن أبي أسامة عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « أخبروني عن شجرة تشبه - أو - كالرجل المسلم لا يتحات ورقها صيفا ولا شتاء وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها » قال ابن عمر فوقع في نفسي أنها النخلة ورأيت أنا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتسكما فلما لم يقولوا شيئا قال رسول الله ﷺ « هي النخلة » فلما قمنا قلت لعمر يا أبتاه والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة . قال ما معك أن تتكلم ؟ قلت لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتسكما أو أقول شيئا ، قال عمر : لأن تكون قلقتا أحب إلى من كذا وكذا ، وقال أحمد حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد صحبت ابن عمر إلى المدينة فلم أسمعهم يحدث عن رسول الله ﷺ إلا حديثاً واحداً قال كنا عند رسول الله ﷺ فأبى بجمار فقال « من الشجر شجرة مثلها مثل الرجل المسلم » فأردت أن أقول هي النخلة فنظرت فإذا أنا أصغر القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هي النخلة » أخرجه . وقال مالك وعبد العزيز عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما لأصحابه « إن من الشجر شجرة لا يطرح ورقها مثل المؤمن » قال فوقع الناس في شجر البوادي ووقع في قلبي أنها النخلة فاستحييت حتى قال رسول الله ﷺ « هي النخلة » أخرجه أيضا ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا أبان يعني ابن زيد العطار حدثنا قتادة أن رجلا قال يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور ، فقال « أرايت لو عمد إلى متاع الدنيا فركب بعضه على بعض أكان يبلغ السماء ، أفلا أخبرك بعمل أصله في الأرض وفرعه في السماء ؟ » قال ما هو يا رسول الله ؟ قال « تقول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله عشر مرات في دبر كل صلاة فذلك أصله في الأرض وفرعه في السماء » وعن ابن عباس (كشجرة طيبة) قال هي شجرة في الجنة وقوله (تؤتي أكلها كل حين) قيل غدوة وعشيا وقيل كل شهر وقيل كل شهرين وقيل كل سنة أشهر وقيل كل سبعة أشهر وقيل كل سنة ، والظاهر من السياق أن المؤمن مثله كشجرة لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف أو شتاء أو ليل أو نهار كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح أثناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين (بإذن ربها) أي كاملا حسنا كثيرا طيبا مباركا (ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) وقوله تعالى (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة) هذا مثل كافر الكافر لأصله ولا ثبات مشبه بشجرة الخنظل ويقال لها الشريان رواه شعبة عن معاوية بن أبي قره عن أنس بن مالك : أنها شجرة الخنظل ، وقال أبو بكر البزار الحافظ حدثنا يحيى بن محمد السكوني حدثنا أبو زيد سعيد بن الربيع حدثنا شعبة عن معاوية بن

قرة عن أنس أحسبه رفعه قال (مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة) قال هي النخلة (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة) قال هي الشريان ثم رواه عن محمد بن الثني عن غندر عن شعبة عن معاوية عن أنس موقوفاً ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد هو ابن سلمة عن شعيب بن الحجاب عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة) هي الحنظلة » فأخبرت بذلك أبا العالية فقال : هكذا كنا نسمع ، ورواه ابن جرير من حديث حماد بن سلمة به ورواه أبو يعلى في مسنده بأبسط من هذا فقال حدثنا غسان عن حماد عن شعيب عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بقرع عليه بسر فقال (مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها) فقال « هي النخلة » (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة احتثت من فرق الأرض مالها من قرار) قال هي الحنظل » قال شعيب فأخبرت بذلك أبا العالية فقال : كذلك كنا نسمع . وقوله (اجثت) أى استوصلت (من فوق الأرض مالها من قرار) أى لا أصل لها ولا ثبات ، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع ولا يصعد للكافر عمل ولا يتقبل منه شيء .

﴿ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾

قال البخارى حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة أخبرني علقمة بن مرثد قال سمعت سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله فذلك قوله (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) » ورواه مسلم أيضاً وبقية الجماعة كلهم من حديث شعبة به ، وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وفي يده عود ينكت به في الأرض فرفع رأسه فقال « استعينوا بالله من عذاب القبر » مرتين أو ثلاثاً ثم قال « إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كان وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يحىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان - قال - فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملاء من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تلها حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة فيقول الله اكتبوا كتاب عبدى في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى قال فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك ؟ فيقول ربى الله فيقولان له ما دينك ؟ فيقول دينى الإسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هو رسول الله فيقولان له وما علمك ؟ فيقول قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة - قال - فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذى كنت يسرك هذا يومك الذى كنت توعده فيقول له من أنت فوجهك الوجه الذى يأتى بالخير فيقول أنا عمالك الصالح فيقول رب أقم الساعة رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى - قال - وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح فجلسوا منه مد البصر ثم يحىء ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الخبيثة : اخرجي

إلى سخط من الله وغضب - قال - فترق في جسده فينتزع كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح فيخرج منها كأن ربح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الحبيثة ؟ فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمي بها في الدنيا حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له - ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) فيقول الله اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فتطرح روحه طرحا - ثم قرأ (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق) فتعادر روحه في حسده ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له من ربك ؟ فيقول هاهاه لا أدري فيقول هاهاه لا أدري فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول هاهاه لا أدري فينادى منادى من السماء أن كذب عبدي فأفرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشر بالذي يسوؤك هذا يومك الذي كنت توعده فيقول ومن أنت فوجهك الوجه يجيء بالشر فيقول أنا عملك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة » ورواه أبو داود من حديث الأعمش والنسائي وابن ماجة من حديث المنهال بن عمرو به ، وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن يونس بن حبيب عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة فذكر نحوه وفيه « فإذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وفتحت أبواب السماء ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله عز وجل أن يعرج بروحه من قبلهم » وفي آخره « ثم يقبض له أعمى أصم أبكم وفي يده مرزبة لو ضرب بها جبل لكان ترابا فيضربه ضربة فيصير ترابا ثم يعيده الله عز وجل كما كان فيضربه ضربة أخرى فيصبح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين » قال البراء ثم يفتح له باب إلى النار ويمهد له من فرش النار ، وقال سفيان الثوري عن أبيه عن خيشمة عن البراء في قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) قال عذاب القبر . وقال المسعودي عن عبد الله بن مخارق عن أبيه عن عبد الله قال : إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره فيقال له ما ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ فيثبته الله فيقول ربى الله ودينى الإسلام ونبي محمد صلى الله عليه وسلم وقرأ عبد الله (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) وقال الإمام عبيد بن حميد رحمه الله في مسنده حدثنا يونس بن محمد حدثنا شيكان بن عبد الرحمن عن قتادة حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ قال فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله قال فيقال له انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة » قال النبي صلى الله عليه وسلم « فإياها جميعا » قال قتادة وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعا وعلأ عليه خضرا إلى يوم القيامة رواه مسلم عن عبد بن حميد به وأخرجه النسائي من حديث يونس بن محمد المؤدب به ، وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد عن ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سأل جابر بن عبد الله عن فتانى القبر فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فإذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه جاءه ملك شديد الانتهاز فيقول له ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فأما المؤمن فيقول إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبيده فيقول له الملك انظر إلى مقعدك الذي كان لك في النار قد أنجأك الله منه وأبدلك بمقعدك الذي ترى من النار مقعدك الذي ترى من الجنة فإياهما كليهما ، فيقول المؤمن دعوني أبشر أهلى فيقال له اسكن ، وأما المنافق فيقعد إذا تولى عنه أهله فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول لا أدري أقول كما يقول الناس ، فيقال له لا دريت هذا مقعدك الذي كان لك في الجنة قد أبدلت مكانه مقعدك من النار » قال جابر فسمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول « يبعث كل عبد في القبر على ما مات ، المؤمن على إيمانه والمنافق على نفاقه » إسناد صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وقال الإمام أحمد حدثنا أبو عامر حدثنا عباد بن راشد عن داود بن أبي هند عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال :

شهدنا مع رسول الله ﷺ جنازة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أيها الناس إن هذه الأمة تبلى في قبورها فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه أصحابه جاءه ملك في يده مطراق من حديد فأقعدته فقال ما تقول في هذا الرجل ؟ فإن كان مؤمنا قال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فيقول له صدقت ثم يفتح له باباً إلى النار فيقول كان هذا منزلك لو كفرت بربك فأما إذ آمنت فهذا منزلك فيفتح له باباً إلى الجنة فيريد أن ينهض إليه فيقول له اسكن ويفسح له في قبره ، وإن كان كافراً أو منافقاً يقول له ما تقول في هذا الرجل ؟ فيقول لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فيقول لا دريت ولا تليت ولا اهتديت ثم يفتح له باباً إلى الجنة فيقول له هذا منزلك لو آمنت بربك فأما إذ كفرت به فإن الله عز وجل أبداً به هذا فيفتح له باباً إلى النار ثم يغمقه بالمطراق فيصيح صيحة يسمعها خلق الله عز وجل كلهم غير الثقلين ، فقال بعض القوم يا رسول الله ما أحسد يقوم عليه ملك في يده مطراق إلا هيل عند ذلك فقال رسول الله ﷺ (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) وهذا أيضاً إسناد لا بأس به فإن عباد بن راشد التيمي روى له البخاري مقروناً ولكن ضعفه بعضهم وقال الإمام أحمد حدثنا حسين بن محمد عن ابن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « إن الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان . قال فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يرجع بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا ؟ فيقال فلان فيقولون مرحبا بالروح الطيبة كانت في الجسد الطيب اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان - قال - فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل . وإذا كان الرجل السوء قالوا اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث اخرجي ذميمة وأبشري بمحيم وغساق وآخر من شكله أزواج فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يرجع بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا ؟ فيقال فلان فيقال لا مرحبا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ارحمي ذميمة فانه لا تفتح لك أبواب السماء فيرسل من السماء ثم يصير إلى القبر فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول ويحاسب الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل له في الحديث الأول . ورواه النسائي وابن ماجه من طريق ابن أبي ذئب بنحوه ؟ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، إذا خرجت روح العبد المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها قال حماد فذكر من طيب ريحها وذكر المسك - قال - ويقول أهل السماء روح طيبة جاءت من قبل الأرض صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمريته فينطلق به إلى ربه عز وجل فيقول انطلقوا به إلى آخر الأجل . وإن الكافر إذا خرجت روحه - قال حماد - وذكر من تنهها وذكر مقتاً ويقول أهل السماء روح خبيثة جاءت من قبل الأرض فيقال انطلقوا به إلى آخر الأجل - قال أبو هريرة فرد رسول الله ﷺ ربطة كانت عليه على أنه هكذا .

وقال (١) ابن حبان في صحيحه حدثنا عمر بن محمد الهمداني حدثنا زيد بن أكرم حدثنا معاذ بن هشام حدثني أبي عن قتادة عن قسامة بن زهير عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال « إن المؤمن إذا قبض أتمه ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون اخرجي إلى روح الله فتخرج كأطيب ريح مسك حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً يشمونهم حتى يأبوا به باب السماء فيقولون ما هذه الريح الطيبة التي جاءت من قبل الأرض ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك حتى يأتوا به أرواح المؤمنين فلمهم أشد فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم فيقولون ما فعل فلان فيقولون دعوه حتى يستريح فانه كان في غم فيقول قد مات أما أناكم فيقولون ذهب به إلى أمه الهاوية ، وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح فيقولون اخرجي إلى غضب الله فتخرج كأنهن ريح جيفة فيذهب به إلى باب الأرض »

وقد روى أيضاً من طريق همام بن يحيى عن أبي الجوزاء عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه قال « فيسأل مافعل فلان ، مافعل فلان ، مافعل فلانة ، قال وأما الكافر فإذا قبضت نفسه وذهب بها إلى باب الأرض تقول خزنة الأرض ما وجدنا ريحاً أنتن من هذه فيبلغ بها الأرض السفلى » قال قتادة وحدثني رجل عن سعيد بن مسعود بن المسيب عن عبد الله ابن عمرو قال : أرواح المؤمنين تجتمع بالجايبين ، وأرواح الكفار تجتمع ببرهوت سبخة بحضرموت ثم يضيق عليه

(١) من هنا إلى قوله الآتي : وقال الحافظ أبو عيسى الترمذي غير موجود في النسخة المسكية .

قبره . وقال الحافظ أبو عيسى الترمذى رحمه الله حدثنا يحيى بن خلف حدثنا بشر بن المفضل عن عبد الرحمن عن سعيد ابن أبي سعيد المقبرى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا قبر الميت - أو قال أحدكم - أثناء ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر والآخر نكير فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول ما كان يقول هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فيقولان قد كنا نعلم أنك تقول هذا ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين وينور له فيه ثم يقال له نعم فيقول أرحح إلى أهلى فأخبرهم فيقولان نعم نومة العروس الذى لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك ، وإن كان منافقاً قال سمعت الناس يقولون فقلت مثلهم لا أدري فيقولان قد كنا نعلم أنك تقول هذا فيقال للأرض التثمى عليه فتلتهم عليه حتى تختلف أصلاعه فلا يزال فيها معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » ثم قال الترمذى هذا حديث حسن غريب . وقال حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « (يثبت الله الدين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) - قال - « ذلك إذا قيل له في القبر من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ فيقول ربى الله : ودينى الإسلام ونبى محمد جاءنا بالبينات من عند الله فأمنت به وصدقت فيقال له صدقت على هذا عشت وعليه مت وعليه تبعث » وقال ابن جرير حدثنا مجاهد بن موسى والحسن بن محمد فلا حدثنا يزيدنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال « والذى نفسى بيده إن الميت ليسمع خفق نعالكم حين تولون عنه مدبرين ، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه والزكاة عن يمينه والصوم عن يساره وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعرف والإحسان إلى الناس عند رجله فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة ما قبلى مدخل فيؤتى عن يمينه فتقول الزكاة ما قبلى مدخل فيؤتى عن يساره فيقول الصيام ما قبلى مدخل فيؤتى من عند رجله فيقول فعل الخيرات ما قبلى مدخل فيقال له اجلس فيجلس قدمثله الشمس قد دنت للغروب فيقال له أخبرنا عما نسألك فيقول دعنى حتى أصلى فيقال له إنك سنفعل فأخبرنا عما نسألك فيقول وعم تسألونى ؟ فيقال أرأيت هذا الرجل الذى كان فيكم ماذا تقول فيه وماذا تشهد به عليه ؟ فيقول أمحمد ؟ فيقال له نعم فيقول أشهد أنه رسول الله وأنه جاءنا بالبينات من عند الله فصدفناه فيقال له على ذلك حيث وعلى ذلك مت وعليه تبعث إن شاء الله ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً وينور له فيه ويفتح له باب إلى الجنة فيقال له انظر إلى ما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسروراً ثم تجعل نسمة في النسم الطيب وهى طير خضر يعلق بشجر الجنة ويعاد الجسد إلى ما بدىء من التراب » وذلك قول الله (يثبت الله الدين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) ورواه ابن حبان من طريق المعتمر بن سليمان عن محمد ابن عمر وذكر جواب الكافر وعذابه . وقال البزار حدثنا سعيد بن بحر القراطيسى حدثنا الوليد بن القاسم حدثنا يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة أحسبه رفعه قال « إن المؤمن ينزل به الموت ويعاين ما يعاين فيودل وخرجت يعنى نفسه والله يحب لقاءه وإن المؤمن يصعد بروحه إلى السماء فتأنيه أرواح المؤمنين فتستخبره عن معارفهم من أهل الأرض ، فإذا قال تركت فلانا في الأرض أعجبهم ذلك وإذا قال إن فلانا قد مات قالوا ما حىء به إلينا ، وإن المؤمن يجلس في قبره فيسئل من ربك فيقول ربى الله ، ويسئل من نبيك فيقول محمد نبي فيقال ماذا دينك ؟ قال دينى الإسلام فيفتح له باب في قبره فيقول - أو يقال - انظر إلى مجلسك ثم يرى القبر فكأما كانت رقدة وإذا كان عدو الله نزل به الموت وعائين ما عاين فانه لا يحب روحه أبداً والله يبغض لقاءه فإذا جلس في قبره أو اجلس فيقال له من ربك ؟ فيقول لا أدري فيقال لا دريت فيفتح له باب إلى جهنم ثم يضرب ضربة تسمعها كل دابة إلا الثقلين ثم يقال له نعم كما ينال المنهوش » قلت لأبي هريرة ما المنهوش ؟ قال الذى تنهش الدواب والحيات ثم يضيق عليه قبره ثم قال لانعم رواه إلا الوليد بن مسلم^(١) . وقال الأمام أحمد رحمه الله حدثنا حجين بن المثنى حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة الساجشون عن محمد بن المنكدر قال : كانت أسماء يعنى بنت الصديق رضى الله عنها تحدث عن النبي ﷺ قالت : قال « إذا دخل الإنسان قبره فإن كان مؤمناً حف به عمله الصلاة والصيام قال فيأنيه الملك من نحو الصلاة فترده ومن نحو الصيام فيرده قال فيناديه اجلس فيجلس فيقول له ماذا تقول في هذا الرجل يعنى النبي ﷺ

قال من ؟ قال محمد ، قال أشهد أنه رسول الله ، قال وما يدريك أدركته ، قال أشهد أنه رسول الله قال : يقول على ذلك عشت ، وعاليه مت ، وعليه تبعث ، وإن كان فاجراً أو كافراً جاءه الملك ليس بينه وبينه شيء يردّه فأجلسه فيقول له ماذا تقول في هذا الرجل ؟ قال أي رجل ؟ قال محمد ؟ قال يقول والله ما أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته ، قال له الملك على ذلك عشت ، وعليه مت ، وعليه تبعث ، قال ويسلط عليه دابة في قبره معها سوط ثمرته حجرة مثل عرف البعير تضربه ماشاء الله صماء لانسمع صوته فترحمه . . وقال العوفي عن ابن عباس رضى الله عنهما في هذه الآية قال : إن المؤمن إذا حضره الموت شهدته الملائكة فسلموا عليه وبشروه بالجنة ، فإذا مات مشوا مع جنازته ثم صلوا عليه مع الناس ، فإذا دفن أجلس في قبره فيقال له من ربك ؟ فيقول ربى الله ، فيقال له من رسولك ؟ فيقول محمد ﷺ فيقال له ماشهادتك ؟ فيقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فيوسع له في قبره مد بصره ، وأما الكافر فتنزل عليه الملائكة فيبسطون أيديهم ، والبسط هو الضرب (يضربون وجوههم وأدبارهم) عند الموت ، فإذا أدخل قبره أقعد فقيل له من ربك ؟ فلم يرجع اليهم شيئاً وأنساه الله ذكر ذلك ، وإذا قيل من الرسول الذى بعث اليك ؟ لم يهتد له ولم يرجع اليهم شيئاً (كذلك يضل الله الظالمين) . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم الأودى حدثنا شريح بن مسلمة حدثنا إبراهيم بن يوسف عن أبيه عن أبي إسحق عن عامر بن سعد البجلي عن أبي قتادة الأنصارى في قوله تعالى (يثبت الله الدين آمناً بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) الآية ، قال إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره فيقال له من ربك ؟ فيقول الله ، فيقال له من ببيك : فيقول محمد بن عبد الله ، فيقال له ذلك مرات ثم يفتح له باب إلى النار فيقال له انظر إلى منزلك من النار لوزعت ، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له انظر إلى منزلك من الجنة إذا ثبت ، وإذا مات الكافر أحاس في قبره فيقال له : من ربك ؟ من ببيك فيقول لا أدري كست أسمع الناس يقولون ، فيقال له لا دريت ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له انظر إلى منزلك إذا ثبت ، ثم يفتح له باب إلى النار فيقال له انظر إلى منزلك إذا زرعت فذلك قوله تعالى (يثبت الله الدين آمناً بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) وقال عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه (يثبت الله الدين آمناً بالقول الثابت في الحياة الدنيا) قال لا إله إلا الله (وفي الآخرة) المسئلة في العبر ، وقال فناداه أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح (وفي الآخرة) في القبر ، وكذا روى عن غير واحد من السلف ، وقال أبو عبد الله الحكيم الترمذى في كتابه بؤادر الأصول حدثنا أبو حنيفة عبد الله بن نافع عن ابن أبي فديك عن عبد الرحمن بن عبد الله عن سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن سمرة قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن في مسجد المدينة فقال « إني رأيت البارحة عجبا ، رأيت رجلا من أمتى جاءه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بوالديه فرد عنه ، ورأيت رجلا من أمتى قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك ، ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم ، ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذه من أيديهم ، ورأيت رجلا من أمتى يلهث عطشا كلما ورد حوضا منع منه فجاءه صياحه فسقاه وأرواه ، ورأيت رجلا من أمتى والنيبون قعود حلقا حلقا كلما دنا حلقة طردوه فجاءه اغتساله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلى جنبى ، ورأيت رجلا من أمتى من بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن شماله ظلمة ومن فوقه ظلمة ومن تحته ظلمة وهو متجبر فيها فجاءته حخته وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه النور ، ورأيت رجلا من أمتى يكلم المؤمنين فلا يكلمونه فجاءته صلة الرحم فقالت بامعشر المؤمنين : كلموه فكلموه ، ورأيت رجلا من أمتى يتقى وهج النار وشررها بيده عن وجهه فجاءته صدقة فصارت له مسترا على وجهه وظلا على رأسه ، ورأيت رجلا من أمتى قد أخذته الزبانية من كل مكان فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم وأدخلاه مع ملائكة الرحمة ، ورأيت رجلا من أمتى جائيا على ركبتيه بينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل ، ورأيت رجلا من أمتى قد هوت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله فأخذ صحيفته فجعلها في يمينه ، ورأيت رجلا من أمتى قد خف ميزانه فجاءته أفراطه فنقلوا ميزانه ، ورأيت رجلا من أمتى قائما على شفير جهنم فجاءه وجهه من الله فاستنقذه من ذلك ومضى ، ورأيت رجلا من أمتى هوى فى

النار فجاءته دموعه التي بكى من خشية الله في الدنيا فاستخرجته من النار ، ورأيت رجلا من أمّتي قائما على الصراط يريد كما ترعد السعفة فجاء حسن ظنه بالله فسكن رعدته ومضى ، ورأيت رجلا من أمّتي على الصراط يزحف أحيانا ويحبو أحيانا فجاءته صلاته على فأخذت بيده فأقامته ومضى على الصراط ، ورأيت رجلا من أمّتي انتهى إلى باب الجنة فغلقت الأبواب دونة فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة » قال القرطبي بعد إيراده هذا الحديث من هذا الوجه هذا حديث عظيم ذكر فيه أعمالا خاصة تنجي من أهوال خاصة أوردته هكذا في كتابه التذكرة . وقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلي في هذا حديثا غريبا مطولا فقال : حدثنا أبو عبد الرحمن أحمد بن إبراهيم النكري حدثنا محمد ابن بكر البرساني أبو عثمان حدثنا أبو عاصم الحبطي وكان من أخيار أهل البصرة وكان من أصحاب حزم ، وسلام بن أبي مطيع حدثنا بكر بن حبيش عن ضرار بن عمرو عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك عن تميم الداري عن النبي ﷺ قال : يقول الله عز وجل ملك الموت انطلق إلى ولي فأنتي به فاني قد ضربته بالسراة والضراء فوجدته حيث أحب ، اثنتي به فلا ريحنه . فينطلق اليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة معهم أكفان وحنوط من الجنة ومعهم ضباط الرياحن أصل الريحانة واحد وفي رأسها عشرون لونا لكل لون منهاريج سوى ريح صاحبه ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك الأذفر فيجلس ملك الموت عند رأسه وتحف به الملائكة ويضع كل ملك منهم يده على عضو من أعضائه ويبسط ذلك الحرير الأبيض والمسك الأذفر تحت ذقنه ويفتح له باب إلى الجنة فان نفسه لتعمل عند ذلك بطرف الجنة تارة بأزواجها وتارة بكسوتها ومرة بثأرها كما يعمل الصبي أهله إذا بكى قال وإن أزواجه ليتهنشن عند ذلك ابنهاشا قال وتبرز الروح قال البرساني يريد أن تخرج من العجل إلى ماتحب قال ويقول ملك الموت اخرجي يا أيها الروح الطيبة إلى صدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب قال وملك الموت أشد به لطفًا من الوالدة بولدها يعرف أن ذلك الروح حبيب لربه فهو يلتمس بلطفه تحببا لديه رضاء للرب عنه فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين قال : وقال الله عز وجل (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين) وقال (فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم) قال روح من جهة الموت وريحان يتلقى به وجنة نعيم تقابله قال فاذا قبض ملك الموت روحه قالت الروح للجسد جزاك الله عني خيرا فقد كنت سريعا بي إلى طاعة الله بطيئا بي عن معصية الله فقد نجيت وأنجيت قال ويقول الجسد للروح مثل ذلك قال وتبكي عليه بقاع الأرض التي كان يطيع الله فيها وكل باب من السماء يصعد منه عمله وينزل منه رزقه أربعين ليلة قال فاذا قبض ملك الموت روحه أقامت الخمسمائة من الملائكة عند جسده فلا يقلبه بنو آدم لشق إلا قلبته الملائكة قبلهم وغسلته وكفنته بأكفان قبل أكفان بنى آدم وحنوط قبل حنوط بنى آدم ويقوم من باب بيته إلى قبره صفان من الملائكة يستقبوناه بالاستغفار فيصيح عند ذلك إبليس صيحة تتصدع منها عظام جسده قال ويقول لجنوده الويل لكم كيف خلص هذا العبد منكم فيقولون إن هذا كان عبدا معصوما قال فاذا صعد ملك الموت بروحه يستقبله جبريل في سبعين ألفا من الملائكة كل يأتيه ببشارة من ربه سوى بشارة صاحبه قال فاذا انتهى ملك الموت بروحه إلى العرش خر الروح ساجدا قال يقول الله عز وجل لملك الموت : انطلق بروح عبدي فضعه في صدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب . قال فاذا وضع في قبره جاءته الصلاة فكانت عن يمينه وجاءه الصيام فكان عن يساره وجاءه القرآن فكان عند رأسه وجاءه مشيه إلى الصلاة فكان عند رجله وجاءه الصبر فكان ناحية القبر قال فيبعث الله عز وجل عنقا من العذاب قالوا فيأتيه عن يمينه قال فتقول الصلاة وراءك والله مازال دايبا عمره كله وإنما استراح الآن حين وضع في قبره قال فيأتيه عن يساره فيقول الصيام مثل ذلك قال ثم يأتيه من عند رأسه فيقول القرآن والذكر مثل ذلك قال ثم يأتيه من عند رجله فيقول مشيه إلى الصلاة مثل ذلك فلا يأتيه العذاب من ناحية يلتمس هل يجد اليه مصاغا إلا وجد ولي الله قد أخذ جنته قال فينقمع العذاب عند ذلك فيخرج قال ويقول الصبر لسائر الأعمال أما إنه لم يمنعني أن أباشر أنا بنفسى إلا أنى نظرت ما عندكم فان عجزتم كنت أنا صاحبه فأما إذا أجزأتم عنه فأنا له ذخرك عند الصراط والميزان قال ويبعث الله ملكين أبصارها

كالبرق الخاطف وأصواتهما كالرعد القاصف وأنيابهما كالصياصى وأنفاسهما كاللهب يطآن في أشعارهما بين منكب كل واحد مسيرة كذا وكذا وقد نزعتهما الرأفة والرحمة يقال لهما منكر ونكير في يد كل واحد منهما مطرقة لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يقلوها قال فيقولان له اجلس قال فيجلس فيستوى جالسا قال وتقع أكفانه في حقويه قال فيقولان له من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ قال قالوا يا رسول الله ومن يطيق الكلام عند ذلك وأنت تصف من الملائكة ما تصف ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ (يثبت الله الدين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة * ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) قال فيقول ربى الله وحده لا شريك له ودينى الإسلام الذى دانت به الملائكة ونبى محمد خاتم النبيين قال فيقولان له صدقت قال فيدفعان القبر فيوسعان من بين يديه أربعين ذراعا وعن يمينه أربعين ذراعا وعن شماله أربعين ذراعا ومن خلفه أربعين ذراعا ومن عند رأسه أربعين ذراعا ومن عند رجله أربعين ذراعا قال فيوسعان له مائى ذراع : قال البرسانى فأحسبه وأربعين ذراعا تحاط به قال ثم يقولان له انظر فوقك فإذا باب مفتوح إلى الجنة قال فيقولان له : ولى الله هذا منزلك إذ أطعت الله فقال رسول الله ﷺ « والذى نفس محمد بيده إنه يصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا تترد أبدا » ثم يقال له انظر تحتك قال فينظر تحته فإذا باب مفتوح إلى النار - قال فيقولان ، ولى الله نجوت آخر ما عليك - قال : فقال رسول الله ﷺ - إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا تترد أبدا « قال : قالت عائشة يفتح له سبعة وسبعون بابا إلى الجنة يأتيه ريحها وبردها حتى يبعثه الله عز وجل

وبالإسناد المتقدم إلى النبی ﷺ قال : ويقول الله تعالى لملك الموت انطلق إلى عدوى فأنتى به فأنى قد بسطت له رزقى . ويسرت له نعمتى ، فأبى إلا معصيتى فأنتى به لأنتقم منه ، قال فينطأ إلى ملك الموت في أكره صورة رآها أحد من الناس قط له اثنتا عشرة عينا ومعه سفود من النار كثير الشوك ومعه خمسمائة من الملائكة معهم نحاس وجر من حجر جهنم ومعهم سياط من نار لينها لين السياط وهى نار تأجج قال فيضربه ملك الموت بذلك السفود ضربة يغيب كل أصل شوكة من ذلك السفود في أصل كل شعرة وعرق وظفر ، قال ثم يلويه ليا شديدا قال فينزع روحه من أظفار قدميه قال فيلقها في عقبه . قال فيسكر عدو الله عن ذلك سكرة فيرفه ملك الموت عنه ، قال وتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط قال فيشده الملك الموت شدة فينزع روحه من عقبه فيلقها في ركبته ثم يسكر عدو الله عند ذلك من ركبته فيلقها في حقويه ثم يسكر عدو الله عند ذلك سكرة فيرفه ملك الموت عنه قال فتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط قال كذلك إلى صدره ثم كذلك إلى حلقه قال ثم تبسط الملائكة ذلك النحاس وحجر جهنم تحت ذقنه قال ويقول ملك الموت اخرجى أيتها الروح اللعينة إلى سموم وحميم وظل من يحمم لا بارد ولا كريم - قال فإذا قبض ملك الموت روحه قال الروح للجسد : جزاك الله عنى شرا فقد كنت سريعا بى إلى معصية الله بطيئا عن طاعة الله فقد هلكت وأهلك - قال - ويقول الجسد للروح مثل ذلك وتلعنه بقاع الأرض التى كان يعصى الله عليها وتطلق جنود إبليس إليه فيبشرونه بأنهم قد أوردوا عبدا من ولد آدم النار قال فإذا وضع في قبره ضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه حتى تدخل اليمنى في اليسرى واليسرى في اليمنى قال ويبعث الله إليه أفاعى دها كأعناق الإبل يأخذن بأذنيه وإبهاميه قدميه فيقرضنه حتى يلتقين فيوسطه قال ويبعث الله ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف وأصواتهما كالرعد القاصف وأنيابهما كالصياصى وأنفاسهما كاللهب يطآن في أشعارهما بين منكي كل واحد منهما مسيرة كذا وكذا قد نزعتهما الرأفة والرحمة يقال لهما منكر ونكير في يد كل واحد منهما مطرقة لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يقلوها ، قال فيقولان له اجلس فيستوى جالسا وتقع أكفانه في حقويه ، قال فيقولان له من ربك ، وما دينك ، ومن نبيك ؟ فيقول لا أدري فيقولان له لا دريت ولا تليت فيضربانه ضربة يتطاير شررها في قبره ثم يعودان ، قال فيقولان انظر فوقك فينظر فإذا باب مفتوح من الجنة فيقولان : عدو الله هذا منزلك لو أطعت الله . قال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا تترد أبدا » - قال - ويقولان له انظر تحتك فينظر تحته فإذا باب مفتوح إلى النار - فيقولان : عدو الله هذا

منزلك إذ عصيت الله قال رسول صلى الله عليه وسلم « والذي نفسي بيده إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترد أبداً » قال : وقالت عائشة ويفتح له سبعة وسبعون باباً إلى النار يأتية حرها وسمومها حتى يبعثه الله إليها . هذا حديث غريب جداً وسياق عجيب يزيد الرقاشي روايه عن أنس له غرائب ومنكرات وهو ضعيف الرواية عند الأئمة والله أعلم ، ولهذا قال أبو داود حدثنا إبراهيم بن موسى الرازي حدثنا هشام هو ابن يوسف عن عبد الله بن بجير عن هانيء مولى عثمان عن عثمان رضى الله عنه قال ، كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسئل » تفرد به أبو داود ، وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه عند قوله تعالى (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم) الآية حديثاً مطولاً جداً من طرق غريبة عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً وفيه غرائب أيضاً

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ * وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾

قال البخاري قوله (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً) ألم تعلم كقوله (ألم تر كيف) (ألم تر إلى الذين خرجوا) البوار الهلاك بار يبور بوراً (قوم ابورا) هالكين . حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان عن عمرو عن عطاء سمع ابن عباس (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً) قال هم كفار أهل مكة وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية هو جيلة ابن الأيهم والذين اتبعوه من العرب فلتحقوا بالروم والشهور الصحيح عن ابن عباس هو القول الأول وإن كان المعنى يعم جميع الكفار فإن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ونعمة للناس فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة ومن ردّها وكفرها دخل النار ، وقد روى عن علي نحو قول ابن عباس الأول . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا شعبة عن الفاسم بن أبي بزة عن أبي الطفيل أن ابن السكوء سأل علياً عن (الذين بدلوا نعمت الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار) قال هم كفار قريش يوم بدر ، حدثنا المنذر بن شاذان حدثنا يعلى بن عبيد حدثنا بسام هو الصيرفي عن أبي الطفيل قال جاء رجل إلى علي فقال يا أمير المؤمنين من الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ؟ قال مناقفو قريش وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن فضيل قال قرأت على معقل عن ابن أبي حسين قال : قام علي بن أبي طالب رضى الله عنه فقال ألا أحد يسألني عن القرآن فوالله لو أعلم اليوم أحداً أعلم به مني وإن كان من وراء البحار لأتيتنه ، فقام عبد الله بن السكوء فقال من الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ؟ قال مشركو قريش أتتهم نعمة الله بالإيمان فبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار .

وقال السدي (١) في قوله (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً) الآية ذكر مسلم المستوفى عن علي أنه قال هم الأفجران من قريش بنو أمية وبنو المغيرة ، فأما بنو المغيرة ، فأحلوا قومهم دار البوار يوم بدر ، وأما بنو أمية فأحلوا قومهم دار البوار يوم أحد ، وكان أبو جهل يوم بدر وأبو سفيان يوم أحد ، وأما دار البوار فهي جهنم وقال ابن أبي حاتم رحمه الله حدثنا محمد بن يحيى حدثنا الحارث أبو منصور عن إسرائيل عن أبي إسحق عن عمرو ابن مرة قال سمعت علياً قرأ هذه الآية (وأحلوا قومهم دار البوار) قال هم الأفجران من قريش بنو أمية وبنو المغيرة ، فأما بنو المغيرة فأهلكوا يوم بدر ، وأما بنو أمية ففتحوا إلى حين ورواه أبو إسحق عن عمرو بن مرة عن علي نحوه ، وروى من غير وجه عنه . وقال سفيان الثوري عن علي بن زيد عن يوسف بن سعد عن عمر بن الخطاب في قوله (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً) قال هم الأفجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية ، فأما بنو المغيرة فكفيتهم يوم بدر ، وأما بنو أمية ففتحوا إلى حين . وكذا رواه حمزة الزيات عن عمرو بن مرة قال : قال ابن عباس لعمر بن الخطاب يا أمير المؤمنين هذه الآية (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار) قال هم الأفجران

(١) في النسخة المسكية : ذكر قول السدي هذا بعد قول ابن أبي حاتم الآن .

من قريش أخوالى وأعمامك . فأما أخوالى فأسأصلهم الله يوم بدر ، وأما أعمامك فأملى الله لهم إلى حين . وقال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وابن زيد هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر ، وكذا رواه مالك في تفسيره عن نافع عن ابن عمر وقوله (وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله) أى جعلوا له شركاء عبدوهم معه ودعوا الناس إلى ذلك ، ثم قال تعالى مهتدا لهم ومتوعدا لهم على لسان نبيه ﷺ (قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار) أى مهتما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا فمهما يكن من شيء (فإن مصيركم إلى النار) أى مرجعكم وموئلكم إليها كما قال تعالى : (نمتعهم قليلا ثم بضرهم إلى عذاب غايظ) وقال تعالى (متاع في الدنيا ثم إليهم مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون)

﴿ قُلْ لِّلْعِبَادِىَ الَّذِينَ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾

يقول تعالى آمرا عباده بطاعته والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه بأن يقيموا الصلاة وهى عبادة الله وحده لا شريك له وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات والنفقة على الفرائض والإحسان إلى الأجانب ، والمراد بإقامتها هو المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها ، وأمر تعالى بالانفاق مآرزق في السرى في الخفية والعلاية وهى الجهر ، ولبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم (من قبل أن يأتى يوم) وهو يوم القيامة (لا يبيع فيه ولا خلال) أى ولا يقبل من أحد فدية بأن يباع نفسه كما قال تعالى (فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا) وقوله (ولا خلال) قال ابن جرير يقول ليس هناك مخالطة خليل فيصنع عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالفته ، بل هناك العدل والقسط ، والحلال مصدر من قول القائل خاللت فلانا فأنا أخالته مخالطة وخلالا ومنه قول امرئ القيس :

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى * ولست بمقلى لا خلال ولا قالى

وقال قتادة إن الله قد علم أن في الدنيا يبيعوا وخلالا يتخالون بها في الدنيا فينظر الرجل من خلال وعالم . يصاحب ، فإن كان لله فليداوم ، وإن كان لغير الله فسيقطع عنه ، قات والمراد من هذا أنه لا ينفع أحد يبيع ولا فدية ، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً لو وحده ولا تنفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذا لقي الله كافرا قال الله تعالى (واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا يبيع فيه ولا خلالة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون)

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَءَاتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَفُلَّوْهُ كَفَّارٌ ﴾

يعدد تعالى نعمه على خلقه بأن خلق لهم السموات سقفا محفوظا والأرض فراشا (وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجا من نبات شتى) ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع ، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر تجري عليه بأمر الله تعالى وسخر البحر لخلها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر لجلب ما هنا إلى هناك ، وما هناك إلى هنا وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر رزقا للعباد من شرب وسقى وغير ذلك من أنواع المنافع (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) أى يسيران لا يفتران ليلا ولا نهارا (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله العليم) فالشمس والقمر يتعاقبان ، والليل والنهار يتعارضان ، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول ، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصير (يوج

الليل في النهار ويوئج النهار في الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألهو العزيز الغفار) . وقوله (وآتاكم من كل ما سألتموه) يقول هيا لكم كل ما تحتاجون اليه في جميع أحوالكم كما تسألونه بحالكم وقالكم . وقال بعض السلف من كل ما سألتموه وما لم تسألوه ، وقرأ بعضهم (وآتاكم من كل ما سألتموه وما لم تسألوه) وقوله (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلا عن القيام بشكرها كما قال طلق بن حبيب رحمه الله : إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد ، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين . وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان يقول « اللهم لك الحمد غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا » وقال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث حدثنا داود بن المخبر حدثنا صالح المري عن جعفر ابن زيد العبدى عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال « يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين : ديوان فيه العمل الصالح وديوان فيه ذنوبه وديوان فيه النعم من الله تعالى عليه ، فيقول الله تعالى لأصغر نعمه - أحسبه قال في ديوان النعم - خذى ثمنك من عمله الصالح فتستوعب عمله الصالح كله ثم تتحى وتقول : وعزتك ما استوفيت وتبقى الذنوب والنعم فاذا أراد الله أن يرحمه قال يا عبدى قد ضاعفت لك حسناتك وتجاوزت لك عن سيئاتك - أحسبه قال ووهبت لك نعمى - » غريب وسنده ضعيف ، وقد روى في الأثر أن داود عليه السلام قال يارب كيف أشكرك وشكرى لك نعمة منك على ؟ فقال الله تعالى الآن شكرتني يا داود ، أى حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر المنعم ، وقال الإمام الشافعى رحمه الله : الحمد لله الذى لا يودى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها ، وقال القائل في ذلك .

لو كل جارحة منى لها لغة * ثنتى عليك بما أوليت من حسن
لكان ما زاد شكرى إذ شكرت به * إليك أبلغ فى الاحسان والممن

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ لِمَنْ أَضَلَّنَ
كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يذكر تعالى فى هذا المقام محتجا على مشركى العرب بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له وأن إبراهيم الذى كانت عامرة بسببه آهلة تبرا ممن عبد غير الله وأنه دعا لمكة بالأمن فقال (رب اجعل هذا البلد آمنا) وقد استجاب الله له فقال تعالى (أولم يروا أننا جعلنا حراما آمنا) الآية وقال تعالى (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا) وقال فى هذه القصة (رب اجعل هذا البلد آمنا) فعرفه لأنه دعا به بعد بنائها ولهذا قال (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق) ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحق بثلاث عشرة سنة فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة فانه دعا أيضا فقال (رب اجعل هذا بلدا آمنا) كما ذكرناه هنالك فى سورة البقرة مستقصى مطولا . وقوله (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام) ينبغى لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته . ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلافا من الناس وأنه تبرا ممن عبدها ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم كقول عيسى عليه السلام (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) وليس فيه أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى لا تجوز وقوع ذلك . قال عبد الله بن وهب حدثنا عمرو بن الحارث أن بكر بن سودة حدثه عن عبد الرحمن بن جرير عن عبد الله ابن عمرو أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام (رب لمن أضلن كثيرا من الناس) الآية وقول عيسى عليه السلام (إن تعذبهم فإنهم عبادك) الآية ثم رفع يديه ثم قال « اللهم ، أمتى اللهم ، أمتى ، اللهم أمتى » وبكى فقال الله اذهب يا جبريل إلى محمد ، وربك أعلم ، وسله ما ييكك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ ما قال فقال الله اذهب إلى محمد فقل له إناسرضيك فى أمتك ولا نسوءك

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عند ما ولي عن هاجر وولدها وذلك قبل بناء البيت وهذا كان بعد بناءه تأكيذاً ورغبة إلى الله عز وجل ولهذا قال (عند بيتك المحرم) وقوله (ربنا ليقيموا الصلاة) قال ابن جرير هو متعلق بقوله (المحرم) أي إنما جعلته محرماً ليمكن أهله من إقامة الصلاة عنده (فاجعل أفتدة من الناس تهوي إليهم) قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبیر وغيره لو قال أفتدة الناس لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم ولكن قال (من الناس) فاختص به المسلمون ، وقوله (وارزقهم من الثمرات) أي ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك وكما أنه واد غير ذي زرع فاجعل لهم ثماراً يأكلونها ، وقد استجاب الله ذلك كما قال (أو لم يمكن لهم حرماً آمناً يجي إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا) وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة وهي تجي إليها ثمرات ما حولها استجابة لدعاء الخليل عليه السلام

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نَعْلَمُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾

قال ابن جرير يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم خليله أنه قال (ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلم) أي أنت تعلم قصدي في دعائي وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد ، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك فإليك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها لا يخفي عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء ثم حمد ربه عز وجل على ما رزقه من الولد بعد الكبر فقال (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربِّي لسميع الدعاء) أي إنه يستجيب لمن دعاه ، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد ثم قال (رب اجعلني مقيم الصلاة) أي محافظاً عليها مقيماً لحدودها (ومن ذريتي) أي واجعلهم كذلك مقيمين لها (ربنا وتقبل دعاء) أي فيما سألتك فيه كله (ربنا اغفر لي ولوالدي) قرأ بعضهم ولوالدي بالإنفراد وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله عز وجل (وللمؤمنين) أي كلهم (يوم يقوم الحساب) أي يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَفْلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتِدَتُهُمْ هَوَاءً ﴾

يقول تعالى ولا تحسبن الله يا محمد غافلاً عما يعمل الظالمون أي لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم لا يعاقبهم على صنعهم بل هو يحصى ذلك عليهم ويعده عليهم عداً (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) أي من شدة الأهوال يوم القيامة ، ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر فقال (مهطعين) أي مسرعين كما قال تعالى (مهطعين إلى الداع) الآية وقال تعالى (يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له - إلى قوله - وغنت الوجوه للحى القيوم) وقال تعالى (يوم يخرجون من الأجداث سراعا) الآية وقوله (مقنعي رؤوسهم) قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد رافعي رؤوسهم (لا يرتد إليهم طرفهم) أي أبصارهم ظاهرة شاخصة مديون النظر لا يطفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والخافة لما يحل بهم عياداً بالله العظيم من ذلك ، ولهذا قال (وأفئدتهم هواء) أي وقلوبهم

خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجع والخوف ولهذا قال قتادة وجماعة إن أمكنة أفئدتهم خالية لأن القلوب لدى الحاسر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف . وقال بعضهم هي خراب لا تعي شيئا لشدة ما أخبر به تعالى عنهم ، ثم قال تعالى لرسوله ﷺ .

﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِيبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكَانِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسُهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن قيل الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب (ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجيب دعوتك وتنبع الرسل) كقوله (حق إذا جاء أحدكم الموت قال رب ارجعون) الآية وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم) الآية وقال تعالى مخبرا عنهم في حال محشرهم (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم) الآية وقال (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا) الآية وقال تعالى (وهم يصطرون فيها) الآية قال تعالى رادا عليهم في قولهم هذا (أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال) أي أولم تكونوا تخلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه وأنه لا معاد ولا حزاء فذوقوا هذا بذلك قال مجاهد وغيره (ما لكم من زوال) أي ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة كقوله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) الآية (وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال) أي قد رأيتم وبلغكم ما أحلنا بالأمم المكذبة قبلكم ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر (حكمة بالغة فالتغنى النذر) وقد روى شعبة عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن رباب (١) أن علياً رضي الله عنه قال في هذه الآية (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) قال أخذ ذلك الذي حاج إبراهيم في ربه نسرين صغيرين فرباهما حتى استغلظا واستفحلا وشبا قال فأوثق رجل كل واحد منهما بوتر إلى تابوت وجوعهما وقعد هو ورجل آخر في التابوت قال ورفع في التابوت عصا على رأسه اللحم فطارا وجعل يقول لصاحبه انظر ما ترى قال أرى كذا وكذا حتى قال أرى الدنيا كلها كأنها ذئب . قال فصوب العصا فصوبها فهبطت جميعا قال فهو قوله عز وجل (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) قال أبو إسحاق وكذلك هي في قراءة عبد الله (وإن كان مكرهم) قلت وكذا روى عن أبي بن كعب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما أنهما قرآ (وإن كان) كما قرأ على وكذا رواه سفيان الثوري وإسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن رباب (٢) عن علي فذكر نحوه وكذا روى عن عكرمة أن سياق هذه القصة لفرود ملك كنعان أنه رام أسباب السماء بهذه الحيلة والسكر كما رام ذلك بعده فرعون ملك القبط ببناء الصرح فعجزا وهما أقل وأحق وأصغر وأدحر، وذكر مجاهد هذه القصة عن مختصر وأنه لما قطع بصره عن الأرض وأهلها نودي أيها الطاغية أين تريد؟ ففرق ثم سمع الصوت فوقه فصوب الرماح فصوبت النسور ففرغت الجبال من هبتها وكادت الجبال أن تزول من حس ذلك فذلك قوله (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) ونقل ابن جرير عن مجاهد أنه قرأها (لتزول منه الجبال) بفتح اللام الأولى وضم الثانية ، وروى العوفي عن ابن عباس في قوله (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) يقول ما كان مكرهم لتزول منه الجبال ، وكذا قال الحسن البصري ووجه ابن جرير أن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله وكفرهم به ما ضر ذلك شيئا من الجبال ولا غيرها وإنما عاد وبال ذلك عليهم قلت ويشبه هذا قول الله تعالى (ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا) والقول الثاني في تفسيرها ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) يقول شركهم (١) كذا في الأميرة ، وفي المسكية ابن دأيل (٢) كذا فيها أيضا . وفي المسكية ابن أبي وهو الصواب فيها كما في تقريب التهذيب .

كقوله (تسكاد السموات يتفطرن منه) الآية وهكذا قال الضحاك وقناة

﴿ فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ * يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

يقول تعالى مقررًا لوعده ومؤكدًا (فلا تحسبن الله يخلف وعده رسوله) أى من نصرته في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أراد به ولا يغالب وذو انتقام ممن كفر به وجحد (فويل يومئذ للمكذبين) ولهذا قال (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) أى وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض ، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة كما جاء في الصحيحين من حديث أنى حازم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها معلم لأحد » وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن أبي عدي عن داود عن الشعبي عن مسروق عن عائشة أنها قالت أنا أول الناس سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) قالت قلت أين الناس يومئذ يارسل الله ؟ قال « على الصراط » رواه مسلم منفردًا به دون البخارى والترمذى وابن ماجه من حديث داود بن أنى هند به ، وقال الترمذى حسن صحيح ورواه أحمد أيضًا عن عفان عن وهيب عن داود عن الشعبي عنها ولم يذكر مسروقًا ، وقال قناة عن حسان بن بلال المزني عن عائشة رضى الله عنها أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) قالت قلت يارسل الله فأين الناس يومئذ ؟ قال « لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد من أمي ، ذلك أن الناس على جسرهم ، وروى الإمام أحمد من حديث حبيب بن أبي عمرة عن مجاهد عن ابن عباس حدثني عائشة أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) فأين الناس يومئذ يارسل الله ؟ قال « هم على متن جهنم » وقال ابن جرير حدثنا الحسن حدثنا على ابن الجعد أخبرنا القاسم سمعت الحسن قال : قالت عائشة يارسل الله (يوم تبدل الأرض غير الأرض) فأين الناس يومئذ ؟ قال « إن هذا شيء ما سألتني عنه أحد - قال - على الصراط باعائشة » ورواه أحمد عن عفان عن القاسم بن الفضل عن الحسن به ، وقال الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه حدثني الحسن بن على الحلواني حدثني أبو توبة الربيع بن نافع حدثنا معاوية بن سلام عن زيد يعني أخاه أنه سمع أباسلام حدثني أبواسماء الرحبي أن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثه قال : كنت قائمًا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه جبر من أجباز اليهود فقال السلام عليك يا محمد فدفعته دفعة كاد يصرع منها فقال لم تدفعني ؟ فقلت ألا تقول يارسل الله فقال اليهودى إنما ندعوه باسمه الذى سماه به أهله فقال رسول الله ﷺ « إن اسمى محمد الذى سماني به أهلى » فقال اليهودى جئت أسألك ، فقال رسول الله ﷺ « أيفعلك شيئًا إن حدثتك » قال أسمع بأذنى فنكت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعود معه فقال « سل » فقال اليهودى أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هم في الظلمة دون الجسر » قال فمن أول الناس إجازة ؟ فقال « فقراء المهاجرين » فقال اليهودى فما تحفتم حين يدخلون الجنة قال « زيادة كبد النون » قال فما غداؤهم في أثرها ؟ قال « ينجر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل من أطرافها » قال فما شربهم عليه ؟ قال « من عين فيها تسمى سلسبيلا » قال صدقت قال وحثت أسألك عن الولد ، قال « ماء الرجل إلهي أو رجل أو رجلان قال « أيفعلك إن حدثتك » قال أسمع بأذنى . قال جئت أسألك عن الولد ، قال « ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فاذا اجتمعوا فعلا منى الرجل منى المرأة أذكرا باذن الله تعالى وإذا علا منى المرأة منى الرجل آثا باذن الله » قال اليهودى لقد صدقت وإنك لنبى ثم انصرف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد سألتني هذا عن الذى سألتني عنه ومالى علم بشيء منه حتى أتاني الله به » قال أبو جعفر بن جرير الطبرى حدثنا ابن عوف حدثنا أبو الغيرة حدثنا ابن أبي مريم حدثنا سعيد بن ثوبان الكلاعى عن أبي أيوب الأنصارى أن جبرا من اليهود سأل النبى صلى الله عليه وسلم فقال

أرأيت إذ يقول الله تعالى في كتابه (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) فأين الخلق عند ذلك ؟ فقال «أضياف الله فلن يعجزهم ماله» ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم به ، وقال شعبة أخبرنا أبو إسحق سمعت عمرو بن ميمون ، وربما قال : قال عبد الله وربما لم يقل فقلت له عن عبد الله فقال سمعت عمرو بن ميمون يقول (يوم تبدل الأرض غير الأرض) قال أرض كالفضة البيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم يعمل عليها خطيئة ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي حفاة عراة كما خلقوا قال أراه قال قيما حتى يلجهم العرق ، وروى من وجه آخر عن شعبة عن إسرائيل عن أبي إسحق عن عمرو بن ميمون عن ابن مسعود بنحوه ، وكذا رواه عاصم عن زر عن ابن مسعود به ، وقال سفيان الثوري عن أبي إسحق عن عمرو بن ميمون لم يخبر به أورد ذلك كله ابن جرير ، وقد قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن عبد الله بن عبيد بن عقيل حدثنا سهل بن حماد أبو غياث حدثنا جرير بن أيوب عن أبي إسحق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله عن النبي ﷺ في قول الله عز وجل (يوم تبدل الأرض غير الأرض) قال «أرض بيضاء لم يسفك عليها دم ، ولم يعمل عليها خطيئة» ثم قال لا تعلم رفعه إلا جرير بن أيوب وليس بالقوى ، ثم قال ابن جرير حدثنا أبو كريب ثنا معاوية بن هشام عن سنان عن جابر الجعفي عن أبي جيرة عن زيد قال أرسل رسول الله ﷺ إلى اليهود فقال «هل تدرون لم أرسلت إليهم؟» قالوا الله ورسوله أعلم ، قال «فإني أرسلت إليهم أسألهم عن قول الله (يوم تبدل الأرض غير الأرض) إنها تكون يومئذ بيضاء مثل الفضة» فلما جاءوا سألتهم فقالوا تكون بيضاء مثل النقي ، وهكذا روى عن علي وابن عباس وأنس بن مالك ومجاهد بن جبر أنها تبدل يوم القيامة بأرض من فضة ، وعن علي رضي الله عنه أنه قال تصير الأرض فضة والسموات ذهبا ، وقال الربيع عن أبي العالية عن أبي بن كعب قال : تصير السموات جنانا ، وقال أبو معشر عن محمد بن كعب القرظي عن محمد ابن قيس في قوله (يوم تبدل الأرض غير الأرض) قال خبزة يأكل منها المؤمنون من تحت أقدامهم وكذا روى وكيع عن عمر بن بشر الحمداي عن سعيد بن جبير في قوله (يوم تبدل الأرض غير الأرض) قال تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه ، وقال الأعمش عن خثيم قال : قال عبد الله بن مسعود : الأرض يوم القيامة كلها نار والجنة من ورائها ترى كواعبها وأكوابها ويلجهم الناس العرق ويبلغ منهم العرق ولم يبلغوا الحساب . وقال الأعمش أيضاً عن المنهال بن عمرو عن قيس بن السكن قال : قال عبد الله الأرض كلها نار يوم القيامة والجنة من ورائها ترى أكوابها وكواعبها والذي نفس عبد الله بيده إن الرجل ليفيض عرقا حتى ترشح في الأرض قدمه ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه ومامسه الحساب قالوا أم ذلك يا أبا عبد الرحمن ، قال بما يرى الناس ويلقون . وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن كعب في قوله (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) قال تصير السموات جنانا ويصير مكان البحر نارا وتبدل الأرض غيرها ، وفي الحديث الذي رواه أبو داود «لا يركب البحر إلا غار أو حاج أو معتمر فان تحت البحر نارا - أو تحت النار بحر -» وفي حديث الصور المشهور الروى عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال «يبدل الله الأرض غير الأرض والسموات فيبسطها ويمدها مداً ديم العكاظي لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً ثم يجر الله الخلق زجرة فإذا هم في هذه البدلة» وقوله (وبرزوا لله) أي خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله (الواحد القهار) أي الذي هو كل شيء وغلبه ودانت له الرقاب وخضعت له الأبواب

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ سُرَّابِلُهُمْ مِنْ قِطْرَانٍ وَتَفْشَى وُجُوهُهُمُ النَّارُ * لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

يقول تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) وتبرز الخلائق لديها ترى يا محمد يومئذ المجرمين وهم الذين أجمعوا بكفرهم وفسادهم (مقرنين) أي بعضهم إلى بعض قد جمع بين النظراء والأشكال منهم كل صنف إلى صنف كما قال تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) وقال (وإذا النفوس زوجت) وقال (وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا) وقال (والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد) والأصفاد هي القيود قاله ابن عباس

وسعيد بن جبير والأعمش وعبد الرحمن بن زيد وهو مشهور في اللغة ، قال عمرو بن كلثوم
فآبوا بالثياب وبالسياب * وأبنا بالملوك مصفدينا

وقوله (سرايلهم من قطران) أى ثيابهم التى يلبسونها من قطران وهو الذى تنها به الإبل أى تطفى قال قتادة وهو ألصق
شئ بالنار . ويقال فيه قطران بفتح القاف وكسر الطاء وتسكينها وبكسر القاف وتسكين الطاء ومنه قول أبى النجم
كأن قطراناً إذا تلاها * ترمى به الريح إلى مجراها

وكان ابن عباس يقول القطران هو النحاس المذاب وربما قرأها (سرايلهم من قطران) أى من نحاس حار قد انتهى
حره وكذا روى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن و قتادة وقوله (وتغشى وجوههم النار) كقوله (تلمح
وجوههم النار وهم فيها كالخون) وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا يحيى بن إسحق أن أبان بن يزيد عن يحيى بن أبى كثير
عن زيد عن أبى سلام عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ «أربع فى أمى من أمر الجاهلية لا يتركونهن :
الفخر بالأحساب والظعن فى الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة على الميت ، والنائحة إذا لم تنب قبل موتها تقام يوم القيامة
وعليها سربال من قطران ودرع من جرب» انفرد بإخراجه مسلم . وفى حديث القاسم عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال
رسول الله ﷺ رفعه «النائحة إذا لم تنب توقف فى طريق بين الجنة والنار وسرايلها من قطران وتغشى وجوها النار»
وقوله (ليجزى الله كل نفس ما كسبت) أى يوم القيامة (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا) الآية (إن الله سريع
الحساب) (يحتمل أن يكون كقوله تعالى (اقرب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون) ويحتمل أنه فى حال محاسبته
لعبده سريع النجاز لأنه يعلم كل شئ ولا يخفى عليه خافية وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم كقوله
تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) وهذا معنى قول مجاهد (سريع الحساب) إحصاء ويحتمل أن يكون
المعنىان مرادين والله أعلم .

﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

يقول تعالى هذا القرآن بلاغ للناس كقوله (لأنذركم به ومن بلغ) أى هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن كما
قال فى أول السورة (الر * كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) الآية (ولينذروا به) أى لينعطوا
به (وليعلموا أنما هو إله واحد) أى يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو (وليدكر أولو الأبواب)
أى ذوو العقول آخر تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام والحمد لله رب العالمين .

﴿ تفسير سورة الحجر وهى مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ * رَبَّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ * ذَرُّهُمْ يَا كُفُلُوا
وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور ، وقوله تعالى (ربما يود الذين كفروا) الآية إخبار عنهم
أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر ويتمنون لو كانوا فى الدنيا مسلمين ، ونقل السدى فى تفسيره بسنده
المشهور عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة أن كفار قريش لما عرضوا على النار تمنوا أن لو كانوا
مسلمين . وقيل المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمناً ، وقيل هذا إخبار عن يوم القيامة . كقوله
تعالى (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) وقال سفيان
الثورى عن سلمة بن كهيل عن أبى الزاهرية عن عبد الله فى قوله (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) قال هذا فى
الجهنمين إذ رأوهم يخرجون من النار ، وقال ابن جرير حدثنى الثنى حدثنا مسلم حدثنا ابن أبى فروة

العبدى أن ابن عباس وأنس بن مالك كانا يتأولان هذه الآية (ربما يود الدين كفروا لو كانوا مسلمين) يتأولانها يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار قال فيقول لهم المشركون ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون في الدنيا قال فيغضب الله لهم بفضل رحمته فيخرجهم فذلك حين يقول (ربما يود الدين كفروا لو كانوا مسلمين) وقال عبد الرزاق أخبرنا الثوري عن حماد عن إبراهيم وعن خفيف عن مجاهد قال يقول أهل النار للموحدين ما أغنى عنكم إيمانكم ؟ فإذا قالوا ذلك قال الله أخرجوا من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، قال فعند ذلك قوله (ربما يود الدين كفروا لو كانوا مسلمين) وهكذا روى عن الضحاك وقتادة وأبي العالقة وغيرهم ، وقد ورد في ذلك أحاديث مرفوعة فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا محمد بن العباس هو الآخر حدثنا محمد بن منصور الطوسي حدثنا صالح بن إسحق الجهني وابن علي بن يحيى بن موسى (١) حدثنا معروف بن واصل عن يعقوب بن نباتة عن عبد الرحمن الأغرجي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن ناسا من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم فيقول لهم أهل اللات والعزى ما أغنى عنكم قولكم لا إله إلا الله وأنتم معناني النار ؟ فيغضب الله لهم فيخرجهم فيلقهم في نهر الحياة فيبرءون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه ويدخلون الجنة ويسمون فيها الجهنميين » ، فقال رجل يا أنس أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال أنس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » نعم أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا ، ثم قال الطبراني تفرد به الجهمي

(الحديث الثاني) قال الطبراني أيضاً حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنا أبو الشعثاء علي بن حسن الواسطي حدثنا خالد بن نافع الأشعري عن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا بلى ، قالوا فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا في النار ؟ قالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فسمع الله ما قالوا فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأخرجوا . فلما رأى ذلك من بقى من الكفار قالوا يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا - قال ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم - أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (الرتلك آيات الكتاب وقرآن مبين) « ربما يود الدين كفروا لو كانوا مسلمين » ورواه ابن أبي حاتم من حديث خالد بن نافع به وزاد فيه بسم الله الرحمن الرحيم عوض الاستعاذة . (الحديث الثالث) قال الطبراني أيضاً حدثنا موسى بن هارون حدثنا إسحق ابن راهويه قال قلت لأبي أسامة أحدثكم أبو روق واسمه عطية بن الحارث حدثني صالح بن أبي شريف قال سألت أبا سعيد الخدري فقلت له هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في هذه الآية (ربما يود الدين كفروا لو كانوا مسلمين) ؟ قال نعم سمعته يقول « يخرج الله ناساً من المؤمنين من النار بعد ما تأخذ نعمته منهم » وقال « لما أدخلهم الله النار مع المشركين قال لهم المشركون تزعمون أنكم أولياء الله في الدنيا فما بالكم معنا في النار ، فإذا سمع الله ذلك منهم أذن في الشفاعة لهم فيشفع لهم الملائكة والنبيون ويشفع المؤمنون حتى يخرجوا بإذن الله ، فإذا رأى المشركون ذلك قالوا يا ليتنا كننا مثلهم فتدركنا الشفاعة فنخرج معهم - قال - فذلك قول الله (ربما يود الدين كفروا لو كانوا مسلمين) فيسمون في الجنة الجهنميين من أجل سواد في وجوههم فيقولون يارب أذهب عنا هذا الاسم فيأمرهم فيفتسلون في نهر في الجنة فيذهب ذلك الاسم عنهم » فأقر به أبو أسامة وقال نعم (الحديث الرابع) قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا العباس بن الوليد البرسي حدثنا مسكين أبو فاطمة حدثني إيمان بن يزيد عن محمد بن جبير عن محمد بن علي عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ « منهم من تأخذه النار إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه إلى حوزته ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه على قدر ذنوبهم وأعمالهم ، ومنهم من يمكث فيها شهراً ثم يخرج منها ، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج منها ، وأطولهم فيها مكثاً بقدر الديار يوم خلقت إلى أن تفتى ، فإذا أراد الله أن يخرجهم منها قالت اليهود والنصارى ومن في النار من أهل الأديان والأوثان لمن في النار من أهل التوحيد: آمتم بالله وكتبه

ورسله فحزن وأتم اليوم في النار سواء ، فيعذب الله لهم غضبا لم يغضب له شيء فيما مضى فيخرجهم إلى عين في الجنة وهو قوله (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) وقوله (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا) تهديد شديد لهم ووعد أكيد كقوله تعالى (قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار) وقوله (كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون) ولهذا قال (ويلهم الأمل) أي عن التوبة والالاباة (فسوف يعلمون) أي عاقبة أمرهم

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ * مَا نَسِيقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَجِزُونَ﴾

يخبر تعالى أنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها ، وأنه لا يؤخر أمة حان هلاكهم عن ميقاتهم ولا يتقدمون عن مدتهم ، وهذا تنبيه لأهل مكة وإرشاد لهم إلى الاقتلاع عما هم عليه من الشرك والعماد والالحاد الذي يستحقون به الهلاك

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ * إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم في قولهم (يا أيها الذي نزل عليه الذكر) أي الذي تدعى ذلك (إنك لمجنون) أي في دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا (لوما) أي هلا (تأتينا بالملائكة) أي يشهدون لك بصحة ما جئت به كما قال فرعون (فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أوجاه معه الملائكة مقترنين) ، (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أن نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا) * يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا) وكذا قال في هذه الآية (مانزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين) وقال مجاهد في قوله (مانزل الملائكة إلا بالحق) بالرسالة والعذاب ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر وهو القرآن وهو الحافظ له من التغيير والتبديل ، ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى (له لحافظون) على النبي ﷺ كقوله (والله يعصمك من الناس) والمعنى الأول أولى وهو ظاهر السياق

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾

يقول تعالى مسليا لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من كفار قريش إنه أرسل من قبله من الأمم الماضية وإنه ما أتى أمة من رسول إلا كدبوه واستهزؤا به ، ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى ، قال أنس والحسن البصري (كذلك نسلكه في قلوب المجرمين) يعني الشرك وقوله (قد خلت سنة الأولين) أي قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار وكيف أنهى الله الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق أنه لو فتح لهم بابا من السماء فجعلوا يصعدون فيه لما صدقوا بذلك بل قالوا (إنما سكرت أبصارنا) قال مجاهد وابن كثير والضحاك: سدت أبصارنا ، وقال قتادة عن ابن عباس: أخذت أبصارنا ، وقال العوفي عن ابن عباس: شبه علينا وإنما سحرنا ، وقال الكلبي: عميت أبصارنا وقال ابن زيد: سكرت أبصارنا. السكران الذي لا يعقل .

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنْ أَسْتَفْتَى

السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿

يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها وما زينها به من الكواكب الثوابت والسيارات، لمن تأمل وكرر النظر فما يرى من العجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه ولهذا قال مجاهد وقتادة البروج ههنا هي الكواكب (قلت) وهذا كقوله تبارك وتعالى (تبارك الذي جعل في السماء بروجاً) الآية. ومنهم من قال البروج هي منازل الشمس والقمر، وقال عطية العوفي البروج ههنا هي قصور فيها الحرس وجعل الشهب حرساً لها من مردة الشياطين لئلا يسمعوها إلى الملأ الأعلى فمن نمرود وتقدم منهم لا ستراق السمع جاءه شهاب مبين فأتلفه فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه فيأخذها الآخر ويأتي بها إلى وليه كما جاء مصرحاً به في الصحيح كما قال البخاري في تفسير هذه الآية: حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان عن عمرو عن عكرمة عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان» قال علي وقال غيره صفوان ينفذهم ذلك فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا واحد فوق آخر، ووصف سفيان بيده وفرج بين أصابع يده اليمنى نصبها بعضها فوق بعض فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمى بها إلى صاحبه فيحرقه وربما لم يدركه حتى يرمى بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه حتى يلقوها إلى الأرض وربما قال سفيان حتى تنتهي إلى الأرض فتلقى على فم الساحر أو الكاهن فيكذب معها مائة كذبة فيصدق فيقولون ألم نخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقاً للكلمة التي سمعت من السماء ثم ذكر تعالى خلقه الأرض ومدد إياها وتوسيعها وبسطها وما جعل فيها من الجبال الرواسي والأودية والأراضي والرمال وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة، وقال ابن عباس (من كل شيء موزون) أي معلوم وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة وأبو مالك ومجاهد والحكم بن عيينة والحسن بن محمد وأبو صالح وقتادة ومنهم من يقول مقدر بقدر. وقال ابن زيد من كل شيء يوزن ويقدر بقدر، وقال ابن زيد ما يزنه أهل الأسواق. وقوله، (وجعلنا لكم فيها معايش) يذكر تعالى أنه صرفهم في الأرض في صنوف الأسباب والمعايش وهي جمع معيشة وقوله (ومن لستم له برازقين) قال مجاهد هي الدواب والأنعام، وقال ابن جرير هم العبيد والاماء والدواب والأنعام، والقصد أنه تعالى يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعاش، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها والأنعام التي يأكلونها والعبيد والاماء التي يستخدمونها ورزقهم على خالقهم لا عليهم، فلهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا الرِّيْحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

يخبر تعالى أنه مالك كل شيء وأن كل شيء سهل عليه يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف (وما نزلناه إلا بقدر معلوم) كما يشاء وكما يريد ولله في ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده لا على جهة الوجوب بل هو كتب على نفسه الرحمة. قال يزيد بن أبي زياد عن أبي جحيفة عن عبد الله مامن عام أمطر من عام ولكن الله يقسمه حيث شاء عاماً ههنا وعاماً ههنا ثم قرأ (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه) الآية رواه ابن جرير، وقال أيضاً حدثنا القاسم حدثنا هشيم أخبرنا إسماعيل بن سالم عن الحكم بن عيينة في قوله (وما نزلناه إلا بقدر معلوم) قال ما عام

بأكثر مطراً من عام ولا أقل ولكنه يطر قوم ويحرم آخرون بما كان في البحر ، قال وبلغنا أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر من عدد ولد إبليس وولد آدم يحصون كل قطرة حيث تقع وما تنبت ، وقال البزار حدثنا داود هو ابن بكير حدثنا حيان بن أغلب بن تميم حدثني أبي عن هشام عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خزائن الله الكلام فإذا أراد شيئاً قال له كن فكان » ثم قال لا يرويه إلا أغلب وليس بالقوى وقد حدث عنه غير واحد من المتقدمين ولم يروه عنه إلا ابنه وقوله تعالى (وأرسلنا الرياح لواقح) أي تلقح السحاب فتدر ماء وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها وذكراها بصيغة الجمع ليكون منها الاتناج بخلاف الريح العقيم فإنه أفردتها ووصفها بالعقيم وهو عدم الاتناج لأنه لا يكون إلا بين شيئين فصاعداً ، وقال الأعمش عن المنهال ابن عمرو عن قيس بن السكن عن عبد الله بن مسعود في قوله (وأرسلنا الرياح لواقح) قال ترسل الريح فتحمل الماء من السماء ثم تمر مر السحاب حتى تدر كما تدر اللقحة وكذا قال ابن عباس وإبراهيم النخعي وقتادة ، وقال الضحاك يبعثها الله على السحاب فتلقحها فيمطر ماء ، وقال عبيد بن عمير الليثي يبعث الله البشارة فتقم الأرض فما ثم يبعث الله الميثرة فتشير السحاب ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر ثم تلا (وأرسلنا الرياح لواقح) وقد روى ابن جرير من حديث عبيس بن ميمون عن أبي المهزم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « الريح الجنوب من الجنة وهي التي ذكر الله في كتابه وفيها منافع للناس » وهذا إسناد ضعيف ، وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده حدثنا سفيان حدثنا عمرو بن دينار أخبرني يزيد بن جعدة الليثي أنه سمع عبد الرحمن ابن مخراق يحدث عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله خلق في الجنة ريحاً بعد الريح سبع سنين وإن من دونها باباً مغلقاً وإنما يأتيكم الريح من ذلك الباب ولو فتح لأذرت ما بين السماء والأرض من شيء وهي عند الله الاذيب وهي فيكم الجنوب » وقوله (فأسقيناهم كوه) أي أنزلناه لكم عذبا يمسكم أن تشربوا منه لو نشاء جعلناه أجاباً كما نبه على ذلك في الآية الأخرى في سورة الواقعة وهو قوله تعالى (أفترأيتم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من الزن أم نحن المنزلون ؟ * لو نشاء جعلناه أجاباً فلا تشكرون) وفي قوله (هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسمعون) وقوله (وما أنتم له بخازنين) قال سفيان الثوري بمانعين ويحتمل أن المراد وما أنتم له بحافظين بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله معينا وينابيع في الأرض ولوشاء تعالى لأغاره وذهب به ولكن من رحمته أنزله وجعله عذبا وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك ليبقى لهم في طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم وقوله (وإنا لنحن نحي ونميت) إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم ثم يميتهم ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع وأخبر أنه تعالى يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون ، ثم أخبر تعالى عن تمام علمه بهم أولهم وآخرهم فقال (ولقد علمنا المستقدمين منكم) الآية قال ابن عباس رضي الله عنهما : المستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام والمستأخرون من هوحى ومن سيأتي إلى يوم القيامة ، وروى نحوه عن عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة ومحمد بن كعب والشعبي وغيرهم وهو اختيار ابن جرير رحمه الله ، وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن رجل عن مروان بن الحكم أنه قال كان أناس يستأخرون في الصفوف من أجل النساء فأنزل الله (ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) وقد ورد فيه حديث غريب جدا فقال ابن جرير حدثني محمد بن موسى الجرشى حدثنا نوح بن قيس حدثنا عمرو بن قيس حدثنا عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كانت تصلى خلف النبي ﷺ امرأة حسناء قال ابن عباس لا والله ما رأيت مثلها قط وكان بعض المسلمين إذا صلوا استقدموا يعني لثلا يروها وبعض يستأخرون ، فإذا سجدوا نظروا إليها من تحت أيديهم فأنزل الله (ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) وكذا رواه أحمد وابن أبي حاتم في تفسيره ورواه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننهما وابن ماجه من طرق عن نوح بن قيس الحداني وقد وثقه أحمد وأبو داود وغيرهما ، وحكى عن ابن معين تضعيفه وأخرجه مسلم وأهل السنن ، وهذا الحديث

فيه نكارة شديده وقدرواه عبدالرزاق عن جعفر بن سليمان عن عمرو بن مالك وهو النكري أنه سمع أبا الجوزاء يقول في قوله (ولقد علمنا المستقدمين منكم) في الصفوف في الصلاة (والمستأخرين) فالظاهر أنه من كلام أبي الجوزاء فقط ليس فيه لابن عباس ذكر ، وقد قال الترمذي هذا أشبه من رواية نوح بن قيس والله أعلم وهكذا روى ابن جرير عن محمد بن أبي معشر عن أبيه أنه سمع عون بن عبد الله يذكر محمد بن كعب في قوله (ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) وأنها في صفوف الصلاة فقال محمد بن كعب ليس هكذا (ولقد علمنا المستقدمين منكم) الميت والمقتول (والمستأخرين) من يخلق بعد (وإن ربك هو بحسبهم إنه حكيم عليم) فقال عون بن عبد الله وفقك الله وجزاك خيراً

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ * وَالْجَبَانِ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ﴾

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : المراد بالصلصال ههنا التراب اليابس والظاهر أنه كقوله تعالى (خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار) وعن مجاهد أيضاً (الصلصال) المتين وتفسير الآية بالآية أولى وقوله (من حمأ مسنون) أى الصلصال من حمأ وهو الطين . والمسنون الأملس كما قال الشاعر :

ثم خاضعتها إلى القبة الحظ * وراء تمشى في مرمر مسنون

أى أملس صقيل ولهذا روى عن ابن عباس أنه قال هو التراب الرطب ، وعن ابن عباس ومجاهد أيضاً والضحالك ان الحما المسنون هو المتأن وقيل المراد بالسنون ههنا المصبوب ، وقوله (والجان خلقناه من قبل) أى من قبل الانسان (من نار السموم) قال ابن عباس هى السموم التى تقتل ، وقال بعضهم السموم بالليل والنهار ومنهم من يقول السموم بالليل والحروق بالنهار ، وقال أبو داود الطيالسى حدثنا شعبة عن أبي إسحق قال دخلت على عمر الأصم أعوده فقال ألا أحدثك حديثاً سمعته من عبد الله بن مسعود يقول هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من السموم التى خلق منها الجان ثم قرأ (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) وعن ابن عباس أن الجان خلق من لهب النار وفى رواية من أحسن النار ، وعن عمرو بن دينار من نار الشمس ، وقد ورد فى الصحيح « خلقت الملائكة من نور وخلقت الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم »^(١) والمقصود من الآية التنبيه على شرف آدم عليه السلام وطيب عنصره وطهارة محتده

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلَاطٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُن لَّا سَجِدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِّن صَلَاطٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة حسداً وكفراً وعناداً واستكباراً وافتخاراً بالباطل ولهذا قال (لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون) كقوله (أنا خير منه خلقني من نار وخلقته من طين) وقوله (أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ) الآية . وقدرى ابن جرير ههنا أثراً غريباً عجيباً من حديث شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس قال لما خلق الله الملائكة قال (إني خالق بشر من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي قفعوا له ساجدين) قالوا لا نفعل ، فأرسل عليهم ناراً فأحرقهم ، ثم خلق ملائكة أخرى فقال لهم مثل ذلك فقالوا لا نفعل فأرسل عليهم ناراً فأحرقهم ثم خلق ملائكة أخرى فقال إني خالق بشر من طين فإذا أنا خلقته فاسجدوا له فأبوا فأرسل عليهم ناراً فأحرقهم ثم خلق ملائكة فقال إني خالق بشر من طين فإذا أنا خلقته فاسجدوا له قالوا سمعنا وأطعنا ، إلا إبليس كان من الكافرين الأولين وفي ثبوت هذا عنه بعد ، والظاهر أنه إسرائيل والله أعلم

﴿ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

(١) رواه مسلم وأحمد عن عائشة

قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿١٠٠﴾

يذكر تعالى أنه أمر إبليس أمراً كونياً لا يخالف ولا يمانع بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملائكة الأعلی وأنه رجم أي مرجوم وأنه قد أتبعه لعنة لا تزال متصلة به لا حقة له متواترة عليه إلى يوم القيامة . وعن سعيد بن جبیر أنه قال : لما لعن الله إبليس تغيرت صورته عن صورة الملائكة ورن رنة فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيامة منها رواه ابن أبي حاتم ، وأنه لما تحقق الغضب الذي لا مرد له سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة وهو يوم البعث وأنه أحیب إلى ذلك استدراجاً له وإمهالاً فلما تحقق النظرة قبحه الله

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخُو تَيْمُونِ بْنِ لَازِيْنٍ لَّهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب (بما أغويتني) قال بعضهم أقسم باغواء الله له (قلت) ويحتمل أنه بسبب ما أغويتني وأضللتني (لأزين لهم) أي لدرية آدم عليه السلام (في الأرض) أي أحب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها وأأزهم إليها وأزعجهم إليها إزعاجاً (ولأغوينهم أجمعين) أي كما أغويتني وقدرت على ذلك (إلا عبادك منهم المخلصين) كقوله (أرايتك هذا الذي كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً) (قال) الله تعالى له متهدداً ومتوعداً (هذا صراط على مستقيم) أي مرجعكم كلكم إلى فأجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر كقوله تعالى (إن ربك للبارصاد) وقيل طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى وإليه تنتهي قاله مجاهد والحسن وقتاده كقوله (وعلى الله قصد السبيل) وقرأ قيس بن عباد و محمد بن سيرين وقتادة (هذا صراط على مستقيم) كقوله (وإنه في أم الكتاب لدينا لعل حكيم) أي رفيع والمشهور القراءة الأولى . وقوله (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) أي الذين قدرت لهم الهداية فلا سبيل لك عليهم ولا وصول لك إليهم (إلا من اتبعك من الغاوين) استثناء منقطع . وقد أورد ابن جرير ههنا من حديث عبد الله بن المبارك عن عبد الله بن موهب حدثنا يزيد بن قسيط قال : كانت الأنبياء يكون لهم مساجد خارجة من قراهم فإذا أَرَادَ النبي أن يستنبي ربه عن شيء خرج إلى مسجده فصلى ما كتب الله له ثم سأله ما بداله ، فبينما نبي في مسجده إذ جاء عدو الله — يعني إبليس — حتى جلس بينه وبين القبلة فقال النبي أعوذ بالله من الشيطان الرجيم قال فرد ذلك ثلاث مرات فقال عدو الله أخبرني بأى شيء تنجو مني فقال النبي بل أخبرني بأى شيء تغلب ابن آدم مرتين فأخذ كل واحد على صاحبه فقال النبي أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فقال عدو الله أرايت الذي تعوذ منه فهو هو فقال النبي أعوذ بالله من الشيطان الرجيم قال فرد ذلك ثلاث مرات ، فقال عدو الله أخبرني بأى شيء تنجو مني فقال النبي بل أخبرني بأى شيء تغلب ابن آدم مرتين فأخذ كل واحد منهما على صاحبه فقال النبي إن الله تعالى يقول (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) قال عدو الله قد سمعت هذا قبل أن تولد قال النبي ويقول الله (وإما يزرغناك من الشيطان نزغ فاستعد بالله إنه سميع عليم) وإني والله ما أحسست بك قط إلا استعدت بالله منك ، قال عدو الله صدقت بهذا تنجو مني فقال النبي أخبرني بأى شيء تغلب ابن آدم ، قال آخذه عند الغضب والهوى . وقوله (وإن جهنم لموعدهم أجمعين) أي جهنم موعد جميع من اتبع إبليس كما قال عن القرآن (ومن يكفر به من الأحزاب فاللار موعده) ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب (لكل باب منهم جزء مقسوم) أي قد كتب لكل باب منها جزء من اتباع إبليس يدخلونه لا يحيد لهم عنه أجارنا الله منها ، وكل يدخل من باب بحسب عمله ويستقر في درك بقدر عمله ، قال إسماعيل بن علية وشعبة كلاهما عن أبي هارون الغنوي عن حطان بن عبد الله أنه قال سمعت علي بن أبي طالب وهو يخطب قال : إن أبواب جهنم هكذا — قال أبو هارون — أطباقاً بعضها

فوق بعض ، وقال إسرائيل عن أبي إسحق عن هيرة بن أبي مريم عن علي رضي الله عنه قال أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض فيمتليء الأول ثم الثاني ثم الثالث حتى تمتليء كلها ، وقال عكرمة سبعة أبواب سبعة أطباق ، وقال ابن جريج سبعة أبواب أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية . وروى الضحاك عن ابن عباس نحوه ، وكذا روى عن الأعمش بنحوه أيضاً ، وقال قتادة (لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) هي والله منازل بأعمالهم رواهن ابن جرير ، وقال جوير عن الضحاك (لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) قال باب لليهود وباب للنصارى وباب للصائبين وباب للمجوس وباب للذين أشركوا وهم كفار العرب وباب للمنافقين وباب لأهل التوحيد ، فأهل التوحيد يرجى لهم ولا يرجى لأولئك أبداً

وقال الترمذي حدثنا عبد بن حميد حدثنا عثمان بن عمر عن مالك بن مغول عن حميد عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « للجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمي - أو قال على أمة محمد - » ثم قال لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عباس بن الوليد الخلال حدثنا زيد - يعني ابن يحيى - حدثنا سعيد بن بشير عن قتادة عن أبي نضرة عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ في قوله (لكل باب منهم جزء مقسوم) قال « إن من أهل النار من تأخذه النار إلى كعبه وإن منهم من تأخذه النار إلى حجزته ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه منازلهم بأعمالهم فذلك قوله (لكل باب منهم جزء مقسوم) » .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آذِخْلُوهَا بِسَلَامٍ آمَنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ * لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ * تَبٰى عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾

لما ذكر تعالى حال أهل النار عطف على ذكر أهل الجنة وأنهم في جنات وعيون وقوله (ادخلوها بسلام) أي سالمين من الآفات مسلم عليكم (آمين) أي من كل خوف وفزع ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء ، وقوله (ونزعنا ما في صدورهم من غلٍ إخواناً على سرر متقابلين) روى القاسم عن أبي أمامة قال يدخل أهل الجنة الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشقاء والضغائن حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله ما في صدورهم في الدنيا من غلٍ ثم قرأ (ونزعنا ما في صدورهم من غلٍ) هكذا في هذه الرواية والقاسم بن عبد الرحمن في روايته عن أبي أمامة ضعيف ، وقد روى سعيد في تفسيره حدثنا ابن فضالة عن لقمان عن أبي أمامة قال : لا يدخل الجنة مؤمن حتى ينزع الله ما في صدره من غلٍ حتى ينزع منه مثل السبع الضاري . وهذا موافق لما في الصحيح من رواية قتادة حدثنا أبو المتوكل الناجي أن أبا سعيد الخدري حدثهم أن رسول الله ﷺ قال « يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا وتقوا أذن لهم في دخول الجنة » وقال ابن جرير حدثنا الحسن بن زيد بن هارون أخبرنا هشام بن محمد هو ابن سيرين قال استأذن الأشرع على رضي الله عنه وعنده ابن طلحة فحبسه ثم أذن له ، فلما دخل قال إني لا أراك إنما حبستني لهذا ؟ قال أجل قال إني لأراه لو كان عندك ابن لعمان لحبستني قال أجل إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى (ونزعنا ما في صدورهم من غلٍ إخواناً على سرر متقابلين) وقال ابن جرير أيضاً حدثنا الحسن بن محمد حدثنا أبو معاوية الضرير حدثنا أبو مالك الأشجعي حدثنا أبو حبيبة مولى طلحة قال : دخل عمران بن طلحة على رضي الله عنه بعد ما فرغ من أصحاب الجمل فرحب به وقال : إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله (ونزعنا ما في صدورهم من غلٍ إخواناً على سرر متقابلين) وحدثنا الحسن بن زيد بن هارون أخبرنا هشام بن محمد هو ابن سيرين قال استأذن الأشرع على رضي الله عنه وعنده ابن طلحة فحبسه ثم أذن له ، فلما دخل قال إني لا أراك إنما حبستني لهذا ؟ قال أجل قال إني لأراه لو كان عندك ابن لعمان لحبستني قال أجل إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى (ونزعنا ما في صدورهم من غلٍ إخواناً على سرر متقابلين) وقال ابن جرير أيضاً حدثنا الحسن بن محمد حدثنا أبو معاوية الضرير حدثنا أبو مالك الأشجعي حدثنا أبو حبيبة مولى طلحة قال : دخل عمران بن طلحة على رضي الله عنه بعد ما فرغ من أصحاب الجمل فرحب به وقال : إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله (ونزعنا ما في صدورهم من غلٍ إخواناً على سرر متقابلين)

مقابلين) قال ورجلان جالسان إلى ناحية البساط فقالا الله أعدل من ذلك تقتلهم بالأمس وتكونون إخوانا ، فقال على رضى الله عنه قوما أبعد أرض وأسحقها فمن هم إذا إن لم أكن أنا وطلحة ، وذكر أبو معاوية الحديث بطوله وروى وكيع عن أبان بن عبد الله البجلي عن نعيم بن أبي هند عن ربيع بن خراش عن علي بن حمزة وقال فيه فقام رجل من همدان فقال الله أعدل من ذلك يا أمير المؤمنين ، قال فصاح به على صيحة فظننت أن القصر تهدده لها ثم قال إذا لم تكن نحن فمن هم ؟ وقال سعيد بن مسروق عن أبي طلحة وذكره وفيه فقال الحارث الأعور ذلك فقام إليه على رضى الله عنه فضربه بشيء كان في يده في رأسه وقال فمن هم يا أعور إذا لم نكن نحن ؟ وقال سفيان الثوري عن منصور عن إبراهيم قال : جاء ابن جرموز قاتل الزبير يستأذن على رضى الله عنه فحجبه طويلا ثم أذن له فقال له أما أهل البلاء فتجفؤهم فقال على : بياك التراب إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرور متقابلين) وكذا روى الثوري عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بن حمزة ، وقال سفيان بن عيينة عن إسرائيل عن أبي موسى مع الحسن البصري يقول . قال على فينا والله أهل بدر نزلت هذه الآية (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرور متقابلين) وقال كثير النوا : دخلت على أبي جعفر محمد بن على فقلت ولي وليكم ، وسلى سلمكم ، وعدوى عدوكم ، وحربى حربكم . أنا أسالك بالله أتبرأ من أبي بكر وعمر فقال (قد ضلك إذا وما أنا من المهتدين) تولها ما كثير فأدركك فهو في رقبتي هذه ، ثم تلا هذه الآية (إخوانا على سرور متقابلين) قال أبو بكر وعمر وعلى رضى الله عنهم أجمعين ، وقال الثوري عن رجل عن أبي صالح في قوله (إخوانا على سرور متقابلين) قال هم عشرة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وعبد الرحمن ابن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم أجمعين ، وقوله (متقابلين) قال مجاهد لا ينظر بعضهم في قفا بعض وفيه حديث مرفوع

قال ابن أبي حاتم حدثنا يحيى بن عبد الله حدثنا حسان بن أحمد بن إبراهيم بن بشر حدثنا يحيى بن معين عن إبراهيم القومسي عن سعيد بن شرحبيل عن زيد بن أبي أوفى قال . خرج علينا رسول الله ﷺ ونال هذه الآية (إخوانا على سرور متقابلين) في الله ينظر بعضهم إلى بعض ، وقوله (لا يمسم فيها نصب) يعني للشقة والأذى كما جاء في الصحيحين « إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب » وقوله (وما هم منها بمخرجين) كما جاء في الحديث « يقال يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا ترضوا أبدا ، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبدا » وقال الله تعالى (خالدين فيها لا يفتنون عنها حولا)

وقوله (نبي عبادي) أي أنا الغفور الرحيم وأن عبادي هو العذاب الأليم (أي أخبر يا محمد عبادي أي ذورحمة وذو عذاب أليم ، وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة وهي دالة على مقام الرجاء والخوف ، وذكر في سبب نزولها ما رواه موسى بن عبيدة عن مصعب بن ثابت قال مر رسول الله ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون فقال « اذكروا الجنة اذكروا النار » فنزلت (نبي عبادي أي أنا الغفور الرحيم * وأن عبادي هو العذاب الأليم) رواه ابن أبي حاتم وهو مرسل ، وقال ابن جرير حدثني الثني حدثنا إسحق أخبرنا ابن السكي أخبرنا ابن المبارك أخبرنا مصعب بن ثابت حدثنا عاصم بن عبد الله عن ابن أبي رباح عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شعبة فقال « ألا أراكم تضحكون » ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا القهقري فقال « إني لما خرجت جاء جبريل عليه السلام فقال يا محمد إن الله يقول لم تقنط عبادي (نبي عبادي أي أنا الغفور الرحيم * وأن عبادي هو العذاب الأليم) » وقال سعيد عن قتادة في قوله (نبي عبادي أي أنا الغفور الرحيم) قال بلغنا أن رسول الله ﷺ قال « لو يعلم العبد قدر غفو الله لما تورع من حرام ، ولو يعلم العبد قدر عذاب الله لبخع نفسه »

(وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا

نُبَشِّرُكَ بِعِلْمٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشِّرْهُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنِطِينَ * قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى وخبرهم يا محمد عن قصة (ضيف إبراهيم) والضيف يطلق على الواحد والجمع كالزور والسفر، وكيف (دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون) أى خائفون، وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه إليهم من الضيافة وهو العجل السمين الحنيد (قالوا لا توجل) أى لا تخف (وبشروه بغلام عليم) أى إسحق عليه السلام كما تقدم في سورة هود ثم (قال) متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد (أبشروني على أن مسني الكبر فم تبشرون) فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة (قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين) وقرأ بعضهم القنطين فأجابهم بأنه ليس يقنط ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأسنت امرأته فانه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَرْنَا لَهَا بُرْءًا مِنْهُمْ فَاتَّخِذْهَا نَفْسًا لَهَا لَعْنَةُ الْغَائِرِينَ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن إبراهيم عليه السلام لما ذهب عنه الروح وحاءته البشرية انه شرع يسألهم عما جاءوا له فقالوا (إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) يعنون قوم لوط وأخبروه أنهم سينحون آل لوط من بينهم إلا امرأته فانها من الهاكسين، ولهذا قالوا (إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين) أى الباقيين للمهلكين

﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١١﴾

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه فدخلوا عليه داره قال (إنكم قوم منكرون * قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) يعنون بعدابهم وهلاكهم ودمارهم الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم وحاوله بساحهم (وأتيناك بالحق) كقوله تعالى (ما نزل الملائكة إلا بالحق) وقوله (وإنا لصادقون) تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به من نجاته وإهلاك قومه

﴿ فَأَنسِرْ بِأَهْلِكَ يَفْطَحُ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَذْيَرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿١٢﴾

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يسرى بأهله بعد مضي جانب من الليل وأن يكون لوط عليه السلام يمشى وراءهم ليكون أحفظ لهم، وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشى في الغزو إنما يكون ساقية يزجي الضعيف ويحمل المتقطع وقوله (ولا يلتفت منكم أحد) أى إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم وذروهم فيما حل بهم من العذاب والكال (وامضوا حيث تؤمرون) كأمر كان معهم من يهديهم السبيل (وقضينا إليه ذلك الأمر) أى تقدمنا إليه في هذا (أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) أى رقت الصباح كقوله في الآية الأخرى (إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب) ﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُون * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ *

﴿ قَالُوا أَوْلَمَ نَنهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ قَالَ هُوَ لَأَوْ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَعَالِينَ ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾
 يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم وأنهم جاءوا مبشرين بهم فرحين (قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون * واتقوا الله ولا تخزون) وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم أنهم رسل الله كما قال في سورة هود وأما هنا فتقدم ذكر أنهم رسل الله وعطف بذكر مجيء قومه ومحاكاة لهم ولكن الواو لا تقتضي الترتيب ولا سيما إذا دل دليل على خلافه فقالوا له محييبن (أولم تنهك عن العالمين) أي أو ما نهيناك أن تضيف أحدا ؟ فأرشدهم إلى نسايتهم وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة . وقد تقدم إيضاح القول في ذلك بما أغنى عن إعادته . هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم وما قد أحاط بهم من البلاء وماذا يصحبهم من العذاب المستقر . ولهذا قال تعالى لمحمد ﷺ (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاء عريض . قال عمرو بن مالك الكري عن أبي الجوزاء عن ابن عباس أنه قال : ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره ، قال الله تعالى (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) يقول وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا (إنهم لفي سكرتهم يعمهون) رواه ابن جرير وقال قتادة (في سكرتهم) أي في ضلالتهم (يعمهون) أي يلعبون ، وقال طي بن أبي طلحة عن ابن عباس (لعمرك) لعيشك (إنهم لفي سكرتهم يعمهون) قال يترددون
 ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ فَجَعَلْنَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴾
 ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿

يقول تعالى (فأخذتهم الصيحة) وهي ماجاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس وهو طلوعها وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء ثم قلبها وجعل عاليها سافلها وإرسال حجارة السجيل عليهم وقد تقدم الكلام على السجيل في هود بما فيه كفاية ، وقوله (إن في ذلك آيات للمتوسمين) أي إن آثار هذه النعم الظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته كما قال مجاهد في قوله (للمتوسمين) قال الثوري ، وعن ابن عباس والضحاك للناظرين وقال قتادة للمعتبرين ، وقال مالك عن بعض أهل المدينة (للمتوسمين) للمتأملين . وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا محمد بن كثير العبدى عن عمرو بن قيس عن عطية عن أبي سعيد مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ثم قرأ النبي ﷺ (إن في ذلك آيات للمتوسمين) رواه الترمذي وابن جرير من حديث عمرو بن قيس اللاتى عن عطية عن أبي سعيد وقال الترمذي لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وقال ابن جرير أيضاً حدثني أحمد بن محمد الطوسي حدثنا الحسن بن محمد حدثنا الفرات بن السائب حدثنا ميمون ابن مهران عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « اتقوا فراسة المؤمن فإن المؤمن ينظر بنور الله » وقال ابن جرير حدثني أبو شريحيل الحمصي حدثنا سليمان بن سلمة حدثنا المؤمل بن سعيد بن يوسف الرحي حدثنا أبو المعلى أسد بن وداعة الطائي حدثنا وهب بن منبه عن طاوس بن كيسان عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « احذروا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ويتوفيق الله » . وقال أيضاً حدثنا عبد الأطل بن واصل حدثنا سعيد ابن محمد الجرمي حدثنا عبد الواحد بن واصل حدثنا أبو بشر المزلق عن ثابت عن أنس بن مالك قال : قال النبي ﷺ « إن الله عباداً يعرفون الناس بالتوسم » ، ورواه الحافظ أبو بكر البزار حدثنا سهل بن بحر حدثنا سعيد بن محمد الجرمي حدثنا أبو بشر يقال له ابن المزلق قال وكان ثقة عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله عباداً يعرفون الناس بالتوسم » وقوله (وإنها لبسبيل مقيم) أي وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب الصورى والغنى والقذف بالحجارة حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة بطريق مهيع مسالكة مستمرة إلى اليوم كقوله (وإنكم لقرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون * وإن يونس لمن المرسلين) وقال مجاهد والضحاك (وإنها لبسبيل

مقيم) قال معلم ، وقال قتادة بطريق واضح ، وقال قتادة أيضاً بصقع من الأرض واحد ، وقال السدي بكتاب مبين يعنى كقوله (وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) ولكن ليس المعنى على ما قالهنا والله أعلم ، وقوله (إن في ذلك لآية للمؤمنين) أى إن الذى صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وانجائنا لوطاً وأهله لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله

﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ظَالِمِينَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا كَبِيرَا مِمِّين ﴾

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب ، قال الضحاك وقاتدة وغيرهما الأيكة الشجر التلث وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال واليزان فاتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة وقد كانوا قريباً من قوم لوط بعدم في الزمان ومسامتين لهم في المكان ، ولهذا قال تعالى (وإنهما كبيران مميين) أى طريق ممين قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيره طريق ظاهر ، ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في نذارته إياهم (وما قوم لوط منكم ببعيد)

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ * وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُوا يَنْجِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

أصحاب الحجر هم ثمود الذين كذبوا صالحاً نبياً عليه السلام ومن كذب رسول فقد كذب بجميع المرسلين ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين ، وذكر تعالى أنه أنعمهم من الآيات ما يدعهم على صدق ما جاءهم به صالح كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء وكانت تسرح في بلادهم لها شرب ولهم شرب يوم معلوم ، فلما عتوا وعفروها قال لهم (تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب) وقال تعالى (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) وذكر تعالى أنهم (كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين) أى من غير خوف ولا احتياج إليها بل أشرا وبطرا وعبثاً كما هو المشاهد من صنعهم في بيوتهم بوادى الحجر الذى مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك فقتل رأسه وأسرع دابته وقال لأصحابه « لا تدخلوا بيوت القوم المعدين إلا أن تكونوا بأكين فإن لم تبكوا فبأكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم » وقوله (فأخذتهم الصيحة مصبحين) أى وقت الصباح من اليوم الرابع (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أى ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقة حتى عفروها لثلاث تضيق عليهم في المياه ، فمادفت عنهم تلك الأموال ولا نفعهم لما جاء أمر ربك

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَخْلَقَ الْعَلِيمُ ﴾

يقول تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية) أى بالعدل (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا) الآية ، وقال تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) وقال تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) ثم أخبرني بقيام الساعة وأنها كائنة لا محالة ثم أمره بالصصح الجليل عن المشركين في أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به كقوله (فاصصحهم وقل سلام فسوف يعلمون) وقال مجاهد وقاتدة وغيرهما كان هذا قبل القتال ، وهو كما قال ، فإن هذه مكية والقتال إنما شرع بعد الهجرة ، وقوله (إن ربك هو الخلاق العليم) تقرير للمعاد وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة فإنه الخلاق الذى لا يعجز خلق شيء العليم بما تمزق من الأجساد وتفرق في سائر أقطار الأرض كقوله (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون)

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ التَّوْحِيدِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ * لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى لبني عبد الله كما آتيناك القرآن العظيم فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لفتنهم فيه فلا تعبطهم بما هم فيه ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزنا عليهم في تكذيبهم لك ومخالفتهم دينك (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) أي ألن لهم جانبك كقوله (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) وقد اختلف في السبع الثاني ما هي، فقال ابن مسعود وابن عمر وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم هي السبع الطول يعنون البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس، نص عليه ابن عباس وسعيد بن جبير، وقال سعيد بن جبير الفرائض والحدود والقصص والأحكام، وقال ابن عباس بين الأمثال والحر والعبر وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمير قال قال سفيان: الثاني البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف، والأنفال وبراءة سورة واحدة، قال ابن عباس ولم يعطهن أحد إلا النبي صلى الله عليه وسلم وأعطى موسى منهن ثنتين. رواه هشيم عن الحجاج عن الوليد بن العيذار عن سعيد بن جبير عنه، وقال الأعمش عن مسلم البطيخ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أوتي النبي ﷺ سبعا من الثاني الطول وأوتي موسى عليه السلام ستا، فلما ألقى الألواح ارتفع اثنتان وبقيت أربع، وقال مجاهد هي السبع الطوال ويقال هي القرآن العظيم وقال خفيف عن زياد بن أبي مريم في قوله تعالى (سبعا من الثاني) قال أعطيتك سبعة أجزاء مر، وانه، وبشر، وأنذر واضرب الأمثال، واعدد النعم وانبثك نبأ القرآن. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم (والقول الثاني) أنها الفاتحة وهي سبع آيات. وروى ذلك عن علي وعمر وابن مسعود وابن عباس، قال ابن عباس والسبعة هي الآية السابعة وقد خصم الله بها وبه قال إبراهيم النخعي وعبد الله بن عبيد بن عمير وابن أبي مليكة وشهر بن حوشب والحسن البصري ومجاهد، وقال قتادة ذكر لنا أنهم فاتحة الكتاب وأنهم يثني في كل ركعة مكتوبة أو تطوع، واختاره ابن جرير واحتج بالأحاديث الواردة في ذلك وقد قدمناها في فضائل سورة الفاتحة في أول التفسير والله الحمد، وقد أورد البخاري رحمه الله ههنا حديثين أحدهما قال حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن حبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي سعيد بن الملقى قال مر بي النبي ﷺ وأنا أصلي فدعاني فلم آته حتى صليت فأثبته فقال « ما منعك أن تأتي بي؟ » فقلت كنت أصلي فقال « ألم يقل الله (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم) ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد » فذهب النبي صلى الله عليه وسلم ليخرج فذكرت فقال « (الحمد لله رب العالمين) هي السبع الثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته » (الثاني) قال حدثنا آدم حدثنا ابن أبي ذئب حدثنا القبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « أم القرآن هي السبع الثاني والقرآن العظيم » فهذا نص في أن الفاتحة السبع الثاني والقرآن العظيم ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطول بذلك لما فيها من هذه الصفة كما لا ينافي وصف القرآن بكلمة بذلك أيضاً كما قال تعالى (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني) فهو مثاني من وجه ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً كما أنه عليه الصلاة والسلام لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى فأشار إلى مسجده والآية نزلت في مسجد قباء فلا تنافي فإن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتراكا في تلك الصفة والله أعلم وقوله (لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم) أي استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية، ومن ههنا ذهب ابن عينة إلى تفسير الحديث الصحيح « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » إلى أنه يستغنى به عما عداه وهو تفسير صحيح ولكن ليس هو المقصود من الحديث كما تقدم في أول التفسير. وقال ابن أبي حاتم ذكر عن وكيع بن الجراح حدثنا موسى بن عبيدة عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي رافع صاحب النبي صلى الله عليه وسلم قال: ضاف النبي صلى الله عليه وسلم ضيف ولم يكن عند النبي ﷺ شيء يصلحه فأرسل إلى رجل من اليهود « يقول لك محمد رسول الله أسلفني

دقيقاً إلى هلال رجب» قال لا ، إلا برهن فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال « أما والله إنى لأمين من فى السماء وأمين من فى الأرض ولئن أسلفنى أو باعنى لأؤدين إليه » فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية (لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا) إلى آخر الآية كأنه يعزبه عن الدنيا قال العوفى عن ابن عباس (لا تمدن عينيك) قال نهى الرجل أن يتمنى ما لصاحبه . وقال مجاهد (إلى متعنا به أزواجاً منهم) هم الأغنياء

﴿ وَقُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ * كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَأْتِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يأمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للناس (إنى أنا النذير المبين) البين النذارة نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تكذيبه كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسولها وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام وقوله (المقتسمين) أى المتحالفين أى تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم كقولهم تعالى إخباراً عن قوم صالح إنهم (قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله) الآية أى تقتلهم ليلالقال مجاهد تقاسموا وتحالفوا (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) (أو لم تكونوا أقسمتم من قبل) الآية (أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ،) فكأنهم كانوا لا يكذبون بشئ من الدنيا إلا أقسموا عليه فسموا مقتسمين : قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم المقتسمون أصحاب صالح الدين تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله . وفى الصحيحين عن أبى موسى عن النبي ﷺ قال « إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثلى رجل أتى قومه فقال يا قوم إنى رأيت الجيش بعينى وإنى أنا النذير العريان فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدجلوا وانطلقوا على مهالهم فنجوا ، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصباحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به ومثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق » وقوله (الذين جعلوا القرآن عضين) أى جزءوا كتبهم المنزلة عليهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض ، قال البخارى حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا هشيم أنبأنا أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (جعلوا القرآن عضين) قال هم أهل الكتاب جزءوه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه ، حدثنا عبيد الله بن موسى عن الأعمش عن أبى ظبيان عن ابن عباس (جعلوا القرآن عضين) قال هم أهل الكتاب جزءوه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه ، حدثنا عبيد الله بن موسى عن الأعمش عن أبى ظبيان عن ابن عباس قال (كما أنزلنا على المقتسمين) قال آمنوا ببعض وكفروا ببعض اليهود والنصارى ، قال ابن أبى حاتم وروى عن مجاهد والحسن والضحاك وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم نحو ذلك ، وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس (جعلوا القرآن عضين) قال السحر ، وقال عكرمة العضه السحر بلسان قريش تقول للساحرة إنها العاضية وقال مجاهد عضوه أعضاء قالوا سحر وقالوا كهانة وقالوا أساطير الأولين ، وقال عطاء قال بعضهم ساحر وقالوا مجنون وقال كاهن فذلك العضين وكذا روى عن الضحاك وغيره ، وقال محمد بن إسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا شرف فيهم وقد حضر الموسم فقال لهم يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيسه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضهم بعضاً ويرد قولكم بعضه بعضاً فقالوا وأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً تقول به قال بل أتم قولوا لأسمع قالوا نقول كاهن ، قال ما هو بكاهن قالوا فنقول مجنون ، قال ما هو بمجنون قالوا فنقول شاعر ، قال ما هو بشاعر قالوا فنقول ساحر ، قال ما هو بساحر قالوا فإذا تقول ، قال والله إن لقوله للحلاوة فما أتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول أن تقولوا هو ساحر ، فنفروا عنه بذلك وأنزل الله فيهم (الذين جعلوا القرآن عضين) أصنافاً (فورك لنسألهم أجمعين عما كانوا يعملون) أولئك النفر الذين قالوا لرسول الله ، وقال عطية العوفى عن ابن عمر فى قوله (لنسألهم أجمعين عما كانوا يعملون) قال عن لا إله إلا الله وقال عبد الرزاق أنبأنا الثورى عن ليث هو ابن أبى سلمة عن مجاهد فى قوله تعالى (لنسألهم أجمعين عما كانوا يعملون) قال

عن لا إله إلا الله وقد روى الترمذى وأبو يعلى الموصلى وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث شريك القاضى عن ليث بن أبي سليم عن بشير بن نهيك عن أنس عن النبي ﷺ (فوربك لنسألنهم أجمعين) قال عن لا إله إلا الله ، ورواه ابن إدريس عن ليث عن بشير عن أنس موقوفاً ، وقال ابن جرير حدثنا أحمد حدثنا أبو أحمد حدثنا شريك عن هلال عن عبد الله بن حكيم قال ورواه الترمذى وغيره من حديث أنس مرفوعاً وقال عبد الله هو ابن مسعود والذي لا إله غيره ما منكم من أحد إلا سيخلوا الله به يوم القيامة كما يغلو أحدكم بالقمر ليلة البدر فيقول : ابن آدم ماذا غرك منى بنى ؟ ابن آدم ماذا عملت فيما علمت ؟ ابن آدم ماذا أحببت المرسلين ؟ وقال أبو جعفر عن الربيع عن أبي العالية في قوله (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) قال يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة عما كانوا يعبدون وعما ذا أجابوا المرسلين ؟ وقال ابن عيينة عن عمك وعن مالك وقال ابن أبي حاتم حدثنا أي حدثنا أحمد بن أبي الحواري حدثنا يونس الحذاء عن أبي حمزة الشيباني عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ « يا معاذ إن المرء يسئل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه ، وعن فتات الطينة بأصبعه ، فلا ألقينك يوم القيامة وأحد غيرك أسعد بما آلاك الله منك » وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) ثم قال (فيؤمئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان) قال لا يسألهم هل عملتم كذا ؟ لأنه أعلم بذلك منهم ولكن يقول لم عملتم كذا وكذا ؟

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ ببلاغ ما بعثه به وبإفادته والصدع به وهو مواجهة المشركين به كما قال ابن عباس في قوله (فاصدع بما تؤمر) أى أمضه ، وفي رواية (افعل ما تؤمر) وقال مجاهد هو الجهر بالقرآن في الصلاة وقال أبو عبيدة عن عبد الله بن مسعود مازال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفياً حتى نزلت (فاصدع بما تؤمر) فخرج هو وأصحابه وقوله (وأعرض عن المشركين) إنا كفيناك المستهزين (أى بلغ ما أنزل إليك من ربك ولا تلتفت إلى المشركين الذى يريدون أن يصدوك عن آيات الله) (ودوا لوتدهن فيدهنون) ولا تخفهم فإن الله كافيك إياهم وحافظك منهم كقوله تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا يحيى بن محمد بن السكن حدثنا إسحق بن إدريس حدثنا عون بن كهمس عن يزيد بن درهم عن أنس قال سمعت أنساً يقول في هذه الآية (إنا كفيناك المستهزين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر) قال مر رسول الله ﷺ فغمزه بعضهم فجاء جبريل أحسبه قال فغمزهم فوقع في أجسادهم كهشة الطعنة فأتوا ، وقال محمد بن إسحق كان عطاء المستهزين كما حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير خمسة نفر وكانوا ذوى أسنان وشرف في قومهم من بنى أسد بن عبد العزى بن قصي الأسود بن المطلب أبو زمعة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه فقال « اللهم أعم بصره وأثكله ولده » ومن بنى زهرة الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة ، ومن بنى مخزوم الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، ومن بنى سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سعد ، ومن خزاعة الحارث بن الطلائة ابن عمرو بن الحارث بن عبد بن عمرو بن ملكان . فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) إنا كفيناك المستهزين — إلى قوله — فسوف يعلمون) قال ابن إسحق فحدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت فقام وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جبهته ثم به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى

بطنه فاستسقى بطنه ثبات منه ، ومربه الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله وكان أصابه قبل ذلك سمين وهو يجر إزاره وذلك أنه مر برجل من خزاعة يريش نلاله فتعلق سهم من نبلة بإزاره فخدش رجله ذلك الخدش وليس بشيء فانتفض به فقتله ومربه العاص بن وائل فأشار إلى أخمص قدمه فخرج على حمار له يريد الطائف فربض على شربة فدخلت في أخمص قدمه فقتلته ومربه الحارث بن الطلائة فأشار إلى رأسه فامتخط قيحا فقتله ، قال محمد بن اسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن رجل عن ابن عباس قال كان رأسهم الوليد بن المغيرة وهو الذي جمعهم وهكذا روى عن سعيد بن جبير وعكرمة نحو سياق محمد بن إسحق به عن يزيد عن عروة بطوله إلا أن سعيدا يقول الحارث بن غبطة وعكرمة يقول الحارث بن قيس قال الزهري وصدقا هو الحارث بن قيس وأمه غبطة وكذا روى عن مجاهد ومقسم وقنادة وغير واحد أنهم كانوا خمسة وقال الشعبي كانوا سبعة والمشهور الأول وقوله (الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون) تهديد شديد ووعيد أكيد لمن جعل مع الله معبوداً آخر وقوله (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين) أي وإنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم لك ضيق صدورهم فلا بهدئك ذلك ولا يثنيك عن إبلاغك رسالة الله وتوكل عليه فإنه كافيك وناصرك عليهم فاشتغل بذكر الله ونحمده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة . ولهذا قال (فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين) كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية عن كثير بن مرة عن نعيم بن عمار أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « قال الله تعالى يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أ كفاك آخره » ورواه أبو داود والنسائي من حديث مكحول عن كثير بن مرة بنحوه ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى ، وقوله (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) قال البخاري قال سالم الموت وسالم هذا هو سالم بن عبد الله بن عمر كما قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا يحيى بن سعيد عن سفيان حدثنا طارق بن عبد الرحمن عن سالم بن عبد الله (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) قال الموت وهكذا قال مجاهد والحسن وقنادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره والدليل على ذلك قوله تعالى إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا (لم نك من الصلّين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نحوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين) وفي الصحيح من حديث الزهري عن خاتمة بن زيد بن ثابت عن أم العلاء امرأة من الأنصار أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات قالت أم العلاء رحمة الله عليك أبا السائب فشهداتي عليك لقد أكرمك الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وما يدريك أن الله أكرمه : » فقلت بأبي وأمي يا رسول الله فمن ؟ فقال « أما هو فقد جاءه اليقين وإني لأرجو له الخير » ويستدل بهذه الآية الكريمة وهي قوله (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان مادام عقله ثابتاً فيصلّى بحسب حاله كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب » ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة فمضى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم وهذا كفر وضلال وجهل فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته وما يستحق من التعظيم وكانوا مع هذا أعبد وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة ، وإنما المراد باليقين ههنا الموت كما قد مناه الله والحمد لله والحمد لله على الهداية وعليه الاستعانة والتوكل وهو المسئول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها فانه جواد كريم . آخر تفسير سورة الحجر والحمد لله رب العالمين .

(تفسير سورة النحل وهي مكية)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

(أَيْ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبرا بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة كقوله (اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون) وقال (اقتربت الساعة وانشق القمر) وقوله (فلا تستعجلوه) أى قرب ما تباعد فلا تستعجلوه . يحتمل أن يعود الضمير على الله ، ويحتمل أن يعود على العذاب وكلاهما متلازم كما قال تعالى (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) وقد ذهب الضحاك في تفسير هذه الآية إلى قول عجيب فقال في قوله (أتى أمر الله) أى فرائضه وحدوده وقدره ابن جرير فقال : لانعلم أحداً استعجل بالفرائض وبالشرائع قبل وجودها بخلاف العذاب فانهم استعجلوه قبل كونه استبعاداً وتكديبا ، قلت كما قال تعالى (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ، ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد)

وقال ابن أبي حاتم ذكر عن يحيى بن آدم عن أبي بكر بن عياش عن محمد بن عبد الله مولى الغيرة بن شعبة عن كعب بن علقمة عن عبيد الرحمن بن حنيفة عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ « تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الترس ، فانزال ترتفع في السماء ثم ينادى مناد فيها : يا أيها الناس فيقبل الناس بعضهم على بعض : هل سمعتم ، فمنهم من يقول نعم ومنهم من يشك ، ثم ينادى الثانية يا أيها الناس فيقول الناس بعضهم لبعض : هل سمعتم ، فيقولون نعم ، ثم ينادى الثالثة يا أيها الناس أتى أمر الله فلا تستعجلوه » قال رسول الله ﷺ « فوالذي نفسي بيده إن الرجلين لينشران الثوب فيأطويانه أبداً ، وإن الرجل ليمدح حوضه فما يسقى فيه شيئا أبداً ، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبداً - قال - ويشتمل الناس » ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره وعبادتهم معه ماسوا من الأوثان والأنداد ، تعالى وتقدس علواً كبيراً ، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة فقال (سبحانه وتعالى عما يشركون)

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾

يقول تعالى (ينزل الملائكة بالروح أى الوحي كقوله (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا) وقوله (على من يشاء من عباده) وهم الأنبياء كما قال تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وقال (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) وقال (يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق * يومهم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار) وقوله (أن أنذروا) أى لينذروا (أنه لا إله إلا أنا فاتقون) أى فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمرى وعبد غيرى

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوى وهو السموات والعالم السفلى وهو الأرض بما حوت ، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث بل (ليجزى الدين أساءوا بما عملوا ويجزى الدين أحسنوا بالحسنى) ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له ، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له ، ثم نبه على خلق جنس الانسان من نطفة أى مهينة ضعيفة ، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ويحارب رسله وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضدا كقوله تعالى (وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهراً وكان ربك قديراً * ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً) وقوله (أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحيىها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) وفي الحديث الذى رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن بشر بن جحاش قال بصق رسول الله ﷺ في كفه ثم قال « يقول الله تعالى ابن آدم : أتى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين يديك وللأرض منك . وثيد فجملت ومنعت حتى إذا بلغت الخلقوم قلت أتصدق ، وأنى أوأن الصدقة ؟ »

﴿ وَالْأَنفُسُ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ

تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا لِيُقِشَ الْإِنْسَانُ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٠﴾
 يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم كافصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج ،
 وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون ومن ألبانها يشربون
 ويأكلون من أولادها وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة ولهذا قال (ولكم فيها جمال حين تريحون) وهو وقت رجوعها
 عشيما من المرعى فانهن تكون أمدهن خواصر وأعظمه ضرورا وأعلاه أسنمة (وحين تسرحون) أي غدوة حين تبعثونها
 إلى المرعى (وتحمل أثقالكم) وهي الأحمال الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها (إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق
 الأنفس) وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة وما جرى مجرى ذلك تستعملونها في أنواع الاستعمال من ركوب
 وتحميل كقوله (وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك
 تحملون) وقال تعالى (الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ولتبغوا عليها حاجة
 في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون * ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون) ، ولهذا قال ههنا بعد تعداد هذه النعم (إن
 ربكم لرؤوف رحيم) أي ربكم الذي قبض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم كقوله (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا
 أنعاما فهم لها مالكون * وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) وقال (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون *
 لتستووا على ظهورهم ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استوتيت عليه وتفولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين *
 وإنا إلى ربنا لمنقلبون) قال ابن عباس (لكم فيها دفاء) أي ثياب (ومنافع) ما تنتفعون به من الأظعمة والأشربة ، وقال
 عبدالرزاق أخبرنا إسرائيل عن سالك عن عكرمة عن ابن عباس : دفاء ومنافع نسل كل دابة ، وقال مجاهد لكم فيها دفاء
 أي لباس ينسج ومنافع مركب ولحم ولبن ، وقال قتادة : دفاء ومنافع يقول لكم فيها لباس ومنفعة وبلغة وكذا قال غير
 واحد من المفسرين بالفاظ متقاربة

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده تمتن به عليهم وهو الخيل والبغال والحمير التي جعلها للركوب والزينة
 بها وذلك أكبر المقاصد منها ، ولما فصلها من الأنعام وأفردتها بالذكر استدلت من استدلت من العلماء ممن ذهب إلى تحريم
 لحوم الخيل بذلك على ما ذهب إليه فيها كالإمام أبي حنيفة رحمه الله ومن وافقه من الفقهاء بأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير
 وهي حرام كاثبتت به السنة النبوية وذهب إليه أكثر العلماء ، وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير حدثني يعقوب حدثنا
 ابن علية أنبأنا هشام الدستوائي حدثنا يحيى بن أبي كثير عن مولى نافع بن علقمة عن ابن عباس أنه كان يكره لحوم الخيل
 والبغال والحمير وكان يقول قال الله تعالى (والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون) فهذه للأكل (والخيل
 والبغال والحمير لتركبوها) فهذه للركوب ، وكذا روى من طريق سعيد بن جبيرة وغيره عن ابن عباس بمثله وقال مثل ذلك
 الحكم بن عتيبة أيضا رضى الله عنه ، واستأنسوا بحديث رواه الإمام أحمد في مسنده حدثنا يزيد بن عبدربه حدثنا بقية
 ابن الوليد حدثنا ثور بن زيد عن صالح بن يحيى بن المقدم بن معديكرب عن أبيه عن جده عن خالد بن الوليد رضى الله عنه قال :
 نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير . وأخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث صالح
 ابن يحيى بن المقدم وفيه كلام ، ورواه أحمد أيضا من وجه آخر بأبسط من هذا وأدل منه فقال حدثنا أحمد بن عبد الملك
 حدثنا محمد بن حرب حدثنا سليمان بن سليم عن صالح بن يحيى بن المقدم عن جده المقدم بن معديكرب قال غزونا مع خالد
 ابن الوليد الصائفة فقدم أصحابنا إلى اللحم فسألوني رمكة فدفعها إليهم فجلوها وقلت مكانكم حتى أتى خالد فأسأله فأتيته
 فسألته فقال غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة خيبر فأسرع الناس في حظائر يهود فأمرني أن أنادي الصلاة جامعة
 ولا يدخل الجنة إلا مسلم ثم قال « أيها الناس : إنكم قد أسرعتم في حظائر يهود ، ألا لا يحل أموال المعاهدين إلا بحقها

وحرام عليكم لحوم الجمر الأهلية وخيلها وبغالها وكل ذى ناب من السباع وكل ذى مخالب من الطير « والرمة هي الحجرة ، وقوله حبواها أى أوثقوها في الخيل ليدبحوها ، والحظائر البساتين القريبة من العمران وكان هذا الصنيع وقع بعد اعطائهم العهد ومعاملتهم على الشطر والله أعلم . فلو صح هذا الحديث لكان نصاً في تحريم لحوم الخيل ولكن لا يقاوم ما ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لحوم الجمر الأهلية وأذن في لحوم الخيل . ورواه الإمام أحمد وأبو داود بإسنادين كل منهما على شرط مسلم عن جابر قال : ذبحنا يوم خير الخيل والبغال والحمير فنهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل وفي صحيح مسلم عن أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنهما قالت : نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرساً فأكلناه ونحن بالمدينة . فهذه أدل وأقوى وأثبت ، وإلى ذلك صار جمهور العلماء مالك والشافعي وأحمد وأصحابهم وأكثر السلف والخلف والله أعلم . وقال عبد الرزاق أنبأنا ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال كانت الخيل وحشية فذللها الله لإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وذكر وهب بن منبه في إسرائيلى أنه أن الله خلق الخيل من ريح الجنوب والله أعلم . فقد دل النص على جواز ركوب هذه الدواب ومنها البغال ، وقد أهديت إلى رسول الله ﷺ بغلة فكان يركبها مع أنه قد نهى عن انزاع الجمر على الخيل لئلا ينقطع النسل . قال الإمام أحمد حدثني محمد بن عبيد حدثنا عمر من آل حذيفة عنه عن الشعبي عن دحية الكلبي قال : قلت يا رسول الله ألا يحمل لك حمار على فرس فتنتج لك بغلا فتركها قال « إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون »

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَتَمَّعِينَ ﴾

لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسية نبه على الطرق المعنوية الدينية ، وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية كقوله تعالى (وترودوا فإن خير الزاد التقوى) وقال تعالى (يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير) ولما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم ، وحمل أنقلهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة ، شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه ، فبين أن الحق منها ما هي موصلة إليه فقال (وعلى الله قصد السبيل) كقوله (وأن هذا صراطي مستقيم فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وقال (قال هذا صراطي مستقيم) قال مجاهد في قوله (وعلى الله قصد السبيل) قال طريق الحق على الله ، وقال السدي (وعلى الله قصد السبيل) الإسلام وقال العوفي عن ابن عباس في قوله (وعلى الله قصد السبيل) يقول وعلى الله البيان أى يبين الهدى والصلاة . وكذا روى على بن أبي طلحة عنه وكذا قال قتادة والضحاك وقول مجاهد ههنا أقوى من حيث السياق لأنه تعالى أخبر أن ثم طرقتا تسلك إليه فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق وهي الطريق التي شرعها ورضيها ، وما عداها مسدودة والأعمال فيها مردودة ، ولهذا قال تعالى (ومنها جائر) أى حائذ مائل زائع عن الحق قال ابن عباس وغيره هي الطرق المختلفة والآراء والأهواء المنفرقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية ، وقرأ ابن مسعود (ومنكم جائر) ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيبته فقال (ولو شاء لهداكم أجمعين) كما قال تعالى (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً) وقال (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين)

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

لما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء وهو العلو مما لهم فيه بلغة ومتاع لهم ولأنعامهم فقال (لكم منه شراب) أى جعله عناء زلالاً يسوغ لكم شربه ولم يجعله

ملحاً أجاجاً (ومنه شجر فيه تسميون) أى وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم . كما قال ابن عباس وعكرمة والضحاك وقتادة وابن زيد في قوله فيه تسميون أى ترعون ومنه الإبل السائمة ، والسوم : الرعى ، وروى ابن ماجه أن رسول الله ﷺ نهى عن السوم قبل طلوع الشمس وقوله (ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات) أى يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها ولهذا قال (إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) أى دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله كما قال تعالى (أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبثنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون) ثم قال تعالى

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾
﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾

ينبه تعالى عباده على آياته العظام ومننه الجسام في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان والشمس والقمر يدوران ، والنجوم الثوابت والسيارات في أرجاء السموات نورا وضياء ليهتدى بها في الظلمات ، وكل منها يسير في فلكه الذى جعله الله تعالى فيه يسير بحركة مقدره لا يزيد عليها ولا ينقص عنها ، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسهيله كقوله (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلمه حينئذ الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) ولهذا قال (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) أى لدلالات على قدرته تعالى الباهرة وسلطانه العظيم لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه . وقوله (وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه) لما نبه تعالى على معالم السماء نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة من الحيوانات والعادن والنباتات والمعادن على اختلاف ألوانها وأشكالها وما فيها من المنافع والخواص (إن في ذلك لآية لقوم يذكرون) أى آلاء الله ونعمه فيشكرونها

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِنَا كَلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلَ كَمَا أَفْئَدَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَّمَتْ وَالنَّجْمَ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج ، ويمتن على عباده بتدليله لهم وتيسيرهم للركوب فيه وجعله السمك والحيتان فيه وإحلاله لعباده لحما حيا وميتا في الحل والإحرام وما يخلقه فيه من اللآلىء والجواهر النفيسة وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حلية يلبسونها وتسخيره البحر لحمل السفن التى تمخره أى تشقه وقيل تمخر الرياح وكلاهما صحيح وقيل تمخره بجوئتها وهو صدرها المسم - الذى أرشد العباد إلى صنعها وهداهم إلى ذلك إرثا عن أبيهم نوح عليه السلام فإنه أول من ركب السفن وله كان تعليم صنعها ثم أخذها الناس عنه قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل يسرون من مطر إلى قطر ومن بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم لجلب ما هناك إلى ما هنا وما هنا إلى ما هناك ولهذا قال تعالى (ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) أى نعمه وإحسانه ، وقد قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده وجدت فى كتابى عن محمد بن معاوية البغدادى حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو عن سهل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة قال كلم الله البحر الغربى وكلم البحر الشرقى فقال للبحر الغربى إني حامل فيك عبادا من عبادى فكيف أنت صانع فيهم ؟ قال أعرقهم ، فقال

بأسك في نواحيك وأحلمهم على يدى وحرمت الحلية والصيد ، وكلم هذا البحر الشرقى فقال : إني حامل فيك عبادا من عبادى فما أنت صانع بهم ؟ فقال : أحلمهم على يدى وأكون لهم كالوالدة لولدها فأثابه الحلية والصيد ، ثم قال البزار لا نعلم من رواه عن سهل غير عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو وهو منكر الحديث . وقد رواه سهل عن النعمان بن أبي عياش عن عبد الله بن عمرو موقوفا . ثم ذكر تعالى الأرض وما ألقى فيها من الرواسى الشاخات والجبال الراسيات لتقر الأرض ولا تميد أى تضطرب بما عليها من الحيوانات فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك ولهذا قال (والجبال أرساها) وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن قتادة سمعت الحسن يقول : لما خلقت الأرض كانت تميد فقالوا ما هذه بمقرة على ظهرها أحدا فأصبحوا وقد خلقت الجبال فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال ، وقال سعيد عن قتادة عن الحسن عن قيس بن عباد أن الله خلق الأرض جعلت تمور فقالت الملائكة : ما هذه بمقرة على ظهرها أحدا فأصبحت . صبحا وفيها رواسيها ، وقال ابن جرير حدثني الثنى حدثني حجاج بن منهل حدثنا حماد عن عطاء بن السائب عن عبد الله بن حبيب عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال لما خلق الله الأرض فمضت وقالت أى رب تجعل على بنى آدم يعملون الخطايا ويجعلون على الحب ؟ قال فأرسل الله فيها من الجبال ماترون ومالا ترون فكان إقرارها كاللحم يترجرج . وقوله (وأنهارا وسبلا) أى جعل فيها أنهارا تجري من مكان إلى مكان آخر رزقا للعباد ينبع في موضع وهو ورق لأهل موضع آخر فيقطع البقاع والبرارى والتفارى ويخترق الجبال والآكام فيصل إلى البلد الذى سخر لأهله وهى سائرة فى الأرض بمنة ويسرة وجنوبا وشمالا وشرقا وغربا ما بين صغار وكبار وأودية تجري حيناً وتنقطع فى وقت وما بين نبع وجمع وقوى السير وبطئه بحسب ما أراد وقد سخر ويسر ، فلا إله إلا هو ولا رب سواه ، وكذلك جعل فيها سبلا أى طرقا يسلك فيها من بلاد إلى بلاد حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكا كما قال تعالى (وجعلنا فيها فجاجا سبلا) الآية وقوله (وعلامات) أى دلائل من جبال كبار وآكام صغار ومحو ذلك يستدل بها المسافرون برا وبحرا إذا ضلوا الطرق . وقوله (وبالنجم هم يهتدون) أى فى ظلام الليل قاله ابن عباس وعن مالك فى قوله (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) يقول النجوم وهى الجبال ، ثم نبه تعالى على عظمتها وأنه لا تنبغى العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان التى لا تخلق شيئا بل هم مخلوقون ولهذا قال (أفن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تدكرون :) ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم فقال (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم) أى يتجاوز عنكم ، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك ولو أمركم به لضعفتم وتركتم ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم ولكنه غفور رحيم يغفر الكثير ويحازى على اليسير ، وقال ابن جرير يقول إن الله لغفور لما كان منكم من تقصير فى شكر بعض ذلك إذا تبتم وأنبتتم إلى طاعته واتباع مرضاته رحيم بكم لا يعذبكم بعد الإثابة والتوبة

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْ مَاتَ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة إن خيرا فخير وإن شرا فشر . ثم أخبر أن الأصنام التى يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون كما قال الخليل (أتعبدون ما تضحكون ؟ والله خلقكم وما تعملون) وقوله (أموات غير أحياء) أى هى جمادات لا أرواح فيها فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل (وما يشعرون أيان يبعثون) أى لا يدرون متى تكون الساعة فكيف يرتجى عند هذه تقع أو ثواب أو جزاء ؟ إنما يرجى ذلك من الذى يعلم كل شئ وهو خالق كل شئ

﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنْكِرَةٌ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ * إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْكَافِرِينَ تَسْكُرُ قُلُوبُهُمْ ذَلِكَ كَمَا أَخْبَرَهُمْ مَتَعَجِبِينَ مِنْ ذَلِكَ (أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ) وَقَالَ تَعَالَى (وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) وَقَوْلُهُ (وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ) أَيْ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ مَعَ إِنكَارِ قُلُوبِهِمْ لِتَوْحِيدِهِ كَمَا قَالَ (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا (لَا جَرَمَ) أَيْ حَقًّا (أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَسْرُونَ وَمَا يَعْلَنُونَ) أَيْ وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَثْمُ الْجَزَاءِ (إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِينُونَ ﴾

يقول تعالى وإذا قيل لهؤلاء المكذبين (ماذا أنزل ربكم قالوا) معرضين عن الجواب (أساطير الأولين) أي لم ينزل شيئا إنما هذا الذي يتلى علينا أساطير الأولين أي مأخوذ من كتب المتقدمين كما قال تعالى (وقالوا أساطير الأولين اكتبناها فهي تملئ عليه بكثرة وأصيلا) أي يفترون على الرسول ويقولون أقوالا متضادة مختلفة كلها باطلة كما قال تعالى (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) وذلك أن كل من خرج عن الحق فهمما قال أخطأ ، وكانوا يقولون ساحر وشاعر وكاهن ومجنون ثم استقر أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهم الوحيد المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومي لما (فسكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر) أي ينقل ويحكي فتفرقوا عن قوله ورأيه قبضهم الله ، قال الله تعالى (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) أي إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك ليحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم أي يصير عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم كما جاء في الحديث « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » وقال تعالى (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون) وهكذا روى العوفي عن ابن عباس في الآية (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) أنها كقوله (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) وقال مجاهد يحملون أثقالهم ذنوبهم وذنوب من أطاعهم ولا يخفف عنهم أطاعهم من العذاب شيئا

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ كَافَّةً مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

قال العوفي عن ابن عباس في قوله (قد مكر الذين من قبلهم) قال هو الخروذ الذي بنى الصرح ؛ قال ابن أبي حاتم وروى عن مجاهد نحوه وقال عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم أول جبار كان في الأرض الخروذ فبعث الله عليه بعوضة فدخلت في منخره فحكَّت أربعائة سنة يضرب رأسه بالمطارق وأرحم الناس به من جمع يديه فضر بهم جوارسه ، وكان جبارا أربعائة سنة فعذبه الله أربعائة سنة كعلكه ثم أماته وهو الذي بنى الصرح إلى السماء الذي قال الله تعالى (فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ) وقال آخرون بل هو يختصر وذكروا من المكر الذي حكاه الله ههنا كما قال في سورة إبراهيم (وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِلْزُّلُومِ مِنَ الْجِبَالِ) وقال آخرون هذا من المثل لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره كما قال نوح عليه السلام (ومكروا مكرا كبيرا) أي احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة

وأما لوهم إلى شركهم بكل وسيلة كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة (بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً) الآية وقوله (فأتى الله بنيانهم من القواعد) أى اجتثه من أصله وأبطل عملهم كقوله تعالى (كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله) وقوله (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار) وقال الله ههنا (فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ثم يوم القيامة يخزيهم) أى يظهر فضائحهم وما كانت تجنه ضائرتهم فيجعله علانية كقوله تعالى (يوم تبلى السرائر) أى تظهر وتشتهر كما في الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته فيقال هذه غدره فلان بن فلان » وهكذا هؤلاء يظهر للناس ما كانوا يسرونه من السكر وخزيهم الله على رؤوس الخلائق ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مقرعاً لهم وموبخاً (أن شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم) تحاربون وتعادون في سبيلهم أين هم عن نصركم وخلاصكم ههنا ؟ (هل ينصرونكم أو ينجسونكم) (فإله من قوة ولاناصر) فإذا توجهت عليهم الحجة وقامت عليهم الدلالة ، وحقت عليهم الكلمة وسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار (قال الذين أوتوا العلم) وهم السادة في الدنيا والآخرة والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة فيقولون حينئذ (إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين) أى الفضيحة والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله وأشرك به وما لا يضره وما لا ينفعه

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّيهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين ﴿

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمى أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة اليهم لقبض أرواحهم الخبيثة (فألخوا السلم) أى أظهروا السمع والطاعة والالتقاء قائلين (ما كنا نعمل من سوء) كما يقولون يوم المعاد (والله ربنا ما كنا مشركين) (يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم) قال الله مكذباً لهم في قلوبهم ذلك (بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون ﴾ فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين) أى بئس المقيل والمقام والمكان من دار هوان لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم وينال أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم وخلدت في نار جهنم (لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها) كما قال الله تعالى (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب)

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَمِيزُ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿

هذا خبر عن السعداء بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء فإن أولئك قيل لهم (ماذا أنزل ربكم) قالوا معرضين عن الجواب لم ينزل شيئاً إنما هذا أساطير الأولين ، وهؤلاء قالوا خيراً أى أنزل خيراً أى رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به ، ثم أخبر عما وعده الله عباده فيما أنزله على رسله فقال (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة) الآية كقوله تعالى (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) أى من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه عمله في الدنيا والآخرة ثم أخبر بأن دار الآخرة خير أى من الحياة الدنيا والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا كقوله (وقال الذين أوتوا العلم وبلغكم ثواب الله خير) الآية . وقال تعالى (وما عند الله خير للأبرار) وقال تعالى (والآخرة خير وأبقى) وقال رسوله ﷺ (وللاخرة خير لك من الأولى) ثم وصف الدار الآخرة فقال (ولنعم دار المتقين) وقوله

(جنات عدن) يدل من دار المؤمنين أى لهم فى الآخرة جنات عدن أى مقام يدخلونها (نجرى من تحتها الأنهار) أى بين أشجارها وقصورها (لهم فيها ما يشاءون) كقوله تعالى (وفيهما ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون) وفى الحديث «ان السحابة لغير الملأ من أهل الجنة وهم جلوس على شراهم فلا يشتهى أحدهم شياً إلا أمطرته عليه حتى إن منهم لمن يقول أمطرينا كواعب أتراباً فيكون ذلك» (كذلك يجزى الله المؤمنين) أى كذلك يجزى الله كل من آمن به واثقاه وأحسن عمله، ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون أى مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة كقوله تعالى (إن الدين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نزلاً من غفور رحيم) وقد قدمنا الأحاديث الواردة فى قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى (يثبت الله الدين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء)

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَخَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

يقول تعالى مهدداً للمشركين على تماديهم فى الباطل واغترارهم بالدنيا هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيتهم لقبض أرواحهم قاله قتادة (أوبأتى أمر ربك) أى يوم القيامة وما يعاينونه من الأحوال وقوله (كذلك فعل الذين من قبلهم) أى هكذا عمادى فى شركهم وأسلافهم ونظراؤهم وأشباهم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله وحلوا فيهم من العذاب والنكال (وما ظلمهم الله) لأنه تعالى أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بارسال رسله وإزال كتبه (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاءوا به ، فلهمنا أصابهم عقوبة الله على ذلك (وخاق بهم) أى أحاط بهم من العذاب الألم (ما كانوا به يستهزئون) أى يسخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله فلهمنا يقال لهم يوم القيامة (هذه النار التى كنتم بها تكذبون)

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ * إِنْ تَحْرِضْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم (لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آبائنا ولا حرمنا من دونه من شيء) أى من البهائم والسواحب والوسائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم ينزل به سلطاناً ، ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكننا منه قال الله تعالى راداً عليهم شبهتهم (فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) أى ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم بل قد أنكره عليكم أشد الانكار ونهاكم عنه أكد النهى وبعث فى كل أمة أى فى كل قرن وطائفة من الناس رسولا وكلهم يدعون إلى عبادة الله وينهون عن عبادة ما سواه (أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك فى بنى آدم فى قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذى طبقت دعوته الإنس والجن فى المشارق والمغرب ، وكلهم كما قال الله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقوله تعالى (واسأل

من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون (وقال تعالى في هذه الآية الكريمة (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول (لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء) فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية لأنه نهاهم عن ذلك على السنة رسله ، وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدرأ فلا حجة لهم فيها لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة وهو لا يرضى لعباده الكفر وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل فلماذا قال (فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) أى اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف (دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها) فقال (ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير) ثم أخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم إذا كان الله قد أراد إضلالهم كقوله تعالى (ومن يرد الله فتنه فلا تملك له من الله شيئا) وقال نوح لقومه (ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم) وقال في هذه الآية الكريمة (إن تحرص على هدايتهم فإن الله لا يهدي من يضل) كما قال الله (من يضل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون) وقال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) وقوله (فإن الله) أى شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فلماذا قال (لا يهدي من يضل) أى من أضله ، فمن ذا الذى يهديه من بعد الله ؟ أى لا أحد (وما لهم من ناصرين) أى ينقذونهم من عذابه ووثاقه (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِن أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾
لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين أنهم حلفوا فأقسموا بالله جهد أيمانهم أى اجتهدوا في الحلف وغلظوا الأيمان على أنه لا يبعث الله من يموت أى استبعدوا ذلك وكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك وحلفوا على نفيه فقال تعالى مكذبا لهم ورادا عليهم (بلى) أى بلى سيكون ذلك (وعدا عليه حقا) أى لا بد منه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى فلجهاهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر ، ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد فقال (ليبين لهم) أى للناس (الذى يختلفون فيه) أى من كل شيء (ويجزى الدين أساءوا بما عملوا ويجزى الدين أحسنوا بالحسنى) (وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين) أى فى أيمانهم وأقسامهم لا يبعث الله من يموت ولهذا يدعون يوم القيامة إلى نار جهنم دعا وتقول لهم الزبانية (هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسح هذا أم أتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تبصروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون) ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء وأنه لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة فيكون كما يشاء كقوله (وما أمرنا إلا واحدة فكلح بالبصر) وقال (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) وقال فى هذه الآية الكريمة (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) أى أن تأمر به مرة واحدة فإذا هو كائن كما قال الشاعر
إذا ما أراد الله أمرا فإمّا * يقول له كن قوله فيكون

أى أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف لأنه الواحد القهار العظيم الذى قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء فلا إله إلا هو ولا رب سواه ، وقال ابن أبي حاتم ذكر الحسن بن محمد بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج عن ابن جريج أخبرنى عطاء أنه سمع أبا هريرة يقول قال الله تعالى: شتمنى ابن آدم ولم يكن ينبغى له ذلك وكذبنى ابن آدم ولم يكن ينبغى له ذلك فأما تكذيبه إياى فقال (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت)

قال وقلت (بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أما شتمه إياي فقال (إن الله ثالث ثلاثة) وقلت (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) . هكذا ذكره موقوفاً وهو في الصحيحين مرفوعاً بلفظ آخر ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ لآخِرَةٍ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان رجاء ثواب الله وجزائه ويحتمل أن يكون سبب نزولها في مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمسكة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم ، ومن أشرفهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ وجعفر بن أبي طالب بن عم الرسول وأبو سلمة بن عبد الأسد في جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة صديق وصديقة رضى الله عنهم وأرضاهم وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال (لنبوتهم في الدنيا حسنة) قال ابن عباس والشعبي وقناة المدينة وقيل الرزق الطيب قاله مجاهد ولا منافاة بين القولين فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم الله خيراً منها في الدنيا فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هو خير له منه وكذلك وقع فانهم مكّن الله لهم في البلاد وحكمهم على رقاب العباد وصاروا أمراء حكما وكل منهم للمتقين إماماً وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا فقال (ولأجر الآخرة أكبر) أى مما أعطيناهم في الدنيا (لو كانوا يعلمون) أى لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله ولهذا قال هشيم عن العوام عمن حدثه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ادخر لك في الآخرة أفضل ثم قرأ هذه الآية (لنبوتهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) ثم وصفهم تعالى فقال (الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) أى صبروا على الأذى من قومهم متوكلين على الله الذى أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ اِلَيْهِمْ فَمَسَّوْا اَهْلَ الدِّيَارِ اِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ ﴾ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا اِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ اِلَيْهِمْ وَعَلَّمَهُمْ يَتَقَرَّرُونَ ﴿

قال الضحاك عن ابن عباس لما بعث الله محمداً ﷺ رسولا أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فأنزل الله (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس) الآية وقال (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فأسألوأهل الدكر إن كنتم لاتعلمون) يعنى أهل الكتب الماضية أبشرا كانت الرسل إليهم أم ملائكة ؟ فان كانوا ملائكة أنكرتم وإن كانوا بشرا فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولا قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم من أهل القرى) ليسوا من أهل السماء كما قلتم وكذا روى عن مجاهد عن ابن عباس أن المراد بأهل الدكر أهل الكتاب وقاله مجاهد والأعمش وقول عبد الرحمن بن زيد الدكر القرآن واستشهد بقوله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) صحيح لكن ليس هو المراد ههنا لأن المخالف لا يرجع في إثباته بعد إنكاره إليه وكذا قول أبى جعفر الباقر عن أهل الدكر ومراده أن هذه الأمة أهل الدكر صحيح فان هذه الأمة أعلم من جميع الأمم السالفة . وعلماء أهل بيت رسول الله عليهم السلام والرحمة من خير العلماء إذا كانوا على السنة المستقيمة كعلى وابن عباس وابنى على الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وعلى بن الحسين زين العابدين وعلى بن عبد الله بن عباس وأبى جعفر الباقر وهو محمد بن على بن الحسين وجعفر ابنه وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم ممن هو متمسك بمجمل الله المتين وصراطه المستقيم وعرف لكل ذى حق حقه ونزل كل (١) المنزل الذى أعطاه

(١) هكذا في جميع النسخ والوجه ونزل كلا إلخ .

الله ورسوله واجتمعت عليه قلوب عباده المؤمنين ، والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت بأن الرسل الماضين قبل محمد صلى الله عليه وسلم كانوا بشرًا كما هو بشر كما قال تعالى (قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا ؟ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا ؟) وقال تعالى (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق) وقال تعالى (وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين) وقال (قل ما كنت بدعاً من الرسل) وقال تعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ) ثم أرشد الله تعالى من شك في كون الرسل كانوا بشرًا إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا هل كان أنبياءهم بشرًا أم ملائكة ، ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم (بالبينات) أى بالحجج والدلائل (والزبر) وهى الكتب قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم ، والزبر جمع زبور تقول العرب زبرت الكتاب إذا كتبتة . وقال تعالى (وكل شيء فعلوه في الزبر) وقال (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) ثم قال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر) يعنى القرآن (لتبين للناس ما نزل إليهم) أى من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك وحرصك عليه واتباعك له ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم فتفصل لهم ما أجل وتبين لهم ما أشكل (ولعلمهم يتفكرون) أى ينظرون لأنفسهم فيهدون فيفوزون بالنجاة في الدارين

﴿ أَفَأَمِّنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَاهُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

يخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها ويمكرون بالناس في دعائهم بإهم وحملهم عليها مع قدرته على أن يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أى من حيث لا يعلمون بحجته إليهم كقوله تعالى (أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور * أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير) وقوله (أو يأخذهم في تقلبهم) أى في تقلبهم في المعاش واشتغالهم بها في أسفار ونحوها من الأشغال المللية ، قال قتادة والسدى تقلبهم أى أسفارهم ، وقال مجاهد والضحاك وقتادة (في تقلبهم) فى الليل والنهار كقوله (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) وقوله (فهم بمعجزين) أى لا يعجزون الله على أى حال كانوا عليه وقوله (أو يأخذهم على تخوف) أى أو يأخذهم الله فى حال خوفهم من أخذه لهم فإنه يكون أبلغ وأشد فأن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد ولهذا قال العوفي عن ابن عباس (أو يأخذهم على خوف) يقول إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك وكذا روى عن مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم ثم قال تعالى (فإن ربكم لرءوف رحيم) أى حيث لم يعاجلكم بالعقوبة كما ثبت في الصحيحين « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يعملون له ولدا وهو يرزقهم ويعافهم » وفيها « إن الله ليلى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) وقال تعالى (وكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة ثم أخذناها وإلى المصير)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُ ظِلَّاهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ كَاذِبُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن عظيمته وجلاله وكبرائه الذى خضع له كل شيء ، ودان له الأشياء والمخلوقات بأسرها جماداتها وحيواناتها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة فأحبر أن كل ماله ظل يتفياً ذات اليمين ودان الشمال أى بكرة

وعشياً فانه ساجد بظله لله تعالى . قال مجاهد إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عز وجل وكذا قال قتادة والضحاك وغيرهم ، وقوله (وهم داخرون) أى صاغرون وقال مجاهد أيضاً سجد كل شيء فيؤم وذكر الجبال قال سجدوها فيؤمها وقال أبو غالب الشيباني أمواج البحر صلاته وتزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم فقال (لله سجد ما في السموات وما في الأرض من دابة) كما قال (والله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم بالغدو والآصال) وقوله (والملائكة وهم لا يستكبرون) أى تسجد لله أى غير مستكبرين عن عبادته (يخافون ربهم من فوقهم) أى يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله (ويفعلون ما يؤمرون) أى مثابرين على طاعته تعالى وامثال أوامره ، وترك زواجه

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارْهَبُونِ * وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ * وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَسَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَهُمْ فَيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له فانه مالك كل شيء وخالقه وربّه (وله الدين واصباً) قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وميمون بن مهران والسدى وقاتدة وغير واحد أى دائماً وعن ابن عباس أيضاً أى واجبا ، وقال مجاهد أى خالصه أى له العبادة وحده من في السموات والأرض كقوله (أفغير دين الله يغيون * وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون) هذا على قول ابن عباس وعكرمة فيكون من باب الخبر وأما على قول مجاهد فانه يكون من باب الطلب أى ارهبوا أن تشركوا بشيئا وأخلصوا الى الطاعة كقوله تعالى (ألا لله الدين الخالص) ثم أخبر أنه مالك النفع والضر وأن ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليهم ، وإحسانه إليهم (ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون) أى لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو فإنكم عند الضرورات تتجأون إليه وتسالونه وتلحون في الرغبة اليه مستغيثين به كقوله تعالى (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً) وقال ههنا (ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم) قيل اللام ههنا لام العاقبة وقيل لام التعليل بمعنى قيضنا لهم ذلك ليكفروا أى يستروا ويحججوا نعم الله عليهم وأنه السدى إليهم النعم ، الكاشف عنهم النقم ثم توعدهم قائلاً (فتمتعوا) أى اعملوا ما شئتم وامتعوا بما أتم فيه قليلاً (فسوف تعلمون) أى عاقبة ذلك

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَمْلِكُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَدَنَ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

يخبر تعالى عن قبائح الشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم وجعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله فقالوا (هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون) أى جعلوا لألهتهم نصيباً مع الله وفضلوها على جانبه فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليساً لهم عن ذلك الذي افتروه واثبتكوه وليقابلهم عليه وليجازيهم أوفر الجزاء في نار جهنم فقال (تالله لتستلن عما

كنتم تفترون) ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا وجعلوها بنات الله فعبدها معه فأخطأوا خطأ كبيرا في كل مقام من هذه المقامات الثلاث فنسبوا إليه تعالى أن له ولدا ولا ولد له ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات وهم لا يرضونها لأنفسهم كما قال (ألكم الذكور وله الأنثى ؟ تلك إذا قسمة ضيزى) وقوله ههنا (ويجعلون لله البنات سبحانه) أى عن قولهم وإفكهم (ألا إنهم من إفكهم ليقولن ولدا لله وإنهم لكاذبون * أصطفى البنات على البنين ؟ ما لكم كيف تحكمون) وقوله (ولهم ما يشتهون) أى يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التى نسبوها إلى الله ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ، فإنه إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا) أى كشيئا من الهم (وهو كظيم) ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن (يتوارى من القوم) أى يكره أن يراه الناس (من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب) أى إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها ولا يعتنى بها ويفضل أولاده الله كور عليها (أم يدسه فى التراب) أى يدها وهو أن يدفنها فيه حية كما كانوا يصنعون فى الجاهلية ، أفمن يكرهه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله ؟ (ألا ساء ما يحكمون) أى بش ما قالوا وبش ما قسموا وبش ما نسبوه إليه كقوله تعالى (وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم) وقوله ههنا (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء) أى النقص إنما ينسب إليهم (والله المثل الأعلى) أى الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه (وهو العزيز الحكيم)

﴿ وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَشْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنْ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا مترك على ظهر الأرض من دابة أى لأهلك جميع دواب الأرض تبعا لإهلاك بنى آدم ولكن الرب جل جلاله يعلم ويستر ، وينظر إلى أجل مسمى أى لا يعاجلهم بالعقوبة ، إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقي أحدا ، قال سفيان الثوري عن أبي إسحق عن أبي الاحوص أنه قال كاد الجعل أن يعذب بذنب بنى آدم وقرأ الآية (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة) وكذا روى الأعمش عن أبي إسحق عن أبي عبيدة قال : قال عبد الله كاد الجعل أن يهلك فى جحره بخطيئة بنى آدم وقال ابن جرير حدثني محمد بن المثنى حدثنا إسماعيل ابن حكيم الخراعى حدثنا محمد بن جابر الحنفى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة قال سمع أبو هريرة رجلا وهو يقول : إن الظالم لا يضر إلا نفسه ، قال فالتفت إليه فقال بلى والله حتى إن الجبارى لتتوت فى وكرها بظلم الظالم . وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين أنبأنا الوليد بن عبد الملك حدثنا عبيد الله بن شريحيل حدثنا سليمان بن عطاء عن سلمة بن عبد الله عن عمه أبى مشجعة بن ربيع عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال ذكرنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « إن الله لا يؤخر شيئا إذا جاء أجله وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها الله العبد فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم فى قبره فذلك زيادة العمر » . وقوله (ويجعلون لله ما يكرهون) أى من البنات ومن الشركاء الذين هم عبيده وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له فى ماله وقوله (وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى) إنكار عليهم فى دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى فى الدنيا وإن كان ثم معاد ففيه أيضا لهم الحسنى وإخبار عن قيل من قال منهم كقوله (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليشتوس كفورا * ولئن أذقناه نعمة بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور) وكقوله (ولئن أذقناه رحمة منامن بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى فلننبش الذين كفروا بما عملوا ولندينهم من عذاب غليظ) وقوله (أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين ملا وولدا) وقال إخبارا عن أحد الرجلين أنه (١) دخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبعد هذه أبدا * وما

أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها متقلبا) فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتعنى الباطل بأن يحازوا على ذلك حسنا وهذا مستحيل ، كما ذكر ابن إسحق أنه وجد حجر في أساس الكعبة حين تقضوها لحدودها مكتوب عليه حكم مواظ ، فمن ذلك : تعملون السيئات وتجزون الحسنات ؟ أجل كما يحتنى من الشوك العنب . وقال مجاهد وقتادة (وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى) أى الغلمان وقال ابن جرير (أن لهم الحسنى) أى يوم القيامة كما قدمنا بيانه وهو الصواب والله الحمد ، ولهذا قال تعالى رادا عليهم في عنيهم ذلك (لاجرم) أى حقا لا بد منه (أن لهم النار) أى يوم القيامة (وأنهم مفرطون) قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم منسيون فيها مضيعون وهذا كقوله تعالى (فاليوم نناسهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) وعن قتادة أيضا مفرطون أى معجلون إلى النار من الفرط وهو السابق إلى الورد ولا منافاة لأنهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار وينسون فيها أى يخلدون

﴿ تَاٰلِهٖ لَقَدْ اَرْسَلْنَا اِلٰى اُمَمٍ مِّنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطٰنُ اَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ اَلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ * وَمَا اَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتٰبَ اِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوْا فِيْهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُوْنَ * وَاللّٰهُ اَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَآحْيَا بِهٖ الْاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَاٰيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُوْنَ ﴾

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلا فكذبت الرسل فلك يا محمد في إخوانك من الرسلين أسوة فلا بهيدنك تكذيب قومك لك ، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم مفاعله . (فهو وليهم اليوم) أى هم تحت العقوبة والنكال والشيطان وليهم ولا يملك لهم خلاصا ولا صريح لهم ولهم عذاب أليم . ثم قال تعالى لرسوله إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذى يختلفون فيه فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه (وهدى) أى للقلوب (ورحمة) أى لمن تمسك به (لفوم يؤمنون) وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب المينة بكفرها كذلك يحيى الأرض بعد موتها بما أنزله عليها من السماء من ماء (إن في ذلك لآية لفوم يسمعون) أى يفهمون الكلام ومعناه

﴿ وَاِنْ لَّكُمْ فِى الْاَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُسْقٰىكُمْ مِّمَّا فِى بُطُوْنِهٖ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّارِبِيْنَ * وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيْلِ وَالْاَعْنَابِ تَتَّخِذُوْنَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا اِنَّ فِى ذٰلِكَ لَاٰيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُوْنَ ﴾

يقول تعالى (وإن لكم) أيها الناس (فى الأنعام) وهى الإبل والبقر والغنم (لعبرة) أى لآية ودلالة على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولطفه (نسقيكم مما فى بطونه) أفردته ههنا عودا على معنى النعم أو الضمير عائد على الحيوان فإن الأنعام حيوانات أى نسقيكم مما فى بطن هذا الحيوان ، وفى الآية الأخرى مما فى بطونها ويجوز هذا وهذا كما فى قوله تعالى (كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره) وفى قوله تعالى (وإنى مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون * فلما جاء سليمان) أى المال ، وقوله (من بين فرث ودم لبنا خالصا) أى يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم فى بطن الحيوان فيسرى كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء فى معدته فيصرف منه دم إلى العروق ولبن إلى الضرع وبول إلى المثانة وروت إلى المخرج وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازحه بعد انفصاله عنه ولا يتغير به ، وقوله لبنا خالصا سائغا للشاربين) أى لا يعص به أحد ، ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شرابا للناس سائغا ثنى بذلك ما يتخذ الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب وما كانوا يصنعون من النبيذ السكر قبل تحريمه ، ولهذا أمتن به عليهم فقال (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرأ) دل على إباحته شرعا قبل تحريمه ودل على التسوية بين السكر المتخذ من النخل والمتخذ من العنب كما هو مذهب مالك والشافعى وأحمد وجهور العلماء ، وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الخنطة والشعير والذره والعلسل كما جاءت السنة بتفصيل ذلك ، وليس هذا موضع بسط

ذلك كما قال ابن عباس في قوله (سكرًا ورزقًا حسنًا) السكر ما حرم من ثمرتيهما والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما وفي رواية السكر حرامه والرزق الحسن حلاله يعني ما ييسر منها من ثمر وزبيب وما عمل منها من طلاء وهو الدبس وخل ونبيذ حلال يشرب قبل أن يشتد كما وردت السنة بذلك (إن في ذلك لآية لقوم يعقلون) ناسب ذكر العقل ههنا فإنه أشرف ما في الانسان ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة السكرية صيانة لعقولها قال الله تعالى (وجعلنا فيها حنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون لئلا يكلوا من ثمره وما علمته أيديهم أفلا يشكرون * سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون)

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكَ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

المراد بالوحي هنا الإلهام والهداية والارشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتًا تأوى إليها ، ومن الشجر ومما يعرشون ثم هي محكمة في غاية الاتقان في تسديسها وورصها بحيث لا يكون في بيتها خلل ثم أذن لها تعالى إذنا بقدرها تسخيريا أن تأكل من كل الثمرات ، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى منذلة لها أي مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجوال العظيم والبراري الشاسعة والأودية والجبال الشاهقة ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه عنة ولا يسرة بل إلى بيتها ومالها فيه من فراخ وعسل فتبنى الشمع من أجنتها وتقي العسل من فيها وتبيض الفراخ من دبرها ثم تصبح إلى مراعيها ، وقال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم (فاسلكي سبل ربك ذللا) أي مطيعة فجعله حالا من السالكة ، قال ابن زيد وهو كقول الله تعالى (وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) قال : ألا ترى أنهم ينقلون النحل بيوته من بلد إلى بلد وهو يصحبهم ، والقول الأول هو الأظهر وهو أنه حال من الطريق أي فاسلكيها منذلة لك ، نص عليه مجاهد ، وقال ابن جرير كلا القولين صحيح ، وقد قال أبو يعلى الموصلي حدثنا شيان بن فروخ حدثنا مكي بن عبد العزيز عن أبيه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « عمر الباب أربعون يوما ، والباب كله في النار إلا النحل » وقوله تعالى (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس) ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكلها منها . وقوله (فيه شفاء للناس) أي في العسل شفاء للناس أي من أدواء تعرض لهم ، قال بعض من تكلم على الطب النبوي لو قال فيه الشفاء للناس لكان دواء لكل داء ولكن قال فيه شفاء للناس أي يصلح لكل أحد من أدواء باردة فانه حار والشئ يداوى بضده ، وقال مجاهد وابن جرير في قوله (فيه شفاء للناس) يعني القرآن وهذا قول صحيح في نفسه ولكن ليس هو الظاهر ههنا من سياق الآية فان الآية إنما ذكر فيها العسل ولم يتابع مجاهد على قوله ههنا وإنما الذي قاله ذكره في قوله تعالى (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) وقوله تعالى (يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) والدليل على أن المراد بقوله تعالى (فيه شفاء للناس) هو العسل. الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحهما من رواية قتادة عن أبي التوكل طي بن داود الناجي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن أخي استطلق بطنه فقال « اسقه عسلا » فذهب فسقاه عسلا ثم جاء فقال يا رسول الله سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا ، قال « اذهب فاسقه عسلا » فذهب فسقاه عسلا ثم جاء فقال يا رسول الله ما زاده إلا استطلاقا فقال رسول الله ﷺ « صدق الله وكذب بطن أخيك . اذهب فاسقه عسلا » فذهب فسقاه عسلا فبرى . قال بعض العلماء بالطب كان هذا الرجل عنده فضلات فلما سقاه عسلا وهو حار تجملت فأضرعت في الاندفاع فزاده إسهالا فاعتقد الاعرابي أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه ثم سقاه فازداد التحليل والدفع ثم سقاه فكذلك فلما

اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه وصلح مزاجه واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته ، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام ، وفي الصحيحين من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحلواء والعسل ، هذا لفظ البخارى . وفي صحيح البخارى من حديث سالم الأفسس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « الشفاء في ثلاثة : في شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو كية بنار وأنهى أمتي عن الكي » وقال البخارى حدثنا أبو نعيم حدثنا عبد الرحمن بن الغسيل عن عاصم بن عمر ابن قتادة سمعت جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن كان في شيء من أدويتكم أو يكون في شيء من أدويتكم خير : ففي شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو لدعة بنار توافق الداء وما أحب أن أكتوى » ورواه مسلم من حديث عاصم بن عمر بن قتادة عن جابر بن عبد الله ، وقال الإمام أحمد حدثنا علي بن إسحق أنبأنا عبد الله ، أنبأنا سعيد بن أبي أيوب ، حدثنا عبد الله بن الوليد عن أبي الخير عن عقبة بن عامر الجهني قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاث إن كان في شيء شفاء : فشرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو كية تصيب ألماً وأما أكره الكي ولا أحبه » ورواه الطبراني عن هرون بن سلول المصري عن أبي عبد الرحمن المقرئ عن عبد الله بن الوليد به . ولفظه « إن كان في شيء شفاء : فشرطة محجم » وذكره وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه . وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني في سننه حدثنا علي بن سلمة هو التلعلي ، حدثنا زيد بن حباب ، حدثنا سفيان عن أبي إسحق ، عن أبي الأحوص عن عبد الله هو ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « عليكم بالشفاء بين العسل والقرآن » وهذا إسناد جيد تفرد بإخراجه ابن ماجه مرفوعاً وقدرناه ابن جرير عن سفيان بن وكيع عن أبيه عن سفيان هو الثوري به موقوفاً وله شبه . وروينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه أنه قال : إذا أراد أحدكم الشفاء فليكتب آية من كتاب الله في صحيفة وليفسلها بماء السماء وليأخذ من امرأته درهما عن طيب نفس منها فليشتر به عسلاً فليشربه كذلك فانه شفاء : أى من وجوه قال الله تعالى (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) وقال (وأنزلنا من السماء ماء مباركا) وقال (فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً) وقال في العسل (فيه شفاء للناس) وقال ابن ماجه أيضاً : حدثنا محمود بن خداش حدثنا سعيد بن زكريا القرشي حدثنا الزبير بن سعيد الهاشمي عن عبد الحميد بن سالم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من لعق العسل ثلاث غدوات في كل شهر لم يصبه عظيم من البلاء » الزبير بن سعيد متروك ، وقال ابن ماجه أيضاً حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف بن سرح الفريابي حدثنا عمرو بن بكر السكسكي ، حدثنا إبراهيم ابن أبي عبله سمعت أبا أبي بن أم حرام وكان قد صلى القبلتين يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول « عليكم بالسنا والسنوت فإن بهما شفاء من كل داء إلا السام » قيل يا رسول الله وما السام ؟ قال « الموت » قال عمرو قال ابن أبي عبله السنوت الشبت وقال آخرون بل هو العسل الذي في رفاق السمن وهو قول الشاعر :

هم السمن بالسنوت لا لبس فيهم * وهم يمنعون الجار أن يقردا

كذا رواه ابن ماجه ، وقوله لا لبس فيهم أى لا خلط وقوله يمنعون الجار أن يقردا أى يضطهد ويظلم وقوله (إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) أى إن في الهام الله لهذه الدواب الضعيفة الحلقة إلى السلوك في هذه المهام والاجتناء من سائر الثمار ثم جمعها للشمع والعسل وهو من أطيب الأشياء لآية لقوم يتفكرون في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر الحكيم العليم الكريم الرحيم

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَنِئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

يخبر تعالى عن تصرفه في عباده وأنه هو الذى أنشأهم من العدم ثم بعد ذلك يتوفاهم ومهم من يتركه حتى يدركه الهرم وهو الضعف في الحلقة كما قال الله تعالى (الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة) الآية وقدرى

عن علي رضي الله عنه أُرذِلَ العمر خمس وسبعون سنة وفي هذا السن يحصل له ضعف القوى والحرف وسوء الحفظ وقلة العلم ولهذا قال لكيلا يعلم بعد علم شيئاً أي بعد ما كان عالماً أصبح لا يدري شيئاً من الفند والحرف ولهذا روى البخاري عند تفسير هذه الآية : حدثنا موسى بن إسماعيل : حدثنا هارون بن موسى أبو عبد الله الأعور عن شعيب عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعو « أعوذ بك من البخل والكسل والهزم وأرذل العمر وعذاب القبر وقتنة الدجال وقتنة الحيا والمات » وقال زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة

سمعت تكاليف الحياة ومن يعيش * ثمانين عاماً لا أملك يسأم
وأيت المنايا خبط عشواء من تصب * تمته ومن تخطى يعمر فيهرم

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِ رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ قَهُمُ فِيهِ سَوَاءً أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾

يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء وهم يعترفون أنها عبيد له كما كانوا يقولون في تلييتهم في حجهم : ليك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك ، فقال تعالى منكراً عليهم أتم لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيد له في الإلهية والتعظيم كما قال في الآية الأخرى (ضرب لكم مثلاً من أنفسم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأتهم فيه سواء تخافونهم كخفيكم أنفسكم) الآية قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية يقول لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني فذلك قوله (أفبنعمة الله يجحدون) وقال في الرواية الأخرى عنه فكيف ترضون لي مالا ترضون لأنفسم ، وقال مجاهد في هذه الآية هذا مثل الآلهة الباطلة ، وقال قتادة هذا مثل ضربه الله فهل منكم من أحد يشاركه بمجاوله في زوجته وفي فراشه فتعدلون بالله خلقه وعباده ؟ فان لم ترض لنفسك هذا فالله أحق أن ينزهه منك ، وقوله (أفبنعمة الله يجحدون) أي أنهم جعلوا الله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فجدوا نعمته وأشركوا معه غيره ، وعن الحسن البصري قال كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الرسالة إلى أبي موسى الأشعري : واقع برزقك من الدنيا فان الرحمن فضل بعض عباده على بعض في الرزق بلاء يبتلى به كلا فيبتلى من بسط له كيف شكره الله وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخوله . رواه ابن أبي حاتم

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجا وشكلهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والودة والرحمة ، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكورا وإناثا وجعل الإناث أزواجا للذكور ، ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة وهم أولاد البنين قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك وابن زيد قال شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وبنين وحفدة : وهم الولد وولد الولد . وقال سنيد حدثنا حجاج عن أبي بكر عن عكرمة عن ابن عباس قال : بنوك حيث يحفدونك ويرفدونك ويعينونك ويخدمونك : قال جميل حقد الولائد حولهن وأسلمت * بأ كفهن أزمة الأجمال

وقال مجاهد بنين وحفدة : ابنه وخادمه . وقال في رواية . الحفدة الأنصار والأعوان والخدام ، وقال طاوس وغير واحد : الحفدة الخدم . وكذا قال قتادة وأبو مالك والحسن البصري . وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الحكم ابن أبان عن عكرمة أنه قال : الحفدة من خدمك من ولدك وولد ولدك ، قال الضحاك : إنما كانت العرب تخدمها

بنوها وقال العوفي عن ابن عباس قوله (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) يقول بنو امرأة الرجل ليسوا منه ويقال الحفدة الرجل يعمل بين يدي الرجل . يقال فلان يحفد لنا أى يعمل لنا قال وزعم رجال أن الحفدة أختان الرجل ، وهذا الأخير الذى ذكره ابن عباس قاله ابن مسعود ومسروق وأبو الضحى وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير ومجاهد والقرظي ورواه عكرمة عن ابن عباس وقال طي بن أبي طلحة عن ابن عباس هم الأصهار قال ابن جرير : وهذه الأقوال كلها داخلة فى معنى الحفدة وهو الخدمة الذى منه قوله فى القنوت : وإليك نسعى ونحفد ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والخدم والأصهار فالنعمة حاصلة بهذا كله ولهذا قال (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) قلت فمن جعل (وحفدة) متعلقا بأزواجكم فلا بد أن يكون المراد الأولاد وأولاد الأولاد والأصهار لأنهم أزواج البنات أو أولاد الزوجة وكذا قال الشعبي والضحاك فإنهم يكونون غالباً تحت كف الرجل وفى حجره وفى خدمته وقد يكون هذا هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام فى حديث نضرة بن أكرم « والولد عبدك » رواه أبو داود . وأما من جعل الحفدة الخدم فعنده أنه معطوف على قوله (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا) أى جعل لكم الأزواج والأولاد خدما وقوله (ورزقكم من الطيبات) أى من المطاعم والشارب ثم قال تعالى منكرا على من أشرك فى عبادة النعم غيره (أقبالباطل يؤمنون) وهم الأنداد والأصنام (وبنعمة الله هم يكفرون) أى يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره . وفى الحديث الصحيح « إن الله يقول للعبد يوم القيامة ممثنا عليه ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأدرك ترأس وتربع؟ »

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿

يقول تعالى إخبارا عن المشركين الذين عبدوا معه غيره مع أنه هو النعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ما لا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيئا أى لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر ولا يملكون ذلك لأنفسهم أى ليس لهم ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوه ولهذا قال تعالى (فلا تضربوا لله الأمثال) أى لا تجعلوا له أندادا وأشباها وأمثالا (إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون) أى انه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو وأنتم بجهلكم تشركون به غيره

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

قال العوفي عن ابن عباس . هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن وكذا قال قتادة واختاره ابن جرير فالعبد المملوك الذى لا يقدر على شيء مثل الكافر والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سرا وجهرا هو المؤمن وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى فهل يستوى هذا وهذا ؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهرا واضحا بينا لا يجهله إلا كل غبي قال الله تعالى (الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون)

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ خَيْرٌ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

قال مجاهد وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى يعنى أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ولا يقدر على شيء بالكلية فلا مقال ولا فعال وهو مع هذا كل أى عيال وكلفة على مولاه (أينما يوجهه) أى يبعثه (لا يأت

بخير) ولا ينجح مسعاه (هل يستوى) من هذه صفاته (ومن يأمر بالعدل) أى بالقسط فمقاله حق وفعاله مستقيمة (وهو على صراط مستقيم) وقيل الأبكم مولى لعثمان وبهذا قال السدى وقناة وعطاء الخراسانى واختار هذا القول ابن جرير. وقال العوفى عن ابن عباس هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً كما تقدم وقال ابن جرير حدثنا الحسن بن الصباح البرازي حدثنا يحيى بن إسحق السالحي حدثنا حماد حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم عن إبراهيم عن عكرمة عن يعلى بن أمية عن ابن عباس فى قوله (ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء) قال نزلت فى رجل من قريش وعبدته يعنى قوله (عبداً مملوكاً) الآية وفى قوله (وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم - إلى قوله - وهو على صراط مستقيم) قال هو عثمان بن عفان، قال والأبكم الذى أينا يوجهه لا يأت بخير قال هو مولى لعثمان بن عفان كان عثمان ينفق عليه ويكلفه ويكفيه المؤونة وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيها

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه وقدرته على الأشياء فى علمه غيب السموات والأرض واختصاصه بعلم الغيب فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء وفى قدرته التامة التى لا تخالف ولا تمنع وأنه إذا أراد شيئاً فأنما يقول له كن فيكون كما قال (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) أى فيكون ما يريد كطرف العين وهكذا قال ههنا (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير) كما قال (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) ثم ذكر تعالى منتهى على عباده فى إخراجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً ثم بعد هذا يرفعهم السمع الذى به يدركون به الأصوات والأبصار التى بها يحسون الرغبات والأفئدة وهى العقول التى مركزها القلب على الصحيح وقيل الدماغ والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها وهذه القوى والحواس تحصل للانسان على التدرج قليلاً قليلاً كلما كبر زيد فى سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده. وإنما جعل تعالى هذه فى الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى فيستعين بكل جراحة وعضو وقوة على طاعة مولاه كما جاء فى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «يقول تعالى: من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشيء أفضل من أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ولئن سألنى لأعطينه ولئن دعانى لأجيبه ولئن استعاذنى لأعيننه، وما ترددت فى شيء أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه» فعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل فلا يسمع إلا الله ولا يبصر إلا الله أى ما شرعه الله له ولا يبطش ولا يمشى إلا فى طاعة الله عز وجل مستعيناً بالله فى ذلك كله ولهذا جاء فى بعض رواية الحديث فى غير الصحيح بعد قوله ورجله التى يمشى بها «فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى» ولهذا قال تعالى (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) كقوله تعالى فى الآية الأخرى (قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون) قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون) ثم نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض كيف جعله يطير بجناحين بين السماء والأرض فى جو السماء ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى التى جعل فيها قوى تفعل ذلك وسحر الهواء يحملها وبسير الطير كذلك كما قال تعالى فى سورة الملك (أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير) وقال ههنا (إن فى ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى حِينٍ * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْبَأْسَ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم يأوون إليها ويستترون بها ويستخفون بها بسائر وجوه الارتفاع ، وجعل لهم أيضاً من جلود الأنعام بيوتاً أي من الأدم يستخفون حملها في أسفارهم ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر . ولهذا قال (تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها) أي الغنم (وأوبارها) أي الإبل (وأشعارها) أي العز ، والضمير عائد على الأنعام (أثناً) أي اتخذون منه أثناً وهو المال وقيل اللناج وقبل الثياب ، والصحيح أعم من هذا كله فإنه يتخذ من الأساس البسط والثياب وغير ذلك ويتخذ مالا وتجارة ، وقال ابن عباس : الأثاث اللناج ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وعطية العوفي وعطاء الخراساني والضحاك وقناة ، وقوله (إلى حين) أي إلى أجل مسمى ووقت معلوم وقوله (والله جعل لكم مما خلق ظلالاً) قال قتادة يعني الشجر (وجعل لكم من الجبال أكناناً) أي حصونا ومعاقل كما (جعل لكم سراويل تقيكم الحر) وهي الثياب من القطن والكتان والصوف (وسراويل تقيكم البأس) كالدرع من الحديد المصفح والزرذ وغير ذلك (كذلك يتم نعمته عليكم) أي هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم وما تحتاجون إليه ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته (لعلكم تسلمون) هكذا فسره الجمهور وقروه بكسر اللام من تسلمون أي من الاسلام ، وقال قتادة في قوله (كذلك يتم نعمته عليكم) هذه السورة تسمى سورة النعم ، وقال عبد الله بن المبارك وعباد بن العوام عن حنظلة السدوسي عن شهر بن حوشب عن ابن عباس أنه كان يقرؤها (تسلمون) بفتح اللام يعني من الجراح رواه أبو عبيد القاسم بن سلام عن عباد وأخرجه ابن جرير من الوجهين ورد هذه القراءة وقال عطاء الخراساني إنما نزل القرآن على قدر معرفة العرب ألا ترى إلى قوله تعالى (والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً) وما جعل من السهل أعظم وأكثر ولكم كانوا أصحاب جبال ؟ ألا ترى إلى قوله (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثناً ومتاعاً إلى حين) وما جعل لهم من غير ذلك أعظم وأكثر ولكم كانوا أصحاب وبر وشعر ؟ ألا ترى إلى قوله (وينزل من السماء من جبال فيها من برد) لعجبهم من ذلك وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر ولكم كانوا لا يعرفونه ؟ ألا ترى إلى قوله تعالى (سراويل تقيكم الحر) وما تقي من البرد أعظم وأكثر ولكم كانوا أصحاب حر ، وقوله (فان تولوا) أي بعد هذا البيان وهذا الامتنان فلا عليك منهم (فانما عليك البلاغ المبين) وقد أدبته إليهم (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) أي يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك وهو المتفضل به عليهم ومع هذا ينكرون ذلك ويعبدون معه غيره ويسندون النصر والرزق إلى غيره (وأكثروا الكافرون) كما قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان حدثنا الوليد حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن مجاهد أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فسأله فقراً عليه رسول الله ﷺ (والله جعل لكم من بيوتكم سكناً) فقال الأعرابي نعم ، قال (وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً) الآية قال الأعرابي نعم ، ثم قرأ عليه كل ذلك يقول الأعرابي نعم حتى بلغ (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) فولى الأعرابي فأنزل الله (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) الآية

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَّكَاءُ هُمْ هَؤُلَاءِ شُرَكَاءُ مَا كَانُوا

الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ * وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿١٠٠﴾

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة وأنه يبعث من كل أمة شهيدا وهو نبيها يشهد عليها بما أجبته فيما بلغها عن الله تعالى (ثم لا يؤذن للذين كفروا) أى في الاعتذار لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه كقوله (هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون) فلماذا قال (ولا هم يستعتبون * وإذا رأى الذين ظلموا) أى الذين أشركوا (العذاب فلا يخفف عنهم) أى لا يفتر عنهم ساعة واحدة (ولا هم ينظرون) أى لا يؤخر عنهم بل يأخذهم سريعا من الموقف بلا حساب فانه إذا جرى بهمهم تقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك فيشرف عنق منها على الخلائق وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبته فتقول إني وكلت بكل جبار عنيد الذى جعل مع الله إلها آخر وبكذا وبكذا وتذكر أصنافا من الناس كما جاء في الحديث ، ثم تنطوى عليهم وتلتقطهم من الموقف كما يلتقط الطائر الحب قال الله تعالى (إذا رأيتم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا ، وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا ، لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا) وقال تعالى (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا) وقال تعالى (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون * بل تأتهم بغثة فمنهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون) ، ثم أخبر تعالى عن تبرى آلهتهم منهم أحوجا ما يكونون إليها فقال (وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم) أى الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا (قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دُونِكُمْ * فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ) أى قالت لهم الآلهة كذبتم ما نحن أمرناكم بعبادتنا كما قال تعالى (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وقال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكنون عليهم ضدا) وقال الخليل عليه الصلاة والسلام (ثم يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض) الآية وقال تعالى (وقيل ادعوا شركاءكم) الآية ، والآيات في هذا كثيرة .

وقوله (وألقوا إلى الله يومئذ السلم) قال قتادة وعكرمة ذلوا واستسلموا يومئذ أى استسلموا لله جميعهم فلا أحد إلا سامع مطيع ، وكقوله (أجمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) أى ما أجمعهم وما أبصرهم يومئذ وقال (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا) الآية وقال (وعنت الوجوه للحي القيوم) أى خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت ، وقوله (وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى ذهب واضمححل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير . ثم قال تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا) الآية أى عذابا على كفرهم وعذابا على صددهم الناس عن اتباع الحق كقوله تعالى (وهم ينهون عنه وينأون عنه) أى ينهون الناس عن اتباعه ويتعدون هم منه أيضاً (وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون) وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم كما قال تعالى (قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون) وقد قال الحافظ أبو يعلى حدثنا سريج بن يونس حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن عبد الله ابن مرة عن مسروق عن عبد الله في قول الله (زدناهم عذابا فوق العذاب) قال زيدوا عقارب أنيابها كالخل الطوال. وحدثنا سريج بن يونس حدثنا إبراهيم بن سليمان حدثنا الأعمش عن الحسن عن ابن عباس في الآية أنه قال (زدناهم عذابا فوق العذاب) قال هي حمسة أنهار تحت العرش يعذبون ببعضها في الليل وبعضها في النهار

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَحِثْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ

الْكِتَابَ تَبَيَّنَّا لَكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ (ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجننا بك شهيداً على هؤلاء) يعني أمتك ، أى اذكر ذلك اليوم وهوله وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع ، وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم صدر سورة النساء فلما وصل إلى قوله (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) فقال له رسول الله ﷺ « حسبك » فقال ابن مسعود رضى الله عنه فالتفت فإذا عيناه تذرفان وقوله (ونزلنا عليك الكتاب تبيناً لكل شيء) قال ابن مسعود قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء ، وقال مجاهد كل حلال وكل حرام ، وقول ابن مسعود أعم وأشمل فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتى وكل حلال وحرام وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم (وهدى) أى للقلوب (ورحمة وبشرى للمسلمين) وقال الأوزاعي (ونزلنا عليك الكتاب تبيناً لكل شيء) أى بالسنة ، ووجه اقتران قوله (ونزلنا عليك الكتاب) مع قوله (وجئنا بك شهيداً على هؤلاء) أن المراد والله أعلم إن الذى فرض عليك تبليغ الكتاب الذى أنزله عليك سائلك عن ذلك يوم القيامة (فلنسلألن الدين أرسل إليهم ولنسلألن المرسلين) (فوركب لنسألهم أجمعين عما كانوا يعملون) (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) وقال تعالى (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) أى إن الذى أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه ومعيدك يوم القيامة وسائلك عن أداء ما فرض عليك . هذا أحد الأقوال وهو متجه حسن

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل وهو القسط والموازنة ويندب إلى الإحسان كقوله تعالى (وإن عاقبتهم فمعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) وقوله (وجزاء سيئة سيئة مثلها من عفا وأصلح فأجره على الله) وقال (والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرعية العدل والندب إلى الفضل ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : (إن الله يأمر بالعدل) قال شهادة أن لا إله إلا الله ، وقال سفيان بن عيينة العدل في هذا الموضع هو استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملاً ، والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته ، وقوله (وإيتاء ذى القربى) أى يأمر بصلة الأرحام كما قال (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبريراً) وقوله (وينهى عن الفحشاء والمنكر) فالفواحش المحرمات والمنكرات مظهر منها من فاعلها ، ولهذا قال في الموضع الآخر (قل إنما حرم ربي الفواحش مظهر منها وما بطن) وأما البغى فهو العدوان على الناس ، وقد جاء في الحديث « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغى وقطعية الرحم » وقوله (يعظكم) أى يأمركم بما يأمركم به من الخير وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر (لعلمكم تذكرون) وقال الشعبي عن بشير بن نهيك سمعت ابن مسعود يقول : إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) الآية رواه ابن جرير ، وقال سعيد بن قتادة قوله (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) الآية ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به وليس من خلق سيئ كانوا يتعابرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه . وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها [قلت] ولهذا جاء في الحديث « إن الله يحب معالى الأخلاق ويكره سفاسفها » وقال الحافظ أبو يعلى في كتاب معرفة الصحابة حدثنا أبو بكر محمد بن الفتح الحنبلى حدثنا يحيى بن محمد مولى بنى هاشم حدثنا الحسن بن داود السكندرى حدثنا عمر بن على بن عبد الملك بن عمير عن أبيه قال : بلغ أكرم بن صبيح مخرج النبي ﷺ فاراد أن يأتمه فأبى قومه أن يدعوه وقالوا : أنت كبيرنا لم تكن لتتحف إليه قال فليأته من يبلغه عفى ويبلغنى عنه فاتدبر جلان

فأتيا النبي ﷺ فقالا نحن رسل أكرم بن صفي وهو يسألك من أنت وما أنت ؟ فقال النبي ﷺ « أما من أنا فأنا محمد بن عبد الله وأما ما أنا فأنا عبد الله ورسله » قال ثم تلا عليهم هذه الآية (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) الآية قالوا ردد علينا هذا القول فردده عليهم حتى حفظوه فأتيا أكرم فقالا أبي أن يرفع نسبه فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكى النسب وسطا في مضر - أى شريفا - وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها فلما سمعهم أكرم قال: إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملامها فكونوا في هذا الأمر رءوسا ولا تكونوا فيه أذنانا وقد ورد في نزولها حديث حسن رواه الإمام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا عبد الحميد حدثنا شهر حدثني عبد الله بن عباس قال بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته جالس إذ مر به عثمان ابن مظعون فكشّر إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا تجلس ؟ » فقال بلى قال فجلس رسول الله ﷺ مستقبله فبينما هو يحدثه إذ شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم بصره إلى السماء فنظر ساعة إلى السماء فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينه في الأرض فتحرف رسول الله ﷺ عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره فأخذ ينفض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له وابن مظعون ينظر فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له شخص بصر رسول الله ﷺ إلى السماء كما شخص أول مرة فأتبعه بصره حتى توارى إلى السماء فأقبل إلى عثمان بجلسه الأولى فقال يا محمد فيما كنت أجالسك ما رأيته تفعل كفعالك الغداة فقال « وما رأيته فعلت ؟ » قال رأيته شخص بصرك إلى السماء ثم وضعته حيث وضعته على يمينك فتحرفت إليه وتركتني فأخذت تنفض رأسك كأنك تستفقه شيئا يقال لك قال « وفطنت لذلك ؟ » فقال عثمان نعم قال رسول الله ﷺ « أتاني رسول الله آتفا وأنت جالس » قال رسول الله ؟ قال « نعم » قال فما قال لك قال « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » الآية قال عثمان فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمدا ﷺ ، إسناده جيد متصل حسن قديين فيه السماع المنصل ورواه ابن أبي حاتم من حديث عبد الحميد بن بهرام مخرجا ، حديث آخر عن عثمان بن أبي العاص الثقفي في ذلك قال الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا هريم عن ليث عن شهر بن حوشب عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت عند رسول الله ﷺ جالسا إذ شخص بصره فقال « أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) » الآية وهذا إسناده لا بأس به ولعله عند شهر بن حوشب من الوجهين والله أعلم .

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي تَقَصَّتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوَكُمْ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿

هذا مما يأمر الله تعالى به وهو الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدة ولهذا قال (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) ولا تعارض بين هذا وبين قوله (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) الآية وبين قوله تعالى (ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم) أى لا تتركوها بلا كفارة وبين قوله عليه السلام فيما ثبت عنه في الصحيحين أنه عليه الصلاة والسلام قال « إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذي هو خير وتحملتها - وفي رواية - وكفرت عن يميني » لا تعارض بين هذا كله ولا بين الآية المذكورة ههنا وهى قوله (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق لا الأيمان التى هى واردة على حث أو منع ولهذا قال مجاهد في قوله (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) يعنى الحلف أى حلف الجاهلية . ويؤيده ما رواه الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن محمد - هو ابن أبي شيبة - حدثنا ابن عمرو بأوسامة عن زكريا - هو ابن أبي زائدة - عن سعد بن إبراهيم عن أبيه عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ « لا حلف في الإسلام وأيما حلف كان في الجاهلية فإنه لا يزيد الإسلام إلا شدة » وكذا رواه مسلم عن ابن أبي شيبة به ومعناه

أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه وأما ماورد في الصحيحين عن عاصم الأحول عن أنس رضي الله عنه أنه قال : حالف رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار في دورنا . فعناه أنه آخى بينهم فكانوا يتوارثون به حتى نسخ الله ذلك والله أعلم . وقال ابن جرير حدثني محمد بن عمار الأسدي حدثنا عبد الله بن موسى أخبرنا أبو ليلى عن بريدة في قوله (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) قال نزلت في بيعة النبي ﷺ كان من أسلم بايع النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام فقال (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) هذه البيعة التي بايعتم على الإسلام (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) لا يحملنكم قلة محمد وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل حدثنا صخر ابن جويرية عن نافع قال لما خلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه وأهله ثم تشهد ثم قال : أما بعد فانا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال هذه غدره فلان ، وإن من أعظم الغدر - إلا أن يكون الاشرار بالله - أن يبايع رجل رجلا على بيعة الله ورسوله ثم ينكث بيعته ، فلا يخلعن أحد منكم يدأ ولا يسرفن أحد منكم في هذا الأمر فيكون فصل بيني وبينه » المرفوع منه في الصحيحين ، وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا حجاج عن عبد الرحمن بن عابس عن أبيه عن حذيفة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « من شرط لأخيه شرطا لا يريد أن يفي له به فهو كالمدلى جاره إلى غير منعة » وقوله (إن الله يعلم ما تفعلون) تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها وقوله (ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا) قال عبد الله بن كثير والسدي : هذه امرأة خرقاء كانت بمكة كلما غزلت شيئا نقضته بعد إبرامه وقال مجاهد وقتادة وابن زيد هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده ، وهذا القول أرجح وأظهر سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا . وقوله (أنكاثا) يحتمل أن يكون اسم مصدر ، نقضت غزلها أنكاثا أى أنقاضا ويحتمل أن يكون بدلا عن خبر كان أى لا تكونوا أنكاثا جمع نكث من ناكث ولهذا قال بعده (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم) أى خديعة ومكرا (أن تكون أمة هي أرى أمة) أى تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمعوا إليكم فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم فنهى الله عن ذلك لينبه بالأدنى على الأعلى إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه فلأن ينهى عنه مع التمكّن والقدرة بطريق الأولى . وقد قدمنا والله الحمد في سورة الأنفال قصة معاوية لما كان بينه وبين ملك الروم أمد ففسار معاوية إليهم في آخر الأجل حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم أغار عليهم وهم غارون لا يشعرون فقال له عمرو بن عبسة الله أكبر يا معاوية وفاء لا غدر سمعت رسول الله ﷺ يقول « من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحل عقد حتى ينقض أمدها » فرجع معاوية رضى الله عنه بالجيش قال ابن عباس (أن تكون أمة هي أرى من أمة) أى أكثر وقال مجاهد كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعر فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز فنهوا عن ذلك وقال الضحاك وقتادة وابن زيد نحوه وقوله (إنما يلوكم الله به) قال سعيد بن جبيرة يعنى بالكثرة رواه ابن أبي حاتم وقال ابن جرير أى بأمره إياكم بالوفاء بالعهد (وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) فيجازى كل عامل بعمله من خير وشر

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا الشَّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿

يقول الله تعالى (ولو شاء الله لجعلكم) أيها الناس (أمة واحدة) كقوله تعالى (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً) أي لوفق بينكم ولما جعل اختلافاً ولا تباض ولا شجاء (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) وهكذا قال ههنا (ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء) ثم يسألهم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها على الفتل والنقيير والقطمير ، ثم يحذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلاً أي خديعة ومكرراً لئلا تزل قدم بعد ثبوتها مثل لمن كان على الاستقامة فجاد عنها وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحائشة المشتعلة على الصد عن سبيل الله لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين فانصد بسببه عن الدخول في الاسلام ولهذا قال (وتدوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم) ثم قال تعالى (ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً) أي لاتعتاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها فإنها قليلة ولو حيزت لابن آدم الدنيا بمخاديفها لكان ما عند الله هو خير له ، أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وطلبه وحفظ عهده رجاه موعوده ولهذا قال (إن كنتم تعلمون * ما عندكم ينفد) أي يفرغ وينتقض فإنه إلى أجل محدود محصور مقدر متناه (وما عند الله باق) أي وثوابه لكم في الجنة باق لاتقطاع ولا نفاد له فإنه دائم لا يحول ولا يزول (ولينجزن الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) قسم من الرب تعالى مؤكداً باللام أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم أي ويتجاوز عن سيئها

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَأَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً وهو العمل للتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ من ذكر أو أنشأ من بنى آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله وإن هذا العمل للأمور به مشروع من عند الله بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة ، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت ، وقد روى عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب ، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه فسرها بالثناعة ، وكذا قال ابن عباس وعكرمة ووهب بن منبه ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنها هي السعادة ، وقال الحسن ومجاهد وقتادة لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة ، وقال الضحاك هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا ، وقال الضحاك أيضاً هي العمل بالطاعة والانشراح بها ، والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله كإجاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا عبدالله بن يزيد حدثنا سعيد بن أبي أيوب حدثني شرحبيل بن شريك عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال « قد أفلح من أسلم ورزق كافاً وقعه الله بما آتاه » ورواه مسلم من حديث عبدالله بن يزيد القرطبي . وروى الترمذي والنسائي من حديث أبي هاني عن أبي علي الجهني عن فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « قد أفلح من هدى للإسلام وكان عيشه كافاً وقعه به » وقال الترمذي هذا حديث صحيح ، وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا همام عن يحيى عن قتادة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطيها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة . وأما الكافر فيظلم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطيها أخيراً » انفراد بإخراجه مسلم

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من

الشيطان الرجيم وهذا أمر ندب ليس بواجب حكى الاجماع على ذلك أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة ، وقد قدما الأحاديث الواردة في الاستعاذة مبسوبة في أول التفسير والله الحمد والمثني . والمعنى في الاستعاذة عند ابتداء القراءة لئلا يلبس على القارئ قراءته ويخلط عليه ويمنعه من التدبر والتفكير ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة ، وحكى عن حمزة وأبي حاتم السجستاني أنها تكون بعد التلاوة واحتجوا بهذه الآية ، ونقل النووي في شرح المذهب مثل ذلك عن أبي هريرة أيضاً ومحمد بن سيرين وإبراهيم النخعي ، والصحيح الأول لما تقدم من الأحاديث الدالة على تقدمها على التلاوة والله أعلم . وقوله (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) قال الثوري ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه ، وقال آخرون معناه لاحجة له عليهم ، وقال آخرون كقوله (لإعبادك منهم الخالصين) ، (إنما سلطانه على الذين يتلون) قال مجاهد يطيعونه ، وقال آخرون انخدوه ولياً من دون الله (وهم به مشركون) أى أشركوه في عادة الله ، ويحتمل أن تكون الباء سببية أى صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى ، وقال آخرون معناه أنه شركهم في الأموال والأولاد

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا الرسول الله ﷺ (إنما أنت مفتر) أى كذاب وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وقال مجاهد (بدلنا آية مكان آية) أى ورفعناها وأثبتنا غيرها ، وقال قتادة هو كقوله تعالى (ما ننسخ من آية أو ننسها) الآية فقال تعالى مجيباً لهم (قل نزله روح القدس) أى جبريل (من ربك بالحق) أى بالصدق والعدل (ليثبت الذين آمنوا) فيصدقوا بما أنزل أولاً وثانياً وتثبت له قلوبهم (وهدى وبشرى للمسلمين) أى وجعله هادياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله

﴿ وَلَقَدْ تَعَلَّمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت ان محمداً إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم غلام بطون قريش وكان يباعاً يبيع عند الصفا وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء وذلك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه فلهذا قال الله تعالى راداً عليهم في افتراءهم ذلك (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) أى القرآن أى فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني إسرائيل كيف يتعلم من رجل أعجمي ؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل قال محمد بن إسحق بن يسار في السيرة : كان رسول الله ﷺ فيما بلغني كثيراً ما يجلس عند الروة إلى سبعة غلام نصراني يقال له جبر عبد لبعض بني الحضرمي فأنزل الله (ولقد تعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) وكذا قال عبد الله بن كثير ، وعن عكرمة وقتادة كان اسمه يعيش . وقال ابن جرير حدثني أحمد بن محمد الطوسي حدثنا أبو عامر حدثنا إبراهيم بن طهمان عن مسلم بن عبد الله الملائي عن مجاهد عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ يعلم قينا بمكة وكان اسمه بلعام وكان أعجمي للسان وكان للمشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده فقالوا إنما يعلمه بلعام فأنزل الله هذه الآية (ولقد تعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) وقال الضحاك بن مزاحم هو سلمان الفارسي وهذا القول ضعيف لأن هذه الآية مكية وسلمان إنما أسلم بالمدينة ،

وقال عبيد الله بن مسلم كان لنا غلامان روميان يقرآن كتابا لهما بلسانهما فكان النبي ﷺ يمر بهما فيقوم فيسمع منهما فقال المشركون يتعلم منهما فأنزل الله هذه الآية ، وقال الزهري عن سعيد بن سعيد بن المسيب : الذي قال ذلك من المشركين رجل كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ فارتد بعد ذلك عن الإسلام وافترى هذه المقالة فبجه الله

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا آتَى اللَّهُ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا آتَى اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره وتغافل عما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسوله في الدنيا ولهم عذاب أليم موجه في الآخرة ، ثم أخبر تعالى أن رسوله صلى الله عليه وسلم ليس بمفتر ولا كذاب لأنه إنما يفتري الكذب على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم شرار الخلق (الذين لا يؤمنون بآيات الله) من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس ، والرسول محمد ﷺ كان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً وإيقاناً ، معروفاً بالصدق في قومه لا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد ، ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألتها من صفة رسول الله ﷺ كان فيما قال له : هل كنتم تتهمونونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال لا ، فقال هرقل : فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عز وجل

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَالْكِنَ مِنْ شَرِّ الْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿ لَاجِرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿

أخبر تعالى عن كفره بعد الإيمان والتبصر وشرح صدره بالكفر واطمأن به أنه قد غضب عليه لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه وأن لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا ولم يهد الله قلوبهم ويشبههم على الدين الحق فطبع على قلوبهم فهم لا يعقلون بها شيئاً ينفعهم وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها ولا أغنت عنهم شيئاً فهم غافلون عما يراد بهم (لاجرم) أي لا بد ولا عجب أن من هذه صفته (أنهم في الآخرة هم الخاسرون) أي الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة - وأما قوله (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهاً لما ناله من ضرب وأذى وقلبه يأبى ما يقول وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله . وقد روى العوفي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ فوافقهم على ذلك مكرهاً وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية . وهكذا قال الشعبي وقتادة وأبو مالك . وقال ابن جرير حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن عبد الكريم الجزري عن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال النبي صلى الله عليه وسلم « كيف تجد قلبك ؟ » قال مطمئناً بالإيمان قال النبي ﷺ « إن عادوا فعد » ورواه البيهقي بأبسط من ذلك وفيه أنه سب النبي صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم بخير فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم

فقال يا رسول الله ما تركت حتى سببتك وذكرت آلهتهم بخير قال « كيف تجدد قلبك ؟ » قال مطمئناً بالإيمان فقال « إن عادوا فعد » وفي ذلك أنزل الله (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) ولهذا اتفق العلماء على أن المكفر على الكفر يجوز له أن يوالى إبقاء لمهجته ويجوز له أن يأبى كما كان بلال رضى الله عنه يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل حتى إنهم ليضعوا الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول : أحد، أحد . ويقول : والله لو أعلم كلمة هي أغيب لكم منها لقلها . رضى الله عنه وأرضاه . وكذلك حبيب بن زيد الأنصارى لما قال له مسيلة الكذاب : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فيقول نعم ، فيقول أتشهد أنى رسول الله ؟ فيقول لا أسمع . فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك . وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل حدثنا أيوب عن عكرمة أن علياً رضى الله عنه حرق ناساً ارتدوا عن الإسلام فبلغ ذلك ابن عباس فقال لم أكن لأحرقهم بالنار ، إن رسول الله ﷺ قال « لا تعذبوا بعذاب الله » وكنت قاتلهم بقول رسول الله ﷺ « من بدل دينه فاقتلوه » فبلغ ذلك علياً فقال وجع أم ابن عباس : رواه البخارى

وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن أيوب عن حميد بن هلال العدوى عن أبي بردة قال : قدم على أبي موسى معاذ بن جبل باليمن فإذا رجل عنده قال ما هذا ؟ قال رحل كان يهودياً فأسلم ثم تهود ونحن نريده على الإسلام منذ قال أحسبه شهرين فقال والله لا أقعد حتى تضربوا عنقه فضربت عنقه فقال قضى الله ورسوله أن من رجع عن دينه فاقتلوه أو قال « من بدل دينه فاقتلوه » وهذه القصة في الصحيحين بلفظ آخر . والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله كما ذكر الحافظ بن عساكر في ترجمة عبد الله بن حذافة السهمي أحد الصحابة أنه أسرته الروم فجاءوا به إلى ملكهم فقال له تنصروا أنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي ، فقال له لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد صلى الله عليه وسلم طرفه عين ما فعلت فقال إذا أقتلك فقال أنت ، وذلك ، قال فأمر به فوصلب وأمر الرماة فرموه قريبا من يديه ورجليه وهو يعرض عليه دين النصرانية فبأبى ثم أمر به فأنزل ، ثم أمر بقدر وفي رواية ببقرة من نحاس فأحسبت وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر فإذا هو عظام تلوح وعرض عليه فأبى فأمر به أن يلقي فيها فرفع في البكرة ليلقي فيها فبكى فقطع فيه ودعاه فقال إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في هذه القدر الساعة في الله فأحسبت أن يكون لي بعد ذلك شجرة في جسدی نفس تعذب هذا العذاب في الله . وفي بعض الروايات أنه سجنه ومنع منه الطعام والشراب أيما ثم أرسل إليه بمحمر ولحم خنزير فلم يقربه ثم استدعاه فقال ما منعك أن تأكل ؟ فقال أما إنه قد حل لي ولكن لم أكن لأشمتك بي ، فقال له الملك فقبل رأسى وأنا أطلقك فقال وتطلق معي جميع أسارى المسلمين قال نعم فقبل رأسه فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده ، فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة وأنا أبدأ فقام فقبل رأسه رضى الله عنهما

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة مهانين في قومهم فوافقهم على الفتنة ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة فتركوا بلادهم وأهلهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه وانتظموا في سلك المؤمنين وجاهدوا معهم الكافرين وصبروا فأخبر تعالى أنه من بعدها أى تلك الفعلة وهي الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم رحيم بهم يوم معادهم (يوم تأتى كل نفس تجادل) أى عن نفسها (ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة) وتوفى كل نفس ما عملت (أى من خير وشر) وهم لا يظلمون (أى لا ينقص من ثواب الخير ولا يراى على ثواب الشر ولا يظلمون تقيرا

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا

اللَّهُ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٠٠﴾

هذا مثل أريد به أهل مكة فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها ومن دخلها كان آمناً لا يخاف كما قال تعالى (وقالوا إن تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجي إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا) وهكذا قال ههنا (يأتيها رزقها رغداً) أي هينئاً سهلاً (من كل مكان فكفرت بأنعم الله) أي جحدت آلاء الله عليها وأعظمها بعثة محمد ﷺ اليهم كما قال تعالى (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار) ولهذا بد لهم الله بحالهم الأولين خلافهما فقال (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) أي ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجي اليهم ثمرات كل شيء ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان وذلك أنهم استعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف فأصابهم سنة أذهبت كل شيء لهم فأكلوا العلهز وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه وقوله (والخوف) وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه وجعل كل ما لهم في دمار وسفال حتى فتحها الله على رسوله ﷺ وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه الله فيهم منهم وامتن به عليهم في قوله (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) الآية . وقوله تعالى (فاتقوا الله يا أُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَسُولًا) الآية وقوله (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة - إلى قوله - ولا تكفرون) وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمن وجاعوا بعد الرغد فبدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً ورزقهم بعد العيلة وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأتمهم وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل ضرب لأهل مكة قاله العوفي عن ابن عباس واليه ذهب مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وحكاه مالك عن الزهري رحمه الله وقال ابن جرير حدثني ابن عبد الرحيم البرقي حدثنا ابن أبي مريم حدثنا نافع بن يزيد حدثنا عبد الرحمن بن شريح أن عبد الكريم بن الحارث الحضرمي حدثه أنه سمع مشرح بن هاعان يقول سمعت سليم بن خنير يقول صدرنا من الحج مع حفصة زوج النبي ﷺ وعثمان رضي الله عنه محصور بالمدينة فكانت تسأل عنه ما فعل ؟ حتى رأت راكبين فأرسلت إليهما تسألهما فقالا قتل . فقالت حفصة والذي نفسي بيده إنها القرية - تعني المدينة - التي قال الله تعالى (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله) قال ابن شريح وأخبرني عبيد الله بن المغيرة عمن حدثه أنه كان يقول إنها المدينة

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمِمَّا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَروا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب وبشكره على ذلك فإنه النعم التفضل به ابتداء الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم من الميتة والدم ولحم الخنزير (وما أهل لغير الله به) أي ذبح على غير اسم الله ومع هذا (فمن اضطر إليه) أي احتاج من غير بغى ولا عدوان (فإن الله غفور رحيم) . وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية عن إعادته وقه الحمد ، ثم نهى

تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرّموا بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه من الأسماء بأراهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك مما كان شرعاً لهم ابتدعوه في جاهليتهم فقال (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب) ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعى أو حلل شيئاً مما حرم الله أو حرم شيئاً مما أباح الله بمجرد رأيه وتشبهه ، وما في قوله (لما تصف) مصدرية أى ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم ، ثم توعّد على ذلك فقال (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) أى في الدنيا ولا في الآخرة ، أما في الدنيا فتنازع قليل وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم كما قال (نمتهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) وقال (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ، متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون)

﴿وَكُلِّ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به وإنما أُرخص فيه عند الضرورة - وفي ذلك توسعة لهذه الأمة التي يريد الله بها اليسرى ولا يريد بها العسرى - ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والخرج فقال (وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل) أى في سورة الأنعام في قوله (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حمت ظهورهما - إلى قوله - لصادقون) ولهذا قال ههنا (وما ظلمناهم) أى فيما ضيقنا عليهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى فاستحقوا ذلك كقوله (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدمهم عن سبيل الله كثيراً) ثم أخبر تعالى تكريماً وامتناناً في حق العصاة المؤمنين أن من تاب منهم إليه تاب عليه فقال (ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة) قال بعض السلف كل من عصى الله فهو جاهل (ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا) أى أقبلوا عما كانوا فيه من المعاصي وأقبلوا على فعل الطاعات (إن ربك من بعدها) أى تلك الفعلية والزلّة (لغفور رحيم)

﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَاتِنًا لَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ أَحْبَبَهُ وَهَدَانَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية فقال (إن إبراهيم كان أمةً قاتناً لله حنيفاً) فأما الأمة فهو الإمام الذي يقتدى به ، والقانت: هو الخاشع المطيع ، والحنيف المبحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد ولهذا قال (ولم يك من المشركين) قال سفيان الثوري عن سلمة بن كهيل عن مسلم البطيين عن أبي العبيدين أنه سأل عبدالله بن مسعود عن الأمة القانت فقال الأمة معلم الخير والقانت المطيع لله ورسوله ، وعن مالك قال : قال ابن عمر : الأمة الذي يعلم الناس دينهم ، وقال الأعمش عن يحيى بن الجزار عن أبي العبيدين أنه جاء إلى عبد الله فقال من نسأل إذا لم نسألك ؟ فكأن ابن مسعود رق له فقال أخبرني عن الأمة ، فقال الذي يعلم الناس الخير ، وقال الشعبي حدثني فروة بن نوفل الأشجعي قال : قال ابن مسعود إن معاذاً كان أمةً قاتناً لله حنيفاً ، فقلت في نفسي غلط أبو عبد الرحمن وقال إما قال الله (إن إبراهيم كان أمة) فقال تدري ما الأمة وما القانت ؟ قلت الله أعلم فقال الأمة الذي يعلم الخير ، والقانت المطيع لله ورسوله ، وكذلك كان ساد ، وقد روى من غير وجه عن ابن

مسعود، أخرجه ابن جرير ، وقال مجاهد أمة أى أمة وحده والقانت المطيع وقال مجاهد أيضاً كان إبراهيم أمة أى مؤمناً وحده والناس كلهم إذ ذاك كفار وقال قتادة كان إمام هدى والقانت المطيع لله ، وقوله (شاكرًا لأنعمه) أى قائماً بشكر نعم الله عليه كقوله تعالى (وإبراهيم الذى وفى) أى قائم بجميع ما أمره الله تعالى به وقوله (اجتباؤه) أى اختاره واصطفاه كقوله (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عاقلين) ثم قال (وهدهاء إلى صراط مستقيم) وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضى ، وقوله (وآتيناه فى الدنيا حسنة) أى جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه فى إكمال حياته الطيبة (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) وقال مجاهد فى قوله (وآتيناه فى الدنيا حسنة) أى لسان صدق ، وقوله (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً) أى ومن كماله وعظمته وصحة توحيده ، وطريقه أننا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء (أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) كقوله فى الأنعام (قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم * ديناً قديماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) ثم قال تعالى منكر اعلى اليهود

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

لا شك أن الله تعالى شرع فى كل ملة يوماً من الأسبوع مجتمع الناس فيه للعبادة فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة لأنه اليوم السادس الذى أكمل الله فيه الخليفة واجتمعت فيه وتمت النعمة على عباده ، ويقال إن الله تعالى شرع ذلك لبنى إسرائيل على لسان موسى فعدلوا عنه واختاروا السبت لأنه اليوم الذى لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات الذى كمل خلقها يوم الجمعة فأمرهم تعالى به فى شريعة التوراة ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه مع أمره بإمام بمناجاة محمد ﷺ إذا بعثه وأخذ مواعيقهم وعهودهم على ذلك ولهذا قال تعالى (إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) قال مجاهد اتبعوه وتركوا الجمعة ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به حتى بعث الله عيسى بن مريم فيقال إنه حولهم إلى يوم الأحد ويقال إنه لم يترك شريعة التوراة إلا ما نسخ من بعض أحكامها وإنه لم يزل محافظاً على السبت حتى رفع وإن النصراني بعده فى زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد مخالفة لليهود وتحولوا إلى الصلاة شرقاً عن الصخرة والله أعلم

وقد ثبت فى الصحيحين من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة يبدأهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذى فرض الله عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع اليهود غداً والنصارى بعد غد » لفظ البخارى . وعن أبى هريرة وحذيفة رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا فكان لليهود يوم السبت وكان للنصارى يوم الأحد فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة فجعل الجمعة والسبت والأحد وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة والقضى بينهم قبل الخلائق » رواه مسلم

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّلْهُمْ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ

ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله محمد ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة . قال ابن جرير : وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة والموعظة الحسنة أى بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى ، وقوله (وجادلهم بالتى هى أحسن) أى من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب كقوله تعالى (ولا تحادوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم) الآية ، فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون فى قوله (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) وقوله (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله) الآية أى قد علم الشقي منهم والسعيد وكتب ذلك عنده وفرغ منه فادعهم إلى الله ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات فانه ليس عليك هدام إنما أنت نذير عليك البلاغ وعلينا الحساب

(إليك لا تهدي من أحببت) ، (ليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء) .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَإِذْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾

يأمر تعالى بالعدل في القصاص والمثالة في استيفاء الحق كما قال عبد الرزاق عن الثوري عن خالد عن ابن سيرين أنه قال في قوله تعالى (فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) إن أخذ منكم رجل شيئاً فخذوا مثله وكذا قال مجاهد وإبراهيم والحسن البصري وغيرهم واختاره ابن جرير ، وقال ابن زيد كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين فأسلم رجال ذوو منعة فقالوا يا رسول الله لو أذن الله لنا لاتصربنا من هؤلاء السكّاب فنزلت هذه الآية ثم نسخ ذلك بالجهاد

وقال محمد بن إسحق عن بعض أصحابه عن عطاء بن يسار قال نزلت سورة النحل كلها بمكة وهي مكية إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أحد حين قتل حمزة رضي الله عنه ومثل به فقال رسول الله ﷺ « لئن أظهرني الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم » فلما سمع المسلمون ذلك قالوا والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط فأنزل الله (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) إلى آخر السورة ، وهذا مرسل وفيه رجل منهم لم يسم ، وقد روى هذا من وجه آخر متصل فقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا الحسن بن يحيى حدثنا عمرو بن عاصم حدثنا صالح المري عن سليمان التيمي عن أبي عثمان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه حين استشهد فنظر إلى منظر لم ينظر إلى منظر أوجع للقلب منه أو قال لقلبه فظفر إليه وقد مثل به فقال « رحمة الله عليك إن كنت ما علمت إلا وصولاً للرحم فعولاً للخيرات والله لولا حزن من بعدك عليك لسرتي أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع - أو كلمة نحوها - أما والله على ذلك لأمثلن بسبعين كمثلك » فنزل جبريل عليه السلام على محمد ﷺ بهذه السورة وقرأ (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) إلى آخر الآية ، فكفر رسول الله ﷺ يعني عن يمينه وأمسك عن ذلك ، وهذا إسناد فيه ضعف لأن صالحاً هو ابن بشير المري ضعيف عند الأئمة ، وقال البخاري هو منكر الحديث وقال الشعبي وابن جريج نزلت في قول المسلمين يوم أحد فيمن مثل بهم لثملن بهم فأنزل الله فيهم ذلك ، وقال عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه حدثنا هذبة بن عبد الوهاب الروزي حدثنا الفضل بن موسى حدثنا عيسى بن عبيد عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب قال : لما كان يوم أحد قتل من الأنصار ستون رجلاً ومن المهاجرين ستة فقال أصحاب رسول الله ﷺ لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لثملن بهم فلما كان يوم الفتح قال رجل لا تعرف قريش بعد اليوم ، فنادى مناد : إن رسول الله ﷺ قد آمن الأسود والأبيض إلا فلانا وفلانا - ناساً سبهم - فأنزل الله تبارك وتعالى (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) إلى آخر السورة فقال رسول الله ﷺ « نصبر ولا نعاقب » وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن فأنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل كما في قوله (وجزاء سيئة سيئة مثله) ثم قال (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) الآية . وقال (والجروح قصاص) ثم قال (فمن تصدق به فهو كفارة له) وقال في هذه الآية (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) ثم قال (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) وقوله تعالى (واصبر وما صبرك إلا بالله) تأكيد للأمر بالصبر وإخبار بأن ذلك لا يبال إلا بمشيئة الله وإعاقته ، وحوله وقوته ، ثم قال تعالى (ولا تحزن عليهم) أي على من خالفك فإن الله قدر ذلك (ولا تك في ضيق) أي غم (بما يَمْكُرُونَ) أي بما يجهدون أنفسهم في عداوتك وإيصال الشر إليك فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك ومظهرك ومظفرك بهم ، وقوله (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) أي معهم بتأييده ونصره ومعوته وهديه وسعيه وهذه معية خاصة كقوله (إذ نوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا) وقوله لموسى وهرون (لا تخافا إني معكما أسمع وأرى) وقول النبي ﷺ للصدّيق وهما في الغار « لا تحزن إن الله معنا » وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم كقوله

تعالى (وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) وكقوله تعالى (ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) وكما قال تعالى (وماتكون في شأن وماتتوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً) الآية ومعنى (الذين اتقوا) أى تركوا المحرمات (والذين هم محسنون) أى فعلوا الطاعات ، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلوهم وينصرهم ويؤيدهم ويظفرهم على أعدائهم ومخالفهم ، وقال ابن أبي حاتم ثنا أبى ثنا محمد بن بشار ثنا أبو أحمد الزبير ثنامسعر عن ابن عون عن محمد بن حاطب قال كان عثمان رضى الله من الذين اتقوا والذين هم محسنون . آخر تفسير سورة النحل والله الحمد والمنة وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

بعون الله تعالى قد سم طبع الجزء الثانى من تفسير الإمام الحافظ ابن كثير
ويليه الجزء الثالث إن شاء الله
وأوله تفسير سورة الإسراء والحمد لله
أولاً وآخرأ



فهرست الجزء الثانى ، من تفسير ابن كثير

صفحة	صفحة
٧٢ صفات المنافقين	٢ « تفسير سورة المائدة »
٧٥ تقوى الله سبب لتوسعة الرزق	٣ صيغة كتاب النبي ﷺ لعمر بن حزم
٧٧ عصمة الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم	حين بعثه إلى نجران
من الناس	٥ الاجماع على قتل المشرك إن لم يكن له أمان
٨٠ الحث على التوبة والاستغفار	ولو لجأ إلى البيت الحرام أو بيت المقدس
٨٢ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٦ فضل الصبر على الأذى
من الكبائر	٧ تفسير قوله تعالى (حرمت عليكم الميتة الخ)
٨٩ حكم كفارة اليمين	٨ المذاهب في حكم ما أمسكه كلب الصيد
٩١ تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام	١٠ الكلام على التطيعة
٩٢ ذكر الأحاديث الواردة في بيان تحريم الخمر	١١ الكلام على ما قنسل على النصب والاستقسام
٩٧ تحريم قتل الصيد في الحرم	بالأزلام
١٠٠ ذكر أقوال السلف في هذا المقام	١٣ الكلام على قوله تعالى (اليوم أكملت لكم
١٠١ إباحة صيد البحر وتحريم صيد البر للمحرم	دينكم) الخ
١٠٤ النهي عن كثرة السؤال لغير سبب	١٦ الأمر بقتل الكلاب
١١٠ الاشارة على الوصية	١٧ ذكر الآثار فيما أمسك كلب الصيد
١١٤ تفويض العلم إلى الله عز وجل	١٩ الكلام على قوله تعالى (وطعام الذين أوتوا
١١٤ تذكير الله سيدنا عيسى بنعمه عليه	الكتاب حل لكم) الخ
١١٥ نزول المائدة	٢١ تفسير آية الوضوء والتيمم
١١٦ ذكر أخبار عن السلف في نزول المائدة	٢٦ ذكر الأحاديث الواردة في غسل الرجلين
١١٨ ما أعده الله للصادقين	وأنه لا بد منه
١٢٢ « تفسير سورة الأنعام »	٤١ قصة قاييل وهابيل
١٢٦ النافع الضار هو الله وحده	٤٦ تحريم قتل النفس
١٢٨ الحث على العمل للآخرة	٥٤ حد السارق
١٣٦ لا يعلم الغيب إلا الله	٥٧ وجوب الرجوع إلى كتاب الله عند
١٣٧ بيان أن لكل آدمي حافظة من الملائكة	الاختلاف
١٤٤ الأمر بإقامة الصلاة	٦١ وجوب القصاص
١٤٥ النفخ في الصور	٦٤ ذم من لم يحكم بما أنزل الله
١٤٩ تبوء إبراهيم عليه السلام من الشرك وأهله	٦٥ الحث على المسابقة إلى الخيرات
	٦٩ صفات المؤمنين

- ١٥٢ تفسير قوله تعالى (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم) الخ
 ١٥٤ الأنبياء من ذرية سيدنا إبراهيم عليه السلام
 ١٥٦ المحافظة على الصلوات من صفات المؤمنين
 ١٥٨ الاهتداء بالنجوم
 ١٦٣ الأمر بالتسك بالقرآن والعمل به
 ١٦٨ إباحة أكل مما ذكر اسم الله عليه
 ١٦٨ الهى عن أكل مما لا يذكر اسم الله عليه
 ١٧٤ ارتياح الصدر وانشراحه للإسلام
 دليل على الهداية
 ١٧٥ دار السلام لأهل الإسلام
 ١٧٨ الله غنى عن العالمين
 ١٨١ الأمر بإيتاء الزكاة والنهى عن الاسراف
 ١٨٧ الكلام على قوله تعالى (قل تعالوا أتتل ما حرم ربكم عليكم) الخ
 ١٩٦ مضاعفة الحسنات
 ١٩٧ الأمر بالإخلاص لله
 ٢٠٠ « تفسير سورة الأعراف »
 ٢٠١ فلاح من ثقل ميزانه وخسران من خف ميزانه
 ٢٠٢ أمر الملائكة بالسجود لآدم
 ٢٠٢ امتناع إبليس من السجود لآدم
 ٢٠٣ طرد إبليس من الجنة
 ٢٠٤ توعده إبليس لبني آدم بالاغراء
 ٢٠٥ وسوسة إبليس لآدم عليه السلام
 ٢٠٨ تحذير بني آدم من كيد الشيطان
 ٢٠٩ الأمر بالتزيين بأحسن الثياب للصلاة
 ٢١١ تحريم الفواحش الظاهرة
 ٢١٤ ما أعد الله للمتقين
 ٢١٦ قصة أصحاب الأعراف
 ٢٢١ الأمر بالدعاء والتضرع إلى الله
 ٢٢٢ مثل المؤمن والكافر

- ٢٢٣ دعاء نوح عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده وتكذيبهم له وإغراقهم
 ٢٢٤ قصة عاد: قوم هود عليه السلام
 ٢٢٧ قصة ثمود: قوم صالح عليه السلام
 ٢٣٠ قصة قوم لوط عليه السلام
 ٢٣١ قصة قوم شعيب عليه السلام
 ٢٣٥ قصة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون
 ٢٥٠ صفات المتقين
 ٢٥٤ رسالة النبي محمد ﷺ عمت جميع الناس
 ٢٥٦ قصة أصحاب السبت
 ٢٦١ أخذ العهد على ذرية آدم بالتوحيد
 ٢٦٤ قصة بلعم بن باعوراء
 ٢٦٨ صفات المنافقين
 ٢٦٨ الدعاء بأسماء الله
 ٢٧٠ الحث على النظر في ملكوت السموات والأرض
 ٢٧٠ علم الساعة عند الله وحده
 ٢٧٣ لا يعلم الغيب إلا الله
 ٢٧٧ الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
 عن الجاهلين
 ٢٨٠ الأمر بالانصات عند تلاوة القرآن
 ٢٨١ الأمر بذكر الله والتضرع إليه في السر
 ٢٨٢ « تفسير سورة الأنفال »
 ٢٨٥ صفات المؤمنين
 ٢٩٣ النهى عن التولى يوم الرحف
 ٢٩٧ الأمر بطاعة الله وطاعة الرسول
 ٣٠٨ الله يقبل التوبة حتى من الكافر ويغفر له ما مضى من ذنبه
 ٣١٦ أمر المؤمنين بالثبات وبذكر الله عند قتال الكفار
 ٣١٧ تبرؤ إبليس من الكفار حين رأى الملائكة
 ٣١٩ تعذيب الكفار عند الاحتضار

صفحة

- ٣٢٠ المعاصي سبب لزوال النعم
 ٣٢٠ شر الدواب عند الله الكفار
 ٣٢١ الأمر بأعداد القوة لمحاربة الكفار
 ٣٢٢ تأليف قلوب المؤمنين
 ٣٢٤ حث المؤمنين على قتال الكفار
 ٣٢٥ إباحة الغنائم لرسول الله وللمجاهدين
 ٣٢٨ المهاجرون والانصار بعضهم أولياء بعض
 ٣٣٠ ما أعدده الله للمهاجرين والانصار
 ٣٣١ « تفسير سورة التوبة »
 ٣٣٢ تبرؤ الإله عز وجل ورسوله من المشركين
 ٣٣٥ الامر بقتال المشركين في جميع السنة ماعدا
 الأشهر الحرم
 ٣٣٧ محبة الله للمتقين
 ٣٤٠ شهادة الإله عز وجل لمن يعمر المساجد
 بالإيمان
 ٣٤١ ما أعدده الله للمهاجرين والمجاهدين في سبيله
 ٣٤٢ النهي عن اتخاذ الآباء والابناء والإخوان
 والازواج أولياء إن استحبوا الكفر على
 الإيمان
 ٣٤٣ نصر الله عز وجل للمؤمنين وتعذيب
 الكافرين
 ٣٤٦ تحريم دخول للشرك المسجد الحرام
 ٣٤٦ الامر بقتال اليهود والنصارى حتى يعطوا
 الجزية عن يد وهم صاغرون
 ٣٤٨ تنزه الإله عز وجل عن شرك اليهود والنصارى
 ٣٤٩ إتمام الله عز وجل لفور الإسلام ولو كره
 الكافرون
 ٣٤٩ تفسير ما جاء في قول الله عز وجل (هو
 الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق
 ليظهره على الدين كله) الآية
 ٣٥٠ أكل الأخبار والزهبان أموال الناس
 بالباطل وصددهم عن سبيل الله

صفحة

- ٣٥٠ وعيد مانع الزكاة
 ٣٥٣ عدد شهور العام
 ٣٥٧ الحث على الجهاد في سبيل الله
 ٣٥٧ وعيد من تباطأ عن الجهاد في سبيل الله
 ٣٥٨ نصر الإله لرسوله ﷺ
 ٣٥٩ الحث على الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال
 ٣٦٠ صفة المنافقين
 ٣٦٤ بيان الاصناف الذين تصرف إليهم الزكاة
 ٣٦٨ صفات المنافقين
 ٣٦٩ صفات المؤمنين
 ٣٦٩ ما أعدده الله للمؤمنين والمؤمنات
 ٣٧٠ الامر بمجاهد الكفار والمنافقين
 ٣٧٣ عقوبة من نقض العهد
 ٣٧٨ النهي عن الصلاة على من مات من الكفار
 ٣٨٠ ما أعدده الله للمؤمنين والمجاهدين في سبيله
 ٣٨٣ ما أعدده الله للمهاجرين والانصار والتابعين
 لهم بإحسان إلى يوم الدين
 ٣٨٥ الامر بإخراج زكاة الأموال والحث
 على التوبة
 ٣٨٧ مسجد الضرار
 ٣٩١ تفسير قول الله تعالى (إن الله اشترى من
 المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم
 الجنة) الآية
 ٣٩٢ صفات المؤمنين
 ٣٩٦ الحث على الصدق
 ٤٠٠ الحث على التفقه في الدين
 ٤٠٣ تفسير قوله تعالى (لقد جاءكم رسول من
 أنفسكم) الآيتين
 ٤٠٥ « تفسير سورة يونس »
 ٤٠٦ الامر بعبادة الله وحده دون سواه
 ٤٠٦ الإيمان بالبعث
 ٤٠٧ تفسير قوله تعالى : (هو الذي جعل الشمس
 صياء والقمر نوراً وقدره منازل) الآية

صفحة	صفحة
٤٦٠ أحوال السعداء والأشقياء	٤٠٨ دعاء المؤمنين في الجنة
٤٦١ الأمر بالاستقامة وعدم الركون إلى الظالمين	٤١٣ تفسير قوله تعالى (والله يدعو إلى دار
٤٦٢ الحسنات يذهبن السيئات	السلام) الآية
٤٦٦ « تفسير سورة يوسف عليه السلام »	٤١٤ تفسير قوله تعالى : (للذين أحسنوا الحسنى
٤٦٨ رؤيا يوسف عليه السلام	وزيادة) الآية
٤٦٩ تأمر إخوة يوسف طي قتله	٤١٧ عجز البشر عن الإتيان بسورة من القرآن
٤٧٠ مرادتهم لأبيهم على أخذه	٤٢٢ المؤمن النقي ولي الله
٤٧٢ التلقاات السيارة ليوسف من الحب	٤٢٨ تفسير قول الله عز وجل (وقال موسى
٤٧٣ قصة سيدنا يوسف مع امرأة العزيز	يا قوم إن كنتم آمنتم بالله) الآية
٤٧٦ دخول يوسف عليه السلام السجن	٤٢٩ إغراق فرعون وجنوده في البحر
٤٨٠ رؤيا ملك مصر وتأويل يوسف لها	٤٣٢ توبة الله عز وجل طي قوم يونس
٤٨٢ تولية يوسف عليه السلام على خزائن الأرض	٥٣٥ « تفسير سورة هود »
٤٨٣ مجيء إخوة يوسف إلى مصر للميرة	٤٣٥ الحث على الاستغفار والتوبة
٤٨٤ أخذ يعقوب عليه السلام الميثاق على بنيه	٤٣٦ تكفل الله تعالى لجميع خلقه بالرزق
٤٨٩ عفو يوسف عليه السلام عن إخوته	٤٤٢ أمر سيدنا نوح لقومه بعبادة الله
٤٩٠ اجتماع يوسف بأبويه وإخوته	٤٤٤ أمره عليه السلام بصنع السفينة
٤٩١ ثناؤه عليه السلام على ربه عز وجل	٤٤٥ حمله عليه السلام فيها من كل زوجين اثنين
٤٩٨ « تفسير سورة الرعد »	٤٤٥ جريها وإرساؤها باسم الله
٤٩٨ دلائل قدرة الله سبحانه وتعالى	٤٤٦ نداء سيدنا نوح ابنه
٥٠٩ صفات المؤمنين	٤٤٦ إرساء السفينة على البر
٥١١ وعيد من نقض العهد وأفسد في الأرض	٤٤٧ نداء نوح عليه السلام ربه
٥١٢ المؤمن يطمئن قلبه لله كره الله	٤٤٨ تفسير قوله عز وجل (يانوح اهبط
٥١٧ صفة الجنة	بسلام) الآية
٥١٩ الكلام على المحو والإثبات	٤٤٩ الأمر بالصبر ووعد المتقين بالفلاح
٥٢١ إنكار الكفار لرسالة النبي ﷺ	٤٤٩ أمر سيدنا هود عليه السلام لقومه بعبادة الله
٥٢٢ « تفسير سورة إبراهيم عليه السلام »	٤٤٩ الحث على الاستغفار والتوبة
٥٢٣ تفضيل الرسول صلى الله عليه وسلم على سائر	٤٥٠ أمر سيدنا صالح لقومه بعبادة الله
الرسل بصفات	٤٥١ قصة الناقة
٥٢٧ مثل أعمال الكفار	٤٥١ قصة سيدنا إبراهيم مع الملائكة
٥٣١ الكلام على قوله تعالى : (يثبت الله الدين	٤٥٢ مجادلة إبراهيم عليه السلام في قوم لوط
آمنوا بالقول الثابت) الآية	٤٥٣ قصة قوم لوط
٥٤٠ دعاء إبراهيم عليه السلام لمكة وأهلها	٤٥٥ قصة مدين : قوم شعيب

صفحة	صفحة
٥٨١ شهادة الرسل على أمتهم يوم القيامة	٥٤٥ « تفسير سورة الحجر »
٥٨٢ تفسير قوله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) الآية	٥٥٠ أصل خلقة الإنسان
٥٨٣ الحث على الوفاء بالعهد	٥٥٤ تبشير الملائكة إبراهيم عليه السلام بالولد
٥٨٤ الحظ على الصدقة	٥٥٥ إهلاك قوم سيدنا لوط عليه السلام
٥٨٥ سعادة المؤمن في الدنيا والآخرة	٥٦٠ « تفسير سورة النحل »
٥٨٩ الأمر بالأكل من الرزق الحلال الطيب	٥٦٤ تعدد منافع البحر
٥٩٠ ثناء الله على سيدنا إبراهيم عليه السلام	٥٧٤ تعدد منافع الأنعام
٥٩١ الأمر بالدعوة إلى الله بالحسنى	٥٧٥ إلهام الله للنحل باتخاذ البيوت
٥٩٢ فضيلة الصبر والحظ عليه	٥٧٥ منافع العسل
٥٩٢ فضيلة التموى والإحسان	٥٧٧ تفضيل بعض الناس على بعض في الرزق
	٥٧٧ نعمة الأزواج والبنين

تم الفهرست

